مصر وكنعان وإسرائيل
فى العصور القديمة

تأليف: دونالد ريدفورد
ترجمة: بيومى قنديل

المركز القومى للترجمة
الطبعة الثانية
598/2

أيًا كان العقل الذى بدأ منه عالم المصريات الكبير "دونالد ريدفورد" فى كتابه هذا، وأيًا كانت مركزياَته المسبقة التى ورثها عن ثقافته السائدة؛ فلقد قادته المعلومات التى بذل جهداً دءوبًا فى سبيل توثيقها، ومنهجه العلمى الصارم، إلى الاعتراف، على سبيل المثال، بأن قصة "الخروج" التى وردت فى العهد القديم من الكتاب المقدس، أصبحت بمثابة نموذج أصلى للخلاص ورمز للتحرر وجوهر الجواهر بالنسبة إلى ديانة عالمية كبيرة، إلا أنها، مع ذلك، أكثر الأحداث الرئيسية فى تاريخ بنى إسرائيل "مراوغة" كلما حاول المؤرخ الإمساك بتفاصيلها. ويضيف أن هذه الحادثة وقعت، كما يذهب الافتراض فى مصر. ومع ذلك، فالمصادر المصرية لا تعرف عنها شيئًا، بل ولا مصادر الحضارات المعاصرة فى المنطقة بأسرها من بابلية وحيثية وميتانية... إلخ، ويقر بأن الآسيويين استفادوا من/ونقلوا عن التطور التقنى فى مصر منذ المملكة القديمة. ويستدل على ذلك من المكانة البارزة التى أفردها المجمع المقدس فى فينيقيا لإله يُدعى "توت"، وهو ليس سوى إله الحكمة والكتابة عند المصريين القدماء. ويقول إن "بيبلوس" كسبت من مصر المملكة القديمة مكاسب أكبر فى مجال تكنولوجيا الهندسة والتصنيع؛ فلقد كانت الثورة التكنولوجية المصرية سريعة وشاملة خلال عصر بناة الأهرامات. ولا يجد العالم الكبير مفراً من الإقرار بأن العالم المأهول - وقت ذاك، أى خلال الأسرة الثامنة عشرة - "سجد عند أقدام مصر".

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن



مصر وكنعان وإسرائيل
فى العصور القديمة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 598/2
- مصر وكنعان وإسرائيل فى العصور القديمة
- دونالد ريدفورد
- بيومى قنديل
- الطبعة الثانية 2015

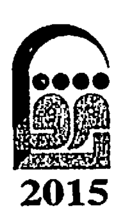
هذه ترجمة كتاب:
Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times
By: Donald B. Redford
Copyright © 1992 by Princeton University Press
Arabic Translation © 2015, National Center for Translation
No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage retrieval system, without permission in writing from the Publisher
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مصر وكنعان وإسرئيل

فى العصر القديمة

تـأليـف : دونالد ريدفورد
ترجمـة : بيـومى قـنديل



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ريدفورد، دونالد
مصر وكنعان وإسرائيل فى العصور القديمة / تأليف: دونالد ريدفور،
ترجمة: بيومى قنديل؛
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٥
٧٧٨ ص ؛ ٢٤ سم
١ - العالم القديم - تاريخ
(أ) قنديل، بيومى (مترجم)
(ب) العنوان
٩١٠

رقم الإيداع ٥١٨٥ / ٢٠١٥
الترقيم الدولى I. S. B. N- 978-977-92-0160-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

الجزء الرابع – مصر والممالك العبرية

مقدمة المترجم

يعد هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ الكريم الثانى فى سلسلة الكتب التى أنوى نقلها إلى اللغة العربية فى مصر، للعالم الكبير "دونالد ريدفورد" بعد "أخناتون.. ذلك الفرعون المارق" الذى أسرنى بمنهجه وموضوعه والمعلومات الجديدة التى توصل إليها العالم الكبير. إذ أعاد بناء المعابد الأربعة التى كان "أخناتون" أو "أمين – حوتب" الرابع، عاشر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة قد ابتناها وسهدمها عصر الإصلاح بعد رحيل أول من دعا إلى الوحدانية فى تاريخ البشرية. وغنى عن الذكر أن هذه الأسرة تمثل العصر الذهبى للحضارة المصرية، فهو العصر الذى شمل فيه "السلام المصرى" Pax Egyptiaca العالم المأهول وقت ذاك.

ويعد "ريدفورد" أحد أعظم علماء المصريات فى النصف الأخير من القرن العشرين، ومعرفته بمصر وثيقة. فلقد ترأس "مشروع معبد أخناتون" فى الفترة من ١٩٦٥ حتى ١٩٧٥، وهو المشروع الذى انتهى، بعد مجهود جبار إلى إعادة بناء معابد أخناتون الأربعة: "قرص – الشمس اهتدينا إليه" و "بيت حجر "البينبين"" و "ثابتة تلك هى آثار قرص – الشمس إلى الأبد" و " مبجلة تلك هى آثار قرص – الشمس إلى الأبد" نظريا، أى عبر تصوير كتل "التلاتات" وقصها استهداء بالمناظر التى تحملها الجداريات ولصقها، باستخدام الإمكانيات التى وفرتها تقنية الكومبيوتر. كما كان أحد ثمانية علماء قدموا لمؤتمر المصريات الدولى الثامن الذى انعقد فى القاهرة فى الفترة من ٢٨ مارس/برمهات إلى ٣ أبريل/ برمودة سنة ٢٠٠٠ إنجازات علم المصريات خلال القرن العشرين، كما أشرف بصفته رئيسًا للتحرير على "موسوعة أوكسفورد لمصر القديمة".

وكتاب "مصر وكنعان وإسرائيل فى العصور القديمة" يغطى مساحة شاسعة تمتد من العصر البين – جليدى الثالث والعصر الجليدى الرابع والأخير، أى منذ ما يتراوح

بين مائة وخمسين ألف سنة مضت حتى تدمير "أورشليم" على أيدى "نبوخذ نصر" فى سنة ٥٨٦ ق.م. ومعنى القول إن الكتاب يبدأ من نقطة يفتقر العالم الذائع الصيت إلى التخصص فيها: الآثار أى ما قبل التاريخ المدون. ويمضى بنا حتى يضرب فى أعماق تخصصه: حضارات الشرق الأوسط القديم، أى التاريخ المدون. لكنه يبذل محاولة جادة كى يسير كما ينبغى لعالم مثله، بخطى شديدة الحذر، فيما لم يتخصص فيه وفيما تخصص فيه على حد سواء، تاركا الحقائق الموضوعية والوثائق المحصة كى تقوده وتقودنا معه إلى نتائج حتمية، لا مناص من القبول بها، مهما خدشت عواطفنا أو اجترأت على ما نرى فيه من بديهيات راسخة. ولكن السؤال يظل قائما: هل تحقق لمحاولته تلك نجاح مطرد على امتداد الكتاب؟

فى الفصل الأول الذى حمل اسم "القرى والمخيمات ونهوض عملاق" يتوقف المؤلف أمام ما يسميه "إحدى أهم الغرائب فى القصة الطويلة للحضارة الإنسانية على سطح المعمورة"، ويقصد بذلك "التناقض الصارخ بين مصر فى الألفين الرابع والثالث ق.م. من ناحية وبين مصر الأخرى التى عرفناها عقب ذلك مباشرة، فيما تركه لنا مطلع عصر بناة الأهرام. فمع أن بضعة أجيال وحسب تفصل بينهما إلا أن فرقًا شاسعًا على مستوى التطور المناظر، مجتمعيًا وسياسيًا، ينهض بين هذه وتلك. ويتساءل المؤلف كيف يتأتى لنا أن نفسر هذه القفزة الهائلة؟

وفى محاولة للإجابة عن سؤاله، يمضى إلى القول، استنادا إلى آخرين: "إننا لا نحسب أنفسنا مخطئين إذا قررنا ما يلى : قذف عامل مساعد، فيما بين ٣٣٠٠ ق.م. و ٣٢٠٠ ق.م. على وجه التقريب والأولى مجموعة من العوامل، قرية العصر الحجرى الحديث فى مصر إلى مدارج التاريخ." لكن سيادته لا يبحث عن هذا العامل أو هذه العوامل فى الداخل، سواء كان هذا الداخل هو مصر ووادى النيل أو أفريقيا، بل يبحث عنه فى الخارج، وعلى وجه محدد فى آسيا الغربية، يقول:

"لا شك أن الإنسان احتل شمال أفريقيا على امتداد مئات الآلاف من السنين. ورغم أن نماذج الهياكل العظمية التى اكتشفت من العصور الحجرية القديمة،

الموغلة فى القدم قليلة للغاية، إلا أن نقطًا لا تعد ولا تحصى، وتجمعات ليثية أى حجرية من العصور الحجرية التالية قد اكتشفت سواء فى الصحارى أو على امتداد ضفاف النيل".

ويمضى إلى القول :

" يتمثل أحد الأسئلة البارزة التى تقلق مضاجع الذين يؤرخون لمصر فيما قبل التاريخ فى هذا السؤال : متى حدث ذلك التغير الأساسى فى الاقتصاد البشرى من التقاط الطعام إلى إنتاج الغذاء فى شمال شرق أفريقيا؟ هل كان ذلك التغير محليًا أو أن سكان وادى النيل البدائيين انتفعوا باستيراد حرفة الفلاحة من خارج واديهم ؟ "

ويجيب :

"يجب علينا أن نعترف فى هذا الصدد بأننا لم نهتد بعد إلى معلومات صلبة لا يرقى إليها شك عن تلك الحقبة الحاسمة التى تمتد إلى نحو ستة آلاف سنة ق.م. فى وادى النيل. وترانا ندخل ذلك العصر المعتم كى نجد "السبيليين" الذين يرجعون إلى عصر ما بعد الحجرى - القديم وقد توطنوا بصورة راسخة فى الوادى ، ونخرج منه كى نقابل تجمعات زراعية حجرية حديثة قائمة هنا وهناك فى سائر الأصقاع على وجه التقريب فى مصر. ويعد اقتصاد هذه القرى الصغيرة خليطًا غريبًا من وسائل فلاحة متقدمة نسبيًا ، وقد سادت على قاعدة من التماس القوت خلال قنص الحيوانات البرية وصيد الأسماك، وهو الأمر الذى يبدو معه على وجه التقريب وكأن الزراعة قد جلبت من الخارج إلى قناصين - لقاطين لم يبرهنوا إلا على عدم اكتراثهم بوصولها.

يتمثل الموطن الأمثل لاستئناس القمح والشعير والأغنام والمواشى فى ذلك النوع من الأراضى التى تكسوها الأشجار، مما يعرفه البحر المتوسط ونقابله فى الهلال الخصيب، وهو الأمر الذى أيده علم الآثار فى الوقت الحاضر. فأقدم مجتمع بشرى معروف نرى أنه مر بعملية بناء اقتصاد يقوم أولا على التقاط منظم للحبوب البرية،

ثم إنتاجها خلال الاستزراع ، كان يوجد فى فلسطين والضفة الغربية ولبنان فى الفترة التى تمتد ما بين عشرة آلاف وثمانية آلاف سنة ق.م. وهذه الثقافة أطلق عليها مؤرخو ما قبل التاريخ اسم الثقافة "الناتوفية"، نسبة إلى الموقع الذى ترجع إليه، ويقع شمالى "أورشليم" تماما، وتعد نتاجا لفصيلة بشرية دقيقة الجسم تتميز برءوس مستطيلة، مما نستطيع باطمئنان أن نصفه كـ "إنسان عاقل"... وعندئذ نستطيع أن نتحدث عن نوع من إنتاج الغذاء وعن اقتصاد يعتمد على فلاحة الأرض فى المراحل الأخيرة من الفترة "الناتوفية".

إذا ما استشعر المرء ضرورة أن يفسر شيوع مثل هذه التغيرات الكبرى مثل استحداث الزراعة بنظرية "الانتشار" فلسوف يغدو يسيرا عليه أن يسلم جدلاً بارتشاح تدريجى لهذا النوع من الاقتصاد إلى الخارج انطلاقا من موطنه الأصلى فى جنوب المشرق خلال الألف الثامن ق.م.

إلا أننا نقابل بعض المصاعب بالنسبة لمصر. وذلك ليس راجعًا وحسب إلى أننا نواجه فجوة يصل مقدارها إلى ثلاثة آلاف سنة، ولكن أيضا إلى أننا عندما نصادف مواقع راجعة إلى العصر الحجرى بعد الألف السادس ق.م. فإن المصدر الذى نستقى منه معرفتها (أى مصر) بالزراعة، يجب أن نبحث عنه، حسبما يزعم، فى الجنوب والغرب، عوضًا عن الشمال الشرقى. والحقيقة أن التدفق الديموجرافى (= السكانى) العام، وهو ما قد نستطيع رسم خطوطه البيانية خلال توزع مواقع العصر الحجرى الحديث فى وادى النيل وتسلسلها عبر الزمن، سوف يبدو كسهم ينطلق من الجنوب باتجاه الشمال وتأتى الصلة الأفريقية البارزة للكثرة الغالبة من السمات الأولى للثقافة فى العصر الحجرى الحديث فى مصر متمشية تماماً مع النمط المرسوم. ونذكر فى هذا الصدد، وعلى سبيل المثال، الرءوس المستطيلة والتعود على صنع المشغولات من العاج والتباهى بالأرداف الثقيلة وصنع أوانى الفخار وزخرفتها. *ومع ذلك لا يكاد العقل يصدق ألا تكون فلسطين التى لا تفصلها عن وادى النيل أكثر من مائة وستين كيلو متراً قد لعبت دورًا إلى هذا الحد أو ذاك فى وصول قدر ما من الدراية بالفلاحة إلى مصر.* (التأكيد من عندى - المترجم)

هنا أرى ضرورة أن نتوقف قليلاً أمام هذا الآراء التى أفصح عنها العالم الكبير. ولسوف أكثف ما أريد قوله ردا على سيادته فى خمس نقط وحسب. وبادئ ذى بدء يأسف المرء للصمت الذى لا يزال الدليل الأثرى يلزمه فى هذه النقطة التى تعود إلى ما - قبل - التاريخ رغم الحاجة الماسة إليه فى عملية الاستدلال سواء عند إثبات فرضية ما أو نفى نتيجة ما واضحة الإقحام. ولكننا نرجو أن تعوضنا فصاحة الدليل اللغوى، إلى هذا الحد أو ذاك، عن صمت الدليل الأثرى، ولو أنه صمت، فيما نأمل، مؤقت بظروف البحث العلمى فى المنطقة :

١ - كيف يتفق الارتشاح التدريجى الذى يقول به العالم الكبير - حسب نظرية الانتشار - لنوع من الاقتصاد يقوم على استحداث الزراعة إلى الخارج أى إلى مصر من موطنه الأصلى فى جذرب المشرق مع سيادة أسماء الحبوب وعلى رأسها "القمح" - راجع جداريات مقبرة "كاجمنى" فى "سقارة" - عوضًا عن الحنطة، والفواكة وبينها "التون" الذى أصبح "التين" بوجب قواعد الإمالة اللغوية و "التوت" و "الرمان" والزهور وفى مقدمتها "الورت" الذى أصبح "الورد" عندما أطاعت الكلمة قانون تحول المهموس Voiceless إلى المجهور Voiced فى لسان المصريين قدامى ومحدثين على حد سواء؟ (قارن: رفت - رفد، تمغة - دمغة، تانتيلا - دانتيلا.. إلخ).

٢ - كيف يعزى العالم الكبير إلى ذلك الارتشاح المفترض من غرب آسيا قدرة المصريين القدماء أو جانبًا منها فى أقل تقدير، على الانتقال من التقاط الطعام إلى إنتاج الغذاء اعتماداً على الزراعة دون أن يحوز دليلاً مادياً واحداً تحت يده على نقل المصريين القدماء أولئك لتقنية محددة تساعد فى عمليات الرى فى بيئة تعتمد على رفع مياه نهر النيل وفروعه مثل الشادوف أو الطنبور أو الساقية، ولم يجد فى جعبته سوى وجود "العديد من الأختام الأسطوانية الشكل التى ترجع صناعتها إلى بلاد الرافدين، بالإضافة إلى نماذج عديدة تحمل شواهد على استلهامها لوادئ الرافدين" (ص ١٨ من النص الأصلى) وغنى عن الذكر مدى التأثير "العظيم" لتلك الأختام الوافدة من غرب آسيا، كآية من آيات الحضارة الآسيوية الغربية التى وفدت إلى أرض "إيزيس" أو "الأرضين" فى إنتاج غذاء المصريين القدماء! أما إذا سلمنا بأن هذه الأختام تثبت قيام صلة بين هاتين البقعتين الجغرافيتين فإنها تترك فى نفس الوقت، سهم التأثر مفتوحًا

أمام أكثر من احتمال: أن يكون التأثر خارجًا من مصر، ما لم نكن ضحية تحيز مسبق بأن بلاد الرافدين كانت أرقى من بلاد مصر أو أن يكون مارا بهذه البقعة أو تلك وحسب أى قادمًا من طرف ثالث. ومعنى القول إن وجود الأختام الأسطوانية الشكل فى مصر لا يحسم القضية المطروحة ، وبالتالى فإنها لا تحتم بحد ذاتها ورود التأثر فى مجال الزراعة على وجه التحديد إلى مصر من غرب آسيا.

٣ - أقام جدودنا القدماء، منذ عصر الإمبراطورية أو المملكة القديمة مقياسًا لنهرهم العظيم أسموه "بير-حابى" أى بيت الإله "حابى" إله النيل، يقول عالم المصريات الألمانى الشهير "زيته" عنه، إنه كان قائمًا عند جزيرة "الروضة"(حاليًا). ويقول البعض إنه كان قائمًا عند "حلوان" ويقول آخرون عند "هيليوبوليس" (= أون) ولكن اتفاقًا يجمعهم بأن المقياس كان قائمًا فى زمام "منف" التى كانت تعد وقت ذاك أول مديرية من مديريات الوجه البحرى. ولقد تم للمصريين جدودنا بناء مقياسهم ذاك دون حاجة إلى أى تقنية أجنبية، سواء من بلاد الأختام أو غيرها من بلدان العالم القديم والأولى أقوامه الذين كانوا واستمروا لأوقات طويلة لاحقة فى طور الترحال، فى الوقت الذى كانت فيه مصر قد بلغت أرقى ذرى الاستقرار وبالتالى الحضارة الإنسانية كما عرفها العالم المأهول وقت ذاك. وليس أدل على ذلك من ميل المصريين إلى نسبة الشخص إلى الأرض، مثال "إم - حب" أى الحبناوى نسبة إلى إقليم "حبن"، واسمه الكامل هو "حور - إم - حب" الذى اختتم الأسرة الثامنة عشرة أو بدأ الأسرة التاسعة عشرة، عوضًا عن نسبة الأرض إلى الشخص، مثال: "أور - كلدان" أى مدينة الكلدانيين.

٤ - كيف يملك عالمنا الكبير كل تلك المعلومات الموثقة حول الصلة الوطيدة بين المصريين والأفارقة أى بين المصريين القدماء وقارتهم أفريقيا، بل ويغامر بسردها أمام ناظرى القارئ الكريم: الرءوس المستطيلة وصنع أوانى الفخار وزخرفتها والتباهى بالأرداف الثقيلة .. إلخ، ومع ذلك يخلص من هذه المعلومات إلى هذا القول:

"ومع ذلك لا يكاد العقل أن يصدق ألا تكون فلسطين التى لا يفصلها عن وادى النيل أكثر من مائة وستين كيلو مترًا قد لعبت دورًا إلى هذا الحد أو ذاك فى وصول قدر من الدراية بالفلاحة إلى مصر".

ويكتفى بوصف تلك المعلومات بأن أصحابها يزعمونها، فى حين أن سيادته يعرف، ولا ينبغى لمثله ألا يعرف، أن المعلومات تستجيب إما للتسليم أوالتشكيك، ولكنها لا تفهم السخرية منها أو من أصحابها. فالسخرية ليست حجة وليست حجة مضادة.

والآن: ترى إلى أى شىء استند عالمنا الكبير فى صوغ هذه النتيجة الضخمة التى تفتقر إلى قدمين قويتين؟ وما هو ذلك العقل الذى لا يكاد يصدق ألا يكون لفلسطين، وتحديدا شمالى "أورشليم" القريبة من وجهة نظره دور أو آخر فى استحداث حرفة الفلاحة فى مصر، إلا أن يكون "عقلاً" وقع فى هذه اللحظة بالذات فى أسر المركزية - السامية Semito-Centrism وهى نفس المركزية التى تكمن وراء تأكيد سير "والاس بادج" فى مقدمة كتابه المعنون "اللغة المصرية: دروس مبسطة" : Egyptian Language Easy Lessons بوفادة نسق الكتابة الهيروغليفية الذى يقوم على علامات صورية "إلى مصر من شمالها الشرقى أو أواسط آسيا على أيدى بعض الغزاة". وهو قول رد عليه مواطنه أى مواطن "بادج" سير "آلان جاردنر" صاحب "النحو المصرى" Egyptian Grammar بأن "كافة النباتات والطيور والحيوانات التى استخدم المصريون القدماء صورها فى نسقهم ذاك مصرية صميمة وليس بينها نباتات أو طيور أو حيوانات من خارج البيئة الطبيعية المصرية"، وهو الرد الذى لم يترك مجالاً بعد ذلك لأى لجج آخر فى هذه النقطة.

٥ - أما كان الأجدر والأكثر منطقية أن يؤثر أولئك "الناتوفيون" الذين يضعهم "ريدفورد" شمالى "أورشليم" تمامًا فى الألف الثامن ق.م. أحفادهم اللاحقين فينقلوا إليهم حرفة الفلاحة التى توصلوا إليها قبل أن يحملوها إلى "قناصين - لقاطين" فى مصر عبر مائة وستين كيلو مترا فى ذلك الزمن القديم الذى كان لا يزال يجهل وسائل نقل سريعة وفعالة. ثم وهذا هو الأدهى: هل لم يبرهن هؤلاء القناصون - اللقاطون حقًا وصدقا إلا على عدم اكتراثهم بوصولها؟

إذن ما هو السر فى أن تحكى الأساطير المقدسة التى أنشأها أحفاد "الناتوفيين" من الآسيويين الغربيين عن المجاعات إثر المجاعات فى غرب آسيا، وأن تمضى هذه

الأساطير كى تقول إن الجياع لم يتخذوا سوى مصر قبلة لهم باستمرار فى سبيل إطفاء جوعهم دون بلاد الأختام؟

ولكن إذا كان الأمر كذلك فما هو سر احتفالى بالكاتب والكتاب، على نحو ما يتضح من انكبابى على نقله إلى اللغة الرسمية فى مصر والبلدان المحيطة؟

جوابا على هذا السؤال أقول:

يتميز العالم الكبير "ريدفورد" بميزات أساسية يكاد ينفرد بها بين زملائه أود أن أوجزها فيما يلى:

أولاً : لا يهمل المعلومات التى تعارض وجهة نظره بل ويحيل القارئ إلى مصادرها الأولى فى هوامشه وتعليقاته، أى أنه لا ينتقى من المعلومات ما يؤيد وجهة نظره وحسب. ونراه يقول على سبيل المثال:

"ولكن "بيبلوس" (التى تقع عند نقطة أقرب كثيرا إلى "شمالى "أورشليم" من مصر) كسبت من مصر مكاسب أكبر فى مجال التكنولوجيا الهندسية والتصنيع. فلقد كانت الثورة التكنولوجية المصرية سريعة وشاملة خلال عصر بناة الأهرامات. وتعكس التقاليد الشفاهية اللاحقة، بصورة لا تخطئها أذن، هذه الحقيقة. فبعد ألف وخمسمائة سنة، أى فى القرن الحادى عشر ق.م. رددت الروايات أن أميرًا "بيبليا"(نسبة إلى "بيبلوس") اعترف لمبعوث مصرى أن ("أمون" ملك الآلهة فى المملكة الحديثة خلق كل البلدان، ولكنه خلقها، وحسب، بعد أن خلق أرض مصر التى جئت منها، إلا أن المهارات الفنية انتشرت من هناك حتى وصلت هذه الأرض التى أقف عليها الآن.) (ص٤٠ من الكتاب الأصلى).

وفى موضع آخر يقول:

"لقد أفرد المجمع الإلهى الفينيقى مكانة بارزة لإله يدعى "توت"، وهو ليس سوى إله الحكمة والكتابة عند قدماء المصريين الذى عرفوه باسم"جحوتى" ثم "تحوتى" ثم "توت" ويقال إن إله الحرف عند الكنعانيين "كوثر" كان يتخذ مقره فى "حوت – كا – بتاح" أى "منف" (ص ٤٠٨ من الكتاب الأصلى).

ثانيًا : لا يشتط فى صوغ نتائجه، بل يلزم الحذر بل والتردد باستمرار عند الوصول إلى نتيجة محددة وفى أحيان ليست بالقليلة نجده يترك السؤال الذى حاول تقديم إجابة عليه مفتوحًا. ومعنى القول إن العالم الكبير لا يركب رأسه مثلما يفعل شخص مثل "عمانوئيل فيليكوفيسكى" هو ومريدوه ومنتحلوه حتى من أبناء جلدتنا، ولا يلوى مثله عنق الحقائق كى يخدم غرضا ما، كما إنه لا يخلط بين الأنساق المعرفية ولا يسعى إلى توظيف العلم كى يفسر مفردات الأساطير، بل يستنكر ذلك بصراحة لا لبس فيها ولا غموض. وإذا كنا نختلف معه فإننا نختلف مع عقله وليس مع ضميره. فالعالم يخطئ؛ أما المتعالم فيرتكب خطيئة.

ثالثًا : لا يمتدح بنى إسرائيل إلا لأسباب قوية، لا يملك أحد سواء أكان مناصراً أو معاديا لهم أن يفلت من الإقرار بقوتها. فإذا قال إن "دستورهم" كان ديمقراطيًا، نظرا لأن الشريعة الموسوية تقضى بتحرير العبيد كلية فى السنة السابعة من رسوفهم فى الأغلال، فليس هناك فى ظنى من يستطيع أن يخلص إلى نتيجة أخرى خلاف النتيجة التى خلص إليها العالم الكبير ويظل محتفظا بنزاهته وعدالته. وأحسب ألا نكران هناك فى أن النزاهة والعدالة قيمتان مطلقتان.

وهذا هو الموقف نفسه الذى يملى على العالم الكبير أن يقول باطمئنان عن قصة "الخروج" :

"لقد أصبحت بمثابة نموذج أصلى للخلاص ورمزًا للتحرر وجوهر الجواهر لديانة عالمية كبيرة. ومع ذلك فهى تظل بالنسبة للمؤرخ أكثر الأحداث الرئيسية فى التاريخ الإسرائيلى مراوغة كلما حاول الإمساك بتفاصيلها، فمن المفروض أن هذه الحادثة وقعت فى مصر، ومع ذلك فالمصادر المصرية لا تعرف عنها شيئا" (ص ٤٠٨ من الكتاب الأصلى).

وفى الفصل الحادى عشر نراه يقول:

"يجد كاتب هــذه السطور من الصـعـب عليـه أن يقبـل زواج المـلك سليمـان من ابنة فرعون وهو الزواج الذى تحكى عنه أسفار التوراة بصفته واقعـة تاريخية." (ص ٣١١ من الكتاب الأصلى).

خلاصة القول: إن العالم الكبير "دونالد ريدفورد" يحتفظ بدرجة عالية من الموضوعية سواء فى مدحه أو نقده. وتلك درجة من النزاهة بل والشجاعة مما يجدر أن نحمده للكاتب والكتاب فى آن واحد ويوفر سبباً قوياً لنقل الكتاب إلى اللغة العربية.

إيضاحات :

- نحوت نحو رسم الأسماء المصرية القديمة مورفومياً على هذا النحو : «حور – إم حب» عوضاً عن "حور محب" التى تحتاج من القارئ أن يفهم كى يقرأ وليس العكس وكذلك "أحموسى" الذى يعنى "ابن القمر" بدلاً من "أحمس" الشائعة بين الناس . وهلم جرا .
- لجأت إلى رسمين لاسم «الفلسطينيين" هذا الرسم المعتاد ورسم آخر هو "فلاسطينيون" وذلك مقابل Philistines – أى الفلسطينيين الذين قدموا من جزر بحر أيجة ، قبل أن يتساموا أى يصبحوا ساميين فى أرض "كنعان" .

شرح لوحتى الغلاف :

اللوحة العلوية :

رتل من الأسرى الآسيويين الذين جلبهم إلى مصر "خنوم – حوتب" الثالث ناظر القبائل الشرقية . ويشير النقش فوق رءوسهم إلى أن الرتل يضم ٣٧ أسيراً بالإضافة إلى قائدهم الذى يسير فى المقدمة ويدعى "إبشا" . وقد ظهر المنظر فى مقبرة "خنوم–حوتب" الثالث فى مقابر "بنى حسن" بالضفة الشرقية لنيل محافظة المنيا ، وترجع اللوحة إلى المملكة الوسيطة .

اللوحة السفلية :

تصور وصول عائلة آسيوية إلى مصر. "مقابر بنى حسن" الأسرة الثانية عشرة .

تمهيد

يعد هذا العمل (الذى بين يدى القارئ) بشكل عام، عرضًا شاملاً للعلاقات بين مصر وآسيا الغربية من أقدم العصور حتى تدمير مدينة "أورشليم" فى سنة ٥٨٦ ق.م . ومثلما هو الحال فى حالات أخرى مماثلة من التسجيل، يجمد النشر وجهة نظر معينة من الناحية الزمنية، فى حين أن تقارير جديدة كانت قد وصلت حول موضوعات كان المؤلف قد اقتنع فى خريف سنة ١٩٨٩ بأن عرضــه لها كان، بصفة عـامة، دقيقًا . ولقد بذل المؤلف جهداً فى سبيل تضمين الإضافات الأكثر أهمية إلى المناقشات الجارية على صفحات هذا الكتاب، ولكنه سها، حتماً، عن بعضها.

يستحق عدد من الأشخاص منى شكراً من أعماق الفؤاد للعون الذى منحوه للمؤلف: زوجتى سوزان لما قامت به من أعمال جرافيكية ورسم الخرائط، وجى. ممفورد، وإس. شوبيرت، وبى. سودتكه لنسخ المخطوط وبحثه البيليوجرافى المتنوع، والعديد من الزملاء لنصائحهم الحصيفة، بينهم كل من جيه.إس. هو لاداى، وجى. إى. أورين، وإس. أهيتوف، ودبليو. مرنان، وإى. آر. شولمان، وجى. دبليو. ألستروم، وجيه. فان. سيتيرز. ولسوف يجفل كل هؤلاء، ولعلى على ثقة من ذلك، إذا كان هذا الامتنان ليعنى أنهم مسئولون عن أى رأى بسطته هنا، ولذلك فإننى أسارع إلى التأكيد، على أن الأمر لا ينبغى له أن يفهم على هذا النحو. وأخيراً فإننى أسوق تقديرى الحار إلى طلاب الحلقات الدراسية والمحاضرات، ممن يتعذر تسميتهم فرداً فرداً، الذين حاضرتهم على امتداد السنوات العشر الأخيرة، وذلك لأنه بدون النقاش الساخن داخل حجرات الدراسة لا تزدهر الدراسات العلمية.

تقديم

تحمل الرقعة التى تصل مساحتها إلى ١٢ ألف كيلو متر مربع التى تقع شمال سيناء، وتفصل بين إسرائيل الحديثة والأردن عن دلتا وادى النيل، بصفة مستمرة للمؤلف (دونالد ريدفورد) ثلاث ذكريات متميزة مغروسة بصفة دائمة فى وعيه. ترجع الأولى منها إلى يوم ٦ يونيو / بؤونة سنة ١٩٦٧، عندما حالت أنباء الصباح المفزعة بينه وبين الصعود، فى آخر لحظة، إلى متن الطائرة المتجهة إلى القاهرة بعد أن كان قد حصل على تصريح من السلطات لدراسة النقوش الموجودة على المناجم المصرية القديمة فى سيناء. والذكرى الثانية عبارة عن رحلة لا تنسى فى نفس السنة، عبر "غزة" و "خان يونس" على امتداد ساحل البحر المتوسط فى طريقنا لدخول مصر من جهة الشرق. أما الذكرى الأخيرة فتأتى من ليلة أثقل الحر هواءها بعد ذلك بثمانى سنوات، حيث قضيتها ساهرًا حتى بزوغ الفجر،على سطح البيت الذى يقيم فيه قائد قوات الأمم المتحدة فى مدينة "الإسماعيلية"، كى أراقب صعود نجم "سيروس" (= الشعرى اليمانية) قبيل شروق الشمس على الأفق الشرقى لسيناء.

ولعله من المثير للاندهاش أن رقعة الأرض فى شمال سيناء، لم تكن هى التى تركت، عند التذكر الأولى، ذلك الانطباع الذى لا يمحى. فمرأى كثبان الرمال المنحدرة المتموجة تحت أفق غائم فى غبش الضباب ليس مما يعلق طويلاً بالذهن، فعلى النقيض من الجبال المهيبة فى جنوب سيناء أو ساحل البحر الأحمر من جهة مصر، نجد أن تلك الكيلومترات المائة والخمسين التى تقوم بين مدينة "بورسعيد" و "غزة" مبهمة الملامح وغير جذابة. ونستطيع أن نتفهم تمامًا إذا ما صادف المسافر بين مصر وفلسطين الانحدار البطىء لذلك الشريط الساحلى غير المريح وآثر، عوضًا عنه، طريق البحر. وقد يتصور المرء أن البدو وحدهم هم الأكثر تأهيلاً، فيما يبدو، لاجتياز رمال سيناء.

ومع ذلك تناقضت طبيعة شمال سيناء مع أهميتها فى العصور القديمة ومع ضرورة استخدامها كممر عبور. فهنا لا نجد أنفسنا على الدرب الذى يوصل إلى إقليمين محليين هما مصر والمشرق وحسب، بل أيضًا وبصفة أكثر خصوصية على القنطرة التى تربط بين قارتين كبيرين: آسيا وأفريقيا . ومنذ عصور ما قبل التاريخ السحيقة كان المهاجرون والقوافل والجيوش والحجاج والهاربون يعبرون هذه القنطرة وقل العتبة فى كلا الاتجاهين، حاملين معهم السلع والأديان والثقافات. ولقد انتقلت عبر هذا الممر الضيق، ذهابًا وإيابًا، الأشياء والأفكار التى ترجع إلى مسافات بعيدة تصل فى بعدها إلى أفريقيا السوداء وسهوب روسيا والشرق الأقصى، تاركة آثارًا لا تخطئها عين، ليس على دروب العبور وحدها بل وكذلك على السكان المقيمين على هذا المعبر ذاتهم.

ورغم ذلك فهؤلاء السكان يتمتعون بأصول تثير الإعجاب فى حد ذاتها. ففى وداى النيل ظهرت قبيل سنة ٣٠٠٠ ق.م. أول دولة – أمة فى العالم تزينها كافة مظاهر الرقى التى تميز الحضارة. وفى غضون القرون الأربعة الأولى من بزوغها إلى النور، ضربت ثقافة قومية بجذورها فى أعماق تربتها، عبرت عن نفسها على صعيد الآداب والميتافيزيقا وصاحب ذلك معمار كامل الأركان رفيع المستوى لا يزال أعجوبة العالم حتى اليوم.

كان الدوام والثبات أبرز العلامات التى تميز حياة المصريين القدماء: تغيرت اللغة والكتابة والديانة والأيقونات التى عرفتها حضارة وادى النيل هذه خلال العصر المسيحى بدرجة أقل مما كان متوقعًا من بداياتها الأولى قبل ذلك بثلاثة آلاف سنة. فلقد بدت "مملكة الأرضين غير قابلة للتغيير". ولكن الأمر كان خلاف ذلك على الجانب الآخر. فهنا، حتى وحدة البلاد، على المستوى الجغرافى أو السياسى، ظلت أملاً لم ير النور إلاّ لمامًا. ولقد أطلق المصريون عليها اسم "ريتينو" أو "خارو" وأسماها السوريون خلال الألف الثانى ق.م. "كنعان" والعبرانيون " إسرائيل"، أما اليونانيون والرومان اسم "فلسطين" Palestina ، إلاّ أن "الأرض المقدسة" استمرت على امتداد القرون بلادًا لا تكشف عن وحدة متأصلة أو أصالة ثقافية. فلقد كانت حقًا عتبة، لطالما شهدت تناضحًا (انتشارًا بالتنافذ الغشائى – المترجم) عرقيًا على امتداد خمسة آلاف سنة

من التاريخ المدون؛ تتحرك دخولاً وخروجًا، تجمعات متعددة من أربعة أركان الدنيا، كى تقيم فيها لمدة وجيزة. ولقد أحضر كل منها سمات ثقافية جديدة وأفكاراً تنشد الذيوع، ولكن أقلها رضى بالاستمرار فى البلاد كثقافات راغبة فى التكامل مع ثقافة المكان.

كان المجتمعان القائمان على جانبى هذه العتبة التى تفصل بين قارتين – واستمرا – متباينين بصفة أساسية على المستوى الثقافى إلى الحد الذى يحول دون أى استعارة جوهرية يقوم بها أحدهما من الآخر، ودع عنك قيام أى توفيقية ثقافية بينهما. وعلى نحو ما كان المصريون ليصوغونها، استباقًا لمقولة للشاعر الإنجليزى المشهور "رديارد كبلنج": "الشرق شرق والغرب غرب"، فسيقان البردى لا تنمو فى الصحراء ولا يزدهر الصبار على ضفاف النيل. وعلى نطاق أوسع برهنت حدود سيناء على صعوبتها كمعبر سواء للسلع أو الأفكار التى تأتى من مناطق أبعد. وقد تكون كل من "بابل" و "بيبلوس" قد وقفت كمفترق طرق أمام عبور (= ترانزيت) القوافل من البحر المتوسط إلى "البنجاب"، ولكننا لا نستطيع أن نقول نفس الشىء أبدًا عن "برية إله القمر: سين"؛ وذلك لأن مصر احتفظت لنفسها، بصورة ناجحة، خلال الشطر الأكبر من الآلاف الأربعة التى يغطيها هذا الكتاب بنوع ما من دور "حارس السويس" Wacht am Suez .

ومع ذلك كان السكان الذين تفصل بينهم سيناء يعون بوجود جيرانهم على الجانب الآخر، ولم يكن فى وسع حضور الآخرين إلاّ أن يؤدى إلى تفاعل ما حتى ولو عمل الطرفان على تجنب أى اقتباس قد يقوم به أحدهما من الآخر. وقد تكون مصر وآسيا قد نظرت كل إلى الأخرى بنوع ما من التوجس والريبة اللتين سعتا، بصورة واعية، نحو الحيلولة دون أى تفاعل متبادل، ولكن الأمر لم يخلُ مع كل ذلك من انتقال مؤثرات متميزة.

يهدف هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ أول ما يهدف إلى التأريخ بصفة استقرائية وسع الإمكان لطبيعة ومدى العلاقة التى قامت بين مصر والمناطق القريبة من آسيا الغربية خلال الفترة التى يغطيها هذا العمل وتمتد لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، كما يهدف ثانى ما يهدف، إلى استقصاء الأسباب التى قد تكون قابلة للاستخلاص استنادًا

إلى الأدلة التى لا تزال قيد البقاء. وتكشف المقارنة مع الجهود السابقة فى هذا المجال عن أن هذه المحاولة محفوفة بخطر حاد : هناك "سلا" (= صخرة خطرة على الجانب الإيطالى من مضيق مسينا - المترجم) وهناك أيضًا "كاريبديس" (= دوامة قبالة ساحل صقلية شخصها القدماء كإحدى الوحوش الإناث - المترجم)، وبينهما يدير الباحث دفة بحثه. فليس مطروحًا بحال من الأحوال أن يسمح تحيز مسبق لصالح نوع من "الجامعة المصرية" Pan Egyptianism أو موقف يقوم على مبدأ "إسرائيل - أولاً" بأن يفرض على الأدلة أن ترقص على نغمته. وإذا حدث، على سبيل المثال، أن تركت أعمال الحكمة المصرية آثارًا عميقة على الأدب العبرى أو أن جاء أقدم "دستور" عبرانى "ديمقراطيًا"، فإن ذلك ينبثق فى ظل بسط الحقائق أو طرح النموذج. إذ يلزم المرء ألا يتحول إلى محامٍ ينافح عن شعب قديم يشكل تاريخه وثقافته النسق الذى يحمله ذلك المرء.

أما التأريخ فموضوع لا نستطيع مناقشته باستفاضة فى هذا الكتاب، ولكننا لا نستطيع تفادى بضع كلمات فى إطار شرحه. فبالنسبة للفترة التى تصل حتى مستهل الأسرة الثامنة عشرة، نقابل اختلافًا جوهريًا بين الدارسين - ولقد وفر عدد من الوسائل (بينها كربون - ١٤) مؤشرات لا تزال تواصل الاقتراب باستمرار، ومع ذلك فالجدال لا يزال محتدمًا حول المملكة الحديثة وإن كان على نطاق أضيق. وهذا الكتاب يتبع ما يسمًى بالتأريخ العالى (يرتقى معه الفرعون "تحوت - موسى" الثالث العرش فى سنة ١٥٠٤ ق.م.) مع أننا بتنا متأكدين الآن من أن إجماع العلماء يفضل التأريخ المتوسط أو الأدنى (فيرتقى بموجبه نفس الفرعون العرش فى سنة ١٤٩٠ أو ١٤٧٩ ق.م. على التوالى)[1]. أيًا كان الأمر، فـ "التأريخ عن طريق الإجماع" يستحضر نماذج مضحكة من الماضى، إلاّ أن الاختيار الحالى للتواريخ العالية يوفر إطارًا تقليديًا، وإن كان مؤقتًا لتأريخ المملكة الحديثة، وهو تأريخ قابل للتعديل، كلية، نتيجة للاكتشافات التى قد يأتى بها المستقبل.

(١) P. Ahström, "High, Middle or low?" in acts of an International colloquium on Absolute Chronology held at the university of (Gothenberg. 1987).

الجزء الأول

مصر والمشرق من عصور ما قبل التاريخ إلى الهكسوس

الفصل الأول

القرى والمخيمات ونهوض عملاق

تتمثل إحدى أهم الغرائب فى القصة الطويلة للحضارة الإنسانية على سطح المعمورة فى التناقض الصارخ بين مصر فى الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد وبين مصر الأخرى التى عرفناها عقب ذلك مباشرة، فيما تركه لنا مطلع عصر بناة الأهرام. فمع أن بضعة أجيال وحسب تفصل بينهما، إلاّ أن فرقًا شاسعًا على مستوى التطور المناظر، مجتمعيًا وسياسيًا، ينهض بين هذه وتلك. فعلى النقيض من وادى الرافدين (دجلة والفرات) حيث يكشف المجتمع الإنسانى على امتداد آلاف السنين فى عصور ما التاريخ عن تطور رأسى بمعدل ثابت لا يتغيّر، وحيث تبشّر المعابد فى مدينة "أوروك" Uruk بروائع القرون السومرية، قفزت مصر ما بين عشية وضحاها، من العصر الحجرى، على نحو ما كانت عليه، إلى حضارة حضرية نسبة للحضر أى المدن، تامة الريش: حلت المبانى العالية محل أكواخ الطين والأولى الأخصاص، وأزاحت إدارة مدنية سلطة شيوخ القرى. وملأت بؤرة جديدة راقية من التنظيم الإنسانى، الفراغ الذى لم يكن يعرف سوى المشيخات بين الحين والآخر: جلس ملك – فرعون على عرش مصر.

كيف يتأتى لنا أن نفسِّر هذه القفزة الهائلة quantum leap ؟

لطالما انطرح هذا السؤال إلاّ أنه لم يتلق أى إجابة شافية. وقد تحتاج مشكلتنا هنا، بطبيعة الحال، إلى أدلة كافية. إذ يستمر ما قبل التاريخ المصرى، رغم خضوعه لبحث مكثَّف منذ الحرب العالمية الثانية، فى الكشف عن أدلة متفرقة حول بعض المناطق، والضن بأى دليل بشأن "فجوات" ضخمة، الأمر الذى يحول بيننا، بصفة إجمالية، وبين التوصل إلى قوانين عامة فى هذا الصدد. ومع ذلك فإننا لا نحسب

أنفسنا، على وجه الإجمال، مخطئين إذا قررنا: فيما بين ٣٣٠٠ و ٢٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب قذف عاملُ مساعدُ وبالأولى مجموعة من العوامل، قرية العصر الحجرى إلى مدارج التاريخ[١].

العصر الحجرى فى مصر وفلسطين:

لاشك فى أن الإنسان احتل شمال شرق أفريقيا على امتداد مئات الآلاف من السنين. ورغم أن نماذج الهياكل العظمية التى اكتُشفت من العصور الحجرية القديمة، الموغلة فى القدم قليلة العدد للغاية، إلاّ أن نقطًا لا تُعد ومراكز لا تُحصى، من العصور الحجرية التالية قد اكتُشفت سواء فى الصحارى أو على امتداد ضفاف النيل. ولقد مكّن الفحص الدقيق لهذه الآثار إلى جانب السجلات المحفوظة سواء لحيوانات تلك العصور أو ظروفها المناخية، الدارسين من رسم الخطوط العمومية للطبيعة العامة لمجتمع العصر الحجرى القديم وبيئته الطبيعية. وفى غمار هذه العملية، صوّبوا الآراء الخاطئة التى كان دارسون سابقون قد أفصحوا عنها، وهى الآراء التى ظلت حتى وقت قريب تسيطر على نظرة غير المتخصصين إلى أفريقيا فيما قبل التاريخ[٢].

يعد نهر النيل الحديث سليل نهر قديم يرجع إلى ما قبل التاريخ ؛ وبالتحديد إلى أصول ضاربة فى العصر "البلايستوسينى" Pleistocene أى الجليدى الأخير. وكان ذلك النهر قد نحت حوضه فى الهضبة الصخرية الواقعة فى شمال شرق أفريقيا قبل ذلك العصر بما يصل إلى خمسة ملايين سنة[٣]. وخلال الخطوات الأربع الواسعة التى خطتها قشرة الجليد على وجه نصف الكرة الشمالى خلال المليون سنة الأخيرة، كانت التذبذبات المصاحبة لذلك فى كمية المطر على المنطقة، مسئولة عن سلسلة الارتفاعات والانخفاضات المتناوبة، الواحدة إثر الأخرى فى جريان النهر. ونستطيع تمييز هذه الارتفاعات والانخفاضات اليوم بثمانى حواف واضحة لوادى النيل، وهى الحواف التى يكشف عنها عددٌ مماثل من "المصاطب" فى الجروف الصخرية التى تمتد حتى الصحراء الشرقية وتلك الغربية. وعلى المصاطب الثلاث الأقل انخفاضاً، وكل مصطبة منها تمثّل إحدى الضفاف القديمة للنهر وقت الفيضان؛ عثرنا على أقدم أدوات

صنعتها يد بشرية في وادي النيل. ولقد أمدتنا المصطبة السادسة من أعلى، أي عندما يتراوح الارتفاع بين ٢٤ و ٢٧ مترًا عن المستوى الحالي لمفيض الفيضان floodplain ، بمجاميع من البلط (جمع بلطة) اليدوية الخشنة، من النوع الكمثرى الشكل، المعروف باسم الأخيلي Acheullian، الذي نصادفه على امتداد رقعة واسعة تشمل أوروبا ومعظم شمال أفريقيا وآسيا؛ ويرجع تاريخه في العادة إلى العصر الـ "بين - جليدى" الثانى[٤] interglacial ورغم أن مصر لا تقدم لنا إلاّ عونًا محدودًا في هذا الصدد ؛ إلاّ أن الاكتشافات التي وقعنا عليها في مناطق أخرى في أفريقيا تشير إلى أن نوعًا شبه بشرى والأولى كبَشرى humanoid الإنسان منتصب Homo erectus هو الذي يقف وراء صنع هذه الأدوات. أما المصاطب الأشد انخفاضًا (٩ أمتار وما يتراوح بين ٣ و ٤ أمتار) فتكشف عن أدوات ترجع إلى العصر الحجرى القديم الأدنى، وهى الأدوات التى تشكّل فيها الشظايا المسنونة رأس دبوس، وكانت تُستخدم فى أغراض متنوعة، بما في ذلك التركيب في الرءوس المقذوفة[٥]. وعود على بدء، إذا كان لنا أن نحكم استنادًا إلى مكتشفاتنا خارج تخوم مصر؛ فإن ثقافة العصر الحجرى القديم الأدنى كانت نتاجًا قام به النوع الفرعى من الإنسان العاقل Homo sapiens ، وهو النوع المعروف على نطاق عام باسم "النياندرتالى" Neanderthal ؛ ويعزو العلماء فترة ازدهاره في غالب الأحيان إلى نهاية العصر الـ"بين - جليدى" الثالث والرابع (وهو الأخير) أي نحو ما يتراوح بين مائة ألف إلى خمسين ألف سنة ق.ح. (قبل الحاضر Before Present أي قبل سنة ١٩٥٠).

شهد الانحسار النهائى للجليد عند حوالى عشرين ألف سنة ق.ح. زيادة فى سرعة التطور الثقافى للمجتمع الإنسانى. فلقد لحق الفناء بالإنسان - النياندرتالى فى أوروبا - لظروف لا يبدو أن هناك من يبدو واثقًا من ماهيّتها - وفى نهاية المطاف وجد "الإنسان العاقل" نفسه بمفرده فى الميدان. وغدا "طقم الأدوات" الذى اهتدى إليه الإنسان البدائى أكثر عددًا وتنوعًا. وبدأت أساليب جديدة فى تنفيذ التصنيع بما فى ذلك صنع الأنصال وصقلها، فى الحلول محل الوسائل الأقل تقدمًا التى لجأ إليها الإنسان فى الماضى. وحازت الفنون الزخرفية أهمية جديدة بصفتها أحد الأشكال التى تلجأ إليها الجماعة خلال التعبير عن ثقافتها.

ليس واضحًا تمامًا المدى الذى بلغته مشاركة مصر فى الابتكارات التى عرفتها أوروبا فى عصر ما بعد الحجرى القديم epipaleolithic . ولو أن عمليات التنقيب ظلت تكشف بصورة متزايدة خلال العقود الماضية فى وادى النيل عن مواقع لمخيمات ترجع إلى الحقبة الواقعة فيما بين ١٦ ألف سنة إلى نحو ٩ آلاف سنة ق.م. لتجمعٍ يعيش على القنص والصيد المكثفين (سواء للحيوانات البرية أو الأسماك). ومثل هذه الثقافة التى تُعرف باسم "السيبيلية" sebilian[٦] تكشف عن انخفاض ملحوظ فى أحجام كافة الأدوات التى صُنعت فى معظمها من شُطف أدخلت عليها الأيدى الصانعة فى مرحلة لاحقة مقابض لإحكام الإمساك بها كى تصبح "أدوات مركّبة" (ميكروليثية) microliths ورغم أن "السيبيليين" كانوا شبه مستقرين، واكتسبوا قبيل نهاية هذه الحقبة أى ما بعد العصر الحجرى - القديم قدرًا من المعارف حول استئناس الحيوانات، إلاّ أنهم ظلوا بصفة أساسية داخل نطاق تقاليد القنّاصين - اللقّاطين، تلك التى عرفها العصر الحجرى القديم.

يتمثل أحد الأسئلة البارزة التى تقض مضاجع الذين يؤرخون لمصر فيما قبل التاريخ فى هذا السؤال: متى حدث ذلك التغيُّر الأساسى فى الاقتصاد البشرى من التقاط الطعام إلى إنتاج الغذاء فى شمال شرق أفريقيا؟ هل كان ذلك التطور محليًا أم أن سكان وادى النيل البدائيين انتفعوا باستيراد حرفة الزراعة من خارج واديهم؟ ودع عنك السبب الذى دفع الإنسان البدائى الذى عرفته تلك الحقبة إلى ابتكار وسائل جديدة لإقامة أوده: تقلص احتياطات الحيوانات البرية، زيادة ما فى عدد السكان، انكماش الرقعة التى يعيش عليها؟ يجب علينا أن نعترف، فى هذا الصدد، أننا لم نهتدِ، بعد، إلى معلومات صلبة لا يرقى إليها شك عن تلك الحقبة الحاسمة التى تمتد من نحو تسعة آلاف إلى ستة آلاف سنة ق.م فى وادى النيل. وترانا ندخل هذا العصر المعتم Dark Age كى نجد "السيبيليين" الذين يرجعون إلى عصر ما بعد الحجرى القديم وقد توطّنوا بصورة راسخة فى الوادى ونخرج منه كى نقابل تجمعات زراعية "حجرية حديثة" Neolithic قائمة هنا وهناك فى سائر الأصقاع على وجه التقريب. ويعد اقتصاد هذه القرى الصغيرة خليطًا غريبًا من وسائل فلاحة متقدمة نسبيًا وقد سادت على قاعدة من التماس القوت خلال قنص الحيوانات البرية وصيد الأسماك، وهو الأمر الذى

يبدو معه على وجه التقريب وكأن الزراعة قد جُلبت من الخارج إلى قنّاصين - لقّاطين، لم يبرهنوا إلاّ على عدم اكتراثهم بوصولها(٧).

يتمثَّل الموطن الأمثل لاستئناس القمح والشعير والأغنام والمواشى فى ذلك "النوع من الأحراش الذى يعرفه حوض البحر المتوسط ونقابله فى الهلال الخصيب"(٨) وهو الأمر الذى أيّده علم الآثار فى الوقت الحاضر. فأقدم مجتمع بشرى معروف، نرى أنه مر بعملية بناء اقتصاد يقوم أولاً على التقاط منظَّم للحبوب البرية، ثم على إنتاجها خلال الاستزراع، كان يوجد فى فلسطين والضفة الغربية ولبنان فى الفترة التى تمتد ما بين عشرة آلاف وثمانية آلاف ق.م(٩) وهذه الثقافة التى أطلق عليها مؤرخو ما قبل التاريخ اسم "الناتوفية" natufian ، نسبة إلى الموقع الذى ترجع إليه، ويقع شمالىّ "أورشليم" مباشرة، تعد نتاجًا لفصيلة بشرية دقيقة الجسم ، تتميَّز برءوس مستطيلة dolichoce-phalic ، مما نستطيع أن نصنِّفها باطمئنان كـ "إنسان عاقل" Homo sapiens . ولقد مارس أولئك "الناتوفيون"، مثلهم فى ذلك مثل قبائل "البانتو" الأفريقية الحديثة، خلع الأسنان القواطع، وكانوا يرتدون، فيما هو واضح، جلود الحيوانات، ويلبسون فى بعض الأحيان غطاء رأس مصنوع من القواقع. ورغم أن هؤلاء الناتوفيين كانوا مضطرين إلى انتهاج حياة الهجرة بصورة جزئية، نظرًا لارتحالهم طلبًا للقنص فى البر والصيد فى الماء، إلاّ أنهم عرفوا إلى هذا الحد أو ذاك مستوطنات دائمة، تركَّزت حول الكهوف أو قامت على قمم التلال قرب الينابيع. وكانت بيوتهم تتكون فى الغالب من أكواخ مستديرة يتراوح محيطها ما بين ثلاثة إلى ثمانية أمتار، ومبنية من الحجر المتوفر فى بيئتهم، ومسقوفة على وجه الاحتمال بفروع الشجر. وكان الحجر مستخدمًا على نطاق واسع فى صنع الأدوات فى سائر التقاليد الميكروليثية microlithic التى تماثل تقاليد "السيبيليين" حيث كانت الأنصال والرءوس الهلالية الشكل التى يسهل قذفها، شائعة الاستعمال. كما استُخدم العظم فى صنع الدبابيس والمخارز وصنانير الصيد. أما المحار (وقد جُلب بعضه من البحر الأحمر) فلُضم واستُخدم كحلى للزينة. وفى الوقت الذى استمر فيه القنص فى البر والصيد فى الماء يقومان بدورهما كوسيلتين رئيسيّتين لكسب القوت، إلاّ أن الصلاية ومدقّة الصلاية وصوامع التخزين والشراشر (جمع شرشرة) تشير إلى أن "الناتوفيين" عرفوا حصد الحبوب ومارسوه. غير أن هذه الأدلة لا تبرهن، بطبيعة الحال، على أنهم اكتشفوا البستنة horticulture أو استأنسوا الحيوانات؛ أو أن

هذا الاكتشاف وذلك الاستئناس كانا ماضيين على مدارج التطور بينهم؛ ولكن هذين الأسلوبين كانا قد تم التوصل إليهما، ما فى ذلك شك، بحلول الألف الثامن ق.م. مع إقامة أول مواقع لبلاد دائمة. وعندئذ نستطيع أن نتحدث عن نوع من "إنتاج الغذاء" وعن اقتصاد يعتمد على فلاحة الأرض فى المراحل الأخيرة للفترة "الناتوفية" فى فلسطين.

المصرى وقراه :

إذا ما استشعر المرء ضرورة أن يفسر شيوع مثل تلك التغيرات الكبرى فى المجتمع البشرى مثل استحداث الزراعة بنظرية "الانتشار" diffusion ؛ فلسوف يغدو يسيراً عليه أن يسلم جدلاً بارتشاح تدريجى لهذا النوع من الاقتصاد إلى الخارج انطلاقاً من موطنه الأصلى فى جنوب المشرق خلال الألف الثامن ق.م . فهل قدمت هذه المنطقة نموذجاً مثالياً لبداية العصر الحجرى الحديث Neolithic فى سوريا والأناضول و"زاجروس"؟ سؤال لا يزال رهن البحث، إلاّ أننا نقابل بعض المصاعب فيما يتعلق بمصر. وذلك ليس راجعاً وحسب إلى أننا نواجه فجوة يصل مقدارها إلى ثلاثة آلاف سنة فى المكتشفات الأثرية، ولكن أيضاً إلى أننا عندما نصادف مواقع راجعة إلى العصر الحجرى الحديث بعد الألف السادس ق. م. فإن المصدر الذى نستقى منه معرفتها بالزراعة، حسبما يُقال، يجب أن نبحث عنه فى الجنوب والغرب عوضاً عن الشمال الشرقى(١٠) والحقيقة أن التدفق الديموجرافى (السكانى) العام، وهو ما قد نستطيع رسم خطوطه البيانية خلال توزُّع مواقع العصر الحجرى الجديث فى وادى النيل وتسلسلها عبر الزمن، سوف يبدو كسهم ينطلق من الجنوب باتجاه الشمال. وتأتى الصلة الأفريقية الواضحة للكثرة الغالبة من السمات الأولى للثقافة فى العصر الحجرى الحديث فى مصر، متمشية تماماً مع ذلك النمط المرسوم؛ ونذكر فى هذا الصدد وعلى سبيل المثال: الرءوس المستطيلة، والتعود على صنع المشغولات من العاج، والتباهى بالأرداف الثقيلة وصنع الأوانى وزخرفتها(١١). ومع ذلك لا يكاد العقل يصدِّق ألاّ تكون فلسطين التى لا يفصلها عن وادى النيل أكثر من مائة وستين كيلو متراً قد لعبت دوراً إلى هذا الحد أو ذاك فى وصول قدر ما من الدراية بالفلاحة إلى مصر(١٢).

إلاّ أننا نستطيع بحلول الألف الخامس ق.م أن نتحدث عن عصر حجرى حديث فى وادى النيل. إذ يبدو أن التجمعات الصغيرة التى تعيش على فلاحة قشرة الصخور أو طرح الأنهار قد شقت طريقها باتجاه الشمال على امتداد الزمن (ما لم تكن عمليات مسح وتنقيب غير منهجية قد حرفت الأدلة عن دلالاتها)[١٣] وكان كل تجمع من تلك التجمعات يتكون من عدد محدود من أكواخ/أخصاص البوص المدهوكة بالطين، والمحاطة بنوع ما من المتاريس الواقية. ورغم أن قوالب الطوب المصنوعة من الطين جرى استحداثها حوالى منتصف الألف الرابع فى الفترة الأمراتية[١٤] Amratian ؛ لكنها لم تُستخدم على نطاق واسع إلاّ بعد ٣٥٠٠ ق.م . أى مع الخطوات الملحوظة التى خطتها إلى الأمام حضارة "جرزً". وعلى المنوال نفسه، نجد عدداً من الأدلة بامتداد معظم الفترة التى يغطيها العصر الحجرى الحديث على زيادة عدد السكان والتوسع ببطء فى إقامة المستوطنات[١٥]، ولكن المستوى العام للثقافة ظل مستوى تجمّع يعتمد على فلاحة بدائية إلى حد ما، ولا يزال مشدوداً بقوة إلى اقتصاد القنص أى اقتصاد الماضى. ولما كان الإنسان مفطوراً على مقاومة التغيير والتجديد وانبثاق أفكار جديدة حتى تجبره الضرورة القاهرة على قبول ما يقاومه؛ وكان المناخ فى وادى النيل صحياً والأسماك وحيوانات القنص متوفّرة بصورة زائدة، فلم يستشعر سكان الوادى فيما قبل التاريخ دافعًا قوياً يحفّزهم إلى تحويل اقتصادهم إلى اقتصاد زراعى يقوم على العمل الشاق[١٦].

غدت دراسة ماضى مصر فى فترة ما قبل التاريخ أى تلك الفترة التى تشمل العصر الحجرى الحديث خلال الألف الخامس والرابع ق.م واقعة إلى حد كبير داخل نطاق اختصاص مؤرخى ما قبل التاريخ ممن يحوزون دراية واسعة بعلم الإنسانيات (الأنثربولوجيا) وتمتد اختصاصاتهم لتشمل مساحة أعرض كثيراً من ذلك. وهذا هو ما ينبغى أن يكون عليه الأمر، ولو أن موضوع هذا الفصل يغتنى كثيراً بالتطرق إليه. ومع ذلك فلعلماء المصريات Egyptology وظيفة هنا أيضاً. فبعد فحص المظاهر المادية للثقافة المصرية فى العصر الحجرى الحديث خلال أعمال التنقيب والمسح، وبعد رسم نماذج models لنشوء المجتمعات المركبة والمقارنة بينها، يظل هناك عدد من الأسئلة المهمة، قد يستطيع اللغوى على وجه الاحتمال أن يسهم فى الإجابة عليها. ما الذى نستطيع أن نسوقه من حديث حول الحكومة والتنظيم الاجتماعى لتلك التجمعات

التى أنتج أبناؤها تلك الأدوات التى عرفها العصر الحجرى الحديث؟ هل كان تنظيماً فعالاً؟ وهل كان أبناء تلك المجتمعات قادرين على إشباع حاجاتهم؟ ما نوع السلوك الذى سلكه هذا التجمع أو ذاك مع التجمع المجاور؟ هل نعرف شيئاً عن المعتقدات الدينية لذلك العصر؟ أسئلة من هذا القبيل لا تستطيع أن تجد أجوبتها خلال فحص الآثار التى وصلت إلى أيدينا وحسب، فالسجلات المدونة ضرورية كذلك فى التوصل إلى أجوبة شافية. وفى ظل غياب السجلات المعاصرة، يجد المرء نفسه مضطراً إلى أن يستنطق الوثائق اللاحقة التى يبدو أنها تصف المؤسسات الأساسية للمجتمع القديم، وذلك لأن مصر بلغت فى العصر الحجرى الحديث وضعاً مستقراً كان من شأنه أن يوفِّر أساساً لقيام مجتمع مصرى لكل العصور، على هيئة تعتمد على الفلاحة، كانت هى الوطن والموطن الأصلى للفلاح المصرى منذ خمسة آلاف سنة ق.م. وحتى اليوم[١٧].

وعندما كشف اختراع الكتابة الهيروغليفية – وكان ذلك بُعيْد الألف الثالث ق. م - الستار عن لغة مصرية، شاعت فيها كلمات عديدة تصف المستوطنات البشرية، كل مستوطنة منها فى أدق دقائقها "نويت" Neywet التى يترجمها المترجمون عادة إلى مدينة، وهى تعنى فى حقيقة الأمر مجموعة من الأكواخ / الأخصاص المجدولة من البوص والمحاطة بنوع ما من المتاريس الواقية. و "ديمى" Demy بلدة، وهى مشتقة من جذر يعنى "لمس" وتشير إلى الموضع الذى ترسو عنده السفن على ضفة النهر. و "إيهع" Ehy التى تومئ إلى تعريشة تهجع تحتها الحيوانات المستأنسة و "يات" Yat وتعنى "ربوة" تقف عليها مستوطنة ما وسط مفيض الفيضان، بمبانيها الهامة و "واحة" Wahyet وهذه تعنى بالمصرية القديمة قبيلة أو عائلة، وتنطبق على الأكواخ/ الأخصاص أو المخيمات التى تقيم فيها جماعات تربط بينها روابط القرابة. وبالتالى فإننا نستطيع أن نستشف الأسباب الرئيسية التى حدت أولئك الأقوام إلى التجمع على هيئة جماعات فى وادى النيل من الألفاظ المعجمية على النحو التالى: حماية الفلاحين والحيوانات المستأنسة، والنقل وشحن المنتجات، والوقاية من خطر الفيضانات العالية وضرب المخيمات الخشنة كى تأوى إليها جماعات (القنص).

هناك كلمة قديمة أخرى تدل على نوع من التوطُّن هى "مقعد" أو "مقام"، وخصوصاً لإله؛ ولقد أكد علم الآثار بالإضافة إلى السجلات المنقوشة على أهمية أضرحة التعبُّد والتبرك فى مستوطنات ما قبل التاريخ[١٨]. وينبغى على المرء أن يتخيَّل – وتستطيع

عمليات التنقيب التى جرت فى "هيراكونبوليس" أن تمدنا الآن بصورة ملموسة فى هذا الصدد - ضريحًا بسيطًا مبنيًا من مواد خفيفة (بوص - فروع شجر - خشب)، بسقفه المحدب وقرون الحيوانات التى تبرز من واجهته. مثل هذا الضريح ليس مكانًا صالحًا لأداء شعائر العبادة للإله وحسب، بل وكان مركزًا إداريًا وبؤرة تنعقد فيها الأسواق والاحتفالات المحلية. وكان الساكن المقدس للضريح - وقد يكون فى الأصل أحد أسلاف القبيلة(١٩) - إله البلدة(٢٠)، وحامى ومولى كل الذين يقيمون فى المستوطنة أو المناطق الملاصقة لها مباشرة. وكانت دائرة نفوذه تمتد لتشمل سائر النطاق الذى يضم مصالح التجمع ككل، وبالتالى كان ذلك الإله هو خالق الدنيا ومؤسس البلدة و (حافظ الخصوبة) وإله الموتى والقائد فى الحروب. فى نفس الوقت، وعلى مشارف الضريح وعلى صارٍ عالٍ كان يرفرف شريط من القماش أصبح فى وقت لاحق بمثابة العلامة الهيروغليفية التى يُكتب بها لفظ "الإله"، وكذلك "رمز" الإله ، كما جرى رفع شىء ما أو حيوان ما ، يرتبط بذلك "الإله" برابطة قد تكون واهية، كى يراه الجميع(٢١). وبدأت هذه الرموز التى تميِّز، على ما يبدو، وفى غالب الأحيان تجمع ما قبل التاريخ، بالإضافة إلى إلهه أى إله هذا التجمع، فى الانتشار خلال الفنون الزخرفية للمرحلة الأخيرة من العصر الحجرى الحديث أى المرحلة الجرزية (نسبة إلى "جرز") التى امتدت من سنة ٣٣٠٠ حتى ٣٠٥٠ ق.م.

يصعب علينا أن نحدد طبيعة الآليات التى حكمت تلك التجمُّعات المبكرة. إلاّ أن بعض المقابر بلغت، قرب نهاية المرحلة الجرزية، فى الحجم قدرًا يكفى لافتراض وجود "مشيخة" أى رئاسة للتجمع Chiefdom. وتتحدث النصوص التاريخية الأولى عن "كبار" أو "شيوخ" على مستوى الأقاليم، الأمر الذى قد ينطوى على إشارة تأسلية (أى استرجاع لأصول قديمة) إلى رؤساء القبائل المستقلين الذين عرفتهم عصور ما قبل التاريخ(٢٢). وهناك علاوة على ذلك، بعض الأدلة على وجود مجلس أو هيئة (تضم على وجه الاحتمال كبار السن أو الشيوخ) الذين يستطيعون التصديق على اختيار الشيخ الجديد للتجمُّع(٢٣). ويذهب بعض العلماء إلى أن اللقب القديم الذى أصبح يعنى "ملك مصر العليا" يرجع إلى أصول قبل تاريخية محلية. أما اللقب الذى يُنطق "إنسى" ويعنى حرفيًا "اللى - بتاع - نبات - السوت". بينما يرى علماء

آخرون أن اللقب يدل على حاكم يملك الأرض كما يملك حق التصرف فيما تغله(٢٤). ومع ذلك هناك أدلة على أن مساحة ما من الأرض على الأقل كانت مملوكة فى عصور ما قبل التاريخ على المشاع، ويجرى تخصيصها وتوزيعها على أبناء التجمّع فى مواسم البذار(٢٥). وفى سائر الأحوال هناك علاقة وطيدة بين حاكم هذا التجمُّع أو ذاك وبين خصوبة التربة عبر فاعلية نهر النيل، وهذه العلاقة تبدو متوطِّنة فى مصر القديمة، الأمر الذى يعد إرثًا انتقل إليها من الطبقة الأفريقية التحتية التى تقوم عليها حضارة مصر(٢٦).

لم ينج من صروف الظروف سوى عدد قليل للغاية من المستوطنات التى تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وهى المستوطنات التى عثرنا عليها فى حالة تسمح لنا بالتنقيب عنها فى يسر. ولما كانت المساحة الأكبر من الدلتا قد رُدمت فيها المنخفضات بالرسوبيات، وتلك المواقع المتناثرة فى مفيض الفيضان عصيَّة بالمثل على الوصول إليها، صار لزامًا بالتالى على المرء أن يصرف ذهنه إلى الجبانات التى تحظى بدرجة أفضل من الصون والحفظ، فى مسعاه وراء أدلة من الثقافة المادية (الأدوات) وتلك المعنوية أو الروحية كالمعتقدات الدينية. فمن ثلاث مجاميع معينة من المعتقدات الجنائزية، حقًا منفصلة الواحدة عن الأخرى، وإن كانت أطرافها متصلة، كل طرف بالآخر، نستطيع أن نستشف بعض المعتقدات وعددًا من الممارسات. ففى إحدى هذه المجاميع لاحظ العلماء أن السماء تملك على البدائيين أفئدتهم، إذ رأوا فى النجوم كائناتٍ مبجَّلة، حملت رءوس بشر، وحازت أرواح طيور، خلال رفعهم الراحلين من أسلافهم إلى قبة السماء. كما يثبت توجيه جثمان المتوفى، عند الدفن، نحو الشرق، أيضاً، انشغالاً بآخرة سماوية، يحدوه الأمل فى البعث مع شروق الشمس(٢٧).

فى وادى النيل جذبت الصحراء الغربية الشاسعة، التى تلوح أمام الأنظار باستمرار بصفتها المطرح الذى "يموت" (جنس "الشمس" مذكر فى اللغة المصرية القديمة) فيه الشمس كل مساء، انتباه الأهالى، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا. فهنا تقوم مملكة الموتى فى الغرب، وأصبحت كلمة "الغربى" كناية رقيقة عن "الميِّت". وانفصلت الجبانات عن الأحياء، وأقيمت فى غالب الأحيان، وإن لم يكن بصفة دائمة، بأى حال من الأحوال، فى أطراف الصحراء، وانطوى الموت بالتالى، على رحلة من منازل الأحياء

إلى بيـوت الأمـوات. وقـد اخـتُلطت مملكة الموتى، فى واقـع الأمـر، فى هذه القـفـار الصحراوية غير المطـروقة، وهنا فى العـراء لا تسود سوى الغرائز "الكلابية" ابن آوى أو الكلب أو الذئب. إذ تستطيع الأعين أن تقع باستمرار على مثل هذه الحيوانات ذوات الأربع خلال مسعاها، خلسة، وسط المقـابر وعلى امتداد الصحـراء، أو اهتدائهـا، فيما يبدو، إلى طريقها حيث لا وجود هناك لطرقٍ مطروقة. وبالتالى، فليس هناك ما يدعو للاندهاش إذا كان لأحد هذه الحيوانات الكلابية من ذوات الأربع أن يصبح بمثابة إله مدينة الموتى الرئيسى وحامى حمى الموتى وقائد خطاهم إلى الغرب، وذلك فى مصر الوسطى على وجه الخصوص، حيث تبرز الصحراء الرملية المنخفضة من أرضية الوادى بدرجة من التـدرُّج. والأسماء شفـافة تكشـف ما وراءها "خينتى - يامنتـو" أى "أول الغربيين"، و "ويب - واوت" أى "فاتح الطـريق" أو "حامل الشعـلة" ، و "نوبـو" أو ("أنوبيس" كما نطقه اليونانيون)، وهو "سيد الأراضى العالية" أى "الجبانة"(٢٨). عندما ظهرت الملكية الفرعونية إلى النور اعتمدت بقوة فى استعاراتها على الرمزية التى ينطوى عليها الاسمان الأول والثانى(٢٩).

أما فى الدلتا حيث ينفتح المدى على مستنقعات وجزر وأرض سبخ واطئة، فلقد ألهم عنصران آخران الأفكار التى تدور حول الموت. وانطوى العنصر الأول على الدفن داخل البلدة وبالتحديد على ربوتها - فحافة الصحراء موغلة فى البعد - فى ظل حماية الإله المحلى للبلدة. وهنا كانت العلاقة التى تربط أبناء العائلة هى التى تستحوذ على كامل الأهمية. ولما كان الأب هو رب البيت، فلقد صار لزاماً أن يظل، حتى بعد وفاته، مع عائلته، وبالتالى أصبح الدفن تحت أرضية البيت وحفظ الجثمان، يجريان بصورة منتظمة. ووقع على كاهل الابن الأكبر واجب القيام على خدمة الأب ودعوته بصفة يومية إلى وجبة القربان، وهو دور أصبح فى وقت لاحق بمثابة تنظيم رمزى للملكية(٣٠). وذهب معتقد آخر إلى تحويل الموتى إلى هذه الجزيرة أو تلك من "الجزر" النائية التى يستعصى الوصول إليها، من تلك التى كانت الدلتا تضم كثيراً منها وسط المستنقعات فى العصور القديمة، أى نوع من الـ "أفالون" Avalon (جزيرة فى شمال غرب إنجلترا يعتقد أنها موطن أسطورة الملك "آرثر") ، يُسمَّى "حقل السمار".

الانتقال إلى مجتمع مركب فى مصر وفلسطين:

ليس واضحًا تمامًا المدى الذى بلغه أى تأثير للبلدة - التى وصفناها للتو بصورة تخطيطية أو كروكية بنْيتها واقتصادها وديانتها فى وادى النيل - باعتبارها نموذجًا يُحتذى، على البلدان المجاورة. إلاّ أن مثل هذا التأثير، بالنسبة لفلسطين، على الأقل لم يكن ليتجاوز، طوال العصر الحجرى الحديث، درجة ضئيلة.

تكشف ثقافة فلسطين وسوريا، فى الفترة التى تمتد من الألف الثامن حتى الألف السادس، على وجه التقريب، ق.م أى ما يُسمى بالعصر الحجرى الحديث السابق على اكتشاف الفخار Pre-pottery Neolithic ، عن تطور مطّرد فى أساليب الفلاحة بما فى ذلك استئناس الحيوانات والاستقرار فى بلاد دائمة. مثل هذه النقلة السكانية التى يُمكن أن تكون قد حدثت بصفة جزئية مع بدء الجفاف فى المشرق، تعد واحدة من أهم التغيرات التى دخلت على أسلوب الحياة فى تلك الفترة. وبينما قدّمت احتياجات الفلاح والقناص وسدانة الآلهة فى مصر، السبب الأول للتلاقى فى تجمعات بشرية، إلاّ أن الدفاع فى المشرق كان، فيما يبدو، على رأس الأولويات فى تفكير السكان. فكانت "أريحا"، وهى مستوطنة تضم حوالى ألفىْ نفس، وواحدة من المستوطنات الأكثر إيغالاً فى القدم، محاطة بسور من الحجر، يصل سمكه إلى ثلاثة أمتار وارتفاعه إلى أربعة أمتار، وتتخلله أبراج الملاحظة (لوحة رقم ١)[٣١]. وتؤيد الأدلة اللغوية أن الدفاع كان شغلهم الشاغل. فرغم أن لغات المشرق تحمل سمات عميقة تعود لمرحلة شبه بدوية فى إطار تطور مجتمعى - حقًّا الكلمة الأكثر شيوعًا فى اللغة الأكادية لـ "مدينة" هى عَلُو âlu تنحدر من صيغة الجمع لكلمة تعنى "خيمة"[٣٢] - إلاّ أن تسميات أخرى للمستوطنة مشتقة من جذور تعنى بصورة أساسية "يحصّن".

وعندما لجأت النصوص المصرية المدونة، بعد سنة ٣٠٠٠ ق. م إلى وصف المدن فى فلسطين، أطلقت عليها اسم "وونوت" وتعنى "الأحواش المحصّنة"[٣٣]. وبينما تقوم التحصينات بحماية الإنسان من خطر الحيوانات المفترسة، إلاّ أن حجم أسوار "أريحا" يتعذر فهمه إلاّ أن يكون دفاعًا ضد الأخطار التى تشكلها تجمعات بشرية أخرى.

لا تشترك مصر مع فلسطين على المستوى الثقافى إلاّ فى أقل القليل خلال الشطر الأقدم من العصر الحجرى الحديث. إذ يبدو أن هناك نوعًا من عبادة الأسلاف، تقوم عليه أدلة من الألف السابع ق. م. ويتجلى فى العبادة الغامضة للجماجم(٣٤). وفيما عدا ذلك نجد مدافن فقيرة وزرية، كما أن توجيه الجثمان أو وضعه لا يكشفان عن أى سمة خاصة. وهناك أدلة على وجود بعض التجارة مع "النقب"، ولكن الأمر لم يمتد، كما يبدو واضحًا، إلى الدلتا. والحقيقة أن الجدب المتزايد الذى غزا الجنوب مع الألف السادس ق.م. أجبر السكان على هجران كثير من المستوطنات الفلسطينية، وخلال الألف التالى أى الخامس ق.م. انكمشت فلسطين حتى صارت مجرد إقليمٍ ثقافىٍّ من أقاليم سوريا(٣٥).

ولكننا قد نستطيع فى مصر، ومع الآثار الأولى للعصر الحجرى الحديث فى الفيوم حوالى ٤٥٠٠ ق.م.(٣٦) أن نقيم سياقًا يقودنا دون انقطاع عبر ما يُسمَّى بالعصر الكالكوليثى Chalcolithic (أى النحاسى – الحجرى) إلى مدرج التاريخ. حقًا لا يزال هذا السياق غير محدد المعالم بدقة كبيرة، وغير موثق بصورة فائقة، وذلك عند مقارنته بالسياقات المماثلة فى غرب آسيا، ولكن مجرى السياق مرسوم بصورة مقنعة إلى حدٍّ ما. وإذا فحص المرء السجل الحالى لهذه القرون الخمسة عشر، وعينه على التقدم من الأشكال الأبسط إلى الأكثر تعقيدًا، فلسوف يذهله السكون الأوّلى للحضارة فى مصر طوال القرون الاثنى عشر الأولى، ثم التسارع المثير فى القرون التالية فى التطور المجتمعى، الذى يقذفنا بقوة وبصورة مفاجئة فى قلب أكثر الدول المعاصرة تركيبًا ورُقيًا. وهنا تفرض علينا هذه الدراسة أن نطرح سؤالين نراهما أساسيين بالنسبة لها: ما الذى سبّب هذه السرعة الاستثنائية فى التطور الاجتماعى والسياسى؟ ولماذا حدث ذلك فى مصر دون سائر أصقاع المشرق؟

حقيقة الأمر أن هناك، فيما يتعلق بمصر، عددًا من النماذج التى طُرحت لتفسير انبثاق وازدهار المركّب الفرعونى، ولكن ما من نموذج منها حظى بقبول واسع النطاق بشكل خاص. وتكمن المشكلة فى أن الأدلة فى كل حالة على وجه التقريب، أو على الأقل فى بعض أجزائها، لا تنسجم من النموذج المطروح. فأولئك الذين يضعون كل تركيزهم على التقدم الذى أحرزه المصريون فى تقنيات الرى(٣٧)، بصفته العامل الحفّاز سوف يجدون أنفسهم مضطرين الآن إلى الإقرار بأن الرى على نطاق واسع أعقب قيام الملكية،

والتقنيات المحسَّنة في هذا المجال جاءت مصاحبة لها على أبعد تقدير[٣٨]. وأولئك الذين يحتجون بأن الملكية الفرعونية ظهرت كنتيجة للغزو الذى قام به عرق أسمى يعتمد الوراثة فى الحكم dynastic race فى أواخر عصور ما قبل التاريخ لمصر، وهو عرق فرض نفسه على السكان الأصليين[٣٩]، سوف يتعيَّن عليهم أن يعيدوا النظر فى حججهم، وذلك لأن التشعُّب العرقى للمصريين إلى فريقين يعود إلى فترة أقدم كثيراً من الفترة الجرزية[٤٠] ذاتها، أى تلك التى تعود إلى مطلع عصور ما قبل التاريخ. أما المؤرخون الاقتصاديون الذين يرون أن الطاقة التى تولدت عن الصدام بين اقتصادين كانت بمثابة الشرارة التى أدت إلى "الانفجار" الفرعونى، فلسوف يضطرون، فى سبيل التأكد من صحتها، إلى مواجهة الوعى الذى كسبناه في الوقت الحاضر بالتعقيد الذى ينطوى عليه الأمر، فلقد استمرت فى الوجود فترة طويلة اقتصادات القنص والرعى والفلاحة، بل وتداخلت فيما بينها فى وادى النيل[٤١].

يطرح ملمح من ملامح المدى المصرى، وهو ملمح رصده كثيرون، ولكن ما من أحد منهم قدَّره حق قدره، فى ضوء غرضنا الراهن، تناقضًا ملحوظًا للوهلة الأولى مع المشرق، وفى نفس الوقت يقدِّم مفتاحًا قيِّمًا نحو حل اللغز الذى أفصح عن نفسه للتو، أعنى النهر ذاته. فالنيل لا يقدِّم نفسه وحسب كممر عبور يُسرع بخطى المسافر – حيث تكفى مدة لا تتجاوز ثلاثة أسابيع أو شهراً على الأكثر لقطع المسافة التى تصل إلى ألف كيلو متر بين الشلال الأول ورأس الدلتا – بل ويفرض أيضًا على ساكنى ضفتيه رؤية للدنيا، أعرض وأروع. ولقد وسَّعت منذ زمن بعيد إمكانية نقل السلع خلال طرق موغلة فى الطول تحت حماية سلطة واحدة آماد الخيال المصرى. وفى العصور التاريخية صار عرفًا من الأعراف وجوب "الإسراع" بالحبوب من منطقة إلى أخرى خلال أوقات الجفاف عبر وسيط واحد هو شيخ رئيس. ولقد حاز هذا الشيخ الرئيس الذى ينتمى، على وجه الاحتمال، إلى ناحية فقيرة من نواحى البلاد، مكانة عالية ونفوذاً واسعًا خلال حنكته الإدارية. وكان لحاكم الناحية أن يفخر بقدرته على ضبط وتسهيل مرور المعادن والمواد الغذائية والكماليات إلى دائرة نفوذه، وحتى الأهالى كانوا يتدفقون من أبعد أصقاع الوادى إلى الدائرة الخاضعة لإدارته نظراً لجاذبية شخصيته وحسن سياسته للأمور. وما كان النجاح أو الاعتبار اللذان يحوزهما شيخ رئيس بالنسبة لشيخ

رئيس آخر ليعتمدا، بالضرورة، على مجرد التوازى - واحد لواحد - مع توفر مخزونات المواد الغذائية فى إقليمه. حقًا يزهو وادى النيل، فى مصر الوسطى من "أبيدوس" حتى القاهرة بأعرض مفيض فيضان وبأوسع رقعة، بالتالى، قابلة للزراعة، ومع ذلك فإن الشريط الفقير نسبيًا من الوادى، فيما بين "أسوان" و "أبيدوس" هو الذى أمد مصر بالشيوخ - الرؤساء الذين حولوا أنفسهم إلى العائلة المالكة للأسرة الأولى[٤٢]. فهناك فى ذلك الجنوب البعيد نجد خلال الألف الرابع مراكز معينة وقد بدأت فى التفوق على مستوطنات أخرى سواء على مستوى الحجم أو الأهمية السياسية؛ وكان كل مركز من تلك المراكز يقع فى منطقة يمكن فيها التحكم فى مفيض فيضان، سلس العنان فى وقت الدميرة، وحيث يسهل بصورة نسبية وجود سهل قريب، عملية التحكم فى ممر العبور[٤٣]. وتقع "أبيدوس" فيما أصبح يعرف فى وقت لاحق بالمديرية الثامنة فى الوجه القبلى، وبالتحديد عند مدخل وادٍ جاف أو طريق يقود إلى واحة "الداخلة" فى الصحراء الغربية. أما "نقادة" فكانت واقعة على بعد حوالى ثلاثين كيلو مترًا شمالى مدينة "الأقصر" الحديثة، على الضفة الغربية للنهر قبالة الطرف الغربى، مباشرة لوادى "الحمامات" الذى يوفِّر منفذًا مريحًا إلى البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية[٤٤]. ولقد نمت مدينة "هيراكونبوليس" Hierakonpolis فى منتصف الطريق بين "الأقصر" و "أسوان"، هى الأخرى عند مدخل مفيض قديم، يربطها مع دروب الواحات فى الصحراء الكبرى[٤٥]. وكانت "هيراكونبوليس" بين تلك المدن الثلاث هى التى حققت الفوز، إلاّ أن روح المساومة التى لا يستغنى عنها المتعهدون أو مباشرو الأعمال كانت مضفورة فى الفوز: غدت "أبيدوس" ، مع ذلك، مكانًا مفضلاً لملوك "هيراكونبوليس" سواء لسكناهم أو لمثواهم الأخير[٤٦]. وارتقى إله "أش" Ásh (أو "سيت") الذى يتقمص الخنزير البرى كى يصبح الإله الحامى للوجه القبلى.

كان اتساع الرؤية وكل ما نتج عنه، مما وهب الوجه القبلى القدرة على القيادة، غائبًا فى الوجه الشقيق أى فى الدلتا. فالمدى هنا منخفض ومنبسط، وفروع نهر النيل ورياحاته عديدة، أما الصحراء فبعيدة لا تصل إليها عين. وتنظيم السكان المحليين صعب. فنجد المرء متشبثًا بـ "قاعدة البيت". وتتمثَّل الوسائل الرئيسية للعيش فى صيد الأسماك وقنص الطيور وتربية المواشى ورعى الماعز، ولكن انتشار النحل جعل إنتاج العسل ممكنًا.

وكان البشنين والبردى والأعشاب العطرية متوفِّرة بغزارة، وفى نفس الوقت زرع الفلاحون الكروم على الضلع الغربى للدلتا وساحل البحر المتوسط. ولقد أجبرت المستنقعات المحيطة، التجمعات المجاورة على اللجوء إلى الأراضى المرتفعة وبُنيت البلاد على "الجزر" أو على "كثبان الرمل" التى تكثر على الضلع الشرقى للدلتا. وفى كل مكان، فيما عدا رأس الدلتا، أدت المستنقعات والمجارى المائية إلى عزل التجمعات، الواحد عن الآخر وتعزيز روح الاستقلال والاعتماد على الذات ومحدودية الأفق. وفى ظل هذه الظروف أصبح توحيد الوجه البحرى غاية فى الصعوبة على المستوى السياسى إلى الحد الذى حال دون انطراح مثل هذا الهدف بأى صورة مقبولة على الخيال.

ومع ذلك، وعلى غرار ما حدث فى جنوب الوادى، برزت ثلاثة تجمعات فى أواخر الألف الرابع عند فجر التاريخ المصرى يقع اثنان منها على الضلع الغربى الدلتا: "بوتو" Buto التى كانت واقعة فى أقصى الغرب، على فرع رشيد على بعد ٢٤ كيلو مترًا جنوبى ساحل البحر المتوسط[٤٧]. و "صايس" Sais التى تقع على بعد ٢٠ كيلو مترًا جنوبى "بوتو" على نفس الفرع[٤٨]. وكانت كلتاهما قد ظلتا حتى القرن التاسع عشر ق.م منطقتين محصورتين وسط المستنقعات، وتتزايد الأدلة على وجود بيئة تغص بالبرك والمستنقعات هناك كلما رجع المرء إلى مصادر أقدم. وتقع "منديس" Mendes (كوم الربع . دقهلية حاليًا) من جانب آخر على "كثيب رملى" على الضلع الشرقى للدلتا، على بعد حوالى ١١٠ كيلو مترات شمال – شرقى القاهرة، وحوالى ٥٥ كيلو مترًا جنوبى البحر المتوسط[٤٩]. ولكن ما من تجمع من هذه التجمعات الثلاثة قفز إلى موقع السيادة على غيره من التجمعات حتى أواخر هذا الألف (الرابع)، رغم أن "بوتو" كانت تتمتع بتفوق الموقع. ولقد خضع موقعا "بوتو" و "منديس" للتنقيب فى العصر الحديث، وتنتظر" منديس" مزيدًا من عمليات التنقيب فى المستقبل القريب، إلاّ أن مستويات "صايس" فى عصور ما قبل التاريخ موغلة فى العمق تحت المستوى الراهن لمنسوب المياه الجوفية.

كان الوضع فى فلسطين مناقضًا لما كان عليه الحال فى الوجه القبلى فى مصر وحتى فى الدلتا؛ فانبثاق ونمو تجمعات تستطيع هناك، بصورة واضحة، بسط سيطرتها على مساحات واسعة كان أمرًا مستحيلاً. فالجبال تقسِّم الأراضى إلى

مناطق محصورة – وديان، مرتفعات، سهول، سواحل – وهو الأمر الذى حال، بالتالى دون تطور أى تجمع إلى ما هو أبعد من "كانتون". وكنتيجة تلقائية أصبح النمو السكانى محدوداً، ولم تحقق تركيبة الحكومة والمجتمع أى شىء أبعد من المستوى الجنينى. وعلاوة على ذلك فإن اجتياز ممرات العبور فى غرب آسيا كان أشد صعوبة مما هو الحال مع النيل، كما أن السيطرة على شرائط طويلة من تلك الممرات كان أمراً فى حكم المستحيل. وأدى ذلك إلى ما يلى: رغم مشاركة المجتمع الإنسانى فى فلسطين لنظيره فى مصر فى أساس واحد هو القرية الزراعية، فإن المجتمع الأول لم يستطع مشاركة الثانى فى التطور المستمر إلى كيان أكبر، وبالتالى لم يمر على خاطره مفهوم "الدولة القومية".

لكننا لا نستطيع الاكتفاء بإرجاع نشوء المجتمعات المركبة لحتمية جغرافية على هذا النحو. إذ يبدو أن هناك عوامل إضافية كانت تعمل عملها فى مصر، وهى العوامل التى يتعيّن علينا أن نتقصّاها بالتوقف لمدة قصيرة عند آخر ثقافة تنتمى لعصر ما قبل التاريخ أقصد الثقافة الجرزية[٥٠].

تمتد الثقافة الجرزية ثلاثة قرون من حوالى ٣٤٠٠ إلى ٣٠٥٠ ق.م، وفقًا لاختبارات الكربون – ١٤[٥١]. وتكشف هذه الفترة عن وجود مجتمع واقتصاد متقدمين بما لا يقاس مع كل ما سبقهما. ويرى البعض أن لهذه الثقافة علاقات مع الوجه البحرى الذى شهد على وجه الاحتمال ولادتها، رغم أن عمليات التنقيب فى الدلتا لا تزال فى بواكيرها الأولى؛ وليس فى وسعنا أن نقول شيئًا مؤكدًا بعد حول الموضوع. وسرعان ما انتقلت تلك الثقافة جنوبًا حيث نجد مستوطنات جرزية على امتداد الوادى من الفيوم حتى "هيراكونبوليس"، رغم أنها عجزت، عندما نتوغل جنوبًا فى النوبة، عن اقتلاع الثقافة "الأمراتية" Amratian الأقدم عهدًا والأكثر بدائية[٥٢]. ولكن الأدلة تنهض هنا ولأول مرة فى تاريخ مصر على زيادة ملحوظة فى عدد السكان؛ المستوطنات كبيرة، بل ويصل قوام بعضها إلى خمسة آلاف شخص[٥٣]؛ وأحيانًا نجدها محصّنة، وتتكون من بيوت مستطيلة الشكل، ومبنية بقوالب الطوب الأخضر والخشب. واحتل اقتصاد الصيد وقت ذاك وبكل تأكيد، مكانة أقل أهمية، فى وقت صارت فيه الفلاحة التى تعتمد على رى محدود توفر معظم احتياجات السكان من المواد الغذائية.

ويكشف التجمع الثقافى الجرزى عن صناعة متقدمة تستخدم الحجر، تراجعت فيها السكاكين ذات الحدين فى الشيوع أمام السكاكين الرفيعة والجميلة ذات الأنصال المتموجة، ورءوس العصى ورءوس البلط ورءوس السهام التى تشبه الأزاميل، وأصبح النحاس الذى اهتدى إليه الإنسان فى نهاية الألف الخامس ق.م. يُطرق وقت ذاك بدرجة معقولة من المهارة للاستخدام كمطارق وأزاميل وخناجر وفئوس وحراب ورءوس بلط أوحت بها خصائص الحجر، بينما استُخدم الذهب والفضة واللازورد والخزف بكميات صغيرة فى صنع أدوات التجميل. إلاّ أن أشد ما يخلب الأبصار كان الفخار الجرزى المصنوع من المرْل الصحراوى (تراب كلسى طينى) والمزخرف بالأصباغ الحمراء الداكنة. وكانت الزخارف قد أصبحت، وقت ذاك، أكثر تنوعًا بصورة كبيرة عن مثيلاتها فى الفترة "الأمراتية" الأقدم عهدًا، وغدت "الموتيفات" لأول مرة عبارة عن مناظر مستوحاة من الواقع الحياتى المُعاش. إذ نرى شتى أنواع الحيوانات التى عرفها المدى فيما قبل التاريخ: صفوف النعام وقطعان الأبقار والثيران وأسراب الطيور والتماسيح والسفن بقمراتها والبيارق والرجال السائرون والنساء الراقصات. وأخذت أشكال الفخار تحاكى فى بعض الأحيان نماذج أصلية مصنوعة من الحجر: الزلع الأسطوانية الشكل بمقابضها الأنبوبية والجرار المزدوجة والجرار حيوانية الشكل التى تصور أفراس نهر وأفيالاً وطيورًا وأسماكًا.

الصلة الآسيوية:

كانت تغيُّرات كبرى، كما هو واضح جلى، رهن الانبثاق فى مصر خلال الفترة الجرزية، ولا أرانا مخطئين فى وصفها بالطاقة المحركة التى صاحبت نشوء النظام الملكى. لقد سبق لنا أن استعرضنا العامل الجغرافى الذى عمل عمله فى العملية، ولكن كانت هناك عوامل أخرى أيضًا. ولقد استحضر بعض الباحثين انخفاض نسبة تساقط الأمطار خلال العصر الحجرى الحديث شبه المطير Subpluvial كى يفسِّر الزيادة التى طرأت على تركز السكان خلال الفترة الجرزية(٥٤). وقد تكون للزيادة السكانية صلة ما بالضرورة التى فرضت استنباط أساليب رى جديدة(٥٥).

أيًا كان الأمر، إلاّ أن الحقيقة التى لا يرقى إليها شك تتمثّل في أن الفترة الجرزية تكشف عن ملامح ثقافية عديدة لم تأتِ كنتائج لتطور محلى، بل ولعلها تحمل كافة السمات التى تشير إلى أنها وفدت من الخارج بصورة مفاجئة[٥٦] فلقد ظهرت إلى الوجود الأختام الأسطوانية الشكل، المصنوعة سواء من الخشب أو الحجر[٥٧]. وسارت حرفة طرق النحاس، وكما سبق أن رأينا، خطوات واسعة إلى الأمام على صعيد التقنية. واستُخدمت قوالب الطوب المصنوعة من الطين فى أنماط أكثر رقيًا من الأبنية، نستطيع أن نقول عنها بصدق إنها آثار خالدة. وصارت الأبراج والشرفات والأسطح المسوّرة بدخانيقها المتقنة الصنع على شكل كوى عمودية فى نطاق ما يستطيعه المهندس المعمارى وقت ذاك[٥٨]. وسادت أشكال فخارية جديدة، لا سوابق لها بوادى النيل، فى ذخائر الفترة الجرزية[٥٩]. ومضى الحجّار وقت ذاك إلى تصنيع الأوانى من أصلب الأحجار[٦٠]. وخرجت من محجره رءوس العصى الكمثرية الشكل وظهرت مجموعة فخمة من "الموتيفات" الفنية الجديدة والغريبة فى إبداعات فنان الخطوط. وشملت هذه "الموتيفات" صفوفًا طويلة من الحيوانات، وضوارى تنهش فرائسها، وحيوانات عجيبة بأعناق طويلة ملتفّة حول بعضها البعض، وأحد الأبطال يفصل بين سنورين، وأسرى يُضربون بالعصى حتى الموت.

يرجع الفضل إلى عمليات التنقيب التى قام بها الألمان فى "وركا" Warka بالعراق والفرنسيون فى إيران فى أننا استطعنا العثور على نظائر مقنعة لمعظم هذه الملامح الجديدة للثقافة الجرزية، فى ذلك الصقع من أصقاع آسيا الغربية الذى سادته ثقافة "أوروك" المتأخرة التى نشأت فى بلاد الرافدين "ميزوبوتاميا" Mesopotamia (٣٣٠٠ - ٣١٠٠ ق.م)[٦١]. وعلاوة على ذلك نستطيع اقتفاء أثر هذا التطور الثقافى الذى حدث سواء فى وادى دجلة والفرات أو جنوب غرب إيران[٦٢]، وهو التطور الذى أنتج هذه الأشكال و"الموتيفات"، على امتداد قرون من النمو المحلى، فيما يفتقر التطور المناظر فى مصر إلى سوابق عليه. وبالتالى فإن قليلين هم الذين سيعترضون على النتيجة التى نسعى، بجلاء، إلى التوصل إليها حول وصول أفكار ومنتجات تنتمى لبلاد الرافدين إلى مصر بصورة مفاجئة نسبيًا[٦٣].

ولكن ثلاثة أسئلة، فى هذا الصدد، تطرح نفسها فوراً: كيف - بمعنى عن طريق من أو بأى وسيط - جُلبت هذه الأفكار والمنتجات إلى وادى النيل؟ ما السبيل الذى سلكته؟ ما العلاقة، إذا كانت هناك علاقة من أى نوع، تلك التى قامت بين وصول التأثير من بلاد الرافدين وانبثاق الملكية الفرعونية؟ قد لا تلقى هذه الأسئلة المحيِّرة أجوبة شافية لسنوات طويلة، ولكن الاكتشافات الأخيرة توحى ببعض الاحتمالات التى يسيل لها اللعاب.

نستطيع أن نضيِّق النطاق المحتمل للأجوبة باستنباط بعض النتائج الواضحة: أولاً، وعلى نحو ما أشار الكثيرون، فالمصريون - بصرف النظر عن الكيفية التى عرفوا خلالها النماذج الأصلية الآسيوية - لم ينسخوها بصورة حرفية، بل كيَّفوها فى بيئتهم الخاصة. فالأختام، ورغم أنها حملت أحياناً، مثلما هو الحال فى بلاد الرافدين، "إمضاءات" دالة على أصحابها، إلاّ أنهم ساقوها أيضاً كى تعمل كعناصر بارزة فى المشاهد الجنائزية. ومثل تلك "الموتيفات" التى تصوِّر بطلاً يسيطر على حيوانين مفترسين عدَّلها المصريون بإحلال عناصر مصرية محلها(فى هذه الحالة تماسيح)(٦٤). أما المحاولات الأولى نحو الكتابة فى وادى دجلة والفرات، وبينما يُحتمل أن تكون قد أمدت سكان وادى النيل بمفهوم ما، إلاّ أنها لم تؤثر بحال من الأحوال على نشوء الكتابة الهيروغليفية(٦٥). وفى المحل الثانى يبدو واضحاً أن فى طوعنا أن نسقط أى فرضية تطرح أى وسيط نُقلت تلك الأفكار خلاله. فلقد عُثر على العديد من الأختام الأسطوانية الشكل التى ترجع صناعتها إلى بلاد الرافدين فى حقيقة الأمر فى مصر، ودع عنك، تلك النماذج العديدة التى صُنعت فى مصر، وتحمل شواهد على استلهامها لوادى الرافدين(٦٦). وهوالأمر الذى يبرهن على الأقل على وجود منتجات من صنع وادى دجلة والفرات.

إلاّ أن المشكلة لا تزال قائمة: هل أقام أفراد من سكان وادى الرافدين اتصالاً ما بأنفسهم مع وادى النيل، ووصلوا بأشخاصهم إلى هنا،، أم أن طرفاً ثالثاً قام بدور الوسيط؟ رغم أنها حجة تنطلق من عالم الصمت، إلاّ أنه من العسير أن نعثر على مثل ذلك "الطرف الثالث". حقاً قد نلتمس فى إحدى تلك الامتدادات الإقليمية لثقافة "أوروك - جمدت - نصر" فى شمال سوريا، نقطة "قفز" إلى الشوط المصرى من الطريق،

ولكن ذلك ليس على وجه التحديد طرفًا ثالثًا. وهناك نقطة أخرى يجدر التأكيد عليها. فرغم أن "الموتيفات" الفنية، وخصوصًا تلك المستخدمة فى الفنون الزخرفية الثانوية تغرى بالتقليد على آمادٍ طويلة دون أن يتطلب الأمر اتصالاً مباشرًا، فلعله من الصعب أن نتصوَّر كيف يتأتى لحرفة متخصصة مثل معمار الطوب الأخضر الذى عرفته الفترة الجرزية أن يفد إلى مصر على أيدى أى شخص لم تقع عيناه على هذا الأسلوب المعمارى فى موطنه فى وادى دجلة والفرات. ونستطيع أن نسوق حجة مماثلة فيما يتعلق بالزى وطريقة تصفيف الشعر - النقبة وعصبة الرأس واللحية - اللذين عُرفا عن "بطل" "جمدت - نصر" الذى ظهر على مقبض سكينة جبل العرق Gebel-el Araq وكذلك على السفن التى تتميَّز بمقدمة مرتفعة مما يرجع إلى أصول فى بلاد الرافدين.

إذا كان أفراد من وادى دجلة والفرات أو من أقاليم مجاورة تتمتع بنفس ثقافته(٦٧) قد أقاموا اتصالاً مباشرًا مع مصر، فالعجب يتملك المرء: ما الذى جذبهم إلى وادى النيل وما الطريق الذى سلكوه؟

طرح بعض الباحثين مستودعات الذهب فى الصحراء الشرقية كمصدر للجذب، حقًا كانت "نقادة" التى تقع على شاطئ النيل عند مدخل وادى "الحمامات"، تُسمَّى فى العصور قبل التاريخية: "بلدة الذهب"(٦٨). لكن من المشكوك فيه، على ما يبدو، أن يكون استخراج الذهب قد وصل إلى مستوى مكثَّف خلال العصور الجرزية. ولما كان التحول من بلاد صغرى إلى مراكز حضرية ضخمة فى بلاد الرافدين القديمة(٦٩) مرتبطًا بالتحول من الاعتماد فى مصادر العيش من الصيد إلى إنتاج الحبوب، فإن المرء ليتساءل عما إذا كانت تجارة الحبوب هى التى فجرت الطفرة فى الاتصال. ومع ذلك كانت بلاد الرافدين تعتمد على الذات، بكل تأكيد، فى هذا المجال. وعود على بدء: سبق أن رأينا أن الانتقال التدريجى للناس والبضائع والأفكار فى وادى النيل قبل الفترة الجرزية اتجه من الجنوب إلى الشمال، وبالتالى شكَّل النيل ممرًا استطاعت المنتجات الأفريقية أن تنتقل بصورة سريعة ويسيرة إلى البحر المتوسط والشمال الشرقى. هل هناك ما أغرى سكان "أوروك" بطرْق هذا الممر (الترانزيت) الآخذ بالازدهار الذى يسمح بمرور السلع، والأقرب إلى مصادرها؟

ظلت حيرة مماثلة تحوم باستمرار حول تحديد الطريق أو الطرق التى استُخدمت فى إقامة الاتصال مع مصر. ولقد ارتأى "بترى" Petrie منذ وقت طويل أن الثقافة الجرزية انبثقت فى الصحراء الشرقية[٧٠]. وبينما لم يعد هذا الرأى يلقى قبولاً من أحد الآن، إلاّ أن توفُّر مؤشرات على حضور لبلاد الرافدين فى "نقادة" و"هيراكونبوليس" أوحت لبعض الدارسين بوجود طريق بحرى ينتهى عند مدينة " القصير" على ساحل البحر الأحمر، ويوصلُ إلى وادى "الحمامات" و "قفط" و "نقادة". وتشتمل هذه المؤشرات على "موتيفات" ترجع إلى بلاد الرافدين، وظهرت على مقبض سكينة قيل إن المنقبين عثروا عليها فى منطقة "جبل العرق"، وفى منظر مرسوم داخل مقبرة فى "هيراكونبوليس" تعود إلى أواخر الفترة الجرزية[٧١]. والعديد من المشغولات المصنوعة من العاج والصلايات من موقع "هيراكونبوليس"، وخصوصًا السفن الغريبة. وهذه السفن كانت تحمل تشابهًا صارخًا مع أشكال السفن المعروفة من الأختام التى ترجع إلى "أوروك" و"جمدت – نصر"؛ ومن شبه المؤكد أن طريق وادى "الحمامات" الذى يمكن أن يكون بحّارو مثل تلك السفن قد سلكوه كان من المعروف أن كثيرين كانوا قد ارتادوه فى أواخر عصور ما قبل التاريخ والحقب الموغلة فى القدم (لوحة رقم ٢)[٧٢].

ومع ذلك هناك عدد من المؤشرات التى تحدونا إلى التطلع نحو الشمال بدلاً من الشرق فى بحثنا عن نهاية الطريق الذى حمل ثقافة وادى دجلة والفرات إلى شمال أفريقيا[٧٣]. على أن المهارة الزائدة فى طرْق النحاس قد تؤيد وجود أُلفة أكبر مع مصادر هذا الخام فى الشمال وفى سيناء[٧٤]. أما الفضة فيبدو أنها وفدت بالضرورة من هضبة الأناضول فى ظل افتقار مصر إلى رواسب منها[٧٥]. وتكشف علامات معينة فى الكتابة الهيروغليفية، مما قابلناه لأول مرة عند نهاية الحقبة الجرزية عن تجذر غريب فى الأفق اللغوى لمتحدث باللغة السامية (فى موطنه فى المشرق)[٧٦]. أضف إلى ذلك أن الكلمة المصرية التى تعنى: "غرب" تحمل تشابهًا قويًا مع الكلمة السامية الغربية لـ "اليد اليمنى"، وهو الأمر الذى ينطوى على توجُّهٍ من الشمال إلى الجنوب.

ولكن المشكلة ظلت تتمثل حتى الآونة الأخيرة فى أنه نظرًا لعدم خضوع أى موقع فى الدلتا للتنقيب، فلم يبد أى دليل وشيك الظهور من ذلك الصقع يستطيع أن يشى بعنفوان "الغارات" القادمة من بلاد الرافدين، إذا ما اتضحت ضرورة أن يكون الطريق الشمالى هو الطريق الذى نبحث عنه، ولو أن آثار فلسطين لا توفر فى هذا الصدد،

إلاّ أدلة يكتنفها الالتباس على أحسن تقدير. فطوال العصر الحجرى الحديث لا يبدو أن قام اتصال ملموس بين مصر وفلسطين. وخلال أواخر العصر الحجرى الحديث وأوائل العصر الكالكوليثى أى الحجرى - النحاسى ارتكزت فلسطين على ثقافة متخلفة نوعًا ما لا تتمتع مع الشمال إلاّ بأقل درجة من الاتصال، ولا تملك سوى أقل القليل كى تمنحه لمصر(٧٧). وحتى فى الطور الرئيسى للعصر الكالكوليثى فى فلسطين أى الطور الغاسوليانى Ghassulian (منتصف الألف الرابع ق.م) ظل الاتصال مع وادى النيل واهيًا(٧٨). واستمر ذلك كذلك حتى النصف الأخير من هذه الحقبة وأوائل العصر البرونزى الأول (الذى يتعاصر مع الأسرة الملكية الأولى) حيث توحى الخطوات التى خطتها صناعة المعادن والتشابهات فى صناعة الفخار بزيادة الصادرات الفلسطينية إلى مصر(٧٩). وفى نفس الوقت تكشف الأسطوانات والأختام التى تتشابه مع ما تنتجه منطقة "جمدت - نصر" عن بدء اتصال تجارى مع الشمال أى شمال مصر(٨٠). وبحلول منتصف الأسرة الأولى، عندما أخذت الاتصالات الفلسطينية فى التزايد مع مصر، تلاشت الأدلة على وجود واردات إلى مصر من بلاد الرافدين(٨١).

وإذا ألقى هذا الدليل ظلال الشك على وجود ممر بعيد عن السواحل عبر أراضى فلسطين، فإن طريقًا بحريًا يطرح نفسه بقوة أكبر. فخلال الحقبة التاريخية التى تبدأ على أقل تقدير فى القرن السابع والعشرين ق.م، بل ومنذ آماد موغلة، دون شك، فى أعماق العصور القديمة، تمتّع الفراعنة بعلاقات تجارية رسمية مع مدينة "بيبلوس" Byblos على الساحل الفينيقى (انظر الفصل الثانى). وينتصر التشابه بين الأدوات المصنوعة التى عرفتها الحقبة الجرزية وبين مجاميع الأدوات فى مدينة "بيبلوس" لصالح قيام صلة تجارية، عن طريق البحر بكل جلاء، بين الدلتا و "بيبلوس"(٨٢). ولقد أنهت عمليات التنقيب التى قام بها الألمان فى الآونة الأخيرة فى منطقة "بوتو" تحت إشراف "فاندرفاى" Van der Way النقاش فى الموضوع على وجه التقريب. فلقد كشفت عمليات التنقيب هنا فى شمال غرب الدلتا على بعد أربعة وعشرين كيلو مترًا من البحر المتوسط، مستويات قبل تاريخية تتصل على صعيد صناعة الخزف بـ "عموق" Amuq فى شمال سوريا. أضف إلى ذلك أقماع الصلصال الملونة، التى ظهرت إلى النور، وهى من نفس النوع الذى كان يُستخدم فى "أوروك" فى بلاد الرافدين لتزيين واجهات المعابد، كنوع من الفسيفساء. وإذا كان موضعٌ موغلٌ فى أعماق الدلتا مثل "بوتو" على

صلة بسوريا وأعالى الفرات، فإن ذلك أمر يؤيد بقوة، ليس وجود طريق شمالى، بل وأن يكون هذا الطريق بحرياً كذلك(٨٣). (شكل رقم ١)

ورغم أنه قد يكون من السابق لأوانه أن نتوصل إلى نتيجة فى هذا الشأن، إلاّ أن الأدلة على وجود صلة بين مصر ووادى الرافدين أكثر كثافة وتحديداً مما تستطيع احتماله نظرية تقول بوجود صلة تجارية عابرة ومتقطّعة. إذ يبدو أن هناك، إلى جانب السلع التجارية، عنصراً بشرياً من أصل أجنبى، ينبغى البحث عنه فى النسيج السكانى لمصر خلال الحقبة الجرزية، دون أن يستهدف هذا البحث إنعاش نظرية "عرق الأسر الفرعونية" التى تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكن ينبغى علينا أن نحرص على ألاّ نخطئ فهم أدلتنا أو نتجاهل وزنها الحقيقى.

الملكية الفرعونية:

كان للاضطراب السياسى والاختمار الثقافى اللذين نستشعرهما على نحو يكتنفه الغموض فى مصر عند اقتراب الحقبة الجرزية من نهايتها، أن يوسّع ويعظّم شأن ظاهرة سياسية تتمتع بالاستقرار وطول البقاء. وقد وجدت هذه الظاهرة تجسيدها فى مخلوق بشرى يقوم بدور يستطيع نقله إلى مملكة القداسة. ولعل التأليه فى هذا الإطار، واضح فى الألقاب التى حملها وحجم السلطة التى تبوّأها. حقًا كان فى الأصل "شيخ - رئيس" و"ذاك الذى ينتمى لنبات السوت"، ولكنه أصبح الآن تجسيداً لـ "حورس" الإله - الصقر. وكان فى وقت من الأوقات حاكمًا لتجمُّع يحيطه سور، ولا يحتاج إلاّ إلى الفطنة الدبلوماسية والحنكة الإدارية، وها هو يغدو الآن سيد حرب ناجحًا تمكّن بعصاه من "بسط سيادته" على وادى النيل بأسره حتى رأس الدلتا. وتشير أسماء أسلافه (أو الألقاب التى انحدرت إلينا) إلى نصر دموى: "حورس - هنا - كى - يبقى" ، و "حورس - يقاتل"، و "حورس هو ثعبان الكوبرا"، و"حورس يقطع الرأس"(٨٤).

لم تكن الظاهرة الجديدة، بطبيعة الحال، سوى الملكية المقدسة أى حكم إله(٨٥). وعلى نحو ما ظهرت فى مبتدئها - وكان انبثاقها وتبلورها فى آثار مشهودة سريعين -

تأسست تلك الظاهرة على طبقة تحتية Soubassement أفريقية عريضة لا تخطئها عين[٨٦]. مع استعارات بارزة بنفس الدرجة من أماكن أخرى. وكان الملك/الفرعون المصرى مرتبطًا بصورة وثيقة، منذ البدء، بخصوبة النيل وأرض مصر. فهو يضمن، شخصيًا، هذه الخصوبة، ومجرد قدومه إلي "بحيراته ... بالغيطان والمروج الخضراء ... يجعل الحشائش والأعشاب تنمو على الضفاف" (PT 508/9) (متون الأهرام ٥٠٨-٩) وخلال الموت ينتصر على الفساد والفوضى، ومثلما فعل "أوزيريس" الذى يعد تجسيداً للقبر، يواصل إكساب التربة والنهر بتدفقه الباعث على الحيوية؛ وابنه وخلفه على العرش "حورس" الجديد أنزل الهزيمة بالفوضى: "ست"؛ وانتقم لـ والده، وبمساعدة أمه "إيزيس" (كما نطق اسمها اليونانيون) أعاد لوالده وجودًا فى دنيا أخرى[٨٧]. وعلى غرار ما هو الحال فى كل مطرح آخر فى أفريقيا، فالأسلاف، ككتلة واحدة أى ككل، وليس شجرة عائلة معينة ومحددة، هم الذين يُعوَّل عليهم فى تجذير مفهوم الملكية الذى كان قد نهض للتو، فى الماضى السحيق، وفى لحمة نسيج الجماعة. إذ إن الفرعون/الملك لم يكن مجرد شخص قفز كى يقبض على زمام الحكم، بل الوريث الشرعى لأسلافه، و"أكبر الكبار" ومحبوب الآلهة. ويجتمع سائر أبناء الجماعة من أعلاهم إلى أدناهم شأنًا، بالإضافة إلى "أرواح" الأسلاف وآلهة البلدة والمقدسين المحلين عن بكرة أبيهم كى يسبغوا رضاهم على تجسيد الإله - الملك / الفرعون ثم يعودون إلى الاجتماع فى جلسة خاصة فى أوقات متفرِّقة خلال حكمه الحالى كى يعيدوا تأكيد رضاهم[٨٨].

ولكن إذا كانت سمات الملك/ الفرعون الأفريقية هى أشد ما يخلب منا الأبصار، فإن هناك مهمات وسمات رمزية توغل بنا فى أعماق هذا المجال. ففى أواخر الحقبة الجرزية، وعندما استكمل أو كاد شيخ / رئيس "هيراكونبوليس" النائية توسيع مملكته حتى بلغت حدودها رأس الدلتا، شرع بصورة واعية بالذات فى ارتداء غطاء رأس خاص كرمز ظاهر لمكانته. وكان هناك تاج مفتوح من أعلى أخضر اللون (وفى وقت لاحق أحمر) معروفًا منذ وقت طويل على امتداد الوادى، وسرعان ما صار متعارفًا عليه (بصورة متكلفة) كالتاج الذى يرمز لحكم الدلتا. ولكن الغطاء القومى لرأس الملك/الفرعون كان مستطيل الارتفاع بَصلىّ الشكل أبيض اللون، ويوجد تاج مناظر له

فى المستويات الموغلة فى القدم فى منطقة "سوسة"[٨٩] فى بلاد الرافدين. وفى سبيل تأكيد وإشاعة قسوة النظام ونزعته الحربية إلى حد لا يطيق وجود أى منافسين، لجأ الملك/الفرعون إلى عدد من "الموتيفات" والرموز المحددة. ويعيد إعدام الأسرى إلى الأذهان بقوة نظائر مماثلة فى بلاد الرافدين[٩٠]. و "موتيف" النصر الفذ، أى منظر الضرب على الرأس، الذى أكسبته لوحة "نارمر" شهرة واسعة، قفز فجأة فى سائر الذخائر الفنية فى الأسرة الأولى، إلاَّ أن لهذا المنظر نظيراً سابقًا عليه فى "سوسة" عند مستوى طبقة C[٩١]. أما "الموتيفات" التى تشتمل على أسد ينهش ثوراً أو يسحق خصمًا، وسواء ظهرت على بيارق فيما يدل على تقسيمات إقليمية جديدة (كالمراكز أو المديريات) أم كإشارات للتبشير بقدوم ميمون، ينبغى فهمها كلها على أنها أشكال للملك/الفرعون (لوحة رقم ٣) نجد لهذه "الموتيفات" هى الأخرى نظائر عريقة لها على امتداد الشرق الأدنى، لكنها ظهرت، بصورة مفاجئة، نسبيًا فى مصر مع نشأة الملكية.

كانت الملكية تمثِّل، رغم الآثار التى توفَّرت عن جنورها المتباينة، مفهومًا جديدًا، وكان مؤسسوها يفكرون فى صورٍ جديدة. فاعتباراً من " نقطة بدء راهنة" أدت فيها المقتضيات المناخية إلى زيادة ملموسة فى تركز السكان، ولم تفرض على شيخ القبيلة أن يتحايل على المشاكل بحلول مؤقتة وحسب، بل وأن يصبو أيضًا إلى المستقبل الذهبى الذى يتحكم فيه فى حركة النقل والانتقال لمسافات أبعد، وكانت مؤسسة الملكية الوليدة قد تشبعت بالهدف، واندمغت بـ "المصير الواضح" للسيطرة المتنامية باستمرار على الموارد. وجاءت النوبة والدلتا فى المرحلة التالية[٩٢]، ووراءهما - ولم لا ؟ - ليبيا وسيناء والمشرق. (لوحة رقم٣) .

تقدم لنا التغيرات السكانية فى مصر فى أوائل الأسرة الأولى تناقضًا صارخًا مع فلسطين. فلقد حوَّل المصير الواضح لـ "ربيب حورس" Protégé of Horus الجماعة إلى "أمة": كانت مصر عبارة عن بلدة زراعية جرى توسيع نطاقها كى تلائم الشكل السياسى الجديد[٩٣]. وفى سبيل النجاح وجد أولئك المشاركون فى إحراز النصر وتوجيه التنظيم أنفسهم مضطرين إلى النمو عدديًا مع الزيادة العددية للجماعة. واقتضى التحكم يومًا بيوم فى "بلدة" لا يُستطاع الوصول إلى أطرافها فى بحر يوم

واحد إلى الرسل والمندوبين المقيمين ومسئولى النقل؛ وتطلّب تطبيق الإجراءات اللازمة هيئة من المستخدمين، ومضيفًا لإطعام وإيواء هؤلاء التابعين الجدد، واحتاج الشيخ الرئيس منتجين للأغذية وموردين لها، وموظفى خدمات. أما فى المشرق وبلاد الرافدين، فلقد ظهرت المدينة أو المتروبول (= العاصمة الكبرى) فى أى دولة إلى الوجود بصورة بطيئة وخلال نمو تلقائى نتيجة لظهور سوق يجرى خلاله تبادل المنتجات، ووجود عوامل اجتماعية ظلت تعمل عملها على امتداد القرون؛ ولكن المتروبول فى مصر التى أُطلق عليها اسم "الحصن الأبيض" (وفى وقت لاحق "منف")[٩٤]. فظهرت إلى الوجود بصورة مفاجئة، وخلال الإرادة الواعية لفرد فذ، ونتيجة لضرورة سياسية. وتمثّل الأساس الذى قامت عليه فى تركز قوة العمل: أحواش واسعة تحيط بها أسوار مشرشرة من الطوب الأخضر، لتوفير الحماية لمجاميع العمال الذين يحتاج إليهم النظام الجديد[٩٥] (شكل رقم ٢). ووفّر "مقر" الملك/الفرعون بؤرة لعدد دائم النمو من "المكاتب"، وأسفرت عبادة الأسلاف عن قيام عدد دائم التزايد من المنشآت الجنائزية، بل وبلاد الشعائر التى يقطنها سدنة مقيمون. وفى عبارة موجزة، ضربت "مدينة إله"[٩٦] ، بكل معنى للكلمة، بجذورها فى شريط يمتد طوله إلى أربعين كيلو مترًا من الوادى، ويستند إلى رأس الدلتا. وهو أمر لم يشهد أحد، سواء فى مصر ذاتها أو المشرق له شبيهًا من قبل. وشعرت فلسطين بالانجذاب الذى تولّد عن حب الاستطلاع، ولكن مصر كانت، هى الأخرى تتطلع إلى ما وراء الحدود. كيف ووفق أى شروط، ركّز المصريون نظرتهم على فلسطين؟ هذا ما سوف نراه فى الفصل التالى.

الهوامش

(١) للاطلاع على أعمال عامة حول ما قبل التاريخ المصرى انظر:
J. Mellaart, The Earliest Civilizations of the Near East(London,1965); idem, The Neolithic of the Near East(London,1975);W.C.Hayes,Most Ancient Egypt (Chicago,1965); M.Hoffman,Egypt before the Pharaohs (New York, 1979); J.L.de Cenival,L'Egypte avant les pyramides (Paris,1973); V.Gordon Childe,New Light on the Most Ancient Near East (London,1953);f.Debono,in J.Ki-Zerbo,ed,General History of Africa(London,1981), 634-55;D.A.E.Garrod and J.G.D. Clark,CAH (1971)70-89
أما الذين يريدون قائمة كاملة بالمصادر فى هذا الصدد فينبغى عليهم أن يرجعوا إلى (K.R.Weeks) فى : A Bibliography of Egyptian Prehistory (New York,1985)

(٢) P.E.L.Smith,Scientific American 235(1976),30-38.

(٣) C.B.M.McBurney,The Stone Age of North Africa (Harmondsworth, 1960), 122; W.C. Hayes, JNES 23(1964);78;R.Said and F.Yosri,BIE 45(1986),1-30.

(٤) F.Bordes,The Old Stone Age (London,1968),64-76;D.Gilead,World Archaeology 2 (1970),1-11;P.M.Vermeersch et al.,Paleorient 4 (1978),245-52.

(٥) K.S.Sandford,Palaeolithic Man and the Nile Valley in Upper and Middle Egypt (Chicago,1934);J.Vandier, Manuel d'archeologie égyptienne (Paris,1952) ,41.

(٦) R.W.Fairbridge,Kush 11 (1963),98ff.; K.W.Butzer and C.L.Hansen,Desert and River in Nubia (Madison,Wis.,1968);K.W.Butzer,Environment and Archaeology (Chicago, 1971),553;J.Mellaart,The Neolithic of the Near East (London,1981), 264; F.Hassan, in L.G.Freeman,ed.,Views of the past(The Hague,1978),153-76.

(٧) ينبغى أن نضع فى الحسبان أن القول الذى يذهب إلى أن المستنقعات كانت منتشرة خلال العصور قبل التاريخية فى وادى النيل و وقع على كاهل السكان أن يجففوا تلك المستنقعات ويحولوها إلى أراض زراعية (McBurney,Stone Age,142) أصبح الآن مجافياً للصواب. Cf. K.W.Butzer, Bull Soc Geog Égypte 32(1959),47: "كان نطاق المستنقعات والبرك الدائمة محدوداً للغاية بل وكان تافهاً لا يأبه له على وجه التقريب، حتى خلال عصور المستوطنات الأولى. وكان الشطر الأعظم من السهل يتكون من أحواض يغمرها الفيضان بصفة موسمية مثلما هو الحال اليوم". Idem,Environment and Archaeology,601.

(٨) Butzer,Environment and Archaeology,547

(٩) إذا أراد القارئ معرفة المزيد عن هؤلاء "الناتوفيين" فعليه بالاطلاع على:
D. Garrod,The Natufian Culture (London,1957); K.M.Kenyon, Advancement of Science 26(1969-1970),1-17;Mellaart, The Earliest Civilization of The Near East,22-32; idem,The Neolithic of the Near East,28-38.

(١٠) لمزيد من المعلومات حول الدرب الغربى انظر:
K.W.Butzer,Early Hydraulic Civilization in Egypt (Chicago,1976),
ولمزيد من المعارف حول الخرطوم فى العصور الحجرية الوسيطة انظر:
B.Trigger,in Ancient Egypt,A Social History (Cambridge,1983),16;Cf.also Clark, CAH I (1971), 34ff; R.Derricourt, JNES 30 (1971),1-9

(١١) للاطلاع على مزيد من الأعمال التى تتناول التدفق من الجنوب إلى الشمال، انظر:
McBurney, Stone Age,128,161;R.Solecki,Kush 11(1963)k70;E.Strouhal,Journal of African History 12(1971),1-9.

(١٢) J. M. Renfrew in P. Ucko and G. W. Dimbleby,Domistication and Exploitation of Plants and Animals (London,1969) ,149ff.;Trigger,Ancient Egypt ,17ff.

(١٣) Trigger, Ancient Egypt ,10.

(١٤) M. Hoffman, JNES 39 (1980), 119-39.

(١٥) Butzer, Bull Soc Geog Egypt 32 (1959) ; idem, Environment and Archaeology, 602.

(١٦) حول هذه المقاومة للتغيير، الأمر الذى أدى إلى نشوء اقتصاد مختلط يجمع بين قنص الحيوانات وصيد الأسماك وفلاحة الأرض خلال العصر الحجرى الحديث فى مصر، انظر:
W.C. Hayes, JNES 23 (1964), 226; K.A. Wittfogel Oriental Despotism (New Haven, Conn., 1957) 19;Trigger,Ancient Egypt,20.

(١٧) حول التمدين فى مصر القديمة انظر: B.J. Kemp, Antiquity 51 (1977).

(١٨) Hoffman, Egypt before the Pharaohs, 307.

(١٩) H. Goedicke,JSSA 16 (1986),57-62.

(٢٠) K. Sethe, Urgeschichte und älteste Religion der Ágypter (Leipzig, 1930), 3ff.; on the nature of the local god in Ancient Egypt
حول طبيعة الإله المحلى فى مصر القديمة انظر:
see E. Hornung, Conceptions of God in Ancient Egypt (Ithaca, 1982), 70-74.

(٢١) طبيعة الارتباط تختلف من مكان لآخر ما بين التماثل التام إلى الصلة الواهية بين الرمزين المقدسين اللذين ينتميان لوضعيتين مستقلتين. انظر:
H.Frankfort, Ancient Egyptian Religion (New York,1948), 3-29; Sethe, Urgeschichte, 6-7; S. Schott, Hieroglyphen (Mainz,1950),15ff.; J.Assmann, BN(1980), 46ff.

والشعارات المقدمة تشمل الحيوانات (كالبقرة والأسد والثور والتمساح) والطيور (كالصقر وأبو منجل والنسر) والحشرات (كالجعران والحريش "أم أربعة وأربعين" والنباتات (الجميز والدفل) والأشياء غير الحية (الجماد) (= كالعامود والأوتاد) ولا يزال رهن النقاش ما إذا كان فى انتشار مثل هذه الشعارات دليل على وجود مرحلة طوطمية أقدم فى تطور الديانة المصرية.

(٢٢) W. Helck, Untersuchurgen zu den Beamtentiteln des Ägyptischen Alten Reiches (Glückstadt, 1954), 51.

وفى الأزمنة التاريخية حافظ المصريون على هذا اللقب كى يطلقوه على الحكام الأجانب.

(٢٣) Cf. The "corporation" and the "council" of Heliopolis, and its role in the Old kingdom:

حول "الجمعية" والمجلس" فى "أون" (= هيليوبولس) ودورهما فى المملكة القديمة، انظر:

R. Anthes, JNES 18 (1959), 192-94.

(٢٤) See E. Otto, WO 1 (1947-1952), 445; H.Goedicke, Die Stellung des Königs im alten Reich (Wiesbaden, 1960), 17-37; E.J. Baumgartel, The cultures of Predynastic Egypt (Oxford, 1960), 2:142-43; idem, JEA 61 (1975),28-32.

(٢٥) J.G. Griffiths, The Conflict of Horus and Seth (Liverpool, 1959), 147-48.

(٢٦) Baumgartel, predynastic Egypt, 2:152-53; Trigger, in Weeks, Egyptology and the Social Sciences, 51-52.

(٢٧) J. Cerny, Ancient Egyptian Religion (London, 1952), 16; Otto, WO 1 (1947-1952), 434; I.E.S. Edwards, The Pyramids of Ancient Egypt (Harmondsworth, 1962), 34; the circumpolar stars, "they that know not destruction," particularly fascinated the ancients.

تلك النجوم "التى لا تعرف الهلاك" خلبت لب القدماء على وجه الخصوص.

(٢٨) S. Schott, Bemerkungen zum ägyptischen pyramidenkult (Cargo,1950), 142; H. Kees, Ancient Egypt: A Cultural Topography (London,1961), 25.

(٢٩) W.Heck, Ar Or 20 (1952), 83; J.G. Griffiths, The Origins of Osiris and His Cult (Leiden,1980),166.

(٣٠) Schott, Pyramidenkult, 142,162-64; A. Scharff, Das Grab als Wohnhaus in der ägyptischen Frühziet (Munich, 1947); see H.Kees, in S.A.B.Mercer, The Egyptian Pyramid Texts (New York,1952),124-127; J.Settgast, Untersuchungen zu altägyptischen Bestat-tungsdarstellungen (Glückstadt,1963),114.

(٣١) K. Kenyon, PEQ (1960), 1-21; idem, Digging Up Jericho (New York, 1957), 65-76.

(٣٢) G. Buccelati, Cities and Nations of Ancient Syria (Rome, 1967), 40-41

(٣٣) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب.

(٣٤) Mellaart, The Neolithic of the Near East,61-62.

(٣٥) Ibid., 67-69.

(٣٦) A. J. Arkell and P.J.Ucko, Current Anthropology 6 (1965), 145-65.

(٣٧) حول الرى انظر:

W.Schenkel,Die Bewasserungsrungsrevolution in alten Ägypten (Mainz,1978); Butzer, Early Hydraulic civilization; in D.Schmandt-Besserat,ed.,Immortal Egypt (Malibu,Calif.,1978),13-18.

(٣٨) حول ما يسمى بالثورة الحضرية، انظر:

V.Gordon Childe, Man makes himself (London.1936),157-201;idem,New Light,98ff.; J.Wilson,The Burden of Egypt (Chicago,1951),29ff.;cf.the remarks of Butzer in Environment and Archaeology,603-4.

(٣٩) R. Engelbach, ASAE 42 (1943), 193-221; D. E. Derry, JEA 42 (1956), 80-85; W. B. Emery, Archaic Egypt (Harmondsworth, 1962),38-40.

(٤٠) انظر:

A.C.Berry,and P.J.Ucko,Man,n.s.2 (1967),551-68;Trigger,Ancient Egypt,12-13.

(٤١) Kees,Ancient Egypt: A Cultural Topography,ch.1.

(٤٢) يلاحظ "تريجر": Trigger في كتابه "Ancient Egypt" أن لفيض الفيضان بدءًا من "أبيدوس" وصاعدًا باتجاه الجنوب أحواضًا طبيعية أصغر، الأمر الذى يجعل الرى أسهل مما هو عليه كلما هبطت باتجاه الشمال.

(٤٣) K. Bard, JARCE 24 (1987), 81- 94.

(٤٤) W.M.F. Petrie and J. E. Quibell, Naqada and ballas (London, 1896); J.J. Castillos, JSSEA 11 (1981), 97-106.

(٤٥) W. Kaiser, MDAIK 16 (1958), 183-92; B. Adams, Ancient Hierakonpolis (Warminster, 1974); idem, LdÄ 2 (1977), 1182-86

وحول الاسكتشافات الجديدة، انظر:

M.Hoffman, Expedition 18 (1976),32-41; idem,Anthropology 4 (1980),51-70.

(٤٦) Cf. B. J. Kemp, JEA 52 (1966), 21.

ولكن هناك احتمالاً بأن تكون "هيراكونبوليس ربما ضمت هى الأخرى مدافن ملكية.

Idem,JEA 59 (1973),36ff.

(٤٧) للاطلاع على مزيد من الأعمال حول "بوتو" انظر:

H.Altenmüller,LdÄ 1 (1975), 887-89, D.B.Redford.

(٤٨) J. Baines and J. Malek, Atlas of Ancient Egypt (london,1980),170.

(٤٩) انظر E.S.Hall and B.V.Bothmer, eds.,Mendes,2vols.(Warminster,1976-1980).

(٥٠) C.Aldred, Egypt to the End of the Old Kingdom (London,1965),36-42; E.J.Baumgartel ,CAH 1(1971),ch.9; J.Eiwanger,in J.Assmann,ed.,Problems and Priorities in Egyptian Archaeology (London,1987),81-104.

(٥١) Butzer, Early Hydraulic Civilization,7; idem,JNES 44(1985), 306

ويبدو أن بداية الأسرة الأولى تقع فى فترة قريبة من سنة ٣٠٥٠ ق.م.: انظر فى هذا الصدد:

F.A.Hassan and S.W.Robinson,Antiquity 61(1987),125.

(٥٢) B.Trgger, History and Settlement of Lower Nubia (New Haven, Conn., 1959), 68-72.

(٥٣) Butzer,Environment and Archaeology,602.

(٥٤) Hoffman, Egypt Before the Pharaohs,309-10.

(٥٥) Wilson,Burden,29 ff.:Wittfogel, Oriental Despotism, 16ff.;E.Boserup, The Conditions of Agricultural Growth (Chicago,1965),11.

(٥٦) من بين الكم الضخم من الأدب الذى يدور حول هذا الموضوع، يستطيع المرء أن يرجع إلى ملخصات تؤدى الغرض فى هذا الباب من قبيل:

H.Frankfort,The Birth of Civilization in the Near East (Bloomington,Ind.,1951); Baumgartel CAH 1(1971),ch.9; W.S.Smith and W.K. Simpson, The Art and Architecture of Ancient Egypt (Harmondsworth,1981);Trigger, Ancient Egypt; Aldred,Egypt,31ff.

(٥٧) A. L. Kelly, JSSEA 4 (1973), 5-8.

(٥٨) للاطلاع على مثل هذه العمارة فى "هيراكونبوليس" انظر:

K.R. Weeks,JARCE 9 (1971-1971),29-33; W.A.Fairservis,Jr.,The Hierakonpolis Project,vol.3 (Poughkeepsie,N.Y.,1986).

(٥٩) H. Kantor, in R. Ehrich, ed., Relative Chronologies in Old World Archaeology (Chicago, 1965),fig.2.

(٦٠) A.Lucas, JEA 16 (1920), 200-212.

(٦١) للاطلاع على تعاصر الفترة المتأخرة من حضارة "أوروك" (فى العراق) مع الحضارة الجرزية (فى مصر) و "جمدت – نصر" مع الأسرة الفرعونية الأولى انظر:

F.Hassan and S.W.Robinson, Antiquity 61 (1987),125.

(٦٢) LeBretton, Iraq 19 (1957), 79- 124.

(٦٣) انظر الأعمال التى ورد ذكرها فى:

(٦٤) P. Amiet, La glyptique mésopotamienne archaique (Paris, 1961), sealing R (I am indebted to Mrs. Ferrie for drawing my attention to this example).

(٦٥) M. V. Pope, Antiquity 40 (1966), 17ff.; E. S. Meltzer, in P. A. Kolers et al., eds., processing of visible Language (New York,1980), 2:43-66; W. Schenkel, GM 52

(1981), 83-95; W. Helck, in P. Posener-Kriéger, ed., Mélanges Gammal eddin Mukhtar (Cairo, 1985), 1:395-408; idem, Untersuchungen zur Thinitenzeit (Wiesbaden, 1987), 138-43.

ينبغى أن نلاحظ أن مبدأ الكتابة المقطعية الذى يقف وراء القلم المسمارى غير معروف فى تطور القلم الهيروغليفى المصرى.

(٦٦) H. kantor, in Ehrich, Chronologies, 10; A. Kelley, JSSEA 4 (1973),5-8.

(٦٧) فى حقيقة الأمر تأتى بعض أفضل التناظرات من إيران:

Le Bretton, Iraq 19 (1957),79-124; E.Heinrich,Die Tempel und Heiligtümer in alten Mesopotamien (Berlin,1982),1:38.

(٦٨) H. Heinrich Kleinfunde aus den archäischen Temtelschichen in Uruk (Berlin, 1936), 11; Trigger, Ancient Egypt, 39.

(٦٩) J. Makkay, Iraq 45 (1983), 1-6.

(٧٠) Petrie, JRAI 31(1911), 250;

انظر:

W.Davis, in R.Robertson, History of African Archaeology (London,1990),277-78.

(٧١) W. Kaiser, MDAIK 16 (1957), 189ff.; H. Case and J. C. Payne, JEA 48 (1962), 11; J. C. Payne, JEA 59 (1973), 31-35.

(٧٢) Cf. A. Scharff, SBAW (1942), 3, 23,; E. J. Baumgarted, Ar Or 20 (1952), 281; S. Yeivin, Polotsky Festschrift (Jerusalem, 1964),27.

(٧٣) W. F. Albright, The Archaeology of Palestine (Harmondsworth, 1949), 72; E. Anati, Palestine before the Hebrews (New York, 1963), 354; Trigger, Ancient Egypt, 39; W. M. Davies, JSSEA 11 (1981), 21-27.

(٧٤) Baumgartel, Cultures, 1:42.

(٧٥) Ibid., 2:14-18; A. Lucas,JEA 14 (1928), 313ff.

(٧٦) للعلامات الهيروغليفية التى تُكتب بها كلمات "عين وأذن ويد" قيم صوتية تتماثل مع جذور فى اللغات السامية الغربية، إلا أن الكلمات المصرية لهذه الأطراف الثلاثة مختلفة تمام الاختلاف.

K.Sethe,ZÄS 50 (1907),91ff.;E.Otto, WO 1,no. 3 (1948),144;see D.B.Redford, in B.Bryan,ed., Festschrift for Hans Goedicke (Baltimore,1991),forthcoming.

(٧٧) K. A. Kenyon, Archaeology in the Holy Land (london, 1979), 49-50.

(٧٨) Ibid., 63;cf. H. Kantor, JNES 1 (1942),177;J. Kaplan,IEJ 9 (1959),134-36.

(٧٩) Kantor, in Ehrich, Chronologies, 6-9; B. Hannessy, The Foreign Relations of Palestine during the Early Bronze Age (London, 1967), 26-35; R. Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land (New York, 1970), 22-35; O. Bar Yussef, IEJ 27 (1977), 65ff.; W. S. Smith and W. K. Simpson, Art and Architecture of Ancient Egypt[2] (Harmondsworth, 1983), 433, n. 27.

(٨٠) Albright,Palestine, 71; Kenyon, Holy land, 80.

(٨١) G. E. Wright, The Bible and the Ancient Near East (New York, 1965), 100, and 130, n. 46; Kantor, in Ehrich, Chronologies, 11-14.

(٨٢) O'Connor,Cambridge Encyclopedia of Archaeology, 131; M. Saghieh, Byblos in the 3rd Millennium B. C. (Warminster, 1983), 129.

(٨٣) انظر:

J.Leclant,Orientalia 55 (1986),242-43;56 (1987),301-2: T.von der Way,MDAIK 43 (1986),241-57;

وحول انتشار الثقافة السومرية فى شمال سوريا خلال الألف الرابع ق.م. انظر:

J.Oates,Babylon (London,1086), 29 and n.1;

وحول ديموجرافية (الطبيعة السكانية) الدلتا انظر:

Redford,in Bryan,Goedicke Festchrft.

(٨٤) حول الأسماء الملكية للأسرة الأولى انظر أحدث عمل لـ:

Helck, Thinitenzeit 115-18

أما بالنسبة للأعمال الأقدم لـ: "هيلك": Helck فبوسع المرء بل و يتعين عليه، على وجه الاحتمال، أن يتحفظ على عدد من ترجماته.

(٨٥) بين أفضل الأعمال التى تدور حول النظام الملكى فى مصر القديمة يجدر بالمرء أن يرجع إلى ما يلى:

W. Barta, Untersuchungen zur Göttlichkeit des regierenden Königs (Munich,1975); H.Brunner,Universtas 11(1956)k797-806;H.W.Fairman, in S.H.Hoole, Hooke,ed., Myth,Ritual and Kingship (Oxford,1956),74-104;H.Frankfort, Kingship and the Gods (chicago,1951);H.Goedicke, Die Stellung des Königs im allten Reich (Wiesbaden,1960); J.P.Lauer, BIFAO 55 (1956),153ff.; G.Posener, De la divinité du pharaon (Paris,1960).

(٨٦) Cf. E.L.R. Meyerowitz, Divine Kingship in Ghana and Ancient Egypt (London,1960).

(٨٧) انظر: Griffiths,Origins of Osiris .

(٨٨) حول "الأسلاف" انظر:

D.B.Redford in Pharaonic King-lists,Annals and Daybooks (Toronto.1986),137-140 (فى مواضع مختلفة من النص المذكور) and passim.

(٨٩) Amiet, La glyptique mesopotamienne, no. 282; Heinrich, Temple und Heiligtümer, 1:38.

(٩٠) Quibell, Hierakonpolis, 1:pls. XI;XII, no.4-6;XV.

(٩١) Le Bretton,Iraq 19 (1957), fig.18,no.4.

(٩٢) كانت عملية ضم مصر السفلى، الدلتا عنوة، ممدودة استغرقت وقتاً طويلاً، ومن الخطأ البيّن أن نتصور حدوثها دفعة واحدة على نحو ما يوحى لوح "نارمر":

W.Kaiser,ZÄS 91(1964),86ff.

(٩٣) Otto.WO 1 (1947),445-46.

(٩٤) K.Zibelius, Ägyptische Siedlungen nach Texten der alten Reiches (Wiesbaden,1978),39-42.

(٩٥) "حووت" (Hwt) حظـيرة وفى وقت لاحق "حـوش" (نو طبيعـة جنـائزية فى الغـالب). وعن هذه الكلمة، انظر:

H. Jacquet-Gordon, Les noms des domaines funéraires (Cairo,1962) M.Atzler, CdE 47(1972),17ff,'A.Badawy, LaÄ 2 (1978),194-203.

(٩٦) Cf. "(Divine) Falcon-town" as a designation of the residence:PT 417 a.

الفصل الثانى

مصر العليا ومصر السفلى والبلاد المسوَّرة فى آسيا

تغص الفنون التى عرفها أواخر عصر ما قبل - التاريخ والأسرة الأولى بشخصيات، على هيئة "موتيفات" مقولبة Stereotyped نوعًا ما راجت فى الذوق العام فى ذلك الوقت، وقامت بدور "المغلوبين". وأدى الدافع اللاواعى لتصوير مثل هؤلاء الأعداء على هذا النحو الشائن تمامًا، والفاقد لكل اعتبار، إلى تصوير دائم لشخص أشعث، عريان فى غالب الأحيان، بصرف النظر عن هوية وطنه[١]. وبالتالى صار من الصعب فى معظم الأحيان أن ينفذ البصر خلال حاجز التنميط كى يحدد المرء أى شعب أجنبى ذاك الذى يريد الفنان تسجيل هزيمته[٢] ولا يتبدل الأمر، إلاّ عندما يرى الفنان أن يضمِّن المنظر عدة الحرب أو الشعارات الخاصة[٣]، أو أن يشرح الصورة التى يرسمها بوضع "اسم" (المغلوب)، فعندئذٍ وحسب ندرك أننا فى حضور هذا الأجنبى أو ذاك.

يرجع الفضل إلى مثل تلك الشروح مع ثبات التصوير طوال المملكة القديمة، فى أننا نستطيع على وجه التقريب أن نصف الرجل الآسيوى الذى عاش فى أوائل الألف الثالث ق.م بأنه شخص ملتحٍ ذو شعر مضفور تجمعه عصابة رأس كى تتركه ينسدل خلف أذنيه. أما زيه الرئيسى فعبارة عن نقبة تصل من خصره حتى ركبته[٤]. ولكنه كان يلبس على وجه الاحتمال، عباءة أثقل أو فروة شاة فى فصل الشتاء[٥].

فلسطين خلال المملكة القديمة:

قد توحى هذه التصاوير المتفرقة التى لا تتسم بأى قدر من الود تجاه الآسيويين بأن فلسطين كانت متخلفة، ولا تنطوى إلاّ على أهمية ضئيلة، غير أن الصورة التى تمدنا بها الآثار تصحح لنا هذا الانطباع الزائف. حقًا تقع مستويات أوائل العصر البرونزى فى معظم تلال فلسطين عند أعماقٍ منخفضة للغاية تحت الطبقات التى ستَّفتها الفترات اللاحقة الواحدة على الأخرى، إلى الحد الذى يستعصى فى غالب الأحيان إخضاعها للتنقيب والدرس بصورة مكثَّفة على النحو الذى نرجوه. ولكن الفضل يرجع إلى الجهود المنسَّقة التى قام بها باحثون معاصرون من أمثال آر. عميران R. Amiran وآر. جوفنا R. Gophna فى إسرائيل، والراحلة مدام " كاثلين كينيون" Kathleen Kenyon من بريطانيا، ودبليو. ديفر W. Dever وآر. تى . شوب R.T. Schaub ودبليو. راست W.Rast وإس. هيلمز S. Helms من الولايات المتحدة، وبى. هينيسى B.Hennesey من أستراليا، فى أننا أصبحنا الآن فى وضع أفضل كثيراً كى نقيِّم طبيعة تلك المستوطنات التى قامت فى فلسطين وأن نتمعَّن فى السكان والعوامل الاقتصادية (شكل رقم ٣)(٦).

وينبغى أن نشير، فى هذا الصدد، إلى أنه على الرغم من أن فلسطين فى مطلع العصر البرونزى كانت تتمتَّع، بكل جلاء، بدرجة من الرخاء تعادل ما تمتَّعت به فى وقت لاحق خلال أيام الازدهار فى الإمبراطورية الرومانية، وذلك رغم أن عدد السكان كان يُقدَّر وقت ذاك بما يصل إلى مائة وخمسين ألف نسمة، وبلغ عدد المستوطنات المكتشفة نحو تسعمائة مستوطنة. إلاّ أننا لا نستطيع توصيف المجتمع أو الاقتصاد فى ذلك الوقت أى إبان العصر البرونزى بأنه "حضرى". فلم تتجاوز مساحة أكبر المواقع ستة عشر هكتاراً، وهو الأمر الذى يتناقض بشكل صارخ مع مساحة "أوروك" التى بلغت أربعمائة هكتاراً فى وادى الرافدين أو مساحة "منف" التى وصلت إلى خمسة كيلو مترات مربعة فى مصر. والحقيقة أن تلك التجمعات التى قامت فى فلسطين لا تعد "مدنًا" بحال من الأحوال، بل ولعلها لا تزيد على بلاد مسوَّرة، يستطيع السكان الريفيون أن ينسحبوا إليها متى أحدق بهم الخطر.

غير أن فلسطين تكشف، رغم هذا التحفظ، عن دلائل ملحوظة على وجود سكان أثرياء ومفعمين بالحيوية، يتمتّعون بحياة تنظِّمها مجالس بلدية وتجارة دولية جيِّدة. وكان السكان موزعين بالتساوى، إلى هذا الحد أو ذاك، بين السهول والمرتفعات، مع وجود أعلى كثافة فى وادى الأردن ووادى "جزريل" والسهل الساحلى الشمالى. وكان السكان مركزين فى حوالى عشرين بلدة كبرى، يعيش فيها نحو نصف إجمالى السكان، وتقوم مقام النويات التى يدور فى فلكها عدد أكبر كثيراً من القرى والكفور الصغيرة. ولقد بدت هذه القرى والكفور ملتفّة داخل محيط لا يبعد أكثر من مسيرة يومٍ عن المستوطنة الكبرى أو (الأم)، وهذه حقيقة قد تؤيد افتراض وجود هيكلٍ سياسى يقوم على سلسلة من الكانتونات شبه المستقلة. وكانت كل بلدة كبرى محصَّنة، بصورة جيدة بأسوار من الطوب الأخضر والحجر (يعتمد الأمر على نوع المواد المتوفرة للبناء). وكانت بعض هذه الأسوار تصل فى السُّمك إلى عشرة أمتار، وتحيط بها منصات منحدرة glacis لأغراض الدفاع. وكانت البوابات محصَّنة والأسوار مدعَّمة بأبراج مربعة أو مستطيلة أو شبه مدوَّرة. وفى الداخل كانت البيوت والمبانى العامة التى تستند إلى نوع "الحجرة الواسعة"، المستطيلة مخططة فى العادة، وفقًا لنمط منتظم، وهوالأمر الذى ينم عن وعى بالتخطيط العمرانى.

وبينما تقوم شواهد على نطاق واسع على الثقافة المادية لفلسطين فى مطلع العصر البرونزى، وأصبحت الآن معروفة على نحوٍ جيد، فإننا لا نستطيع أن نقول إلاّ القليل، إذا كان عندنا أصلاً ما نستطيع قوله فى هذا الصدد، عن الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الدينية للبلاد. فلم تظهر حتى الآن أى نصوص محلية إلى النور، ولعل البحث لا يزال دائرًا حول أىّ نوع من أنواع الكتابة قد استُخدم فى هذه المنطقة، وما إذا كانت تلك المنطقة قد عرفت الكتابة أصلاً فى ذلك الوقت. وبناء عليه فالبحث عن معلومات ذات بال فى هذا الشأن، يجب أن يتجه بحكم الضرورة نحو كتابات الثقافات الكبرى المجاورة، وهو الأمر الذى يعنى بالنسبة لفلسطين أن يتجه نحو أدب المملكة القديمة فى مصر، على ما هو عليه ذلك الأدب من ضعف نسبى.

الهوية العرقية للفلسطينيين فى مطلع العصر البرونزى:

تُرى من يكون أولئك الأجلاف غير حليقى الذقون الذين يعيشون "فيما ما وراء الحدود" على نحو ما كان عليه الأمر، أولئك الذين يقيمون فى هذه البلاد المسوَّرة فى جنوب المشرق(٧)؟ ما هى اللغة التى كانوا يتحدثونها؟ إلى أى عرق كانوا يزعمون أنهم ينتمون؟ ما هو الاسم الذى أطلقه عليهم المصريون؟

يحظى السؤال الأخير على الأقل بإجابة جزئية، إذ نستطيع أن نرى، قبيل سنة ٣٠٠٠ ق.م عندما رفع ظهور نسق الكتابة الهيروغليفية النقاب عن تاريخ المنطقة، أن الأسماء التى أطلقها المصريون على جيرانهم الشماليين نابعة من الملاحظة الشخصية والدعاية التى تحط من شأن الآخر، والمعرفة الجغرافية والوعى اللغوى. فلقد نسبوا هؤلاء الشماليين إلى أزياء الجلود(؟) التى رأوهم يرتدونها. وهكذا أطلقوا عليهم أسماء من قبيل " لابسى المئزر" أو"المئزريين" أو"أصحاب عقدة الكتف" نسبة إلى الطريقة التى كانوا يلجأون إليها فى تثبيت صديرى مصنوع من الجلد فى غالب الأحيان بواسطة سير يعقدونه فوق أكتافهم، ونظرًا إلى نزعتهم البغيضة فى اللجوء إلى استخدام القوس والسهم فى كسب قوتهم، فلقد كانت تسميتهم بـ " القواسين" أو"رجال القوس" ملائمة أيضًا. ونتيجة للعداوة التى يضمرونها تجاه قوات التجريدات المصرية وعمليات السلب والنهب التى يقومون بها بين الحين والآخر عبر الحدود مع مصر، أطلق المصريون عليهم مصطلح "الآسيويون المتوحشون"، وهو مصطلح يقترب فى دلالاته وارتباطاته من المصطلح الشائع فى أيامنا هذه : "الإرهابيون". ولما كانوا يهبطون من جهة الشمال، فلقد ظهر واضحًا بين المصريين وصفهم بـ" الشماليين"، ولكن نتيجة لإقامتهم فيما وراء شبه جزيرة سيناء، فلقد طرح اسم" أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر للرمال" نفسه.

وهناك اسم آخر أكثر إثارة للاهتمام، وهو اسم يساعد، بالصدفة، فى الرد على أسئلة تدور حول لغة وعرق أولئك الذين عاشوا فى أوائل العصر البرونزى، أقصد: "عامو" التى ينطقها الطلاب المحدثون (فى الغرب) لعلم المصريات "آمو"، وذلك لأن حرف العين يعد صوتًا جافًا حنجريًا حلقوميًا، تعرفه اللغات السامية الغربية (واللغات الحامية كذلك) وتجهله تمامًا اللغات الأوروبية. وكان نفس الصوت معروفًا

فى اللغة المصرية القديمة، وإن كان أقـل جفافًا. أما "الألف" الذى يُرمز له بهذه العلامة ، وهو حرف بلعومى تعرفه معظم اللغات التى تبدأ كلمات معينة فيها بصائت vowel فلقد استخدمه المصريون بصورة ثابتة فى تمثيل الحرف الآسيوى الغربى العميق Dark ، أو ربما اللهوى (نسبة إلى لهاة) أى : ا وكان يُستخدم بصورة متبادلة من الناحية الصوتية معه. ووجود مثل هذا الحرف اللهوى ا فى اللهجات السامية الغربية فى الألف الثالث ق.م أمر أثبتته الآن اللهجة "الإبلاتية" eblaite التى أكتشفت فى الآونة الأخيرة لشمال سوريا (وتمثلها اللوحات Tablets التى عثر عليها المنقبون الإيطاليون فى "تل مردخ"[٨] وهى اللهجة التى ظهر فيها الفعل العام alakum ويعنى "ذهب" على هذا النحو ayakum، وبالتالى ينبغى علينا أن نبحث عن كلمة سامية غربية، يكون المصريون قد سمعوها على سبيل الافتراض على ألسنة الآسيويين أنفسهم، تشتمل على هذا السياق من الحروف الساكنة "ع – ل – م"، ومثل هذا البحث ليس عسيرًا، إذ إن معظم اللغات السامية كالفينيقية والأوجاريتية والأمورية والعبرية تشترك كلها فى هذا الجذر: "علمُو" (alamu)، ويعنى "شاب" أو بصفة أكثر عمومية، اسم النوع "الإنسان"، بمعنى "البشر". ولعله من الواضح الآن أن فلسطينيٍّ مطلع العصر البرونزى استخدموا هذه الكلمة فى الدلالة على أعضاء جماعتهم. فكانوا "البشر" و "الناس" بنفس المعنى الذى يتسم بالمركزية العرقية الضيقة الأفق، ذلك الذى احتفظ خلاله كثير من الشعوب البدائية (على سبيل المثال "الأميريندياناانيين" Amerindians) باسم النوع ذاك للدلالة عليهم دون سواهم من بنى الإنسان.

الصلات المصرية مع آسيا فى الحقبة القديمة:

لا تخطئ العين الأدلة التى تقوم على انخراط المصريين فى شئون فلسطين وسوريا خلال الأسرتين الأولى والثانية[٩]. ففى الشذرات التى وصلت إلينا من حوليات حكم الخلفاء المباشرين للفرعون "مينا"، كثيرًا ما يقابل المرء بابًا خاصًا مثل "قمع الآسيويين" أو "المرة الأولى لقمع الشرق"، كحدث دال ينسبون إليه سنة ما[١٠]. وكانت "الموتيفات" الفنية تضم فى بعض الأحيان، شخصًا أجنبيًا أشعث الشعر يرتدى مئزرًا ومقيَّد الذراعين، ويحمل فوق رأسه شرحًا رسمه الفنان بالعلامة الهيروغليفية المجردة

التى ترمز لـ "آسيا". وتؤيد الشواهد الأثرية الأدلة المستقاة من النصوص المكتوبة. فالمقابر التذكارية التى تعود إلى الأسرة الأولى فى "أبيدوس" قذفت إلينا خلال التنقيب بنماذج واضحة من الفخار ترجع إلى أوائل العصر البرونزى عند مستوى حقبة (EBII)، كما تشهد على استخدام الأخشاب اللبنانية فى بناء تلك المقابر(١١).

على أن الصورة ليست أقل وضوحاً على الجانب الآسيوى، إذ نعثر على الفخار المصرى منتشراً على نطاق واسع فى مختلف أرجاء "النقب" وفلسطين الجنوبية فى حقب (EBII). ولقد ظهرت إلى النور، بصورة ليست نادرة، آنية تعود إلى ورش ملكية، وقد نُقش عليها الاسم الحورى (نسبة إلى الإله حورس) للفرعون. كما عُثر أيضاً على سدادات الصلصال التى تقفل الجرار، وقد خُتمت بختمٍ مصرى، بل ووصل الأمر حداً ذهب معه البعض إلى أن أساليب تشييد مستلهمة من المعمار المصرى، سواء بالطوب الأخضر أو الحجر، قد ظهرت فى بعض المواقع(١٢).

ولكن العديد من الأسئلة تظل تشرئب إلى أجوبة رغم الاتساق الظاهر للأدلة. إذ يبدو أن الآثار التى خلَّفها المصريون وراءهم ترسم دائرة نفوذ مقصورة على الطريق الساحلى بين غرب الدلتا وإقليم "غزة الكبرى" و "شيفيلاه" Shephelah الجنوبية و "النقب" حول "أراد" Arad وما غربها. ترى ما العوامل الجغرافية التى تعاونت فى سبيل تحديد مثل هذا الشريط؟ هل جاء التواجد المصرى فى هذا الشريط رداً على غارة مسلحة أم أن الأمر لم يتجاوز اتصالاً سلمياً ألهمته إمكانيات قيام تجارة مزدهرة؟ أى تجريدة، سواء أكانت سلمية أو عسكرية، عبر صحراء سيناء كانت تكلف مبالغ طائلة، فمن الذى كان يقوم بالدفع؟ هل نحن بإزاء مشاريع تموِّلها الخزانة الملكية أم قوافل تجارية خاصة؟ ثم ما الذى جذب المصريين؟ خصوصاً وأن الأراضى التى حددنا معالمها للتو لا تنطوى اليوم على غنى خاص، فهل هل كانت تلك الأراضى وقت ذاك منطقة عبور لأراضٍ أبعد؟ وكيف استقبل السكان المحليون المُفاتحات المصرية فى هذا الشأن؟ هل قاوموا التهديد المصرى (وهو الأمر الذى يفسر ظهور "موتيفات" المعارك والأسرى) أم أنهم رحَّبوا بالوصول الدورى للنموذج الأصلى لقطارات الرحمة "Well's-Fargo" Wagons .

طرح هذه الأسئلة عمل أسهل بما لا يقاس، من الإجابة عليها. فمجرد وجود فخّار أجنبى أو أساليب تشييد أجنبية فى موقع معين لا يعنى، بالضرورة، أن أجانب وصلوا إلى هناك. إذ يمكن للسلع أن تُحمل مع العائدين إلى ديارهم، كما تستطيع المهارات أن تنتقل خلال الذين قضوا بعض الوقت بعيداً عن أوطانهم وفى احتكاكٍ مع أجانب، وهوالأمر الذى يوفِّر إمكانية أن يتعلموا منهم. ومن جانب آخر لا تستطيع الأختام التى ظهرت على مؤنٍ عُبِّئت وأرسلت بصورة رسمية من مصر أن تشير إلى أى شيء آخر سوى وجود مبادرة مصرية الإلهام.

أما أن يكون الإقليم الذى يضم فلسطين الجنوبية وسيناء قد جذب المصريين فأمر لا نزاع فيه. فالشواهد الأثرية التى نجت من عوادى الدهر تشير على نحو شديد البروز إلى منطقة سيناء الجنوبية، الغنية بالفيروز والنحاس حيث كان للمصريين أن ينفقوا، على امتداد ما يقرب من ألفىْ سنة اعتباراً من نهاية الربع الأول للألف الثالث ق.م.، طاقات هائلة فى تعدين ونقل مثل هذه المعادن[١٣]. ولقد علّقوا من الأهمية على حرية الوصول لمناطق التعدين فى "وادى المغارة" (= وادى الكهوف) إلى حد الاستعداد لتحييد السكان المحليين أو التجمعات المجاورة فى "كنعان" الجنوبية بأى وسيلة فى وسعهم، من اجتذابهم إلى صفوفهم فى أوقات السلم أو طردهم بالقوة العسكرية عندما يلجأون إلى التمرد: تغطى حوائط هذا الوادى لوحات مهيبة منحوتة فى الصخور الحية (غير المنقولة) كى تذيع الحقيقة التى تقول "إن الإله الكامل "سى – نفرو" أو "ساحو– رع" أو "إيزيرى" قد أخضع كل البلدان الأجنبية" و"قهر كل رجال آسيا المتوحشين". ويوجه الجسم العملاق المرسوم للإله – الفرعون، وهو يخطو خطوة واسعة نحو شخص أجنبى منبطحٍ أرضاً كى يكيل له ضربة قاصمة، إنذاراً إلى كل من يشبه ذلك الشخص الأجنبى بأن مصر لن تسمح بأى تدخل يعرقل عملياتها التعدينية[١٤].

إلا أن الأدلة تكف مع التوغل شمالاً، عن الظهور بصورة منقوشة (سواء أكانت مكتوبة أو مرسومة)، ويتعيّن، والحال هكذا، الاعتماد بدرجة أكبر على الآثار. ولقد برهن المسح الذى قام به البروفيسور "أليعازر أورين" Eliezer Oren، من جامعة "بن جوريون"[١٥] بـ "النقب" لساحل سيناء على وجود طريق مطروق بشكل جيد بين شرق الدلتا ومنطقة "رفح" و"غزة الكبرى" خلال الأسرة الملكية الأولى فى مصر. ومن هذه

البقعة تمتد سلسلة من المواقع، تقوم عليها أدلة من الأدوات المصرية الصنع، من الشرق حتى "بير سبع"، وتلك عبارة عن شريط من الأرض القاحلة والشحيحة الموارد، التى تعجز عن توفير المآكل أو المشرب لأحد. ولعله من المؤكد أن مواقع مثل "عين بير" Ein Beer ، ورغم وجود أدلة على وجود اتصال وثيق مع مصر(١٦)، استناداً إلى أختام سدادات الصلصال، على نحو ما مر بنا، لا يمكن أن تكون الوجهة الأخيرة التى قصدتها القوافل التى خرجت من وادى النيل، كما لا يمكن أن تكون المطرح الذى انطلقت منه الرحلات التى توجهت إلى الدلتا. ولا يمكن أن تكون أكثر من محطات على امتداد طريق، جرى التخطيط له منذ البداية، كى يربط مصر مع القوة السياسية الكبرى فى "النقب"، أقصد مدينة "أراد" الضخمة.

تقع مدينة "أراد"، هذه، على تل يشبه سرج الحصان فى منطقة "النقب" الشرقية التى تنحدر بصورة ناعمة، على بعد نحو ثلاثين كيلو متراً شرقى "بير سبع" (لوحة رقم ٤)(١٧). ورغم افتقار المنطقة إلى عين ماء واحدة قريبة، إلا أن مخططى البلدة أقاموا المستوطنة بصورة حاذقة، بمساعدة خزانات المياه، فى موقع يمكنهم من اقتناص كل قطرة من مياه الأمطار والسيول. وكانت بلدة "أراد" التى ترجع إلى الحقبة رقم (EBII)، تلك التى نقب عنها "آر. عميران" خلال الستينيات، تحتل مساحة تصل إلى تسعة هكتارات، ويسورها حائط من الحجر يبلغ سمكه ٢,٤ متراً ومحيطه ألف و ١٧٠ متراً. وتبرز أبراج شبه مستديرة على مسافات تتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين متراً من الواجهة الخارجية للسور. وكان مخططو البلدة الذين صمموها بصورة منتظمة يعون مدى أهمية الاعتبارات الدفاعية والحاجة إلى حياة حضرية منظمة. وكانت البيوت مجمعة فى "جُزر" حول نطاق خارجى، بينما كانت المبانى العامة مجمَّعة هى الأخرى، ولكن فى الوسط. وكانت تقوم على بعد مسيرة نهار واحد من "أراد"، ما لا يقل عن عشرين قرية تابعة، الأمر الذى يشير إلى وجود تنظيم سياسى، وسيطرة فعالة للبلدة، وكانت هذه القرى توغل فى امتدادها حتى تصل جنوبياً فى سيناء الشرقية. ويقدم وجود أنواع متعددة من الخزف المصرى والأدوات المصنوعة فى مصر فى سائر مستويات الإقامة، دليلاً على أن الأمر انطوى فى الحقيقة، على قيام تجارة أو نوع من تبادل البضائع بشكل أو بآخر بين مصر و "أراد" قبل تدمير البلدة على أيدى عدو مجهول.

مع نهاية حقبة EBII ، التى تتزامن على وجه التقريب مع سقوط "أراد"[١٨] دخل تغيرٍ على العلاقات بين مصر وآسيا. ولم يعد الطريق الساحلى أو سلسلة المواقع التى تمتد فى فلسطين الجنوبية و"النقب"، تشكل الأهمية الأولى عند الفرعون، وبدأت بؤر جديدة كالأهمية الثقافية والاستغلال التجارى، ولو أنه يجب علينا أن نقر بأن ذلك حدث بصورة تدريجية، تحتل مقدمة الصورة أى رأس الأولويات عند المصريين[١٩].

تناظر حقبة التحوُل هذه، بشكل عام، الأسرة الثانية فى الإطار التقليدى للتاريخ المصرى[٢٠]. وبينما يظل محل بحث ما إذا كان عصيان مسلح قد حدث إثر وفاة "قاعا" آخر فراعنة الأسرة الأولى، إلا أن خلفاءه المباشرين كانوا قادرين، فيما يبدو جليًا، على تصحيح أى خلل يكون قد لحق بالملكة المصرية خلال ركود الدورة الدموية، وإذا كان لنا أن نحكم على الأمور من حجم الصروح الجنائزية وبالتالى أثاثاتها المفترضة، فإنهم يكونون قد تمكنوا من الحفاظ على استمرار درجة عالية من الرخاء. ولكن بعد فرعون فذ يدعى "وينيج" Weneg ، إذا كان هذا حقًا هو اسمه الصحيح – إذ تحول هذا الاسم فى وقت لاحق، نتيجة لخطأٍ واسع الشيوع فى نسخ قائمة الملوك المصريين إلى "واج – نيس" Wadj-nes فى المملكة الحديثة وإلى "تلاس" Tlas فى العصور اليونانية[٢١] – ظهر فيما يبدو شاغل للعرش، تقوم على وجوده أدلة قوية فى النقوش المعاصرة، ولكن قائمة الملوك أغفلت ذكره، وهو"سيت: بريبسين" Seth : Peribsen ، الذى يبدو، بوضعه الخنزير البرى، حيوان الإله "ست"[٢٢] فوق الـ "سريخ" Serekh ، حيثما كان لصقر "حورس" أن يوضع، قد أقام دليلاً على حدوث تغيُّر رئيسى ما فى الأساس اللاهوتى الذى تستند إليه الملكية. وفى ظل التناقض الأسطورى بين "ست" و "حورس"[٢٣] يميل المرء إلى تفسير ذلك التغيُّر الرمزى فى ضوء شرخ عنيف من نوعٍ ما فى النسيج الاجتماعى – السياسى لمصر. وأيًا كان الأمر، يجد المرء نفسه مضطرًا إلى الإقرار بعدم وجود دليلٍ ملموس من حكم "بريبسين" على أنه شهد اضطرابًا أو عصيانًا. والحقيقة أن الأختام التى ظهرت على الجرار ونقوش هذه الجرار نفسها تدل على أن مصر استمرت تتلقى منتجات البلدان الأجنبية، وربما من بينها "كنعان"، وأن حجم تلك المنتجات الواردة كان ضخمًا إلى الحد الذى اقتضى تعيين موظف إدارى خاص سمى "ناظر البلدان الأجنبية"[٢٤]. غير أن ما أعقب ذلك، قد يدعم الظن الذى

راودنا فى البداية. فلقد جمع أحد خلفائه، وقد يكون ذاك الذى خلفه مباشرة: "خع سيخيم" Kha' Sekhem كلاً من حيوان "سيت" وصقر "حورس" فوق "السريخ" الخاص به، فيما يشير إلى إجراء مصالحة بين الإلهين، وسرعان ما عدَّل اسمه كى يصير "خع - سيخيم - وى - نب - وى - حوتب - إمف" ومعناه: "القويان أشرقا، الإلهان ("حورس" و "ست") تصالحا فيه"[٢٥].

كيف انعكست مشاكل السياسة الداخلية فى مصر على علاقاتها مع فلسطين فى ذلك الوقت؟ هذا أمر غير واضح. ولكن قد لا يكون خلواً من كل مغزى، أن خطوط الاتصال الأجنبى والتجارة دخل عليها مع نهاية الأسرة الثانية بكل تأكيد تغير ملحوظ. إذ أصبحت أرض المناجم فى سيناء الآن وأكثر من أى وقت مضى، بمثابة محمية للدولة المصرية تحرص عليها كل الحرص، وهُجر الطريق البرى الذى يمر عبر سيناء و "النقب". مما ينطوى على مغزى أعمق، على وجه التقريب، بالنسبة للعلاقات التجارية البعيدة المدى ذلك الذى ورد فى الحوليات الملكية ونجا بالصدفة من عوادي الزمن، ويرجع الى نهاية حكم (خع - سيخيم - وى) بشأن سنة معينة، حددت بإشارة مقتضبة هى (بناء سفن)، وهى إشارة لا تخطئها عين إلى إسطول بحرى[٢٦].

ترى هل يكون من باب الصدف أن (خع - سيخيم - وى) هو أقدم ملك مصرى نعثر على اسمه فى موقع "بيبلوس" على الساحل الفينيقى[٢٧]؟

مصر و بيبلوس :

تقع مدينة "بيبلوس" على لسان جبلى صغير، يبرز فى البحر المتوسط على بعد حوالى اثنين وأربعين كيلو متراً شمالى "بيروت"[٢٨]. وإلى الشمال مباشرة من المدينة قدّمت فجوة ضحلة فى الساحل، مرفأ فى العصور القديمة، ولكن الركام طمره فى أوقات لاحقة. أما المدينة ذاتها، وكما كشفت عنها عمليات التطهير التى قام بها الفرنسيون تحت إشراف بى. مونتيه P.Montet ، وفى وقت لاحق إم. دونان M.Dunand ، فكانت تحتل مساحة لا تزيد عن خمسة هكتارات (١٢,٥ فدان)، وكانت، اعتباراً من

مستوى حقبة (EBIII) محاطة بسور متين البنيان. وداخل هذا النطاق المسوّر تمركز التوزيع الاستيطاني حول معبد سيدة "بيبلوس" أي "بعلات جبل"، وهو لقب "عشتارت" المحلية، وحول بحيرة مقدسة. وبينما تمتع أقطاب هذا التجمع البشري بالسكن في بيوتٍ واسعة في مواقع ممتازة تطل على البحر من جهة الغرب، أقام بقية السكان في منازل صغيرة مكدسة بعضها بجوار البعض الآخر على جانبيْ شوارع ضيقة ملتوية.

وكما هو الحال عند هذه الناحية من ساحل المشرق، تأخذ سلسلة الجبال اللبنانية الضخمة والشاهقة التي تبلغ أقصى ارتفاع لها على بعد أربعين كيلو مترًا باتجاه الشرق، في تضييق الشريط الساحلي، وبالتالي تجبر السكان أو تكاد، على التطلع نحو البحر. ولكن هذه السلسلة الجبلية تمكنهم، أيضًا، من الوصول، بسهولة إلى غابات الأرز الشاسعة التي تغطي سفوح الجبال. (اللوحتان رقميْ ٥، ٦) ورغم اختفاء غابات الأرز هذه الآن بصفة كاملة على وجه التقريب من جراء عمليات التحطيب أي قطع الأخشاب غير المقيدة بأي ضوابط، تلك التي استمرت حتى القرن العشرين وتوغلت خلاله، إلا أن هذه الغابات وفرت أخشابًا ممتازة سواء لبناء السفن أو تشييد المباني، واستمرت لوقت طويل تجتذب، لهذا السبب عينه، أنظار الدول المجاورة. (ويقال إن البطل شبه الأسطوري "جلجامش" الذي عرفته بلاد الرافدين، ذاك الذي يرجع أصله التاريخي ومبعث الإلهام لأسطورته إلى أواخر الألف الرابع ق.م.، قد تكفل بالقيام برحلة استكشافية إلى غابة الأرز هذه)[٢٩]. ولقد سيطرت "بيبلوس" خلال الألف الثالث على ذلك القطاع من الساحل الذي يوفر أسهل طريق للوصول إلى تلك الغابات، وبالتالي، فلا عجب ولا تعجُّب إذا صار أبناء بيبلوس "البيبليون" بحارة مهرة وتجار أخشاب حاذقين.

ترى متى قام الاتصال بين مصر و"بيبلوس" على وجه التحديد؟ هذا أمر مجهول. ولكن تاريخ ذلك الاتصال يرجع، بالضرورة، إلى عهد موغل في القدم في حقيقة الأمر. فالتقاليد الشعبية في "بيبلوس" تتباهى بالاعتقاد بأنها أقدم مدينة في العالم، أسسها الإله "إيل"، رئيس المجمع الإلهي (البانثيون) الكنعاني. وقد توصلت عمليات التنقيب التي قام بها الفرنسيون في هذا الموقع إلى طبقة ترجع، حقًا، إلى العصر الحجري الحديث (النيوليثي Neolithic)[٣٠] وأدى ظهور دولة فرعونية على ضفاف النيل،

يتملكها الحرص على تخليد وجودها ومنجزاتها فى معمارٍ هائل الأبعاد إلى زرع روح التعطش عند الحكام المصريين إلى مواد بناء جيدة، ولم يكن هناك بطبيعة الحال مصدر آخر لخشب الأرز الجيد سوى "بيبلوس". ولقد استخدم المصريون، دون شك، أخشاب "بيبلوس" فى بناء مقابرهم فى الأسرة الأولى، كما وردت إشارات أيضًا إلى منتجات عرضية مثل زيت الأرز والراتنج[٣١]. وأصبحت هذه التجارة منتظمة، وصار طريق البحر مأمونًا بين دلتا النيل وبين "بيبلوس"، إلى الحد الذى كانت إحدى الكلمات المصرية التى تعنى سفينة مخر المحيط هى "مركب بيبلوس"، أى سفينة من ذلك النوع الذى يستطيع أن يمخر الماء المالح حتى يصل إلى الساحل اللبنانى[٣٢]. واستطاع المصريون، على ما هم عليه من كفاءة عالية فى بناء السفن، أن يتعلموا من البيبليين (أبناء بيبلوس) أساليب جديدة فى هذه الصناعة، ولقد اعترف المصريون بالدين الذى علق فى أعناقهم: لقد وُهبت "حتحور" سيدة "بيبلوس" مهارة صنع المجاديف[٣٣]. ولكن "بيبلوس" كسبت، بالمقابل، أكثر كثيراً من مصر فى ظل المملكة القديمة فى حقل تكنولوجيا الهندسة والتصنيع، فلقد كانت الثورة التكنولوجية المصرية غاية فى السرعة والشمول خلال عصر بناة الأهرام، وقد عكست التقاليد الشعبية بصورة لا تخطئها العين هذه الحقيقة فى أوقات لاحقة. فبعد مرور خمسة عشر قرنًا، أى فى القرن الحادى عشر ق.م اعترف أحد أمراء "بيبلوس" ، فيما ورد فى قصة مأثورة، لمبعوث مصرى على هذا النحو: " لقد خلق "آمون" (ملك الأرباب فى المملكة الحديثة) كل البلدان، ولكنه لم يخلقها إلا بعد أن خلق مصر التى جئت منها، ولقد انداحت المهارات التكنولوجية من هناك حتى وصلت حيثما أقف الآن"[٣٤]. ولقد أفسح المجمع الإلهى الفينيقى مكانًا بارزًا لإله يدعى "توت" Taut ، الذى لا يعدو كونه إله الكتابة عند المصريين: "تحوت". وتردد أن لإله الحرف عند الكنعانيين "كوثر" Kothar مقراً مستقراً فى" حاوت – كا – بتاح " أى "منف" عاصمة مصر[٣٥].

ولقد اتضح الآن كيف أثرت التكنولوجيا المصرية منذ ذلك الوقت المبكر على "بيبلوس" خلال عمليات التنقيب. فلقد ظهرت أساليب معينة فى فن البناء مستقاة من مصر فى معمار المعابد فى "بيبلوس" خلال الألف الثالث ق.م. كما كيَّف البيبليون "موتيفات" مصرية مثل أفاريز (جمع إفريز) الحيات الناشرة للاحتياجات المحلية. (اللوحة رقم ٧).

وجدير بالذكر أن العلاقات الوطيدة التى أقامتها مصر مع" بيبلوس" لم تنجم عن غزو مسلح، ولكنها ارتكزت على المصلحة الذاتية المستنيرة والاحترام المتبادل، ولكننا لا نستطيع أن نقول ذلك بصفة دائمة عن السياسة الخارجية للفراعنة. ولعل تعاملات فرعون مصر مع "بيبلوس" وإلى حد ما مع سائر المدن الأخرى سواء فى فلسطين أو سوريا خلال المملكة القديمة كانت قد قامت، كنموذج للعادة القديمة، قدم العصور، فى منح العطايا لكل من المعبد (الإله) والقصر (الشيخ - الأمير) بغرض ضمان استمرار النفوذ والحظوة بين أنداد. ولقد أوضحت الدراسات الاجتماعية - الاقتصادية فى الآونة الأخيرة لما يسمى بـ "الاقتصادات البدائية" أن مثل تلك التبادلات للعطايا والهدايا على مستوى رأس الدولة كانت جزءًا لا يتجزأ من سياسة حصيفة تستهدف خلق مناطق نفوذ عن طريق إقامة خطوط من الالتزامات المتبادلة[٣٦]. ولقد فصلت المصادر المصرية مثل هذه السياسة خلال الإشارة إليها بصفتها كرمًا ملكيًا لا ينقطع يهدف إلى مكافأة "أولئك الذين يشربون من مياه جلالته"، أى أولئك الذين يدينون بالولاء لمصر[٣٧]. كما برهنت تلك المصادر، بجلاء، كم هى مطلوبة تلك العطايا من وجهة نظر أخلاقية ومنظور دينى ورع من جانب فرعونٍ يهب قرابين سخية لـ "إلهٍ فى أرضٍ بعيدة يبجله شعبها"[٣٨].

كان مثل هذا الموقف على وجه التحديد تجاه الساحل المشرقى وما وراءه هو الذى شكل جوهر القرارات التى اتخذتها الدولة فى مصر فى هذا المجال. فلمْ يتوان أى فرعون على وجه التحديد، بدءًا بالفرعون "خع - سيخيم - وى" عن إرسال شيءٍ ما، يحمل نقشًا باسمه، كهدية من جلالته لضريح (سيدة "بيبلوس") أى الإلهة الحامية للمدينة[٣٩]. وقد عُرف كل من "مين - كاو - رع" من الأسرة الرابعة، و "أوناس" والأولى "ونيس" من الأسرة الخامسة و "بيبى" الأول من الأسرة السادسة، إلى حدٍ كبير، بالقرابين المهداة، من ذلك النوع. واسم "بيبى" الأول، وكذلك سلفه "خف - رع" معروفان الآن أيضًا خلال النقوش التى تحملها أوانى المرمر التى يعثر عليها المنقبون بين الحين والآخر، فى منطقة إبلا" Ebla فى ساحل لبنان[٤٠]. أما بالنسبة لفلسطين، فيستطيع المرء أن يستشهد بالمرمر المصرى الذى ظهر فى حفائر "إيت - تل" أو"التل" على بعد ستة عشر كيلو مترًا شمالى "أورشليم" (= القدس). (اللوحة رقم ٨) فهنا، وعلى ربوة صخرية رائعة أقام شيخ - أمير مجهول من العصر البرونزى عاصمة تمركزت حول قلعة، حوائطها مبنية

بالحجر وممحرة بالجبس، وأحواشها تحفها الأعمدة. ويسوِّر كل ذلك حوائط ضخمة مبنية بأحجار كبيرة غير متناسقة الأحجام على الطـراز المعـروف باسم السيكلوبى Cyclopean، وهوالأمر الذى يحيل الموقع إلى حصن منيع. حقًا تشير الألفة التى يبديها البناؤون هنا عند تعاملهم مع الحجر، بصورة كاملة، إلى قرب "التل" النسبى مع مصر. ولكن وجود أوانٍ مصرية فى هذا الموقع يشير إلى ما هو أبعد من ذلك. هل يكون ذلك الشيخ – الأمير المحلى للمدينة قد مد سيطرته إلى المرتفعات الجنوبية؟ وهل يجوز لنا أن ندرجه ضمن "أولئك الذين يشربون من مياه الفرعون"[٤١]؟

لم يصل إلى علمنا ما إذا كان المصريون خلال المملكة القديمة قد احتفظوا بمقر إقامة دائم لهم فى "بيبلوس". حقًا تظهر أسماء مصرية شخصية بين الحين والآخر على السلع المنقوشة: "نفر – سيشم – رع"، كاتب النجارين الملكيين (المصريين) ترك وراءه مائدة قرابين فى "بيبلوس"، وأحد أفراد طاقم البحارة الذين كانوا على متن مركب "خوفو" فقد رأس بلطة قرب مصب نهر "أدونيس". ولكن الأمر لا يحتاج من أيٍ منهما أن يكون مقيمًا فى "بيبلوس".

غير أن مصر عرفت "بيبلوس" فى القرون الأخيرة من الألف الثالث ق.م. حق المعرفة فى واقع الأمر، حتى ولو لم يكن فيها للمصريين مستعمرة دائمة. إذ إنها كانت بالنسبة للمصريين: "كبنى" (Kbny)[٤٢]. أى المدينة الرئيسية لبلاد "نجاو" (Negaw) التى تأتيهم منها الأخشاب. كما أنها كانت أيضًا بالنسبة للمصريين بمثابة بوابة إلى رقعة شاسعة من الأراضى الجبلية التى تتدرج فى انحدارها نحو الصحراء، وهى الرقعة التى سمع المصريون السكان المحليين يسمونها "قيديم" أى الشرق، وهو الاسم الذى أطلقوه فى وقت لاحق على موقعهم الجغرافى. وكانت المدينة مسوَّرة بمتاريس ضخمة، وهو الأمر الذى لم يكن مجهولاً بالنسبة لهم. وبناء عليه نرى المصريين يتحدثون عن "قلعة بيبلوس"[٤٣]. وكان الأمراء البيبليون المحليون، وعلى النقيض من حكام المشرق الآخرين، مفتونين بمصر التى خطبت ودهم إلى الحد الذى جاهدوا فى وقت لاحق كى يبدوا "عشاقًا" لمصر، وتباهوا بقدرتهم على حفر النقوش بالخط الهيروغليفى[٤٤].

وعلى مستوى الديانة والعبادات تمتعت كلٌ من مصر و "بيبلوس" باتفاقٍ فريد، وإن لم يكن بارزًا للعيان، في الاهتمام والتأويل. ولكن الأمر يقتضي منا، كي نستكشف ذلك بصورة أكثر اكتمالاً أن ننقِّب في حقل الأساطير الذي ينطوي على قدر كبير من الإثارة والمراوغة في نفس الوقت.

اتفاق في الأسطورة :

قد يظهر رب آسيوي، بصورة عارضة، في المجمع الإلهي (البانثيون) المصري، و "تُستعار" بصورة واعية إلهة مثل (حتحور "بيبلوس") التي تتسم بـ "تمصير" جزئي، إلا أن العبادات والمجامع الإلهية والأساطير في مصر وفي آسيا الغربية ظلت في معظمها، متميزة الواحدة عن الأخرى في ملامحها الخارجية(٤٥). إذ يبدو أن "الإله - البطل" المعروف باسم "بعل"، وهو "رب الأرباب" دون منازع قد انبثق من الجبال التي تهطل عليها الأمطار في سواحل المشرق، وبالمقابل فإن الإله "خبري" أو الجعران قد ظهر إلى النور، كما تذهب، في حقيقة الأمر، أساطير الخلق عند المصريين، من طبقات الطمي التي تنشأ عن فيضان النيل. ويبدو أن الأساطير تتكيَّف مع الآماد والمناخات التي تولد فيها، كما أن العبادات المختلفة تقوم في ظل مجتمعات مختلفة بصورة ملحوظة.

وإذا ترك هذا القول إيحاء ما بأن ديانات الشرق الأدنى التي عرفتها العصور القديمة لم تتمتع بأي عنصرٍ مشترك، فإن المرء يستحق النصح عندئذ بالتريث. فلقد أشار بعض الدارسين منذ وقت طويل إلى عناصر التشابه اللافتة للنظر بين "أوزيريس" وعبادته، وبين الإله "الذي يموت وينهض من الموت" في الأساطير الكنعانية. ثم ألم يكن كلاهما إلهين لـ "الخصوبة"، ويرتبطان بمثل تلك التذييلات التابعة كالشجيرات والأشجار المزهرة، أو الروابي و"الأماكن المرتفعة" بشكل عام أو أعمدة العبادة أو حيوانات المراعي؟ ألم يُقتل كلاهما، غيلة، ثم انتصرت لكليهما قرينة - إلهة أخلصت لكل منهما الحب؟ ألم يكن حتى الاسم: "أوزيريس" متصلاً بجذرٍ سامٍ اشتق منه "أزير" وكذلك "آشور" نفسه؟ وجاءت النظرية الناتجة التي أدت هذه الملاحظات إلى انبثاقها على

درجة من السهولة فى تقريرها والتبسيط فى نظرتها حداً تمكن معه كاشفو التزييف بكل يسر، من إثارة حشد كبير من الاختلافات، بعضها، على الأقل، رئيسى بين الإلهين وبين عباداتهما كذلك. ولم يعد بين طلاب علم الديانات المقارنة سوى قلائل ممن يجرؤون على طرق الموضوع، حيث باتوا يفضلون التركيز على الطابع المحلى والأدوار المحلية لكل إله على حدة[٤٦] . ومع ذلك فالمرء لا يستطيع إلا أن يستشعر بعض القلق إزاء ما يراوده من احتمال أن نكون قد "رمينا بالطفل الرضيع مع الماء الذى حممناه فيه". حقًا تقابلنا فى الأساطير تشابهات، إذا كان المقصود بذلك بنية الحبكة فى خطوطها العريضة أو الأدوار التى تنطوى عليها هذه الحبكة الدرامية. ولكن هل لمثل هذه التشابهات التى نصادفها بين الثقافات التى تحتل مناطق متجاورة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط أى مغزى؟

تقع ظاهرة الصراع الكونى بين الأرض والبحر، الطقس اللطيف والعواصف فى مركز القلب من أساطير المدن البحرية فى المشرق فى العصور القديمة. واتساقًا مع ميل الإنسان إلى أنسنة بيئته المحيطة والامتثال لوحيها عن طريق خلق رواية محبوكة، تحوَّلت أكثر الظواهر الطبيعية إثارة فى شرق البحر المتوسط إلى "موتيف" فى حبكة روائية، فيغزو وحش هائج وغامض وشرير البر، إلا أنه يلقى مقاومة على هيئة بطل أكبر من البشر العاديين، تقف كل قوة الفضيلة الأساسية وراءه. ويمكن لهذا النمط البسيط أن تدخل عليه تعديلات عديدة، اعتماداً على النتيجة التى يسفر عنها الصراع، وهوية الشخصيات الثانوية، أو السياق الذى تُستخدم فيه القصة، بل ويمكن لمكان وقوع الحدث الشنيع أن ينتقل إلى البر، حيث يصبح الوحش هو "الموت". ولكن النقطة التى يتعيَّن أن نؤكد عليها، فى هذا الصدد، تتمثل فى أن العقدة الدرامية الأساسية كانت فى الأصل حيلة "محايدة"، وليست بالضرورة وسيلة تعليلية تهدف إلى تبيان علة الخلق أو هذه الظاهرة أو تلك من ظواهر الطبيعة[٤٧] .

وتظهر هذه القصة فى شكلها الكلاسيكى فى أساطير شمال سوريا، التى وصلت إلينا فى أفضل صورة لها خلال أرشيفات "أوجاريت"[٤٨]. إذ نقابل هنا، فى نصوص ترجع إلى أواخر العصر البرونزى، وإن كانت مستقاة من مواد تعود إلى عدة آلاف من السنين السابقة، قصة "يم"، أمير البحر، وهو عبارة عن وحش جشع ظل يفرض سطوته

على الآلهة ويتحرق شوقًا إلى الإلهة الجميلة "عشتارت"، حتى أنزل "بعل" به الهزيمة. وفى "موتيف" موازٍ يُستدرج "بعل" إلى "جخنوق" مائى موغل فى البعد خلال رحلة صيد، وينقض عليه الوحش "موت" ويقتله هو وأتباعه. ويلقى "موت"، بدوره سوء المصير على أيدى وليفة "بعل" أى الصبية "عنات" التى تكيل ضربات موجعة لـ "موت"، ثم تمضى كى تعيد الحياة، على ما يبدو، لزوجها المنكوب.

وعلى هذا النحو تتطلب أدوار العقدة الدرامية ثلاث شخصيات رئيسية: الوحش والبطل والوليفة. ولكن بينما نجد فى "أوجاريت" أن "عنات" و"عشتارت" مرتبطتان بالوحش: "يم"، إلا أن وظيفتهما ليست رئيسية أو محورية. وإذا توغلنا جنوبيًا، مع ذلك، فى المدن الساحلية جنوبى نهر "الكبير" Eleutheros ، فإننا نجد أن الإلهة تتمتع بمكانة سامية فى العبادة بين الأهالى إلى الحد الذى ينسحب معه زوجها فى غالب الأحيان، إلى زاوية السلبية. ففى "بيبلوس" التى أمدتنا بمعظم الأدلة المتوافرة عن المنطقة فى العصور القديمة نرى أن "بعلات" سيدة المدينة تقف بكل جلاء، كأقوى أعضاء المجمع الإلهى المحلى. وينطوى لقبها الشائع، بطبيعة الحال، على "عشتارت"، وقد تحولّت بموجب الاستعمال المصرى إلى "حتحور"، إلا أنه يصعب علينا بدرجة أكبر أن نعيِّن شخصية وليفها "بعل" المحلى. وعلى أى حال طابق المصريون بينه وبين إلههم "شا – حر – إف" (= "الذى على بحيرته") الذى يتخذ هيئة التمساح، وقرنه اليونانيون، بعد ذلك بألفىْ سنة بـ "هرقل" أو "هيراكليس" Herakles . ولكن اسمه المحلى كان يُنطق، بالتأكيد، فى عصر بناة الأهرامات على نحو قريب من "هى – عتول" الذى يعنى "المجد للحى". والشائع أن الأسماء المقدسة كانت تستبدل فى الحديث اليومى بألقابها وصفاتها التى تدور حول معانيها نظرًا لحرمتها، (وهذا هو ما يفسر، فى واقع الأمر سيادة لقب "بعل"، وفى حالة البطل – الإله الخاص بـ " بيبلوس "، مال "سيادته"، بمرور القرون، إلى أن يجد لنفسه تعبيرًا فى الكلمة الشعبية الدارجة التى تعنى "سيد" وأعنى بها "أدون" التى صيغ منها الاسم الكلاسيكى "أدونيس "(٤٩).

يحتل الصراع بين البطل والوحش مكانًا بارزًا فى عبادة "بيبلوس"، ولكن الأسطورة هنا تكشف عن اختلافات مهمة عن تلك التى كانت شائعة كلما توغلنا شمالاً فى "أوجاريت". حقًا يخوض "أدونيس " الحرب ضد "البحر"، ولكنه يلقى حتفه ويتعين

على وليفته أن تعيده إلى الحياة. وتذهب الرواية الأكثر انتشاراً للأسطورة، وهى الرواية التى تنقل مجمل الأحداث إلى مسرح البر، إلى أن خنزيراً برياً أحمر يقتل الإله خلال عملية صيد، وهو الأمر الذى ترتب عليه جريان النهر المحلى (نهر إبراهيم) بالدماء بصورة موسمية. ولقد امتد تأثير عبادة "بيبلوس" والأساطير المرتبطة بها على المدن والأقاليم الواقعة على الساحل إلى الجنوب مباشرة. فعرفت "صيدا" بطلها "إشمون" Eshmoun والوحش "أشترونوم" Ashtronome كما عرفت "صور" بطلها "ملقارت" والوحش "أشترونوى" Ashtronoe . أما ساحل فلسطين فلقد عرف "بعل" تحت قناع "بيرسيوس" Perseus فى العصور الكلاسيكية و "كيتس" الوحش.

وتركز مصادرنا على "موتيف" آخر، فى أساطير المدن الواقعة جنوبى "بيبلوس"، وهو"موتيف" نابع من الصراع بين البطل والوحش، ويتمثل فى قصة البحر الشبق الذى يوجه شهوته نحو الإلهة ذاتها، وليفة "بعل" فيطاردها دون هوادة، حتى يضطرها فى بعض الأحيان إلى الانتحار. ومثل هذه القصة تشكل الأساس الذى تقوم عليه الأسطورة السائدة فى "أبيك" Aphek فى الجبال التى تطل على "بيبلوس"، حيث قفزت "أفروديت" أو (عشتارت) فى البحيرة المقدسة وتحولت إلى سمكة كى تنجو من مخالب الوحش(٥٠). وفى "صور" حيث تروى المصادر الكلاسيكية قصة ("أوروبا" والثور) تخفى فى ثناياها قصة أقدم عن إلهة حملها البحر بعيداً واغتصبها، وفى "يافا" Joppa تشير، عوداً على بدء ، ميلودراما "أندروميدا – كيتس – بيرسيوس" إلى قصة محلية أقدم تعتمد نفس النمط الأساسى(٥١). وتقفز "أتارجاتيس" Atargatis أو "ديرسيتو" Derceto ، إلهة "عشقلون" (عسقلان حالياً)، مع ابنها فى بحيرة ما حيث تؤكل أو تصبح سمكة، وهناك أدلة على أن رواية مماثلة تصور ابناً كان ليعثر عليها فى أساطير "غزة".

وإلى هذه النقطة نكون قد كشفنا النقاب عن موتيفين دراميين يتصل أحدهما بالآخر، وإن كانا مختلفين: المعركة بين بطل ووحش تنتهى بانتصار البطل، ومطاردة الوحش للإلهة، وهوالأمر الذى يؤدى فى غالب الأحيان إلى معجزة دينية. وكلا الموتيفين يتطلبان ثلاثة أدوار درامية: البطل الأول وهو الوحش ثم الوحش الثانى: الإلهة الوليفة، ثم ابن الإلهة.

وتجـد المعـركة التى نشـبت بين البطـل والوحـش فى موقـعها "الكلاسيكى" (فى الأساطير الأوجاريتية) عند مصب نهر العاصى Orontes بشمال سوريا ما يوازيها، إن لم نقل روايات مشتقة منها، فى أساطير العديد من الثقافات المجاورة. ففى بلاد وادى الرافدين يظهر نمط العقدة الدرامية كتفسير تعليلى للخلق فى الصراع بين مردوك Marduk إله بابل و"تيعامات" Ti'amat وحش الفوضى(٥٢). وتعرف الأساطير الكلاسيكية الأسطورة السورية الشمالية جيداً فلقد اختار اليونانيون مصب نهر العاصى وساحل "سليسيا" cilicia المجاورة لأحداث روايتهم الخاصة للأسطورة بعد تحويل "بعل" إلى "زيوس" والبحر إلى "تيفون" Typhon المتوحش(٥٣).

ومما ينطوى على مغزى أعمق بالنسبة لما نقوم به حاليًا من استقصاء أن "موتيف" البطل - الوحش موجود أيضا" فى مصر، وقد تخفى فى طبقة تحتية، كما هو الحال، فى الفكر الأسطورى، خلف أساطير أكثر انتشاراً. وعلى غرار ما هو قائم فى كل مكان آخر تستخدم القصة فى إطار سرد عملية الخلق أو التدشين (= البدء). ولقد تلقى الفرعون "ميرى - كا - رع"، فى القرن الحادى والعشرين ق.م. نصيحة من والده بأن "يسهر على رعاية بنى الإنسان، حملان الآلهة، لأنه (أى الإله الخالق صنع السماء والأرض وفق ما يشتهى البشر، وفرض الخضوع على وحش الماء. وخلق نسيم الحياة حتى يتنفسوه، إذ إنه أبرأ بنى الإنسان، أولئك الذين خرجوا من صلبه، على صورته)(٥٤). وفى غالب الأحيان يقوم الإله - الشمس أو أحد أتباعه بدور البطل، والتلميح، ولو أنه عابر، يشير إلى أساطير نموذجية أصلية من ذلك النوع التدشينى بصورة مبهمة. وبناء عليه فإن فقرة تشير إشارة سريعة إلى "قادوم أتوم" الموجود فى سلسلة ظهر الثعبان "نهيب ـ كاو" Neheb-Kau الذى يضع حداً للصراع فى "أون" (= هيليوبوليس)، وتصف فقرة أخرى "أتوم" على أنه "هو الذى أخمد ثورة الغضب فى السماء، والصراع فى "أون" خلال المعركة الكبرى"(٥٥). وتلقى هذه المعركة مزيداً من الوصف باعتبارها تقع "شمال غرب بيت الثعبان "إس-عوس" Es-'os عندما يكون "رع" قد حوَّل نفسه إلى نمس يصل طوله إلى ستة وأربعين ذراعًا كى يصرع "عبيب" أو "أبوفيس" (كما نطقه اليونانيون) فى سورة غضبه(٥٦). إلا أن قصص الخلق فى مصر لم تستخدم بشكل عام موتيف البطل - الوحش. ويتمثل الاستعمال الأكثر

انتشارًا لهذا "الموتيف" فى تعليل كسوف الشمس: "عبيب" الذى يكمن بصفة دائمة فى مياه النيل السماوى مترقبًا القارب الشمسى جويه بالبطل "ست " الذى يشرع رمحه أثناء وقوفه على مقدمة القارب(٥٧).

إلا أننا نستطيع، مع ذلك، أن نقارن إحدى الأساطير المصرية، مباشرة، بذلك الدور الثلاثى الذى نقابله فى جنوب المشرق، وعلى وجه التحديد "الوحش – الإلهة – الابن"، وتلك هى الدورة التى تتخذها القصة فى تناولها لهروب "إيزيس" إلى مستنقعات الدلتا(٥٨). فلقد اضطرت "إيزيس"عقب موت زوجها "أوزيريس" على أيدى "ست"، إلى الهرب إلى مستنقعات الدلتا طلبًا للنجاة بحياتها وحياة طفلها "حورس". وفى "بوتو" على وجه الخصوص، فى شمال غرب الدلتا، ثم فى "باميت" فى الشرق تكتسب طابعًا رعوياً. فيرقد الطفل "حورس" أو الصقر – الطفل فى مخبئه فى عش مجدول بينما تراقب أمه "إيزيس" تحركات الوحش "ست" أو الخنزير البرى الذى أصابه الهياج. ويقدم المتوطنون فى المستنقعات كل ما فى وسعهم من حماية عن طيب خاطر إلى الأم الملتاعة ويساعدونها فى حراسة طفلها إدجو Edjo "الخضراء" (الكوبرا) ، و "جبات Djebat أى "البلشون" أو "مالك الحزين"، و "سخمت – حور" البقرة. وعلى النقيض من الأسطورة المماثلة فى "يافا" و"عشقلون" و"غزة" حيث تهدف هناك إلى تقديم أساس منطقى للعبادة، فالجوهر الإنسانى لدورة "بوتو" يمد الكل الأسطورى بطابع أكثر إيجابية إلى حد كبير. ولم يستطع الوحش، رغم محاولاته العديدة، أن يقبض على "إيزيس"، أو يلحق الأذى بابنها "حورس". فموتيف البطل – الوحش مضاف إلى الكل، وينتهى إلى انتصار الحق: يخرج "حورس" من "بوتو" ناضجًا كى ينزل الهزيمة بـ "ست"(٥٩).

وهكذا فإن دورة " بوتو" فى موطنها الذى يقوم فى الأصل فى الطرف الشمالى للدلتا، ولا يبعد كثيرًا عن ساحل البحر المتوسط، تشترك مع المراكز الحضرية فى الساحل الجنوبى للمشرق فى مجموعة من التنميطات الأسطورية. ورغم أن القصص المصرية لا تستلهم بيئة بحرية على نحو حاسم، إلا أن "الموتيف" واحد بشكل واضح. ومع ذلك يتعين علينا ألا ننسى الطابع البسيط للغاية للعقدة فى هذه القصص إلى جانب الوعى المتبادل، كل بالآخر، والاتصال بين هذا وذاك خلال التجارة والترحال،

اللذين تمتعت بهما التجمعات السكانية حول سواحل المشرق وسواحل أفريقيا منذ الأزمنة السحيقة. والحقيقة أننا ننزلق إلى الوراء إلى عصر ما قبل التاريخ إذا حاولنا التوصل زمانياً ومكانياً إلى النقطة الأصلية التى انبثقت منها القصة. وهذه محاولة لا طائل من ورائها. وحتى لو تكفل حكواتي موهوب بتحويل العاصفة التى تجلد الساحل إلى صراع بين بطل ووحش فإن مراكز عديدة للعبادة فى غضون ذلك تكون قد هضمت وغيَّرت وجمَّلت وشذَّبت هذا التراث المشترك، دون أن تعى فى الغالب، بديونها لمؤلف موغلٍ فى القدم، إلى الحد الذى يمكن لبحثنا هذا معه أن يغرق فى نوع ما من أنواع التقييم الذى يتوقف عند الشكل لروايات متباينة لنفس القصة. ويكفى فى هذا الصدد، أن نقول إن مصر والشرق، كانا، بطريقة نادراً ما أدركاها ، وريثين مشتركين، منذ خمسة آلاف سنة ، لعملية إبداع قوية وجوهرية فى مجال الحكى الأسطورى الذى لا يزال يحيا ، بصورة أو بأخرى ، معنا حتى اليوم.

الأراضى الأجنبية تخضع للفرعون:

شهدت الأسرة الثانية خلال أفول نجمها واحدة من أعظم نقط التحول فى التاريخ المصرى: الخضوع النهائى للعناصر المناوئة فى الدلتا والتوحيد الذى لا ينكر أصله المركب للبلاد تحت ظل ملكية فرعونية. ففى غضون جيل واحد من زحف الفرعون "خع – سيخيم – وى" الذى سجل زحفه نحو النصر بعبارة مقتضبة، على ٤٨ ألف شمالىٍّ قتيل[٦٠]، ارتفع أول نموذج لذلك الرمز الهائل الحجم الذى سيستمر دليلاً منذ ذلك الحين وحتى الأبد على الملكية المطلقة لمصر الموحدة: الهرم الملكى[٦١]. (لوحة رقم ٩)

ولقد بدا أن الوحدة الحديثة النشأة قد أطلقت كافة الطاقات الحبيسة للأمة الشابة – فالشكل الهرمى الذى بدأ بالبناء التجريبى الذى يتكون من ست مصاطب، وبناه المهندس والطبيب الذى ألهه المصريون فى وقت لاحق: "إى – إم – حوتب" للفرعون "زوسر" من الأسرة الثالثة، مر بصورة سريعة بمراحل عديدة من التطور حتى بلغ بعد ٧٥ سنة وحسب من وفاة "زوسر" ذلك الشكل الهرمى المصقول الوجه الذى ننسب إليه

المصطلح اليوم. فالحقيقة أن الفترة التى انقضت من "زوسر" إلى "خفف - رع" (فى الأسرة الرابعة) وتبلغ حوالى ١٥٠ سنة، مر شكل الهرم خلالها، بتطور سريع ومتعاظم على مستوى الكتلة والارتفاع والوظائف. فمن ارتفاع لا يزيد على ٢٦ متراً خلال حكم الفرعون "زوسر" وصل الشكل إلى ارتفاع شاهق يبلغ ١٥٧ متراً تحت ظل حكم "خوفو"، ومن قاعدة متواضعة نسبياً لهرم "زوسر" ١٢٦ × ١١٠ متراً زادت أبعادها إلى ٢٣٢ متراً مربعاً أيام "خوفو" كما قُصد من الموقع والمحيط العام حول الهرم كليهما أن يحملا رسالة إلى الناس والآلهة على حد سواء بديمومة الفرعون ومركزيته سواء فى هذا العالم أو العالم الآخر. ويرسم هرم "زوسر" المدرج لنفسه صورة ظلية silhouetted على صفحة السماء عند مشارف الصحراء مباشرة، فوق "منف" الحاضرة الملكية المركزية ومقر إقامة جلالته، حيث لا يخفق أى مواطن فى رؤيته ولا يخطئ فى تقدير مغزاه. وارتفع هرم "خوفو" الهائل الحجم إلى حافة الصحراء عند النقطة بالتحديد التى ينداح فيها نهر النيل فى الدلتا، فى رمز ملائم لسيطرة الفرعون المطلقة على شطرى مملكته. كما ترمز مجموعة المبانى التى أقيمت حول هرم "زوسر" على المستوى الأيقونى والتخطيط إلى وحدة البلاد، وفى نفس الوقت تحى ذكرى العيد الثلاثينى (اليوبيل)[٦٢] ، وهو عبارة عن احتفالٍ يُنصب للملكية وتجديد الشباب ويشير المعبد الرئيسى للهرم، الذى بدأ منذ حكم "خوفو" يأخذ تصميماً قياسياً، إلى الفرعون المتوفى "الأوزيرى" الذى استمر بصفته "إلهًا عظيمًا" يحكم رعاياه فى العالم السفلى[٦٣].

إلا أن الهرم يمثل بالنسبة لنا أكثر من مجرد بلورة لرموز جديدة وعدة أيقونات وتطور سريع فى أساليب التشييد. فالهرم رمز مرئى على ثورة فى معرفة كيفية إدارة مجتمع إنسانى وتنظيم قوة العمل، وهو فى نفس الوقت مؤشر على البيروقراطية (بالمعنى المحايد للمصطلح) المزدهرة التى فرضتها مركزية الدولة المتمثلة فى شخص الفرعون، على مدينته ومقر إقامته الآخذة بالنمو.

تشتمل غالبية المصادر المدونة وإلى حد كبير، التى تعود إلى المملكة القديمة على قوائم تضم ألقاباً ووظائف متنوعة عثر عليها فى النقوش التى حملت سيراً ذاتية فى المقابر الخاصة[٦٤]. واستناداً إلى هذه القوائم نستطيع أن نعيد بناء هيئة مدنية ضخمة يخلب تنظيمها الفائق الألباب. فبعد الفرعون مباشرة ونائباً عنه يقف من يشبه

"الوزير الأكبر" وقل رئيس الوزراء الذى يتولى مسئولية كافة المصالح أو "مكاتب المقر الملكى" باللغة المعاصرة وقت ذاك، وكان هناك ما يمكن لنا أن ندعوه بوزارتى الزراعة والثروة الحيوانية، ووزارة الخزانة التى تضم، ضمن ما تضم، "البيت" المزدوج للذهب والفضة" ومستودع "الكماليات الملكية" وشونة الحبوب، ووزارة الدفاع أو "بيت السلاح" بالإضافة إلى طاقم سكرتارية مع أرشيفات مستقلة (بيت الدفاتر والمراسيم)، إلى جانب عدد من المكاتب الأخرى والهيئات التى لا نكاد نعرف عن وظائفها إلا نذراً يسيراً.

ونستطيع أن نستنتج أن تلك الوزارات المعنية بالتجنيد والتدريب والتنظيم لقوة العمل عرفت الازدهار والتضخم خلال "عصر الأهرامات"[٦٥] ولقد قامت عمليات التجنيد على عقيدة تذهب إلى أن جميع المصريين مدينون بأداء الخدمة للدولة، والافتراض المرتبط بذلك بأن كل الأسرى الأجانب فقدوا كل حق كانوا يملكونه فى وقت سابق فى الاختيار الحر. وبناء عليه كان فى وسع "بيت الفرعون" أو أى مكتب آخر من مكاتب المقر الملكى[٦٦]، أن يجند المصريين لأعمال التشييد والسخرة وأعمال الفلاحة أو حتى الأشغال الشاقة، كما كان فى طوع الدولة أن تدفع الأسرى الأجانب إلى الخدمة العامة متى شاءت. وكانوا يؤدون خدماتهم تحت رعاية وزارة الأشغال العامة، وكانوا يقسمون إلى فرق من أحجام مختلفة (وغالباً إلى مجاميع تضم كل مجموعة عشرة أنفار)، ويخضعون لإشراف نظار من المقر الملكى. وعلى غرار ما هو الحال مع خدمة الكهان أو خدمة طاقم العاملين بالقصر، كانت الجموع التى تقوم بأعمال غير ماهرة فى مشاريع التشييد تخدم فى أربعة أقسام، كل قسم منها يعمل طوال ثلاثة شهور فى السنة، وهو الأمر الذى يسمح، بالتالى للشطر الأعظم من الفلاحين أن يعودوا إلى غيطانهم كى يقوموا بأعمال الحراثة والبذار والحصاد[٦٧]. وخلال العمل لصالح الحكومة، كانت قوة العمل تلك، التى جلبت من مختلف بقاع مصر، تمنح المسكن والمأكل والملبس على نفقة الدولة، وتتوفر لدينا أدلة تشير إلى أن هؤلاء العمال كانوا يتلقون أيضاً خدمات طبية[٦٨]. وكانت معايير النجاح فى مشاريع التشييد تتمثل فى السرعة والإتقان. ويزعم أحد المسئولين أنه اقتطع من المحجر مائدة من المرمر لتقريب القرابين ونقلها من المحجر إلى موقع العمل، لمسافة تبلغ ٢٩٠ كيلو متراً فى بحر ١٧ يوماً لا غير.

ويتباهى مسئول آخر بأنه نجح فى تعويم أعمدة من الجرانيت (على متن طوافات) للمعبد الجنائزى للفرعون فى رحلة تصل إلى ٩٥٠ كيلو متراً فى غضون سبعة أيام لا أكثر[٦٩]! ويحتج أحد المشرفين على إحدى فرق الحجّارة فى رسالة خطية على إجراءات إعادة تجهيز عماله، وهو ما كان يجرى بصفة شهرية: "خادمكم الأمين (فى إشارة مهذبة إلى شخصه) اعتاد على قضاء ٦ أيام كاملة فى المقر الرئيسى مع فرقته حتى تصرف لهم الملابس المقررة، وهو الأمر الذى يعطل سير العمل الذى يتولى مسئوليته خادمكم الأمين، لأن ما يخصم من حصة هذه الفرقة من العمل مقابل استلام ملابسها لا يزيد عن عمل يوم واحد"[٧٠].

تؤرخ الأدلة المتوفرة لدينا الآن لتدفق أعداد غفيرة من الأجانب إلى خلية النحل هذه التى تشتغل فى عمليات التشييد اعتباراً من أواخر الأسرة الثالثة[٧١]. وسرعان ما أصبحت قوة العمل الرخيصة هذه هى ما كانت مصر تتوقعه من البلدان المجاورة، إلى جانب الغنائم والهبات المفروضة والهدايا والمواد الأولية فى إطار الالتزامات التى قدرتها الآلهة على تلك البلدان لمصر. وسعت الدولة المصرية إلى ضمان إمدادات منتظمة، دون أن يأتى ذلك من خلال إقامة بنية تحتية إمبريالية تفرض الخضوع بصفة دائمة على البلاد الأجنبية، بل من خلال الترهيب وخلق "منطقة نفوذ" وحسب. فنظراً لأن البلاد الأجنبية " تتبع " الفرعون تماماً مثلما تفعل مصر ذاتها، والفرعون يدوس على الشعوب الأجنبية المسماة بصورة جماعية "الأقواس التسعة" وكذلك يدوس على المصريين أيضاً. فالمصريون يركعون، وكذلك الأجانب أمام الإله - الفرعون. (شكل رقم ٤)[٧٢].

وكان فى وسع مصر أن تضمن جلب السلع والأنفار الذين تحتاج إليهم من وراء حدودها خلال أكثر من وسيلة واحدة[٧٣]. فكان فى طوع المصريين أن يتاجروا مع السكان المحليين أو ينغمسوا، فى ذروة قوتهم السياسية، فى تبادل الهدايا معهم. وكان فى إمكانهم أيضاً أن يفصحوا بصريح العبارة عن أنهم يتوقعون من الحكام المحليين تقديم" الهبات " بصورة طوعية، وإلا جروا على أنفسهم غضب مصر. وإذا أخفقت كل الوسائل، فإن الدولة المصرية قد تلجأ إلى إرسال تجريدة عسكرية إلى خارج الحدود. وواقع الأمر أن الفروق غائمة. فالتجريدة التى يرسلها المصريون إلى الخارج تشكل "قافلة"، أوقعنا اضطرارها فى بعض الأحيان إلى خوض غمار القتال، فى التعود

على إطلاق اسم "الجيش" عليها. ولكن هذه "القافلة" قد لا تضطر إلى القتال إذا انطوى الأمر على عملية تعدينية أو صفقة تجارية، وعندئذ يمكن أن تستخدم فى نقل السلع التى تتوفر تحت أيديها، أيًا كانت، على الأكتاف. وكان "حاملو ختم الإله" وهذا مصطلح يرتبط، فى الغالب، بقادة التجريدة، يصطحبون معهم "قوات" إلى البلاد الأجنبية، ولكن وظيفة هذه القوات لم تزد، فى العادة، عن رفع علم مصر و"تهدئة" روع السكان المحليين، وفقًا للتعبير المعاصر فى ذلك الوقت(٧٤). ولقد أشار المصريون، بقدر ما من المكر، فيما يشعر المرء، إلى أنهم " يزرعون الخوف من "حورس" فى البلاد الأجنبية"(٧٥). وكان الاعتماد على السكان المحليين لفلسطين فى حمل مواردهم الطبيعية، بالإضافة إلى المنتجات والخدم إلى الفرعون كـ" هدايا"، أقل تكلفة بما لا يقاس. وقد حدد المصريون أيامًا معينة على مدار السنة، يكون دخول مثل هذه "الهبات" فيها إلى مصر مستحبًا، كما أن الأجانب سرعان ما أدركوا على وجه التأكيد، الأوقات التى يتوقع فيها المصريون وصول مثل هذه القرابين التى يقربونها عن طيب خاطر. ومع ذلك كانت بعض القوافل المصرية وعدد من السفن المصرية تخرج من مصر لمصاحبة جالبى الهدايا من الأجانب.

لعل المعلومات المتوفرة لدينا عن المملكة القديمة أقل من تلك التى بحوزتنا عن الحقب اللاحقة حول الكيفية التى كان يحصلون خلالها على قوة العمل الأجنبية. وكان الأسرى الذين عادت بهم التجريدات العسكرية من البلدان الأجنبية يشكلون نسبة كبيرة من الأجانب المقيمين فى مصر خلال عصر بناة الأهرامات (كما سبق أن ذكرنا)، ولكن جميع هؤلاء الأجانب لم يكونوا بكل تأكيد من الأسرى. ومن المؤسف أن الحوليات التى نجت من عوادى الظروف ووصلت إلى أيدينا لا ترفق، بصفة دائمة، دخول الأجانب العائدين مع هذه التجريدة أو تلك، بأى إيضاح حول الكيفية التى جلبوا بها إلى مصر. ومع ذلك يبدو من المحتمل أن سكان فلسطين وسوريا كانوا لا يحتاجون إلا إلى قدر لا يذكر من الإكراه، على نحو ما كان عليه الحال فى العهود اللاحقة الأفضل توثيقًا، كى يقتنعوا بنقل محال إقامتهم إلى ضفاف النيل وتقديم خدماتهم للفرعون. فلقد كان لمصر تأثير المغناطيس على جيرانها فى سائر العصور. وبالنسبة لأناس مثل أولئك الذين يعيشون فى المشرق، وتتركز همومهم الرئيسية حول عدم الاطمئنان إلى موسم

الحصاد، وخطر المجاعة الذى يحوم باستمرار فوق الرءوس، كان استقرار إنتاج مصر من الحبوب، ووفرتها الزائدة، والثراء الذى تتمتع به مصر فى مخزوناتها من الأسماك والطيور وحيوانات الصيد، ليستعصى على المقاومة. فمن الأفضل أن يعيش المرء "عبدا" ممتلئ البطن فى مصر من أن يموت من الجوع "حرًا" فى سهوب آسيا الجرداء. وسواء أكان قد نزح بمحض إرادته، أو باعه شيخ قريته، أو وقع فى الأسر، عودًا على بدء، فى ميدان القتال، فإن من المشكوك فيه ما إذا كان أى شخص من الآسيويين الذين نراهم محمولين على متن سفن مصرية قد أسف لمصيره ذاك.

لا تستطيع الأدلة المتوفرة على الصفقات التجارية والهدايا الدبلوماسية الطابع أن تطمس الحقيقة التى تقول إن المصريين استطاعوا، بل ولجأوا فى مرات عديدة إلى القوة السافرة فى تحقيق غاياتهم فى فلسطين. ونجد أنفسنا أيضًا فى موضع يمكننا من تقرير ما يعد على وجه التحديد مثار النزاع، عندما يعترض أحد طريق المندوبين المصريين أو يقتلهم، أو عندما "تتمرد" الولايات الآسيوية بعد تلقى التشجيع من جانب قوى خارجية مخربة، أو عندما يتأخر وصول الهبات المتوقعة، عندئذ كانت مصر ترد بإجراء تأديبى. والنصوص التى وصلت إلى أيدينا من المملكة القديمة، التى تتناول الموضوع حاسمة فى هذا الصدد ولا تحتمل معنيين. فالفعل الأكثر شيوعًا فى الاستعمال هو "قمع" فى إشارة إلى القتال المميت، والأعداء "ذبحوا" أو "أجبروا على الفرار" أو "رُوِّعوا"، والذين بقوا على قيد الحياة منهم حملوا إلى مصر كأسرى. وعلى سبيل العقاب والعبرة لمن يعتبر، كانت المدينة المتمردة تدمر عقب الاستيلاء عليها، أما الأسوار المبنية بالطوب الأخضر فكانت " تسهدم" بالفئوس بصفة منتظمة. وتشير المصادر بين الحين والآخر إلى إشعال النار فى بعض المدن. ويتم ذلك كله فى سياق قانونى، تومئ إليه أفعال من قبيل "أخمدنا" و"أنزلنا العقاب". وتعكس شطف التماثيل التى تصور أسرى راكعين، وتخرج إلى النور خلال عمليات التنقيب فى معابد الأهرامات التى ترجع إلى أواخر المملكة القديمة، "موتيف" إعدام أسرى، وتتوفر لدينا أدلة من النصوص المدونة على استنزال اللعنات فى إطار شعائرى على الشعوب الأجنبية(٧٦).

يتمثل أكثر التقارير التى وصلت إلى أيدينا تفصيلاً لتجريدة عسكرية إلى فلسطين فى ذلك التقرير الذى ورد ضمن بيان السيرة الذاتية للمدعو "وينى"، وهو شخصية بارزة،

خدم فى وظيفة حكومية إبان حكم كل من الفراعنة "تيتى" و "بيبى الأول" و "ميرى - ن - رع" بالأسرة السادسة (القرن الرابع والعشرين ق.م)[٧٧]. وكان الاختيار قد وقع على "وينى" - الذى لم يكن أكثر من (أحد رجال الحاشية الملكية) وأحد المشرفين على السوق الملكى لمنتجات البساتين - لقيادة التجريدة العسكرية، نظراً لأنه كان، كما يخبرنا هو بلسانه، "أكفأ فى رأى جلالته من أى شخص آخر سواء من حكامه أو وكلائه أو موظفيه" ولم يورد النص التالى أى سبب لإرسال التجريدة، سوى تلك الإشارة المبهمة إلى وقوع تمرد، ولكن الأمر لم يكن ليحتاج إلى أكثر من ذلك نظراً لأن النص كان للاستهلاك المحلى. فالقارئ المصرى كان ليسلم بأن الآسيويين أساءوا السلوك:

" عندما اعتزم جلالته تأديب الآسيويين الذين يقيمون على الجانب الآخر للرمال، أعد جيشًا من عشرات الألوف من المجندين الذين يأتون من الوجهين القبلى والبحرى. وقد أوفدنى جلالته على رأس هذا الجيش. ولم يتول قيادة أولئك المقاتلين سواى، رغم أن وظيفتى لم تتعد الإشراف على السوق الملكى لمنتجات أصحاب البساتين. وكان اختيارى لهذه المهمة راجعًا إلى الدقة التى أديت بها عملى خلال أداء مهام وظيفتى. وكان من نتيجة ذلك أن أحدًا لم يتعارك مع زميل له، ولم يسرق أحد رغيفًا أو صندلاً من مسافر، ولم يسلب أحدٌ جلبابًا من بلدة ما، ولم يستول أحد على عنزة من شخص ما. ولقد قدت قواتى عبر طريق الحصن الشمالى" (؟) خلال " بوابة إى - إم - حوتب" فى منطقة حورس رب الصدق ... "

وعاد هذا الجيش سالمًا، بعد أن سحق أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر للرمال!

عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن محق مدنهم المحصنة!

عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن اجتث أشجار فاكهتهم وتكعيبات عنبهم!

عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن أشعل النار فى كافة مساكنهم(؟)

عاد هذا الجيش سالمًا بعد أن ذبح قوات العدو بعشرات الألوف!

عاد هذا الجيش سالمًا، ومصطحبًا أعدادًا غفيرة من القوات التى رفعت السلاح فى وجه المصريين كأسرى حرب!

وقد أثنى علىّ جلالته ثناء فاق كل الحدود. وكلفنى جلالته بقيادة هذا الجيش فى خمس مناسبات متتالية كى أخضع بلاد أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر للرمال كلما رفعوا راية العصيان. ولقد قمت بالمهمة التى أوكلت إلىّ خير قيام، الأمر الذى جعل جلالته يمتدحنى بصورة فاقت كل الحدود.

ثم أفادت تقارير بوجود مثيرى شغب وقلاقل بين أولئك الأجانب الذى يقطنون فى أرض "أنف الغزال"(٧٨) وبناء عليه أبحرت على متن سفن نقل بقواتى، ورست على الشواطئ خلف مرتفع جبلى شمالى بلاد الذين يعيشون على الجانب الآخر للرمال. ومع أننى احتفظت بنصف قواتى على الأقل بعيداً عن ميدان القتال، إلا أننى رجعت قابضاً على الأعداء جميعًا، وقمت بذبح مثيرى الشغب والقلاقل بينهم".

تتميز كافة السير الذاتية الخاصة بمثل ذلك الطابع النموذجى الذى يجمع بين الحماس والسذاجة والزهو، وهى السير التى نقشت بها المقابر المصرية فى كافة العصور، ويصبح لزامًا على المؤرخ أن " يخفض" بصورة تلقائية درجة القوة والنجاح الذى يدعى المتحدث أنهما ميزتا أعماله. ومع ذلك، فهناك فى حالة "وينى" هذه نقطتان مهمتان لا تستطيع تلك البلاغة أن تشوههما وهما: أولاً: أن التمرد احتاج من مصر أن ترسل تجريدة عسكرية ضخمة العدد. ثانيًا: أن الآسيويين حققوا نجاحًا فى تمردهم استدعى تكرار مثل هذه الخطوة خمس مرات. وفى ضوء الأحداث الجسام التى سرعان ما كانت لتضع نهاية مثيرة لمطلع العصر البرونزى Early Bronze Age ، قد نسمح لأنفسنا أن نطرح بعض الأسئلة الأساسية. هل تعكس التجريدة التى قادها "وينى" بداية النهاية فى فلسطين؟ ومن هم يا ترى: "مثيرو الشغب والقلاقل" الذين تسللوا إلى صفوف أولئك الأجانب؟ لن تكون الأجوبة على وجه الاحتمال قريبة المنال. ولكن السعى فى إثر مثل علامات الاستفهام هذه ينطوى على أهمية حيوية مع ذلك. ففى غضون قرن ، لا أكثر ، كان لكل من مصر وفلسطين أن تعانيا انهياراً كاملاً على المستويين الاقتصادى والسياسى معاً.

الهوامش

(١) Cf.B.G.Trigger. in M. Görg,ed., Festschrift Elmar Edel (Bambergk1979), 409ff.

(٢) Cf.the repetive slaughter of the prisoners:J.E.Quibell.Hierakonpolis (London, 1900),1:pl.XV,nos.1,2,4.

(٣) Cf.the "phallic sheath" and feather, both indicative apparently of Libyans: J.Capart, Primitive Art in Egypt (London,1905), 100,fig. 70;W.B.Emery, Great Tombs of the First Dynasty (Cairo,1949) ,1;60,n.565.

(٤) W.M.F.Petrie, The Royal Tombs of the First Dynasty (London,1900) ,1:pl.17 (30); L.Borchardt,Das Grabdenkmal des Königs Sa-hu-re (Berlin,1913),2:pl.13.

(٥) M.Saghieh, Byblos in the Third Millennium (Warminster,1983) ,fig, 7B , pl.33; P.Matthiae, in Studies in the History and Archaeology of Jordan (Amman, 1982), 1:79ff.

(٦) انظر على وجه الخصوص فى هذا الصدد كلاً من :

R.Amiran, in J.A.Sandars,ed., Near Eastern Archaelogy in the twentieth Century (New York,1970),83ff.,idem, in Biblical Archaeology Today (Jerusalem, 1985.; M.Brochi and R.Gophna,BASOR 253 (1984),41ff.;P.W.Lapp,in Sandars,Near Eastern Archaelogy,101ff.; W. Rast,Scripta Mediterranea (1980),: 1:5ff.; R.T. Schaub,in Studies in the History and Archaeology of Jordan 1:67ff.R.de Vaux,CAH 1(1971),232ff.

(٧) (لنقاش تفصيلى) See. D.B.Redford,JARCE 23(1986),125-32, for detailed discussion

(٨) See G. Pettinato, The Archives of Ebla (New York,1981).

(٩) M.Wright, BA 48 (December 1985), 240ff.; Also see Redford, JARCE 23 (1986), 125-32.

(١٠) حول الحوليات المصرية انظر:

D.B.Redford,Pharaonic King-lists,Annals and Day-books (Toronto,1986), 86ff.

(١١) W.S.Smith and W.K.Simpson. The Art and Architecture of Ancient Egypt (Harmonds worth,1983), 35 ff.

(١٢) W.F.Albright, The Archaeology of Palestine (Haremondsworth, 1949), 76; J.B. Hennessey, The foreign Relations of Palestine during the Bronze Age (London,1967), 73; R.Gophna and D.Gazit, Tel Aviv 12 (1985), 9 ff.

(١٣) تعد دراسة كل من A.H. Gardiner و J. Cerny التى تحمل عنوان : The Inscriptions of Sinai أفضل دراسة حول مناجم سيناء (لندن سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٥) وكذلك دراسة R. Giveon: المعنونة: The Impact of Egypt on Canaan (جوتينجين سنة ١٩٧٨) ٥١ وما بعدها.

(١٤) حول منظر الضرب على الرأس فى الفن المصرى انظر:
H.Schafer,WZKM 54 (1957),168 ff.

(١٥) E. Oren,IEJ 23 (1973),198 ff.

(١٦) R. Gophna,Atiqot 11(1976),5.

(١٧) R. Amiran,IEJ 23 (1973),241-42;idem,IEJ 24 (1974),257-58;idem, in M.Avi-yonah ed. Encyclopedia of Archaeology Sites in the Holy Land (Jerusalem,1975) 1:74ff.,idem, in Biblical Archaeolgy Today,108 ff.

(١٨) F.A. Hassan and S.W. Robinson, Antiquity 61 (1987),127;on the fall of Arad, see R. Amiran,IEJ 36 (1986),74-77.

(١٩) W.Rast, Scripta Mediterranea 1 (1985),5; Hennessey,Foreign Relations,73-74.

(٢٠) لم تحظ الأسرة الثانية إلا بأقل اهتمام فى الأدب التاريخى، نتيجة لندرة الأدلة الأثرية والنصوصية بصفة جزئية على الأقل:
Cf.E. Drioton and J.Vandier,L'Égypte (Paris,1962),142-43; W.B.Emery,Archaic Egypt (Harmondsworth, 1962), 91ff.;I.E.S. Edwards, CAH^3 I (1971), chap. 11;W. Kaiser, ZÄS 86 (1961), 46ff.; A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs (Oxford, 1961), 415ff.

(٢١) W. Helck, Untersuchungen zu Manetho und den ägyptischen Königslisten (Berlin, 1956), 13.

(٢٢) حول تقديس حيوان "سيت" الذى يتمثل، فى العادة، فى فصيلة منقرضة من الخنازير، انظر:
P.E. Newberry,Klio 12 (1912),397ff.,idem,JEA 14(1928), 211ff.; S.Donadoni, MDAIK 37 (1981), 115 ff.,

وحول الإله نفسه انظر:
J.G. Griffiths, The Origins of Osiris and his cult (Leiden,1980); H.Te Velde,Seth,God of Confusion (Leiden,1967).

(٢٣) انظر كتاب "جريفيث" فى الهامش السابق. و كانت النظرية التى صاغها بشكل مفصل "بى.إيى. نيوبيرى" فى كتابه "Ancient Egypt(1922)" فى ص ٤٠ و ما بعدها بشأن "ست-التمرد" قد وجدت رداً عليها، فى نهاية المطاف ساقه جيه. جى.جريفيث" فى كتابه "لمحات من مصر القديمة" Glimpses of Ancient Egypt [Warminster,1979].

وحول "بريبسين" Peribsen انظر أيضاً:

Edwards, CAH3 1 (1971),chap.11; J.F.Garnot,BIE 37 (1956), 317 ff.; J.P. Lauer, BIFAO 55 (1956),162-63.

(٢٤) P. Lacau and J.-P. Lauer, La pyramide à degrés (Cairo, 1959), 4:77, no.205 (Cf. also pl. 18, nos. 87, 93;5: No. 274; T. E. Peet, The Cemeteries of Abidos (London, 1914), 1: pl. 10.

(٢٥) حول "خاع – سيخيم – وى" انظر: Edwards,CAH3 1(1971),chap.11 .

(٢٦) Palermo Stone, recto V,

وحول التعبير، انظر: J.C. Darnell,GM 83 (1984),17 ff .

(٢٧) P. Montet, Byblos et l' Égypte (Paris,1928), 271.

(٢٨) Cf. Ibid., Passim; P . Montet, Kêmi 1 (1928), 19 ff.; H. Goedicke, MDAIK 19 (1963), 1ff.; S.H. Horn, Andrews University Seminary Studies 1 (1963), 52 ff.; P.E. Newberry, JEA 24 (1938), 182 ff.; M. S. Drower, CAH[3] I (1971), chap. 17; S. Herrmann, ZÄS 82 (1957), 48 ff.; K. Sethe, ZÄS 45 (1908), 7 ff.; M. Saghieh, Byblos in the Third Millennium (Warminster, 1983); W. A. Ward, JESHO 6 (1963), 1ff.; Griffiths, Origin of Osiris, 28ff.; O. Tufnell and W. A. Ward, Syria 43 (1966), 165 ff.

(٢٩) ANET[2], 82 ff.; G. Roux, Ancient Iraq (Harmondsworth, 1966), 115-16.

(٣٠) Drower, CAH[3] I (1971), chap. 17.

(٣١) Ibid.; S. Tawfik, GM 30 (1978), 79; J. Strange, Caphtor/Keftiu: A New Investigation (Lieden, 1980), 71ff.

(٣٢) Ch. Boreux, Études de nautique égyptienne (Cairo, 1925), 462; T. Säve-S?derbergh, The Navy of the 18th Egyptian Dyansty (Uppsala, 1946), 12, 48-49; P. Montet, Kêmi 13 (1954), 63 ff.; 16 (1962), 86-87;A. B. Lloyd, JEA 58 (1972), 272 ff.

(٣٣) CT I, 262b; A. Altenmüller, Synkretismus in den Sargtexten (Wiesbaden, 1975), 133.

(٣٤) من تقرير "وينامون" ٢:١٩-٢٢

(٣٥) H. W. Attridge and R. A. Oden, Jr., Philo of Byblos . The Phoenician History (Washington, D.C., 1981), 72, n. 6; II Aqhat v, 20 ff.; T. H.Gaster, Thespis (New York, 1961), 161, 164-65.

(٣٦) C. Zaccagnini, Lo scambio dei doni nel Vicino Oriente durante i secoli XV-XIII, (Rome, 1973); M. Liverani, Three Amarna Essays (Malibu, Calif., 1979), 21ff.

(٣٧) W. Westendrof, GM 11 (1974), 47 ff.

(٣٨) Shipwrecked Sailor, 147-49; D. B. Redford, JEA 67 (1981), 174-75.

(٣٩) انظر: ،
Montet, Byblos et L'Egypte; on Hathor,"Mistress of Byblos", see Ibid., pl.28:11, p.35; M. Chehab,Bulletin de la Musée de Beyrouth 22 (1969), 1ff.; R.Stadelmann, Syrisch-Palästinensische Gottheiten in Ägypten (Leiden,1967), 97; J.G.Griffiths, Plutarch's De Iside et Osiride (Cambridge, 1970), 326; C.J.Bleeker, Hathor and Thoth (Leiden,1973), 72-73.

(٤٠) P. Matthiae, CraibI (1978), 229,230-31,fig.20; idem, in Studies in the History and Archaeology of Jordan, 1:89, fig. 22; G.S. Mattiae, studia eblaiti (Rome, 1979), 1:33 ff.; (Rome,1981), 4:104, fig. 14.

(٤١) حول "التل" (توراتيًا: "عاى") انظر:
J.A.Callaway, The Early Bronze Age Sanctuary at Ai (et-Tel) (London,1972);Avi-Yonah, Encyclopaedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.1:36 ff.

(٤٢) النقل القديم إلى القلم الهيروغليفى لكلمة: Gubla الكنعانية: "جبـل" الذى كان بمثابة اسم البلدة :
W.F. Albright, The Vocalisation of Egyptian Syllabic Orthography (New Haven, Conn., 1934),60;Z.S.Harris,A Grammar of the Phoenician Language (New haven, Conn.,1936),93;Koehler-Baumgartner,1:166.

اللغة المصرية القديمة لا تعرف حرف اللام إلا فى بعض لهجاتها و حسب، و كان الناقل إلى هذه اللغة فى العصور المبكرة يضع "نون" نظير كل "لام" يقابلها فى لغة أجنبية.

(٤٣) Wntt Kbn: J.Leclant, Orientalia 23 (1954), 73; P.Montet, Kêmi 16 (1962), 80.

(٤٤) انظر الفصل الرابع فى هذا الكتاب.

(٤٥) انظر على وجه الخصوص:
D.B. Redford, "The Sea and the Goddess" in S.Groll.ed.,Studies in Egyptology presented to Miriam Lichtheim (Jerusalem,1990),824-35.

(٤٦) حول عبادة "أوزيريس" واشتقاقها المزعوم من أسيا الغربية، انظر:
A. Scharff, Die Ausbreitung des Osiriskultes in der Frühzeit und während des Alten Reiches (Munich,1948,8;S.A.B.Mercer, The Religion of Ancient Egypt (London, 97 ff.; Griffiths,Origins of Osiris.

(٤٧) انظر:
O. Kaiser,Die mythische Bedeutung des Meeres in Ägypten,Ugarit und Israel (Berlin,1959);A.y.Collins, The Conflict Myth in the book of Revelation (Missoula, Mont., 1976), 57 ff.; Cf.T.H.Gaster, Thespis² (New York,1961),153ff.; Attridge and Oden, Philo of Byblos, The Phoenician History,76-77,n.29.

(٤٨) ANET2, 129 ff.;
انظر أيضًا الملاحظة السابقة.

(٤٩) حول "حاتحور" البيلية (نسبة إلى "بيبلوس") انظر:

Griffiths,Origins of Osiris,33;C.J.Bleeker, Hathor and Thoth (Leiden,1973,72-73; hey-t3w,see PT 518,Goedicke,MDAIK 19 (1963),1ff.; on

وحول "أدونيس" انظر:

B. Soyes,Byblos et les fêtes des Adoneis (Leiden,1977);N. Robertson, HTR 75 (1982),313 ff.

(٥٠) Soyez, Byblos, 30 ff.; M.Astour, Hellenosemitica (Leiden,1965),116,n.1

(٥١) حول "يوروبا" انظر:

W. Buhler, Europa,Ein Uberblick über die Zeugnisse der Mythos (Munich,1986); Astour, Hellenosemitica,128 ff.;R.B.Edwards, Kadmos the Phoenician (Amestrdam,1979), 79, n.73; on Andromeda,see H.J.Rose,in OCD2,63-64.

(٥٢) J. Jacobsen, JAOS 88 (1968),107-8.

(٥٣) Hesiod, Theogony, 12.82ff.; Apollodorus,1.41-44.

(٥٤) W. Helck, Die Lehre fûr Merikare (Wiesbaden, 1977), 83-84; M. Lichthem, Ancient Egyptian Literature (Berkeley, Calif., 1976), 1:106-7.

(٥٥) PT229; G.Daressy, ASAE 11 (1911), 188; 18 (1918), 116; Gasten, Thespis[2] , 141, 152; A.W.Shorte, Jea 21 (1935), 43; K. Mysliewic, Studien zum Gott Atum (Hildesheim,1978), 1:92 ff., 124.

(٥٦) Ibid (المرجع السابق).

(٥٧) E. Hornung, Conceptions of God in Ancient Egypt (Ithaca, N.Y.,1982), 158-59.

(٥٨) A. Klassens, A. Magical Statue Base (Socle Behague) in the Museum of Antiquities at Leiden (Leiden,1952); R.T. Rundle-Clark, Myth and Symbol in Ancient Egypt (london, 1957), 186ff.; A.Massart, MDAIK 48 (1957), 172 ff.

(٥٩) انظر: D.b. Redford,BES 5 (1983),67 ff .

(٦٠) F.W. Green and J.E. Quibell, Hieraonopolis (London,1900), 1; pl.39-41.

(٦١) الأدب الذى يتناول هذا الموضوع بلا حصر، وغير منتظم، بصورة مخجلة، فى البراعة الأكاديمية. ولكننا نجد بين أفضل الأعمال فى هذا الشأن ما يلى:

D. Arnold,LdÄ 5 (1984),1ff.;I.E.S.Edwards, The Pyramids of Egypt[2] (Harmondsworth, 1971);A.Fakhry, The Pyramids[2] (Chicago,1969);L.V.Grinsel, Egyptian Pyramids (Bristol,1947); J.-P.L auer, Les Pyramides de Sakkarah (Cairo,1977); V.Maragioglio and C.Rinaldi, L'architecttura delle piramide Menfite (Turin,1962).

نستطيع أن نجد أحدث بيبلوجرافيا حول الأهرامات، هرمًا هرمًا عند "سميث" و "سيمبسون":

Smith and Simpson,Art and Architecture of Ancient Egypt[2]

(٦٢) S. Schott, Bemerkungen zùm altägyptischen Pyramidenkult (Cairo, 1950), 133 ff.; K.Martin, LdÄ 5 (1983), 782-90.

(٦٣) H. Junker, Pyrmidenzeit (Zurich,1949) 118 ff.; R. Anthes, JNES 18 (1959), 169 ff.; Griffiths, Origins of Osiris, 44 ff., 173 ff.

(٦٤) W. Helck, Untersuchungen zu den Beamtentiteln des ägyptischen Alten Reiches (Glúckstadt, 1954); K. Baer, Rank and Title in the Old Kingdom (Chicago, 1960); N. kanwati, Government Reforms in Old Kingdom Egypt (Warminster, 1980);

حول الإدارة فى المملكة القديمة، انظر:

Idem,The Egyptian Administration in the Old Kingdom (Warminster, 1977), N. Strudwick, The Adminstration of Egypt in the Old Kingdom (London,1985).

(٦٥) Cf. Arnold, in LdÄ 5 (1984), 1-4.

(٦٦) H. Goedicke, Königliche Dokumente aus den alten Reich (Wiesbaden, 1967), fig.5.

(٦٧) H. kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography (London, 1961),55.

(٦٨) انظر: N. 70; P. Ghalioungui, Tlagic and medical science in Ancient Egypt (London, 1963), 65.

(٦٩) Urk I, 107-8; H.G.Fischer, JEA 61 (1975), 33 ff.

(٧٠) B.Gunn, ASAE 25 (1925), 242 ff.; A.H.Gardiner, JEA 13 (1927), 75 ff.

(٧١) D.B. Reford, Scripta Mediterranea 2 (1981), 8-9; Idem, JARCE23 (1986), 136 ff.

(٧٢) Redford, JARCE 23 (1986) NN. 80-83.

(٧٣) انظر: A Ben-Tor, JESHO 29 (1986),1-27 .

(٧٤) فيما يتعلق بمعنى الفعل (shtp) لا تزال الحجة التى ساقها G.E. Kadish . هى الأفضل. JEA 52 (1966), 29 ff.

(٧٥) Redford, Scripta Mediterranea 2 (1981),6-7.

(٧٦) حول السجناء المقيدين من المعابد الجنائزية للمملكة القديمة، انظر الآن:

M. Verner,RdE 36 (1985),145 ff.;

وحول "نصوص اللعن" انظر: G. Posener,Cinq figurines d'envoûtement (Cairo,1987). حيث يستطيع القارئ أن يجد ببليوجرافيا (قائمة بالمراجع) كاملة.

(٧٧) A.K. Grayson and D.B. Redford, Papyrus and Tablet (Engelwood Cliffs, N.J., 1973) 45-48; Cf. also Litchtheim, Literature, 1:18 ff.; Wilson, in ANET^2, 227-28; H. Goedicke, RSO 38 (1963), 187 ff.; B. Couroyer, RB 78 (1971), 558-59; J. Osing, Orientalia 46 (1977), 165 ff.

(٧٨) مطرح مجهول يقع على ساحل المشرق، يترادف أحيانًا مع سلسلة جبال الكرمل.

الفصل الثالث

"واعجباه ! ها هو الآسيوى الخسيس !"

وسط الرمال المتحركة فى جنوب "سقارة"، حيث تقوم الجبانة الشاسعة للعاصمة المصرية "منف"، يقف مجمع هرم الفرعون "بيبى" الثانى، آخر فراعنة مصر المملكة القديمة (حوالى القرن الثالث والعشرين ق.م.)، وأطول الفراعنة حكمًا فى التاريخ إذ استمر يحكم ٩٤ سنة. ورغم ما فعلته عوادى الظروف، إلا أن المجمع خضع فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر لعمليات تنقيب دقيقة قام بها جى. جاكييه G. Jequier ، وهى العمليات التى كشفت عن تصميم معمارى وتخطيط وظيفى يقتفيان بدقة فائقة أثر تقاليد المملكة القديمة، التى استمرت تتبلور على امتداد خمسة قرون[١]، فـ"معبد الوادى" الذى يقع على قناة تتصل بالنيل توفر إمكانية الوصول إلى المعبر المألوف، الذى يقود فى صعوده إلى هضبة الصحراء التى يقف عليها الهرم ومعبده. وهنا فى يوم الدفن حملت مومياء الفرعون العجوز، بعد استعادة قدراتها البدنية عن طريق الطقس السحرى المعروف باسم "فتح الفم". وأودع الكهنة والسدنة التابوت فى غرفة الدفن، ووضعوا مختلف أنواع الأطعمة والأدوات الجنائزية فى غرف التخزين، وقربوا الأضاحى الأولى لروح فرعونهم الراحل فى المعبد المتاخم للواجهة الشرقية للهرم. وهكذا يكون قد جرى تشغيل الجهاز البالغ الإتقان، المصمم خصيصًا لخدمة الفرعون المتوفى طوال الأبدية.

ولما كانت هذه الإجراءات خاضعة للتقاليد، فكذلك كان التخطيط والمعمار وتصميم "بيبى - راسخ القدم - والحى الذى يتنفس" وهو الاسم الرسمى لمجمع هرم "بيبى" الثانى، وكان فى ذلك مقتفيًا أثر النماذج التى كسبت الجلال خلال مرور الأزمنة. وقد يكون المهندسون المعماريون قد استغنوا عن البازلت لصالح البناء بالحجر الجيرى

الذى يسهل عليهم أكثر الحصول عليه، واستبدلوا الأعمدة الأنيقة ذات الشكل البردى أو النخيلى بالخوازيق الخشنة، إلا أن معبد الهرم يكشف، مع ذلك، عن عظمة منشودة لفرعون - إله يرحل كى يحكم مملكة جديدة فى العالم السفلى.

ويضم الهرم نفسه، فى حقيقة الأمر، نواة سهلة التشييد من الدقشوم تكسو واجهتها طبقة من الحجر الجيرى الفاخر كى تعطى الهرم شكله الخارجى، ولكن حجمه (٧٨ مترًا مربعًا) ومنظره الخارجى يمكن مقارنتهما بصورة مُرضية بالأهرامات الاثنى عشر أو نحو ذلك، التى سبقته خلال الأسرتين الخامسة والسادسة: وكلها محشوة بالدقشوم ومكسوة بقشرة فاخرة. وعلى نحو ما صار أحد الأعراف السائدة منذ عهد الملك "أوناس"(والأولى "ونيس") من الأسرة الخامسة، كانت غرفة الدفن منقوشة بأعداد غفيرة من الرقى والترانيم والشعائر الدينية التى تشكل فى مجموعها "نصوص الأهرام"، وهى عبارة عن مجموعة من النصوص الدينية التى تستخدم بصفة رئيسية فى طقوس عبادة المعبد لمساعدة الفرعون فى العالم السفلى[٢].

انهيار الدولة القديمة:

عندما ارتفع فى بادئ الأمر كل من هرم "بيبى" الثانى ومعبده على الهضبة الغربية، لم تكن هناك أى سحابة عالقة فى أى أفق من الآفاق. وكانت قوافل الفرعون لا يزال فى وسعها أن تسافر إلى أى منجم أو محجر يقع عليه الاختيار، وكان قادة القوافل يعودون بأسراب الحمير من الجنوب، وهى محملة بكل المنتجات الأفريقية العجيبة. وكانت العطايا المنذورة لا تزال تقدم باسم الملك فى أماكن موغلة فى البعد[٣].

وكانت جبانة "سقارة" مستمرة فى الزهو بمقابرها الخاصة الواسعة ذات الأشكال المستطيلة (يسميها الأهالى حاليًا "مصاطب" نظرًا للتشابه الذى يجمعها مع المصاطب التى يقيمها الفلاحون أمام أبواب بيوتهم فى القرى)، وكانت كل مقبرة منها تغطى بمناظر مزخرفة أو جدارية تصور حياة صاحبها وإنجازاته وآماله فى آخرته[٤]. وكانت المراكز الإقليمية قد شرعت منذ وقت طويل فى نحت مقابرها فى الصخور الحية أى تلك التى

لم تنقل من أماكنها الطبيعية فى الوديان التى تمتد حتى الصحراء، وهى المقابر التى كانت مومياوات "وجهاء الدائرة" وموظفى الناحية التابعين للإدارة الملكية تستقر فيها وسط مظاهر أبهة محلية لا تتجاوز حد محاولة متواضعة لتقليد مظاهر الأبهة الحقيقية فى العاصمة[٥]. وكانت معظم مناطق الدفن هذه مزدهرة عندما وصل الفرعون "بيبى" الأول إلى العرش، واستمرت طوال النصف الأول من حكمه تقذف إلينا بتلك السير الذاتية التى تغص بالفخر، واعتدنا أن نربط بينها وبين المملكة القديمة. ولا يثير علو شأن فنون نحت الأحجار وطرْق المعادن، وهى الفنون التى تعد بصفة دائمة، بمثابة رمز لاستقرار المجتمع، فى بدايات حكم الفرعون أى دهشة عند أحد: ونماذج الجداريات المستقاة من المعبد الجنائزى للفرعون لا تقل إمتاعاً من الناحية التكنيكية عن أى أعمال فنية أخرى دخلت حيِّز التنفيذ خلال الأسرة الخامسة أو السادسة.

إلا أن هذه الصورة تغيرت بصورة جذرية بحلول الربع الأخير من حكم الفرعون "بيبى" الثانى إذ توقفت القوافل إلى المناجم والمحاجر. وعندما كانت تغامر قافلة ما بالسفر إلى الخارج، كانت تجد سكاناً محليين لم يعودوا يخشون بأس مصر: ذبح المتمردون من رجال القبائل النوبيين قائد إحدى تلك القوافل واضطر ابنه إلى دفع فدية لقاء استرداد جثمان أبيه منهم، واغتال الآسيويون قائداً آخر على ساحل البحر الأحمر[٦]. وسقطت الإدارة الملكية فى وهدة السلبية. ويرجع تاريخ آخر نص مدوَّن من حكم الفرعون"بيبى" إلى السنة السابعة والستين[٧]. ويصور الفولكلور الشعبى فى أوقات لاحقة "بيبى" كشخص مترف و"ربما" محب لبنى جنسه من الرجال، وهذه من الصفات المستهجنة من وجهة نظر المصريين القدماء[٨]. والحقيقة أنه كان موضع احتقار على وجه الاحتمال بالفعل إبان حياته: شهد النصف الأخير من سنوات حكمه، وعلى النقيض من النصف الأول ميلاً من جانب النبلاء نحو التخلى عن الألقاب المرتبطة بالمعبد الملحق بهرمه[٩]. وتكشف الأدلة الأثرية المعاصرة عن أن العاصمة "منف" أصابها العوز على عهده حتى إن الأهالى لم يكن فى وسعهم أن يتحملوا أكثر من الدفن فى مصاطب صغيرة مبنية من الطوب الأخضر، أما زخرفة مدافنهم فكانت أمراً بعيداً عن قدراتهم المادية[١٠]. ولم يكن فى مقدور مسئول على مستوى عال يصل إلى رتبة وزير أن يجد لنفسه مدفناً سوى مقبرة مغتصبة من صاحبها الأصلى[١١]. والحقيقة أن النسق الدقيق القديم للترقى أوالصعود فى السلم الوظيفى الذى يدعم النظام الذى يقوم عليه المجتمع

فى المملكة القديمة كان آخذاً، على ما يبدو، فى الانهيار والألقاب التى ظلت منذ فجر الزمان مقصورة على الملكة أصبحنا نجدها مضافة، بشكل صفيق، إلى ألقاب السيدات اللواتى ينتمين إلى عامة الشعب. وحمل كل شخص لقب "محسوب الفرعون"، واغتصب رجال ونساء[١٢] عديدون رتبة "الوزير" الرفيعة[١٣].

صدمت العواقب القدماء بما لا يقل عن ذلك شناعة. ورغم أن الأدلة المعاصرة تخيِّب ظنوننا، إلا أن التقاليد التى انحدرت إلى العصور التالية، المعروفة باسم قوائم الملوك تنقل إلينا ما قد نرى فيه صورة دقيقة إلى حد معقول، على الأقل فيما يتعلق بالانطباع العام الذى نستشفه. فـ "لائحة تورينو" Turin Canon (حوالى ١٢٥٠-١٢٠٠ق.م)، وهى لائحة الملوك الصادقة التى وصلت إلينا من مصر القديمة[١٤]. تورد سبْعة أسماء عقب ذكر "بيبى" الثانى :"ميرى - ن - رع"، و"نيتوكرتى"، و "نفر - كا" الطفل" و"نفر" و "أبا"، واسمين آخرين مفقودين فى غضون فترة حكم لا تزيد فى مجموعها عن عشر سنوات إلا قليلاً. ولكن ناسخ اللائحة وجد فى مصادره فجوة تصل إلى ست سنوات، ولكنه حاز من الأمانة العلمية ما جعله يدوِّن ذلك[١٥]. إلا أن هذه الفجوة تجد ما يملؤها مما يسمى بلائحة "أبيدوس" الملكية، وهى قائمة بأسماء الملوك مرتبة فى سياق تاريخى، فى إطار شعيرة تقريب القرابين للأسلاف الملكيين[١٦]. فهذه اللائحة تورد بعد "بيبى" الثانى ثمانية عشر اسمًا لملوك لم يعمروا طويلاً بحال من الأحوال، فى عروشهم، إذ إن ولايتهم لم تكد تمتد بهم جميعًا لأكثر من عشرين سنة. ويقول "هيرودوت" المؤرخ والرحالة اليونانى إن "بيبى" الثانى خلفه مينثسوفيس Menthsouphis الذى لم يستمر فى العرش إلا أكثر قليلاً من سنة واحدة، ثم قتل فى إحدى مؤامرات القصور. ولكن شقيقته "نيتوكريس" أو "نيتيوكيرتى؟" "Nitokerty" أخذت ثأره من الذين تآمروا عليه بجمعهم فى قاعة واسعة لوليمة كما بدا لهم الأمر ثم أغرقتهم جميعًا بواسطة سد استخدمته فى تحويل مياه النيل[١٧]. ويقوم "مانيتو" Manetho (المؤرخ المصرى الذى كتب تاريخه حوالى ٣٠٠ ق.م. باللغة اليونانية)، بعد ذلك بقرنين من الزمان أى فى القرن الثالث ق.م، بتوسيع نطاق تقاليد لائحة الملوك اعتماداً على مصادر ذات مسحة فولكورية. ويقول "مانيتو" فى هذا الصدد، "وبعد ذلك تولت أسرة سابعة مقاليد الحكم، وقد شملت سبعين ملكًا ثم أعقبتها أسرة ثامنة ضمت سبعة وعشرين ملكًا"[١٨].

قد تبدو هذه الروايات متضاربة، إلا أنها تعطينا انطباعًا عن الحقيقة ذاتها: شهدت مصر غداة رحيل "بيبى" الثانى سقوطًا فى فوضى سياسية. حقًا تلزم السجلات المعاصرة الصمت، إلا أن العواقب واضحة. فى غضون جيل واحد لا أكثر، جلبت عائلة الملوك "المنفية" (نسبة إلى "منف".) التى كانت قد تربعت فى سدة الحكم لما يصل إلى ألف سنة، على نفسها الخزى والعار بكل ما فى العبارة من معنى، واختفت غير مأسوف عليها. وكانت القلاقل عند تلك النقطة قد أخمدت بصفة مؤقتة إثر اعتلاء "بيت أختوى" سدة الحكم فى "هيراكيوبولس" Herakeopolis ولقد منح "أختوى" وخلفاؤه السبعة عشر، الذين ينحدرون من طبقة النبلاء، مصر نظامًا دام قرنًا من الزمان، جرى العرف على تسميته الأسرتين التاسعة والعاشرة. ولكن قبضتهم على مصر الموحدة لم تدم طويلاً، إذ انفصلت مديريات مصر فى أقصى الجنوب، فى أعقاب سنة ٢١٤٠ ق.م كى تلتف حول زعامة مدينة "طيبة" التى بزغت إلى الوجود بشكل مفاجئ، وشكلت فيما بينها دولة متمردة فى الجنوب.

فى ظل غيبة أدلة معاصرة من ذلك النوع الذى يستطيع المؤرخ الاقتصادى أن يعتمد عليه، والفجوة التى تبلغ أربعة آلاف سنة التى تفصل بيننا وبين الحدث، فلسوف يبدو من باب ذروة الغرور الأخرق أن نتخيل أن فى طوعنا أن نقترب، مجرد اقتراب، من تحديد الأسباب التى أدت إلى انهيار المملكة القديمة. إلا أن حقائق معينة تقف بارزة بصورة لا تخطئها العين. أولاً: لعله من الواضح تمامًا أن بلاط "منف" فى أواخر عهد "بيبى" الثانى لم يُحسن تدبير عائدات الدولة التى بلغت يومًا ما أحجامًا هائلة. ولقد نتج العوز الذى حاصر رجال البلاط، والتدهور الذى لحق بالفنون (وهذا راجع إلى العجز عن تمويل ورش الفنانين والحرفيين المهرة ؟)، بصورة مباشرة عن الظروف القاهرة التى وجد الفرعون نفسه فيها. ثانيًا: لعله من الواضح تمامًا أيضًا أن شخص هذا الفرعون لم يستطع، على الأقل فى أخريات أيامه، أن يفرض الاحترام الذى كان يعتقد فى استحقاقه. ثالثًا: بصفة عامة، وعلى سبيل النقيض من الفجوة التى قامت فى شغل جبانة "منف"، فإن مقابر الأقاليم استمرت تكشف عن أجيال متعاقبة من العائلات الإقليمية المالكة للأراضى الزراعية على امتداد فترة الركود.

ولعل تعليل انهيار اقتصاد النظام الفرعوني أصعب ما في الأمر. فيزعم البعض أن تكاليف تشييد مثل تلك الصروح الهائلة "غير الاقتصادية" مثل أهرامات الجيزة أصاب الدولة بالشلل[١٩]. ولكن هناك فاصلاً يصل إلى اثنى عشر جيلاً بين "مين - كا - رع" Menkaure (= منقرع) وبين "بيبي" الثاني، ولا تكشف هذه الفترة عن أي تضاؤل في حجم الرخاء. ولم يكن تشييد هرم "بيبي" الثاني بأكثر كلفة، إلى هذا الحد أو ذاك، من تشييد هرم "أوسر - كاف" قبل ذلك بثلاثة قرون. وفضلاً عن ذلك فالأهرام لم تكن أفيالاً بيضاء أو رزايا في ثياب هدايا. فلقد كانت نقطة محورية لمعبد ولتجمع الكهنة الذين يشكلون فيما بينهم وحدة اقتصادية، تملك أراضي زراعية، وتنتج ثروات عينية في شكل أطعمة ودواجن ومواشي وسلع مصنعة. وفي ظل نظام تحدد إعادة التوزيع على أسس هرمية شكل اقتصاده، عوضًا عن السوق، يكون انتشار مثل هذه العقارات مفيدًا عوضًا عن جلب الضرر. وعود على بدء، يخبرنا آخرون أن الوقف الدائم للأراضي المزروعة لمعابد الأهرام، والمنح المستمر لهذه الأراضي لرجال البلاط المقربين، ولمراكز العبادة في الأقاليم، شكل استنزافًا واضحًا للخزانة الملكية. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا سُمح لهذه العملية أن تستمر دون رابط أو ضابط، فإن المرء لا يستطيع إلا أن يستنتج أن الحكام ومستشاريهم كانوا جميعًا بلهاء. ولا يحتاج المرء ذكاء متوقدًا كي يدرك أن الاستمرار في استقطاع قطع أراضي من أملاكه لن يبقى على شيء تحت يديه في نهاية المطاف. ولكن هناك أدلة على أن النظام كان يسمح بحيازة قطعة الأرض من جانب ذرية الشخص الذي حصل عليها في الأصل، وبالتالي كان يتجنب الحاجة حتى إلى توزيع مزيد من الأراضي[٢٠]. ومع ذلك، وإلى حد ما، وخصوصًا في إقليم "منف" والدلتا، قد يكون صحيحًا أن انتشار طقوس عبادة الأسلاف والآلهة الرسميين قد عهد بمساحات كبيرة من الأراضي، التي ملك، عليها الفرعون يومًا الحق المطلق في التصرف إلى مؤسسات تتمتع بشكل متزايد بالاستقلال الذاتي.

ترفع الإمكانية الأخيرة احتمالات الضعف المتفاقم لنظام حقوق التصرف في "الملكية" من كافة الأشكال، وهي التي نستطيع أن نتخيل أن الأسرة الرابعة كانت تتمتع بها في بدايات حكمها بصورة كاملة غير منقوصة. كيف حدث ذلك؟ وهل جرى خلال عمل دؤوب لعوامل اقتصادية حتمية أم خلال قصر النظر والتخطيط الرديء؟

يصبح هذا السؤال ملحًا عندما نتطرق لمشكلة مواثيق الحصانة[٢١]. فبينما نجد مصطلح "الميثاق" بمعنى "الوثيقة القانونية"[٢٢] منتشرًا بل وسائدًا فى نصوص المملكة القديمة فيما يتعلق بكافة أصناف الأدوات القانونية، فإن الشكل الخاص الذى نعرض له الآن هو المرسوم الملكى، الذى ينسخ ويختم فى حضرة الفرعون، ويصدر لصالح معبد أو جماعة بحق الإعفاء. وبموجبه يكون سعيد الحظ قد أصبح معفيًا من دفع الضرائب أو أداء العمل القسرى. ويكفينا نموذجان اثنان لتصوير المضمون والهدف من وراء ذلك.
أصدر الفرعون " نفر- إير- كا - رع" (حوالى ٢٥٢٠ - ٢٥٠٠ق.م) مرسومًا من ذلك النوع إلى "حم - وير"، وكان كبير الكهنة بأحد الأقاليم، لصالح المعبد فى "أبيدوس":

"أداء الشعائر لإلهه فى المعبد حيث يقيم، وترميم المعابد حيث تقام فيها تلك الشعائر. وهى معفاة حتى أبد الآبدين بأمر فرعون مصر العليا والسفلى: "نفر- إير - كا - رع" وعلاوة ذلك لن يكون هناك أى ميثاق يتعارض مع هذا المرسوم فيما يتعلق بسائر خدمات المعابد"[٢٣].

وبعد نحو قرنين من الزمان أصدر الفرعون " بيبى" الأول مرسومًا مشابهًا لصالح بلدتىْ الهرم، اللتين تتبعان الأملاك الجنائزية الخاصة بسلفه البعيد " سى - نفرو" من الأسرة الرابعة: "أمر جلالتى بإعفاء هاتين البلدتين إلى أبد الآبدين من تقديم أى عمل للقصر، ومن أداء أى شغل قسرى لأى جهة من جهات المقر الملكى إلى أبد الآبدين، ومن الشغل القسرى بأمر أى شخص كان إلى أبد الآبدين"[٢٤].

يطرح هذا السؤال نفسه: هل جاءت هذه المراسيم كمنح بلا استحقاق أم أنها كانت محاولات لتصويب أخطاء؟ هل كان الفرعون "بيبى" الأول، وكما ألمح البعض، يحاول شراء تأييد طبقة كهنوتية كانت قد اكتسبت فى الآونة الأخيرة نفوذًا متزايدًا؟ أيا كان الدافع، أخذت مثل هذه المراسيم تكثر مع اقتراب المملكة القديمة من نهايتها. فنجد بين الواحد والثلاثين مرسومًا المعروفة تسعة منها ترجع إلى حكم الفرعون "بيبى" الثانى، وثلاثة عشر تعود إلى حكم ملوك الأسرة الثامنة الذين لم يعمروا فى العرش طويلاً. ويلوح للعيان هنا أننا عثرنا على مفتاح رئيسى، وإن لم يكن غير واضح إلا بصفة جزئية وحسب، للسبب الذى يقف وراء الانهيار الاقتصادى، إذا استطعنا أن

نفسره بصورة صحيحة. والحقيقة المؤكدة أنه إذا كان حكم " ببيى" الثانى قد منح مثل هذه الإعفاءات على نطاق واسع، فإن النتيجة الخالصة لن تعدو الانكماش الحتمى لقاعدة الضرائب.

ومثل هذا الانكماش يمكن أن ينطوى على التفسير الوحيد للغوز الذى حل بالبلاط. وقد يتمثل عامل مساعد آخر فى الاستقلال المتنامى للمسئولين الملكيين، الذين أصبحوا يقيمون الآن بصفة دائمة فى الأقاليم، التى سنحت لنا الفرصة كى نذكر جباناتها المحلية فى وقت سابق. ورغم أنهم خصصوا مساحة بارزة فى مجاميع ألقابهم لتلك الألقاب التى تشير إلى صلتهم بالعائلة المالكة، وفقًا للتقاليد العريقة، فإن سيرهم الذاتية تشى بروح من الاستقلال كانت مجهولة فى نقوش جدودهم. ففى ظل سيطرة أقل قليلاً من مطلقة على مصير جابى الضرائب المحلية (الذى لم يزد عن مجرد مندوب تابع للقصر فى الأسرة الرابعة ومطلع الأسرة الخامسة، واستمرت إقامته هو وعائلته بل ومثواه الأخير فى "منف") لم تكن الأسرة السادسة فى وضع يمكنها من الاعتماد على عائدات تضارع تلك التى كانت تأتى إلى بلاط " خوفو" أو "خفرع"[٢٥].

يذهب رأى خلاب إلى أن فقر مصر فى نهاية المملكة القديمة يرجع إلى الظروف الطبيعية البيئية أكثر مما يرجع إلى الاقتصاد والإدارة. فلقد زادت احتمالات وقوع المجاعات فى أواخر الأسرة السادسة وأوائل الفترة الانتقالية الأولى، ويبدو أن انخفاضًا طارئًا على معدل تساقط الأمطار والفيضان السنوى لنهر النيل قد أصاب شمال أفريقيا، وتبع ذلك قحط Dessication متزايد عند اتجاه الألف الثالث إلى نهايته[٢٦].

وهناك من يفترض عوامل أخرى وراء انهيار المملكة القديمة، غير أنها لا تستأثر إلا باهتمام أقل. هل بلغ اعتماد مصر المملكة القديمة على "التجارة الخارجية" حدًا جعل الاضطرابات التى وقعت فيما وراء حدودها الشمالية والجنوبية، والعداء المتزايد من جانب جيرانها تسفر عن نقص حاد فى وصول السلع المطلوبة[٢٧]. وربما انطوى الأمر على مشكلة سكانية واجهت فراعنة الأسرة السادسة، فما هى حقيقة تلك "المدن الجديدة" التى ظهرت فى الألقاب فى الأسرتين الخامسة والسادسة، وهل لهذه المدن أى صلة بتغيرات سكانية ما[٢٨]؟ خصوصًا وأننا نسمع، مع اقتراب المملكة القديمة من نهايتها، عن فرار السكان من مركز (= Township) لمركز آخر[٢٩]، وعن فساد واعتقالات[٣٠] هل كان ذلك من السمات العادية فى تلك العهود؟

قد يكون من المثير للاهتمام أن نعرف ما إذا كان المصريون فى المملكة القديمة التى كانت شمسها آخذة فى الغروب قد استشعروا أى وقع لأى من هذه العوامل التى تطرقنا إليها فى عرضنا الحالى. يذهب الاحتمال إلى أنهم لم يفعلوا. فأدب الفترة الانتقالية الأولى لا يلزم الصمت إزاء عزو الأسباب إلى المثالب القومية وحسب، ولكنه ينحو بصفة أساسية نحو إيجاد التبرير. ويستمرئ ذلك الدفاع النفسى الخالد: المسألة ليست إخفاقاتنا بل نتائج العوامل الخارجية، وذلك عندما يحاول شخص ما أن يلقى باللوم على الفرعون أو حتى على الإله ذاته(٣١)، كما تتردد، بصورة مساوية، الإشارات إلى الغارات التى يقوم بها الأجانب من وراء الحدود.

وقت ذاك كانت مصر المملكة القديمة قد أمَّنت منذ وقت طويل حدودها الشمالية الشرقية. ونحن نعرف القلاع وقوادها، التى أنشئت هناك من خلال النقوش التى وصلت إلينا(٣٢). وتشى ألقاب من قبيل " القيِّم على المعلومات السرية القادمة من نقطة دخول الأجانب"(٣٣). بالقلق إزاء من أو ما يستطيع أن يأتى عبر الحدود. وفى مملكة السماء حارب حتى الآلهة نيابة عن مصر للذود عن حدودها الشرقية(٣٤).

ولكن انهيار السلطة المركزية يقود بالضرورة، وفق نمط متكرر فى المسيرة الطويلة للتاريخ المصرى، إلى وقوف الحدود دون حراسة، وتسلل الأجانب دون ضابط أو رابط إلى داخل البلاد. وينعكس، اعتبارًا من نهاية المملكة القديمة، الضغط البشرى للآسيويين الناجم عن ذلك الوضع فى النصوص. وتتحدث نسخة متأخرة من "نصوص الأهرام" عن "بوابة الكبش التى ردت كيد "الفنخو" Fenekhu ربما فى إشارة إلى احتمالات شن الأجانب للغارات على شرق الدلتا(٣٥). وكان الشعور بالإحباط وفى نفس الوقت اللجوء إلى التفاخر سمتين من سمات تلك العصور: يتباهى أحد الموتى بقوله "الخوف منى يمتد إلى أجواز السماء. وقدرتى على ذبح أعدائى تخلع قلوب الفنخو"(٣٦). وتوضح التقريعات التى يصبها الحكيم العجوز "إيبو – وير" Ipuwer والتعاليم التى يتلقاها "ميرى – كا – رع" Merikare ، بما لا يدع مجالاً للشك، أن مجاميع الآسيويين لم يصادفوا، فى أعقاب الانهيار أى مقاومة خلال تسللهم إلى الدلتا. ولكننا نستطيع أن نقول، على أحسن تقدير، إن تسللهم كان مرافقًا للمتاعب التى عانتها مصر وليس سببًا لها.

نهاية فلسطين العصر البرونزى الأول:

يمدنا السجل الأثرى بصورة واضحة لنهاية طبقة رقم EBIII . فالمواقع المحلية فى الضفة الغربية أو على الأقل فى الشطر الأكبر منها لم تستمر قيد البقاء كمستوطنات حتى المرحلة الانتقالية اللاحقة من العصر البرونزى الأول حتى العصر البرونزى الوسيط (طبقة رقم EBIV- MBI) ، وفى وسعنا أن نرصد تحركًا بشريًا من تلال كبيرة محصنة إلى أخرى أصغر. وتتوفر لدينا أدلة على وقوع بعض التدمير، ولكن فى كثير من الحالات (حسبما يقال) يحق للمؤرخ ألا يستخدم فى هذا الصدد أكثر من مصطلح الهجر عوضًا عن التدمير. وفى طبقة رقم EB.IV لا تكشف سوى الضفة الغربية، وأجزاء من وادى الأردن، وفى وقت لاحق منطقة "النقب" عن مستوطنات محدودة، وبينما نلاحظ وجود استمرار ثقافى واضح بين طبقة رقم IV و EBII ، إلا أن تغيرًا ملحوظًا كان قد دخل على اقتصاد المجتمع. فبدلاً من مجتمع طبقة رقم EBIII نصف – الصناعى الذى يستطيع أن ينخرط فى نوع من التجارة الدولية، لم يبق أى شىء سوى نزعة رعوية خشنة تسود المجتمع وتحتل فى إطارها تربية الأغنام والماعز حجمًا أكبر على حساب الزراعة[٣٧].

لعله من الثابت لأقصى درجة أن الأسباب الكامنة وراء هذا الانهيار مركبة على غرار تلك التى استشفناها وراء الانهيار فى مصر. ولقد تهاوت الفرضية الأقدم بوجود عامل خارجى فى شكل جماعة غازية ترجع لأصول عرقية دخيلة، أعنى "نظرية الأموريين"[٣٨]، بعد التدليل على أن طبقة رقم EBIII وما جاء فى أعقابها يشكل استمرارًا ثقافيًا وأن القادمين الجدد المزعومين لا أثر لهم سواء على مستوى الآثار أو النصوص. أما وجود عامل خارجى قادم من الجنوب على هيئة غارات تأديبية قام بها المصريون فافتراض لم يعد، هو الآخر، يلقى قبولاً من جانب علماء الآثار الذين يهتمون بفلسطين خصوصًا وأنهم مقتنعون بأننا نقف إزاء عمليات هجر لا تدمير لمدن طبقة رقم EBIII .

تنتمى الأسباب التى تستحق النظر فى الوقت الحالى، عوضًا عن كل ذلك، إلى التغيرات البيئية والاجتماعية والسكانية[٣٩]. فعلى غرار ما حدث فى شمال شرق أفريقيا، قد يكون تغير مناخى ما قد حمل تصحرًا Dessication متزايدًا إلى فلسطين،

وهو الأمر الذى أفضى إلى تفشى المجاعة وربما الوباء. وإلى جانب كل ذلك يستطيع البعض أن يقترح أيضًا الإنهاك الذى حدث للموارد الطبيعية والفساد السياسى.

يتفوق هذا النهج الجديد فى تناول المشكلة فى عمق بصيرته، بما لا يقاس، على النظرية القديمة التى تتسم بالسذاجة بشأن وقوع "غزو أمورى" ولكن ميلاً يظل قائمًا نحو النظر إلى هذا الدليل بصورة منعزلة. وبادئ ذى بدء، يقع العديد من الافتراضات فى الوقت الراهن فيما وراء مملكة الإثبات، وربما ستبقى أى تلك الافتراضات، هناك بصفة دائمة. فلا يملك أحد أى دليل على أن المدن الفلسطينية عانت من فساد سياسى، أو أن المجاعة والوباء قد أحدقا بها إلى درجة زائدة عن الحدود. أما بخصوص إنهاك الموارد الطبيعية، فلقد ظهرت الآن أدلة مقنعة على ذلك، ولكن السؤال عما إذا كان هذا سببًا، وسببًا مصاحبًا لأسباب أخرى أم نتيجة فالإجابة عليه مستحيلة. أما بالنسبة للتغير المناخى، فيبدو أنه أسفر عن إحداث بعض الأثر على سواحل المشرق، ولكن نوع هذا الأثر على وجه الدقة لا يزال بحاجة إلى التحديد.

يبدو لى أن مجموعة فريدة من الأدلة تستحق قدرًا أكبر من إمعان النظر. فالانقطاع فى التقاليد الحضرية عند نهاية طبقة رقم EBI معروف بصفة رئيسية من أواسط فلسطين وسوريا ومنذ البداية، ظلت حتى الضفة الغربية دون تأثر(٤٠). وبذلك دخلت المنطقة بعد تحديدها على وجه الدقة، داخل نطاق النفوذ المصرى. وهنا يجب علينا أن نعين أماكن العديد من الأعمال العدوانية المطلقة العنان التى وجدنا أدلة على وقوعها قرب نهاية المملكة القديمة. ويعكس نص "وينى" Wenny سياسة صارمة من جانب الفرعون "بيبى" الأول فى تبوير مساحات شاسعة من الأرياف التى تنعم بالرخاء فى آسيا، وبحلول عهد "بيبى" الثانى أصبح " تدمير قلاع آسيا" بمثابة وشم (= كليشيه) كثير التكرار(٤١) وانطوت أعمال التدمير هذه، بالإضافة إلى ذلك، على الهدم بعد الإغارة، أى أن الأمر لم يكن مجرد اندلاع الحرائق سواء أكانت عرضية أم مقصودة. وقد يكون من أفدح الأخطاء أن ننكر أن اتساع نطاق الاقتصاد غير الحضرى والأولى الرعوى القائم على الترحال، فى فلسطين فيما - بعد طبقة رقم EBIII قد يرجع إلى حد كبير إلى حملات التأديب التى قامت بها القوات المسلحة المصرية.

مصر وفلسطين فى الفترة الانتقالية الأولى:

يبدو تقسيم التاريخ إلى فترات أو حقب زمنية عملاً مصطنعاً، وإطلاق التسميات والمصطلحات أمر يولع به المدرسون. ولكن تحديد مصطلح ملائم ونقطة تقسيم بالنسبة للعصور التى نتناولها بالنقاش يعد أمراً غاية فى الأهمية. ومصطلح الفترة الانتقالية قد لا يرضى به كثيرون (ومنهم المؤلف الحالى)، ومع ذلك نجده يجسد حكمًا قيميًا Value judgment يعتنقه عديدون، ويناظر فترة قابلة للتعريف بحدود يمكن التحقق منها فى التجربة الإنسانية.

تصدم التقسيمات الراهنة للتاريخ الأثرى لفلسطين مع كل ذلك، المرء لطابعها الجزافى الخالص. وذلك بالتحديد لأنه بات من الثابت الآن أن استخدام نعوت من قبيل "كالكوليثى" (= نحاسى- حجرى) ، "برونزى"، "حديدى"، ولو أن هذه النعوت كانت موفقة يومًا ما فى مطلع تاريخ النسق، أصبح بعيداً كل البعد عن إصابة الهدف المنشود من ورائه. فالبرونزى لم يدرج فى الاستعمال على نطاق واسع إلا فى "العصر البرونزى المتأخر" ، و "الحديدى" فى "العصر الحديدى الثانى" غير أن هذه المتناقضات محتملة، فى حالة واحدة تتمثل فى اكتساب المصطلح لقدر من الرسوخ يفرض على كافة الدارسين الجادين أن يستقروا عليه.

ومع ذلك أفصح الدارسون عن استياء واسع النطاق إزاء التقسيمات الداخلية لـ "العصر البرونزى"[٤٢]. ولقد أثبتت الاستكشافات الأثرية التى جرت فيما بين الحرب العالمية الأولى والثانية بشكل قاطع أن فلسطين شهدت، اعتباراً من نهاية الحقبة قبل - التاريخية فى مصر حتى نهاية العقود الأخيرة على وجه التقريب للمملكة القديمة، ازدهار ثقافة محلية تطورت بشكل متصل In Continuum مع تأثير خارجى محدود. ولقد أطلق العلماء على هذه الفترة مصطلح "مطلع العصر البرونزى الأول والثانى والثالث" تحت تأثير دبليو. إف.أولبرايت W.F.Albright إلى حد كبير. وعلى نفس المنوال، سادت ثقافة استقرار فى فلسطين، اعتباراً من لحظة معاصرة على وجه التقريب لأواسط الأسرة الثالثة عشرة فى مصر حتى حملات الغزو التى قامت بها الأسرة الثامنة عشرة، وهى الثقافة التى نستطيع التعرف على ملامحها خلال الأدوات المصنعة (ومعظمها من الخزف) والمعمار، بصفتها انبثاقًا لإلهام فردى متميز وتطور

محلى السمات. ويطلق "أولبرايت" على هذه الفترة التى تمتد أربعة قرون اسم "منتصف العصر البرونزى الثانى" A.B.C. ، إلا أن الفترة المتداخلة مع هذه الفترة طرحت مشكلة خاصة، دون أن يتمكن العلماء من التوصل حتى تاريخه إلى إجماع ما فى هذا الشأن. فلقد اكتشف "أولبرايت" خلال متابعته لأبحاثه فى "باب الضرة": Bab edh-dhra شرقى البحر الميت، وفى "تل بيت ميرسيم" جنوب غربى "أورشليم" حقبة / طبقة أسماها: EBIV ، وهى الحقبة/الطبقة التى شهدت تدهوراً فى الثقافة الحضرية وميلاً نحو شبه البداوة مع نهاية الألف الثالث ق.م.، بالإضافة إلى حقبة أخرى أطلق عليها اسم MB1 تعاصر الأسرة الثانية عشر فى مصر) وهى حقبة سادتها ثقافة بدوية بشكل كامل، باستثناء الحياة الحضرية فى المدن. ومع ذلك أشار العلماء فى الآونة الأخيرة إلى الخطأ فى تسمية هذه الحقبة MBI على اعتبار أنها تنطوى على ثقافة مقحمة ولا تعد بحال من الأحوال مرحلة مبكرة سبقت الحقبة MBII وعلى المنوال نفسه نجد أن الحقبة EBIV فى الوقت الذى تنحدر فيه على المستوى التكوينى morphological من الحقبة EBIII إلا أنها تمثل سقوطاً فى البداوة (من جانب الناجين ؟) كما تشارك بقدر ما مشترك مع المرحلة التالية وهى MB . ولقد انطوى حسم حالة البلبلة هذه، فى الآونة الأخيرة، على ميل نحو جمع المرحلتين EBIV و MBI معًا تحت عدد من العناوين "الفترة الانتقالية" EB-MB1 (كينيون Kenyon) أو MB1 (مازار Mazar) أو "الفترة الانتقالية فى العصر البرونزى" (لاب Lapp ، وكشافى Kochavi) وأخيراً EBIV,a,b,c (ديفر Dever).

وإذا كان مثل هذا الجمع قد حاز اتفاقًا عامًا بين العلماء، فإن التأريخ الحاسم الذى يرسم حدود هذه الفترة التى نعرض لها حاليًا بالنقاش لم تسنح له فرصة مماثلة. فعلماء الآثار الذين يشتغلون على فلسطين وقبرص وجزر بحر "إيجة" يعتمدون، نظراً للنقص فى نطاق زماماتهم الخاصة فى قوائم الملوك وسجلات التأريخ، والملاحظات المدونة حول ظواهر لا تضن بتواريخها، على التاريخ المصرى المؤرخ بصورة دقيقة نسبياً. وفيما يتعلق بالحالة الراهنة، يحتدم النقاش حول الوقت الذى حل فيه الاستقرار الذى تكشف عنه طبقة MBII ، فى ضوء التأريخ المصرى الأدق: هل حل خلال الأسرة الثانية عشرة (حوالى١٩٩١ – ١٧٨٦ ق.م.) أم الأسرة الثالثة عشرة (حوالى ١٧٨٦ – ١٦٦٥ق.م.)[٤٢]؟

لا يسمح لنا المكان بالتوسع فى تناول الأدلة الأثرية المستقاة من فلسطين على إعادة إقامة المدن أو تطور التحصينات التى عرفها العصر البرونزى الوسيط Middle Bronze Age فالنقاش يملأ فى الوقت الحاضر جنبات النسق. وليس فى طوعنا فى هذه المرحلة إلا أن نستعرض بشكل عابر الأدلة المنقوشة المستقاة من الأسرة التاسعة حتى الأسرة الثانية عشرة التى تتصل ليس بالمصالح العسكرية والاقتصادية لمصر فى آسيا الغربية وحسب بل وبصورة المجتمع فى هذه المنطقة كذلك.

نملك بالنسبة للقرنين اللذين أعقبا نهاية المملكة القديمة ثلاثة مصادر كبرى، تعكس فيما بينها الحقيقة من جهة، والرؤية المصرية للآسيويين على حدود مصر الشرقية وداخل الدلتا من جهة أخرى. وتتمثل هذه المصادر الثلاثة فى: تقريعات "إيبو – وير" أو الحكيم العجوز وتعاليم "ميرى – كا – رع" ونبوءة "نفرتى"[٤٤]. وقد كتبت الوثيقة الأخيرة من هذه الوثائق الثلاث وعهد "أمين – إم – حات" (حوالى ١٩٩١ – ١٩٦١ق.م.) فى ذهن كاتبها، وبالتالى فإنها تنتمى بالضرورة إلى مطلع الأسرة الثانية عشرة، إلا أنها تسعى إلى وصف الأوضاع السابقة على مجىء النظام الجديد.

تنتمى أقوال "إيبو – وير" إلى أدب "الرثاء" المصرى الذى اكتسب شيوعًا واسعًا فى المملكة الوسيطة وحاز فى أوقات لاحقة منزلة الأدب الكلاسيكى إلى هذا الحد أو ذاك[٤٥]. وينتمى هذا النوع الأدبى على وجه بالغ التحديد إلى مجال الإنشاء والتقاليد الشفاهية رغم أن سيادة التقاليد التحريرية فى مصر القديمة جعلت مثل هذه الأقوال تحرز قدرًا من القداسة فى شكلها المدون[٤٦]. وترجع كافة النسخ المحررة لأقوال "إيبو- وير" التى وصلت إلى أيدينا إلى المملكة الحديثة، ولكن هناك فقرة مقتطفة منذ وقت طويل يصل إلى الأسرة الثانية عشرة لدمجها فى تعاليم "أمين- إم- حات"، ويشير المحيط التاريخى للفقرة، على نحو واضح، إلى الفترة الواقعة بين عهد الفرعون "بيبى" الثانى وبين وصول الأسرة الحادية عشرة إلى السلطة، فيما يتعلق بصياغتها ورموزها الخاصة[٤٧]. وتتكون المقطوعة الأدبية، رهن الحديث، من مناجاة ذاتية طويلة يقوم بها رجل حكيم هو" إيبو – وير" فى شكل شعرى (يغص بأدوات شحذ الذاكرة مثل تكرار الحروف فى مطالع الألفاظ وحروف الروى والقوافى فى أواخرها)، وتصف المقطوعة الحالة التى يرثى لها التى آلت إليها البلاد فى ظل الآلام التى أعقبت الفوضى والثورة.

وقرب نهاية المقطوعة يحـول الشاعر غضبه ضد "السيد الأبـدى" (الإله الشمسى) الذى يبدو أنه إنما كان يتوجه بخطابه إليه، وينهى مقطوعته بنقد لاذع يستهدف موقف اللامبالاة الذى يتخذه الإله القادر.

لا يركز "إيبو - وير" فى نهاية الأمر على الخطر الآسيوى ضد مصر، إلا أنه يشير فى الواقع إلى تسللهم داخل البلاد نتيجة لضعف الحكومة. "واعجباه! يشحب الوجه لمرآى القواس وقد تربع فى البلاد. والفساد تفشى فى كل شبر منها، وافتقرت البلاد إلى رجال الأمس" (٢-٢). "واعجباه غالت الصحراء على الوادى الأخضر، ودب الخراب فى المراكز townships وتسلسل شعب أجنبى من شعوب الأقواس التسعة إلى مصر" (٣ -١) "واعجباه! لم تعد الدلتا بأسرها بعيدة المنال فالشعوب الأجنبية تتمرغ فى خيراتها ." (٤، ٥-٨) "الناس (= المصريون) يهربون... ولا يجدون ما يأوون إليه سوى الخيـام التى ينصبونها كما يفعـل البدو" (١٠، ١-٢) "البدو يقفـون على أحوال البلاد، هذه البلاد التى حظيت فى يوم من الأيام باحترام كافة الشعوب الأجنبية" (١٥، ١-٢)

يقال إن الفرعون "أختوى" الثالث والد الفرعون "ميرى - كا - رع" فى الأسرة العاشرة هو الذى ألف "سفر التعاليم" الذى كان القدماء ليصنفوه تحت باب "سيبوى" بمعنى "الحكمة"[٤٨] بينما نجد أن معظم النماذج المتوفرة من هذا النوع الأدبى ترتدى شكل الدردشة الأبوية مع أحد أبنائه حول كيفية شق طريقه الخاص فى الحياة، ونراه يسدى إليه نفس النصائح البراجماتية التى نجد مثيلاتها فى أوقات لاحقة فى سفر "الأمثال" بالعهد القديم وكتيب "دال كارنيجى" Dale Carnegie المعنون: "كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فيمن حولك" . ولكن نصائح "ميرى - كا - رع" تتميز بأن كلاً من الناصح والمنصوح ملك، وهو الأمر الذى يجعل نصائح "ميرى - كا - رع" تقترب، مراراً وتكراراً من أن تكون حديثًا ميكيافيللى الطابع حول تسيير شئون الحكم. وفى غالب الأحيان نرى الوالد يتكئ على تجربته الخاصة، وهو ميل يسعد قلب المؤرخ بشأن فترة تضن بالنصوص التاريخية المدونة. وفى إطار إمعان النظر فى المخاطر المتعددة التى تكتنف أمن المملكة، نرى "أختوى" ينتهز الفرصة كى يركز حديثه فى نهاية المطاف على الآسيويين فى عصره:

"الشرق غنى بقواسيه ... ولكن انظر تلك الأراضى التى خربوها وقد تحولت الآن إلى بنادر عامرة تغص بالكثيرين من أبناء الحضر. (ص ص ٨٣-٨٦). لنتحدث الآن عن القواس! واعجباه، ذلك الآسيوى الخسيس! يلحق السوء بذلك المطرح الذى يضمه، حيث يفتقر إلى الماء وتغطيه الأحراش، والمدقات التى تقود إليه وعرة من جراء الجبال التى تحيط به. وهو لا يستقر فى مكان واحد، ولكنه يضطر إلى التشرد بسبب العوز، عابرًا الأراضى سيرًا على قدميه. وتراه يخوض الحروب منذ أيام حورس الأولى دون أن ينزل الهزيمة بأحد، ودون أن ينزل به أحد هزيمة نهائية حتى الآن. فهو لا يعلن الحرب ولا يحدد يوم القتال، مثله فى ذلك مثل اللص الخارج على القانون فى عصابة تحترف الإجرام . ولكن طوال عمرى كله! وكلما اقتربت من ديار أولئك القواسين، وجدتهم يعيشون منعزلين خلف الأسوار، وكل حصن فتحته، عدت وأحكمت إغلاقه عليهم وعلى هذا النحو جعلت أبناء الدلتا يقمعونهم، ولقد أخذت أمتعتهم وسقت مواشيهم كغنائم. لا تشغل بالك كثيرًا بأمرهم! فالآسيوى لا يعدو كونه تمساحًا يتمدد على ضفة النهر، قد يخطف إحدى الفرائس من الطريق غير المطروق، لكنه لا يجرؤ على القنص فى مرافئ المدن المأهولة بالسكان. (ص ٩١-٩٨)

لعل هذا هو خير وصف عرفه الأدب المصرى للرعاة الذين يحيون حياة الترحال فى آسيا الغربية. ورغم أن الأمتعة والقطعان لا تنقصهم، إلا أنهم يتنقلون بصفة مستمرة وخاضعون بصفة دائمة للفقر والعوز. والأسيوى مدمن على القتال وعصى فى نفس الوقت على الإخضاع نتيجة لأساليب المراوغة التى لا تلتزم بأى أعراف أو تقاليد عند القتال، إلا أن الآسيوى، مع ذلك، ليس إلاّ قاطع طريق على نطاق صغير، تستطيع الحصون المزودة بالرجال والمراكز الحضرية المـأهولة بالسكان أن تلقى بالرعب فى قلبه.

أما نبوءة "نفرتى"، التى تلتزم بتقاليد الكتابة الأدبية فى عهد "سنوسرت الأول" بصفتها قطعة من الدعاية السافرة، فتتضم التنبؤ بقدوم "زمن القلاقل" فى ختام الفترة الانتقالية الأولى واستعادة الملكية مع الأسرة الثانية عشرة[٤٩]. والقطعة من ألفها ليائها مكتوبة بلسان الرجل الحكيم (الذى قد يكون شخصًا تاريخيًا أو لا يكون)، ومؤرخة بتاريخ أقدم يرجع إلى عهد الفرعون "سى - نفرو" من الأسرة الرابعة. وعلى هذا الأساس

تكون هذه القطعة الأدبية قد حفظت لنا صورة حية لواقع الأمور فى مصر والمناطق المجاورة من آسيا خلال العقود الأخيرة من الألف الثالث ق.م.:

"تدبر (أى "نفرتى") ما يمكن أن تصير إليه الأمور فى البلاد، واستدعى إلى ذهنه أحوال الشرق. وكيف يمكن للآسيويين أن يأتوا بجبروتهم، جالبين الرعب إلى قلوب أولئك الذين يكونون قابضين على مناجلهم فى مواسم الحصاد، وكيف يمكن لهم أن يسرقوا الأبقار، أزواجًا، من تحت "ناف"(= نير) المحاريث (Pet ١٧-١٩). ولسوف يضع طائر أجنبى أفراخه فى أحراش الدلتا، عندما يبنى عشه قرب أبناء الحضر. ولسوف يعطف عليه هؤلاء الناس ويفتحون له صدورهم فى فقره المدقع. (Pet ٢٩-٣٠)... كل الأشياء الجميلة اختفت وها هى البلاد ترقد مهيضة الجناح يفترسها البؤس بسبب انتشار أولئك الآسيويين المتخمين فى سائر أرجاء البلاد. ولقد ظهر الأعداء فى الشرق ولسوف يهبط الآسيويون على مصر. وتقع حصونها تحت الحصار حتى عندما يكون العون قريب المنال، ولن تلقى حامياتها بالاً: فلسوف يرفعون سلّم الحصار على الجدار فى كحل الليل، ويقتحمون الحصون ويعبرون المتاريس بينما يكون الناس (= المصريون) مستغرقين فى النوم. ولسوف يقول أحدهم: فلأذهب لأستريح، ولو أن الواجب يفرض على أن أظل يقظًا. ولسوف تهبط الحيوانات البرية من مواطنها فى الصحراء كى تشرب من ماء نهر مصر، ونظرًا لأن أحدًا لن ينهض لدفعها بعيدًا فلسوف تستريح وتنتعش على ضفافه. (Pet ٣١-٣٧)... لن يسمح أحد للآسيويين بهبوط مصر، إذا طلبوا الماء كما يطلبه الشحاذون كى يسقوا قطعانهم. (Pet. ٦٧-٦٨).

تتشابه سمات ذلك الآسيوى الذى يصوره "نفرتى"، فى بعض جوانبها، مع الوصف الذى ورد فى التعاليم التى تلقاها من ناصحه الفرعون "ميرى - كا - رع" قبل ذلك بمائة سنة على وجه التقريب. فالآسيوى لا يزال هنا يتميز بالاعتماد على قطعان الأنعام فى كسب قوته، ولا يزال متعطشًا إلى الوصول إلى مصادر المياه فى الدلتا كى يسقى قطعانه. ويظهر تزلف الآسيوى كإحدى السمات التى تعرف عنه. ولكنه أصبح يهبط مصر الآن، وعلى النقيض من أسلافه على هيئة قوة مقاتلة، تغير على الزارع وتسرق المواشى، بل وتستقر وتتمتع بمؤاخاة السكان الأصليين لها. وإذا كان لنا أن نفهم القسم الثالث المترجم فهمًا صحيحًا، فإن الآسيوى ذاك يكون قد أتقن فن ضرب الحصار خلال الحرب. ولسوف يكون للأدلة المستقاة من "نفرتى" قدر من الأهمية فى وقت لاحق عند مناقشتنا للحرب الأهلية التى سبقت الأسرة الثانية عشرة.

السياسة العدائية للأسرة الحادية عشرة:

لم يزعم والد الفرعون "ميرى - كا - رع" أبدًا أنه شن حربًا ما فى آسيا، رغم كل التباهى الذى أعرب عنه باستعادة حرمة الحدود الشرقية لمصر، والمناظر المرسومة على جدران المقابر المعاصرة لا تشير لا تصريحًا ولا تلميحًا، إلى وجود آسيويين داخل مصر. وبالتالى يكون الصواب قد حالفنا على وجه الاحتمال، فى الاستنتاج الذى توصلنا إليه بأن "نظام هيراكليوبوليس" Herakleopolitan regime اضطر، لعدم توفر الأفضل: faute de mieux ، إلى قصر اهتماماته داخل نطاق بيئته المحصورة.

إلا أن كل ذلك تغير بانهيار هيراكليوبوليس Herakleopolis ففى سنة ٢٠٥٠ق.م على وجه التقريب أنزلت مملكة "طيبة" المتمردة فى الجنوب، الهزيمة تحت قيادة فرعونها "مونتو - حوتب" الأول[٥٠] بقوات الأسرة العاشرة ودمرت العاصمة "هيراكليوبوليس" ثم أعادت توحيد مصر تحت ظل الأسرة الحادية عشرة وعندئذ وجدت الطاقات المكبوتة لأراضى الجنوب المقاتل، ولو أنه كان متخلفًا، متنفسًا لها فى استئناف الغارات التأديبية فى آسيا اقتفاء للخطوط السياسية التى رسمها وسار عليها فراعنة المملكة القديمة.

ويبدو أن الأدلة التى تنهض على متابعة هذه الخطوط السياسية تحت ظل الفرعون "مونتو - حوتب" الأول تتزايد بشكل مستمر من سنة لأخرى. فنحن لا نملك تحت أيدينا، وحسب، مناظر قمع الرءوس، الأقرب إلى التقليد والتقولب، ويظهر فيها الفرعون وهو"يلوح بدبوس الرمى ضد البلاد الأجنبية الشرقية" وهذه شهادات قد يشك البعض فى صحتها[٥١] على أحسن تقدير، ولكننا نحوز كذلك إشارات محددة، بعضها ملكى وبعضها آخر غير رسمى إلى عمليات عسكرية فى آسيا. إذ يشير صادود (= لوح) غير كامل يرجع إلى بلدة "دير البلاص" الواقعة إلى الشمال مباشرة من "طيبة" إلى بلاد "قيديم" Qedem أى سوريا الداخلية Coele-Syria فى سياق عسكرى[٥٢]. ويقرر "هينينو" Henenu مدير المراسم الملكية فى نقش يتضمن سيرته الذاتية: مولاى له العمر والرخاء والعافية، أرسلنى كى أعد جيشًا كى نقمع أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر للرمال، وفى وقت لاحق يلمح إلى شجر الأرز الذى يغطى سفوح الأرز"[٥٣]. ويضمن "أنتيف" Antef قائد قوات الفرعون فى مقبرته منظرًا رائعًا لمعركة نهرية،

وحصاراً لحصن[٥٤]. ورغم أن المنظر يفتقر إلى أى نص مكتوب يصاحبه، إلا أن الواضح أن المهاجمين مصريون، بينما نجد جنوداً آسيويين يدافعون من متاريس مرتفعة. لكن المرء قد يكون ميالاً، فى ضوء إجماع الشواهد الأثرية والسجلات المدونة على أن فلسطين فى الطبقة / الحقبة رقم EBIV لم تعرف سوى مجتمع بدوى يعتمد على الترحال، إلى خفض وزن زعم "أنتيف" الذى وصلنا مصوراً فى مقبرته: ألم يكن رجلاً عسكريًا؟ وألم يكن المنظر من ذلك النوع الشائع وقت ذاك للحصار؟ ومن جانب آخر استمرت سوريا وأجزاء من الساحل الفينيقى والضفة الغربية Transjordan تضم بعض المراكز الحضرية، ويكشف المنظر المرسوم فى مقبرة "أنتيف" عن عدد كاف من التفاصيل المستغربة التى تلقى بظلال الادعاء الذى يذهب إلى أن المنظر لا يخرج عن كونه تقليداً لنموذج متقولب.

ولعل الدليل الأكثر كشفًا يتمثل فى ذلك النقش الذى شخبطه شخص يدعى "تيهيمو"، وهو مرتزق نوبى، ترك لنا قصة حياته منقوشة على الصخر فى "أبيسكو" جنوبى أسوان[٥٥]. ويقول النص المنقوش: (هذا لوح - صادود أقامه "تيهيمو" Tjehemau فى سنة دحر البلاد الأجنبية. وهى السنة التى بدأت فيها أتوجه إلى الحرب على عهد "نيب - هيبيت - رع" (أى "مونتو - حوتب" الأول) فى إطار الجيش، عندما قدم جلالته إلى "بوهين"[٥٦] Buhen فأبحر ابنى بصحبتى للقاء الفرعون الذى تجول فى سائر أرجاء البلاد، وقد وضع نصب عينيه أن يذبح الآسيويين فى "جعتى" ، ثم أبحر (هل يقصد الفرعون؟) فى اتجاه الجنوب مع مسرى الرياح.) وبغض النظر عن التباهى الذى لا يخلو من طرافة خاصة بتحقيق الفوز بمفرده ودون عون من أحد، فإن المرء يرى لزاماً عليه أن يستنتج أن قصة حياة "تيهيمو" تنطوى على وصف رصين نسبيًا لحملة تاريخية فى آسيا تحت قيادة الفرعون "مونتو - حوتب" الأول. ولكن أين تقع "جعتى" تلك؟ سؤال يطرح العديد من المشاكل. ولكن نسخ الاسم يوحى بشكل أصلى هو ZiS-R-TI زيص - ر - تى(!). ولعل مما يبعث على الاهتمام أن هناك موقعاً معروفًا لدينا باسم "زاريثان" Zarethan فى وادى نهر الأردن[٥٧].

الهوامش

(١) حول مجمع هرم الفرعون "بيبى" الثانى انظر :
G. Jequier,Le monument funéraire de Pepi II (Cairo,1936-1941).

(٢) حول "نصوص الأهرام" انظر بين مراجع أخرى:
J.H.Breasted, The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt (New York, 1912): R.O. Faulkner, The Ancient Egyptian Pyramid Texts (Oxford,1969); H. Altmüller,Die Texte zum Begrabnisritual in den Pyramiden den alten Reiches (Wiesbaden,1972);W.Barta, Die Bedeutung der Pyramiden Texte Für die verstorbenen könig (Munich,1981).

(٣) CF. P. Montet, Byblos et L'Egypte (Paris,1929), nos,56,58.

(٤) حول "سقارة" انظر:
J. Baines and J.Malek, Atlas of Ancient Egypt (London,1980),142 ff.

(٥) E. Drioton and J. Vandier,L'Egypte (Paris,1962),226;N.Kanawati, The Egyptian Administration in the old Kingdom (Warminster,1977).

(٦) Urk,134.136 ff.

(٧) Urk I, 174.

(٨) G. Posener,RdE 11(1957),119 ff.

(٩) Kanawati,JEA 63 (1977), 60,n.5.

(١٠) Drioton and Vandier, L'Egypte,221-22.

(١١) W. Helck, Untersuchungen zu den Beamtentiteln des ägyptischen Alten Reiches (Glückstadt,1954),142.

(١٢) J.Malek, JSSEA 10 (1980),fig.2.

(١٣) On Spst-nsw, see D. Meeks, Année Lexicographique (Paris, 1980), 1:368; Cf.also Jequier, Monument funéraire,2:pl.90; H.G. Fischer, JAOS 76 (1956),99-100.

(١٤) بردية محفوظة حاليًا فى متحف مدينة "تورينو" الإيطالية وكان القنصل "دروفيتى" قد عثر عليها فى سنة ١٨٢٢ فى إحدى المقابر فى "طيبة" الغربية.
Editions:G.Farina, Il papiro dei (Rome,1938);A.H.Gardiner, The Royal Canon of Turin (Oxford,1959).

(١٥) D.B. Redford,Pharaohic King-lists,Annals and Day-books (Toronto,1986) ,12 ff.

(١٦) Ibid.,18 ff.

(١٧) Herodotus,2.100.

(١٨) W.G. Waddell,Manetho (London,1940),54-55

(١٩) J. Wilson, The Burden of Egypt (Chicago,1951),98.

(٢٠) H. Kees,Ancient Egypt,A Cultural Topography (London,1961),63.

(٢١) H. Goedicke,Königlische Dokomente aus dem Alten Reich (Wiesbaden, 1967).

(٢٢) H. Goedicke,JNES 15 (1956),30;P.Posener-Krieger, Les Archives du temple funéraire de Neferirkare-Kakai (Cairo,1976), 2;479.

(٢٣) Goedicke,Königliche Dokumente,23,fig.2.

(٢٤) Wilson,Burden,99.

(٢٥) H. Fischer,JAOS 74(1954),26;idem,Dendera in the Third Millenium B.C.(Locust Valley,N.W.,1968),12;N.Kanawati, Governamental Reforms in the Old Kingdom (Warminster,1980).

(٢٦) B. Bell, AJA 75 (1971),1ff.;K.Butzer,Early Hydraulic Civilization in Egypt (Chicago,1976),28-29.

(٢٧) Wilson.Burden,100,108.

(٢٨) Ld A,2 (1987),153.

(٢٩) Cf.N.de G. Davies, The Rock Tombs of Deir el-Gabrawi (London, 1902), 2:pl.25:

"لقد أعدت تعمير البــلاد (جمع بلدة) المخلخلــة سكــانيًا بمواطنــين من المراكز الأخرى، وأولئك الذين كانوا منذورين للعمل كأرقاء هناك جعلت إقامتهم فى المراكز"

(٣٠) Cf. Urk 1,233; P.Berlin 8896 (P.C.Smither, JEA 28 (1942),16 ff).

(٣١) كما فعل الحكيم العجوز: "إيبو – وير" :

Cf. M. Lichtheim,Ancient Egyptian Literature (Berkeley, Calif., 1976), 1:149 ff., G. Fecht, Der Vorwurf an Gott in den "Mahnworten des Ipu-wer"(Heidelberg,1972).

(٣٢) D. B. Redford, JARCE 23 (1986), 133 and n. 84.

(٣٣) H. Kees, Nachrichten Göttingen (1933), 590; on hry sst[3], see D.B. Redford, JSSEA 15 (1985),42.

(٣٤) Redford, JARCE 23 (1986), 133 and n. 86.

(٣٥) Faulkner, The Ancient Egyptian Pyramid Texts. Supplement, 63; CTI, 302c; E. Edel, ZAS 102 (1975), 36; J. Lectant , SAK 2 (1984), 458.

(٣٦) CT III, 394 f-g.

(٣٧) S. Richard, BASOR 237 (1980), 12; W. Dever, Ibid., 38; R. Cohen and W. Dever, BASOR 243 (1981), 57 ff. Dever, in Biblical Archaeology Today (Jerusalem, 1985),113 ff.; W. Rast, ibid., 155-56; P. Gerstenblith, The Levant at the beginning of the Middle Bronze Age (Philadelphia, 1983), 117.

(٣٨) انظر:
e.g.P.W.Lapp,in J.A.Sandars.ed.,Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century (New York),116 ff.

(٣٩) Richard, BASOR 237 (1980), 25; W. Dever, BASOR 210 (1973), 37ff.; idem, in Biblical Archaeology Today, 123.

(٤٠) Dever, BASOR 237 (1980), 52; Idem. in Biblical Archaeology Today, 129; Rast, Ibid., 155-56; P. Matthiae, Studies in the History and Archaeology of Jordan (Amman, 1982), 1:90.

(٤١) Redford, JARCE 23 (1986), 139.

(٤٢) Gerstenblith, the Levant, 2-3.

(٤٣) Cf. J.M. Weinstein, BASOR 217 (1975), 10-11; Gerstenblith, The Levant, 101-8.

(٤٤) للاطلاع على البيليوجرافيا التى تتصل اتصالاً وثيقًا بالموضوع انظر:
Wilson In ANET,414,441,444; Lichtheim, Literature,1:98,139150; W.Helck, Die Lehr für könig Merikare (Wiesbaden,1977), 1; idem,Die Prophezeiung des Nfr-ty (Wiesbaden,1970),1-2;H.Goedicke, The Protocol of Neferyt (Baltimore,1977) 1ff.,; R.J.William, JAOS 101(1981),1ff.

التسميات الخاصة الواردة من ابتكارات العلماء المحدثين نظرًا لفقدان الألقاب التى عرفها القدماء.

(٤٥) Egyptian nhwt : H. Grapow, Sprachliche und the Schriftliche Formug ägyptischer Texten (Glückstadt, 1936), 60, n.29; constrast H. Goedicke, The report about the Dispute of a Man with His Ba (Baltimore, 1970) 183.

(٤٦) انظر دراستى القادمة:
Oral Tradition and the Scribe in Ancient Egyptian Historiology.

(٤٧) تعرضت لهذا التاريخ بالنقاش فى موضع أخر:
Cf,King-lists,144,n.69.Van Seter's date in the Second Intermediate Period (JEA 50(1964),13-23) has long since been rejected

وكان التاريخ الذى اقترحه "فان سيتر" فى فترة الانتقال الثانية قد واجه الرفض منذ وقت طويل.

(٤٨) حول "الحكمة" انظر:
M.V. Fox,ZÄS 107 (1980),120 ff.;E. Hornung and O. Keel,Studien zu altägyptische Lebenslehren (Göttingen,1979);R.J. Williams, In J.R.Harris,ed.,The legacy of Egypt (London,1971),257ff.; Idem,JAOS 92 (1972),215 ff.;Idem,JAOS 101(1981),1-19.

(٤٩) حول المردود الدعائى للفرعون "سنوسرت" الأول انظر:
G. Posener, Literature et politique dans l'Egypte de la XIIe dynastie (Paris,1956).

(٥٠) مع لقب "نيب – هيبيت – رع". حول تنويعات أشكال الأسماء التى تبناها هذا الفرعون انظر:
D. Arnold, MDAIK 24 (199),33 ff.; H. Goedicke, JSSEA 12 (1982),157-58.

وحول تاريخ سقوط "هراكليوبولس" انظر:
F.Gomàa, Agypten während der Ersten Zwischenzeit (Wiesbaden,1980),157.

(٥١) حول الجداريات و النصوص التى ترجع إلى "جبلين" و "طيبة" و "دندرة" انظر:
W. Schenkel, Memphis, Herakleoplis, Theban (Wiesbaden,1964), 209-10, 21216 ff.; J.J. Clère and J. Vandier,Textes de la première period intermédiaire (Brussles,1949),36 ff.

(٥٢) H. G. Fischer, Inscriptions from the Coptite Nome (Rome, 1964), pl. 37; Schenkel, Memphis, 214 ff.

(٥٣) W. C. Hayes, JEA 35 (1949), pl. 4; Schenkel, Memphis, 242-43.

(٥٤) J. Leclant, Orientalia 34 (1965), 185-86, figs. 8-11; Keel, VT 25 (1975), 419, fig. 1.

(٥٥) Redford, JARCE 23 (1986), 129, n. 41.

(٥٦) المركز الإدراى المصرى الرئيسى عند الجندل الثانى.

(٥٧) Josh. 3:16; cf. Jud. 7:22.

الفصل الرابع

"دَوْس البلاد الأجنبية"

مصر وآسيا خلال المملكة الوسيطة

لا تزال الفترة التى تمتد لأربعة قرون على وجه التقريب، وتقع بين النصر الذى أحرزه الفرعون "مونتو - حوتب" الأول ومجىء الهكسوس تشكل إحدى أشد الفترات غموضًا فى مجال العلاقات الأجنبية الذى يحاول هذا الكتاب التطرق إليه، فعلى النقيض من فترة الإمبراطورية التى تلت هذه الفترة، فإن المملكة الوسيطة والفترة الانتقالية الثانية لم تخلفا لنا من الأدلة التى تتمتع بقيمة عالية سوى أقلها. وحتى الأحداث التاريخية فلا يزال يلفها الضباب، أما السياسات والدوافع الكامنة وراءها فهى موضوع فى غالب الأحيان لمحض التخمين. فحالة بحوثنا التاريخية فى هذه الفترة لا تزال ابتدائية إلى الحد الذى يغيِّر فيه نشر نص يحمله لوح/صادود، فى غالب الأحيان الصورة التى لدينا بصفة كاملة، أو على الأقل، يبدو أن مثل هذا النشر سيفعل ذلك. ولما كانت هذه هى الحالة، صار لزامًا على المرء أن ينقل خطاه، خطوة خطوة حذر الزلل، وأن يشحذ ملكاته النقدية فى سبيل التوصل إلى تحليل مقبول للعلاقات التى قامت بين مصر وفلسطين خلال هذه الفترة.

الحرب الأهلية:

تعرضت الأسرة الحادية عشرة، التى ينتمى إليها الفرعون " مونتو - حوتب" الأول لنهاية فجائية فى غضون خمس عشرة سنة من رحيل ذلك الفرعون المجيد. ولكن لم تنتج من عوادى الظروف أى رواية متماسكة للنكبة التى نزلت بها، إلا أن الشذرات المتفرقة

من القرائن تتفق إلى حد كافٍ على تأييد الافتراض الذى يذهب إلى نشوب حرب أهلية مدمرة.

ولعله يبدو واضحًا أن الضربة القاصمة أصابت الخليفة الثانى للفرعون "مونتو - حوتب" الأول أعنى الفرعون الفذ "نيب - توى - رع" الثالث، الذى لم يظهر اسمه، بما لا يخلو من مغزى، سواء فى قائمة الفراعنة أو قوائم الأسلاف الذين تقرب إليهم القرابين[١]. ولم نعرف عنه شيئًا، بصفة أساسية، إلا من المحاجر، وخصوصًا محاجر "وادى الحمامات". وهذه محاجر جديرة بالاعتبار لأعدادها وأحجامها وبراعة تنفيذ الأعمال فيها.

وقد انصب هدف البعثة الموفدة على قطع الأحجار، وهو أمر روتينى، لنحت التوابيت، لا ينطوى على أى جديد أو مستغرب، إلا أن النقوش تنهى إلينا، أن "مين" إله الجبال والهضاب أحب "ابنه" الفرعون حبًا جمًا إلى الحد الذى صنع من أجله معجزتين متتاليتين انطوت الأولى[٢] على:

"حضور غزالة عشر"، وكانت تتقدم رأسًا باتجاه العمال الذين يشتغلون أمام ناظريها دون أن تلتفت، على عادة الغزلان، وراءها، حتى وصلت إلى هذا القطاع النبيل من الجبل، بل وهذه الكتلة على وجه التحديد، وبينما كانت هذه الكتلة لا تزال ملتحمة بأمها الصخرة... وضعت هذه الغزالة وليدها عليها بينما وقف جيش الفرعون ينظر إلى ما يدور".

ولم يكتف الإله "مين" بهذه المعجزة حيث عاد كى يصنع معجزة أخرى:

"انكشفت قوة هذا الإله وتجلت قدرته أمام أعين الشعب: هبطت الأرض المرتفعة حتى صارت بحيرة، وطف ماؤها على الحجر الصلد. فلقد عثرنا على بئر فى قلب الوادى، تبلغ مساحته عشرة أذرع (حوالى خمسة أمتار)، وكان مملوءًا بالماء حتى حوافيه، وظل نقيًا صافيًا لم تعكره الغزلان، وبعيدًا عن متناول رجال القبائل من ساكنى الجبال. وقد مرت عليه البعثات التى أرسلها الملوك القدماء فى سابق الأوان، دون أن تلحظه عين، أو يجذب نظر أحد. ولم يكشف عن نفسه إلا لجلالته دون سواه"[٣].

هاتان أعجوبتان، ما فى ذلك شك، تكفيان لإثارة إعجاب الشعب، ولكنها ما كانت لتحظى بالتسجيل على هذا النحو، لو لم يرغب فى ذلك قائد البعثة "أمين – إم – حات". والمستغرب فى الأمر أنه يظهر فى ثنايا أحد النقوش بصورة أشد بروزًا وفى عبارة أشد انثيالاً فى امتداح الذات من أى قائد لأى بعثة أخرى سابقة أو حتى لاحقة فى نقوش الوادى(٤).

فى ضوء مثل هذا المثال العالى فى الحصافة الإدارية والاستقامة الخلقية كرئيس للوزراء، فإن المرء ليعجب: لماذا لم يعتزل الفرعون "مونتو – حوتب" الحكم ببساطة، ويسلم زمام السلطة لهذا الرجل الذى يعد ذراعه الأيمن. وإذا ما وجد "أمين – إم – حات" زمام السلطة فى واقع الأمر وعلى نحو سريع فى يديه فإن ذلك ليضفى على العبارة التى ورد ذكرها قبل قليل جدية أكبر مما تبدو عليه. والحقيقة أن المرء يستشعر بالفعل فى نقوش "وادى الحمامات" وجود موقف لا تقدم له النصوص المكتوبة تفسيرًا كاملاً. فلماذا الإصرار على المعجزات؟ ولماذا يحوز "أمين – إم – حات" كل هذا الحضور؟ هل يقتضى الغرض المرصود للحملة تجنيد أيد عاملة من كافة أنحاء مصر؟ ورقم عشرة آلاف رجل ضخم بكل تأكيد، ويزيد زيادة كبيرة عما قد يتطلبه قطع ونقل عدد لا يذكر من الأحجار التى كان "أمين – إم – حات" يريدها.

ولكن "أمين – م – حات " لم يكن الوحيد الذى يقوم بأداء مهمات فى الخارج بالنيابة عن الفرعون " نيب – توى – رع". ففى تاريخ غير معروف خلال نفس العهد " توجه الجنرال المسئول عن الأراضى العليا كالهضاب والجبال وقهرمان القصر (= مدير المراسم) إلى "الحمامات" على رأس "جيش" من مائة وثلاثين فردًا (بينهم أطفال إلى جانب البالغين) جرى تجنيده من مصر الوسطى(٥). وفى السنة الأولى من حكم "نيب–توى–رع" أرسل قائد القوات الأجنبية والقهرمان "شيد– بتاح" بن "أنتيف" إلى "وادى الهدى" فى الجنوب(٦).

ومرة أخرى ومن محجر أخر، هذه المرة محجر المرمر فى "حاتنوب" تأتينا مجموعة من النصوص الأكثر إيحاء حتى عن ذلك، إذ تؤرخ لاستثمارات الكونت (= النبيل) "نهرى" Count Nehry وولديه كاى Kay و "تحوت ـ ناخت"(٧). وتحمل النقوش تواريخ

تقع بين السنة الخامسة للحكم والسنة الثامنة، ورغم أن هذه النقوش تُنسب إلى حكم النبيل "نهرى" نفسه إلا أن الأحداث التى تتناولها وقعت، دون شك خلال الفترة الانتقالية من الأسرة الحادية عشرة إلى الثانية عشرة[٨]. ويصف " نهرى" . الذى كان مدير Nomarch المديرية الخامسة عشرة نفسه بـ "الفشر": braggadocio الذى كان شائعًا فى السير الذاتية فى ذلك العصر[٩]. على هذا النحو:

"النبيل، ضابط العرشين" كبير الأنبياء، نبيل مقاطعة Nome الأرنب (أى المديرية الخامسة عشرة) "محسوب" الفرعون، كبير الجنوبيين ... شجاع القوم، الذى ينتظر الجميع وصوله، قوى الزند، ودود المعشر، الذى يطلبه الفرعون يوم انتلاف المجلس، والذى تنعم سائر البلاد بكل سياسة تصدر عن لسانه!" .

وتفاخر نقوش الرجال الثلاثة بمشاركة كل منهم فى الصراع الحاد الذى دار خلال فترة من الخمول والتراخى فى النظام الملكى. ويسجل "نهرى" واقعة غريبة تحداه فيها الفرعون[١٠]. "صف جنودك على جبهة القتال! انظر. أنا أيضًا على خطوط المعركة!" ولكننى كنت حصنًا منيعًا خلال القتال فى "شيديت – شا" Shedyet-sha التى هرع الجميع لنجدتها... وسباقًا للكل، من أنقذ (مدينته فى يوم الرعب) إثر تحميس بيت الفرعون". ولكن "كاى" كان أكثر تحديداً حتى بالنسبة لذلك، فهو يزعم[١١]، فى ظل مسئوليته عن تعبئة ميليشيات هيرموبوليس (= الأشمونين) "جندت شبان المدينة الذين أصابهم الدور حتى يزيد حجم قواتها. فلقد انسحب المطلوبون للخدمة إلى صفوف الأهالى ولزموا بيوتهم ولم يزحفوا طوال فترة الرعب التى مرت ببيت الفرعون". وعود على بدء[١٢]. "قمت بتدريب المجندين من الشبان الصغار السن وخضت الحرب إلى جانب أبناء مدينتى. وقمت مقام حصن منيع فى " شيديت – شا" وعندما لم يكن يقف إلى جانبى سوى خدمى، اتحدت ميدجاى Medjay و "واوات" Wawat مع الجنوبيين والآسيويين وأرض الجنوب والدلتا ضدى. ولكننى برزت للعيان. فلقد تحقق النجاح، نظرًا لأن مدينتى وقفت إلى جانبى دون خسائر".

يستطيع المرء أن يتصور، خلال ظلال المبالغات اللفظية حربًا أهلية شهدت، ضمن أشياء أخرى، وقوف مديرية صغيرة بمفردها وكأنها وقعت فى فخ، أمام القوات

الحكومية: (بيت الفرعون). ولكن هذه المديرية تحالفت لحسن حظها مع الجانب الذى تحقق له الظفر. حقًا قد تدفعنا مبالغات "كاى" إلى الابتسام، ولكنه مما يلفت النظر أنه يضع الآسيويين بين مناوئيه، وبصورة ضمنية بين حلفاء بيت الفرعون.

على أن النصوص التى تركها وراءه "أمين - إم - حات" بعد استيلائه على العرش كمؤسس للأسرة الثانية عشرة، وكذلك نصوص الحاشية التى تحيط به شديدة الغموض، ولا تقدم لنا عونًا ذا بال فى استكناه السبب الكامن وراء ذلك الصراع الذى نشب. إلا أن "أمين - إم - حات": الأول يصف استيلاءه على السلطة لابنه "سنوسرت" الأول[١٣] فى شهادة ظهرت لنا بعد وفاته، فى إحدى المقابر على النحو التالى[١٤]: "لقد وصلت فى تجوالى حتى جزيرة "إليفانتين". ومضيت فى الاتجاه المضاد حتى بلغت مستنقعات الدلتا. ووقفت على تخوم البلاد وعاينت أعماقها. وأخضعت الأسود واصطدت التماسيح. وقمعت أبناء "واوات"، ووضعت يدى على "ميدجاى" Medjay، وفرضت على الآسيويين أن يقوموا بالأعمال الدنيا"[١٥]، وبعبارة أخرى وصل شخصياً إلى أقصى حدود البلاد وبالتالى استولى عليها وجرد مشتملاتها، وبصفته عنصراً عملاقًا من عناصر الطبيعة والمجتمع الإنسانى فى نفس الوقت فلقد أخضع الحيوانات البرية والأجانب المتوحشين سواء فى الشمال أو الجنوب. وهذا لا يزيد ولا يقل عن القيام بالدور المنتظر من الفرعون الطيب: ولكننا لا نستطيع أن نعصر هذه العبارات كى نستخرج منها أى وقائع تاريخية[١٦].

على أن هذه الفقرة من السيرة الذاتية لذلك الـ"خنوم-حوتب" البارز الذى شارك فى الحرب الأهلية لا تقدم لنا إلا عونًا ضئيلاً[١٧]. إذ يقول "خنوم - حوتب" الذى عين فى وقت لاحق نبيلاً (= "كونت" Count) على قسم إدارى صغير فى المديرية السادسة عشرة من الوجه القبلى:

"جلالة سيدى له طول العمر والرخاء والعافية ملك مصر العليا والسفلى "ستيب - إيب - رع" Sehtepibre، بن رع "أمين - إم - حات" الأول. ليحيا إلى أبد الآبدين! عيننى مستخدمًا (؟)... وأبحرت معه إلى مصر العليا (؟) على متن أسطول صغير يتكون من عشرين سفينة مصنوعة من أخشاب الصنوبر. ثم عاد جلالته بعد أن أشاع

الطمأنينة فى البلاد وأخضعها على امتداد الضفتين. وكبح الجنوبيون شرورهم. وتقهقر البدو الآسيويون، ووضع القوانين للبلاد، ونالت المناطق الأجنبية نفس معاملة "الضفتين" ... واستقر الأهالى فى مواطنهم واطمأنت الملكية [مع الحية] على جبهة سيدها".

وبصرف النظر عن الإشارة إلى تعيين "خنوم - حوتب" ومشاركته، وإلى الأسطول الذى يضم عشرين سفينة، فإن النص يحتوى على ما يتوقعه المرء من ملاحظات لا نفع وراءها: استتب الأمن فى البلاد، وقُمع الأجانب، ولزم الأهالى "حدودهم" وقامت الملكية على قدميها مرة أخرى، وفى عبارة واحدة، عادت "ماعت": أى النظام والصدق والعدل (= الأصول) إلى الدخول فى الطبيعة وفى المجتمع الإنسانى. إلا أن هذا النص لا يقدم لنا أى دلائل، من أى نوع، تهدينا إلى معرفة شخصية الخصم الرئيسى لـ "أمين - إم - حات" Amenemhat أو التعرف على الصقع الذى وقعت فيه المعركة من أصقاع البلاد، ولن يخرج الأمر عن تعليل النفس بالتمنى إذا افترض لهذه المعركة موقعًا فى شمال شرقى الدلتا، أو رصد اهتمامًا أوليًا من جانب المصريين بالطريق إلى "بيبلوس"(١٨).

خلاصة القول إلى هذه النقطة من البحث وبشكل موجز: الأدلة التى سقناها تفتقر لحد مؤسف إلى التفصيل إلى جانب أنها أخمدت أنفاس حقيقة ناصعة لصالح تصور عقلى مقولب وفى نفس الوقت مريح. لكن فى وسعنا أن نستشف من خلال لغة النص: قدرة غير عادية يحوزها المسئولون ذوو النفوذ على حشد قوة عمل (كبيرة) فى مطلع حكم "نب - توى - رع - مونتو - حوتب" Neb-towy-re Montuhotp وهى فترة من "الإرهاب" الذى ارتكبه بيت الملك أو الفرعون، وحرب أهلية انحاز خلالها انتهازيون من أمثال "نهرى" Nehry و "مونتو-حوتب" إلى جانب "أمين - إم - حات" Amenemehat، وقد كوفئوا فى وقت لاحق بمنحهم أطيانًا زراعية، ومعركة كبرى فى مكان يدعى "شيد يت" Shedyet وقد شارك فيها مرتزقة أجانب إلى جانب المصريين، وحملات تأديبية فى اتجاه الشمال وأخرى فى اتجاه الجنوب، قام بها "أمين-إم-حات" عقب النصر الذى أحرزه.

ولم يبد الدور الآسيوى فى كل ذلك كبيرًا، على الأقل خلال هذا الدليل الذى أوردناه. ولكن نصوصًا إضافية توفرت الآن، الأمر الذى يلقى ضوءًا مختلفًا اختلافًا يسيرًا على الموضوع.

أشرك "أمين – إم – حات" بعد مرور عشرين سنة أى فى زهوة النظام الجديد ولأسباب غير واضحة ابنه الذى سيحمل فى المستقبل اسم "سنوسرت" الأول فى الجلوس على العرش كشريك فى حكم مصر. وخلال السنوات العشر التى استمرتها هذه المشاركة فى الحكم، كان هذا الوريث المحتمل الصغير السن قد عقد العزم بالفعل على تنفيذ برنامج خاص لبناء المعابد[١٩]. وفى السنة الثالثة من هذه المشاركة أعلن "سنوسرت" أنه سوف يجدد معبد "أتوم" ويبنى قصره فى "أون" (= هليوبوليس). وبحلول السنة التاسعة من هذه المشاركة، كان قد حوَّل اهتمامه نحو الجنوب. وفى تلك السنة – وفقًا لما يخبرنا به نقش أعاد الفرعون "أمين–حوتب" الثالث فى الأسرة الثامنة عشرة نسخه – عقد "سنوسرت" اجتماعًا لبلاطه، ورغم أن باقى النص مفقود، إلا أنه أعلن عزمه، على وجه الاحتمال، أن يبنى معبداً لـ "أمون" فى "طيبة". وفى وقت قريب من ذلك الوقت لابد أن تكون قد وقعت الزيارات التى قام بها الفرعون إلى مناطق أبعد فى الجنوب، وهى الزيارات التى نقشت خلالها النقوش فى "تود"[٢٠] و "اليفانتين"[٢١] ولكن المزارين فى هذين الموقعين كانا نهبًا للإهمال، حتى صارا مجرد أطلال.

ولا يترك لنا مضمون النقوش أدنى شك فى أن الملك / الفرعون يعلق تبعة ما حدث على دور الأجانب. كما لا تترك لنا الإشارات التى وردت إلى "المصاطب" (أى سفوح لبنان الجبلية) وإلى "الآسيويين" أى شك حول الذين كان يقصدهم الملك /الفرعون، وتقدم جسامة العقاب مؤشراً إلى الخطورة التى ارتآها " سنوسرت" فى مجمل الأمر.

ولكن متى حدث كل ذلك؟ ما هو الوضع الذى سمح للآسيويين أن يعيثوا فساداً وتقتيلاً فى مصر؟ ولما كان "سنوسرت" يصف، على نحو جلى، حالة عامة من التدمير، شهدها فى مطلع مشاركته فى الحكم، فإن الحادث لابد وأن يكون معروفًا فى وقت ما قبل توليه منصبه. والواقع أنه يتعين علينا أن نفترض مرور سنوات، وليس مجرد شهور، كى نفسر عمليات التخريب التى فاقت الحدود والآبار المردومة والقنوات الطامية وما أشبه، ولا نستطيع إلا أن نميل إلى أن نرى فى الصور الحية التى وردت فى كلمة الملك /الفرعون النتائج التى أسفرت عنها الحرب الأهلية. ولقد ألمح "نفرتى" Neferty كما سبق لنا أن رأينا إلى انتهاك حرمات الحدود وتطويق وتدمير القلاع والمدن؛ وها هو نص "تود" Tod يشير إلى أن الآثار بلغت من الفظاعة حداً جعل عملية إعادة البناء

تلتهم موارد الدولة طوال سنوات عديدة. وإذا كان "سنوسرت" الأول لا يزال مشغولاً على هذا النحو ومهمومًا إلى هذا الحد الملحوظ، كذلك، بأعمال النهب والسلب التى قام بها الأسيويون، فإننا نقف، بحسرة، على أهمية صفحة من صفحات التاريخ التى يبدو أننا فقدناها تمامًا.

"الريتينو متاع لك أسوة بكلابك"[٢٢] :

ذهب الأثرى والباحث فى الكتاب المقدس، الموهوب دبليو.إف أولبرايت W.F.Albright قبل أكثر من خمسين سنة إلى أن ("فراعنة الأسرة الثانية عشرة طمحوا إلى، وفى غالب الأحيان بسطوا سيادتهم المطلقة على فلسطين وفينيقيا، ومدوا نفوذهم بعيداً إلى "أوجاريت": Ugarit و " قطنة" Qatna[٢٣] وظل متمسكًا بعد ذلك بأربع وعشرين سنة برأيه الذى يقول بـ "غزو فراعنة طيبة" الذين ينتمون إلى الأسرة الثانية عشرة لـ" فينيقيا"[٢٤]. ولا يبدو أن هذا الباحث قد غير رأيه بالمرة[٢٥].

قد يحتج هذا أو ذاك بأن "أولبرايت" ينحو نحو تبنى موقف لغرضٍ خاص ad hoc قبل توفر كافة الأدلة المطلوبة. وفى هذه الحالة كان من السهل أن نشير إلى ندرة، إن لم نقل، انعدام المواد المصرية المستقاة من السياقات الفلسطينية فى تلك الحقبة المعاصرة للأسرة الثانية عشرة[٢٦]. فتماثيل النبلاء المصريين التى ترجع إلى المملكة الوسيطة، واكتشفت خلال عمليات التنقيب فى فلسطين يمكن أن تقيم الدليل بصورة يسيرة ومقنعة على أنها شُونت فى مناطق اكتشافها أثريًا بعد صنعها بعدة عقود وربما بعدة قرون، وبالتالى لا تصلح دليلاً على احتلال مصر لفلسطين[٢٧]، وعلاوة على ذلك فإن قراءة متمعنة فى النصوص التاريخية التى تعود إلى الأسرة الثانية عشرة لا تكشف إلا عن دليل وحيد تكتنفه الشكوك على حملة عسكرية فى آسيا الغربية، أعنى الحملة التى قادها الفرعون "سنوسرت" الثالث (١٨٧٨-١٨٤٢ق.م) ضد بلاد "سيكمنى" Skmni (تعرف عادة باسم "سيخيم" أو "شكيم" Shechem) التى ذكرها أحد جنود "سوبك - خو" Sebekkhu[٢٨] وعندما نضيف إلى هذا الدليل ما يبدو أن يكون شهادة صريحة أدلى بها "سنوهى" حول السياسة الخارجية للفرعون "سنوسرت" الأول "سوف يضع

يده على البلاد الجنوبية. ولن يحفل بالبلدان الشمالية"[٢٩] فإن الأمر الذى يبدو مؤكداً أن الأسرة الثانية عشرة أدارت ظهرها، بصورة متعمدة، لآسيا الغربية.

ومع ذلك فإن الأدلة المتزايدة تشكل نغمة شاذة فيما وطنا النفس على أن نرى فيه لحنًا متناغمًا. فالفرعونان كلاهما وكذلك عموم الأهالى يرفلون جميعًا فى النعوت التى تستند إلى انتصارات مزعومة على الآسيويين فـ "سنوسرت" الأول "هو الذى تخضع له كافة البلدان"[٣٠] و " قاطع رقاب أولئك الذين يقطنون فى آسيا"[٣١]. ويطلق "مونتو-حوتب" وزير"سنوسرت" الأول وأمين خزانتـه على نفسه لقـب "ذلك الذى أدخل رعبه (أى رعب الفرعون) فى قلوب الأجانب، وأخرس أولئك الذين يعيشـون عبر الرمال"[٣٢] و "مونت - أم - هيت" Montemehet ، الجنرال "هو الذى أشاد به الفرعون أمام نبلائه لقمعه الأعداء الآسيويين، متمردى البلدان الشمالية"[٣٣] ويصف "نسو - مونتو"[٣٤] "الجنرال العظيم الذى يرأس كافة البلاد" كيف" قضى فى أواخر حكم "أمين - إم - حات" الأول على أصحاب القوس المتوحشين، وبالتحديد أولئك الذين يقطنون عبر الرمال. فلقـد هدمت القـلاع وجـست مـثل "ابن آوى" فى أطراف الصـحـراء وطفت فى الطرقات"[٣٥] وخلال حكم "أمين-إم-حات" الثالث يتباهى قائد قوات الصدمة (كيلا نقول الصاعقة) التابع لـ"أمين-إم-حات" بـ "قهره للنوبيين وفتحه لبلاد الآسيويين"[٣٦] وبعد ذلك بنحو ثلاث وأربعين سـنة ادعى "بتـاح - ويـر" أنه أخضـع "آسيا له أى لذلك الذى يجلس فى قصره"[٣٧].

وإذا جاز لنا أن نتشكك فى صدق أولئك المتحدثين فى ضوء عباراتهم الزاعقة الرنين الفائقة الحماس فإن فقرات أخرى معينة ذات طبيعة عارضة لا تستهدف تمجيد الذات تميل إلى تأكيد شهادتهم. فتأتى من إحدى المقابر التى ترجع إلى حكم "أمين-إم - حات" الثانى أو"سنوسرت" الأول (القرن التاسع عشر ق.م) لوحة مرسومة لماشية مع تعريف شارح يقول: "ماشية الآسيويين التى سيقت إلى مصر على سبيل [...]"[٣٨] وتبدأ مقطوعة أدبية ترجع إلى المملكة الوسيطة وتنتمى إلى النوع المعروف باسم "الخطابة"[٣٩] على هذا النحو: فى بداية الحديث الذى ساقه كاهن الإلهة "سخمت" ويدعى "رنسو- نب" Rensoneb عند عودته من سوريا فى معية المشرف العام على أمناء الخزائن "سينيب - تفى" Senebtify[٤٠] وبالإضافة إلى ذلك نجد الوثائق الإدارية

التى يرجع تاريخها إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر ق.م تشير بشكل عرضى إلى الآسيويين، رجالاً ونساء الذين يُستخدمون فى شتى الأعمال فى المعابد والبيوت الخاصة كخدم وبوابين وراقصين(٤١). وفى إحدى المرات نجد بينهم رئيس قبيلة(٤٢). ويحمل معظمهم أسماء مصرية منتحلة، ومركبة فى غالب الأحيان على اسم "بتاح" كما لو كانت "منف"، مقر عبادته، تشكل نوعًا من "دار تخليص" للنازحين الآسيويين. ويكشف أحد جداول نوبات العمل فى "عزبة" خاصة يضم سبعة وسبعين اسمًا مقروءًا (من أصل خمسة وتسعين اسمًا) أن ثمانية وأربعين شخصًا على الأقل كانوا من الأموريين، معظمهم من الإناث(٤٣).

لا يستطيع أحد أن ينحى جانبًا هذا الدليل. فمن جانب تشير تلك النعوت بشكل صريح، إلى أنه من حق الفرعون أن يعاقب آسيا وأن يستغلها، وتقوم فى ذات الوقت كشاهد على أنه، هو وأتباعه، قاموا بذلك. ومن جانب آخر تكشف المراجع العابرة فى وثائق التعامل التجارى عن وجود نوع من الغنائم فى مصر إلى جانب عدد من الأنفار ممن يتوقع المرء أن يأتوا إلى مصر خلال مثل تلك التجريدات.

ويقدم نقش جديد ومهم يرجع إلى "سقارة" جرى نشره فى سنة ١٩٨٠(٤٤) دعمًا كاملاً للاتجاه الذى شرع النقاش يأخذه عند هذه النقطة، كما يلقى فيضًا من الضوء على ما كان المصريون يريدونه حقًا من آسيا، والنهج الذى سلكوه فى الحصول عليه. ولقد فقد النقش، بحالته الراهنة، بدايته ونهايته، وبالتالى غاب عنا الهدف الذى استهدفه الكاتب/النحات وراء نسخ هذا النقش مرة أخرى. ولكن لا يخامرنا سوى أقل شك فى أننا نقف أمام مقتطف أصلى ومسهب من دفتر اليومية الخاص بقصر الفرعون(٤٥). وقد نقل النقش إلى الحجر، وقد تكون الأحداث التى وقعت فى سنة المعجزات Annus mirabilis قد بلغت من الأهمية وقت ذاك حدًا جعل إذاعتها على هيئة نصب تذكارى أمرًا، اعتبر، مستساغًا.

ويبدأ النص فى الحالة التى حفظ عليها، بسجل لقرابين الاحتفال والعطايا التى تنم عن التقوى (بتفويض ملكى دون شك) إلى الفرعون المتوفى "سنوسرت" الأول بما فى ذلك تمثال مهيب للفرعون "أمين – إم – حات" الثانى وموائد قرابين وصناديق

بمحتويات من لوازم عبادة الفرعون "سنوسرت" الأول فى المعبد الجنائزى لـ "تيتى" (XI-7).
ثم ترد بعد ذلك العبارة الموجزة: "أرسل الجيش إلى "خنتى - شى" Khentishe (أى الساحل اللبنانى). ويسجل العمود التالى "إرسال الجيش مع قائد قوات النخبة وقائد الجيش كى يسهدموا "يوايس" فى آسيا [...] ثم يتلو ذلك قيد بالهبات المرفوعة إلى الإله "مونتو" وإلهة أخرى ثم يأتى بعد ذلك وصول النوبيين والآسيويين بالجزية (XTII-13) ثم يأتى مدخل "وصول الجيش الذى أرسل إلى مصاطب الفيروز. ما الذى أحضروه... (قائمة بالسلع، بعضها بأعداد هائلة). يعقب ذلك قائمة بعطايا العبادات التى تشمل عدداً من القطع المعمارية الطابع لأحد معابد الفرعون "سنوسرت" الأول(٤٦) ثم يأتى المدخل الذى يقول: " قدوم المتضرعين إلى "تمبايو"، وقد جلبوا معهم: الرصاص و ٢٣٨ سبيكة [... (x+١٦)]. وصول قوات الصدمة التى أرسلت كى تدمر مدن "يواى" Iw³y و "ياسى" I³sy(٤٧) وتعداد الأسرى الذين عادت بهم هذه القوات من هاتين المدينتين الأجنبيتين: ألف و ٥٥٤ أسير آسيوى بالإضافة إلى النحاس الأحمر- مع - الخشب(٤٨) وبلط الحرب وعشرة سيوف محدبة(٤٩). ٣٣ خنجراً ١٢ سكيناً (؟) و ١١ ..." وتستمر القائمة حتى تضم سبائك نحاس وسكاكين سلخ ورماح وسبائك ذهب ودفوفًا ولازورد وأحجاراً كريمة وفخاراً آسيوياً. "(عودة الجيش) الذى أرسل إلى "خنتى - شى Khenty-she فى عشر سفن. وما جلبه: فضة ١٦٦٥ وحدة [... x+١٩)...] ذهب (؟) ٤٨٨٢ وحدة، نحاس ١٥,٩٦١ وحدة ... " ويتبع ذلك سجل مستفيض بمفردات السلع، وكلها مدونة بكميات وفيرة تشمل المأكولات والأحجار الكريمة والزيوت والأشجار والأسلحة المصنوعة من النحاس (والمطعمة بالذهب أو الفضة أو العاج) والسفن والنبيذ والأخشاب العالية الجودة. وتسجل الأعمدة الباقية من النص وقائع نزهة ترفيهية يقوم بها الفرعون وبلاطه إلى الفيوم، ومكافأة الضباط الذين قادوا تلك التجريدات العسكرية، وبدء الدخول (على ما يبدو) فى سنة جديدة من حكم الفرعون "أمين - إم - حات" الثانى.

يصعب علينا، مهما قلنا، أن نبالغ فى تقدير الأهمية التى تنطوى عليها هذه الوثيقة. فلقد رفعت النقاب على حين غرة، على نحو ما حدث، عن الأسرة الثانية عشرة فنرى بلاطًا وحكومة واسعى الثراء وراسخى القدم وشديدى الفعالية وقادرين على إنفاذ إرادتيهما، ليس داخل البلاد وحسب بل ووراء الحدود كذلك. أضف إلى ذلك أن المرء

يستشعر ميلها أى هذه الأسرة نحو القسوة ففى غضون سنة واحدة أرسلت تجريدات شبه عسكرية بأحجام ملحوظة، لتأمين مصادر كل من سيناء (المصرية) ولبنان، كما بعثت بحملتين تأديبيتين إلى ثلاثة مواقع آسيوية، ووصل المقهورون بجزيتهم على أكتافهم من "كوش" وربما من آسيا كذلك. وكانت كمية المنتجات والمعادن والسلع التى غنمها المصريون هائلة، وحتى أعداد الأسرى كانت كبيرة بشكل ملحوظ، رغم أن عدد الأسلحة (الذى قد يومئ إلى أعداد القتلى الذين سقطوا من الأعداء خلال المعارك) يبدو متواضعًا وبذلك لم يعد بوسع الدارسين أن يزعموا أن المملكة الوسيطة لم تهتم بآسيا: لقد اتضح الآن، عبر أدلة غزيرة، أن فراعنة الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة، اقتفوا أثر أسلافهم من فراعنة المملكة القديمة، فى النظر إلى آسيا الغربية والمشرق بالذات، كممتلكات خاصة يحوزون حق استغلالها إلى أقصى ما يستطيعون.

من جانب آخر لعله من الواضح بنفس الدرجة، أننا لا نستطيع الحديث عن "إمبراطورية" بالمعنى الرسمى. حقًا كانت الألقاب التى تنطوى على الاستعمار والاحتلال والهيمنة العسكرية معروفة منذ المملكة الوسيطة، ولكن هذه الألقاب ظهرت بصفة رئيسية على الساحة النوبية. ولكن قرارًا سابقًا كانت الأسرة العاشرة قد اتخذته تجاه الشمال: أن "تبقى على الخط" بمعنى أن تستمر على أهبة الاستعداد. ففى تلك العهود كانت المدن على الحدود الشرقية للدلتا مأهولة بالسكان ومحصنة بالقلاع فى محاولة لحمايتها من الغارات التى يشنها الآسيويون عليها بين الحين والآخر(٥٠). ومع صعود الفرعون "أمين - إم - حات" الأول إلى سدة الحكم، أقيمت قلعة جديدة، فى "وادى طميلات" Wady Tumilat أطلق عليها اسم "سور الحاكم"(٥١) وإذا توغلنا أكثر شمالاً، عند بداية "طريق حورس"، التى تقع فى تلك البقعة الجرداء من الصحراء بشمال شرق الطرف الشرقى للدلتا(٥٢). حيث يقيم "قائد ... يتولى مسئولية دورية الحدود"، وهى عبارة عن فصيلة من رجال البوليس مكلفة بمراقبة القفار المجاورة(٥٣). ولكن أحدًا لم يبذل أى محاولة لفرض أى مراقبة دائمة على التجمعات التى تقيم فيما وراء سيناء.

وفى طوعنا أن نقول ذلك باطمئنان نظرًا لأن الدليل الذى نستطيع استنتاجه من صمت الوثائق فى هذا المجال مقنع. وتتضافر نقوش كثيرة تركها أناس عاديون، مع النص الحولى Annalistic الذى تطرقنا إليه للتو كى تبدد أى شك حول وجود

المصريين والغرض من وجودهم فيما وراء حدود الدلتا. فهناك النقابون "الذين يجوسون خلال البلاد"[٥٤] فى بحثهم عن المناطق التى تضم أراضيها معادن أو منتجات مما قد ينطوى على نفع ما للفرعون وفى أعقابهم تسير القوات شبه العسكرية كى "تفتح الأراضى الأجنبية وتجوس خلال كافة البلاد"[٥٥]، وتدوس أقدامها البلاد الأجنبية باسم سيد الأرضين فى مهمات لحورس القصر، تتمثل فى قمع البلدان الأجنبية"[٥٦] ثم جاء "أمناء خزائن الإله (الفرعون) ومستشاروه"[٥٧] مع جيوش من الفنيين، "يقودون أعداداً غفيرة فى أرض غريبة ... ويصلون إلى أقاصى البلاد الأجنبية سيراً على الأقدام ويطأون الوديان الوعرة[٥٨]، كى يعودوا بالأحجار الكريمة لجلالته"[٥٩]. أو ببساطة "لإحضار ما تتوق نفسه إليه"[٦٠]. وفى بعض الأحيان تصل إلى أيدينا، وخصوصاً من السياقات الأثرية المعاصرة للأسرة الثالثة عشرة، جعارين نسيها بعض أعضاء تلك التجريدات[٦١]: حامل أختام الفرعون لشئون الوجه البحرى، وهو لقب يحمله قادة التجريدات، كبير كبراء القاعة، وهو لقب غريب تلقّب به نوع من الوكلاء التجاريين للمعابد ومدير القصر وكاتب الجيش (أو التجريدة)[٦٢] ومدير المراسم ورئيس العشرات فى الوجه القبلى (أى خولى العمال)، وأعضاء طاقم الحاكم (أو المائدة) (أى ربابنة السفن الملكية). وتلك هى رتب الضباط والمسئولين التى عثرنا عليها مع التجريدات التى أرسلت فى سبيل التعدين أو التجارة أو قطع الأحجار سواء فى النوبة أو الصحراوات أو شبه جزيرة سيناء، ولكن ما من رتبة من هذه الرتب تشير إلى أى وظيفة مرتبطة باحتلال دائم من النوع الإمبريالى.

وحيثما فشل الاستغلال فى ظل الإرهاب لجأ الفرعون إلى استزراع الأصدقاء. واستتبع ذلك نوع من سياسة تقديم الهدايا بشكل متبادل على ذلك المستوى العالى الذى نصادفه بصفة رئيسية بين ملوك الشرق وهو الأمر الذى تشير إليه ألقاب حملها مسئولون ملكيون من قبيل "ذاك الذى يصطحب آثار جلالته إلى الأراضى النائية"[٦٣]. وقد ظهرت تلك الهدايا رهن الحديث، فى الواقع، خلال عمليات التنقيب فى المشرق، وبصفة رئيسية فى المدن السورية المهمة : "إيبلا" Ebla و "أوجاريت" و "قطنوم" و "بعلبك" و "بيبلوس" و "بيروت"[٦٤]. وبينما ترجع بعض تلك الأشياء الثمينة إلى عمليات السلب والنهب التى قام بها الحكام الهكسوس من مصر[٦٥]، فإن العبارة الصريحة التى وردت

على لسان "سنوهى" تكشف عن أن هذه العادة كانت شائعة منذ بداية الأسرة الثانية عشرة(٦٦). والواقع أن هناك أدلة تكفى لتصوير جولات وصولات الرسل المصريين فى ربوع المشرق. وعندما وصل "سنوهى" إلى مرتبة شيخ كبير فى منفاه الاختيارى وسط بدو فلسطين، استطاع أن يزهو بأن "الرسول الذى يتوجه شمالاً أو جنوباً من أو إلى المقر المصرى دأب على أن يستريح قليلاً فى مقر إقامته"(٦٧). و"غصت كافة البلدان بأعداد وفيرة من عدائى (رسل) الفرعون "سنوسرت الأول"(٦٨). وبلغت مهنة الرسل حداً من الشيوع جعل من الممكن أن يسخر أحدهم من مخاطرها على هذا النحو: " قد يوصى الرسول الذى يتوجه فى مهمة ما إلى خارج البلاد، بمنقولاته لأبنائه نتيجة لرعبه من الضوارى والآسيويين"(٦٩).

من حياة الوبر إلى حياة الحضر

فلسطين تحت ظل الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة:

ترى ما نوع الأرض التى عرفت باسم "ريتينو" Retenu التى وجه فراعنة مصر نحوها اهتماماً نشطاً اعتباراً من سنة ٢٠٠٠ حتى ١٧٠٠ ق.م؟ على نحو ما رأينا قبل قليل ادعى كل من الجنرال "أنتيف" Antef و "نسو - مونتو" Nessumentu أنهما دمرا مستوطنات حصينة فى ذلك الصقع من أصقاع آسيا الذى قادا إليه التجريدة تلو التجريدة، ويكتب نص "أمين - إم - حات" الذى وصل إلى أيدينا من "سقارة" أسماء الأماكن داخل أشكال بيضاوية مشرشرة. الأمر الذى يشير إلى مستوطنات مسورة تحميها الأبراج. وهناك ترجمة شبه مقنعة لفقرة فى "نفرتى" قد توحى بأن سكان آسيا الغربية المتاخمين لمصر، كانوا قد أتقنوا مع مطلع الأسرة الثانية عشرة فنون فرض الحصار. وقد يؤيد كل ذلك الرأى الذى يذهب إلى أن القرنين العشرين والتاسع عشر ق.م شهدا، مرة أخرى، ظهور سكان مستقرين حضريين ولكن هل تتمتع الأدلة فى هذا المجال بالاتساق من أولها إلى آخرها؟

تكشف الصورة الأثرية التى فحصناها من قبل[٧٠] عن مجتمع أو تجمع فلسطينى خلال القرنين الأخيرين من الألف الثالث، وقد ضربه التحول على أيدى أقوام يجهلون الاستقرار ويعيشون على الترحال. ويبدو أن منشأ هذه الثقافة يعود إلى سهوب أو برارى ضفاف نهر الأردن Transjordan حيث أسفر التغلغل الثقافى والسكانى فى الاتجاهين الغربى والجنوبى عن انتقال السكان إلى جنوب فلسطين و "النقب"[٧١] وبينما أعالت منطقة "النقب" منذ ذلك الحين فصاعدًا تجمعًا أكبر قليلاً مما كان عليه الحال فى وقت سابق، إلا أنها ظلت، مع ذلك، منطقة بدوية غير جاذبة nonnucleated ، وهو الأمر الذى لم يؤد إلى عملية استقرار[٧٢]. وتكشف لنا عمليات التنقيب التى قام بها "وليم ديفر" William Dever فى "بير ريسيزيم" Bir Resisim ، الوضع الذى كانت عليه على وجه التحديد خلال أيام حقبة/طبقة رقم EBIV . فلقد عثر العلماء هنا على نحو ثمانين كوخًا منتظمة فى خط منحن، ومعدة لتوفير المبيت، على أساس فصلى فيما يبدو، لقبيلة صغيرة لا يزيد تعدادها عن خمسة وسبعين شخصًا، ويعيشون على الفلاحة الجافة (أى على الأمطار) والرعى وقليل من التجارة[٧٣]. ولابد أن معظم أراضى فلسطين وجنوب سوريا كانت موطنًا لمثل أولئك الرعاة شبه البدو الذين يتجولون حول التلال التى تخلفت عن الدمار الذى لحق بمدن مطلع العصر البرونزى دون أن يفكروا بالمرة فى الاستيطان المستقر. وكانوا إذا ما عادوا، فى واقع الأمر، بصفة دورية إلى مدن الماضى، فإنهم لا يعودون إلا فى فصل الصيف كى يدفنوا موتاهم فى المقابر التقليدية التى أضفى عليها مرور الزمن بعض القداسة، فى قبور أسطوانية الشكل عميقة الغور تقود إلى الحجرات المنحوتة فى الصخور. فهنا، استودعت جثث مشوهة أو وسد أبطال مزودون كل منهم بخنجر كى يستخدموه فى الدفاع عن أنفسهم فى العالم الآخر[٧٤]. وكانت آنيتهم من الفخار الخشن، وكانت من صنع أيديهم المجردة ومحززة ببعض نقوش الزينة التى غالبًا ما كانت ترتدى أطراً Calciform وتدور حول مقابض الحوافى[٧٥]. وعلى النقيض من ذلك، ، فإن معرفتهم مع ذلك باستخراج المعادن كانت، لدهشتنا، متقدمة. وإذا كان لنا أن نحكم استناداً إلى الرسومات الملونة فى مقبرة "بنى حسن" الشهيرة فلسوف يلوح لنا أن عشائر محدودة العدد كانت ترتحل حاملة الكور والسندان كى تتكسب على وجه الاحتمال من هنا ومن هناك نظير أعمال

اللحام والسمكرة، خصوصًا إذا ما استدعى المرء إلى ذهنه الكينيين Kenites الذين ورد ذكرهم في أوقات لاحقة في "التوراة"(٧٦). على أن مخابئ سبائك النحاس والأسلحة (البيضاء) بغية إعادة صبها، مما وصل إلى أيدينا خلال الاكتشافات الأثرية التي ترجع إلى تاريخ طبقة رقم EBIV-MBI تؤيد تمامًا الأدلة المستقاة من النقوش(٧٧).

وتعزز قصة "سنوهي" في المنفى، التي أشرنا إليها سابقًا، الصورة الأثرية إلى الحد الذي يصل إلى الكمال(٧٨). فـ "سنوهي" المسئول المتوسط الرتبة الذي يعمل في خدمة الملكة هرب في الوقت الذي اغتيل فيه "أمين - إم - حات" الأول إذ اعتقد أنه سيجرد من حماية القانون في ظل الحرب الأهلية التي استشعر وقوعها، لا محالة، في أعقاب الحادث. وقادته قدماه في هروبه باتجاه الشرق نحو تخوم الدلتا ثم مر بالحصن الحدودي ليلاً ووجد نفسه وقد توغل في سيناء. ويقول: واصلت رحلتي في غبش المساء وعندما أطل الشعاع الأول للنهار؛ كنت قد بلغت" بيتين" Peten وملت كي أستريح على جزيرة في "الأسود العظيم"(٧٩). واستبد بي العطش. وذبل جسمي وتشقق حلقي. فقلت لنفسي: "هذا هو طعم الموت!" ثم تمالكت نفسي ولملمت أطرافي، فلقد وصل إلى أذني خوار المواشي، ولمحت على حدود الشوف بعض الآسيويين. وتعرّف عليّ شيخهم(٨٠) الذي كان قد سبق له زيارة مصر وأخذ "سنوهي" ينتقل من تجمع لآخر بعد أن أنقذته ضربة الحظ تلك، مصعدًا نحو الشمال: سلمتني البلاد، بلدًا لآخر، وانطلقت في طريقي إلى "بيبلوس" ثم قفلت راجعًا إلى "كدم" Kedem حيث قضيت سنة ونصفًا. وطلبني "نينشي" Nenshi بن عامو Ammu حاكم "ريتينو" العليا وقال لي: لسوف تسعد بإقامتك معي، فلسوف تسمع أذناك لغة مصر!" ولقد أبلغني بذلك لمعرفته بطباعي. وكان قد سمع أنني على درجة كبيرة من البراعة. وكان المصريون الذين يقيمون معه قد أدلوا بشهادتهم إليه عني.

ويبدو واضحًا أن سنوات الصراع المدني في مصر دفعت كثيرًا من المصريين إلى المنفى في المشرق حيث شكلوا جالية وثيقة العرى.

قام "نينشي" Nenshi بتزويج كبرى بناته لـ "سنوهي" وأسكنه في رقعة من الأرض تابعة للقبيلة. وهكذا عاش حياته كشيخ بدوي وسرعان ما اكتسب الغنى

والصيت وصار معدوداً بين أشهر الأغنياء. ولكنه لا يكشف لنا عن عدد السنوات التى قضاها فى الخارج، إلا أنه يقول إنه رأى أبناءه بعد أن شبوا عن الطوق وصاروا يافعين، وأصبح هو رئيساً لعدد من العشائر، وهو الأمر الذى يعنى بالضرورة أن إقامته هناك امتدت لعدة عقود من السنين.

غير أن هذا النجاح ذاته الذى حققه أثار حفيظة البدو المحليين:

وحدث أن قدم رجل وافر القوة من "ريتينو" كى يتحدانى فى خيمتى. وكان فى وطنه بطلاً لا يضارع، أنزل الهزيمة بكافة منافسيه. وقال لى إنه يعتزم منازلتى، متصوراً أنه سيغلبنى مضمراً فى طوية نفسه، بناء على نصح أبناء قبيلته، أن يستولى على ماشيتى كغنائم. وكان أن عقد "نينشى" Nenshi اجتماعاً معى، فقلت له إننى لا أعرف ذلك الرجل. ولم ألتق به من قبل. ولم أكن، فى واقع الأمر، مرتبطاً معه بعلاقة تسمح لى أن أجوس بين مخيماته. أوليس حقًا وصدقًا أننى لم أطرق يوماً بابه، أو حتى عبرت ربوعه؟ ترى هل هو الكره، لا غير، الذى نجم عن رؤيته لى أؤدى ما تكلفنى به من مهام..." وكان أن شددت قوسى، أثناء الليل، ومرنت نفسى على إطلاق سهامى وأشرعت خنجرى وجلوت أسلحتى. ومع انبثاق الضوء الأول للنهار، حضرت "ريتينو" بعد استنهاض قبائلها، واحتشد أكثر من نصف سكانها كرجل واحد. وانصب الاهتمام كله على هذا النزال. اقترب ذلك البطل منى بينما كنت واقفًا رهن الانتظار. فاقتربت حتى صرت فى مرمى يمينه. احترقت القلوب قلباً قلباً. وتأوه الرجال والنساء من أجلى. وانقبضت القلوب إشفاقًا علىّ. وقال قائلهم: أليس هناك رجل آخر قوى يستطيع منازلته؟ ثم التقط درعه وبلطته وملأ ذراعه (إبطه) من الحراب. والآن وبعد أن راوغت حرابه وجعلت سهامه تخطئنى وتمر عن يمينى وعن شمالى واحداً إثر الآخر، دون أن تصيبنى حمل علىّ، إلا أننى عاجلته بسهم من قوسى استقر فى عنقه. فانكفأ على أنفه فى صرخة مدوية. وعندئذ أجهزت عليه ببلطته وأطلقت صيحة القتال التى كنت أذكرها، على ظهره بينما جأر الآسيويون فرداً فرداً. وما كان منى إلا أن حمدت إلهى "مونتو" Montu فى الوقت الذى ناح عليه خلانه.

إلا أن الارتياح الواضح الذى يروى به بطلنا الفخور بنفسه مغامراته، لم يستطع إخفاء شوقه إلى العودة إلى مصر. وكان من الجلى أن "سنوهى" كان عليل الحنين إلى الوطن فلقد سأل أسئلة على جانب كبير من الحذر، وأرسل ما يشبه قرون الاستشعار فى كافة الجهات وبعث بالخطابات. وفى نهاية الأمر رد عليه الفرعون "سنوسرت" الأول شخصيا: بالطبع يستطيع "سنوهى" أن يعود إلى الوطن. فلم يكن قد صدر عنه خطأ كى يحتاج إلى غفران. وكان مكانه فى مصر محفوظًا فى خدمة الملكة، وليس ضمن شرائح الموظفين العموميين الذين لزموا درجة وظيفية غفلت عنها الآلهة.

وبناء عليه أعد "سنوهى" العدة للعودة. واستقبله عند الحدود المصرية وفد حمله مصعدًا مع نهر النيل حتى المقر الملكى فى "إيتى – تووى" (يشت حاليًا)، حيث كان الفرعون "أمين–إم–حات" قد شيد عاصمته. ولكن الوساوس ظلت تستبد بالرجل تجاه سلامة نية الفرعون. أيكون الأمر مجرد خدعة لإغرائه بالعودة إلى مصر ثم الزج به فى السجن أو حتى إعدامه؟ حقًا تعد رواية "سنوهى" للقائه مع الفرعون تحفة رائعة من الوصف النفسى البالغ الحساسية:

استدعونى عند الفجر وأخذ عشرة رجال يأتون ويروحون كى يقودوا خطاى داخل القصر. انحنيت حتى كادت جبهتى تلمس الأرض بين تماثيل "أبوالهول" بينما كان الأمراء الصغار يقفون فى إحدى الشرفات التى تعلو رأسى. وقادنى رجال البلاط إلى القاعة الواسعة ووجهونى إلى الأجنحة الخاصة. وجدت جلالته جالسًا على العرش العظيم فى مقصورة من الإلكتروم، وسرعان ما انبطحت على بطنى. لم أعد أعرف نفسى فى حضور جلالته. إلا أن هذا الإله خاطبنى بلطف. لكننى كنت أشبه برجل اختطف فى وحشة الليل: فارقتنى روحى وارتجفت أطرافى. وبدا وكأن قلبى لم يعد فى جسمى! وعندئذ قال جلالته لأحد رجال البلاط: ارفعه عن الأرض. واسأله أن يتحدث معى "ثم قال جلالته" اسمع! لقد وصلت إلى هنا بعد رحلة هروب طوفت بك فى البلاد الأجنبية. وهاجمتك الشيخوخة. وتمكن منك الضعف والوهن. ومثوى جثمانك ليس أمرًا هينًا. وما كان للبدو أن يتولوا أمر دفنك! لا. لا ما كان ذلك ليحدث قط!... أنت لا ترد على من يناديك باسمك فهل تخشى عقابا؟ فأعطيت إجابة أشبه بإجابة رجل خائف: ماذا قلت يا مولاى لى؟ إنها يد الإله ليس إلا. انظر إننى فى حضرتك. وحياتى بين يديك.

ولتفعل ما تشاء. عندئذ سمح جلالته فأدخل رجال البلاط الأمراء الصغار. وقال جلالته للملكة: انظري! هذا هو "سنوهي" وقد حضر إلينا آسيويًا، من صنع البدو!. فأطلقت الملكة صيحة عالية وتصايح الأمراء الصغار معًا، وقالوا لجلالته: إنه ليس "سنوهي" الذي نعرفه. يا إلهي المتعالي! ولكن جلالته قال: لا إنه في الحقيقة هو.

تمد قصة "سنوهي"، وسواء أكانت من نسج الخيال أو لم تكن[٨١]، الأسرة الثانية عشرة بتحفة رائعة من أدب الدعاية. فرغم الاضطراب والتشرذم اللذين خلقتهما الحرب الأهلية، كانت مصر لا تزال وطنًا لكل المصريين: عودوا إلى أرض الوطن أيها المنفيون من منفاكم. كل الخطايا مغفورة! ولسوف يجلب الإخلاص للفرعون/الإله والعمل في خدمته السعادة والرخاء. فالفرعون يتحلى بالصبر والفطنة والغفران كما أنه يعرف كيف يرعى رعاياه. وهو ليس مطبوعًا على الانتقام. فلنتعاون جميعًا على دفن الماضي ولنعمل سويًا في تناغم في سبيل وطن أعظم وأسعد. في ضوء الهدف الحالي الذي نستهدفه تشحب هذه الروح الخلقية البادية للعيان عند مقارنتها بالصورة الصادقة المفصلة التي يرسمها الراوي، دون قصد منه، لفلسطين في النصف الثاني للقرن العشرين ق.م. فـ"سنوهي" لا يشير إلى أي مدينة، اللهم سوى "بيبلوس" خلال رحلاته الواسعة النطاق. فحيثما توجه في أرجاء فلسطين وسوريا الداخلية أو وادي "البقاع" Coele-Syria لم يصادف سوى زمر من البدو الرحل الذين يقيمون في الخيام أو داخل أحواش مسورة[٨٢]، ويرعون قطعانهم ويغزون بعضهم البعض الآخر. وكانت الحيوانات المستأنسة عندهم الأغنام والأنعام والماعز والحمير، ولو أن الأنعام كانت بالنسبة لهم أهم تلك الحيوانات قاطبة[٨٣]، وبالتالي احتل الكلأ والآبار منزلة عالية لا يعرفها سوى البدو في حياة العشيرة[٨٤]، واشتمل غذاء الجماعة على لحوم الأبقار والدجاج وفرائس الصيد البري والألبان والخمور[٨٥]. وهذه الخمور تثبت إلى جانب ذكر أشجار الفاكهة[٨٦] أن تلك العشائر عرفت نوعًا ما من أنواع زراعة البساتين. ورغم هذا الدليل على فلاحة الأرض، بالإضافة إلى الفلاحة الجافة المحدودة التي تقوم عليها شواهد من تجمعات طبقة رقم EBIV ، إلا أن القنص البري أو قنص الحيوانات ظل وسيلة رئيسية من وسائل المعيشة[٨٧] وكانت تلك العشائر تدفن موتاها في جلود الأغنام، وتقبرهم في مقابر سطحية يحيط بها سور واطئ، وهذه عادة كان المصريون يبغضونها[٨٨].

وكان التنظيم السياسى بدائيًا متخلفًا ويسير وفقًا للقواعد القبلية. فالقبائل القبلية تقسم إلى عشائر والعشائر بدورها إلى عائلات[٨٩]. والفعل الذى تشير به لغتهم إلى دور الشيخ/الرئيس إزاء ناسه:" د - ر "يعنى "أن يقمع وأن يخمد وأن يكبت"، يعكس بصورة حية الطابع البسيط غير المركب لوظيفته[٩٠].

ولقد برهن علم الآثار على أن هؤلاء الأقوام حازوا خبرة واسعة فى تصنيع أسلحة عالية الجودة، ويشير وجود أسلحة فى قبورهم إلى أنهم كانوا مولعين إلى حد كبير بالحرب. وتؤكد جولة النزال الشهيرة التى خاضها "سنوهى" ضد بطل "ريتينو" حقيقة أن الأعراف القبلية كانت توفر قناة مشروعة لحسم مثل هذه "الخناقات" ولا يخلو من مغزى، أن تكون الأسلحة التى يعول عليها "سنوهى"، هى نفس الأسلحة التى كشفت عنها عمليات التنقيب ودراسات النقوش: القوس (pdt) والخنجر (b^3 gsw) والرمح والبلطة[٩١].

حقًا رحب أشباه البدو أولئك بـ "سنوهى" وغيره من المنفيين فى العيش بينهم، إلا أن العداوة الأساسية ظلت قائمة على ما هى عليه بين الفلاح المصرى المستقر والفلسطينى الذى يعتمد على حياة الترحال فى عصر طبقة رقم EBIV ويلخص "سنوهى" طبيعة هذه العلاقة بصورة بليغة على هذا النحو:"ليس هناك بين القواسين من يؤاخى أحد سكان الدلتا. فمن ذا الذى يستطيع استزراع كدية بردى على قمة جبل؟"[٩٢]

يبدو أن الشك تبدد الآن، أو كاد، على ضوء هذا الدليل الساطع، فى أن المجتمع الذى أصبح يعرف باسم EBIV-MBI ظل محصوراً بشكل ثابت فى فلسطين حتى نهاية القرن العشرين ق.م. فهل نستطيع أن نستمد أى دليل من أى مصدر مصرى حول اللحظة التى انتهت فيها فلسطين من حياة الترحال وبدأت فيها حياة الاستقرار؟

نلاحظ فى هذا الصدد أن المعلومات المتوافرة عن القرن التاسع عشر ق.م أى فترة حكم كل من "أمين-إم-حات" الثانى و"سنوسرت" الثانى والثالث و "أمين-إم-حات" الثالث أكثر استعصاء على التطرق إليها، كما أنها تسمح بنشوء تفاسير متعددة. ورغم الحوليات الغنية بمحتوياتها، التى تركها لنا "أمين - إم - حات" الثانى، إلا أنه لا يزال

غير واضح أى نوع من الاقتصاد ذاك الذى كان سائداً وقت ذاك بين الآسيويين، فيما عدا موقعين محصنين أو ثلاثة مواقع اجتذبت اهتمام حملة مصرية استكشافية. ولكن مدينتين صغيرتين محصنتين لا يصنعان مجتمعاً حضرياً بصفة كاملة. وقد ظل الباحثون ينظرون فى غالب الأحيان إلى عائلة شيخ "أبشا" Absha التى تضم سبعة وثلاثين فرداً، وقامت بزيارة المديرية السادسة عشرة بمصر العليا خلال حكم الفرعون "سنوسرت" الثانى (١٨٩٧-١٨٧٧ق.م. على وجه التقريب)[٩٣] على اعتبار أنها تمثل بصورة نموذجية، بدو العصر البرونزى الوسيط، ولكن الصواب يجانبنا، أو يكاد، إذا قبلناها كممثلة لنمط الحياة الذى كان سائداً فى فلسطين فى ذلك الوقت. فمثل تلك العائلة تستطيع بنفس الدرجة من السهولة أن تمثل محيطاً اجتماعياً ينتمى إلى مجتمع أكثر حضرية[٩٤].

ويتمثل المصدر الأعلى قيمة حول علاقات مصر بآسيا خلال أواخر المملكة القديمة فيما يسمى بـ "نصوص اللعن" التى لابد وأن يرجع تاريخها إلى ما يتراوح بين ١٨٥٠ و ١٧٥٠ ق.م. وهذه النصوص تعد عملاً من أعمال السحر التى تستهدف إفناء الأشخاص والأشياء التى يشكل وجودها تهديداً للفرعون أو لمصر. ويصور الطقس الذى نعنيه هنا الفرد فى الطين المحروق أو الحجر أو الخشب، المنقوش منه وغير المنقوش أو بكتابة الأسماء على الأوعية الفخار. وكانت صيغة اللعنة تتلى، دون شك، ثم يكسر الوعاء[٩٥]. ويمدنا كل معبد من معابد الأهرامات الكبرى، على وجه التقريب، خلال المملكة القديمة بشطف من تماثيل لأجانب مكبلين بالقيود (نوبيين أو آسيويين)، ولكن ما نشر حتى الآن لم يتجاوز بضعة أجزاء حول تلك النقوش (نوبية)[٩٦]. وفيما يتعلق بالأسرة الثانية عشرة ومطلع الأسرة الثالثة عشرة لم يصل إلى أيدينا سوى أربع قطع تتصل بصورة أو بأخرى بالموضوع: تماثيل صغيرة من حلوان، ومن مطلع الأسرة الثانية عشرة (لم تصلنا أى أسماء آسيوية)[٩٧]، وصلت إلى أيدينا تماثيل صغيرة وفخاريات من حصن نوبى يسمى "ميرجيسا" Mirgissa ، يرجع تاريخه إلى وقت ما يقع بين ١٩٠٠ و ١٨٥٠ق.م.[٩٨] وفخاريات أخرى جرى شراؤها من السوق وانتهى المطاف بها حالياً فى "برلين" بألمانيا، وهى ترجع إلى حكم "سنوسرت" الثالث أو أوائل حكم "أمين - ام - حات"[٩٩] بالإضافة إلى تماثيل صغيرة أخرى مصنوعة من الصلصال عثر عليها المنقبون فى "سقارة"، واستقرت الآن فى "بروكسل" عاصمة بلجيكا، ويرجع تاريخها إلى جيل أو جيلين بعد الأوانى التى تحتفظ بها "برلين"، وهو الأمر الذى يعنى أنها ترجع إلى وقت أو آخر خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م.[١٠٠].

قد يكون فى طوعنا أن نقيّم البنية الأساسية لهذه النصوص بصورة أفضل خلال إمعان النظر فى المجموعة التى تحتفظ بها منها "برلين". ففى هذه المجموعة نجد حول كل من النوبة وآسيا (وكذلك الأمر بالنسبة لليبيا رغم أن النص موجز) الفقرات التالية:

(أ) قائمة بأسماء الشيوخ/الأمراء، ويسبق كل اسم منها هذا اللقب: شيخ كذا (موقع جغرافى) وكافة الأتباع الذين فى معيتهم.

(ب) جملة عمومية الطابع تشمل "كافة النوبيين والآسيويين". وتأتى بعد هذه الجملة قائمة بعدة أماكن[١٠١].

(جـ) جملة أخرى عمومية الطابع تعدد وظائف متنوعة: "رجالهم الأقوياء وعداؤوهم يضمرون التآمر والذين ينتوون رفع السلاح، والذين يعتزمون التمرد فى سائر أرجاء هذه البلاد". وبينما تميل الجمل العمومية والوصفية إلى الثبات على امتداد الزمن[١٠٢]، الأمر الذى تعكس معه، فيما يبدو، نموذجًا أصليًا يرجع إلى مطلع المملكة القديمة، فإن قائمة القسم (أ) تكشف عن درجة ملحوظة من السلاسة. وتحوز نصوص "ميرجيسا" Mirgissa ستة قيود للقسم (أ) مع ذكر ثلاثة أسماء لمواقع جغرافية ("عنقى" ذكرت أربع مرات) مع ذكر خمسة قيود للقسم (ب) مع ذكر خمسة أسماء لأماكن جغرافية ثلاثة منها مستخرجة من القسم (أ)، وتكشف نصوص "برلين" عن واحد وثلاثين قيدًا للقسم (أ) مع ذكر خمسة عشر اسمًا لمواقع جغرافية. بينما يحوز القسم (ب) واحدًا وعشرين قيدًا مع تسعة عشر اسمًا لمواقع جغرافية، ثلاثة بالتمام منها تقع فى القسم (أ). وتقدم مجموعة "بروكسل" خمسة وستين قيدًا للقسم (أ)، تمدنا الستون قيدًا الأولى منها بالقطع المنتظر والمعلومات التشخيصية prosopographical مع ذكر خمسة وخمسين اسمًا لمواقع جغرافية. وتخص القيود الخمسة الأخيرة فى الحقيقة القسم (ب)، وهو الأمر الذى يرفع العدد إلى أحد عشر قيدًا بصفة إجمالية مع سبعة أسماء لمواقع جغرافية، بينها ثلاثة تقع فى القسم (أ).

يجدر بنا، قبل المضى قدمًا، أن نضع فى حسابنا ما يلى: يستهدف هذا التمرين أن يبطل بأعمال السحر، المكائد والمؤامرات ومحاولات التمرد أو شن الحرب التى قد يقدم عليها أى شخص على ظهر الكرة الأرضية، بمن فى ذلك المصريون أنفسهم. ولما كانت تلك الأعمال من أعمال السحر، فلسوف تستخدم بالدرجة الأولى فى الحالات التى يكون فيها العمل المباشر (البوليسى أو التأديبى أو العسكرى) مستحيلاً، بمعنى، عندما يكون المتمرد المحتمل بعيداً، من الناحية المادية، عن نطاق السلطة القانونية للفرعون(١٠٣). ولسوف يستخدم ذلك الطقس ضد أى شخص أو أشخاص لا تكون الدولة واثقة من ولائه أو ولائهم، أى أناس لا "يشربون من مياه الفرعون"، وهو الأمر الذى يعنى على وجه التقريب، كافة سكان آسيا فيما عدا "بيبلوس" ويتوجه اهتمام أولئك الذين يقومون بذلك الطقس بصورة واضحة، نحو"الأشخاص" دون "الأماكن": مضمون النصوص الخاص بأسماء المواقع الجغرافية يفيدنا، وحسب، فى التعرف على الأشخاص وتحديد محل إقامتهم، وهناك، بالتالى، احتمال لأول نظرة، بأن قائمة الأشرار المحتملين سوف تكون شاملة عوضًا أن تكون انتقائية(١٠٤). وأخيراً، لما كان أشخاص معينون هم الذين يستأثرون بالبؤر الرئيسية للاهتمام، فلسوف يقاوم القسم (أ) أى اتجاه إلى الانحدار إلى نموذج مقولب يعاد إنتاجه على امتداد العديد من الأجيال. وبالتالى فإننا لا نتوقع أن نصادف أى أشكال تعبيرية بالية ومهجورة فى القسم (أ)(١٠٥) رغم ظهور الطابع المحافظ للتعبير هنا وهناك بوضوح فى الأقسام ذات الطابع العمومى، وتضم أشياء من هنا ومن هناك.

ورغم أنه أصبح الآن مؤكداً أن أوانى (طاسات) برلين ومجموعة "ميرجيسا" لا ترجع إلى أكثر من جيل إلى جيلين قبل التاريخ الذى تعود إليه تماثيل "بروكسل" الصغيرة الحجم، وتتسم باختلافات تميز عدد وترتيب الأماكن فى المجموعتين فضلاً عن العلاقة التى تربط الأفراد الذين وردت أسماؤهم بتلك الأماكن. فمن ناحية، هناك زيادة مذهلة فى عدد الأماكن المذكورة، من خمسة أماكن، وحسب، فى "ميرجيسا" إلى أكثر من ستين مكانًا فى مجموعة "برلين". ومن ناحية أخرى، نجد فى كل من "ميرجيسا" و "برلين" أن العديد من الشيوخ/الأمراء Chiefs مرتبطون باسم مكان واحد منفرد، ولا أقل من ثلاثة فى ست حالات. وفى نصوص "بروكسل"، مع ذلك، نجد أن كل مكان

مرتبط بشيخ/أمير واحد[١٠٦]. وبالإضافة إلى ذلك ففي أواني "برلين" نرانا نفتقر، على ما يبدو، إلى أي ترتيب جغرافي لسياق الأماكن: فـ" رحوب" في " الجليل" تتبعها مباشرة."أشناه" في غرب "يهودا"[١٠٧]. و "أرقاطة" شمالي "بيبلوس" تسبق "عشقلون" Ashkelon . ولكن نصوص "بروكسل" تصنف أسماء الأماكن وفقًا لـ "الإقليم"، ما لم تُصنف في سياق مذكرات الرحالين.

راودت البعض منذ مدة طويلة ظنون قوية بأن مجموعتي النصوص، التي تفصل بينها مدة ملحوظة، تضمر في ثناياها حقائق تاريخية أو مجتمعية[١٠٨]. وقد تركز النقاش حول هذا السؤال: لماذا تضاعف عدد الأماكن ثلاث مرات خلال المدة التي انقضت بين مجموعة "برلين" ومجموعة "بروكسل"؟ لا يستطيع الأمر أن يعكس مجرد وعي المصريين المتجدد والمتنامي بالجغرافيا السياسية لفلسطين وجنوب سوريا: فالأدلة التي استعرضناها للتو تكشف جميعها ودون استثناء عن ألفة وعلاقة حميمة في التفاصيل (خلال المناوشات الحربية المتكررة) مع المناطق القريبة في غرب آسيا.

يتعين علينا أن ننطلق من حقيقة بارزة في عملية التحقيق: عندما كتبت نصوص "برلين" كان التعويل على التعرف على هوية شيخ/أمير معين عن طريق "محل إقامته" Place of residence أقل مما أصبح عليه الحال بعد ذلك بجيل أو جيلين. وتحت حكم الفرعون "سنوسرت" الثالث، كان المصريون قد عرفوا مشيخات/إمارات Chiefdoms خلال عدد محدود من الأماكن، حيث جرى تعريف الأفراد على هذا النحو: "شيخ أو أمير"، هذا المكان أو ذاك (رغم أن ذلك قد يكون تبسيطًا شديدًا من جانب مصر). وفي الوقت الذي كتبت فيه نصوص "ميرجيسا" Mirgissa ، تشير أربعة أسماء لأماكن جغرافية إلى مواقع على ساحل البحر المتوسط "بيبلوس" و "أولازا" Ullaza، وعلى وجه الترجيح " عنقي" و "مجر" Mugar،[١٠٩] وواحدة في الضفة الغربية "شوتو" Shutu أما أواسط فلسطين فلم يرد لها ذكر. وهذا الأمر يكمل الصورة التي نستطيع استنتاجها من النصف الأول لحكم الأسرة الثانية عشرة كما تبدت خلال النصوص التاريخية التي تعرضنا لها، وعلى وجه محدد؛ اهتمام المصريين وأنشطتهم التي امتدت إلى الساحل، وإقامتهم لصلات ما مع بدو الضفة الغربية، وتجنب القطاع الأوسط المخلخل من السكان في قلب البلاد. ونجد في بيان أسماء المواقع الجغرافية،

فى نصوص "برلين" أربعة أسماء تعد، بكل تأكيد، مناطق ساحلية، وهى : "أرقاطة" و "عشقلون" و "أولازا" وثلاثة أسماء بحرية على وجه الترجيح "عنقى"، و "مجر" و "صعبة"(١١٠) ومن بين الأسماء الباقية، التى أمكن التعرف عليها، يبدو عندنا اسمٌ آخر هو اسم عام للضفة الغربية: " شوتو"، واسمٌ آخر هو اسم بلدة فى غرب "الجليل" وهى "رحوب" واسمٌ ثالثٌ هو اسم لإحدى المناطق غربى "يهودا" وهو "أشناه"، وهناك اسم آخر فى الهضبة الواقعة فى أواسط الجنوب وهو "أورشليم" وهناك اسم خامس على وجه الاحتمال لموقع شرقى "بارون" Barrun فى "فينيقيا" (موتارا) Mutara(١١١). ونظراً لأننا لا نستطيع التعرف، بصورة مؤكدة، على الأسماء الباقية، فيصعب علينا أن نرجم بوجود فجوات واسعة فى توزيع أسماء الأماكن، ولكن ما من اسم من هذه الأسماء يمكن أن يوضع شمالى منابع نهر "العاصى" أو شمالى وادى نهر "الكبير". وهذا يعنى : أننا نتعامل مع نفس المجال العام للمصالح من جانب مصر، على نحو ما تبدى فى المملكة الحديثة، وحارب المصريون فى سبيله وقننوه فى معاهدة امتدت لمدة طويلة بلغت قرنين.

قد يشير عدد من المؤشرات إلى أسماء المواقع الجغرافية التى استخدمت كأسماء للأقاليم Regions بدلاً من البلاد الصغيرة. فالعلامة الهيروغليفية: ورقة نبات البوص مكررة ثلاث مرات تسبق العديد من الأسماء، وهى العلامة التى يمكن استخدامها أحياناً لتمثيل (السابقة = preformative) – ى – فى اللغة السامية الغربية. ومع ذلك، ففى الأسماء رهن الحديث، نجد مع ذلك أنها لا تمثل صيغة التمنى precative للفعل، ولكن يبدو أن هذه الأسماء تشير إلى مورفيم منفصل"إيى": iyë،(١١٢) بمعنى "سواحل" (أو نواحى) كذا، وهو استعمال لنوى مألوف فى اللغة العبرية التى كتبت بها "التوراة". وبناء عليه فإننا نجد لدينا "ساحل إقليم "صعبة" S'apa (زيته Sethe, 31) وساحل/ إقليم الذروة "زيته" (Sethe, F. 9,13) ويومئ اسم موقع آخر إلى انتشار أسماء المشيخات حول نقطة التقاء مركزية، أى "مكان اجتماعات" (زيته Sethe, e.8)(١١٣). وفى أماكن أخرى، ورغم أن أسماء المواقع رهن الحديث، ليست سوى مدن دون منازع، نجد أن الاهتمام يتركز، على نحو ما هو مقرر بصورة صريحة، على السكان الريفيين للمناطق المجاورة: قبائل "بيبلوس" (Sethe, F.2) وجميع آسيويى "أولازا" Ullaza (Sethe, F.3) وساحل إقليم الذروة (Sethe, F.9,13).

لا مناص، على وجه الترجيح، من التسليم بالنتيجة التى يقودنا إليها البحث بأن فلسطين التى تناولتها مجموعة ميرجيسا- برلين Mirgissa- Berlin ليست سوى منطقة من الجيوب الريفية التى لا تضم إلا مدنًا صغيرة أو محدودة الأهمية. و "سكان هذه المدن الصغيرة أى الحضريون معروفون، ولكنهم يهبطــون إلى المرتبة الأدنى أو يكادون". (Sethe, F.16). وعلى النقيض من ذلك نجد أن مصر تألف تقسيم هذا المجتمع الريفى (الآسيوى) إلى مناطق، حقًا لا تخضع لترتيب منطقى، ولكن بالترتيب العرضى الذى ربما يكون ممثلوها قد ظهروا وفقه فى حضرة فرعون مصر. فإحدى الطرق التى تقوم أدلة قوية عليها، ويجرى خلالها احتكاك مباشر أو وجهًا لوجه بين الحكومة المصرية والشيوخ الآسيويين تتمثل خلال استدعائهم للمثول أمام البلاط المصرى(١١٤).

عندما كتبت نصوص بروكسل، من جانب آخر، لم يشر أى كاتب إلى أى مسئول أجنبى، سواء أكان شيخًا أو خلاف ذلك دون تعريفه باسم المكان الذى جاء منه، وهذا يعنى فى الغــالب (وإن لم يكــن دائمًــا)(١١٥) اسم مـدينـة صـغـيـرة أو بلـدة Town. وتعرف نصوص "بروكسل" وجود "قبائل" Clans يتشكلون، على وجه الترجيح، من البدو الرحل، ولكنهم كـانوا محصورين فى مدينــة "ميديان" Midian (كوشــو Kushu)(١١٦) أو فى الساحل الفينيقى(١١٧). أما الباقى فالترتيب يكتسب مغزاه من نقطة الانطلاق التى تبدأ منها قائمة بالرحلات itineraries . محطات الرحلة: السهل الساحلى الجنوبى و "شيفيلاه" Shephelah (e.55) . والطريق الجانبى من السهل الساحلى عبر "سيخيم" إلى "بيلا" فى وادى الأردن، (e.6-8) ، والسهل الذى يحيط بـ "حيفا" وشرقى "الكرمل" (e.9-14)، والدرب الــذى يمــر خــلال شـمـــال وادى الأردن إلى "البـقـا ع"(e.15-20) ، ودرب يخترق الضفة الغربية (e.25-29) ، وأعالى نهر "العاصى" ودمشق (e.30-34) والساحل الفينيقى (e.35-38). وانطلاقًا من هذه النقطة تلقى القراءات العسيرة، وأسماء المواقع الجغرافية المجهولة، بظلال الشك على أى تفسير، ولكننا نصادف بين القيـود (= المداخل)، المعــروفة بصــورة مؤكدة إلى هذا الحد أو ذاك كلاً من "أورشليم" (e.45) و "أكـــو" Acco (e.49) و "شـامخونا" Shamkhuna (e.55) و" لاكيــش" Lakish (e.59) و "بيت – شـمش" Beth-Shemesh (e.60) . على أن المناطق التى تغطيها مـجـمـوعـة تماثيل figurines "بروكسل" هى، بصفة أساسية ذات نفس المناطق التى تغطيها نصوص "برلين"، ولكن السكان مقسّمون هنا ومتميزون خلال مشيخات مستقلة الواحدة عن الأخرى،

كما يبدو أنهم كانوا فى تزايد مستمر. وبالإضافة إلى ذلك فهم موزعون فى مستوطنات قامت للعيان على امتداد الدروب routes التي تربط مصر بالشمال والشرق، وهو نمط مختلف إلى حد ما مما نستطيع ملاحظته فى النصوص الأسبق زمنًا. وتعكس نصوص (مواد material) بروكسل" زيادة فى رقعة الترحال على امتداد محور شمالى- جنوبى، وبالتالى، تعيِّن مواقع مستوطنات دائمة على امتداد ممرات العبور (= الترانزيت).

وتحتوى نصوص اللعن Execration Texts على بعض الأدلة على وجود اقتصاد ومجتمع المشيخات التى تضمها هذه النصوص فى قوائمها. وفى الوقت الذى صيغ فيه قسم التعميم، كشفت الإدارة والوظائف الاجتماعية التى استطاع كاتبها أن يضعها فى قوائم، عن مجتمع صغير بدائى تستند فيه المكانة الاجتماعية للفرد على مدى القرب من شيخ/أمير المشيخة وحجم الثقة التى يوليها إياه[118] ويضعنا استخدام مصطلح "نخت" الذى يعنى: "رجل مفتول. بطل" فى قلب مجتمع "سنوهى" وهو مجتمع قبلى يعتمد على الترحال، تماماً مثلما يفعل مصطلح "كونفدرالية"[119]، وحتى تعبير "العدائين" يستحضر إلى الذهن الوسيلة الأعمق أساسية والأشد بدائية من وسائل المواصلات[120]. ومع ذلك نجد فى نصوص "بروكسل" أن هذه المصطلحات والتعابير منحَّاة، فضلاً عن أن تعبيرين آخرين يردان، بصفة عمومية، حيثما كانت ترد تعابير أخرى فى وقت سابق، وأقصد فى هذا الشأن على وجه التحديد: "الحضريون" و"الحصادون"[121] ومن هنا نجد أن نصوص "بروكسل" لم تشهد على زيادة فى عدد المستوطنات وحسب على امتداد ممرات العبور، ولكنها تشهد أيضاً على نشوء اقتصاد يقوم على الاستقرار (= نقيض الترحال) ويعتمد على الزراعة.

يبدو ألا مهرب أمامنا من التوصل إلى هذه النتيجة الناصعة: تشكل نصوص "مرجيسا" Mirgissa و "برلين" مجموعة مختلفة فى جوهرها عن نصوص " بروكسل"، ولكنها تعكس بصفة أساسية صورة نفس عالم طبقة/حقبة MBI ، تمامًا مثلما تفعل قصة "سنوهى". إلا أن نصوص "بروكسل" تشهد، من جانب آخر، على نمو التجارة على امتداد ممرات العبور (= الترانزيت) الشمالية - الجنوبية، وعلى استقرار السكان المصاحب لذلك وهم السكان الذين أمكن التعرف عليهم أثريًا بصفتهم سكان طبقة/ حقبة MBIIA[122].

الممالك الكبرى فى المشرق:

انهارت إمبراطورية "أور" الكبرى فى جنوب "بابل" Babylonia (نحو ٢٠٥٠-١٩٥٠ق.م.)، تلك الإمبراطورية التى ضمت إلى مناطق نفوذها معظم آسيا الغربية، فى أواسط القرن العشرين ق.م، وعلى أنقاضها نهضت مجموعة من الدويلات العسكرية التى ورثت نفوذها فى المنطقة وكانت الطبقات الحاكمة، بل ومعظم السكان فى هذه الدويلات تتحدث لغة سامية غربية تسمى بصفة عمومية "الأمورية"، ولكن فى الوقت الذى كان فى وسعهم أن يتطلعوا إلى الوراء على مرحلة مبكرة من تطورهم عندما كانوا يعيشون حياة خشنة بدوية فى السهوب السورية (الإستبس)، فإنهم كانوا وقت ذاك وعلى امتداد أجيال عديدة قد تعرضوا لمؤثرات الثقافة الأكدية[١٢٣]. ولكن التركيز التاريخى فى وادى الرافدين (= ميزوبوتاميا) كان منصبًا على دويلات "إيسين" Isin و "لارسا" ,Larsa و "إيشنونا" Eshnunna ، و (فى وقت لاحق) "بابل" فى الجنوب و "مارى" Mari و "خانا" Khana فى أواسط الفرات و "آشور" فى أعالى "دجلة"، وتمثلت العملية التاريخية التى كانت جارية على قدم وساق فى التخريب التدريجى لكل هذه الدويلات خلال النزاع الداخلى الذى استمر حتى الحكم البابلى بحلول سنة ١٧٠٠ ق.م.

وفى فلسطين وسوريا أيضًا كانت التجمعات "الأمورية" على طريق الصعود بحلول منتصف القرن التاسع عشر ق.م. فكانت "يامخد" Yamkhad التى ارتكزت على "حلب" بشمال سوريا فى نظر معاصريها أقوى الممالك "الأمورية" بأسرها. وقد حظيت باحترام كل من "زمرى - ريم" ملك "مارى" و "حمور- ابى" ملك بابل ولقد امتلك أحد ملوكها، وهو"يريم - ليم" أسطولاً ضم خمسمائة سفينة تجارية، جابت ثغور "الفرات" وتدخلت بصورة فعالة فى سياسات وادى الرافدين. ونظرًا لوقوع "يامخد" عبر الطرق التجارية الكبرى، فلقد استطاعت أن تفرض مكوسًا على التجارة القادمة من أعماق الغرب حتى قبرص وبحر "إيجة" إلى أعماق الشرق حتى إيران[١٢٤]. أما "قطنوم" Qatanum التى تمتعت بموقع لا نظير له فى أعالى نهر "العاصى" فى قلب سوريا، وهو موقع يوفر لها فى الوقت نفسه منفذًا على البحر المتوسط خلال وادى نهر "الكبير"، فكانت قوة كبرى إلى الجنوب من "يامخد". ولقد يسر لها موقعها الجغرافى أن تصبح شريكًا وطيد

الصلة بمملكة "مارى" فى أواسط نهر الفرات: فكانتا تقومان بعمليات عسكرية مشتركة بين الحين والآخر، وازدهرت التجارة بينهما وبلغ الأمر حد سوق مواطنى "مارى" لقطعانهم كى ترعى فى سهول "قطنوم"[١٢٥]. وسيطرت "حازور"(= حاصور) على جنوب سوريا وشمال فلسطين من موقعها الفريد فى أعالى وادى الأردن. وأخذت ترسل الرسل إلى "مارى" و "بابل" و" أو جاريت"، وامتدت تجارتها إلى الغرب حتى بلغت بحر "إيجة". وقد يكون فى وسعنا أن نقف على بعض الأهمية التى حازتها عن طريق الحجم النسبى لشحنات القصدير الواردة إليها من "مارى": عشرة ميناس minas إلى مدينة "موزونيم" Muzunnium قرب دمشق و ٣٣ .٨ ميناس إلى "ليش" Laish وسبعين ميناس إلى "حازور". ويبدو أن الجملة التى وردت فى "يشوع" Joshua إصحاح ١١ آية ١٠ وتجرى على هذا النحو ("حازور" كانت تقف فيما مضى على رأس كل تلك الممالك) إنما تنبع من ذكرى أصابها الشحوب للأهمية التى حازها الموقع فى العصر البرونزى الوسيط[١٢٦].

تنبع الصورة التى ترسمها المصادر النصوصية-المكتوبة التى انحدرت إلينا عن "مارى" و "ألالاخ" و "بابل" والمواقع الأخرى المماثلة التى وفرتها الأراشيف، من السجل الأثرى الذى يتسم بالشمول ويثير الإعجاب. فعلى أثر طور MBI بفقره وسكانه المتناثرين من البدو الرحل الذين يعرفون بالمراوغة والمناورة، جاء ميلاد طور ثقافى جديد، لم ينحدر من طور طبقة رقم MBI فالطور رقم MBII يمثل إدخال ثقافة تحتفظ بصلات ملحوظة بالشمال إلى المشرق[١٢٧]. ولعل أبرز السلع هى تلك التى تتمثل فى مجاميع الأوانى الخزفية التى تقف دليلاً على المدى الذى بلغته فنون التجميل والصقل الدقيق التى دخلت على منتجات الدواليب السريعة الدوران. وتشير المقابض المثنية والقواعد المدببة والصلصال الفاخر، كلها، إلى تحرر تام من أسر الماضى. كما تكشف الصور الجانبية الموجودة "الجؤجؤية" الشكل عن نماذج أصلية أو قوالب صب مصنوعة من المعدن[١٢٨]. ويقدم وجود أسلحة متقدمة تعزيزاً للافتراض الذى يذهب إلى حيازتهم لمهارات ما فى عمليات التعدين: البلط - البرونز ذات الحد الأشبه بمنقار البط duckbill وأنصال الرماح ذات التجاويف، والخناجر المضلعة والسيوف المحدبة، كل ذلك يقوم مقام أدلة ساطعة[١٢٩].

وتنعكس الميول الولوعة بالحرب للدويلات التى ورثت الدولة الأمورية، خير ما تنعكس، فى المعمار المدنى لطبقة/حقبة MBIIA و B (لوحة رقم ١٠). وفى سبيل استيعاب زيادة جديدة فى السكان- تشير التقديرات إلى أن سكان فلسطين فى طبقة/حقبة MBIIA بلغوا مائة ألف نفس، وفى طبقة/حقبة MBIIB وصلوا إلى ١٤٠ ألف نفس- اتسعت كردونات المدن وفى طبقة/حقبة MBIIB هذه بدأ عمل التحصينات حولها[١٣٠]. والمستوى الأخير يكشف عن نمطين رئيسيين: فعلى التلال المتراكمة كانت القمم تبنى نحو الخارج عن طريق حشو مصطنع فى الطبقات، أما السطح المنحدر فكان "يُليس" عندئذ أو يزلّط (= يرصف بالزلط أو الحجر)، وفى السفح كان البناؤون يقومون بتكسية معكوسة من الحجر مع بناء مجرور للصرف الصحى. وفى مستوطنات جديدة قامت أحواش مستطيلة واسعة مسوَّرة بمصاطب من الركام تحيط بها خنادق تملأ بالماء. وكانت البوابات ذات الأبراج التى يتخللها العديد من الطاقات على محور واحد تظهر للعيان من مواقع متعددة. وليس فى وسع هذه الاحتياجات الدفاعية الجديدة إلا أن تشير إلى استحداث تكتيكات جديدة فى فنون الحرب فى منطقة ما فى الشرق الأوسط، على أن الزيادة فى استخدام ممرات العبور فى المشرق والسياسات غير المستقرة التى صاحبت ذلك الاستخدام يتطلبان استحداثها فى مستوى طبقة/حقبة MBIIB لفلسطين. ويقترح البعض من وقت لآخر أن استقدام الحصان والحنطور Chariot (= العجلة الحربية) من الشمال والشمال الشرقى وما استتبع ذلك من ثورة فى الأعمال الحربية المتحركة سابقان تاريخيًا لظهور هذا النوع من المعمار الحربى[١٣١]. ولكن الحصان كان لا يزال فى "مارى" Mari فى أواخر القرن الثامن عشر ق.م بمثابة اكتشاف جديد، أما احتمالات استعماله فى ذلك الوقت فأمر لا يزال محل شك، وبينما تشير نصوص "مارى" إلى "أمورية" فى سوريا كمنطقة لتربية الخيول[١٣٢]. إلا أن مدافن الخيول الفعلية كانت نادرة قبل الأسرة الثامنة عشرة[١٣٣]. وهناك عامل حفاز أشد ترجيحًا فى عملية استنباط تكنيكات دفاعية جديدة يتمثل فى "آلة الحصار" التى ظهرت فى أواسط بلاد الرافدين، ووصل بها الحوريون إلى درجة الإتقان بل والكمال. وتقوم شواهد قوية على وجود كل من الآلة الحربية المعروفة باسم "كبش الحرب" Yasibu (ياشبو باللغة الأكدية) وبرج الحصار dimtu (ديمتو)، وإزاءهما يبدو أن المنحدر المائل نهض كوسيلة دفاع لا مفر منها[١٣٤].

وبينما يرسخ عند المرء انطباع واضح الملامح بأن فلسطين وسوريا الجنوبية دخلتا بحلول نهاية مستوى طبقة/حقبة MBIIA ، بصورة نهائية فى نطاق الدويلات الأمورية المولعة بالحرب فى الشمال والشرق، وبالتالى انساقت إلى تبنى موقف أشد عدوانية تجاه مصر، فإن مدينة/دويلة مشرقية واحدة تستثنى نفسها من هذا التعميم، ألا وهى "بيبلوس" التى تمتعت، كما سبق لنا أن رأينا، بعلاقات ودية مع مصر لألف وخمسمائة سنة. وبينما سقط الساحل السورى الشمالى فى أيدى "يامخد" Yamkhad،[١٣٥] ورغم أننا نجد "بيبلوس" ذاتها فى سنة ٢٠٠٠ ق.م على وجه التقريب وقد انضمت إلى مقاطعات الأسرة الثالثة العظيمة فى "أور" Ur[١٣٦]، إلا أن غياب رئيسها بارز فى "نصوص اللعن". لكن الفجوة فى مصادرنا تحول بيننا وبين التعليق على المدينة خلال الشطر الأكبر من حياة الأسرة الثانية عشرة، ولكن بصعود "أمين-ام-حات" الثالث إلى العرش عادت "بيبلوس" إلى دائرة نفوذ (= حظيرة) مصر. ولا تزال سلسلة تضم تسع مقابر منحوتة فى الصخر، تتحفنا بأدوات جنائزية مصنعة، رغم ما عانته من نهب، تفيدنا بنفس عدد حكام المدينة، الذين ينتمون فيما هو واضح إلى نفس العائلة. ولعله مما يبعث على الدهشة أن كل أولئك الحكام التسعة على وجه التقريب اختاروا، فى وقت أو فى آخر أن يحتفلوا بذكراهم خلال التدوين وذلك باستخدام القلم الهيروغليفى الذى انبثق على ضفاف النيل. كما ظهرت أسماء الآلهة المصرية وألقابها فى تلك النقوش الموجزة، وينهض دليل على وجود نوع ما من ترنيمة مصرية، وحتى الجداريات المصرية الطابع، وجدت من الفنيين المحليين من يحاول نحت مثيلاتها[١٣٧]. ولكن الأكثر إثارة تلك الألقاب التى اختار أولئك الحكام أن يطلقوها على وضعهم السياسى: "إيرى راعت" و"حاتى عا" ، التى نترجمها فى العادة إلى "الأمير الوراثى" و"النبيل" وبينما ينطوى اللقب الأول على مؤشر مهذب وإن كان شائعًا لرابطة عمومية تجمع حامله مع نخبة أو صفوة وراثية، فإن اللقب الثانى لقب وظيفى ينطبق على وظيفة غير وراثية يؤديها حاكم ينوب عن الفرعون فى حكم هذه المستوطنة أو تلك. وفى الوقت الذى أنعم المصريون باللقب على حكام "بيبلوس"، كان اللقب فى طريقه، حقًا وصدقًا، لأن يغدو أكبر قليلاً من "عمدة مدينة صغيرة". أكان لزامًا على الحكام البيبليين أولئك، عند ارتقائهم مناصبهم أن يتوجهوا، كل على حدة، إلى بلاط الفرعون كى يجتازوا إجراءات رسمية لإضفاء هذا اللقب عليهم؟ أم أنهم لم يفعلوا سوى استعارة المصطلح - اللقب بصفته أقرب مقابل للقب محلى؟

مع حاكم "بيبلوس" المعروف باسم "أنتين" Antin نكون قد وصلنا إلى مرحلة جديدة فى تاريخ المدينة. إذ يشير لقب" حاكم الحكام" الذى حمله.(بالهيروغليفية) إلى مكانة مرموقة، ترد بإسهاب فى أرشيفات "مارى" حيث يرد أيضًا ذكره، أى ذكر هذا الحاكم[١٣٨]. والمقابر من ٦ حتى ٩ فى الجبانة الملكية، التى أعقبت ازدهاره أى ازدهار"أنتين"، وهى تقع بين أكبر وأفضل هذه المجموعة من المقابر تجهيزًا[١٣٩] فإذا افترضنا أنها تغطى عددًا مساويًا من الأجيال التى يتراوح الجيل منها بين عشرين وخمس وعشرين سنة، تبدأ فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ق.م، فإننا نكون قد انحدرنا إلى منتصف القرن السابع عشر ق.م. إذا كان لنا أن نصل إلى ختام هذه السلسلة المتصلة. ويأتينا نص (هيروغليفى) منقوش على جرة من إحدى المقابر المتأخرة، وهو أمر ينطوى على أهمية نسبية يقول: "حاكم أجنبى" (="حقا-خاسوت")[١٤٠] وهذا لقب سوف نألفه عما قريب.

الهوامش

(١) D.B.Redford,Pharaonic King-lists,Annals and Day-books (Toronto,1986),15; termed Montuhotep IV by Von Beckerah:LdA 4 (1982),69-70.

(٢) J.Couyat and P. Montet,Les inscriptions hiéroglyphiques et hiératiques de Ouadi Hammamat (Cairo,1912),no.110.

(٣) Ibid,no. 191.

(٤) Ibid,79-81 (no.113).

(٥) Ibid,no.1.

(٦) A.Fakhry, The Inscriptions of the Amethyst Quarries at Wadi el-Hudi (Cairo, 1952),19ff. (figs.14-17).

(٧) R.Anthes, Die Felseninschriften von Hatnub (Leipzig,1929).nos.16-26.

(٨) ارتفعت حرارة النقاش فى الماضى حول التاريخ الدقيق لكل من "نهرى وكاى"، ولكن الحقيقة أن الثابت على وجه التقريب أنه يتعين علينا أن نضع تاريخ ازدهارهما قبيل صعود الفرعون "أمين- إم-حات" الأول، انظر المناقشات البارزة التى شارك فيها كل من:

R.Anthes,ZAS 59 (1924),100-108; R.O.Faulkner, JEA 30 (1944),61-63; E.Blumenthal, Altorientalische Forschungen 4(1976),35-62; W.K.Simpson,LdA 2 (1977),1043-45; and specially H.O.Willems, JEOL 28 (1985),80-102.

(٩) Anthes,Felseninschriften,no.20.

(١٠) Ibid.,no.25:6-12.

(١١) Ibid., no.24:2ff.

(١٢) Ibid., no.16:4-8.

(١٣) See W.Helck,Der Text "Lehre Amenemhets 1 für seiner Sohn" (Wiesbaden, 1969); Lichtheim,Ancient Egyptian Literature (Berkeley,Calif.1976),1: 135-39.

(١٤) Helck,Text,68-78.

(١٥) For the last expession see the literature in Ibid,79,n.a.

(١٦) W.A. Ward, Egypt and the East Mediterranean World 2200-1900 B.C. (Beirut,1971),67.

(١٧) P.E.Newberry,Beni Hassan (London,1893),1:pl.44;Urk VII,12; J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago,1906),1:sec.465.

(١٨) W.A.Ward,Index of Egyptian Administration and Religious Titles of the Middle Kingdom (Beirut,1982),66.His reading I{met} (JEA 55 {1969}, 215-16) is wrong; the text has Sm3w,"Southland".

على أن قراءته "met" خاطئة ففى النص كلمة "شماؤ" التى تعنى "أرض الجنوب".

(١٩) See W.K.Simpson, LdA 5 (1984),890-99.

(٢٠) W.K.Simpson,LdA 5 (1984,898,n.15;W.Helck, in Agypten,Dauer und Wandel (Mainz,1985),45-52;D.B.Redford,JSSEA 17(1987),36-55.

(٢١) W.Schenkel,MDAIK 31 (1975),pl.33(a);W.Helck,MDAIK 34(1978),69ff.

(٢٢) Sinuhi B.223.

(٢٣) JPOS 15 (1935),221.

وبطبيعة الحال كان "أولبرايت" حريصًا على أن "يبرز الحقيقة التى تقول إن التنظيم الإمبراطورى للإمبراطورية الوسيطة كان بكل تأكيد مفككًا للغاية بالمقارنة مع ممارسات الإمبراطورية الحديثة..."

(٢٤) BASOR 155 (1959), 33.

(٢٥) Cf.his views on MB 1 Meggiddo as an Egyptian fortress:BASOR 168 (1962), 39.

(٢٦) J.M.Weinstein,BASOR 217 (1975),1-16.

(٢٧) W.Helck,UF 8 (1976),101-14.

(٢٨) See now J.Baines in M.Görg,ed,Form und Mass (Wiesbaden,1987),43-61.

(٢٩) Sinuhi B71-72.

(٣٠) A.H.Gardiner and J.Cerny The Inscriptions of Sinai (Oxford,1952),no.64(pl.19).

(٣١) E.Blumental, Untersuchungen zum ägyptischen Königtum des mittleren Reiches (Berlin,1970),1:229.

(٣٢) Cairo 20593 verses 10-11.

(٣٣) J.J.Jansen,Ar Or 20(1952),442-45;D.Dunham, Second Cataract Forts, vol.1: Semna - Kummeh (Boston,1960),59,pl.90,fig.4(2).

(٣٤) D.Wildung, MDAIK 37(1981),506,fig.2.

(٣٥) K.Sethe,Ägyptische Lesestücke (Leipzig,1928),82,lines 12-15.

(٣٦) Couyat and Montet,Inscriptions,48,no.43,pl.13.

(٣٧) Gardiner and Cerny,Sinai,p.18,no.54.

(٣٨) A.M.Blackman,The Rock Tombs of Meir (London,1915) pl.4.

(٣٩) MDt,literally "word, discource"

كلمة:"مدت" بالمصرية القديمة تعنى "نطق. لفظ. حديث" وحول هذا الشكل الأدبى انظر:

G.Posener,RdE 6(1951),46-47.

(٤٠) G.Posener,MDAIK 25 (1969),101ff.

(٤١) L.Borchardt,ZÄS 37(1900),98.

(٤٢) W.Wreszinki, Aegytische Inschiften aus dem Königliche Hofmusem in Wein (Leipzig, 1906), 27, no.32.

(٤٣) W.C. Hayes, A Papyrus of the Late Middle Kingdom in The Brooklyn Museum (Brooklyn,1955). 87-109; W. F. Albright, JAOS 74(1954), 222-32.

(٤٤) S. Farag, RdE 32 (1980),75ff.

(٤٥) On daybooks, see D.B. Redford, LdÄ 6 (1986), 151-53; idem, King-lists.

ويوازى النقش الحالى على وجه التحديد فى الأهمية دفتر يومية: بلاغ لقصر الفرعون "أمين – إم – حات الثانى وصرف السلع وتقسيم الغنائم ومستلزمات العبادة على مراكز عبادات الأسلاف وتوزيع المكافآت وتفقد رجال البلاط ... إلخ.

(٤٦) Kheperkare.

(٤٧) للتعرف على أسماء – الأماكن فى النص، انظر:

W,Helck,GM 109 (1989),27-30.Iw³s is New Kingdom Alse (E.Edel,Orientalia 48 [1979], 82-85);I³sy seems to be Alashiya (Cyprus); for Tmp³w cf.Ibr at Ugarit (C. Gordon, Ugaritic Handbook [Rome,1956],no.2643).

(٤٨) المدخل (القيد) العام للأسلحة التي سيرد ذكرها فيما يلي.مفردات مصنعة من المعدن ومزودة بمقابض من الخشب وذاك هو المقصود.

(٤٩) المقصود حرفيًا هو "أدوات حصاد" كما يوضح لنا المخصص.

(٥٠) حول "تل الضبعة" فى فترة الانتقال الأولى انظر:

M.Bietak, Avaris and Pi-Ramesse (London,1981), 290.

وحول "دوار طرق "أختوى" انظر: H.Kees MDAIK 18 (1962) 9.

وحول بناء وتعمير البلدة الحدودية المحصنة الواقعة عند "عزبة رشدى" بالسكان على عهد الفرعون "أمين – إم – حات" الأول انظر: S.Adam ASAE 56(1959),213-14.

كانت "تل الرتابة" فى "وادى طوميلات" محصنة بالفعل، كما هو واضح، خلال الأسرة العاشرة.
وحول وزن حجر اليشب الخاص بـ"نيب–كاو–أختوى" انظر:

W.M.F.Petrie,Hyksos and Israelite Cities (Lndon,1928),32,p.32A.

(٥١) Mentioned in Neferty 9 W. Helck, Die Prophezeihung des Nfr. tj [Wiesbaden, 1970],56) and Sinuhe B 16,

يمكننا أن نتعرف عليها فى "تل الرتابة"، انظر:

(F.Gomaa,Die Besiedlung Ägyptens wwarhend des Mittleren Reiches [Wiesbaden,1987),2:129-30.

(٥٢) On the "Ways of Horus," see Gomàa, Besiedlung, 224-25.

(٥٣) Sinhue B 242.

(٥٤) Smnlyw : see H.G. Fischer, GM 84(1975), 25ff.; K.J.Seyfried, GM 20 (1976), 45ff.; the epithet is taken from the Tod texts of Senwosert I.

وهذا اللقب مأخوذ من نصوص "تود": Tod التى ترجع إلى الفرعون "سنوسرت" الأول.

(٥٥) Couyat and Montet, inscriptions, 48.pl. 5,no.17;pl. 13, no. 43; Gardiner and Cerny, Sinai, pl. 18, no.54; pl. 22, no.88.

(٥٦) Cairo 20278 (smsw, a "retainer"); Gardiner and Cerny, Sinai, pl. 36, no. 118 (a Treasurer).

(٥٧) Ibid., pl. 51, no. 140.

(٥٨) Ibid., pl. 18, no. 54.

(٥٩) Ibid., pl. 85, no. 405.

(٦٠) Ibid., pl. 18 no. 51; cf. pl. 22, no. 101 A.

(٦١) R. Giveon, Tel Aviv 7 (1980), 179ff.

(٦٢) R. Dunand, Les fouilles de Byblos (Paris, 1939), 1:no. 3594 (pl. 129, p. 246).

(٦٣) Cairo 20086.

(٦٤) حول "إلبا": Elba انظر:

G.S.Matthiae,Studi eblaiti 1 (1979),119ff;G.Matthiae,Antike Welt 13(1982),14ff, (Hetep-ib-ra); For Ugarit see W.A.Ward, Orientalia 30(1961),130(Senusert-onkh);P-MVII,395 (Amenemhet III);For Qatanum,see P-MVII,392 (Amenemhet II's daughter);For Ba'albek,see J.Von Beckerath ,Unterschungen zur politischen Geschichte der zweiten Zwischenzeit in Ägypten (Glückstadt,1965),250 (Sobekkhotpe VI);For Byblos,P.Montet,Byblos et L'Egypte (Paris,1929) no. 610,611,614(Amenemhet III and IV); For Beirut,see BMQ 2 (1937),87pl 58a (Amenemhet IV).

(٦٥) W. Helck, UF 8 (1976), 101ff.

(٦٦) B 175-76: "Then His Majesty sent to me with presents from the King, that he might gladden the heart of yours truly, like the ruler of any foreign land."

ثم أرسل إليّ جلالته بالهدايا من جلالة الملك حتى يبهج صميم فؤادك، تماماً مثل أى حاكم لبلد أجنبى".

(٦٧) Sinuhe B 94-95.

(٦٨) Blumenthal, Untersuchungen, 199.

(٦٩) W.Helck,Die Lehre des Dw3 -Htjj (Wiesbaden,1970),2:xvia.

(٧٠) بصفة عامة للاطلاع على مناقشات أقدم انظر بين آخرين:

K.Kenyon,CAH 1(1971),chap.21;J.Van Seters,The Hyksos,A New Investigation (New Haven,Conn.,1966),9ff.;also the notes that follow.

(٧١) W.Dever,BASOR 210(1973),58ff.;S.Richard, BASOR 237 (1980), 22;W. Dever ,BASOR 237(1980),36,38-39;idem.in Biblical Archaeology Today (Jerusalem,1985),123,127.

(٧٢) B.Mazar,IEJ 18(1968),68,n.7:Dever,BASOR 237 (1980),48-49;T.L. Thompson, The Settlement of Sinai and the Negeb in the Bronze Age (Tübingen,1975),20.

(٧٣) Dever,in Biblical Archaeology Today, 1117ff.;see also Basor 237(1980),57-58;L.K.Horwitz,BASOR 275(1989),15-25.

(٧٤) K.M.Kenyon,Archaeology in the Holy Land (New York,1979),121-36;S. Gittin,Erets Israel 12 (1975),46ff.;W.Dever,Erets Israel 15 (1981),22ff.

(٧٥) R.Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land (New York,1970),80-89.

(٧٦) حول رسوم "بني حسن" انظر:

Newberry,Beni Hassan,1:pls.28,30-31;D.Kessler,SAK 14 (1987),147-66.

(٧٧) W. Dever and H. Tadmor, IEJ 26 (1976) 163ff.; Dever,in Biblical Archaeology Today,117.

(٧٨) Translated ANET , 18-22;Lichtheim,Literature,1:222-35;see in particular A.F. Rainey, The World of Sinuhi, Israel Oriental Studies 2 (Jerusalem,1973), 368 ff.R.Parent, L'Affaire Sinouhe (Paris,1982).

(٧٩) يبدو أنه إقليم "البحيرات المرة".

(٨٠) ربما تكون "ميتين" Mtn تعني: الدليل الذي يقود الآخرين عبر معالم الطريق.

(٨١) يكشف النص عن بعض معالم نقش موسع على "صادود/لوح أو تقـرير بيوجـرافي. ويبين أكثر المعالجات لقصة "سنوهي" حداثة انظر:

J.Assmann,in M.Görg,ed.,Fontes ataque Pontes (Wiesbaden, 1983), 18ff.; J.Baines, JEA 68 (1982),27ff.;P.Derchain,RdE 22(1970),79ff.;idem,GM 87 (1985), 7ff.;G.Fecht,in F.Junge,ed.,Studien zu Sprache und Religion Ägyptens (Göttingen,1984), 465ff . ,J. Foster, JSSEA 12 (1982), 881ff.; H.Goedicke,J ARCE 21(1984),197ff.; idem,RdE 35 (1984), 95ff.; A.Herrmann,OLZ 48 (1953),101ff.

(٨٢) For stockades,see Sinuhe B 115,146,201;for tents see B. 110,145.

(٨٣) Sinuhe B 103,144,147,240.

(٨٤) Cf.Sinuhe B 102.

(٨٥) Sinuhe B 87-92.

(٨٦) Sinuhe B 241;Thompson,Settlement, 64.

(٨٧) Sinuhe B. 89-91.

(٨٨) Sinuhe B 198.

(٨٩) Sinuhe B 92-94,200.

(٩٠) Sinuhe B 93-94.

(٩١) Sinuhe B 127-28,135,140.

(٩٢) Sinuhe B 121-22.

(٩٣) See n. 76.

(٩٤) لقد قدموا في حقيقة الأمر من "شوتو" Shutu التي عوملت كـ "شيث" التوراتية التي وردت في سفر العدد ٢٤: ١٧ وانظر:

S.Ahituv, Canaanite Toponyms in Ancient Egyptian Documents (Leiden, 1984), 184.

(٩٥) S.Schott and K.Sethe,ZÄS 63 (1928),101-3;L.Borchardt,ZÄS 64 (1929), 12-13;

وإلى جانب الأعمال المذكورة في الهوامش التي ستلي رأسًا انظر حول نصوص اللعن:

W.F.Albright, BASOR 184 (1966), 26-35;A.Alt,Kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel (Munich,1959), 3:49-71;A.Goetze, BASOR 151 (1958),28-33; H.B. Huffmon, Amorite Personal Names in the Mari Texts (Baltimore,(1965); W.L.Moran, Orietalia 26 (1957), 339-45; G.Posener,LdÄ 1 (1972), idem,in Studien zu Sprache und Religion Ägyptens,1:613-18; J.Vercoutter, CRAIBI. (1963), 97-102; S.Yeivin.Antiqot 2 (1959), 155ff.

(٩٦) J.Leclant, RdE 21 (1969), 55-62; M.Verner,RdE 36 (1985),145-52; A.M. Abubakr and J.Osing,MDAIK 29 (1973),97-113.

(٩٧) G.Posener, Cinq figurines d'envoûtement (Cairo,1987),16;

وللاطلاع على قائمة ملائمة لمثل هذه النصوص التي يعرفها المؤلف انظر صفحات من ٢ حتى ٦

(٩٨) J.Vercoutter,CRAIBI.(1963),97-102; G.Posener,Syria 43 (1966),277-87;

لما كان حصن "ميرجيسا": Mirgissa قد بني في وقت لا يسبق صعود الفرعون "أمين – إم – حات" الثاني إلى سدة الحكم، فإن هذه النصوص تستطيع على وجه التقريب أن ترجع إلى ما قبل الربع الثاني من القرن التاسع عشر، بل و يمكن أن تعود إلى الوراء إلى مطلع عهد الفرعون "سنوسرت" الثالث:

K.Zibelius,LdÄ 4 (1982),144-45.

(٩٩) K. Sethe, Die Achtung feindlicher Fürsten, Volker und Dinge auf altägyptischen Tongefasscherben (Berlin,1926);

وللاطلاع على ملخص واف حول هذه المناقشة الجارية حول التاريخ والتفسير، انظر:

T.L.Thompson, The Historicity of the Patriarial Narrative (Berlin,!974); 98-113.

(١٠٠) G. Posener Princes et pays d'Asie et de Nubie (Brussels,1940).

(١٠١) تهدف إلى أن تغطي، إلى هذا الحد أو ذاك نفس الأماكن كما هو الحال في القسم A.

(١٠٢) لما كانت تنتج إلى هذا الحد أو ذاك النموذج: Vorlage القياسى و ليست بالتالى "جارية فى الاستعمال" و لكنها عبارات مقولبة : catchall، فهى تفقد كل قيمة كانت لتحوزها لأى حجة تدعو لاستخدام محتوى أقسام "التعميم" فى الإيحاء بوجود فجوات و عدم انضباط فى القائمة الخاصة: A.

(Thompson, Historicity, 116). Brussels e.64 lists "All the Chiefs of 'Anaqi

(كل رؤساء "عنقى")، وذلك لأن نمط هذا القسم كان، ببساطة، يتطلبها - وهى موجودة بالفعل فى "ميرجيسا" فى E.6 وينبغى أن يفهم من ذلك أن المصريين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت عن وجود رؤساء أكثر عدداً للمطرح، مع أنهم لم يذكروا فى القائمة رقم E.36 سوى رئيس واحد فرد.

(١٠٣) قد يعنى هذا أن المصريين الذين وردت أسماؤهم بين المتمردين المحتملين لم يكونوا موجودين داخل مصر بل فى الخارج.و تضم قصة "سنوهى" بطبيعة الحال و سائر النصوص التى ترجع إلى الملكة الوسيطة شاهدا فصيحا على انتشار ظاهرة النفى. و النصوص التى تعود إلى مصطبة سين - وسرت - عنخ فى "ليشت" التى اعتزم نشرها الراحل جى. بوزنر"، فى

C.Hoelzl, The South Cemetray at Lisht. The Mastaba of Senwosret-ankh (forthcoming)

(على وشك الصدور) يبدو أنها تستهدف المصريين بالدرجة الأولى باللعن، ولكن الألقاب نادرة، كما أن النصوص لا تذكر شيئا عن أماكن الضحايا ولو بالتقريب. أيمكن أن يكونوا هاربين؟

(١٠٤) من ثم جاء إدراج "كل الكلمات الشريرة وكل حديث شرير وكل تعويذة شريرة وكل مفهوم شرير وكل مؤامرة شريرة وكل صراع شرير وكل زمجرة شريرة وكل خطة شريرة وكل شيء شرير وكل حلم شرير وكل إغفاءة شريرة." ويرى "تومبسون" فى كتابه (Historicity,114) أن هذه النصوص إنما تعكس الهموم التى يحملها المصريون بشأن فلسطين عوضا عن تقديم وصف موضوعى شامل لفلسطين بحد ذاتها"، وهذا الرأى ينطوى على نصف الحقيقة : "هذه الهموم" تحمل طبيعة من ذلك النوع الذى يجعل القائمة تقترب، فى مجملها، من حد الشمول. أما الثغرات هنا وهناك فيمكننا فى حقيقة الأمر أن نجد لها، فى معظم الأحوال، تفسيراً أو آخر: فالرؤساء الأجانب، على سبيل المثال، قد يكونون لا معيب عليهم، الأمر الذى يختلف عن جيوبهم القبلية (مثلا: بيبلوس).

(١٠٥) Contra Thompson, Historicity, 107. Note how orthography Keeps pace with the times, e.g. in the spelling of Kush :Posener, Cing figrines, 23; idem, Princes, 48.

(١٠٦) من بين التفسيرات المطروحة نجد تفسير "ألت": Alt (ZDPV 64 {1941}, 37) وهو التفسير الذى يذهب إلى وجود تقسيمات إقليمية فى نصوص "بروكسل"، و هى التفسيرات التى لم تلاحظها نصوص "برلين"، وهذا التفسير لا ينطوى على جاذبية خاصة كما يبدو عليه عند النظرة الأولى. حقا تميز نصوص "بروكسل" أحيانا (رغم أن ذلك لا يحدث فى غالب الأحيان كما تقضى الفرضية) بين "العليا" و "السفلى" و "الشمالية" و "الجنوبية"، إلا أن هذه مصطلحات مصطنعة - ولنلاحظ انعدام وجود صفات من قبيل "شرقية و "غربية - جرى إدراجها لتفسير قوائم متعددة.

(١٠٧) Josh. 15:43; on the identification see S. Yeivin, Eretez Israel 4 (1953), 37; note that this place-name is also found on a seal of the second Intermediate Period : G. Martin, Egyptian Administrative and Private Name Seals (Oxford 1971), pl. 27:25 (306).

(١٠٨) For a résumé of the problem, see Thompson, Historicity.

(١٠٩) قورنت "عنقى" بحق مع "عنقيم" الواردة فى "التوراة":

Koehler Baugartner, 3:813 (references);

ومن المرجح أنها تقع على امتداد الساحل الجنوبى من "غزة" حتى "أشدود"، انظر:

(Alt, Kleine Schriften, 3:52).

وحذف حرف "العين" فى بعض الأحيان يرجع إلى ضعف صوت "العين" فى اللغة المصرية بصورة أكبر من حالة هذا الحرف الحنجرى فى اللغة الكنعانية. ويمكننا أن نساوى بين "مجر": Mgr على نحو قابل للتصديق و بين الكلمة التى تعرفها اللغة الغربية السامية للدلالة على كلمة "كهف".

(١١٠) قورنت "صابة" مع اسم مكان جرى التعرف عليه بعد ذلك بألف سنة جنوبى "غزة" أى "أصابة": Alt, Kleine Schriften, 3:52,n.3 .

وعلى نحو مؤكد لا يتصل اسم المكان هذا و لا اسم "يسب - ار" Ysp-^{3}r الذى تعرفه المملكة الحديثة بما ورد فى قصة "يوسف" التوراتية من قريب أو بعيد، انظر:

R.Weill, Journal Asiatique (1937),37-38, 54-55; O.S.Wintermute, 2:981.

(١١١) Ahtiuv, Canaanite Toponyms, 146.

(١١٢) استعمال ورقة البوص الثلاثية كان معروفًا بالفعل فى رسم الصائت المزدوج "aye" فى اللغة المصرية القديمة، انظر: عبد المنعم أبو بكر و :

J.Osing, MDAIK 29 (1971),107, 109;

وحول "الجزر والسواحل" الكنعانية انظر:

Koehler-Baugartner,1:37; Z.Harris, A Grammar of Phoenician (New Haven, Conn., 1936), 76;R.S.Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Languages(Missoula,Mont.,1978),12-13;

ولقد زعم البعض وقوعها ضمن أسماء-أماكن "إيلا" (أى I-ya-pu) "سواحل "يافا":

M.Dahood,in G.Pettinato, The Archives of Ebla.New York,1981)

إلا أن هذا الزعم يظل عرضة للشك.

(١١٣) Cf. Num. 33:22. (قارن سفر "العدد ٣٣:٢٢).

(١١٤) Sinuhe B 25-26, cf. 73-75; Redford, King-lists, 108.

(١١٥) يمكننا على نحو قابل للتصديق أن نؤول فى نصوص "بروكسل" ما لا يقل عن ١٤ اسما من الأسماء التى وردت فيها كأقاليم أو تضاريس طوبوجرافية.

(١١٦) E. 50-51: W. Albright, BASOR 83 (1941), 34,n.8.

(١١٧) E.616-4, F.2; or the mountainous hinterland, reached only from the coast.

(١١٨) هذا هو الاستنتاج التى نخلص إليه من استعمال كلمة: mhnk أى "التابع الأمين"، انظر:
D.Meeks,Année Lexicographique (Paris,1982), 3:129.

(١١٩) Sinhue B 109-14.

(١٢٠) In foreign parts even Pharaoh had recourse to "runners" see p.82 above.

(١٢١) ح ز- س م (بمعنى قاطعو العشب) قارن فى اللغة الأكادية: hussusu بمعنى "يكسر ويقطع" و sammu بمعنى "عشب"، انظر:

CAD,4:131;

وهذا الجذر منحدر أيضا فى اللغة المصرية (القديمة) قارن "حز" بمعنى يقتل باستخدام "سكينة" أى "يذبح" و "حزاو" أحد أنواع النباتات إلخ انظر:

Wb III;D.Meeks, Année lexicographique (Paris,1982).3:224.

(١٢٢) عرفت الحقبة رقم MB IIA ، خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة تبكيرا فى التأريخ، بما لا نستطيع وصفه بأقل من مذهل، كى تبدأ حوالى ٢٠٠٠ ق.م.، وهو الأمر الذى أصبح مقبولاً الآن بصفته ركنا إيمانيا أو يكاد، انظر:

W.G.Dever,in J.A.Sanders,ed.,Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century (New York,1970),132-63;idem in F.M.Cross,ed.,Magnalia Dei: The Mighty Acts of God (New York,1976),3-38;P.Gertenblith, The Levant at the Beginning of the Middle Bronze Age (Winona Lake,Ind.,1983),101ff.;

ومع ذلك ترتكز الحجة بأكملها على التأريخ "المتوسط" الذى يقتضى رفعا للتواريخ بما يزيد على نصف قرن، وهو أمر غير مقبول استنادا إلى الأدلة المستقاة من مصر. و ينبغى من واقع فحصنا لهذه الأدلة التى توفرها مصر أن يكون واضحا أن ثقافة الحقبة رقم MBI (إذا ما استعملنا المصطلح القديم) تلك الثقافة التى تفتقر إلى الاعتماد على الاستقرار، ظلت الأدلة تترى على وجودها طوال القرن العشرين دع عنك القرن التاسع عشر. ولكن هذا ليس المجال الذى نستطيع خلاله مواصلة النقاش فى الموضوع.

(١٢٣) حول مشاكل المصطلح وتعيين الهويات التى تنشأ نتيجة لإطلاق اسم MAR.Tu (Amurru) على الساميين الشماليين - الغربيين، انظر:

I.J.Gelb,JCS 15 (1961),29;Thompson,Historicity,68ff.;Gerstenblith,Levant,123ff.;

وسواء أكان الحكام الوراثيون من الأموريين قد تحولوا كى يصبحوا أكديى الطابع Akkadianized: أم لا فإنهم قد مروا بكل تأكيد، بتجربة "الارتفاع إلى سدة الحكم". وحول جذور "لارسا": Larsa ، على سبيل المثال، بصفتها قبيلة و مشيخة أمورية سالفة، انظر:
M.B. Rowton, JNES 32 (1973), 214.

(١٢٤) In general on Yamkhad, see H. Klengel, Geschichte Syriens (Berlin, 1965), 1:102ff.; (Berlin 1970), 3:142ff.; for the famous letter from Ibalpiel to Zimri-lim, see G. Dossin, Syria 19 (1938), 117; for Yarim-lim's fleet, see G, Dossin, Syria 33 (1956) 63ff.; on its trade, see J.-R. Kupper, CAH[3] II, pt.1 (1973), 18-19.

(١٢٥) Klengel, Geschichte Syriens, 2:98ff.

(١٢٦) On Hazor, see A. Malamat, JBL 79 (19600, 12-19; idem, in Sandars, Near Eastern Archaeology, 164-77; idem, IEJ 21 (1971)31-38; idem, in M. Liebeau and P. Talon, ed., Reflets des deux fleuves (Louvain, 1989), 17-18; H. Limet, Archives royales de Mari (Paris, 1986), 25: no.43.

(١٢٧) Cf. B.Mazar, I EJ 18 (1968), 69FF.; R. Amiran, Anadolus 12 (1968),559-62; there is no reason however, to postulate an invasion from the north (Van Seters, The Hyksos, 32, 38ff.) or even "considerable population movements" (W.Ward, UF 8 [1976], 353). The role played by trade and transit corridors is itself considerable: Gerstenblith, The Levant , 109ff.

(١٢٨) Amiran, Pottery, pls. 25.27,33,35; Kenyon, Archaeology, 163f., figs.36,37; Gerstenblith, The Levant, chaps. 4-5.

(١٢٩) Gerstenblith, The Levant, 89-100.

(١٣٠) حول تقدير تعداد السكان انظر:

M.Broshi and R.Gophna, BASOR 261 (1986),73-90.

(١٣١) حول جلب الحصان و العربة الحربية إلى الشرق الأدنى، انظر:

M.Littauer and J.H.Crouwel, Wheeled Vechicles and Ridden Animals in the Ancient Near East (Leiden,1979);R.Drews, The Coming of the Greeks (Princeton, N.J.,1988), 74-93;

وحول الحصان فى مصر، انظر:

J.Lecland,Syria 37 (1960),17-18;L.Storock.LdÄ 4 (1982),1009-13.

(١٣٢) B. Landsberger, JCS 8 (1954), 56; Gelb, JCS 15 (1961), 41 ff.

(١٣٣) يتحدى دفن الحصان فى "بوهين" (J.Lecland ,Orientalia 31(1962)127) أى تأريخ من جراء أساليب التنقيب التى استخدمت فى الموقع، انظر: (Drews,The Greeks,102-3)

أما أن يكون هناك دليل غير مباشر على وجود العجلة الحربية عند بدء حكم الهكسوس فى مصر: (so.W. Helck,J nes 37 (1978), 337-40).

فهذا أمر لا يزال مطروحًا على بساط البحث.

(١٣٤) Y.Yadin, BASOR 137 (1955), 23ff.; P.Parr, ZDPV 84 (1968), 18ff.; G.R.H. Wright, ZDPV 84 (1968) 1ff.; for the appearance of these engines in Mesopotamia, see Kupper, CAH^3 II, pt. 1 (1973), 5; A. Goetze, Iraq 25 (1963), 128.

(١٣٥) "أوجاريت" بصفتها تابعة لـ "يامخد"، انظر:

F.M.Tocci,La siria nell'eta di Mari (Rome,1960).69ff.

(١٣٦) E.Sollbereger, AFO 19 (1960), 120ff.; A. Malamat, in Assyriological Studies in Honor of Benno Landsberger (Chicago, 1965), 373, n.43.

(١٣٧) حول المقابر الملكية فى "بيبلوس" انظر:

P.Montet, Monuments Piot 27 (1924),1-29; idem,Byblos et L'Egypte,146ff.; On the Byblian dynasty oh the Period,see K.A.Kitchen,Orientalia 36 (1967), 39-54,W. Helck, Die Benziehungen Ägyptens zur Vorderasien[2] (Wiesbaden,1972), 63-67, on epithets, see Montet, Kêmi 16 (1962), 95-96;17(1964), 62ff.

(١٣٨) Montet, Kêmi 16 (1962), 96, fig. 6; W.F.Albright, BASOR 99 (1945), 10-18.

(١٣٩) Montet, Byblos et L' Egypte , 205ff.

(١٤٠) Ibid., 208, no. 826.

الفصل الخامس

الهكسوس في مصر

"توتيمايوس" Tutimaeus. خلال حكمه، ولسبب ما لا أعرف عنه شيئًا، حلت بنا صاعقة إلهية، فعلى حين غرة زحف غزاة من جهة الشرق ينحدرون من أصول عرقية يكتنفها الغموض، وكلهم ثقة في إحراز النصر ضد بلادنا. واستطاعوا اعتمادًا على إعمال أقصى درجات الجبروت، التفوق بسهولة كبيرة، على حكام البلاد، فأضرموا النيران دون رحمة، في مدننا، وسهدموا معابد الآلهة، وعاملوا كافة الأهالي، أبناء مصر بعدوانية وقسوة، حيث ساقوا بعضهم إلى المذابح وقادوا زوجات وأطفال البعض الآخر إلى أسواق العبودية. وفي نهاية المطاف نصبوا أحد عناصرهم في منصب ملك مصر باسم "ساليتيس" Salitis. وقد اتخذ هذا الملك الأجنبي مقر عرشه في "منف"، حيث شرع في جباية الجزية من الوجهين القبلي والبحري، وفي إقامة الحاميات العسكرية وراءه حيثما حل، في أكثر المواقع تميُّزًا. وعلاوة على كل ذلك قام بتحصين شرق البلاد، فلقد تكهن بأن الآشوريين، الذين أخذوا يكتسبون مزيدًا من القوة والمنعة، سوف تستبد بهم الشهوة ذات يوم ويهاجمون "مملكته".

ولقد أسس في مديرية "صايس" مدينة اختار لها موقعًا ممتازًا للغاية شرقي الفرع البوباسطي Bubastis لنهر النيل وأطلق عليها اسم "أباريس" (= أواريس Avaris) نسبة إلى تقليد ديني قديم. نفي هذا المطرح أعاد بناء الأسوار الضخمة وحصّنها، ونصب هناك حامية بلغ قوامها أكثر من ٢٤٠ ألف جندي مدججين بالسلاح كي يحموا حدوده. وأخذ يذهب إلى هناك كل صيف كي يدفع بالجرايات إلى الجنود من ناحية ويدفع إليهم رواتبهم ومن ناحية أخرى كي يدربهم بعناية فائقة على أعمال المناورات حتى يلقوا بالرعب في أفئدة القبائل الأجنبية.

"مانيتو"(*) "إيجيبتياكا" فقرة رقم ١٤٢-٧٥-٧٩-٢

هكذا تكلم المؤرخ المصرى الذى عاش فى القرن الثالث ق.م (وكتب تاريخه باللغة اليونانية) فى فقرة نجت لحسن الحظ من الضياع بعد أن استشهد بها بتوسع In extenso "فلافيوس يوسيفوس" فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد. وكان "يوسيفوس" هذا يضمر غرضًا شخصيًا فى رده على الكاتب المصرى "أبيون" Apion المناهض لليهود، ولكن يبدو، مع ذلك، أنه أورد نص "مانيتو" بأمانة كاملة. ولعل قدراً من الغموض قد نتج من استخدام كلمة obscure (= مبهم) فى ترجمة الكلمة اليونانية: ἀσηποι التى ارتبطت بالعنصر الأجنبى الذى يجرى الآن وصف الغزو الذى قام به لمصر كما نتج أيضًا عن استخدام "مانيتو" لمصطلح "هكسوس" الذى يبدو على وجه الاحتمال، وكأنه يشير إلى مفهوم عرقى gentilic وهو الأمر الذى قاد إلى البحث فى وجود "عرق" غامض برز بصورة مفاجئة على الأفق المصرى ثم اختفى تماماً بعد ذلك بقرن واحد.

ناس ينتمون إلى عرق خسيس:

إلا أن الاجتهادات فى هذا الصدد شرعت تترى منذ العصور الكلاسيكية ذاتها. إذ يشير "يوسيفوس" إلى أن البعض يطلق عليهم اسم "العرب"، وهذا قول ليس عصياً على التفسير كما كان المظنون من قبل. فالاسم مشتق وحسب من الاستخدام المستمر لـ"بلاد العرب" أى الـ East عند الكتاب الكلاسيكيين للدلالة على الأقاليم الأكثر قرباً للحدود "الشرقية"، تلك التى كانت معروفة خلال العصور الفرعونية بصفة عمومية باسم "البلدان الشمالية" وعلى وجه التحديد فلسطين وسوريا[1]. ويشير "يوسيفوس" نفسه، الذى يتحدث بصفته يهودياً، إلى الهكسوس باعتبارهم "أسلافنا"، وهذا قول غريب لا ينطوى إلاَّ على نصف الحقيقة ولسوف نعود إليه بالتحليل فى وقت لاحق[2].

(*) رسمت اسم المؤرخ المصرى الذى كتب تاريخ مصر باليونانية على هذا النحو «مانيتو» كما ورد فى الأصل المصرى القديم ، وليس «مانيتون» كما هو شائع . (المترجم)

فى ظل المكتشفات الحديثة والبحوث المعاصرة بدأت الاجتهادات الرامية إلى الوقوف على هوية الهكسوس تنعكس خلال أكثر من تيار فى الدراسات الأكاديمية. ولقد أسفر اكتشاف مدينة "بوغاز - كوى" عاصمة "الحيثيين" فى آسيا الصغرى، مما أعاد بالتالى بناء تاريخ شعب كان ليظل مجهولاً، لولا ذلك، على نحو سريع، عن الاقتراح الذى يذهب إلى أنهم هم الهكسوس فى حقيقة الأمر(٣). ولكن المصريين كانوا يعرفون "الحيثيين" إلى حد معقول، وكانوا يشيرون إليهم فى كتابتهم، بصورة أمينة وثابتة باسم "خاتى"، وعلاوة على ذلك لم يكن هناك - ولا زلنا نفتقر إلى - أى دليل من أى نوع على أن "الحيثيين" لعبوا أى دور فى القرن السابع عشر ق.م خارج تخوم منطقة نفوذهم المحدودة التى يحدها نهر هاليس Halys. ومع ذلك استمرت الاجتهادات الرامية إلى العثور على مرشحين لحمل اسم الهكسوس فيما وراء جبال "طوروس" فلقد عثر "أولبرايت" فى نص حيثى على زعيمٍ لـ "عمان ماندا" Umman Manda، وهذا مصطلح غامض طالما استخدم فى الإشارة إلى قبائل شبه بدوية كانت تقطن شمال بلاد الرافدين، واسم ذلك الزعيم هو "شا - لو - تى" Ča-lu-ti وهو اسم سرعان ما قارن "أولبرايت" بينه وبين "ساليتيس" Salitis أول ملوك الهكسوس فى القائمة التى وضعها "*مانيتو*"(٤). وأفصح آخرون عن تثبيت نفسى، باستخدام الهكسوس المزعوم للحصان والعجلة الحربية، وبالتالى عززوا اجتهاداً يقول بأن الهكسوس ليسوا سوى عناصر هندو-أوروبية، وهى العناصر التى كانت قد فرضت نفسها، بحلول القرن السادس عشر ق.م كنخبة حاكمة سادت على السكان الأصليين لبلاد الرافدين(٥). ولقد شهدت السنوات الأخيرة اقتراحًا آخر يرى أن الهكسوس ما هم إلا الحوريين، وهم عبارة عن سلالة محلية حازت قدرًا من الاحترام(٦). ولكن ما من أحد استطاع أن يسوق دليلاً على وجود أعداد ضخمة فى القرن السابع عشر ق.م من الحوريين فى المناطق التى تمتد فيما بين "بلاد الرافدين" و بين مصر. ويبدو الآن أن وصولهم إلى سوريا وفلسطين قد حدث على وجه اليقين، /بعد/ غزو الهكسوس(٧).

غير أن هذا البحث المحموم ليس سابقًا لأوانه وحسب، بل و متشبثًا بآراء خاطئة منذ البداية. والحقيقة أن الكلمة اليونانية ἀσηπόι لا تعنى أكثر من "خسيس، قذر"، وهى ليست سوى ترجمة للكلمة المصرية "إ خ ص ى" أى "وضيع"، وهو الوصف الذى تطلقه النصوص المصرية فى كافة الفترات على الشعوب الأجنبية. والكلمة على هذا النحو

لا تنطوى على اعتراف بالجهل بل بالازدراء. وعلاوة على ذلك، فالهكسوس لفظ لا يشير إلى "عرق" gentilic بأى حال من الأحوال، ولكن الأمر كما تشهد عليه أمثلة عديدة تعود إلى الألفين الثانى والثالث، تحريف يونانى للاسم العام الذى يطلق على أى "حاكم أجنبى" فى اللغة المصرية القديمة "حقا - خاسوت" وهو الاسم الذى يعنى على وجه التحديد "حاكم البلاد الأجنبية" وبالتالى فهو ينطبق على نظام الحكم دون الشعب[٨].

نستطيع الآن أن نتحقق بسهولة من الهوية الحقيقية للهكسوس عن طريق فحص مجموعتين (=جسمورين) من الأدلة: الأثرية واللغوية ولسوف تسنح لنا فرصة فى وقت لاحق كى نمعن النظر بصورة أكثر قرباً فى السجلات الأثرية. ولكن يكفينا فى الوقت الحاضر أن نقول إن الحفائر الأخيرة فى مثل تلك المواقع التى ترجع إلى الهكسوس فى شرق الدلتا كـ "تل الضبعة" و "تل المسخوطة" كشفت عن ثقافة مقحمة (على ثقافة المصريين) لا يختلف خزفها وسائر عادياتها (مشغولاتها) على أى وجه من الوجوه عن الثقافة المعاصرة سواء لفلسطين أو فينيقيا عند مستوى حقبة MBIIb. أما الصورة اللغوية فغاية فى الاتساق. فالنصوص المصرية التى تعود إلى عصر حروب التحرير ومطلع الأسرة الثامنة عشرة تطلق على الغزاة اسم "العامو" أى الناطقين بلغة سامية غربية. ورغم أن الهكسوس لم يخلفوا وراءهم أى نقوش بلغتهم القومية، إلا أن عدداً من أسمائهم الشخصية قد ظهرت فى الأختام ونصوص التدشين، وهى نصوص نستطيع تحليلها على المستوى النحوى والمعجمى. ويبدو واضحاً بصورة لا لبس فيها ولا مراء أننا أمام أسماء شخصية (أعلام) تعود إلى إحدى اللهجات السامية الغربية، فكل هذه الأسماء، فيما عدا اثنين لا غير، تكشف عن اشتقاق من لهجة سامية غربية، وليس بينها اسم واحد يشير إلى الانحدار من لغة الحوريين.

يظل من الصعب أن نهتدى بصورة أكثر تحديداً إلى الموطن الذى نشأت فيه الأسرة التى يدعوها "مانيتو" بالخامسة عشرة. و فى هذا الصدد قد يميل بنا الولع بالإله الجبلى إلى تحبيذ مرتفعات فلسطين أو لبنان مقابل "النقب" و "شيفيلاه" أو سوريا الداخلية، ولكن هذه لا تحظى بأكثر من الحد الأدنى من الأهمية. ولقد شهدت الآونة الأخيرة انجذاب الانتباه إلى التشابه فى المستويات الأشد انخفاضاً للهكسوس، التى كشفت عنها الحفائر فى "تل الضبعة" بين الأوانى" المحلية فى "تل اليهودية" والأوانى المماثلة فى "بيبلوس"[٩]. ويستطيع المرء أن يعود بذاكرته فى هذا الصدد إلى

الملاحظة التى أبداها "المؤرخ" المسيحى "أفريكانوس" (القرن الثانى بعد الميلاد) عند نسخه موجزًا لتاريخ "مانيتو" بأن الهكسوس تدفقوا من "فينيقيا"[١٠]. ولكن هؤلاء الأخيرين تطلق عليهم اللغة المصرية فى مرحلتها الديموطيقية أى على زمن "مانيتو" بصفة دائمة اسم (الخارو)، وهذا مصطلح يشير إلى رقعة أوسع من الشريط الساحلى الضيق الواقع شرق البحر المتوسط شمالى "حيفا"، وهى رقعة تطابق على وجه العموم فلسطين التى نعرفها وسوريا الجنوبية. وقد نجد أنفسنا مضطرين فى الوقت الحاضر كيلا نرضى لأنفسنا بأقل من هذه الحدود العريضة، ألا نتوغل شمالاً إلى أبعد من سلسلة الجبال اللبنانية أو جنوبًا إلى أقرب من مرتفعات "يهودا".

غزو الهكسوس لمصر:

إذا تطرقنا للسؤال الذى يقول: كيف تأتى للهكسوس أن يبسطوا سيطرتهم على مصر، فإننا نكون قد خرطنا أنفسنا فى نقاش مفعم بالحيوية والخصوبة. حقًا بدأ "مانيتو" فى ضبط الإيقاع بالإصرار على وقوع غزو، إلا أن المرء يستطيع أن يحاججه بسهولة، فى هذا الصدد، بأن الأحداث الأقرب زمنًا إلى عصره من فترة الهكسوس تركت تأثيرها عليه. فالغزو إثر الغزو مما لم يبق حجرًا على حجر فى مصر من غزو الأشوريين (٦٧١، ٦٦٦، ٦٦٣، ق.م) إلى غزو البابليين (٦٠٠، ٥٦٧ ق.م) وغزو الفرس (٥٢٥، ٣٤٣ ق.م) خلق وعيًا ما وأيقظ توقعًا بأن المخربين إنما يظهرون، على حين غرة، فى الأفق الشمالى، وعلى هيئة جيش غاز[١١]. ويبدو أن مصدر "مانيتو"، الذى يعود على وجه الاحتمال إلى القرن الرابع ق.م رأى فى الهكسوس نموذجًا أصليًا prototype لكافة الأقوام التى اجتاحت مصر فى أوقات لاحقة، ونسب إليهم، دون استحقاق، نفس الغرض الذى توخاه غيرهم فى إحداث الخراب فى مصر، وهو الأمر الذى وضع جدارة "مانيتو" كمصدر موضع الشك، ومن هنا جاز لنا أن نعيد صوغ وجهات نظرنا على نحو مختلف. وفى هذا الصدد، تقدم بردية متحف "بروكلين" والملاحظات التى مر ذكرها بإيجاز فى الفصل السابق دليلاً ناصعًا على أن مصر شهدت خلال الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة وجود جالية آسيوية كبيرة العدد تمتهن الأعمال الدنيا، وكانت قد هبطت إلى مصر أو بالأولى نقلت إليها من جراء الحروب التى خاض المصريون

غمارها فى البلدان الأجنبية. ورغم أننا لا نملك شيئًا يشير إلى أن هذه الجالية الآسيوية – أو هؤلاء الأقوام الآسيويين – كانت أشد كثافة فى شرق الدلتا عنها فى أى بقعة أخرى فى مصر، إلا أن المنطق السليم يجعلنا نفترض أن دفاعات الدلتا تضعضعت فى ظل الضعف التدريجى الذى لحق بالسلطة الملكية، الأمر الذى جعل من اليسير على مجموعات متزايدة من البدو الرحل أن تعبر الحدود كى تستقر فى الوجه البحرى. ورغم أن الخطوة التالية فى المحاجة تستند إلى حد كبير إلى منهج الاستدلال، فإن المرء يستطيع أن يرسو على أنه بمرور الوقت نمت الجالية الآسيوية فى شرق الدلتا إلى الحد الذى زادت فى العدد عن أهل البلاد الأصليين من المصريين أنفسهم. وإذا ما اقتنع المرء بذلك، فإن الفرضية التى تذهب إلى حدوث غزو تكون غير ضرورية: تبوأ الهكسوس السلطة فى البلاد على هيئة استيلاء سلمى، كما يتكشف عنه الأمر، من الداخل عن طريق عنصر عرقى كانت أعداد أفراده قد أصبحت تشكل أغلبية السكان[١٢].

والآن هذه الحجة، التى يُشار إليها بصفتها حجة سبق الإقرار، إلى حدٍ كبير، بصحتها، رغم أن أنصارها جاهدوا باستبسال فى سبيل إيقافها على قدميها بأدلة هزيلة، تنطوى على عدد من المثالب الخطيرة.

الأول: الادعاء الذى يذهب إلى أن مجىء الهكسوس صحبه دمار فظيع ليس جديداً على عصر "*مانيتو*" ولكنه يعود إلى مطلع المملكة الحديثة. فالفرعون "كاموسى" الذى أسهم فى تدشين حروب التحرير يتحدث عن "مصر التى دمرها الآسيويون"[١٣]. وتعيد "حتشبسوت" ولم يكن قد مضى نصف قرن، إلى الأذهان أن "المجموعات البدوية التى قدمت ضمن الهكسوس قد دمرت ما كان المصريون قد بنوه"[١٤]. ولا يتعين علينا أن نعزو السلب والنهب اللذين تعرضت لهما الآثار على نطاق واسع فى منطقة "منف" وتشتيتها فى مساحة امتدت حتى "أباريس" أو "أواريس"(وفى وقت لاحق "تانيس") إلى مناطق موغلة فى الاتجاه الشمالى فى المشرق إلا إلى الغارات التى قام بها على وجه الترجيح الهكسوس[١٥]. ولكن ذلك ليس – فى إطار الأخذ والرد – سلوكًا منتظراً من أقوام تثقفوا بثقافة المصريين عن طريق الإقامة الطويلة الأمد داخل حدود مصر. فبينما تمصرت كلية الجماعات الأجنبية الأخرى بطول الإقامة فى مصر، مثل الليبيين، وعومل زعماؤها سياسيًا كما لو كانوا فراعنة وطنيين، ظل الهكسوس طوال القرن الذى

قضوه فى سدة الحكم فى مصر "آسيويين" كما ظل ملوكهم فى نظر المصريين "حكامًا أجانب" أو "أمراء ريتينو". وهذا أيضًا ليس مما ينبغى لنا أن ننتظره من مجموعة عرقية أقامت لمدة طويلة داخل حدود مصر.

ثانيًا: ليس هناك أى تأثير، من أى نوع لمجرد وجود الآسيويين قبل صعود الهكسوس إلى سدة الحكم، على طبيعة الانقلاب السياسى الذى انبثقت عنه الأسرة الخامسة عشرة أو الهكسوس. فحقًا كان هناك يونانيون فى مصر قبل الأسرة البطلمية وعرب قبل سنة ٦٤١ ميلادية وبريطانيون قبل معركة "التل الكبير"، ولكن الاستيلاء على الحكم الذى قام به البطالمة والعرب والبريطانيون، على التوالى، شكَّل، مع ذلك، غزوًا عسكريًا على نفس النهج إلى هذا الحد أو ذاك. و هناك نقطة أخرى تحتاج إلى تأكيد، وهى النقطة التى تتعلق بالعلاقات الاقتصادية السائدة بين الوافدين الجدد. حقًا كانت مصر تعرف منذ وقت طويل تسلل الرعاة الرحل عندما وقعت حصون الحدود فريسة الإهمال، ولكن هؤلاء المتسللين لم يتجاوزوا "أعدادًا محدودة"، الأمر الذى شكل مصدرًا للإزعاج دون أن يتفاقم إلى تهديد للمدن(١٦). ولم يمثل هؤلاء بكل تأكيد، الدعامة الرئيسية التى يحتاج إليها انقلاب ما، ولا مجاميع من أسرى الحرب مثل تلك التى تشهد على وجودها النصوص التى وصلت إلى أيدينا من الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة. ولكن المرء إذا نحى جانبًا الحجة التى تستند إلى مجرد الوجود فى مصر لعناصر أجنبية قبل فترة الهكسوس، فإن الدعوى الصحيحة ظاهريًا تسقط. بقى علينا أن نفسر المواقع الكبرى مثل "تل الضبعة" و "تل اليهودية" و"المسخوطة" حيث انزرعت جاليات كنعانية حضرية تنتمى على وجه التحديد إلى العصر البرونزى الوسيط(١٧). وهذه الجاليات لم تتشكل، بكل تأكيد، خلال التسلل المتقطع ولكن خلال النزوح فى مجاميع كبيرة على هيئة كتل سكانية كانت قد دخلت فى المرحلة الحضرية.

وكان ليطفئ عطشنا أن يكون فى وسعنا أن نتحدث عن مستويات من الدمار المكثف فى ذلك العصر، تقوم عليه أدلة مستقاة من الاستكشافات الأثرية، إلا أن الأمر ليس على هذا النحو. فكثير من مواقع الدلتا خضعت للفحص قبل أن يصل علم الآثار (الأركيولوجيا) إلى مستواه العلمى الذى أصبح عليه اليوم، فى حين أن البعض الآخر من تلك المواقع إما أنها طمست بصورة نهائية طبقاتها التى ترجع إلى المملكة الحديثة

تحت منسوب عال للمياه الجوفية، وإما أنها تكشف عن فجوة فى إعمارها من جانب السكان، وحتى "أباريس" (= "أواريس") ذاتها، تلك التى أصبحت، بكل تأكيد، "تل الضبعة" الحديثة لم يدع "مانيتو" بالمرة فى تاريخه أنها تعرضت للنهب، ولا تكشف الاستكشافات إلا عن تغير دخل على التخطيط الاستيطانى واحتلال الموقع من جانب "وافدين خُلَّص"[18] كما أن أماكن مثل "تل المسخوطة" لم تكن، على وجه الاحتمال، سوى مستوطنات جديدة[19]. ولما كانت الاستكشافات التى جرت فى الكرنك قد كشفت عن طبقة رقيقة من الرماد الذى ذرته الرياح على الأبنية فى طور الأسرة الثالثة عشرة[20]، فإن المرء يكون متهوراً قليلاً فى هذه المرحلة من بحثنا إذا نسب ذلك إلى الهكسوس.

تبدو الحجة المضادة التى تطرقنا لها للتو سلبية وربما تشارف مدارج دعوة لليأس، الأمر الذى قد يزيِّن لنا أن نتساءل عند هذه النقطة: ما الذى نعرفه حقًّا عن غزو الهكسوس؟

تحمل قائمة الملوك التى تبدأ فى المملكة الحديثة و المعروفة باسم قائمة "تورينو" والمنقوشة على بردية ترجع إلى عصر الرعامسة، فيما بين نهاية الأسرة الثانية عشرة وأول حاكم لمصر من الهكسوس ما يتراوح بين ١٢٠ و ١٣٠ اسماً تجمعها تحت عنوان فرعى: الملوك الذين جاءوا فى أعتاب البيت الملكى "سى - حوتب - رع" (له الحياة والرخاء والعافية) أى الأسرة الثانية عشرة. ولكننا نجد أن "مانيتو" حشر عند هذه النقطة أسرتين هما الثالثة عشرة والرابعة عشرة اللتان تضمان، مع الأسرة الخامسة عشرة بصفة إجمالية ١٣٦ ملكًا، وهو ما يقترب كثيراً من العدد الإجمالى الذى كان يُستقى بالضرورة فى وقت سابق من قائمة "تورينو" رغم أن "ديودور" الصقلى الذى عاش فى القرن الأول ق.م. زاد، بالخطأ، عدد الملوك فى أواخر الأسرة الـ١٢ إلى الضعف وخلط بينهم وبين ملوك مطلع الأسرة الـ ١٨، إلا أن كتاباته انطوت، بشكل عمومى، على تقييم دقيق لتلك الفترة[21] :

سيوسيس الأول (١-٥٣)

سيوسيس الثانى (١-٥٩)

" بعد هذا الملك جاءت سلسلة طويلة من خلفائه على عرش مصر، ممن لم ينجزوا أعمالاً تستحق التسجيل" (١-٦٠).

أمازيس (١-٦٠)

أكتيسبانيس الأثيوبى (١-٦٠)

منديس (ماروس) بانى قصر التيه (١-٦٠)

انقطاع: لا ملوك لخمسة أجيال (١-٦٢)

ستيس بروتيوس (١-١٦١)

ينبغى لنا أن نتعرّف على "سيوسيس الثانى" و "منديس" فى شخص "أمين-ام-حات" الثالث بانى مجمع "هرم هوارة" (أى قصر التيه)[٢٢]. وتعد "السلسلة الطويلة من الخلفاء" وفترة الانقطاع تصويراً للأسرة الثالثة عشرة، و خمسة أجيال،(حوالى ١٢٥سنة) فى الحقيقة، صحيحة إلى حد كبير[٢٣]. وينبع التعليق المناوئ على نظام حكمهم بنفس الدرجة، من الحقائق التى تقول إن ملوكًا أفراداً خلفوا، الواحد الآخر، فى تتابع سريع، وأن قليلين بصورة نسبية منهم، هم الذين تركوا وراءهم أبنية أو نقوشاً.

والآن يرد اسم، عندما نصل إلى الفصل الثامن ٢٧ ، والتاسع ٩ ، من قائمة "تورينو"، ولو أن بعض حروفه أى حروف ذلك الاسم مهشمة ولكننا نستطيع على وجه الاحتمال أن نقرأه، مع ذلك، على هذا النحو Dd-(ms)rᶜ وكان العلماء قد ظلوا لمدة طويلة يدرسون احتمالاً قوياً بأن يروا فى هذا الملك/الفرعون "جد-حوتب-رع" أو("جد-نفر-رع") "جدو- ميس"، وهو الفرعون /الملك الذى ورد ذكره فى عدد من النصوص المعاصرة التى ترجع إلى زمام "طيبة"[٢٤]، وأوّلوا الشكلين الواردين للاسم كأساس تاريخى لـ" توتيمايوس" Tutimaios الذى ورد ذكره فى تاريخ "مانيتو"، ويفترض كثيرون أن غزو الهكسوس وقع خلال فترة حكمه. ولكن النقوش المعاصرة لا تفيدنا بشىء البتة، مع الأسف، حول ذلك الغزو، رغم أن المرء قد يستنتج من تلك النقوش أن الأنشطة التى قام بها "ديد - موسى" كانت مقصورة على الوجه القبلى وأن شمال البلاد كان خارج نطاق سلطانه. إلا أن النقوش، التى ترجع كلها إلى جنوب البلاد،

وتعود إلى ذلك العصر على وجه التقريب تحمل طابع الولوع إلى حد ما بالقتال، وهو الطابع الذى يتوافق مع الاندلاع الفجائى لأعمال حربية فى مصر. فنقابل فى ثنايا تلك النقوش نعوتًا عامة من قبيل ("هو الملك الجبار الذى يحبه جيشه"... " قاهر المتمرد الذى خرج على سلطانه"... "ذابح أولئك الذين شنوا الهجوم عليه... الذى صد كافة البلدان الأجنبية وأنقذ مدينته... الذى أطاح بأولئك الذين انتهكوا... الذى يعتمد فى (حركته) على ذراعه "القوى") وهكذا دواليك[٢٥] ولقد جاء صادودان من الصواديد/ الألواح التى تشير إلى "ديد - موسى" ذاك من رجال عسكريين، وقادة حصون، ممن كانوا يعملون تحت إمرته[٢٦].

إذا كان لنا أن نفهم هذه الإشارات الضمنية إلى نزاع ما، على أنها فى حقيقة الأمر إشارات إلى أعمال حربية اندلعت فى أعقاب "غزوة" قامت بها "بلدان أجنبية" وأن الذين قاموا بتلك الغزوة هم الهكسوس، فهذا أمر تقوم دليلاً عليه الإيماءات الكلية الحضور إليهم، تلك التى تركها "كاموسى" بعد ذلك الوقت بقرن من الزمان. فهم، فى هذه الإيماءات، "آسيويون"[٢٧] ودمروا البلاد، وقد تدفقوا من بلاد "الآسيويين"[٢٨] وزعيمهم هو "شيخ سورى"[٢٩] ولقد "اجتاحوا مصر"[٣٠].

يغرى المناخ الدولى السائد فى الشرق الأدنى فى الربع الثانى من القرن السابع عشر ق.م بإمعان النظر إليه، لأننا إذا ما رأيناه فى ضوء خلفية الدول المتصارعة فى الهلال الخصيب عند مستوى حقبة AB IIB-C فإن غزو مصر بشكل سافر وفجائى من جانب ما عرف فى وقت لاحق بالأسرة الخامسة عشرة يغدو أكثر ترجيحًا. فلقد كانت الفترة فى ذلك الوقت فترة من أعمال الحرب الشرسة، التى اصطرعت فيها القوى الكبرى، الواحدة مع الأخرى فى سبيل الفوز بولاء إقطاعىٍ من جانب الملوك الأقل شأنًا، وهام فيها المغامرون لآماد بعيدة عن أوطانهم وراء غزواتهم سعيًا وراء الاستيلاء على الممالك ودفاعًا عما وضعوا أيديهم عليه[٣١]. وكانت الجيوش جرارة وسريعة الحركة: فى بحر أربعة أيام عبر عشرة آلاف رجل من "البابليين" قادمين من "سبار" Sippar ، وانطلق ثلاثة آلاف من "شباط أنليل" Shubat-anlil إلى "إشنونا" Eshnuna . وقد يكون (قائدهم؟) قد أخذهم عن طريق "أشناكوم" Ashnakum ، وقد يكون عن طريق "سوسوسوم" Susussum من يدرى؟[٣٢] كانت الزحوف طويلة المدى والمخاطر عالية. ولقد دمر "ياهدونليم" Yahdunlim ملك "مارى" فى أواسط "الفرات" تحالفًا ائتلف ضده،

ووسع حدود مملكته حتى بلغت سواحل البحر المتوسط.[٣٣] وقد أقسم "ياريم -ليم" Yarim-lim ملك "يامخد" (= حلب بشمال سوريا) على الزحف إلى "دير" Der جنوبى جبال (زاجروس) رداً على إهانة بسيطة[٣٤] وفى ظل مناوراتهم التى لم تعرف هوادة فى سبيل الفوز بالمكانة الأعلى، انخرط حكام ذلك الزمان فى إبرام التحالفات و فضّها وفقًا لما تمليه عليهم مصالحهم المباشرة: "ملك "إشنونا" سوف يقدم لى العون. والآن أرسل لى القوات حتى أتمكن من الوصول إلى غايتى، وعندئذ سوف أرسل إليك، إلى جانب قواتك، قوات شديدة البأس كى تتمكن أنت أيضًا من الوصول إلى غايتك"[٣٥]. "إذا هجم عليك العدو مرة أخرى سوف أرسل قواتى كى تكون فى عونك. ولكن إذا هاجمنى عدو فهل ستهب قواتك إلى مساعدتى!"[٣٦] ولم يكن التوانى فى الاحتراس يعنى سوى شن أحد الجيران لهجوم مفاجئ: "لقد صمم ملك "إشنونا" على بناء المدينة ... وفى الوقت الذى يبنى فيه المدينة هل سأقف مكتوف اليدين كى أراقبه؟ (لا!) لسوف أشن هجومى على بلاده!"[٣٧] "الوقت مناسب الآن لمجيئك ... فهذه المدن الثلاث ليست جيدة التحصين: نستطيع أن نستولى عليها فى غضون يوم واحد!" أقبل سريعًا الآن واستول على هذه المدن حتى تفوز قواتك بالغنائم!"[٣٨] وكانت أعمال السلب والنهب وجرائم القسوة والوحشية شائعة: "لسوف تأخذ قوات "إشنونا" فى النهب والسلب ثم تولى وجهها شطر "الفرات"[٣٩] "يستعد الثلاثون "سوتو"، الذين ذبحوا كل أغنامهم كى يشنوا غارة"[٤٠] "أخذ يغير "بنو يمن"، وكلما شنوا غارة واستولوا على الأغنام، أرسلت قوات الاحتياط كى يلقوا القبض عليهم"[٤١] "أرسلت "نون" إلى أرض "أحوزيم" على رأس جيش ...و لقد محق كافة الهجمات التى شنتها قوات بلاد التركيان Turkeans التى احتشدت حوله و لم يستطع أى منهم الفرار! وفى ذلك اليوم نفسه تم الاستيلاء على كافة أراضى "أحوزيم"[٤٢].

تقدم لنا هذه الإشارات مشقًا Paradigm لنوع من الغارات التى يبدو أن غزو الهكسوس اتخذه فى بادئ الأمر. ولعل الدافع والموقف متماثلان هنا فى أنهما يشكلان أفضل ما يكون كى نفترض مثل هذا الحدث: دولة "أمورية" قوية فى المشرق، ومصر التى دب الضعف فى أوصالها، واحتمالات نجاح غزو لا يصادف مقاومة تذكر وما يستتبع ذلك من الاستيلاء على غنائم هائلة. ولكن يبقى أن نتأكد من هوية أولئك الملوك الأجانب.

الأسرة الخامسة عشرة:

بين مدخل "جد – ميسى" Dd-msi فى قائمة تورينو IX - 9 والقسم المخصص للهكسوس فى هذه القائمة X-10 نقابل نحو ٣٢ اسمًا وقد انحشرت بينهما، وهى الأسماء التى ظلت تستعصى على التفسير لسنوات عديدة. إلا أن الحقيقة أن هذه الأسماء اتضح الآن أنها أسماء آسيوية غربية، وإن كانت "متشلفطة"، فى كثير من الحالات خلال عملية النقل إلى حد تتعذر معه قراءتها[٤٣]. غير أن ستة أو سبعة مداخل تشبه، لأول وهلة، وبصورة مقنعة، أسماء معروفة فى سلسلة أنساب "شمش –داد" فى قائمة الملوك الآشوريين[٤٤]، وهو الأمر الذى يقدم لنا مفتاحًا نحو كشف الطبيعة الحقيقية لهذا القسم الذى نقف أمامه حيارى. لكن إحدى السمات التى تقوم عليها أدلة قوية فى ثقافة الممالك الأمورية التى عرفها غرب آسيا فى أواسط العصر البرونزى تتمثل فى عبادة الأسلاف الملكيين فى شكل شجرة أنساب، تحلى الشرعية لنظام الحكم[٤٥]، ولقد نجت من عوادى الدهر نماذج عديدة من مثل هذا "الشجر" العائلى كى تصل مدونة إلى أيدينا. والواقع أن الأسماء الاثنين والثلاثين الواردة فى قائمة "تورينو" قبل فترة الهكسوس مباشرة إنما تشكل الشجرة العائلية التى تتكون منها الأسرة الـ١٥ التى حفظتها تقاليد عبادة الأسلاف فى "أباريس" (= "أواريس")، وانتقلت فى نفس المنطقة إلى الأسرة الـ ١٩ . وارتباطهم (أى أصحاب تلك الأسماء) "الأجنبى" (=" خاست" بالمصرى) الذى أسيىء تفسيره كى يبدو وكأنه أصل فى "زويوس" Xois "حقا سو" ، قد ظهروا فى الألف الأول تحت اسم الأسرة الـ ١٤ التى ترجع إلى "زويوس"[٤٦].

إذا كان الهكسوس قد برهنوا مرة أخرى من خلال تقاليدهم العائلية أن أصولهم ترجع، بصورة جلية، إلى الملكية الأمورية التى تضرب بجذورها فى أواسط العصر البرونزى، فإن مجرد إقامتهم فى مصر تدخلهم فى الوقت المناسب فى تقاليد قوائم الملوك التى عرفتها مصر. ويورد "*مانيتو*" فى قائمته ستة أسماء ملكية من الأسرة الـ١٥، والرقم الذى ورد فى قائمة "تورينو" قبل عصر "*مانيتو*" بألف سنة هو ستة أيضًا، وهو الأمر الذى يمدّنا بمسوغ قوى لافتراض أن هذا الرقم تاريخى. وعند هذه النقطة ينتهى، مع ذلك، الاتفاق الذى يجمع المصدرين. وفى حين لا تضم قائمة "تورينو"

سوى قيد entry واحد للملوك الهكسوس، فإن ملخص تاريخ "*مانيتو*"، (حسب رواية أفريكانوس) يشير إلى "الملوك الرعاة"، مرة أخرى فى الأسرتين الـ ١٦ و الـ١٧ . والحقيقة أن "*مانيتو*" لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا، فى ظل التزامه بقائمة واحدة تسير فى خط طولى مفرد، كى يشير إلى تزامن نظامين اثنين للحكم، سوى أن يسجل نفس المجموعة من الأسماء مرة بعد مرة كلما تعاصر نظاما حكم. ولعل القصور فى رصد هذه الآلية فى الماضى، هو الذى أسفر عن عدد من النظريات التى تثير السخرية فى إعادة بناء حقبة الهكسوس(٤٧). فنقابل فى ثلاث روايات لملخص تاريخ "*مانيتو*" الموسوم باسم Aegyptiaca ثلاثة تقديرات يختلف الواحد منها عن الآخر اختلافًا كبيرًا للفترة التى قضاها الهكسوس فى حكم مصر: من ٢٥٠ سنة عند "يوسيبوس" Eusebius إلى ٢٨٤ سنة عند "أفريكانوس" إلى ٥١١ سنة عند "يوسيفوس"(٤٨). إلاّ أن الترجيح الأكثر قبولاً للرقم فى قائمة "تورينو"، من ناحية أخرى يسجل ١٠٨ سنوات أو ١٨سنة، – وهذه فترة معقولة – لكل حاكم فى المتوسط(٤٩). على أن التأريخ النسبى للتاريخ المصرى إلى جانب الأدلة المستمدة من اختبارات كربون–١٤ والتاريخ الذى يوفره لنا التأريخ الخزفى لآسيا الغربية، والتاريخ السياسى المتداخل بشدة لوادى الرافدين، كل ذلك لا يسمح لنا أن نقول عن حكم الهكسوس إنه امتد إلى أكثر من مائة سنة أو قرن واحد. ومن ثم نستطيع أن نطرح جانبًا الترتيب والأرقام التى وردت فى تاريخ "*مانيتو*" والأولى فى الملخصات التى نقلها عنه آخرون.

ولكن ما هى الأسماء التى وردت فى تاريخ "*مانيتو*"؟

هذه الأسماء تختلف هى الأخرى إلى هذا الحد أو ذاك من رواية لأخرى ولكن الاختلاف هنا لا يبلغ نفس المدى، كما فى المجموع الكلى الذى سُجِّل بالفعل فى قوائم:

يوسيفوس	أفريكانوس(٥٠)	يوسيبوس
ساليتس–١٩سنة	سايتيس ١٩ سنة	سايتيس–١٩ سنة
بنون ٤٤ س	بنون ٤٤ س	بنون ٤٠ س
أباشنان ٣٦س ٧، ش	باشنان ٦١س	ـــــ

أبوفيس ٦١ س	سطان ٥٠ س	———
ياناس ٥٠ س، ١ش	أرشليس ٤٩س	أرشيليس ٣٠ س
أسيس ٤٩ ، ٢ش	أبوبيس ٦١س	أبوبيس ١٤ س

نلاحظ هنا أن قوائم الملوك هذه تشترك ثلاثتها فى إيراد أسماء كل من "ساليتس" (سايتيس)، "بنون" و "أبوفيس" ومن بين الأسماء المتبقية نجد أن اسم "سطان" ممكن أن يشتق بصورة مقبولة ظاهريًا من اسم "أناس" نتيجة لسهو ما فى رسم حروفه، بينما نستطيع مطابقة "أرشليس" خلال الموضع وطول مدة الحكم المنسوبة إليه مع "أسيس". و بذلك ينخفض العدد الكلى إلى ستة، وهو الرقم الذى يتوافق مع التقاليد التاريخية. ولا يبقى هناك سوى تناقض صارخ واحد يتمثل فى حالة "أبوفيس"، ولكننا نستطيع حسمه لصالح تأريخ "أفريكانوس"، بفضل نقش يرجع إلى "تل الضبعة" (بمحافظة الشرقية حاليًا). فالنقش يذكر، بصورة ضمنية، وإن كانت بارزة ، أن (شخصًا) ما يدعى "إنساس" كان الابن البكر لوالده "خايان"(٥١).

وعندما نحاول أن نشق طريق الرجوع قبل "*مانيتو*"، فإننا نقابل صعوبات عويصة تتمثل فى أن هذه الأسماء لا تتطابق. ولعل من المؤسف حقًا أن تحرمنا تلك الفجوة فى البردية التى تحمل "قائمة تورينو" من المداخل الخمسة الأولى. أما المدخل السادس أى الاسم الوحيد الذى ظل على قيد البقاء : "خامودى" H^3mudi الذى لا يشابه لا "أسيس" Asis ولا "أبوفيس" Apophis . وتشير سلسلة أنساب كهنة "منف" تلك التى وضعت فى القرن الثامن ق.م إلى ملك بارز باسم "شارك" Sharek صعد إلى سدة الحكم خلال ما يمكن أن نطلق نحن عليه اسم الفترة الانتقالية الثانية، وقد سبقه بجيل واحد، ملك يدعى "عاكين"(٥٢) وتلاه "أبوفيس". فهل هذان هما رسمان "مشلفطان" "لاسمى "ساليتيس" و "عا – قن – رع" (أحد الأسماء الأولى نظير الأخيرة أو اسم الجد واللقب لـ "أبوفيس")، والاسم الأخير عومل بطريقة ساخرة خلال تأويله كى يعنى "الجحش الجسور"؟(٥٣) وللحقيقة ظهر اسم "أبوفيس" فى مقطوعة من الفولكلور، تعود إلى عصور الرعامسة أى بعد حوالى ثلاثمائة سنة من الفترة التى يبدو مؤكدًا أنه عاش فيها، بصفته أحد الأبطال عند تفجر حروب التحرير، ولكن القصة خالية من كل ما نستطيع التعويل عليه تاريخيًا، حيث لا تنطوى إلا على ذكريات باهتة عن تلك الفترة(٥٤).

إلا أن النصوص المعاصرة لاحتلال الهكسوس لمصر (تلك التى تحملها بصفة رئيسية الجعارين والأختام حيث يندر أن نعثر لتلك الفترة على نقوش على الحجر أو وثائق مكتوبة على ورق البردى) وفرت لنا عددًا كبيرًا بصورة ملحوظة من الشواهد على أسماء ملوك الهكسوس[٥٥]:

١ - الإله الطيب "ماع - إيب - رع" بن رع ، شيشى (ظهر الاسم على عديد من الجعارين التى عثر عليها فى مصر والنوبة وفلسطين)[٥٦].

٢ - الإله الطيب "مير - وزير - رع" بن رع، يعقوب - هر(ظهر الاسم على العديد من الجعارين التى ترجع إلى مصر والنوبة وفلسطين)[٥٧].

٣ - الإله الطيب ابن رع "يعام" (وأحيانًا يرد "عام") (ظهر الاسم على عدد محدود من الجعارين التى لم يستدل على المطرح الذى ترجع إليه)[٥٨].

٤ - حورس "هو الذى يحيط بالأرضين" الإله الطيب "سوسر-ان-رع" بن رع "خايان" (ظهر على الآثار التى ترجع إلى كل من الوجهين البحرى والقبلى، والأدوات الصغيرة التى تعود إلى بلاد الرافدين وأواسط هضبة الأناضول وكريت وعلى العديد من الجعارين التى قَدمت من مصر، بالإضافة إلى جعران من فلسطين، ولكنه لم يظهر على أى جعران من النوبة)[٥٩].

٥ - الابن البكر للملك، "يانساس-إكس" (ظهر على قائمة كتف باب يرجع إلى "تل الضبعة")[٦٠].

٦ - الإله الطيب، سيد الأرضين "نيب-خوبش-رع" بن رع "أبوفيس" (ظهر على أداتين صغيرتين وجعران)[٦١].

٧ - "حورس" هو الذى يهدئ روع الأرضين، الإله الطيب، "عا - قنن - رع"، بن رع، "أبوفيس"، محبوب الإله"ست" (ظهر على ستة آثار وأدوات صغيرة ترجع بصفة أساسية إلى "منف" أو الدلتا)[٦٢].

٨ - الإله الطيب ملك مصر العليا والسفلى، "عا - وزر - رع"، بن رع، "أبوفيس" (ظهر على آثار ترجع إلى "تل الضبعة"- "بوباسطة"، "منف " و "طيبة" و "جبلين"

و "إسبانيا" وفى بردية "رند" الرياضية وعلى منزر أحد الكتبة وعلى عدد من الجعارين ترجع إلى مصر وفلسطين)[٦٣].

وقد يكون فى وسعنا فى ضوء ذلك أن نخلص رأسًا وباطمئنان إلى عدد من النتائج:

أولاً : موضع الرقمين ١ ، ٢ على رأس القائمة (رغم أن ذلك ليس ترتيبهما النسبى) عبرا إلى مملكة اليقين عن طريق الأسلوب وافتقار جعارينها إلى التأنق والصقل وشكل الكتابة الغامض وغياب كل نقوش ضخمة.

ثانيًا : تأكد سياق رقمى ٤ ، ٥ خلال قائمة كتف الباب الذى سبقت الإشارة إليه.

ثالثًا : كون الرقم ٨ قريب من نهاية القائمة أمر تأيد من خلال الحقيقة التى تقول إن "عا-وزير-رع" أصبح يعرف الآن بأنه كان معارضًا قويًا لـ : "كاموسى" طوال السنوات العشر التى استغرقتها طرد الهكسوس[٦٤].

وأخيرًا: يبدو من المرجح أن رقمى ٦ ، ٧ وهما رقمان يندر ظهورهما، ينبغى تفسيرهما باعتبارهما شكلين مبكرين لرقم ٨ ، وما نعرض له الآن ليس سوى "أبوفيس" واحد[٦٥]. وبناء على كل هذا نستطيع أن نعيد بناء سياق ملوك الأسرة الخامسة عشر على هذا النحو:

الأسرة الخامسة عشرة تاريخيا[٦٦]	عند مانيتو
١ - "ساع - إيب - رع"، شيشى	ساليتيس
٢ - م'ر - وزر - رع"، يعقوب - هر	بنون - باشنان
٣ - "سوسر - إن - رع" خايان	ياناس
٤- [———] يانساس - إكس"	أسيس
٥ - ثلاثة أسماء، "أبوفيس"	أبوفيس
٦ - "خامودى".	——

غير أن هذه القائمة تقصر عن استيعاب عدد من الأسماء التى ينطبق عليها- على وجه التقريب - اسم الهكسوس كمصطلح خاص. فهناك جعنة من الجعارين التى تفتقر، فى معظمها إلى المصادر التى ترجع إليها، لكنها توفر لنا أدلة قوية على وجود خمسة وربما ستة أسماء يسبقها لقب حقا-خاسوت:

١ - "بات"(؟)[٦٧]

٢ - "عابر - عنات"[٦٨]

٣ - "عنات - هر"[٦٩]

٤ - "وسر - عنات"[٧٠]

٥ - "خايان"[٧١]

٦ - "سمكونا"[٧٢]

والآن ورغم أن عدد الشواهد التى تظهر فيها هذه الأسماء محدود إلا أن أسلوب النقش أو القلم المصرى (=الكتابة) على هذه الجعارين تثبت أن تلك الأسماء ترجع إلى مطلع احتلال الهكسوس لمصر[٧٣]. ولعل الحقيقة التى تقول إنه ما من اسم واحد من هذه الأسماء يحمل أى ألقاب مصرية ملكية، بل مجرد تعبير طالما جرى استخدامه للحكام الأجانب، تضع أصحاب هذه الأسماء فى تصنيف سياسى معروف: هم ليسوا ملوكًا لمصر، بل حكام لها فقط وقادمون من بلاد أجنبية و مع ذلك دخلوا، فى ظل الثقافة المصرية والتنظيم الحكومى المصرى، إلى حد يستطيع المرء معه أن يحكم بأن كتابتهم لأسمائهم باللغة المصرية أمر غير مستغرب. والحقيقة أن أسماءهم تلك لابد وأنها كانت تجرى فى الاستعمال عند أداء المعاملات اليومية. ويبدو لى أن أصحاب الأسماء التى ظهرت هنا يعودون بنا إلى الجيل الأول الذى شهد الغزو. وقد تعكس فى نفس الوقت وعلى وجه الترجيح ائتلاف القادة الذين كانوا يرافقون شيش - ساليتيس غداة النصر الذى أحرزه.

حكم الهكسوس لمصر:

قادتنا الأدلة إلى نتيجة معقولة بأن دخول الهكسوس إلى مصر أخذ شكل الغزو العسكرى بالمعنى الكامل للعبارة على امتداد الخطوط التى رأينا انعكاسها فى الأرشيفات الكبرى التى ترجع إلى القرنين الثامن عشر والسابع عشر فى غرب آسيا[٧٤]. وإلى جانب "شيشى" (ساليتيس) ورد عدد من الملوك الأقل شأنًا بعد أسيادهم (من الملوك الأعظم) على نحو ما كان الأمر جاريًا فى غرب آسيا. وإذا كان حكم "شيشى" قد استمر لمدة قصيرة نسبيًا مثلما تشير قائمة "تورينو"، فإن الجيلين الثانى والثالث من ملوك الهكسوس ربما يكونان قد شاركا حتى فى عملية الغزو ذاتها، وهو الأمر الذى يجعلنا نطمئن إلى الافتراض بأن "حقا - خاسوت - خايان" هو الملك الذى جاء بعد ذلك. وقد يكون الغزو قد انطوى على وجه الترجيح على نوع من التدمير الذى يصفه "مانيتو"، وفى إطاره استولى الهكسوس على وجه الاحتمال على وجه السرعة على كل من "منف" و "ايتى-توى" وطرحوهما فريستين للنهب والسلب[٧٥]. وقد يكون فى طوعنا أن نتخيَّل عن صدق أن "ديدو موسى" قاد فى تسرع، انسحابًا من الوجه البحرى كى يقيم فى "طيبة" فى أعماق الجنوب.

وفى نفس الوقت على وجه التقريب، ولربما قبل ذلك بوقت قصير، وقعت ضربة أخرى: انفصلت ولايات المملكة الوسيطة فى النوبة السفلى، تلك الولايات التى كانت الأسرة الثالثة عشرة قد أهملتها لمدة طويلة. كما قام رجال القبائل المحليون بنهب عدد من الحصون المصرية، واستولوا على عددٍ أخر منها و جددوها، ولربما يكونون قد تمكنوا من صهر النحاس الأحمر[٧٦]. وسرعان ما قامت "مملكة" نوبية غير متبلورة فى أعالى النيل، تمركزت حول "كرما" عند الشلال الثالث فى زمام "دنقلة" إلا أنها تشكَّلت على امتداد خطوط الملكية الفرعونية وتتطلع إلى مصر بصفتها قدوتها الثقافية. ولقد تعرضت المستوطنات المصرية فى النوبة، وربما بعض المستوطنات فى جنوب الوجه القبلى ذاته لأعمال نهب واسعة لتوفير التماثيل ومختلف وسائل التزيين الأخرى للمقر "الملكى" الذى قام فى "الكرما"[٧٧].

وعندئذ أصبحت الأسرة الثالثة عشرة المضعضعة التى اضطرت إلى التقهقر إلى زمامها الأصلى الذى خرج منه بيت الجدود، تواجه الأعمال الحربية على جبهتين. ويبدو مرجحًا غاية الترجيح أن اللهجة المولعة بحب القتال للنصوص التى يحملها الصادودان/ اللوحان اللذان يرجعان إلى الكرنك تجد سياقًا أو تفسيرًا مناسبًا فى تلك الفترة خلال التهديد بشن هجمات (جديدة) أكثر عمقًا فى زمام "طيبة" الذى كان قد تقلَّص. فعلى أحد هذين الصادودين[٧٨]، يصف الملك "سيخيم - رع - عنخ توى - نفر - حوتب - إخر - نفريت" نفسه على هذا النحو:

"*هو الذى دخل مدينته مع مقومات الحياة التى سبقت خطاه إليها، ورافلاً فى الأعياد جاء دخوله إليها. ملك جبار يحبه جيشه، وهو حورس الطيب الذى جلب القرابين، وهو الذى سبب الأسباب لمدينته كى تعيش عندما سقطت فريسة العوز، قائد طيبة المنصورة، الإله الطيب محبوب رع، ابن آمون ملك الآلهة الذى حمى مدينته عندما هوت، و عندما غرقت، بالأجانب، وهو الذى أخمد، نيابة عنها، تمرد الأراضى الأجنبية بقوة والده "آمون"، وهو الذى أطاح من أجلها بالأعداء الذين ثاروا ضده*" .

وعلى الصادود الآخر[٧٩] نجد مديحًا للملك ما يدعى "مونتو-حوتب":

يتبغى على المرء أن يبتهج للمديح الذى يلقيه على مسامعه، أى مسامع الملك، عند مغادرته بيته، مثل قرص شمس يحبه جيشه، وهو الذى تفوق بساعده [..........] وهو الذى يحيا وفقًا لخططه [..........] لطيبة المنصورة! أنا ملك الداخل (أى وطنى) ولى ، هذه مدينتى. سيدة (هكذا) البلاد كلها، المدينة المنصورة سيدة كل المدن ! الإله العظيم، شبيه رع، الذى لن يطاول هامته أحد إلى الأبد ، من يبتهج الجميع لسماع اسمه [...........] للآلهة، هو الذى رد كافة البلدان الأجنبية على أعقابها، وأنقذ مدينته بقوته، ليس هناك أى نهب للناس فى ظل (حضوره؟) (آثار) مثل "سخمت" فى سنة انتقامها ("إع -"حر"-س)، ذاك الذى يخاف الجميع من لهيب أنفاسه، وهو الذى أطاح بمهاجميه (من جاء إلى (؟) حفرة الشرب(؟)[٨٠] فى حصنه، مثل المواشى (حول؟) مزاغل (شرفاته) حيث طلع من حصنه مثل تماسيح الفيضان، أتى الجيش مثلما يأتى الرعب من [...] ولم يكن هناك من يستطيع الوقوف فى وجوههم (شطفة س) الذى يعطى فى الوقت المناسب وهو يأتى كى يمر خلال نطقه، الذى يصنع بذراعه

المقتول الذى لا يثنيه ذراع آخـر، حاد الذهـن الذى يأتى من [... خمس مجاسيع] ، هو الذى يقف على رأس الأرضين".

حقًا تبدو لنا نحن المحدثين لهجة هذا المديح طنانة، إلا أن أحداثًا معينة هى التى أملت نقش هذين النصين.إذ نرى فى أحدهما مدينة وقعت فريسة العوز، ولم ينقذها سوى وصول الملك فى وقت مناسب حاملاً الطعام، و دافعًا للأعداء: "البلدان الأجنبية". وعلى الصادود الآخر نتابل دحر المهاجمين واستئصال شأفتهم، وهم البلدان الأجنبية مرة أخرى ما فى ذلك جدال، أولئك الذين يشبههم النص بالحيوانات التى "تخنخن" حول الحصن كى تطفئ عطشها فى ماء البئر المحفور فى الحصن. ويبدو مغريًا أن نرى فى كلا النصين إحياء شعريًا لذكرى الدفاع المستميت عن "طيبة" العاصمة نفسها ضد الغزاة الآسيويين أو النوبيين، أو ربما هما معًا. كما يغرينا بنفس الدرجة، أن نفسر مستوى الدمار فوق أطلال مدينة المملكة الوسيطة، الأخيرة، فى موقع "طيبة" بصفته ناجمًا عن إحدى مثل تلك الهجمات، وربما إحدى الهجمات التى وضعت النهاية الأخيرة للأسرة الثالثة عشرة التى كان الضعف قد دب، بصورة سيئوس منها، فى أوصالها(٨١). ولكن السؤال حول ما إذا كان الغزاه المعنيون هم النوبيون أم الهكسوس يظل سؤالاً بلا جواب شاف. وعلى أى حال استطاع الهكسوس أن يقولوا إنهم تمتعوا، خلال إحدى مراحل احتلالهم للبلاد، بسيطرة كافية على زمام "طيبة" سمحت لهم بإقامة نصب تذكارى هائل فى "جبلين" Gebelein إلى الجنوب مباشرة من مدينة "طيبة"(٨٢).

ويبدو مؤكدًا أن الهكسوس لم يدخروا وقتًا قبل إجراء اتصال ما مع النوبيين، مستخدمين فى ذلك، على وجه الاحتمال طريق الواحات "البحرية" و "الداخلة" و "دوش" كى يصلوا إلى النيل النوبى فى "توشكا"(٨٣). فلقد وصل إلى أيدينا العديد من الجعارين والأختام التى ترجع إلى الحاكم الهكسوسى "شيشى" وبالتحديد من الحصن المصرى الذى كان قائمًا فى "أورونارتى" Oronarti(٨٤) ومن مدينة "كرما"(٨٥) ويبدو أن "يعقوب - هر" يظهر أيضًا فى الموقع الأخير أى فى "كرما"(٨٦). وكما يبدو نمت تجارة نشطة (تبادل سلع) فى الزيت(٨٧) وسائر الكماليات مثل الأثاث والأسلحة(٨٨). وكانت هذه التجارة، كما سنعرف فى وقت لاحق، قد انطوت أيضًا على علاقات سياسية تقوم على التبعية، التى تغلف فى مصطلحات مألوفة، قياسًا مع الفارق، من آسيا الغربية.

وقع اختيار الملوك الهكسوس لمقر حكمهم، فيما يذكر "مانيتو" على "منف"، ولكن الطريق الذى سلكوه فى دخولهم مصر جعلهم على وعى حاد بالقيمة الإستراتيجية لشرق الدلتا. فها هنا، على فرع النيل الواقع فى أقصى الشرق، على بعد ٣٧ كيلو متراً شمال شرقى "بوباسطة" قامت واستمرت قائمة لمدة طويلة مستوطنة إدارية ودفاعية تدعى "دوار طريقى أختوى" وإذا كان لنا أن نسير حيث يقودنا اسمها، فهى عبارة عن منشأة بناها ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة اللتين قامتا فى "هيراكليوبوليس". (يشير الاسم ذاته إلى الموضع الأمثل للموقع، عند الفاصل الذى يقوم بين الطريق الشمالى- الغربى الذى يقود إلى "منديس" و وسط الدلتا، وذلك الطريق الشمالى الشرقى الذى يقود إلى سيناء وغزة.) وكانت المدينة، التى بدأت فى الأصل مستوطنة مخططة يحيط بها سور، قد توسعت خلال الأسرة الثانية عشرة، على أيدى "أمين-إم-حات" الأول و"سنوسرت" الثالث عن طريق إضافة معبد "كو" على الضلع الشمالى، وكان منذوراً لمؤسس البيت ومحاط ببيوت واسعة من الطوب الأخضر (= النى) لسكنى الكهنة والإداريين. ولقد أصبحت هذه المدينة معروفة (شعبيًا؟) ربما بسبب موقعها ذاك باسم "دوار الطريق الصحراوى"، وباللغة المصرية "حاوت وعرت" وهو الاسم الذى انتقل إلى اللغة اليونانية هكذا: Avápιδ أو "أباريس"(= أواريس)، وحملت الناحية المجاورة، ونظراً مرة أخرى لقربها من الصحراء اسم "فاتحة المزارع". ولقد احتفظت المدينة طوال الأسرة الـ ١٣ هى وزمامها بأهميتها بصفتها مركزاً إدارياً، وقد شملها الملك "نحسى" على وجه خاص برعايته فى الربع الأول من القرن السابع عشر ق.م[٨٩].

ألقت الاستكشافات التى قام بها "معهد المصريات بجامعة ڤيينا" فى سنة ١٩٦٦، تحت إشراف البروفيسور"مانفريد بيتاك" فى موقع "تل الضبعة" إلى الجنوب مباشرة من "عزبة رشدى" فيضًا من الضوء على فترة احتلال الهكسوس لمصر. فهنا أزيح النقاب عما لا يقل عن ست طبقات متميزة، الواحدة عن الأخرى من مستوى حقبة MB IIB-C على امتداد خطوط ثقافية كنعانية، والطابع المحلى والشعائرى فى أرباع الدوائر والأولى المربعات المستكشفة لا يدين بشىء للثقافة المصرية، فهذا الطابع خاضع بصفة

خاصة للتأثير الشمالى القادم من المشرق: تحلُّق مقابر العائلة حول المعابد، ودفن المتوفى مع أسلحته وتقريب أضاحى الأغنام كان شائعًا، وفى الغالب كان زوجان من الحمير يدفنان أمام باب المقبرة. وقد كشف عدد محدود من المقابر عن مخصصات غنية بما فى ذلك التيجان. ويعطيها حجم الموقع الذى استمر ينمو طوال تلك الفترة، بالإضافة إلى ضخامة معمارها وثروة قاطنيها، طابع مستوطنة كبرى أقامها الغزاة، بل وأيضًا وعلى وجه التقريب كمقر لحكامها ومستقر لجثثهم بعد الوفاة(٩٠).

كشفت الحفائر الحديثة أن مدى الاحتلال الآسيوى للدلتا فى القرنين السابع عشر والسادس عشر كان مقصورًا على الفرع الشرقى "البوباسطى" "للنيل و وادى "طميلات" وبالتالى الأطراف الشرقية للدلتا(٩١). فهنا، ومثلما كان عليه الحال فى "تل الضبعة-أباريس"، يتعين علينا ألا ننسى تلك الجالية الكبيرة التى ترجع إلى أصول فلسطينية أو سورية ونزحت إلى مصر واستمرت تعيش معزولة عمن يجاورونها ودون أن تقيم أى اتصال مع أى سكان مصريين من أهل البلاد الأصليين قد يكونون مقيمين فى المنطقة أو مع اتصال ضعيف فى أحسن الأحوال معهم. (لوحة رقم ١١).

أما فى أى مكان آخر سواء وسط الدلتا أو غربها أو وادى النيل ذاته، فإننا قد نذهب باطمئنان إلى أن السكان المصريين قد استمروا بأعدادهم السابقة، رغم خضوعهم فى ذلك الوقت لسلطة الهكسوس. وخلال الحرب اللاحقة التى نشبت فى سبيل تحرير مصر، كان "كاموسى" بطل "طيبة" الغيور على وطنه يندد ببنى جلدته "الذين سمحوا لأنفسهم بأن يلبوا نداء الآسيويين، ويخذلوا بذلك مصر سيدتهم" (كاموسى ١١، ١٨)، وبالتالى فإننا نستطيع أن نتصور أن تعاونًا على الأقل قد حدث. ويقرر "*مانيتو*" أن "ساليتيس" نصب حاميات فى سائر أنحاء الأراضى التى أخضعها(٩٢)، والنصوص المعاصرة تثبت أن الأمور سارت على ذلك النحو فـ "كاموسى" يشير إلى "مواطن الآسيويين" فى مصر الوسطى (كاموس ٨، ٨٨) ويطلق فى إطار ذلك تعبير "وكر الآسيويين" على مدينة "نفروسى" (المرجع السابق ١٣) كما يتحدث أيضًا عن حامية أسيوية وبورية حدودية فى "بير – شاق" (المرجع السابق ١٦). ويجد قول "*مانيتو*" بأن "ساليتيس" سن ضرائب على البلاد تعزيزًا أيضًا من خلال التعليق الساخط الذى صدر عن "كاموسى": "ما من أحد يستطيع أن يشعر بالراحة فى الوقت الذى "تحلب" فيه ضرائب الهكسوس الجميع!" (المرجع السابق – ٤).

إلا أننا لا نعرف شيئًا بالمرة عن الأشكال المحلية التى اتخذتها إدارة الهكسوس. ففى ظل التدمير الذى ألحقه المصريون الذين استبدت بهم الرغبة فى الانتقام بآثار الهكسوس فور طردهم فى نهاية الأمر، لا نجد مدعاة للعجب فى أننا لا نكاد نعرف سوى أقل القليل، والأمر بذلك متروك للقارئ كى يضفى وزنًا ملائمًا للأدلة التالية المليئة بالفجوات. فلم تظهر إلى النور أى نصوص تستطيع الإيحاء بأن منصب الوزير استمر على قيد الوجود. ومن جانب آخر هناك وفرة ملحوظة من أختام الجعارين التى ترجع إلى "أمناء الصناديق" تنتصر، فى رأى بعض الدارسين الأكاديميين لصالح الافتراض بأن هذا المنصب:"أمين صندوق"، كان رفيعًا فى إطار بيروقراطية الهكسوس[٩٣]. ويضع عدد من النقوش التى تشير إلى "الأبناء البكر" للملك قدراتنا فى مجال التفسير، موضع الاختبار. وكما سبق لنا أن أشرنا، فإن لقب "ابن الملك" قد تضعضعت مكانته من جراء اتساع نطاق مرجعيته أى عدد من يحملونه. فهل هؤلاء الهكسوس "أبناء الملك" يحملون فى حقيقة الأمر لقبًا شرفيًا، أم أنهم أمراء حقيقيون من صلب الملك؟ إلا أننا لا نصادف لقب: "ذاك الذى يسير فى أعقاب الملك" أو ما نطلق عليه فى لغتنا الدارجة : "التابع" سوى مرة واحدة[٩٤]، ولكن ذلك يبدو، اتفاقًا مع تقليد مستمد من الممارسات المصرية فى الفترة الانتقالية الأولى والأسرة الـ١٢ . وعلى نفس المنوال يأتى اختيار الهكسوس لأسمائهم الأولى متمشيًا مع نمط ساد على نطاق واسع تحت ظل الأسرة الـ ١٣ التى سبقت مجيء الهكسوس. وقد يكون المرء محقًا إذا ما استنتج أن الهكسوس تبنوا، بذلك، أشكالاً وجدوها جاهزة وفى متناول أيديهم فى مصر، وخضعوا لنصائح قدمها إليهم ناصحوهم من المصريين أبناء البلاد الأصليين.

و كم يتمنى المرء أن تظهر إلى النور بعض الأدلة على التقاليد "الإقطاعية" للهكسوس فى أى نص مصرى. إلا أن التقاليد "الأمورية" فى المشرق وفى وادى "دجلة والفرات" كانت قد تبنت الشكل الذى يقوم على عدد من الملوك العظام يشكلون فيما بينهم مراكز يدور فى فلكهم ملوك أقل شأنًا. وكان الملك العظيم يرى فى الملوك الأقل شأنًا الذين يتبعونه "أبناء" له، وهم، من وجهة نظرهم، يرون فيه والدهم[٩٥]. ونجد أول نتفة دليل، وربما أهم نتفة قادمة من مصدر مصرى خلال الجواب الذى

وجيه "أبوفيس" إلى حاكم "كوش"، ذاك الذى حفظه لنا الصادود الثانى لـ "كاموسى"، و فيه يدعو مرسله "أبوفيس" متلقى جوابه: "ابنى"[٩٦]. ويظهر لنا حاكم "طيبة" وهو أقدم معاصرة لـ "أبوفيس"، حاملاً اسم "سقن - ن - رع" الذى أوحى للبعض بأنه محاكاة من جانب تابع لمتبوع تبنى فى وقت سابق اسم "عا-قن -ن-رع".

ديانة الهكسوس:

لم يكشف الملوك الآسيويون الذى أسسوا الأسرة الـ ١٥ عن أصولهم الأجنبية إلى أى درجة أكبر مما كشفوه خلال الآلهة التى عبدوها. ففى الوقت الذى فرض الهكسوس فيه على الكهنة أن يصوغوا لهم ألقاب العرش بحيث يضمنونها اسم الإله الشمسى المصرى "رع"، استمر ملوك الهكسوس يؤدون طقوس عباداتهم القومية التى جلبوها معهم من آسيا. ولما كان تسعون بالمائة من أدلتنا النصوصية عن ديانة الكنعانيين ترجع إلى العصر البرونزى المتأخر فإن التطابقات التى نتصورها، وصحة استخدامنا لهذه الأدلة للعصر البرونزى الوسيط قد تكون محل شك. ومع ذلك فإننا نفترض فى الغالب الأعم وجود نوع من الاستمرار فى التقاليد بين القرن السابع عشر ق.م. والقرن الرابع عشر ق.م.

أضافت وزنًا إلى هذه الحجة التى تتسم بالتفاؤل، تلك "الأواسط الصرفية" (عند بناء الكلمات) الإلهية التى جرى إدخالها فى وسط اللقب، فى بعض أسماء الهكسوس التى فحصناها فى وقت سابق. وهنا يبرز ربان، أحدهما ذكر و الآخر أنثى. وهذه الأخيرة التى حملت اسم "عنات"، معروفة جيداً من أرشيفات "أوجاريت" كقرينة متعطشة للدماء لـ"السيد": بعل[٩٧]. ويبدو أنها هى التى تظهر كـ شبيهة لـ "حتحور" فى عدد من جعارين الهكسوس حاملة لقب "سيدة الشجرتين"[٩٨] أما الإله الذكر (شريك؟) فكان يشار إليه بلقب "هر" أى "رب الجبل"، وفى هذا الصدد وحسب يستطيع المرء أن يقارن الارتباط القوى بين "بعل" فى العصر البرونزى المتأخر وبين الجبال وخصوصًا "جبل صافون"[٩٩].

والحقيقة أن هناك أدلة أكثر على هذا التطابق فقصة "أبوفيس" و "سقن-ن-رع" التى حازت انتشاراً واسعًا فى مصر خلال عصور الرعامسة تصف كيف جعل "أبوفيس" من "ست" الإله المصرى سيده أى إلهه فلم يقرب قرابينه لأى إله آخر فى البلاد ولقد بنى معبداً انطوى على أعمال بارعة وخالدة بجوار "بيت أبوفيس" (له العمر والرخاء والعافية) وهناك أخذ يظهر بصفة يومية كى يقدم الأضاحى إلى "ست"، فى الوقت الذى كان رجال البلاط (من القصر، له العمر والرخاء والعافية) يحملون[١٠٠] أكاليل الغار، تمامًا مثلما كان جاريًا فى معبد "رع-حور-آختى".

ولقد تميز الإله "ست" بدور مزدوج فى المجمع الإلهى المصرى. فمن ناحية كان مناوئًا لـ"أوزيريس" وخصمًا لـ "حورس" كما كان إلهًا بريًا محمر البشرة يرتبط بالصحراء والجدب والفوضى، ومع ذلك أدى وظيفة إيجابية بصفته بطلاً بسط حمايته على إله الشمس "رع"، فضلاً عن أنه خالق الرعد[١٠١]. أما فى المملكة الحديثة فلقد تطابق، على نحو ما نعرف من "ترجمة مصرية" Interpretatio Aegyptiaca مع الإله الكنعانى من "بعل"، وتتزايد احتمالات أن يكون الأمر كذلك بالفعل تحت ظل حكم الهكسوس من خلال "صادود/لوح السنوات الأربعمائة". فهذا النصب، الذى أقامه رمسيس الثانى :"الأكبر" فى مدينة "أباريس"، بعد سنته الرابعة والثلاثين فى الحكم ببعض الوقت (أى فى سنة ١٢٧٠ ق.م. أو ١٢٥٧) جاء احتفالاً بذكرى مرور أربعمائة سنة على "حكم" الإله "ست"، الذى يجرى تصويره فى النقش الذى سبق الاستشهاد به، على هيئة "بعل"[١٠٢]. وقد يبدو أكثر احتمالاً من أى شىء آخر أن هذا "الحكم" يشكل الفترة التى انقضت منذ بدء حكم "الهكسوس" فى "أباريس" وكان لا يزال يحتفل بذكراه بعد مرور أربعة قرون عليه، ويعزى إلى رب مشترك هو "ست-بعل" الذى كان ارتباطه بالهكسوس لا يزال حيًا فى الذاكرة[١٠٣].

إلا أن "ست" كان متمتعاً بالعبادة فى شمال شرق الدلتا قبل مجىء الهكسوس، ولقد قرب "نحسى" بعض القرابين إليه[١٠٤]. وفى النصوص الهيروغليفية استمر الهكسوس أيضًا يستخدمون اسم "ست" حيثما كان عليهم، أن يستخدموا "بعل" فى الأحاديث التى يديرونها بلسانهم القومى[١٠٥].

حكم أبوفيس وإمبراطورية الهكسوس:

يمثل حكم "أبوفيس" (١٦١٥-١٥٧٥ على وجه التقريب) ذروة القوة التى حازها الهكسوس سواء فى مصر أو فى خارجها. ولعل الكلمات التى وضعها "كاموسى" (كاموسى ١١ ، ١٦-١٧) على لسان "أبوفيس" تعكس بصورة دقيقة، على وجه الاحتمال، المدى "القانونى" الذى بلغه سلطان الهكسوس عقب الانتهاء من المرحلة التكوينية الأولية لغزواتهم: "أنا السيد دون نظير من الأشمونين حتى (بى-حاتحور) وكذلك "أباريس" وعلى ضفاف النهرين.) وإذا كانت الرقعة التى خضعت لحكم الهكسوس قد امتدت على هذا النحو، حتى أكثر المدن الجنوبية مأهولية بالسكان أى "الأشمونين" فى المديرية الخامسة عشرة بالوجه القبلى، فإن ذلك يثبت أن حدود الهكسوس الفعلية قد امتدت من "القوصية"[١٠٦] فى المديرية الـ١٤ فى الوجه القبلى حتى موقع "بى - حتحور" شمال شرقى "أباريس" وهذا موقع قريب من الحدود الشرقية إلى درجة تسمح باعتباره:الصقع الأبعد (= الأقصى)[١٠٧] على أن الإشارة إلى "أباريس" و "النهرين" إنما تحيط بالدلتا بأسرها، حيث تكفى الإشارة إلى "بى - حتحور" و "أباريس" كى تشمل الفرع الشرقى للنيل، وتعنى الإشارة إلى "النهرين"، الفرعين الأوسط و الغربى للنيل[١٠٨]. وكان أن نسبت التقاليد الشعبية اللاحقة إلى "أبوفيس" (= أبافوس) فضل تأسيس مدينة "منف"، ولكن ذلك، لو صح، لا يعنى أكثر من تشييد مبنى ما (قصر؟) فى تلك المدينة وحسب[١٠٩].

كان زمام "طيبة" تحت ظل الأسرة السادسة عشرة التى تلفظ أنفاسها الأخيرة، تضم على وجه الاحتمال بقعة من مصر معقدة وعصية على الحكم، وتنطوى على قدر من الاضطراب لا يساوى إخضاعها بالكامل. وتوحى السخرية التى يسوقها "كاموسى" فى حق "أبوفيس" ("كاموسى" II, 1-2) : "سلطتك المحصورة مثلما هى حالتك التى لا تعدو بك أن تكون سيداً إقطاعياً، قد جعلت منى رئيساً"، بأن "أبوفيس" يقبل برواية تذهب إلى أن زمام "طيبة" أى "طيبة" و ما حولها، كانت خاضعة لإدارة الملوك "الطيبيين" بالنيابة عنه بصفتهم توابع له ومع ذلك فوجود قلعة من نوع ما فى "جبلين" جنوبى "طيبة" ذاتها[١١٠] يدل على أن سيطرة الهكسوس لم تكن مجرد نصوص قانونية.

إلا أن درجة سيطرة الهكسوس على البلاد التى قدموا منها تظل مثار جدل. فالجعارين المصممة تحمل اسم "الهكسوس" لمجرد أنهم كانوا متواجدين فى كل مكان فى مصر و فلسطين خلال فترة حكم الأسرة الخامسة عشرة، ولكنها قد تكون أو لا تكون بمثابة دليل على قيام حكم سياسى لهم: وعلى الأكثر تشهد هذه الجعارين على وجود نوع من المؤثرات الثقافية. ولما كانت تلك الجعارين تجمع بين "موتيفات" آسيوية وأخرى مصرية، وقد حمل تنفيذها آثاراً لتناول فنى أجنبى، فإن هذه السمات تعزز نسبتها إلى فترة الهكسوس. إلاّ أن الأختام و الجعارين التى ترجع إلى ملوك الهكسوس نادرة بشكل خاص، من ناحية أخرى، فى فلسطين(١١١). فأختام "شيشى" و "يعقوب – هر" موجودة، وتلك التى تحمل اسم الأخير: "يعقوب-هر" ترجع إلى "الجليل"(١١٢) فى أقصى الشمال. ويرجع خاتم لـ "خايان" إلى "شيفيلاه"(١١٣) ويرجع خاتمان لـ"عا–وزير–رع"، وهو "أبوفيس" على وجه الاحتمال، إلى فلسطين، دون تحديد لمصدرها على وجه أدق، هناك(١١٤). أما الجعارين الأخرى التى تكشف عن تصميمات تنطوى على شعارات واستخدام متحرر للأسماء والألقاب الملكية فقد تشير إلى وجود مندوبين ساميين من نوع أو آخر.

ويحق للمرء أن يتساءل عما إذا كانت مثل هذه العبارات التى تتضمنها الخراطيش مثل "الشمس الطيب" (كلمة "الشمس" مذكر فى المصرية القديمة، على العكس منها فى معظم لهجات آسيا الغربية) و "ذاك الذى جعله "رع" يظهر للعيان" و "شمس كل البلدان" فليست سوى إشارات مباشرة إلى الملك الحاكم.

ومع ذلك فلسنا نقف وحدنا متخبطين فى خضم بحر الجعارين تلك، التى تنطوى على صعوبة سيئة السمعة، مثلما هى عليه، لكل من يحاول الإقدام على التفسير سواء أكان المؤرخ أو الوقائعى Chronologist (= كاتب الوقائع)، إذ نملك إشارات نصوصية أكثر تحديداً، فالاسمان المفترضان :"خايان" و "أبوفيس" و بالتحديد: "هو الذى يحيط بالأرضين" و "رع هو رب السيف"(١١٥). يثيران، ولا شك بعض الظنون. فالنص المنقوش على أحد مناضد القرابين، التى نذرها "أبوفيس" لـ "ست" وترجع فى أصلها إلى "أباريس" يقول: "حورس هو الذى يهدئ روع الأرضين، الطيب القلب "عا–قن–ن–رع" الحى (إلى الأبد)! لقد جعلها بمثابة نصب لوالده "ست" سيد "أباريس" عندما وضع

كافة الأراضى تحت قدميه"[١١٦] وعند هذه النقطة الحاسمة نستطيع أن نقارن بين هذين اللقبين اللذين نسبهما "أبوفيس" لنفسه على أكثر الفيوضات الشخصية الطابع صراحة: لوحة الكتابة (= تختبوش) الخاصة بالكاتب"أنبو": "رابط الجأش فى خضم المعارك، وصاحب أعلى صيت (بالتحديد: اسم) عن أى ملك آخر، ذاك الذى يبسط حمايته حتى على أراض غريبة لم تصافح وجهه.. وليس هناك نظير له فى أى بلد من البلاد!"[١١٧] فهنا نرى ملكًا محاربًا كسب لنفسه صيتًا عريضًا، وصار يرى فى نفسه حاكمًا عالميًا يحمل على كاهله التزامات بعيدة المدى. وعندئذ يظهر وصف "كاموسى" لرقة "أباريس" خلال حكم "أبوفيس" تحت ضوء جديد. فهذا الثائر الطيبى يشير إلى "مئات السفن المصنوعة من خشب الأرز، الموسوقة بالذهب واللازورد والفضة والفيروز والبُلط–البرونز دون حساب، ودع عنك زيت شجر اليسر والدهون والعسل والصفصاف، وأخشاب شجر البقس، والعصى، وكافة أنواع الأخشاب الفاخرة– وكافة المنتجات السورية!" (كاموسى II ١٣ ، ١٥) .

قد يكون هذا الدليل ضعيفًا ولكنه يتميز بأنه يستعصى على تحريف مغزاه. فالغزو العسكرى، الذى اجتاح شمال البلاد على ما هو واضح و وضْع ملك عظيم و الكميات الضخمة من الجزية – كل هذا مستحق لـ "أبوفيس" العظيم وربما أيضًا لسلفه "خايان". واسم الشخص الأخير معروف من خلال عدد من الأشياء الصغيرة[١١٨] – سنجة وزن من بغداد و حق مرهم من "بوغاز كوى" (التى أصبحت عاصمة للهكسوس فى وقت لاحق) وغطاء قنينة من المرمر تعود إلى "كنوسوس" Knosos – و أصبح فى وقت ما يوحى لبعض الدارسين بصورة إمبراطورية عالمية[١١٩]. ولم يكن هناك وجود، بطبيعة الحال، لشىء من هذا القبيل على أيام الهكسوس، ولكن هذه الأشياء الصغيرة التى قدمت من مناطق متفرقة لا تخلو من مغزى. وإذا ضممناها إلى القنينة المنقوشة من أجل الأميرة "تاوا" شقيقة "أبوفيس" التى تعود إلى إسبانيا، و طبق "خريت" ابنة "أبوفيس" الذى يعود إلى مقبرة "أمين –حوتب" الأول فى "طيبة"، فهل تستطيع أن تعطينا لمحة عن بلاط يدب فيه النشاط فى "أباريس" وتمتد مصالحه إلى مستوى عالمى، ويبعث بالهدايا الدبلوماسية الأبعاد بل و ربما وصل الأمر حد ترتيب زيجات بين الدول – المدن فى فلسطين وسوريا وجزر بحر "إيجة"؟[١٢٠] يتعين علينا، فى سبيل استخلاص دليل على نفس النوع من الاتصالات الدبلوماسية أن نؤول العدد الضخم من التماثيل

الذى يرجع إلى المملكة الوسيطة، مما عثر عليه المنقبون المحدثون فى رقعة تمتد فى غرب آسيا إلى نهر الفرات. فهذه الأشياء لابد وأن تكون قد شكلت جزءًا من "الغنائم" التى استولى عليها الهكسوس خلال الفترة الأولى من بسط سيطرتهم فى أرجاء مصر، ثم أخذوا يفيدون منها فى وقت لاحق كهدايا يتبادلونها مع دول المشرق(١٢١).

يتعذر علينا أن نرجم بشىء محدد فى الوقت الحاضر عما إذا كان بوسعنا افتراض أن نطاق مصالح أسرة الهكسوس قد امتد إلى أبعد من شبه جزيرة سيناء. إلا أن السهولة التى استطاع خلالها فلول حرب التحرير أن يصمدوا أمام "أحموسى" فى مدينة "شاروهين" قرب "غزة" أوحى للبعض بوجود كيان تابع للهكسوس يتخذ من هذه المدينة مركزًا له، و يبسط سيطرته شمالاً على معظم السهل الفلاسطينى Philistine حتى مشارف "يافا" Joppa(١٢٢). وينبغى علينا أن نتذكر فى هذا الصدد أن "حازور" (= حاصور) فى شمال وادى الأردن ضمت خلال عصر "شمسى-أداد" و "حمورابى" أى فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن السابع عشر ق.م. مركزًا كبيرًا من مراكز القوة، يمكن أن يكون قد بسط سيطرته على معظم شمال فلسطين والجولان(١٢٣). ولقد أوضحت طبقات/حقب MBIIB التى تكشفت خلال عملية الاستكشاف التى قام بها "يادين" للموقع وجود فترة مستمرة من الرخاء على امتداد القرن السابع عشر وحتى القرن السادس عشر ق.م وهى الفترة التى لم تنته إلا بفعل دمار شديد فى مستهل العصر البرونزى الأول(١٢٤)، حتى إن نظام "حازور" (= حاصور) ما كان إلا أن يحافظ على مركزه القوى خلال معظم، إن لم نقل كل، فترة الهكسوس. وما لم يكن "أبوفيس" نفسه هو الذى أنزل ذلك الدمار الذى لحق بـ"حازور" عند طبقات/حقب MBIIC، فإننا لا نستطيع إلا افتراض أن استمرار هيمنة "حازور"(= حاصور) كان ليحول دون محاولات الهكسوس فى مد سيطرتهم باتجاه الشمال.

تثير العلاقات التى أقامها الهكسوس مع جيرانهم من القوى الواقعة على الجانب الآخر من البحر عديداً من المشاكل، رغم الدليل الذى يستعصى على الإنكار الذى يقدمه لنا نص "خايان" الذى يرجع إلى "كنوسوس" Knossos (مدينة قديمة فى جزيرة "كريت" وعاصمة الملك الأسطورى "مينوس") . ولو أن الأدلة الأخرى التى تؤيد نشوء أى اتصال بين مصر وجزر بحر "إيجة" فى ذلك العصر نادرة بصورة ملحوظة. فلم تصل إلى أيدينا أى أشياء فى مستوى ("منويان" الأوسط ١) Middle Minoan 1 من مصر،

ووصلت أشياء مصرية قليلة للغاية من جزيرة "كريت" أو قلب بلاد اليونان، مما يرجع إلى ذلك العصر(١٢٥). إذ إن تجارة بحر "إيجة" كانت تتجه بصورة رئيسية باتجاه الشرق نحو شمال سوريا وعبر الموانى السورية إلى بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا)، ويقارن البعض ،عن حق، بين رسـومات الفريسكو فى قصور "أوجاريت" و "مارى" و "ألالاخ" وبين رسوم الفريسكو المشابهة فى قصر "كنوسوس"(١٢٦) ، وتشير أراشيف "مارى" فى الواقع إلى منتجات مستوردة من "كابتارا" Kaptara (كريت)(١٢٧). فهل تمتع الهكسوس بصورة غير مباشرة أى عبر سوريا بالاتصال بجزر بحر ايجة(١٢٨)؟

يبدو أن حكم "أبوفيس"، بعد استعادة و فحص نتف الأدلة التى كانت مبعثرة على نطاق رقعة واسعة، خلال شبورة التاريخ، كان عصراً شهد قدراً ما من الغنى الثقافى. فالقرن الذى كان قد مر على الغزو كان كافيًا لمنح الأسرة الحاكمة على الأقل قشرة راقية من ثقافة وادى النيل. وبلغ الأمر حد ادعاء "أبوفيس"، ليس القراءة والكتابة باللغة الهيروغليفية وحسب، بل والتبحر فى أسرارها و الولع بالآداب المصرية كذلك. ويطلق على نفسه على لوحة (= تختبوش)! "كاتب الإله "رع"، من تلقى تعليمه على أيدى إله الحكمة "تحوت"، متعدد المواهب (حرفيًا: يتميزٌ بأعمال ناجحة عديدة) يوم أن قرأ بأمانة متدفقة كافة الكتابات بفقراتها الصعبة مثلما يتدفق نهر النيل" وقد نكون محقين إذا صدقنا ادعاءه الاهتمام بالأدب، وذلك لأن حكمه و بالتحديد السنة الثالثة والثلاثين لجلوسه فى العرش شهدت استنساخ بردية "رند" الرياضية إلى جانب عدد آخر من البرديات الأدبية الأخرى مثل بردية "ويستكار" التى قد لا يجانبنا الصواب فى إرجاع تاريخها إلى نفس فترة الحكم. ويرسم لنا "كاموسى"، دون أن يقصد، على الأرجح، صورة ساحرة للعاصمة "أباريس" تحت حكم "أبوفيس" إذ تتمتع بتحصينات قوية وازدهار كبير خلال هذه الفترة الأخيرة من سيادتها. و كانت أسوارها عالية و متوجة بالشرفات التى تقبع خلف شبابيكها النساء كالحيوانات الأليفة فى حظائرها. ويقوم إلى الشمال مرفأ مزدحم والأرض الممتدة حولها منبسطة. وبينما تمتد الصحراء إلى الشرق منها، إلا أن هناك تكاعيب عنب فى الأراضى المجاورة، وهذه تكاعيب تنتج ما يحتاج إليه القصر الملكى والبلاط من نبيذ(١٢٩). ولما كان الحكام الهكسوس غافلين عما تخبئه لهم الأيام فلم يستطيعوا تبادل الأنخاب من ذلك النبيذ لمدة طويلة.

الهوامش

(١) D. B. Redford, Pharaonic King-lists, Annals and Day- books (Toronto, 1986), 278, n.77.

(٢) Contra Apionem, 1.74,91.

(٣) Cf. J. G. Duncan, Digging up Biblical History (London, 1931), 69-72.

(٤) W. F. Albright, BASOR 146 (1957), 30-31; idem, Yahweh and the Gods of Canaan (New York, 1969), 57, n. 12; cf. B. Mazar, IEJ 18 (1968), 88n. 61.

(٥) R. M. Engberg, The Hyksos Reconsidered (Chicago, 1939); Z. Mayani, Les Hyksos et le monde de la Bible (Paris, 1956); cf. Mazar, IEJ 18 (1968), 91-92.

(٦) W. Helck, Die Beziehungen Ägyptens zur Vorderasien[2] (Wiesbaden, 1972), 104.

(٧) انظر النقاش اللاحق فى هذا الفصل.

(٨) D. B. Redford, Orientalia 39 (1970), 1-51; idem, King-lists, 240-42.

(٩) M. Bietak, in A. F. Rainey, Egypt, Israel, Sinai (Jerusalem, 1987), 41-56.

(١٠) W. G. Waddell, Manetho (london, 1940), 90.

(١١) انظر النقاش اللاحق.

(١٢) انظر:

T.Säve - Söderbergh, JEA 37 (1951),53-71; J.Van Seters,The Hyksos, A New Investigation (New Haven,Conn.,1966); A.H.Gardiner,Egypt of the Pharaohs (Oxford, 1961), 156-57; W.C.Hayes,CAH II[3],pt.1(1973),54ff.;cf.M.Bietak,LdÄ 3 (1980),94-103; idem. in Rainey, Egypt,Israel.Israel,Sinai52.

(١٣) Kamose I, 4-5: W. Helck, Historisch-biographische Inschriften der 2. Zwischenzeit (Wiesbaden, 1975), 84.

(١٤) A. H. Gardiner, JEA 32 (1946), 43-56.

(١٥) J. M. Weinstein, BASOR 217 (1975), 1-16; W. Helck, UF 8 (1976), 101-14.

(١٦) انظر الملاحظات التى وردت على لسان "ميرى – كا – رع" و "نفرتى"، تلك التى عرضناها فى الفصل الثالث.

(١٧) فى سبيل الاطلاع على مناقشات مستفيضة و قائمة بمراجع وافية انظر الآن :

M.Bietak,H.Goedcke,and A.-P,Zivie,LdÄ 6 (1986),321-51.

(١٨) M. Bietak, Proceedings of the British Academy 65 (1979), 244 (stratum f).

(١٩) J. S. Holladay, Jr.,Cities of the Delta, vol.3:Tel el-Maskhuta (Malibu, Calif., 1982).

(٢٠) D. B. Redford, JSSEA 11 (1981), 253; idem, Akhenaten, the Heretic King (Princeton, N.J., 1984), 98.

(٢١) Diodorus, 1.59-61; A. Burton, Diodorus Siculus, Book I. A Commentary (Leiden, 1972), 179-82.

(٢٢) انظر:

A.B.Lloyd, JEA 56 (1970),81ff.; K.Michalowski, JEA 54 (1968), 219ff.; D.Arnold, MDAI 35 (1979), 1ff.

(٢٣) بصفة عامة من ١٧٨٦سنة إلى ١٦٦٠ق.م. ويستمر تاريخ الفترة طى الغموض فيما يتعلق بالتواريخ الدقيقة لفراعنة الأسرتين الثامنة عشرة و التاسعة عشرة (انظر فى هذا الصدد، ضمن أخرين):

E.F.Wente and C.C.van Siclen III,in J,H.Johnson,ed.,Studies in Honor of George R.Hughes {Chicago,1976},217-62;E.Hornung,in M.GÃrg,d.,Festschrift Elmar Edel {Bamberg,1979}, 247ff.;R.Kraus,GM 70 {1984}, 37-44; idem,Sothis und Monddaten {Hildesheim,1985}

وفى هذا الكتاب نسير وفق التاريخ "العالى" الذى يستخدم فى CAH وهو التاريخ الذى يضع الفرعون "تحوت - موسى" الثالث فى سنة ١٥٠٤ ق.م.، (علما بأن التاريخ "المتوسط" كان ليخفض هذا التاريخ بواقع ١٤ سنة، أما التاريخ "الأدنى" فكان ليخفضه بواقع ٢٥ سنة)، وهو نفس التاريخ الذى يضع طرد الهكسوس فيما بين سنتى ١٥٥٥ و ١٥٥٠ ق.م. وحول المناقشات الحديثة حول تاريخ فترة الهكسوس، انظر:

M.Bietak,AJA 88 (1984),471-85;W.G.Dever,in Palestine in the Bronze and Iron Ages (London,1985),67-87.

(٢٤) Helck, Historisch-biographische Inschriften, 41-44.

(٢٥) حول هذه النعوت، انظر صواديد/ألواح "نفر - حوتب - إخر - نفرت":

ibid., 45; P.Vernus, ASAE 68 {1982},129-35)

و "مونتو - حوتب"، انظر:

J.Von Beckerath,Untersuchungen zur politischen Geschichte der zweiten Zwischenzeit in Ägypten {Glückstadt,1965},288;P.Vernus,RdE 40{1989},145-61), both are found at Karnak.

ونجد كليهما فى معبد الكرنك.

(٢٦) Helck, Historisch-biographische Inschriften, 41-44.

(٢٧) عامو (Kamose 1,4-5,13).

(٢٨) kamose I, 7.

(٢٩) Kamose II, 4.

(٣٠) Kamose I, 13.

الفعل المستخدم هنا هو (btn) الذى يعنى "أن يضع المرء نفسه كمعارض لـ...". انظر:

WB I,485:17-486:2; E.Blumental, Untersuchungen zum ägyptischen Königtum des mittleren Reiches {Berlin,1970},1:212).

وهذه تأخذ، عادة، صورة "وجه" كمخصص، أما إذا استخدم الكاتب صورة "رجلين تمشيان" فالمعنى يشتبك، دلاليا، مع (bt) وهو الفعل الذى يعنى "أن يجرى خلال..." قارن:

PT 140,253,769.

(٣١) redford, Orientalia 39 (1970), 16.

(٣٢) C. F. Jean, RA 39 (1942), 78, 81.

(٣٣) G. Dossin, Syria 32 (1965), 1-28; J. D. Safren, JESHO 32 (1989), 28-29.

(٣٤) G. Dossin, Syria 32 (1956), 63-69.

(٣٥) ARM II, 33.

(٣٦) ARM II, 72.

(٣٧) ARM I, 123.

(٣٨) ARM V, 16.

(٣٩) Syria 19 (1938), 121-22.

(٤٠) ARM VI, 58.

(٤١) G. Dossin, in Mélanges syriens offerts à M.R. Dussaud (Paris, 1939), 981.

(٤٢) ARMI, 69.

(٤٣) Redford, Orientalia 39 (1970) 20 and n. 4; idem, King-lists, 199-200 and n.245.

(٤٤) Redford, King-lists, 201, n.252.

(٤٥) On the strength of the ancestral cult among the tribal Amorites,..

حول قوة وعمق عبادة الأسلاف بين القبائل الأمورية)، انظر:

see D Charpin and J.-M. Durand, RdA 80 (1986) 141-83.

(٤٦) أدى العجز عن الاعتراف بأن ما يسمى بالأسرة الرابعة عشرة عبارة عن وهم محض إلى إعادة بناءات (= تصورات) غريبة لأحداث الفترة التى سبقت مباشرة الأسرة الخامسة عشرة، انظر:

M.Bietak,SAK 11 (1984),59-76;J.Yoyotte,BSFE 114 (1989),17-63.

(٤٧) فى خضم النظريات الأساسية التى تتناول الأسرة الهكسوسية "الأكبر" و تلك "الأصغر"، نجد:

D.Redford "History and Chronology of the Egyptian Eighteenth Dynasty,Seven Studies (Toronto,1967),43-46.

(٤٨) Waddel, Manetho, 86,90,92.

(٤٩) A.H. Gardiner, The Royal Canon of Turin (Oxford, 1959),17 (note).

(٥٠) Listed under the 17th Dynasty.

(٥١) M. Bietak, MDAIK 37 (1981), pl.6.

(٥٢) L. Borchardt, Die Mittel zur zeitlichen Festlegung von Punkten der ägyptischen Geschichte (Cairo 1935), 92ff. (fifth generation from Senwosert III).

(٥٣) من تعبير (عظيم البسالة هو "رع") = بالهيروغليفى: "عا - قنن - رع".

(٥٤) Redford, Orientalia 39 (1970), 35-38;

وأرى أن الجهود التى بذلها أصحابها فى سبيل قراءة ظلال المعانى التاريخية أو التعبدية كى تفيد مثل هذه القصة التافهة، عبارة عن جهود خرقاء.، انظر:

L.Störk, GM 43 (1981),67-68;H.Goekicke, The Quarrel of Apophis and Seqenenre' (San Antonio,1986).

(٥٥) See in general Von Beckerath, Untersuchungen, 269-80; Helck, Beziehungen[2], 89-106; idem, Historisch-biographische Inschriften, 54-58; W.A. Ward, UF 8 (1976), 353-65; A. Kempinski, in S. Groll, ed., Pharaonic Egypt, the Bible and Christianity (Jerusalem, 1985), 129-38.

(٥٦) Von Beckerath, Untersuchungen, 278.

(٥٧) أريق حبر كثير حول هذا الاسم (قارن بين آخرين):

S.Yelvin,JEA 45(1959),16ff.;R.Giveon,Tel Aviv 3 (1976),133).

فى الوقت الذى نعرف فيه صيغة ماضٍ ناقص (= غير تام)، مشتقة، فيما يبدو ظاهريا من (ع ق ب) بمعنى "أن يحمى" (Ward,UF 8(1976), 359) بالإضافة إلى الاسم المقدس، ولو أن هوية هذا الاسم ليست واضحة بحال من الأحوال، من جراء تقلب النسق الكتابى. ومعظم الأمثلة تعطى - هر، وهو عبارة عن "رب جبلى" فيما يبدو ظاهريا، ولكن نحو ١٦ مثالا تضم كتابات مختلفة، ى ع ق ب - (ر)، ى ع ب - ر أو ى ع ب - م، ولكن الرسم الأخير نستطيع رفضه لأول نظرة بصفته شكلاً خاطئًا :انظر:

Von Beckerrath,Untersuchungen,278;Giveon,Tel Aviv 3 (1976),133(8)

ولقد قرنت Cr أصلية فى القلم الهيراتيكى، على سبيل الخطأ، كـ mu نتيجة للتشابه فى الحروف/العلامات المزدوجة. و لكن السؤال يظل قائما حول ما إذا كنا مع الصيغ التى تتضمن c r نقف إزاء اسم مقدس آخر. وفى هذا الصدد طرح الباحثون اقتراحين: يقول الأول إن c r يشير إلى وجود "ع ل ى" أى "المبجل"، ويرى الاقتراح الثانى أننا إزاء "ب ع ل"(=إله كنعانى). و من جانب آخر، فلما كان من الواضح أن كافة الصيغ التى توصلنا إليها إنما تشير إلى نفس الشخص، فإن ذلك يجعل احتمال أن يكون رسم cr جاء على سبيل الخطأ فى رسم الاسم العام "هر"، أمرًا مستبعداً.

(٥٨) Von Beckerath, Untersuchungen, 278.

(٥٩) Ibid., 271-72; Hayes, CAH[3] II, pt. 1 (1973), 60ff.; H.Stock, MDOG 94 (1963), 73-80; R.Giveon, JEA 51 (1985), 202-4; W. Helck, Die Beziehungen Agyptens und Vorderasiens zur Ägäis (Darmstadt, 1979), 48-50.

(٦٠) M. Bietak and M. Gorg, MDAIK 37 (1981), 63-73; Kempinski, in Pharaonic Egypt, the Bible and Christianity, 131.

(٦١) Von Beckerath, Untersuchungen, 275; H. Gauthier, Le livre des rois d'Egypte (Cairo, 1912), 2:144, n. 7; Helck, Historisch-biographische Inschriften, 55 (no.75).

(٦٢) Untersuchungen, 274-75; Gauthier, Livre des rois, 2:141-43, no. 6; Helck, Historisch-biographische Inschriften,55-56 (nos.76-78).

(٦٣) Von Beckerath, Untersuchungen, 272-74; Gauthier, Livre des rois, 2:139-43, nos. 5 - 6; Helck, Historisch - biographische Inschriften, 56 - 58 (nos. 79-85); I. Gamer-Wallert, ägyptische und ägyptisierende funde aud der Iberischen Halbinsel (Wiesbaden,1978), 39-40; R. Giveon, in M. Görg, ed., Fontes atque Pontes (Wiesbaden, 1983), 155-61.

(٦٤) L. Habachi, The Second Stela of Kamose and His Struggle against the Hyksos Ruler and His Capital (Glückstadt, 1972).

(٦٥) Redford, History and Chronology, 44 n. 90.

(٦٦) وصفها أحد الدارسين بصورة مختلفة قليلاً، استناداً إلى الأساليب الفنية، وهو (W.A.Ward) في:

O.Tufnell,ed.,Studies on Scarab Seals (Warmister, 1984), vol.2, no.1,1 62ff., esp. 172.

فى فترة لا تزيد إلا قليلا عن قرن، حيث يمتد حكم اثنين من ملوك الهكسوس الستة، إلى ما يربو على نصف مدة بقاء الهكسوس فى مصر (وربما يمتد حكمهما إلى ثلثى المدة) يصعب على المرء أن يقبل التنوعات الفنية كمؤشر تأريخى (= صالح لتحديد تواريخ معينة)، انظر:

D.Franke,Orientalia 57 (1988), 260ff.

(٦٧) R. Giveon, Tel Aviv 7 (1980), 90-91: "the (foreign) chief Yat(?), repeating life.

(٦٨) G. T. Martin, Egyptian Administrative and Private- name Seals (Oxford, 1971), no.318.

(٦٩) Ibid., nos. 349-50; Von Beckerath, Untersuchungen, 279.

(٧٠) W.M.F. Petrie, Scarabs and Cylinders with Names (London,1917), xxi, D15.1.

(٧١) Untersuchungen, 272.

(٧٢) Martin, Seals, no. 1453.

(٧٣) H. Stock, Studien zur Geschichte und Archäologie der XIII. bis XVIII. Dynastien Ägyptens (Hamburg, 1942), 473, n. 2; 492; 534, n. 3;729-30.

(٧٤) Cf. G. Dossin, Syria 19 (1938), 117; J. Munn-Rankin, Iraq 18 (1956), 68ff.

(٧٥) F. Gomàa, Die Besiedlung Ägyptens während des mittieren Reiches (Wiesbaden, 1987), 39.

أوقعت عمليات النهب و السلب التي أسفرت عن تبعثر آثار الملكة الوسيطة في طول و عرض الدلتا، قارن : A. Dosón,ZÄS 114 (1987), 44

في وهم كثيرين تصورات مغلوطة بشأن تاريخ الأسرة الثالثة عشرة، انظر رقم ٨٩:

ويشير كل من "أحموسى و "حتشبسوت" إلى تجديد المعابد، انظر:

Helck,Historisch-biographische Inschriften,109-10;A.H.Gardiner,JEA 32 (1946) pl.6:36ff.

ولكن يبدو أن عصر الفرعون "تحوت–موسى" الثالث هو الذى شهد انطلاق برنامج شامل على نطاق واسع لإعادة بنا المعابد فى الدلتا.

(٧٦) B.G. Tigger, History and Settlement of Lower Nubia (New Haven, Conn., 1959),104; a.W. Lawrence, JEA 51 (1965), 72; W.B. Emory, Egypt in Nubia (London, 1965), 166-68; h.S.Smith, The Fortress of Buhen. The Fortress of Buben. The Inscriptions (London, 1976), 80ff.

(٧٧) F. Hintze, ZÄS 91 (1964), 84; w. Helck, UF (1976), 8, 102ff.; B. J. Kemp, in Ancient Egypt, a Social History (Cambridge, 1 983), 162-68. For the kerma kingdom, see W. Y. Adms, in E. Endesfelder, ed., Ägypten und Kush (Berlin, 1977), 41ff.; c. Bonnet, in J. Vercoutter, ed., Hommage à Serge Sauneron (Cairo, 1979), 3ff.; D.O'Connor, JARCE 21 (1984), 65ff.

(٧٨) See n.25.

(٧٩) See n.25. The present translation is from the author's hand copy.

(٨٠) Cf. CT VI, 23 1m.

(٨١) But see the caveat on p. 103 and n. 20.

(٨٢) G. Daressy, RT 16 (1894), 42.

(٨٣) Redford, JSSEA 7, no.3 (1977), 2-3f.

(٨٤) O.Tufnell, JEA 61 (1975), 69.

(٨٥) G. A. Reisner, Excavations at Kerma (Cambridge, 1923), 2:75, fig. 168, nos. 57-58, 61-62.

(٨٦) Ibid., 2:75, fig. 168, no.56.

(٨٧) إذا كان هذا ما تحمله الأباريق الصغيرة التى عثر عليها المنقبون فى "تل اليهودية"، وحول هذه الفخاريات انظر:

(٨٨) Kemp, in Ancient Egypt, 160-73.

(٨٩) حول (دوار طريقى "أختوى") انظر:
S.Adam, ASAE.56 (1959), 207-26; Gomaa, Besiedlung, 232-33; M.Bietak, Marhaba 3 (1983),4 1.idem,Avaris and Pi-Ramesse (London,1981),290. On Nehesy's patronage of this region,see M.Bietak, SAK 11(1984),59ff.;

عودة آثار "نحسى" إلى شرق الدلتا كمصدر و منشأ، مع ذلك، لا يتصل من قريب أو من بعيد بالمدى الإقليمى الذى امتد إليه حكمه. فلم يتبق إلا أقل القليل، من آثار حكم هذا الفرعون (ولا من آثار الفراعنة الآخرين الذين ينتمون إلى نفس الفترة). ولقد تبعثرت آثار الأسرة الثالثة عشرة فى العصور اللاحقة على نطاق يصل من الاتساع حدا يجعل من إضفاء مثل تلك التفاصيل الدقيقة سواء على "نحسى" أو حكمه، على نحو ما فعل "بيتاك" نوعا من بناء قصر من أوراق اللعب!، انظر:

in Rainey,Egypt,Israel,Sinai,50.

تعجز الأدلة الأثرية بصفة عامة، و بصرف النظر عن مدى النشوة الجمالية التى قد تنطوى عليها فى أعين أولئك الذين تقتصر آفاقهم، بحكم مهنتهم، على التنقيب، عن حمل مثل ذلك الوزن (العلمى).

(٩٠) M. Bietak, Tell el- Daba*a (Vienna, 1975); idem, Avaris and Pi-Ramesse; for the palace, see M. Bietak, Anz Österr Akad Wissenschaften 121 (1984), 312-49; D. Eigner, JOAI 56 (1985), 19-25; J. Lecant, Orientalia 56 (1987), 303-4.

(٩١) Bietak, SAK 11 (1984), 69, fig. 5.

(٩٢) Waddell, Manetho, 80.

(٩٣) W.Helck, Zur Verwaltung der mittleren und neuen Reiches (Leiden,1958), 79-80;

وحول أمناء الصندوق، "حور" و "عابر" و "سعدى" و "بر – إم – وحات" و "ريدى – ها ع" انظر:
P.Labib, Das Herrschaft der Hyksos in Ägypten und ihr Sturz (Berlin,1936), pl.6;T.Söve-Söderbergh, JEA 37,37,65,W.A.Ward,Orientalia Lovaniensia Periodica 6-7 (1976),589ff.; Martin,Seals,nos. 479-508,904-12 and passim (ما بعدها) Helck, Historische-biographische Inschriften,57:83

(٩٤) G. Daressy, ASAE 7 (1906), 115ff.

(٩٥) Munn- Rankin, Iraq 18 (1956), 68-110.

(٩٦) R. Stadelmann, MDAIK 20 (1965), 62-69.

(٩٧) Van Seters, The Hyksos, 175-78. R. Stadelmann, Syrisch-Palästinensische Gottneiten in Ägypten (leiden, 1967), 88-95.

(٩٨) I. Beste, Corpus Antiquitatum Aegypticarum: Scarabaen, Kestner Museum (Hanover, 1979), no. 2844.

(٩٩) A. S. Kapelrud, Ba*al in the Ras Shamra Texts (Copenhagen, 1952), 57-58; C. H. Gordon, Ugaritic Handbook (Rome, 1965), no. 2185; S. M. Olyan, Asherah and the cult of Yahweh in Israel (Atlanta, 1988), 62-63; for Ba*al Saphon at Tell ed- dab*a, see Bietak, in Rainey, Egypt, Israel, Sinai, 43.

(١٠٠) A.H. Gardiner, Late Egyptian Stories (Brussels, 1931), 85-86; Goedicke, The Quarrel, 10.

(١٠١) H. Te Velde, Seth God of Confusion (Leiden, 1967).

(١٠٢) Redford, Orientalia 39 (1970), 23-31; Van Seters, The Hyksos, 97ff.

(١٠٣) إصرار "ستادلمان" المؤسف على تصــور الأربعمــائة سنة كيوبيل (= عيد) للمعبد، استناداً إلى وجـود عـبادة أو ضـريح للإله فى "أباريس"(= أواريس): انظر أحـدث بحث نشر فى هذا الصدد فى: , LdÄ 6 (1986),1042).

قد يعني قطع العلاقة بين "حكم" الإله و حكم أتباعه الذين يعبدونه. و لكن الواضح أن "حكم" الإله "سيت"، مثـل حكم ســائر الآلهــة الآخـرين، مصاغ وفقـا لظــاهرة أرضيــة (= دنيوية)، وليس هناك ملك دنيوى يؤرخ لبداية حكمه من لحظة بنائه لقصره.

(١٠٤) W.M.F. petrie, Tanis (London, 1885), 1:pl.2.

(١٠٥) Helck, Historisch-biographische inschriften, 55, no. 76.

(١٠٦) Von Beckerath, Untersuchungen, 147, n.4.

(١٠٧) H.Gauthier, Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques (Cairo,1926) ,2:117;

قارن صادود/ لوح التبنى لـ "نيتوكريس" حيث نصب بين "تانيس" و "بوباسطة"، وخصوصاً:
(line 25 : R.A. Caminos, JEA 50 (1964), 93).

وفى بردية "أناستاسى" رقم III وردت إشارة إلى "السمار"، وهو الأمر الذى يوحى بموقع قريب من مسـتنقعـات "طوفى": Twfy وفى برديات المملكة القديمـة نقابل "الدوار الأعلى" و "الدوار الأدنى" حـيث يقـعـان قـبل بدء "طرق حـورس" مـباشـرة (أى عند بداية الطريق السـيناوى إلى أسيا)، ومطرحين بعد "أباريس" (= أواريس)، انظر:
R.A.Caminos, Literary Fragments in Hieratic Script (Oxford,1956), pl.6,3:14.

وقد يكون هذان الاسمان نقل غير جاد أو "مشلفط" لـ "بير – حوت – حر"، انظر:
Gomaa, Besiedlung, 2:235.

(١٠٨) حول اسم الفرع الشرقى أو "البوباسطى" لنهر النيل كـ "ماء أباريس"، انظر:
A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica (Oxford,1947), 2:155*

(١٠٩) Eusebius, Hieronymos Chrnikon (ed.Helm),3 2,44 (for year 92 of Hyksos rule, i.e. late in Apophis's reign.

تظل هناك إمكانية أن تكون هذه التقاليد قد انبثقت، و حسب، من الخلط بين "أبوفيس" و "أبيس"، حيث تقول التقاليد على سبيل الخطأ، إنه الأب المؤسس للمدينة.

(١١٠) See p. 113; cf. also the ax blade in the British Museum calling Apophis "beloved of Sobek, lord of Su-menu": T.G.H. James, BMQ 24 (1961), 40.

(١١١) See R. Giveon, CdE 49 (1974), 222ff.

(١١٢) R.Giveon, GM 44 (1981), 17-20.

(١١٣) R. Giveon, JEA 51 (1965), 202-4.

(١١٤) A. Rowe, Catalogue of scarabs in the Palestine Archaeological Museum (Cairo, 1936), nos. 210-11.

(١١٥) See p.109.

(١١٦) Helck, Historisch- biographische Inschriften, 55, no. 76.

(١١٧) Ibid., 58.

(١١٨) Von Beckerath, Untersuchungen, 271-72, for references.

(١١٩) W. Fr. Von Bissing, AfO 11 (1936-37), 325-35.

(١٢٠) فى الوقت الذى نفتقر فيه إلى مصدر موثوق للوزنة المشتراة فى "بغداد"، إلا أن التواريخ المتباينة للقطع الأخرى أكثر وثوقا. فالقطعة التى تعود إلى "بوغاز كوى" (عاصمة الحيثيين) انتهى بها المطاف إلى هناك، بكل تأكيد، خلال القرن الرابع عشر ق.م.، فى إطار الغنائم أو الجزية التى فرضها الحيثيون على إحدى مقاطعاتهم التوابع فى سوريا، انظر:

(Stock, MDOD 94 (1963), 73-80).

أما القطعة التى عثر عليها فى إسبانيا فلقد رحلت إلى شبه جزيرة أيبيريا فى وقت متأخر كثيراً، من إحدى مدن السواحل عندما كان التجار الفينيقيون يقومون خلال الألف الأول بنثر كثير من المصنوعات المصرية فى مختلف أرجاء غرب البحر المتوسط، انظر:

Gamer - Wallert, Ägyptische Funde; J.Padro I Parcerisa, Egyptian - type Documents from the Mediterranean Littoral of the Iberian Peninsula (Leiden,1983).

أما بخصوص الجرة التى عثر عليها فى "كنوسوس": Knossos خلال عمليات التنقيب فى مطرح معاصر، انظر:

R.W. Hutchinson, Prehistoric Crete (Harmondsworth, 1962), 197; Helck, Beziehungen Ägäis,48,

وقد تكون قد أرسلت إلى "كريت" مباشرة.

(١٢١) J. M. Weinstein, BASOR 213 (1974), 56; 217 (1975), 9-10; Helck, UF 8 (1976), 101ff.; idem, Beziehungen Ägäis, 45-48.

(١٢٢) A. Alt, Kleine Schriften zur Geschichte des volkes Israel (Munich, 1959), 3:107; Helck, Beziehungen2 ,121; on Sharuhen,see A. Kempinski, IEJ 24 (1974), 145ff.; R.Giveon, LdÄ 6 (1984),532.

ليس هناك ما يدعو إلى أن نرى فى "تل العجول" أكثر مما هو عليه فى الواقع، فلم يكن سوى معقل أخير، اختاره فى تسرع نظام اضطر إلى الفرار: والثروة التى وصلت إليها عمليات التنقيب قد تشير ببساطة إلى أن "خمودى" آخر ملوك الهكسوس تحصن لفترة هناك.

(١٢٣) انظر: ص ٩٤ من النص الأصلى.

(١٢٤) Y. Yadin, Hazor (London, 1970), 31, 124-25.

(١٢٥) J. Vercoutter, Essai sur les relations entre Egyptiens et pre-Héllènes (Paris, 1954), 82;J.D.S. Pendelbury, Aegyptiaca (Cambridge,1930), nos. 33, 34, 57,297-98.

(١٢٦) Helck, Beziehungen Ägäis, 107.

(١٢٧) G. Dossin, RA 64 (1970), 97ff.; A. Malamat, IEJ 21 (1971), 31ff.; F. Matz, CAH[3] II, Pt. 1(1973), 162-63; J. Strange, Caphtor / Keftiu. A New Investigation (Leiden, 1980), 90-93.

(١٢٨) حول هذه التجارة انظر: Matz, CAH3 II, pt.1 (1973),162-63.

ذكر البعض، استناداً، إلى حد كبير، إلى الكنز الخرافي الذى يرجع إلى "قبور السهام" فى "ميسنيا"، أن العلاقات بين مصر واليونان امتدت خلال حقبة MM III حتى شملت أيضا الجانب العسكرى. وقد نسبت إحدى النظريات هذا الكنز إلى المرتزقة الذين ساعدوا المصريين فى معركتهم ضد الهكسوس قد، انظر:

A.W. Persson,New Tombs at Dendera near Medea {Lund,1942},178-96; F.Schacher - meyer,ArOr 17{1947}, 331ff.; idem,Anthropos 46 {1951}, 705ff.)

وترى نظرية أخرى فى الهكسوس الفارين عنصـــرا دخيلا يفسر الطبقة الحاكمة "الجديدة"، التى تمثلها تلك المقابر، انظر: (cf. F.H. Stubbings, CAH3 II,pt.1 {1973}, 633-37).

وليس لدينا أى دليل من مصر يؤيد أيا من هذين الادعاء ين. و يشعر المرء أن تفسيراً حرفيًا لدورة "أيو – دانووس" Io-Danaus cycle من الأساطير هو الذى حفز قيام موقف منحاز إلى حد ما تجاه هذه الفترة، انظر:

r.b. Edwards, Kadmos the Phoenician (Amesterdam,1979), 59-61, 169-72, 189, n.208; R.Drews, The Coming of the Greeks (Princeton,N.J.1988), 172-75.

تعد أسطورة "أيو"، فى الأصل، و كما سنرى فى وقت لاحق (ص ٤١٣ من النص الأصلى)، تفسيرا كنعانيا لاحتلال الهكسوس لمصر، بعد مدها بصورة تالية كى تتوا ءم مع بلاد اليونان.

(١٢٩) حول التنقيب عن إحداها انظر:

M.Bietak, Anz Österr Akad Wissenschaften 122 (1985) ,267-78.

الجزء الثانى

الإمبراطورية المصرية فى آسيا

الفصل السادس

"توسيع حدود مصر"

الحروب الإمبراطورية التى شنتها الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة

بلغ نظام الهكسوس ذروة قوته حوالى ١٥٨٠ ق.م وعندئذ شرعوا فى تقليد أساليب المصريين، أهالى البلاد الأصليين تقليد القرود ومع ذلك ما كان لهذا النظام إلا أن يلقى حتفه لا محالة، بسبب طبيعته ذاتها، واعتماده على القوة وحسب، الأمر الذى جعله منبوذًا، لا يقف على قدمين أرسخ مما هو الحال فى "ماري" Mari أو فى "إسين" Isin . حقًا استغل المصريون الذين يعيشون داخل نطاق الرقعة التى حكمها الهكسوس انطلاقًا من عاصمتهم فى "أباريس" (= أواريس) أفضل جوانب الموقف وتعاملوا مع الأجانب. ولكن ماذا كان فى طوعهم أن يفعلوا سوى ذلك؟ إلا أن المشاعر كانت فى حقيقة الأمر متأججة فى الجنوب، وهنا، وبالتحديد فى "طيبة" بدأت الثورة ضد حكم الأجانب.

طرد الهكسوس:

صعدت إلى سدة الحكم فى "طيبة" عائلة جديدة فى وقت ما خلال السنوات العشر الأولى من القرن السابع عشر ق.م وحلت هذه العائلة محل الأسرة السادسة عشرة التى لم تعمر طويلاً وهزل مقامها خلال حكمها. ويبدو أنه على الأرجح أن يكون "تاعو" مؤسس هذا البيت المالك قد كسب اعتراف "أبوفيس" أو ربما بلغ الأمر حد تعيينه له كـ "تابع" Vassal فى الجنوب، طالما صك لقبه "سبقن-ن-رع" على نمط لقب "أبوفيس" "عا-قن -ن -رع" ولكن الحب كان مفقودًا منذ البداية بينهما(١).

لم يصل إلى أيدينا أى نص عن بدء الأعمال الحربية. والقصة التى تدور حول الصراع بين "أبوفيس" و "سقن -ن -رع" وراجت خلال الأسرة التاسعة عشرة، تلك التى تلقى باللوم على "أبوفيس" الذى لجأ إلى إزعاج تابعه ذاك، دون مبرر معقول، ليست سوى "حدوتة هزيلة"، خالية من كل قيمة تاريخية(٢). فلابد أن يكون "الطيبيون" هم الذين بدأوا العصيان، ولكن بعد أن عانوا فى البداية من الإحباط. وأقدم دليل قوى بشأن الحرب ليس نقشاً – وقد يكشف جوف الأرض يوماً ما عن صادود/ لوح فى هذا الصدد ـ ولكنه عبارة عن مومياء "سقن -ن-رع -تاعو" نفسه، التى حُفظت فى خبيئة "الدير البحرى" من المومياوات الملكية. فالجروح التى يحملها الجثمان تشهد بطلاقة كافية على الكيفية التى لقى خلالها حتفه: لا بد أن يكون قد حوصر ومزّق الأعداء جسده بالحراب والبُلط والخناجر. فلقد تأكد بصورة ناصعة الآن ذلك الاشتباه الذى ظل محلقًا فى الهواء بأنه سقط شهيدًا فى معركة ما، غفل عنها التسجيل، مع الهكسوس، وذلك خلال الفحص الدقيق للجروح التى ثبت أنها نجمت عن أسلحة من الأنواع التى كانت معروفة على نطاق واسع بين الآسيويين فى ذلك الوقت . (لوحة رقم ١٢)(٣).

إلاّ أن الهزيمة التى حاقت بـ "تاعو" والموت الذى اختطفه فى ميدان القتال لم يقتلعا عائلته من سدة الحكم. إذ يبدو أن العلاقات مع "أباريس" (= أواريس) عادت إلى سابق عهدها status quo ante مع صعود "كاموسى" إلى سدة الحكم، وهو الأمر الذى يعكس إما منعة "طيبة" أو تضعضع قوة الهكسوس(٤).

حالفنا الحظ فى حيازتنا لنقش "كاموسى" المطوّل، الذى يعطينا تفاصيل وافية لمواصلته الحرب. والنص منقوش مرتين على صادودين (خلافًا للقواعد الجارية، الأمر الذى يشير إلى عدم إعمال فكر مسبق عند وضع مسودة النص) نُصبا أمام معبد "أمون" فى "طيبة". وقد تعرض الصادود الأول للتهشيم فى وقت لاحق، ولم يتبق منه سوى عدة شطف، تم إنقاذها ونشرها فى سنة ١٩٣٩ ، ولكن لحسن حظنا قام أحد الكتبة الطموحين فى المملكة الحديثة بعمل نسخة لجزء منه على لوح رسم، عثرت عليه بعثة اللورد "كارنارفون" عند انحناءة القرن العشرين. أما الصادود الآخر فكان قد أعيد استخدامه فى أساسات أحد التماثيل فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة، ولكنه لم يتم استعادته إلاّ فى مطلع خمسينيات القرن العشرين(٥). ويبدأ النص بالملك فى مجلسه الخاص،

وهو ينوء تحت عجزه عن اتخاذ قرار بعد أن كبلت يديه تحذيرات مستشاريه، وهذا "موتيف" غالبًا ما يرد في النصوص الملكية كي يبرز بطولة الجالس في العرش وجسارته. وكان كل من "طيبة" والهكسوس قد أبرما، بعد رحيل "تاعو" معاهدة تسمح لكلا الطرفين بالمرور في أراضي الطرف الآخر طلبًا للسلع والخدمات، ولم يكن الهكسوس قد كشفوا حتى هذه النقطة عن أي دلائل على سوء الطوية. ومع ذلك يتخذ "كاموسي" قراره بشن الهجوم وعبور الحدود دون سابق إنذار. واستغلالاً، على ما يبدو، لعنصر المفاجأة أو الحماس الذي دب في صفوف قواته، لم يجد مقاومة تُذكر في المدن الواقعة في مصر الوسطى حيث أثار الذعر والفوضى في مستوطنات المصريين المتعاونين مع الحكم الأجنبي، وسرعان ما وجد نفسه (لدهشته هو شخصيًا، على نحو ما يستشعر المرء من النص، عند أقدام أسوار "أباريس"(=أواريس). ومع ذلك لم تكن غارة يشنها على المرفأ، ويضع صرخات غاضبة يطلقها ضد العدو لتكفل له إحراز النصر. وقد حاول "أبوفيس" أن يضمن مساعدة النوبيين وأن يقنع ملك النوبة بالهجوم على "طيبة" انطلاقًا من الجنوب، ومع أن قوات "كاموسي" اعترضت رسول الهكسوس بعد أن سهلت نوعًا ما مروره عبر خطوطهم الخلفية، وأعادته إلى "أبوفيس"، إلاّ أن "الطيبيين" اضطروا إلى الانسحاب. ولكن يبدو أن مصر الوسطى كانت لا تزال تضم مصريين ممن يستطيع "أبوفيس" أن يعوِّل على وقوفهم إلى جانبه. وكانت غارت متفرقة على "سينوبوليس" Cynopolis والمناطق المجاورة في المديرية السابعة عشرة في الوجه القبلي، بالإضافة إلى الجهود الرامية إلى تأمين طريق الواحات قد سبقت الانسحاب إلى "طيبة".

يصعب، لأول نظرة، أن نقيِّم الوزن التاريخي الصحيح لهذه الوثيقة الأكثر قيمة بين كل ما وصل إلى أيدينا. وفيها نجد أعلى تاريخ لـ "كاموسي" وهو السنة الثالثة من حكمه، وهذه السنة محفورة في بداية الصادود، وبناء على هذا تكون قد أضيفت بعد تفكير متأخر، ويبدو أن "كاموسي" غادر مسرح الأحداث بكل تأكيد، عقب ذلك بوقت وجيز، دون أن يترك وراءه ابنًا، بل وتاركًا خطته الكبرى غير مكتملة. ولا يملك المرء نفسه من التساؤل عما إذا كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة من جراء جروح أصيب بها خلال إحدى المعارك التي خاضها ضد الهكسوس. ومع ذلك فإن ما أنجزته أعماله

الباهرة فى الشمال ليس بالشيء القليل بحال من الأحوال.. ويلوح خلال أى قراءة للنص، أن الهكسوس عانوا من نكسة ضعضعت قواهم بشكل حاد. وقد يزيد فى الأهمية على ذلك أن أى غلالة من المنعة، بصفتهم قوة لا تقهر، تكون قد أحاطت بهم، كانت قد تبددت وقت ذاك: أثبت "كاموسى" أن الأراضى التى يسيطر عليها الهكسوس يمكن اختراقها دون عائق أو رادع. وأصبح الآن واضحًا أن سلطة الهكسوس انكمشت داخل أسوار "أباريس" (=أواريس) ولم تعد تعتمد إلاً على استحكماتها هذه دون سواها.

أدى رحيل "كاموسى" بشكل مفاجئ إلى صعود شقيقه الأصغر(؟) "أحموسى" إلى العرش(٦). ولعله من المؤسف أننا لم نتوصل إلى أى نص حتى الآن، يماثل نص صادوديْ "كاموسى" عن حكمهما، وبالتالى لا نملك فضًا لأسرار حرب التحرير سوى "تلصيم" شتى "النتف" التى نصادفها فى سير الشخصيات المعاصرة، وبنود دفاتر اليومية والتقاليد الشفوية اللاحقة. وكافة هذه "النتف" موجزة ووقائعية الطابع ومحايدة غير منحازة، ونظرًا للطبيعة الخاصة للأنواع الأدبية رهن الحديث، فهى تفتقر إلى تدفق وحمية الأسلوب الشخصى الذى تمتع به "كاموسى".

قامت مدينة "الكاب" الواقعة جنوبى "طيبة"، وحيث كانت تعبد "نخبيت" الإلهة الحامية للوجه القبلى، التى يرد ذكرها فى الألقاب الخمسة للفرعون، كمركز ناجح واستمرت تحتفظ لنفسها بهذه المنزلة طوال سنوات العوز خلال فترة الانتقال الثانية. فلقد خرج من بين أبنائها عديدون ممن انخرطوا فى القتال فى صفوف جيش التحرير "الطيبى" مثل "بابا" Baba وهو جندى محترف قاتل تحت إمرة "سقن-ن-رع"، وابنه ضابط البحرية "أحموسى - سى - أبينا" (الذى ترقى فى وقت لاحق إلى رتبة "أميرال"، وقريبه أمين الصندوق "أحموسى - با - نخبيت"، والقائد(؟) "أبو - سونب" Apu-sonb وابنه الذى يحمل اسمًا يشبه اسمه أى "أمين - موسى"(٧) وتعد سيرة الثانى منهما أكمل السير. غير أنها لا تنطوى إلا على قيمة هامشية كسيرة حياتية Vita تكشف عما كان يجرى، بالضرورة، فى مسيرة تصاعد الأعمال الحربية فى ذلك الوقت، وما يعطيها فى نظرنا أهميتها الكبرى، يتمثل بالتحديد، فى أن أحداث الحرب، تمر بها بصفتها "شماعة" تعلق عليها منجزات "أحموسى" ليس إلا. فلقد عمل، فى صغره، على متن ثلاث

سفن بالتتابع واحدة بعد أخرى، واحدة منها حملت اسم "أحموسى" أى الفرعون وظهرت فى "منف"، وهو الأمر الذى يشير إلى الاستيلاء على هذه المدينة. وقد سجل الكتبة وقوع ثلاث معارك مع الهكسوس إلى الجنوب مباشرة من "أباريس"(=أواريس). ثم تحمل إلينا هذه العبارة الموجزة المصير النهائى لعاصمة الهكسوس: "ثم أسلمت "أباريس" للنهب والسلب."

ولعل ما ينطوى على أهمية أكبر بالنسبة للمؤرخ هو الخربشات التى تركها لنا كاتب سقط اسمه من التاريخ على الوجه الآخر لبردية "رند" الرياضية Rhind Mathematical Papyrus[٨] ففى غضون عقدين زمنيين من كتابة هذا النص الرياضى على الصفحة اليمنى، وهو النص الذى يرجع إلى السنة الثالثة والثلاثين من حكم "أبوفيس" استخدم شخص ما الوجه الأيسر فى تسجيل ما شعر أنه الحدث الخطير فى عصره على هذا النحو:

"فى السنة الحادية عشرة للحكم، الشهر الثانى من فصل الشومو (=الصيف) سقطت "هيليوبولس". وفى الشهر الأول من الـ"آخت" (=الخريف) اليوم الثالث والعشرين– هذا الأمير الجنوبى اخترق دفاعات "تارو" وتردد أن "تارو" سقطت. وفى نفس السنة الحادية عشرة، فى الشهر الأول من "الشومو" يوم ميلاد "ست" أطلق جلالة هذا الإله زئيراً. وفى يوم ميلاد "إيزيس" صبت السماء مطراً"[٩].

هنا نقابل، دون شك، المشهد خلال عيون "شمالية"[١٠] تنظر إلى التقدم "الطيبى" الزاحف من الجنوب. فـ"الأمير الجنوبى" (أى "أحموسى") يزحف بسرعة نسبية، كى يدخل "أون"(= هيليوبولس) فى مطلع يوليو – أبيب ثم يتجاوز "أباريس" (=أواريس) كى يستولى على "صايل" التى تعد قلعة حدودية على مشارف سيناء فى أواسط أكتوبر– بابة. ونكاد نلمح هنا، على نحو مبهم، إستراتيجية متفوقة تخطط لقطع أى إمدادات قادمة من آسيا قبل فرض حصاره على العاصمة. ويؤكد السجل الأثرى مواصلة "أحموسى" انتهاج نفس السياسة التى كان شقيقه قد التزمها بإنزال دمار فادح بجيوش الأعداء. وعند استسلام "أباريس" (= أواريس) فى آخر المطاف، أُسلمت للحريق هى الأخرى ثم هُجرت[١١]. أما فلول نظام الهكسوس – ولو أننا لسنا متأكدين من المصير الذى انتهى

إليه "خامودى" أو العائلة الملكية - فلقد ولت الأدبار عبر سيناء ثم تمركزت فى "شاروهين" على ساحل البحر المتوسط جنوبى "غزة". ويبدو من المحتمل أن تكون غالبية الجالية الآسيوية التى كانت تقيم فى شرق الدلتا قد انسحبت شرقًا أيضًا، ما لم تكن قد بادرت باتخاذ هذه الخطوة فى وقت مبكر عن ذلك. وقد يكون بعض الآسيويين قد سقطوا فى أيدى المصريين خلال الاشتباكات أو أخذوا ضمن الغنائم التى غنمها المصريون ووزعوهم كخدم بين الجنود، ولكن هؤلاء الآسيويين كانوا قليلى العدد، وينفى غياب جالية من العبيد الأجانب فى مصر خلال السنوات الخمسين التالية الفرضية التى تذهب إلى أن محررى مصر "أسروا" قطاعًا عريضًا من أبناء الهكسوس[١٢].

ليس فى طوعنا أن نعرف ما إذا كان الهكسوس الناجون الذين تمركزوا فى "شاروهين" قد تعلقوا بأى آمال فى شن هجوم مضاد، إلاَّ أن "أحموسى" ما كان ليسمح لهم ببدء أى أعمال حربية، فلقد زحف عبر سيناء وهاجمهم فى معقلهم الجديد، واستولى فى نهاية المطاف على هذا المعقل وأسلمه للتدمير. وبذلك كفت دولة الهكسوس التى أسست الأسرة الخامسة عشرة عن الوجود[١٣].

الهكسوس الجدد فى آسيا: قدوم الحيثيين والحوريين

كانت مصر قد رست، غداة انسحاب الهكسوس وإفنائهم فى "قلعة - شاروهين" Festung-Sharuhen ، على مفهوم جديد لما يتطلبه أمنها الخاص ودفاعها عن نفسها، سواء أكان ذلك لحسن الحظ أو لسوئه. فلم يستوعب المصريون فى بادئ الأمر الأهمية التى ينطوى عليها النصر الذى أحرزوه بسواعدهم، ولم تساعد الأحداث المعاصرة فى تبديد توجساتهم المستمرة. فلقد أعقب تدمير "شاروهين" غارات النوبيين. وهى الغارات التى تحولت وقت ذاك إلى غزو شامل على جنوب البلاد، كما لو كانت الإستراتيجية التى راودت "أبوفيس" بإرغام "طيبة" على خوض حرب على جبهتين، عن طريق الاستنجاد بحليفه الجنوبى: النوبيين، قد شرعت فى الدخول فى وقت متأخر، فى التنفيذ. وكان واضحًا أن اطمئنان المصريين القديم إلى تسيدهم الفطرى على الشعوب وهو اطمئنان يقع خارج نطاق ما هو مقبول، كان ليضر بهم فى المناخ غير المواتى التى ساد ذلك العالم الشجاع الجديد. (شكل ٥)

تشكل السنون الخمسون التى أعقبت طرد الهكسوس - أى النصف الثانى من القرن السادس عشر ق.م بصفة عمومية - فترة كبرى من الانتقال فى تاريخ آسيا الغربية. فعندما تطلع "أحموسى" المجهد، غداة النصر الذى أحرزه على "أباريس" باتجاه الشمال وعبر رمال سيناء، رسم فى خياله خريطة تشبه إلى حد كبير تلك الخريطة السياسية لفلسطين وسوريا التى فكر فيها سلفه "دوبو- موسى" قبل مائة وعشر سنوات. وكانت الممالك "الأمورية" التى عرفها العصر البرونزى الوسيط (الأعلى) قد استمرت فى الحفاظ على كياناتها: "بابل" فى حوض نهرىْ "دجلة" و "الفرات" و "آشور" فى أعالى نهر "دجلة" و "يامخد" التى بسطت حكمها انطلاقًا من "حلب" فى شمال سوريا، و "قطنوم" (وفى وقت لاحق "قطنة") فى أواسط نهر "العاصى" و "حازور" (= حاصور) التى سيطرت على "الجليل" وأعالى وادى نهر الأردن. حقًا كانت بعض الدويلات الجديدة قد ظهرت إلى الوجود مثل "خانا" khana فى أواسط حوض "الفرات"، ولكن هذه الدويلات استلهمت الأنماط السياسية التى عرفها العصر البرونزى الوسيط، وتقبل التصنيف على المستوى الثقافى تحت وصف "أمورية".

ولكن "أحموسى" لم يستطع إلا أن يستشعر بدء هبوب الرياح من أصقاع جديدة. فمن الغرب ازدهرت تجارة نشطة مع "قبرص" التى جلبت الأفيون والنحاس الأحمر، بالإضافة إلى فخار متميز وملون إلى مدن المشرق[١٤]. (وفى مصر يبدو أن النهضة التى عرفتها التجارة مع "قبرص"، ترجع إلى خواتيم عصر الهكسوس.)[١٥] وفى الشرق كانت "بابل" قد بدأت تشعر بالعجز عن الوفاء بالمتطلبات التى يحتاج إليها استمرار بقائها كإمبراطورية، على الأقل داخل نطاق سهل الرافدين. وبالتالى وجدت نفسها مرغمة على الانسحاب داخل التخوم المباشرة لأراضيها. وخلق هذا الانسحاب فراغًا فى القوة فى هذه المنطقة. وهو الأمر الذى يجيز لنا أن نفسر تاريخ آسيا الغربية خلال القرنين التاليين إلى حد كبير على اعتبار أنه لا يخرج عن ملء ذلك الفراغ. وقد بدأ الكاسانيون Kassites ، وهم عبارة عن عرق ينتسب إلى جبال "زاجروس" فى غرب إيران فى بسط نفوذهم على وادى "الفرات". وفى أعقاب رحيل "حمور - ابى" غزا هؤلاء البرابرة الدولة البابلية، وأقاموا لأنفسهم معقلاً ما فى "خانا"، جنوبى "مارى"[١٦] ثم معقلاً آخر(؟) فى "طرقا" Terqa على نهر "الفرات" على بعد ستة وخمسين كيلو مترًا

شمالى "بابل"[١٧]. وفى البداية كان مركز الكاسانيين غير آمن. وقوبلت محاولتهم نحو اجتياح مدينة "بابل" ذاتها بما لا يقل عن نجاح بارز، فلقد ردهم البابليون على أعقابهم مرتين، ولكنهم نجحوا فى المرة الثالثة كما يبدو واضحًا، فى اختراق دفاعات المدينة وأسلموها للنهب والسلب وسيطروا عليها لمدة قصيرة[١٨]. وبعد جيل واحد من رحيل "أحموسى" فى مصر، كان للكاسانيين، مع ذلك أن يقتلعوا الأسرة الحمورابية من العرش ويحلوا محلها بيتهم الملكى.

ولعله مما انطوى على نتائج أخطر بالنسبة للمصريين أن ظهرت إلى الوجود فى الشمال مجموعتان عرقيتان جديدتان لا تتحدثان أيًا من اللغات السامية، وكانتا لتهددان أمن واستقلال المشرق بأسره. كانت أولى هاتين المجموعتين فى الظهور على مسرح الأحداث هى الشعب الذى عرفه التاريخ باسم "الحيثيين"، الذين استوطنوا فى أواسط هضبة الأناضول فى القرون الختامية للألف الثالث ق.م داخل نطاق انحناءة نهر "هاليس" Halys . (اللوحتان ١٣، ١٤)[١٩] ورغم أن فلكلورهم وتقاليدهم الشفوية تلزم صمتًا مريبًا تجاه مسألة أصولهم، إلا أن اللغة الحيثية، التى "حُشفرت" (= حلت شفرتها) فى مطلع القرن العشرين، تنتمى إلى الفرع الأناضولى من العائلة الكبرى المسماة بالهندو – أوروبية، وهو الأمر الذى يميز هذه اللغة عن كافة اللغات الأخرى المعروفة فى الشرق الأدنى القديم. ويبدو، اتساقًا مع ما نعرفه عن موطن وتحركات الشعوب الأخرى الناطقة بالهندو – أوروبية، أن أسلاف الحيثيين يرجعون فى الأصل إلى السهوب (= البرارى) الجنوبية لآسيا، ولم يظهروا على هضبة الأناضول إلاّ فى وقت ما يتراوح بين أواسط حتى أواخر الألف الثالث ق.م. وفى مطلع الألف الثانى استولوا على إحدى المدن فى أعالى الإقليم ودمروها وأعادوا بناءها وأطلقوا عليها اسمًا جديدًا هو "هاتوساس" Hattusas واتخذوا منها منذ ذلك الوقت عاصمة لهم. (لوحة رقم ١٥) ومنذ هذه البداية التى يكتنفها الغموض برز الحيثيون تحت دائرة الضوء التى يحفظها التاريخ الموثق خلال السنوات الأخيرة لاحتلال الهكسوس لمصر، ورغم ما سبق قوله، فإن المرء ليتساءل عما إذا لم تكن "جرة خايان" (أحد ملوك الهكسوس) تلك التى عثر عليها فى " هاتوساس" هدية دبلوماسية لحاكم شاب صاعد. وخلال صدفة تمثلت فى وقوع "هاتوساس" جغرافيًا فى موقع المركز، وجدت الدولة الحيثية نفسها وقد اضطرت

إلى التوجه نحو الجنوب الغربى بنفس الدرجة التى توجهت بها نحو الجنوب الشرقى. وقد زرع المنظور الأول: الجنوبى الغربى، اهتمامًا حيثيًا بالساحل الجنوبى - الأيونى Ionian و "ليشيا" Lycia ، كما وجه المنظور الآخر انتباه الحيثيين إلى أراضى سوريا فيما وراء "جبال طوروس" وإلى بلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا). وقد يكون وجود مملكة غنية ومنيعة هى "يامخد" قد أثارت حقًا شهية الحيثيين: لم يروا فى "حلب"، (عاصمة "يامخد") تهديدًا ذا بال لأمنهم. وأيًا كان الدافع أو السبب المباشر، إلا أن الملك "هاتوسيليس" الأول شن، فى بداية حكمه (الذى يتزامن بصفة عامة مع الأيام الأخيرة فى عصر "أحموسى" فى مصر) هجومًا على "ألالاخ" alalakh ، إحدى المقاطعات التابعة لـ"حلب" فى شمال سوريا، وأنزل بها الدمار[٢٠]. وسحق أيضًا خلال الحملة العسكرية نفسها "أورشو" Urshu التى تقع إلى الشمال مباشرة من "كاركميش" ولم تكد تمضِ أربع سنوات وحسب وصار فى طوع "هاتوسيليس" أن يهاجم العاصمة "حلب" ذاتها (رغم أنها لم تسقط) وأن يعبر نهر "الفرات". واستطاع أن يقود الإستراتيجية الحيثية إلى خاتمة ناجحة خلال تدمير "حلب"، وبذلك أنهى حكم ووجود "يامخد" مرة واحدة وإلى الأبد وتقيد معاهدة أبرمت بين الحيثيين و "حلب" فى وقت متأخر كثيرًا إلى الأذهان ما يلى: "حاز ملوك "حلب" فى أول الأمر مملكة مترامية الأطراف، ولكن "هاتوسيليس" العظيم، ملك بلاد "خاتى" أنهى وجود مملكتهم. وبعد "هاتوسيليس" ملك بلاد "خاتى"، دمر الملك العظيم "مورسيليس" الأول حفيد "هاتوسيليس" الملك العظيم مملكة "حلب" فضلاً عن "حلب" ذاتها"[٢١].

وتمثل النصر الثانى والأكثر بطولة، الذى أحرزه "مورسيليس" الأول، فى بعث الفوضى فى الهيئة السياسية لبلاد الرافدين وإحداث تغيير فى التركيبة السكانية (الديموجرافية) للإقليم، ولقد سجلت المصادر الحيثية والبابلية، كلاهما، أخبار حملة عسكرية خاطفة "مشّطت" الفرات وانتهت إلى الاستيلاء على "بابل" وإنهاء وجودها (قبيل سنة ١٥٢٠ ق.م). وهكذا دمرت حملة واحدة، هدفت إلى جنى الغنائم على نمط ما كان يفعل "الأموريون" السلابون - النهابون دون وازع ولا رادع، فى العصر البرونزى الوسيط، بقيادة "مورسيليس" دولة "خانا" وفتحت الطريق أمام القوة الصاعدة للكاسانيين كى تزحف لتحتل الدولة البابلية[٢٢].

كما أطلقت دولة الحيثيين، أيضًا يد مجموعة عرقية أخرى بصورة أكثر حرية، كانت قد ظهرت بوضوح على الأفق فى شرق البحر المتوسط، أقصد الحوريين. غير أنهم استمروا رغم ما مارسوه من نفوذ واسع فى الشرق الأدنى، ولابد أنهم ظلوا لمدة طويلة يشكلون عنصرًا محليًا من أبناء البلاد الأصليين فى حوض الرافدين، إلاّ أنهم استمروا بمثابة لغز بين شعوب العالم القديم. ولو أن آدابهم تركت آثارًا عميقة على الحيثيين (وفى وقت لاحق على الإغريق)، ومع ذلك فإن لغتهم (وهى ليست سامية وليست هندو - أوروبية) ظلت شبه مجهولة[٢٣]. وكانت أوانيهم الفخارية الجميلة منتشرة فى بلاد الرافدين وشرق سوريا - وحتى فى مصر فى المملكة الحديثة، أعلى المصريون شأن الأوانى الحورية، - ومع ذلك فإن ثقافتهم المادية لم يخضعها أحد بعد لدراسة مكثفة[٢٤]. وعلى غرار ما فعل الكاسانيون، خرج الحوريون من شمال جبال "زاجروس" وربما من "أرمينيا"[٢٥]، ولم نكد نصل إلى أواخر الألف الثالث حتى أخذنا نصادف الأسماء الحورية بين الحين والآخر فى شمال بلاد الرافدين وحول "كركوك"[٢٦] وتحت أيدينا أدلة على هبوط أعداد من الحوريين إلى منطقة "شاجار - بازار" خلال عصر "حمورا - بى"، وخلال نصف القرن اللاحق على وفاته (١٦٧٠-١٦٢٠ ق.م.على وجه التقريب) وجدناهم أيضًا فى شمال سوريا حيث وصلوا إلى ثلاثين بالمائة من مجموع السكان كما هو الحال على سبيل المثال فى "آلالاخ"[٢٧] وبحلول سنة ١٦٠٠ ق.م ظهر اسم حورانى Hurrian ضمن أسماء حكام "خانا"، ونحن نسمع عن "داجون" Dagon إله الحوريين فى المجمع الإلهى للمنطقة[٢٨].

وتمثل العامل الذى حول الأمة الحورية من مجموعة من "البريويكوى" perioikoi (= الطبقة الوسطى من سكان المدن فى "إسبرطة" القديمة) تعيش على هامش البؤر العظمى للحضارة إلى قوة سياسية راقية بحد ذاتها فى وصول عنصر هندو - أوروبى من الشمال/ وأدى اندماجه فيما بين ١٦٠٠ و ١٥٥٠ ق.م مع الحوريين إلى نشوء نوع ما من التعايش بين "حكام" و "رعايا"[٢٩]. ولعله من الواضح أن الهندو - أوروبيين رهن الحديث ليسوا سوى فرع يرجع جغرافيًا وثقافيًا إلى أرومة الهجرات الآرية الكبرى التى خرجت من سهوب (= برارى) الإستبس الروسية كى تتجه جنوبًا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ق.م، وهى الهجرات التى حملت عددًا

كبيراً بصورة ملحوظة من الشعوب الناطقة باللغات الهندو-أوروبية إلى شمال الهند، ومثلما فعلوا فى "البنجاب"، كذلك فعلوا فى بلاد الرافدين، إذ قدموا الأرستقراطية المسيطرة فى المجتمع الذى نتج عن ذلك الانصهار. ولقد أعاد "بوراناس" Puranas إلى الأذهان هذه الظاهرة فى حقيقة الأمر على هذا النحو: "أنجب "براستاس" Pracetas مائة ابن صاروا كلهم ملوكًا. وقد تسيدوا جميعًا على ممالك بربرية بعد أن هاجروا إلى الطرف الشمالى"[٣٠] ورغم أن هؤلاء الغزاة الآريين سرعان ما نسوا لغتهم وتبنوا اللغة الحورية فى مستواها الدارج، إلا أن صيغ الأسماء كانت لا تزال مشحونة بالدواخل infixes التى تشير إلى الآلهة والإلهات "الفيدية" Vedic الرئيسية : "ميثرا" Mithra و "إندرا" Indra و "فارونا" Varuna[٣١]. كما أن العادات الآرية ظلت لفترة طويلة على قيد البقاء بما فى ذلك ركوب الخيول والحناطير Chariot، وحرق الجثمان بدلاً من دفنه، وإطلاق اسم "ماريانو Maryannu (بالسنسكريتية maurya الرجل الشاب) على الأرستقراطية الإقطاعية[٣٢].

كشف المجتمع الآرى-الحورى الجديد عن "وثوب حيوى" élan vital دفع أبناءه إلى آماد بعيدة وواسعة فى الجنوب والغرب على حد سواء[٣٣]. وبحلول الربع الثالث من القرن السادس عشر ق.م.كان عدد من الجيوب القوية للحوريين فى طريقها إلى الائتلاف على شكل دول فى شمال "ميزوبوتاميا" (= بلاد الرافدين)، وقد عرفت أقواها بهذا الاسم الجغرافى الفضفاض "خانيجالبات" Khanigalbat . ورغم أن مركز ثقلها كان واقعًا فى أعالى نهر "دجلة" شمالى "آشور" حيث قامت عاصمتها "تئيدا" Táida[٣٤]. ولقد أدارت "خانيجالبات" وجهها، بحكم الموقع الجغرافى ومقتضى الضرورة شطر الغرب كما تطلعت أيضًا تجاه نهر "الفرات" وما وراءه.

وبالتالى، ولما كان كل من الحيثيين والحوريين قد ارتأوا أن مصيرهم الصريح مرهون بالتوسع فى اتجاهات متعارضة، حيث يسعى كل منهما إلى السيطرة على الأراضى التى يدعى ملكيتها الطرف الآخر، فلقد تعيَّن أن يتصادما، وصار على شمال سوريا وأعالى "الفرات" أن يصبحا ميدان المعارك التى سيخوضانها الواحد ضد الآخر. وكان التوسع الحورى غربًا أيام حكم "هاتوسيليس" الأول قد أشعل الصراع فعلاً بين الحوريين والحيثيين[٣٥]. ولا ينبغى أن نفهم من قدرة "مورسيليس" ملك "الحيثيين"،

على شن الغارات سواء فى شمال سوريا أو فى أسافل نهر "الفرات" أن الحوريين تعرضوا لكارثة فادحة. بل على النقيض من ذلك فلقد يسر لهم اختفاء مملكتى "يامخد" و"خانا" الزحف والاحتلال باتجاه الغرب[٣٦]. ونستطيع أن نعثر على آثار السيطرة الحورية فى "ألالاخ" عقب قيام "هاتوسيليس"(١٥٦٠-١٥٥٠ ق.م.على وجه التقريب) بتدميرها مباشرة[٣٧]، وهناك مثل ذلك الرجحان للسمات الحورية سواء فى أسماء المواقع أو أسماء الأعلام فى "ألالاخ" عند مستوى IV (أى القرن الخامس عشر ق.م.)، وهو الأمر الذى يعنى أن غزواً شاملاً لابد وأن يكون قد حدث فى القرن السادس عشر[٣٨]. وقت ذاك لم تكن قوة الدفع قد فقدت زخمها. ففى الربع الأخير من القرن السادس عشر ق.م. تقوم أدلة على إسهام حورى فى التشكيل العرقى والثقافى لدولة "كيزو- واندا" Kizzuwanda الناشئة فى السهل "السليسى" Cilician plain شمال غربى "ألالاخ"[٣٩] وحتى قبل أن تبزغ هذه الولاية إلى الوجود حدث اندفاع، بالضرورة، باتجاه مصر.

قد نتوقع أن تقدم لنا المصادر المعاصرة أدلة ما بخصوص الاندفاع الآرى- الحورى، ولكن تلك المصادر تلزم الصمت مع الأسف. لكننا نعرف بفضل أسماء الأشخاص فى رسائل "أخيتاتون" (=العمارنة) أن خواتيم القرن الخامس عشر ق.م. شهدت عدداً كبيراً إلى حد مذهل، من العائلات الملكية فى مدن فلسطين وأواسط سوريا التى تكشف عن أسماء هندو - أوروبية رغم الحقيقة التى تقول إن حامليها كانوا يتحدثون "الكنعانية"[٤٠]. وتشير قوائم أسماء الأشخاص التى ترجع إلى "تاناخ" أن الحوريين والهندو-آريين كانوا يشكلون معاً نسبة تصل إلى سبعة وثلاثين ونصف بالمائة من مجموع سكان فلسطين فى سنة ١٤٥٠ ق.م على وجه التقريب[٤١]. ومع ذلك يبدو أن الغزو، لابد وأن يكون قد حدث قبل ذلك طالما أن الاسم: "خارو" وهو مشتق من بلاد - الحوريين أطلق من جانب "أمين - حوتب" الثانى على فلسطين وتمتع أى ذلك الاسم بالذيوع تحت ظل الفرعون "تحوت - موسى" الثالث. والحقيقة أن هذا الفرعون يستخدم هذا الاسم العرقى فى صيغة الجمع أى "الخاريين" فى سياقات يكون فيها، هذا الاسم مرادفاً بوضوح تام للآسيويين بصفة عامة، وخصوصاً أولئك الذين يقطنون فى فلسطين وأعماق سوريا أو البقاع[٤٢]. وخلال السنة الحادية والعشرين من حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث وصف أسير حرب عجوز - وكان قد أصبح بواباً - نفسه بأنه "خارو"[٤٣].

وهكذا فإن هذا الدليل الذى يمدنا بالإيحاء بأن التدفق القادم من الشمال الذى حمل معه مزيج الهندو – حوريين إلى "كنعان" وترك وسماً لا ينمحى لديموجرافية البلاد ولثقافتها المادية، كان قد أصبح ملموساً فعلاً قبل نهاية القرن الـ ١٦ق.م فهل بوسعنا أن نرصد تاريخ ذلك وظروفه بصورة أكثر دقة؟

لم تتوصل عمليات التنقيب حتى تاريخه إلى الكشف عن خبيئة من النصوص تستطيع إلقاء الضوء على التاريخ السياسى أو التغيرات التى دخلت على السكان فى النصف الثانى من القرن الـ ١٦، ويراود المرء شعور مقبض خلال تناوله لهذه الفترة بأن هناك صفحة غاية فى الأهمية مفقودة من السجل الذى تحت أيدينا. وتنتهى أراشيف "آلالاخ" بتدمير "هاتوسيليس" للمدينة ولا تستأنف العودة إلى الظهور حتى القرن الخامس عشر ق.م. أما مصادر "مملكة الحيثيين القديمة" فنادرة ومليئة بالفجوات، فضلاً عن أن الفترة التى تعنينا هنا لم تعكسها النصوص اللاحقة إلا من خلال إشارات جزافية أى كيفما اتفق. ولم تظهر إلى الوجود حتى تاريخه أى أراشيف رسمية سواء من أى من المراكز الكبرى للحوريين فى وادى الرافدين (=ميزوبوتاميا) أو من عمالقة العصر البرونزى الوسيط فى المشرق، فلا تزال "حلب" تنتظر عمليات التنقيب، كما أن "حازور" ضنت بمعلوماتها على المنقبين، ولم تكشف لنا قطنوم Qatanum إلا عن قوائم جرد وبضع وثائق ينحصر اهتمامها فى عمليات البيع والشراء[٤٤]. أما المصريون، فلم يتركوا من جانبهم سوى إشارات متفرقة إلى آسيا طوال الفترة التى سبقت حملات الفرعون "تحوت – موسى" الثالث.

تنطوى هذه الفجوة فى مصادرنا المدونة على إشارة مضاعفة للذهول فى ضوء الانقلاب الذى نشهده فى السجلات الأثرية، إذ نجد عند التنقيب أن تدميراً عنيفاً قد لحق معظم المدن الكبرى، إن لم نقل كلها، فى فلسطين وجنوب سوريا، فى وقت ما عقب نهاية حقبة MBIIC أى المرحلة الثقافية التى تتعاصر إلى هذا الحد أو ذاك مع المرحلة الأخيرة من احتلال الهكسوس لمصر[٤٥]. ولقد أسهم الافتراض الذى يذهب إلى تزامن فترة MBIIC مع نهاية حكم الهكسوس أو تلامس طرفىْ الفترتين)، فى اعتناق كثيرين لرأى يصل أو يكاد، إلى مرتبة ركن معصوم من أركان الإيمان، يقول بأن جيوش

المصريين تحت قيادة الفرعون "أحموسى" هى التى أنزلت هذا التدمير فى مطاردتهم لعدوهم الذى لاذ بالفرار[٤٦]. ولكن إمعان النظر فى الأمر للحظة واحدة سوف يثبت أن هذا الرأى مستحيل الصواب. فالمصريون فى عهد الفرعون "أحموسى" كانوا خائبين بصورة مزرية عندما يأتى الأمر إلى فرض الحصار على مدينة حصينة ما أو اقتحامها: تحدتْ "أباريس" (=أواريس) محاولاتهم فى هذا الصدد لأكثر من جيل كامل. وصمدت "شاروهين" لثلاث سنوات. وحتى بعد ذلك بستين سنة وخلال حكم الفرعون "تحوت – موسى" الثالث صمد حصن "مجدو" المتوسط الحجم لسبعة شهور[٤٧]. زد على ذلك هناك غياب شبه كامل لذلك النوع من الأدلة الملموسة التى تشير إلى عمليات حربية على نطاق واسع أو حضور امتد لسنوات طويلة للمصريين فى فلسطين تحت حكم الفرعون "أحموسى" هناك: لم نهتد إلى أى أسماء لحكام مصريين مقيمين، ولم نعثر خلال التنقيب على أى أدوات أو أوانٍ artifacts مصرية، ولم تجرِ عمليات ترحيل مكثفة للآسيويين الذين ظهروا فى أوقات لاحقة فى مصر. وعندما نقف من واقع النصوص على أن الإمبراطورية المصرية (فى آسيا) كانت قيد البقاء بعد الفرعون "تحوت–موسى" الثالث، فإن الأدلة التى نستقيها على ذلك من الآثار تتدفق علينا من كل صوب وحدب[٤٨].

ولكن إذا لم يكن المصريون هم الذين أنزلوا ذلك التدمير بتلك المدن، فعلى عاتق من فى الحقيقة تقع المسئولية عنه؟

أولاً، ينبغى علينا أن نلاحظ أن الافتراض السهل بأن هناك تزامنًا لنهاية فترة MBIIC مع طرد الهكسوس لا يسوغ التأثير على المحاججة على أى نحو من الأنحاء. إذ يستطيع المرء أن يؤيد، بنفس القدر من التسويغ، تاريخًا قبل صعود الفرعون "أحموسى" إلى العرش أو تاريخًا يبعد كثيرًا عن زمن وفاته. ولكننا إذا استندنا إلى الأدلة الطبقاتية (من طبقات) دون سواها، فقد لا نكون فى وضع يمكننا، ببساطة، من إصدار حكم ما، وعندئذ نترك الباب مفتوحًا لإمكانية أن ننسب كثيرًا من مستويات التدمير إلى ما نجم عن الغزو الذى قام به الفرعون "تحوت – موسى" الثالث[٤٩].

ولكن إذا ما كان للمرء أن يعترض بأن وضع نهاية فترة MBIIC بعد سنة ١٥٠٠ق.م. – وهو الأمر الذى يتأسس بصورة طبيعية على ذلك – متأخر للغاية، فإن مرشحًا آخر يكون قيد الانتظار فى جنح الظلام. فالضغط الذى قام به الحوريون وقادتهم من الهندو-آريين، بصورة لا هوادة فيها باتجاه الغرب، خلال الربع الثالث للقرن السادس عشر، أدى إلى انبثاق أمة – دولة جديدة تدعى "ميتانى" بين نهرى "الفرات" و "بلخ" Balikh بحلول سنة ١٥٣٠ق.م[٥٠] وسرعان ما أصبحت "ميتانى" هذه بمثابة الدولة الحورية الرئيسية والممثل الأساسى للثقافة الحورية، وكان أن قوَّضت بأسرع مما كان متوقعًا الدول التى كانت قائمة فى أواسط ما بين الرافدين وأعالى "دجلة"، بما ذلك "آشور". حقًا لا نملك سجلاً للتوسعات التى قامت بها "ميتانى" باتجاه الجنوب. ولكن المرء ليتساءل عمًا إذا كانت نفس "الحمية" التى خلقت "ميتانى" على أنقاض "خانا" و"مارى" هى التى دفعت قطاعًا من الحوريين باتجاه الجنوب نحو فلسطين كى ينزلوا الدمار بـ "حازور" (= حاصور) والدويلات التابعة لها فى مسعى لإقامة دولة أخرى، علاوة على "ميتانى"، على حدود مصر؟ مثل تلك الدولة لم تظهر إلى الوجود، بطبيعة الحال، نظرًا لأن "قادش" على ضفاف نهر "العاصى" كانت قد أحكمت سيطرتها، على ما يبدو، على فلسطين عشية الفتوحات التى قام بها "تحوت – موسى" الثالث فى مطلع القرن الخامس عشر. ولكن حكام "قادش" خلال فترة LIB تكشف بصفة متواترة عن أسماء ميتانية. هل تعد "قادش" من هنا، بمثابة ذلك العامل agent الذى نبحث عنه[٥١]؟

مصادر تاريخ الإمبراطورية:

نملك، بخصوص الفترة التى شهدت نشأة واستمرار بقاء الإمبراطورية المصرية فى آسيا أى من نحو١٥٥٠ ق.م تحت حكم "أحموسى" حتى زوالها النهائى فى وقت ما فى أواسط الأسرة العشرين (نحو١١٢٠ق.م)، ثروة نسبية من مواد مستقاة من مصادر أصلية. فلأول مرة يتوفر لنا من النصوص المصرية والمسمارية ما لا يشكل سجلاً معاصرًا فحسب، ولكن أيضًا تلميحات متعارضة فى أولوياتها أو أفضلياتها حول الفترات نفسها وأحيانًا حول الأحداث نفسها.

مصر

حوليات :

رغم أن القائمة التى وصلت إلينا عن المملكة القديمة من الأنواع الأدبية التى نجت من عوادى الظروف تشمل السجلات السنوية للأحداث الكبرى والمعلومات التى تحتاج إليها الأجيال اللاحقة، فإننا لا نطمئن إلى المدة التى استمر فيها هذا النوع الأدبى أو ذاك على قيد الوجود. حقًا ظل اسم "الحوليات" بمثابة اسم عام فى المعجم (المصرى) حتى نهاية التاريخ المصرى ولكنه قد يشير، بعد نهاية المملكة الحديثة إلى شكل مهجور أو شكل دخل عليه تعديل جذرى[٥٢]. وفى سائر الأحوال لم يصل إلى أيدينا أى نموذج على ذلك الشكل من المملكة الحديثة.

دفاتر اليومية :

يأتى إلينا من المملكة الوسيطة نوع أدبى يسمى دفتر اليومية لهذه المؤسسة أو تلك، ويضم تجميعًا لأحداث بارزة ومذكرات دبلوماسية ونفقات، وهى مرتبة فى لفائف وفقًا لليوم والشهر والسنة[٥٣]. وكانت المعابد والمصالح الحكومية والقصر الملكى تحتفظ بمثل هذه الدوريات التى أصبحت بمثابة المصدر الأول لأنماط ثانوية من الأدب، بما فى ذلك الغناوى وقصائد المديح ونصوص النصر. وفى ضوء الأهداف التى نتوخاها ينطوى دفتر اليومية الخاص بقصر الفرعون على الأهمية الأكبر، فيوميات القصر لا تسجل أعمال الفرعون يومًا بيوم وحسب، ولكن أيضًا نفقات وإيرادات العائلة الملكية. وعندما يخرج الفرعون على رأس حملة ما يغدو دفتر اليومية بمثابة دفتر حرب فى حقيقة الأمر. حقًا لم يصل إلى أيدينا أى دفتر يومية للعائلة المالكة من المملكة الحديثة، ولكن عهد الفرعون "تحوت - موسى" الثالث (وإلى مدى أقل بعض خلفائه) شهد استخدام مقتطفات مطولة من هذه الدفاتر فى النصوص التى حملتها الصواديد/الألواح.

المراسلات:

خلال العصر البرونزى المتأخر (نحو ١٥٥٠-١٢٢٠ق.م) كانت المراسلات الدولية من نوعيات دبلوماسية مختلفة تجرى بين الدول العظمى فى العالم القديم باستخدام اللغة الأكدية كاللغة المشتركة Lingua Franca مكتوبة بالخط المسمارى على ألواح من الطين المحروق(٥٤). وكان فرعون مصر يحتفظ بـ "طاقم" من كتبة الرسائل الذين يجيدون اللغة الأكدية فى البلاط الملكى كى يترجموا رسائله التى تصاغ أول الأمر باللغة المصرية. وفى حوزتنا جزء من المراسلات المسمارية فى عهود كل من "أمين -حوتب" الثالث و "أخناتون" و"توت - عنخ - أمون"، مع مصر، محفوظة فى رسائل "أخيتاتون" (= العمارنة)، التى عثرت عليها فلاحة مصرية فى سنة ١٨٨٧ فى أطلال المحكمة العليا فى مدينة "أخيتاتون"، كما ظهرت إلى الوجود بعض مراسلات الفرعون "رعمسيس" الثانى وعائلته وبلاطه خلال الاستكشافات التى جرت فى "هاتوساس" عاصمة الحيثيين(٥٥).

المعاهدات:

رغم وجود إشارات إلى اتفاقيات دولية دخلتها مصر مع جاراتها، إلا أن هذا الشكل الأدبى لم يكن مصرى النشأة ولم تصل إلى أيدينا سوى معاهدة سلام واحدة أبرمها "رعمسيس" الثانى مع الحيثيين وقد ترجمت عن اللغة الحيثية.

هذه التصنيفات الأربعة تشكل بصفة رئيسية ديوانًا خاصًا سعى الكتّاب إلى أن يتواصلوا من خلاله مع ذلك، وأن يؤثروا الواحد فى الآخر أو فى مجموعة من الأشخاص. وكانت الأغراض عملية: أن ينقلوا أو يسجلوا معلومات غاية فى الأهمية، أو يقنعوا شخصًا ما بتقديم فائدة عاجلة. فمثل هذه التصنيفات لا تقصد استهلاك الجمهور العام، ولما كانت تعكس بصفة عمومية ما يرى فيه الكتّاب أنه حقائق فإن عنصر الخداع ليس بارزًا. ولكن الأمر مختلف مع الأنواع الأدبية التالية التى ترمى إلى النشر.

صواديد النصر:

ينطبق "نقش النصر" المصرى[٥٦] على نوع من النصوص التى يزخرفها الكتّاب بصورة فائقة فى أسلوب سردى وبلاغى يهدف إلى الاستهلاك الشعبى، رغم أن الموضوع قد يكون مستقى من حادث ورد على نحو بارز فى دفتر اليومية. وغالبًا ما يكون الموضوع هو الانتصار فى معركة ما ويكون مصاغًا فى إطار تغلب عليه الصنعة إلى هذا الحد أو ذاك. ويدور الموضوع حول عدد من المحاور لعل أهمها هذان المحوران. الأول: أزمة ما تلوح فى الأفق، ولكن مستشارى الفرعون ينصحونه بالتريث وتوخى الحذر، إلا أن جلالته يهمل نصحهم كى يستبدله بجراءته التى تحقق الفوز. الثانى: يصل رسول ما حاملاً أنباء حول تمرد أو ما يشبه، وعندئذ يثور الفرعون ومرة أخرى يأخذ على عاتقه انتهاج خط جرىء، يثبت نجاحه فى نهاية المطاف[٥٧]. ومثل هذه الصواديد/الألواح كانت تقام عند مشارف المعبد حيث يمكن للأهالى أن يسمعوا "قراءات" الكتبة لما كتبوا.

المدائح:

تشى "تصانيف الأعمال" المصرية التى غدت فى وقت لاحق مجرد "غنوة"[٥٨] بنظمٍ شعرى بلاغى عالى القيمة تمجيداً للأعمال العظمى التى قام بها الفرعون (فى ميدان القتال فى غالب الأحيان) وكانت تُغنّى، عادة، بمصاحبة "الهارب".

جداريات الحرب:

أنشأت المملكة الحديثة سلسلة متبلورة من الصور القلمية التى بولغ فيها حتى وصلت إلى أبعاد أكبر من الواقع للعديد من المراحل التى تمر بها أى معركة، وكانت تلك الصورة القلمية تنقش على الأوجه الخارجية لجدران المعبد وصروحه كى يراها الجميع[٥٩]. ويشتمل السياق على الإله الذى يفوِّض الفرعون، والفرعون وهو يصعد على متن مركبته ثم الزحف والمعركة أو الهجوم ويلى ذلك، الزحف فى طريق العودة إلى أرض الوطن،

وتقديم الأسرى إلى الإله.وإذا صرفنا النظر عن أسماء الأعداء الذين يختلفون اختلافاً بيناً، فإن النصوص التى تصف المناظر تميل إلى التقولب فى صيغ لغوية تقليدية وضنينة الإفصاح (uninformative) . ومع أننا عثرنا على هذا النوع الأدبى تحت ظل التحامسة(٦٠)، إلاّ أن أفضل النماذج حفظاً على هذا النوع جاءتنا من حكم كل من "سيتى" الأول و "رعمسيس" الثانى.

مناظر ضرب الرءوس وقوائم أسماء المواقع الجغرافية:

عرف فن الفراعنة منذ نشأته الأولى، موتيف "ضرب الرأس" ولكن صاحبته خلال المملكة الحديثة مجاميع من أسماء المواقع الجغرافية فى أشكال بيضاوية تعلوها جذوع الأسرى الأجانب كى ترمز للأبعاد البعيدة التى تبلغها الغزوات التى يقوم بها الفرعون. مثل هذه المناظر كانت ضرورية de rigueur على الوجه الخارجى لصروح المعبد حيث تستطيع إشعاع أكبر قدر من التأثير الدعائى. وإذا ما غضضنا النظر عن القوائم المكثفة من أسماء المواقع الجغرافية التى تعود إلى "تحوت-موسى" الثالث، وتستند إلى دلائل السير، إلاّ أن قوائم الملوك اللاحقين تهبط قيمتها كانعكاسات لأحداث تاريخية(٦١).

بيانات حول سير ذاتية:

تأتى مثل هذه البيانات كخطاب من العالم السفلى للأحياء الذين يسعون على هذه الأرض، ولطالما شكلت هذه البيانات جزءاً من الزخرفة التى تحملها مقصورة المقبرة المفتوحة للزوار(٦٢). ففى الأسرة الـ ١٨ اعتاد الجنود الذين يخرجون فى الحملات أو المسئولون المكلفون بأخذ الغنائم أو تلقى الجزية أن يضمّنوا مآثرهم تلك فى بياناتهم. وبحلول عصور الرعامسة بدأت تخبو الرغبة فى تعداد الأحداث الخاصة التى شهدها المرء خلال سنوات عمره لصالح اهتمام أكثر جدية بالأساليب والوسائل التى تؤدى إلى ضمان حياة أخروية سعيدة.

المشرق:

استناداً إلى ما استعرضناه للتو، يغدو واضحاً أن الأغلبية الكبيرة لمصادرنا المصرية تنتمي إلى الفئة النُّصبية (= من نصب monumental) تلك التي ترتكز على النصوص الأصلية بكل تأكيد، ولكنها منقوشة كي يراها جميع الأهالي. فالأرشيفات الرسمية عانت في معظمها من التدمير أو على أقل تقدير لم تظهر بعد إلى النور بكميات معقولة. وهذا أمر يختلف عما عليه الحال في آسيا الغربية حيث تفتقر إلى السجلات التي تحملها النصب – ولعل هذا الأسلوب من الدعاية لم يتطور هناك إلى الأبعاد التي تطور إليها في مصر – وحيث تمكنت عمليات التنقيب من الكشف عن أرشيفات رسمية بكميات ملحوظة. إلا أن هناك شبحين هائلين يلقيان بظلهما على تاريخ العصر البرونزي المتأخر.

ألالاخ:

يصل عدد ألواح "ألالاخ"[٦٣] وهي مكتوبة بالخط المسماري باللغة الأكدية – الذي وصل إلى أيدينا – من مستوى IV من ذلك الموقع إلى نحو ٢٥٠ نصاً ترجع إلى القرن الـ ١٥ ق.م. فلقد عثر عليها سير "ليونارد وولي" Leonard Woolley خلال الاستكشافات في الموقع مبعثرة في الغرف التي تؤدي إلى مكاتب القصر، كما لو كانت قد سقطت أثناء عملية هروب خلال التهام النار للمبنى. وتكشف محتويات هذه الوثائق – الألواح بشكل لا لبس فيه أنها كانت تشكِّل جزءاً من الأرشيفات الرسمية حيث تشتمل على نصوص إدارية (إحصائيات وقوائم ضريبية) وقوائم سلع وعبيد وقوائم حصص (غذائية) وفتاوى قانونية ومراسيم ملكية، وبضعة خطابات ونسخ لمعاهدات.

أوجاريت :

ترجع نصوص "أوجاريت"، على نفس المنوال إلى أراشيف أحد القصور، إلا أن العدد الإجمالي يزيد أكثر كثيراً عن عدد ألواح "ألالاخ"[٦٤]، وخلافًا لهذه الألواح نجد أن نصوص "أوجاريت" تغطى فترة تتراوح ما بين ١٤٢٥ و ١١٩٠ ق.م على وجه التقريب، وعلاوة على ذلك فهى مكتوبة على ألواح من الطين بلغتين اثنتين بصفة رئيسية: الأكدية والأوجاريتية (وبأبجدية مسمارية خاصة) اللغة الأولى: لغة سامية غربية تتصل بصلة قوية مع كل من الكنعانية والعبرية وبصرف النظر عن عدد ملحوظ من النصوص (بالأوجاريتية) التى أحدثت ثورة معرفية فى فهمنا للديانة الكنعانية، فإن بقية الأرشيفات تلقى بضوء مقبول على إدارة أو حكومة هذه الدولة وتاريخ سوريا الشمالية بشكل عام. وكانت هذه الألواح قد ظهرت إلى الوجود بمحض الصدفة فى عدد من المطارح المحددة فى المبنى، الأمر الذى يعكس الفصل الحاذق لدوائر الحكومة. فالأرشيفات "المركزية" تشكل فى الحقيقة، مكتبًا للسجلات يضم عدداً هائلاً من النصوص القانونية والنسخ المنسوخة، وصكوك نقل ملكيات عقارية ووصايا وعقود وفواتير سلع معدة للبيع. وقد جاءت الأراشيف "الغربية" من الخزانة وتكشف عن نصوص إدارية متماثلة مع تلك النصوص التى ترجع إلى "ألالاخ"، بينما يصوِّر الأرشيف الشرقى الإدارة البلدية للمدينة ذاتها. وأخيراً تكشف عن الأرشيفات "الجنوبية" كسجلات لـ "المكتب الخارجى" تحتوى على رسائل واردة من ملوك ومسئولين أجانب، وقوائم جزية، ونصوص قانونية ومعاهدات.

خبيئات أقل أهمية من النصوص:

لم يظهر إلى الوجود ما يمكننا أن نقارنه، ولو من بعيد، بأرشيفات "أوجاريت" سواء من حيث كمها أو إلقائها للضوء على فلسطين أو سوريا، ولكن هناك بعض الألواح المتناثرة التى عثر عليها خلال الاستكشافات مما يستحق التنويه. ولقد استفاد العلماء من بعض الوثائق التجارية business التى ترجع إلى "إمار" Emar على نهر "الفرات" فى أغراض التأريخ[٦٥]، كما أفادتنا سلسلة من ألواح الجرد التى تسجل وصايا من متوفين لأحد مراكز العبادة فى "قطنـة"، إذ كانت مفيدة فى "بناء" قائمة للملوك[٦٦].

ولقد ظهرت إلى النور حفنة من النصوص، معظمها رسائل، نتيجة للاستكشافات الفلسطينية فى "تناخ" Tanaach(٦٧) و "أفيك" Aphek(٦٨) و "كوميدى" Kumide(٦٩) وهذه قد تكون مساهمة محمودة، وإن كانت محدودة، لفهمنا للأعمال التى قامت بها الإمبراطورية المصرية فى آسيا.

خاتى:

حصد العلماء من الاستكشافات التى قامت بها فى "خاتوساس" عاصمة الإمبراطورية الحيثية (بوغاز - كيوى حاليًا) جمعية الشرق الألمانية Deusche Orientgesellschaft (من ١٩٠٦-١٩١٤-١٩٣١-١٩٣٦ ومن ١٩٥٢ إلى الوقت الحاضر) محصولاً وفيراً يصل إلى عدة آلاف من الألواح المكتوبة بالخط المسمارى من الأرشيفات الرسمية(٧٠). ونجد بين الأنواع الأدبية (التى لا تقدر بثمن فى إعادة تخليق الحياة لواحد من الشعوب "المفقودة" فى العالم القديم) المعاهدات والحوليات والرسائل و "الدفوعات" apologia (عرفت الديانة المسيحية أيضا ما يسمى بـ apologetics أى الدفوعات عن أركانها الإيمانية) وهذه تنطوى على أهمية كبرى للأهداف التى تتوخاها. وإذا كانت هذه قد كتبها الحيثيون أنفسهم، فلابد أن تكون قد كتبت أول الأمر باللغة الحيثية ثم ترجمت إلى الأكدية وقد نجت من عوادى الظروف كل من المسودات الحيثية والنسخ الأكدية فى معظم الأحيان(٧١).

الحوليات:

يعد سرد النشاط (العسكرى) سنة بسنة للملك نوعًا أدبيًا، ومع أننا نعرفه منذ القرن السادس عشر ق.م بين الحيثين(٧٢) إلا أن خير ما يمثله هو نتف الحوليات الملكية التى وصلت إلينا من القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، فهذه تقع تحت التصنيف الذى يطلق عليه "الحيثيون" اسم "الأعمال الرجولية" وتصاغ بصورة تقيم الدليل على مؤازرة الآلهة للملك فى ميدان المعركة(٧٣).

المعاهدات:

طور الحيثيون هذه الأداة من أدوات الدبلوماسية الدولية حتى بلغت على أيديهم درجة عالية، رغم أنها لم تكن من ابتكارهم(٧٤). وهذا الشكل ثلاثى الأبعاد بصفة رئيسية: ديباجة تعرض للعلاقات التاريخية التى تربط البلدين المتعاهدين ثم تأتى البنود التى تنطوى عليها المعاهدة، ثم شهودها (الآلهة والإلهات التى يعبدها الطرفان، وتشمل أهم المعاهدات بالنسبة للمؤرخين السوريين تلك التى انعقدت مع "حلب" و "كيزو- وادنا" و"تونيب" و"أمورو" و"أوجاريت" و"ميتانى" ومصر.

الرسائل:

معظم الرسائل التى وصلت إلى أيدينا ترجع إلى القرن الثالث عشر ق.م. ("هاتوسيليس" الثالث وخلفاؤه). وقد نجت من عوادى الظروف نتفٌ من نحو ٢٦ رسالة من بلاط "رمسيس" الثانى(٧٥) وعدد من رسائل (أو مسوداتها) إلى ملوك "آشور" و "بابل" و "خانيجالبات"(٧٦).

الدفوعات:

يغطى هذا المصطلح العام عدداً من القطع الأدبية المتباينة تهدف كل منها إلى إبراز الموقف الشخصى للكاتب على شكل التماس أو إيضاح. ولسوف نذكر ثلاثة دفوع تنطوى على أهمية تاريخية: مرسوم "تليبينوس" Telepinus (حوالى ١٤٧٠ق.م.) الذى يسعى إلى تنظيم الإدارة الحكومية والملكية، ويشير إشارة سريعة إلى التاريخ الحيثى فى بداياته الأولى(٧٧)، و "صلاة الطاعون" التى وضعها "مورسيليس" الثانى (حوالى ١٣٣٥ ق.م.) وهى الصلاة التى يحاول فيها جلالته أن يتحرى من إله العواصف الأسباب التى تؤدى إلى وقوع البلاد فريسة لذلك الوباء القاتل وخلالها ينتهز الفرصة كى يسرد بعض وقائع التاريخ(٧٨)، و"دفع" "هاتوسيليس" الثالث الذى يسعى الملك

خلاله إلى تبرير الأعمال التى صدرت عنه طوال حياته[٧٩]. وكل هذه الأنواع تكشف مثلها فى ذلك مثل الحوليات والمعاهدات إحساسًا متطورًا للغاية بالأخلاق السياسية وبالحاجة إلى تبرير الأعمال التى تصدر عن المرء أمام الآلهة والبشر.

التوصيف السياسى للمشرق حوالى ١٥٢٥ق.م

تبدأ هذه المصادر التى عرضنا لها بإيجاز فى تقديم صورة متسقة فى الربع الأخير من القرن الـ ١٦ ق.م، وقد يكون ذلك فى بحر عشر سنوات من تدمير "مورسيليس" الأول لـ"حلب" والاغتيال الذى استهدفه قبل الأوان[٨٠]. إذ كان العصر عصر دخول المحاربين الحوريين فيما بين نهرى "الفرات" و "بلخ" مرحلة تنظيم أنفسهم على هيئة دولة وهو نفس الوقت الذى تنازل فيه حكامهم طوعًا عن السيادة لقطب بارز من عشيرتهم "شوتارنا" shutarna الأول ابن "كيرتا" Kirta كى يصير "ملكًا على بلاد "ميتانى"[٨١]. وفى الوقت نفسه شرع فيما يبدو الحيثيون الذين كانوا يعانون من الضعف السياسى الذى نجم عن عمليات الاغتيال وما صاحبها من تفجُّر الضغائن، فى الانسحاب تاركين الميدان مفتوحًا أمام القادمين الجدد. وفى سنة ١٥٢٠ ق.م على وجه التقريب استطاع "هانتيليس" Hantilis الأول أن يبدأ فى شن هجماته على "أشتاتا" Ashtata و "كاركميش". ولكن هذه الهجمات لم تسفر إلا عن إقامة الدليل على عدم جدواها[٨٢]. ولقد أسس الحوريون دولة "كيزو - وادنا" فى سهل "سيسليا" إلا أن "زيدانتاس" Zidantas الأول، خليفة "هانتيليس"، اضطر، بعد محاولة الصمود فى وجه القادمين الجدد بقوة السلاح أن يبرم معاهدة مع "بعليا" Pa'illiya ملك "كيزو - وادنا" التى نصت على إعادة المدن المحتلة بصورة متبادلة إلى أصحابها وترسيم الحدود بين الجانبين[٨٣]. ومنذ ذلك الحين وصاعدًا وخلال سبعة أجيال تركزت سياسات الحيثيين فى الجنوب الشرقى على الحفاظ على دولة "كيزو - وادنا" كمنطقة عازلة فى وجه التعديات التى تقوم بها "ميتانى" وتوابعها.

استمر ضغط "ميتانى" فى اتجاه الغرب بلا هوادة. وفى هذه الأثناء كان بيت عائلى يجاهد فى سبيل التمكين لحكمه فى "حلب" عقب الغارة التى شنها "مورسيليس" (الحيثى) تحت قيادة "أبائيل"، نجل "شرا - إيل" Sharra-'el[٨٤] ولكن التناحر الداخلى (الذى أثارته "ميتانى")[٨٥]، أطاح بخليفته "إليم - إليما" Ilim-ilimma ، من على عرشه وفرض

الفرار على بقية العائلة المالكة. ومن ذلك الوقت فصاعداً لم تعد "ميتانى" تطيق أى إحياء (لملكة عظيمة، فى "حلب")، وأصبحت ملحقاتها السابقة إمارات مستقلة: "ألالاخ" و "موكيش" فى الغرب وأراضى "نوخاششى" التى تفتقر إلى حدود مستقرة شرقى نهر "العاصى"(٨٦)، و "نيبا" Niya فى الجنوب عند "أباميا" Apamea(٨٧).

إلى الجنوب أكثر كان تغلغل الحوريين هو الذى وجه الضربة القاضية إلى الهيمنة التى تمتعت بها "قطنة" خلال العصر البرونزى الوسيط. وتقوم شواهد على استمرار "أرض زنزار" مستقلة فى مطلع القرن الخامس عشر (قلعة سيجار Qal'at Sejar) بعد نحو ٢٥ كيلو متراً شمال غربى "حمات" على نهر "العاصى" ولقد كانت قائمة هناك دون شك قبل ذلك التاريخ بنصف قرن(٨٨). ولما ينطوى على أهمية أكثر أن سياسات العصر الجديد أدت إلى تحرير، "تونيب" التى كانت حتى ذلك الوقت مركزاً صغيراً يتاخم "زنزار" إلى الجنوب. ورغم أننا لا نستطيع التعرف بصورة مقنعة، على "تونيب" فى أى موقع قائم الآن، فإنها كانت قائمة ولا شك، شمال غربى "قطنة" بمسافة قصيرة وغربى نهر "العاصى" حيث كانت قادرة على السيطرة على وادى نهر "الكبير"(٨٩). وعلى بعد نحو أربعة وأربعين كيلو متراً جنوب غربى "قطنة"، التى تقع هى الأخرى على نهر "العاصى" انفصلت "قادش" (تل نبى – مند Tell Nebi-mend) هى الأخرى وشكلت إمارة مستقلة. ولقد اقتسمت كل من "تونيب" و "قادش" فيما بينهما الهيمنة على الأقاليم المجاورة لمدة قصيرة حقًا ولكنها لا تخلو من مغزى: هيمنت "تونيب" على أواسط الساحل الفينيقى (بصفتها مخلب قط لـ"ميتانى") وبسطت "قادش" هيمنتها على أعالى حوض نهر العاصى و "الجليل"(٩٠).

لا تتوفر تحت أيدينا سوى معلومات هزيلة عن الوضع السياسى لتلك المدن الساحلية ولكننا قد نستطيع مع ذلك أن نستنتج شيئًا ما من الموقف الذى ساد هناك بعد جيل أو نحو ذلك. فجنوبى مصب نهر "العاصى" تمتعت كل من "أوجاريت" و "سيانو" Syannu الأصغر منها، والواقعة على حدودها الجنوبية، بنوع من الاستقلال الهش، مثلما فعلت على وجه الاحتمال "أرفاد" فى معقلها فى جزيرتها. وبينما كانت "أرقاطة" قد أخذت تسقط تحت نفوذ "تونيب"، حافظت "بيبلوس" على علاقات واعدة مع مصر، مثلما فعلت (كما يحق لنا أن نقرر) كل من "بيروت" و "صيدا" و "صور".

تأسيس الإمبراطورية المصرية:

وورطـت مصر نفسهـا فى مـستنقـع دول تستـنـد سيـاستها إلى الخداع، وربما لم تكتشف، إلا بصورة تدريجية، النتائج الوخيمة التى كانت ستترتب على الخطوات التى اتخذتها فى هذا الصدد. إلا أن هذه الخطوات فرضها، فى البداية، وكما ينبغى علينا أن نقدر، التوجس من التهديد الجديد الذى شكله "الحوريون". وفى الوقت الذى كان فيه المصريون مدركين لـ (وربما تواقين أيضًا) إلى المنتجات والموارد وقوة العمل التى تتمتع بها المناطق المجاورة من غرب آسيا، إلا أنها اعتمدت، حتى وقت ذاك، على إقامة منـاطق نفـوذ وعمليات الترهـيب بين الحين والآخـر (الغارات والضربات التأديبية) فى سبيل ضمان الوصول إليها. ولكن الآن، وغداة تحرير مصر من احتلال الهكسوس، بدأت مصر تنظر إلى آسيا المجاورة فى ضوءٍ جديد إذ أعادت تقييم هذه المناطق طبقًا لموقعها الإستراتيجى فى مواجهة المناطق الأكثر بعدًا فى أعماق الشمال. فكيف يتأتى لفرعون مصر أن يطمئن إلى أن أولئك "الحكام الأجانب": "حقاو - خاسوت" لا يضمرون مهاجمة مصر مرة أخرى، كى يستعيدوا حكم سلالة الأسرة الخامسة عشرة. واستمر تصور الفرعون لنفسه وهو يشن الهجوم الوقائى على "الحكام الأجانب الذى هاجموه" أو"يعتزمون تدمير مصر" و"بدأوا زحفهم ضده"، يسيطر على تفكير فراعنة الأسرة الثامنة عشرة[٩١]. وبالتالى أصبح من الملائم بل ومن الضرورى أن "يمد حدود مصر" وأن يحوِّل الأراضى التى وطأها حتى وقت ذاك إلى منطقة عازلة. وأولئك الذين يقيمون فيها إلى "رعايا"، وآسيا كانت لتصبح "أجيرة" عند جلالته، تؤدى قسم الولاء لاسم جلالته[٩٢].

تنبع هذه التبريرات غير المألوفة لظاهرة الإمبراطورية الجنينية مما ألفه المصريون، وأقصد على وجه التحديد من علاقاتهم الاجتماعية السياسية خلال المملكة الوسيطة. كما أن تحركاتهم الأولى فى آسيا الغربية كانت على نفس المنوال: نكوصات إلى آلية معروفة على نطاق واسع، وفى هذه الحالة الغارات التى كانت قد غدت الأداة التى يفضلونها فى الترهيب على امتداد أكثر من ألف سنة. فالفرعون "أحموسى"، وعلى نحو ما تشير مصادرنا التى تتسم بالندرة هنا، شن عمليات حربية من نوعٍ ما متوغلاً فى أعماق آسيا، انطلاقًا من "بيبلوس" والفرعون "أمين - حوتب"

الأول (إذا صح إسنادنا للنص إليه) صال وجال إلى الشمال أكثر من ذلك وانحدر مع نهر "العاصى" حتى بلغ "تونيب"(لوحة رقم ١٦)[٩٣]. ويمكننا أن نعد توغل الفرعون "تحوت - موسى" الأول حتى نهر الفرات غارة، وبالتالى استمراراً للسياسة القديمة، تلك التى عفا عليها الدهر من الهجمات المتقطعة، ولو أننى أرى أن الفرعون "تحوت - موسى" الأول نظر إليها كخطوة مختلفة، كما سنعرض للأمر فى وقت لاحق. وعود على بدء وسيراً على النهج الملكى خلال المملكة الوسيطة، عندما كان برجاس القنص الملكى القديم قدم الزمان يتمتع بنصب البلاط الفرعونى له بصفة منتظمة[٩٤]، نقل فراعنة الأسرة الثامنة عشرة الأوائل هذا البرجاس إلى آسيا، إذ أصبح بمثابة ملمح منتظم من ملامح التجريدة العسكرية فى إطار الاحتفالات التى تقام عقب إحراز النصر[٩٥]. وبطبيعة الحال كان الفراعنة الثلاثة الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة أكثر اهتماماً بتدعيم هيمنتهم فى النوبة، وهو الأمر الذى تطلب مجهودات أكبر بكثير من مجرد شن الغارة تلو الغارة فى آسيا، طالما هدفت الأسرة الثامنة عشرة إلى تدمير المملكة الكوشية السابقة، ونصب حامياتها فى هذه المناطق واستعمارها. ولكن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة لم يروا حتى ذلك الوقت أن أيًا من مثل هذه الخطوات صالح فى آسيا. ورغم ذلك، وفى إطار الخطوط العريضة للمفهوم، كان إخضاع النوبة، مرة أخرى، داخلاً فى نطاق الموقف المصرى التقليدى إزاء العالم الخارجى.

إذا كان حكم الفراعنة الأربعة الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة قد بدا تقليدياً فى صوغه لسياسته الخارجية، وإذا كان حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثانى قد دشن نهجًا جديداً للعلاقات مع آسيا، فإن السنوات العشرين التى امتدها حكم الملكة "حتشبسوت" المزدهر، هى التى تحتاج، بصورة ماسة إلى تقييم دقيق. (لوحة رقم ١٧)[٩٦]. وبينما نجد على مستوى الفن أننا نستطيع تقييم حكم الملكة "حتشبسوت" كـ "نهاية" لعصر، فإن سياساتها العسكرية والاقتصادية تلوح بصفتها أقرب إلى جسر بين حقبتين متميزتين. وحقيقة الأمر أن التصور القديم الذى يذهب إلى أن "حتشبسوت" عقدت العزم على العودة إلى تبنى نمط أقدم لفرعون مصر وأن حقيقتها اتضحت فى النزوع إلى السلام وتجنب حمل السلاح، يحتاج إلى تعديلات جوهرية: لعله من الجلى الواضح أن الملكة لم تعزف عن الانخراط فى الحرب،

بل وقادت جيشها بنفسها ذات مرة واحدة على الأقل(٩٧). ومع ذلك كانت تجريداتها العسكرية قليلة للغاية فى العدد، وكانت على نطاق ضيق. ويبدو واضحًا أن اللجوء إلى القوة العسكرية لم يكن يشكل عنصرًا أساسيًا فى برنامجها. ولقد تركت لنا ملكة مصر عددًا من المقولات الشخصية، التى نستطيع أن ننتظر منها أن توفر لنا مفاتيح مهمة إلى الطريقة التى كانت تفكر بها. وحقيقة الأمر تحقق لنا هذه المقولات ما انتظرناه منها. إذ يسيطر على كل نقش من النقوش التى وصلت إلينا من حكم "حتشبسوت" انشغال الملكة بمشروع هائل يتمثل فى إعادة بناء مصر(٩٨)، وكان السلام ضرورة لإنجاز هذا المشروع. وتقرر الملكة، بصورة واضحة: "لقد أشعت الأمان والطمان على امتداد سائر مديريات البلاد، وكل المدن خلدت إلى السلام"(٩٩). ووصفت فى وقت لاحق حكمها بصفته "سنوات السلام"(١٠٠). ومن ثم نستطيع أن نتوقع لعلاقاتها بالبلاد الأجنبية أن تتأثر، بصورة ملحوظة باهتمامها هذا الأولى بالأمور المحلية.

وإليكم منتخبات محدودة من المقولات التى تعبر عن موقفها تجاه العالم الخارجى:

[هكذا تحدثت الآلهة مع "حتشبسوت": فلتعيدى بناءها (بلاد مصر) ولتقومى مثالبها. ولتقيمى أنصابك فى معابدك ولتملئى مذابح الذى أنجبك (أى "آمون") ولسوف تشقين طريقك خلال الأراضى ولسوف توقعين فى الشرك كثيرًا من البلدان الأجنبية، ولسوف تحرزين النصر المبين على الليبيين ولسوف تستعرضين ذراعك فى قمع شعب القوس. ولسوف تقطعين رءوس حشود من الجنود وتقبضين على أمراء سوريا خلال المجازر، أولئك الذين ظلوا بعيدين عن رحمة والدك (آمون)، ولسوف تبلغ الجزية التى سيؤدونها إليك ملايين الرجال الذين سيقعون تحت سيف العبودية، ولسوف يسير فى أعقابك آلاف الرجال كى يخدموا فى المعابد](١٠١).

[تضع كل البلدان الجزية عند قدمىْ "حتشبسوت" ... والساخطون يأتون راكعين ساجدين] ... وكل ما يحيط به قرص الشمس [يحمل منتجاته، فل هى التى ترسل المرسوم إثر المرسوم إلى بلادٍ مجهولة وهناك يصدعون لما تصدره إليهم من أوامر... لقد حضر أمراء البلدان الأجنبية كى يرجوا السلام من جلالتها. والـ ... وقعوا فى قبضتها، فلقد استولت على كافة البلدان بقوة ذراعها وحده، وملأت الرهبة التى يشعها اسمها سائر القلوب فى كافة الأراضى](١٠٢).

[هكذا تكلمت حتشبسوت: أنا وريثة طيبة الذكر... استقرت فى يديها الملكية فى البلاد السوداء والبلاد الحمراء على حد سواء، وكل البلدان الأجنبية تحت قدمي. حدودى الجنوبية تصل إلى شواطئ "بونت" وأرض الإله فى قبضتي. وحدودى الشرقية تبلغ مستنقعات آسيا. وحدودى الغربية عند جبل – مانو، وليبيا جزء من مملكتي، أما حدودى الشمالية فتقع عند... [وقوتى القاهرة تكتسح أولئك الذين يعيشون على سطح الرمال جميعًا، ومثلما يُشحن القمح (من مصر) كذلك يأتينى المر من بلاد "بونت" وكل طيبات هذا البلد الأجنبي - وكل هذه الطيبات تتجه إلى قصرى دفعة واحدة. والآسيويون يقدمون ... الفيروز من بلاد الـ "رو – شيت" Roshayt[١٠٣] وهم يحضرون إلىّ أروع منتجات "نجاو" وبالتحديد الأرز والعرعر(؟) وخشب المرو: mrw...] [وكل الأخشاب الفخمة التى تجود فى بلاد الإله. ولقد أحضرت منتجات ليبيا وعلى وجه التحديد سبعمائة ناب عاج من أنياب الفيل التى تشتهر بها تلك البلاد وكثير من (جلود) النمور يصل ظهر الواحد إلى ستة أذرع والمحيط أربعة أذرع. فهذا هو النمر الجنوبى، إلى جانب منتجات أخرى متنوعة من ذلك البلد الأجنبى][١٠٤].

[هكذا تكلمت "حتشبسوت": قضى الإله "رع" :تتحد الضفتان تحت سلطانى، والأرض السوداء وتلك الحمراء ترتعد فرائصهما من اسمى. وقوتى تجبر البلدان الأجنبية على الركوع، فى الوقت الذى تلقى "الحية" Uraeus التى تعلو جبهتى بالرعب فى كل البلدان الأجنبية، ويأتى الـ "رو – شيت" عاجزين عن الاختباء من جلالتى. وتسافر "بونت" قادمة نحوى من حقول الأشجار، وهى محملة بالمر الطازج. والطرق التى كانت مغلقة فيما مضى غدت الآن مطروقة يرتادها كل من شاء: وجيشى الذى لم يكن فى الماضى مزودًا حتى بالسلاح، أصبح الآن، وبعد أن تبوأت العرش، يحوز شتى الخيرات][١٠٥].

[هكذا تكلمت الحية: لسوف أنفث الرعب من جلالتها فى كل البلدان، الرعب من جلالتها سوف أبعثه فى كافة البلدان الأجنبية][١٠٦].

[كل البلدان واقعة فى قبضتى، أى الأقواس التسعة قوسًا قوسًا دون أن يتخلف أحد! وقوتى تصل إلى أطراف الأرضين، فلقد حزت قوة "صاحب الصوت المجلجل: "ست"، وقوتي تسود الوديان... ولقد جمعت أولئك الذى لا يعرفون مصر، أولئك الذين لم يزرهم يومًا رسول ملكي... قوتى تدخل الرعب فى أرض الجنوب، كما زلزلت خطاى أرض الشمال... الشماليون]... [صيغت آلهتهم (= تماثيلهم) على طرز تمائمى، وقد مدوا أذرعهم بعلامتىْ الحياة والسلطان][١٠٧].

كثير من هذه الأقوال انتزعت، ببساطة، من الرطانة التقليدية، التى أخذت صيغها النهائية قبل قرون، وجرى صبها فى قوالب قديمة باستخدام تراكيب متقعرة ومفردات عفى عليها الدهر (مثل: "مونتيو" و "شعب القوس" و "أولئك الذين يعيشون على سطح الرمال") وإذا حاول المرء أن يقرأ ما بين السطور، فإنه يستطيع أن يصل إلى قيام الملكة بعدد محدود من الرحلات القصيرة، لا تكتنفها أعمال عنف كثيرة، فى البلدان الأجنبية، وهى الرحلات التى وفرت المناسبة الملائمة لذلك الفاصل من البلاغة. وتشمل هذه الرحلات المغامرة التى قامت بها إلى بلاد "بونت"، وعادت فى السنة التاسعة من حكمها[١٠٨] بحمولة خمسة ملايين غليونًا من المنتجات الاستوائية، كما أنفذت بعثة تعدينية إلى سيناء أو "عربة"[١٠٩] وبعثة تجارية إلى "بيبلوس" طلبًا لأخشاب الأرز، ومثلها إلى ليبيا، وأخرى على سبيل الاحتمال إلى الواحات[١١٠]. أما التلميحات التى وردت إلى إصدار مراسيم للبلاد البعيدة ووصول أمراء أجانب طالبين السلام فلا تعكس سوى بعثة بلاد "بونت". أما الإشارة إلى فلول أمراء سوريا ومنح الأسرى للمعابد فلربما تعكس الإنجازات التى قام بها والدها (أى الفرعون "تحوت – موسى" الثانى). وكان نهج الملكة "حتشبسوت" تجاه الشئون الدولية تقليديًا على نحو واضح: اهتمام بالحصول على السلع والخدمات بشكلٍ سلمى، وعدم اللجوء للقوة إلاّ بعد استنفاد كافة الأساليب الأخرى أو عندما تختمر الفتنة.

وبالتالى لا يوجد هناك دليل على أى إنخراطٍ نشط، سواء أكان عسكريًا أو خلافه فى آسيا الغربية خلال السنوات العشرين التى قضتها الملكة "حتشبسوت" فى سدة الحكم، بل ونستطيع أن نمد فترة الاسترخاء هذه بحيث تشمل فترة الحكم السابقة عليها، أى حكم والدها الفرعون "تحوت ـ موسى" الثانى، الذى لم يرسل سوى تجريدة تأديبية واحدة ضد "الشاسو" فى "النقب"[١١١]. هل كانت هناك أمور تجرى فى الشمال تدعو (أو تسمح لـ) المصريين إلى الانسحاب بشكل مؤقت من مسرح الأحداث؟ الجواب: كل الأمور كانت قد تضافرت كى تخرط الفرعون، فى ذلك الوقت بالذات أكثر من أى وقت مضى فى شئون آسيا الغربية، وإذا كانت مصر قد انسحبت حقًا، فالسبب كامن فى أوضاعها الداخلية.

وذلك لأن الفصل الجديد من النهج الذى انتهجته مصر تجاه جيرانها الشماليين بدأ فى حقيقة الأمر، مع حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثانى، والد الملكة "حتشبسوت"[١١٢]. فهذا الرجل الفذ، كان مسئولاً، أكثر من أى شخص آخر، عن التدمير النهائى الذى نزل بمملكة "كوش" التى قامت خلال فترة الانتقال الثانية، وعن مد حدود مصر إلى أبعد نقطة وصلتها جنوبًا، فضلاً عن تأسيس نمط خاص للغزو فى الشمال. وكان هذا الفرعون منهجيًا فى تفكيره: خصص سنتين للحروب الجنوبية، وأقام عدة مقار له فى منطقة "منف" (حيث يستطيع الإشراف بصورة أفضل على العمليات التى يقوم بها المصريون فى الشمال)، وعيَّن "مراقب بيت" فى "طرق حورس"[١١٣]، وأطلق الحملة الشمالية (فى السنة الخامسة أو السادسة من حكمه). حقًا لم يسلم السجل الرسمى للحملة من عوادى الظروف (أو لم نكتشفه بعد)، ولكن عددًا ممن شاركوا فيها ألمحوا إليها خلال السير الذاتية التى تركوها وراءهم. فالأميرال العجوز "أحموسى - سى - أبينا" رافق الحملة ويحكى أن: "جلالته وصل إلى "نهارين" وأن "الساقط"[١١٤] كان قد حشد قواته. وعندئذٍ أوقع الفرعون مجزرة ضخمة بينهم، ولم يكن هناك حد للأسرى الأحياء الذين أسرهم جلالته خلال النصر الذى أحرزه"[١١٥]. ويسجل أحد أقربائه ويسمى "أحموسى - با - نخبيت" بشكل أكثر اقتضابًا الغنائم التى استولى عليها الفرعون "تحوت - موسى" الأول فى أرض "نهارين"[١١٦]. وهناك أيضًا شخصية فريدة يدعى "آمين - إم - حات"، وكان يشغل منصب الكاتب، لكنه أصبح ميقاتى ملكى تحت ظل الفرعون "آمين - حوتب" الأول، وقد صحب الحملة، فيما يبدو واضحًا، وذلك لأنه يسجل فى الشذرات التى تبقت من سيرته (التى فقدت الآن): "الوصول إلى(؟) البلاد الأجنبية "ميتانى" - كما يطلقون عليها ... وكان العدو {...} "طيبة"(؟) صعود جلالته من هذه البلاد الأجنبية بعد أن أسلمها للخراب {...}"[١١٧].

لأول مرة نجد فى تاريخ المملكة الحديثة، أن مشاهد وإشارات فرعية من هذا القبيل إلى النتائج والآثار المصاحبة للانتصارات فى البلاد الأجنبية تغدو جديرة بالتسجيل. ولقد سمعنا عن صادود (= لوح) حدودى نصبه الفرعون على ضفاف نهر "الفرات"، وهذا مؤشر أكيد إلى أنه كان يعتزم الإبقاء على الفتح أو الاحتلال الدائم[١١٨]. ويسجل نص مهلهل من "الدير البحرى" عملية صيد أفيال فى "نييا" Niya ،

فى طريق العودة من حملة "الفرات"[١١٩]. ولقد كوفئ قائد عجلة الفرعون الحربية بمائة وخمسين "استات" stat (= وحدة مساحية كالفدان) من الأرض، لخدماته على وجه الاحتمال، فى تلك العملية[١٢٠]. وقد ظهر منظر عودة الأسرى الأجانب، الذى أصبح منظراً شائعاً على نطاق واسع خلال القرنين التاليين، لأول مرة فى ذلك الوقت[١٢١]، ويجب علينا أن نرجع، على وجه الاحتمال، أقدم منظر يصور عجلاً حربياً فى وطيس المعارك، إلى نفس ذلك الحكم أو الحكم الذى يليه على أبعد تقدير[١٢٢].

تتوفر تحت أيدينا، بالتالى، أدلة قوية كى نستنتج أن التصور المعاصر، وفى الحقيقة، تصور الفرعون "تحوت – موسى" الثانى انطوى على أول اجتياح خطير قام به خلال المملكة الحديثة فى آسيا الغربية، على نطاق هائل، وهدف من ورائه إلى تحقيق نتائج دائمة المدى، ولكن هل ترك ذلك أى أثر على دول شمال سوريا؟

هنا يتعين علينا أن نقر بجهلنا المطبق. فالآثار الأركيولوجية للغزو المصرى للمنطقة تتسم بغزارة سلبية أى بغزارة فى غيابها! فقدر يتيم وبضعة أوانٍ مصرية الطراز عُثر عليها فى إحدى قوائم الجرد فى مدينة "قطنة" لا تشكل أدلة على مرور الفرعون "تحوت – موسى" بالمنطقة[١٢٣]. ولسوف يكون أدخل فى باب التهور أن يربط أحد الذين يعملون فى مجال التنقيب بين أحد مستويات التدمير فى موقع سورى ما وبين هذه الحملة. وإذا كنا نستطيع رصد توجه جنوبى فى ذخائر الخزف فى مستوى حقبة LB IA[١٢٤] ، فهذا لا يجب أن يعنى أكثر من عودة الانتعاش فى العلاقات التجارية، وهى العلاقات التى عادت الأسرة الثامنة عشرة خلالها إلى بسط نفوذها.

حقيقة الأمر أن الهجوم الذى شنه الفرعون "تحوت – موسى" لم يؤدِ إلى أكثر من "رجفة" خفيفة فى شمال سوريا، نظراً لأنها لم تتكرر. وفرْض قسم باسم الفرعون على الأمراء السوريين لم يكن بديلاً كافياً للتهديد بشن حملة جديدة، ووزع الحاميات، ولو أنه يبدو أن الفرعون "تحوت – موسى" ترك خلفه حامية ما فى مكانٍ ما فى آسيا، كان أقل من أن يردع "ميتانى".

خلال السنوات الأربعين التى أعقبت الحملة الفريدة التى قام بها الفرعون "تحوت - موسى" - وهى الفترة التى شهدت انسحاب مصر من الشئون الآسيوية - وجدت "ميتانى" يدها طليقة فى مواصلة تخريبها العدوانى فى سوريا وبلاد الرافدين. ولقد استوطن ، أحد الذين نجوا من وطيس الحرب الأهلية التى تفجرت فى "حلب" وهو "إيدريمى" Idrimi فى مملكة "ألالاخ" شمالى أسافل نهر العاصى (التى تضم أيضًا كلاً من "موكيش" Mukishe و "نيبا" Niya) وأصبح مرتبطًا بمعاهدة، فرضها عليه "الملك الجبار "باراتارنا" Barratarna، ملك محاربى أرض الحوريين"، وهو الملك الذى خلف، فيما يبدو، "شوتارنا" الأول[١٢٥]. حقًا كان "إيدريمى" تابعًا لـ "ميتانى" يدفع لها الجزية[١٢٦] إلا أن يده أطلقت بصفته "مخلب قط" وحسب للحوريين، فى إبرام معاهدتين مستقلتين إحداهما مع "بعليا" Pa'illiya حاكم "كيزو- وادنا" المجاورة، والأخرى مع ملك "أوجاريت" إلى الجنوب[١٢٧]، كما استطاع أن يشن الغارة تلو الغارة على المدن أو البلاد الحيثية دون أن يلحق به عقاب[١٢٨]. وشرقًا هبطت "حلب" إلى منزلة "إمارة" تحكمها "ميتانى" بشكل مباشر[١٢٩]، أما "نيبا" فخلال تبعيتها لـ "ألالاخ" غدت خاضعة لحكم "ميتانى" بشكلٍ غير مباشر.

وفى أواسط سوريا انتهزت كلٌ من "تونيب" و "قادش" فترة الهدوء النسبى هذه فى التوسع، ويقف هذا العامل أكثر من أى عامل منفرد آخر، وراء التغيير الذى دخل على سياسة مصر، وأدى إلى أكثر الفترات التى عرفها المصريون طوال تاريخهم كثافة فى بناء إمبراطوريتهم. هل تصرفت "تونيب" و"قادش" بصفتهما محميتين تابعتين لـ "ميتانى"؟ هذا أمر غير واضح، رغم أنه تحت حكم "نيقميبا" Niqmepa بن "إيدريمى"، اعترف ملك "تونيب"، "إير - تشوب" Ir-teshup ، بترحاب كبير بالحاكم الميتانى كـ "سيد" له، وبصفته تابعًا لـ "ميتانى" وقع معاهدة مع "ألالاخ"[١٣٠] وعلى أى حال ونظرًا لأن الأفق الطبيعى لـ "تونيب" كان واقعًا إلى الغرب، بدأت "تونيب" فى ممارسة نفوذها بين البلاد الواقعة على الساحل شمالى "بيبلوس". أما "قادش" فأخذت تتطلع، من جانبها، تجاه الجنوب[١٣١] وعشية وفاة ملكة مصر "حتشبسوت" وطدت "قادش" نفسها كـ "سيد"، بحكم الأمر الواقع، لسوريا الداخلية وشمال فلسطين. ولقد تملك ملك "قادش" ممتلكات فى عدد من المدن فى "الجليل" وشمال وادى الأردن[١٣٢]، ووصفت المدن الفلسطينية

بأنها "تلك المدن الخاضعة لجلالته". وكونه كان قادراً على حشد قادة البلاد وميليشياتها في زمامه الواسع لخوض معركة "مجدو" لا يبرهن، وحسب، على إحكام سيطرته على أتباعه، ولكن أيضًا على عقده العزم على التحرك جنوبًا وضم أراض هناك. وأيًا كان التاريخ الذى نستطيع تعيينه لوقوع الكارثة فى مطلع العصر البرونزى المتأخر، فلم يكن فى طوع مصر أن تتخلى عن سيطرتها على فلسطين لمثل هذه القوة التوسعية. ويتعين علينا فى هذا الصدد أن نرى فى القلق الذى عبر عنه الفرعون "تحوت – موسى" تجاه هذا الخطر قولاً صادقًا لا مراء فيه، وليس مجرد دعاية خادعة: حشد مثل تلك القوات الضخمة قرب الحدود المصرية كان "سببًا لنصب الحرب" casus belli ونهضت، بكل وضوح، ضرورة توجيه ضربة وقائية.

وبينما أصبح الآن مؤكداً أن العداوة التى أضمرها "تحوت – موسى" الثالث الشاب تجاه عمته – وشريكته فى العرش "حتشبسوت" لم تتجل فى تدمير آثارها إلا بعد وفاتها بوقت طويل،(١٣٣) غير أن وجودها المستمر، كشريك مسيطر فرض قيداً على ابن أخيها. والعبارات المشاكسة التى نقابلها فى النقوش اعتباراً من السنة العشرين قد تشير إلى أن "تحوت – موسى" الثالث الذى استبد به الغضب لعجزه عن التصرف بمفرده، كان قد مُنح قدرًا أكبر من حرية التصرف.(١٣٤) ويبدو من المرجح كثيراً أن المرض ألم بالملكة "حتشبسوت" قرب نهاية حياتها، وأن تدهور صحتها ذاع على نطاق واسع. وعندما وافتها المنية فى اليوم العاشر من الشهر الخامس فى السنة الثانية والعشرين للحكم المشترك الذى جمع بين العمة وابن الأخ(١٣٥) أى فى مطلع شهر فبراير/أمشير ١٤٨٢ ق.م.، كان ملك "قادش" قد انتهى من وضع خطته موضع التنفيذ وبدأ فى حشد قواته فى "مجدو"، وربما يكون قد عقد العزم على انتهاز فرصة رحيل ملكة مصر.(١٣٦) ولكن تصميم الفرعون "تحوت ـ موسى" الثالث على التصدى لهذا الخطر وعبوره الحدود فى شهر مايو/بشنس من نفس السنة مد المسرح لأول وأكثر الحملات حسماً التى شنها الفاتح الأكبر.(١٣٧)

إذا استندنا إلى قوائم الغنائم، فإن القوات التى خاضت معركة "مجدو" تكون أضخم قوات على الجانبين التحمت فى كافة الغارات التى شنها هذا الفرعون فى سوريا، وتكون قد أظهرت، جليًا، عبقرية فرعون مصر كقائد عسكرى على مستوى

التكتيك إلى أبعد حد.[١٣٨] فخلال ضربة جسورة عبر ممر ضيق إلى "مجدو"، نجح الفرعون فى أخذ الجيش الكنعانى على حين غرة، الأمر الذى أدى إلى تشتيت فلوله، ومحاصرة المصريين لـ "مجدو" لمدة سبعة شهور.(شكل رقم ٦) وعندما سقطت المدينة فى شهر ديسمبر/ كياك ١٤٨٢ ق.م. وقع كل الرؤساء الكنعانيين، باستثناء ملك "قادش" الذى نجح فى الفرار، فى قبضة المصريين فوراً وألجأهم المصريون إلى أداء هذا القسم: "لن تشق بلاد "رتينيو" Retenu عصا الطاعة مرة أخرى" و : "لن نسيء مرة أخرى للفرعون "تحوت - موسى" الثالث ما حيينا".[١٣٩] وبعد أن أنزل المصريون المهانة بالأمراء/ الشيوخ بتجريدهم من خيولهم، أعادوهم إلى مدنهم، ولكن كتوابع الآن لمصر، إلاّ أنهم إذا ظنوا أن الفرعون "تحوت - موسى" الثالث سوف يمل الأمر ويقبل، بصورة غير صريحة ألاّ يفوا بالقسم الذى أقسموه على الولاء، فإنهم يكونون قد أخطأوا. فلقد قام الجيش المصرى بنوبات تفتيش لثلاث سنوات متتالية، (كان يجمع خلالها الجزية، ضمن ما يجمع من تلك البلدان)[١٤٠] ويجدد أحقية الفرعون فى بسط سيطرته على هذه الأراضى الجديدة. وبذلك يكون المصريون قد مدوا حدود مصر إلى نهر "الليطانى" على وجه التقريب.

وبعد الدمار الذى نزل بالتحالف الآسيوى ضد مصر وبعد الخزى الذى حاق بـ "قادش"، صار بوسع الفرعون "تحوت - موسى" الثالث وقت ذاك أن يتدبر أمر الخطوة التى يتعين عليه اتخاذها ضد الخطر الشمالى الآخر، أى ذلك الخطر الذى تشكله "تونيب". استغرقت عملية الاستعداد ثلاث سنوات، ولكن الهجوم الجديد الذى شنه الفرعون كان ساحقًا ماحقًا لا مجال لمقاومته. ففى مطلع صيف سنته التاسعة والعشرين فى الحكم أى فى سنة ١٤٧٦ ق.م. تقدم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث على رأس جيشه مصعداً فى الساحل الفينيقى فيما وراء مدينة "بيبلوس" التى كانت تحتفظ بعلاقات ودية مع مصر، واستولى على "أولازا" عند مصب نهر "الكبير"، و "أرداتا" Ardata على بعد ستة كيلو مترات جنوبى مدينة "طرابلس" الحالية وأسر كافة أفراد الحامية التى كان ملك "تونيب" قد نصبها على الساحل الفينيقى. ولما كان توقيت التجريدة قد تحدد بحيث يتزامن مع موسم الحصاد، فلقد شحنت كميات هائلة من القمح والنبيذ والفواكة على متن السفن إلى مصر. وفى فصل الربيع من السنة

التالية أى فى سنة ١٤٧٥ عاد المصريون، ولكن هذه المرة قدموا على متن السفن،[١٤١] التى رست على وجه الاحتمال فى "بيبلوس". وعبر المصريون الجبال وهاجموا "قادش" مباشرة. ورغم أن القيد المقتضب فى دفتر اليومية يقول بـ "تدميرها"، إلاّ أنه من الواضح أن المدينة نفسها لم تسقط، وإن كانت قد عانت من تدمير بساتينها ومحاصيلها. وفى طريق العودة هاجم الجيش المصرى مدينة "سومور" (قرب "طرابلس"؟) ومدينة "أرداتا" مرة أخرى. وبعد فسحة من الوقت (ربما بسبب انشغال الفرعون بالاحتفال بعيده الثلاثيني الأول؟)، وهى الفسحة التى انتهزها ملك "تونيب" فى إعادة تحصين "أولازا" Ullaza وتنصيب ابنه قائداً لها، عاد الفرعون "تحوت – موسى" الثالث فى سنة ١٤٧٣ ق.م. ففى شهر بشنس/مايو ظهر بصورة مفاجئة تحت أسوار "أولازا" ويقرر القيد الوارد فى دفتر اليومية المصرى: "استولينا على هذه المدينة فى ومضة خاطفة، وصارت ممتلكاتها فى متناول كل من يمد يده (من المصريين) نحوها".[١٤٢]

أصبح الساحل الفينيقى فى ذلك الوقت آمناً حتى مدينة "طرابلس" شمالاً، وصمم الفرعون "تحوت – موسى" على الاحتفاظ بسيطرته عليه. فنصب حامية مصرية فى "أولازا" وفرض الضرائب على جميع أمراء/شيوخ لبنان. وتحولت المرافئ إلى مستودعات لتشوين المواد الغذائية والمعدات الحربية اللازمة للتجاريد القادمة، وأخذت الأخشاب اللبنانية تشحن عبر البحر من هناك إلى مصر بصفة سنوية. وكل ذلك يشير إلى تخطيط ثاقب البصيرة: إلا أن "الفرعون "تحوت – موسى" الثالث كان يعد فى نفس الوقت للخطوة التالية.

وأعقب ذلك، الهجوم المباشر على "ميتانى" الذى وقع فى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه، أى فى سنة ١٤٧٢ ق.م. وهو الهجوم الذى لابد وأن يكون الفرعون "تحوت – موسى" الثالث قد ارتأى فيه أحد أهدافه الصريحة. كما رأى فيه الفرعون نفسه ومعاصروه، بكل تأكيد، أنه يمثل ذروة سيرته العسكرية، ولا يملك المؤرخ المعاصر إلا أن يقر بذلك.[١٤٣] وفضلاً عن أن هذه الحملة التى تعد الثامنة فى سلسلة حملاته الآسيوية ورد ذكرها بشكل مفصل فى الحوليات، إلاّ أنها أصبحت بمثابة موضوع أثير عند جلالته يستعيده باستمرار فى خطبه أمام البلاط،[١٤٤] أما ضباطه الذين صاحبوه فى تلك التجريدة فظلوا فخورين بتسجيل ما حدث حقيقة، مثلما يفاخر أى مشارك فى معارك قريتى "أجنكور" Agincourt و "كريسى" Crecy الفرنسيتين.[١٤٥]

نقل الفرعون جيشه بالسفن من مصر إلى "بيبلوس" وهناك قام بتصنيع قوارب الهجوم من الأخشاب اللبنانية. وعبر جميع جنود التجريدة الجبال إلى وادى نهر "العاصى"، وكانت أجزاء القوارب غير المجمعة قد نقلت على متن عربات تسير فى المؤخرة، وتقدم الجيش وقائده باتجاه الشمال. ولم تبدِ أى من "قادش" أو "تونيب" أدنى مقاومة، ربما لأنهما أخذتا على حين غرة من هول المفاجأة والسرعة اللتين سارت بهما العملية، ومر المصريون خلال أراضيهما دون عائق. ومع ذلك فبمجرد دخول الجيش منطقة "حلب"، هب الميتانيون يقاومون. ولكن ثلاثة اشتباكات عنيفة انتهت لصالح الفرعون، وهو الأمر الذى أوصل المصريين إلى شاطئ نهر "الفرات" عند "كاركميش". وانسحب ملك "ميتاني" ومعه قواته إلى الضفة الشرقية للنهر، بعد أن دمروا، فيما يبدو مرجحًا، أو استولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم من قوارب أخرى فى النهر فى المناطق المجاورة. وعندئذ دفع الفرعون بقوارب الهجوم التى فى حوزته، وعبر هو وقواته النهر، ومضوا فى مطاردة حاكم "ميتانى" المذهول وقواته المذعورة، مع انحدار النهر وشرقًا ناحية "بلخ"، بينما كانت طبقة النبلاء فى "ميتانى" قد لجأت إلى الكهوف.(١٤٦) وأعقب ذلك دمار شامل عندما أسلم الفرعون المدن الواقعة بامتداد "الفرات" للنيران. ولقد تفاخر الفرعون فى خطاب ألقاه بعد ذلك بخمس عشرة سنة بما جرى على هذا النحو: "لم يكن هناك أحد يستطيع إنقاذهم فى طول وعرض "نهارين"، التى تخلى عنها سيدها مذعوراً. ولقد دمرت مدنه وقراه وأشعلت فيها النار، وحولها جلالتى إلى أكوام من الحطام بما يستحيل أن تعود مرة أخرى إلى سابق عهدها".(١٤٧) ونصب الفرعون "لوحًا/صادوداً"، بجوار لوح/صادود والده، وهى أبعد نقطة وصل إليها فرعون مصرى باتجاه الشمال.(١٤٨) ووصلت الحملة إلى خاتمتها الرسمية بالعودة، على مهل، باتجاه الوطن مع نصب برجاس القنص الذى صار لزامًا على الفرعون أن ينصبه بعد ما اعتاد ذلك أسلافه (هذه المرة لقنص الأفيال فى "نيبا").

وواصل "تحوت - موسى" الثالث سياسته الثابتة فى متابعة النجاحات التى حققها فى هذه الحالة أيضًا. ففى السنة التالية عاد الفرعون مرة أخرى كى يسلم منطقة "نوخاششى" للنهب، وفى السنة التى تلت تلك السنة التحم مع قوة ميتانية أكبر من القوة السابقة ومزقها شر ممزق. وهنا كانت الإمبراطورية المصرية قد بلغت أقصى مدى لها فى آسيا.

الهيمنة المزعزعة ومعاهدة «ميتاني» (١٤٦٠-١٤٤٠ ق.م. بالتقريب) :

أسفر الانتصار الهائل الذى توج به الفرعون "تحوت - موسى" الثالث إنجازاته بشكل مباشر عن لفت أنظار العالم القديم بأسره إلى مصر كعامل واسع الحول والطول فى سياسات شرق البحر المتوسط. وتلك كانت أيام الهناء والصفاء التى مرت بها مصر، ففى "تلك الأيام كان ملوك "كنعان" يسلمون أرجلهم للريح متى رأوا شخصاً مصرياً".[١٤٩] وسرعان ما أرسلت تلك الدول التى كانت تقف من "ميتانى" موقف المواجهة الإستراتيجية، مثل "بابل" و "آشور" و"خاتى"، على وجه التحديد بهداياها الدبلوماسية إلى الفرعون،[١٥٠] وعلى أثر ذلك حذت قبرص حذوهم.[١٥١] وبعد أول غزو قامت به مصر لشمال سوريا بخمس سنوات وحسب، ارتأت "ألالاخ" هى الأخرى (ربما تحت حكم ملكها الشاب "نقميبا" Niqmepa ابن الملك "إدريمى" Idrimi أنه من الأفضل لها أن ترسل هداياها إلى الفرعون حتى تخطب وده وتتجنب أى غارات مصرية فى المستقبل.

كان من الواضح أن "تحوت - موسى" الثالث كان يعتزم ضم الأراضى التى عبرها . ووفقًا للأعراف المحلية قام جلالته بمسح الأعيان المحليين بالزيت وعيَّنهم ملوكًا على "إمارات" محلية كتوابع لجلالته.[١٥٢] وخصص الفرعون حامية لـ "أوجاريت"،[١٥٣] وأخذ "تحوت – موسى" الثالث يعود للظهور بشخصه، سنة بعد أخرى كى يجمع الضرائب. وأصبحت "نيبا" التى كانت فيما مضى، مقاطعة تابعة لـ "ألالاخ"، الآن دولة منفصلة يقف على رأسها أمير.[١٥٤] وغدت المنطقة، باختصار، "عزبة" يطلب فيها الفرعون فرائس القنص.

ولكن القوة والمنعة اللتين تمتعت بهما إمبراطورية "ميتانى"، "أرض المحاربين – الحوريين" عادتا للظهور مرة أخرى، حتى قبل أن يرقد غبار الحملة التى قادها الفرعون فى "الفرات". حقًا لم يخبرنا "تحوت – موسى" الثالث بهوية "ساقط نهارين" الخسيسة الذى أنزل به الهزيمة خلال حملته الثامنة، إلا أن الفرعون أعطى انطباعًا قويًا بأن ذلك "الساقط" فر بلا عودة باتجاه الشرق. ومع ذلك فلم تكد سنتان اثنتان وحسب تمران حتى ظهر (ساقط آخر لـ "نهارين" الخسيسة) كى يحشد جيشًا أكبر حتى من سلفه

فى سبيل مناوأة المصريين. وهنا نشعر بإغراء قوى كى نرى فى فرار ذلك الحاكم الميتانى، غير المسمى، النهاية التى حاقت بالملك "باراتارنا" Barratarna ، المعاصر لـ "إيدريمى" وخليفة "شوتارنا" Shutarna الأول.(١٥٥) وفى هذه الحالة يكون القائد الميتانى الذى جابه المصريين بعد ذلك بسنتين، على وجه الترجيح هو خليفة "باراتارنا"، الذى يبدو استناداً إلى كافة الأدلة المتوفرة اليوم، أنه لم يكن سوى "سوساتار" Saussatar ، وهو ابن "بارساتاتار" Parsatatar ملك "ميتانى".(١٥٦) وإذا صح ذلك فإن استئصال خصم قوى لم ينجح كثيراً فى تخفيف حدة المعارضة للتوغل المصرى.

شرع الملك "سوساتار" بشكل نشط فى مقاومة مصر، وفى مواصلة مد سلطان "ميتانى". وفى سنة ١٤٦٣ق.م. أى بعد عقد (=عشر سنوات) بالكاد من حملة "الفرات"، نجد قوة احتياط من "نهارين الخسيسة" قد أرسلت إلى ملك "قادش"، وأخذت "تونيب" تحرض على التمرد فى الساحل اللبنانى. واضطر الفرعون أن يزحف براً كى يخمد الفتنة المسلحة فى "أرقاطة" شمالى "بيبلوس"، وأتبع ذلك بالزحف عبر الجبال ضد "تونيب" و"قادش". وبذلك لحق الخراب بالأراضى ونزل الدمار بالبساتين والمحاصيل، وتعرضت "قادش"، ربما لأول مرة للهجوم واستولى عليها المصريون.(١٥٧) ورغم أن "تحوت – موسى" الثالث أقام مقراً ملكياً له، لمدة ما فى "تونيب" بعد فتحها، وهو مقر ظل أهالى "تونيب" يذكرونه لمدة طويلة،(١٥٨) إلا أن الهبات استمرت، وسرعان ما شقت أراضى "تاخسى"، فى أعالى نهر "العاصى"، بين "قادش" ودمشق،(١٥٩) عصا الطاعة بصورة علنية. واستمرت الهبات، واحدة إثر أخرى، رغم تدمير ثلاثين مدينة وترحيل الأمراء ومصادرة الممتلكات المنقولة والمواشى(١٦٠) خلال الملكية المشتركة فى مصر، ومطلع حكم "أمين – حوتب" الثانى الذى جلس، دون شريك فى الحكم، على عرش مصر، وهو الفرعون الذى اضطر، كعمل من أول ما قام به من أعمال، إلى ترحيل سبعة أمراء لمصر للإعدام(١٦١).

لم يجد "سوساتار" أى صعوبة فى كل مكان آخر فى إعادة تأكيد السلطان الميتانى. فلقد نجح شرقاً فى إخضاع البلاد الآشورية، وجرد "آشور" من بعض أفضل كنوزها، ومد سيطرته إلى "زاجروس".(١٦٢) وغرباً، استمرت "حلب" على خضوعها لـ "ميتانى" أما "نقميبا" Niqmeba ، ملك "آلالاخ" فلقد جدد ولاءه لـ "سوساتار"،

رغم الهدايا التى أرسلها إلى فرعون مصر.(١٦٣) وأخذت "أوجاريت"، ولو أنها لم تكن داخل نطاق النفوذ الميتانى، تعد العدة لطرد الحامية المصرية. وإلى الجنوب فى أعالى وادى نهر "العاصى" بدأت كل من "نييا" و"زالخى" ومدن موغلة فى الجنوب مثل "قادش" تسقط مرة أخرى داخل النفوذ الميتانى.

فشلت "الغارة" التى قام بها "أمين - حوتب" الثانى فى سنته السابعة فى العرش فى استعادة أى أراض لمصر.(١٦٤) وهذا التوصيف ليس مجحفًا بصورة غير مبررة: حقًا كان الفرعون "أمين - حوتب" الثانى محاربًا جسورًا وربما امتلك جيشه قوة لا يستهان أبدًا بها، إلاّ أنه لم يلتحم بقوة عسكرية معادية كبيرة العدد فى أى معركة منفردة. ولكنه صد قوة عسكرية صغيرة فى "قطنة" خلال عبوره نهر "العاصى"، وأخمد هبة عابرة قبل اختمارها فى "أوجاريت"، وهو ما لا يعد بحال من الأحوال انتصارات ضخمة. ورغم أن "نييا" وسائر المدن الأخرى فتحت أبوابها أمامه، إلاّ أن الفرعون يكون سانجًا إذا تصور أن هذا إنما ينم عن خلع الولاء لـ "سوساتار". أما ترحيل الفرعون لما يصل إلى خمسة عشر ألف وسبعين نفسًا (إلى مصر) من أبناء "نوخاششى" فخطوة بدت، فى خضم هذه الأحداث، وقد انطوت على اليأس.(١٦٥)

لم يقلل الحيثيون، من جانبهم، من قدر أعدائهم فيما وراء "الفرات". فلقد وقع ملكهم "تليبينوس" Telepinus معاهدة مع "إشبوتاخشو" Ishputakhshu ، ملك "كيزو وادنا" Kizzuwadna ، وهى المعاهدة التى جددت، بصورة فعالة، دور هذه الدولة كمنطقة عازلة (١٤٥٠ق.م.بالتقريب)،(١٦٦)، وأبرم خليفته، الذى لا نعرف اسمه، اتفاقية مماثلة مع "شوناششورا" الأول، خليفة "إشبوتاخشو".(١٦٧) وينطوى نص هذه الاتفاقية على قدر من الأهمية فى الصدد الذى نتناوله الآن، لأنه رجح وقوع حرب وشيكة بين الحيثيين وبين "ميتانى"، وهى حرب قد تبدأها "ميتانى". وإذا ما حدث ذلك فإن "شوناششورا" Shunashshura كان ليحرم الميتانيين من الوصول إلى "خاتى" عبر أراضى "شوانتا" Shuwanta ، رغم أنه سيكون من حقه أن ينضم إلى الجانب الحيثى فى الحرب أو يستمر على الحياد. وربما يكون التوتر الضمنى بين "خاتى" و"ميتانى" قد انعكس أيضًا فى النزاع الحدودى بين "نقميبا"، ملك "ألالاخ" و"شوناششورا" نفسه على مدينة "ألاوارى" Alawari على الحدود بين البلدين.(١٦٨)

يمثل السلام الذى أعقب ذلك بين مصر وبين "ميتانى"، سواء فى خلفيته أو تفاصيله، "صفحة مفقودة" فى الوثائق التى وصلتنا عن تلك الفترة من تاريخ الشرق الأوسط القديم. حقًا يفاخر الفرعون "تحوت - موسى" الثانى، فى السنة التاسعة من حكمه (أى بعد سنة ١٤٤٣ق.م. على وجه التقريب) بأن الأثر الذى نجم عن غزواته وترحيلاته يتلخص فى إجبار ملوك الأرض العظماء على الركون إلى السلام(١٦٩) :

"عندما وصلت أنباء النصر الذى حققته إلى أسماع ملوك كل من "نهارين" و "خاتى" و "بابل"، تسابق كل منهم مع الآخر فى سبيل إرسال كافة أنواع الهدايا من كافة المصادر الأجنبية، وهم عاقدون العزم فى أعماق أفئدتهم على السعى إلى عقد السلام مع جلالتى، والسعى نحو التقاط أنفاس الحياة : وها هو عملنا بارز لصالح قصركم، يا... ("أمون - حوتب" الثانى)! ولقد انتهز شاعر مداح الفرصة فى وقت لاحق، وخلال حكم هذا الفرعون نفسه كى يسجل على أحد الأعمدة فى إحدى قاعات الكرنك(١٧٠) **أن "رؤساء "ميتانى" حضروا إلى حضرة جلالته، حاملين جزيتهم على ظهورهم، فى مسعاهم للسلام مع جلالته، وتوقهم إلى تنفس أنفاسه الزكية التى تمنح الحياة لكل من يتنفسها. وذلك حادث فريد وجدير بالنكر! فلم يحدث أن سمع أحد بما يشبهه منذ زمن أنصاف الآلهة (حرفيًا: ناس الإله): كانت تلك البلاد التى لم تعرف مصر تتضرع للإله الطيب (=الفرعون)!"**

ينبغى على المرء أن يلزم جانب الحذر عند تقييم هذين النصين. ففى ضوء طبيعة "أمين - حوتب" الثانى التى تقوم على الزهو والخيلاء، قد يكمن وراء النص الأول أن الأمر ربما لم يزد عن تلقى هدايا دبلوماسية من نفس النوع الذى سجله الفرعون "تحوت - موسى" الثالث، بصورة أكثر حصافة غداة حملته فى "الفرات"، وأى شىء آخر يسوقه الفرعون "أمين - حوتب" الثانى حول الدوافع هنا لن يخرج عن منظوره "الأيزيجيزى" الخاص eisegesis (= نهج فى تفسير "التوراة" يقوم على قراءة ما ليس مكتوبًا فى النص المقدس، أى إضافة المفسر لما يحتاجه التفسير كى يستقيم". المترجم). أما النص الثانى فيفرض علينا، مع ذلك، أن نقف منه موقفًا أكثر جدية. فتضخيم عبارات الأصول فى مستهل المقتطف الذى اقتطفناه، إلى جانب الإصرار على أن ذلك الحدث كان فريدًا يشير إلى أن هناك نواة صدق معينة كامنة تحت المبالغة السافرة.

ويبرر هذه الادعاءات على وجه الترجيح وصول (بعد السنة العاشرة، فيما نرجح) عدد من السفراء أرسلهم "سوساتار"[١٧١] بمقترحات لعقد أواصر "الأخوة" (أى التحالف الأخوى ونبذ حالة الحرب).[١٧٢]

بزغت هذه المعاهدة، فيما يبدو لى، من رصد "ميتانى" لحقيقتين قاسيتين : شراسة الحاكم المصرى الجديد ونهضة "خاتى". فلربما كان "أمين - حوتب" الثانى غير قادر على الحفاظ على سيطرة مصر على أواسط وأسافل حوض نهر "العاصى"، ولكن الترحيلات الجماعية التى قام بها الفرعون فى سوريا، وفى فلسطين على وجه الخصوص فى السنة التاسعة من حكمه أرسلت رسالة عما يعتزم الإقدام عليه فى حالة استمرار حالة الحرب. فلقد انطوى الأمر، باختصار على تكتيكات الرعب. وربما بدا الحيثيون أقل وحشية، إلا أن خطرهم كان حالاً ومباشراً. وكان بيت جديد قد تولى مقاليد الأمور فى "خاتوساس"، وكان عازمًا على أخذ زمام المبادرة من الميتانيين.[١٧٣] وقام عضو قديم من العائلة الحاكمة فى "خاتوساس" بعدة مفاتحات تجاه "حلب"، وهى مفاتحات فسرها بأنها لقيت عند الطرف الآخر قبولاً، وفى أسلوب ميكيافيللى، رأى فى استمرار علاقات "حلب" بـ "ميتانى" دليلاً على النفاق. وبالتالى، يقول نص حيثى لاحق[١٧٤] إنه "دمر كلاً من ملك "ميتانى"[١٧٥] وملك "حلب" كليهما بأيديهما، وخرب مدينة "حلب." ورغم أن معاهدة "تالميشاروما" Talmisharruma ، التى أخذنا منها هذه الفقرة ترجع إلى ما يزيد على قرن من الزمان بعد الحادث وتحفل بمعلومات غير دقيقة - "حلب" كان يحكمها وقت ذاك حاكم "ميتانى" وليس ملكًا[١٧٦] - فإن النص يعكس بكل تأكيد هجومًا تاريخيًا على "حلب"، التى طالما وقفت كـ "ملطشة" أو "غلام الجلد" نيابة عن "خاتى"، والعكس بالنسبة لـ "ميتانى".

فى ظل هذه الظروف لم يكن فى طوع الميتانيين أن يفعلوا شيئًا ذا بال، سوى أن يكافحوا بمفردهم فى حرب على جبهتين، أو يسعوا إلى إبرام تحالف يخفف عنهم عبء جبهة من الجبهتين. واختار الميتانيون، عن حكمة وبصيرة الحل الأخير. خصوصًا وأن "خاتى" الأقرب والأشد عداءً كانت عصية على الاسترضاء، ولكن "أمين - حوتب" الثانى البعيد وغير المستقر بدا أكثر قابلية للتفاوض: جسور ولكن مزهو بنفسه،

متين البنيان وحلو المعشر، ويسهل كسبه على وجه الإمكان عن طريق المدح والإطراء - هل كان "الميتانيون" يقفون على حقيقة رجلهم؟ أفتتن الفرعون "أمين - حوتب" الثانى وخفت حدة غضبه بالسفراء القادمين من "نهارين"، وربما وصل به الأمر إلى حد إبرام معاهدة.(١٧٧) ولا يوجد هناك شك فى أن مثل هذه المعاهدة كانت لتخدم مصالح مصر، رغم أن الدولة الفرعونية، خلال الأسرة الثامنة عشرة، كان فى وسعها أن تتحمل أعباء شن غارات عسكرية دورية، بصورة أسهل مما تستطيعه "ميتانى" لثمانمائة كيلو متراً فى قلب آسيا. وتدعم التحالف الذى قام، بزواج ابن "أمين - حوتب" الثانى وهو "تحوت - موسى" الرابع فى سنة ١٤١٥ ق.م. على وجه التقريب من ابنة ابن "سوساتار" وخليفته "أرتاتاما" Artatama الأول ملك "ميتانى".(١٧٨) ولكن وفاق Concordat والده مع "سوساتار"(أيًا كان الشكل الذى أخذه فى الحقيقة هذا الوفاق) لم يمنع الفرعون "تحوت - موسى" الرابع، مع ذلك، من شن هجوم فى آسيا فى مطلع حكمه.(١٧٩) وهو الهجوم الذى قاده عبر الطريق الساحلى إلى "فينيقيا" ثم، مقتفيًا الدرب الذى سلكه كل من والده وجده، عبر الجبال إلى نهر "العاصى".(١٨٠) وكان قد عقد العزم على مواصلة ترحيل السكان الفلسطينيين، وهو الأمر الذى بدأه والده، الذى فرّغ "جزر" من سكانها،(١٨١) كى "يرفع العلم" فى "فينيقيا"،(١٨٢) ويعاقب "متمردين" معينين فى وادى نهر "العاصى". ولكن يبدو أن العملية بأسرها جرى ترتيبها على نطاق متواضع، نظرًا لأنها لم تأتِ كضرورة سياسية أو عسكرية، بل عوضًا عن ذلك كمحاكاة لتقليد أصبح منتظرًا بصورة متزايدة من الفرعون الإمبراطورى الذى يجلس على عرش مصر فى مطلع حكمه. وعلى أى حال وضعت هذه الحملة (التى لم تفرضها أى ضرورة وإن بدت فى سائر الأحوال كما لو كانت ضد الميتانيين) حدًا لمغامرات مصر الحربية فى غرب آسيا لمدة بستين سنة. وعاد الزواج وتجديد المعاهدة بالسلام على كل من مصر و "ميتانى"، وهو السلام الذى عاد بالفائدة عليهما كليهما، ولم تنقضه أو تفسخه أى من الدولتين، كما اتضح فيما تلى من أيام.

ثلاثة أجيال من السلام: الإمبراطورية، ١٤٤٠-١٣٧٥ق.م.:

لا نملك نص المعاهدة، إلا أننا واثقون، أو نكاد، من أن اهتمام المفاوضين من الجانبين، المصرى والميتانى، انصب فى المقام الأول على مسألة الحدود بين الإمبراطوريتين. ونستطيع أن نستشف الحدود التى ضمنتها المعاهدة من السجلات المعاصرة وتلك التى جاءت بعد ذلك العصر بوقت وجيز، وتمثل الخطوط كما رسمت عند نهاية حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثانى. فعلى امتداد مائتىْ سنة، وبتعديلات طفيفة لا أكثر، استمرت تلك الحدود مقدسة بنفس القدر الذى أصبحت به تقليدية، وكان لها أن تترك بصمتها التى لا تكاد تدرك وفى نفس الوقت لا تمحى على تاريخ وثقافة المشرق بأسره.

كان خط الحدود يتبع، بصفة أساسية، الانقسامات الجغرافية أو الثقافية، وفى الشمال تطابق مع مجرى نهر "العاصى". واستمرت "موكشى" مع عاصمتها "ألالاخ" وكذلك إمارة "حلب" على وضع التوابع لـ "ميتانى". وبين "حلب" و "قطنة" شرقى "العاصى" تقع أراضى "نوخاشى"، التى ظلت، وفقًا للأدلة المستقاة من معاهدة "تاليشاروما" Talmisharruma داخل نطاق النفوذ الميتانى.[١٨٣] واستمرت "نييا"، مع أن حاكمها فتح أبوابها أمام الفرعون "تحوت - موسى" الثانى (كما سبق لنا أن أشرنا)، ترتبط بروابط وثيقة مع "موكشى" و "ألالاخ"[١٨٤] ومع أننا لا نعثر لـ "زنزار" المجاورة[١٨٥] على أى ذكر فى السجلات المتوافرة، إلاّ أنها سقطت، هى الأخرى، على وجه الافتراض، داخل نطاق النفوذ الميتانى وتوابع "ميتانى" الشماليين.

واستمرت "تونيب" أيضًا مقاطعة تابعة لـ "ميتانى". واقتطعت أجزاء من "تونيب"، ربما بهدف إضعاف مركزها أو وضع المنطقة الحدودية تحت سيطرة يد أقوى، ومنحت لـ "إليم - إليما" Ilim-ilima ، بن "نقميبا" حاكم "ألالاخ"، وهو معاصر متأخر لكل من "أمون - حوتب" الثانى و "تحوت - موسى" الرابع. وأيًا كانت درجة السيطرة التى تمتع بها الفرعون "تحوت - موسى" الثالث على "تونيب" إلاّ أنها كانت قصيرة. وعندما، توجه سكان المدينة بأبصارهم تجاه مصر خلال عصر "أخيتاتون" (= العمارنة) وحاولوا إقناع الفرعون بتقديم يد العون لهم، لم يجدوا سوى أن يشيروا إلى المقر الذى أقامه

الفرعون "تحوت – موسى" الثالث لمدة وجيزة فى مدينتهم، على سبيل الاحتجاج بأن "تونيب" كانت بصفة تقليدية من ممتلكات مصر، رغم أنهم كانوا يعرفون أن "رجال الحرس القديم" من حاشية الفرعون هم وحدهم الذين يستطيعون أن يشهدوا على ذلك. فالماضى القريب لا يشير، فيما هو واضح إلى أن "تونيب" تتبع ملوك مصر.(١٨٦)

وترك خط الحدود الداخلية بين مناطق النفوذ المصرية والميتانية فى أعماق غرب آسيا نهر "العاصى" بين "تونيب" و"قطنة" كى يسير شرقًا ليشمل المدينة الأخيرة: "قطنة". ولكننا لا نعرف شيئًا ذا بال بشأن "قطنة" فيما بين محاولتها الواهنة كى تعوق تقدم الفرعون "أمين – حوتب" الثانى والخطابات التى بعث بها "أكيزى" إلى "أخناتون". إلا أن القوائم التى وصلتنا منها تقدم الأدلة لإعادة ترتيب قائمة بأسماء ملوكها، غير أنها لا تخبرنا بشىء عن التاريخ السياسى. ومع ذلك فـ "أكيزى" لا يشير، بشكل لا يحتمل أى لبس، وحسب إلى أنه تابع لمصر، بل إلى أن أباءه كانوا أيضًا كذلك منذ القدم، وأن "قطنة" جزء من ممتلكات الفرعون.(١٨٧) أما جنوبى "قطنة" فنجد "قادش" وأرض "أوب" Upe ودمشق وقد سقطت كلها داخل نطاق إمبراطورية وادى النيل.(١٨٨) وكانت أعالى حوض "العاصى" تشكل المزارع الخصبة لـ "إيمكى": Amki ، بينما تقع دمشق فى قلب مراعى البلاد.(١٨٩) ولقد قدرت مصر المنطقة تقديراً عاليًا وكانت على استعداد لاتخاذ إجراءات صارمة فى سبيل الإبقاء عليها تحت سيطرتها.

كما كانت الأراضى الواقعة غربى "العاصى" حتى ساحل البحر المتوسط جزءاً من ممتلكات مصر.(١٩٠) وهذا أمر مفهوم فى ضوء القوة البحرية المصرية التى طالما استطاعت الحفاظ على اتصالها بالمدن الواقعة على الساحل الفينيقى بسهولة أكبر مما تستطيعه مع المدن الواقعة فى أعماق البلاد. وكانت هذه الأراضى الساحلية الواقعة جنوبى مصب نهر "العاصى"، مع الضفة الغربية Cis-Jordan جنوبى منابع نهر العاصى تشكل وحدة جغرافية مستقلة، وقد حازت منذ القدم اسم "كنعان".(١٩١) من أين جاء هذا الاسم؟ هذا أمر يكتنفه الغموض، ولكن من الواضح أن أراضى كل من "ألالاخ" و "حلب" و "نوخاششى"، بالإضافة إلى "قطنة" تقع خارج نطاق المنطقة التى اكتسبت هذا الاسم فى العصر البرونزى المتأخر، ويجد المرء نفسه ميالاً للقول بأن هذه المنطقة إنما تشير إلى تلك الأجزاء من المشرق، التى كانت لا تزال تتحدث،

إلى حد كبير، باللغة السامية الغربية، وغير الخاضعة بشكل مباشر لـ "ميتانى" الحورية (= نسبة للحوريين).[١٩٢] وكانت "أوجاريت" (وبالاحتمال مقاطعة "سيانو" Siyannu الجنوبية التابعة لها أيضًا) أبعد دولة خاضعة لمصر فى أعماق الشمال، داخل نطاق "كنعان". وفى ظل حكم الفرعون "أمين-حوتب" الثالث، كان حاكمها "أميشتامرو" Amishtamru الأول "خادمًا" للفرعون،[١٩٣] مثلما أصبح ابنه "نيكمادو" الثانى تحت حكم "أخناتون".[١٩٤] ويكشف خاتم "نيكمادو" بكل وضوح، تأثيرًا مصريًا على تصميمه.[١٩٥] وقد تلقى صاحب هذا الخاتم هدايا من سيده.[١٩٦] وقدم الصلوات نيابة عن الفرعون.[١٩٧] وبلغ الأمر بـ "نيكمادو" حد زواجه من إحدى سيدات الحريم الملكى المصرى، وقبِل أن يُكتب اسمه بالقلم الهيروغليفى.[١٩٨] وكان وضع "أوجاريت" فى نطاق الإدارة المصرية يكاد أن يصل إلى مستوى "المدينة الأولى بالرعاية"، وهو المستوى الذى منحه الفرعون لباقى المدن الكبرى على الساحل الفينيقى.[١٩٩] حقًا لا نعرف سوى أقل القليل عن "أرفاد" فى ذلك الوقت، إلاَّ أن "بيبلوس" وبيروت و "صيدا" و "صور" وقعت فى تصنيف الدول - المدن التى تتمتع بذلك الامتياز. وكانت "بيبلوس" أقدم حليف لمصر، وفى ذلك العهد كانت مسئولة عن سائر المدن شماليها حتى "سومور".[٢٠٠]

وكانت فلسطين والدرب الذى يخترق الضفة الغربية Transjordan (الطريق الفرعونى فى وقت لاحق) جزءًا من ممتلكات مصر بصفة كاملة. وهذه المناطق هى التى قام فيها المصريون بصفة رئيسية، بوضع سياستهم فى ترحيل أعدادٍ غفيرة من السكان المحليين إلى مصر، سواء تأكد موقفهم العدائى أم لم يتأكد، موضع التنفيذ، وهى السياسة التى وصلت إلى ذروتها تحت حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثانى، الذى رحَّل ما يزيد على ٨٥ ألف نفس ما بين رجل وامرأة وطفل من كافة الطبقات الاجتماعية.[٢٠١] ونجم عن ذلك أن تخلخلت، أو كادت، هذه البلاد الجبلية سكانيًا، وتضعضعت بشكل حاد.[٢٠٢] ولم يعد فى وسع الآسيويين استخدام فلسطين مرة أخرى كقاعدة للهجوم على مصر أو بتعبير مألوف بصورة أكبر فى لغة المحدثين فى نفس هذه المنطقة: وضع المصريون أيديهم على هذه الأراضى كـ "ضمان" ضد أى أعمال عدائية يقوم بها جيران مصر.

استطاع الفرعون "أمين – حوتب" الثالث الذى قضى مدة طويلة فى العرش أن يجنى الثمار التى طرحها العمل الذى امتد سنوات طويلة فى سبيل إخضاع آسيا على امتداد الأجيال الثلاثة السابقة.(٢٠٣) فلقد فرضت مصر "السلام المصرى" Pax Aegyptiaca على "كنعان" بالقوة، ولم يحتاج الفرعون "أمين – حوتب" الثالث أن يخرج إلى آسيا على رأس أى حملات. فلقد تدفقت الضرائب والعطايا نزولاً عند إرادة الفرعون، ومرت القوافل من وإلى مصر بأمان وطمان عبر مختلف الدروب فى فلسطين، كما تزايدت الأساطيل البحرية التى تجوب شرق البحر المتوسط بصورة كبيرة. وصارت الراوبط مع "ميتانى" وطيدة أكثر، وكفت إلى حد كبير مشاكل الحدود. وأصبح الفرعون "أمين – حوتب" الثالث، خلال زواجه من "جيلوخيبا" Gilukhepa ابنة "شوتارنا" Shutarna مقرباً بصفة خاصة من صهره "توشراتا" Tushrata ، بن "شوتارنا"، وفى وقت لاحق تزوج من ابنة "توشراتا" هى الأخرى. وانتقلت كميات ملحوظة من الكماليات بين الإمبراطوريتين كبديل لمهور العرائس وبوطتهن، فضلاً عن الهدايا الشخصية بين الملكين. وحذت كل من "بابل" و"قبرص" حذو "ميتانى" فى خطب ود الفرعون وفى هذا السبيل أرسلوا الهدايا وعقدوا الزيجات. وبكلمة واحدة: ركع العالم المأهول وقت ذاك عند أقدام مصر.(٢٠٤)

نهاية «ميتانى» :

لم يكتسب السلام بين مصر و "ميتانى" صفة الدوام إلا خلال الاتفاق على خط الحدود المشتركة، وخلال التحديد الدقيق لمعنى تبعية الولايات principalities القائمة فى سوريا. وإذا ما دخل عامل جديد فى المعادلة على هيئة دولة لم يحسب حسابها خلال البنود التى شملتها المعاهدة، فإن المتاعب كانت لتنشأ. وكان مثل هذا العامل بالتحديد هو الذى كان ليخلق لمصر مشكلة فى قلب سوريا، ولما تركت دون حل، أدت إلى نشوب حرب طويلة الأمد.

وعلى نحو ما رأينا فيما مر، وفر وادى نهر "الكبير" بشمال سلسلة جبال لبنان طريق الوصول من ساحل البحر المتوسط إلى نهر "العاصى"، وهو الأمر الذى استتبع

نتائج سياسية بارزة. فلقد مكن جيوش المصريين من الانتقال من الساحل إلى أعماق البلاد بسهولة نسبية ومن بسط سيطرة صارمة على زمام "قطنة – قادش" بصورة أشد مما كان عليه الأمر على مناطق أكثر إيغالاً فى الشمال، ولكن ذلك الوادى نفسه سمح أيضًا لـ "تونيب" بأن تحقق توسعًا سياسيًا غربيًا فى اتجاه "سومور" و "طرابلس". إلاّ أن "تونيب" أصبحت تعانى وقت ذاك من انتهاك أراضيها، وعلاوة على ذلك، كانت على الجانب الخاطئ من الحدود، وهو الأمر الذى حال دون استغلال ميزتها السابقة. وترتب على ذلك أن شريط الأرض الذى يمتد، إلى هذا الحد أو ذاك من وادى "العاصى" حتى بحيرة "حمص" فى اتجاه الغرب من الساحل الفينيقى أصبح بمثابة منطقة حدودية، تابعة اسميًا لمصر، ولكنها ليست خاضعة لإدارة أحد التوابع المحليين. واعتبارًا من الربع الأخير من القرن الخامس عشر ق.م. شرع السكان المحليون فى إطلاق اسم "أمورو" Amurru أى "الغرب" على هذا الشريط، وذلك على اسم قديم كان الأكاديون قد أطلقوه خلال العصر البرونزى الوسيط على سائر المنطقة الساحلية للمشرق.[٢٠٥] ومع بدايات حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث أصبحت "أمورو" مأوى مفضلاً لتلك العصابات شبه – القوقازية من الخارجين على القانون المعروفين باسم الـ "عابيرو"، وفى نفس الوقت مأوى كذلك للعشائر الناطقة بالسامية الغربية من أشباه البدو.[٢٠٦] وتحت قيادة عائلة تتكون من عدد من الأفراد الناطقين باللغة الكنعانية يرأسها شيخهم "عبدى – عشيرتا"، غدت "أمورو" بمثابة "كانتون" حرًاب، أى مولع بالأعمال الحربية وشكَّل تهديدًا سياسيًا لجيرانه. ولقد شكَّل صراع "أمورو" فى سبيل الاعتراف و"قدرها الظاهر للعيان" بالتوسع نحو الساحل الفينيقى ووادى "العاصى"، المشكلة الكبرى فى شمال الإمبراطورية لمصر.[٢٠٧]

ولكن ما هو السبيل إلى وضع "أمورو" فى نطاق السيطرة؟ فهى لا تتمتع بالاعتراف كدولة "شرعية" فى المعاهدة المبرمة بين مصر و"ميتانى". حقًا لم يكن لـ"أمورو" هذه وجود خلال عهد الفرعون "أمين – حوتب" الثانى. وكانت المنطقة خاضعة اسميًا لمصر. ولقد وصف "عبدى ـ عشيرتا" نفسه فى خطاب إلى الفرعون "أمين – حوتب" الثالث كـ "خادم للفرعون وكلب من كلاب بيته"، وحامى حمى ("سائر أراضى "أمورو") بالنيابة عن جلالته.[٢٠٨] ولعله حصل، حقًا وصدقًا، على نوع ما من التعيين.[٢٠٩]

ولكنه استخدم تكتيكات تتسم بالاستبداد والعنف فى سبيل إيجاد شرعية لنفسه، وفى فرض إرادته على جيرانه، وهو الأمر الذى سبب الحرج للفرعون على أقل تقدير. وقد يحتج "عبدى - عشيرتا" بأنه لم يكن مسئولاً عن الاستيلاء والتدمير الجزئى الذى لحق بمركز الحامية المصرية فى "سومور"، إلاّ أن محاولته مد سلطانه باتجاه الجنوب على حساب "بيبلوس" تخذل أقواله. ولقد كانت قوة التأديب الصغيرة التى أرسلها الفرعون "أمين - حوتب" الثالث إلى الساحل الفينيقى لإقرار السلام أصغر من أن تفعل شيئًا، ومتأخرة لدرجة جعلت وصولها يأتى بعد فوات الأوان.

ويتساءل المرء حول ما إذا كانت مصر قد أعطت موافقتها، سواء بشكل ضمنى أو صريح لـ "توشراتا" كى يظهر على مسرح الأحداث ويحاول تحييد "أمورو". (تشير مراسلاته مع صهره الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، إلى اتفاق تام حول شئون الإمبراطورية.) وتشير خطابات "أخيتاتون" (= العمارنة) إلى أن الفرعون استبد به القلق لازدهار "أمورو"، ووصل الأمر به ذات مرة إلى حد محاولة تسيير تجريدة ضدها.(٢١٠) وبالتالى وجد "عبدى - عشيرتا" نفسه مضطراً إلى تقديم نفسه إلى "ميتانى"، ونسمع عن فرض ضرائب باهظة على "أمورو" بعد ذلك.(٢١١)

ولكن اعتراف القوتين العظميين وقت ذاك بـ "أمورو" ومحاولتهما التى وقعت بين الحين والآخر نحو استخدام القمع لم تردع بيت "عبدى - عشيرتا". وعندما سقط "عبدى - عشيرتا" هذا قتيلاً فى ظروف غامضة بنهاية حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، استأنف أبناؤه ما بدأه الأب. وسرعان ما تبوأ أحدهم وهو "أزيرو" موقع القيادة.(٢١٢) وضرب حصاراً حول "سومور"، (التى كان المصريون قد انتزعوها بالقوة من سلطان أبيه.) وعندما سقطت "سومور" تحرك "أزيرو" جنوبيًا على امتداد الساحل كى يستولى على المدينة إثر المدينة، حتى نجح فى نهاية المطاف فى الوصول إلى "بيبلوس". وقبض "أزيرو" على حاكمها "رب - عدى" الذى أرسل سيلاً جارفًا من الخطابات المتوترة إلى الفرعون طالبًا النجدة، وأعدمه. وفى نفس الوقت اتجهت توسعاته باتجاه الشرق نحو "تونيب"، وهو الأمر الذى أدى إلى ضمها إلى ممتلكات "أمورو"، وكذلك باتجاه غربى - شرقى نحو أعالى "العاصى"، حيث أعطته "إيمكى" الخصيبة إشارة خضراء. وفى الشمال خضعت حتى "أوجاريت" للتهديد.(٢١٣)

كانت التكتيكات التى انتهجها كل من "عبدى - عشيرتا" وولده "أزيرو" شاذة بمعايير عصرهم، وهو الأمر الذى جعلها تربك خصومهم، مثلما استمرت تربك المؤرخين المحدثين. فكلا الرجلين كان تابعًا للحكم المصرى، جرى تنصيبهما، مثلما جرت الأعراف ويخضعان للضرائب المفروضة بصفة منتظمة (مع أن "أزيرو" استخدم خاتمًا رسميًا كملك، واعتبر فى وقت لاحق مؤسسًا لأسرة ملكية).(٢١٤) وكلاهما أرسل وتلقى خطابات من البلاط المصرى واتبعا قواعد البروتوكول. ولكن "أمورو" كانت "جالية من العابيرو"، انبثقت قبل قليل من نوع ما من عصابات الخارجين على القانون، عديمى الانتماء وقطاع الطرق ممن تنتسب إليهم تجمعات "العابيرو"، التى حازت سمعة سيئة (= جُرسة)، فى سائر أنحاء المشرق. وكانت تكتيكات "قطاع الطرق" تلك هى التى لجأ إليها "أزيرو" فى تعاملاته الدبلوماسية مع أقرانه. فطالما كان فى وسعه أن يستولى على مدينة ما ويخضعها السلب والنهب أو متى صار فى طوعه أن يجتاح بلدًا ما، فإنه لم يكن ليتردد لحظة واحدة فى الإقدام على ذلك. وإذا ما جوبه بمقاومة أو لاح فى الأفق أنه سوف يجابه بمثل هذه المقاومة، فإنه كان يلجأ لطريق ملتو: تبيير مؤامرة ضد الحاكم المحلى، أو تحريض الفلاحين على إشعال هبة واسعة النطاق. وقياسًا مع الفارق Mutatis mutandis فمثل هذه التكتيكات ليست غير مألوفة فى الشرق الأوسط: ففى أى فترة زمنية يستطيع أى شخص ميسور الحال، خارج على القانون ويمتلك لسانًا معسولاً أن يقنع الفلاحين فى الغالب بالانضمام إليه. ولكن مثل هذه الهبات الفلاحية المتوطنة اندلعت، فى الحالة الراهنة حيثما قامت دولة، تمثل جوهر الـ "عابيرو" كى تواجه وتصطدم بالمجتمعات المستقرة الزراعية. والحقيقة أن المشكلة التى وضعتها "أمورو" لجيرانها كانت فريدة فى نوعها فى منطقة سوريا الداخلية Syria Secunda وأواسط فينيقيا: لا ينبغى أن يُفسَّر الأمر باعتباره نوعًا من التوتر الذى انتشر فى النسيج الاجتماعى لـ "كنعان" فى ذلك الوقت، و"إله يخرج من الماكينة" Deus ex machina (حل مفتعل يأتى من خارج الأحداث فى مسرحيات العصور الوسيطة فى أوروبا - المترجم) كى يفسر لنا أصول "إسرائيل".(٢١٥)

لولا النتائج غير المتوقعة التى ترتبت على التوسع الذى قامت به "أمورو"، لكان فى وسع المرء أن يصفه بأنه "زوبعة فى فنجان"، إذ كانت أعين المعاصرين جميعًا مركزة، بكل تأكيد، ليس على أواسط لبنان، بل على هضبة الأناضول. فمن هنا كانت سلالة

أسرة "تودخالياس" Tudkhaliyas لا تزال تواصل ضغوطها على "ميتانى" مع إبقاء مطالبها بإطلاق يدها فى شمال سوريا على قيد الحياة. ومرة أخرى تحت ظل "هاتوسيليس" الثانى عند نهاية القرن الخامس عشر أثبت الاهتمام العميق للحيثيين بـ "حلب" أنه اهتمام محورى فى تورطهم فى الصدام الذى أوقعهم فيه سوء الحظ وحده مع "ميتانى". فلقد سعت دولتا "أشتاتا" و "نوخاششى"(جنوبى وشرقى "حلب") إلى التوسع على حساب "حلب" بعد فقدها لاستقلالها من مدة طويلة، والتعديل الناجم عن ذلك الذى قام به ملك "ميتانى" للحدود كان سببًا لـ "خاتى" لنصب الحرب casus belli[٢١٦] وتعكس الأحداث التالية حركة المد والجزر فى حظوظ المهاجمين: أرسل الحيثيون "سوبيلوليوماس"، ولى العهد لتنفيذ عمليات عسكرية بالقرب من "جبل كاسيوس" Mount Casius فى الأراضى التى كانت تابعة فيما مضى لـ "حلب".[٢١٧] لكن "ميتانى" كانت قادرة على صرف "كيزو - وادنا" Kizzuwadna التى تتمتع بموقع إستراتيجى مهم عن الالتزامات التى تفرضها معاهدتها عليها تجاه الحيثيين.[٢١٨] وسرعان ما روجعت الخطوة الأخيرة: فرض "سوبيلوليوماس" عدداً من المعاهدات على "تلزوش" Talzush ، ملك "كيزو - وادنا" وعقب ذلك مباشرة على خلفه "شوناش - شورا" Shunashshura الثانى، بل واستطاع أن يعين ابنه شخصيًا كرئيس للكهنوت هناك. ولكن ذلك لم يكن إلاّ من باب "المعاملة بالمثل": quid pro quo ، إذ كان "إشووا" Ishuwa (وهو إقليم "مالاتايا" Malataya فى أعالى "الفرات") قد انشق فى وقت سابق عن "خاتى" كى ينضم إلى "ميتانى".[٢١٩] ووصل اصطياد البيادق من الجانبين فى لعبة الشطرنج الحاذقة هذه إلى مرحلة مهاجمة القطع ذات القيمة الأكبر عقب وصول "سوبيلوليوماس" إلى العرش.[٢٢٠] فلقد منح نزاع محدود نشب بين "توشراتا"، ملك "ميتانى" وبين أحد الذين ارتبطوا بـ "ميتانى" فى الماضى برباط التبعية، هو "ساروبسى" Sarrupsi حاكم "نوخاششى" الفرصة التى ينتظرها "سوبيلوليوماس" كى يتدخل. وبينما استبد الرعب بـ "أميشتامرو" Ammishtamru حاكم "أوجاريت" لمرأى الجيش الحيثى وقد استعد للتحرك، وأرسل نداءً يائسًا إلى الفرعون "أمين - حوتب" الثالث طالبًا العون،[٢٢١] كانت نوايا الحيثيين تتجه إلى ناحية أخرى، وكانت تلك النوايا مركزة بشكل أدق. إذ شقت القوات الحيثية طريقها عبر "طورس" إلى "نوخاششى"، بناء على طلب، فى الظاهر، من جانب "ساروبسى" وأعقب ذلك نشوب معركة خاضتها القوات الحيثية وتلك الميتانية. وادعى كل طرف منهما أن النصر قد حالفه،

ولكن الأمر انتهى بهما، على وجه الترجيح، إلى حالة من الجمود: استطاع "سوبيلوليوماس" فرض وضع التابع على "ساروبسى" - وهذا هو التابع "الأول" لأى ملك حيثى جنوبى "طورس" - ولكن "توشراتا" تمكن من الابتهاج بصده للعدو وأرسل بعض الغنائم إلى مصر.(٢٢٢)

يبدو أن "سوبلوليوماس" ارتأى أن الموقف قد تدهور حقًا وصدقًا إلى حالة الجمود. وعندئذ كان الوقت قد حان أمام "سوبيلوليوماس" كى يأخذ خطوة جسورة فى اتجاه آخر، وهذا ما أقدم عليه بخطب ود مصر. فلم تكن مصر أو "خاتى" قد انخرطتا فى أى وقت من الأوقات، فى أى عمل عدائى الواحدة ضد الأخرى، بل ويمكن التماس الدليل على توطد أواصر الود بين البلدين فى الهدايا التى تبادلها البلاطان المصرى والحيثى خلال حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث. ففى الحد الأدنى قد تنجح مبادرات "سوبيلوليوماس" هذه فى تحييد الفرعون وتثبيط عزمه على تقديم يد العون لـ "ميتانى"، وفى الحد الأعلى تدق إسفينًا بين الملكين "الشقيقين" وتقضى على التحالف بين مصر و "ميتانى".

يزعم "سوبيلوليوماس" - فى حولياته - أن الفرعون "أمين ـ حوتب" الثالث طلب تطبيع العلاقات بين مصر و "خاتى"(٢٢٣)، ولكن سواء أكان ذلك صحيحًا أو غير صحيح، فلقد كان هو، بكل تأكيد، الذى بدأ بمفاتحة "أخناتون" (= أمون - حوتب" الرابع) فى هذا الصدد. ففى خطاب نجا من صروف الظروف لحسن الحظ كى يصل إلينا من جسمور رسائل "أخيتاتون" (= العمارنة) نراه يخاطب الفرعون بـ "الشقيق" ويهنئه على الجلوس فى العرش، ويعرب عن الرغبة فى تبادل الهدايا مع الفرعون، من ذلك النوع المعروف الذى يجرى بين الملوك الذين تربطهم علاقة تحالف قائم على الأخوة بينهما.(٢٢٤) وقد حققت مبادرات "سوبيلوليوماس" هذه قدرًا لا بأس به من النجاح. فلم تكن تربط "أخناتون"، منذ اللحظة التى تبوأ فيها السلطة، ولأسباب مجهولة، علاقات طيبة مع "توشراتا"، بل وفترت العلاقات بينهما بشكل متسارع خلال السنوات الخمس التالية، وهو الأمر الذى أدى، أول ما أدى، إلى استياء "توشراتا".(٢٢٥) وكان مبعوثو الدولة الحيثية حاضرين فى عيد "أخناتون" الثلاثينى (= الحب - سد) فى السنة الثالثة له فى العرش.(٢٢٦) وإذا بنا نسمع، عقب ذلك بوقت قصير، عن قرب إبرام تحالف بين مصر و "خاتى".(٢٢٧) وغدا المسرح بذلك جاهزًا أمام "سوبيلوليوماس" كى يشن هجومًا ضخمًا.

سنحت الفرصة لذلك خلال نزاع نشب حول وضع أراضى "إيشو- وا" Ishuwa ، إلاّ أن هذا النزاع سرعان ما اتضح أنه نزاع فارغ، غير أنه نهض مبررًا لحملة كبرى فى سنة ١٣٧٧ق.م. على وجه التقريب.(٢٢٨) وأنزل "سوبيلوليوماس" الهزيمة بـ "إيشو - وا" وعندئذ استدار بصورة مفاجئة جنوبًا واندفع نحو "واسوكانى" Wassukani ، عاصمة "ميتانى". ولما لم يستطع "توشراتا" حشد قواته فى الوقت المناسب، فلقد ولى الأدبار مع أسرته، وهو الأمر الذى يشبه إلى حد كبير، ما أقدم عليه "باراتارنا"، خصم "تحوت - موسى" الثالث قبل ذلك التاريخ بنحو قرن من الزمان، إلاّ أن فرار "توشراتا" كلَّفه ضياع إمبراطوريته. ثم تحول "سوبيلوليوماس" فى اتجاه الغرب كى يعبر نهر "الفرات" ويدخل سوريا دون عائق. وتلقى "سوبيلوليوماس" فى "موكيشى" استسلام إمارات شمال سوريا باستثناء "نيبا" التى قاومت، مما اضطر "سوبيلوليوماس" إلى إلحاق الهزيمة بها فى أرض المعركة. وواصل "سوبيلوليوماس" تقدمه حتى "نوخاششى" كى يتلقى، بالمثل، مراسم الولاء. ولكن كلاً من "شوتاتارا" Shutatara ملك "قادش" و "آرى - واناهى" Ariwanahi حاكم "أبينا" Abina هاجما "سوبيلوليوماس".(٢٢٩) ولكن الهزيمة كانت فى انتظارهما معًا، وقام "سوبيلوليوماس" بإرسال جميع المتمردين مع عائلاتهم إلى "خاتوساس". وفى ضربة واحدة ضم "الحيثيون" كلاً من "موكيشى" و "حلب" ونوخاششى" وأقاموا حدودهم فى جبال لبنان.

ولعله من الشائق أن نتكهن بالكيفية التى نظرت خلالها مصر إلى مشروعية التوسعات التى أقدمت عليها "خاتى". إلاّ أن "سوبيلوليوماس" أوضح فى روايته للأحداث أن حملته تستهدف، وحسب، الإمارات التابعة لـ توشراتا". وكان ذلك مقصودًا. فحتى ذلك الوقت لم يكن هناك نزاع بينه وبين مصر. فلم يهاجم "أوجاريت"، ولا أيًا من المدن الفينيقية.(٢٣٠) كما لم يهاجم "أمورو" أو "إيمكى"، فضلاً عن أنه احترم الحدود التى تقوم عند "العاصى". وبطبيعة الحال كان ينبغى على "أخناتون" أن يهب إلى نجدة "توشراتا" بحكم علاقات "الأخوة" التى تربطهما، إلا أن الجالس على عرش مصر لم يكن يحب "ميتانى" ولم يحرك ساكنًا. وبكل تأكيد لم يكن هو الذى فوَّض "شوتاتارا"، تابعه على "قادش" فى مقاومة تقدم الحيثيين، وكان "شوتاتارا" هو الذى تصرف

بصورة تلقائية بصفته "رأس الطابور" الحريص على حماية الحدود نيابة عن سيده. والحقيقة أن "سوبيلوليوماس" أظهر درجة من الحساسية تجاه العلاقة الخاصة التى تتمتع بها كل من "نيبا" و "قادش" مع مصر: إذ سمح لاثنين من المتمردين هما "أدو – نيرارى" Addu-nirari حاكم "نوخاششى" و "إتاكاما" Etakama ابن "شوتاتارا" حاكم "قادش" بعد احتجازهما لمدة قصيرة فى "خاتوساس" بالعودة إلى مسقط رأسيهما. وكان الأول قد ظل يؤمل خيراً فى المساعى الحميدة التى تبذلها مصر بصفة مستمرة، أما الثانى فقد رأى ما خطه الأول على جدار السجن.

ولابد أن أعقب ضم الحيثيين لممتلكات "ميتانى" فى سوريا، مباشرة، وبعد أن قامت حدود مشتركة بين مصر و"خاتى"، لأول مرة، إبرام معاهدة بين "سوبيلوليوماس" وبين "أخناتون" لتنظيم العلاقات بين الدولتين، وبصفة خاصة رسم الحدود المشتركة. وقد وقع نظر "مورسيليس" الثانى، بن "سوبيلوليوماس"، على نسخة (=إضمامة) من هذه المعاهدة التى جزم بأنه لم ينقضها بأى طريقة كانت. وسرعان ما اكتسب القرار الذى توصل إليه الجانبان حول الحدود قوة قانونية وحظى بالاحترام لمدة طويلة، ولم يُخرق إلاَّ لماماً.[٢٣١]

وفى الوقت الذى لا يتعيَّن علينا أن ننشغل طويلاً هنا بالبحث عن السبب[٢٣٢]، إلاَّ أن "أخناتون" لم يكشف بشكل صريح عن نواياه تجاه إمبراطوريته الآسيوية. فكان ينتهج سياسة تتسم باللين فى مناسبة ما[٢٣٣] وفى مناسبة أخرى تراه يستأصل تجمعًا كاملاً ويقوم بترحيله إلى النوبة.[٢٣٤] وقد يتجاهل المراسلات ويترك الرسل ينتظرون فى البلاط السماح بلقائه لسنوات، ومع ذلك يستطيع أن يدعو على وجه العجل الحكام المحليين فى سائر الإمبراطورية إلى عيده الثلاثينى.[٢٣٥] غير أن مصر لم تفقد سلطانها الأكبر على رؤساء "كنعان" فى أى وقت من الأوقات، وإذا أخطأوا فى قياس عزم "أخناتون" فإن ذلك لم يكن يعنى سوى أنهم لم يتمتعوا بالتنبؤ بالمستقبل.

فى وقت ما خلال العقد الذى أعقب الحملة التى قام بها "سوبيلوليوماس" فكرت الدول السورية بصورة جادة فى التنصل من القسم الذى أقسموه بالولاء له.[٢٣٦] ولقد كتب "أدو – نيرارى" حاكم "نوخاششى" بشكل مباشر إلى "أخناتون"، وتشفع "أكيزى"

حاكم "قطنة" نيابة عن الملوك الآخرين، فى طلب العودة إلى حظيرة الفرعون، فيما تضرعت "تونيب" للفرعون كى يرسل إليها حاكمًا يسوس أمورها.(٢٣٧) وأخيراً أقدم المتآمرون على اتخاذ خطوة: شكّل "إتورادو" Ituraddu حاكم "موكيشى" و "أدو – نيرارى" حاكم "نوخاششى" و "أكى – تيشوب" Aki-teshup حاكم "نيبا" عصبة لغرض خاص هو نبذ ولائهم لـ "خاتى"، وحاولوا إجبار "نيكمادو" الثانى حاكم "أوجاريت" على الانضمام إليهم وإلا واجه الغزو. ولكن المفاجأة جاءت الآن: "نيكمادو" ربيب مصر المخلص، الذى كان قد تزوج من مصرية ووطد علاقاته مع مصر غيّر موقفه بزاوية ١٨٠ درجة، وعوضًا عن أن يناشد فرعون مصر، توجه بمناشدته نحو ملك "خاتى" كى ينتشله من ورطته. ولم يتوان "سوبيلوليوماس" فى انتهاز الفرصة. فلقد وصلت خطابات التطمين إليه فوراً من "خاتوساس" وأرسلت الجيوش لطرد قوات المتمردين من أراضى "أوجاريت". وحضر "سوبيلوليوماس" شخصيًا إلى "ألالاخ" وعبر "نيكمادو" نهر "العاصى" كى يرتمى على بطنه ساجداً أمام الملك العظيم. وهكذا اختارت "أوجاريت" طواعية أن تنشق على مصر.(٢٣٨)

ولكن "سوبيلوليوماس" لم يكن قد ارتوى. فلقد عبر مرة أخرى إلى "نوخاششى" كى يتخذ مقراً له فى "نيبا" على وجه الاحتمال. وهنا بات من المتوقع أن يهرع ملوك المقاطعات المحلية والأراضى الواقعة فى أعماق الجنوب إليه كى يجددوا قسم الولاء. إلاّ أن كلاً من "أكيزى" ملك "قطنة" و "بيريا – وازا" Biryawaza حاكم "أوب" Upe رفضا الذهاب إليه، طالما كانا مندوبين سامين لمصر.(٢٣٩) وبسبب هذه الإهانة هاجمت القوات الحيثية "قطنة" وآخر ما سمعناه منها هو الصيحة التى تثير الشفقة من "أكيزى" بأن الحيثيين يأسرون الرجال فى المدينة ويستولون على ممتلكاتها. وعقب ذلك بوقت وجيز أسلم الحيثيون المدينة للتخريب بما لم تعد معه صالحة مرة أخرى للسكنى.(٢٤٠) أما "بيريا – وازا" فنظراً لتحصنه فى الأعالى فى "أوب" التى تحتاج إلى جهد أكبر للوصول إليها، فلم يتعرض لهجوم الحيثيين. غير أن "إيتاكاما" الذى صمم على تحسين صورته أمام "سوبيلوليوماس" قاد فصيلة صغيرة من الجنود الحيثيين كى يعيث نهبًا فى المنطقة.(٢٤١)

ولم يخطئ "أزيرو" فهم كل ما تنطوى عليه هذه الأحداث. فلقد استولى الحيثيون على مدينتين – دولتين، كانتا فى الآونة الأخيرة وحسب، جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية المصرية فى آسيا، ولحق التخريب بواحدة منهما. ولم يعد "سوبيلوليوماس"، كما هو واضح، يراعى دقائق السلوك التى تقعده عن استهداف أى ممتلكات، سوى تلك التى كانت تتبع "ميتانى"، بصرف النظر عن المبررات التى يكون قد ساقها لهذا الموقف. وكان "أخناتون" قد ظل يلزم موقف الصمت طوال كل ما دار، فى الوقت التى كانت حدوده الشمالية تتعرض للزعزعة، وراجت شائعة وقت ذاك بأن "أخناتون" لن يحرك ساكنًا."[٢٤٢] لكن "أزيرو" كان قد صمم، حتى قبل أن يصل الحيثيون إلى سوريا، أن يغتنم الموقف عن طريق عقد التحالف مع "إيتاكاما" فى محاولة منه كى يستولى على كل ما يستطيع الاستيلاء عليه فى ذلك الوقت الذى كان يشهد انهيار الحدود. فأرسل "أزيرو" قواته كى تساعد "إيتاكاما" ضد "إيمكى" و"أوب" كما قام هو شخصيًا باحتلال "تونيب".[٢٤٣] وعندما تقدم الحيثيون صوب "نوخاششى" أكرم وفادة الرسل الذين بعث بهم إليه "سوبيلوليوماس"، ولو أنه لم يتوجه شمالاً للترحيب بالملك الحيثى.[٢٤٤] ومع ذلك فلقد أثبت ذلك أنه أكثر مما يحتمل "أخناتون" المكتوف اليدين، فقام باستدعاء "أزيرو" إلى البلاط المصرى. وفى طريقه إلى هناك، بعد تأجيل سفره المرة بعد المرة، (الأمر الذى يوحى بالإصرار العنيد) رافق النقيب المصرى الذى أرسله البلاط المصرى لإحضاره إلى مصر.[٢٤٥]

استمر احتجاز البلاط المصرى لـ "أزيرو" سنوات عديدة، وخلالها ربما يكون قد داهمه العمى، ولكن ذلك لم ينل سواء من روحه أو عزيمته، وعندما حصل على الإفراج شعر "أخناتون" على وجه الاحتمال أنه خسر أحد رجاله.[٢٤٦] وذلك لأنه "لم يكد يخرج من باب مصر" ويعود إلى "أمورو"، حتى خر ساجدًا أمام الشمس، الملك العظيم، ملك "خاتى" وعرض نفسه كتابع له. وهكذا كانت "أمورو" قد انشقت على الإمبراطورية المصرية التى كانت حدودها قد تراجعت وقت ذاك إلى جنوبى وادى نهر "الكبير".[٢٤٧]

الحرب المصرية – الحيثية:

تكشف النتائج التى نجمت عن كل ذلك أنه بينما رأى الحيثيون فى حدودهم الجنوبية الجديدة حدوداً تتمتع بالاعتراف القانونى، وإن مصر لم تقبل أبداً خط الحدود الجديد. فخلال نوع غريب من "المراجعة" revisionism استطاع الحيثيون، خلال الأجيال اللاحقة أن يروا فى الدول الواقعة شمالىّ خط الحدود الجديد كافة، بما فى ذلك "قادش" و"أمورو" توابع سابقة فى وقت أو آخر لـ "ميتانى"، وبالتالى فرائس مشروعة.[٢٤٨] ولكن مصر كانت غير مستعدة لقبول هذه "الحقيقة" السياسية الجديدة. وقدرت أن "خاتى" تنتهك بصورة سافرة المعاهدة المبرمة بينهما، وهو الأمر الذى أدى إلى نشوب حرب متقطعة بين البلدين حول الحدود، استمرت لمدة قرن. وأصبحت "قادش" منذ البداية هدفًا للهجمات المصرية والضغط السياسى، ونجح الفرعون، من وقت لآخر، فى تحويل المدينة ضد الحيثيين.[٢٤٩] ففى إحدى المرات توغلت حملة من "ببيلوس" حتى "كاركميش"، وهو طريق كان يمر بقوات التجريدة المصرية خلال أراضى "أمورو"، ولكن النجاح الذى حققته هذه المغامرة لم يدم طويلاً.[٢٥٠] وكانت "خاتى" توجه ضرباتها الانتقامية، عادة، ضد "إيمكى"، ولكن الحيثيين كانوا عاجزين عن إحداث تغيير دائم فى خط الحدود. وجاء التماس أرملة الفرعون "توت عنخ أمون" لـ "سوبيلوليوماس" أن يرسل إليها أحد أبنائه كى تتزوجه، واغتياله على إثر ذلك كى يقدم أقل القليل فى سبيل حسم القضية، وإن كان قد أشعل المشاعر بصفة مؤقتة.[٢٥١]

وقف سببان على الأقل وراء حالة الجمود التى وصلت إليها الأمور. فمن جانب وضعت الجغرافيا صعوبة متزايدة أمام كل من القوتين العظميين اللتين يفصل بينهما ألف وثلاثمائة كيلو متر، كى تحكم سيطرتها، بصورة فعالة، على أى أراضٍ فيما وراء وادى نهر "الكبير". فشمالىّ هذا الخط تقع مدينة/دولة على بعد مسيرة ثلاثة أيام من الحاميات الحيثية فى شمال سوريا، وجنوبية كانت المعاقل المصرية فى "فينيقيا" وفى "أوب" تستطيع بسهولة أن ترصد تحركات العصاة فى أعالى "العاصى". حقًا لم تصب الإرادة المصرية بانهيار كامل فى الحفاظ على حدود الإمبراطورية، إلا أن الهجمات (المصرية) المستمرة على طول الحدود لم تصادف سوى نجاح تكتيكى محدود، وهو الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى الإحباط وتضعضع الروح المعنوية.

ولكن ينبغى علينا أن نرصد عاملاً أكثر دهاءً فى العلاقات الرسمية التى صاغها الحيثيون كى يربطوا إماراتهم التوابع ببلادهم "خاتى". وكانت آليات الإمبراطورية المصرية مصاغة لخدمة أغراضٍ مؤقتة ad hoc كما كانت الطلبات التى تطلبها من أعضاء الإمبراطورية غير منتظمة ومفرطة فى إيثار مصالحهم على مصالحها. وكانت تقديرات الضرائب تتغير، من سنة لأخرى، على وجه التقريب، وكانت هذه التقديرات تُنقل إما عن طريق الرسائل أو محاسب يحدد حجم الضرائب. ولم يكن مطلوبًا من الحاكم التابع أن يأتى إلى مصر بصفة منتظمة، ولكن كان يجد لزامًا عليه أحيانًا أن يتجه إلى هناك بناء على إخطار وقتى (=ابن لحظته) إذا طلبه الفرعون. وتمثلت الرابطة القانونية الوحيدة بالتاج المصرى فى القسم الذى كان الفرعون يأخذه عليه بألا يتمرد، وكان هذا القسم يؤخذ شفويًا، ولا نملك ما يشير إلى أن القسم كان ينقل إلى الورق. أما ملك الحيثيين فكان، على العكس من ذلك، يدوِّن لكل تابع من توابعه معاهدة رسمية، كانت تنص بشكل مفصل (بصرف النظر عن الديباجة التاريخية) على مطالب الملك الحيثى. وكان لزامًا على التابع أن يتوجه بصفة سنوية إلى العاصمة "خاتوساس" وأن يدفع الكميات المحددة من الضرائب. ولم يكن من حقه أن ينتهج سياسة خارجية مستقلة، ولكن كان عليه أن يصادق أصدقاء "خاتى" ويعادى أعداءها.[٢٥٢] وإذا شن الملك الحيثى الحرب، تعيَّن على التابع أن يساعده بإرسال قوات معاونة، وأن يسلم أى هاربين إلى "خاتى" بصفة فورية.[٢٥٣] وكانت المعاهدة تحدد، وقت تدوينها، القوى الأجنبية، التى تقف موقف العداء من "خاتى"، أما أولئك الذى تقع بلادهم على الجبهة الجنوبية (مثل "أزيرو" و "دبى – تيشوب" Duppi-Teshup) فكان يحظر عليهم الدخول فى أى تعاملات مع مصر.[٢٥٤] إلاّ أن مثل هذه المعاهدات التى تلزم طرفًا واحدًا، التى أبرمتها "خاتى" مع توابعها، لم تمنع هؤلاء التوابع من ممارسة قدر من الحرية فى التنافس على احتلال مكانة أرفع فيما بينهم. إذ كان فى وسعهم أن يتخاصموا أمام القانون،[٢٥٥] وأن يعقدوا الزيجات،[٢٥٦] بل وأن يعدلوا "الولاءات" الداخلية فيما بينهم.[٢٥٧] حقًا كان كل ذلك يمكن أن ينعكس، أيضًا، على هيئة شروط عمومية تحت ظل الهيمنة المصرية، إلاّ أن إضفاء الطابع الرسمى على العلاقات فى معاهدات مكتوبة جعل من الأسهل فرض العقوبات على المخالف.

بحلول منتصف القرن الرابع عش ق.م. كانت الأسرة الثامنة عشرة قد فقدت كل ثقة رعاياها فيها وكل احترام لها من جانبهم. فلم يترك الفرعون الشاب "توت - عنخ - أمون" وراءه سليلاً من البيت المالك كي يجلس على العرش، وسرعان ما استولى العسكر على مقاليد الحكم. وكانت المناشدة التي تجتذب الشفقة وتدين نفسها بالخيانة، في نفس الوقت، التي أرسلتها أرملة "توت - عنخ - أمون" إلى "سوبيلوليوماس" تطلب مساعدتها، كما تطلب أحد أبنائه زوجاً لها، هي آخر صرخة نسمعها من عائلة مالكة كانت يوماً ما عظيمة. وفي ظل القيادة النشطة، ولو أنها كانت إلى حد ما مرتجلة، لثلاثة قواد جلسوا في العرش الواحد بعد الآخر، وهم: "آي" (١٣٥٦-١٣٥٢ق.م.) و "حور - إم - حب"(١٣٥٢-١٣٢٣ق.م.) و "رعمسيس" الأول (١٣٢٣-١٣٢١ق.م.) - عرفت مصر إعادة التنظيم على المستوى الداخلي وتدعيم خطوط الاتصال مع آسيا الغربية.(٢٥٨)

حقًّا لم تتنازل مصر، وهذا أمر واضح تمام الوضوح، عن أي جزء من إمبراطوريتها الآسيوية خلال فترة "أخيتاتون" (= العمارنة)،(٢٥٩) فيما عدا "أمورو" و"قادش"، إلاّ أنه من الجلي للعيان أن الربع الثالث من القرن الرابع عشر شهد تعرض ممتلكاتها في الشمال لضغوط جديدة. فالنجاح الذي حققته جيوب الـ "عابيرو" الواقعة في شمال لبنان في سبيل صوغ مملكة لهم لا يدانيه أي نجاح مماثل قامت به في أي مكان آخر عصابات الـ "عابيرو" المنتشرين في "إيمكي" Amki و "باشان" Bashan ومرتفعات فلسطين عند نهاية الفترة التي تغطيها رسائل "أخيتاتون" (=العمارنة). حقًّا رحَّل "أخناتون" بعض رعايا "إيمكي" ونصَّب حاكمًا عسكريًا في "أورشليم" كي يضع أولئك الذين يعيشون في البلاد الجبلية تحت الرقابة، ولكن منذ عمليات الترحيل الكبرى التي قام بها كل من "تحوت - موسى" الثالث و "أمين - حوتب" الثاني، أخذت الإمبراطورية الشمالية تعاني وخصوصًا فلسطين من ضعف مطرد نجم عن التخلخل السكاني الذي حدث. ولم تنتهز عصابات الـ "عابيرو"، قطّاع الطرق الفرصة التي سنحت وقت ذاك بالفراغ الذي حدث في المرتفعات وحسب، بل بدأ البدو أيضًا من سكان الضفة الغربية في الانتقال شمالاً إلى "الجليل" وسوريا، وغربًا عبر "النقب" إلى "غزة" و "عشقلون" والطريق السريع الذي يربط مصر مع فلسطين. ويبدو أن الضغط الذي شكَّله هؤلاء السلابون - النهابون هو الذي يقف، عند نهاية عصر "أخيتاتون" (= العمارنة) وراء تحصين هذا الطريق ببناء سلسلة من الحصون على امتداده.(٢٦٠)

أشار ارتقاء "با - رع - ميسى" العرش باسم "رعمسيس" الأول إلى ولادة أسرة جديدة. فلقد انتهت خمسون سنة من تولى عرش البلاد بالتعيين باختيار الفرعون، الذى كان، على ما يبدو قد طعن فى السن وقت ذاك ودب فى جسمه الوهن، ابنه "سيتى"، خلفًا له. ومع تدهور صحة الوالد انخرط الابن بصورة نشطة فى مهام الحكم.(٢٦١) واستلهامًا للرطان الذى ظل يُستخدم لستة قرون، أعلن "سيتى" بدء حقبة جديدة تتميز بعبارات من هذا القبيل: "تجديد الميلاد" و "بداية الأبدية".(٢٦٢)

وفى سبيل ترجمة ذلك إلى خطوات عسكرية، استتبع التجديد استئناف سياسة خارجية هجومية تذكرنا بسياسة الفرعون "تحوت - موسى" الثالث. وكان لـ "ستى" أن يصبح "ذاك الذى يستطيع أن يمد حدوده إلى حيثما يشاء... حامى مصر الذى سحق الأجانب وفرض الخضوع على أبناء سائر البلدان فى عقر دارهم."(٢٦٣) ولقد أعلنت العديد من صواديد/ألواح النصر نجاحاته فى هذا السبيل، وكانت غالبًا ما يجرى تقديم تاريخها إلى السنة الأولى من حكمه طلبًا لقوة التأثير الذى يتركه ترحيل التواريخ إلى الوراء، إلا أننا نفتقر إلى رواية رصينة ومتسقة الأجزاء مثل تلك التى تفضل بها علينا الفرعون "تحوت - موسى" الثالث. فالمصدر الرئيسى عن حروب "سيتى" لا يزيد عن جداريات المعارك التى تتسم بجمال باهر، تلك التى نحتت على الواجهة الخارجية للحائط الشمالى لقاعة الأعمدة المسقوفة فى معبد "آمون" فى الكرنك، إلا أن السجلات العلوية من هذه الجداريات أزيلت، ولم يتبق سوى نصوصٍ تافهة خالية من أى قيمة تاريخية.(٢٦٤) ولقد علقت أحدث محاولة لتفسير ترتيب المناظر والسجلات المكتوبة فى عنقنا جميعًا دينًا للعالم "دبليو. جى. مورنين" W.J.Murnane.(٢٦٥) ولعلى أسير هنا، بصفة عامة، على هدى النتائج التى توصل إليها فى هذا الصدد.

بعد وقت قصير من وفاة الوالد تلقى الفرعون "سيتى" تقريرًا من أحد رسله عن الأوضاع فى فلسطين: "رؤساؤهم تجمعوا سنويًا فى مكان واحد، وقد اتخذوا موقعهم فى أعالى جبال فلسطين. كما دبت الفوضى فيما بينهم. فكل منهم يقتل زميله. ولم يعودوا يعيرون قوانين القصر أدنى اهتمام."(٢٦٦) غير أنه لا ينبغى لهذا الوصف أن يحظى منا بوزنٍ أكبر مما يستحق. فهو جزء من حديث قديم مكرور يجرى خلاله استدعاء حالة الفوضى كسبب كافٍ لتوجيه ضربة عسكرية: يتعيَّن استعادة سيادة

القانون والنظام. وكان التقرير الذى رُفع عن "بيت شان" بأن ملكًا كنعانيًا يشن هجومه عليها دون أن تتمكن من الحصول على أى عون، أكثر تحديدًا.(٢٦٧) ونجح الفرعون "سيتى" فى إجبار البدو على التقهقر بعد قطعهم الطريق السريع الذى يربط بين مصر و "غزة" ولم يجد صعوبة تذكر فى رفع الحصار عن "بيت شـان". وحتى عندما أثار الـ "عابيرو"، سكان المرتفعات الوسطى، المتاعب لمؤخرة الجيش المصرى، كانت فصيلة مصرية صغيرة كافية لإخماد الفوضى.(٢٦٨) وعندئذٍ تقدم المصريون فى اتجاه الشمال كى يستولوا على "ينوعام" قرب منابع نهر الأردن، وهناك تلقى المصريون فروض الطاعة والولاء من "كبار رؤساء لبنان" الذين أجبروا كعمل من أعمال الامتهان العمدى على أن يقطعوا بأنفسهم الأخشاب اللازمة من غاباتهم لبناء مركب "آمون". وقبل أن يقفل الجيش عائدًا إلى الوطن نصب عددًا من الصواديد/ الألواح فى كل من "با - شان" و"صور".(٢٦٩)

ولم تكن هذه الحملة سوى البداية. فلقد كان الفرعون "سيتى" يتبع، سواء بشكل واعٍ أو غير واعٍ، الإستراتيجية الشاملة التى سبق للفرعون "تحوت - موسى" الثالث أن انتهجها. ففى تاريخ غير معروف، ولكن بعد سنته الثانية فى الحكم، تقدم الفرعون "سيتى" صاعدًا عبر الساحل كى يوجه ضربة إلى "أمورو"، ثم عبر الجبال كى يهاجم "قادش".(٢٧٠) وسقطت "قادش" فى أيدى المصريين ونصبوا صادودًا/لوحًا تذكاريًا داخل أسوارها. وفى حملة تالية نجد الفرعون يتوغل أكثر شمالاً كى يخوض المعارك ضد الحيثيين أنفسهم. ومن الجلى أن تحركات الفرعون كانت قد أثارت ثائرة "مورسيليس" الثانى العجوز ودفعته إلى اتخاذ رد فعل ما.(٢٧١)

ولما كنا نعتمد على الدعايات التى تتسم بالتعميم لجدارية الحرب فى إعادة تركيب وقائع الحرب المصرية - الحيثية خلال حكم "سيتى"، فإننا نشعر بصورة حادة، بالافتقار إلى تلك الثروة من التفاصيل التى كانت لتأتى من أرشيفات رسمية من وزن رسائل "أخيتاتون" (= العمارنة) أو نصوص "بوغاز - كوى". فلم ينج من صروف الظروف أى أراشيف للسنوات الأخيرة من حكم "مورسيليس" الثانى أو كل الفترات القصيرة التى جلس خلالها على العرش "مواتاليس" **Muwatalis** و "يورى - تيشوب" **Urhi-teshup** والوثائق التى تشير إلى هذه الفترة من فترات الحكم اللاحقة تكشف فى بعض الأحيان عن مجادلات لا تتسم بالحيدة.

وعلى وجه الخصوص يود المرء لو يعرف ما إذا كان "سيتى" خلال شن الحرب على كلٍ من "أمورو" و"قادش" وبعض المناطق فى الشمال، يتحدى معاهدة ما كان لزاماً عليه أن يتقيد بنصوصها. وإذا استثنينا معاهدة "كوروشتاما" Kurushtama التى يكتنفها الغموض، فإننا لا نعرف إلا اتفاقيتين رسميتين كانتا ساريتين قبل المعاهدة المصرية - الحيثية العظمى التى أبرمها الفرعون "رعمسيس" الثانى فى السنة الحادية والعشرين من حكمه. وقد ألمحت بشكل موجز ديباجة المعاهدة الأخيرة إلى هاتين المعاهدتين بصفتهما لا تزالان ساريتىْ المفعول، إحداهما تحت ظل "سوبيلوليوماس" والأخرى تحت ظل "مورسيليس" الثانى.[٢٧٢] والأدلة التى نملكها تحت أيدينا تستطيع طياتها أن تفسح المجال لمعاهدة أُبرمت خلال حكم "سوبيلوليوماس"، كما سبق لنا أن رأينا.[٢٧٣] ولكن المعاهدة المبرمة مع "مورسيليس" تطرح مشاكل تتصل بالسياق التاريخى. إذ لم يصل إلى علمنا إبرام أى معاهدات طوال الفترة منذ السنوات الأخيرة من حكم "سوبيلوليوماس" حتى تلك المعاصرة لحملات "سيتى". ولكن هناك ذكر فى فقرة مهشّمة تعود إلى حوليات السنة السابعة من حكم "مورسيليس" لـ "معاهدة" ولـ "فرعون مصر"، إلا أن الإشارة الأولى ربما تقصد معاهدة بين "خاتى" و"نوخاششى".[٢٧٤] ولقد أكد "مورسيليس" فى موضع آخر، مع إشارة محددة إلى نسخة (=إضمامة) لمعاهدة قديمة ترسم خط الحدود بين الإمبراطوريتين، الحقيقة التى تقول إنه لم يفعل سوى الالتزام بالاتفاقية الذى ورثها عن أبيه، ولم يدخل أى تعديل على توازن القوى مع مصر.[٢٧٥] ويقع هذا الإقرار من جانبه فى أواسط حكمه، إلاّ أننا نواجه هذا التساؤل: وماذا حدث بعد ذلك؟ هل يمكن للشراسة التى اتسمت بها قوات "سيتى" والظفر الذى حققته أن يكونا قد أجبرا "مورسيليس" العجوز على أن يجنح للوفاق فى السنوات الأخيرة من عمره؟

يصعب على المرء أن يحدد أين كان يمر خط الحدود على وجه التحديد عشية وفاة الفرعون "سيتى". ففى وقت أو فى آخر اضطر المصريون إلى التخلى عن "قادش" لأنها وقفت إلى جانب "خاتى" فى المعركة التى خاضها الفرعون "رعمسيس" الثانى فى السنة الخامسة من حكمه، ويتساءل المرء حول ما إذا كانت معاهدتنا المظنونة فى أواخر حكم "مورسيليس" قد نصت على عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه. أما حالة "أمورو" فتنطوى حتى على لغز أكبر. ليس هناك ما يوحى فى التقرير الموجز الذى تحمله

جداريات الحرب التى تركها الفرعون "سيتى" وراءه، بأن المصريين استولوا على كلٍ من "قادش" و "أمورو"، ولو أن تلك الجداريات تصور "قادش" تحت وطأة الهجوم.[٢٧٦] ولكن التمعن فى المصادر يلمح إلى أن "أمورو" كانت قد انشقت كى تنضم إلى مصر قبل وقت قصير من وقوع معركة "قادش"، وفى الحقيقة عجل ذلك بالمواجهة بين الجانبين.

فى العقد الأخير من القرن الرابع عشر ق.م. رحل الخصمان العجوزان: "سيتى" و "مورسيليس"، الأول بصورة غير متوقعة، إذا صح استنتاجنا، والآخر فى ظل ظروف لا يعرف عنها أحد شيئًا، واحتل شابان يافعان موقعهما، وكانا يشبهان الواحد الآخر بصورة ملحوظة. فكان "رعمسيس" الثانى، بن "سيتى" وخليفته قد حظى بإعدادٍ مسبقٍ لأداء مهام المنصب.[٢٧٧] فلقد شمل التدريب الذى تلقاه، فى ظل الحفاظ على تقاليد العائلة المالكة، تدريبًا عسكريًا منذ صباه، وبصفته "قائد قوات الصاعقة والعجلات الحربية" كان يقدم لوالده تقارير منتظمة.[٢٧٨] وعندما صعد إلى العرش كان قد اكتسب بالفعل مظهر الشخص الجسور، ولقد كانت آيات المديح التى زفها إليه بلاطه مفرطة حتى بالنسبة لمصر: "أنت رع، بدنك هو بدنه! لم تعرف الأرض حاكمًا يضاهيك، فأنت فريد ... "إيزيس" (لم تحب) ملكًا آخر منذ عهد "رع" سواك أنت وابنها... ينبغى على كل مدينة أن تعلم أنك إله جميع الناس!"[٢٧٩]

أما بخصوص تنشئة "مورواتاليس" فنعرف أقل مما نعرفه عن تنشئة "رعمسيس" الثانى، ولو أنه كان مفعمًا هو الآخر بروح عسكرية. ولما كان الابن الثانى بين أربعة أبناء أنجبهم "مورسيليس" الثانى، فلقد ارتفع "مورواتاليس" إلى ولاية العهد عقب وفاة الابن الأكبر. ونظرًا لتحرره، كما هو واضح، من الأثرة التى يضمرها الآباء لأبنائهم، فلقد رفع شقيقه الأصغر، المعتل الصحة إلى منزلة كاهن "عشتار" وولاه قيادة عسكرية عليا فى أواسط هضبة الأناضول.[٢٨٠] وقد أطلقت هذه الخطوة يده فى نقل مقر حكمه جنوبًا حيث يكون بوسعه أن يشرف بنفسه على العمليات العسكرية فى المشرق.

انهار السلام المشوب بالقلق الذى ورثه كل من "رعمسيس" الثانى و "مورواتاليس" Muwatallis عن والديهما مرة أخرى من جراء الخطوات التى أقدمت عليها "أمورو". ولما كان حكم الفرعون "رعمسيس"(وخصوصًا سنواته الأولى) تقوم عليه وثائق كافية،[٢٨١] فإننا نستطيع أن نستدل من هذه الوثائق على التاريخ الذى انشقت فيه

"أمورو" على "خاتى"، طالما لم يرد له ذكر بصريح العبارة. وليس هناك أدنى شك، بكل تأكيد، فى أن الفرعون "رعمسيس" الثانى كان مهموماً، للغاية، بالإمبراطورية الشمالية، ومع ذلك فإننا نجده ينخرط خلال السنتين الأوليين من حكمه فى عمليات تشييد ويقوم بجولة تفقدية فى النوبة، نافياً آسيا، فيما يبدو، عن خاطره تماماً. ومع ذلك ففى أواخر السنة الثالثة من حكمه، نجده فى "منف"(="ممفيس" باليونانى) وفى شهر مايو/ بشنس من تلك السنة، على وجه الاحتمال يقود قواته عبر الحدود فى أول "حملة نصر" يقوم بها فى آسيا. ولابد أن السبب وراء هذا الاندفاع المفاجئ باتجاه الشمال تمثل فى ورود أنباء بأن أهالى "أمورو" تحت قيادة ملكهم "بينتشينا" Benteshina قد انشقوا على سلطان "موواتالليس" ويعرضون تحويل ولائهم إلى مصر. وإذا حسبنا الوقت اللازم لوصول الرسل وحشد الجيوش، فإن "أمورو" تكون قد أقدمت على هذه الخطوة فى شتاء سنة ١٣٠٢-١٣٠١ ق.م.(٢٨٢)

مضت أول تجريدة يقوم بها الفرعون "رعمسيس" الثانى فى آسيا بجيوشه صاعداً فى الساحل، وربما تكون قد توغلت حتى وصلت "أمورو" ذاتها، كى يتلقى فروض الطاعة والولاء من تابعه الجديد، ولكنه لم يقابل خلال ذلك التوغل أى قوات حيثية. واستطاع أن ينحت خلال زحف العودة، فى أكتوبر/بابة، صادوداً/لوحاً (وصل لحالة سيئة الآن) عند منابع نهر "الكلب" فى فينيقيا قبل العودة لمصر.(٢٨٣) ولكن حضور جيش مصرى إلى الحدود كان بمثابة منخاس (=مهماز) لـ "موواتالليس"، فأنفق الشتاء التالى فى حشد جيش جرار. فلقد انتهك المصريون بذلك الاتفاقية، ولاحت فى الأفق ضرورة تصفية الحساب بين الخصمين.

تقوم وثائق على المعركة التى تلت ذلك: "معركة قادش" أفضل من أى اشتباك عسكرى آخر قبل معركة "الماراثون" التى وقعت فى سنة ٤٩٠ق.م. (معركة دارت بين الأثينيين والفرس فى سهل "ماراثون" فى شمال شرقى "أتيكا" فى سنة ٤٩٠ ق.م. وقد ظفر فيها الأثينيون بالنصر، وبذلك صدوا أول محاولة فارسية لغزو بلاد اليونان) وتشتمل مصادرنا على ست روايات مختلفة من مجموعة المناظر التى تحملها الجداريات الضخمة المنقوشة على حوائط المعبد والصروح، وخمسة نماذج مما يسمى قصيدة المعركة، وثلاث نسخ من نص هيروغليفى وخطاب بالخط المسمارى بعثه

الفرعون "رعمسيس" الثانى إلى "هاتوسيليس" الثالث. ولسبب أو لآخر أراد الفرعون، أن يحوِّل، بشكل سافر، الأحداث لمصلحته[٢٨٤]، إلاّ أن الرواية الحيثية لما جرى لا تزال رهن البحث والتنقيب، ولا نملك حالياً سوى إشارات عابرة إليها فى وثائق لا تتصل بالأمر، إلاّ أن الصراحة التى أبداها الفرعون "رعمسيس" الثانى فى الخطاب المسمارى يلقى ضوءاً إيجابياً على السجلات المصرية.

عبر الفرعون "رعمسيس" الثانى فى مطلع الربيع على رأس قواته وشق طريقه على وجه السرعة صاعداً مع الساحل. حقًا لا يزال الدرب المحدد الذى سلكه محل جدل، إلاّ أن اقترابه النهائى من "قادش"(التى اعتزم الاستيلاء عليها) كان من الجنوب فى أسافل "العاصى". وفى نهاية شهر مايو/بشنس، أى بعد نحو شهر من مغادرته مصر، عسكر مع جيشه عند معبر ضحل على الضفة الشرقية، على بعد أربعة عشر كيلو متراً بالكاد جنوبى المدينة. وبينما كان الفرعون يتداول مع قادة الجيش، أحضر الحراس إليه اثنين من البدو بعد أن عثروا عليهما يتربصان بطريقة مريبة قرب المعسكر. وأثناء الاستجواب ادعيا أنهما هاربان من الحيثيين وأضافا أن القوات الحيثية لا تزال عند "حلب"، وأنهم عازفون عن التحرك جنوباً خوفًا من "رعمسيس". وهنا قرر "رعمسيس" الزحف بأسرع ما يستطيع على "قادش" حتى يحاصر المدينة قبل أن يصل "موواتالليس".

وبطبيعة الحال انطوى الأمر على خدعة ماكرة. كان "موواتالليس" قد "زرع" هذين البدويين وهما مزودان بمعلومات زائفة، فى الوقت الذى كان يعسكر مع جيشه على الضفة الشرقية لنهر "العاصى" خلف المدينة. وعندما عبر "رعمسيس" الثانى النهر وأسرع فى اتجاه الشمال كى ينصب خيمته على الضلع الشمالى الغربى لـ "قادش"، كان جيشه قد تأخر عنه بمسافة كبيرة إلاّ أنه كان يتبعه فى أربع فرق تسير الواحدة إثر الأخرى على امتداد خط الزحف، وفجأة وقع الجيش المصرى فى كمين شاركت فيه كل فرق العجلات الحربية الحيثية وكان أن سقط عدد كبير من إحدى الفرق المصرية، وفرت فلولها رأسًا نحو الموضع الذى كان الفرعون وقواته الخاصة لا يزالون ينصبون فيه معسكرهم. وبعد أن علم الفرعون "رعمسيس" الثانى بالكمين من أحد الرسل وبالتوزيع الحقيقى للقوات الحيثية من الجواسيس الذين وقعوا فى قبضة الحراس،

لم يجد "رعمسيس" الثانى الوقت الكافى كى يطلب عقد اجتماع لمجلس الحرب المصرى قبل أن تطوق معسكره العجلات الحربية للعدو الذى يجد فى أثره. وإذا كان "رعمسيس" مدانًا فيما مضى بالتراخى وعدم توخى الحذر، إلاّ أنه كشف فى هذه اللحظات عن نوع المعدن الذى قد منه الرجل. حشد الفرعون ما تصادف أن عثر عليه من عجلات حربية فى متناول يده، وأخذ يقود الهجوم إثر الهجوم فى قلب حشود العدو، قاذفًا البعض على شاطئ نهر "العاصى" والبعض الآخر فى مياه النهر ذاته، حتى تمكنت فرقة من فرق الجيش المصرى الذى كان لا يزال فى طريق الزحف، من الوصول كى تتحمل معه وطأة القتال.

عند هذه النقطة كان "موواتاليس" قد ترك نصرًا مؤكدًا يفلت من قبضته. فلقد كان لا يزال يملك تحت إمرته ما يزيد على عشرة آلاف رجل من المشاة يربضون على الضفة الأخرى للنهر، رهن الإشارة كى يتقدموا. ولو كانت هذه القوات قد ألقت بثقلها فى المعركة قبل أن تتمكن الفرق المصرية التى تعانى التمزق من إعادة تجميع صفوفها وتصل إلى معسكر "رعمسيس"، لكان الحيثيون قد تفوقوا بكل تأكيد على المصريين ولكانوا قد قبضوا على الفرعون وقتلوه. ومع ذلك تردد "موواتاليس". هل هو عدم الحزم؟ هل هو النقص فى ملكة الفهم والاستنتاج؟ هل هو فقدان رباطة الجأش؟ أم أنه كان يظن أن عجلاته الحربية التى يبلغ قوامها ألفين وخمسمائة عجلة تقدر وحدها على القضاء على المصريين دون عون المشاة؟ أيًا كان السبب، فلقد حبس مشاته عن المعركة. ومع حلول الغسق كان المصريون المطوقون، يتماسكون، بعد أن انضمت إليهم الفرق التى تخلفت عنهم فى شعاب الطريق، ومع حلول الظلام انسحبت عجلات الحيثيين الحربية تاركة الميدان للمصريين.

هل استأنف الجانبان الأعمال الحربية فى اليوم التالى أم أنهما توصلا إلى هدنة بينهما؟ هذه نقطة لا تزال محل جدل.، ولكن المعركة كانت قد انتهت بكل مقاصدها ومراميها، وغدت آثارها أعمق من أن تُمحى. وفى المدى القصير اضطر "رعمسيس" إلى الانسحاب والتسليم بخسران "قادش" و "أمورو" التى اقتيد ملكها "بنتشينا" مأسورًا إلى "خاتى". وضرب الذهول رؤساء المدن الكنعانية لما حسبوه ضعفًا فطريًا فى قوات الفرعون: الذكاء المحدود والميل نحو فقدان رباطة الجأش. وأصبحت الثورة

ممكنة ومصر لم تعد مستعصية على الهزيمة. أما على المدى الطويل، فلقد تركت المعركة مع ذلك تأثيرًا أكبر على البلدين المتصارعين نفسيهما. كسبت مصر احترامًا موفورًا لصفاتها القتالية مقابل مكر خصومها، بينما لم تستطع "خاتى" إلاّ أن تكبر شجاعة المصريين وعزيمتهم وهمة "رعمسيس" الثانى نفسه. ولابد أن الحقيقة التى تقول بعدم جدوى أى محاولة ترمى إلى تحريك الحدود عن خطها الراهن، سواء جنوبًا أو شمالاً، أخذت تشرق شيئًا فشيئًا على وعى المصريين والحيثيين معًا، رغم القتال الذى امتد بين الجانبين لخمس عشرة سنة أخرى.

شقت "كنعان" بأسرها عصا الطاعة عقب انسحاب المصريين واشتعلت فيها هبة صريحة. ولأول مرة منذ ما يزيد على مائتىْ سنة لم يعد فى مقدور مصر على وجه التقريب أن تقول إن هناك أراضٍ تابعة لها وراء سيناء. وحتى الحدود ذاتها أصبحت مهددة. وهم المصريون فى ذلك الوقت ببناء "مقر جديد ومهيب": "بير – رعمسيس" (= بيت رعمسيس) فى شمال شرق الدلتا، بكل ما يستطيعون من سرعة، "كى يعززوا حدود مصر".[٢٨٥] وكانت تلك هى أحلك اللحظات التى مرت بـ "رعمسيس": عجزت الإنجازات المجيدة التى وعدت بها البداية الميمونة لحكمه عن رؤية النور. فلقد تفوق الحيثيون على المصريين، ونجا الفرعون بأعجوبة من الأسر أو الموت، وضاعت معظم ممتلكات مصر فى آسيا.

ولكن إذا تعين علينا أن نلقى بالمسئولية على "رعمسيس" نفسه فى الحالة الراهنة للأمور، فلا بد ألا نهمل الاعتراف أيضًا بفضله باستعادة ما فقده. فلقد عاد بإصرار إلى معمعان القتال بعد ذلك بثلاث سنوات وأبدى عزيمة وجلدًا عظيمين فى جهوده فى سبيل استعادة فلسطين. وفى السنة الثامنة من حكمه شنت مصر هجومًا شاملاً ضد المتمردين فى فلسطين، سقطت فيه المدن الفلسطينية، مدينة بعد أخرى مما تحمل أسماء "توراتية" معروفة وعلى وجه التحديد فى "الجليل" أمام الهجوم المصرى: "مجدل"، و "عين نوعام"، و "بيت – عنات"، و "قانا" و "ميروم" و "شاليم".[٢٨٦] وخلال نفس المدة على وجه التقريب – لا تسمح لنا جداريات الحرب "ما– بعد – قادش" ذات الأبعاد المقولبة بإجراء تحليل لكل حملة على حدة[٢٨٧] – ، دخل الساحل الفلسطينى طلبًا لحصته من حمام الدم. قُهرت كل من "أكشو Accho و "أبيك" Aphek وقد نزل الدمار على ما يبدو، بالأولى.[٢٨٨]

وبحلول سنته العاشرة فى الحكم كان "رعمسيس" يدفع بقواته مرة أخرى إلى "فينيقيا". ويشير صادود/لوح نصبه المصريون فى تلك السنة عند نهر "الكلب"[٢٨٩] إلى أن الساحل الفينيقى الجنوبى جرى تأمينه بسهولة نسبية، ولكن "أرقاطة" الواقعة إلى الشمال أكثر قاومت وخضعت بالتالى للحصار.[٢٩٠]

لا نعرف إلاّ أقل القليل عن مسيرة الحرب من هذه النقطة حتى وضع حد لها بمعاهدة بين الطرفين بعد ذلك بإحدى عشرة سنة. غير أن الجداريات المنقوشة على الحائط الغربى للفناء الأمامى بمعبد الأقصر تعود إلى ذلك العقد الذى شهد تلك المعارك بينهما وتشير إلى أن جبهة القتال تحركت وقت ذاك إلى داخل "أمورو" ذاتها.[٢٩١] أما "ساتونا" Satuna و "موتارا" Mutara وأعماق البلاد من "باترون" Batrun فقد سقطت فى أيدى المصريين الذين زحفوا عبر وادى نهر "الكبير" كى يهاجموا "دابور" Dapur ، وهى مدينة صغيرة تابعة للحيثيين فى زمام أراضى "تونيب" فى بلاد "نهارين"[٢٩٢] (لوحة رقم ١٨) وفى وقت لاحق جاء الهجوم الذى استهدف "المدينة التى استولى عليها جلالته فى زمام "قود" Qode فى بلاد "نهارين"، ذلك الهجوم الذى تصوره جدارية على الحائط الغربى فى معبد الأقصر، حيث يظهر تسعة أمراء.[٢٩٣] وإذا كانت "كيزو – وادنا" أى "قود" قد أصبحت وقت ذاك فى متناول يدىْ الفرعون "رعمسيس"، فهل يحق لنا أن نستنتج أن المقاومة الحيثية قد انهارت؟

المعاهدة بين مصر و «خاتى»:

عانى الحيثيون فى خضم النصر الذى حققوه، فى واقع الأمر، من نكسة مفاجئة على الجبهة المحلية. ففى غضون سنتين من الظفر الذى جناه "موواتالليس" فى "قادش" طرق بابه ملاك الموت، بصورة فجائية، وتبع ذلك صراع مستتر على العرش بين ابنه وشقيقه. وكان "يورى – تيشوب" الابن الأصغر لـ "موواتالليس" قد تربع فى حينه على عرش أبيه، ولكن الاستياء كان واضحًا لا تخطئه عين. وكان تعيين والده لعمه "هاتوسيليس" فى منصب "حاكم" فى "الأراضى العليا" لهضبة الأناضول،[٢٩٤] قد أسفر عن نتائج حسنة، بصورة غير متوقعة. فلقد نجح فى إخماد القبائل المتمردة

فى المنطقة وعكف على وضع برنامج إعادة استقرار لكل تلك الأراضى الشمالية موضع التنفيذ. وعند موت "مورواتالليس" قبل "هاتوسيليس" على مضض تعيين ابن أخيه كملك للبلاد، لكنه رفض الاستقالة من منصبه، ووجد "يورى - تيشوب" نفسه مضطراً إلى القبول بعمه كشريكٍ من نوعٍ ما فى الحكم.

بعد سبع سنوات على وصول "يورى - تيشوب" إلى العرش، وخلالها، كانت الضغينة قد تفاقمت بينه وبين عمه، دبر "هاتوسيليس" انقلاباً (تفاصيله لا تزال طى الغموض) وألقى بابن أخيه فى غياهب السجن. ومع ذلك لم يقتله، بل نفاه إلى "نوخاششى" فى سوريا.[٢٩٥] وعند نقطة ما هرب "يورى - تيشوب" مع حفنة من الأتباع إلى "بى - رعمسيس" فى مصر، تاركاً كل مكان آخر. وأكرم الفرعون "رعمسيس" وفادته،[٢٩٦] إلاّ أن الشاب الصغير السن أخذ يحث "رعمسيس" على مواصلة الحرب ضد عمه، وهو الأمر الذى قد يتشابه إلى حد كبير مع ما فعله "هانى - بعل" بعد ذلك بألف سنة عندما حث "أنتيوخوس" Antiochus على شن الحرب ضد روما من أقصى أطراف الأرض. ولم تلن لـ "يورى - تيشوب" إرادة فى طلب الثأر من عمه: إذ نجده حتى بعد مرور خمس عشرة سنة لا يزال يحاول إثارة القلاقل عن طريق تحريض "شالمانصر" Shalmaneser الأول ملك "آشور" ضد "خاتى".[٢٩٧]

إلاّ أن "هاتوسيليس" الثالث واجه أخطاراً أكثر جدية من تلك التى شكلها ابن أخ موتور. وصحيح أن "هاتوسيليس" كان إدارياً يتمتع بالكفاءة ودعائياً ممتازاً،[٢٩٨] غير أنه لم يكن عسكرياً من ذلك النوع الذى كانه والده أو أخوه. فلقد تولى أمر مملكة تحاصرها مصر التى تفعمها روح النضال، وتشن قواتها بصفة سنوية حملات تقترب أكثر فأكثر من الوطن الأم. ولم تكن حظوظ الحيثيين هذه المرة واعدة، وذلك بفضل تشكيل جديد دخل على القوى الدولية. فبهروب "توشراتا" واغتياله فى وقت لاحق، انهارت الإمبراطورية الميتانية. وسرعان ما تقدمت دولتان وريثتان كى تملأ الفراغ الذى نجم، بالتالى، فى أواسط بلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا)، إحدى هاتين الدولتين عبارة عن شريحة ميتانية تحتل الأراضى الواقعة بين نهرى "بلخ" و"الفرات" تحت حماية الحيثيين، والأخرى وهى "خانيجاليات"، وهى أكبر كثيراً من الأولى ويحكمها أحد فروع عائلة "سوساتار" Saussatar.[٢٩٩]

إلاَّ أن "خانيجالبات" أثبتت أنها تتمتع ببأس ملحوظ، وسرعان ما توسعت حتى بلعت "ميتانى"، التى اختفت كدولة، وفى مطلع حكم "موسيليس" الثانى أصبحت كلٌ من "خانيجالبات" و "آشور" تهدد شواطئ الفرات.(٣٠٠) وتدهورت الأمور إلى الأسوأ عندما عانت "خانيجالبات"، مع انحناءة القرن هزيمتين فى ميدان المعركة على أيدى "آشور" التى كانت آخذة بالتوسع، بل وكانت قادرة على مواجهة "خاتى" فى شمال سوريا.(٣٠١) ولما كانت الحرب مع مصر مستعرة الأوار دون هوادة، واجه "هاتوسيليس" الثالث مخاطر عزل نفسه. وفى إطار محاولة، بالتالى، لتحييد التهديد الذى تشكله "آشور"، سعى "هاتوسيليس" بل وأبرم تحالفًا مع ملك "بابل". ويتذكر "هاتوسيليس" أنه قال: "سوف نعادى، يقينًا، عدواً مشتركًا يقف منا نحن الاثنين موقف العداء. ولسوف نمد يقينًا، يد الصداقة نحو الأصدقاء المشتركين. وبعد أن تخاصمنا، فرعون مصر وأنا، كل مع الآخر، كتبت إلى (ملك بابل) أقول إن فرعون مصر فى حالة حرب معى وبناء على ذلك كتب (هو) يقول" إذا أرسل فرعون مصر قواته، فلسوف أنضم عندئذٍ إليك... ولسوف تجدنى فى وسط الجنود والعجلات الحربية" ولكن تصعب الإجابة على السؤال الذى يدور حول ما إذا كان هذا الحلف الذى يقوم على تقديم العون المتبادل قد وُضع أصلاً موضع التنفيذ. فالهجوم الذى كان الفرعون "رعمسيس" الثانى يشنه جعل، على وجه الاحتمال، من أى عون تقدمه بابل غير مؤثر. فنحن لا نسمع عن أى قوات بابلية ويبدو أن بابل لم ترسل أى قوات إلى ميدان القتال.

ولما كان "هاتوسيليس" حاكمًا بارعًا و"واقعيًا" كما تدل الروايات كافة، فلا بد أنه أدرك الحقيقة التى تقول إن المفاوضات هى كل ما تبقى أمامه من بدائل. وكانت "آشور" قد تولت الدور الذى كانت تتولاه فى الماضى الدول الحورية، وهو دور الخصم الشرقى لـ "خاتى"، ولم تبدِ أى إشارات على استعدادها للوفاق. أما الفرعون "رعمسيس" الثانى، من جانب آخر، فكان قد ابتعد أكثر عن مجال الأعمال الحربية، وفضلاً عن ذلك لم يكن مثقلاً بتراث من العداوة العرقية ضد "خاتى". وفى مطلع شهر ديسمبر/كياك سنة ١٢٨٤ق.م.أى فى السنة الحادية والعشرين من جلوس "رعمسيس" الثانى منفرداً فى العرش، وصل رسول حيثى، وهو شخصية بارزة يدعى "تلى – تيشوب" Tili-teshup إلى "بى – رعمسيس" حاملاً عدة خطابات من ملك الحيثيين،(٣٠٢) يقترح فيها عقد

معاهدة سلام. وعندئذ استبدت الدهشة المشوبة بالرضا بالفرعون "رعمسيس" وبرهن على رغبته، هو الآخر فى التفاوض. وفرض التهديد الذى ينبثق من وادى دجلة - الفرات نوعًا من الاستعجال على عملية التفاوض من وجهة نظر الحيثيين، ولكن المصريين لم يكن عندهم، كما بدا واضحًا، مانع، وأبرمت المعاهدة بين الطرفين على وجه السرعة.

أقامت المعاهدة التى انتهيا إليها "أخوة" تقليدية بين الملكين، وحددت أنواع المساعدة المتبادلة التى اتفق الطرفان عليها. ولقد صيغت مسودة المعاهدة، على وجه الاحتمال، باللغة الحيثية، ثم كتبت باللغة الأكدية، وهذه النسخة أصبحت الوثيقة القانونية التى أمهرها الطرفان بخاتميهما. وقد أودعت نسخة تحمل خاتم "رعمسيس" فى "خاتى" أمام الإلهة - الشمس، وأرسلت نسخة أخرى تحمل خاتم "هاتوسيليس" إلى مصر كى تحفظ أمام "رع" فى "أون" (= هليوبولس). هاتان النسختان، وكانتا مدونتين على لوحين من الفضة الخالصة، لم ينجوا من عوادى الظروف، ولم تصل إلى أيدينا أى منهما، ولكن نسخًا أخرى عديدة مكتوبة بالخط المسمارى على ألواح الطين المحروق عُثر عليها فى "خاتوساس" عاصمة الحيثيين، وأرسلت صيغة منها بالقلم الهيروغليفى (نجت من عوادى الظروف نسخة الكرنك) إلى كافة أرجاء مصر.(٢٠٣)

انصب الاهتمام الأكبر للمعاهدة على إقرار السلام. وجرى اختصار الديباجة التاريخية إلى حدها الأدنى، كما لم تشر الى الحدود بين الجانبين. وأكد الجانبان الموقعان عليها مرارًا وتكرارًا أنهما ينبذان العداء وأنهما لن يلجأ مرة أخرى إلى القتال. وإذا تعرض أى منهما للهجوم من جانب طرف ثالث - وهذا البند يخدم بدرجة واضحة "خاتى" - فإن الطرف الآخر سوف يرسل قوات لمساعدته، رغم أن أيًا من الملكين ليس ملزمًا بالحضور شخصيًا. وإذا توفى "هاتوسيليس" ونشأت مشكلة حول وراثة العرش، فإن "رعمسيس" يتكرم بالعمل على ضمان وراثة ابنه للعرش. (ولكن المعاهدة لم تتضمن بندًا موازيًا لصالح المصريين: لم يكن لـ "رعمسيس" أن يسمح للأجانب أن يتدخلوا فى "عرش حورس") وتتناول فقرات طويلة مسألة التسليم المتبادل للهاربين مع ضمان معاملتهم معاملة إنسانية. ولما كان "يورى - تيشوب" لا يزال

مقيمًا فى بلاط "رعمسيس"، فيبدو أن هذه البنود وضعت وهو فى خلفية ذهن واضعيها، ولكن "هاتوسيليس" رضى بألا يلح على "رعمسيس" فى هذه الحالة الخاصة، وسمح لابن أخيه أن يبقى فى مصر. ولم يفعل سوى أن طلب من "رعمسيس" أن يدفع هو، أى "هاتوسيليس" رواتب قوات "يورى - تيشوب" وسائر نفقاته الأخرى.(٣٠٤)

وضعت الحرب أوزارها. وانتهى قرنان من القتال خاضته مصر فى سبيل إمبراطورية شمالية. ولكن هل كان "رعمسيس" مدركًا لفداحة الثمن؟ فعندما رسمت الحدود مرة أخرى، ذهبت كافة المكاسب التى حققها الملوك الرعامسة أدراج الرياح. ظلت "أوجاريت" وجارتها الساحلية الجنوبية "سيانو" Siyannu(٣٠٥) تابعة للحيثيين، و"أمورو" عادت إلى الحظيرة الحيثية، وأعيد تنصيب ملكها "بينتشينا"، ومنحه الحيثيون حق السيطرة على "أرفاد".(٣٠٦) أما "قادش" فعادت إلى التبعية الحيثية مرة أخرى، بروابط وطيدة مع أوجاريت".(٣٠٧) ومثلما كان عليه الحال خلال فترة "أخيتاتون" (= العمارنة)، ظلت مقاطعة "إيمكى" تابعة لمصر، مثلها فى ذلك مثل مقاطعة "أوب" إلى الجنوب منها وأعيدت تسمية المقر المصرى فى "كوميدى" Kumidi فأصبح: "رعمسيسبورج" (= مدينة "رعمسيس")، وهى المدينة التى تقع فى قلب "أوب"(٣٠٨) أى أن شيئًا لم يتغيّر.

ولكن خيَّم الآن، على الأقل سلام ينعم فى ظلاله الجانبان، واستبشر كلاهما بمستقبل العلاقات الودية والحدود المفتوحة. والتصريح الذى أوردته ملكة مصر: "نفرتارى" فى خطاب أرسلته إلى نظيرتها "بيتوهيبا"، ملكة "خاتى" يحمل بأسلوب رشيق بشائر الأمل وأبعاد النشوة التى استشعرها الجانبان:

"لسوف يعزز "رع" و"إله الطقس" (إله الحيثيين) هذه المعاهدة ولسوف يجعله "رع" سلامًا مفعمًا بالرخاء، ولسوف يجعلها "رع" أخوة رائعة بين الملك العظيم ملك مصر والملك العظيم ملك "خاتى"، شقيقه لأبد الآبدين!" وكان هذان الإلهان عند حسن ظن جلالة ملكة مصر: فعلى امتداد عمر الإمبراطورية الحيثية، لم تتعرض المعاهدة، بالمرة لأى انتهاك، وامتدت ثمانون سنة من الرخاء على الجانبين أمام أعظم إمبراطوريتين عرفهما العالم القديم.

الهوامش

(١) حول عائلة الأسرة السابعة عشرة انظر:

R.Tanner,ZÄS 102 (1975),50ff., C.Blankenberg van Delden,GM 54 (1982), 31ff.; C. Vandersleyan, GM 63 (1983) 63 (1983), 67 ff. E.F. Wente,in K.Weeks and J.Harris, eds., An X-Ray Atlas of thr Royal Mummies (Chicago,1980), 122 ff.

(٢) D.B. Redford, Orientalia 39 (1970),35-39,

والمحاولات التي تسعى إلى إضفاء حصافة على الحكاية أكثر مما تستحق محاولات ساذجة في رأيي: و للاطلاع على أحدث المعالجات و الأدب المتعلق بالموضوع انظر:

H. Goedicke,The Quarrel of Apophis and Seqenenre (San Antonio,Tex.,1986).

(٣) M. Bietak and E. Strouhal, Ann Natur Hist Museum, Viennna 78 (1974), 29-52.

(٤) حول المشاكل التي تتصل بنسب "أحموسي"، انظر: Wente,in X-ray Atlas.

(٥) نما كم هائل من الأدب حول هذين الصادودين/اللوحين، انظر على وجه الخصوص:

A.H. Gardiner and B.Gunn, JEA 5 (19180, 36-56; L.Habachi, ASAE 53 (1956),195),195-202; idem.,The Second Stela of Kamose and His Struggle against the Hyksos Ruler and His Capital (Glückstadt,1972);P.Montet,CRAIBL (1956),112-20;P.Lacau, ASAE 39(1939), 245-71;H.S. Smith and A.Smith,ZÄS 103(1976), 48 ff.; J.A.Wilson, in ANET2

(٦) حول الصلات العائلية، انظر: Wente,X-Ray Atlas;

ولقد حظي حكم "أحموسي" بتحليل شامل في:

C. Vandersleyan,Les guerres d'Amosis (Brussels,1971).

(٧) حول "الكاب" بصفة عامة، انظر:

P. Derchain, Elkab (Brussels,1971). on Baba,see H. Brugsch,Thesaurus Inscriptionum (Leibzig,1883-1891),1527-28·the texts of the two Ahmoses are given in Urk IV, 1-11, 32-32-39,s ee further,C. Vandersleyan, CdE 45(1970), 68-69;H. Goedicke,J ARCE 11 (1974),31ff.

(٨) Vandersleyan, Les guerres, 34-35; W. Helck, Historische-biographische Texte der 2. Zwischenzeit (weisbaden, 1975), 78; idem, GM 19 (1976), 33-34 f.

(٩) تشكل أيام ميلاد الآلهة الخمسة: "أوزيريس" و "حورس" و "إيزيس" و "ست" و "نفتيس" أيام النسيء الخمسة فى نهاية السنة المصرية المعروفة بالقبطية.

(١٠) لا يجوز أن ينخدع أحد بمجيء بردية "رند" الرياضية من "طيبة". فنسق التأريخ الذى استخدمه كاتبها هو حكم ملك هكسوسى بكل وضوح، انظر:

Helck, Historische-biographische Texte, s.v.

فالأسماء الواردة فى رقم ٩ و الإشارة إلى "أحموسى" كـ "ذلك الأمير الجنوبى" كلها تتفق على أنها تعود إلى الشمال، و ليس الجنوب، كنقطة الانبثاق.

(١١) انظر: M. Bietak, Avaris and Pi-Ramesses (London,1979),268.

هناك مواقع أخرى مثل "تل اليهودية" و "تل المسخوطة" تعرضت للهجران على وجه الترجيح فى وقت قريب من هذا التاريخ.، انظر:

Cf. the domestics Ahmose si-Abina acquired: Urk IV, 10.

(١٢) قارن الخدم الذين حصل عليهم "أحموسى – أبينا" كهدايا: من بين أسماء الخدم التسعة عشرة، قد تكون سبعة أو ثمانية و حسب، أسيوية. و لكن لما كان "أحموسى" قد خدم فى وقت لاحق من حياته فى الحملات الآسيوية التى قام بها الفرعون "تحوت – موسى" الأول، فإن هذه الهدايا ربما تكون مكافآت لاحقة.

(١٣) تظل العلاقة الدقيقة بين "شاروهين" و البيت الملكى للهكسوس طى الغموض. و لو أن الموقع نفسه: ("تل العجول" على بعد سبعة كيلو مترات جنوبى "غزة" على الساحل) يحتل رقعة مثالية عند مصب "وادى غزة" حيث يمكن اعتراض التجارة و المواصلات على امتداد "الطريق البحري": Via Maris وعبر "النقب"، و لم يكن غريبا أنها كانت، خلال فترة الهكسوس، إحدى أغنى المدن المحلية فى فلسطين، انظر:

W.M.F. Petrie, Ancient Gaza 1-4 {London,1931-1952}; A.Kempinski, IEJ 24 (1974}, 145-52; O.Tufnell,in M. Avi-Yonah,ed., Encyclopedia of Archaelogical Excavations in the Holy Land {Jerusalem,1975}, 1:52-61;J.Weinstein, BASOR 217 (1975), 4;D.Collon, inJ.N. Tubb,ed.,Palestine in the Bronze and Iron Ages{London, 1985} , 57-68).

وكانت تتحكم، بوضوح، فى غرب "النقب" و السهل الساحلى الجنوبى، ولكن ما إذا كانت فى ذلك الوقت إحدى الملحقات التابعة للأسرة الخامسة عشرة فأمر لا يزال طى الغموض، انظر:

D.B. Redford JAOS 99 (1979),283, n.69.

(١٤) انظر:

R.S. Merrilees, Antiquity 36(1962), 286-94; Trade and Transcendence in the Bronze Age Levant (Gäteborg,1974); L. M. Artzy, The Origin of Palestinian Bichrome Ware (Ann Arbor,1972).

(١٥) R. S. Merrilees, Levant 3 (1971), 56 ff.; E. Vermeule, AJA 80 (1976), 178.

(١٦) I. J. Gelb, JCS 15 (1961), 36-37.

(١٧) H. Lewy, in Isidore Levy Festschrift, 246 ff.

(١٨) G. Roux, Ancient Iraq (Harmondsworth, 1986),218-19.

(١٩) انظر:

O.R. Gurney, The Hittites (Harmondsworth,1962); idem,CAH3 II,pt.1 (228 ff., 1973), 659;H. Klengel, Kio 69 (1987), 308-16.

(٢٠) Gurney, Hittites, 241-43; M.-H. Caare Gates, Alalakh Levels VI and V: A Chronological Reassessment (Malibu, Calif., 1981).

(٢١) انظر:

H. Klengel, Geschichte Syriens im 2.Jahrausend v.u.Z.(Berlin,1965),1:177-78, 183ff.; Idem,MIOF 10 (1964),213 ff.; N.Na'aman, JCS 32 (1980),34 ff.

(٢٢) Gurney, CAH^3 II, pt. 1 (1973), 249-51.

(٢٣) بصفة عامة انظر:

E.A. Speiser, JWH 1 (1953), 311-27; H.G. Güterbock, JWH 2 (1954), 383ff.also RHA 36 (1978); G.Wilhelm, The Hurrians (Warminster,1990)

(٢٤) B. Hrouda, Archeologia Geographica 7 (1958),14-19; P. Zamonsky, Context (Boston University Center for Archaeological studies), 6, nos. 1-2 (Fall 1987), 4-8; H.Otten, Fischer Weltgeschichte 3 (1966), 135-36.

(٢٥) M. Astour, RHA 36 (1978), 8 and nn. 74-75.

(٢٦) E. A. Speiser, JAOS 72 (1952), 99-100; Roux, Ancient Iraq, 211; P. Michalowski, ZA 76 (1986), 4-12.

(٢٧) I. J. Gelb, Hurrians and Subarians (Chicago, 1944); J. R. Kupper, Les nomades en Mesopotamie au temts des rois de Mari (Paris, 1957), 230ff.; E. A. Speiser, JAOS 74 (1954), 19; I. J. Gelb, JCS 15 (1961), 39, and 40, n. 43.

(٢٨) Gelb, Hurreans and Subarians, 63.

(٢٩) M. Mayerhofer, Die Indo-Aryer im alten Vorderasien (Wiesbaden, 1966); A. Kammenhuber, Die Arier im Vorderen Orient (Heidelberg, 1968); idem, RHA 36 (1978), 84-90.

(٣٠) R. M. Smith, Dates and Dynasties in Earliest India (Delhi, 1973), 38.243.

(٣١) Mayrhofer, Die Indo-Aryer, 28.

(٣٢) On cremation Ibid., 26; حول "حرق الجثمان" See now M. Van Loon,Persica 10 (1982),47-64.

(٣٣) انظر ملخصات وافية وضعها:

Astour in RHA 36 (1978),1-22; idem, in G.D.Young, ed., Ugarit in Retrspect (Winona Lake, Ind.,1981) 8-10;G.Wilhelm,SMEA 24 (1984),286-87.

(٢٤) E. F. Weidner, AfO 5 (1928-1929), 95, n. 1; A. Goetze, JCS 7 (1953), 59, n. 47; A. Harrak, Assyria and Hanigalbat (Hildescheim, 1987), 103-4; Ta'ida was not the capital of Mitanni,the latter being formally distict from Khalingalbat:

لم تكن "تائدة" عاصمة "ميتانى" فهذه كانت متميزة، بصفة جوهرية، عن "خانيجالبات" ، مع كل الاحترام لـ : W.Mayer,UF 18 (1986), 231-36).

(٢٥) H. Otten, MODG 91 (1958), verse 11; 79, n. 16; Gurney, CAH* II, pt. 1 (1973), 242 ff.; E. von Schuler, in M. Liverani, ed., La Siria nel tardo branzo (Rome, 1969), 102-3; H. Klengel, RHA 36 (1987), 101.

(٢٦) Astour, RHA 36 (1978), 9.

(٢٧) Gates, Alalakh, 11, n. 51; 27.

(٢٨) Astour, RHA 36 (1978),11 and nn. 91-92; M. Liverani, RHA 36 (1987), 148-56.

(٢٩) G. R. Meyer, MIOF 1 (1953), 108-9; B. Landsberger, JCS 8 (1954), 50; Mayrhofer, Die Indo-Aryer, 29; W. LdÄ 3 (1980), 443-44.

(٤٠) انظرالقائمة فى: Mayrhofer, Die Indo-Aryer, 29-30;

فى سبيل الاطلاع على تأثير الحوريين على المجمع الإلهى فى "قطنة"(= قطنوم) انظر: J. Bottero, RA 43 (1949), 34-35.

(٤١) A. Glock, BASOR 204 (1971), 30.

(٤٢) Cf. Urk IV, 743:8 (total of Asiatics given to Amun by Thutmose III); P. Berlin 10621 rs. 9 (workers on a tomb at Thebes); Helck, LdÄ 3 (1980), 87.

(٤٣) Urk IV, 1069:7;

انظر الآن:

A.J. Spalinger, in F.Junge, ed., Studien zu Sprache und Religion Ägyptens (Göttingen, 1984), 638-39.

(٤٤) قد نستطيع، استنادًا إليها، أن نعيد بناء قائمة ملكية هيكلية، قارن:

Bottero RA 43 (1949),1-40

(٤٥) حول "تل بيت ميرسيم" و "مجدو" و "تل العجول" و "تل فرح" (الى الجنوب) و "بيت شان" انظر:

G.H. Wright, The Bible and the Ancient Near East (New York,1965), 112; Jericho:K.A. Kenyon, Digging Up Jericho (New York, 1957); 229 Hazor: Y.Yadin, Hazor (London,1970), 31-32 and passim;Tell Kadesh (Galilee):M.Avi-Yonah, in Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land (Jerusalem, 1976), 2:406, Gezer: W.G.Dever,Gezer (Jerusalem,1974), 2:36 (and E. Stern, IEJ 37 (1987),:(مهجور؟) Cf.J.A.Sauer, BASOR 233 (1979),71; Tell Dor A. Kempinski, IEJ 37 (1987),177;Timnah:G.L.Kelm and (مهجور؟) 205; Tell Kabri A.Mazar,IEJ 36 (1986),108;Shechem:W.G. Dever, BASOR 216 (1974), 37,41,48; Achzib : M.W.Prausitz, IEJ 25 (1975), 207; Tanaach: P.W. Lapp, BASOR 173 (1964),8-20;Tell Dan:Avi-Yonah, in Encyclopedia,1:316.

كانت الضفة الغربية مخلخلة السكان فى حقبة رقم MB IIB ، ولكن حتى تلك المواقع القليلة تنتهى فى معظمها عند خواتيم الحقبة رقم IIC :

S. Mittmann, Beiträge zur Siedlungs und Territorialgeschichte der nördlichen Ostjordanlands (Wiesbaden,1970),256 ff.

ليس واضحًا إلى أى مدى امتدت مستويات التدمير شمالا فى أعماق سوريا عند نهاية الحقبة رقمMB IIC، وذلك نظرا لعدم وجود عمليات تنقيب أثرية هناك، بالإضافة إلى الأساليب المتدنية للحفر، بصفة عامة، تلك التى استخدمتها تلك البعثات القليلة التى عملت هناك.، انظر:

(Dever, in J.W. Hayes and J.M. Miller,eds., Israelite and Judaean History (Philadelphia, 1977), 90)

ولكن أبحاث المسح تشير إلى أن حدود التدمير الذى عرفته الحقبة رقم MB IIC قد تقع جنوبى "البقاع" نظرا لأن عدد المستوطنات التى توصلت إليها هذه الأبحاث، فى تلك المنطقة، تكشف عن تدهور مطرد لما يصل إلى أربعين بالمائة فيما بين حقبتى EB III و LB I ، وهذا التدهور لم يكن متأثرا بالدمار الذى وقع فى أعماق الجنوب، بل و كان مستقلا عنه، انظر:

Marfoe, BASOR 234 (1979), 12.

(٤٦) Cf.the list of some proponents in BiblOr (=Bibliotica Orientalis) 30(1973), 224;

من المحزن أن هناك من لا يزال يردد هذا الهراء، كالببغاء، قارن:

L.E. Toombs ADAJ 17 (1972),105; Gates, Alalakh,19-21; Dever ,BASOR 216 (1974), 48; J.D. Seger, Eretz Israel 12 (1975),45*; Idem, in Hayes and Miller, Israelite and Judaean History, 89, Sauer, BASOR 233 (1979), 71.

(٤٧) انظر ص ١٥٧ (من النص الأصلى).

(٤٨) طرح المؤلف هذه المسألة مرات متعددة، انظر:

BiblOr 30 (1973), 224;JAOS 99 (1979), 273; Studies in the History and Archaeology of Jordan (Amman,1982),1:117;

انظر أيضا الملاحظات الحاذقة التى أوردها: W.H. Shea, IEJ 29 (1979),1-5.

(٤٩) The lively debate between J.K. Hoffmeier and W.G. Dever over the MB IIC destruction levels,initiated by the former's article in Levant 21 (1989),has the salutary effect of reopening the question of date and rendering it increasingly likely that the reign of Thutmose III is the time span invlved, It must maintained. however, that the destructions could never been effected in the heat of battle but must have been in the nature of intentional demolition demanded of the conquered by the king himself.

نجح الجدل الحار الذى دار بين "جى.كى.هوفمبير" و بين "دبليو. جى. ديفر"، وهو الجدل الذى كان "هوفمبير" قد بدأه بمقاله فى دورية: Levont (= المشرق) ٢١ (١٩٨٩) فى إعادة فتح مسألة تاريخ التدمير، وهو الجدل الذى جعل من المحتمل، بصورة متزايدة، أن يكون حكم الفرعون "تحوت - موسى" الفرعون هو العصر المقصود هنا. و مع ذلك يلزم أن نتمسك بأن عمليات التدمير هذه يستحيل أن تكون قد جرت فى وطيس المعارك، ولابد أنها كانت من نوع التهديم العمدى الذى يطلبه الفرعون نفسه من مغلوبيه.

(٥٠) انظر:

H. Klengel,RHA 36 (1978), 91-115; D.B. Redford LdÄ 3 (1980),149-51; van loon, Persica 10 (1982),47-64;G.Wilhelm,SMEA 24 (1984),286-87.

استعمل المصريون هم أيضا المصطلح الجغرافى الغامض "نهارين"، الذى يعنى "بلاد النهر" للدلالة على "ميتانى"، انظر: M. Astour,JNES 31 (1972) ,103,

بينما فضل السوريون والحيثيون استعمال اسم "خانيجالبات" للدلالة على نفس المسمى، انظر:

H. Klengel, MIOF 10(1964), 216; H. Otten, Fischer Weltgeschichte 3 (1966),129.

(٥١) يتحدث "أستور" Astour عن "غزو قصير الأمد قام به الميتانيون لجزء كبير من فلسطين قرب سنة ١٥٠٠ ق.م."، انظر: (RHA 36 (1978), 1)

ولكنه لا يعطى أدلة تعضد حديثه. وفى وقت لاحق (فى نفس المرجع السابق، ١٢) يلمح إلى "المكانة الهائلة" التى منحها تأسيس دولة "ميتانى" للغة الحوريين وديانتهم وأسماء الأعلام عندهم. وحول حكام "قادش" الذى يحملون أسماء ميتانية، انظر:

Epstein, JNES 22 (1963), 245-46; Mayrhofer, Die Indo-Aryer, 30.

(٥٢) انظر بصفة عامة:

D.B. Redford,in Junge, Studien zu Sprache und Religion Ägyptens,327-41; idem, Pharaonic King-lists, Annals and Day-books (Toronto,1986), 65-96.

(٥٣) Redford, King-lists, 97-126.

(٥٤) انظر بصفة عامة : E. Edel, LdÄ 3 (1980), 482-85.

(٥٥) حول رسائل "أخيتاتون" (= العمارنة)، انظر الآن:

W.L. Moran, Les lettres d'El-Amarna (Paris,1987).

ولم تتوفر تحت أيدينا بعد، أى طبعة كاملة أو مترابطة لرسائل "خاتوساس"، ولكن "إديل" Edel ظل ينشر طوال السنوات الأربعين الماضية أهم تلك الرسائل بالقطاعى. فى سبيل الاطلاع على مراجع فى هذا الشأن، انظر المرجع السابق، ثم أضف:

E. Edel, NGWG (1978), no.4; SAK 7 (1979), 23-39; Sitzungberichte, Österreichische Akademie der Wissenschaften 375 (Vienna,1980); H. Otten in M.Görg, ed., Festschrift Elmar Edel (Bambergk 1979), 314-18.

(٥٦) Redford, King-lists, 128, n. 3.

(٥٧) انطلاقا من هذه المواقف المصطنعة سك مصطلح: Königsnovelle أى القصة الملكية أو "قصة الملك"، انظر:

A. Herrmann,Die ägyptische Könignovelle (Leipzig,1938); S.Herrmann, Wissenschaftliche Zeitschrift der Karl-Marx Universität, Leipzig 3,no. 1 (1953-1954), 51-62; J.van Seters, In Search of History (New Haven,Conn.,1983),160-64.

ولكن ينبغى علينا أن نفهم هذا المصطلح، بشكل صحيح ، بما لا يجعله يزيد عن كونه اسم مكان: topos ، وليس اسم نوع أدبى خالص.

(٥٨) النوع (الأدبى) الذى يجوز إطلاقه هنا: "أعمال الفرعون الجبارة"، معروف جيدا من تلك النماذج التى وصلتنا من الأسرة الثامنة عشرة، مثل صواديد/ألواح "أرمنت" وصواديد/ألواح "أبوالهول" للفرعون "أمين-حوتب" الثانى، قارن:

(ANET² ,243-45).

وقد نشأ على وجه الاحتمال، من الترتيل المرتجل للمدائح الملكية. وبحلول الأسرة التاسعة عشرة أصبح هذا النوع الأدبى أكثر صرامة، وخصوصا على مستوى الأوزان الشعرية، حيث هدف واضعوه إلى أن يغنى، انظر : King-lists, 128, n.3.

(٥٩) انظر: G.A. Gaballa, Narrative in Egyptian Art (Mainz am Rhein,1976).

(٦٠) Cf. B. Bruyère, FIFAO 4 (1926), pls. li-iv; J. K. Hofmeier, in The Akhenaten Temple Project (Toronto, 1988), 2:40; A. H. Zayed, in P. Posener- Krieger, ed., Mélanges Gamal Eddin Mokhter (Cairo,1985), 1: pls. I-II.

(٦١) حول قوائم أسماء الأماكن، انظر:

J. Simons,Handbook for the Study of Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia (Leiden,1937);E.Edel,Die Ortsnamenlisten aus dem Totentempel Amenophis III (Bonn,1966); M.Noth, ZDPV 61 (1938), 26ff.; D.B.Redford, JSSEA 12 (1982),55-74;

تظل درجة الصدق التاريخى التى تحوزها هذه النصوص مثار جدل، وينبغى على الباحثين أن يأخذوا حذرهم ضد "التفكير الاستهوائى" wishful thinking . وإذا تناولنا مثلا واحداً وحسب، فى هذا الصدد فإن قائمة الفرعون "سيتى" الأول التى ترجع إلى "القرنة" (Simons, Handbook, XV) تحتوى على قسم يضم اثنى عشر اسما (no.13-24) نستطيع ربطها، بصورة صحيحة ظاهريا، بحملة "بيت شان" التى أنفذت فى السنة الأولى من حكمه،، إلا أنها تتضمن مواقع مستحيلة مثل "قبرص و "آشور" و "بابا - ن - هى" (فى شمال ميزوبوتاميا (= بلاد الرافدين حاليًا... مرتين!) و "تاخسى"(مرتين!) وكذلك "قطنة" (المرجع السابق XIV,no.31) وهذه كانت قد زالت من الوجود.

(٦٢) Redford, King-lists, 154-58.

(٦٣) انظر: D.J. Wiseman, The Alalakh Tablets (London,1954).

(٦٤) انظر:

C.F.A.Schaffer, Ugaritica 6 vols. (Paris,1939-); C.F.A.Schaffer and C.Virolleaud, Le palais royal d'Ugarit,5 vols,(Paris,1956-).

(٦٥) D. Arnaud, Syria 52 (1975), 87-92; J. Margueron, Syria 52 (1975), 53 ff.

(٦٦) Bottero, Ra 43 (1949), 1-40, 137-215; and Epstein, JNES 22 (1963), 242-46.

(٦٧) W. F. Albright, BASOR 94 (1944), 12-27; A. Glock, BASOR 204 (1971),17-30.

(٦٨) D. I. Owen, Tel Aviv 8 (1981), 1-17; I. Singer, Tel Aviv 10 (1983), 3-25.

(٦٩) D. O. Edzard, Kamid el-Loz-Kumidi (Bonn, 1970).

(٧٠) Cf. E. F. Weider, Politische Dokumente aus Kleinasien (Berlin, 1923); A. Goetze, in ANET[2], 318-20; Gurney, The Hittites, 224-25 (8); H. Hoffner, Orientalia 49 (1980), 283-332; A. Kammenhuber, Saeculum 9(1958), 136-55; H.klengel, Klio 69 (1987), 314-16.

(٧١) حول اللغات التي يضمها الأرشيف انظر : Gurney,The Hittites,117-31.

(٧٢) H. Otten, MDOG 91 (1958), 78ff.; F.Cornelius, Orientalia 28 (1959), 292 ff.; Kammenhur , Saeculum 9 (1958),143,n.37;Hoffner,Orientalia 49 (1980),293 ff.

(٧٣) Van Seters IN Search of History, 105-13.

(٧٤) See Hoffner, Orientalia 49 (1980), 311; V.Korosec, Hethitisches Statsverträge (Leipzig,1931).

(٧٥) E.Edel, LdÄ 3 (1980),482-83.

(٧٦) Harrak, Assyria and Hanigalbat.

(٧٧) Gurney The Hittites,24-25.

(٧٨) ANET2,394-96

(٧٩) H. Otten, Die Apologie Hattusilis III (Wiesbaden,1981).

(٨٠) انظر ضمن أعمال أخرى:

W. Helck, AfO 22 (1968-1969), 27 ff.; N.Na'aman, UF 6 (1974),265-74; Redford, JAOS 99 (1979),270-87.

(٨١) Wiseman, Alalakh Tablets, nos.13,14 (seal).

(٨٢) A. Goetze, JCS 11 (1957),55 and n.30.

(٨٣) H. Otten,JCS 5 (1951),129-30ff.;idem,Fischer Weltgeschichte 3 (1966),127.

(٨٤) Klengelk, Geschichte,1:175.

(٨٥) Ibid.,228;S.Smith, The Statue of Idrimi (London,1949),59-60.

(٨٦) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica (Oxford, 1947), 1:168ff.; W.Helck, Die Beziehungen Ägyptens zur Vorderasien (Wiesbaden,1972),152.

(٨٧) Klengel, Geschichte, 1:45, n.12; Helck, Beziehugen[2],307.

ورد ذكر "نيا" في المعاهدة المبرمة بين "سوبيلوليوماس" وبين "نيكمادو" الثاني (RS 17. 340, 17. 132: Palais royal d'Ugarit, 4:48 ff.) باعتبارها تابعة، بوضوح، لأراضي نوخاششي".

(٨٨) Urk IV, 891:17; Helck, Beziehungen[2], 299-300.

(٨٩) "نوث": Noth يقول إنها "تل حنا" حاليًا، تلك التي تقع على بعد ١٦ كيلو مترًا شمال غربي "قطنة"

(ZDPV 64 (1953), 71; see also Helck, Beziehungen[2], 139-40); H. Klengel, Geschichte Syriens im 2. Jahrtausend v.u.Z. (Berlin, 1965), 47, n.39; Helck,UF 5 (1973), 286-87; M.Astour, Orientalia 46 (1977),51ff.;A.Altman, Bar-Ilan Studies in History (Ramat Gan,1978),5,n. 12.

(٩٠) M.S. Drower, CAH³ II, pt. 1 (1973), 430-31; W.T.Pitard, Ancient Damascus (Winona Lake,Ind.,1987),50-51.

(٩١) D.B. Redford,Akhnaten the heretic King (Princeton,Nj.,1984),15-16.

(٩٢) Urk Iv,102:15,138:9,86:1.

(٩٣) Vandersleyan, Les guerres d'Amosis,90ff.;Redford JAOS 99 (1979),270-87.

(٩٤) قارن "الموتيف" الأدبى للملك "قانص – الحيونات صائد – الطيور"، الذى أصبح شائعًا فى الاستعمال بصورة مفاجئة":

R.A. Caminos, Literary Fragments in the Hieratic Script (Oxford,1959).

(٩٥) H. Altenmüller, LdÄ 3 (1980),221-24 and n. 17.

(٩٦) حول الملكة "حتشبسوت" انظر:

S.Ratié, La reine-pharaon (Paris,1972); idem,La reine Hatshepsout: sources et problems (Leiden,1979).

(٩٧) D.B.Redford, The History and Chronology of the Egyptian 18th Dynasty. Seven Studies (Toronto,1967), 57-62.

(٩٨) Ibid.80.

(٩٩) P. Lacau and H. Chevrier, Une Chapelle d'Hatshepsout à Karnak (Cairo, 1977), 144.

(١٠٠) E. Naville,The Temple of Deir el-Bahri (London,1898), 3:pl.62,lines 33-34.

(١٠١) Urk IV,247:14-248-9.

(١٠٢) Urk IV, 370:3-371:3.

(١٠٣) F.Gomàa, Die Besiedlung Ägyptens währrend des mittleren Reiches (Wiesbaden, 1986), 2:279 (Sinai or Arabah).

(١٠٤) Urk IV,372:2-373:11

(١٠٥) Speos Artemidos,lines 11-15.

(١٠٦) Lacau and Chevrier, Chapelie,115.

(١٠٧) Ibid.,144,147-48.

(١٠٨) A.A. Saleh, JEA 58 (1972), 141, n.1.

(١٠٩) هناك نقوش لـ "حتشبسوت" و ("تحوت – موسى" الثالث) فى "سرابيط الخادم" ترجع إلى السنوات الخامسة والحادية عشرة والثالثة عشرة:

(J.Cerny and A.H. Gardiner, The Inscriptions of Sanai {London,1952}, pls 56-57,61,68;the expedition of year 20 {Ibid.,pl.58} and perhaps year 16 {P-M VII,343} are too late to have been the inscription for what is quoted in the text)

وقد تكون حملة السنة العشرين و ربما حملة السنة السادسة عشرة أيضًا متأخرتين إلى حد لا يجيز الاستشهاد بنقشيهما على نحو ما ورد فى النص).

(١١٠) المنتجات الواردة فى القائمة استوائية وموطنها ليس ليبيا، وربما تكون قد جلبت من السودان عبر طريق الواحات.

(١١١) R. Giveon, Les bédouins Shôsou des documents égyptiens (Leiden, 1971), 9-10.

(١١٢) للاطلاع على ما حدث فى أعقاب ذلك انظر: Helck, Beziehungen[2], 115-16 .

(١١٣) Urk IV, 547:4.

(١١٤) إشارة محطة بالشأن إلى ملك "ميتانى".

(١١٥) Urk IV, 9.

(١١٦) Urk IV, 36.

(١١٧) L. Borchardt, Altägyptische Zeitmessung (Leipzig,1920), pl.18; H.Brunner, MIOF 4 (1956), 323-24;

يفترض البعض، وهم على حق على وجه الاحتمال فى ذلك، أن النص يشير إلى "تحوت – موسى" الأول، مع أن اسمه لا يظهر فى هذا النطاق. وفى العامود التالى مباشرة يبدأ "أمين – إم – حات" سجلاً طويلاً من الخدمة تحت حكم الفرعونين: "أحموسى" و "أمين – حوتب" الأول: انظر:

W.Helck, Oriens Antiquus 8 (1969),301-2; L.Bradbury,Serapis 8 (1985),19.

(١١٨) Urk IV, 697:5; A.J.Spalinger, JNES 37 (1978),35ff.

(١١٩) Naville, Deir el-Bahri, 3:pl. 80;

وحول نسبة النص إلى "تحوت – موسى" الأول انظر : Gardiner, Onomastica, 1: 158*

(١٢٠) Berlin 14994: Agyptische Inschiften aus staatlichen Museen zu Berlin (Leipzig,1924), 2:115.

(١٢١) Ineni's tomb:N de G.Davies, Private Tombs at Thebes (London,1963), 4:pl.22.

(١٢٢) B.Bruyere, FIFAO 3 (1926), pls.ii-iv;

وقد عُثر على هذه النصوص فى المعبد الجنائزى لـ "تحوت – موسى" الثانى، وتتفاوت تقديرات المؤرخين للتاريخ الذى يعزونها إليه بصورة كبيرة. وانظر فى هذا الصدد:

P-M2II, 456; Hoffmeier, in Akhnaten Temple Project,2:40

وفى ضوء غياب "تحوت – موسى" الثانى عن المسرح الآسيوى، فيكون المعقول أن نرى فيها تخليداً لمآثر والده.

(١٢٣) Bottero,RA 43 (1949), 33.

(١٢٤) R. Dornemann, BASOR 241 (1981),46.

(١٢٥) حول نقش "إدريمى" انظر:

Smith, Idrimi, 59-60; Klengel, Geschichte, 1:182 and n. 33;228-29; M. Dietrich and O.Lorenz,UF 13 (1981),201-69,Van Seters, In Search of History,188-91.

(١٢٦) Wiseman, Alalakh Tablets,no. 395;Klengel, Geschichte,1:219,229.

(١٢٧) Cf. Wiseman, Alalakh Tablets,no. 4; Klengel, Geschichte,1:229-30; 2:334-35.

(١٢٨) Wiseman, Alalakh Tablets no.3; Klengel, Geschichte,1 : 219 and n.3; Smith, Idrimi, 18-20.

(١٢٩) Cf. Wiseman,Alalakh Tablets,no. 101.

(١٣٠) Ibid., no.2, lines 73-75: Klengel, Geschichte, 1:219 and n.3; Smith, Idrimi, 18-20.

(١٣١) See p.156f.(Original Text).

(١٣٢) Cf. Urk IV, 664:1-665:2; cf.744:3-8.

(١٣٣) See C.F. Nims, ZÄS 63 (1966), 97-100 : P.F. Dorman, Fourth International Congress of Egyptology. Abstracts of Papers (Munich, 1985), 55-57.

(١٣٤) Gardiner and Cerny, The Inscriptions of Sinai, pl.57:181; T.Säve-Söderbergh, Aegypten und Nubian (Lund,1941), fig.16(209).

(١٣٥) هذا هو التاريخ الحاسم الذى يبدأ به صادود/لوح أرمنت (Urk IV,1244)، وهو التاريخ الذى أصبح الآن مقبولاً من جانب الجميع، عقب أعمال إم.إس. دروور: M.S .Drower (in R. Mond and O.Myers,The Temples of Armant(London,1940)) ، بصفته تاريخ وفاة الملكة : Ratié, La Reine Hatshepsout, 295-96.

(١٣٦) اتخذ ملك "قادش" قراره باستدعاء جيوش الدول التوابع إلى "مجدو"، استعداداً للزحف على مصر (قارن الصياغة الواضحة دون أى لبس لـ "بركل" سطرا ٧، ٨) قبل عدة شهور بالضرورة من التاريخ المذكور على صادود/لوح "أرمنت". وطالما أن عشرة أسابيع وخمسة أيام وحسب تفصل بين ذلك التاريخ وبدء الحملة، ولما كان "تحوت – موسى" الثالث لابد أن يكون قد بدأ حشد القوات المصرية عقب رحيل "حتشبسوت" بوقت قصير، ولما كان دافعه للتحرك السريع هو الأنباء التى بلغته حول الحشود الكنعانية فى "مجدو"، وهى الأنباء التى كانت لتستغرق شهراً أو نحو ذلك كى تصل إليه، فى ظل أفضل الظروف المكنة) ولابد أن تجميع هذه الحشود فى "مجدو" كان قد تم قبل عدة أسابيع من رحيل "حتشبسوت".

(١٣٧) للاطلاع على الحملات يستطيع المرء أن يستطلع أراء، دون أن يخيب له رجاء، كلا من:
J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago, 1906,2:sec.391-391-540; J.Wilson,in ANET2,234-41;H.Grapow,Studien zu den Annalen Thutmosis des Dritten (Berlin, 1949); S.Yeilvin, BibOr 23 (1966), 18-27; Helck, Bezeihungen 2,119-56; A.J. Spalinger, JARCE 14 (1977), 41-54; Redford, LdÄ 6 (1984),185-93.
وبروح أكثر شعبية، انظر : A. Tulhoff, Thutmosis III (Munich, 1984).

(١٣٨) ترجع حوليات الكرنك إلى نحو عقدين من الزمان بعد الحادث وتقدم الرواية المفعمة بالتفاصيل، تلك التى تعتمد على دفتر اليومية، ولكن بعد صبغها بطابع أدبى وبلاغى، انظر، بين آخرين:
Grapow, Annalen; I.Shirun-Grumach, in A.Rofe and Y.Zakovitch,eds.,Israel leo Seligman (Jerusalem, 1931), I:79-94; A.J.Spalinger, MDAIK 30 (1974), 221-22; Idem., GM 33 (1979) ,47-48;
أعد الآن طبعة جديدة للحوليات فى إطار مقال قادم حول الفرعون "تحوت – موسى" الثالث. ويستطيع المرء عبر المقارنة الحصيفة للروايات المختلفة أن يتوصل دون عناء إلى ما يقرب كثيراً من حقيقة ما حدث.

(١٣٩) Barkal stela, lines 21, 24.

(١٤٠) وفى سنة ٢٥ من حكمه جمع طائفة من النباتات الغريبة من فلسطين! قارن فى هذا الصدد:
W. Wreszinzki, Atlas zur altägyptischen Kulturgeschichte (Leipzig, 1935),2:pl.26.

(١٤١) قارن "المخصص" فى Urk IV, 689:5 .

(١٤٢) Urk IV, 691:10-11.

(١٤٣) نجد بعض المعالجات عند:
R.O. Faulkner, JEA 32 (1946), Helck, Beziehungen2, 138 - 39; P. M2II, 89 (240-44); Redford, LdÄ 6 (1984),185-93.

(١٤٤) Barkal stela,lines 9-17;Armant stela,lines 7-8,seventh pylon inscription (Urk IV,188-89; possibly Urk IV ,676-77; cf.also the "poetical" stela,lines 7-8, and the Constantinople obelisk) Cf.L. Habachi, The Obelisks of Egypt (New York,1977) 147).

(١٤٥) Yamu-nedjeh (Urk IV, 1370); Minmose (Urk IV, 1441); Montu-iwy (Urk IV, 1467); Amenemheb (Urk IV, 890-92).

(١٤٦) N. de G. Davies and A. H. Gardiner, The Tombs of Menkheperrasonb. Amenmose and Another (London, 1933), pls. 5 and 7.

(١٤٧) Barkal stela,line 9 (صادود/لوح بركال. السطر التاسع).

(١٤٨) A. Spalinger, JNES 37 (1978), 35-42; W. Helck, CdE 56 (1981), 241ff.

(١٤٩) EA 109:44.

(١٥٠) Urk IV, 700-701, 727.

لا تشير المصادر المصرية إلى أسماء الملوك، ولكن إذا صدق تأريخنا، فإن الملك الآشورى لابد وأن يكون" آشور – نرارى الأول، انظر: Assyrian Royal Inscriptions
A.K. Grayson, (Wiesbaden,1972,33-34)

وربما يكون الملك البابلى هو بورنا – بورياش الأول، انظر:
Drower, CAH2 II,pt.1 (1973),442).

ولكن التعرف على الملك الحيثى أكثر صعوبة، نظرا لأننا لم نعثر بعد على أى قائمة للملوك الحيثيين حتى تاريخه، ولكنه قد يكون على وجه الاحتمال: "تليبينوس" Telepinus

(١٥١) Urk Iv, 707-8, 724.

(١٥٢) Cf. EA 51:4-5: "Manahbi<ri>ya,"

"ماناهبى – رى – يا"، ملك مصر ووالد والدك، قام بتعيين "تاكو": Taku فى "نوخاشنى" وصب الزيت على رأسه" وإذا كان لنا أن نحمل ذلك محمل الصدق الحرفى، فإن تعبير"والد والدك" يشير إلى الفرعون "تحوت – موسى" الرابع طالما كانت هذه الرسالة قد أرسلت إلى "أخناتون". ولكن التعبير قد يشير أيضا إلى مجرد "سلفك فى الأسرة الحاكمة"، وفى الحقيقة أن "تحوت – موسى" الرابع حاز فى وقت لاحق لقب "والد الوالدين"، انظر:
(Redford, King-lists,52).

وهناك اعتراض أكثر جدية يتمثل فى نطق الاسم فى اللغة الأكدية، وهو النطق الذى يقترب بدرجة كبيرة من الصيغة التى كان للاسم الأول للفرعون "تحوت - موسى" الثالث أن يأخذها فى الأكدية. وفى سبيل الاطلاع على نقاش أوسع ومراجع أو فى، انظر:

B.Bryan,"The Reign of Thutmose IV" (Ph.D.Diss.Yale University,1980),431-34.

(١٥٣) تشير المصادر إلى نصب حامية مصرية فى مستهل حكم "أمين - حوتب" الثانى فى موضع يدعى: إى - كا - تى، انظر: Urk IV, 1312 .

وإذا كان هذا الموضع هو "أوجاريت"، فإننا نكون قد وقعنا هنا على هجاء غير قياسى (= شاذ)، طالما كان اسم "أوجاريت" يظهر فى نقوش المصادر المصرية، فى العادة، على هذا النحو:"إى - كا - رى - تى)، و مع ذلك فنظرا لأن فقرة الفرعون "أمين-حوتب" الثانى، تُعد أقدم إشارة فى هذا الصدد، فلربما كان الكاتب يسير وقتئذ وفق ميل مصرى قديم، يرجع إلى اللغة المصرية الوسيطة، نحو توحيد رسم اسم المكان ذاك. ولقد حاول "أستور"، على نحو بارع أن يشكك فى تعيين الاسم على أسس جغرافية، دون الأسس اللغوية، انظر:

Ugarit in Retrospect (Winona Lake,Ind.,1981),14).

ويقول صادود/لوح الكرنك بأن المسافة بين "نييا" و "إى - كا - تى" والعودة إلى "طا - ر - خ" لا تستغرق أكثر من عشرة أيام "على الطريق من "نييا" حتى "قدسى"، وهى رحلة ذهاب وإياب يصل مداها إلى ٢٦٠ كيلو مترا، إذا صدق أن "أوجاريت" هى المدينة المقصودة. ولكن "طا - ر - خ" لا تقع على الطريق إلى "قادش"، ولكن الأفضل أن تكون المدينة المعنية هى "زالخى": Zalkhi ، وهى قريبة من "أوجاريت" على أى حال، قارن:

(Edel, Ortsnamenlisten, 82; EA 126:5)

ويسهل قبول أن يستغرق الزحف من "نييا" إلى "أوجاريت" ومنها إلى "زالخى"، أى قطع ما يصل إلى ١٥٠ كيلو مترا عبر الطريق الأطول، فى غضون عشرة أيام. ولمزيد من النقاش، انظر:

Gardiner, Onomastica, 1:165*; E.Edel, ZPDV 69 (1953), 149 ff..; Helck, Beziehungen[2], 157, Klengel, Geschichte, 2:2,336-39.

ولكن متى خضعت "أوجاريت"، على وجه التحديد، لمصر، ولكن تاريخين يطرحان نفسيهما هنا: خضوع طوعى خلال الحملات الفينيقية التى قام بها الفرعون "تحوت - موسى"، أو غزو وقع خلال الحملة الحادية عشرة أو الثانية عشرة (١٤٦٩-١٤٦٨ق.م). وتستطيع الإشارات التى وردت فى (EA 46,47) إلى أن ملوك "أوجاريت" القدماء كانوا فى منزلة الخدم لمصر، أن تدفع تاريخ خضوع المدينة إلى الوراء زمنيا.

(١٥٤) Klengel, Geschichte, 2:1, 68.

(١٥٥) وردت الإشارة إلى وفاته فى نص "نوزى": Nuzi ، نستطيع إرجاعه إلى عهد قريب من ذلك التاريخ،، انظر:

Harvard Semitic Series XIII,165:3; W.F.Albright, BASOR 118 (1950), 17,n.27;

ولكن يحسن بالقارئ أن يمعن النظر فى الملاحظة اللاحقة.

(١٥٦) يستمر الافتقار إلى أى أرشيفات ميتانية تضم المراسلات الدبلوماسية أو تتابع الحكام على عرش البلاد فى إرباك أى محاولة لرسم أى قائمة للملوك الميتانيين. وكل ما نستطيع قوله هنا، على نحو مؤكد، أن "بارتارنا": Barratama كان معاصراً لـ: إدريمى": Idrimi ، وبدأ حكمه قبل جيل واحد من الفرعون "تحوت – موسى" الثالث، انظر : (Smith, Idrimi,16),
وأننا نستطيع وضعه قبل جيل واحد، على وجه التقريب، من "سوساتار": Saussatar (استناداً إلى أدلة "نوزى" التى يقدمها لنا الشهود فى وثائق قانونية)، انظر:
H.Lewy, AIPHOS 13(1953), 284,no4 and 286ff.; Klengel RHA 36(1978}94-95),
وأن الأخير بينهم كان معاصراً متأخراً للفرعون "تحوت – موسى" الثالث، حيث وافت منيته بعد العقد (= عشر سنوات) الأول من حكم "أمين – حوتب" الثانى، انظر:
(Klengel, Geschichte, 1:39; W.Helck, Geschichte der alten Ägypten {Leiden, 1968}, 163).
لا نملك أسبابا وجيهة تدعونا إلى الاعتقاد بأن "بارساتاتار"، والد سوساتار، تقلد منصب الملك يوماً فى بلاده، انظر : (R.Lachman, BASOR 78{1941},22),
وقد يكون ممثلا، على وجه الاحتمال، لفرع من عائلة مختلفة عن تلك التى ينتمى إليها "باراتارنا" (مع كامل احترامى لـ : F.Imperati, I Hurriti {Florence,1 964}, 58ff.)
مع أننا قد نقبل عقلا أن يكون قد احتل العرش لمدة قصيرة بعد رحيل "باراتارنا"، انظر أيضا:
G.Wilhelm, Acta Antiqua 24 (1976),149-61.
وفى الآونة الأخيرة ساق "دى.إل. شتاين" حججا جديدة تأييداً (ZA 79{1989},36-60) لوجود ملك يدعى "باراتارنا" الثانى، وإعادة تاريخ "سوساتار" كى يقع حكمه فى نهاية القرن الخامس عشر ق.م. ولكننى أجد صعوبة حقيقية فى قبول تاريخ متأخر إلى هذا الحد، حتى استنادا إلى التأريخ "المنخفض" للأسرة الثامنة عشرة.

(١٥٧) Urk IV, 729-30;
هنا، فيما يبدو مرجحا، أو خلال حملة ما لم تصادف تسجيلا،عقب ذلك بوقت قصير – حوليات الكرنك – تنتهى عند هذه النقطة، كان نبوغ "أمين – أم – حب" قد بلغ حد تقويضه سور "قادش"، انظر : .Urk IV, 894:5-895:3

(١٥٨) Cf.EA 59:6-10.On the identity see,p.175. (حول الهوية انظر: ص ١٧٥ بالنص الأصلى).

(١٥٩) R. Hachmann, in D. O. Edzard et al., eds., Kamid el-Loz-Kumidi (Bonn, 1970), 85; S. Ahituv, Canaanite Toponyms in Ancient Egyptian Documents (Leiden, 1984), 187.

(١٦٠) Urk IV, 893:6-13; 1442:16-18.
كافة الإشارات إلى هبة "تاخسى" ترجع إلى تاريخ أسبق من سنة ٤٢ وخاتمة الحوليات.

(١٦١) C. Kuentz, Deux stèles d' Amenophis II (Cairo, 1925),47-56.

(١٦٢) Weidner, Politische Dokumente, 39; E. A. Speiser, JAOS 49 (1929), 269-70; Harrak, Assyria and Hanigalbant, 42-43.

(١٦٣) Cf. Klengel, Geschichte, 1:183; Wiseman, Alalakh Tablets, nos. 13, 14, and passim.

(١٦٤) حول تعداد الحملات و تواريخها السنوية، انظر:

Edel, ZDPV 69 (1953), 158; A.Alt, ZDPV 70 (1954), 41,n.29.

(١٦٥) انظر الآن نقاشًا شاملاً وقائمة بالمراجع فى:

P.der Mānuehian, Studies in the Reign of Amenophis II (Heidsheim,1987), 56-83.

(١٦٦) G. R. Meyer, MIOF 1 (1953), 110; H. Otten, Saeculum 15 (1964), 122.

(١٦٧) Meyer, MIOF 1 (1953), 122-123.

(١٦٨) Wiseman, Alalakh Tablets, no. 14; Klengel, Geschichte, 1:229.

(١٦٩) Urk IV, 1309:13-20.

(١٧٠) Urk IV, 1326.

(١٧١) اسم الملك الميتانى ليس معروفًا، ولكننى أفضل أن أرى فى المفاوض تحت حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثانى ملكا عاش مبكرا عن "أرتاتاما": Artatama ، نجل وخلف "سوساتار" على العرش، انظر : (Kbo 1,3obs.8)

الذى عاصر الفرعون تحوت - موسى" الرابع. وليس فى وسعنا إلا أن نفترض تغيرا فى الحكم كى نفسر الوضع الذى شعر الفرعون الجديد، تحوت - موسى" الرابع فيه، بأن يده طليقة فى مهاجمة ممتلكات "ميتانى" دون رد فعل: لم يبرم أبدا أى معاهدة مع نظيره فى "خاتى" (انظر النقاش اللاحق).

(١٧٢) Klengel, Geschichte, 1:39; Helck, Beziehungen[2], 161; Bryan, "The Reign of Thotmosis IV," 423-24.

رغم أننى أعتقد أنه من الأفضل أن نؤرخ لمعاهدة كوروشتاما": Kurushtama فى وقت مبكر من حكم "أخناتون": انظر النقاش اللاحق).

(١٧٣) حول المشكلة الشائكة التى تخص ترتيب وهوية الذين سبقوا "سوبيلوليوماس" فى الجلوس على عرش "خاتى"، انظر بوجه خاص:

A.Kammenhuber, Orientalia 39 (1970), 278-301; H.G.Güterbock,J NES 29 (1970), 73-77; W.Helck,in M.Görg, ed.Elmar Edel Festschrift (Bamberg, 1979), 238-39; S.Kosak,Tel Aviv 7 (1980),163-69.

(١٧٤) Talmisharuma treaty: for bibliography, see Klengel,Geschichte,1:177-78; also N.Na'aman JCS 32 (1980),34ff.

(١٧٥) هكذا وفقا لرواية أخرى، انظر: H. Klengel, MIOF 10 (1964), 216 .

(١٧٦) Klengel, Geschichte, 1:189, n. 38.

(١٧٧) للاطلاع على أدلة على شخصية هذا الفرعون غير العادى، انظر ص ٢٣٠ بالنص الأصلى.

(١٧٨) EA 29:16-18; A. R. Schulman, JNES 39 (1979), 189, n. 54; bryan, "The Reign of Thotmosis IV," 158-61.

(١٧٩) C. Kühne, Die Chronologie der internationalen Correspondenz von El-Amarana (Neukirchen-Vluyn, 1973), 20, n. 85.

(١٨٠) نجد معالجة حاذقة للغاية لهذه الحملة في:
Bryan, The Reign of Thutmosis IV, 422-25.

حيث رجعنا لأدب سابق.

(١٨١) Urk IV, 1556:10-11.

(١٨٢) عن توقفه في "صيدا"، انظر: EA 85:71; Helck .
EA 85:71; Helck, Beziehungen², 174.
Cf. Klengel, Geschichte, 2:1, 24; Na'aman, JCS 32 (1980) 38-39;

(١٨٣) حول موقع نوخاششي، انظر:
Gardiner, Onomastica, 1:168* ff.; Klengel, Geschichte, 2:18; Helck, Beziehungen², 152.

تثبت رسائل "أخيتاتون" (= العمارنة) بالمثل أن "نوخاششي" كانت بعيدة عن نطاق الحدود المصرية، رغم أن ملوك "نوخاششي" كانوا يحبون فرعون مصر (EA 53:41-44) ولم يدفعوا أي جزية طوال حياتهم لمصر (EA 53:50-51) ولم تكن "نوخاششي" قد أصبحت (بعد) تابعة للفرعون. (EA 55:21-22)

(١٨٤) Cf. Wiseman, Alalakh Tablets, no. 215:4 (list of landowners whose property is located in the vicinity of Niya); nos. 397:4, 400:7 (copper and bronze distributed to Niya); nos. 364:5, 426:3 (passage of officials and presents).

(١٨٥) تقع "قلعة سجر" على الضفة اليسرى لنهر العاصي، شمال غربي مدينة "حماه":
Klengel, Geschichte, 2:31,n.8.

(١٨٦) Cf. KUB III,16,20 (Weidner, Politische Dokumente,136047,no.10); EA 59.

ليس هناك دليل بالمرة على أن مصر بسطت سيطرتها على "تونيب" بعد انسحاب الفرعون "أمين – إم – حات" الثاني في السنة التاسعة من حكمه:
Pace A.Alt,Kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel (Munich,1959), 3:210; Helck, Beziehungen², 295; Pitard, Ancient Damascus. 57.

(١٨٧) EA 55:4-9;cf.52:6,53:64-65 (differently Klengel,RHA 36 {1978},110).

(١٨٨) Pitard,Ancient Damascus,64.

هناك تناقض في أمر "قادش"، إذ بينما يقرر "إتكاما"، حاكمها، في EA189 أنه تابع من أتباع مصر، يصرح "سوبيلوليوماس في اللوح "السابع" (H.Güterbock,JCS 10{1956}) إنه كان ربيبًا لـ "ميتاني". و الأمر الراجح أنه في الوقت الذي دونت فيه "أعمال الرجال" في خواتيم القرن الرابع عشر ق.م. كان الوضع الأسبق لـ "قادش" قد دخل في ضباب التشوش. ولكن الافتراض السائد الآن أنها أي "قادش" كانت ولاية تابعة لـ "ميتاني".

(١٨٩) H.Klengel,in M.Liverani,ed.,La Siria nel tardo bronzo (Rome,1969),18,n.9.

(١٩٠) Ibid., 21.

(١٩١) Gelb, JCS 15 (1961), 42; Klengel, Geschichte, 1:187,n. W.F.Albright, Yehweh and the Gods of Canaan (New York,1968),116,n. 15;R.de Vaux JAOS 88 (1968), 23-30; W.Helck,LdÄ 3 (1980), 309-10.

(١٩٢) تخلى العلماء منذ وقت طويل عن الفكرة القديمة التى تقول إن كلمة "كنعان" مشتقة من الجذر السامى الغربى الذى يعنى: "انحنى، ثنى ركبته" وبالتالى فإن اسم "كنعان" يعنى "الأرض الواطئة" وسكانها "أهل البلاد الواطئة" (M.Astour,JNES 24{1965},347) ويتفق فى حقيقة الأمر عدد آخر، إلى جانب "أستور" على أن الكلمة مشتقة من كلمة "حورية": Hurrian تعنى "الصبغة الأرجوانى":

W.F. Albright, in Studies in the History of Culture (Menasha, Wis., 1942), 25,n.50;

ويقول "ميزلر" و "جيبسون" : (B.Maisler,BASOR 102{1946},7-12;M.Gibson JNES 20{1961},218-19) إن كلمة "كنعانى" تعنى "تاجر" و "كنعان" بلاد التجار. ويقول "أستور" إن الكلمة كانت تعنى فى الأصل "بلاد غروب الشمس" أى الغرب. انظر: (Astour,JNES 24{1965} ,348) و قارن: S.Moscati, Studia Biblica et Orientalia (Rome, 1959), 3:268. وعندما ظهر اسم "الكنعانيين" لأول مرة فى رسالة ترجع إلى "مارى": Mari فى أواخر القرن الثامن عشر ق.م. كان الاستعمال اللغوى للاسم محط قليلاً بالشأن. قارن: (G.Dossin,Syria 50 {1973},277-78;A.F.Rainey,Tel Aviv 6{1979},156-59); ويرف على الذهن أن هذا الجذر فى اللغة العبرية يعنى بصفة شائعة: "أن يكون محطوطًا من شأنه وأن يُحقَّر وأن يُستذل".

(١٩٣) Cf. EA 45-47.

(١٩٤) EA 49: W.F.Albright, BASOR 95 (1944), 30ff.; cf.C. Virolleaud, CRAIBL (1954), 257.

(١٩٥) C.F.A. Schaeffer, Ugaritica (Paris, 1956), 3:78; cf. 82, n. 3, and 85, fig. 106.

(١٩٦) Ugaritica, 3: fig. 120.

(١٩٧) C. Virolleaud, CRAIBL (1953), 209; (1955), 74; cf. Palais royal d'Ugarit, 2:18.

(١٩٨) C. Desroches-Noblecourt, in Ugaritica, 3:179-80; Schulman, JNES 38 (1978), 185.

(١٩٩) Astour, Ugarit in Retrospect, 16-17.

(٢٠٠) انظر الفصل السابع .

(٢٠١) انظر أيضًا ص ٢٠٨ من النص الأصلى. هذا الشكل يتضمن، والحق يقال، نسبة ضئيلة من الأسرى الذين جلبوا من "نخاششى" فى الشمال. ولعله من المثير أن الاجتماع الذى عقده الفرعون "أمين-حوتب" الثانى، بعد ذلك بعشر سنوات، فى عاصمته لممثلى "جاهى": Djahy (= فلسطين) لم يشارك فيه سوى ممثلى إحدى عشرة مدينة و حسب، فمن الساحل أرسلت

ممثليها كل من ("أشـــاسف": Achasph و "مشائيل" و "شـــارون" و "عشقلون" وربما "تانونا" و "هاتوم" أيضًا) ومن وادى "كشون": Kishon والكرمل ("سامؤونا" و "مجدو" و "تناخ") ومن شمال وادى الأردن ("كنيوث" و "حاصور") : C.Epstein, JEA 49 (1963), 53ff.
وفى موضع آخر يذكر اسم مبعوث "لاخيش". (P.Leningrad 1116 A,pl. 15:2).

(٢٠٢) Cf. T. L. Thompson, The Settlement of Palestine in the Late Bronze Age (Wiesbaden, 1979), 59 and passim.

(٢٠٣) حول تنظيم اقتصاد الإمبراطورية المصرية انظر الفصلين السابع والثامن من هذا الكتاب.

(٢٠٤) انظر:
G. Steindroff and K. C. Seele, When Egypt Ruled the East (Chicago, 1957); Helck, Beziehungen[2]; W. C. Hayes, CAH[3] II, pt. 1 (1973), 338-401; E. Hornung, LdÄ 1 (1973), 206-10; Redford, Akhenaten, 34-54.

(٢٠٥) Gelb, JCS 15 (1961), 29-34; J. R. Kupper, Les nomades en Mesopotami au temps des rois de Mari (Paris, 1957), 149-50; H. Klengel, MIOF 10.(1964), 60, 68; idem, Geschichte, 2:178-79; idem, in Liverani, La Siria nel tardo bronzo, 17-18; Altman, Bar-Ilan Studies in History, 4, n. 5; R. Giveon, LdÄ 1 (1973), 251-52.
هل استـخدم المصطلح فى البداية من نقطة استـشراف (=نظر) وادى العاصى أم أن كلمة "أمورو" كانت قد اكتسبت فى ذلك الوقت دلالة لغـوية بشكل كامل وحول "مدينـة أمورو" (سـومور) انظر : R.R.Stieltz, JNES 50 (1991), 45ff.

(٢٠٦) حول "العابيرو" انظر: ص ١٩٥ من النص الأصلى.

(٢٠٧) حول "عبدى – عشيرتا" انظر:
A.Altman,"The House of Abdiasirta" (Ph.D.diss.,Bar Ilan University.1964); Klengel, Geschichte,2:245-63; M.Liverani,RSO 40 (1965),276-77;G.Kestemont, Orientalia Loveniensia Periodica 9 (1978),27-28;W.J.Murnane, The Road to Kadesh (Chicago,1985) ,183-96.

(٢٠٨) EA 60:6-9.

(٢٠٩) EA 101:29-31.

(٢١٠) Cf. EA 95:27-31; 85:51-55.

(٢١١) EA 90:19-23; 86:8-12.

(٢١٢) حول (أزيرو) انظر:
H. Freydank, MIOF 7 (1960), 356-57; Klengel, MIOF 10 (1964), 57-83; idem, Geschichte, 2:264-65; Kühne, Chronologie Road to Kadesh, Mumane, 188-96.

(٢١٣) Klengel, Geschichte, 2:342.

(٢١٤) Ibid., 204.

(٢١٥) للاطلاع على المزيد انظر:

(٢١٦) Klengel, Geschichte, 2:184-85; W. Helck, in Görg, Festschrift Elmar Edel, 238ff.; Na'aman, JCS 32 (1980), 34-35.

(٢١٧) Güterbock, JCS 10 (1956), 61-63; Astour, in Ugarit in Retrospect, 18.

(٢١٨) KBo I, 5:6-7.

(٢١٩) KBo I, 5; KUB XIX, 25. A. Gotze, Kizzuwatna and the Problem of Hittite Geography (New Haven, Conn., 1940), 61ff.; Gurney, the Hittites 78-79; Otten, Fischer Weltgeschichte 3 (1966), 142-43;

حول خلافة "إيشو – وا" انظر:

Kbo 1,1 verses 10-13 (Weidner, Politische Documente, 4-5); cf.also H.Klengel, Oriens Antiquus 7 (1968). 63ff.; 15 (1976), 85-89; idem,RHA 36 (1978),102.

(٢٢٠) للاطلاع على الأحداث التى وقعت تحت حكم "سوبيلوليوماس" والمشاكل التاريخية التى تنطوى عليها انظر:

K.A.Kitchen, Suppiluliumas and the Amarna Pharaohs (Liverpool.1961); Kühne, Chronologie;Redford, History and Chronology, 216-25; idem, Akhenaten,193-221; Murnane,Road to Kadesh,177-242.

(٢٢١) Cf. EA 45:22-31.

(٢٢٢) Weidner, Politische Documente,58-59;EA 17:31-38.

(٢٢٣) EA 41:8-9.

(٢٢٤) EA 41; cf.EA 44 with similar requests (full bibliography in J.-G.Heintz, Index documentaire d'El Amarna (Wiesbaden,1982),119).

(٢٢٥) قارن فحوى الرسائل الأربع: EA 26-29 انظر: Redford, Akhnaten,195

(٢٢٦) D.B. Redford, in Akhnaten Temple Project ,2:14,pl.7:3.

(٢٢٧) EA 35:49 (from the king of Cyprus);

السطر السادس والثلاثون يتحدث عن إرجاء مقابلة رسل أجانب لثلاث سنوات و لما كانت الرسالة السابقة مباشرة (EA 34:52-53) قد ذكرت صعود "أخناتون" إلى العرش، فإن (EA 35) ترجع على وجه الاحتمال إلى السنة الرابعة على وجه التقريب من حكم "أخناتون".

(٢٢٨) KBo 1,1 (Weidner, Politische Documente 2ff.) cf.also A.Goetze in ANET²,318.

(٢٢٩) الموقع ليس معروفًا، ولكن ذلك لا يجيز لنا أن نتعرف عليه فى "أوب" (Upe): Pitard, Ancient Damascus,66ff.

(٢٣٠) يفصح "رد – عدى" حاكم "بيبلوس" عما يضمره تجاه "زحف "سوبيلوليوماس" فى (EA 126:51 & 59) حيث يجأر بالشكوى لـ "أخناتون" من أن "الحيثيين" يضرمون النيران فى الأراضى وهم فى طريقهم للاستيلاء على "بيبلوس". ومثلما هو الحال مع كثير من تقارير "رد – عدى" ينبغى حمل هذا التقرير على مضض cum grano salis .

(٢٣١) H. Güterbock, RHA 66 (1960).

يظل السؤال حول ما إذا كان هذا يماثل ما جاء فى معاهدة "كورّوشتاما": Kurushtama الشهيرة (يجد القارئ نصها ومناقشتها في: (Murnane,Road to Kadesh,40-42) سؤالاً رهن النقاش. وصياغة الإشارة فى "صلاة الطاعون" (Goetze,ANET2,395) توحى وكأن المعاهدة التى أحضرت أهالى "كورّوشتاما" إلى مصر لم تكد تُبرم حتى خُرقت، ولكن كلمات "سوبيلوليوماس" المحددة فى رواية ابنه (Güterbock,JCS 10(1956).95) تشى بأن المعاهدة كانت معاهدة قديمة وليست مألوفة له. وتكمن المشكلة هنا: فى أى وقت، قبل استيلاء "سوبيلوليوماس" على الأراضى الميتانية فى سوريا، كان لمصر أى علاقات ذات شأن مع "خاتى" على وجه الإطلاق؟

(٢٣٢) للاطلاع على البنية النفسية للفرعون انظر: "ريدفورد": أخناتون، ذلك الفرعون المارق.

(٢٣٣) CF.EA 162:40-41.

(٢٣٤) D. O. Edzard, Kamid el-Loz-Kumidi (Bonn, 1970), 56-57.

(٢٣٥) Redford, in Akhenaten Temple Project, 2:14-15.

(٢٣٦) (أدى الاضطرب حول حملة "سوريا الكبرى" (فى معاهدة شاتيوازا) مع هبة "نوخاششى" كما وردت (فى المصادر الأوجاريتية) إلى تشويه حاد فى سياق الأحداث فى بعض التواريخ الحديثة) .

(٢٣٧) EA 51-55; 59.

(٢٣٨) (حول انشقاق "أوجاريت" انظر النصوص الواردة فى Palais royal a' Ugarit, 4:35 - 55 (of which RS 17. 340 is the most detailedl) also Astour, Ugarit in Retrospect, (19-20).

(٢٣٩) EA 53:11-15; 197:25-26.

(٢٤٠) Comte du Mesnil du Buisson, Le site archéologique de Mishrife-Qanta (Paris, 1935), 33-34.

(٢٤١) Cf. EA 174-76;

(٢٤٢) Cf. EA 53:46.

(٢٤٣) Cf. EA 59:25-28 (Aziru threatening); EA 161:11-12 (Aziru residing in city).

(٢٤٤) EA 161:48-50.

(٢٤٥) EA 162, 164-67.

(٢٤٦) Cf. EA 169.

(٢٤٧) H. Freydank, MIOF 7 (1960), 360, 380; cf. KUB XIX, 9.i.11ff. "He (Suppiluliumas) made the land of Kadesh and the land of Amurru his border."

(٢٤٨) انظر: n. 189.

(٢٤٩) KUB XIX, 7 (Güterbock JCS 10 [1956], 85),. هجوم أدى إلى تسليم المدينة للنيران فى أواخر حكم "أخناتون" على وجه الإمكان. وحول إمكانية أن يكون جلالته قد تحرك فى اللحظة الأخيرة وأرسل تجريدة انظر: EA 191. 195, etc KBOV,6.A.ii, 21-22. (Güter-bock, JCS10 [1956], 93).

(٢٥٠) D. B. Redford, BASOR 211 (1973), 36-49.

ورد ذكر الحملة فى فقرة مهشمة فى حوليات "مورسيلين" الثانى (السنة السابعة) والنقش الحالى موجود على حافة وعاء من الجرانيت، وقد أعلن البعض أنه مزيف بسبب خطأ فى كتابة الاسم الشخصى لـ «حور - إم - حب». ولكن النص المنقوش يثبت صحة فريدة للوعاء .

(٢٥١) Güterbock, JCS 10 (1956), 94-95; Otten, Fischer Weltgeschichte 3 (1966), 146-47; Redford, Akhenaten, 217-21; Murnane, Road to Kadesh, 225-26.

(٢٥٢) Weidner, Politische Dokumente, 60 (treaty with Tette); 70 (treaty with Aziru), cf. p. 78;Palais royal d'Ugarit, 4:51(RS 17.340: Niqmaddu treaty); 89 (RS 17.353: Niqmepa treaty); Murnane, Road to Kadesh, 87, n. 23.

(٢٥٣) Cf. Freydank, MIOF 7 (1960), 364; Palais royal d'Ugarit, 4:98.

(٢٥٤) Freydank, 366; ANET[2], 204; Cornil and Lebrun, Orientalia Lovaniensia Periodica 6-7 (1975-1976), 96-98.

(٢٥٥) Palais royal d'Ugarit, 4:284 (RS 19.68, line5).

هذه الوثيقة ترجع إلى نفس فترة حكم "عزيرو" عندما كان هو و "نيكمادو" من توابع الحيثيين.

(٢٥٦) Ibid., 120-21.

(٢٥٧) Ibid., 76-77 (RS 17.368 recto 1-3).

(٢٥٨) حول تاريخ هذه الفترة انظر :

R. Hari, Horemheb et la reine Moutnodj met (Geneva, 1961); R. Krauss, Das Ende der Amarna-Zeit (Hildesheim, 1976); J.-M- kruchten, le decret de Horemheb (Brussels, 1981); Redford, Akhenaten, 212-21; Murrane, Road to kadesh, 39-51.

(٢٥٩) M. Several, PEQ 104 (1972), 123-33; J. M. Weinstein, BASOR 241 (1981), 15-1.

(٢٦٠) حول هذا الطريق العسكرى انظر :

E. Oren, in A. F. Rainey, ed., Egypt, Israel, sinai (Jerusalem, 1987), 69-70; T. Dothan, in ibid 121-22

(٢٦١) Murnane, Road to Kadesh, 70-72; idem, Ancient Egyptian Coregencies (Chicago, 1977), 183-85.

(٢٦٢) التعبير السابق يلحق أحيانًا بأسماء الآلهة أو يشير إلى استعادة عباداتهم فى التماثيل والمعابد . وقد استخدمه كل من "أمين - أم - حات" الأول و "حاتشبسوت" و "توت - عنخ - أمون" و "خور - أم - حب" بمعنى (التجديد / الميلاد من جديد / النهضة) .

(٢٦٣) R. A. Caminos, The Shrines and Rock Inscriptions of Ibrim (London, 1968), pls. 39-40.

(٢٦٤) Reliefs and Inscriptions at Karnak, vol. 4: The Battle Reliefs of king Sety I (Chicago, 1985).

(٢٦٥) Murnane, Road to Kadesh, 53-54.

(٢٦٦) KRI I, 9.

(٢٦٧) Ibid.,12

(٢٦٨) Ibid., 16.

(٢٦٩) P-M[2] VII, 383: J. Leclant, Orientalia 30 (1961), 394;M. Chehab, Bulletin du Musée Beyrouth 22 (1969), pl. 8 (3);

حول موقع "نيوعام" انظر:

Ahitnv, Conaanite Topongms in Ancient Egyptian Documents, 198-200.

(٢٧٠) KRI I. 24; Murnane, Road to Kadesh, 80-81.

(٢٧١) Murnane,Road to Kadesh,91ff.

(٢٧٢) سُمى بالاسم الملكى: Muwatallis فى الفقرة رهن الحديث: ANET2,200 .

(٢٧٣) انظر ص ١٧٣ من النص الأصلى.

(٢٧٤) A.Goetze, MVAG 38 (1933), 83.

(٢٧٥) Güterbock, RHA 66 (1960),59-60.

(٢٧٦) Wreszinski,Atlas zur altaegyptische Kulturgeschichte, 2:53; KRII, 24.

النص الموجود داخل الحصن الوهمى واضح دون لبس:

"الصعود الذى أقدم عليه جلالته كى يدمر أرض "قادش"(التابعة أو التى تشكل جزءاً من أراضى "الأموريين" (هكذا)"

(٢٧٧) L.Habachi, BIFAO 73 (1973), pl.XI:10;

حول الشراكة فى الحكم انظر : Murnane, Coregencies,57-87.

(٢٧٨) نقش تدشينى: Abydos:44-45 .

(٢٧٩) Ibid.,55-69.

(٢٨٠) Apologie,secs,3-5.Hattusilis had been born no later than his father's ninth year :

جاءت ولادة "هاتوسيليس" فى وقت لم يتجاوز السنة التاسعة فى حكم والده: Goetze, MVAG 38 (1933),11-12.

(٢٨١) D.B.Redford,JEA 57 (1971),110-19.

(٢٨٢) قارن معاهدة "شوشكاموا": Shaushkamuwa

(C.Kühne & H.Otten, Der Sausgamuwa Vertrag (Wiesbaden,1971),obv.1,13-39),

وتشير صياغة المعاهدة بصورة ناصعة.

(٢٨٣) P-M VII, 385; KRI II, 1; P. Montet, Kêmi 16 (1962), 78; H. Goedicke, JEA 52 (1966), 73-74.

(٢٨٤) يستطيع المرء أن يرجع دون أن يخيب له رجاء ، من بين الكم الضخم من الأدب حول المعركة إلى :
R.O. Faulkner, MDAIK 16 (1958), 93-94; G. Fecht, SAKII (1984), 281-82; A.H. Gardiner, the kadesh Inscriptions of Ramsis II (Oxford, 1960); Goedicke, JEA 52 (1966) H. 72; idem, ed., Perspectives on the battle of kadesh (Baltimore, 1985); W. Helck, AFO 22 (1969), 23-24; A. Kadry, BIFAO 81 (1981), 47-48, Kitchen Pharaoh Triumphant, C. Kuentz. la bataille de Qadesh (cairo 1928-1934); M. Moth, Wol, no. 3 (1948) 223-24; B. G. Ockinga CDE 62 (1987), 38-48. A.F. Rainey. UF 5 (1973), 280-81.

(٢٨٥) KRI II, 269;

حول "بى - رعمسيس" انظر:

J. Van Seters, The Hyksos, A New Investigation (New Haven, Conn., 1966); M. Bietak, Avaris and Pi-Ramesse (London, 1979).

(٢٨٦) نجد أقدم سجل على وجه الترجيح على الكتلة الشمالية للصرح الأول للرامسيوم المعبد الجنائزى للفرعون رعمسيس الثانى فى طيبة .

(٢٨٧) انتهت "السجلات" فى معبدى الرامسيوم والكرنك إلى سلسلة من التصاوير المستطيلة الشكل التى يتعذر على المرء التعرف على ما تشير إليه .

(٢٨٨) M. Dothan, IEJ 25 (1975), 165; cf.

قارن أيضًا الشقفة التى ترجع إلى السنة العاشرة من حكم ملك مجهول من مستوى تدمير "لاكيش" فى نفس الفترة على وجه التقريب : D.Vssishkin. IEJ 24 (1979), 272.

(٢٨٩) R. Lepsius, Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien (Berlin, 1849), 3:197c; KRI II, 149.

(٢٩٠) KRI II, 213 (Amara West) .

(٢٩١) P-M[2] II, 333 (202-4); cf. 438 (18); KRI II, 173-76.

(٢٩٢) انظر : Ahltuv, Conaonite Toponyms, 146-168.

(٢٩٣) P-M[2] II, 333 (202); Helck, Beziehungen[2], 213.

(٢٩٤) Otten, Apologie 1:22-23, 66-67 (norh and northwest of Hattusas: A. Goetze, JCS 14 [1960], 46).

(٢٩٥) Otten, Apologie 4:32; A. Goetze, MVAG 29 (1925), 34;

حول "يورى - تيشوب" انظر على وجه الخصوص :

P.H.J. Houwinck ten cate. in Anatolian studies presented to hans Gustav cütenbock ls tandal. 1974, 123-50.

(٢٩٦) E. Cavaignac, RHA 18 (1935), 25ff. ; W. Helck, JCS 17 (1963), 87-88; R. Stef-anini, Academia Toscana ...La Colombaria 29 (1964), 1ff.

(٢٩٧) KUB XXVI, 70; H. Otten, AfO Beiheft 12 (1958), 67-68: "Urhi-teshup [Wrote] to the king of Assyria, your father, [but you], Tukulti-ninurta, have sent (back) [to me] the tablet of Urhi-teshup."

(٢٩٨) A. Archi, SMEA 14 (1971), 185-215.

(٢٩٩) Harrack, Assyria and kHanigalbat, 15-24.

(٣٠٠) Mursilis's annals, years 2, 9: Goetze, MVAG 38 (1933), 26, 117, 247-48; Harrack, Assyria and Hanigalbat, 48-59.

(٣٠١) Harrack, Assyria and Hanigalbat, 62ff.; P. Machinist, in H. J. Nissen and J. Renger, eds., Mesopotamien und seinen Nachbaren (Berlin, 1982), 265-67.

(٣٠٢) Palais royal d'Ugarit, 4:106 (RS 17.137, 10-11).

(٣٠٣) انظر على وجه الخصوص : ANET[2], 199-203;
A. J. Spalinger, SAK 9 (1981), 299-300; Kitchen, Pharaoh Triumphant, 73-74.

(٣٠٤) Cavaignac, RHA 18 (1935), 25-26; Houwinck ten Cate, in Anatolian Studies, 144-46.

(٣٠٥) M. Astour, UF 11 (1979), 13-14.

(٣٠٦) Weidner, Politische Dokumente, 126 obv. 16-17.

(٣٠٧) Klengel, Geschichte, 2:176.

(٣٠٨) E. Edel, Geschichte und altes Testament (Geneva, 1953), 44-45; W. Helck, MDOG 92 (1960), 12 (equals Kumidi, which seems more likely).

تساوى "كوميدى"، وهو الأمر الذى يبدو أكثر احتمالاً.

الفصل السابع

إمبراطورية المملكة الحديثة

أدت الحروب التى خاضها المصريون فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة إلى امتلاك الأمة التى تقوم على ضفاف النيل، لأول مرة فى تاريخها لشىء جديد تمامًا عليها: إمبراطورية. وبطبيعة الحال، كان مؤسسو الدولة المصرية الفرعونية يتمتعون بصفة دائمة بدائرة نفوذ فى أعالى نهر النيل وغرب آسيا، ولكنهم لم يلجأوا، إلاّ نادرًا، سواء إلى ضم أراضى الغير أو زرع مستوطنين مصريين بهدف الاحتلال الدائم. والآن، مع ذلك، وكما تلقى تلك العبارة المفخمة بالشوفينية: "توسيع الحدود" ضوءًا ساطعًا على الأمر، فإن مصير مصر، كما أصبح جليًا، كامن فى التوسع وضم الأراضى، التى كانت تعتبر منذ ذلك الوقت فصاعدًا ممتلكات مصرية، وسكانها بالتالى رعايا مصريين يُنتظر منهم واجب الولاء.(١)

يطرح علينا الصقعان اللذان يشكلان إمبراطورية المملكة الحديثة النوبة(٢) و"كنعان" عددًا من التناقضات فيما يتعلق برغبات المصريين وتوقعاتهم، والأسلوب الذى انتهجوه فى تحقيق أهدافهم. فلقد اجتذبت النوبة الفراعنة لمنتجاتها ومواردها (وخصوصًا معدن الذهب) وكذلك قوة العمل التى تحوزها، أما "كنعان" فلقد قدر فيها المصريون السلع التى تمر عبر دروبها التجارية، وقدروا لها موقعها الإستراتيجى. وبمرور الوقت أخذ المصريون يرون فى النوبة أرضًا مناسبة للاستعمار، ولكنهم لم يروا ذلك مطلقًا فى "كنعان". ففى النوبة انعقد العزم منذ بدء حروب الغزو على القضاء على هياكل السلطة سبق للنوبيين أنفسهم أن أقاموها، وبمجىء حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثانى كانت المملكة النوبية السابقة، التى توازى عصر الهكسوس فى مصر قد كفت عن الوجود.

ومنذ ذلك الحين استبدل المصريون الحكم المحلى الذى يقوم عليه رؤساء نوبيون بإدارة محكمة، تهتدى بنموذج الإدارة المصرية، يقوم فيها مفوض ملكى أو "نائب للملك" (= مندوب سام) مطلق السلطات بإدارة مساحة شاسعة من الوادى تمتد من "كاروى" حتى "الكاب". أما فى "كنعان" فلقد أدرك المصريون من فورهم أنه يستحيل عليهم أن يستبدلوا المؤسسات السياسية المحلية بسهولة، نظراً لارتفاعها إلى درجة من الحنكة (بفضل أصولها التى نبعت وسط الأموريين فى شمال سوريا وبلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا) يمكن مقارنتها بما تعرفه مصر ذاتها. وفى النوبة وجد المصريون لزاماً عليهم أن يقيموا معبراً على امتداد نهر النيل وأن يحافظوا على استمراره، أولاً عن طريق بناء سلسلة من الحصون، وفى وقت لاحق خلال زرع مستوطنات استعمارية. ولكن بلاد "كنعان" كانت تعرف بالفعل ممرين، الطريق البحرى Via Maris ، على امتداد الساحل، والطريق الذى (أطلق عليه فى وقت لاحق) "الطريق الملكى" ويمر خلال الضفة الغربية، وكل ما أصبح على المصريين أن يفعلوه هو الاستيلاء عليهما وإحكام سيطرتهم عليهما(اللوحتان رقم ١٩، ٢٠) وفى النوبة كانت مصادر الإنتاج فى أيدى المصريين منذ البدء، وكانت وسائل الإنتاج المحلية هنا غاية فى التخلف، أما فى الشمال فكانت مصادر الثروة، وإذا ما استثنينا سيناء والمناطق المجاورة الغنية بالمعادن بعيدة عن مجال السيطرة المصرية.

لما كانت "المقاطعتان" الجديدتان اللتان امتلكتهما مصر مختلفتين، الواحدة عن الأخرى بشكل ملموس، فى مواردهما وسكانهما واحتياجاتهما، فلا ينبغى لأحد أن يندهش إذا أنشأ المصريون نوعين متميزين من الإدارة، واحداً للشمال وآخر للجنوب. ولقد احتاج الجنوب الذى أخذ يُحرم، بصفة متصاعدة من قاعدته القبلية المحلية، إلى بيروقراطية جديدة ومحكمة التصميم ينقلها إليه المصريون من مصر ويفرضونها عليه. ولكن الشمال الذى لم يعانِ، بالمرة، من القضاء على هيكله السياسى، وبالتالى لم يكن يحتاج إلى استزراع مثل ذلك الإطار المحكم التصميم من وادى النيل.

الدولة الكنعانية والمجتمع:

كشفت، منذ وقت طويل، بلاد المشرق الساحلية التى فتحها التخامسة المحاربون عن رقى ثقافى وسياسى، لا تستطيع هزيمة عسكرية فى هذه المعركة أو تلك أن تمحوه. فالمجتمع الكنعانى[٣] كان قد تشكَّل فى العصر البرونزى المتأخر حول عدد من الدول التى كانت مع حجمها المتوسط، فى طريقها للتبلور كحواضر ترتكز على مدن تدَّعى، أو فى حقيقة الأمر تصبو إلى وضع "مملكة كبرى": "حازور" (= حاصور) فى أعالى وادى الأردن، "قادش" فى أعالى العاصى، "تونيب" فى أواسط سوريا، بلاد "نوخاششى" جنوبى "حلب"، و "أوجاريت" على الساحل، وبذلك لا نكون قد أشرنا إلا إلى أكبر المتنافسين فى هذا المجال.[٤] فكل هذه الدول/المدن تسيطر على مساحة من الأراضى تضم مزارع ومدنًا صغيرة وأحيانًا مدنًا خاضعة لسيطرتها، ولكنها كانت باستمرار فى حالة إما توسع أو تقلص، من جراء نزوات الخصومة على الحدود، والزيجات الدبلوماسية وعمليات البيع والشراء أو السلب والنهب. ولم يكن بوسع أحد أن يدعى الأمان فى وادى النهر المجاور أو فى الدول الواقعة فى المرتفعات العالية، تلك التى أورث عمرها المديد تقاليد فرض آلهة الطبيعة التى تخدم نفسها بنفسها للعقاب الصارم، وهى التقاليد التى تحملت، فيما يبدو، كل اختيار من اختيارات الآلهة.

درج وصف رئيس مثل هذه الدولة الحضرية بصفة "ملك"، ولكنه كان أقرب ما يكون إلى أمير – تاجر، وأول بين أنداد (= متساوين) primus unter pares ، أى نبيل بارز بين طبقة من النبلاء من أقرانه. وكانت هذه الطبقة تتكون من مجموعة من أرستقراطية تقود العجلات الحربية تدعى "ماريانو" maryannu (من "marya" الآرية = نبلاء العجلات الحربية)، وهى الأرستقراطية التى تملك العزب (=الضياع) فى المناطق الريفية وتسيطر على مجتمع القرى الكبرى. وتعتمد العضوية فى هذه الطبقة على الوراثة، مع أنه كان فى طوع الملك أيضًا أن يرقى أتباعه إلى مرتبة "الماريانو" تلك. وفى أواسط السلم الاجتماعى نجد طبقة الحرفيين أو الصناع، وهم عبارة عن قوة عمل، إلى حد كبير تخضع لسيطرة القصر. وقد ذاع صيت هذه الطبقة، وخصوصًا عمال التعدين فى قلبها، حتى تاق إلى امتلاك التحف المعدنية السورية الصنع فراعنة مصر

الذين كانوا فى العادة لا يعيرون المنتجات القادمة من الأراضى الأجنبية أى اهتمام. وفى قاع التركيب الطبقى للمجتمع الكنعانى نجد الفلاحين "الخويشو" أو الجماهير الريفية الذين يعملون سـواء فى المزارع أو سـائر وحدات الإنتاج الزراعية (قـارن الـ "جات" gat أو معصرة الزيتون) ولما كانت طبقة "الخويشو" هذه مرتبطة بشكل حاسم بالأرض بصفة دائمة فلقد وقع على كاهلها أن تمد الدولة بالميليشيات المحلية التى تخوض الحروب أو تنخرط فى مشاريع التشييد. وكانت هناك مجموعة منفصلة صغيرة، تسمى "العابيرو"، تقع على مبعدة بسيطة من هامش المجتمع الكنعانى "الراقى" الذى عرفه العصر البرونزى المتأخر. وهذه المجموعة كانت عبارة عن زمرة من الخارجين على القانون، المناهضين للتنظيم الاجتماعى، المنبوذين من المجتمع الذين يحافظون على حياتهم داخل تجمع شبه مستقل فى المناطق الريفية داخل الدول الكنعانية. مع أنهم كانوا لا يترددون، فى غالب الأحيان، فى وضع أنفسهم فى خدمة هذه الدول، إلا أن هؤلاء "العابيرو" حافظوا بشكل عام على استقلالهم وحريتهم فى الترحال. ولقد حاول كثيرون فى كتاباتهم استقصاء الظروف الاجتماعية المناوئة داخل المجتمع الكنعانى التى ولدت، بالضرورة، مثل هذه المجموعة البشرية، ويبدو غير مستبعد أن تكون عدة عوامل منها سوء الإدارة والاختناقات الاقتصادية والكوارث الطبيعية قد تضافرت، مثلما حدث فى الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث بعد ميلاد المسيح، كى تنتج ظاهرة "الهروب من الأرض" من جانب العناصر المعدمة من السكان. أيًا كان السبب، فالـ "عابيرو"، وكما يدل اسمهم ذاته (مثيرو الغبار: أى أولئك الذين يخلون العقارات بسرعة فائقة) يكشفون عن سمة أشبه بالغجر، ولقد برهنوا على صعوبة وضعهم تحت السيطرة الفعالة من جانب سلطات الدولة. ويتضح طابعهم غير المتجانس فى قوائم الإحصاء التى ترجع إلى مدينة "ألالاخ" حيث ضمت إحدى زمر الـ "عابيرو" لصًا مسلحًا واثنين من قادة العجلات الحربية وشحاذين وحتى كاهن للإلهة "عشتار"(٥).

يلوح أبناء المجتمع الكنعانى أمام أعيننا على هيئة جرافيكية (= خطوطية أى مكتوبة أو مرسومة أو منقوشة - المترجم) فى الجداريات المصرية، إذ تصورهم هذه الجداريات إما أسرى أخذوا خلال الحروب الأجنبية أو وكلاء تجاريين مفطورين على تعاطى التجارة.(٦) كما يظهرون أيضًا فى مصدر أقل أهمية يتمثل فيما نصادفه على

الأختام القومية وما أشبه من مصادر. واستناداً إلى هذه الأدلة يصبح واضحًا لنا أن المجتمع الكنعانى كان قد طور زيه وتسريح شعره، دون أن يعتمد إلا بصفة جزئية على الثقافات المجاورة. فمع نهاية عصر سيطرة الهكسوس، خلال أواسط القرن السادس عشر ق.م. كان للنبيل الثرى أن يخطر فى نقبة سادة (= غير منقوشة وغير مخططة – المترجم) من الجلد أو الكتان كرداء أساسي، يضيف إليها جلد شاة يرسله على كتفيه فى فصل الشتاء. ومن حين لآخر، وخصوصًا فى مطلع العصر البرونزى المتأخر كان قد بدأ يجرب لف بدنه من الخصر حتى رسغ القدم بشريط عريض من نسيج مزخرف تحدده "فرنشة". أما فى شمال وأواسط سوريا فلربما قلد الملوك زى بلاد الرافدين بارتداء جلاليب من الصوف عتيقة الطراز، وكانوا يضيفون إليها معطفًا يتخذونه من فروة الغنم، يرسلونه على كتف واحد، وتعلوه طاقية طويلة مدورة. (شكل ٧ رقم ١)

ومع مجيء العصر البرونزى المتأخر، بدأت مرحلة جديدة فى تطور الأزياء. إذ بدأ الآسيويون الميسورون من شمال سوريا و"ميتانى" يظهرون الآن، أى اعتباراً من حكم "تحوت – موسى" الثالث فصاعداً وقد ارتدوا جلباباً أبيض اللون مكسمًا مع حواف زرقاء أو حمراء، تصل من العنق إلى منتصف سمانة الرجل، مع كمين ضيقين يصلان إلى رسغ اليدين. وكانوا يبدون حليقى الرأس ويرتدون أحيانًا عرقية (انظر شكل ٧ رقم ٢)، وهو الأمر الذى قد يعكس تأثيراً من ثقافة الحوريين. ومن المحتمل أن "الجراب" المكسم الطويل الكمين كان بمثابة جلباب صيفى أساسى، وهو جلباب يقبل إسدال جلباب خارجى أثقل عليه فى فصل الشتاء. وهذا قد يكون هو القفطان الأثقل الذى كان معروفًا فى الأزمنة الأقدم (شكل ٧ رقم ١) ولكنهم كانوا يفضلون، فيما يبدو، العباءة المحففة المزودة بفرنشة. وقد تطورت هذه العباءة إلى قطعة واحدة طويلة من قماش مطرز بألوان زاهية، تُلف حول البدن من رسغ القدم صعوداً إلى أعلى، وكانت ترسل فى غالب الأحيان على الكتفين.(شكل ٧ رقم ٣) وسرعان ما أصبح الشال الذى يُلف حول البدن كله، مع "الجراب" الذى صار يلبس كجلباب داخلى، وشريط وتسريحة شعر مشدود إلى الوراء، بمثابة الزى المألوف للطبقات الكنعانية الراقية داخل نطاق الإمبراطورية المصرية فى آسيا. (شكل ٧ رقم ٤)

يتمثل أحد أهم الآثار الناجمة عن الغزوات التى قامت بها مصر فى غرب آسيا فى وضع حدٍ ، داخل نطاق المناطق المغزوة، لسيادة الدول الحضرية الضخمة. إذ قلص المصريون وقت ذاك منزلة كل من "حـازور" (= حاصور) و "قادش" و "تونيب"، وهى الدول التى كانت تطمح فى وقت ما إلى مثل تلك القيادة. فكل عمد القرى والمدن الصغرى، مع أسيادهم السابقين نزلوا إلى مستوى واحد يجمع بينهم معًا، خلال الالتزام بأداء قسم الولاء باسم الفرعون. وبالتالى تحولت مدن "كنعان" الآن إلى "مدن الفرعون"، وهذه تتكون من البناء التحتى المتخلف عن الدول الحضرية التى غربت شمسها فى جنوب المشرق.(٧)

الإدارة البلدية:

إذا كان الفرعون قد تكفل الآن بلعب دور الحاكم المطلق، وحسب، بالنسبة لرؤساء "كنعان" ، إلاّ أنه عزف عن توريط نفسه أكثر من ذلك فى شئونهم. فلقد ظل تركيبهم الاجتماعى الذى يستند إلى طبقتىْ "الماريانو" (= الفرسان - المحاربين) والـ "خوبشو" (الفلاحين) قائمًا على حالته الأصلية، فى حين نهض هؤلاء الرؤساء بدور همزة الوصل بينهما. وعند تعريف أنفسهم فى خطاباتهم إلى الفرعون، كان هؤلاء الرؤساء يطلقون على أنفسهم بصفة شبه دائمة لقب: "رجل مدينة كذا أو كذا"، وفى خطابات الفرعون القليلة إليهم التى وصلتنا استخدم نفس اللقب.(٨) وقد أطلق على هؤلاء الرؤساء، بصورة جماعية، باللغة الأكدية التى سادت ذلك العصر كاللغة المشتركة Lingua Franca التى يتفاهم بها الناطقون بلغاتٍ مختلفة فى المنطقة، اسم "خزنوتى" Hazanuti ، وهو الاسم المقابل للاسم المصرى"حاتى": h³ty الذى لا يعنى أكثر من "عمدة" أو حاكم مدينة مصرية صغرى. وهكذا نظرت الإدارة الفرعونية إلى الرؤساء الكنعانيين باعتبارهم "عمداً" بالمعنى المصرى للاسم، وهو الأمر الذى يوضح إلى حد كبير نوع الوضع والدور والالتزام الذى تكفل هؤلاء الأعيان الكنعانيون أمام التاج المصرى بأدائه.

وعلى غرار نظرائهم على امتداد وادى النيل، كان يُطلب من هؤلاء العمد الكنعانيين أن يؤدوا قسم الولاء باسم الفرعون(٩) وأن يرسلوا من أبنائهم أو ذويهم ما قد يطلب

منهم المصريون أن يرسلوه، ويقول كاتب الوثيقة رقم EA180 "لقد أرسلت ابنى إلى الفرعون، سيدى وإلهى وشمسى." ويردد "شاتيا" وهو من أبناء "إنيشازى" Shatiya of Enishazi (EA187) "ها قد أرسلت ابنتى إلى القصر، إلى الفرعون، سيدى وإلهى وشمسى". ويجزم "أرخاتو" من أبناء "كوميدى" (EA198) أرسلت ابنى إلى حضرة الفرعون، سيدى كى يتكرم علىّ جلالة الملك سيدى ويمنحنى الحياة." ويبدو أن ذلك كان أول خطوة يتخذها أى عمدة يصل حديثًا إلى المنصب، وهى الخطوة التى تعنى استعداده، الذى لا غنى عنه، للتعاون. وكان الفرعون "تحوت - موسى" الثالث هو الذى بدأ هذا التقليد، كما يخبرنا هو بنفسه: "والآن نقلنا أبناء الرؤساء وإخوتهم إلى مصر كرهائن، وعند وفاة أى من هؤلاء الرؤساء فإن جلالته دأب على إرسال أحد أبنائه (أى أبناء الرئيس) كى يخلفه فى منصبه" (UrkIV,690) . وفى مصر كان أبناء الرؤساء هؤلاء يتعرضون بطبيعة الحال للأعراف المصرية واللغة المصرية، وربما كانت الإدارة المصرية تخرطهم فى النظام التعليمى فى مصر. وقد ألحق المصريون كثيرًا منهم فى الوحدات شبه العسكرية التى تقوم بحراسة الفرعون والركض أمام العجلة الحربية الملكية، وعندما يتقدم بهم العمر كانوا يشيرون إلى أنفسهم بصفتهم: "ممهد الطريق أمام خيولك (أى خيول الفرعون) (EA331) وقد عاد بعضهم، ممن أرسلوا إلى مصر فى سن صغيرة لبلادهم، وقد تمصروا تمامًا، وأصبحوا يتحدثون لغة جدودهم كلغة ثانية، ويشعرون فى مصر أنهم بين ذويهم وفى وطنهم أكثر مما يفعلون فى بلادهم الأصلية. ويخبرنا "ياختيرى" Yakhtiri رجل "غزة" (EA296) "عندما كنت فى ريعان الصبا واصطحبنى المفوض المصرى معه إلى مصر، التحقت بخدمة الفرعون سيدى، وأسندوا إلى حراسة بوابة الفرعون سيدى."

وقعت على كاهل العمد الكنعانيين نفس الأعباء التى يتحملها العمد المصريون. فلقد تعيّن عليهم أن يسلموا الضرائب على وجه السرعة وصار عليهم أن يستضيفوا أو يصاحبوا المسئولين المصريين الذين يمرون ببلادهم. إذ يؤكد "لابعايو" Lab'ayu رجل "سيخيم" (= شكيم) Shechem قائلاً: "انظر! ها أنذا خادم جدير بالثقة عند الفرعون. لم أرتكب حماقة أو أنزلق إلى خطيئة، لم أمتنع عن دفع الضرائب المقررة ولم أرفض

طلبًا للمفوض المصرى" (EA254) وعندما كان الفرعون يخرج على رأس تجريدة من التجريدات العسكرية، التى لم تكن أكثر من نزهة يقوم بها فى غرب آسيا، كان على العمدة أن يستضيف ويقدم المؤن اللازمة للتجريدة، كما كان عليه أن يقدم قوة من الجنود كى تنضم إلى تجريدة المصريين. وفى هذا الصدد يخبرنا "أرزاويا" Arzawiya رجل "رخيزى" Rukhizzi "كتب إلىّ جلالة الفرعون بخصوص الاستعدادات اللازمة لوصول قوات الفرعون سيدى، وبشأن وصول مفوضيه العديدين." (EA191) ويعلن آخر:" لقد أعددت الثيران والأبقار كما أمرتنى فى الخطاب." (EA193) ويقطع "بيرياوازا" Biryawaza رجل "دمشق" على نفسه عهدًا:" لسوف أقف على أهبة الاستعداد مع قواتى وعجلاتى الحربية وأشقائى، وال "عابيرو" وال "سوتو" Sutu التابعين لى انتظارًا لوصول القوات ولأداء ما يفرضه علىَّ الواجب، حيثما يأمرنى سيدى" (EA195) وكان لزامًا على كل عمدة أن يرفع تقريرًا مكتوبًا إلى الحاكم المطلق، وكان يستخدم فيه أسلوبًا مقولبًا بالغ التزلف:" إلى جلالة الفرعون سيدى وإلهى وشمسى، والشمس فى كبد السماء، هكذا يتحدث "ويدييا" Widiya رجل "عشقلون" خادمك، تراب قدميك،... عند قدمى الفرعون سيدى أرتمى سبع مرات وسبع مرات أخرى أرتمى على بطنى وعلى ظهرى! انظر لقد خفرت الموضع الذى كلفنى جلالة الفرعون أن أغفره. وكل ما كتب به إلى الفرعون سيدى امتثلت له بعناية فائقة. فمن هو الكلب الذى لا يمتثل لكلمات الفرعون سيده، ابن رع؟" (EA230)

عانى العمد الكنعانيون من الوضع الملتبس كوسطاء يقفون فى منتصف الطريق بين فرعون يلحف فى طلباته ولا يحمل لهم أى عطف وبين أبناء شعوبهم نفسها الذين مالوا نحو العصيان. فإذا بدوا كـ "رجال مصر" إلى درجة زائدة، فإنهم يواجهون مخاطر الاغتيال،، ولكن إذا فشلوا فى التعاون مع الإدارة الإمبراطورية، فإنهم يواجهون خطر جرجرتهم إلى بلاط الفرعون كى يردوا على الاتهامات الموجهة إليهم. وفى سائر الأحوال لم يكن فى وسعهم، على وجه التقريب، أن يتجنبوا السفر إلى مصر فى وقت أو آخر من حياتهم، نظرًا لأن الفرعون كان يطلب النبلاء الكنعانيين أن يشرِّفوا بلاطه خلال الأعياد القومية لمصر. (لوحة رقم ٢١)

وزارة خارجية الإمبراطورية:

يتملك المرء انطباع لا لبس فيه ولا مراء خلال درسه للسجلات التاريخية للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أن إدارة الإمبراطورية الجديدة إنما نشأت على أساس "الغرض الخاص" ad hoc (=ابن اللحظة)، دون كثير خيال يمتد إلى ما هو أبعد من الاستجابة لاحتياج عملي.(١٠) فغداة الغزو، كانت حكومة الفرعون تجد نفسها في حاجة ماسة إلى مسئولين أكفاء للحفاظ على النظام بين الآسيويين، ولقد وقفنا، في أوقات متفرقة، على تعيين وصيف بسيط، وحتى مهندس إنشاءات في منصب قائد حصن. وهناك شعور بالغرور يتدفق في السيرة الذاتية لشخص يدعى "إتيو" Itju الذي يصف نفسه بأنه "شرطي بلاد "فنخو" (=الساحل اللبناني) الذي يعاقب كل من يتمرد على جلالة الفرعون في بلاد "ريتينو" (=المشرق بصفة عامة)" (UrkIV,1641) وتمشياً مع الجهود المؤقتة في اتجاه خلق "إدارة خارجية" فريدة، لجأ مسئولو الأسرة الثامنة عشرة بين الحين والآخر إلى بعث حياة جديدة في لقب قديم هو: "ناظر البلاد الأجنبية"، الذي حمله في المملكة القديمة، وما بعدها مبعوثون مكلفون بمهام معينة في البلاد الأجنبية. أما في المملكة الحديثة، فلم يعد هذا اللقب يزيد بصورة رئيسية على صفة يحملها عدد كبير من الأشخاص دون أن يكون لهم صلة بـ "الحكومة" الرسمية التي تقوم في الأراضي المفتوحة.(١١)

لم تكد تمر أربعة أجيال وحسب على رحيل الفاتح "تحوت - موسي" الثالث حتى بدأت وزارة للخارجية في التشكل، ولكن الأدلة لا تتفق باستمرار على الشكل الذي أخذته أو الألقاب التي حملها مسئولوها. إلا أن المراسلات الأكدية التي حفظتها لنا تلك الألواح النفيسة التي ترجع إلى أرشيف "أخيتاتون" (=العمارنة) تصور، بصفة أساسية، الاتصالات التي تمر بين البلاط المصري والعمد الكنعانيين في شمال الإمبراطورية، وبهذه الصفة نجد الإشارة باللقب إلى المسئولين المصريين تتردد في كل موضع. لكن الألقاب ترد باللغة الأكدية. فـ "ربصو"، أي "المشرف" شائع بشكل خاص، إلا أن بعض الألقاب كانت ترد أحياناً باللغة الكنعانية مثل "شاكين - ماتي" sakin mâti أي الحاكم و "مالك" malik أي مستشار (بالكنعاني) و "سوكين" söken (بالكنعاني) أي المشرف العام. فهل هذه ترجمات لألقاب مصرية؟ أم أنها كانت أقرب الأوصاف الكنعانية أو الأكدية، التي يستطيع العمد الكنعانيون أن يقترحوها لتسمية المفوضين

المصريين الذين يحملون رتبًا مجهولة تمامًا فى حقيقتها بالنسبة لهم؟ واقع الأمر أن الاحتمال الأخير هو ما ينطبق بالتحديد على حالتنا رهن الحديث.

وعندما يفحص المرء المسئولين الذين نقشت أسماؤهم باللغة الأكدية فى رسائل "أخيتاتون" (=العمارنة)[١٢] ويحاول الربط بينها وبين المسئولين المعروفين لنا من فترة الفرعون "أمين – حوتب" الثالث و "أخناتون" يتضح أن معظم الهويات المحتملة ترجع إلى رتب فى العسكروت (=السلك العسكرى)، مع زيادة كبيرة فى عدد الأفراد الذين ينتمون إلى الرتب الأدنى.[١٣] وبناء عليه نستطيع أن نشير إلى "حامل البيرق"، وهو لقب يقابل فى الجيش المصرى القديم ما نعرفه نحن اليوم بـ "الكابتن" (= نقيب) ومساعدو قادة السرايا وكتبة الجيش و"رؤساء الإصطبل" الذى يوازى عندنا مديرى الإمدادات والتموين، وكل هؤلاء كانوا يعملون فى المناطق الشمالية من الإمبراطورية كمفوضين رسميين للفرعون. وواضح أنهم لا يضمون بينهم أى رتب عالية (إلاّ أن هذا لا يمنع أن نصادف مسئولاً كبيراً كالوزير أو رسول الفرعون وقد ظهر متى دعت الضرورة) وليس بينهم من يحمل أى رتبة بشكل مؤقت pro tem أعلى من مفوض ملكى.

وكانت دوائر اختصاص هؤلاء المسئولين تتغير بصفة دائمة على أساس "الغرض الخاص" ad hoc أى ابن لحظته، وليس فى وسعنا أن نتحدث عن "مقاطعات" بالمعنى الذى أصبحنا نألفه خلال درسنا للإمبراطورية الرومانية. وذلك لأن معرفة مسئول ما الوثيقة بمنطقة معينة فى البلاد كانت تقصر عمله على وجه الاحتمال على منطقة واحدة وحسب، إلاّ أن السبب كان سببًا خاصًا لا يتصل من قريب أو بعيد بأى تقسيم مسبق للأراضى الخاضعة. بل وأكثر من ذلك كان المصريون عندما يشيرون إلى الإمبراطورية الشمالية، تراهم يتحدثون عن "بلاد "كنعان" (أو "خارو"، "جاهى"... إلخ) وكذلك عند الإشارة إلى المدن هناك كانوا ينسبونها إلى إقليمها الجغرافى، وليس أبداً إلى "ولاية" كذا أو كذا" وكان الفرعون يوفد المسئول المصرى من قبله فى مهمة محددة ويخصص له عدداً معينًا من المدن الكنعانية، يزوره، فى كل جولة. وكان يقوم بزيارة هذه المدن خلال طوافه، وخلال إقامته هناك كان يتمتع بسلطات واسعة. فكان يحمل خطابات الفرعون، وكان بوسعه أن يقبض على أى أشخاص محليين ويحملهم معه إلى مصر،

وكان بطوعه أيضًا أن يطالب بالمستحقات والضرائب، وكان يفصل فى القضايا وفقًا للقانون، بل وكان فى وسعه أن يحسم نزاعات الحدود بين مدينة وأخرى. إلاّ أنه كان يعود، باستمرار عاجلاً أو آجلاً إلى مصر لإطلاع الفرعون ومسئوليه والتشاور معهم حول الأوضاع فى الإمبراطورية الشمالية.

إذا كان عصر الفرعون العظيم "أمين - حوتب" الثالث قد شهد ولادة وزارة خارجية منظمة، فإن عصر الرعامسة (الأسرة التاسعة عشرة) هو الذى وصل بها إلى مرحلة معقولة من الارتقاء. إذ يتضح تمامًا من واقع السجلات الغزيرة التى وصلت إلينا من الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين أن الحاكم الإدارى المحلى فى ذلك العصر كان، بالدرجة الأولى "رسولاً خاصًا" (رسول الفرعون إلى البلاد الأجنبية)، الذى يحمل رسائل الفرعون ويقدم تقاريره عند عودته إليه.(١٤) وكان يقع عليه الاختيار، فى الغالب الأعم، من بين صفوف العسكريين، وعلى وجه أخص من سلاح العجلات الحربية. وربما تكون السيرة الذاتية لشخصية بارزة مثل "أمين - مونى Amenemone" تحت ظل حكم الفرعون "رعمسيس" الثانى نموذجية هنا: "كنت وصيفًا عند جلالته فى صباى، ثم عندما أصبح سيداً (= فرعون) عيننى فى منصب قائد عجلة حربية وناظر الإصطبل. وقد أثنى علىّ سيدى نتيجة لكفاءتى. وعيننى قائد كتيبة فى جيش جلالته... وأوفدنى كرسول ملكى لكل البلاد الأجنبية، وكنت أعود كى أقدم له تقاريرى حول البلاد الأجنبية بكل تفصيلة من التفاصيل."(١٥)

وأصبح "رسول الفرعون إلى كل البلاد الأجنبية" نموذجًا رومانسيًا فى كل من المجتمع والأدب فى عصر الرعامسة، وهو النموذج الذى قد تجوز مقارنته بالفارس - الرحّال فى أوروبا العصور الوسيطة، أو رجل الحدود frontierman فى أمريكا خلال القرن التاسع عشر. ومن واقع مقال ساخر يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ق.م.، تحمله بردية "أنستاسى" رقم ١، وهو المقال الذى يصف تلك المهنة بتصوير عضو غير كفء بالمرة، نجد أنفسنا وقد فوجئنا مفاجأة سارة بلمحة مفصلة عن مثل تلك المؤهلات التى ينبغى لذلك الرسول أن يتمتع بحملها.(١٦) إذ يتعين على الرسول الملكى أن يكون "كاتبًا فذًا" وأن يكون "محاربًا بارعًا" و "قائدًا للقوات الحربية ومقدمًا للجنود" (بردية "أنستاسى"١،٢٧: ١) و "متدربًا على كل عمل من الأعمال" (المرجع السابق ٢٨ : ٢) وأن يكون قائدًا ممتازًا للعجلة الحربية وأن يكون قواسًا. كما يتعين عليه على وجه

الخصوص أن يكون متبحراً فى جغرافية وتضاريس "كنعان"، بما فى ذلك دروبها والمواطن التى يستطيع أن ينزل فيها للمبيت. كما يقوم صاحب المقال الساخر باختبار رسوله الخيالى بسيل سريع من الأسئلة: "أيها المحارب أين تقع "رفح" Raphia ؟ أى نوع من الأسوار يكون سورها؟ كم "أتر" نحتاج كى نصل إلى "غزة"؟ (٢٧: ٧-٨)... أين يقع تيار "ناتن"(هل هو نهر الليطانى؟) ماذا تعرف عن "أوزو": Uzu ؟... أيها المحارب أرنى من فضلك الطريق الذى يقود إلى منطقة "أكشو"، وأين الدرب الذى يحملنى إلى "أكساف" Achsaph ؟(٢١: ٤-٥).

على أن ذكر المسئولين المدنيين لا يرد إلا بصورة أقل من العسكريين. وقد يصور وجود كاتب الفرعون أو قهرمانه (= مدير مراسمه) فى "كنعان"، إدارة الممتلكات الفرعونية هناك أو حرصها على تحصيل الضرائب.

ونجد فى عصر ما بعد - "أخيتاتون"(=العمارنة) فى جدول المسئولين الإداريين لقبًا أكثر شيوعًا بنسبة قليلة هو لقب" ناظر البلاد الأجنبية"، وهو اللقب الذى ارتقى، فيما يبدو، بحلول عصر الأسرة التاسعة عشرة إلى منزلة "حاكم". وتشير مراسلات الفرعون "رعمسيس" الثانى مع "هاتوسيليس" الثالث، ملك الحيثيين إلى "حاكم" الفرعون فى بلاد "أوب" (فى زمام دمشق) حيث يتخذ مقره، بكل تأكيد، فى مدينة "كوميدى".[١٧] ونكتشف فى مستويات حقبة/طبقة رقم LBII العديد من المدن الكنعانية، بما فيها "تل الفرعا" Tel Fara (إلى الجنوب) و "بيت شان" Beth Shean و "تل سيرا" Tel Sera وتل ماسوس" Tel Masos و "تل هيسى" Tel Hesi و "تل يميه" Tel Jemmeh وأبيك" Aphek وغيرها، وجود نمط سكنى (= بيتى) مختلف فى تصميمه المعمارى بصورة واضحة عن التصميم المعمارى المعاصر للبيت الكنعانى. إلا أنه يعيد إلى أذهاننا بتفاصيل محددة التصميمات المعمارية المعاصرة لبيوت الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة فى مصر.[١٨] ولعله من المرجح أن الدراسات الراهنة لم تخطئ فى تفسيرها وجود مثل هذه المبانى على اعتبار أنها مقار ومكاتب بنتها لإقامتها الإدارة الفرعونية، ولو أن البديهة تفرض على المرء ألاَّ يقفز إلى ضرورة وجود "حاكم" حيثما يعثر فى العراء على تصميم معمارى لبيت مصرى. إلا أن نقل الضرائب والإشراف على ممتلكات المعابد وضروريات الحامية العسكرية لابد وأن تقف وراء وجود العديد من الموظفين الصغار والجنود الذين لم تصل إلينا أسماؤهم.

الحاميات والمراكز الإدارية:

وقع اختيار الرعامسة على مدن معينة، تتمتع بمواقع إستراتيجية من وجهة النظر المصرية ورفعوها إلى مرتبة معاقل. ولقد ألحقوا مخزنًا للسلاح بحصن "صايل" على أسافل الفرع البوباسطى لنهر النيل، ذلك البرج الحدودى الذى نظر إليه المصريون باعتباره واقعًا فى بلاد الواق واق (= فى آخر آخر الدنيا) Ultima Thule[١٩] وعيَّن المصريون "قائدًا" للعجلات الحربية، وقائد كتيبة ورسولاً ملكيًا إلى البلاد الأجنبية فى منصب قائد الحصن. وإلى الجنوب أكثر، فى "وادى طوميلات" الذى كان لمدة طويلة بمثابة ممر وصول للآسيويين من أواسط سيناء، وحوَّل المصريون حصن "تيككو"(بالعبرى "سكوث") Succoth إلى مركز ضخم للبوليس ونقطة تفتيش لرصد قبائل البدو التى تسعى إلى دخول الدلتا طلبًا للمرعى.[٢٠] وتوفر لنا رسالة مشهورة خطها كاتب مقيم، ترجع إلى السنة الثامنة من حكم الفرعون "ميرى - ان - بتاح" بصيرة نافذة فى هذا الغرض: "انتهينا من التصريح لقبائل "الشاسو" الأدوميين، خلال حصن "ميرى - ان - بتاح" - رضى - بالسلام، له العمر والرخاء والعافية، التى فى "تيككو" إلى بحيرات "بيت - أتوم" التى تتبع "ميرى - ان - بتاح" - رضى - بالسلام، التى فى "تيككو" فى سبيل غذائهم وغذاء قطعانهم." (بردية أنستاسى. رقم IV,18,6-7)

حقًا كان الطريق البحرى إلى الساحل اللبنانى قد أصبح وقت ذاك مألوفًا طرقه المصريون لمدد طويلة، إلاّ أن المصريين كانوا لا يزالون يرون فى الطريق البرى من حدود الدلتا الذى يصل طوله إلى ١٦٠ كيلو مترًا، أهم ممر إلى آسيا. (اللوحتان ٢٢-٢٤) ومع بداية الأسرة التاسعة عشرة أصبح هذا الطريق "مرشومًا" بما يصل إلى حوالى اثنتى عشرة "محطة طريق".[٢١] وهذه يصورها الفن المعاصر كـ "حصون صغيرة محصنة، تتركز حول آبار أو بحيرات عذبة، وتسمى اسمًا نوعيًا generic يضم تحته أسماء جنس عديدة هو "أحواض". وتقول النصوص إن هذه الأحواض كانت توضع تحت إدارة "مأمور" تنفيذى، وفى بعض الأحيان كانت توضع تحت إدارة قادة كتائب، إذا ما حازت هذه المحطة أو تلك، أهمية إستراتيجية خاصة. وقد خضعت محطتان من هذه المحطات، فى حقيقة الأمر، للتنقيب: إحداهما هى "دير البلح" قرب "غزة"[٢٢]

والأخرى هى "بير العبد" فى سيناء.[٢٣] وتؤكد المكتشفات التى عثر عليها المنقبون، إلى حد كبير، على ما جاء فى النصوص والتصوير الفنى فى الجداريات. وكانت "دير البلح" تضم مبنى لمقر متقن التشييد مصرى الطراز، بنى خلال فترة "أخيتاتون" (=العمارنة) وجرى استبداله على عهد الفرعون "سيتى" الأول بقلعة يعلوها برج، وتضم أربع عشرة حجرة، يصل اتساع كل منها إلى ٢٠ فى ٢٠ متراً. وإلى جانب هذه المبانى تقوم حفرة من صنع الإنسان، وليس الطبيعة، يصل عمقها إلى خمسة أمتار وتمتد ٤٠٠ متراً، مما يبدو واضحاً أن الغرض منها كان استخدامها كخزان للمياة.[٢٤]

تقوم شواهد قوية على احتلال المصريين لـ "كنعان" فى رسائل "أخيتاتون" والنقوش المصرية. ويبدو أن الاعتبار الذى حكم سياسة توزيع الحاميات: "يواعت" أى "قوة الجنود المرابطين"[٢٥] كان إستراتيجياً: احتلت المدن الساحلية أهمية كبرى فى هذا الصدد. وفى مطلع حكم الأسرة الثامنة عشرة زوَّد المصريون "شاروهين" بحامية، ولكن بعد حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث تبوأت "غزة" الدور الذى كانت "شاروهين" تقوم به كمقر لحامية مصرية. وإذا ما توغلنا أكثر باتجاه الشمال فإننا نصادف "قائداً لحامية" وقد ورد ذكره عند الحديث عن "صور"، وإذا كان لنا أن نحكم استناداً إلى عدد من الفقرات التى وردت فى رسائل "أخيتاتون" (=العمارنة)، تكون "بيبلوس" قد استضافت قوة مماثلة من الجنود المرابطين. وتشير بعض النصوص إلى قلعة بناها المصريون كى تتمركز فيها "حامية"على شاطئ لبنان، ولكن موقعها على وجه التحديد وطبيعة مهامها لا يزالان بحاجة إلى التعيين. وقد نصب المصريون حاميتين فى كل من "أولازا" و "أوجاريت" فى مطلع عهد الإمبراطورية، ولكن سرعان ما فقدت مصر هذه المدينة الأخيرة: "أوجاريت"، بينما حلت "سومور" محل "أولازا" فى استضافة الحامية المصرية هناك.

وكانت الحاميات التى نصبها المصريون فى المدن الداخلية (=البعيدة عن الساحل) أقل من تلك التى نصبوها فى المدن الساحلية، ولكنها تعكس مدى اهتمام المصريين بهذه الدروب وتلك الأصقاع التى تفتقر إلى كثافة سكانية معقولة، الأمر الذى يهدد بوقوعها فى أيدٍ معادية. ولقد نصب المصريون حامية من هذا النوع فى "أورشليم" فى خواتيم الأسرة الثامنة عشرة لحماية ما أصبح يطلق عليه فى أوقات لاحقة "مرتفعات يهودا"،

أما "بيت شان" إلى الجنوب مباشرة من "بحر الجليل" فلقد خصص لها المصريون قوة مماثلة لمراقبة معابر نهر الأردن.

إلاّ أن المصريين كانوا يرون، على نطاق واسع، أن الخدمة فى الحاميات العسكرية خارج مصر عمل شاق وممطوط وفوق ذلك بغيض. وتركز النصوص التعليمية بإسهاب وتفصيل كبيرين على مصاعبها وتدمغها بأنها نوع من العقاب أو النفى. فإذا أرسل سوء الحظ جنديًا إلى "خارو" ... تاركًا زوجته وأطفاله وراءه، يكون جلده هو ثوبه وطعامه حشيش الحقل كأى رأس من المواشى" (بردية تشستر بيتى Chester Beaty رقم ٥ الصفحة اليمنى ١٢-١٥) فضلاً عن أن المدة الواحدة للخدمة قد تمتد حتى تصل إلى ست سنوات. ويشكو أحد الضباط، الذين أرسلوا، كما يبدو واضحًا، إلى إحدى الحاميات الساحلية، وكان مكلفًا بالقيام بعمليات إنشائية، من الظروف التى كان مضطرًا للعمل فى ظلها، على هذا النحو:

"أسكن فى مدينة الجحيم دون أى إمدادات. وليس هناك أهالى لضرب الطوب، فضلاً عن عدم وجود تبن فى المنطقة المحيطة. أما الإمدادات التى أرسلت لى فقد نفدت، ولم يعد عندى حمير، فلقد سرقها اللصوص. وأقضى اليوم بطوله أراقب الطيور، ولكننى ألجأ بين الحين والآخر إلى صيد السمك، وأرسل عينى إلى الطريق الصاعد إلى "جاهى" Djahy (= باتجاه بلادى) وأنا أتحرق شوقا إلى الوطن. وآخذ قيلولتى تحت شجر بلا ثمر. الهاموش يهاجم فى ضوء النهار والناموس فى صهد الظهيرة. وذباب الرمل يقرص ويمص من كل وريد فى جسمى - ... وكلما فتحت جرة مملوءة بنبيذ "كود" Kode ، وحضر الأهالى كى يحصلوا على كوب منها، فإن مائتى كلب ضخم وثلاثمائة ابن آوى أى خمسمائة أنف، ينتظروننى أمام الباب دائمًا عند خروجى، طالما شموا رائحة الخمر عند نزع سدادة الجرة... أما الحرارة هنا فلا تعرف الانخفاض."

(بردية "أنستاسى" رقم ٤ ،١٢/٥-١٣/٧)

وإلى جانب مراكز الحاميات العسكرية، اتخذ المصريون عددًا محدودًا من المدن مقارًا دائمة. ولقد أصبحت "غزة" التى أطلق عليها المصريون اسم (مدينة "كنعان") المقر الرئيسى الذى يقيم فيه حاكم يملك سلطات غامضة فى طبيعتها على الساحل

والبلاد الجبلية حتى سهل "إزداريلون".[٢٦] وكان هناك بيت لإقامة هذا المفوض، بالإضافة إلى معبد منذور لـ "آمون" ولـ "العبقرية" الفرعونية.[٢٧] وبخلاف الحامية التى سبقت الإشارة إليها، كان المفوض المقيم يلقى العون من "مسجل" مسئول عن إرسال التقارير عن "مدن الفرعون"، أى عن المدن الكنعانية داخل الزمام الذى حددناه للتو.[٢٨] وواقع الأمر أن هذه التدابير الخاصة بالساحل الفينيقى نشأت من طبيعة الغزو الذى قام به الفرعون "تحوت – موسى" الثالث للمنطقة. فلقد صمم الفرعون، انطلاقًا من رغبته فى استخدام طريق البحر فى نقل قواته إلى آسيا، على تأمين أفضل المرافئ الفينيقية بأى ثمن. وفى سبيل هذه الغاية أقام مستودعات للتخزين فى مدن ساحلية مختارة معينة. ولقد ضمت "أولازا" حامية عسكرية ومقرًا، وفى وقت لاحق، وكما سبق أن ألمحنا، تخلت عن مركزها هذا لمدينة "سومور".[٢٩] وفى قلب البلاد تحولت "كوميدى" فى وادى البقاع، شمالى دمشق، كى تصبح مقرًا مصريًا.[٣٠]

وكان المصريون ينتقون مدنًا أخرى، فى بعض الأحيان، لأغراض خاصة. فعلى امتداد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ظلت "يافا" مركزًا مهمًا لتخزين القمح، وتنظيم عمليات السخرة، ويبدو أنها ضمت أيضًا مستودعًا للعجلات الحربية مع بزوغ عصر الأسرة التاسعة عشرة. وأصبحت "ياريموتا" Yarimuta ، التى لا نعرف موقعها، مستودعًا لتخزين القمح، أما "مجدو" فغدت بمثابة المدينة التى تتكفل بحصاد سهول "إزداريلون".

حفظ الأمن والترحيل:

كما سارت الأمور فى مصر، سارت فى آسيا، فلقد استخدم المصريون، إلى جانب قوات الحامية العسكرية والمفوضين، قوة بوليسية ليست صغيرة، تتكون إلى حد كبير من النوبيين الذين يرجعون فى أصولهم إلى قبيلة "ميدجاى" Medjay والمعروف أن السودانيين كانوا قد ساعدوا المصريين فى كفاحهم ضد الهكسوس، وبحلول أواسط الأسرة الثامنة عشرة كانوا قد شقوا لأنفسهم مثل ذلك المجال الذى يلائمهم، حتى أصبح اسم "ميدجاى" مترادفًا، على وجه التقريب، مع "الشرطى".

واختلف حجم القوات النوبية التى أرسلها المصريون إلى أسيا، بصورة كبيرة من حفنة لا تزيد على عشرة أنفار إلى عدد ضخم يصل إلى ألف نفر. ويبدو أنهم اكتسبوا صيتًا واسعًا بسلوكهم الذى يتسم بالجموح، ولكن هذا الصيت لعب، على وجه الاحتمال دورًا لصالح مصر فى إخضاع السكان المحليين.(٣١)

وفى إطار ما يمكن لنا أن نطلق عليه، ولكى نتفادى وقع التعبير، مصطلحًا مخففًا هو"ضبط سلوك السكان"، لجأ المصريون إلى وسائل مجربة وواقعية. وكانت تجربة المملكة القديمة (كما سبق لنا أن ذكرنا) قد أثبتت أهمية اقتلاع تجمعات بأسرها وإرسالها إلى مصر. ولبى هذا العمل غرضين فى نفس الوقت هما: عقاب السكان المتمردين وزيادة قوة العمل فى مصر. وقد وضع الفرعون هذه السياسة، بصورة مقتضبة، خلال التعليمات الموجزة التى أصدرها جلالته إلى المسئولين عن الإمبراطورية:

عهد إليك الفرعون له العمر والرخاء والعافية، بالبلاد الأجنبية التى تبدأ من حدود "كوش" (كى توغل حتى "نهارين") فى سبيل الحفاظ على أمن حدودها (تمشيًا مع ما قاله(؟) الفرعون له العمر والرخاء والعافية، تمامًا على نحو ما درج عليه أسلافك منذ الأزمنة القديمة. والآن إذا بلغك أن شعوبًا أجنبية ما، ممن لا يعرفون الكيفية التى ينبغى عليهم أن يعيشوا خلالها، فقد تخلوا عن أراضيهم، وعضهم الجوع وأصبحوا يعيشون كما تعيش الضوارى، وكذلك أطفالهم، عندئذ يرسل إليهم كلى - القوة سيفه الذى لا يقهر أمام جيشه كى يفنيهم ويدمر مدنهم ويشعل النار فى تلك البلدان ويستزرع أناسًا آخرين فى أماكنهم بدلاً منهم."(٣٢)

كان ترحيل المتمردين العصاة وسيلة شائعة فى تلك العصور. ولقد أصدر "أخناتون" أوامره إلى زولايا" Zulaya حاكم "دمشق": "ابعث لى بالـ "عابيرو" سكان أراضى المراعى.(؟)، الذين أرسلت لك بشأنهم ما يلى: لسوف أوطنهم فى مدن بلاد "كوش"، بما أننى أسلمت بلادهم للسلب والنهب."(٣٣)

تأتينا من فلسطين خلال النصف الأخير من الأسرة الثامنة عشرة أدلة مقنعة على درجة معينة من التصدع فى عدد السكان. إذ عثر المنقبون على العديد من المواقع التى كانت مأهولة بالسكان خلال العصر البرونزى الوسيط وقد دُمرت، مع وجود انتقال

السكان إلى الوديان والسهول الساحلية، مخلِّفين المرتفعات وراءهم، شبه خالية من السكان.(٣٤) ولقد انطوت النتائج المباشرة التى نجمت عن الغزو المصرى على التدمير العمدى للمدن الكنعانية وترحيل قطاعات ذات حجم ملحوظ من السكان.(٣٥) ويصل ما نقله الفرعون "تحوت - موسى" الثالث إلى أكثر من سبعة آلاف و ٣٠٠ نفس، فى حين اقتلع ابنه "أمين - حوتب" الثانى، وحسبما يقول هو شخصيًا ٨٩ ألفًا و ٦٠٠ نفس. وأشار "تحوت - موسى" الرابع، بشكل ضمنى، إلى أنه نقل سكان "جزر" إلى "طيبة"، بينما يتحدث ابنه "أمين - حوتب" الثالث عن معبده الجنائزى فى "طيبة" بصفته "غاصًا بالعبيد والجوارى، وأطفال رؤساء كافة البلدان الأجنبية، الذين وقعوا أسرى فى أيدى جلالته - أما أعدادهم فليست معروفة - وقد طوقت المعبد مستوطنات السوريين". وكان عمد "كنعان" ملزمون بناء على طلب الفرعون أن يطوقوا وأن يرسلوا إلى مصر عددًا معينًا من الرجال والنساء والأطفال: ٥٦ من "جزر" وعشرين عبدًا لمرافقة بنات عمدة "أميا" Ammia وعشرة عبيد و ٢١ خادمة، و ٨٠ أسيرًا من نفس المدينة. وتقوم شواهد على أن عصور الرعامسة عرفت بيع العبيد، وكانت حمولة الغلايين من العبيد الكنعانيين تصل بصفة منتظمة إلى الموانئ المصرية. واستمرت ترد فى نصوص الأسرة التاسعة عشرة تلميحات مقولبة إلى "تكديس ورش المعابد بالعبيد والجوارى الذين وقعوا أسرى فى أيدى جلالته"، بنفس درجة التواتر التى كانت ترد بها هذه التلميحات فيما مضى.(٣٦)

نظام الضرائب والإمبراطورية الآسيوية:

فرض المصريون على السكان الكنعانيين، بصفة رئيسية، نفسَ النظام الضرائبى المفروض فى مصر ذاتها، بعد استزراعه فى الخارج.(٣٧) فمثلما كان الحال مع الأهالى من المصريين، كان الجباة يقومون على فترات منتظمة بتقدير ما يتعين على الآسيويين دفعه ويحددون حصص الضرائب اللازمة لتغطية الرواتب التى يتقاضاها التابعون للإدارة المصرية ونفقات صيانة المعابد والحاميات وهلم جرا.(٣٨) وكان لزامًا، على العمد الكنعانيين، مثلما هو الحال مع نظرائهم المصريين، أن يسلموا "خيراتهم" (أى "ما يجرى جلبه")

فى كل رأس سنة، بالإضافة إلى تسليم جزء من "ناتج عملهم".[٣٩] واعتباراً من الغزوات الأولى التى قامت بها مصر، صادر المصريون مساحات كبيرة منتقاة، وكذلك مدناً بأكملها وجعلوا منها جزءاً من ممتلكات المعابد المصرية، وبحلول الأسرة العشرين امتلك معبد "آمون" ٥٦ مدينة ومعبد "رع" ١٠٣ مدينة كنعانية. كما فرض المصريون السخرة على الأهالى، كواجب يلتزمون بأدائه للدولة، كما كان لزاماً على العمد أن يقوموا بزراعة الحقول غير المزروعة، تماماً مثلما كان عليه الحال فى مصر.[٤٠]

حقًا لا نملك ملفًا كاملاً من البرديات التى توضح لنا البناء الكلى لنظام الضرائب الذى فرضته الإمبراطورية المصرية، إلاّ أن الإشارات إلى الدخول الواردة من الشمال فى الحوليات وصواديد/ألواح النصر والخطابات ودفاتر الأستاذ (فى الحسابات) قد نجت من عوادى الظروف كى تصل إلينا بأعداد معقولة إلى حد ما. وقد يكون فى طوعنا أن نقرر، بصفة عامة، بعد فحصنا لهذه المواد، أن المصريين لم يأخذوا من المقاطعات التوابع لهم فى الشمال، إلاّ تلك الموارد أو المنتجات التى يتعذر الحصول عليها من مصر أو من أفريقيا. ومع ذلك فلقد أغرى الغنى الذى تتمتع به "كنعان" وشمال سوريا المصريين بحلبهما إلى أقصى ما يستطيعون. ولم تكن المنطقة تتمتع بكثير من الموارد المحلية وحسب، بل كانت تشكل أيضًا مفترق طرق تلتقى عنده الدروب التجارية التى تبدأ من مسافات بعيدة مثل جزر بحر "إيجة" غربًا و "البنجاب" شرقًا. وكان بوسع الجباة أن يحضروا الضرائب إلى الفرعون شخصيًا عندما يمر خلال أراضى "كنعان" سواء على رأس حملة عسكرية أو فى جولة تفتيشية، ولكن فى الأغلب الأعم كان السكان المحليون ملزمين بنقل السلع أى الضرائب العينية بأنفسهم. وكان فى طوعهم أن يحملوا هذه السلع من جنوب "كنعان" بالبر عن طريق القوافل، أما السكان شمالى "الكرمل" فكانوا يفضلون طريق البحر.

وبخصوص الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة، فكانت الفضة تحتل المكانة الأكثر أهمية.[٤١] فمصر تفتقر إلى رواسب هذا المعدن فى أراضيها. بينما يتوفر عندها الذهب بصورة ملحوظة فى الصحراء الشرقية فى كل من مصر والنوبة. ونحن نصادف فى السجلات أن كميات ضخمة إلى حد كبير من الفضة قد صودرت: ٢٠٠ شيكل من "جزر" وألف و ٤٠٠ من مدينة مجاورة لها، وخمسة آلاف من "أورشليم".[٤٢]

وكان اللازورد الذى تفتقر إليه مصر بالمثل، يأتى من شمال سوريا، حيث كان يستورد من "آشور" و"بابل".[٤٣] ولما يلفت النظر أن المصادر التى ترجع إلى عصر "أخيتاتون" تركز بشكل خاص على الزجاج الذى كان يشكل جزءًا من العبء الضرائبى على المدن فى جنوب السهل الساحلى.[٤٤]

وتحوز قائمة المعادن غير الثمينة، سواء فى شكل خام أو مشغولة أهمية مماثلة. وتقف على رأس هذه القائمة ما أطلق عليه المصريون اسم: "النحاس الأسيوى"، وهو عبارة عن سبيكة نحاسية قريبة من البرونز على وجه الاحتمال.[٤٥] وكان هذا النوع من النحاس يُستخرج من "بيبلوس" ومن شمال سوريا، ولكنه سرعان ما أصبح البند الرئيسى فى تجارة نشطة وعمليات تبادل الهدايا مع قبرص. ويصور لنا بصورة حية اليوم غرق سفينة "لولون بورو" Ulun Buru فى أواخر عصر "أخيتاتون" (= العمارنة) المدى الذى بلغته هذه التجارة من الانتشار، فلقد كشف المنقبون عن سفينة شراعية قديمة غارقة تصل حمولتها إلى خمسة آلاف طن من النحاس الأحمر، على هيئة سبائك.[٤٦] وكانت التجارة فى القصدير معروفة على نطاق واسع اعتبارًا من العصرين البرونزيين، الوسيط والمتأخر، وكان المصريون يفرضون طلب هذا الخام كضريبة واجبة، وإن كانت بكميات أقل من النحاس الأحمر. أما الحديد فكان لا يزال نادرًا تمامًا، ولا يُستخدم إلا فى الكماليات، وظل الحيثيون يحتكرون كلاً من إنتاجه وتسويقه لمدة طويلة.

وتشكل الأخشاب من كافة الأنواع أكبر حصة فى ضرائب آسيا.[٤٧] وكان يأتى أولاً وقبل كل شيء شجر الأرز اللبنانى الذى دأب المصريون على استخدامه فى بناء المراكب المقدسة، وخصوصًا مركب "آمون" الذى أطلقوا عليه اسم: (قوى الصدر هو مركب "آمون"). ولكن نفس الأخشاب كانت تستخدم أيضًا فى عمل أبواب المعابد، وصوارى الأعلام والمقاصير المحمولة، ومستلزمات العبادة. واحتل نقل خشب الأرز إلى مصر أولوية قصوى. ويخبرنا الفرعون "تحوت - موسى" الثالث:

"يقطع الأهالى أشجار أرز لبنانية ناضرة (فى "جاهى" من أجلى) كل سنة بانتظام، وهى الأشجار التى ينقلونها إلى القصر، له العمر والرخاء والعافية. والأخشاب تصل إلىّ فى مصر (عن طريق البحر؟) على هيئة أرز ناضر من ذلك الأرز الذى تشتهر به "نجاو" Negaw ، أفضل ما تنتجه أرض الإله، كل سنة بصفة منتظمة

دون أن تتأخر موسماً واحداً. ولقد عادت إلىّ قواتى بعد أن عسكرت فى حامية "أولازا" عن طريق البحر(؟) على متن المراكب، التى نجرت من الأرز، وهو الأمر الذى يرجع إلى الانتصارات التى حققها جلالتى بناء على مشورة والدى "أمون - رع" الذى سلمنى كل الشعوب الأجنبية. ولم أترك شيئًا منها للآسيويين، فهى الأخشاب التى يهواها فؤاده".[٤٨] أما الأخشاب الباهظة الثمن، وخصوصاً خشب "البقس"[٤٩] فكان لزامًا على الكنعانيين أن يوردوها أيضاً، وبالذات على أبناء "أمورو" والساحل الشمالى. وكانت هذه الأخشاب الغالية تخصص لصناعة الأثاث الفاخر ومستلزمات العبادة.

واستمر المصريون لمدد طويلة يستوردون المواشى من آسيا، مثل البقر الحلوب، والثيران التى استخدمها المصريون فى جر الحجارة فى المحاجر، ولكنهم استوردوها فى حالات أقل من أجل لحومها.[٥٠] ولا بد أن عدداً كبيراً من أسراب الطيور وقطعان المواشى التى طوقها المصريون خلال الحملات العسكرية التى قاموا بها فى آسيا ذهب فوراً كإمدادات لجنود التجريدة. ولكن المواشى لم تشكل أولوية عند تقدير الضرائب. وكانت بعض الحيوانات غير المألوفة، مثل الدجاج والأفيال، تظهر بين الحين والآخر فى القوائم، ولكنها لم تكن لتزيد كثيراً عن طرائف.

لم تجذب الأراضى التى يجود فيها القمح فى آسيا الغربية أنظار الإدارة المصرية، طالما كانت مصر تنتج الحبوب بوفرة هائلة، إلا أن المصريين رأوا أنه من الأفضل تلبية احتياجات المقيمين والحاميات وجنود التجاريد العسكرية بالحصول عليها من المنتجات المحلية رأساً.(لوحة رقم ٢٥).[٥١] وكان توقيت الحملات يعيَّن فى غالب الأحيان بحيث يصل الجيش إلى أراضى الأعداء فى الوقت الذى يكون فيه المحصول قد جُمع للتو. ولقد عانى بعض عمد "كنعان" من فرض نوع ما من الخدمات الطقسية، التى يلتزمون بموجبها بحصد الشعير والقمح فى أراضيهم لتغطية إمدادات رجال الحاميات المصرية المحلية. وكانت محاصيل القمح والخضروات التى يحصدها الأهالى فى "الجليل" ولبنان تذهب لملء المخازن العسكرية فى المدن الساحلية تحسبًا للحملات القادمة فى المستقبل:

"والآن كل المرافئ التى رسا عندها جلالته صارت مكدسة بكل ما هو رائع، طبقًا للعادة السنوية، وذلك من أجل الرحلتين التى تتجه إحداهما شمالاً والأخرى جنوبًا بناتج عمل لبنان وكذلك حصاد "جاهى"، الذى يشمل القمح والبخور والزيت الطازج والزيت الحلو والنبيذ.. إلخ."(٥٢)

ولقد ظهرت مواد عضوية منتقاة، تفتقر مصر إليها، أو ربما تاق إليها المصريون لجودتها الفائقة، بصفة منتظمة فى قوائم الضرائب. وكان المصريون يشحنون البخور الكنعانى فى غلايين ضخمة إلى بلادهم لاستخدامه فى المعابد،(٥٣) وكانوا يحصلون كذلك على زيت شجر البان، الذى لا تعرفه مصر، من الشمال.(٥٤) وكان المصريون يشيرون إلى قبرص و"نهارين" بصفتهما مصدرين لتلك السلعة النفيسة، وتكشف نصوص "أوجاريت" عن تجارة نشطة تمتد فى طول وعرض شرق البحر المتوسط.(٥٥) وكانت قبرص تصدر الأفيون فى نوع من البرطمانات التى لا تخطئها عين، تنتشر على نطاق واسع الآن فى كافة أرجاء الإمبراطورية،(٥٦) ولم يكن المصريون يفرضون العسل ضمن الضرائب إلاّ بكميات قليلة. وكان النبيذ بندًا معروفًا فى القوائم. وتكشف نصوص الملكة الحديثة عن معرفة المصريين : لـ "أصناف" مختلفة: وكانت الأنبذة (= الخمور) الآسيوية تعرف بأسماء متنوعة على هذا النحو: "بتاع طريق حورس" و "بتاع خارو" وبتاع "أمورو".(٥٧)

ولم تظهر الأسلحة بشكل بارز على قوائم الضرائب، على نحو ما قد يتوقع البعض.(٥٨) وحتى فى قوائم غنائم الحرب، التى تدخل فى دفاتر اليومية التى تخص قصر الفرعون، لم تأخذ الأسلحة الشخصية مكانًا خاصًا، وربما يرجع ذلك إلى أن هذه الأسلحة كانت تعد بمثابة ملكية شخصية للجنود الذين قتلوا أو أسروا الأعداء واستولوا منهم عليها. وتقوم شواهد على أسلحة الاحتفالات، المزخرفة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، بدرجة ما من الإطراد. وكثيرًا ما تصور العجلات الحربية أثناء إحضار الآسيويين لها إلى حضرة الفرعون، وهذه العجلات كثيرًا ما كانت مرصعة بالأخشاب النادرة والمعادن الثمينة. ولم يأخذ المصريون عتادًا حربيًا من الكنعانيين إلاّ من وقت لآخر. ونستثنى من ذلك الدروع والخوذ التى كان قائد العجلة الحربية الكنعانى يستخدمها، فى عصور الرعامسة، فكان الجيش المصرى يستولى عليها.

وأخيراً نأتى إلى نوع من السلع المصنعة، اشتهر بها المشرق، ولقيت إعجاباً عميقًا من جانب المصريين. وأقصد بذلك التحف المعدنية. فكان طراق المعادن ومنتجات ورشته معروفين جيداً فى مصر نسمع عن المشغولات الفضية القادمة من "عشقلون" والزهريات ذات الطابع الحورى وأوانى ورش "جاهى" Djahy ، و "كل إناء لماع لـ "ريتينو". وواقع الأمر تقف زهريات الزينة السورية فى المناظر التخطيطية لعملية إحضار الضرائب، فى الغالب كرمز، لمجمل الضرائب القادمة.

ويبدو أن تقدير كل هذه الضرائب كان يجرى على أساس الغرض الخاص ad hoc كسائر الآليات الأخرى التى أدرجت فى الخدمة فى سبيل إدارة الإمبراطورية. وفى لحظة معينة نرى رسول الفرعون وقد تولى مسئولية "تقدير الضريبة على الرؤساء فى كافة البلاد الأجنبية" (Urk IV,975) وفى لحظة أخرى نرى الوزير أو كبير أمناء الصندوق هو الذى "يقدر أعمال كل البلاد الأجنبية" (KRI III,21,136) أما السؤال حول ما إذا كانت قدم أى مسئول من هؤلاء المسئولين البارزين قد وطئت أرض "كنعان" خلال عملية رسم "تقديراتهم للميزانية" فأمر يكتنفه الغموض. إلاّ أن كاتب الفرعون "مين – موسى"، الذى تكفل بهذه المهمة، توجه إلى الشمال فى واقع الأمر، كى ينجز ما تكفل به: "جست ربوع "ريتينو" العليا فى كعب سيدى، وقدرت الضرائب على "ريتينو" العليا. وأبلغت رؤساء "ريتينو" بما عليهم من أعباء (= ضرائب) سنوية" . (UrkIV,1442)

الهوامش

(١) حول المفاهيم والآليات الإمبراطورية عند المصريين القدماء، انظر على وجه الخصوص:
D.Lorton, The Juridical Terminology of International Relations in Egyptian Texts through Dynasty XVIII (Baltimore,1974); B.Kemp,in P.D.G. Garnsey and C.R. Whittaker, Imperialism in the Ancient World (Cambridge, 1978),7-8; J.P. Frandsen, in M.T. Larsen, Power and Propaganda: A Symposium on Ancient Empires (Copenhagen,1979),167-68;J.Leclant,in M.Duvoyer,Le Concept dkempire (Paris,1980),49-50;cf.also the excellent marshaling of the Late Bronze evidence with respect to the New Kingdom in Asia by J.M.Wienstein,BASOR 241 (1981),
ولقد ظهر تناول مفصل للموضوع فى كتاب المؤلف الحالى:
Egypt and Canaan (Beer Sheva,1990).

(٢) حول الإمبراطورية النوبية، انظر على وجه الخصوص:
Egypt in Nubia (London, 1965); B.G. Trigger, Nubia under the Pharaohs (London, 1976); W.Adams, Nubia:Corridor to Africa (London,1977).

(٣) حول المجتمع الكنعانى انظر على وجه الخصوص:
W.F. Albright, ed., The Bible and the Ancient Near East (New York,1956),438-39; idem,Yahweh and the Gods of Canaan (New York,1969); D.N. Freedman and D.F. Graf, eds., Palestine in transition (Sheffield, 1983); M.Heltzer, The Rural Community in Ancient Ugarit (Wiesbaden,1976); M.Liverani,ed., La Siria nel tardo bronzo (Rome, 1969); idem, Three Amarna Essays (Malibu, Calif., 1971; G.D.Young, ed Ugarit in Retrospect (Winona Lake,Ind.,1981).

(٤) Y. Yadin, Hasor (London. 1972); J.R.Kupper, CAF2, II,pt.1 (1973), 21-22; C.Epstein, JNES 22(1963), 242-43; D.B.Redford, JAOS 99 (1979),287,n.151.

(٥) "مسألة" العابيرو" و صلاتهم المزعومة بأسلاف العبرانيين استنفدت كميات هائلة من الحبر. قارن بين كتابات أخرى:
J.Bottero,La probléme des Habiru (Paris, 1954); G.Buccellati, JNES 36 (1977), 435-63; M.Greenberg, The Habpiru (New Haven, Conn.,1955); O.Loertz, Habiru-Hebräer: Eine sozial-ling. Studie (Berlin,1984); R.de Vauz,JNES 27 (1068),221-22; M.Heltzer, in Liverani,La Siria nel tardo bronzo,34.A.F.Rainey's succinct statement in Biblica 70 (1989),571,mirrors my feelings exactly.
تعكس مشاعرى على وجه التحديد.

(٦) حول الزى الكنعانى، انظر:

D.B. Redford,in The Akhnaten Temple Project, vol. 2:Rwd-mnw, Asiatics and the Inscriptions (Toronto, 1988), ch.2;S. Schroer, Orbis Biblicus et Orientalis (Göttingen, 1985), 51-52.

(٧) Heltzer,in Liverani, La Siria nel tardo bronzo,31032.

(٨) G.Buccellati,Cities and nations Ãof Ancient Syria (Rome,1967),64-66.

(٩) Lorton, Juridical Terminology of International Relations in Egyptian Texts through Dynasty XVIII,31-32.

(١٠) انظر:

W.Helck,MDOG 92 (1960),1-2;idem,Die Beziehungen Ägyptens zur Vorderasiens[2] (Wiesbaden,1971), 246-47; K.A.Kitchen,in Liverani La Siria nel tardo bronzo,77-78; R.Hachemann,ZDPV 98 (1982),1-2.

(١١) حول "ناظر البلاد الأجنبية" انظر:

S.Groll, in M.Görg, ed., Fontes atque Pontes (Wiesbaden,1983), 234-35.

(١٢) انظر العمل المعتمد الذى جاد به كل من:

W.F.Albright, JNES 5 (1946),7-8; also Redford, Egypt and Canaan.

(١٣) حول الألقاب العسكرية فى مصر القديمة انظر المعالجة الرصينة التى قدمها:

A.R. Schulman,Military Rank,Title and Organization in the Egyptian New Kingdom (Berlin,1964).

(١٤) E.Edel, in Geschichte und Altes Testament (Tübingen,1953), 55ff.; M. Vallogia, Recherche sur les "messagers" (wpwtyw) dans les sources égyptiennes profanes (Paris,1976).

(١٥) KRI III,274-75.

(١٦) A.H. Gardiner, Egyptian Hieratic Texts,vol.1 (hildeshein, 1964); A.F. Rainey, JNES 26 (1967), 58-59; H.W. Fisher-Elert, Die satirische Streischrift des Pap. Anastasi, vol.1(Wiesbaden,1983)

(١٧) Edel, in Geschichte, 55ff.

(١٨) E.Oren,JSSEA 14 (1985),37-38.

(١٩) Tel el-Akhmar? Cf.Helck, Beziehungen 2,310-11.

(٢٠) W.Helck,Die Altägyptissche Gaue (Wiesbaden,1974),173;

ولقد انتهى الجدل الذى دار حول موقع "تيككو"، بالاستكشافات الأخيرة التى قام بها جيه. إس. هولاداى J.S.Holladay لصالح "تل الرتابة" دى. بى. ريدفورد.

D.B. Redford, LdÄ 4 (1982),1054ff.

(٢١) انظر : A.H. Gardiner's classic study in JEA 6 (1920), 99-100.

(٢٢) T.Dothan, IEJ 31 (1981), 126-27; idem,National Geographic Magazine 162 (1982), 738-39.

(٢٣) E.Oren,IEJ 23 (1973),112-13.

(٢٤) T.Dothan, in E.Lipinski,ed.,The Land of Israel: Crossroads of Civilization (louvain, 1985), 55-56.

(٢٥) R.O. Faulkner, JEA 39

(٢٦) M.Avi-Yonah,ed.,Encyclopedia of Archaelogical Excavations in the Holy Land (Jerusalem,1976), 2;4:408-9; H.J.Katzentein JAOS 102 (1982),111-12; Helck, Beziehungen² ,304.

(٢٧) R.Giveon, The Impact of Egypt on Canaan (Gttingen,1978),23.

(٢٨) H.Goedicke and E.F.Wente,Ostraca Michaelides (Wiesbaden,1962),pl.93.

(٢٩) Helck,Beziehungen2,304.Hachemann,ZDPV 98(1982),26.

(٣٠) D.O. Edzard et al., Kamid el-loz-Kumidi (Bonn,1970); J.Leclant, Orientalia 41 (1972), 280-81;44 (1975), 239-40.

(٣١) H. Klengel ,in E. Endesfelder, ed., Ägypten und Kusch (Berlin, 1977),227-28.

(٣٢) من مقبرة "حور – إم – حب" في "منف":

A.H. Gardiner, JEA 39 (1953), 7-8; W. Helck VT 18 (1968), 475-76.

(٣٣) Edzard, Kamid el-Loz-Kumidi, 55-56.

(٣٤) T.L. Thompson, The Settlement of Palestine in the Late Bronze Age (Wiesbaden, 1979), 59 and passim (في مواضع مختلفة من النص المذكور) B.Mazar, Basor 241(1981),75; R.Gonen,BASOR 253 (1984),61ff. (وما بعدها).

(٣٥) R. Giveon, Les bedouins Shoshou (Leiden, 1972), 219-20; D.B. Redford, in A. Hadidi, ed.,Studies in the History and Archaeology of Jordan (Amman,1982), 117; idem, in Biblical Archaeolgy Today (Jerusalem,1985),193.

(٣٦) عمومًا حول الآسيويين في مصر انظر : Helck, Beziehungen², 342-43.

(٣٧) انظر على وجه الخصوص:

S.Ahituv, IEJ 28 (1978).9 3-94;N.Na'aman, IEJ 31(1981), 172-73; Also Redford, Egypt Canaan.

(٣٨) D.B. Redford, In J.W. Wevers and D.B. Redford,eds.,Studies on the Ancient Palestinian World (Toronto,1972),145-46.

(٣٩) C.Aldred, JEA 56 (1970), 105-6;E.J. Bleiberg, JARCE 21 (1984), 155-56.

(٤٠) A.H.Gardiner, JEA 27 (1941), 23-24;B.Menu,La régime juridique des terres et du personnel attaché à la terre dans le papyrus Wilbour (Lille,1970)92-93.

(٤١) J.R. Harris and A.Lucas,Ancient Egyptian Materials and Industries[4] (London, 1962) ,280;J .R.Harris, Lexicographical Studies in Acient Egyptian Minerals (Berlin,1961),41ff.

(٤٢) Cf. EA 99:14, 287: 54, 270:15, 313:7-11.

(٤٣) Helck, Beziehungen[2], 388-89.

(٤٤) Na'aman, IEJ 31 (1981), 175.

(٤٥) Harris, Lexicographical Studies, 50ff.; R.Gundlach, LdÄ 3(1980) ,881-82.

(٤٦) G. Bass:oral communication.

(٤٧) H.Klengel, in Liverani La Siria nel tardo bronzo ,17.

(٤٨) Urk IV,1237.

(٤٩) Helck, Beziehungen[2], 397-98; E.Lagrace, CRAIBL (1983). 272, n.27; Liverani, Three Amarna Essays, 8 and n.42.

(٥٠) Helck, Beziehungen[2], 371-72.

(٥١) حول الضرائب العينية من القمح فى الإمبراطورية انظر: المرجع السابق ص ٣٦٠-٣٦١؛ و Na'aman, IEJ 31 (1981), 178.

(٥٢) Urk IV, 719.

(٥٣) حول البخور انظر:

V.Loret, La resine de terebinthe (Sonter) chez les anciens égyptiens (Cairo, 1949).

(٥٤) Helck, Beziehungen[2], 398-99, 415.

(٥٥) Cf. Palais royal d'Ugarit (Paris, 1965), 5:no.95.

(٥٦) R.S. Merrillees, Antiquity 36 (1962), 287-88; idem. Levant 11 (1979), 167-68; but cf.B.M. Gittlin, BASOR 241(1981), 55.

(٥٧) A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica (Oxford,1947),1:180*f.,187*f.

(٥٨) حول أسلحة المصريين القدماء و عتادهم الحربى انظر:

W. Wolf, Die Bewaffnung des altägyptischen Heers (Leipzig, 1926); Y.Yadin, The Atr of Warfare in Bible Lands (Jerusalem,1961).

الفصل الثامن

آسيا فى مصر
فسيفساء وليست بوتقة صاهرة

تعد الحضارة المصرية القديمة فريدة فى نوعها sui generis . ولقد أدرك المصريون أنهم وثقافتهم مختلفون بشكل ملموس عن شعوب الأراضى المجاورة. ولم يكن من السهل استزراع نمط الحياة المصرية فى أى مكان آخر، بل ومالت الثقافة المصرية إلى الذبول والتلاشى عندما اقتلعت من ضفاف نهر النيل. وأدرك المصريون ذلك أيضًا وسعدوا بهذه الحقيقة. ولم يعرفوا تلك البهجة الغامضة فى "تغيير الغرباء". ولكن الآن، أسفرت الإمبراطورية عن خلط الأجناس، كل مع الآخر، سواء طوعًا أو كرهًا، وصار لزامًا على المصرى الذى يتملكه الزهو بالذات أن يترك كتفيه تحتكان سواء بالكنعانى الشاحب الوجه أو النوبى الأسود اللون. ولقد أصبح لكل الثقافات الأجنبية التى تنتمى جميعًا لتجمعات أنزل بها الفاتح/الغازى المصرى الهزيمة فى ميدان القتال، حضور ملموس الآن فى مصر بلد الغازى نفسه. وكان إلحاق الهزيمة بالأفكار أكثر صعوبة بكل تأكيد، وعلى أى حال لم يستشعر المصريون بطابعهم العملى (=البرجماتى) أى حاجة لهم كى يقضوا سواء على الأجناس أو المعتقدات. وبمرور الوقت وجدوا لزامًا عليهم أن يسقطوا أحكامهم الخاصة عن كاهل الأعراف الكنعانية وأن يتوافقوا معها، كما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى استعارة كثير من الأفكار منهم ونبذ أفكار أخرى، وفوق كل ذلك أن يتعاملوا مع البلدان الأجنبية بصفتهم، أى المصريين، أعضاء فى مجتمع دولى، وليس بصفتهم جنسًا معزولاً اصطفاه الخالق.

الجيش :

كان أوضح المجالات التى قدمت فيها القدوة الأجنبية نماذج جديدة بنقل المصريين لها هو: العسكروت.[١] فلقد استعار المصريون الابتكارات الآسيوية للعجلة الحربية والقوس المركب قبل طردهم للهكسوس، وقام المصريون بتطوير ما استعاروه إلى النقطة التى أصبح عندها سلاح العجلات الحربية والقواسين الذى يملكونه رعب العالم.[٢] والاسم المصرى لقائد العجلة الحربية وضابط العجلة الحربية كليهما مشتقان من لغات أجنبية،[٣] ولقد أصبح الاسم الأول يعنى رتبة شبه عسكرية تقارن مع "الكولونيل" (=البكباشى أوالعقيد) وأحيانًا "كابتن المجموعة" عندنا، فى حين أن الاسم الثانى صار يشير فى غالب الأحيان إلى ما يوازى عندنا "الميجور"(= اليوزباشى أو النقيب). غير أن المصريين أبدوا بطئًا فى إتقان بعض الابتكارات الآسيوية: آلة "كبش الحرب"، على سبيل المثال، لم يتبناها المصريون إلاّ بعد عصور الملكة الحديثة. ولم تلق الدروع المعدنية، هى أيضًا أى ترحيب من جانب المصريين بسبب مشاكل التوريد والتكاليف بصفة جزئية، مع أن بعض الضباط استعملوها فى بعض الأحيان، كما استعار قادة العجلات الحربية الخوذة الآسيوية. (لوحة رقم ٢٦).[٤]

حقًا قابل المصريون نماذج تستحق الإعجاب للتنظيم العسكرى فى آسيا، إلاّ أن الجيش المصرى الذى عرفه مطلع الأسرة الثامنة عشرة ظل حشداً يضم كل من هب ودب. فقوات العمل السريع التى قذف المصريون بها سواء ضد الهكسوس أو فلول العصر البرونزى الوسيط من دول فلسطين كانت تتكون من رجال الاحتياط الذين يستدعون بصورة دورية فى المراكز والمديريات، بالإضافة إلى الميليشيات المحلية التى ظلت تشكل منذ أيام الملكة القديمة نسيج الجيش المصرى. والواقع أن هذا الجيش كان قوة قومية، ويكاد أن يكون "جيش مواطنين". ففى صفوفه يصادف المرء مثل هذه المهن المألوفة بدءًا من غير العسكريين كـ "رئيس خدم" و "قهرمان" (= ناظر عزبة أو مدير مراسم) و"حلاق" و"مسئول خبز"، و" أمين صندوق" و "متعهد"، وكل هؤلاء يحاربون جنبًا إلى جنب فيما استشعرت النصوص الرضا وهى تطلق عليه اسم "جيشنا".[٥]

ولكن أفاق الصراع الممتد وازدهار الحماس الذى تولد عن الغزو جعلا من الحاجة إلى قوة دائمة يتدرب أبناؤها فى معاهد خاصة على فن الحرب أمرًا واضحًا أمام السلطات. وكان ملوك "طيبة" فى ظل الأسرة السابعة عشرة قد شعروا بالفعل بأنهم مضطرون إلى خلق جسمور (= هيئة corps) من "الشجعان" كى يكون بمثابة رأس حربة للهجمات التى يشنونها ضد الهكسوس، وربما يكون حافزهم إلى ذلك هو المثال الذى قدمه المحاربون النوبيون الـ "ميدجاى" الذين تحالفوا مع المصريين الجنوبيين كمساعدين وقوات احتياط.[٦] وهذه الفترة ذاتها هى التى قذفت إلينا بأقدم نماذج لـ "وعو" أى المحارب والأدق الجندى لـ "طول الوقت" (= الدائم)، بالتمييز عن المجندين القدامى الذين كانوا ينضمون إلى الميليشيات لـ "بعض الوقت". وعندما جرى تنظيمهم على هيئة فرق، صاروا يشكلون ما عرف باسم الـ "وعييت" أى "الجيش العامل"، الذى كان يقسم فى زمن السلم إلى لوائين يتمركز أحدهما فى الوجه القبلى والآخر فى الوجه البحرى. وعندما يستخدم هذا الاسم للدلالة على القوات المرابطة فى الخارج أصبح يعنى "الحامية".[٧] وتركز التجنيد والتدريب على الثكنات (= القشلاقات) وحرفيًا "الإصطبلات" فى إشارة إلى الخيول اللازمة للعجلات الحربية، وهو المصطلح الذى يشير إلى الأهمية التى حازها هذا السلاح المتحرك الجديد. وعندئذ كان الجيش يضع تحت إمرة المجند الشاب مرسالاً (= طلبة) كى يقوم على خدمته، ولكن هذا المجند قد يضطر إلى شراء عجلته الحربية الخاصة. وكان التدريب شاقًا، إن لم نقل وحشيًا: *"تعالى! لسوف أخبرك بأحوال الجندى، أشد الناس تمزقًا! فهو يؤخذ فى طفولته ويزج به داخل "محبس"(؟) وهنا يتلقى ضربة عنيفة على صدره، ثم يتلقى ضربة صاعقة على عينه ثم ضربة قاصمة على حاجبه – ورأسه يفلقها جرح فتنفتح، ثم يمدد على الأرض كى يضرب كما تُضرب أوراق البردى."*[٨]

وبمجيء الأسرة التاسعة عشرة كانت مصر قد امتلكت جيشًا محترفًا جيد التدريب وظهر ضباطه الذين يمتلئون فخرًا فى كل مكان. وتدرج قائمة ضرائب تحملها بردية ترجع إلى السنة الثالثة من حكم الفرعون "سيتى" الأول ضمن أصحاب البيوت فى أحد أحياء العاصمة "منف"، ، المسئولين الكهنوتيين جنبًا إلى جنب مع المسئولين المدنيين والبحارة وكاتب الجيش، و "كولونيل" (= بكباشى – عقيد) وحملة الأعلام البحرية،

ونقيب مجموعة، وقائد عجلة حربية وقادة كتائب.[٩] أما الجنود المحترفون فكانوا يمنحون، فى الغالب، مزارع فى الريف: تحيطنا علمًا بردية "ويلبور" Wilbour التى ترجع إلى أواخر عصور الرعامسة بالمزارع التى خصصت، فى المديرية الثامنة عشرة بالوجه القبلى، للضباط ورؤساء الإمدادات والتموين، وقادة العجلات الحربية والمرتزقة والجنود العاديين.[١٠]

وكانت سكرتارية الجيش تحتل أهمية خطيرة فيما يتعلق بعمليتى التجنيد والتنظيم لهذه القوة العسكرية. فعلى رأس هذا القسم يقف "ناظر كتبة الجيش"، الذى كان يشغل أيضًا منصب "كاتب المجندين" (أو الصفوة الشابة). وكان مسئولاً عن "تسجيل الجيش فى حضرة جلالته، وعن اصطفاف وحشد الجيل الجديد من المجندين، وتمكين كل فرد من معرفة واجباته داخل نطاق الجيش بأسره."[١١] ويشرح أشهر من تولى هذا المنصب "أمين – حوتب" بن حابو (معاصر الفرعون "أمين – حوتب" الثالث) هذه الواجبات:

"رفعت إلى سيدى قوائم المجندين الجدد، ولقد أحصى قلمى أعدادًا هائلة. وفرضت الضريبة على الأقسام الإدراية بتلك الأعداد المذكورة وفصلت الفرق العسكرية بفروعها ... وجندت المجندين الجدد، وأطلقت الفرق العسكرية فى طريق الزحف كى ينزلوا العقاب بالأجانب فى عقر ديارهم، وفى نفس الوقت لا يرفعون أعينهم عن تحركات البدو".[١٢]

وكانت قوائم المجندين وما يتعلق بها من وثائق تتضمنها هذه التقارير تُحفظ تحت يد "رئيس الأرشيف للسجلات العسكرية" فى العاصمة.[١٣] وهناك أيضًا كان يقيم "كاتب المشاة" متقلداً رتبة تعادل عندنا، على وجه التقريب، رتبة "الجنرال" (=اللواء).[١٤] وفى الريف كان الكتبة العسكريون ملحقين، كل منهم بثكنة (= قشلاق) أو حصن أو هيئة معبد كى يضبط القوائم المحلية وفقًا للحصة المطلوبة ولكى يساعد فى حشد الجنود. وعندما يصدر أمر الاستدعاء، كانت كل مجموعة يُعين لها كاتبها الخاص.[١٥]

كان الأنفار يحشدون، من أجل قوات التجاريد الضخمة العدد، التى تزحف إلى خارج الحدود فى ظل الإمبراطورية، من كافة أرجاء مصر: من العزب والقرى وسائر وحدات الإنتاج. ويقول أحد المسئولين الذى أُرسلوا إلى جزيرة "إليفانتين" فى تقرير له من هناك:

"أقوم حاليًا بتجميع أفراد الجيش وقادة العجلات الحربية التابعين للمعبد (معبدهم)، وهيئة المعبد والفلاحين الذين يستأجرون أرضًا فى دوائر المسئولين التابعين لجلالته."(16)

وكان كل معبد يؤخذ منه، فى العادة، واحد من كل عشرة أفراد، ولم يكن الاستدعاء عملاً مرغوبًا من جانب الأهالى،(17) لأنه كان يأخذ شكل القسر والتسخير: "استدعى الوزير ثلاثة صبية وقال: دربهم على أن يصيروا كهنة فى المعبد... ولكن القبض أُلقى عليهم ورُحلوا إلى الشمال كى يصيروا جنوداً".(18) ويكتب "يوزباشى" (= نقيب) إلى ضباط حامية فى الدلتا:

"كن مثابراً فى القيام بواجبات منصبك، ولا تتهاون بشأن القائمة التى وضعتها بين يديك، أما بخصوص أى فرد على القائمة، فلا تحتفظ به معك، بل رحِّل لنا كل الأفراد الذى حصلوا على التسريح من الخدمة (؟)(19) وعليك أن ترسل جنود الجيش الذين يتواجدون فى المدن الخاضعة لزمامك... لا تستبق الجنود الذين ينتسبون إلى زمامك فى الشمال!"(20)

كان الجيش يزحف ويقاتل على هيئة فرق محلية(21) وكان مقاتلو التجريدة يقسمون، فى العادة، إلى فرق، كل منها تتألف، استناداً إلى فقرة وردت فى بردية ترجع إلى عصر الرعامسة، من خمسة آلاف رجل على وجه التقريب.(22) وكان قلب كل فرقة يضم رجالاً ينتمون إلى "عزبة" معبد معين أو إقليم خاص، وكانت كل فرقة تزحف تحت راية الإله المحلى. وبناء عليه قاد الفرعون "رعمسيس" الثانى فى معركة "قادش" أربع فرق، واحدة من شمال شرق الدلتا "ست" وأخرى من رأس الدلتا و "أون" (= هليوبولس)"رع" وثالثة من زمام "منف" هى "بتاح" ورابعة من زمام "طيبة" هى "آمون" وربما توحى جملة بلاغية وردت فى فقرة مهشمة ترجع إلى حوليات الفرعون "تحوت – موسى"

الثالث بأن أربع فرق اشتركت تحت رعاية إلهية أيضاً، فى حملة "مجدو"(٢٣) وكانت هذه الفرق تقسم هى الأخرى إلى سرايا تتألف كل منها من مائتىْ رجل (مع أن هذا الرقم قابل للتغيير) تحت قيادة "حامل بيرق" أى كابتن (= يوزباشى، نقيب) وكانت هذه السرايا تقسم هى الأخرى إلى فصائل تتكون كل منها من خمسين رجلاً.(٢٤) وكانت السرايا تأخذ الاسم المناسب لوظيفتها ("قوية السلاح"، "السبع الجوال" و "قاهرة البلدان الأجنبية") أو تُسمى على اسم الفرعون الحاكم ("مين - خبرو - رع"، "رع الحكام) أو على اسم إله "قرص - الشمس يتلألأ" أو "آمون" يحمى جيشه") وكان سلاح العجلات الحربية منظم على هيئة أسراب، يتكون كل سرب من خمسين مركبة تضم خمس وحدات تكتيكية تتألف كل منها من عشر مركبات.(٢٥)

وينبغى ألاّ يغيب عن الأذهان أن عدداً محدوداً من المواجهات التى مررنا بها فى عرضنا فى الفصل السابق، والتى رفعتها مصادرنا إلى انتصارات هائلة، كانت معارك ضارية. فالحملة لم تكن سوى نزهة مسلحة يخطط لها المصريون بشكل مسبق كى تتزامن مع الفترة المثلى للسفر فى آسيا، وهو السفر الذى يهدف إلى تسلم "الجزية" والأسرى. ولم تكن المدن الواقعة على طريق الزحف تبدى أى مقاومة، إلاّ بين الحين والآخر، وعندما يحدث ذلك، فإن السجلات المصرية توضح، فى الغالب، دهشة الفرعون وانزعاجه. وعندئذ يمكن أن يؤدى ذلك إلى حدوث مناوشة بين الطرفين تنتهى، فى العادة، لصالح المصريين. وإذا لم تنته نهاية من هذا القبيل، فإن الجرأة كانت تصل بالآسيويين حد إغلاق بواباتهم عليهم كى يلزموا "جانب الانتظار إلى ما لا نهاية". وكانت جيوش التحامسة معروفة بجهلها بفنون ضرب الحصار والهجوم على الحصون، وإذا أغلقت مدينة ما بواباتها فى وجهها، كان "تحوت - موسى" الثالث أو"أمين - حوتب" الثانى، فى العادة، ينزل الدمار بالأراضى المحيطة ويمضى فى طريقه. ومع ذلك ففى ظل حكم الفرعون "رعمسيس" الثانى كانت القوات المصرية قد اكتسبت الخبرة ودرجة معينة من المهارة الخاصة فى هذا المجال. وتقوم على ذلك أدلة قوية من استخدام المصريين لمتاريس الحصار و"السواتر" الحاجبة للرؤية، وسلالم الهجوم وأساليب تقويض أساسات المبانى، مما نراه كله فى الجداريات الغنية بالتفاصيل التى تسجل انتصارات الفراعنة الرعامسة.

ولما كان من المقبول أن "الفراعنة كانوا يخرجون إلى الحرب" فى موسم معين من السنة، فلقد كان من السهل بصورة نسبية حشد قوة ضخمة تحسبًا لهجوم الأعداء، مع محاولة فرض الحسم فى ضربة واحدة. وإذا كانت مثل هذه المواجهات نادرة فمرجع ذلك ليس إلى اعتبارات التكاليف وحسب، بل أيضًا إلى مدى انخراط قوة العمل فى دول العصر البرونزى المتأخر فى أنشطة أخرى بخلاف الحرب: الرى والزراعة ومشاريع بناء الصروح التى كانت آخذة فى التزايد.

إلاّ أننا لا نعرف كثيرًا عن تكتيكات ميادين المعركة، نظرًا لأن النصوص نادرًا ما تصفها أو تصورها. حقًا نرى (فى الجداريات) الجنود المشاة يزحفون على هيئة صفوف منتظمة مع تروسهم القصيرة المصنوعة من الجلد الخام وقلنسواتهم المبطنة، ولكن أسلحتهم التى لا تزيد على الرماح الخفيفة (=المزاريق) والبلط والخناجر، إلى جانب افتقارهم إلى الدروع لا توحى بأنهم عرفوا الهجوم عن طريق الصفوف المتراصة أو الكراديس (= الفلانكس) التى برع فيها قدماء الإغريق. إلاّ أن العجلات الحربية، وكل واحدة تضم سائقًا وجنديًا، كانت تتقدم فى صفوف أيضًا، وتلمح النصوص إلى هجمات حاشدة. ويدل بناء تلك العجلات من الخيزران الخفيف على أن السرعة وليس التسليح كان ركنها الأساسى الذى تعتمد عليه. وربما يكون السلاح الأكثر فعالية فى الجيش المصرى كله هو سلاح القواسين، الذى ينقسم إلى كتائب يتراوح عدد أفرادها من كتيبة لأخرى. وقد برهن القوس المركب الذى كان قد دخل فى تسليحهم منذ وقت طويل على أنه أشد الأسلحة فتكًا. ولقد أثبتت التجارب الحديثة أن مداه الدقيق يتراوح بين خمسين وستين مترًا، ومداه المؤثر ١٧٥ مترًا، مع رمية استثنائية قد تصل بمداه أحيانًا إلى خمسمائة متر.[٢٦] ولقد حاولت كل الجيوش (المشرقية)، فى وقت أو آخر شن هجمات ليلية، وكانت هذه الهجمات تحقق أحيانًا بعض النجاح نظرًا لأن تقارير مخابرات الجيش حتى فى ضوء النهار كانت مثبطة للهمة. وها هو "جنرال" أرسلته "أوجاريت" لحراسة الممرات التى تقود إلى "أمورو" ضد تجريدة مصرية تكهنت بها الشائعات، يشكو فى رسالة عثر عليها فى "راس شمرا"(راس شمرا ٢٠-٣٣) وكان قد بعث بها حول وضعه الحرج:[٢٧]

(Rs) إلى جلالة الملك سيدى، هكذا يتكلم

"شومى"(ان) خادمك، أنبطح عند قدمىْ سيدى...

(٤) منذ "سيمانو"(= شهر بؤونة) وأنا

أرسل خطاباتى إلى سيدى : أنقذنى!"

(١٥) مكثت فى "أمورو" حتى الآن خمسة شهور،

وها أنا أقوم على حراستهم ليل نهار،

وعلى هذا النحو أحرسهم: عند ذهابهم وعند إيابهم.

أنا أحرس. نصف عجلاتى الحربية ترابط على شاطئ البحر،

ونصفها الآخر إزاء جبال لبنان،

(٢٠) أما أنا فأقيم فى الوادى.

الأمطار تهطل... يأتى،

ولكننا لا نهجر أماكننا.

(Vs.) (....)

(٤) وقد أحضروا.

(...) فى زمام "أرداتا": Ardata

(...) رجالى فى عز الليل.

وشنوا هجومًا فى وسطهم،

ولكن رجالى قضوا عليهم قضاءً مبرمًا

وردوهم على أعقابهم، وعتادهم و...

(٢٠) هم استولوا بالقوة، ولكنهم لم يأسروا سوى رجل واحد منهم

واستجوبته بشأن فرعون مصر وقال:

فرعونُ مصر قد خرج،

وفى اليوم الأول لوصوله، عتاده سوف يبرز.

(١٥) وبناء عليه فليرسل الملك القوات والعجلات الحربية التى سوف تأتى ... حقًا

فرعون مصر سوف يصل على وجه السرعة،

ولن يكون فى طوعنا أن نحقق الغلبة.

ولكن إذا كان فرعون مصر قد خرج دون أن يصل، فلعل الأمر يتعلق بالقواسين وحسب،

(٢٠) التى خرجت.

وبالتالى دع الملك يرسل مزيداً من القوات والعجلات الحربية حتى نستطيع الاشتباك معه

وتحقيق الغلبة عليه. والآن كان القواسون هم الذين خرجوا

(٢٥) فلا تتركنى أهلك على أيديهم، وليعلم سيدى

أنهم خرجوا فى تلك السنة.

وأنهم دأبوا على مهاجمتنا بصفة يومية!"

الأسرى الآسيويون فى مصر:

سبق لنا أن سمعنا أن الكتبة المصريين وسيدهم الملك كانوا يتأملون بسعادة ظاهرة أعداد الآسيويين الذين نقلوا إلى مصر نتيجة للغزوات التى قام بها المصريون للبلاد الأجنبية. وكان هؤلاء الآسيويون يأتون إلى مصر بانتظام متزايد طوال المملكة الحديثة، وفى البداية كانوا يأتون كأسرى، ثم كفلاحين مقتلعين من جذورهم، ومنشقين أو ضحايا للصراع الداخلى فى "كنعان"(لوحة رقم ٢٧) وكانوا يأتون عبر الطريق البرى فى كنف الجيش، مقيدين بالحبال أو محملين بالغنائم، وكان هذا المشهد شائعًا إلى درجة تكفى لإعادة إنتاجه فى قالب فكاهى على هذا النحو: "بعد إحراز النصر، قام جلالته له العمر والرخاء والعافية بتوزيع الغنائم قبل بدء رحلة العودة إلى مصر، ولكن المرأة الآسيوية التى أرهقها السير على القدم كان الجنود يحملونها على أكتافهم".[٢٨] وجاء هؤلاء الآسيويون أيضًا عبر الطريق البحرى على متن القوارب، حيث كان عمد "كنعان" يشحنونهم، كعبيد امتثالاً لأوامر الفرعون.[٢٩] وكان بعضهم يباع كعبيد للمصريين من جانب ذويهم.[٣٠]

ومتى وصل الأسير إلى مصر كان يجد نفسه فى مجتمع متقدم بيروقراطى، يختلف بصورة ملحوظة عن المدينة الصغيرة الذى قدم منها فى "كنعان" بخشونتها وشظفها. ولم تكن هناك فرصة للهرب. ولم يكن هذا ما يرغب فيه، فعلى أقل تقدير كان يجد فى مصر طعامًا. وكان اسمه واسم عائلته والمطرح الذى ينتمى إليه تسجل جميعها فى مصلحة خاصة، وكان يوسم باسم الفرعون الذى أسر فى عهده أو الإله الذى سيخدمه. وعندئذٍ كان يوضع فى دائرة إحدى مؤسسات الدولة (معبد، مصلحة حكومية، بيت الفرعون أو ما أشبه) وتحت السلطة المباشرة لأحد المسئولين عن تلك المؤسسة.[٣١] ويصور لنا خطاب يرجع تاريخه إلى الأسرة التاسعة عشرة، موجه إلى كاهن أحد معابد "تحوت" من أحد كتبته الكيفية التى كان هذا النظام يعمل خلالها.[٣٢]:

" قمت بعمل تحرياتى عن السورى الموهوب لبيت "تحوت" فيما كتبت إلىّ بخصوصه. وتوصلت إلى ما يلى: بصفته واحدًا من عبيد الشحنة التى أحضرها قائد

الحصن، عُيِّن مزارعًا فى بيت "تحوت" تحت إمرتك، فى سنة الحكم الثالثة الشهر الثانى من فصل "الشـــومو" (=الصيف) اليوم العاشر. ولمعلوماتك اسمه هو "نقـادى" ابن "سارو– ر– ش" وأمه "قدى" من بلاد "أرفاد"، وهو عبد من الشحنة التى حملتها مركب الكابتن (= النقيب) "كا – نر" إلى هذا البيت."

ومع ذلك كان النظام يسمح أحيانًا بنشوء مشاحنات داخلية:

"قال حارسه: كان كبير الرسل فى الجيش" خا – إم – أوب"، الخاص بحامية الفرعون، الذى تسلمه كى يحرسه (؟) وعندئذٍ توجهت إلى كبير رسل الجيش، "خا–إم – أوب"، الخاص بحامية الفرعون، ونفى ذلك. وقال لى بشكل واضح (؟) إن الوزير "ميرى – سيخمت" هو الذى تسلمه كى يحرسه لنفسه (؟)، وبالتالى ذهبت إلى الوزير "ميرى – سيخمت" ونفى هو والكتبة التابعون له ذلك. وقالوا لى: نحن لم نره! واليوم بحثت عن رئيس ... وقلت له: سلِّم المزارع السورى الخاص بـ "بيت تحوت" الذى سبق لك أن تسلمته كى أعيده إلى كاهنه، ولسوف أرفع شكوى ضده أمام المحكمة الكبرى."

وقد تراوح العمل الذى يكلف الأسرى بأدائه، وفقًا لمعايير الذكاء والمهارة والتدريب الذى سبق لكل أسير الحصول عليه. وكان معظمهم يخصصون لأداء الأعمال الدنيا، مثلما قرر الفرعون "تحوت – موسى" الثالث منذ وقت طويل: " أن يسدوا احتياجات ورشة "آمون"، وأن يعملوا على أنوال النسيج ويصنعوا له أقمشة الكتان، والكتان الأبيض الفاخر والأقمشة السميكة، وأن يحرثوا ويخدموا فى الحقول، كى ينتجوا القمح الذى يملأ "شون" القرابين المخصصة للإله."[٣٣] ولقد دخلت على هذه المجموعة من العبارات تغيير إثر تغيير حتى أصبحت بمثابة صيغة معيارية مصطلح عليها فى صواديد النصر أو فى حاشية مفسرةٍ على جداريات الحرب! وإلى جانب أولئك الذين انضموا إلى سلك النساجين أو الفلاحين، كان هناك آخرون خصصوا لدهس العنب لصنع النبيذ.[٣٤] أما الأعداد فلم يصل إلينا منها إلا ما ندر، ولكن تسع عشرة سنة من حملات الفرعون "تحوت – موسى" الثالث منحت معبد "آمون" ألفًا و ٥٨٨ من أبناء "خارو".[٣٥] ويسجل الفرعون "رعمسيس" الرابع فى القرن الثانى عشر ق.م. أنه منح، بصفة شخصية، ألفين و ٦٠٧ أسيرًا إلى معابد "طيبة"، ومائتين وخمسة من الأسرى لمعبد "بتاح" فى "منف"،[٣٦] بينما كان في وسع الفرعون "أمين – حوتب" الثالث أن

يتحدث عن معبده الجنائزى بصفته: "غاصاً بالعبيد والجوارى وأبناء رؤساء كافة البلاد الأجنبية الذى يخضعون كاسرى لجلالته..بأعداد غير معروفة (فى الحقيقة) وكان مطوقًا بمستوطنات السوريين."(٣٧) والخطاب الذى اقتبسنا منه فقرة فى وقت سابق(٣٨) يعطينا تفاصيل إضافية حول الحصة السنوية التى تتوقع الإدارة أن تجنيها من الأيدى العاملة، سيئة الحظ، فى الحقول:

بالإضافة إلى ذلك، لا تقلق بشأن تقدير القمح، فلقد قمت بتحرياتى ووجدت ثلاثة رجال وصبى، إجماليهم أربعة أنفار يوردون سبعمائة جوالاً. وعندئذٍ تحدثت مع رؤساء أمناء التسجيل فى مخزن الغلال وقلت لهم: خذوا مزارعى الإله الثلاثة للعمل سخرة هذه السنة" وهم قالوا لى: " طيب. سوف نفعل ذلك. لقد تفهمنا ما تقول." وهذا ما قالوه لى. و (بناء عليه الآن) فإننى أنتظر منهم أن يبعثوا بالكتبة الطوافين إلى الريف، وعندئذٍ سوف تعلمون كل ما سوف أعمله من أجلكم. لأن كل نفر ينتج مائتى خار: khar – وهذا هو المعدل الذى حددوه لى، وبالتالى يحق لكم أن تستنتجوا أن رجلين وصبى سوف يوردون خمسمائة. ولكن بخصوص المزارع السورى الذى سلمته لكم، فلسوف ينتج لكم فى شهور الصيف، وضريبته سوف يجرى تحصيلها لصالحكم ما دام حيًا."

تطرح الوثائق التى تتعلق بالضرائب بين الحين والآخر أسماء سامية غربية لهؤلاء المستأجرين المرتبطين بالأرض والمجبرين على الإنتاج طوال حياتهم.(٣٩)

ولكن معاناة العمل الزراعى لم تكن المصير الذى ينتظر الجميع. إذ كان هناك برنامج تدريبى خاص فى انتظار أبناء الرؤساء الكنعانيين الذين يرسلهم ذووهم إلى مصر كرهائن، وكان القصر يقوم بالإشراف على هذا البرنامج بشكل مباشر. فكان المصريون يلحقون أبناء الرؤساء الكنعانيين أولئك، فى الغالب، بإحدى فرق الجيش بهدف تدريبهم، ولقد قابلنا بعضهم يعملون حراساً للقصر (لوحة رقم ٢٨) أو عدائين يجرون أمام عجلة الفرعون الحربية.(٤٠) وكان البيت الملكى يجند "العبيد الكنعانيين الذين يأتون من "خارو"، والشبان الذين يتميّزون بالنحافة والجنوبيين القادمين من "كوش" الذين يتمتعون بالرشاقة ويستطيعون تحمل حرارة الشمس بصنادلهم البيضاء اللون وجلابيبهم الفضفاضة"(٤١) وكان المصريون يلحقون بعضهم للتدرب فى أدنى

درجات الكهنوت، ولكن قليلين كانوا يتمكنون فى بعض الأحيان من الترقى إلى مراتب كهنوتية عالية.(٤٢) وبمجيء عصر "أخيتاتون" (= العمارنة) كان الآسيويون قد شرعوا يظهرون كخدم فى المنازل وحتى كأمناء فى الحاشية المقربة للفرعون.(٤٣) ومع أواخر عصور الرعامسة كان "رئيس الخدم" الكنعانى شخصية حاضرة باستمرار فى قوائم مسئولى القصر الملكى.(٤٤) وقد نجح بعضهم، ربما بسبب قربهم من الفرعون فى مد نفوذهم، مثل "بن - أوذين" الفذ الذى يرجع إلى أصول كنعانية من منطقة "باشان" Bashan الذى أصبح رئيس مصلحة الأغذية والأشربة، وكبير الرسل الملكيين، تحت ظل الفرعون "رعمسيس" الثانى.(٤٥) وكان أن شهدت خواتيم الأسرة التاسعة عشرة الوصول إلى نقطة عالية فى هذا المضمار، عندما نجح أحد الوجهاء الكنعانيين واسمه "بى" فى رفع منزلته إلى منصب مستشار وفعلياً "صانع ملوك". ومع أن أعداءه حاولوا الحط من شأنه ومن ذكراه فى وقت لاحق، إلاّ أنه كان خلال حياته بمثابة القوة الحقيقية وراء العرش، بل ووصل الأمر به حد التراسل شخصياً مع الدول الأجنبية.(٤٦)

وكان المصريون يشيرون أيضاً بوظائف متخصصة أو "مهنية" إلى الكنعانيين الشبان الذين يتمتعون بالنجابة، ولطالما رحب المصريون بأى نوع من المهارة فى أى حرفة (لوحة رقم ٢٩) إذ نقابل الكنعانيين وهم يعملون فى المصوغات الذهبية وطرق النحاس الأحمر، وبناء السفن، ولقد ارتفع أحدهم إلى منصب المشرف العام على كافة أعمال البناء التى يشير بها الفرعون.(٤٧) كما تولى كنعانى شاب يدعى "باس - بعل"، كان قد وقع فى الأسر، خلال حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث، على سبيل الاحتمال، منصب كبير الرسامين الهندسيين فى معبد "آمون" واستمر أحفاده يحتفظون بهذا المنصب لستة أجيال تالية.(٤٨) وكان الكتبة الذين يرجعون إلى أصول سورية يظهرون هنا وهناك، وخصوصاً فى أعمال الخزانة.(٤٩) وكبير الأطباء "بن - عنات" معروف على نطاق واسع، حيث تخرج من مدرسة "بيت الحياة" ذات الصيت العالى.(٥٠)

ولقد حافظ المصريون على وحدة مجاميع الأسرى الأجانب، التى كانت تحوز إعجابهم لقدرة خاصة معينة، تتمتع بها هذه المجموعة أو تلك، وأسكنوا أبناءها فى منشآت خاصة. وإلى هذا التصنيف انضمت الوحدات العسكرية. وقد أقام الفرعون

"تحوت ـ موسى" الرابع منشأة من هذا النوع للأسرى القادمين من مدينة "جزر" بالقرب من معبده الجنائزى.[٥١] ونسمع عن حقول "الحيثيين" فى زمام العاصمة القديمة "منف" تحت حكم الفرعون "آى".[٥٢] ويتساءل المرء عما إذا كانت لهذه المستوطنة صلة من أى نوع بشعب "كوروشتاما" Kurushtama . وسار الرعامسة على نفس النهج، بزرعهم جيوبًا للأجانب سواء فى مصر الوسطى أو الدلتا.[٥٣] وكان الفرعون "رعمسيس" الثانى واحدًا من أوائل الفراعنة الذى جربوا المواجهة مع "شعوب البحر"، وهم عبارة عن مجموعة تشبه "الفايكنج" Viking من القراصنة الذين دأبوا على نهب وسلب ساحل الدلتا. ولقد بلغ به الإعجاب بالقدرات القتالية والعتاد الحربى لإحدى قبائلهم: "الشردانا" Shardana حد خرطه لهم فى خدمته كصفوة حراسه الشخصيين الخصوصيين، وقام بتوطين بعضهم فى معسكراتهم، وهذا نهج كان الفرعون "رعمسيس" الثالث ليسير عليه. ونصادف الآسيويين أحيانًا فى مواقع التشييد أو بناء "الشُون" (= مخازن الغلال) كعمالة غير ماهرة، ولكن ذلك كان يحدث، فى الغالب، فى الأعمال التى تتصل بالجيش الذى وقع على عاتقه، بصفة تقليدية القيام بهذا الدور، ويبدو أن أمر تواجد هؤلاء الآسيويين المعنيين كان يشكل جزءًا من وظيفتهم شبه العسكرية.[٥٤]

التاجر والبدوى:

اتسعت ممتلكات مصر فى آسيا، وكذلك اتسعت تجارتها. وكان فى وسع المعابد المصرية أن تتاجر مع الخارج، وأن تمتلك كلاً من الأساطيل التجارية والمحال التجارية.[٥٥] وكان من حق كبار المسئولين أيضًا أن ينخرطوا فى الأعمال التجارية مع آسيا بصفتهم الشخصية.[٥٦] وكانت إحدى علامات رضى الإله على المرء أن يمتلك الصحة والثروة وبيتًا يعج بالخدم، وغليونًا يعود خلال الأمواج إلى أرض الوطن قادمًا من آسيا. وفى زمن السلم، وبوجه خاص عقب المعاهدة المصرية – الحيثية ازدهرت الأعمال التجارية فى الساحل المشرقى صعودًا وهبوطًا، وأدت التجارة إلى تبادل العمال والتجار من "غزة" جنوبًا حتى "أوجاريت" شمالاً. وألف المصريون الأماكن

البعيدة التى ظلت حتى ذلك الوقت، لا تظهر إلاّ ضمن قوائم الأعداء، بل وقدروا لها أفضل منتجاتها: "كيزو - وادنا" لبيرتها (= جعتها)،[٥٧] و"أمورو" لنبيذها،[٥٨] و "تاخسى" و "نهارين" لزيوتهما،[٥٩] وفلسطين لعنبها وتينها،[٦٠] و "عشقلون" لمشغولاتها الفضية.[٦١]

وفى أعقاب الأسرى حضر التجار الكنعانيون ويمجىء حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث كان ذلك الشخص الآسيوى الغريب الأطوار من المشاهد المألوفة على ضفاف نهر النيل. ولقد نظم ملوك "أوجاريت" و "صور" الفينيقيون قوافل تجارية إلى مصر، كان الزيت والنبيذ والنحاس الأحمر بين أهم عناصرها،[٦٢] وما يبدو لنا فى المناظر المرسومة فى الجداريات "جزية" يقدمها السوريون لمصر، قد لا تزيد، فى الغالب، وفى واقع الأمر، على مكافآت "صريحة"، للفرعون ووزرائه كى يسمحوا بتدفق التجارة.[٦٣] ونسمع عن مراكب "أرفاد" التجارية ووكلاء "قبرص" التجاريين.[٦٤]

غدت ضاحية "منف" الشمالية بمثابة مأوى يفضله التجار الكنعانيون، الذى شكلوا منذ وقت مبكر جالية هناك، تتمركز حول معبدهم المنذور لإلههم "بعل" ، بيت "بعل" الـ "منفى"،[٦٥] والذى ظل على قيد البقاء لألف سنة لاحقة عندما زار الرحالة والمؤرخ اليونانى "هيرودوت" مصر، على هيئة "معسكر الصوريين" (=أبناء "صور")[٦٦] والحقيقة أن "منف" كانت تبدو كبيرة فى مظنون تاجر أجنبى يريد أن يروج لتجارته فى مصر. وكان يعرفها باسم "حا - كو - بتاح" "بيت روح بتاح"، وهو مصطلح يعنى المنطقة المتاخمة لـ "بتاح" الإله الرئيسى للمطرح،[٦٧] وبينما كان الكنعانيون يحتفظون بالفعل باسم لمصر، أقصد "مصرايم"، أخذ اسم "حا - كو - بتاح" يدل بالتدريج على القطر بأكمله. وكانت اللهجات الكنعانية مألوفة، بالضرورة، لآذان المصريين فى الأسواق، وسرعان ما أصبح التعبير : "يتاجر بالسورى" لا يعنى أكثر من "يفاصل" فى الأسعار.[٦٨] وإلى جانب رجل الأعمال الكنعانى الذى يبحث عن المتاجرة، استضافت مصر أيضًا خلال العصر الإمبراطورى طبقة من الآسيويين ألفتهم لمدة أطول كثيرًا من التجار. وهؤلاء كانوا "البدو" الذين اعتادوا على الترحال إلى شرق الدلتا عبر سيناء. وعلى غرار ما كان يجرى خلال الأيام الخوالى لـ "ميرى - كا - رع"، أى قبل هذا العهد بستمائة سنة، كانت زمر صغيرة من البدو الرحل لا تزال تهاجر بصفة موسمية غربًا، عندما يضرب الجفاف آبارهم وعيون مياههم، فى مسعاهم لدخول الدلتا. وتجد هذه الهجرة

الدورية تصويراً أصلياً لها فى الرسالة النموذجية التى تُنسب إلى كاتب حصن حدودى يقع فى "وادى طوميلات" فى السنة الثامنة من حكم الفرعون "ميرى - ان - بتاح" على وجه الاحتمال:(٦٩)

يبدأ الكاتب إيننا Einna فيحيى سيده، كاتب الخزانة "كا - ب" هذه رسالة سريعة لمعلومية سيدى... أى: انتهينا من التصريح لقبائل "الشاسو" القادمة من "إيدوم" بالدخول عبر حصن "ميرى - ان - بتاح" إلى عيون الماء فى (بيت "أتوم") بتاع "ميرى - ان - بتاح" "حوتب - حر - ماعت" الذى يقع فى "تيككو"، للحصول على قوتهم هم وقطعانهم، بجوار "روح" الفرعون له العمر والرخاء والعافية، الشمس الطيبة التى تسطع على كل البلاد! فى السنة الثامنة، أيام النسىء (مولد "ست")(٧٠) كنت قد أرسلت وثيقة من عدة أعمدة إلى المطرح الذى يقيم فيه سيدى فى الأيام المحددة التى سيمر خلالها القوم بالحصن."

وقد أثار البدو الذى دخلوا الدلتا مشاعر مختلطة بين المصريين. فاحتقر الكبار هؤلاء الرحالة بعنزهم، وكانوا يرون فى البدو أناساً أقذاراً مشعثى الشعر فى عرباتهم "الكارو"، لا يهتمون بالأساليب المتحضرة للحياة الإنسانية. ولكن الشبان الصغار السن رأوا فيهم تجسيداً لمثال حياة التحرر من السلطة، وهو مثال كان يفتن القلوب وقت ذاك مثلما كان يستولى دوماً احتمال الهرب إلى الغجر على قلوب الأطفال فى القرن التاسع عشر. ويوبخ أحد الآباء ابنه المتمرد فى نص يرجع إلى عصر الرعامسة:(٧١) "لبيت كافة احتياجاتك فى كافة المناحى، وهو ما لا يستطيع آخرون سوى أن يأملوا فى الوصول إليه، ولم أدعك تقول: ليتنى أحصل على ... أثناء الليل، عندما كنت راقداً على ظهرك ترفس وتتقلب، ومع ذلك فلقد خرجت الآن كعصفورة (= سنونوة) تحمل أفراخها،(٧٢) حتى وصلت إلى الدلتا بعد طواف طويل، واختلطت بالآسيويين، وأكلت خبزاً مغموساً بدمك!(٧٣) لقد فقدت رشدك!" وكان المجتمع البدوى يأوى عناصر المجرمين والخارجين على الأعراف، أما الأهالى المحترمون فلا يتآخون معهم: "وعصابة اللصوص تسللت إلى المعسكر حيث حلوا الخيول من قيودها... أثناء الليل، وسرقوا ثيابك. ولقد أيقظوا سائس خيولك (وعندما) أدرك ما دار، استولى على الباقى". والآن لقد نذر نفسه كلية لحياة الشر: فهو يخالط قبائل "الشاسو" وارتدى سمت الآسيويين."(٧٤)

العلاقات العرقية فى مصر الإمبراطورية:

ظل معظم الآسيويين، فى البداية، وحتى بعد مرور وقت ما، متميزين عن المصريين فى مصر. فسواء حضر الآسيويون إلى مصر كأسرى أو عبيد أو سمح لهم المصريون بالدخول كتجار أو عمال، كانوا يحملون أسماءهم الأصلية، التى يصعب تسكينها فى الكتابة المصرية، ولكنها تقدم لنا الآن مصدراً خلاباً لمعلومات حول اللغة وأخرى بشأن الأسماء - الأعلام، وخصوصاً للمتخصصين فى اللغة العبرية ولغات غرب آسيا بشكل عام.[٧٥] وأحياناً، وإن لم يكن بأى حال من الأحوال دائماً، كان الآسيوى المهاجر حديثاً يشعر أنه من الأنفع له أن يحمل اسماً مصرياً، يتذيّل به اسمه الأجنبى، على هذا النحو: "فلان الذى يسمى أيضاً ..." وكان ذلك شائعاً بصفة خاصة بين الطبقات الأعلى من المهاجرين الذى عينوا فى وظائف عالية مثل داخليات القصر الملكى أو الجيش. وكان هؤلاء يتبنون اسماً مركباً على اسم الملك الذى رقاهم، وهكذا وجدنا عندنا: "رعمسيس - إم - بر - رع" (= رعمسيس فى قصر رع) و "رعمسيس - إم - أون" (= رعمسيس فى أون) و "وسر - ما - رع - ناخت" ("وسر - ما - رع - رعمسيس" أى "رعمسيس" الثانى قوى البنيان) و "رعمسيس - مين" (= "رعمسيس" راسخ)، وما أشبه.[٧٦]

وعلى المستوى "الرسمى" حملت الدعايات فى النقوش على الآسيويين وسخرت منهم ومن ثقافتهم بطريقة نستطيع التنبؤ بها. فالأعداء الآسيويون "ضعاف" (أو"مخنثون" بلغتنا المعاصرة) و "متهالكون" وموضع مقت "رع"، ولا مصير لهم سوى أن يصيروا "أقناناً لجلالته" ويصف تعبير مقولب شائع، يلعب على عزلة مصر، الرؤساء الأجانب بأنهم كانوا يجهلون فى الماضى مصر، ولكنهم الآن أصبحوا مضطرين إلى تسول "نفَس الحياة" فى أراضيها. ولقد انبثقت مثل هذه الأفكار المقولبة من نزعة عرقية قومية متطرفة، وهو الأمر الذى يبرهن عليه خطاب من الفرعون "أمين - حوتب" الثانى إلى نائبه (= مندوبه السامى) فى النوبة، وهو خطاب يكشف عن تلقائية مقعمة بالحيوية.[٧٧] والخطاب أملاه الفرعون وأرسله (ثم نقشه المندوب السامى بفخار فى وقت لاحق على صادود/لوح) بمناسبة العيد الثالث والعشرين لجلوس جلالته فى العرش، عندما كان جلالته، وكما يقرر الخطاب جالساً فى جناح الحريم فى "طيبة"

يشرب النبيذ. وكان الفرعون يشعر بالفخر لأنه ينعم بالعيش "دون معارض فى أى صقع من الأصقاع" ويمضى كى يصف نفسه بأنه "مدمر "نهارين"، ومن أنزل الخراب بـ "خاتى" ، ومنتهك عرض المرأة البابلية وعذراء "بيبلوس" وصبية "ألالاخ" وعجوز "أرابخا"! Arrapkha أما التاخسيانيون فهم أصفار على الشمال، ترى لأى شيء يصلحون؟"

لم يخفف المصريون ، بالمرة، من غلواء احتقارهم لكل ما هو آسيوى، إلا أنهم وقفوا من مسألة الزواج المختلط موقفًا ينم عن التسامح. فليس من المستغرب أن نعثر على اسم كنعانى أو حورى فى شجرة عائلة مصرية خلال عصر المملكة الحديثة، ولم يرفض المصريون لقب "السورى" (بالمصرى: باخورو)، بأى حال من الأحوال، كاسم تدليل حتى للمصريين أنفسهم. وتصف وثيقة قانونية خلابة ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة قبول انضمام أحد الأجانب إلى أهل بيت مصرى، هكذا يتحدث "سى - باستيت"، الحلاق الخاص للفرعون "تحوت - موسى" الثالث[٧٨]: "أمتلك عبدًا وهب لى يدعى: "لووى - آمون". وكنت قد أسرته بنفسى خلال سيرى على أثر الحاكم (فى إحدى الحملات)... ولم يكن ليضربه أحد أو يصرفه بعيدًا عن أى باب من أبواب القصر الملكى. ولقد زوجته من "تاكامنت" Takament ، ابنة شقيقتى "نبيتو" Nebetto . ولسوف ترث من تركتى نصيبًا يوازى تمامًا ما سترثه زوجتى وشقيقتى."

أنتجت التجربة الجديدة التى مرت بالمصريين، وتمثلت فى حيازة إمبراطورية مترامية الأطراف روحًا عالمية، بالتعارض، مع النعرة القومية التقليدية، وهى روح انطبعت بشكل مرهف فى الفكر الدينى للعبادات التى عرفتها مصر على زمن الإمبراطورية. فلقد قاد "آمون - رع" الطيبى "ملك الآلهة" ورئيس المجمع الإلهى (=البانثيون) المصرى الحروب التى أدت إلى قيام الإمبراطورية، وها هو يرتفع الآن إلى وضع الإله المتعالى العالمى (= رب العالمين). ولما كان بصفة أساسية إلهًا كونيًا، كرب شمسى، فلقد خلق كل البشر وميّز بين الأجناس. وكان المترنم يترنم فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة: "التحيات لك يا "آمون - رع" سيد الحق، والد الآلهة يا من خلقت الإنسان والحيوان، سيد كل شيء، وبارئ شجرة الحياة، يا من خلقت العشب كى تتغذى عليه الأنعام... يا "أتوم" الذى فطرت الناس وفرقت بين طبائعهم، وميّزت بين ألوانهم."[٧٩]

ولما كان إلهًا شمسيًا فلقد كان "سيداً أعظم لكل ما خلق،"[٨٠] و"هو الذى خلق كل فرد من البشر وقدر لهم قوتهم... وهو الذى خلقهم دون عد أو حصر."[٨١] وكان هذا الحس العالمى هو الذى أشعر "أخناتون" أنه وريثه، وطوره فى سياق وحدانيته:
"أنت الذى خلقت الأرض وفق مشيئتك فى الوقت الذى كنت فيه متعاليًا، وكل الناس والأنعام والوحوش الضوارى، وكل ما يدب على قدمين على أديم الأرض، وكل ما يخفق بجناحيه فى الجو، والبلاد الأجنبية، بلاد "خارو" وبلاد "كوش" وأرض مصر، ووضعت كل شخص فى مكانه الصحيح، وأنت الذى وفرت لهم ما يحتاجون إليه، وزودت كلاً منهم بطعامه وقدرت أعمارهم وجعلت ألسنتهم مختلفة الواحد عن الآخر، عند الكلام، وعلى نفس المنوال ميَّزت بين طبائعهم وألوان بشرتهم."[٨٢]

الآلهة النازحة :

خلعت مصر فى ذلك الوقت عزلتها ووجدت نفسها وقد أصبحت، بالضرورة، كونية (كوزموبوليتانية cosmopololitan) وهبت الآن الرياح الأربع للإمبراطورية المصرية خلال "الأرضين". ولم يتضح ذلك أكثر مما اتضح فى المجمع الإلهى (= البانثيون)، حيث بدأت الأرباب الآسيوية تظهر فيه منذ غداة الغزوات التى قام بها الفرعون "تحوت – موسى" الأول.

ظهرت الآلهة الأجنبية أول الأمر تحت رعاية فرعونية. ولقد تفاخرت الملكة "حتشبسوت" بارتداء تعاويذ (= رقاوى) آلهة غير مصرية (آلهة ليبيا أو "بونت" على وجه الاحتمال)[٨٣] ولقد كشف الفرعون "أمين – حوتب" الثانى بافتخار عن أن كلاً من "عشتارت" و"رشف" يحميان فريق عجلته الحربية.[٨٤] وفى حالة ذائعة الصيت رجا الفرعون "أمين – حوتب" الثالث صهره "توشراتا"، ملك "ميتانى" أن يبعث إليه تمثال "عشتار" الذى تُعبد عليه فى "نينوى"، على أمل أن تخفف آلام مرض ما غير محدد، كان جلالته يعانى منه.[٨٥] ولكن جلالة الفرعون لم يكن متنازلاً عن أى شىء للمجتمع الأجنبى الذى غزاه أو فتحه المصريون، فـ "قاهر العالم vaincueur du monde لم يكن، بأى حال من الأحوال ليُقهر على أيدى آلهة رعاياه. وعوضًا عن ذلك فالمنطق يقضى بأن

آلهة المغلوبين كانت لتعترف الآن بمن برهن على أنه ناجح و "صادق" أمام ضحاياه، وهم يمدون الآن إليه خدماتهم ورعايتهم.

وبمجرد أن فتحت مصر، مع ذلك، أبوابها وقبلت بوجود جالية نازحة من الغرباء على ضفاف النيل، كانت قد قبلت أيضًا آلهتهم(٨٦). ولقد وجد الرب – البطل الكنعانى "بعل" (=السيد) مقامًا له مع وليفته "عشتارت" بين التجار الكنعانيين فى شمال "منف".(٨٧) وكان "بعل" هذا قد حج فى وقت سابق إلى نهر النيل كجزء من أمتعة العبادات الخاصة بالهكسوس، إلا أن مجيئه الثانى خلال الأسرة الثامنة عشرة كان منبت الصلة بزيارته الأولى. فالآن كان إله الغزاة بنفس القدر الذى كان به إله المقهورين. ولقد كشف جهارًا نهارًا هو ووليفته "عشتارت" عن سمات حروبية، لاقت قبولاً من العسكريين المصريين، وهى السمات التى تقف وراء استيعابهما بشكل سريع فى المجمع الإلهى (= البانثيون) المصرى. و"عنات" هى الأخرى، والإله – المحارب "رشف" لقيا الافتتان من جانب المصريين، وقد أقيم لـ "رشف" معبد فى مكان ما بالدلتا.(٨٨) وهناك إله يملك قوة مماثلة هو "حورون" Horon (الذى نجد اسمه متضمنًا فى الاسم التوراتى"بيت – حورون") يظهر فى زمام الجيزة. والكنعانيون الذين كانوا يحدقون ببلاهة فى "أبوالهول" العظيم كانوا يعتقدون أنه تمثال هذا الإله.(٨٩) وفى مكان آخر كانت الإلهة الشهوانية" قادشة" أى "المقدسة"(٩٠) تظهر كامرأة جميلة عارية تمامًا، وقد حملت إشارة تماثل تلك التى كانت تتمتع بها الإلهة "حتحور"، إلهة الحب عند المصريين.

لم يلجأ المصريون إلاّ أحيانًا نادرة إلى استخدام قاموس التفسير المصرى Interpretatio Aegyptiaca لترجمة أى إله كنعانى إلى نظيره المصرى (كان "ست" مع ذلك يمثل فى بعض الأحيان إلهًا – بطلاً كنعانيًا) ولكن الآلهة الآسيوية كانت تتمتع فى شطرها الأعظم بشخصيات قوية وأصبحت الآن تملك دائرة من الأتباع المقيمين تكفى لدخولها المجمع الإلهى المصرى بأسمائها وصفاتها الآسيوية. ولقد ظهر اسم "بعل" مكتوبًا بالقلم الهيروغليفى، وهو الذى اشتق منه، خلال العصور البطلمية فعلاً خاصًا فى اللغة المصرية يعنى "شن الحرب".(٩١) كما استمرت كل من "عنات" و"عشتارت" على قيد البقاء فى القوائم الرسمية للآلهة المصرية فى قلب العصور الرومانية.(٩٢)

وحازتا من الصيت حداً جعلهما تستخدمان كعنصرين إلهيين تركب عليهما أسماء مصرية خالصة.[٩٣] وتمتعت بعض هذه الآلهة الأجنبية بتبنٍ "عائلى" لها داخل بيوتات الآلهة القومية. ولقد نسب المصريون كلاً من "عنات" و"عشتارت" بالبنوة إلى الإله - الشمس أى صارتا بنتين من بناته،[٩٤] أما "رشف" و"قادشة" فلقد لقيتا القبول فى ثالوث خاص مع إله الخصوبة المصرى: "مين".[٩٥]

الأدب:

كان الأدب المصرى الكلاسيكى لا يزال يحظى بالإعجاب ويُقبل الكتبة وتلاميذهم على نسخه فى عصور المملكة الحديثة، ذلك الأدب الذى يرجع إلى أيام الازدهار فى المملكة الوسيطة. وكان ذلك الأدب نابعًا إلى حد كبير من إلهام قومى، ويدين بتأثير محدود، إن لم نقل، لا يدين بأى تأثير، من أى نوع، لأى عنصر يكون قادماً من الخارج. وفى هذا الأدب نلمس روح مصرىٍ واثق من نفسه، إن لم نقل سليم النية، متيماً حتى أذنيه بوطنه، ويستبد به الحنين إليه، إذا خرج منه، ومفعماً بالاحتقار للأجانب.

ولكن الأدب والفولكلور اللذين ظهرا خلال العصور الإمبراطورية كانا مختلفين إلى حدٍ كبير. وشملت "التيمات"، على نحو نستطيع أن نتفهمه، مآثر أولئك الذى بنوا الإمبراطورية، وبلغ الأمر حداً قد يحق لنا أن نسميه بـ "حكايات طويلة مليئة بالتفاصيل التافهة" Shaggy-dog stories . إذ تحكى، مثلاً، عن الملك الهكسوسى "أبوفيس" وكيف اختلق مشاجرة مع "سقن - ان - رع" فى "طيبة" إذ شكا من أن خوار فرس النهر (= سيد قشطة) فى "طيبة" يزعجه حتى يبقيه متيقظًا فى "أباريس" (=أواريس") على بعد مئات الأميال.[٩٦] كما تحكى عن الفرعون "تحوت - موسى" فى آسيا،[٩٧] وعن جنراله "تحوتى" الذى استخدم حيلة "على بابا" بإخفاء رجاله فى زكائب تحملها الحمير كى يستولى على "يافا" Joppa[٩٨] وتحاول حكايات أخرى، لم تصل إلى أيدينا إلا من خلال روايات متأخرة أن تفسر لنا، فيما يبدو، الفشل الذريع الذى حاق بـ "أخيتاتون" باللجوء إلى اختلاق الأسباب وراء ذلك،[٩٩] وتصف حكايات أخرى كيف تزوج الفرعون "رعمسيس" ابنة ملك الحيثيين.[١٠٠]

بجانب هذه الأساطير المستقاة من التاريخ، أنتجت مصر المملكة الحديثة نصيبها من القصص الخيالية الخالصة، وهي القصص التي يبدو فيها التأثير الأجنبي واضحاً. فلم يعد البطل هنا يعاف السفر خارج البلاد، أو يكشف عن حنين جارف للوطن، ولكنه أصبح يختار البقاء في آسيا ويتزوج من العشائر المحلية هناك. وتكشف بعض القصص عن تأثير كنعاني أو حوري (نسبة إلى الحوريين) قوي إلى الحد الذي قد نفترض معه على وجه التقريب، وجود أصل أجنبي، غير مصري وراء العمل. وهناك قصة الأمير الذي حكم عليه القدر، خلال نبوءة "الهاتورات (= الحتحورات) السبعة"[١٠١] بأنه سوف يقضي نحبه متأثراً بعضة كلب أو ثعبان أو تمساح، فما كان منه إلاّ أن خرج يجرب حظه في آسيا.[١٠٢] وعند قصر ملك "نهارين" (ميتاني) اشترك وفاز في مسابقة دارت بين عدد من الأمراء الآخرين طلباً ليد ابنة ملك "نهارين" التي كانت محتجزة في برج عالٍ ذي شباك واحد.[١٠٣] وفي وقت لاحق نجا الأمير بمساعدة زوجته الجديدة من ثعبان ولكن تمساحاً أمسك به بينما كان يسير بجوار نبع ماء. وعند هذه النقطة تنقطع البردية مع الأسف، وهو الأمر الذي يحول دون اكتشافنا ما إذا كانت القصة قد هدفت إلى تبيان حتمية القدر أم انتصار الفرد. ولكن الأمر ليس مقصوراً على مكان وقوع الأحداث في بلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا = نهارين). فهناك أيضاً مثل تلك "الموتيفات" مثل الفتاة المحتجزة في برج عالٍ وتطل من الشباك، والبطل الذي يتبعه كلبه أو كلابه إلى عين الماء، تلك "الموتيفات" التي تعيد إلى الأذهان "تيمات" كنعانية معروفة. وفي القصة الخيالية المعروفة باسم: "الشقيقان" يجد البطل الأول نفسه عند نقطة معينة في "وادي الأرز" في لبنان كي يعيش كطفل إلهي وسيم ينسدل شعره الذي تفوح منه رائحة زكية على كتفيه، وهو الطفل الذي شبق به الوحش المعروف باسم "يم" (البحر). وليس من الصعب هنا أن نتعرف على "موتيف" وحش البحر الشهواني والإلهة.[١٠٤]

كما نقل المصريون عدداً من الأساطير الآسيوية، فيما يبدو، إلى اللغة المصرية مع إدخال تعديلات لا تنكر عليها. ولقد ظهرت القصة المذكورة قبل قليل: "يم والإلهة" التي نعرفها تمام المعرفة من مدن "أوجاريت" و "فينيقيا" في ساحل المشرق، على بردية رائعة، رغم حالة التمزق التي عليها، وتحتفظ بها حالياً مكتبة "جيه. بي. مورجان" J.P. Morgan[١٠٥]. وكان "يم" يحصل جزية من الآلهة، ولكنهم لم يعترفوا بسيادته

عليهم إلا مكرهين. وعندما توقفوا عن دفع الجزية فى نهاية الأمر، على سبيل التحدى، أرسلت "عشتارت" لتخفيف حدة الغضب المنتظر من الوحش، ولكن "يم" يريد الجزية بل ويريد أيضًا "عشتارت". حقًا لا تسمح المزق التى تبقت من البردية بترجمة مترابطة، ولكن يبدو أن "ست" (= بعل) يناصر قضية الآلهة فى نهاية المطاف وتنزل الهزيمة بـ "يم". وتتناول برديات أخرى الحياة الجنسية لـ "عنات" وعشيقها الشهوانى وهو إله من نوع "بعل". وهنا نجد "ست" مرة أخرى يقوم بدور "بعل".(١٠٦) وفى موضع آخر "تنسب" كل من "عشتارت" و"عنات" إلى "بعل - ست" كوليفتين له فى تقليد أمين للعلاقة التى تبرز بعناية ووضوح فى المجمع الإلهى الكنعانى.(١٠٧)

وتنطوى "استعارة" مصرية على شكل ليس معروفًا للمصريين كشكل أدبى قومى لهم، وأقصد شكل "الليجورة" allegory (= الأمثولة). فتصف "قصة الحق والباطل"، فى بردية يحتفظ بها المتحف البريطانى كيف أن الباطل يتهم أخاه زورًا بأنه سرق سكينته، التى يصفها فى سبيل تدعيم تهمته لأخيه بأنها غالية الثمن وذات أبعادٍ هائلة. ولكن ابن "الحق" يبرئ والده فى نهاية المطاف، بعد أن كانت المحكمة قد قضت عليه بالعمى، وذلك بأن يتهم عمه بأنه أكل ثوره، ويصف على نحوٍ مماثل (ولنفس الغرض) كيف كانت قيمته فوق الوصف وكذلك أبعاده. وهذه القصة مستقاة من أصل حورى، انعكس فى قصة "أبو": Appu ، ولقد هاجرت هذه "الحبكة" (=القصة) إلى روسيا حيث ظهرت كـ "برافدا وكريفدا" Pravda and Krivda(١٠٨).

ويمكننا رصد تعرض الأدب المصرى لأفكارٍ آسيوية فى مواضع أخرى، عمل فيها التأثير الأجنبى عمله بصورة بارعة فى الموضوع بينما استمر الشكل قوميًا مصريًا بصفة رئيسية. أحد الأمثلة على ذلك يتمثل فى العصر "الساتورنى" (=الذهبى)، على نحو ما كان عليه، وهو العصر الذى سبق ارتكاب البشر للخطيئة الأولى، وفى ذلك العصر، وعلى النقيض من العصر الحديث، لم يكن هناك وجود للمرض أو الحقد. "نزل الصدق إلى الأرض فى تلك الأيام (أيام الأسلاف) فرويت الأرض وامتلأت البطون، ولم يكن هناك عوز فى طول الأرضين وعرضها. ولم تكن الحوائط تعرف الانهيار، والشوك لم يكن يعرف الوخز... و كان الطعام يتدفق فى بطون العوام، ولم تكن هناك خطيئة واحدة فى البلاد، ولم يكن التمساح يخطف ولم يكن الثعبان يعض -

فى زمن الآلهة الأوائل."(١٠٩) كما اكتسب مفهوم ما بعد الموت قدراً معيناً من التلوين بألوان اللوحة الآسيوية، مع أن أساسيات العقيدة المصرية داومت على الاستمرار. وهناك وجهة نظر تحملها أقلية، وقد تمثلت فى الأدب المصرى، بالتلازم مع أسلوب الحياة القائم على مبدأ اللذة، طالما انتقدت بقوة مدى فاعلية الشعائر الجنائزية استناداً إلى منطلق فلسفى لا-أدرى.(١١٠) والآن أضيف إلى هذا النهج، بين الحين والآخر وصف لما بعد الموت ولكنه ينطوى على ما نستطيع أن نعزوه إلى تصورات نابعة من بلاد الرافدين والمشرق أكثر مما نعزوه إلى مصر: ففى ما بعد الموت (=الحياة الآخرة) "لا يوجد أكل أو شرب أو عجز أو شباب، ولا رؤية لأشعة قرص الشمس، ولا تنفس لريح الشمال، والظلمة تغرق الوجوه دوماً، وليس هناك من يصحو مبكراً كى يغدو"(١١١) هذا التفنيد نقطة - نقطة للأمل المصرى العظيم، إنما ينبع من ظلام ويأس "شؤول" She'ol الكنعانى، وليس من الوعد المشرق الذى تنطوى عليه "الحقول الإليزية"(=اليانعة) التقليدية لعبادة الشمس فى مصر.(١١٢)

لم ينعكس تأثير المشرق وبلاد الرافدين على مصر خلال المملكة الحديثة بصورة حية أكثر مما انعكس فى معجم اللغة المصرية. فلقد ظهرت مئات الكلمات الكنعانية فى وثائق المملكة الحديثة، وبذل الكتبة المصريون جهوداً شاقة فى سبيل رسمها بالقلم الهيروغليفى بالطريقة المعروفة باسم الكتابة المقطعية. ومع أن اللهجات المصرية قاومت التغير على مستوى النحويات Syntactic changes ، - معظم الكلمات المستعارة كانت أسماء - إلاّ أن احتياج هذه اللهجات، بصورة واضحة، لمصطلحات للأساليب والمصنوعات والمواد الجديدة أدت إلى تبنى ألفاظ أجنبية شكلت معياراً لتأثير "كنعان" على مجمل ألوان الطيف الثقافى لمصر.(١١٣)

وكما يجوز للمرء أن يتوقع، فالربع، بالتمام والكمال، من هذه الكلمات التى نستطيع التعرف عليها كان متصلاً على نحوٍ أو آخر بالعسكروت. وتمثل التعابير التكنيكية التى تصف العجلة الحربية وأجزائها والعتاد الحربى نصف تلك الكلمات بينما تشير الكلمات الأخرى إلى أنواع التسليح والرتب العسكرية والمعمار العسكرى وأساليب وأنشطة فنون الحرب. كما توصلنا إلى عددٍ محدودٍ من المصطلحات البحرية، بالمثل، (٣ بالمائة بالتقريب من مجمل الكلمات المستعارة).

وتقف ألفة المصريين بآسيا ومواردها وراء حوالى ٢٧ بالمائة من الكلمات المستعارة. وتمثل مصطلحات الخشب والخشب المنشور وأنواع الأثاث ١٢ بالمائة، بينما تغطى ٦ بالمائة المعادن الآسيوية. وتبلغ المصطلحات الجغرافية عشرة بالمائة على وجه التقريب من إجمالى الكلمات المستعارة، نصفها تشير إلى أدوات وأشياء تتصل بالماء (الآبار والجداول والصهاريج .. إلخ). والكلمات الباقية تشمل مصطلحات تدور حول تضاريس أرضية (أنواع الحقول والجبال والكهوف) والأسفار البرية.

وتصور باقى المصطلحات ما أحاطتنا به علماً الأدلة الأثرية والتاريخية فيما يتعلق بالتأثير الذى تفشى للآسيويين فى مصر. فالطعام وطرق إعداده تقف وراء ثمانية بالمائة من الألفاظ الأجنبية بينما تمثل تكنيكات البناء والملامح المعمارية والمواد المستخدمة سبعة بالمائة. ولما كان كثير من السلع الآسيوية التى تؤخذ كضرائب، أو تطلب كبنود تجارية، كانت تأتى فى حاويات، فليس غريباً أن تشكل المصطلحات التى تشير إلى أوعية (من الخزف كبرانى أو البوص كسلال) سبعة بالمائة. ومن مجالات القانون والدبلوماسية تأتى أربعة فى المائة من إجمالى ما استعارته اللغة المصرية، وقدمت العبادات ثلاثة بالمائة والتجارة الدولية اثنين بالمائة.

استمر السيل الآسيوى يغرق الدلتا ووادى النيل لمدة تصل إلى أربعمائة سنة، ولكن اليوم لم يبق لارتفاعه وهبوطه أى أثر، إلاّ فيما ندر. فالجاليات الكنعانية التى ضمت العبيد والتجار والأفكار التى انبثقت سرعان ما كُنست فى إطار الكارثة التى حلت بنهاية عصر ومسحها النسيان التام. ولم يبق شىء بالمرة من وجودهم السابق فى الذاكرة الجمعية للمصريين. وفى الوضعية - الذهنية للعالم الجديد الشجاع الذى كان على وشك البزوغ استطاعوا أى أولئك الكنعانيون، أن يلعبوا بأمان وطمان دور كبش الفداء. وفى الخليط التاريخى الذى اختلقته إسرائيل القديمة لتبرير دخولها إلى المسرح، كُوِّمت كل شرور العصور على كاهل الكنعانيين، فلقد أصبحوا، بالتالى أكثر الأجناس خبثًا فى التاريخ.

الهوامش

(١) تنظيم الجيش المصرى معروف بصورة أفضل كثيراً من التاكتيكات التى كان المصريون يلجأون إليها فى ميادين القتال. وعلى العموم انظر:
R.O. Faulkner, JEA 39 (1953), 32-47; A. R. Schulman, Military Rank, Title and Organization in the Egyptian New Kingdom (Berlin,1964);J.Yoyotte and J.Lopez, Bib.Or.26 (1969), 3-19;W.Wolf,Die Bewaffnung des altägyptischen Heeres (Leipzig, 1926); Y.Yadin, The Art of Warfare in Bible Lands (Jerusalem,1961).

(٢) حول القوس المركب انظر:
H.E. Winlock, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes (New York ,1947)
W.E.McLeod, "The Bow in Ancient Greece" Ph.D.diss.,Havard University,1966);
وحول دخول العجلة الحربية نطاق الاستعمال انظر:
W. Helck,J NES 37 (1978), 337-80.

(٣) Snny and Ktn repectively; cf. A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica (Oxford,1947), 1:28*; A.R.Schulman, JARCE 2(1964), 87-88, D.Meeks, Année lexicographique (paris,1981), 2:332-33,400; (Paris,1982) ,3:258.

(٤) انظر:
D.B.Redford,in The Akhnaten Temple Project (Toronto,1988),2:13-22;Schulman JARCE 2 (1964), 53-79, for an "armorer",see H.S.Smith,The Fortress of Buhen:The Inscriptions (London,1976,1:81.

(٥) J. Wilson, The Burden of Egypt (Chicago, 1951), 167; for the civilians mentioned
وحول المدنيين الذين ورد ذكرهم انظر:
Urk IV, 1019ff., 1-24; 1442; W.Helck, Die Verwaltung des mittleren und neuen Reiches (Leiden,1958),469.

(٦) Faulkner, JEA 39 (1953), 44;D. Meekes, Année Lexicographique (Paris, 1980), 1; 388.

(٧) حول هاتين النقطتين انظر:
C. Vandersleyen, Les guerres d'Amosis (Brussells,1971), 26-30; D.B.Redford, Egypt and Canaan(Beer Sheva,1990).
والمصطلح "ويعو" كان يعنى فى الاستعمال المدنى "عامل عادى" وفقاً لـ "ياروسلاف تشيرنى" فى.
A Communily of Workmen at Thebes in the Ramesside Period (Cairo,1973),47.

(٨) A.H.Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Brussells,1937),27;R.A.Caminos, Late Egyptian Miscellanies (Oxford,1954),98.

(٩) KRI 1,273-80.

(١٠) B.Menu,Le Régime juridique des terres et du personnel attaché à terre dans le Papyrus wilbour (Lille,1970), 107ff.

(١١) Urk IV,1006;see A.Brack,Das Grab des Tjanuni (Mainz,1977).

(١٢) Urk IV, 1820-21.

(١٣) Gardiner,Miscellanies,11:4.

(١٤) Gardiner, Onomastica,1:25*(on.Am.88).

(١٥) A.Moret. Le Musée Guimet (Paris,1909),5 9; KRI 1,32514:345:1.

(١٦) P.Anast. IV,4,8-9.

(١٧) P.Harris 1,57:8-9.

(١٨) P.bolongna 1094,5:2-4

(١٩) KRI 1,322.

(٢٠) Ibid.,323-24.

(٢١) Cf.Urk IV,1659:"Then the army of Pharaoh was mustered...organized in squads and assigned officers, each man being with his village":

وعندئذ حشد الفرعون جيشه ... وارتأى تنظيمه على هيئة فرق يقف على رأسها ضباطها، وكان كل رجل ينضم إلى أبناء قريته."

(٢٢) P.Anast.1:17,4-5.

(٢٣) Urk IV,652:15-653:3.

ونحن نسمع أيضًا عن "جيش النهر الغربي" أي جيش الضفة الغربية للدلتا: Urk IV,981:11 .

(٢٤) Schulman, Mikitary Rank, 26-30.

(٢٥) A.R. Schulman, JARCE 2 (1963), 75-98.

(٢٦) W.Mcleod,Phoenix 19(1965),1-14.

(٢٧) Ugaritica 5 (1969), 69-79; H.Cazelles, Mélanges de L'Université de Saint-Joseph 46 (1970), 33ff.; A.F.Rainey, UF 3 (1971), 131-49; M.C. Astour, in G.D. Young, ed., Ugarit in Retrospect (Winona Lake,Ind.,1981), 22-23.

(٢٨) Gardiner, Miscellanies,108:15-109:1.

(٢٩) P.Bologna 1086.

(٣٠) Cf.A.F. Rainey, Israel Oriental Studies 5 (1975),27: "His porters sold him to the Egyptians and they seized him and took his goods":

"باعه حاملوه للمصريين فوضع هؤلاء أيديهم عليه وغلى ما معه من سلع". وحول تجار العبيد في مصر، الذين يبيعون العبيد السوريين في مصر، انظر: KRI II,800-802 .

(٣١) Gardiner, Miscellanies, 9:1; KRI II, 280:13-16;
وللاطلاع على قوائم الكنعانيين الذين وصلوا حديثًا إلى مصر انظر:
G.Steindorf, ZÄS 38 (1900),15-18; G.Posener, Syria 18 (1956),183ff.

(٣٢) P.Bologna 1086; W.Wolf, ZÄS 65 (1930), 89-97.

(٣٣) Urk IV,742; cf.Urk IV,781,1102-3;KRI I,2:15; 23:5-6; 38:8-8-9; 41:4; 48:16-49:1; II,206,etc.;A.M.Balckman, The Temple of Derr (Cairo,1913),7-8,pl.V:1;
وحول الكنعانيين في المعابد النوبية، انظر: L.Habashi, Kush 8 (1960), 49,fig.5 .

(٣٤) T.Säve-Söderbergh, Orientalia Suecana 1 (1952), pl.12;
نستشف من واقع البطاقات التى تحملها قنانى النبيذ، التى تحدد مصدر هذه الخمور، أن كثيرًا منها أسيوى المصدر:
W.Hayes JNES 10 (1951), 46,fig.6:54; 56,fig.16:251; idem,MDAIK 15 (1957), 81, fig.1 (D); T.E.Peet,City of Akhenaten (London,1923),1: pls.90:152; 86:35-57; J.D.S Pendelbury, City of Akhenaten (London,1951),3:pl.87:60,62;KRI II,678:13-16; 694:14-695:2; VII,50:10; 68:15; 73:8,15; W.Helck,Die Beziehungen Ägyptens zur Vorderasiens[2] (Wiesbaden,1972),360.

(٣٥) Urk IV,743.

(٣٦) P.Harris 1,10:15;51a:9.

(٣٧) Urk IV.1649.

(٣٨) See previous n.32 (انظر رقم ٣٢)

(٣٩) CF. A.H. Gardiner, Ramesside Administrative Documents (Oxford,1948), 37:13, 44:5;cf.Helck,Bezeihungen[2], 357.

(٤٠) See N.de G.Davies, The Rock Tombs of El-Amarna (London, 1903), 1:pl.15; (London,1904), 2:pl.17; (London,1905), 3:pl.31.

(٤١) P.Anast.IV, 16:4-6.

(٤٢) Kri I, 48-49,cf. Helck, Bezeihungen[2], 357.

(٤٣) Berlin 1284 (Agyptische Inschriften,2:306).

(٤٤) Helck ,Beziehungen[2], 353-54.

(٤٥) See J.Berlandini-Grenier, BIFAO 74 (1974),1-19.

(٤٦) حول شخص "باى": Bay انظر:
Helck, Verwaltung, 355; A.H.Gardiner, JEA 44 (1958),12ff.;
رسالة غير منشورة ترجع إلى "أوجاريت" من وجيه يدعى "بيبا": Beya ، من مصر، وهو لا يمكن أن يكون أى شخص آخر سوى صاحبنا الوجيه الحالى: P.Bordreuil, CRAIBL (1987), 297.

(٤٧) Helck, Beziehungen[2],356-57; on Benya,son of the Hurrian Aritenni,see T.Säve-Söderberg,Orientalia Suecana 8 (1960),54ff.;S.Ratié, La Reine Hatchepsout: Sources et problèmes (Leiden,1979),285.

(٤٨) D.A.Lowle,Oriens Antiquus 15 (1976),91ff.

(٤٩) Helck,Beziehungen[2],354-55.

(٥٠) G.A. Gabella, JEA 59 (1973) ,pl.37:1.

(٥١) Urk IV, 1556:10-11.

(٥٢) See p.179.

(٥٣) See S.Sauneron and J.Yoyotte, RdE 7 (1951), 67ff.; P.Hattis 1,31,8 "مؤسسة كانت تغص بأبناء الماريانو (الفرسان) و "العابيرو" فى "تاتو" حيث يصل عددهم إلى الفين وثلاث وتسعين نفساً". KRI VII, 84 (settlement of Asiatics in the "Bird pool" (?) providing wine) (مستعمرة الآسيويين فى بحيرة الطيور التى تنتج النبيذ).

(٥٤) W.C.Hayes JEA 46 (1960), pl.XII, 17; P.Berlin 10621 recto 9 (tomb excavation); P.Leiden 348 verso 6,6;349 recto 15 العابيرو والجنود يبنون صرحًا) L.Christophe, BIFAO 48 (1949), 20 (900, العابيرو فى المحاجر).

(٥٥) قارن النقش التدشينى الذى تركه لنا الفرعون "رعمسيس" الثانى فى "أبيدوس" وخصوصًا السطران ٨٧، ٨٨، اللذان يقول فيهما: "وهبتك سفينة موسوقة بحمولتها فى عرض البحر ومن "أرض الإله" أتتك (روائع) عظيمة والتجار ينقلون بضائعهم حسب أوامرك وعملهم يتحول إلى ذهب وفضة ونحاس أحمر"

(٥٦) D.L.Owen,Tel Aviv 8(1981),1ff.;Singer,Tel Aviv 10 (1981), 3ff;Canaan,Late Egyptian Miscellanies,138.

(٥٧) Gardiner,Onomastica 1 1:136*.

(٥٨) Ibid.,2:263*.

(٥٩) P.Anast. IV,15:3-4.

(٦٠) P.Anast.IV,17:5.

(٦١) J.Jannsen, JEA 49 (1963),64-70.

(٦٢) J.Nougayrol, Palais royal d'Ugarit (Paris,1965),116,no.95:1-5.

(٦٣) M.Liverani, Three Amarna Essays (Malibu, Calif.,1979),21-33.

(٦٤) EA 101:15 - 18;39:14.

(٦٥) W.Helck, Oriens Antiquus 5 (1966),2-3 (Berlin 8169);P.Sallier,verso 2,8.

(٦٦) Herodotus 2:111; Sauneron and Yoyotte, RdE 7 (1951), 69 n.1; A.B. Lloyed, Herodotus Book II A Community (Leiden,1988),3:44-45.

(٦٧) Cf.EA 139:8 (Hi-ku-ta-ah);II Aqhat Vc,20f (HKPT);apparently in linear B it appears as Ai-ku-pi-ti-jo:R.R.Stieglitz,Kadmos 15 (1976),85;R.D.Woodard, Kadmos 25 (1986),63.

(٦٨) J.J.Jansen, Two Ancient Egyptian Ships'logs (Leiden,1961),59:14,and p.73.

(٦٩) P.Anast.VI, 4:11-5:5; see now H.Goedicke, SAK 14 (1987), 83-89.

(٧٠) فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م. كان التاريخ ليقع فى نهاية شهر يونيو/ بئونه.

(٧١) A.H. Gardiner and J. Cerny, Hieratic Ostraca (Oxford, 1957), 1:pl. 78: J.Cerny, JNES 14 (1955),161-63.

(٧٢) يعنى: يهيم على وجهه.

(٧٣) انضم إلى القبيلة فى خلال طقس أخوة الدم.

(٧٤) P.Anast.I, 20:2-4.

(٧٥) نستطيع العثور على قائمة غير كاملة بأسماء شخصية (أسماء علم) أسيوية فى: Helck, Beziehungen[2], 353-67.

(٧٦) L.Habachi, ASAE 52 (1954), 508,539; Berlandini, BIFAO 74 (1974), 10,n.4; A.R.Schulman,CdE61 (1986),187ff.

(٧٧) Urk IV 1343-44; W.Helck, Helck, JNES 14 (1955),22-31.

(٧٨) Urk IV,1369.

(٧٩) ANET2 ,365-66.

(٨٠) H.M. Stewart ,JEA 46 (1960), 86.

(٨١) ANET2, 368.

(٨٢) M. Sandman, Texts from the Times of Akhenaten (Brussels,1 938), 94-95, col.8.

انظر ص ١٥٢ من النص الأصلى.

(٨٤) W.K. Simpson, Orientalia 29 (1960), 63ff.; Helck, Oriens Antiquus 5(1966), 5.

(٨٥) EA 23.

(٨٦) على وجه العموم انظر:
R.Stadelmann, Syrisch-Palästinensische Gttheiten in Ägypten (Leiden,1967).

(٨٧) Ibid., 32-33; Helck, Oriens Antiquus 5 (1966),2-3; W.M.F.Petrie, Memphis (London,1909),1:pl.15;Ba'al Saphon (Mount Casios) and Astarte are attested as early as Amenophis II's reign at Memphis:P.Leningrad 1116A verso 42.

تقوم أدلة على وجود كل من الإله"بعل صافون"(جبل كاسيوس) و "عشتارت" منذ تاريخ قديم يرجع إلى حكم "أمين – حوتب" الثانى فى "منف".

(٨٨) حول "عنات" انظر:
J.Leclant, LdÄ 1 (1972), 255,on Resfef, see E.Bresciani, Oriens Antiquus 1 (1962), 215-17; D.Corad,ZAW 83 (1971),157ff.; W.K.Simpson,LdÄ 5 (1984) , 244-46; A.R.Schulman, in F.Junge, ed., Studien zu Sprache und Religion Ägyptens (Göttingen, 1984),855ff.

(٨٩) S.Hassan, The Sphinx,its history in the light of Recent Excavations (Cairo, 1976); C.M.Zivie, Giza au deuxième millennaire (Cairo,1976),311-18;On the god,see now especially J.van Dijk, Fourth International Congress of Egyptology, Abstracts (Munich, 1985), 247-48.

(٩٠) حول "قادشة": Qadesha انظر : R. Stadelmann,LdÄ 5 (1984),26-27.

(٩١) S.Sauneron, BIFAO 62 (1964), 22-24.

(٩٢) See E.Chassinat and F.Daumas, Le Temple de Dendara (Cairo,1934-1978), 1:152(25); 3:192; 192; 5:25.

(٩٣) CF.Padi-Astrarte,Tadi-Astarte,etc.

(٩٤) P.Chester Beatty 1,3:4 (A.H.Gardiner,Late Egyptain Stories (Brussels,1 932), 40)

(٩٥) Helck ,Oriens Antiquus 5 (1966),7-8.

(٩٦) P.Sallier 1,1:1-3:3; Gardiner, Stories, 85-89; D.B.Redford, Orientalia 39 (1970), 35-38; H.Goedicke, The Quarrel of Apophis and Seqenenre (San Antonio, Tex.,1986).

(٩٧) G.Boti, JEA 41 (1955), 64-71;

يبدو من المرجح أن الفقرة الواردة عند "مانيتو" (W.G.Waddell, Manetho) 42.86-88 (London, 1940), 86-88 تخفى فى ثناياها حدوتة شعبية ترتكز على حصار "مجدو".

(٩٨) Gardiner, Stories, 82-85.

(٩٩) انظر ص رقم ٤١٤ من النص الأصلى.

(١٠٠) Cf.the Bentrech stela:A.J.Spalinger, JSSEA 8 (1977), 11-18;M.Lichtheim, Ancient Egyptian Literature (Berkeley,Calif., 1980), 3:90-94; D.B.Redford ,in Biblical Archaeology Today (Jerusalem,1985),205,n.101.

(١٠١) الحاتورات السبع"، تظهر، مثلما تفعل "ربات القدر" فى الأساطير اليونانية القديمة، على رأس كل مولود كى تحدد له مصيره:انظر فى هذا الصدد:

J.Vandier, RdE 16 (1964), 119-20; L.Kakosy, Studia Aegyptiaca (Budapest, 1981), 7:63;cf.Odyssey,7:196-98.

(١٠٢) M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature (berkeley, Calif., 1976), 2:200-203; E.Brunner-Trut, LdÄ 4 (1982),1108-13; E.Cruz-Uribe,ZÄS 113 (1986),18-20; On the theme of fate,see F.T.Oiosi, in G.E.Freeman,ed., Studies in Philology in honour of Ronald James Williams (Toronto,1982).69-111:cf.also W.Helck,in J.Osing and G.Dreyer, eds., Form und Mass (Wiesbaden,1987), 218-25.

(١٠٣) للاطلاع على موتيف "البرج" انظر:

S.Thompson, Motif-Index of Folk Literature (Copehagen,1 955-1958), 6:M 372:

تيمة الفتاة فى البرج هى بشكل أساسى تيمة "عشتارت"-تطل-من-الشباك التى تبناها الرواة الشعبيون فى إطار فلكلورى. (N. Robertson,HTR 75 (1982),315-21) وعلى نفس المنوال نجد أن الأمير الذى تحدق به عند عين ماء مخاطر كلب أو تمساح أو وحش كاسر ما هو إلا اقتباس لقصة بعل/أدونيس الذى قتلته كلابه فى أحد الأهوار.انظر ص ٤٤ من النص الأصلى، بالإضافة إلى:

D.B. Redford, in S.Groll, ed., Studies in Egyptology Presented To Miriam Lichtheim (Jerusalem, 1990), 824ff.

(١٠٤) See above,p.43ff. On the story see Lichtheim, Literature,2 :203-13; O.Spies, in M.Görg, ed., Festschrift Elmar Edel (Bamberg, 1979), 397ff.; E.Blumenthal, ZÄS 99(1972) ,1ff.; J.J.Assmann, ZÄS 104 (1977),1ff.; L.H. Lesko,ed., Egyptological Studies in Honour of Richard A.Parker (Providence,R.L.,1986),98-104.

حول شكوكى تجاه العناصر الآسيوية فى القصة، انظر:

A Study of the Biblical Joseph Story (Leiden,1970), 93,n.3)

ويبدو الآن أنه أدخل فى باب عدم الفطنة، ليس الـ "موتيفات" الآسيوية التى تنطوى عليها القصة وحسب، بل أيضاً، عند النقطة التى تصل فيها الحدوتة الأولية درجة من التأزم وتدخل فى حدوتة وادى شجر الأرز (6,4 to 8.6) وحتى نحويات اللغة المصرية ذاتها تبدو متأثرة بنحويات لهجة كنعانية ما.

(١٠٥) G. Posener, AIPHOS 13(1955), 461ff.; O.Kaiser, Die Mythische Bedeutung des Meers in Ägypten, Ugarit und Israel (Berlin,1959),81ff.; Stadelmann, Syrisch - Palätinensische Gottheiten, 125ff.; W.Helck, in M.Görg,ed.,Fontes atque Pontes (Wiesbaden, 1983), 215ff.

(حيث نفترض وجود تأثير الحوريين).

(١٠٦) A.Roccati, RdE 24 (1972), 152-59.

(١٠٧) See n.94; J.Vandier, MDAIK 25 (1969), 188-97, pl.7a; H.Te Velde, LdÄ 5 (1984).910.

(١٠٨) Lichtheim, Literature,2:211-14; H.G. Gütterbock,in S.N. Kramer, ed., Mythologies of the Ancient World (New York, 1961),154; J.Friedrich, ZA 49 (1950), 213ff.; Lesko,in Egyptological Studies,98-104.

(١٠٩) O.Firchow, Thebanischen Tempelschriften (Berlin,1957), 76,81; cf.E.Otto, in Religions en Egypte Hellénistique et romain (Paris,1969), 93ff.; Kakosy, Studia Aegyptiaca,7:81-92.

(١١٠) حول ملامح مذهب اللذة فى أغانى "هاربرز" Harpers انظر:

J.Assmann, in J.Assmann,ed.,Fragen an die altägyptischen Literatur (Wiesbaden, 1977), 55-84; M.V.Fox, Orientalia 46 (1977), 93ff.; see also L.Kakosy, in Religions en Egypte hellénistique,60-61.

(١١١) Gardiner, Stories,91; Posener, Dravnii Vostok 1 (Moscow,1 975), 105ff.

(١١٢) Cf.J.G. Griffiths, in Görg, Fontes atque Pontes, 193-95.

(١١٣) يظل أهم تصنيف لمثل هذه الكلمات متمثلاً فى عمل "بورشارد" الضخم:

Die AltKanaanäisch Fremworte und Eigennamen in Aegyptschen (Leipzig, 1909).

ولقد ضمّن "هيلك" Helck أيضاً ما يزيد على ثلاثمائة كلمة فى كتابه: (Beziehungen 2,505ff.) وينتظر العلماء معالجات جديدة من كل من "مانفريد جورج": Manfred Görg و "جيمس هوخ": J ames Hoch والنسب المذكورة هنا تعتمد على اختيار المؤلف (ريدفورد) لتلك الكلمات التى ثبت أصلها الكنعانى دون شك، وهى عرضة بالتالى لتعديلات طفيفة فى المستقبل.

الجزء الثالث

الهجرات الكبرى

الفصل التاسع

مجيء شعوب البحر

شهدت السنوات الخمسون التى أعقبت معاهدة السلام المصرية ـ الحيثية ازدهارًا رغدًا عم الشرق الأدنى بأسره. ففى المشرق أصبحت الحدود وقت ذاك مفتوحة من مصر جنوبًا حتى البحر الأسود شمالاً، ومن الفرات شرقًا حتى جزر بحر "إيجة" غربًا، وانتعشت التجارة الدولية كما لم يحدث من قبل. فلم تضمن هذه المعاهدة المهمة السلام و حسب، و لكن الزواج الذى أُبرم بين ابنة "هاتوسيليس" الثالث ملك الحيثيين والفرعون العظيم "رعمسيس" الثانى، ولقى ترحيبًا على نطاق واسع، وطَّد العلاقات بين البلاطين على المستوى العائلى، مع أن هذه البنت السيئة الحظ ربما تكون قد اختفت فى جناح الحريم فى الـ "مي - وير" Mi-wer كى لا تقع عليها عين، مرة أخرى إلاّ فيما ندر، و مع ذلك ظلت العلاقات الودية بين مصر و "خاتى" مصونة لم تمس حتى نهاية الإمبراطورية الحيثية.(١) و بينما نعرف أن العلاقات بين "خاتى" و "آشور" وصلت إلى مرحلة الحرب الباردة، إلاّ أن المراسلات بين "تدخاليياس" Tudkhaliyas الرابع والفرعون "رعمسيس" الثانى لم تهتم بشىء آخر قدر اهتمامها بالإهانات الملموسة وتبادل الفنيين.(٢)

مصر و جزر إيجة:

تمتعت اليونان و الجزر الإيجية، خلال المملكة الحديثة، بعلاقات طيبة مع مصر، حتى و لو تظاهر المصريون، لأغراض الاستهلاك المحلى، بقبول المفاتحات التجارية من

جزر بحر "إيجة"، باعتبارها، عروضًا بدفع الجزية. و بحلول سنة ١٥٢٠ ق.م.على وجه التقريب كانت لغة "كفتيو"Keftiu (كافتور" kaphtor بالكنعانية) قد غدت مألوفة للمصريين إلى الحد الذى أصبح من الممكن معه أن ترسم التعاويذ (=الرقاوى) المكتوبة فى هذه اللغة بالقلم الهيروغليفى[٣] و تحت ظل الفرعون "تحوت - موسى" الثالث، صار موكب حاملى العطايا من أبناء جزر بحر "إيجة"، بأزيائهم المزركشة (التى تعيد إلى الأذهان جداريات الفريسكو الإيجية) مألوفًا فى "منف" و "طيبة"،[٤] و تحت ظل الفرعون "أمين - حوتب" الثالث أصبحت الطرق البحرية حول بحر "إيجة" مألوفة للبحارة المصريين إلى الحد الذى غدا من الممكن نقل "دليل البحارة" أو الـ" periplus" إلى اللغة المصرية بل و ظهرت أسماء مدن يونانية مثل "كنوسوس"Knossos و"أمنيسوس" Amnissos و "بيلوس" Pylos على سبيل المثال لا الحصر مكتوبة بالقلم الهيروغليفى[٥].

تركزت التجارة خلال الفترة التى تمتد بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق.م.(أى منذ حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث حتى نهاية الأسرة التاسعة عشرة)، وهى الفترة التى تسمّى بالعصر الميسيانى Mycenaean Age ، بشكل مكثف للغاية حول الملكية "الأخيانية" Achaean و امتدت حضارة قلب البلاد: "ميسينيا" فى سائر أرجاء الشرق الأوسط[٦] و هى الفترة التى لاقت الصادرات التى ترجع إلى العالم اليونانى جاذبية هائلة فى مختلف أنحاء المشرق. و قد بلغ انتشار الفخار الميسيانى الفائق الجمال حداً أصبح معه اليوم مقياسًا تأريخيًا للباحثين الأثريين فى المشرق. و لم تمخر السفن المصرية و اليونانية عبر الحارات البحرية فى شرق البحر المتوسط و حسب، بل و كان من المعتاد بالنسبة لسفن تجارية من سوريا أن تقوم برحلاتها إلى "كابتورى" Kaptury مرورًا بقبرص حيث تتوقف قليلاً فى طريقها إلى وجهتها المنشودة [٧] و كانت مثل هذه السفن، و قد انتشلت إحداها فى الآونة الأخيرة، قبالة جنوب الساحل التركى، و كانت قد غرقت فى طقس سيئ،[٨] تحمل سبائك النحاس الأحمر و الفخار و الأوانى و ربما مواد غذائية لأبناء جزر "إيجة"، إلى جانب السمسم والكمون و الذهب، و مواد الصباغة البديعة. و من مصر جاء القمح نظير زيت الزيتون والعطور، و إلى المشرق ذهب الراتنج و الدهون و الزيوت[٩] و على رأس هذه الأعمال

التجارية تربَّع، و بكل تأكيد استفاد كثيراً منها، "الملك العظيم عاهل "أخخيياوا" Akhkhiyawa ، كما كان يسميه الحيثيون، و كان جلالته واحداً من خمسة ملوك عظام على سطح الكرة الأرضية و قت ذاك(١٠) وتشير إليه وثائق معاصرة هى وثائق "السفينة ب" Linear B إلى أنه كان الـ "وناكس" wanax أى السيد العظيم على كل الأسياد الآخرين العالميين (=الدنيويين) فى المنطقة.(١١)

و لا مناص من التسليم بأن البلاط المصرى كان يجرى، طوال العصر الميسيانى ذاك، المراسلات مع نظيره فى "ميسينيا"، مع أننا لم نهتدِ إلى هذه المراسلات نفسها بعد. و لقد تراسل الفرعون مع ملك "ألاشيا" Alashiya (= قبرص) على نحو ما نعرف من رسائل "أخيتاتون"(=العمارنة)، وكانت قبرص بمثابة مستودع بضائع فى العمليات التجارية مع اليونان.

إلاَّ أن مصر مرت أيضًا بتجربة مع الإيجيين أقل ترحابًا من المبعوثين (التجاريين) و حاملى الجزية. فالتجمعات الصغيرة فى الجزر الإيجية و على الساحل "الأيونى" Ionian، التى تطوقها من كل جانب، الأرض الوعرة ظلت لوقت طويل تعيش على زراعات محدودة إلى جانب الصيد و شن الغارات البحرية، و هذا "النشاط" الأخير استمر لمدد طويلة موجهًا ضد المدن الغنية و الساحلين المشرقى و المصرى. و لقد حاز الـ "لوككا" Lukka، (باللغة المصرية) الذين ينبغى علينا أن نفهم من اللفظ أن المصريين يقصدون بهم "الليشيانيين" Lycians، و"شردانا" Shardana الذين يرجعون إلى الساحل "الأيونى" بالقرب من "سايم": Cyme صيتًا عريضًا فى القرصنة فضلاً عن مهارات قتالية استثنائية(١٢). و كان أولئك "الشردانا" قد شنوا هجومًا على ساحل الدلتا فى مطلع حكم الفرعون "رعمسيس" الثانى، وهو الأمر الذى أوقعهم فى مدى الرؤية بالنسبة للفرعون، ولم يتأخرِ الفرعون الشاب فى تقييم براعتهم فى ميادين القتال. و بعد أن أحبط هجومهم لم يدخر فرعون مصر وقتًا قبل تجنيد مفرزة من أولئك الـ "شردانا" فى نطاق القوات المسلحة المصرية، وهى المفرزة التى برزت مهاراتها بعد ذلك بوقت قصير فى معركة "قادش"(١٣).

الشماليون قلقون:

بينما شكلت العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر فترة من السلام و التبادل التجارى و الرخاء بالنسبة للشرق الأوسط، عرف الأفق نذر أوقات عصيبة. وكانت جزر بحر "إيجة" أول منطقة تشعر بصدمة الاضطرابات القادمة.

تضافرت سلسلة من الأحداث التى لا تتصل إلى حدٍ كبير الواحدة بالأخرى، وهى أحداث لا نستطيع أن نراها، بعد مرور كل هذا الوقت عليها، إلاّ بصورة مبهمة، كى تدفع، عبر شرق البحر المتوسط، بواحدة من أكبر و أخطر الهجرات فى التاريخ. ولا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن حركة "شعوب البحر" Sea Peoples، و هو الاسم الذى صكه فى وقت لاحق المصريون،[١٤] غيرت وجه العالم القديم أكثر مما صنع به أى حدث واحد آخر قبل حملة الإسكندر الأكبر. فالحركة تشير فى تاريخ الشرق الأدنى إلى نهاية، والحقيقة هى التى أدت إلى وضع نهاية حقبة كى تبدأ حقبة أخرى، دون أى حلقة وصل بين الحقبتين. و فى مصر، ذلك الهدف الذى استهدفته الحركة بوضوح ظاهر، أثبتت أن تأثيرها تافه، إذا ما قورن بما جلبته حركة هؤلاء المهاجرين على فلسطين و سوريا.

على أن الأسباب النهائية التى تقف وراء الحركة تستعصى على التحديد، إلاّ أنه يبدو أن هناك بعض الوقائع و الظروف المثيرة للشك التى قد عمت المنطقة كى تلعب أدواراً منسقة الواحد مع الآخر. فعلى الصعيد الاقتصادى استقر الباحثون على أن الدول الميسيانية عانت تدهوراً داخلياً نجم عن اعتمادها على محصول واحد عالى الريع، و اضطرارها إلى استيراد كثير من المواد الخام[١٥]. و ربما يكون النشاط القديم قدم الدهر و النجاح الطازج الذى كان الـ "شردانا" قد حققوه فى الآونة الأخيرة قد أغرى الشعوب فى "غسق" العالم الميسيانى أن توجه ضربتها نحو مصادر المواد الخام. ولكن باحثين آخرين يقولون بوقوع كارثة طبيعية كانت العامل الرئيسى فى إطلاق حركة "شعوب البحر". و مع أننا لا نستطيع التثبت من تمزق الحياة على الشاطئ الشمالى للبحر المتوسط من جراء مجاعة تفشت على ناطق واسع أو نقص حاد فى إنتاج المحاصيل هناك خلال الثلث الأخير من القرن الثالث عشر ق.م.،[١٦] إلاّ أن ثلاثة أو أربعة من مصادر الأدلة، تفصل بين كل منها ثمانية قرون تبدو و كأنها تؤيد مثل

هذه الفرضية. فكل من "ديودور" و "هيرودوت" يحفظان ذكرى مجاعة أجبرت أهالي كل من "سايم" Syme و"ناكسوس" Naxos و "ساردیس" Sardis على الهجرة،[١٧] و الحقيقة أن الوثائق المعاصرة التي ترجع إلى مصر و "أوجاريت" تتحدث عن مجاعة في الأناضول[١٨]. و ليس من الصعب أن ندرك كيف كانت الوفرة الزائدة لمخزونات الأغذية في وادي النيل لتشكل هدفًا جذابًا بصورة لا تقاوم بالنسبة للجيوب الجائعة في جزر بحر "إيجة". و لا ننكر أن يكون الطاعون أو وباء مماثل قد لعب دورًا، ولكنه من المستحيل أن نتثبت من ذلك من هذه المسافة الزمنية التي تفصلنا عن الأمر[١٩].

هل هناك اتجاهات سياسية ساعدت في الانهيار؟ هل نحن محقون في رصد انهيار كان وشيكًا في نظام القوى العظمى لـ "الممالك الكبرى" التي عرفها أواخر العصر البرونزي؟ إذا كان هذا ما كان جاريًا، في الحقيقة، على قدم و ساق، فلربما يكون قد أدى إلى تمزيق الإمبراطوريات السابقة و ما تبع ذلك من نشوب صراع داخلي بين الحكام التوابع السابقين (لوحة رقم ١). و ينبغي أن نلاحظ في هذا الخصوص أن ملك الحيثيين: "تودخاليياس" الرابع ووجه في وقت ما بين ١٢٥٠ و١٢٤٠ ق.م. بتحالف يضم اثنتين و عشرين دولة متمردة على طول الساحل "الأيوني" من "كاريا" Caria (Lycia=) حتى "ويلوزا" Wilusa (Ilion=) أي "طروادة"). حقًا أنزل الحيثيون الهزيمة بهذا التحالف، ولكن الهامش الغربي لإمبراطوريتهم كان قد بدأ في التداعي[٢٠]. و يبدو واضحًا أن هذا الـ "تودخاليياس" نفسه هو الذي هزم جزيرة قبرص، وبالتالي قضى على أحد الرموز التي تمتعت بالشهرة و الرخاء في إطار النظام السياسي للعصر البرونزي المتأخر[٢١].

و لقد قدمت بلاد اليونان الداخلية أول دليل أثري على ما كان يحبل به الأفق. فحوالي سنة ١٣٠٠ ق.م. بدأت تلوح علامات على حركة من "تيسالي" Thessaly إلى داخل "إبيروس" Epirus التي يسكنها شعب رعوي، ارتبط في أوقات لاحقة باليونانيين "الدوريين" Dorians[٢٢]. و بعد نصف قرن رحلوا مرة أخرى جنوبًا، في نفس الوقت تمامًا الذي بدا غيه يونانيو البلاد الداخلية و قد وصلوا إلى درجة ملحوظة من الصراع الداخلي. و تعيد إحدى الأساطير أيضًا إلى الأذهان تدفقًا قامت به الشعوب في اتجاه الجنوب، ولكن هذه المرة من "تراس" Thrace التي اكتسحت كلاً من "ناكسوس" Naxos،

و "ساموثراس" Samothrace، و "إيوبيا" Euboea، و لقد جعل هذا التدفق الحياة تشق على كل من "طيبة"(اليونانية) و "أتيكا"[٢٣] و يبدو أن التجديد المفاجئ و الشامل لتحصينات أماكن مثل: "ميسيناى" Mycenae، و "تيرينس" Tiryns، و "كورنث" Corinth، و "أثينا" و "ميليتوس" Miletos في الفترة من حوالى ١٢٥٠ حتى ١٢٤٠ ق.م. يقدم الدليل الأثرى الذى سبق أن أشرنا إليه للتو[٢٤]. و إذا وشت هذه الخطوة بتخوف "الأخيانيين" Achaean الذين يقيمون فى بلاد اليونان، فإن لذلك مبررات وجيهة، ففى غضون جيل واحد وقعت الضربة الأولى. و قرب سنة ١٢٢٠ اجتاح التدمير المصحوب بأعمال العنف كلاً من "ميسينيا" Mycenae، و "تيرنس" Tiryns، و"بيلوس" Pylos، و "كريسا"Crisa، و "جلا"Gla، على سبيل المثال لا الحصر، وهو الأمر الذى أنهى وجود المرحلة الثقافية المعروفة باسم "الهلادية المتأخرة" Late Helladic IIIB [٢٥] ولقد عانت إمبراطورية"أخخيياوا" التى كانت يومًا ما عظيمة من ضربة قاصمة.

الهجوم الأول على مصر:

تمثل الأثر الخالص لإضعاف "أخخيياوا" و الاضطراب الذى لحق بحكم "تودخاليياس" فى تحرر الدول الأقل شأنًا فى الجزر و على امتداد ساحل آسيا الصغرى التى كانت واقعة بين الإمبراطوريات السابقة. فالمعاهدات الدولية بين القوى العظمى لم تلزمها بشىء، وصارت دول الشرق الغنية بمثابة "فرائس مشروعة" بالنسبة لها. و لقد منحت براعة أبنائها، أى أبناء تلك الدول، القتالية و تسليحهم المتفوق تلك الثقة بالنفس التى تفتقر إليها دول المشرق. فلقد وقعت جزر بحر "إيجة" و الساحل "الأيونى" كوريث لخطوات التقدم الكبرى فى مجال التعدين التى تقوم عليها شواهد قوية فى البلقان خلال القرنين الرابع عشر و الثالث عشر، وهى الخطوات التى كشفت عن نفسها فى السيوف الطويلة و التروس و الخوذ و الدروع الواقية للجسم، التى ارتداها محاربو شعوب البحر المتفوقون"[٢٦].

إذا كانت مصر قد غدت، ونحن نعرف أنها فعلت، مغناطيساً هائل الجاذبية بالنسبة للشماليين، فإن هناك طريقين اثنين ممكنين كانا مفتوحين أمام أولئك الذين يضمرون شن الهجوم على مصر عبر البحر المتوسط. الطريق الأكثر وضوحاً كان يسير على امتداد ساحل البحر المتوسط، و هنا تقوم قبرص كمحطة انتقالية، أما الطريق الآخر، وهو أقل وضوحاً، وإن كان طريقاً مطروقاً من جانب المسافرين، كان ليأخذ المسافر عبر جزيرة "كريت" إلى الجنوب حتى الساحل الأفريقي، مع الرسو فى زمام مدينة "مرسى مطروح" الحالية. و هنا كشفت عمليات التنقيب مستودعاً كان يخدم التجارة بين "كريت" و "قبرص" و دلتا مصر فى القرن الرابع عشر ق.م.[٢٧] و ربما كان يوفر الوصول إلى درب داخلى فى قلب القارة مروراً بالواحات الغربية. وعلى أى حال، بحلول الربع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م.، كان الساحل الواقع غربى الدلتا المصرية قد أصبح مألوفاً للبحارة و رجال القوافل البرية على حد سواء، و قدم طريق مواصلات مباشر إلى "سيرينايكا" Cyrenaica، الذى احتاج إلى حراسة مشددة، وذلك لأن الإقليم الواسع كان فى تلك العصور مأهولاً بكثافة عالية من السكان العدوانيين[٢٨].

الجدول الأول – الليبيون و شعوب البحر فى المصادر المعاصرة والكلاسيكية :

"أمين -حوتب" الثالث	"رعمسيس" الثانى	مير – ان – بتاح"	"رعمسيس" الثالث (سنة ٥)	"رعمسيس" الثالث (سنة ٨)	المصادر الحيثية	المصادر الكلاسيكية
لوككا	"لوككا"	"لوككا"	–	–	لو – ك – كا	ليشيا
شاردين	"شارين"	"شارين"	–	–	–	الساردونيين (ليديا)
–	–	"إقويش"	–	–	–	"كووس"
–	–	"تريش"	–	–	"تا–رو–يشا"	"تورسينوى" (ليديا)

–	–	"شيكليش"	–	"شيكيلين"	"شي- كا - لايو"	ساحالاسوس (بيسيديا)
–	"قارقيشا"	–	"قيقيشا"	–	"كار-كي-شا"	"كاريا"
–	–	–	–	"ويشيش"	–	"واسوس" (كاريا)
دانونا(؟)	–	–	–	"دانيين"	"دانيا-رانا"	"داناووى"
–	–	–	–	"تككر"	–	"تكريانيين" (ترود)
–	–	–	–	"بيليست"	–	"بلاسيجوتس" (إليريا؟)
–	الـ"لابو"	الـ"لابو"	الـ"لابو"	–	–	ليبيا
"ميشويش"	–	("ميشويش")	"ميشويش"	–	–	"ماكسييس" (سيرين)
–	–		أسبتا	–	–	"أسبيتاى" (سيرين)
–	–		"شايو"	–	–	–
–	–		"حاسا"	–	–	"أوسيس" (ليبيا)
–	–		"بقان"	–	–	–

رحل الفرعون الطاعن فى السن "رعمسيس" الثانى فى سنة ١٢٣٧ ق.م.على وجه التقريب بعد حكم دام ست و سبعين سنة، وخلفه ابنه الثالث عشر (بين إخوته)، بعد أن امتد العمر بالوالد كى يشهد وفاة أولاده الاثنى عشر الأوائل من أولاده المتعددين. وكان هذا الابن: "ميرى - ان - بتاح" عجوزًا نهكته الشيخوخة بالفعل عندما جلس فى عرش مصر. و رغم أنه تلقى تدريبًا عسكريًا فى شبابه كجندى، إلاّ أن خدمته النشطة

فى الجيش كانت قد انتهت منذ فترة طويلة. و فى السنة الثانية من حكمه سافر مصعداً نحو "طيبة" من عاصمته فى الدلتا، "كى يطالع وجه أبيه "آمون"، ملك الآلهة" و لكى يصدِّق على جرد كنوز المعبد، وبينما كان الفرعون يقوم بهذه الخطوة السلمية كانت قوة معادية قد زحفت نحو مصر.

شكل رجال القبائل الليبيون، منذ فجر التاريخ المصرى، شوكة فى جنب الحكومة الفرعونية، ولكن عددهم الضئيل حال دون تمثيلهم لتهديد خطير لمصر. و مع ذلك فخلال المملكة الحديثة حل القادمون الجدد من الغرب محل هذه المجموعات القبلية القديمة واستوعبوها فى صفوفهم: كـ "اللابو":Labu (الذين منحوا اسمهم فى نهاية المطاف لـ "ليبيا")، والـ "ميشويش" Meshwesh و الـ "أسبتا" Asbuta، و الـ "حسا" و غيرها.(٢٩) وكان "اللابو" و "الميشويش"، بجلابيبهم الطويلة المخاطة من قطع مختلفة، ولحاهم، وتسريحهم لشعرهم فى عقصة واحدة طويلة يسدلونها على الجانب الأيمن، قد رأوا، منذ وقت طويل، فى مشاهد النصر الذى أحرزه الفرعون "رعمسيس"، عدواً ينبغى الاحتفال بهزيمته، عوضًا عن ذلك. ولكنهم أثبتوا أنهم أشد مراسًا بصورة أكبر فى عصر الفرعون "ميرى - ان - بتاح" فلقد انضمت إليهم وقتئذ عناصر القراصنة الذين ينتمون إلى جزر بحر "إيجة": أصبح الطريق البحرى الآن إلى ليبيا طريق إمدادات لهم.

يعطى "هيرودوت" فى كتابه الرابع سرداً مفصلاً إلى درجة ملحوظة للقبائل الليبية فى عصره، ويصف فى الفصل رقم ١٩١ إحدى هذه القبائل، وتدعى الـ"ماكسييس" Maxyes (="ميشويش") على النحو التالى:

غربى "تريتون" Triton...تقوم ليبيا التى تقطنها قبائل تسكن فى بيوت عادية وتأخذ بالزراعة. فى البداية جاء الـ "ماكسييس"، وهم أناس يطيلون شعورهم ويسدلونه على الجانب الأيمن لرءوسهم و يحلقون الجانب الأيسر تمامًا. وتراهم يدهنون أجسامهم باللون الأحمر و يزعمون أنهم منحدرون من أهل "طروادة."

و بنفس الروح يحفظ لنا "بندار" Pindar (Pythian.5.81-83) تقليداً شعبيًا يقول بأن أبناء "أنتينور" Antenor هاجروا من "طروادة" إلى "سيرينايكا". و تقول أسطورة أخرى إن الجيل السابق لحرب "طروادة" عرف شخصًا معينًا من أبناء "مويسوس"

Mopsus (أو "موكسوس" Moxos) كان يعمل رائيًا (شخص مقدس يتنبأ بالأحداث والتطورات قبل وقوعها، و فى الديانة "الموسوية" كان يقوم بتفسير رؤى الأنبياء التى يكتنفها الغموض.المترجم.) مع الـ "أرجونوت" Argonauts، و لقى حتفه متأثرًا بعضة ثعبان على الساحل الأفريقى و دُفن فى "سيرين" Cyrene(٢٠) و تشهد كل هذه التقاليد على استمرار حقيقة تاريخية فى الذاكرة الشعبية: فى الفترة التى شهدت انهيار مملكة "أخخيياوا"، و تحرك التجريدة التى استهدفت "طروادة"، كان الطريق إلى الساحل الليبى مطروقًا تمامًا من جانب القراصنة الإيجيين. و لقد سجلت نقوش الفرعون "ميرى - ان - بتاح" الحقائق التى تعد تلك التقاليد الشعبية ذكرى باهتة لها.

و إذا كان لنا أن نحكم استنادًا إلى رواية "ميرى - ان - بتاح"، فإن العاصمة لا تكون قد علمت بالغزو الليبى إلاّ فى مطلع أبريل/ برمودة من السنة الخامسة من حكمه(٢١). فلقد اجتاحت قبائل البدو، بقيادة "اللابو" عدديًا و سياسيًا أقصى شمال سلسلة الواحات الغربية، و دخلت الدلتا(٢٢). و حشد الفرعون، بعد أن زاره فى الحلم الإله "بتاح" و شمله برعايته، قواته و صمم على مهاجمة الغزاة فى أوائل شهر مايو/ بشنس(٢٣). و كان العدو الذى يواجهه الفرعون يمثل تحالفًا جرى تصوره بشكل واعٍ، وحشده من جانب "ميريى" Mereye، رئيس "اللابو". فإلى جانب الـ "ميشويش" الذين انضموا إلى قياديهم، طلب "ميريى" العون من شعب جزيرة "كوس" Kos،(٢٤) و من "الليشيانيين" Lycians و أغرى هؤلاء بدورهم مجموعات أصغر من الـ "شردانا" والـ"تيرسينوى" Tyrsenoi، و الـ "شيكليش" Skekelesh بمصاحبتهم(٢٥). و استمر القتال الضارى بين الجيشين المتعارضين لمدة ست ساعات متصلة فى "بر- يرو"Par-yeru قرب "بوتو" بشمال غرب الدلتا،(٢٦) حتى انهار الغزاة و ولوا الأدبار. وخلافًا للاشتباكات الأصغر بصورة واضحة فى عصر الفرعونين "تحوت - موسى" الثالث و "أمين - حوتب" الثانى، انقلبت الهزيمة النكراء إلى مجزرة: بينما تحجب المصادر المصرية خسائرها، إلاّ أن القتلى فى صفوف العدو بلغ ما يزيد على تسعة آلاف شخص.

و لكن الليبيين كانوا أكثر عددًا من أن يوقفوا داخل حدودهم. ففى خلال الخمس و عشرين سنة من الحكومات الضعيفة التى أقامتها نظم أربعة فراعنة خلفوا "ميرى - ان - بتاح" دون أن يعمّروا طويلاً فى العرش، دخل "اللابو" و "الميشويش" إلى غرب

الدلتا دون أن يصدهم عائق، وتوغلوا شرقًا حتى استقروا على ضفاف الفرع الأوسط من نهر النيل، بعد أن دمروا مدن و قرى مركز "خويت" Xoite[٣٧]. و كان سيئ الحظ "سي - بتاح" الجالس على عرش مصر، الذي يعاني من مرض شلل الأطفال و من المكائد التي تحيكها ضده أخته "تا- وسرت"(؟) و مستشاره الكنعاني "بي" معًا، أضعف من أن يوقفهم[٢٨]. و وقع على كاهل عائلة الفائز في انقلاب قصر، و هو "سيت - ناخت" الفذ أن يعالج المشكلة، و على أيدي الفرعون "رعمسيس" الثالث، بن "سيت - ناخت" وجدت مصر في نهاية المطاف منتقمًا مقتدرًا.

تركز انفجار أولى الأعمال الحربية عقب الخلافة الأسرية بين "اللابو". و كان الفرعون "رعمسيس" الثالث قد رفض الإفراج عن أحد أبناء الحاكم؛ بعد أسره، كي يتولى العرش بعد والده، ونجم عن ذلك عبور "الليبيين" للحدود و شنهم للهجوم[٣٩]. و على غرار ما حدث في الماضي، كان "اللابو" قد ضموا إلى صفوفهم قوات معاونة: من ليبيا ذاتها كانت قبائل الـ "ميشويش" و "أبستاي" و "الحسا"[٤٠] و من جزر بحر "إيجة"، مرة أخرى و مفرزة من الركن الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، هذه المرة من الـ "كاركيسا" Karkisa[٤١] بالإضافة إلى مفرزة أخرى من "ساموس" و من "أبديرا" Abdera. وكان النصر الذي حالف المصريين هذه المرة أكثر اكتمالاً من ذلك الذي أحرزوه تحت ظل حكم الفرعون "ميري - ان - بتاح":

"انظر! لقد مزقتهم ("رعمسيس" الثالث) و أبدتهم بضربة واحدة. لقد أطحت بهم، و صرعتهم في دمائهم. وحولتهم إلى أكوام من الجثث، ولقد رددتهم عن حرمة الحدود المصرية التي دنسوها ... و أحضرت من تبقى منهم كأسرى عديدين، يتكفأون في سيرهم أمام خيولي في قيودهم كالدجاج، هم و زوجاتهم و أطفالهم بعشرات الألوف"[٤٢].

و هكذا انتهى التهديد الليبي، مع أن أبناء قبائل الـ "ميشويش"، عادوا مرة أخرى، بعد ذلك بست سنوات، كي يجهزوا، وحدهم، لغزو مصر، ولكن جهدهم أثبت وهنه. ولكن تفصيلة صغيرة في السجلات التي تركها وراءه الفرعون "رعمسيس" الثالث في معبده الجنائزي العظيم في "طيبة" تعد بمثابة نذير بما كان سيحدث: رئيسان أسيران

يحمل كل منها اسمًا يغاير الأسماء الليبية تمامًا هما "ميلى" Melie و "موشيون" Moschion، كل منهما يصاحبه "مخصص": أسير راكع، على نحو ما هو معروف عن الكتابة الهيروغليفية، يرتدى غطاء رأس عريض يعلوه عدد من الريش[٤٣]. فسرعان ما كانت مصر لترى بحرًا زاخرًا من مثل هذا الريش.

غزو السنة الثامنة:

كانت المواجهات السابقة التى خبرتها مصر مع قراصنة بحر "إيجة" قد عودت المصريين أن يبحثوا عن محاربين أشداء يستقلون "مراكب مستطيلة" يعتزمون شن غارة سريعة يعقبها انسحاب سريع بنفس الدرجة.(تذكر ملحمة الـ "أوديسا" لـ"هومير" مثل هذه الغارات:١٤-٢٤٦ و ما بعدها، و هو ما يجوز حقًا أن يكون ذكريات باهتة للتجاريد تحت ظل الفرعون "رعمسيس" الثانى أو الفرعون "ميرى - ان - بتاح") وحتى المشرق أخذ يتعرض من حين لآخر لزيارة أفراد من الساحل "الأيونى" أو "السايكلاد" Cyclades .[٤٤] و لكن ما لم تخبره مصر أو فلسطين، من قبل، مع ذلك كان هجوم سافر يشنه أبناء شعوب قادمين من بحر "إيجة"، عازمين على الاستيطان. و بينما كانت التجارة مع اليونان و جزرها قد شهدت ازدهارًا، كما سبق أن لمسنا فى العصر البرونزى المتأخر، فليس هناك نتفة دليل تؤيد الجدل الذى يذهب إلى أن موجات قديمة من "شعوب البحر" كانت قد استقرت بالفعل على السهل الساحلى لفلسطين قبل السنة الثامنة من حكم الفرعون "رعمسيس" الثالث.[٤٥] إلاّ أن الغزو الذى حدث فى هذه السنة الثامنة كان مفاجئًا و فريدًا فى نوعه، وكل الإشارات إلى "الفلاسطينيين" Philistines التى وردت فى "التوراة" لابد و أن تكون بعد هذه السنة لا قبلها.

دأب الباحثون على القول بأن ائتلاف المجموعات السبع التى شكلت الحشود الغازية قد أخذ شكله على نحوٍ مفاجئ، وأن الغزو قد جرى على نحو عاجل. غير أن الحقيقة أن هذه السنة الثامنة تشير ببساطة إلى سجل هزيمتهم على أيدى المصريين، وتشكيل ائتلافهم أو حلفهم، يجوز تمامًا أن يكون قد حدث قبل ذلك بسنوات عديدة[٤٦].

و حتى وقت قريب، كان السجل الوحيد الذى لا يزال محفوظًا نملكه تحت أيدينا عن غزو تلك الشعوب للشرق الأدنى لم يكن سوى سجل الفرعون "رعمسيس" الثالث نفسه، المحفوظ على جدران معبده الجنائزى، بمدينة "هابو" فى "طيبة"، و لقد ظل هذا السجل بمثابة الرواية المعاصرة الوحيدة للحدث، مع الاكتشافات المثيرة التى توصل إليها المنقبون فى "أوجاريت"[٤٧].

"عقدت البلاد الأجنبية اجتماعًا(؟) فى جزرهم، ثم انفجروا فى كل اتجاه وانتشروا يصطرعون مع كل البلدان فى نفس الوقت، و لم يستطع أى بلد أن يصمد أمام أسلحتهم، بدءًا بـ "خاتى"(ثم) "قود" Qode، و "كركميش" و "أرزاوا"(؟) و"ألاشيا"(= قبرص)... قضى عليها كلها (فى ضربة واحدة) (؟) و لقد نصب معسكر فى مكان ما فى "أمورو"، و قاموا بإهلاك الشعب و الأرض، حتى صارا و كأنهما لم يكن لهما وجود. و استمروا فيما هم فيه حتى قدموا، تسبقهم نيرانهم، و قد وجهوا وجوههم شطر مصر. و كان حماتهم(؟) الرئيسيون هم "البليسيت" Peleset و"التكرو" Tjekru و الـ "شيكيلش"Shekelesh، و الـ "دانو"، و الـ "واشوش"Washosh وكل البلاد اتحدوا. و وضعوا أيديهم على أقطار بعيدة بعد دائرة الأرض، و كانت أفئدتهم مفعمة بالثقة و الإيمان: خططنا سوف تنجح!"

خلافًا لمصادرنا عن الهجوم الذى وقع خلال حكم الفرعون "ميرى - ان - بتاح"، فإن سجلات الفرعون "رعمسيس" الثالث عن سنته الثامنة تعطينا تصويرًا خطوطيًا (= جرافيكيًا) بالإضافة إلى النص، و بالتالي يصبح من الممكن أن نتخذ من العتاد الحربى للشعوب المذكورة بالاسم دليلاً على أصولهم التى ينحدرون منها[٤٨]. و هنا يحتل "البليسيت" مركز الصدارة فى الأهمية سواء فى الجداريات أو النصوص، و يأتى الـ "تيكرو" بعدهم مباشرة فى الأهمية. و هؤلاء "البليسيت" يرتدون، بصورة مميزة، أى تميزهم عن غيرهم، عصابة رأس، تبرز منها، ريشة رخوة من ريش "الهوبليت" hoplite (= محارب أثينى مدجج بالسلاح.)(ما لم يسئ الباحثون قراءة (= تفسير) شعر رءوسهم الطبيعى الطويل) و كوفية لحماية مؤخرة العنق (شكل ٧، رقم ٦) و يشتمل تسليحهم على السيوف الطويلة و التروس المستديرة و أحيانًا الدروع الواقية للبدن، والآن لقد تحقق الباحثون منذ وقت طويل من أن غطاء الرأس الذى يعلوه الريش، الذى

نقابله فى الجداريات المصرية إذ نجد له نظيراً (من الجائز أن يكون "مخصصاً") فى كتابة "قرص فيستوس" Phaistos disk، الذى اكتشفه المنقبون فى مطلع القرن العشرين فى "فيستوس" بجزيرة "كريت". وفضلاً عن ذلك هناك العديد من الكتاب الكلاسيكيين يقررون أن ريش الخوذ جرى استخدامه لأول مرة على خوذ المحاربين فى "كاريا" Caria فى جنوب غرب آسيا الصغرى، شمالى "ليشيا" Lycia(٤٩). و من المثير للاهتمام حقًا أن "الكاريين" و "الكريتيين" يظهران، كليهما، كدليلين عرقيين فى قوائم الحراس الخصوصيين الذين جندهم ملوك "يهودا" للعمل فى خدمتهم من "فلاسطين" Philistia.(٥٠) أما بخصوص هذين الاسمين: "البليسيت" و "التيكرو" فعدد من الباحثين يقارنون بينه و بين "البيلسجيانيين" Pelsgians، و هو اسم غامض إن لم نقل ملغز للأقوام الذين سكنوا جزر بحر "إيجة" قبل اليونانيين(٥١). و يعيد اسم "التيكرو" إلى الأذهان ذلك البطل الذى أعطى اسمه لقبيلته: "تيكر" Teuker وهو يرجع إلى "ترود" Troad و كذلك "زاكرو" Zakro فى "كريت"(٥٢). أما عن الآخرين فالـ "شيكيليش" (والـ "تيريش" Teresh) يرتدون أغطية رأس و ميدالية كبيرة على صدورهم، و يحملون حربتين و ترساً مستديراً، و لقد ظل الباحثون يعتقدون منذ فترة طويلة أن موطنهم الأصلى يرجع إلى ساجالاسوس" Sagalassos فى "بيسيديا" Pisidia(٥٣). ويبدو أن الـ "واشوش" يرتبطون بجزيرة "لاسوس" Lassos قبال ساحل "كاريا"،(٥٤) وبخصوص "الدانو" ظل الباحثون يعتقدون لمدة طويلة فى أنهم يتماثلون مع الـ"دانونان" Dan'ans الذين ورد ذكرهم عند "هوميـر"، وهو اللقب الذى أطلق على اليونانيين بصفة عامة، وإن كان قد أطلق فى الأصل على أحد التجمعات التى سكنت فى "أرجيف" Argive(٥٥).

يبدو أننا نتعامل، فى الغزو الضخم الذى حدث فى السنة الثامنة، مع ائتلاف من الشعوب قدمت من الساحلين "الأيونى" و "البسيدى" Pisidian، و يرتكز بوجه خاص على "كاريا"، وهو ائتلاف ربما يكون قد ضم يونانيين من أعماق بلاد اليونان، خصوصاً والسجل البحرى يؤيد ذلك: سفن شعوب البحر، و كما صورتها جداريات مدينة "هابو" مصنوعة إلى حد كبير وفقًا للطرز الإيجية (عوضاً عن الكريتية)(٥٦). هل هناك ما يمكن أن يقال بعد هذا؟

تعد الفترة التى شهدت هجوم شعوب البحر، أى خواتيم القرن الثالث عشر ق.م. بمثابة مستهل العصر الحديدى. و هى الفترة الأقدم التى تقع داخل نطاق الذكرى التاريخية الغائمة لليونانيين المتأخرين، كما انعكست فى الأساطير التاريخية للقرنين السادس و الرابع ق.م. فرغم مرور الزمن، والميل نحو تشخيص الأحداث غير المشخصة، والتشوه الذى لا مناص منه أو المفارقات التاريخية anachronism، إلاّ أن الأساطير تظل، رغم كل ذلك، قادرة على إلقاء أسطع الأضواء. فتقول التقاليد الشعبية، على سبيل المثال، إن "مويسوس" Mopsos، و هو من "كولوفون" Colophon كان ابن هاربين من "بيوتيا" Boeotia، خلال السنوات التى أعقبت مباشرة "حرب طروادة"، وقد قاد "الشعوب" من الساحل "الأيونى" عبر جبال "طوروس" كى يدخل بهم إلى "بامفيليا" Pamphylia و "سيليسيا" Cilicia، ومن هنا توغل بعض المهاجرين أكثر كى يدخلوا فلسطين و سوريا(٥٧). و على نفس المنوال تربط التقاليد الشعبية بين "أمفيلوخوس" Amphilochos، هو الآخر و بين حركة بدأت من جزر "إيجة" فى طريقها إلى "بامفيليا" بعد "حرب طروادة"، و أصبح المؤسس المشهور لـ "بوسيديون" فى سوريا(٥٨) و بالمثل قاد "تيكر" Teuker شقيق "أجاكس" الذى شارك فى حرب "طروادة"، هجرات انتهت فى قبرص و "سيليسيا"(٥٩) و كذلك "أجابينور" Agapenor، ملك "الأركاديين" Arcadians الذى يقال إنه توجه إلى قبرص بعد "حرب طروادة"(٦٠). و إذا كانت هذه الأساطير، التى تعد بمثابة النماذج البارزة لسلسلة من الحكايات المماثلة، تأخذ الهجرات إلى مسافات بعيدة مثل سوريا، فإن الأساطير المؤسسة التى ترتبط بالمدن الفلاسطينية Philistine التى قامت فى أوقات لاحقة تحمل هذه القصص خطوة أبعد عن طريق ربط "عشقلون" Ashkelon بهجرات من "ليديا" Lydia و "غزة" بلاجئين من "كريت"(٦١).

على أن الأدلة المعاصرة بالإضافة إلى تلك الكلاسيكية تسمح لنا برسم هذه الصورة التخطيطية التالية: عند نهاية القرن الثالث عشر ق.م. وجّه مجهودٌ مستقتل فى سبيل إعادة توحيد التجمع "الميسيانى" المتداعى، ائتلافًا مفككًا من دول كانت فى الماضى أعضاء فيه، ضد "طروادة"، التى كانت تتزعم فيما مضى التحالف "الأيونى" السابق ضد الحيثيين. و فى غضون السنوات القليلة التى أعقبت إنزال الهزيمة

بـ "طروادة" تجمَّع بعض أعضاء التجريدة "الميسيانية"، تحت قيادة جيوب معينة من "كاريا"، مع بعضهم البعض الآخر كي يشكلُّوا تحالفًا فضفاضًا و تحركوا باتجاه الشرق على امتداد الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، مصطحبين عائلاتهم، كي يستقروا في سهول "سيليسيا" و شمال سوريا. كما انتشرت حركات فرعية لمسافات أبعد و أعرض. و لقد احتل اليونانيون "ساردیس" Sardis (= عاصمة "ليديا" القديمة وكانت تقع قرب مدينة "إزمير" الحالية في تركيا .المترجم.) حوالي ١٢٠٠ق.م.[٦٢] وانطلقت بعض سفن الحركة إلى قبرص. و عبثًا حاول "سوبيلوليوماس" الثاني آخر ملوك الحيثيين إنقاذ الموقف:"اصطفت سفن قبرص ضدي في صف واحد ثلاث مرات للقتال في عرض البحر. فدمرتها، و استوليت على هذه السفن و في عرض البحر أشعلت فيها النار." و مع ذلك فبعد عدة سطور و حسب نسمع مرة أخرى أن: "خرج العدو في جموع حاشدة من قبرص ضدي"[٦٣]. و الحقيقة أن سفن المغيرين أصبحت تظهر على مختلف أنحاء الساحلين القبرصي و السوري. و الواقع أن الدول المحلية في منطقة سوريا لم تكن بحال من الأحوال ضعيفة أو متفسخة، فبعد قرن من ازدهار التجارة الحرة عرفت رخاء غير مسبوق. فكان في طوع "أوجاريت" وحدها أن تحشد أسطولاً من مائة و خمسين سفينة، وهذه قوة أكبر من أي أسطول تستطيع أي دولة يونانية أن تحشده بمفردها، وفقًا لما انعكس في "الإلياذة"[٦٤]. و مع ذلك فالأرشيفات الأخيرة لـ "أوجاريت"، التي كانت موجودة في الأفران كي تتحمص (بصفتها ألواحًا من الطين.المترجم.) وقت سقوط المدينة، تعكس السيناريو، الذي لم يدر بخلد أحد، حيث اشتبكت القوات الأوجاريتية في القتال ضد عدو مجهول الاسم في جبال "طوروس" كحلفاء للحيثيين، و في نفس الوقت كانت سفن العدو تغير على الساحل. و كانت قبرص تتعرض لضغوط مكثفة، ولم يكن في وسع ملك الجزيرة أو وزيرها أن يقدم أي نصح أكثر من :"احترس! عشرون سفينة معادية كانت هنا و لكنها رحلت الآن، إلى أين هذا ما لا نعرفه! هل شوهدت السفن المعادية قبال الساحل السوري؟ طوقوا مدنكم بالتحصينات، وابتعدوا بقواتكم و عجلاتكم الحربية إلى داخل البلاد. راقبوا تحركات العدو و اعتصموا برباطة الجأش!"[٦٥] و لكن المدينة لم تستطع الصمود. و لقد أرسل آخر ملوك "أوجاريت" رسالة يائسة إلى قبرص: "الآن جاءت سفن العدو، ولقد أشعلت

النار فى مدنى و ارتكبت الفظائع فى بلادى. والدى! ألا تعرف أن كافة قواتى فى "خاتى" و جميع سفنى فى "ليشيا[٦٦].

كانت نذر النهاية عالقة فى الأفق. فالحقيقة لم يكن هناك من يستطيع التصدى لهؤلاء المغيرين، فلقد وقعت "خاتوساس" فريسة التدمير و فى ضربة واحدة زالت الإمبراطورية الحيثية من الوجود. و خُربِّت "طرسوس" تمامًا مثلما حدث لـ"إنكومى" Enkomi فى قبرص. و سهدمت كلٌ من "الالاخ" و "أوجاريت"، دون أن تمتد يد لبنائهما بعد ذلك أبدًا. و اختفى العصر البرونزى المتأخر فى المشرق فى لحظة واحدة: ويعطينا علم الحفريات (= الأركيولوجيا) بعدًا خطوطيًا(= جرافيكيًا) للرعب الذى حمله إلينا السجل المدون[٦٧].

انطلاقًا من معسكرهم فى "أمورو"، أى فى وادى نهر "الكبير" تدحرج التحالف جنوبيًا: نقطتين تفق بعض النساء و الأطفال فى العربات التى تجرها الثيران، بينما سارت السفن بطيئة بنفس الوتيرة قبالة الساحل. و تتمثل إحدى الفجوات المفعمة بالسخرية فى سجلاتنا، فى أننا لا نعرف الموقع المحدد للمعركة (أو المعارك) النهائية. ولكن جداريات الفرعون "رعمسيس" تشير (ربما دون قصد) إلى أنها لم تكن داخل، ولا حتى على مشارف دلتا مصر. إذ كان الفرعون قد تنبأ بقدومهم، و لهذا أقام خط تحصيناته فى آسيا:

"أعددت حدودى فى "جاهى" Djahy و حصنتها ضدهم بالرؤساء و قادة الحاميات و بالفرسان (="ماريانو" Maryannu). و لقد حصنت مصاب النيل، حتى صارت حوائط صلبة، يحميها أسطول من السفن الحربية و سفن الشحن و القوارب...كما زودتها من مقدمة المركب إلى مؤخرتها بمحاربين شجعان مدججين بالسلاح، وكذلك بالمشاة، وكلهم من أفضل المحاربين الذين أنجبتهم مصر"[٦٨]. و لكى يتولى قيادة الهجوم المضاد: (شد جلالته الرحيل إلى "جاهى")[٦٩] و الحقيقة أن "جاهى" اسم يصل فى الغموض و الإيغال فى القدم حدًا لا يساعدنا فى هذا الصدد،، ولكن تقليدًا ينبع، فيما يظهر جليًا، من "زانثوس"(القرن الخامس ق.م.) يضع جيشًا "ليديًا" (= من ليديا) على مقربة من "عشقلون" خلال هذه الفترة التى يتناولها هذا الفصل[٧٠]. و يبدو واضحًا أن الحركة لم تتوقف إلاّ عند الطرف الجنوبى للساحل المشرقى.

و بينما لم يكن النصر الذى يدعى الفرعون "رعمسيس" تحقيقه، على وجه الاحتمال، كاملاً، على نحو ما يريدنا أن نعتقد، إلاَّ أن وقفته كانت كافية لكسر التحالف و إجبار أطرافه على الفرار. أما السفن التى نجحت فى التسلل إلى الدلتا فجرى التعامل معها على وجه السرعة: "أولئك الذين قدموا على متن البحر، قابلوا ألسنة اللهب المهلكة عند مصاب النيل..و انتشل منهم من انتشل و حوصروا و طرحوا على الشاطئ أكوامًا كى تعمل فيهم السيوف من رءوسهم حتى ذيولهم"[٧١] و أبحرت بعض قبائل "الشيكليش" إلى "صقلية" (التى منحوها اسمهم)،[٧٢] أما "الدانو" فربما يكونون قد عثروا على ملجأ لهم فى قبرص، بينما اختفى "الواشوش". و لكن ما جرى لـ"البليسيت" و "التيكرو" سوف يكون محل نقاشنا فى الفصل التالى.

الهوامش

(١) حول هذا الزواج انظر الآن:

K.A.Kitchen, Pharaoh Triumphant (Warminster,1982),83-89.

(٢) على سبيل المثال :(NBC 3934 (JCS 1 (1947)241-42 الموجهة بالضرورة إلى "تودخالياس" على أساس العبارة التى وردت فيها فى السطر العشرين و تقول: "أنا شقيق والدك"، فلعلها تشير إلى علاقة تستند إلى معاهدة بين "رعمسيس" و بين "هاتوسيليس".

(٣) J.Strange,Caphtor/Keftiu: A New Investigation (Leiden,1980),99-101

(حول النصوص و المراجع).إسباغ الحروف الصوائت على الكتابة المقطعية المصرية سوف يعطينا، على نحو ما قد يتوقع المرءنوعاً من التعزيم فى اللغة اليونانية.

(٤) Ibid.,56-70.

(٥) للاطلاع على مصادر و مراجع انظر:

W.Helck.MDAIK 39 (1983),81-92;E.Cline,Orientalia 56 (1987),1-36.

(٦) بين الأعمال الكثيرة عن العصر الميسيانى قد يستطيع المرء أن يرجع، و لن يعود خاسراً، إلى الآتى:

E.Vermuele, Greece in the Bronze Age (Chicago,1972) 232-80;F.Stubbings, Mycenaean Pottery from Levant (London,1952); A.E.Samuel, The Mycenaean in History (Englewood Cliffs, N.J..,1966); J.Chadwick, The Myceaeans World (Cambridge,1976); W.Taylor, The Mycenaeans (London, (1983); also the pertinent chapters of CAH^3 II.

و حول المصادر الحيثية التى تتصل بهذه الفترة انظر:

G.L.Huxley, Achaeans and Hittites (Oxford,1960); F.Schachermeyer, Mykene und das Hethiterreich (Vienna,1986);

و حول الصلات الميسيانية مع مصر و شمال أفريقيا انظر:

J.Vercoutter,L'Egypte et le monde égéen prehellénique (Cairo,1956);W.Helck, Die Beziehungen Ägyptens und Vorderasiens zur Ägäis (Dermstadt,1979); P.W.Haider, Griechenland-Nordafrica (Darmstadt,1988),1-3.

و حول الحاجة الأولية للأمن الدولى كظرف مصاحب للتجارة، انظر:

N.K.Sanders, The Sea Peoples (London,1985),48-49.

(٧) C.F.A. Schaeffer, Le Palais royal d'Ugarit (Paris,1954). 107 (RS 16.238); M.Astour, in H.Hoffman,ed., Orient and Accident: Essays Presented to Cyprus Gordon (Neukirchen) ,(1973), 17-27; Sandars, Sea Peoples , 48, 77; cf.

الوطن المزعوم للإله الأوجاريتى "كوثر" فى:

KPTR: M.Astour Hellenosemitica (leiden,1965),110, n.3.

(٨) G.F.Bass, Cape Gelidonya: A Bronze Age Shipwreck, Transactions of the American Philosophical Society 57, no.8, (Philadelphia,1967); C.Pulak, AJA 92 (1988),1-37.

(٩) V.Hankey, Melange de L'Université Saint-Joseph 46 (1970), 24-26;R.S. Merrillees and J. Winter, Bronze Age trade between the Aegean and Egypt (Brooklyn , 1972); A.Leonard, Jr., BASOR 241(1981), 87-100; Sandars, Sea Peoples, 57, 75.

(١٠) KUB XXIII, 1: Huxley,Achaeans and Hittites, 8; on Akhkhiyawa,see H.G.Güterbock, in M.J.Mellink, ed., Troy and the Trojans (Bryn Mawr, Penn., 1986), 33; T.R.Bryce, Oxford Journal of Archaeology 8 (1989)297-310; and idem.Historia 38(1989),1-21.

(١١) حول هذا المصطلح انظر:

D.Page, History and the Homeric Iliad (Berkeley, Calif., 1963), 183-88; Schachermeyer, Mykene und das Hethiterreich, 56 andn. 3.

(١٢) على وجه العموم حول اللوككا (Lycians) انظر:

Page, History, 24; J.Gastang and O.R.Gurney, The Geography of the Hittite Empire (London,1959), chap.6; T.R.Bryce, JNES 33(1974) ,395-404.

(١٣) يربط البعض بين "الشردانا": Shardana من جهة و الـ"السردونيين": Sardonians فى أسطورة "تالوس"، ومع جبل "ساردينا": Mount Sardena و سهل الساردونى بين "سارديس" و "كايم" على الأطراف الواطئة لنهر "هيرموز":

Strabo, 13.626; A.R.Burn, Minoans, Philistines and Greeks (New York,1930), 113-14.

و تصور آثار الرعامسة خوذتهم المتميزة بكرتها و هلالها:

A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica (Oxford,1947), 1; 199-200; Kitchen, Pharaoh Triumphant 40.

(١٤) لا تنطبق الإضافة إلى "البحر" فى عبارة "شعوب البحر" إلاّ على "الشردين" و "الواشوش"

(P. Harris 76. 7; A. H.Gardiner, Late Egyptian Miscellanies {Brussells,1933}, 20:1),

كما لا تنطبق الإضافة إلى " البلدان" فى عبارة "بلدان البحر" إلاّ على "الإكويش" Eqwesh (KRI IV,8:9) ولكن العبارة أخذت فى الكتابات الحديثة تمتد كى تشمل مجموعة البلدان الشمالية بأسرها التى هاجمت مصر تحت ظل الفرعونين "ميرى-ان-بتاح" و "رعمسيس" الثالث. و حتى الآن لم تظهر دراسة وافية عن "شعوب البحر، ربما بسبب الوفرة الزائدة عن كل حد من الأدلة سواء الأثرية منها أو النصوصية (المدونة).

وقد يستطيع المرء أن يضيف إلى العبارات المقتبسة فى:.n..6

F.Schachermayer, Die ägäische Frühzeit,vol.5 (Vienna,1982); A.Strobel, Der spätbronzezeitliche Seevälkersturm (New York,1976); Deger-Jalkotzy, ed., Griechenland die Ägäis und die Levant währrend der "Dark Ages" (Vienna,1983).

(١٥) S.Iakovides,in G.A.Christopoulos,ed., A History of the Hellenic World, vol. 1: Prehistory and Prohistory (London,1974),293.

(١٦) الأدلة الواردة سواء من الأراضى الميسانية أو أعماق بلاد اليونان ليست حاسمة تماماً. انظر:

G.Shrimpton, Echos du monde classique 31 (1987), 137-78; cf. Sandars, Sea Peoples, 20 and n.4,24.

(١٧) Herodotus,1.94; Diodorus, 5.53.

(١٨) G.A.Wainwright, JEA 46 (1960), 24-25; M.Astour, AJA 69 (1965), 255.

(١٩) لعله من الشيق و البالغ الأهمية فى أن واحد أن نشير إلى انتشار التحالفات، لأغراض خاصة، بين الدول الصغرى، تلك التى كانت دولاً توابع لدول أكبر، فى جزر بحر "إيجة" اعتباراً من حوالى ١٢٥٠ إلى ١١٧٥ق.م. و بينما واجه كل من الفرعون "أمين-حوتب" الثالث و الفرعون "رعمسيس" الثالث مجموعات متفرقة، إلاّ أن غروب العصر الميسانى أجبر هذه التجمعات على التقارب كل مع الآخر على أساس مؤقت. و فيما يتعلق بالفترة رهن الحديث نستطيع أن نستشهد بـ "الفيدراليات" المؤقتة التالية: عصبة(Bund) الأمم الاثنتين والعشرين تحت قيادة (؟) طروادة، و هى العصبة التى واجهت "تودخالياس" الرابع (أنظر الملحوظة التالية)، والاتحاد الفيدرالى تحت إشراف "كوس":Kos، الذى انضم إلى الليبيين ضد الفرعون "ميرى-ان-بتاح"، والفيدرالية اليونانية ضد "طروادة"، و تحالف "قايقشا": Qayqisha و "سائى": مع الليبيين ضد الفرعون "رعمسيس" الثالث، و التحالف الأكبر تحت قيادة "البايسيت": Peleset ضد مصر (انظر جدول رقم ١) و لعله من المثير للاندهاش ضخامة عدد التحالفات التى يبدو أن تلك التجمعات قد شرعت فى إنشائها، فى إقليم "كاريا" و"ليشيا".

(٢٠) KUB XXIII,11-13,27-28; Huxley, Achaens, 321-33; :

يرجع العلماء بصفة عامة حادث "المادووتاس": Madduwattas المشهورين الآن إلى تاريخ يقع قبل "تودخالياس" الرابع:١:

Hoffman, Orientalia 53 (1984), 35ff.; Schachermayer, Mykene und das Hethitrreich,141-43.

(٢١) H.G.Gütterbock, JNES 26 (1967), 77.

(٢٢) N.G.L.Hammond, CAH3 II, pt. 2(1975)684.

(٢٣) Burn, Minoans, Philistines and Greeks,148-50.

(٢٤) Vermeule, Greece in the bronze Age, 264-65;Sandars, Sea Peoples, 60-62.

(٢٥) Hammond, CAH3 II, pt. 2 (1975)694; Vermeule, Greece in the Bronze Age, 269-70; T.B.I.Webster, From Mycenae to Homer (London,1958),136-37.

(٢٦) Sandars, Sea Peoples, 84-97.

(٢٧) J.Leclant, Orientalia 56(1987), 293-94.

(٢٨) حول الليبيين بصفة عامة، انظر النقاش مع ببليوجرافيا(قائمة مراجع) التى سطرها جى. أوزنج (J.OsingLdÄ III(1980),1015-33;) و حول تعيين "ليبيارش" Libyarch فى عصور الرعامسة انظر: W.Spiegelberg, ZÄS 64 (1929), 95;

و حول تحصينات الرعامسة فى الدلتا و على امتداد الساحل انظر:

C.C.Edgar, ASAE 11 (1911), 277-79; J.Leclant Orientalia 23 (1954), 75; L.H aba-chi, BIFAO 80 (1980), 13-30.

(٢٩)"المشويش" معروفون منذ حكم الفرعون "أمين-حوتب" الثالث:

(year 34: W.C.Hayes, JNES 10 (1951), fig.10, no. 130).

أما "اللابو": Labu فمنذ عصر الفرعون "رعمسيس" الثانى .(KRI II,475) و "الأسبوتاى":Asbutae الذى ورد ذكرهم عند "هيرودوت" (٤، ١٦٨)، و "الهاسا": Hasa هم "الأوسيس": Auses عند نفس المؤلف (٤، ١٨٢)

(٣٠) OCD2, 700; Appolonius Rhodius, 4.1518.

(٣١) KRI Iv, 23:6.

(٣٢) D.B.Redford,Pharaonic King-lists, Annals and Day-books (Toronto,1986), 83, no.105.

(٣٣) KRL IV, 20:8.

(٣٤) The Eqwosh: D.B.Redford, JAOS 103 (1983)0, 482-83(not the Achaeans).

تفخر الجزيرة بحيازتها لأطلال ميسيانية مكثفة:

Huxley, Achaeans, 27; Stubbings, Mycenaean Pottery, 21-22; J.Boardman, The Greeks Overseas (London,1980), 27;

و حول الفخار المزخرف من "كوس" بأغطية رءوس يعلوها الريش انظر:

Sandars, Sea Peoples, 92-93; S.Wachsmann, International Journal of Nautical Archaeology 10 (1981), 200-201, 201, 213.

(٣٥) من بين قوائم المقطوعى الرءوس، احتل الإقوويش: Eqwosh مركز الصدارة بما لا يقاس.

(٣٦) H.De Meulenaere, BIFAO 62 (1964), 170.

(٣٧) P. Harris, 1, 76, 11-77, 2.

(٣٨) حول الداء الذى أصاب "سيبتاه": Siptah انظر:

J.R.Harris and K.Weeks, Natural History (August-Septemper 1972), 61; On Taw-osrt, see Drenkahn, GM 43 (1981), 19-22; On Bay(Beya), see p. 225.

(٣٩) KRI V, 22: 15 - 23: 4.

(٤٠) انظر رقم ٢٩

(٤١) Or Kayqisha (H.Gauthier, Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les texts hiéroglyphiques (Cairo,1930), 5:154, 158); both are rendering of Karkisa i.e.,Caria (A.Goetz,Kleinasien2 ?(Munich, 1957), map; Huxley, Achaeans, 20-21; W.Helck, Die Beziehungen Ägyptens zur Vorderasien 2 (Wiebaden,1971),195).

(٤٢) P. Harris I, 77, 3-7.

(٤٣) KRI V, 24:14-15.

ظهرت أغطية الرأس "الفلاسطينية" هذه بين الحين و الآخر بين القوات المعاونة للمصريين فى أوائل الحملات النوبية و حتى فى هذه الحملة الليبية الأولى (F. Schachermeyer, Ugaritica 6(1969) , 454-55)

و لكن السؤال حول ما إذا كان فى ذلك إشارة إلى أن بعض "البليسيت" كانوا قد دخلوا فى صفوف الجيش المصرى أو يحق لنا بكل بساطة، أن نغض الطرف عن الأمر باعتباره زخرفة تقوم على مفارقة تاريخية، سؤال تصعب الإجابة عليه.

(٤٤) حول إمكانية وجود "ليشيين" Lycians فى "بيبلوس" فى القرن السابع عشر ق.م. انظر:

W. F. Albright, BASOR 155 (1959),71-72; for šikalayu (Sheklesh) at Ugarit, see. G.A. Lehmann , UF 11(1979), 481-82; E.Edel, BN 23(1984), 7-8.

(٤٥) W. F. Albright, CAH3 II pt. 2(1975), 522.

(٤٦) يصعب على المرء أن يعرف كم من الزمن يجب إعطاؤه لاستيعاب الزحوف فى البر و الإبحار فى البحر، تلك التى تتضمنها النصوص الأوجاريتية، و الاقتتال حول قبرص الذى شمل الحيثيين، و كذلك الأمر بالنسبة للتقاليد الكلاسيكية للهجرات (انظر النقاش اللاحق). و يتساءل المرء حول ما إذا كانت جزيرة "رودس" مسرحاً للعمليات: فالجزيرة لم تتأثر إلى حد كبير بالحركة و استمرت تجارتها النشطة مع موانئ البحر المتوسط: تايلور فى كتابه "الميسينيين"(Taylor, The Mycenaeans,160)

و لو كان استكمال حصار "طروادة" فى الحقيقة، هو الباعث الأقوى وراء هذه الحركة، إذن ينبغى تعيين تاريخها كـ "نقطة البداية"، ولكن ليس هناك مع شديد الأسف إجماع على ذلك بين العلماء، فتواريخهم تتراوح ما بين القرن الرابع عشر إلى "إراتوستينيس" Eratosthenes'1194-1183 B.C.:

Burn,Minoans, Philistines and Greeks, 52; Stubbings, CAH3 1, pt.2 (1975), 350; R.B.Edwards, Kadmos the Phoenician (Amsterdam, 1979), 164; A.B. LLOydkHerodotus Book II.A Commentary (Leiden,1976),1:177-80.

و يذهب رأيى إلى أن التحالف رهن الحديث إنما أخذ شكله النهائى فى وقت مبكر قد يرجع إلى صعود الفرعون "رعمسيس" الثالث إلى العرش.

(٤٧) KRI V, 39-40; W.F.Edgerton and J.A.Wilson, Historical Records of Ramesses III (Chicago,1936), 53-56.

(٤٨) قارن الأعمال التى استشهدنا بها فى رقمىْ ٦، ١٤، وهى الأعمال التى قد يستطيع المرء أن يضيف إليها:
Astour, Hellenosemitica, 6; Gardiner Onomastica, vol.1;

الأعمال الكثيرة لـ :
G.A.Wainwright in JEA and JHS; R.Stadelmann,Ldä 5 (1984),814-22.

بصرف النظر عن الهويات المحددة التى يميل إليها البعض، إلا أن اتفاقًا عامًا يجمع الجميع على أنه من الخطـأ أن نتطلع شمــالى جزر بحر "إيجة" بحثًا عن هذه المجموعة أو تلك من الغزاة الذين اجتاحوا عالم البحر المتوسط.

(٤٩) حول "القرص" انظر، بين أعمال أخرى،
Die Beziehungen Ägäis, 129-30;Strange, Caphtor/Keftiu, 135-36; On crests, see Strabo,14.2.27.

تشير التروس المستديرة التى استخدمها معظم شعوب البحر إلى عالم بحر "إيجة":
(A.M.Snodgrass, Early Greek Armour and Weapons (Edinburgh,1964),189),

فلقد حلت محل الزرود (جمع زرد الذى يلبسه المحارب كما يلبس القميص) فى القرن الثالث عشر:
(T.Dothan, The Philistines and Their Material Culture (Jerusalem),1982},12);

و حول المزيد من العتاد الحربى انظر:
Sandars, Sea Peoples, 88-95.

و حول ما إذا كنا أمام ريشة تعلو الرأس أم أمام شعر طبيعى معقوص إلى أعلى، انظر:
K.Galling, Ugaritica 6 (1969), 247-48; Schachermeyer, Mykene, 457; Dothan, The Philistines,13 and n.49.

(٥٠) Sam. 20:23; 2Kings 11:4, 19.

(٥١) حول "البلاسجيين" Pelasgians، وهم فى الأصل عبارة عن قبيلة ثراسيانية (الإلياذة ٢،٨٤١) اضطــرت، على وجه التقريب ، إلى الاندفاع باتجاه الجنوب كى تحتل "ترود": Troad(Ibid) و "أيونيا" والجزر (سترابو١٣: ٦٢١) و "كريت" (الأوديسا ١٩: ١٧٧) انظر:
Burn, Minoans, Philistines and Greeks, 58-59, idem., in OCD2, 704; Lloyd, Hero-do tus Book II, A Commentary, 2 :232-37

لو لم يكن "البلاسيجيون" يونانيين، كما تزعم المصادر المتأخرة، فإن صعوبة قد تنشأ إذا أراد المرء أن يتمسك بأن الأسماء و الكلمات "الفلاسطينية" القليلة التى حفظها لنا الدهر، ترجع فى حقيقة الأمر إلى أصـول يونانيــة. و ينبــغى علينا أن نلاحظ أن "زانثــوس" Xanthus (القــرن الخــامس ق.م.) يرى أن "الفلاسطينيين" مستعمرون قدموا من "ليديا":
(E.Meyer, Geschichte des Alterums (Stuttgart,1928}. 2:1, 81, n.1)

(٥٢) E.Gjerstadt, Opuscula Archaeologica 3 (1944), 108; G.A.Wainwright, JEA 47 (1961), 76; E.Forrer, Ugaritica 6 (1969),214;OCD2,1048;J.D.S.Pendelbury, The Archaeology of Crete (Oxford, 1939), 260, n.4.

(٥٣) T.Smolenski, ASAE 15 (1915), 86 and n.5.

(٥٤) P.Kretschmer, Glotta 21 (1932), 230, n.3; Strabo, 14.2.21. The Sheke-lesh,Washosh and Qarqisha all display in their names the significant-ass (os)afformative,linking them to the Luwian/Lycian Linguistic group in Asia Minor:O.R.Gurney The Hittites 2 (Harmondsworth, (1944), 122-23; J.L. Caskey, CAH3 II, pt.1(1973), 139.

يكشف "الشيكليش" و "الواشوش" و "القرقيشا" في أسمائهم جميعًا عن مكون:-ass(os)، الأمر الذي يربط بينهم و بين المجموعة اللغوية المعروفة باسم "اللويان/الليشيانيين في أسيا الصغرى.

(٥٥) Astour Hellenosemitica, 8-10,

المشكلة هنا معقدة، حيث يظهر حرف النون مرتين في الأصل، و هو الأمر الذي يستدعي في الغالب عقد مقارنة مع اسم المكان "دانونا": Danuna الوارد في رسائل "أخيتاتون"(=العمارنة)EA 151:50-55 حيث يبدو ارتباطه بـ "كنعان". و في سبيل إمكانية حل هذه المشكلة انظر:

R.D.Barnett, JHS 73 (1953), 142, n.2.

(٥٦) Wachsmann,International Journal of Nautical Archaeology 10 (1981), 195096, 209-10; Vermeule, Greece in the Bronze Age, 258-60, fig.43; see also A.Raban, International Journal of Nautical Archaeology 18, no.2 (1989),163-71.

(٥٧) Barnett, JHS 73 (1953),140-42;OCD2 , 239, Hammond,CAH3 II.2 (1975),679-80, Forrer, Ugaritica 6 (1969),211-16.

(٥٨) Herodotus, 7.91; Strabo, 14.5.17.

(٥٩) See n.52.

(٦٠) M.Fortin, in Mélanges d'études anciennes offerts à Maurice Lebel (Quebec, 1980), 25-44.

(٦١) R.Drews, The Greek Accounts of Eastern History (Cambridge, Mass.,1973), 102; Stroebel Seevölkersturm 211; M.A.Meyer, History of the city of Gaza (New York,1907), 6; R.A.S.Macalister, The Philistines, Their History and Civilization (London, 1912), 15, 113.

(٦٢) G.Hanfmann, BASoR 186 (1967),37.

(٦٣) H.Otten, MDOG 94 (1963), 21; Gütterbock, JNES 26 (1967), 77.

(٦٤) RS 18.148; Astour, AJA 69 (1965), 256.

(٦٥) Ugaritica 5 (1968), 85-86;

"إنكومي" Enkomi في قبرص تعرضت للتدمير مرتين عند نهاية الحقب LH IIIC (A.H.S.Megaw JHS 73 (1953),134) و بعد هذه الحقب تتوفر بين أيدينا أدلة على هجرانها.(V.Karagereorghis Cyprus (London,1982), 84)

(٦٦) Rs 20. 238 : Ugaritica 5 (1968), 87-89 لم تحمل أى سفينة من سفن شعوب البحر عدداً وفيراً سواء من المجدّفين أو المقاتلين ، فلق اعتمد الغزاة على السرعة والمفاجأة والتفوق فى التسليح. راجع فى هذا الصدد Wachsmann, International Journal of Hautical Archaeolegy 10 (1981), 214 .

(٦٧) For Hattusas, see K. Bittel, in Deger. Jalkor 34, ed., Griechenland, die Ägäis und die levante Während der "Derk Ages, 25-26; I. Singer, Hethitica 8 (1983), 413-21, For Enkomi, see n. 65; For Alalakh and Ugarit, see Astour, AIA 69 (1965), 255 (Albrighr, CAH. 11, pt-2 (1975), 507 FF., is now wor thless. Ugarit still stood at the very end of the 19 th Dymsty [see p. 225, n. 46]; L. Woolley. A Forgotten Kingdom (Baltimore, 1953), 163 - 64; J. T.rev. Syria 65 (1988), 395-98 .

(٦٨) KRI V, 40.

(٦٩) Ibid.,30:5.

(٧٠) انظر رقم ٦١، رغم أن شعوب البحر كانوا يعرفون القدوس (جمع قادس) ذات المجاديف، إلا أن الحقيقة التى تقـول إن المنظر الذى نقابله فى "مدينة هابو" هو منظر معركة بحرية (Medinet Habu,vol. 1:Earlier Historical Records of Ramses III {Chicago,1930}, pls.37-41) لا يكشف عن مجاديف حمله البعض كى يعنى أن الأسطول المصرى أخذ العدو على حين غرة، وهو راسٍ قبال الشاطئ: انظر:

L. Casson The Ancient Mariners (New York,1959), 41-42; idem, Ships and Seamenship in the Acient World (Princeton, N.J.,1971), 38.

وعلى نفس المنوال فلقد تصور البعض أن وجود العربات التى تجرها الثيران و على متنها نساء وأطفال يشير إلى أن شعوب البحر hT سروا خلال زحفهم: (Medinet Habu 1:pl.32.) و غنى عن الذكر أن هذا الأمر كان يلح على أفئدة فنانى الرعامسة إلحاحًا شديداً، مع أن دقتهم فى نقوش هذا المعبد الجنائزى على وجه الخصوص، مشكوك فيها إلى حد ما.

(٧١) KRI V, 40-41.

(٧٢) Not the Tjkru (W. F. Albright, The Vocalization of Egyptian Syllabic Orthography [New Haven, Conn., 1934], 65; Edel BN 23 [1984], 7),

فالحرف الأول مجهور احتكاكى وليس حرف صفير.

الفصل العاشر

مجيء إسرائيل

"هؤلاء هم بنو يسرائيل..."

لاحظ القارئ الصبور الدقيق الملاحظة، دون شك، أننا لم نشر حتى هذه النقطة من دراستنا، سواء إلى إسرائيل أو إلى أسلافه من الآباء. والسبب فى ذلك لا يخرج عن كونه سببًا استقرائيًا: ليس هناك على وجه التقريب، فى مصادرنا سواء المصرية أو تلك الأسيوية الغربية، أى إشارة إلى إسرائيل وأشباهه أو الرفاق (= الآباء والأنبياء) التوراتيين قبل القرن الثانى عشر ق.م. وحتى بعد هذا التاريخ لا نستطيع طوال أربعة قرون لاحقة أن نستخلص أكثر من ست إشارات بالكاد.

الدليل التوراتى وتفسيره التقليدى:

يتوازى أيضًا مع هذا القحط فى الإشارات غياب مماثل على الجانب التوراتى لأى إيماءات محددة تشى بمعرفة ما، سواء بمصر أو بالمشرق خلال الألف الثانى ق.م. فليس هناك ذكر لإمبراطورية مصرية تشمل شرق البحر المتوسط، أو تلميحٌ لجيوش مصرية تزحف فى حملات تأديبية، وليس هناك حديثٌ عن قوات حيثية تزحف فى الاتجاه المضاد أو إيماءة إلى حكام مقيمين أو ملوك صغار متمصرين يحكمون المدن الكنعانية، وليس هناك أى كلمة عن جزية ثقيلة أو تبادل ثقافى. أما عن أحدث وأخطر هجرة مدمرة عرفها الألف الثانى، أقصد هجرة شعوب البحر (المتوسط)، فكاتب الأسفار الستة لا يعرف عنها شيئا يستحق الذكر. وسفرا "التكوين" و"الخروج" يجدان

الفلاسطينيين" Philistines وقد استقروا فى الأرض فى زمن "أبراهام" (قارن "تكوين" ٢٦ فى مواضع مختلفة من النص، "الخروج" ١٣ : ١٧ ، ٢٣: ٣١). والفراعنة العظام، ملوك الإمبراطورية المصرية، الأمانحة (جمع تكسير لـ "أمين - حوتب") والتحامسة والرعامسة يشملهم الغياب التام فى مئات الصفحات التى يضمها "الكتاب المقدس"، وليس هناك سوى صدى خافت قد يطرق آذاننا لأسمائهم فى أسماء الأماكن التى ترد بصورة عرضية، دون أن يستطيع الكاتب العبرانى أن يتعرف عليها بصورة منفصلة عن اسم المكان الذى يحملها[1]. وفى غير هذا الموضع يجرى سَحْر شخصيات تاريخية عادية إلى أبطالٍ تاريخيين: يتحول "شيشى" Sheshy الهكسوسى إلى عملاق كنعانى أسطورى (سفر العدد: ١٣ : ٢٢)، و"سيسى - رع" وهولا يزيد عن كنية لـ "رعمسيس" الثانى يصبح اسمًا لجنرال كنعانى.(القضاة ٥ فى مواضع مختلفة من النص)[2] والأخطاء تترى باستمرار حتى فى الفترات الأقرب زمنًا إلى كتبة "التوراة". والفرعون المصرى الذى كان من المنتظر أن يساعد "هوشع" Hoshea فى تمرده (سفر "الملوك" الثانى ١٧: ٤) يعانى على أيدى هؤلاء الكتبة من الخلط ما يصل إلى حد استبدال اسمه باسم مدينته. وإذا ما تذكرنا أن الفرعون "شبتاكا" Shabtaka نفسه (٦٩٧-٦٩٠ ق.م. بالتقريب) ظهر فى جدول الأمم (سفر التكوين١٠: ٧) كقبيلة نوبية[3]، وكذلك الأمر بالنسبة لاسم خلفه "طاهركا" (٦٩٠-٦٦٤ ق.م.) الذى يفشل هؤلاء الكتبة فى التعرف، بصورة صحيحة، عليه فى الرواية التوراتية (سفر "الملوك" الثانى ١٩-٩)، فإننا لا نجد مفراً من الاستنتاج بأن كتبة "التوراة" فى القرنين من السابع إلى السادس ق.م. افتقروا إلى معرفة دقيقة بمصر، التى لم تكن لتفصلها عنهم وقت ذاك سوى بضعة أجيال قليلة وحسب.

مثل هذا الجهل يصيبنا بالحيرة، خصوصاً إذا استشعر المرء ميلاً نحو الانبهار بالمزاعم التقليدية حول عصمة "الكتاب المقدس"، تلك التى تطرحها المسيحية المحافظة بالنيابة عن "التوراة"[4]. والحقيقة أن الأسفار الخمسة والأسفار التاريخية تقدم، بصورة جسورة، تأريخًا chronology محدداً كان ليسند رواية "التوراة" خلال تلك الفترة التى كان الجهل والتناقض فيها يسببان أكبر الحرج[5]. فإذا جمعنا أطوال حكم ملوك "يهودا" من السنة الرابعة فى حكم "سليمان" (عندما دشن المعبد فى "أورشليم": سفر "الملوك" الأول ٦: ١) إلى تدمير "أورشليم" فى سنة ٥٨٦ ق.م. فإننا

نجدها ٤٣٠ سنة، وهوالأمر الذى يضع هذه النقطة من حكم "سليمان" إذا سرنا منحدرين إلى الوراء، بالتالى عند سنة ١٠١٦ ق.م. وعود على بدء وطبقًا لسفر "الملوك" الأول ٦:١ فإن عدد السنوات التى يُفترض أنها انقضت بين "الخروج" وبين تدشين المعبد هو٤٨٠ سنة، وهو الأمر الذى يعطينا هذا التاريخ: ١٤٩٦ ق.م. لوقوع حادث "الخروج". ولما كانت "التوراة" تقرر أن فترة الإقامة فى مصر قد دامت ٤٣٠ سنة (سفر "الخروج" ١٢: ٤٠)، فإن نزول "يعقوب" وعائلته فى أرض "جوشن" لابد وأن يكون قد حدث فى سنة ١٩٢٦ ق.م. وإذا ما أضفنا الآن أعمار "أبراهام" و"إسحاق" و"يعقوب" أى ٢٩٠ سنة[٦]، فإننا نصل إلى ٢٢١٦ ق.م. كتاريخ مولد "أبراهام". وهذا يعنى أن وصول "أبراهام" إلى "كنعان" كان ليقع فى سنة ٢١٤١ ق.م.(قارن "التكوين ١٢: ٤)، ونزوله إلى مصر (تكوين١٢: ١٠-١٩) بين ذلك التاريخ وسنة ٢١١٦ ق.م.، أو تحت ظل الأسرة العاشرة التى حكمت البلاد من عاصمتها فى "هراكليوبوليس" Herakleopolis (= "الكاب" حاليًا فى "الكوم الأحمر" ١٢ ك شمالى "إدفو" المترجم.) ونزول "يعقوب" كان ليحدث خلال عهد الفرعون "سنو- سرت" الأول وتستغرق إقامته طوال حكم الأسرة الثانية عشرة الغاربة، وطوال عصر الأسرة الثالثة عشرة، والاحتلال الهكسوسى، وأوائل حكم الأسرة الثامنة عشرة حتى السنة التاسعة من عهد الملكة "حتشبسوت" ! وفى ضوء سفر "العدد" ٣٢: ١٣ الذى يفرد أربعين سنة للتيه فإن غزو"كنعان" تحت قيادة "يشوع" لابد وأن يكون قد بدأ فى سنة ١٤٥٦ ق.م.، أو غداة سلسلة الحملات المظفرة التى شنها الفرعون "تحوت - موسى" الثالث عندما كانت "كنعان" بأسرها جزءًا من ممتلكات مصر، وعشية عمليات ترحيل السكان المحليين التى قام بها الفرعون "أمين - حوتب" الثانى إلى وادى النيل. والأكثر مدعاة للاندهاش هو ما يترتب، ضمنيًا، على ذلك من وضع عصر "القضاة"، بالتحديد فى الفترة من ١٤٥٦ حتى ١٠٨٠ ق.م.[٧]، وهو ما يتعاصر، تمامًا أو يكاد مع الإمبراطورية المصرية فى آسيا! ومع ذلك فمصادرنا المصرية لا تذكر شيئًا عن الآباء ولا عن إسرائيل فى مصر ولا "يشوع" أو خلفائه، بينما تلزم "التوراة" الصمت تمامًا عن الإمبراطورية المصرية فى بلاد المشرق. حقيقة الأمر أن كتبة "التوراة" كانوا غير واعين،

بصورة كاملة وسعادة غامرة بالتناقض الهائل بين "تاريخهم"(History) و"تأريخهم" (Chronology) .

ومع ذلك فلست أظن أن قوة الالتزام الذى ينعقد أمام كاهن الاعتراف بتأييد أحكام مسبقة سوف تسمح لمعظم المفسرين المحافظين، سواء من المسيحيين أو الموسويين (=اليهود) بأن يتغاضوا عن مجمل الترتيب التأريخى، ولقد أثبت الباحثون الإسلاميون أنهم خاضعون، هم أيضًا بصورة متماثلة لاستعباد النصوص(8). فالنموذج الأساسى لـ "عصر الآباء"، والنزول فى مصر والإقامة و"الخروج" والغزو والقضاة، لابد وأن يكون صحيحًا بصفة رئيسية - أليس هذا النموذج متماسكًا من الناحية المنطقية من الداخل؟ هل تملك نموذجًا أفضل؟ وبالتالى يأخذ البعض فى ابتكار حلول كثيرة حاذقة. وقد تمثلت أكثر الحيل شيوعًا فى هذا الصدد فى تقليص باع الزمن إلى عدة أجيال: وبناء عليه يعنى رقم ٤٨٠ سنة فى حقيقة الأمر اثنى عشر جيلاً، ولكن أربعين سنة للجيل الواحد فترة طويلة أكثر مما ينبغى، أما عشرون سنة فأقرب للمتوسط، ومن هنا نكون قد تمكنا من تخفيض الرقم (أى الـ ٤٨٠) إلى النصف وهو الأمر الذى يضع "الخروج" حوالى ١٢٥٥ ق.م.، بدلاً من ١٤٨٦، ويا للعجب! ها هو يقع مباشرة خلال حكم الفرعون "رعمسيس" الثانى، وبالتالى تكون الإشارة إلى مدينة "رعمسيس" فى سفر "الخروج" ١: ١١ قد وجدت تكييفًا بارعًا لها! وعلى نفس المنوال لابد وأن تكون الـ ٤٣٠ سنة التى مكثها بنو إسرائيل فى مصر مكافئًا عجيبًا، ببساطة، لأربعة أجيال بالتقريب - ألم يبرهن سفر "التكوين" ١٥: ١٦ إلى هذا الحد أو ذاك على ذلك؟ - وبالتالى فإن "النزول" سيكون قد استقر عند منتصف القرن الرابع عشر، أو عند نهاية عصر "أخيتاتون". ومع أن الأعمار الهائلة للآباء لم تكن خارجة عن النطاق بالنسبة لمادة سفر "التكوين"، مثلما هو الحال معها الآن، بل كانت من الناحية الفعلية مصدر إلهامها(9)، إلاّ أن هذه الأعمار جرى اكتساحها هى الأخرى أو تحولت إلى تقديرات جيلية عادية، وبالتالى أصبح فى وسع "عصر الآباء" Patriarchal age أن يشمل القرن الخامس عشر ومطلع الرابع عشر ويتكيَّف مع التوازيات "النوزية" Nuzi المزعومة(10). وإذا كان المرء لا يزال مبهورًا أمام "التطابقات" التى تسمح لـ "يوسف" بالصعود فى مدارج السلطة تحت حكم الهكسوس، الذين كانوا

ينظرون إليه بعين العطف نظراً لقرابته لهم بصفته ساميًا (مع أن قصة "يوسف" التوارتية تميِّز بوضوح بينه وبين الفرعون وبلاطه بصفتهم مصريين)، ثم ماذا لو أسقطنا اعتراضاتنا على السنوات الـ ٤٣٠ سنة وقبلناها حرفيًا؟ عندئذٍ سيكون "يوسف" قد دخل مصر حوالى ١٦٨٠، أى فى الوقت بالضبط الذى كان الهكسوس فيه يستولون على الحكم[١١]!

مثل هذا التناول الخشن للأدلة ينضح بالشعوذة وحساب الجُمَّل (=تحويل الحروف إلى أرقام فى إطار عمليات السحر وكتابة الأحجبة، إلخ. المترجم.)، ومع ذلك فلقد أدى إلى إرساء الأسس الهشة التى كتب مؤلفون استناداً إليها عدداً مؤسفاً من الـ"تواريخ" لإسرائيل. إذ يتسم معظم هذه التواريخ بقبول ساذج إلى حدٍ ما للمصادر عند قيمتها الاسمية، مصحوبٍ بالعجز عن تقييم كل دليل فى ضوء مصدره ومدى الجدارة بالركون إليه. وتمثلت النتيجة التى نجمت عن ذلك فى تقليص كافة المعلومات المتاحة إلى مستوى مبتذل، وصار أى منها وكل منها بمثابة حبوب جاهزة للطحن فى نطاق واسع من الطواحين. كما أنفق الدارسون جهوداً لا يستهان بها فى تناول أسئلة عجزوا عن التدليل على أنها أسئلة مشروعة بأى حال من الأحوال. تحت ظل أى الأسر الفرعونية كان صعود "يوسف" فى مدارج السلطة ؟ من هو فرعون الاضطهاد؟ ومن هو فرعون "الخروج"؟ هل نستطيع التعرف على شخصية الأميرة التى انتشلت "موسى" من النهر؟ من أى مطرح كان "خروج" الإسرائيليين من مصر: عبر "وادى طوميلات" أم عند نقطة أكثر بعداً إلى الشمال ؟ يستطيع المرء أن يفطن إلى أن هذه الأسئلة لا طائل من ورائها إذا طرح أسئلة مماثلة حول قصص الملك "أرثر"،(الأسطورى.المترجم.) دون أن يخضع النص بادئ ذى بدء للتقييم النقدى. من كانوا قناصل روما عندما سحب "أرثر" من الصخرة سيفًا؟ أين ولد الساحر ـ الحكيم "ميرلين" Merlin ؟ أين تقع "أفالون" Avalon ؟ هل يستطيع المرء أن يتخيل، بصورة جادة، مؤرخًا كلاسيكيًا يتساءل عما إذا كان "لارباس" Larbas أو "إينياس" Aneas هو المسئول عن انتحار "ديدو" Dido ؟ أين بالتحديد قفز "ريموس" Remus من فوق الحائط ؟ ماذا حدث فى حقيقة الأمر مع "رومولوس" Romolus خلال هبوب العاصفة؟ وهلم جرا ؟ فى كافة هذه الحالات المتخيلة لم تتعرض أى مادة من المواد التى حفزت فى البدء طرح مثل هذه

الأسئلة للتقييم بصورة أولية فيما يتعلق بمدى تاريخيتها. وأى مؤرخ يعفى أى جزء من مصادره من التقييم النقدى يغامر بنقض بعض أو كل النتائج التى سينتهى إليها. ولا يهم البحث العلمى فى شىء، فى هذه الحالة دافعه إلى ذلك - وسواء أكان موقفًا اعترافيًا (=أخلاقيًا) مسبقًا، وعلى المستوى العلمى: تفكيرًا استهوائيًا Wishful thinking أو اعتزازًا ليس فى محله، بالمنهج الذى وقع عليه الاختيار- فإن هذا لن يغيِّر شيئًا فى الإتلاف الناتج عن ذلك لبحثه فى التاريخ. وإذا كانت المواد "التوراتية" الواردة فى الأسفار الخمسة أو سفر "يوشع" أو"القضاة" سوف تصبح نوعًا من "البوفيه المفتوح" Smorgasbord يضم شرائح متساوية الصحة من الأدلة، التى يستطيع الباحث أن يختار منها أو يرفضها حسب ما يملى عليه الهوى الخاص، فإننا سوف نتوصل إلى "إعادات - بناء" لـ "تاريخ" إسرائيل فيما قبل عهدها الملكى بنفس عدد الباحثين الراغبين فى القيام بهذه المحاولة.

تورط الباحثون فى تاريخ "التوراة"، فى الآونة الأخيرة، فى الإقرار، سواء بصورة ضمنية أو صريحة، بعدد من المفاهيم المسبقة، الجزافية التى عجزت عن حيازة قبول صريح، كما تورطوا أيضًا فى نذر أنفسهم لاتجاه يجلب الملل يسعى إلى إضفاء طابع عقلى على الآراء المحافظة التى تلقنوها عند أقدام الكاهن أو الواعظ أو الحاخام حتى تصير فلسفة للتاريخ. وتحت ظل التورط الأول يستطيع المرء أن يذكر الرأى الذى يشيع قبوله على نطاق واسع بأن التاريخ المشهود لإسرائيل القديمة ليس سوى قضاء الإله على البشرية، وهو القضاء الذى يقود، بصورة صارمة، إلى الخلاص الشامل خلال هداية الإله لإسرائيل. مثل هذا الرأى يتوافق، كما هو واضح، مع الحدس بأن إسرائيل القديمة كانت فريدة، وبصفة خاصة فى وعيها بالتاريخ وبكتابة التاريخ: لم تكتب أى من الحضارتين العظميين اللتين قامتا فى واديين يرويهما نهران عظيمان، أى الحضارة المصرية أو البابلية (= ميزوبوتاميا)، فى حقيقة الأمر، أعمالاً "تاريخية"، ولكن إسرائيل انفردت بذلك، إلى جانب اليونان، بطبيعة الحال (مع إيماءة متسرعة فى اتجاه أكثر الأنساق احترامًا) وعلاوة على ذلك قتلت كل من مصر و"بابل"، فى حقيقة الأمر، الحمية

التى كانت لتنتج وعيًا بالتاريخ وقادت فى نهاية المطاف إلى كتابة التاريخ: ولعلها حقيقة معروفة على نطاق واسع أن "إسرائيل هى الشعب الوحيد، فى سائر أرجاء الشرق الأدنى، الذى تطورت عنده الكتابات الحولية إلى تدوين تاريخى رسمى"(١٢). وتحت ظل التورط الثانى قد يستطيع المرء أن يستشهد بالمشكلة الغريبة (أو فى هذا السياق المشكلة المدركة) تلك التى تدور حول النقطة التى نستطيع أن تبدأ عندها تاريخنا لإسرائيل القديمة ؟ فهل نبدأه بالآباء، وبالتالى نكون قد سايرنا السياق "التوراتى"(١٣)، أو بنقطة /بؤرة لاحقة ؟ هل ينبغى أن نبدأ تاريخنا حيث تبدأ عملية التدوين ؟ أو من النقطة التى ظهر فيها لأول مرة اسم "الإسرائيليين"، أو ينبغى علينا أن نستهدف إمبراطورية "داود" (= دافيد) Davidic empire، عندما بدأت أمة - دولة، على ما يبدو فى الظهور؟(١٤) وقد يفيد تسبيق كل هذه الأسماء بـ "قبل" : pre و"بواكير- تاريخ" protohistory فى مساعدتنا فى توضيح فهمنا لما نقوم به(١٥).

لعله مما يورث الحزن أن هذه الاتجاهات لا تعكس تفكيرًا علميًا ولا أمانة عقلية مبدئية. ولا ينبغى أن نسىء فهم النظرة العميقة أو البصيرة التى كشفت عنها حفنة محدودة من الأنبياء فى الفترة من القرن الثامن حتى القرن الخامس ق.م. الذين تلمسوا خلال الظلام طريقًا نحو العالمية والتفسير الغائى لأفعال الإله، كى نقول عنها إنها تمثل منطلقًا عقليًا قوميًا، فلقد كان ذلك، بالتأكيد، غريبًا على إسرائيل ككل(١٦). وعلى نفس المنوال يكون المرء مفتقرًا لمبررات كافية إذا نسب النزعة الربوبية (= الاعتقاد بوجود الإله دون الوحى أو الرسل أو التنزيل – المترجم.) الراقية التى ظهرت فى اللاهوت المنفى (= نسبة لـ "منف") إلى الديانة المصرية ككل(١٧). وإذا ما استمر المرء سادرًا فى هذا الإيمان الخاطئ، فلابد أن يكون مرجع ذلك إلى العبء الثقيل للعهد الذى يقطعه المرء على نفسه أمام كاهن الاعتراف، وهو الأمر الذى يفتقر إلى أى محل فى إطار وعى المؤرخ. أما بخصوص تسجيل إسرائيل للمركز "الأول" فى تخليق وعى بالتاريخ وبالتدوين التاريخى، فإن قبولنا لهذا الأمر سوف يعتمد على الكيفية التى نعرِّف بها التاريخ والتدوين التاريخى، وأيضًا على التاريخ المحدد الذى نعطيه لبعض الموضوعات المحددة. وفى هذا الصدد يبدأ عدد كبير من الباحثين، بصورة تبعث على الاندهاش،

من تعريف كلاسيكى، بصفة أساسية[١٨]، وعندما يفشلون فى العثور على تطبيقات هذا التعريف فى أدب مصر القديمة أو ميزوبوتاميا (= بلاد الرافدين.)، فإنهم يحذفون، بأريحية عالية، هاتين الحضارتين كمكانين لا ينبغى لأحد أن يتوقع أن يظهر فيهما تقدير بمعنى الكلمة لـ "التاريخ". أما إسرائيل فتستثنى هنا على أساس معرفتها بـ "تاريخ" سفر "التثنية" وبـ "تاريخ البلاط" court history على عهد الملك "داود"، فكلاهما يقبلان التصنيف، بشكل سطحى، كـ "تاريخ" (حتى مع أنهما لا يشتركان فى كثير من السمات التى تتسم بها نماذج "التاريخ" اليونانى، بل ويقتربان من أنواع أخرى معروفة فى كتابات الشرق الأدنى) وعلى الأقل فى الحالة الأخيرة التى يتحدد لها القرن العاشر ق.م. كنقطة تاريخية date . مع أن كلاً من التصنيف كتاريخ، والقرن العاشر كنقطة تاريخية يفتقران معًا إلى أى مسوغ بأى شكل من الأشكال، كما سنرى فيما بعد[١٩]. وفضلاً عن ذلك فإن تطبيق المعايير الكلاسيكية المستقاة من الدراسة الضيقة للمدونات التاريخية اليونانية أمر، بكل بساطة، يعتوره الخلل. ولقد مضت تلك الأيام التى كان الباحثون يحللون فيها اللغات الأفرو- آسيوية (أو لغات أى عائلة لغوية أخرى) باستخدام رطان لغوى صيغ فى الأصل لوصف اللغة اليونانية أو اللاتينية: فاللغات تؤخذ الآن على الأسس التى تنبع منها، ويجرى تحليلها وفقًا لبنيتها الداخلية الخاصة دون غيرها. وينبغى، على نفس المنوال، أن يوصف بشكل أمين، نهج كل دولة فرد فى تناولها لتاريخها الخاص بمصطلحاته ذاتها، دون أى إسقاط لحقها بشكل تلقائى، فى خصوصيته (أى خصوصية هذا النهج) لمجرد اختلافه عن النهج اليونانى.

أما بخصوص السؤال الذى يدور حول النقطة التى ينبغى أن نبدأ بها تاريخ إسرائيل القديمة، فإن المشكلة هنا وهمية إلى حد كبير. ولعل هناك أسئلة أخرى تنطوى على مغزى أكثر أهمية مثل: تحت أى ظروف وفى سبيل أى هدف أخذت تقاليد الأسلاف الإسرائيليين شكلها ؟ أين ومتى نشأت "تيمة" (= موضوع) "الخروج"؟ أى طبيعة، وأى درجة من الوثوق نستطيع أن نوليها لأدلتنا بشأن "تاريخ" الفترة السابقة على نشوء الملكية الإسرائيلية، كعناصر مكونة لـ "إسرائيل" فى العصر الحديدى ؟

وينبغى علينا، فى إطار كافة الجهود التى نبذلها لصوغ الأسئلة الصحيحة أن نرفض إلصاق صفة "التوراتى" سواء بـ "التاريخ" أو "الآثار" (=الأركيولوجيا)[٢٠] (ولعل المعنى الوحيد الذى أستطيع فهمه من هذا الاستخدام هو أنه استخدام "ثانوى" allomorphic لمضاف نعتى: "أركيولوجيا توراتى"، وهو لا يعنى سوى اكتشاف وتحليل البرديات والمخطوطات التى تحمل الأسفار "التوراتية"، والتاريخ "التوراتى" لا يخرج عن كونه تاريخ العمل ذاته "أى "التوراة"، منذ ظهوره فى البداية فى العصور التى أعقبت "النفى"). وفى هذا السياق يتقلص فى غالب الأحيان تأثير ما هو "توراتى" على دوائر البحث العلمى عن طريق الإقرار ضمنًا بمشروعية دراسة "الثقافة العبرية والتاريخ العبرى بمعزل عن ذلك التأثير. فما يحتاج إليه البحث العلمى أكثر هو رؤية إسرائيل القديمة داخل سياقها الحقيقى فى الشرق الأدنى، وهى رؤية لن تضخم أو تقلل حجم إسرائيل الفعلى داخل ذلك النطاق.

أول ظهور للعبرانيين فى فلسطين

نماذج ونظريات:

إذا فحصنا ما نملك من أدلة حول الظهور والاستمرار الإسرائيليين فى "كنعان"، فإننا سوف نصل إلى أن هذه الأدلة تنقسم إلى ثلاثة أقسام متفاوتة وغير متساوية فيما بينها. ففى المقام الأول نملك التقاليد التاريخية التى حفظتها لنا أسفار "العدد" و"يوشع" و"القضاة"، وهى التقاليد التى تمثل القسم الأول وتفوق فى الحجم البحت، بما لا يقاس، على القسمين الآخرين، القسم الثانى، ويشمل الأدلة النصوصية خارج نطاق "التوراة"، أما الثالث والأخير فهو القسم الذى يضم المعلومات المستقاة من علم الآثار (=الأركيولوجيا) خلال التنقيب.

لعل تقاليد إسرائيل ذاتها هى أكثر التقاليد التى تحظى بألفة واسعة نظرًا لتقديسها داخل نطاق الثقافة اليهودية - المسيحية، وتطرح علينا صورة غزو عسكرى

شامل. ومن المفترض أن ذلك حدث خلال فترة زمنية قصيرة نسبيًا .لا تتجاوز سبع سنوات (قارن. "يشوع". ١٤: ٧-١٠) ونستطيع هنا أن نرصد اتجاهين بارزين. الاتجاه الأول (الذى ورد ذكره ما لا يقل عن ثلاث مرات) ويشتمل على هجوم انطلاقًا من "قادش" باتجاه الشمال إلى داخل وادى "النقب" عند "حرمة" (سفر العدد ١٤: ٤٥) و"أرد" (سفر العدد ١٢: ١-٣)، وهذه خطوة حاق بها الفشل فى سفر "العدد" ولكن سفرىْ "يشوع" و"القضاة" يعلنان أنها كانت ناجحة[٢١]. والقسم الثانى فيأتى بالإسرائيليين خلال "إيدوم" (= أدوم) و"مؤاب" (="موآب" فى طبعة دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط – المترجم.) إلى السهل الواقع شرقى الأردن، إلى الشمال مباشرة من البحر الميت (سفر "العدد" ٢١: ١٠ – ٢١) حيث انقسم الهجوم إلى شعبتين. فمضى طابور باتجاه الشمال إلى "جلعاد" (سفر "العدد" ٣٢: ٣٩) و"باشان" (سفر "العدد" ٢١: ٣٣-٣٥) كما دحر أيضًا "مديان" (سفر "العدد" ٣١) أما الشعبة الأخرى فعبرت نهر الأردن وتوغلت حتى المرتفعات الواقعة شمالى "أورشليم" عند "جبعون" (سفر "يشوع٢- ٩) ومن "جبعون" انطلقت حملة باتجاه الجنوب كى تؤمن مرتفعات "يهودا" وسفوح التلال (سفر "يشوع" ١٠: ٢٨-٣٩) فى حين قهرت حملة أخرى سارت باتجاه الشمال، الساحل و"الجليل" وشمال وادى الأردن (سفر "يشوع" ١١ :١ – ١١) وذهبت الروايات إلى أن العديد من المدن والمناطق قد عُمِّرت بالسكان:"حرمة" (سفر "العدد ١٤: ٤٥) و"أرد" ("العدد" ٢١: ١-٣) و"مديان" ("العدد" ٣١) و"جبعون" ("يشوع" ٩) و"يرموت" ("يشوع" ١٠: ٣، ٢٣) أو جرى الاستيلاء عليها وخضعت للتدمير: "حشبون" ("العدد"٢١:٢١ – ٣٠) و"أدرعى" ("العدد" ٢١: ٣٣-٣٥) و"أريحا" ("يشوع"٢: ٦) و"عاى" ("يشوع" ٧: ٢، ٨: ٢٩) و"حازور" (="حاصور" فى طبعة دار الكتاب المقدس بالشرق الأوسط.المترجم.) ("يشوع" ١١:١١)

حتى القراءة العابرة لهذه الرواية كفيلة بإثارة الشكوك[٢٢]. فالمدن التى تتمتع بتحصينات هائلة تسقط بسهولة أمام بدو بسطاء، خرجوا للتو من الصحراء ("لاخيش" الجبارة لا تأخذ أكثر من يومين وفقًا لسفر "يشوع" ١٠: ٣١)، وهو عمل بطولى وجدت جيوش فرعون ذاتها صعوبة كبيرة فى إنجازه. وبعض تلك المدن سقط مرتين فى ذلك

السجل (قارن "بيتيل": "يشوع" ١٢: ١٦، سفر "القضاة" ١:٢٢) وبعضها الآخر سقط ثلاث مرات (قارن "حبرون": "يشوع" ١٠: ٣٦ وما بعده) ، ١٥: ١٣، "يهوديت" ١: ١٠، "دبير" :"يشوع" ١٠: ٣٨، ١٥:١٥-١٧، "القضاة" ١:١١، و"حرمة": "العدد":٢١: ٣، "يشوع" ١٤:١٢، "القضاة" ١: ١٧)، وهو الأمر الذى يشير إلى تقاليد متناقضة وإن كانت مدمجة فى بعضها البعض الآخر. ولعل اختلاق الأسباب يقف وراء هذه القصص إلى حد ملحوظ(٢٣) وبينما لا يقود اختلاق الأسباب إلى تقويض تاريخية التقاليد (الشعبية) بشكل كامل(٢٤)، إلاّ أنه يوغل بأصولها داخل ضباب الغموض التاريخى، ويضع مصادر المسجل موضع شك. وبالإضافة إلى ذلك، فأسماء الأعلام (= تحديداً الأشخاص) المصريين يُساء فهمها(٢٥)، والمواقف والأحداث التى كانت ستقع للمملكة المتحدة يجرى التنبؤ بها قبل وقوعها(٢٦).

زد على ذلك أن المقارنة التفصيلية لهذه الرواية العبرانية للاستيلاء على فلسطين مع الأدلة المستقاة من مصادر خارج نطاق "التوراة"، تكذب هذه الرواية جملة وتفصيلاً. والأمر لا ينطوى، وحسب على غياب كامل، كما سبق لنا أن رأينا، فى سجلات إمبراطورية مصر، لأى ذكر أو حتى تلميح لمثل عاصفة الإبادة هذه، بل وأيضاً على أن السيطرة المصرية على "كنعان" والمدن نفسها، التى يقال إن "يشوع" استولى عليها، استمرت محكمة إلى حدٍ كبير طوال حقبة العصر البرونزى المتأخر بأسرها. ومع ذلك فالسجل الأثرى أثقل وطأة، بما لا يقاس، من هذه الحجة النابعة من الصمت (= دليل بالسلب) فمواقع مثل "حرمة" و"أرد" و"أريحا" و"عاى" و"يرموت" عانت فى حقيقة الأمر من تدمير عنيف، ولكن ذلك حدث خلال مطلع العصر البرونزى أو عند نهاية العصر البرونزى الوسيط، وأقفرت من سكانها خلال العصر البرونزى المتأخر (فيما عدا المتسكعين)، أما المواقع الأخرى مثل ""كادش برنيع" و"حشبون" و"جبعون" فلم يكن قد عرف أى منها الاستيطان بعد وظلت هكذا حتى العصر الحديدى(٢٧). وتلك المواقع التى تكشف عن تدمير شامل عند الانتقال من العصر البرونزى إلى الحديدى، حوالى ١٢٠٠ ق.م. فنستطيع، ببساطة، أن نفسر هذا التدمير الذى أصابها بأنها وقعت ضحية الاجتياح الذى قامت به شعوب البحر(٢٨). وإقليما "إيدوم" و"مؤاب" اللذين

يقدمهما سفر "العدد" كدولتين مستقرتين، لم يكونا يضمان سوى بضع مدن قليلة فى العصر البرونزى المتأخر، ويقومان على صون الطريق التجارى الشمالى - الجنوبى إلى "دمشق"[٢٩]، ومملكتا "إيدوم" و"مؤاب"، اللتان ظن - خطأ - كاتب سفر "العدد" أنهما كانتا قائمتين فى الوجود وقت ذاك، لم تظهرا إلى هذا الوجود قبل القرن التاسع ق.م.[٣٠] وأخيرًا لا يكشف المسح الأثرى الشامل لأنماط الاستيطان فى القرنين الأخيرين من الألف الثانى ق.م. عن تدمير وقع فى نقطة معينة بشكل خاص، ولكن، عوضًا عن ذلك، عن استقرار تدريجى يقوم به رعاة (وظل غير مكتمل حتى القرن العاشر ق.م.)، وهواستقرار بدأ فى البلاد الجبلية ثم تحرك نحوالمناطق المأهولة التى تزداد فيها الكثافة من جانب سكان مستقرين[٣١].

أدى ، بشكل تدريجى، إجماع السجل الأثرى الذى تضافر مع النفور من النهج "الأرثوذكسى" (= الأصولى) الجديد فى تناول "التوراة"، كما يتضح عند مجموعات مثل مدرسة "أولبرايت"، إلى نبذ التفسيرات الأثرية للنماذج الاجتماعية - الاقتصادية. واعتبارًا من مطلع الستينيات بدأ "جى. إيه. منديهول" G.E.Mendenhall يدعوإلى ضرورة تطبيق نموذج "هبة فلاحية" على السجل "التوراتى" للغزو(= غزو "كنعان") وفى السبعينيات ارتقى "إن.كى. جاتوولد" N.K.Gatwald بهذه الفكرة البارعة حتى صارت على يديه نظرية مفصلة وعميقة الأثر. وهناك ثلاثة مباحث تتصل بصفة أساسية بمناقشتنا هذه: "إسرائيل" لم تنشأ من عنصر عرقى متميز فى البداية خارج "كنعان" لا مكانيًا ولا ثقافيًا، بل كانت منذ البدء جزءًا من نفس الأرومة الكنعانية بشكل أساسى، والاسرائيليون ليسوا رعاة متسللين، بل جزءًا زراعيًا مستقرًا من المجتمع الكنعانى، خلق هوية سياسية هى "إسرائيل" جاء نتيجة لرفض عنيف للنظام الكنعانى القائم على مدينة - دولة، بآلياتها من سن الضرائب والتجنيد والسخرة. وهناك نتيجة تفسر وجود التقاليد المذكورة بالإشارة ضمنًا إلى أصل لإسرائيل خارج نطاق "كنعان" بصفتها قابلة، وحسب، للانطباق على "المجموعات الفرعية" subgroups التى انضمت فى وقت لاحق إلى "الفيدرالية" (=المملكة المتحدة) القبلية. وهناك نتيجة فرعية ثانية تستطيع أن تنظر إلى عبادة "يهوه" كـ "أسمنت" شعائرى أسس لوحدة "الفيدرالية" وأعطاها بؤرة تقليدية[٣٢].

يشبه العمل الذى قام به "جاتوولد"، وهو أفصح باسط للنظرية وأعمق دعاتها بصيرة، هواء جديدًا منعشًا. فلهذه النظرية أشد النتائج نفعًا فى إيضاح كم كانت مقحمة من الخارج بعض أعز التأويلات على قلوبنا للأطلال الأثرية فى الماضى. ومع ذلك فنظرية "الهبة الفلاحية" تستعصى على التدليل لسبب أول، وتلاقى معارضة من قرائن لسبب ثانٍ وتشارف الإخفاق لسبب ثالث(٣٣).

ليس بوسع أحد أن يبرهن (أو يفند لهذا السبب أو ذاك) على أن "الفيدرالية" القبلية أى "إسرائيل" نشأت على التراب الفلسطينى. وليس فى طوع أحد أن يبرهن على أن المكونات الرئيسية لتلك "الفيدرالية" كانت قائمة باستمرار على التراب الفلسطينى. وكل ما نعرفه معرفة اليقين يتلخص فى أنه فى وقت ما خلال الربع الرابع من القرن الثالث عشر ق.م. عرفت مصر مجموعة أو كيانًا سياسيًا يسمى "إسرائيل" ويحتل جزءًا من أرض "كنعان"(٣٤)، ولكن السؤال حول ما إذا كانت هذه المجموعة قد وصلت للتو إلى هناك أم أنها كانت قد أخذت شكلها النهائى، لم يكن مطروحًا فى مصادرنا. إلاّ أن الصلة الوطيدة التى تربط بين اللغة العبرية واللهجة أواللهجات السامية الغربية التى نستطيع إدراجها تحت مصطلح عام هو "الكنعانية" فهذه حقيقة لا تقبل الجدل. ولكن علاوة على ذلك، فهى أى اللغة العبرية وطيدة الصلة بنفس الدرجة مع لهجات الضفة الغربية كذلك. ولعل الإصرار على أن إسرائيل المبكرة كانت تقوم على اقتصاد زراعى عوضًا عن رعوى، يعد، فى رأيى الخاص، رسمًا لخط حدودىٍ زائف. فكما سبق لنا أن رأينا(٣٥) انخرطت تجمعات حقبتى/ طبقتى EBIV-MBI فى بعض النشاط الزراعى الجاف (أى على الأمطار دون الأنهار) وكانوا فى ذلك النشاط مبتدئين دون خبرة سابقة فى هذا المجال، ومع ذلك كانوا، بصفة أساسية، رعاة يعيشون على الترحال رغم كل ذلك. وتكشف لنا، بالمثل، الأعمال الوصفية الأدبية اعتبارًا من العصر الرعمسيسى لسكان المرتفعات الفلسطينية، عن مجموعة من الذين يعيشون على الرعى، ولكنهم كانوا فى طور التحول إلى حياة الاستقرار(٣٦).

وأخيرًا يفتقر الاعتقاد فى حدوث "هبة فلاحية" إلى تأييد الأدلة، ويبدو، فى الحقيقة، ألا يحوز مثل هذا التأييد فى أى وقت، على وجه الترجيح. ولقد ركز كثيرون، بشكل مبالغ فيه على دور الـ "عابيرو" الذى تقوم عليه شواهد عديدة فى رسائل

"أخيتاتون"(=العمارنة)، فى تحريض الفلاحين (=الـ"خوبشو") على المروق عن سلطة رؤساء المدن الصغرى المحليين، وهو الأمر الذى أثار المشاكل أمام الإدارة المصرية، وبالتحديد فى القوس الكبير من المناطق الحرام بين جبهتىْ القتال no-man's land التى تمتد من شمال لبنان ووادى نهر "الكبير" عبر أعالى العاصى حتى "الجولان"، وبصفة رئيسية الأراضى التى تفصل المناطق الواقعة تحت الحكم المصرى عن تلك الخاضعة للحيثيين. ولقد خبرت هذه الرقعة نشاطًا أشد خطورة قام به الـ "عابيرو" خلال القرن الرابع عشر ق.م.، لسبب بسيط يتمثل فى أن هذه كانت الفترة التى شهدت مولد دولٍ حدودية جديدة فى المناطق المتاخمة للإمبراطوريتين، مثل "أمورو" ودولٍ أخرى أقل وزنًا إلى الشرق. وكان واضع هذه السياسة الجديدة،"عبدى عشيرتا" وابنه "عزيرو" على استعداد لاستخدام أى مجموعة فى صراعهما، وإذا كانا قد استمالا فلاحى "رب - عدى" حاكم "بيبلوس"، فلم يكن ذلك سوى تكتيك فى إطار عصيانهما، ولا يجوز أن نأخذه دليلاً على استياءٍ مشترك كان على وشك التفشى إلى هبة فلاحية على نطاق واسع(٣٧).

تنطوى نظرية "هبة الفلاحين" على خلل خطير سواء فى الطبيعة المفترضة والوظيفة المنوطة بالـ "المدينة - الدولة". حقًا يتوسل أنصار هذه النظرية بما يسمونه "مدينة - دولة كنعانية"، وهم يحتفظون لها بصورة واضحة فيما يتعلق بالمجتمع والاقتصاد والأهمية النسبية، وهذه الصورة ألهمتهم إياها، إلى حد كبير، مثل تلك الدول المعروفة جيداً مثل "أوجاريت" و"ألالاخ"، وربما يكون أيضًا قد استقوا جزءًا من تلك الصورة من "المدينة" polis اليونانية. وبصرف النظر عما إذا كانت المدن السورية رهن الحديث، ينطبق عليها وصف "مدن - دول" حسب النموذج اليونانى، فإن هذه المدن لا تشترك إلاّ فى أقل القليل مع التجمعات الموجودة فى فلسطين. وكانت حملات الغزو التى قام بها المصريون داخل خط نهر "الكبير" - "قطنة" قد أزالت من الوجود "ممالك كبرى" ترجع إلى العصر البرونزى الوسيط، وخفضت، بصورة حادة، عدد سكان تلك المناطق التى كانت ترتدى الخيلاء والغرور، حتى جاء القرنان الرابع عشر والثالث عشر ق.م. كى يشهدا زوال كل شيء هنا، فيما عدا حفنة من المستوطنات - مما يصعب علينا أن نطلق عليها اسم "مدن" - يحكمها عمدٌ خاضعون تمام الخضوع

لمصر. ولم تكن تلك القرى التى نجت من الفناء كى تظل على قيد البقاء أكثر من "تركات" محلية (قارن EA 179:28-29)[٣٨] يتغاضى عن وجودها المصريون لكنها واقعة فريسة للتناحر العشائرى، والنهب والسلب والابتزاز. (قارن- EA248:14-17,250:16 18,262:41-52,270:14-21,298 etc.) وكانت تلك "التركات" صغيرة - فكان يكفيها خمسون رجلاً كى يوفروا لمعظمها الحماية (EA238:11,289:42,295 rev.6,etc) . - وكان بوسعهم أن يحافظوا على قطعان الأغنام فى الداخل أثناء الليل.(EA186:67)[٣٩] وكان عمد مثل هذه المستوطنات وهم أبعد من أن يكونوا "ملوكًا" أو "أرستقراطية" كما تقضى بذلك النظرية رهن الحديث، معدمين فى أغلب الأوقات كأفراد مستقلين (EA 316:18-22) ويفتقرون إلى أساسيات لا غنى عنها مثل المواصلات (-EA180:21-23,198:21 23,271:18-21) ويهددهم باستمرار خطر مصادرة المصريين لمتلكاتهم (EA292:29-35) ولم يكن فى وسع مدن مشهورة مثل "أورشليم" و"أكشو": Accho و"أكساف": Achsaph أن تحشد فيما بينها إذا ما أحدق بها جميعًا الخطر أكثر من خمسين عجلة حربية (EA290:20-25) ولعلها مبالغة زاعقة أن نصف هؤلاء العمد أو الرؤساء (= خزنوتى hazanuti) الكنعانيين الذين يحاصرهم العوز بأنهم "صفوة زراعية"[٤٠] ويغدو منافٍ تمامًا لطبيعة الأمور أن نتصور فلاحين فقراء يهبون ضد أرستقراطية زراعية قوية. وكان لـ"العابيرو" والمارقين من البدو اليد العليا باستمرار: وكانوا بالنسبة لهؤلاء العمد الكنعانيين "أعداء جبارين" (EA 318:9) وكان فى وسع عدد منهم لا يزيد على أربعين بدويًا أن يستولى على المدن وينزل بها التدمير (EA 185:47,186:50) .

وإذا كانت نظرية "الهبة الفلاحية" غير مقبولة بصفتها تلك en tant que telle، إلا أنها أفرخت نظرية أخرى حازت فى الآونة الأخيرة قدرًا من الاحترام. وهذه النظرية تذهب إلى أن فلسطين شهدت، خلال الأزمنة الرديئة فى أواخر العصر البرونزى المتأخر تحولاً سكانيًا، تمثل فى انسحاب الذين بقوا على قيد الحياة من الوديان والسهول إلى المرتفعات. وانبثاقًا من هذه الظاهرة "الكنعانية" بصفة أساسية، تبلور شعب أصبح يعرف باسم "إسرائيل". إلا أن هؤلاء الذين يؤيدون هذه النظرية، تعرضوا، على ما يبدو، لضغط حقيقة أصبحت تصمد الآن ضد الطعن، وأقصد بذلك أن ثقافة حقبة العصر الحديدى الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م. على وجه التقريب)، عندما

كـان ينبـغـى على "إسرائيل"، استناداً إلى كافة الروايات، أن تكون فى طور التشكُّل، لم تكن سوى تطور متأخر لثقافة كنعانية بصفة أساسية، دون أن يستطيع أحد أن يرصد فيها أى شىء "إسرائيلى" على وجه التحديد. ولكن بالإضافة إلى الإقرار بما هو عصى على التجاهل، فإن أنصار نظرية "الانسحاب" ينكرون بشكل مسبق، أن ثقافة العصر الحديدى الأول إنما تمثل ثقافة مجتمع ظل يعيش على الرعى حتى ذلك الوقت وخرج لتوه من أحراش السهوب (=الإستبس)[٤١].

ولعله من المؤسف أن هذه النظرية لا تحوز ما يزكيها، أكثر مما تحوزه شقيقتها نظرية "الهبة الفلاحية". ففى الوقت الذى يعد فيه الاستمرار الثقافى بين "كنعان" فى العصر البرونزى المتأخر عند طبقة / حقبة رقم (LBII) و"كنعان" فى العصر الحديدى الأول حقيقة ثابتة فإن أصل وهوية شعوب العصر الحديدى الأول لا يمكن البحث عنهما بين الفلاحين الكنعانيين الهاربين من المنخفضات (=السهـول والـوديـان). إذ تصف النصوص المصرية سكان المرتفعات، دون لبس، بأنهم رعاة رحل، والحقيقة التى تقول إنهم استعاروا أنماط بيوتهم من الكنعانيين لا تستطيع نفى ما ذكرته تلك النصوص عنهم.(ولقد مكثت أنا نفسى وقتًا ما فى عدد من البيوت فى سهول "ميديبا" Medeba، وبنفس النوع من المنطق، يجوز البرهنة بذلك على وجود أناس من "يافا" و"حيفا" هناك، خصوصًا وأن السكان كانوا يتبنون إلى حدٍ كبير أسلوبًا فلسطينيًا، ومع ذلك فلم يكن قاطنو تلك البيوت، أى مضيفىّ، سوى بدو كانوا قد استقروا لتوهم) وإذا كانت النصوص المصرية قد تناولت أى تحركات سكانية، فمثل هذه التحركات كانت دائمًا من التلال والجبال إلى السهول، وليس فى الاتجاه العكسى. ولا يحتاج المرء إلى اكثر من التمعن فى القطعة الأدبية التعليمية المعروفة باسم بردية "أنستاسى" رقم ١، تلك التى تحمل "خطابًا ساخرًا" كى يدرك كم كان الضابط المصرى يشعر بعدم الأمان فى مهمته التى أجبرته على عبور المرتفعات الفلسطينية، فهو لم يكن يخشى على نفسه من السكان الهاربين من البلاد المنخفضة بل من البدو، وكيف تنفس الصعداء عند وصوله إلى ملاذ المدن الساحلية[٤٢]. فالجبال كانت مأوى قطاع الطرق حيث يختطفون العابر غير الحذر ويحتجزونه طلبًا للفدية[٤٣]، ومنها كان فى وسع لصوص المواشى أن يغيروا على القطعان فى الأراضى المنخفضة، (قارن سفر أخبار الأيام الأول ٧: ٢١) خلاصة

القول: الأدلة لا تؤيد النظرية التى تقول بهبة نظمها العمال المأجورون المعدمون فى داخل نظام قوى تسيطر عليه صفوة حضرية، أو هروب الذين بقوا على قيد الحياة إلى المرتفعات عند خواتيم العصر البرونزى الثانى LBII . وإذا كان مثل ذلك النظام الذى يقوم على طبقات تمر بمرحلة مخاض الاستقطاب قد ظهر يومًا إلى الوجود، فإن ذلك يكون قد حدث منذ وقت طويل فى الماضى خلال القرن الثالث العاشر ق.م. الذى كان قد مال للغروب. والحقيقة أن الخطر الداهم فى ذلك الوقت الذى كان يتهدد طبقة الفلاحين وأسيادهم الذين يستبد بهم العوز، كليهما معًا(وكان كلا الجانبين خاضعًا وقت ذاك لمصر) كان قادمًا من خارج نظامهم العاجز والهاجع فى طور السبات، فى كلٍ من الزمان والمكان. ولكى نكتشفه ونعزله ونصفه، يتعين علينا أن نتطلع باتجاه جنوبى وشرقى "كنعان".

مصر والشاسو:

لم تشكل البلاد الجبلية المخلخلة من السكان فى أواسط فلسطين، تلك التى كانت قد جردت، بصفة جزئية، من سكانها تحت ظل الأسرة الثامنة عشرة[٤٤]، منطقة جذب خاص للمصريين، الذين شعروا، بصفة أساسية، بالنفور من حفظ الأمن فيها. وكان من الضرورى، مع ذلك، الحيلولة دون وقوعها فى أيدى آخرين يمكن أن يتخذوها منطلقًا لتشكيل تهديد للمصالح المصرية فى المنطقة. ففى القرن الرابع عشر وخلال عصر "أخيتاتون" (=العمارنة) ارتأت مصر أن هذه المرتفعات تضم دائرتين من دوائر المسئولية، "ماتات يوروساليم" Mâtat Urusalim أى "بلاد أورشليم"[٤٥] التى تتركز حول "أورشليم" وتترادف مع "مرتفعات يهودا" والبلاد الجبلية الشمالية التى تأتيها السيطرة من "سيخيم" (= شكيم بالعبرى). فما دامت هذه البلاد المرتفعة التى تفتقر إلى استيطان مكثف تشكل محطة مثالية وتضاريس مثلى لسكنى الخارجين على القانون، صار ضروريًا وجود نوع ما من التواجد الإمبراطورى لحماية الوديان والأراضى الساحلية من غارات النهب والسلب. وكلتا المنطقتين رضى المصريون، مع ذلك، إن لم نقل اضطروا إلى تركها فى أيدى أسر حاكمة محلية[٤٦]. وكانت دائرة نفوذ "سيخيم"

(= شكيم) وتدخلها فى الشئون الداخلية واسعة، حيث تمتد من "مجدو"[٤٧] والقوافل التى تعبر وادى الأردن[٤٨] فى الشمال إلى "جزر"[٤٩] فى الجنوب الغربى، ولكن "لبعايو" Lab'ayu، الشيخ المحلى خلال حكم كل من "أمين - حوتب" الثالث و"أخناتون" فشل، مع الأسف، فى خدمة المصالح المصرية، الأمر الذى أدى إلى طرده من منصبه[٥٠]. ومع كل ذلك كان الضرر قد حدث، وصار فى وسع الـ "عابيرو" أن يروحوا ويجيئوا بحريتهم حول "سيخيم"(= شكيم)[٥١]. وفى الجنوب علَّقت السلطات المصرية حق الابن البكر فى وراثة التركة بشكل كامل، وهذا مؤشر، فيما يبدو، على أن مصر بدأت تولى هذه المنطقة اهتمامًا أكبر، كما نصبت خلفًا أصغر سنًا من بيت "أورشليم"، وهو "عبدى - خيبا" Abdi-khepa[٥٢]. ولقد دافع عن نفسه، مرات عديدة، إزاء كل تشويه يلحق بصورته فى البلاط. وكان ينكر بشدة أنه "خزانو": ḫazānu، على اعتبار أن هذا منصب أدنى، بكل وضوح، من وجهة نظره[٥٣]. لا. فهو "وأو" we'u (بالمصرى "وعو": w'w) أى "جندى"[٥٤] وكما سبق لى أن برهنت فى موضع آخر[٥٥] فإن هذا ينبغى أن يُفهم على أن "عبدى - خيبا" كان أحد أبناء الرؤساء الذين يرسلهم ذووهم إلى مصر حيث يتلقون تدريبًا عسكريًا هناك. فلقد أصبح وقت ذاك "جنديًا مصريًا" وهو ما يدعوه للفخر. وبالتالى فإن "عبدى - خيبا" يركز، بصورة غير واعية على أهمية الإدارة المصرية لـ "أورشليم" فيما يتعلق بتخطيطها الإستراتيجى: لم يكن لأى سلطة عسكرية أن تتخلى عن المدينة[٥٦]. وتتمثل أكثر الحجج إقناعًا، يستطيع المرء أن يأمل فى الركون إليها فى القول بأن "أراضى "أورشليم" ضاعت"، فإما أن يرسل المصريون حامية إليها أو يعودوا به إلى مصر. فـ "أورشليم"، "مدينة نصب الفرعون فيها اسمه"، وهذه إشارة لا لبس فيها إلى وجود صادود/ لوح مصرى منصوب فى المدينة[٥٧]. وحقيقة الأمر أن مبنى مصريًا (هل معبد؟) ربما يكون قد قام يومًا سواء داخل نطاق الأسوار الأصلية للمدينة أو شمالى بوابة دمشق القائمة فى الوقت الحاضر[٥٨].

وبناء عليه يبدو واضحًا أن الإدارة الفرعونية استشعرت تخوفًا عميقًا من احتمال اتخاذ العناصر المناوئة للمصالح المصرية المرتفعات الواقعة فى أواسط البلاد كقاعدة انطلاق لها. فمن هنا يستطيعون الإغارة ، دون أن يلحقهم عقاب على المناطق المنخفضة كما يستطيعون تهديد الطريق الساحلى.(وفى هذا السياق يستبد الاستياء

بـ "عبدى - خيبا" إزاء مد "عشقلون" و"جزر" و"لاخيش" - وهى نفس المدن التى كان يسعى إلى ضمان وحدتها الإقليمية - ليد العون إلى الـ "عابيرو")[٥٩] وكانت مشيخة "سيخيم" (= شكيم)، التى وضع المصريون ثقتهم فيها، قد أثبتت أنها مشاكسة صعبة المراس، ولكن "أورشليم" وقفت فى سائر الاحتمالات، وقفة الصديق الوفى وقد أحسنت العائلة الحاكمة الرد على الثقة التى وضعها فيها المصريون. ومع ذلك فمن هذه المرتفعات القاحلة، حيث كان لا يزال فى وسع المرء أن يتمتع بوجود متحرر، إلى حد كبير من السلطة الإمبراطورية، قامت الحركة الشعبية الهائلة عند نهاية العصر البرونزى المتأخر بتسللها المثير[٦٠].

أعطى المجتمع المصرى النيلى، منذ فجر الزمن أفضلية عملية وأخلاقية لحياة الاستقرار، وصب الاحتقار على الحركة التى لا يحكمها ضابط ولا رابط للناس. فالفعل المصرى $\check{S}^3s$ (وينطق على وجه الاحتمال "شاس") كان يعنى بصفة رئيسية أن ينتقل سيراً على القدم، وكان غالبًا ما يُستخدم للرحلات أو للحركة اليومية للشمس، وهى استخدامات بريئة (= محايدة) كلها إلى حد كاف[٦١]. ولكن الفعل اكتسب منذ وقت مبكر للغاية ظلالاً خاصة تشمل السرعة والتخفى: فالرسل يسرعون سيراً على أقدامهم إلى أماكن موغلة فى البعد، والساخطون يتخفون هربًا من العقاب[٦٢]. وقد استخدم المصريون صيغة اسم الفاعل من هذا الفعل منذ الأسرة الخامسة على الأقل فى الدلالة على أولئك "الجوالين"، الذين أخذ المصريون يتعودون على الاتصال بهم فى الشمال، وسرعان ما أصبحت هذه الصيغة تحمل مضمونًا مجتمعيًا . ونتج عن ذلك أن أصبح اسم "شاسو" يطلق على المجموعات الجوالة، التى نستطيع أن نسميها "البدو"، مع الفرق البالغ الأهمية بينهم وبين نظرائهم المحدثين وهو الفرق الذى يتمثل فى افتقارهم إلى الجمل[٦٣]. وكان خروجهم على القانون ونزوعهم الشرير لشن الغارات وراء نشوء فعل مشتق من هذا الاسم فى اللغة الكنعانية (والعبرية): "شاساه" بمعنى "أن ينهب ويسلب"[٦٤].

نقابل اسم "الشاسو" فى النصوص المصرية اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة وحتى فترة الانتقال الثالثة. ولكن اسمهم يرد فى أغلب الأحوال فى قوائم أسماء الأعلام المكانية التى تتسم بالتعميم، حيث لا يساعد السياق، إلاّ قليلاً، على تعيين مواقعها.

ولكن هناك قوائم ترجع إلى "صوليب" Soleb و"عمارة" Amarah وينتهي أصلها في نهاية المطاف إلى القرن الرابع عشر(٦٥) توحي بتركز أصلي لمستوطنات "الشاسو" في جنوب الضفة الغربية في سهول "مؤاب" وشمال "إيدوم"(٦٦) وهنا نستطيع التعرف على ستة أسماء بصفتها واقعة في "بلاد الشاسو" وهذه الأسماء تشمل "سعير" Se^cir (="إيدوم")،(٦٧) و"لبان" Laban (على وجه الاحتمال "لبونا" Libona جنوبي "عمان")(٦٨) و"سمعات (قارن الشمعيون، وهي قبيلة من قبائل القينيين: سفر أخبار الأيام الأول ٢: ٥٥) و"وربر" Wrbr (وادي "حسا" Hasa على وجه الاحتمال)(٦٩) وفي مواضع أخرى من النصوص التي ترجع إلى الأسرتين التاسعة عشر والعشرين يضع الربط الدائم بين هؤلاء "الشاسو" وبين "إيدوم" و"عربة" (= تمنة) تعيين هويتهم في القوائم الأقدم بعيداً عن الشك(٧٠).

وينطوي تحديد مواقع "بلاد الشاسو" في مناطق "سعير" الجبلية شرقي "عربة" على نتيجة مثيرة للاهتمام لاسم من الأسماء الواردة في قوائم "صوليب" و"عمارة" - "يهوه Yhw في بلاد الشاسو". ولمدة نصف قرن استمر الجميع يقرون، بصفة عامة، أننا نقف هنا أمام اسم رباعي الحروف هو اسم الإله الإسرائيلي "يهوه"(٧١)، وإذا كان ذلك صحيحًا، وهو صحيح دون شك، فإن هذا النص يعد أغلى إشارة إلى موضع ذلك الجيب الذي كان ساكنوه يعبدون هذا الإله خلال أواخر القرن الخامس عشر. وبينما يكون من الخطأ أن يقفز المرء إلى نتيجة مفادها أن "إسرائيل"، كما نعرفها من فترة القضاة وأوائل المملكة، كانت موجودة بالفعل في "إيدوم" في ذلك الوقت، فإنه لا يستطيع إلاّ أن يتذكر الفقرات المتعددة التي وردت في التقاليد "التوراتية" اللاحقة التي تصوّر "يهوه" "قادمًا من سعير"، وخارجًا في الأصل من "إيدوم"(٧٢). وتكمن النتيجة المنطقية الوحيدة في أن البحث عن أحد العناصر الرئيسية في عملية الاندماج اللاحقة التي شكلت إسرائيل، وهو العنصر المكون الذي بدأت معه عبادة "يهوه"، يجب أن يتجه إلى قلب قبائل "الشاسو" الذين سكنوا "إيدوم" بنهاية القرن الخامس عشر ق.م.

في الوقت الذي يتعين فيه تحديد موطن "الشاسو" في "مؤاب" و"إيدوم"، فإن دروبًا عديدة قادت هؤلاء البدو على أساس موسمي طلبًا للمرعى، والخدمات وقطع الطرق(٧٣)، إلى مناطق أخرى في شرق البحرالمتوسط. وفي اتجاه الشمال كان هناك درب طبيعي،

قائم منذ العصر البرونزى الوسيط، يقود عبر دمشق إلى شمال سوريا[٧٤]، وخلال وادى الأردن و"يزريل" كان بوسع الرحّال أن يصل إلى الساحل وقلب سوريا. وعود على بدء، عبر الأردن ووديان من نوع "الفارعة" و"قيلت" Qilt كان فى طوعه أن يصل إلى المرتفعات الوسطى لفلسطين بسهولة معقولة. وغربًا وفّر واديا "عربة" و"النقب" دروبًا سهلة العبور، عن طريقها تمكّن "الشاسو" من الوصول إلى دلتا نهر النيل.

حقًا ظل "الشاسو" يحومون بُعيْد هامش السيطرة المصرية، إلاّ أنهم ظلوا باستمرار بمثابة شوكة فى جنب الفرعون[٧٥]، ولقد انفجروا بقوة فاحشة الأذى على وجه استثنائى قبيل بداية الأسرة التاسعة عشرة عبر وادى "عربة" إلى "النقب" وشمال سيناء، قاطعين بذلك، طريق مصر الساحلى. ومع أن الفرعون "سيتى" الأول لم يجد صعوبة تذكر فى إجبارهم على التقهقر بعيدًا[٧٦]، إلاّ أن "الشاسو" شرعوا يطرقون فى الاتجاه الغربى ممرًا جديدًا نحوالحدود المصرية، ولقد ذكرت أكثر من وثيقة أنهم شوهدوا خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر على طول حدود "السويس"[٧٧]. فمن هنا كانوا يسوقون أنعامهم، فى هجرات جماعية وفقًا لنمط موسمى كى يصلوا إلى عيون المياه فى "وادى طوميلات". وكان هناك درب ثانٍ، يسهل اجتيازه، جذبهم، يقع جنوبى الدلتا الشرقية، والإشارة إلى "شاسو المياة المعكوسة"[٧٨] وفى وقت لاحق ألمستوطنات بمصر الوسطى فى "أطفيح"[٧٩] و"سبيرميرو" Spermeru[٨٠] تبرهن على أن هذا الدرب كان يمر خلال "وادى الشونة" و"وادى عربة" كى يصب أمام الفيوم.

شكّل وجود عناصر مماثلة، فى البلاد الجبلية الشمالية حول "سيخيم" (= شكيم) تهديدًا لـ "بيت شان" وكان الدرب الذى يمر بين الطريق الساحلى والأردن معرضًا بالفعل للخطر مع بدء حكم الفرعون "سيتى" الأول. وبينما كان فى وسع هذا الفرعون، مرة أخرى، أن يخمد الاضطرابات، فإن سجلاته تشى بوجود مجموعة مناوئة قوية (يطلق هو عليها اسم الـ "عابيرو") فى البلاد الجبلية، حيث عاثت فسادًا وتخريبًا[٨١]، قبل ثلاثة أجيال، قبائل "لابعايو". ويتساءل المرء عن المدى الذى بلغته هذه العناصر فى تحريضها المدن الكنعانية فى إقليمىْ "إزداريلون" و"الجليل" على الانضمام للتمرد ضد مصر غداة "الهزيمة" التى نزلت بالفرعون "رعمسيس" فى "قادش"[٨٢].

يستطيع المرء أن يفسر رد فعل المصريين إزاء "الشاسو"، إلى حد كبير فى ضوء الاهتمام المصرى الأولى بالحفاظ على الدروب إلى الشمال مفتوحة. ففى نهاية العقد الأول من الحكم أعاد الفرعون "رعمسيس" الثانى غزوه للساحل، وعاد المصريون للظهور على مشارف "بيبلوس"[83]. وفى وقت لاحق من حكمه، لابد وأن تكون قد جرت حروب "رعمسيس" الثانى فى الضفة الغربية، وهى الحروب التى نجمت عن روح العداء الذى تكنه عناصر معينة هناك، كانت تسعى إلى حرمان مصر من الوصول إلى الدرب الشمالى ـ الجنوبى[84]. وفى نفس السياق يتعين علينا أن نرى الهجوم الذى شنه الفرعون "رعمسيس" على "عشقلون" التى اقتاد المصريون منها الأسرى من "الشاسو"، كما يتضح فى الجداريات[85]. ولأسباب متعددة[86] ينبغى تعيين استيلاء المصريين على "عشقلون" فى وقت متأخر من حكم "رعمسيس" الثانى ، وبالتأكيد بعد المعاهدة المصرية ـ الحيثية التى أبرمت فى السنة الحادية والعشرين من حكمه، وينبغى النظر إليها بشكل صريح على أنها جزء من إستراتيجية شاملة تنطوى على توغل "رعمسيس" فى جنوب الضفة الغربية. وبناء عليه فسجل "الشاسو"، خلال السنوات الستين التى تبدأ من حوالى ١٣٢٠ حتى ١٢٦٠ ق.م. لا يخرج عن التحريض على الاضطراب فى موطنهم الأصلى فى السهول، والتحرك غرباً عبر وادى "النقب" نحو مدن كبرى على امتداد "الطريق البحرى" Via Maris وفى رأيى أن ظهور كيان يدعى "إسرائيل" بعد ذلك بجيل واحد تحت حكم الفرعون "ميرى ـ ان ـ بتاح" حاملاً كافة سمات "جيب" يقطنه "الشاسو" فى مرتفعات "إفرايم"[87] على وجه الترجيح، ليس ظاهرة منبتة الصلة بما نعرض له الآن، كما أن الحضور المدعوم للمصريين فى مدن من نوع "بيت شان" و"دير العلا" Deir'Allah يتعين النظر إليه فى ضوء استقرار هؤلاء "الشاسو" فى الآونة الأخيرة فى المرتفعات القريبة[88].

مجتمع الشاسو/ مجموعة إسرائيل:

لما لم يكن هناك سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأن "الشاسو" كانوا يعرفون القراءة والكتابة ـ يقدم سفر "القضاة" ٨: ١٤ انعكاساً واقعياً لهذه الحقيقة ـ فليس هناك سبب

يجعلنا نتوقع العثور على وثائق معاصرة منهم تصف أحوالهم المعيشية. وعوضًا عن ذلك يتعين علينا أن ننظر إلى "الشاسو"/إسرائيل في القرن الثالث عشر ق.م. من خلال مجاليْ رؤية متباينين، أحدهما معاصر وإن كان غير متعاطف، والثاني يفصله عن الفترة رهن الحديث عدة قرون.

لم تلزم الأسفار الخمسة وسفرا "يشوع" و"القضاة" الصمت تجاه إسرائيل الوليدة، ومن هذه المصادر نستطيع تكوين صورة لما كانت عليه الظروف الاجتماعية، التي صُوِّرت في وقت لاحق، في أوقات سابقة على هذا التصوير، أي خلال وبعد احتلال الأرض مباشرة. وكان مسيطرًا على المفاهيم البدائية لهذه الجماعة فكرة العقد (=العهد) بين الإله "يهوه" إله "إسرائيل" والتجمع البشري (وليس الفرد: فبعيداً عن الجماعة ليس للفرد أي حقوق) والسيادة تنحصر في "يهوه" دون الجماعة (القضاة. ٨: ٢٣)،، وبينما تنقض الجماعة العقد (=العهد) المرة بعد المرة فإن "يهوه" لا ينقضه أبدًا. فالقواعد التي يضعها، من جانب واحد في حقيقة الأمر - ولم يكن هناك رأي للطرف البشري في أي بند من بنود العقد - كانت "دراكونية" (نسبة إلى مشرع أثيني سن قوانين بالغة الصرامة في سنة ٦٢١ ق.ع.م. المترجم.) لأقصى درجة، وإرادة الرب بربرية. والمجموعات الأجنبية التي يُظن أن أعمالها أو مجرد وجودها يناوئ إسرائيل يُرسلون ذبحًا إلى الإبادة نزولاً عند مشيئة "يهوه" ("الخروج" ١٧: ١٤ ، "العدد" ٣١، "صاموئيل" الأول: ١٥: ٣) وحتى التآخي مع الأجانب يجلب الوباء ("العدد" ٢٥: ٩، ١٨) وكل من يخالف يحرقه "يهوه" ("العدد" ١١: ١-٣، ١٦: ٣٥) وكل من يشكو يضربه الرب بالطاعون ("العدد" ١١: ٣٣، ١٤: ٣٧، ١٦: ٤٩)، أو يرسل عليه الحيات السامة ("العدد" ٢١: ٦) وترك أداء العبادات، حتى ولو كان ذلك عن سهو، يسلم للموت ("الخروج" ٣٢: ٣٥، "العدد" ١٥: ٣٧-٤٠).

واحتاج الأمر إلى زعيم يجري اصطفاؤه على أساس "الغرض الخاص" :ad hoc كي يفسر ويطبق إرادة الرب، نظرًا لسريان الإحساس، في غالب الأحيان، بأن هالة "يهوه" السحرية كانت تحف خطاه[٨٩]. ومع استمرار الإيمان الذي لا يسنده واقع بأن الرب هو الذي اصطفاه، إلاّ أن العرض (=الترشيح) يقدمه "شيوخ الجماعة" ("القضاة" ٢١: ١٦، قارن ١١: ٥ و"صاموئيل الأول ٨: ٤)، ويصدِّق "الشعب" على هذا الاصطفاء

("القضاة ١١: ١١) وهذان الحدان يرسمان صورة تلك الظاهرة العامة فى المجتمعات البدائية فى الشرق الأدنى القديم: الجماعة القبلية التى تضم الذكور القادرين على حمل السلاح والآباء الذين يترأسون قبائلهم، كتعبير عن السلطة التى تشرّع القوانين وتصدّق على الأحكام. وفى غالب الأحيان كان الزعيم يصطفى فى مواجهة أزمة ذات أبعاد عسكرية، وبالتالى ونظراً لأنه مفعم بروح الرب فهو يقود الجنود الذين قدمتهم القبائل فى المعركة ("القضاة" ٢: ١٦ وفى مواضع مختلفة هنا وهناك، ١٠: ١٨) وفى الغالب تبدو سلطته مكافئة لسلطة الدكتاتور فى مطلع الجمهورية الرومانية، وعندما "ينفخ فى النفير" ("القضاة" ٣: ٢٧)، يصير لزامًا على الشعب أن يهب للاجتماع ("صامويل" الأول ١٠: ١٧) ومع ذلك فهذا الزعيم يشار إليه باسم مدنى هو "قاضى"، وفى بعض الأحيان نجده يصدر الأحكام حقًا (قارن "القضاة" ٤: ٤-٥، "صامويل" الأول ٧: ١٥-١٦). ووصف القاضى بين الحين والآخر بأنه "رائى" ("صامويل" الأول ٩: ١١-١٣) أو "ناصرى" طويل الشعر (=لم يلمس الموسى رأسه)("القضاة" ١٣: ٥، وقارن ٤: ٢) يطرح عنصراً يلفه السحر الشخصى أو الوجد، المشتقان من العبادة.

وعلى النقيض من "القاضى" ونهجه الدكتاتورى، فإن تسيير الشئون القبلية يوماً بيوم يبدو أرقى قليلاً. فالمدن تحصى ملاكها ومواطنيها الأغنياء ("قضاة" ٩: ٢) ويحكمها "قضاة" ("ساريم" "قضاة" ٤: ١٥، ٨: ٦ ، ٩: ٣٠) ولم تكن القرى محاطة بأسوار (قارن "تثنية" ٣: ٥، "حزقيا" ٣٨: ١١)، و"المشرعون" يقودون الجنود، وهؤلاء يزحفون تحت عصا الكاتب scribal rod ("قضاة" ٤: ١٤) و"النواب" (=الوكلاء) (paqid) حاضرون كشهود ("قضاة" ٩: ٢٨).

يصعب علينا أن نقرر ما إذا كانت هذه الصورة تكشف عن وحدة زمانية مكانية متأصلة، أو ما إذا كانت تركيبة تتألف من عناصر تنتمى لأماكن وأزمنة متباينة[٩٠]. ففى بعض التفاصيل تبدو شبيهة لما قد يتوقعه المرء من مجتمع فلسطين عند مطلع العصر الحديدى، ولكن هذا الأمر قد لا يعنى أكثر من طول عمر، وعالمية سمات معينة تشترك فى حملها كثير من المجتمعات البدائية فى المنطقة على امتداد الزمن.(قد تكون الطبيعة الفظة لإلههم "يهوه" حيلة حاذقة تهدف إلى التأكيد على عدم انصياع إسرائيل القديمة للأوامر، وتعزيز تشريع الإصلاح الذى عرفته إسرائيل فى وقت لاحق)

ولا تجد ألقاب من نوع "شوفيت" أى "قاضى" أو "رائى" أى تأييد لها (حتى تاريخه) فى مجموعة المصطلحات المعاصرة،[٩١] رغم أن "رأس" أو "رووش" (بالعبرى) بمعنى "رئيس" الذى أطلق، ذات مرة، على "يفتاح" ("قضاة" ١٠: ١٨، ١١: ٨، وقارن "قاسين" qasin "زعيم"، "قضاة" ١١: ٦) يبدو شبيهًا، على نحو يكتنفه الغموض، بالـ "رئيس": "عا" (بالمصرى) عندما تتحدث النصوص المصرية عن مجتمع "الشاسو". ومن جانب آخر يبدو المجتمع الحضرى الذى يصفه سفر "القضاة" أكثر شبهًا بالمجتمع الحضرى (= مجتمع المدن الصغيرة) فى فترة مملكة إسرائيل، وربما فترة لاحقة أكثر. زد على ذلك أن المفارقات التاريخية تتفشى بغزارة، وهو الأمر الذى يجرد هذا السفر من الجدارة بالتصديق التى ربما يكون المرء قد وضعها فيه يومًا ما. فرغم أن استخدام الحديد كان معروفًا على نطاق واسع فى العجلات الحربية ومختلف الأدوات (قارن "قضاة" ١: ١٩، ٤:٣ ١٣ ، ١٣، قارن "صاموئيل" الأول ١٣: ١٩-٢١) إلاّ أن التاريخ يقول إن الحديد لم يحل محل البرونز حتى دخلنا وأوغلنا فى عصر الملكية[٩٢]. وكذلك الجمال التى نجدها فى كل مكان - والحقيقة أن الحبكة تعتمد على وجودها أى وجود الجمال، فى قصة "جدعون" - (قارن "قضاة" ٦: ٥، ٧: ١٢، ٢٦)، ومع ذلك فالجمال لم تظهر فى الشرق الأدنى كحيوانات حمل مستأنسة حتى القرن التاسع ق.م.[٩٣] ومؤلف الأسفار يعرف ملوك "مؤاب" ("قضاة" ٢: ١٢-٣٠، ١١: ٢٥)، و"عمون" ("قضاة" ١١: ١٣، ٢٨) مع أن هاتين المملكتين لم تأخذا شكلهما كمملكتين إلاّ بعد أن أوغلنا فى الألف الأول ق.م، كما سبق لنا القول. ويشير هذا المؤلف نفسه أيضًا مرارًا إلى "صيدا" - دون "صور" - كمدينة قوية تستطيع توفير الحماية، كانعكاس واضح ليس للعصر الحديدى حيث ذهبت السيطرة لـ "صور"، ولكن إلى الفترة التى شهدت هيمنة "صيدا" خلال العصر الفارسى[٩٤]. وتبدو أيضًا قائمة الآلهة الوثنيين، الذى تعين على "إسرائيل" أن تحاربهم أشبه بالأعداء المقدسين الذين عرفهم عصر "إيليا" (قارن "قضاة" ١٠: ٦) وكذلك الأمر بالنسبة للأبطال الأسطوريين، فهم غارقون فى غياهب الماضى إلى الحد الذى يتعذر معه تفسير أسمائهم أو فهم هوياتهم[٩٥].

يختلف الوصف المصرى المعاصر لجيوب "الشاسو" فى المرتفعات نوعًا ما عن ذلك الوصف الذى يوفره لنا سفر "القضاة" للإسرائيليين القدماء. ولقد كان عدد الرعاة الذين

يعيشون على الترحال داخل نطاق الضفتين، هذه الضفة والضفة الغربية، لنهر الأردن يشكل نسبة كبيرة من تعداد السكان اعتباراً من القرن الرابع عشر وحتى الثاني عشر ق.م. فكانوا يمثلون بالفعل فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر حوالى ٣٦ بالمائة من الأسرى الفلسطينيين الذين جلبهم معه الفرعون "أمين - حوتب" الثانى، ومع أننا لا نستطيع أن نأخذ هذا العدد كقائمة إحصاء، إلاّ أنه يمثل قطاعاً عرْضياً للسكان فى تلك المنطقة[٩٦]. فالوثائق المصرية تصفهم بانتظام كموزعين بين "عشائر"[٩٧] تخضع كل عشيرة منها لـ "رئيس" (عا بالمصرى)، وذلك تمييزاً لهم عن سكان المدن والدول التى احتفظ المصريون لرؤسائها بلقب "الكبار" ومفرده "كبير"(="وير").[٩٨] ولم تكن عضويتهم فى "العشائر" مانعة بمعنى مقصورة عليهم دون غيرهم: يستطيع المنبوذون والسواقط أن ينضموا إليها مثلهم، ويبدو أن طقساً يشمل التآخى فى الدم blood-brotherhood كان يُقام للتصديق على هذا الانضمام[٩٩]. ولكن نزوعهم الشرير نحوالتناحر الذى لا يتوقف إلاّ بدمار طرفيه جلب عليهم أوصافًا تنم عن الازدراء من جانب المصريين[١٠٠]. وغنى عن الذكر أن صراعهم مع الفرعون، وإلى حد أقل، مع القائمين مقامه (= نوابه) فى الولايات الكنعانية التوابع لم يكن ناجمًا عن معارضتهم للنظام الضريبى أو التجنيد[١٠١] - فمصر كانت أدنى قدرة وأقل اهتماماً ببسط سيطرتها عليهم - بل عن سمعتهم التى يستحقونها عن جدراة كنهابين سلابين وقاطعى طرق، لا تسمح شريعتهم برحمة واسعة، إذا سمحت أصلاً، لضحاياهم[١٠٢]. وكانوا يعيشون فى خيام[١٠٣] فى مناطق جبلية[١٠٤]، بعيدة عن الحضر، حيث تجعل الغابات والضوارى من السفر مجازفة لا تبوح بعقباها[١٠٥]. وكان المصدر الرئيسى للثروة يتمثل فى مواشيهم[١٠٦] كما كانوا مشهورين أيضًا بصمغهم أو لبانهم العطرى، الذى كانوا يعثرون عليه، على وجه التقريب، فى البرارى[١٠٧]. ولكن حياتهم كانت تبدو لهم، بالضرورة، "إسبرطية" (= خشنة) إلى حد بعيد جعل المصريين يشيرون إليهم بازدراء بصفتهم "يعيشون كالضوارى المتوحشة"[١٠٨].

عاشت مستوطنات "الشاسو" فى المرتفعات الفلسطينية، أو فى إسرائيل المبكرة، كما ينبغى علينا، دون شك، أن نطلق عليها، وأيًا كانت المجموعة التى تتصل بهم فى

تلال "يهودا" إلى الجنوب، حياة تتسم بمثل تلك البساطة البدوية فى البداية، إلى الحد الذى حال دون أن تترك، إلاّ فيما ندر، أثراً فى السجل الأثرى[١٠٩]. ولا يخلو من مغزى أنهم عندما شرعوا عقب نهاية القرن الثالث عشر ق.م. فى اكتشاف الحياة فى القرى،[١١٠] قلدوا فى الجانب الأكبر أنماط المستوطنات ومعمار البيوت، التى استعاروها من المدن الصغرى الكنعانية فى الأراضى المنخفضة (= السهول والوديان)[١١١]. وتكشف المشغولات اليدوية التى ترجع إلى التجمعات الثقافية عن الاستمرار على امتداد القرنين الثالث عشر والثانى عشر، وهى تشير، بالمثل، إلى استعارة الأساليب والمعايير التى كانت موجودة فى تلك البلاد[١١٢]. وكذلك الأمر بالنسبة للأنماط الاقتصادية التى نستطيع رصدها عندهم فى مرحلة التحول إلى حياة الاستقرار، فلقد كانت منقولة نقلاً عن نماذج أصلية كنعانية[١١٣]، وهناك احتمال بأن الحدود القبلية تعكس فى بعض الحالات أقاليم كانت سابقة فى الوجود لدول كنعانية أقدم[١١٤]. ومع ذلك، فهناك سمات مميزة تظهر بين القادمين الجدد، مثل نزوعهم نحو تعيين مواقع أضرحتهم بعيداً عن مستوطناتهم، وهو الأمر الذى يؤكد الانقطاع مع تقاليد العبادات السابقة للكنعانيين[١١٥]. وهناك ملمح آخر لحياة "الشاسو"/الإسرائيليين الدينية ينعكس فى ظاهرة إقامة موقع واحد فى الخلاء لأداء العبادات، يكفى لخدمة عدد من القرى المجاورة كمكان مركزى للصلوات. زد على ذلك أنه يبدو ألاّ نكران هناك، للحقيقة التى تقول إن إسرائيل، مالت إلى تجنب أى تصوير فنى للرب على عكس ما كان يفضِّل الكنعانيون، رغم أن هذه الحقيقة لا تزال تستند حتى الآن على حجة نابعة من الصمت (= دليل بالسلب) ولا يمكننا مقارنة هذه التقاليد المعادية للنحت والتصوير إلى حد كبير مع الـ "موتيف" المعروف باسم "الضريح الخالى" فى اللاهوت الشمسى، ولكن بكراهية الصور والتماثيل مما نقابله عند بعض الجماعات القبلية فى شبه جزيرة العرب[١١٦].

لكنه من الجدير بالذكر، أنه فى الوقت الذى قد يكون الكنعانيون قدموا فيه، دون أن يقصدوا إلى ذلك، نماذج يستطيع الآخرون أن ينسخوها أو ينفروا منها، إلاّ أن مدنهم سواء فى المناطق المنخفضة أو الساحل كانت عاجزة، تماماً مثلما كان المصريون على بسط سيطرة سياسية فعالة على المرتفعات الفلسطينية، وليس هناك أى دليل على

أنهم رغبوا فى ذلك. وفى عصر "أخيتاتون" (= العمارنة) تعرضت مدن مثل "عشقلون" و"جزر" و"لاخيش" لضغط من هذه المرتفعات كى ينفذوا إرادتها[١١٧]، وتحت ظل حكم الفرعون "سيتى" الأول كانت مجموعات من نفس هذه المرتفعات هى التى هبطت كى تقوض الوحدة الإقليمية لكل من الساحل والوادى. وخلال العقد الأول من حكم الفرعون "رعمسيس" الثانى بذلت المدن الكنعانية على امتداد الساحل و"الجليل"، محاولة متواضعة نحو وضع إجراء من إجراءات الإرادة الحرة موضع التنفيذ، ولكن هذا الإجراء كان موجهًا ضد مصر ذاتها، وليس ضد سكان المرتفعات. وبهزيمة الكنعانيين على أيدى قوات الفرعون "رعمسيس"، ضعفت شوكتهم أكثر من ذى قبل. وبعد سنة ١٢٠٠ ق.م. وعندما اجتاحت شعوب البحر الساحل، وكانت "إسرائيل" حاضرة، وراسخة فى حضورها، كان الكنعانيون قد انتهوا كقوة سياسية[١١٨]. وكذلك الأمر، من الناحية الفعلية، بالنسبة للإمبراطورية المصرية فى إطار المملكة الحديثة.

الهوامش

(١) E.g., the "Land of Ramesses" in Gen. 47:11 and "Ra'amses" (the city) in Exod. 1:11 and 12:37 (انظر D. B. Redford, VT 13 [1963], 401-2; idem, in A. F. Rainey, ed., Egypt, Israel,Sinai [Tel Aviv, 1987]; " the Spring of Menephtoah (Merenptah)," in Jos. 15:19 (J. Simons, The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament [Leiden, 1959], 140).

(٢) See H.Gautier, Le Livre des rois d'Égypte (Cairo,1914),3:73-74.يقف وضع اسم "رع" بصفة عامة، فى بداية أسماء مصرية كثيرة وراء موضعه الخاطئ فى الكنية المركبة الحالية: "سيسى-رع"، وقد كانت فى الأصل "سيسى"، وهى التى أدت إلى ظهور أسماء من قبيل "سيسوسيس" و"سيسوستريس" فى اللغة اليونانية، على نحوما برهن، بشكل مقنع، "جاستون ماسبيرو" فى:

JdS (1901),593ff.,665ff.;idem, Histoire ancienne des peuples de l'Orient (Paris,1898),2:267,n.2.

مع الأسف اكتسحت، اعتراضات "زيته" الضعيفة، مع لغتها الجازمة، وتفضيله لـ "سينوسرت" كبديل لـ "سيسوستريس"(ZÄS 41 (1901),54-55;idem,Sesostris(Leipzig,1900) كافة الآراء السابقة عليها، وأصبحت الآن بمثابة ركن من أركان الإيمان. قارن:

A.B.Lloyd,Herodotus, Book II A Commentary (Leiden,1988),3:16-37. Attempts to find "Sisera" in Philistine or Luwian onomastica(R.A.S.MacAlister, The Philistines : Their History and Civilization (Chicago,1965),43;W.F.Albright, Yehweh and the Gods of Canaan (New York,1968),251,n.127)

على ما يوجب الاقتناع. واستخدام "الألف" فى الصيغة العبرية، مقابل "العين" فى الأصل المكتوب باللغة المصرية لا يشكل مشكلة عويصة، فـ "العين" فى اللغة المصرية كانت ضعيفة إلى درجة محزنة.

(٣) M.C.Astour,JBL. 84 (1965),422-25.

(٤) انظر)See the apposite remarks of R.E.Brown,The Critical Meaning of the Bible (New York,1981) الملاحظات وهى فى محلها لـ:)

(٥) Cf.H.H.Rowley, From Joseph to Joshua (London,1950),57ff.

(٦) كان عمر "إبراهام" مائة عند مولد "إسحاق"(انظر سفر التكوين الإصحاح ٢١ آية رقم ٥، وكان "إسحاق" فى الستين من عمره عند مولد "يعقوب"(انظر تكوين الإصحاح ٢٥ آية رقم ٢٦)، وكان "يعقوب" قد بلغ من العمر مائة وثلاثين سنة عند نزوله إلى مصر (تكوين إصحاح رقم ٤٧ آية رقم ٩).

(٧) وهوالأمر الذى يترك عشرين عامًا لـ "شاءول" وأربعين لـ "داود"(قارن "الملوك" الثانى الإصحاح الثانى آية رقم ١١)

(٨) Cf.A.Osman, Stranger in the the Valley (London,1987),and D.B.Redford,BAR 15,no.2 (1989),8.

(٩) Cf. Gen.17,21:1-2 (the birth of Isaac);24:1 (the marriage of Isaac);27 (the blessing of Jacob);48:8-20 (the blessing of Fphraim)

لم يكن لأى من هذه القصص أن تستمر على قيد البقاء لولا تلك الأعمار الطويلة بشكل خيالى، وهى الأعمار التى تشكل جزءًا لا يتجزأ من الحبكة.

(١٠) يجد الإيمان التقليدى فى نصوص "النوزى"، كما وفره تعزيز القرن الخامس عشر لتقاليد الآباء إفصاحًا جيدًا عن نفسه عند: J.Albright, A History of Israel (Philadelphia,1959),71-79

(رغم أن "أولبرايت" وتلاميذه وفروا منذ وقت طويل لهذا الإيمان سعة الرواج والانتشار) مع بالغ الأسف أثبتت معظم المقارنات أنها مضللة. قارن:

J.Van Seters,JBL 87 (1968),401-8;idem, HTR 62 (1969), 377-95; idem,Orientalia 44 (1975),585-86;idem,In Search of History (New Haven,Conn.,1983),226 and n.61.

(١١) تدفع الميول الأصولية-المستترة Cripto-orthodox بعض البحاث إلى مزانق مضحكة. وعلى سبيل المثال أقنع "أولبرايت" نفسه منذ وقت طويل بتاريخية شخصية "موسى" وكذلك الأمر أقنع نفسه بالتاريخ المتأخر لـ "الخروج" إلى حد الإدعاء بأن "بطله" ولد فى أواخر القرن الرابع عشر ق.م. ومات حوالى منتصف القرن الثالث عشر، ولم يدخر فى هذا الصدد إلاّ ذكر سنة الصعود إلى العرش (بالنسبة لفرعون "موسى") ومختلف التواريخ المماثلة:

(W.F.Albright,in F.M.Cross,ed.,Magnalia Dei: The Mighty Acts of God {Garden City,N.Y.,1976},122).

ويستند اعتماد القرن الثالث عشر كتاريخ لـ "الخروج" ، بصورة جوهرية، على سفر "الخروج" ١: ١١ مع إشارته إلى مدينة "رعمسيس" - غير أن الإشارات الواردة فى سفر "التكوين" ٤٧: ١١ (أرض) "رعمسيس" وفى "المزامير" ٧٨: ١٢، ٤٣ إلى "تانيس" يعقد الأمر فى الواقع - إلى الحد الذى جعل المحافظين يتشبثون بهذا التاريخ مهما كلف الأمر، أما العقبة التى تتمثل فى تفسير سقوط المقطع "بى" فى "بى - رعمسيس"، مقر حكم "رعمسيس" الثانى، فيجرى تجاهلها والقفز عليها كما لو كانت أمرًا غاية فى التفاهة.

(M.Bietak, in A.F.Rainey,ed.,Egypt,Sinai and Israel {Tel Aviv,1983},26-28)

ومع زيادة الثقة فإن نفيًا بسيطًا لأن يكون "الخروج" ١: ١١ متأخرًا على هذا النحو سوف يكون كافيًا قارن:

M.Görg,Kairos 20 {1978},278;W.H.Schmidt, Exodus,Sinai und Mose {Darmstadt, 1983, 26)

ومع ذلك فاستنادًا إلى أسس واهية مستقاة من لوح/صادود "سيت-ناخت" يصبح فى مقدور "موسى" أن يصير "أمين-موسى" وبالتالى يكون "سيت-ناخت" هو فرعون "الخروج":

(Görg,Kairos 20 {1978},279-80;O.Keel, Monotheismus im Alten Ägypten und seiner Umwelt {Fribourg,1980},281-29 and n.57).

إذا كانت بعض التلميحات فى قصة "الخروج" توحي بأنها أكثر تمشيًا مع "هروب" الإسرائيليين بينما تشير تلميحات أخرى إلى عملية "طرد" لهم، حق لنا أن نوطن النفس على القبول بـ "خروجين" أو حتى أكثر من "خروجين" قارن:

J.J.Rowley, From Joseph to Joshua {London,1950},6-7,146;R.de Vaux, Histoire ancienne d'Israel {Paris,1971},1:439-40;G.W.Ahlstr?m, Who Were the Israelites? {Winona Lake,Ind.,1986}46).

وكل ذلك يدخل فى إطار إرباك الذهن، ليس إلاّ.

(١٢) S.Mowinckel, ASTI 2 (1963), 8;

للاطلاع على مزيد من الأفكار التى تسير فى نفس الاتجاه انظر:

H.Gunkel, Die Religion in Geschichte und Gegenwart (Tübingen,1957-), 2:1353;H.Gese ZThK 55(1958),41-42;G.von Rad, The Problem of the Hexateuh and Other Essays (Edinburgh,1966),170.

(١٣) So S.Hermann, Geschichte Israels2 (Munich,1980),63,78, and passim (وما بعدها)

وانظر ايضًا:

J.M.Miller and J.H.Hayes, A History of Ancient Israel and Judah (Philadelphia,1986),74-79.

(١٤) W.W.Hallo,Biblical History in its Near Eastern Setting (Pittsburg,1980) ,10;J.A. Soggin, Eretz Israel 14 (1978),44*ff.;A.Malamat,ThZ 39 (1983),1-3.

(١٥) Malamat,ThZ 39 (1983),1-3;cf.

التعليقات اللاذعة التى أفصح عنها: N.P.Lemche, Biblische Notizen 24 (1984),94ff.

(١٦) Cf.Van Seters, In Search of History,241;241;Ahlström, Who Were the Israelites? ,24.

(١٧) لمزيد من الاطلاع على "اللاهوت المنفى" انظر ص ٣٩٩ من النص الأصلى.

(١٨) قارن تعريف "فان سيترز" للتاريخ فى كتابه: In Search of History

(١٩) انظر ص ٢٩٩ من النص الأصلى وما بعدها.

(٢٠) انظر:

R.B.Coote and K.W.Whitelam, The Emergence of Early Israel in Historical Perspective (Sheffield,1987);G.R.H.Wright,ZA 78 (1988),157.

(٢١) Cf.Josh.15:13 (Caleb takes Hebron and Debir-from which direction is not specifically stated);

سفر القضاة١: ١٦) وبنو القينى حمى موسى صعدوا من "مدينة النخل"(= قادش) مع بنى يهودا إلى برية "يهودا" التى تقع فى جنوبى "عراد"(كى يستولوا على النقب.د.ريدفورد)

(٢٢) Miller and Hayes, A History,58-63.

(٢٣) قارن الأحجار الاثنى عشر فى الأردن ("يشوع" ٤: ١-١٠)، تفسير اسم المكان "جلجال"(يشوع ٥: ٢-٩) والحفاظ على "رحاب"("يشوع"٦: ٢٢-٢٥) وتفسير اسم المكان "عاى"("يشوع" ٨: ٢٨) وكوم-الأنقاض عند البوابة ("يشوع" ٨: ٢٩)، وتفسير وضع الاستعباد الذى طلبه سكان "جبعون" لأنفسهم من "يشوع"("يشوع" الإصحاح رقم ٩) والأحجار التى دحرجها بنو إسرائيل لإغلاق مغارة "مقيدة" على الملوك الخمسة الذين اختبئوا فيها("يشوع" ١٠: ٢٧) والمذبح الواقع على نهر الأردن ("يشوع" ٢٢: ١٠-٣٤).

(٢٤) Cf.B.S.Childs,JBL.82 (1963),279-92.

(٢٥) Sheshay in Josh.15:14 as a son of 'Anak:Merenptah in 18:15 as the waters of Nephtoah."

(٢٦) The rebuilding of Jericho (Josh." 6:26;cf.I Kings 16:34); "Sojourners" among- th Israelites (مقيمين فى وسط الإسرائيليين)(٨:٣٢-٣٥) .

(٢٧) Cf.Gallaway, BASOR 196 (1969),2ff.;J.M.Miller,in Israelite And Judaean History (Philadelphia,(1977),272;R.Cohen, Kadesh-barnea (Jerusalem,1983); S.Hermann,in Biblical Archaelogy Today (Jerusalem,1985),48; M.Kochavi,ibid.,55.

تبوء المحاولة التى قام بها فى الأونة الأخيرة "بيمزون" نحو إعادة تاريخ "الخروج"(من مصر) و"الغزو" (لـ "كنعان") بحيث تقعان خلال القرن الخامس عشر ق.م.(J.J.Bimson,Redating the Exodus (Sheffied,1978);D.Livingston,BAR 13,no.5(1987),1987) مع الاجتهاد فى سبيل الحفاظ بصورة صادقة، على الإيمان بالتأريخ التوراتى، بالفشل، فى رأيى الخاص، فى أى مواجهة حاسمة أمام الحقائق الصلبة، فضلاً عن أنها تقفز على الصعاب التى تعوق اتساقها.

(٢٨) Cf.Ahlström, Who were the Israelites?,3; see also my discussion on p.290f.

وانظر أيضًا مناقشتى للأمر ص ٢٩٠ من النص الأصلى.

(٢٩) D.R.Redford,JSSEA 12 (1982),55-74.

(٣٠) J.R.Bartlet,PEQ 104 (1972),26-37;C.M.Bennett, in IDB Suppl. (Nashville, Tenn., 1976),251-52;pace J.Sauer, BASOR 263 (1986),10 (Iron IA sherds do not a kingdom make!).

(٣١) انظر فى الأونة الأخيرة تمامًا:

I.Finkelstein,The Archaelogy of the Israelite Settlement (Jerusalem,(1988); F.S.Frick, The Foundation of the State in Ancient Israel: A Survey of Models and Theories (Sheffield,1985);also Ahlsröm, Who were the Israelites?,67.

(٣٢) بين العديد من الكتب والمقالات التى تتناول الموضوع، يجوز للمرء أن ينتقى ما يلى:

G.E.Mendelhall,BA 25 (1962),66-86;idem,The Tenth Generation (Baltimore,1973); N.K.Gottwald,VT Suppl.28 (1975),89-100;idem,The Tribes of Yehweh (New York, 1979);idem,in Biblical Archaelogy Today, 34-46;D.N.Freeman and D.F.Graf,eds.,Palestine in Transition: The Emergence of Ancient Israel (Sheffield,1983);Miller, in Israelite and Judaean History,277-79.

(٣٣) حول دحوض (= جمع دحض) نظرية "الهبة الفلاحية" انظر:
A.H.Hauser,JSOT 7 (1978),2-19;Ahlstr?m, Who were the Israelites?,6-9,19-21; D.Pardee, JNES 48 (1989),147.

(٣٤) KRI IV,19.

(٣٥) See p.82f.

(٣٦) See p.278f.

(٣٧) M.Liverani, The Politics of Abdi-Ashirta of Amurru (Malibu,Calif.,1979);Ahlström Who were the Israelites?,15-16.

(٣٨) كانوا – في حقيقة الأمر – كما يبدو في العبرية : "بيت أب" = "بيوت الأب" انظر:
J.Scharbart,in W.C.Delsman et al.,eds.,Von Knaan bis Kerala (Neukirchen-Vlun,1982),213-37;Miller and Hayes, A History, 91.

(٣٩) وحتى "مجدو" لم تحتج إلى أكثر من مائة رجل!

(٤٠) M.L.Chaney, in Freeman and Graf, Palestine in Transition,75.

(٤١) A.Alt,kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel (Munich,1953), 97ff.;A.F.Rainey,IEJ 30 (1980),250-51;Ahlstr?m, Who were the Israelites?,27;N.P.Lemche,Early Israel: Anthropological and Historical Studies on the Israelite Society before the Monarchy (Leiden,1985).

(٤٢) P.Anastasi,23:ff.

(٤٣) Cf.EA 292:26ff.;49ff.On the cApiru pressure into Shephah, threatening Gezer,see EA 273:18-24.

(حول ضغط "العابيرو" على "شيفيلاه" وتهديهم لـ جزر" انظر)

(٤٤) انظر ص. ٢٠٨ من النص الأصلي.

(٤٥) T.Ishida, The Royal Dynasties in Ancient Israel (Berlin,1977),129.

(٤٦) Cf.EA 253:11-15.

(٤٧) EA 244.

(٤٨) EA 255.

(٤٩) EA 253:21-22.

(٥٠) E.F.Campel,BA 23 (1960),19-20;idem,in G.E.Wright,Shechem (New York, 1965) , 191-92;A.F.Rainey in IDB Suppl.869.

(٥١) EA 27:30-31;289:23-24.

(٥٢) تتضح حقيقة أن الأمر لم يكن أمر استحقاق عن طريق الوراثة، بل كان الاختيار من جانب الفرعون هو الذى حدد شغله لمنصبه فى "أورشليم"، بصورة جلية، فى:

ea 286:12;SEE Moran, in H.Goedicke and J.J.Roberts,eds.,Unity and Diversity (Baltimore,1975),156;cf.Ishida, Royal Dynasties, 155.

(٥٣) عن "الخزانو":Ḫazanu انظر ص ١٩٨ من النص الأصلي. والمصطلح لا يعني أكثر أو أقل من "العمدة" أو "المختار" في الوقت الحاضر.

(٥٤) EA 285:5-6;288:9-11;W.E.Albright,JEA 23 (1937),196.

كلمة "واعو" تعني بالمصري القديم: جندي مشاة عامل دائم (طول – الوقت وليس لبعض – الوقت)

Wb I, 280;A.R.Schulman,Military Rank Title and Organization in the Egyptian) New Kingdom(Berlin,1964)36-37)

وهذه الكلمة تستخدم بصفة عامة في مقابل "الموظف المدني". قارن:(Moran,in Unity and Diver sity)

ويجوز استخدام المصطلح أيضًا كي يعني "الجندي-البحري" انظر:

Urk IV,895:9,996:1;J.E.Quibell, The Ramesseum (London,1898), pl.27:4;) C.Vandier slayan, Les guerres d'Amosis (Brussels,1971},26ff),or of a member of a gang of workmen:J.Černy, A Community of Workmen at Thebes in the Rames-side Period (Cairo,1973),47.

(٥٥) Akhnaten Temple Project,2;17,esp.n.52.

(٥٦) EA 287:49-50.

(٥٧) EA 287:60-61:sakan sumsu...ana dsri? (Moran,in Unity and Diversity,155)

كان المصطلح المصري ليكون العبارة الشائعة بصورة واسعة:

smn rn (r-nhh):D.Meeks, Année Lexicographique (Paris,1982),3:170.For similar thought, see W.M.F.Petrie, Hyksos and Israelite Cities (London,1906),pls.22,28; R.Giveon, Les bédouins Shosou (Leiden, 1972),114-15 and (5).

(٥٨) V.Scheil,RB 1 (1892),116-17;L.H.Vincent and F.M.Abel, Jerusalem (Paris, 1922),774-75,pl.79:12;L.H.Vincent,RB 17 (1920),311-12;W.Ward in F,James, The Iron Age at Beth Shan (Philadelphia,1966),174,figs.98:3,99:2;G.Barkay,7th Archaeological Congress in Israel (Jerusalem,1980),19;

حول إمكانية وجود تقاليد كتابية كنعانية سارية في "أورشليم" انظر:

R.Hess, ZAW 101 (1989),249-65.

(٥٩) EA 287:14-16.

والحقيقة التي تقول إن أراضي "عشقلون" و"جزر" هي التي مدت يد العون للخارجين على القانون، وليست المدن ذاتها، ربما تجعل من هذه الأماكن أقل استحقاقًا للعقوبة من "لاخيش".

(٦٠) See Giveon, Shosou ;D.B.Redford,JSSEA 12 (1982),74,n.155;cf.also Z.A.Kafafi, Biblische Notizen 29 (1985),17ff.

حول مدى مناسبة هذه الأرض للعابيرو انظر:

Liverani, Three Amarna Essays (Malibu, Calif.1979),15.

(٦١) Wb IV,IV,412:5;CT I 212;P.E.Newberry, Beni Hassan (London,1891), 1:pl.41 (A) ;PT 854;A.el-M.Bakir, The Cairo Calendar (no. 86637) Cairo,1966,pl.1,4.

(٦٢) Book of the Heavenly Cow (سفر البقرة السماوية) (66) E.Hornung,Der Ägyptische Mythos von der Himmel-skuh(G?ttingen,1982),6);G.Posener, La première domination perse en Egypte (Cairo,1937),43;P.Posener-Kriéger, Les archives du temple funeraire de Néferirkare-kakai (Cairo,1976),1:203-4.

(٦٣) E.Edel, Altägyptische Grammatik (Rome,1964),sec.227;Giveon, Shosou; CAD,5:55-36;W.G.Lambert,BASOR 160),43: وحول الاستئناس المتأخر للجمل انظر
(ليس أقدم من أواسط القرن التاسع ق.م.)
I.Finkelstein, JNES 47 (1988), 246-47 (مع إشارات);S.Redford, JARCE 26 (1989),6,n.28.

(٦٤) T.O.Lambdin,JAOS 73 (1953),155.

(٦٥) Giveon, Shosou,26ff.(doc.6a).

(٦٦) يعجز وجود أسماء أماكن مركبة على اسم "شاسو"(قارن: ينبوع "شاسو")
E.Edel,Ortsnamenlisten aus dem Toten Tempel Amenophis III {Bonn,1966} 25;M.Görg, JNES 38{1979},199ff.;idem,Biblische Notizen 9 {1979},51-52;idem,ZDPV 98 {1982}, 14;N.Na'aman GM 57 {1982},28-29;S.Ahituv, Canaanite Toponyms in Ancient Egyptian Documents {Leiden,1984},57-58
فى لبنان وسوريا عن إثبات أن "الشاسو" كانوا سكانًا أصليين فى هذه المنطقة مثلما يفعل وجود أسماء قبيلة "الإيروكوا"(الهندية الأمريكية أو الهندية الحمراء) حول "البحيرات العظمى" فى إثبات أن أصل "الأمم الست" راجع إلى هذه المنطقة . قارن:
C.Wissler, Indians of the United States (New York,1940),127-28;J.B.Griffin, The Iroquois in American Prehistory (Ann Arbor,Mich.,1944).

(٦٧) ليس هناك أى سبب بالمرة يدعونا إلى الفصل بين (s'rr) التى وردت فى قائمة "أمارة" عن الكلمة العادية المعروفة: (s'r)
(M.Astour,in M.Görg,{ed.},Festschrift Elmar Edel {Bamberg,1979},17ff.)
فالكتابة باستخدام حرفىْ (r) يتمشى على وجه التحقيق مع الخط المصرى المتأخر، وهو الخط الذى سعى إلى التفريق بين الحرف الساكن (التكرارى) r وبين (r) شبه اللهوى عن طريق رسم الحرف الأخير مرتين:
A.Erman,Neuägyptische Grammatik (Leipzig,1933),209,304,etc,
وبالتالى فإن الأولى: s'rr ليست سوى شكل آخر للثانية: s'r الأكثر انتشارًا.

(٦٨) Giveon, Shosou,76;cf.also Laban's role as the pregenator of the Ammonites and the Moabites:Gen.19.
وأيضًا دور "لابان" كسلف لكل من المؤابيين والعمونيين (= بنى عمون) تكوين: ١٩

(٦٩) أرى فى Wrbr شكلاً من أشكال Ybr الواردة فى قائمة أسماء الأماكن التى خلفها لنا الفرعون "تحوت – موسى" الثالث، والرسم الكنعانى للكلمة وهو "أوبال":و(ubal وبيل باللغة العربية) وهو حوض الوادى الجاف، وهو المستخدم فى هذا القسم من القائمة كاسم يطلق على الوديان الشرقية– الغربية الكبرى التى تبدأ من الأراضى المرتفعة حتى صدع الأردن. انظر:١٢(١٩٨٢)٦٤. D.B.Redfford,JSSEA

(٧٠) Anast.vi 54-56 ("clans of the Shasu of Edom");P.Harris 1,76:9 (Se'ir with the Shasu clans");P.Montet,Kêmi 5 (1937),pl.III("despoiler of the land of the Shasu, plunderer of the mountains of Se'ir ")

"ناهب أرض "الشاسو" سالب جبل "سعير"

for the Shasu in Khkh (Timna), see R.Giveon, JARCE 8 (1969-1970),51ff.

(٧١) B.Grdseloff,RHJE 1 (1947),69ff;S.H.Horn,JNES 12 (1953),201;R.Giveon,VT 14 (1964),239ff;

فى ضوء السياق كان اسم "يهوه" ليعنى على وجه الاحتمال اسم مكان، ولكننا نستطيع أن نلتمس تناظرات لآلهة تشترك مع أماكن فى الأسماء نفسها انظر :

R.de Vaux,The Early History of Israel (London,1978),334;M.Görg,Biblische Notizen 1 (1976),7ff.

(٧٢) R.de Vaux,.Eretz Israel 9 (1968), 28*-32*;E.Lepinsski, in The Land of Israel: Crossroads of Civilization (Louvain,1985),105 and n.37;E.Axelsson, The Lord Rose Up from Seir: Studies in the History and traditions of the Negev and southern Judah(Stockholm,1987); Ahlström, Who were the Israelites? 57-60.Ahlström's skepticism regarding YHW and the location of the land of Shasu" is wholly unwarranted.

ولعل الشكوك التى راودت "أليستروم" تجاه "يهوه" وموقع أرض "الشاسو" لا أساس لها من الصحة بشكل تام.

(٧٣) W.A.Ward JESHO 15 (1972),52-53f.

(٧٤) Redford.JSSEA 12 (1982),55-56.

(٧٥) Urk IV, 36,721(موقع الحملة غير معروف) see Giveon,Shasou,9ff:

تحت ظل الفرعون "أمين–حوتب" الثانى قفزت جيوب الضفة الغربية إلى موقع الصدارة:

ibid.,26ff.:Ward,ADAJ 18 (1973),45-46.

(٧٦) Cf.KRI I,9;

حول حملات الفرعون "سيتى" انظر مناقشاتى على صفحات ١٧٩–، ١٨٠ وكان مفتاح السياسة التى انتهجها الفرعون "سيتى" تجاه الشمال هو الوقائية، وهو الأمر الذى يجيز التشكك فيما إذا كان "التهديد" الذى شكله "الشاسو" أى شىء أخر سوى "حجة" أو تعلل. قارن:

the phrases in R.A.Caminos,Kasr Ibrim (London,1968),pls.39-40.

(٧٧) G. G0yon, Kême 7 (1938),115,pls.19,22;;P.Anast.vi.54ff.;W.Helck JARCE 6 (1967),135ff.;Giveon JARCE 8 (1969-70),51ff.;Redford,JSSEA 12 (1982),74,n. 155.Cf.R.A.Camonos, A Tale of Woe (Oxford,1977),72

(حيث تتكرر عبارة "هم السعيريون" فى سياق يكتنفه الغموض) على أن وجودهم هناك يكاد ألا يشابه أصل "إسرائيل": S.Herrmann,A History of Isreal in Old Testament Times (Philadelphia,1975),61.

بينما فى الدلتا قد يكون المصريون قد فرضوا عليهم الخدمة فى بساتين العنب ومعاصره. انظر:

KRI VII,68(Wine of the Asiatics of "Bird-pool")

(٧٨) Helck,JARCE 6 (1967),135ff.;mw-kd is the Red Sea:see among others,H.Goedicke,GM 10 (1974),13ff.;G.Posener,GM 11 (1974),33ff.;E.Edel, Biblische Notizen 11 (1980),72.

(٧٩) R.A.Caminos, The Chronicle of Prince Osorkon (Rome,1958),144.

(٨٠) P.Wilbour 44:31,36;48:2;61:9

هنا أيضًا استزرعت عبادة "بعلات" تحت هيئة "حاتحور". انظر: Giveon, Shosou,147ff.

حول موقع "سبير- ميرو" Sper-meru انظر:

Gardiner,The Wilbour Papyrus (Oxford,1948),2:chap.1,sec. 5;idem,Ancient Egyptian Onomastica (Oxford,1947),2:110*ff.

(٨١) انظر ص ٢٦٩ من النص الأصلى.

(٨٢) أن تكون هبة شعبية قد أعقبت الهزيمة فى "قادش" هو التفسير الوحيد المقبول ظاهريًا للتصوير المقولب للاستيلاء على المدن التى يرتبط بها شرح فى غالب الأحيان (كما فى حالى "رامسيوم) عن طريق الإشارة إلى "السنة الثامنة". انظر: P-M II2,432 (2);KRI II,148ff.

مع توافر كم معقول من الأدلة، إلاّ أن مسار الحرب المصرية-الحيثية بين السنة الخامسة والسنة الحادية والعشرين لا يزال بحاجة ماسة إلى مزيد من الدرس.قارن:

K.A.Kitchen, Pharaoh Triumphant (Warminster,1982),67ff.

(٨٣) انظر ص ١٨٦ من النص الأصلى.

(٨٤) Kitchen,JEA 50 (1964),47ff.:

يصعب تحديد تواريخ هذه الحملات قبل سنة ٥ (كما يفعل دبليو. هيلك W.Helck VT (1969) 18,478), فى ضوء السياق المعروف للأحداث فى النصف الأول من العقد الأول للحكم. قارن:

D.B.Redford,JEA 57 (1971),110-11.

(٨٥) P-M II2,133 (493).

أن يكون تاريخ الجدارية راجعًا إلى حكم الفرعون "رعمسيس" الثانى وليس إلى حكم الفرعون "ميرى- إن- بتاح"(حسب:

F.Yurco,JSSEA 8 {1978},70;idem,JARCE 23{1986},89-90)

أصبح الآن أمرًا ثابتًا على وجه التقريب. انظر:٣٦ (١٩٨٦) ١٨٨ .-. ٢٠٠ D.B.Redford,IEJ
والسؤال الذى يدور حول ما إذا الفرعون "ميرى- إن- بتاح" قد قهر "عشقلون" هو الآخر (قارن تلك الفقرة الشهيرة الواردة فى صادود/لوح "ميرى-إن- بتاح":

H.Engel,Biblica 60 (1979),373ff.;G.Fecht,in M.Görg, ed.,Fontes atque Pontes (Wiesbaden,1983),106ff.;E.Hornung, in ibid.,22ff.;G.W.Ahlström and D.Edelman,JNE 44 (1985),59ff.;L.E.Stager.Eretz Israel 18(1985),56*ff.)

يظل سؤالاً دون جواب حتى الآن.

(٨٦) IEJ 36 (1986),188-200.

(٨٧) انظر رقم ٨٥

(٨٨) حول "بيت شان" انظر: ص ٢٩٢ من النص الأصلى.

(٨٩) A.Alt, Essays on Old Testament History and Religion (New York,1968), 231-32;A.Malamat,in Cross,Magnalia Dei,152-68.

(٩٠) سارت الدراسات التى تتناول فترة "القضاة"، فى الغالب الأعم، فى نفس الوقت الذى تسجد فيه باتجاه الإقرار بأن إطار سفر "تثنية الاشتراع" فى شكله المعروف بيننا فى الوقت الحاضر هو متأخر زمنيًا بصورة أصيلة، استنادًا إلى فرضية لم يقم عليها دليل بأن المواد الواردة فى ذلك الإطار هى مواد قديمة بشكل أصيل.قارن بين أعمال أخرى:

A.Malamat, in B.Mazar,ed.,The World History of the Jewish People,1 (Tel Aviv,1971), 3:134

("مع كافة مواطن الضعف التى يحملها "سفر القضاة" كمصدر تاريخى، فالروايات التى يضمها تعد ... تصويرًا صادقًا لنمط الحياة والظواهر التاريخية التى تميز تلك الفترة عن غيرها من الفترات")

;idem,in Cross, Magnalia Dei,152-68;Bright,History,130-32;E.L.Ehrlich, A Concise History of Israel (New York,1962),25ff.;D.N.Freedman, in H.Goedicke and J.J.M.Roberts, eds., Unity and Diversity (Baltimore,1975),3-35;Lipinski, in The Land of Israel:Crossroards of Civilization,95 and n.6.

ومن المفيد أن نلاحظ هنا بعض ملاحظات الاعتراض:

H.Engel,Die Vorfahren Israel in Ägypten (Frankfurt,1979),77-78;J.M.Sasson, Ruth,A New Translation (Baltimore,1979),250;Van Seters, In Search of History,342-46.

(٩١) Ishida,Royal Dynasties,33-37;H.Rosel,Biblica 61(1980),251ff.;idem,BZ 25 (1981),180ff.;N.P.Lemche, Biblische Notizen 20 (1983),44ff.;Miller and Hayes,A History,93; on the term,see references in Ahlström,Who were the Israelites? ,78,n.74.

(٩٢) See J.C.Waldbaum,in T.A.Wertime and J.D.Muhly,eds., The Coming of the Age of Iron (New Haven,Conn.,1980),86.

(٩٣) (انظر رقم ٦٣) See n.63

(٩٤) Cf.Josh.11:8,13:4,Jud. 1:31,10:6,19:28.H.Donner and W.Rolling, Kanaanäsche und aramäische Inschriften (Wiesbaden,1962-1964) 2:19-23;L.I.Levine, Caesrea under Roman Rule (Leiden,1975),144,n.6.

(٩٥) قارن شخصية "شامجار"، نصف الإله، ابن "عنات" التى حُملت، على سبيل الخطأ، كبطل قديم وكذلك الاشتقاق الفولكلورى (أى الخاطئ) للاسم الشخصى: "يرب-بعل"(= يربّعل)("قضاة" ٦: ٣٢)

(٩٦) Urk IV,1309,excluding the Nukhashsheans and the total for the families.

(٩٧) Mhwt:Wb II,114:8, Giveon, Shosou,47-48,66;P.Anasti.20.4;vi 54-56;P. Harris 1,76:9-10.

(٩٨) Wb II,114:10,see the instructive list in Medinet Habu: P.M.II2,173 (6) (انظر القائمة المفيدة فى معبد مدينة حابو):

(٩٩) Cf.P.Anast.I,20:2-4;A.H.Gardiner and Cerny,Hieratic Ostraca (London, 1958), pl.78:4-6;J.Cerny,JNES 14(1955),161ff.J.L.Foster,JSSEA 14 (1984), 88ff.

حول ظاهرة التمزق القبلى وإعادة التوحد القبلى، انظر:

M.B.Rowton,JNES 36 (1977),183-90.

(١٠٠) KRI I,9:3-5,16:9ff.

(١٠١) Pace N.K.Gotwald,IDB Suppl.629.

(١٠٢) Cf.especially P.Anast.1:17,7;23,7-8.

(١٠٣) P.Harris 1,76,10 (ihrw=

حول تقاليد التخييم فى إسرائيل انظر:.M.Weinfield,VT 38 (1988),324-32

(١٠٤) Cf.P.Montet, Kêmi 6 (1937),pl.3 (dw n S'r, the mountain of Se'r");Petrie, Hyksos and Israelite Cities ,pl.32(n3ysn tswt,their Hills= (تلالهم).

(١٠٥) Cf.P.Anast.1,19,1-4(lions, leopards, and bears);cf.similarly W.Helck, Die Lehre des Dw[3]-Htji(Wiesbaden,1970)2:xvi.a.

(١٠٦) Cf.P.Anast.VI,54-56;P.Harris 1,76:11;W.Westendorf ,Koptisches Handwärter-buch (Heidelberg, (1977),327, for Coptic sös, "Herdsman, Shepherd."

(١٠٧) P.Turin B. Verso 1,8= R.A.Caminos, Late Egyptian Miscillaneous (Oxford,1954), 467.

(١٠٨) كتلة فيينا من مقبرة الفرعون "حور-إم-حب" انظر:

Bergmann,ZÄS 27 (1889),125ff.;J.H.Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago,1906),3:sec 11;A.H.Gardiner,JEA 39 (1953)7;Helck VT 18 (1968),472ff.

يذهب رأيى الخاص إلى أن النقش الذى تحمله هذه الكتلة لا يخرج عن تصريح عام حول السياسة الفرعونية (ولا يشير إلى حادثة بعينها) نسبها قائلها أو كاتبها إلى "حور -إم-حب" بصفته ناطقًا باسم الفرعون للضباط المسئولين المصريين عن أسيا وكوش.

(١٠٩) حول الاستيطان الأصلى فى المرتفعات انظر:

J.M.Miller,in J.H.Hayes and J.M.Miller,eds.,Israelite and Judean History (Philadelphia, 1977),279ff.;Miller A History,83-85;also G.W.Ahlström,JNES 39 (1980)65, and the literature there cited.

وحول استيطان القبائل الإسرائيلية بصفة عامة انظر على وجه الخصوص:

Alt. Kleine Schriften,1:126ff.;M.Weippert, The Settlement of the Israelite Tribes in Palestine (London,1971);S.Mittmann,Beiträge zur Diedlungs-und Territorial-geschte des nordliche Ostjodan-lands (Wiesbaden,1970),208ff.;B.Mazar,BASOR 241 (1981), 75ff.;also the excellent survey of B.S.J.Isserlin,PEQ 115 (1983),85ff.,and review of the evidence by Gottwald,Herrmann,and Kochavi in Biblical Archaeology Today.

مع أن عناصر عديدة من القبائل تملك تاريخًا طويلاً بصورة واضحة، إلا أنه يبدو أن هناك مسوغًا كبيرًا لاعتبار "الفيدرالية الإسرائيلية رد فعل دفاعى من جانب "العابيرو" يرجع فى أعماق التاريخ إلى عصر الهكسوس.

So W.R.Wall,ZAW 95 (1983),197ff.

ولسوف نعود إلى مناقشة مسألة استيطان إسرائيل فى الفصل التالى.

(١١٠) حول الزيادة المهولة فى كثافة السكان فى المرتفعات الوسطى خلال العصر الحديدى الأول انظر:

M.L.Chaney,in Freedman and Graf,Palestine in Transition 49-50;L.E.Stager, BASOR 260 (1985),3,25;Kochavi in Biblical Archaeology Today,55-56.

(١١١) H.K.Beebe, BA 31 (1968),49;G.W.Ahlström JNES 41 (1982),133 and n.2; A.Mazar,in Biblical Archaeology Today,61ff.

وحول المستوطنات فى "أراد" و"ضبان" و"جبعون" و"عاى" فى مواقع لم يطأها أحد من قبل انظر:

J.Callaway,BASOR 196 (1969),9

ومع ذلك فمع مرور الوقت أخذت الملامح المميزة لنمط السكن وتخطيط المدن فى الظهور:

Y.Shiloh IEJ 28 (1978),36ff.and the literature in n.1 and 2;Stager,BASOR 260 (1985),11ff.;A.Mazar,as cited.

وفى سبيل ملحوظة تحذير، يحتاج إليها المرء بصورة ماسة فى تفسير مثل هذه المواقع الأثرية مثل "تل ماسوس" انظر: N.K.Gottwald,in Biblical Archaeology Today,40-40.

(١١٢) Cf.O.Negbi, Tel Aviv 1 (1974),159ff.;R.Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land (Jerusalem,1970),192.

(١١٣) قارن الملاحظات الحصيفة التى أبداها:

Isserlin.PEQ 115 (1983),90, and V.Fritz, BASOR 241(1981),70ff.;also Y.Aharon, BA 39 (1976),74ff.,and G.Mendenhall.ibid.,152ff.

(١١٤) C.Meyers, BASOR 252 (1983), 55;perhaps also Z.Gal,Tel Aviv 9 (1982), 79ff.

(١١٥) N.Na'aman ZDPV 103 (1987),13-21.

(١١٦) E.F. Campell, Interpretation 29 (1975), 145;

قارن ولع النبطيين بالاعتقاد فى "جملة من الآلهة"، وحول الأصول الاجتماعية المحتملة للتقاليد التى تنبذ استخدام الصور والتماثيل انظر: R.S.Hendel.CBQ 50 (1988),365-82

(١١٧) انظر رقم ٥٩

(١١٨) لعله رفض غريب للأدلة الصلبة أن يزعم أحد أن الحركة الإسرائيلية، التى تتمثل فى "تحالف واسع النطاق من العائلات الموسعة والجمعيات الدفاعية والقبائل، تلك التى تمكنت من الإطاحة بالسلطة المركزية، اضطرت إلى الدفاع عن نفسها فى وجه التسلل المضاد للثورة الذى قامت به السلطات المخلوعة"، وأن فى "كنعان"، فى ظل تضعضع النفوذ الإمبراطورى المصرى، اضطر الإسرائيليون إلى التصدى لعدد كبير ومتنوع من هذه الدول الصغيرة". انظر:

(N.K.Gottwald,in Palestine in Transition,30).

كم تسهل سيطرة نموذج ما على ذهن المرء، من دفعه إلى نسيان الحاجة إلى النهج التجريبى.

الفصل الحادى عشر

الخيول وابنة الفرعون

مصر والمملكة المتحدة

فى سنة ١٠٧٥ ق.م. كانت إمبراطورية الرعامسة لا تزال على قيد البقاء، مع أن الضعف كان قد دب فى أوصالها، وكذلك الفقر، ولكنها كانت قد تحررت من الأوهام. ولم يكد جيل قصير يمر وعبرت البلاد "انقساماً كبيراً" كى تدخل غسقاً موغلاً فى العمق من الحقبة "التانيسية" (= نسبة إلى "تانيس" العاصمة فى ذلك الوقت والواقعة فى محافظة الشرقية حالياً.المترجم) فما الذى حدث؟

تانيس وطيبة: فترة الانتقال إلى الأسرة الحادية والعشرين

يستطيع المرء، بطبيعة الحال، أن يتوسل، على نحوٍ مقنع، بنوعٍ من الارتباط بين العوامل الاقتصادية وتلك المناخية، فى نشر الخراب فى المجتمع المصرى فى القرن الثانى عشر ق.م. فلقد أدى الدمار الذى لحق بالإمبراطورية الحيثية واجتياح شعوب البحر للمشرق إلى حرمان مصر عملياً من الوصول إلى المناطق الغنية بالفضة والحديد فى هضبة الأناضول، فى الوقت، بالضبط، الذى كانت فيه هذه المعادن قد أوشكت على احتلال أهمية قصوى فى الخزائن والترسانات الدولية. وبحلول الربع الثالث من القرن الثانى عشر، كانت مناجم الفيروز فى سيناء قد أغلقت، ومناجم النحاس الأحمر فى "تمنة" Timna كانت "الرِّجْل قد خفَّت" عنها كيلا نقول هُجرت، وبدأت مناجم الذهب فى النوبة تكشف عن بعض العلامات على الإنهاك. وبناء عليه، فبحلول سنة ١١١٥ ق.م. أصبح كل من الذهب والنحاس الأحمر، أكثر تكلفة، بصورة مفاجئة، عما كان

عليه الحال من قبل. ونجم عن فترة ممتدة من الجفاف فى شمال شرق أفريقيا إلى وصول فيضانات منخفضة متعاقبة، وبالتالى محاصيل أقل،[١] وأصيبت البلاد بالتضخم وتفجرت فيها الإضرابات العمالية. وارتفع سعر كمية من القمح لا تزيد عن ٢,٢٥ بوشل (مكيال إنجليزى للحبوب = ٨ جالون) من واحد "ديبين" من النحاس الأحمر عند نهاية حكم الفرعون "رعمسيس" الثالث إلى خمسة أضعاف بعد مرور أقل من عشرين سنة، ولقد أشارت التقارير الرسمية للمفتشين الذين يتقصون الحقائق مرة بعد أخرى إلى ملاحظات من هذا القبيل: "فى السنة التاسعة والعشرين فى الشهر الثانى من فصل "الشتاء" (= برت) اليوم العاشر، فى هذا اليوم عبر العمال خمس نقط تفتيش للجبانة وصاحوا: نحن جائعون! ومرت ستة عشر يوماً من الشهر وهم ملازمون لأماكنهم (أى يرفضون العودة للعمل)"[٢].

وكان من المتعذر فى ظل أسعار مرتفعة وأجور منخفضة، مقاومة الإغراء الذى تشكله الكنوز الهائلة التى ترقد مدفونة فى المقابر الملكية والخاصة معًا على الضفة الغربية لـ "طيبة"، فخلال حكم الفرعون "رعمسيس" التاسع (الربع الأخير من القرن الثانى عشر) جاءت أولى التقارير حول سرقة المقابر سواء فى الجبانات الملكية أو تلك الخاصة. وبدأ اللصوص بالجبانات التى يسهل الوصول إليها، تلك التى ترجع إلى فترة الانتقال الثانية فى الطرف الشمالى للجبانة، إلاّ أن اللصوص أخذوا يتدرجون حتى وصلوا بنهاية القرن إلى مدافن العصر الإمبراطورى ذاته، وبلغ بهم الأمر حد نهب المقابر التى يخلد فيها للراحة الأبدية جثمانىْ الفرعونين "سيتى" الأول و"رعمسيس" الثانى. وحاولت السلطات أن تزرع الحراس وتلقى القبض على المذنبين، وقد نجحت فى حالات كثيرة، كما تشهد على ذلك، بفصاحة لا مزيد عليها، محاضر التحقيقات القضائية التى جرت فى قضايا نهب المقابر التى نجت من صروف الظروف[٣]. ولكن، وكما يحدث مع مشكلة المخدرات فى مجتمعنا المعاصر، كانت الحاجة ماسة إلى حد بعيد لإعادة توزيع ثروة بهذا الحجم، فضلاً عن أن الموظفين الحكوميين كانوا من الفساد بحيث لا يستطيعون أن يقوموا بما هو أكبر من مهاجمة رأس قمة جبل الجليد ليس إلاّ. وبحلول القرن الحادى عشر ق.م. وجد الكهنة الأتقياء

أنفسهم مدفوعين إلى اللجوء إلى إخفاء مومياوات الأسلاف في سلسلة من المقابر، أي خطوة واحدة، كما كان عليه الحال، بعيداً عن متناول اللصوص الذين لا يعرفون الكلل أو الملل فيما عقدوا عليه عزمهم. وفي نهاية المطاف، وخلال القرن العاشر ق.م. نقلوا في يأسهم العميق ما تبقى من مومياوات ملكية من الأسرة السابعة عشرة إلى الأسرة العشرين إلى بئر منجم في منطقة "الدير البحري" حيث ظلت ترقد في سلام حتى اكتشافها خلال القرن التاسع عشر من عصرنا الحالي[٤].

يستدير المرء، إلى العامل البشري، إن عاجلاً أو آجلاً، في إطار بَحثه الذي لا غنى عنه، عن "الأسباب" في التاريخ. وقد تزوغ منا التفاصيل، غير أن الأدلة تجمع على أنه، عقب رحيل الفرعون "رعمسيس" الثالث "خلفه على عرش مصر، ولمدة امتدت لسبعة أجيال، ملوك أثبتوا أنهم بلداء، نذروا أنفسهم للانغماس في الملذات وحياة الترف. وبالتالي ففي السجل الكهنوتي لم يحدث أن سلموا الأجيال اللاحقة مبنى عظيمًا ابتنوه أو مأثرة خرجت من أيديهم تستحق التسجيل التاريخي"[٥]. ومع أن هذا الأمر، في جزء منه راجع إلى الافتقار إلى السجلات ذاتها، كما يذهب "ديودور الصقلي"، إلاّ أن هذا الانطباع صحيح: وقعت عائلة "رعمسيس" الثالث ضحية صراع شرس طويل الأمد، ربما نتيجة للظروف التي أحاطت بالاغتيال، ولقد كانت نهايتها مشينة تمامًا.

أما الفرعون "رعمسيس" الحادي عشر الذي عمَّر طويلاً، ولكن دون أن يكون له أثر فعال (بالتقريب من ١١٠٥- ١٠٧٥ق.م.)، ولا يستطيع المرء إلا أن ينظر إليه بدرجة من الشفقة (ولكن السبب وراء هذه الشفقة يستعصي على التقصي بسبب نقص الأدلة) فلقد برهن على أنه آخر الرعامسة وآخر الفراعنة الإمبراطوريين. وكان قد فاز بسمعته هذه التي يكتنفها الالتباس وهو لم يزل بعد على قيد الحياة: "أما بخصوص الفرعون، فكيف يستطيع الوصول، بأي حال من الأحوال، إلى هذه الناحية (="طيبة" في الجنوب)؟ من ذا الذي يأتمر، في الحقيقة، بأمره؟ لا تعر ما قد يقدم عليه اهتمامًا!" إلى هذا الحد من ضآلة الشأن هبط سيد "طيبة" خلال السنوات الأخيرة من حكم الفرعون "رعمسيس" الحادي عشر[٦]. وكان تفجر حرب أهلية خلال العقد الأول من حكمه قد أسهم في تأكيد الانطباع بضعفه. ومع أن الاضطرابات لم تقصه عن

العرش، إلاّ أنها أشاعت الفوضى فى "طيبة" ومصر الوسطى، وعزلت، بشكل مؤقت، صنيعته "أمين ـ حوتب" الذى كان يشغل منصب الكاهن الأعلى لـ "آمون". وكان الفرعون قد استطاع، بشق الأنفس، إبعاد المعارض الرئيسى "بانحسى"، المندوب السامى لمصر (= نائب الفرعون) فى "كوش"، إلى النوبة حيث كان التمرد قد بدأ، ولكن ذلك جاء على حساب تعيين ضابط آخر من ضباط الجيش، يتملكه العطش إلى السلطة، وهو "حريحور" فى منصب الكاهن الأعلى لـ "آمون". وقد بدأ "حريحور" بحمل ألقاب فخمة "هو- الذى - يسوس - الأرضين" ... الكاهن الأعلى لـ "آمون- رع - سا- نوتر"، "فيلد- مارشال"(= مشير) مصر العليا ومصر السفلى و"الدوق" (=الأمير)" وفى السنة التاسعة عشرة من حكم الفرعون "رعمسيس" الحادى عشر، وبعد أن جاءه وحى مشجع من "آمون" ، أعلن "حريحور" نفسه، ودون مزيد من الجلبة، فرعونًا(٧). واختفى "رعمسيس" الحادى عشر دون أن يسمع أحد، مرة أخرى، عنه شيئًا يذكر.

دخلت مصر الربع الثانى من القرن الحادى عشر ق.م. وهى فى حالة من التردى على المستوى العسكرى والاقتصادى. ولم يعد هناك شك فى ضرورة الحفاظ على الأشكال التقليدية للإمبراطورية. كان البيت الرعمسيسى قد ألحق الخزى الكامل بنفسه. و"آمون" نحى أعضاء هذا البيت جانبًا وأعلن تأييده لـ "حريحور". وفى الشمال راجت التعبيرات الشائعة حول "الوحى" فى تلك الأيام أن "آمون" "عيَّن" فى منصب "مسئول الشمال لأراضيه أى أراضى "آمون"(٨)، شخصًا يدعى "نسو- با - نب - جد"، الذى لم يكن فى كل الاحتمالات، شيئًا ذا قيمة، سوى أنه كان مسئولاً من أهل الثقة عند آخر "رعمسيس". ولقد حكمت عائلة هذا المحترم، الذى ارتفع عاليًا بصورة مفاجئة، فى السلم الاجتماعى (عن طريق الزواج؟)(٩) إلى منصب الفرعون ولمدة أربعة أجيال بعده، من "تانيس"، هذه المدينة الجديدة التى نهضت من بين أنقاض "بى - رعمسيس"، مثلما تنهض "العنقاء" (طائر أسطورى يقول عنه المصريون القدماء إنه ينهض مرة أخرى، من رماده شابًا بعد احتراقه فى أتون النيران. المترجم) فى شمال شرق الدلتا. وكانت "تانيس" قد بنيت على مسطحات تسمى "حقول العاصفة" بالقرب من مصب الفرع "البوباسطى" للنيل الواقع فى أقصى الطرف الشرقى، كى تحل محل "بى - رعمسيس" على بعد حوالى ثلاثين كيلو مترًا إلى الجنوب (اللوحتان ٣٠، ٣١) وقد

هجر المقر الرعمسيسى العظيم، لسبب أولآخر، بنهاية الأسرة العشرين (مع أن إحدى مستوطناته، تلكأت فى الاختفاء، حتى عاصرت السنوات الأولى لبناء "تانيس") وقد تمتع بنّاءو المدينة الجديدة بالحرية فى استخدام المبانى المهجورة للعاصمة السابقة كمحجر ينتزعون منه ما يحتاجون إليه من أحجار[١٠]. ولقد بلغ عدد الكتل الحجرية التى سحبها البناءون، إلى "تانيس"، وهى ترجع فى الواقع، إلى الموقع القديم "بى- رعمسيس" من الكثرة الحد الذى التبس الأمر على الأثريين الأوائل فظنوا أن "تانيس" هى "بى- رعمسيس" نفسها[١١].

مع وجود رجلين جديدين، أحدهما فى الجنوب والآخر فى الشمال، ظل الهدف المأمول لنهضة قومية لمصر بعيد المنال. فلقد استمر نصف البلاد فى تدهوره على امتداد قرن. ومع أن "حريحور" كان قد اغتصب، بشكل صفيق، الحقوق الملكية، إلاّ أن خلفاءه (مع استثناءات قليلة بارزة) تجنبوا كتابة أسمائهم فى الخراطيش الملكية، واحتفظوا، وحسب، بتولى رئاسة كهنوت "آمون" وقيادة الجيش ومنصب المندوب السامى المصرى (الذى كان قد دخل وقت ذاك مرحلة الاحتضار) فى "كوش". وانفصم الرباط الذى كان يربط بين البيت الملكى و"طيبة". ولم يعد الفراعنة يقومون بالرحلة المعروفة من الدلتا إلى "طيبة" للاحتفال بملك الآلهة "آمون"، ولم تعد مومياواتهم المحنطة تصعد النهر كى تُدفن فى وادى الملوك[١٢]. ولم تعد ترد غنائم من الحروب أو ضرائب من آسيا كى تودع فى خزانة معبد "آمون". وكان كل ما تركته "طيبة" وراءها لا يزيد عن عبادة وكهانة إله كان يومًا إلهًا لإمبراطورية، وذكريات ماضٍ كان مجيداً.

وهكذا شهدت الأسرة الحادية والعشرون الانهيار المؤكد لـ "طيبة" ولما أصبحت علاقتها الرئيسية مع البيت الملكى أثرًا من آثار الماضى، تحطمت، دون أى إمكانية للإصلاح، تلك المكانة التى شمندرتها (=أبقت عليها مرفوعة عاليًا من "شمندورة" النوبية. المترجم) طوال ما يزيد على ستة قرون وجعلت منها ثانى عاصمة (= متروبول) لمصر، وأكسبتها لقب: "المدينة الجنوبية". وعلى نحو ما أوضحت عمليات التنقيب تدهور عدد السكان بشكل مفاجئ مع بداية الأسرة الحادية والعشرين، وهجرت قطاعات واسعة من المدينة. وبحلول سنة ٤٨ من حكم فرعون "تانيس" المعروف باسم "بسوسينيس" Psusennes الأول (بالتقريب ١٠٠٢ق.م.)، وفى الحديث الوقور الذى

أرسله "مين - خبر - رع"، الطيبي ذكر أن معبد "آمون" انتزعت أحجاره، وتحوَّل سوره الخارجي إلى أطلال، وجارت بيوت الأهالي على الأفنية المقدسة[١٣]. ولعلها تثير الشفقة تلك النصوص ـ المسجلة، وقد حفرت بخفة زائدة، وهي تذيع أن الكاهن فلان الفلاني قد أصلح هذه البوابة أو جدد هذا السور: الحقيقة كانت لا مال هناك ولا أيدٍ عاملة تكفي لبناء أي شيء جديد.

ومع ذلك كان الإله "آمون" قد أورث أتباعه مثل تلك التقاليد المقدسة ومثل هذه القاعدة الراسخة من السلطة حتى تمكنت عائلة "حريحور" من بسط سلطة هائلة على الوجه القبلي بأسره لمدة تصل إلى ستة أجيال. إلاّ أن ثروة معبد "آمون" ومدى سلطانه عند غروب المملكة الحديثة كانا يترنحان. فعند رحيل الفرعون "رعمسيس" الثالث كانت ملكيته تصل إلى ٦٠٠ ألف "إكر"، (الفدان يساوي أربعة آلاف و٢٠٠ متراً مربعًا في حين تصل مساحة "الإكر" إلى أربعة آلاف متراً مربعًا، أي أن مساحة "الإكر" أقل قليلاً من الفدان. المترجم) و٤٢١ ألف و٣٦٢ ألف رأس من المواشي و٤٣٣ بستانًا و٦٥ مدينة (تسع منها في "كنعان") و٤٦ ورشة نجارة وأسطولٍ من مراكب الشحن يصل عددها إلى ٨٣ مركبًا. وما يزيد على ٨٥ ألفًا من الأمتعة المنقولة، فضلاً عن الفلاحين الذين يعملون في عقارات الإله، إلى جانب الكهنة. وشملت التركة التي أوصى بها فرعون واحد هو"رعمسيس" الثالث لـ "آمون" نحوه ,١ طنًا من الذهب والفضة و٥ ,٢ طنًا من النحاس الأحمر وما يزيد على ألف جرة من البخور وأكثر من ٢٥ ألف جرة من النبيذ و٣١٠ مكاييل من القمح، بالإضافة إلى كميات ضخمة من الكتان والخضروات والطيور[١٤]. وخلال الأسرة الحادية والعشرين امتدت "عقارات" "آمون" كي تغطي الوجه القبلي[١٥]. فهنا كان الكهنة من الرتب العليا مستقلين بأنفسهم أو يكادون، ونقشت أسماء زوجاتهم اللواتي يعملن كـ "عابدات مقدسات" لـ"آمون" في خراطيش مزدوجة كما لو كن ملكات[١٦].

وفي ظل غياب سلطة ملكية و في ضوء السلطة التي حازها الكهنة بحكم الواقع de facto لم يكن هناك ما يثير الاندهاش عندما نجد توجيهًا جديداً للنظرية الرسمية تجاه الكهنوت. فلقد استولى الكهنة الآن على السلطة المدنية، وأصبح الكهان الأعلى

رتبة حكامًا يقيمون فى مقار، لا تقع فى "طيبة"، بل فى قلعة جديدة تسمى "تيجوى" Teudjoy على الضفة الشرقية لنهر النيل، لا تبعد كثيرًا جنوبى الفيوم[١٧]. وعوضًا عن الفرعون، تزايد الاعتماد على الآلهة إلى مدى واسع كمصادر للسلطة السياسية. وازداد ثراء عائلات الكهنة، والصورة المؤلفة من شظايا متناثرة التى نستطيع أن نعيد بناءها، تقدمهم لنا وهم يشترون مساحات ضخمة من الأراضى سواء الزراعية منها أو أراضى المدن فى طول الجنوب وعرضه، وكانت مثل هذه الصفقات تحظى بمصادقة وضمانة الوحى الذى يرسله "آمون"[١٨].

لم ينل حظوة الظهور فى قائمة الملوك، سوى خلفاء "نسو- با- نيب - جد" فى "تانيس"، وجاء ظهور أسمائهم، وحسب، كأعضاء فى الأسرة الحادية والعشرين، ولكن حتى هذا النظام، كان مشبعًا بعبادة "آمون" وتبجيله، مع أنه كان منفصلاً عن "طيبة" (مركز الثالوث المعروف "آمون" و"موت" و"خونسو". المترجم) وعرفت "تانيس" كهنوتًا أعلى لـ "أمون - رع - ملك - الآلهة" ولقد أطلق الفرعون هذا اللقب على نفسه شخصيًا، بل وظهر هذا اللقب أحيانًا فى خرطوشه[١٩]. وشملت ألقاب أخرى، تعود إلى أيام الإمبراطورية الخوالى "حاكم طيبة" و"محبوب أمون" و"مشرقًا فى طيبة"[٢٠]. وأصبح "أمون" يهب البأس والنصر فى المعارك[٢١]، وادعى الفرعون، نظير ذلك، أنه شيَّد "صروحًا تذكارية فى الكرنك" (هكذا!) بالغة الضخامة.

قد تبدو لنا هذه المزاعم جوفاء، ولما كنا قد وهبنا بصيرة قادرة على إدراك ما حدث فى الماضى الغابر، فإن هذه المزاعم تشى بمحاولة مخلصة وإن كانت باعثة على الشفقة، للارتفاع إلى مستوى معايير الماضى المفقود. ويشتمل جزء من هذه المعايير على استغلال، لا غنى عنه، لصورة البطل ـ الملك الذى عرفته آسيا. ولكن كيف كان الحال فى آسيا الآن؟

تانيس وفلسطين:

إذا كان العبرانيون الأوائل، بحكم ظروف دخولهم وتوزعهم فى تلك البلاد لم ينخرطوا فى اتصال طويل الأمد مع مصر خلال القرن الثالث عشر ق.م.، فإن

الغزو الذى قامت به شعوب البحر خلال القرن الثانى عشر قد استبعد تمامًا أى تأثير ثقافى ذى وزن قادم من وادى النيل. وكان "الشاسو" قد هددوا استخدام مصر لدرب الضفة الغربية خلال حكم الأسرة التاسعة عشرة، وسببوا إزعاجًا للقوافل التى تستخدم الدرب الساحلى، هو الآخر، فلقد قطع الفلاسطينيون والتكريانيونTeukrians وقت ذاك الطريق البحرى بصفة دائمة.

أكد الفرعون "رعمسيس" الثالث، ربما مع بعض المسوغات، أنه وطَّن شعوب البحر فى مستوطنات أو جيوب داخل أراضيه، وألزمهم بالدخول فى خدمته: "لقد وطنتهم فى قلاع "نختو"، وهى محددة باسمى. وكان مجندوهم كثيرين حتى إنهم يصلون إلى مئات الألوف، وزودتهم جميعًا من عائدات الضرائب بالملبس والمأكل، على حساب الخزانة (العامة) وشون (جمع "شونة") الغلال. بصفة سنوية"[٢٢] ومع أنه لا نكران فى أن بعض تلك المستوطنات كانت موجودة على أرض مصر[٢٣]، إلاّ أن الفرعون يشير أيضًا هنا إلى جيوب الفلاسطينيون والتكريانيين الذين استوطنوا فى السهل الساحلى، ونزل هو عند إرادتهم وأصدر لهم ترخيصًا لاحقًا لاستيطانهم الذى كان قد بدأ بالفعل، حسب قاعدة: بعد الحادث Post eventum . وأعاد الفرعون بناء عدد من المدن فى المنطقة، وزودها بالبوابات المزدانة بخراطيشه - كى يحدد إقامة المقيمين - وزوَّد حامياتها بالرجال، حتى قبلت اسم "نختو" أى "قلاع"، وليس هناك شك، على وجه التقريب، فى أن هذا الاسم ينطبق أيضًا على مدن الفلاسطينيون اللاحقة مثل "غزة" و"عشقلون" وغيرها[٢٤].

مع أن الفرعون "رعمسيس" الثالث كان قادرًا، كما سبق لنا أن رأينا، عن طريق إعمال القوة العسكرية، على إعادة تأكيد سلطته على معظم أراضى فلسطين، وربما أجزاء من سوريا كذلك، إلاّ أن خلفاءه برهنوا على عجزهم عن الحفاظ على سيطرتهم على هذه الناحية. ولو أن كلاً من "رعمسيس" الرابع و"رعمسيس" الخامس استمرا، بصعوبة، كما يحق لنا أن نتصورٍ، فى عمليات التجارة البحرية مع "فينيقيا"، كما تابعا عمليات استخراج النحاس الأحمر والفيروز من مناجم سيناء ووادى "عربة"، ولم يترددا فى تبنى الألقاب الفخمة التى تعود إلى زمن الانتصارات الإمبراطورية[٢٥]. وتواصل الأشياء المتناثرة التى تنتج عن عمليات التنقيب فى فلسطين ذكر الفراعنة حتى

"رعمسيس" السادس[٢٦]، ممن كان الكنعانيون لا يزالون يعملون تحت ظل حكمهم ضمن قوة العمل غربى "طيبة"[٢٧]. وبعد ذلك تلزم الهضاب الفلسطينية الصمت، مع أن الحديث كان لا يزال يدور حول الفرعون "رعمسيس" السابع فى "إطلاقه السهام ضد بلاد "خارو"... ومتوغلاً فى بلاد "خاتى" بعد أن سوّى جبالها بسهولها" (حرفيًا: قلب جبالها رأسًا على عقب)[٢٨].

فى غضون خمس عشرة سنة من رحيل الفرعون "رعمسيس" الثالث فقد المصريون سيطرتهم على ولاياتهم الشمالية التوابع، وكان عندئذٍ أن تحرك أبناء شعوب البحر، ولم يكد يمر على وصولهم إلى المشرق قرن أو أقل، كى يقفوا مستقلين بأنفسهم بعيداً عن كنف مصر. وكان قدومهم تحت ظل حكم "رعمسيس" الثالث، والحروب التى خاضها هذا الفرعون فى محاولة لإعادة بناء إمبراطوريته، قد دمرت بالفعل العديد من المدن على امتداد الساحل، والآن ها هو التوسع الثانى للمجال الفلاسطينى يجلب ويلات إضافية إلى الإقليم[٢٩]. فلقد عانت كل من "غزة" و"عشقلون" و"أشدود" من الدمار الشامل لآخر مدنها التى ترجع إلى العصر البرونزى المتأخر[٣٠]، بينما كانت المدن الساحلية الواقعة فى أعماق الشمال مثل "أبيك" Aphek و"تل أبوحوام" Tel Abu Huwam و"تل كيسان" Tel Keisan قد تعرضت بالفعل لحرائق هائلة[٣١]. وشرع الفلاسطينيون يوسعون آفاقهم، حيث اندفعوا خارجين من قلاعهم وأخذوا يؤسسون مدنًا جديدة بين الحين والآخر[٣٢]. وفى الجنوب استولوا على محطات الطرق، التى كانت تتبع فى الماضى الإدارة المصرية[٣٣]، بينما مدوا مستوطناتهم فى الجنوب الشرقى على امتداد "نهل بيصور" Nahal Besor[٣٤]. كما أشارت المصادر أيضًا إلى ريف "شيفيلاه" الذى تتمتع أراضيه بخصوبة عالية مكنت الأهالى هناك من زراعة الغلال، وهنا استولى الفلاسطينيون على "لاخيش" وأسلموها للنيران[٣٥]. واحتلوا "مكنى" Mikne (إيكرون؟) وأعادوا بناءها[٣٦]، كما استولوا على "تل سيرا" .Tel Sera[٣٧] وأقاموا مقرًا كبيرًا فى تل "الفارعة" إلى الجنوب ونستطيع أن نقتفى أثر أى عائلة من "الأمراء" خلال المقابر الضخمة التى تمتد لتشمل خمسة أجيال فى الجبانة المجاورة[٣٨].

أما فى الشمال فإنجاز مرحلة مستقلة بذاتها من التوسع، متحررة فى نهاية المطاف من الوصاية المصرية، أمر تقوم عليه أدلة، بالمثل، من نهاية حكم الفرعون "رعمسيس" السادس (أو قريبًا من ذلك العهد) مع أن العبرانيين القدماء هنا (والمحدثين نسجًا على "منوالهم") ربما يكونون قد أطلقوا هذا الاسم العرقى (=الإثنى): "الفلاسطينيون" على عنصر مكون "تكريانى": Teukrian أصلى(٣٩). وبخصوص "بيت شان" استمر المصريون يرون فيها دومًا القلعة الرئيسية على الدرب الذى يمر عبر وادى "يزريل" Jezreel إلى الأردن وشمالاً إلى دمشق، وربما تكون حامية لشعوب البحر قد أقيمت، تحت حكم الفرعون"رعمسيس" الثالث نفسه، فى هذه المدينة الحصينة جنبًا إلى جنب مع قوة مصرية(٤٠). وكانت مدينة مطلع الأسرة العشرين قد تعرضت، مع ذلك، لحريق وحشى(٤١)، وفى الوقت نفسه كانت مستوطنات شعوب البحر الأبيض قد بدأت فى الظهور فى سهل "إزداريلون" وفى أسافل وادى الأردن حتى "تل السيدة" و"تل دير العلا" Tell Deir `Alla(٤٢). وبحلول سنة ١١٠٠ ق.م. كان الفلسطينيون Philistines وأشباههم congeners يطوقون المرتفعات الوسطى.

تؤيد إلى هذا الحد أو ذاك الأدلة المستقاة من النصوص المكتوبة، الأدلة الأثرية. فقائمة الأسماء التى ترجع إلى "أمينوبى" (= "آمون" فى عيده)، وقد تعود إلى سنة ١١٠٠ق.م. على وجه التقريب تتبع قائمة بأسماء لأماكن الساحل الفينيقى وأعماق ـ سوريا بستة أسماء لأماكن، أربعة منها، تقع بكل تأكيد فى السهل الفلاسطينى(٤٣): "عشقلون" (٢٦٢) و"أشدود" (٢٦٣) و"غزة" (٢٦٤)، و"ياصور" Yasur(٢٦٥)(٤٤) و"سوبراى" Subaray (٢٦٦)، وواحدة أخرى فقدت فى فجوة فى النص المكتوب (٢٦٧) ثم يتبع هذه المدن ثلاثة أسماء لشعوب البحر "شاردانا" Shardana (٢٦٨) و"التكريانيين" Teukrians (٢٦٩) و"الفلاسطينيون" Philistines (٢٧٠). ويبدو أن أسماء المدن هذه تشير فى أرجح الاحتمالات إلى البلدات municipia الرئيسية التى احتلتها المجموعات الثلاث رهن الحديث خلال الفترة التى أعقبت انسحاب مصر من آسيا، ولكن بينما كانت المدينتان الأوليان موجودتين منذ البداية، إلا أن الرحم الفلاسطينى الأكبر كثيرًا منهما سرعان (على نحو ما قد يذهب بنا الافتراض) ما ابتلعهما(٤٥). وبناء على ذلك تقلصت هذه المدن الست إلى "طرابلس"(= tripolis) كى تمتد قرب زمن

إنشاء المملكة العبرانية إلى "الـ "بنتابولس" (= pentapolis) التقليدية التى نعرفها من "التوراة"[٤٦]. إلا أن مصادرنا تلزم الصمت بشأن المجموعة الشمالية وأولئك الذين توطنوا فى وادى الأردن، مع أننا لو حكمنا بالاستناد إلى سهولة الوصول التى تمتع بها الفلاسطينيون إلى "بيت شان" (سفر "صامويل" الثانى ٣١: ١٠)، فإن سيطرتهم فى الشمال لابد وأن تكون قد استمرت حتى مطلع القرن العاشر. ولكن ما إذا كان الفلاسطينيون قد احتفظوا بالسيطرة على البحر تظل نقطة مطروحة على بساط البحث. إلاّ أن الإشارات المتناثرة هنا وهناك توحى بأنهم نجحوا فى ذلك، لمدة قصيرة على الأقل. فالسفن التكريانية لم تصادف صعوبة فى تعقب مبعوث مصرى مسكين إلى "بيبلوس"، وفى المطالبة بإلقاء القبض عليه[٤٧]، وتحتفظ لنا التقاليد اليونانية المتأخرة كثيرًا عن ذلك التاريخ بذكريات "الليديين" Lydians (شعوب البحر) بشأن احتفاظهم بالسيادة على البحر اعتبارًا من السنة الثامنة من حكم الفرعون "رعمسيس" الثالث ولمدة اثنتين وتسعين سنة لاحقة[٤٨].

استمرت على قيد البقاء الثقافة الفلاسطينية حتى خواتيم الألف الثانى، مع انقطاع جذورها بحلول نهاية القرن الثانى عشر ق.م. بتدمير الحضارة الإيجية Aegean، وكشفت عن سماتها الخاصة فى الأوانى الفخارية "البوليكرومية" polychrome (= متعددة الألوان) التى ترجع إلى ذلك العصر.(انظر شكل رقم ٨)[٤٩]. وحتى خلال القرن العاشر استمرت الأسماء الفلاسطينية مثل "جولياث" Goliath، و"أكيش" تعيد إلى الأذهان الأصل الذى انحدرت منه هذه المجموعة العرقية فى جزر بحر "إيجة"[٥٠]، وبينما استبدلت الأسماء القومية، بحلول القرن الثامن ق.م. بأسماء ساميّة (من "سام" وليس من السمو كما يوحى الاشتقاق)، إلاّ أن المدن الفلاسطينية ظلت تحتفظ بـ "رطانة" متميزة حتى القرن الأول ق.م.[٥١].

هذه هى الخلفية التاريخية التى دارت إزاءها "الميلودراما" الغريبة التى نطلق عليها نحن المحدثين اسم "عصر القضاة". ففى الذاكرة الجمعية للإسرائيليين فى سنوات تكوّنهم (كشعب مستقل) لا نعثر على ذكريات محفوظة عن مصر. وليس فى هذا ما يدعو للاندهاش طالما جاء تطور "إسرائيل" ككيان سياسى بعد عصر الرعامسة وحدث ذلك، كما سبق ورأينا، فى المرتفعات بعيدًا عن السيطرة الإمبراطورية لمصر.

رغم هذا الصمت المقبول ظاهرياً، إلاّ أن سفر "القضاة" يعد مصدراً يكتنفه الإبهام لتاريخ القرنين السابقين على نشأة الملكية الإسرائيلية. ففى الوقت الذى تتفق فيه الأسماء الشخصية للأبطال الأفراد فى حالات كثيرة مع أسماء الأعلام المعروفة عن نهاية العصر البرونزى المتأخر والعصور الحديدية الأولى(٥٢)، نجد أن ترتيب فقرات "السفر" بالغ الافتعال، فضلاً عن أن القصص التى يرويها، وكما رأينا، مفعمة بالمفارقات التاريخية anachronisms (كأن يقول أحدهم: ولقد اتصل "نابليون بونابرت" من القلعة بنائبه "كليبر" تليفونيًا. المترجم)(٥٣) ويتعيّن على المؤرخ، إذا قرر أصلاً أن يلجأ إليها، أن يعامل سفر "القضاة" تماماً مثلما يعامل أساطير "الكأس المقدسة" فى العصور الوسيطة (= تلك التى يروج فى التقاليد الشعبية أن السيد المسيح استخدمها فى "العشاء الأخير" وينخرط الأبطال فى البحث عنها فى القصص الأسطورية. المترجم) أو"غرام الإسكندر": كسلسلة من القصص التى تستند إلى شخصيات تاريخية، غير أن ملامحها غابت خلف ضباب الذكريات، ولكن ليس كمصدر تاريخى، يُعتمد عليه بأى حال من الأحوال. كما يتعيَّن عليه أيضاً أن يعى حقيقة بارزة واحدة: إذا تصوَّر المرء أن الكشف الذى يحمل أسماء "القضاة"، الأفراد،، سواء الكبار منهم أو الصغار، قائمة كاملة تمثل كافة الجماعات القبلية الذى يقال إنها تشكِّل "إسرائيل"، فإن التمعن الدقيق فى سفرىْ "القضاة" و"صامويل" الأول سرعان ما سيبدد هذا التصور. فبعضهم ترتبط بأسمائهم أساطير مطولة، بينما يمر المؤلف بالبعض الآخر فى جملة واحدة وحيدة، لكن ذلك ليس السمة الأشد بروزاً لهذا الكشف. فالحقيقة أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء الأبطال الذين يستحقون الذكر، انبثقوا وعاشوا وأدوا أدوارهم فى منطقة محصورة داخل إقليم بيت "يوسف"، و"بنيامين" و"يهودا" فى الشمال، حيث كانت "أورشليم" مركز الإدارة والديانة والثقافة(٥٤). وفى عبارة أخرى إدراج تقاليد شخصية فى "القضاة" لا يعكس سوى سيادة "أورشليم" فى عملية الاختيار، ولا يتصل من قريب ولا من بعيد بالحقيقة التاريخية فى الفترة الزمنية رهن الحديث. ولو كنا نملك ملخصاً لتقاليد مماثلة، حازت تسجيلاً يشبه ذلك النوع، الذى عرفته "السامرة" Samaria فى شمال البلاد، فلربما يصدمنا عدد الأسماء والحواديت التى سقطت من يد الكتبة، ولم تجد لها مكانًا فى سفر "القضاة" المقدس.

يعد تقسيم إسرائيل إلى اثنتىْ عشرة قبيلة، حتى بالاستناد للسجل "التوراتى" ذاته، تقسيمًا مصطنعًا نوعًا ما، وقد يُعزى إلى معيارٍ تقويمى calendrical استعملته الملكية المتأخرة أكثر مما يُعزى إلى أصول تاريخية(٥٥). وليس فى وسعنا الوصول إلى أرض صلبة تصلح للوقوف عليها إلاّ فى حالة واحدة: إذا رفضنا ذلك التقسيم. ولسوف تبدو، إلى حدٍ معقول، صحة المسلمة التى تقول بأن فى "إسرائيل"، كما ظهرت، فى لوح/صادود الفرعون "ميرى – ان– بتاح"، ينبغى علينا أن نفهم ما تدعوه "التوراة" بـ "بيت يوسف"، المتربع على "جبل إفرايم" حول "سيخيم" (حيث تمتعت فى حقيقة الأمر بوجود جنينى منذ عصر "أخيتاتون"(=العمارنة)(٥٦) على أن "بيت يوسف" يكشف عن اتصال جانبى باتجاه الشرق عبر الأردن - فهل هذا المحور يعكس ممرًا أصليًا للدخول؟ - فى ضوء وجود قبيلتىْ "ماكير" Mechir و"جلعاد" Gilead فى الضفة الغربية، بينما نجد على الجانب الجنوبى لأبناء "بيت يوسف" أقاربهم عن طريق الأم ، أى قبيلة "بنيامين" (=الجنوبيين)، وفى التراث الفولكلورى القبلى احتلت ذرية نفس الأم: "راحيل" المرتفعات الواقعة إلى الشمال مباشرة من "أورشليم"(٥٧).

هذه هى إسرائيل وقت نشأتها الأولى. ولقد أضيفت فى أوقات لاحقة نسبيًا، أقاليم أخرى تأوى عشائر تعد، بصورة تقليدية، جزءًا من إطار القبائل الاثنتىْ عشرة، إلى "الفيدرالية"(=الاتحاد) الإسرائيلية. وتؤيد أى قراءة حصيفة لكل من السجلين الأثرى والنصوصى الرأى الذى يقول بأن استيطان "الجليل" حدث على امتداد القرن الحادى عشر حتى القرن العاشر بينما جاءت إضافة القبائل "الجليلية" (= نسبة إلى "الجليل") الأربع إلى هذه "الفيدرالية" خلال الفترة المبكرة للمملكة، أى "الفيدرالية"(٥٨). وفى مرتفعات "يهودا" جنوبيًا، ربما تأخر التاريخ أكثر عن ذلك، فضلاً عن أن الصورة الشاملة كانت حتى أكثر تعقيدًا وشربكة (= من شرك + ربك) فـ "بنو يرحمئيل وبنو كالب وبنو عثنئيل وغيرهم كانوا يشكِّلون سكان ذلك الصقع الوعر من البلاد الذى يسمى "هر- يهودا" أى "جبل – يهودا" (منطقة الوادى "أو الوديان" الضيق العميق)(٥٩) ولا تقوم شواهد على احتلال (= وضع يد) مكثف للإقليم قبل نهاية الألف الثانى أو أوائل الفترة الملكية(٦٠). أما التجمعات الجنوبية الأخرى فأكثر مراوغة: "عمالك"(= عماليق فى "التوراة") Amalek لم يرد لها ذكر فى أى نص معاصر، خارج

نطاق "التوراة"(مع أننا قد نستطيع أن نعثر على شواهد على وجودها الآن على المستوى الأثرى)[٦١]، أما "سيميون" Simeon فواضح غيابها من كافة مجاميع الأدلة.

وتمثل "دان" حالة فريدة. فالاسم يستدعى إلى الذهن المقارنة الفذة مع اسم فرع مكوّن من فروع "شعوب البحر" المعروف باسم "دانون" Danune،[٦٢] ولكن ليس هناك دليل خارج نطاق "التوراة" على استيطان قسم كبير من فلول هذا التجمع أو هذا الفرع فى جنوب فلسطين. وإلى أن يتوفر مثل هذا الدليل يحسن بنا أن نحتفظ بحكمنا.

وإذا كان المصريون يعرفون عن كثب ما يدور فى غرب آسيا القريب من حدودهم، فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل العاشر ق.م.، إلاّ أنه لم يصل إلى أيدينا أى سجل مفصّل منهم فى هذا الشأن. وأيًا كانت العلاقة التى حاول الرعامسة فى أواخر حكمهم أن يواصلوها مع الآسيويين، فلا شك هناك فى أن الأسرة الحادية والعشرين كانت عاجزة عن بسط سيادتها على أى أراض شرقى الدلتا. وحتى "بيبلوس" التى تعد أقدم دولة فى المشرق، استمالتها مصر إلى جانبها، طلبت من المصريين أن يدفعوا مقابل البضائع التى ترسلها إليهم، وجزم الحاكم الحالى بصورة قاطعة بأن المصريين دفعوا لأسلافه مقابلاً للخدمات التى حصلوا عليها منهم [٦٣]. وقال "ذكر- بعل"، حاكم "بيبلوس" ردًا على القول بأن آباءه أرسلوا الأخشاب عن طيب خاطر:

بطبيعة الحال فعلوا ذلك، وإذا دفعت لى شيئًا فى المقابل، فلسوف أحذو حذوهم! ولكن (آبائى) لم يقوموا بهذه الخدمة إلاّ بعد أن أرسل الفرعون له العمر الطويل والرخاء والعافية ست مراكب مشحونة بالمنتجات المصرية، وقد جرى تفريغ هذه المنتجات فى مخازنهم (أى على سبيل الدفع) وأنت؟ ماذا بعثت لى؟ ... والآن إذا كان حاكم مصر سيداً لى، وإذا كنت أنا تابعًا من أتباعه، ما كان ليضطر إلى إرسال طلبه مصحوبًا بالذهب والفضة: أدِ مهمة "آمون"!... ولكننى لست تابعك ولا تابع من بعث بك!

ولما كان فراعنة "تانيس" أعجز من أن يلزموا "البيبليين" (=نسبة إلى "بيبلوس") بالامتثال لطلباتهم، فلقد تبنوا، عن وعى كامل، سياسة تجارية خرطتهم فى اتحادات للمنتجين (= كارتيلات) مع الدول التى أصبحت مستقلة الآن فى الساحل المشرقى[٦٤]. وخلال هذه الدول كان الاتصال الدبلوماسى لا يزال قائمًا مع الدول الكبرى فى عمق

آسيا، بما فى ذلك "آشور" التى بدأ المشرق يستشعر محاولاتها فى شق طريقها نحو الساحل السورى(٦٥). وحقيقة الأمر أننا نعثر فى بلاط "تانيس" على أوامر عسكرية تعكس مآثر ذوى البأس القدامى حتى الأمراء الرعامسة الأقوياء، وتصر الألقاب الخمسة التى يحملها "بيسوسنيس" Psusennes على النصر الذى حققه على الآسيويين(٦٦). ولكن ما إذا كانت تلك الأوامر تعد دليلاً على أى نشاط عسكرى قام به المصريون وقت ذاك فى فلسطين فأمر مجهول تمامًا. حقًا تكشف مصادرنا المتناثرة بين الحين والآخر عن خدم ذوى أصول آسيوية، ولكن السؤال حول ما إذا كانوا قد وصلوا إلى مصر كأسرى حرب أو من خلال تجارة العبيد يظل غير محسوم(٦٧). حقًا كانت مصر لا تزال تتذكر بصورة واضحة، أراضٍ فى الشمال كانت تبسط عليها فى يوم من الأيام سيادتها، كما توضح لنا، بصورة جلية، تفاصيل القسم الجغرافى من قوائم "أمينوبى"، ولكن تلك الأراضى أصبحت تقع الآن فى صقع لم يبعث إلى مصر بضرائب أو يستقبل منها مفتشين(٦٨).

قيام دول العصر الحديدى فى المشرق:

شهد مطلع الألف الأول ق.م. عملية استيعاب (من وجهة نظر مصرية) لعناصر "عسيرة الهضم" من العصر البرونزى المتأخر الغارب فى غرب آسيا فى إطار بدا مألوفًا فى الحال وسهل الضبط والتدبير. وهذا لم يكن "مقاطعة فى البلاد الأجنبية الشمالية"، كما قد يسميها أحد الكتبة فى المملكة الحديثة، وقد خفِّضت إلى منزلة الولاية التابعة، ولكن عوضًا عن ذلك أجزاء من "منطقة نفوذ"، تشتمل على مجموعة من الدول المتنافرة التى شرعت مصر تدرك بالتدريج أنها تستطيع استخدامها كمناطق عازلة ضد مخاطر قادمة من مناطق أبعد.

بدأت فى المشرق، فيما عدا الساحل الفينيقى، تقوم دول جديدة لا تتصل إلى حد كبير، بالولايات التوابع البائدة التى عرفها العصر البرونزى، خلال القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م. وعلى النقيض من دول العصر البرونزى، التى كانت، بصفة أساسية، تركات يورثها الأب لابنه، وتتماثل مع مدن فردية (= كل مدينة على حدة)،

وتتركز كل منها حول مدينة بعينها، نهضت الكيانات السياسية الجديدة، ذات السيادة، داخل نطاق تجمعات عرقية (=إثنية) أعطت فى غالب الأحيان أسماءها القبلية للدولة الجديدة. فمنذ البدء قامت هذه الدول كتعبير سياسى عن "قبيلة": Volk وصممت بصورة توفر إطاراً تستطيع خلاله هذه "القبيلة" أن تعمل وظيفياً. وبينما كان فى طوع العائلات الحاكمة لمثل هذه الدولة أن تختار مدينة ما كمقر وعاصمة، إلا أن القبيلة أو المنطقة هى التى كانت تعيِّن النظام السياسى لها.

ونظراً للماضى البدوى للشعوب التى تشكل هذه الدول "القومية"، مالت صلات القرابة إلى السيادة كالمعيار الكامن للهوية السياسية، وارتقى الإله الذى كان فيما مضى إلهًا للقبيلة كى يغدو ربًا قوميًا أعلى، وذلك مع استبعاد سائر الآلهة الأخرى فى بعض الأحيان. ولما كانت مرحلة التكوين بالنسبة لها قد شهدت اقتصاداً رعوياً وحياة ترحال، كانت الحدود تحتل أهمية أقل بالنسبة لدول العصر الحديدى مما كانت تعنيه للمدن - التركات التى عرفها العصر البرونزى، بل وكشفت دول العصر الحديدى عن نزوع شرير ومزعج نحو التوسع باقتلاع السكان الأصليين وحرمانهم من بلادهم السابقة[٦٩].

يقدم التشكيل العرقى للمشرق فى ذلك الوقت شواهد، بالمثل، على الرياح الجديدة التى أخذت تهب فى الفترة التى أعقبت حقبة شعوب البحر. ولقد عكس تكوين شمال سوريا، وإن كان بشكل غائم، أوج الأيام الخوالى لاندماج الإقليم فى إمبراطورية "الحيثيين" التى ترجع إلى العصر البرونزى المتأخر. ومن المعروف أن دول "سامال" Samal، و"سيليسيا" Cilicia، و"جورجوم" Gurgum، وكاركميش" Carchemish، و"حمات" Hamath، (تلك التى حلت محل "أوجاريت" و"حلب" Aleppo و"نوخاشِشى" Nukhashshe)، حملت جميعها هذا اللقب "حيثية"، وسواء أكانت حيثية من ناحية تكوينها العرقى أم لا، فلقد استخدمت الهيروغليفية الحيثية المتأخرة فى كتابة لغتها. وفى أعماق سوريا، وأكثر إيغالاً فى الجنوب، فتح تفسخ كل من "أمورو" و"تونيب" و"قادش" و"أوب" Upe الباب أمام مجموعة عرقية كانت قائمة بالفعل خلال العصر البرونزى، ولكنها غدت الآن أعظم من أن تتحداها أى قوة عظمى. تلك كانت "الأراميين"، وهم عبارة عن شعب ناطق بلغة سامية تتصل بـ/ وإن كانت متميِّزة تماماً

عن اللهجات الفينيقية فى الساحل أو اللهجات الكنعانية ـ العبرية فى الجنوب، وقد بسطت الجيوب الأرامية سيطرتها على وادى "العاصى" وأعماق سوريا، وفى بحر القرن العاشر كانوا يمرون بعملية إقامة دول قوية فى "حمات" ، و"جشور" Geshur (فى شمال فلسطين) وفى دمشق على وجه خاص(٧٠). وعلى امتداد الساحل الجنوبى من "غزة" حتى "جبل الكرمل" احتفظ الفلاسطينيون والتكريانيون (الذين كانوا قد تسيَّموا = تحولوا كى يصبحوا ساميين بصفة جزئية وقت ذاك) بقبضة محكمة على السهول الساحلية العريضة، ومارسوا نفوذاً متزعزعًا وإن كان وقائيًا، كما فعل المصريون قبلهم، على الجبال البعيدة عن الساحل. ورداً على الوجود الفلاسطينى، شرعت "إسرائيل" و"يهودا" فى إقامة دولة موحدة(٧١).

لم يحافظ السكان الكنعانيون الأصليون على وجودهم مصانًا، إلاّ على امتداد الساحل شمالى "حيفا" الحالية، وعلى طول الساحل حتى "أرفاد"، فى المدن – الدول العريقة "صور" و"صيدا" و"بيروت" و"بيبلوس" و"أرفاد". وقد ظهر هؤلاء الكنعانيون الساحليون الآن (= وقت ذاك) تحت هذا الاسم "الفينيقيون"(٧٢) وكانوا متطلعين نحو البحر أكثر من أى وقت مضى، ولسوف نتتبع طرق وتأثيرات نشاطهم البحرى بعد قليل.

لعله من الغريب أن مصر هى الأخرى وقعت، خلال القرن العاشر ، بمعنى من المعانى، تحت تصنيف "الدول الجديدة". فمنذ الهزيمة الساحقة التى تجرعتها القبائل الليبية فى المعركة التى خاضها ضدهم الفرعون "رعمسيس" الثالث، أخذت هذه القبائل تعود إلى طريق متعرج أقل وضوحًا من التسلل إلى داخل الوادى والدلتا على هيئة مجموعات صغيرة تضع نفسها فى خدمة الدولة كقوة مقاتلة من المرتزقة. ولقد هبطت قبائل "الميشويش" Meshwesh بأعداد كبيرة، واستقر أحد زعمائهم هو "بويو– واوا Buyu-wawa خلال حكم الأسرة العشرين فى زمام "هيراكليوبوليس" Herakleopolis التى كانت تضم ثكنة عسكرية وإدارة للجيش منذ عصر الفرعون "رعمسيس" الثانى. وإذا تطلعنا شمالاً أكثر، فإننا نجد المناطق الغربية للدلتا حول "صايس" قد أصبحت بقعة تضع جالية "اللابو" يدها عليها.(وفى الوجه القبلى أخذت قبائل الـ "محاسْون" Mahaswen تظهر بين الحين والآخر خلال المملكة الحديثة التى كانت قد مالت للغروب، ولكنها لم تفز أبداً بموطئ قدم دائم) ومع نهاية الأسرة الحادية والعشرين نجحت رئاسة (= شياخة)

قبائل الميشويش" فى "هيراكليوبوليس" فى أن تجعل من نفسها عنصراً لا يستطيع البيت الحاكم فى "تانيس" الاستغناء عنه، وكان المؤهل للمنصب هو "شيشنق"، الذى كان قد وصل إلى رتبة القائد العام generalissimo لكافة القوات المسلحة. وكان "شيشنق" هذا رجلاً عجوزاً أنجب أبناء يافعين خلال حكم "بسوسينيس" Psusennes الثانى، وكان قد اكتسب عدداً كبيراً من درجات القرابة مع العائلات البارزة. فالكاهن الأعلى لـ "منف"(= ممفيس باليونانى) كان خاله عن طريق الزواج، وابنه الأكبر "أوسوركون" Osorkon كان قد تزوج من ابنة الفرعون، وهناك ابن ثانٍ له تزوج من إحدى بنات عائلة النبى الرابع لـ "آمون"، أما الابن الثالث فتولى منصب قائد "هيراكليوبوليس". وبالتالى فليس فى الأمر دهشة كبيرة فى أن يصعد "شيشنق" إلى العرش دون أى عائق، ويؤسس بيتًا (=أسرة حاكمة) جديداً، عقب وفاة "بسوسينيس" الثانى، فى سنة ٩٣٠ق.م. دون أن يترك، كما هو واضح، وريثًا للعرش، وهو البيت الذى عده المؤرخ المصرى المعروف "مانيتو" الأسرة الثانية والعشرين(٧٣).

مشكلة المصادر:

إذا نحينا جانبًا القرن العاشر رهن الحديث فى هذا الفصل، فهناك فترات قليلة فى تاريخ المشرق لا يستطيع المرء إلاَّ أن يخرج عنها بانطباعات متضاربة بشكل كامل طالما كان يعتمد على مصادر ثانوية. والمشكلة هنا ثلاثية الأبعاد: الصمت شبه التام من جانب مصادرنا النصوصية (=المدونة)(٧٤) وعجزنا عن تقييم معظم المصادر اللاحقة، للفترة بصورة نقدية. والطبيعة الملتبسة للسجل الأثرى. فـ "طيبة" التى تمدنا طوال خمسة قرون بنقوش ملكية، طيعة الطحن فى طاحونة المؤرخين، توقفت عن الاستمرار كمركز يستقبل نقوش الانتصارات منذ انقطاع الصلة مع العائلة المالكة عند نهاية الأسرة العشرين. والسؤال حول ما إذا كان فراعنة الأسرة الحادية والعشرين قد أذاعوا، بالمثل، مآثرهم على صواديد/ألواح وجداريات فى عاصمتهم "تانيس" تصعب الإجابة عليه، ولكن يبدو أن هذا العمل أصبح من ذكريات الماضى، ولم تستطع عمليات التنقيب إلاَّ الكشف عن نصوص "تاريخية" محدودة العدد للغاية من هذا الموقع(٧٥).

وغنى عن الذكر أن القرن العاشر لم يترك لنا أى نقوش معاصرة من دولتى فلسطين وسوريا.

وإذا ما شققنا طريقنا إلى الوراء نحو المصادر المتأخرة على أمل أن تعطينا صورة تاريخية للعصر، فإننا لا نستطيع إلاّ أن نندب حظنا لغياب أى مقياس نستطيع أن نقيس به مدى الدقة التى تحوزها. وفى هذا الصدد نجد مصدرين: نتفٌ من تاريخ كلاسيكى لمدينة "صور" تكرم علينا بها "يوسيفوس" فى ملخص له[٧٦]، ونص سفرى "صاموئيل" والفصلين (= الإصحاحين) الأوليين من سفر "الملوك" الأول. فملخص "يوسيفوس" لا يتجاوز كثيراً قائمة بأسماء ملوك، ولكنها تبدو متفقة إلى هذا الحد أو ذاك مع التقاليد "التوراتية" كما وردت فى سفر "الملوك" الأول فى وضعه "إيروموس" Eiromos (حيرام) Hiram فى الربع الثانى من القرن العاشر، أى معاصراً على وجه التقريب مع "سليمان". ولو أن المصادر "التوراتية" أكثر شمولاً بكثير، وأكثر إغراء بصورة لانهائية. ومع أن المؤرخ "التوراتى" مضطر إلى الاعتراف بأنه يفتقر إلى أى وسيلة تمكنه من التثبت من الصحة التاريخية لهذه النصوص "التوراتية"، "ومع ذلك فالمؤرخ يستطيع أن يجمع المواد التى تتصل بالموضوع من الحواديت... (و) عندئذٍ يبدو على العمل، الغنى بالمواد التى تحوز عند المؤرخ قيمة عالية"[٧٧]. وإذا كنا لا نزال ميالين للشك، فإننا نقابل بمثل هذه التأكيدات: "لا يبدو أن هناك سبباً يدعو إلى الشك فى جدارة الرواية بالوثوق فيها بشكل عام أو فى دقتها بشكل جوهرى فى السياق التأريخى"[٧٨] أو "لا يبدو أن هناك سببًا يدعو إلى الشك فى وجود نواة تاريخية"[٧٩] ولا تخضع الحالة لأى نقاش آخر، وهنا يتساءل المرء عن المفاتيح التى يملكها الكاتب ويفتقر إليها القارئ. وتزداد حيرة المرء عندما يقرأ: " تعد مصادرنا نتاجات لتدوين ولتحرير فى أوقات لاحقة، إلى الحد الذى يحول دون عزل العناصر الأصلية، فى حالات أكثر كثيراً من العكس ، بأى درجة من الدقة"[٨٠]. ومع ذلك فالكاتب يشعر، بكل وضوح، أنه عزلها، ويستطيع أن يدمغ فقرة ما بأنها "تقرير أقل واقعية مما حدث فى حقيقة الأمر." وهذه قصة أخرى "خرافية"، ورغم ذلك فهناك تفاصيل أخرى " تعد أموراً حقيقية لا نقاش فى صحتها" وإلى جانب ذلك هناك روايات أخرى، مع ذلك، "يستحيل اعتبارها ... سجلاً تاريخياً"[٨١] وهنا يشعر المرء بالحاجة إلى الصراخ: أى

معيار من معايير التقييم تستخدم؟ ما الأدلة غير المنشورة التى تملك؟ ومن المحزن، فى معظم الحالات التى من هذا النوع، أنه لا يأتينا أى جواب على أى من السؤالين.

لا يعد نهج الدرس العلمى المعيارى لتاريخ إسرائيل خلال المملكة المتحدة سوى هجوم ردىء من جانب "التفكير الاستهوائى" wishful thinking عند الأكاديميين. حقًا عندنا تلك الروايات المجيدة فى سفرىْ "صاموئيل" و"الملوك" الأول، وهما مدونان بصورة جيدة ويعتمدان فى الظاهر على حقائق صلبة، فيا له من أسف بالغ إذا اضطرنا النقد التاريخى الصارم إلى صرف النظر عن تلك الروايات وعدم الركون إليها. دعنا، إذن، نرغمها على الخدمة - ماذا فى وسعنا أن نفعل خلاف ذلك؟ - ودع عبء البرهان يقع على كاهل آخرين[٨٢]. وبالتالى، وكما فى حالة استعمال "يوسيفوس"، لنفس المواد، يهبط التناول التاريخى الحديث لعصر "شاؤول" و"داود" و"سليمان" إلى ما يقرب كثيرًا من شرح النص "التوراتى"، وقد حُشى بالتأويلات الملغزة ذات الطابع السياسى أو الاجتماعى.

حقيقة الأمر أن الدراسة "التوراتية" أرست أسس سجل يبعث على الأسى فى تحليل المصادر، بصورة رصينة ومحايدة، فى سفرىْ "صاموئيل" الأول والثانى حول المملكة المتحدة[٨٣]. وبينما قد يشط المرء إذا عزا الأمر إلى دوافع أصولية مستترة، فالطريقة الشائعة فى التعامل مع المصادر عند قيمتها الاسمية على اعتبار أن هذه الوثائق كتبت فى معظمها فى بلاط "سليمان"، تنبع من رغبة موضوعة فى غير موضعها بالمثل، تتمثل فى ترميم أركان الإيمان ودعمها بأى حجج، مهما كانت زائفة. ويبدو أن التزامين، على وجه الخصوص، احتضنا نمو هذا الدفاع الجديد. الأول يتمثل فى حكم جمالى بشكل رئيسى: تُروى القصة المزعومة حول خلافة "داود" فى سفر "صاموئيل" الثانى ٩ – ٢٠ وسفر "الملوك" الأول ١ – ٢ فى لغة نثرية أرقى مما نقابله فى أى رواية توراتية أخرى... أى أن العمل الأصلى كتبه كاتب على درجة عالية من البراعة، إما أنه شاهد شخصيًا كثيرًا من الوقائع أو وجهه شاهد عيان"[٨٤] وبالتالى هل صار علينا أن نستنتج أن الجودة الأدبية دليل على معاصرة المؤلف للأحداث؟ ولكم يتوق المرء (ربما بصورة منحرفة) إلى أن يرى النتيجة التى سيسفر عنها تطبيق مثل هذا المعيار على معالجة "جوفرى أوف مونماوث" Geoffry of Monmouth لقصة "الملك أرثر"(ملك بريطانى أسطورى ظهر فى سلسلة من قصص الحب فى العصور الوسيطة. ولكن ليس معروفًا

ما إذا كانت هذه القصص قد انبثقت فى "ويلز" أو فى شمال بريطانيا. المترجم)، وعلى قصة "يوسف وأسنات" Joseph and Asenath المجهولة المؤلف وعلى "غراميات الإسكندر" Alexander Romances أو على حشد من القصص الخيالية المماثلة. وإذا بهرنا المستوى الأدبى لمثل تلك الكتابات الواردة فى "صامويل" الأول والثانى - فهى، والحق يقال، قصة رائعة بكل المقاييس! - ولكن كثيراً من الدارسين يخطون خطوة أخرى فى هذا السبيل: "يجب النظر إلى قصة "الاستخلاف" هذه كأقدم نموذج على الكتابة التاريخية الإسرائيلية القديمة"(٨٥).

الملاحظة الثانية، وهى ملاحظة بريئة فى حد ذاتها، تتمثل فى أن الدول الملكية فى العصور القديمة، اعتمدت، خلال ممارستها لهيمنتها فى إقليم شاسع، على إطار ضخم من الكتبة حتى تتمكن من إدارته. وهذا صحيح. إلاّ أن الحجة تمضى إلى أن مثل هؤلاء الكتبة كانوا يحتاجون إلى تدريب، كانت توفره، فى النظم المستقرة منذ أمد طويل، التقاليد البيروقراطية نفسها. ولكن فى حالة "سليمان" لم تظهر الإمبراطورية (الإسرائيلية) إلى الوجود إلاّ البارحة، ولم تعرف لا كتبة ولا آلية تدريب للكتبة. وكانت الحاجة ماسة إلى إقامة الإطار العام بأكمله، على وجه السرعة، وأين توجد مثل هذه النماذج أفضل مما توجد فى التقاليد الكتابية الفائقة الرقى لمصر، التى تعد أقرب الجيران إليها؟ ونحن نعرف، ولا نجهل، حجم الأعمال المكتوبة التى كان الكتبة المصريون يتدربون عليها أثناء دراستهم فى دور التعليم فى المملكة الحديثة: فإلى جانب مثل تلك الأشكال اللازمة فى الاستعمالات اليومية كالخطابات والقصص والمذكرات والبيانات وكانت هناك أيضاً الأشعار والترانيم وآداب الحكمة والروايات وقوائم الأعلام (= أسماء الأشخاص وأسماء الأماكن البارزة) وطوالع النجوم ("أعمال" التنجيم) Hemerologies والنصوص السحرية والطبية. وإذا كان "سليمان" قد استورد النظام المصرى، فلابد أن يكون قد حمل معه كل هذه "الأشكال الأدبية" فى نفس البقجة. وألا تشبه إلى حد ملحوظ، فى حقيقة الأمر، الحكم الشائعة لـ "سليمان" (الحكيم) التى نجدها مسطورة على عجل فى سفر "الملوك" الأول ٤: ٢٩-٣٤ مضمون بعض هذه الأشكال الأدبية التى عرفتها مصر؟(٨٦) وبعد أن يقنع المرء نفسه بالتشابه فى الاهتمام بالـ "أدب" فى بلاط "سليمان" - كم يشبه بلاطاً فى أوروبا.

فى القرن التاسع عشر! - ولم يكن الأمر يحتاج إلى أكثر من خطوة واحدة لتصور شريحة من الكتبة الذين يهتمون بتدوين الماضى (الكاتب المصرى المعاصر الذى وقف، على سبيل الافتراض، كنموذج لطاقم الكتبة السليمانيين لم يبد مثل هذا الاهتمام بالتاريخ، ولكن ذلك فات على المدافعين عن الإيمان "التوراتى"). وبالتالى نستطيع أن نعزو "وثيقة الاستخلاف"، والملحمة اليهودية الكبرى، وحتى قصة "يوسف" إلى النشاط الأدبى لبلاط "سليمان"، ونستطيع عندئذ أن نرتاح لأن إيماننا فى تاريخيتها الأساسية لم نكن قد وضعناه فى غير موضعه(٨٧). و"قوائم "داود" لتعداد الأنفس، وحوليات "سليمان" كلها تصبح حقيقة واقعة(٨٨).

يصعب علينا أن نقرر ما إذا كان الأمر يستحق منا أن نبذل محاولة نحو تفنيد مثل هذه الحجج التى لا تتصل بالموضوع، فواحدة ذاتية بشكل كامل، والأخرى استنتاجية: a priori . ولكن نظراً لأن مثل هذه المحاولة سوف تعزز إدراكنا لفترة رئيسية فى التاريخ الإسرائيلى عندما كان التأثير المصرى موضع الاستلهام، فلا بد من بذلها.

ينبغى أن يكون واضحًا بادئ ذى بدء أن المستوى الأدبى لقطعة أدبية ما تتناول أحداث الماضى لا صلة له البتة بمدى قرب المؤلف زمنيًا من تلك الأحداث. و"وثيقة الاستخلاف" فى سفر "صامويل" الثانى ١٣ إلى سفر "الملوك" الأول ٢ تكشف عن نفس السمات التى تكشفها القصص (المناظرة) فى سفر "صامويل" الأول حول مطلع حياة "داود" تحت حكم "شاءول"، تركيز بارع على التحولات الدرامية فى الحبكة والحوارات المتخيلة (التى يستحيل أن يكون المؤلف قد اطلع عليها مع ما تنطوى عليه من خصوصية شديدة) والحساسية للظلال النفسية والتصوير البارع للشخصية والمفارقة الساخرة وما أشبه. ولكن ما من خاصية من هذه الخواص تدل على أن العمل تاريخى بالضرورة، أو تؤيد التأليف المعاصر للحدث الذى يتناوله. وعوضًا عن ذلك فهى سمات حكايات الأبطال و"الفتاة" Mächen الماهرة – الماهرة(٨٩).

ثانيًا: الزعم الذى يرى أن حكم "سليمان" شكّل "تنويراً"، لا يقف على قاعدة صلبة، ويمكن أن يبدو بعيد الاحتمال. وكل ما فى الأمر أن التجمعات السابقة على نشأة المملكة تطلبّت، وحسب، عند لحظة تحولها إلى أمم - دول أكثر تطوراً يقف على

رأسها ملوك، مطالب عملية، ليس إلاّ، فى تبنى هذه الآلية الجديدة الرلمية نحو تعجيل سير أعمال الدولة، وبالتحديد الكتابة[٩٠]. ولعلنا نعرف أن الكتابة خدمت، فى مصر و"ميزوبوتاميا" (= بلاد الرافدين) على سبيل المثال، فى لحظة تحولهما إلى أمة ـ دولة، كل على حدة، أو إلى مجتمع حضرى ثلاثة احتياجات رئيسية: يتمثل الأول فى مسك الدفاتر، والثانى فى إثبات الهوية، والثالث (وهو ملحوظ) فى تخليد الذكريات. ولقد نبع الاحتياجان الأوليان من ضرورات الحياة اليومية التى خبرتها الإدارة المدنية، أما الاحتياج الثالث فيعكس الوعى الذاتى لرأس الدولة بدوره الجديد كتجسيد للمثل العليا التى ينشدها المجتمع. ونتج عن الاحتياج الأول قوائم الضرائب (التى تحدد هوية الفرد المنتج، ونوع السلعة، وحجم الكمية) واللوائح والبطاقات والمذكرات والقوائم وحتى الخطابات، وأنتج الاحتياج الثالث جداريات النصر، مع أو بدون نص شارح، وبيانات السير الذاتية والملخصات (ذات المعلومات القيمة التى كانت تنقل فى الماضى شفويًا، مثل دليل الأدوية وما أشبه). على أن الآداب ليست ممثلة فى هذه اللحظة من التطور الأولى للدولة، ولن ترد إلاّ بعد ذلك بوقت طويل فى المستقبل. ولن تأخذ المواد التى تؤلف بهدف أن تكون دفاعًا أو عملاً دعائيًا لصالح البيت الحاكم أو فرعون بعينه أو عهدًا مقدسًا شكل قصة بطولية، تؤلف بحذق بارع وتودع فى لفة بردى فى الأرشيفات – فمن ذا الذى سيقرأها؟ ـ ولكن على هيئة بيان بسيط مباشر سيرَى (صفة من سيرة) يُنقش فى الحجر ويُرسل إلى الجميع كى يروا ويسمعوا ما يقرأه لهم كاتب – قارئ. وتثبت الأدلة المستقاة من الدول المشرقية الأخرى فى العصر الحديدى ("سامال"، "كاركميش" و"سيليسيا" ودمشق على سبيل المثال لا الحصر) أن نشر نص الأمر بالبناء أو النص السِّيَرى أو نقش التمثال كان بمثابة عرف سار. وينبغى علينا ألا نتوقع إلاّ نفس العمل، دون زيادة أو نقصان من مملكة "داود" و"سليمان"[٩١].

إلاّ أننا لسنا بحاجة إلى قصر التفنيد هنا على إقامة الدليل على استبعاد احتمال صحة العهد السليمانى (المنسوب لـ "سليمان") كتاريخ Date للمواد الواردة فى "صامويل" الأول و"صامويل" الثانى (أو إنتاجها المباشر Vorlage) إذ نستطيع أن نبرز فى هذا الصدد حجة تستند إلى دليل استقرائى. فوجود فقرات عديدة تهدف إلى

التسويغ etiological ينتقص، كما فعلت في حالة "القضاة" من درجة الثقة التي يستطيع المرء أن يضعها في القصص التي ترتبط بها تلك الفقرات، وتجعل من التاريخ السليماني، للتسجيل، بعد جيل واحد وحسب من وقوع الحدث، أبعد احتمالاً[٩٢]. والحقيقة أن عمليات "التسويغ" التي ترتبط باستيلاء "داود" على "أورشليم" ومعاركه المبكرة مع الفلاسطينيين تتصل بمواد من الهزال إلى الحد الذي يبدو معه "التسويغ" رهن الحديث بمثابة التفسيرالشافي الأوحد للتقاليد ذاتها[٩٣]. وتزعم أو تفترض بشكل مسبق، فقرات عديدة وجود ملكية (إسرائيلية) ضاربة في أعماق العصور القديمة[٩٤]، في حين أن "مؤاب" (= موآب) و"عمون" و"إيدوم" كانت بالفعل دولاً ملكية في نظر المؤلف[٩٥]. ويقابل المرء هنا وهنالك تلميحات إلى "موتيفات" وتقاليد إما أنها نبعت أو تطورت إلى النقطة التي تفترضها الفقرات الواردة في سفر "صامويل" في تاريخ لاحق بصورة بارزة[٩٦]. أما المفارقات التاريخية anachronism الصارخة فأكثر مما يسمح به في ثناياه سجل يعتمد على مصادر موثوق بها: النقود المسكوكة ("صامويل" الأول ١٣: ٢١)، الدروع الحديثة ("صامويل" الأول ١٧: ٤-٧، ٣٨-٣٩، ٢٥: ١٣) استئناس الجمال ("صامويل" الأول ٣٠: ١٧) الفروسية (= ركوب الخيول) (وهذا أمر متميز عن شد الخيول في العجلات الحربية: "صامويل" الأول ١٣: ٥ ، "صامويل" الثاني ١: ٦) المعاول والبلط الحديدية (كما لو كانت شائعة في الاستعمال:"صامويل" الثاني ١٢: ٣١) وأساليب فرض الحصار المتقدمة ("صامويل" الثاني٢٠: ١٥)[٩٧] ولم يكن لب "وثيقة الاستخلاف" (سفر "صامويل" الثاني ١٣ إلى "الملوك" الأول الإصحاح الثاني) خاليًا من أي إشارات واضحة إلى أي تاريخ بعد وقت طويل من الأحداث الموصوفة. والمؤلف يدخل شخصياته في ملابس عتيقة.("صامويل" الثاني ١٣: ١٨)[٩٨] وهناك الحديث المرسل عن النقود المسكوكة ("صامويل" الثاني ١٨: ١١-١٢) واستدعاء قوات يصل حجمها إلى أبعاد هائلة لمطاردة خاطفة ("صامويل" الثاني ١٧: ١) وخوض معركة تسفر عن عشرين ألف ضحية ما بين قتيل وجريح ("صامويل" الثاني ١٨: ٧) ومرة أخرى استعمال الخيول ("الملوك" الأول ١: ٥). وعلاوة على ذلك يوصف أحد عداني الجيش بهذا الاسم النوعي أو اسم النوع "كوشي"، وهو اسم يشير إلى فترة تقع بعد الربع الأول من القرن الثامن ق.م. ويعيد

إلى الأذهـان بسـالة الجيش النوبى تحت حكم الفرعون "طاهركا" فى عمليات العدو. ولا يمكن لهذه الفقرة أن تكون قد كتبت إلاّ عندما كان وجود الكوشيين كقوات شبه عسكرية شائعًا بدرجة تجعل من استعمال كلمة "كوشى" فى إحدى القصص عملاً قابلاً للتصديق(٩٩).

يتمثل أحد الأساليب التى يحبذ المرء اللجوء إليها للتخفيف من حدة الحرج فى إرجاع المفارقات التاريخية وعمليات التسويغ والعناصر ذات الطابع الفولكلورى إلى الشروحات المضافة إلى المتون أو إطار التحرير اللاحق، ولكن هذا لا يعدو كونه ذريعة للتملص ليس إلاّ. فالأغلبية الساحقة من الأمثلة التى حشدتُها تنتمى إلى صلب نسيج القصص المروية. إذ تنطوى هذه القصص ذاتها على تاريخ الراوى نفسه (ومن وجهة نظر المؤرخ الحديث) تطعن فى نزاهة مصادره. وكلما كانت مصادره شاملة واستنفد هذه المصادر بشكل كامل، وكلما علا تقديره لها، كلما قل تدخله الشخصى وكلما سهل اكتشاف الإضافات التى يضيفها. ولكن المؤرخ فى "صامويل" الأول والثانى - ولا يحتاج المرء إلى نفى وجود عدد متنوع من "الأيدى" والمصادر المتعددة - لم يكن فى حوزته أى وثائق أو تحت يده أى محدِّثين (= ناقلى معلومات) ممن لا ينظرون هم أنفسهم إلى المملكة المتحدة كذكرى من ذكريات العصر البطولى.

وإذا كانت "وثيقة الاستخلاف" (ودع عنك الحكايات الشاؤولية الأسبق عهدًا) ليست سوى تأليف متأخر العهد، وبالتالى لا تتمتع بقيمة اسمية عالية فى الكشف عن حقائق حكم "داود"،(١٠٠)، فيظل من المشروع أن نتساءل حول السبب الذى يقف وراء كتابتها(١٠١). وعندئذٍ ينهال على المرء عدد من الأجوبة المحيرة. هل تهدف إلى أن تكون بمثابة إدانة لتقاليد الورع التى تصور" الملك داود الطيب القلب"، وهى التقاليد التى تتخلل معظم باقى "العهد القديم"؟ (ومع ذلك فبالتأكيد من "صامويل" الثانى الإصحاح ١٣ حتى "الملوك الأول" "الإصحاح الأول" لا يصور الكاتب أو الكتبة "داود" كشخصية شريرة أو ميكيافيللية، ولكن عوضًا عن ذلك كشخص أخرق طيع يفتقر إلى الحضور وإن كان ينطوى، بصفة أساسية، على نوايا حسنة)(١٠٢). هل تعد بمثابة بيان "معاد للملكية؟(١٠٣) (ولكن أين أفصح عن مثل هذا الرأى أى شخص على وجه الإطلاق؟) هل تأتى كدعاية سياسية عاصرت المملكة المبكرة وهدفت إلى تحرير"داود" من ذنب سفك

دم ملكي؟[١٠٤] (وقد يستطيع المرء أن يجادل، بحجج هزيلة وغير مقنعة، مع تحاشى الصعوبات التى تنطوى عليها العلامات المتشعبة على أن تأليفها جاء فى وقت متأخر) هل تحمل رسالة "مناهضة للمسيحانية" (تيار فى الإيمان اليهودى يقول بظهور ملك من نسل "داود" يخلص بنى إسرائيل من الاضطهاد) تصدر عن العصور التى أعقبت "الخروج"؟[١٠٥] (وقد يكون الكاتب قد أضمر فى حقيقة الأمر شعوراً ربما يكون قد أفصح عن نفسه فى مثل تلك الرواية، ولكن ألا تؤدى البراعة ذاتها فى الصياغة إلى تعريض الرسالة لخطر عدم الوصول؟)

كون "وثيقة الاستخلاف" تقدم لـ "داود" صورة غير ودودة ، وكون ذلك كان موضع الترحيب فى الماضى يقوم عليهما برهان كاف يتمثل فى حذفها من سفر"أخبار الأيام الأول"، وهو السفر الذى يرفع "بيت داود"، دون قيد أو شرط إلى أعلى عليين. ولكن "وثيقة الاستخلاف" تفسر أيضًا منعطفات أخرى فى التاريخ لا نستطيع إلاّ النظر إليها على مسافة ما. كيف يستطيع قاطع طريق من "بيت لحم" أن يقتلع بيت "شاؤول" حتى ولو كان قد تزوج إحدى بناته؟ كيف استطاع غرباء الأطوار فى التاريخ المتأخر أن يجدوا تعليلاً عقلانيًا للخطيئة التى ارتكبها "داود"؟ كيف تأتى أن يخلف "داود" ابنه الأصغر "سليمان" فى ظل ابنه الآخر الأكبر والأعلى شأنًا وجلالاً، وهو معروف جيداً على نطاق الفولكلور؟ حقيقة الأمر أن القصة تقدم تفسيراً للأسرة اليهودية فى إطار الشكل الذى عرفت خلاله للأجيال التالية: انحدرت من نسل "سليمان" الحكيم (وليس نسل "عمنون" Amnon الشهوانى أو "أبسالوم" (=أبشالوم) Absolom المتعطش للسلطة أو "أدونيا" Adonijah)، ولقد كان "سليمان" أورشليميًا حتى النخاع، فهو الابن الوحيد، من بين جميع أبناء "داود" الذين كانوا رهن السباق، الذى ولد لامرأة من "أورشليم" - فريسة أعضاء عصابة سرية ومدعى صناع الملوك، أى دولة كانت لتجد نجدتها على أيدى "سليمان" الذى يتميّز بالصلابة والضرامة، وليس "داود" العاطفى اللين العريكة.

خلاصة القول، علاوة على إضفاء "وثيقة الاستخلاف" طابعًا عقلانيًا على التاريخ، فالوثيقة تقدم أيضًا نموذجًا يتعين أن يتحاشاه أولئك الذين ينوون إصلاح أو إعادة إنشاء دولة "داود". وليحذر "يشوع" و"زيروب - بابيل"!

إلاّ أن الوظيفة المزدوجة من التفسير والتحذير، والمعالجة الأدبية الحساسة للموضوع تقرب بين "وثيقة الاستخلاف" وبين ذلك النوع من النصوص التى يمثلها التاريخ الذى كتبه "بيديسى" Pediese حول العلاقات التى أقامتها عائلته مع مدينة "تيجوى" Teudjoy فى مصر الوسطى[١٠٦] فهذه الرواية الطويلة التى كتبها صاحبها فى سنة ٥١٣ ق.م. تعرض خصائص الأسلوب والمعالجة للموضوع، التى تكشف، وقياساً مع الفارق Mutatis Mutandis، خلال "وثيقة الاستخلاف" عن اهتمام بالتاريخ المدبج لعائلة من العائلات على امتداد الزمن، والحساسية تجاه رد الفعل الذى قد يبديه الأعضاء/الشخصيات الأفراد، والمناقشات المتخيلة والاستخدامات البارعة للانحناءات التى تنطوى عليها الحبكة الدرامية[١٠٧]. وعلى غرار ما كان الهدف المقرر لـ "وثيقة الاستخلاف"، وكما يبدو لنا، هو (الكيفية التى قامت بها المملكة على أيدى "سليمان")("الملوك" الأول ٢: ٤٦)، كذلك نحت رواية "بيديسى" نحو شرح (الكيفية التى لحق خلالها الدمار بـ "تيجوى")

لا يشك أحد فى أن "بيديسى" كان هو شخصياً وشخصياته الدرامية dramatis personae أشخاصاً تاريخيين، مع أن قدراً ملحوظاً من عدم اليقين يحوم حول كثير من التفاصيل التى وردت فى ثنايا روايته. وعلى نفس المنوال يكون من فساد الرأى أن ننكر تاريخية شخصيات "وثيقة الاستخلاف"، إلاّ أن أحجامهم البطولية والأحداث التى شاركوا فيها، تظل محل شك فى معظمها. والحقيقة أن "وثيقة الاستخلاف" قد لا تخبرنا إلا بنفس القدر من الضآلة عن القرن العاشر ق.م. الذى تخبرنا به قصة "موت أرثر" Morte d'Arthur عن القرن السادس بعد الميلاد.

وعندما نمضى بعيداً فيما وراء "وثيقة الاستخلاف" ونأتى إلى مجموعة المواد التى تصف حكم "سليمان" ("الملوك" الأول ٣ –١١)، فإننا نجد أنفسنا محاطين بجو مختلف تمام الاختلاف. إذ يتدهور فوراً كل من أسلوب الكاتب ومعالجته للتفاصيل على حد سواء. فالحساسية للعقدة والتفاصيل وتصوير الشخصيات تختفى كى يحل محلها الابتذال المعروف عن الحواديت الفولكلورية والأمثال وسجل الأسماء[١٠٨]. ولا مناص هنا من التسليم بأننا نواجه الآن مؤلفاً مختلفاً عن مؤلف "وثيقة الاستخلاف".

ونستطيع أن نلخص "التيمات" الواردة فى هذا القسم على النحو التالى:

(١) زواج "سليمان" من ابنة فرعون مصر.(٣: ١، ٧: ٨،٩ : ١٦، ٢٤)

(٢) حلم "سليمان" بـ"جبعون"، طالبًا النصح الحكيم.(٣: ٤-١٤)

(٣) مثل العاهرتين (٣: ١٦-٢٨ بالتصوير لـ ٢)

(٤) قائمة بضباط "سليمان" والمواد الغذائية (٤: ١-١٩، ٢٢-٢٧)

(٥) ملاحظات عمومية حول حكمة "سليمان" (٤: ٢٩-٣٤ بتصوير ٢)

(٦) قصة الحلف المبرم مع "حيرام" وأعمال التحجير (الفصل/الإصحاح الخامس)

(٧) بناء ووصف المعبد (الفصل/الإصحاح السادس)

(٨) بناء القصر والمكاتب الإدارية (٧: ١-١٢)

(٩) عمليات التأثيث التى قام بها "حيرام" الصائغ الصورى (نسبة إلى "مدينة "صور") (٧: ١٣-٤٧)

(١٠) افتتاح المعبد (٨: ١-٢١)

(١١) صلاة "سليمان" (٨: ٢٢-٥٣)

(١٢) تسابيح "سليمان" وقرابينه.(٨: ٥٤-٦٦)

(١٣) رؤية "سليمان" الثانية ووعد "يهوه" (٩: ١-٩)

(١٤) التنازل عن جزء من "الجليل" لـ "صور" (٩: ١٠-١٤)

(١٥) عمال السخرة فى بناء المدن (٩: ١٥-٢٢)

(١٦) الأسطول التجارى فى البحر الأحمر (٩: ٢٦-٢٨، ١٠: ١١-١٢،٢٢)

(١٧) زيارة ملكة "سبأ" (= بلقيس)(١٠: ١-١٠،١٣)

(١٨) دخل "سليمان" وثروته (١٠: ١٤-٢١)

(١٩) متاجرة "سليمان" فى الخيول (١٠: ٢٦-٢٨)

(٢٠) أعمال الارتداد التى ارتكبها "سليمان" (١١: ١-١٣)

(٢١) خصوم "سليمان" (١١: ١٤-٤٤، كعقوبة على ٢٠)

تعد معظم هذه المواد من العمومية بحيث تعجز عن إعطائنا رؤية واضحة لأى حقائق تاريخية، لو كان لها وجود فى الأصل قد تكون كامنة وراء كل ذلك الحشو المفكك[١٠٩]. فمصنف المواد أو المؤلف يجاهد طول الوقت فى سبيل إبهارنا بالمدى الذى بلغته حكمة "سليمان" وصيته، وكيف عاد ذلك عليه بفائدة مالية عالية. وكان بوسع أى شخص أن يكتب ذلك الوصف الذى ورد للمعبد طالما وقعت عليه عيناه قبل سنة ٥٨٦ ق.م. فى الوقت الذى تصور فيه الصلوات والعهود (=الوعود) التى تنم عن الورع، "النفى": Exile من الإصحاح العاشر وحتى الثالث عشر. وإذا كان لنا أن نكشف قصة حكم "سليمان" إلى أساسياتها، فإنها تتلخص فى "الحقائق" التالية:

(١) كان "سليمان" رجلاً حكيماً عظيم الحكمة، بل وألف كتابات فى الحكمة.

(٢) بنى المعبد بعون فينيقى.

(٣) تزوج ابنة فرعون مصر.

(٤) امتلك أسطولاً فى البحر الأحمر وانخرط فى الأعمال التجارية.

(٥) زارته ملكة من العرب الجنوبيين.

(٦) بنى كثيراً من المدن.

(٧) عمل معه عدد من المسئولين الذين وصلت إلينا أسماؤهم.

ليس بين هذه "الحقائق" سوى السادسة والسابعة التى تنطوى على عناصر محددة، أما الأخرى فمبهمة وتعد بمثابة خرافات. ويشير صوغ شخصية "سليمان" استناداً إلى مواد من قبيل الهيمنة الإمبراطورية والبراعة فى عمليات البناء والتجارة

الخارجية (وخصوصًا في أعالي البحر الأحمر) والثروة والحكمة وزواجه من ابنة فرعون مصر العظيم، إلى شخصية موازية، بشكل واضح، تتمثل فى الإمبراطور شبه الأسطورى الذى يرجع إلى الماضى السحيق، وهو الإمبراطور الذى أخذ شكله النهائى اعتبارًا من القرن السادس ق.م. وصاعدًا فى شخص "سيزوستريس"، وهو لا يخرج عن كونه مزجًا بين الفرعون "تحوت - موسى" الثالث، و"رعمسيس" الثانى، وكلاهما عبارة عن شخصيتين تاريخيتين، وليسا، بكل تأكيد، من نسج الخيال، أما القصص التى تروى عنه (أى عن "سيزوستريس") عند "هيرودوت"(مؤرخ و"رحالة" يونانى زار مصر فى القرن الخامس ق.م. وكتب تاريخه باسم: History وأفرد الكتاب الثانى منه لمصر) و"ديودور" (مؤرخ ورحالة يونانى، ينسب إلى "صقلية" مسقط رأسه. وقد زار مصر فى الفترة من ٦٠ إلى ٥٧ ق.م. وكتب تاريخه المعروف باسم Bibliotheca historica فى أربعين كتابًا) وغيرهما فلا يمكن الركون إليها تمامًا. ومن جانبه، فلقد أخذ "سليمان" سمت "سيزوستريس الإسرائيلى"-(١١٠).

مصر وإسرائيل على عهد كل من داود وسليمان:

نسعى كمؤرخين إلى شق طريق لنا خلال المأزق الذى يتمثل فى المصادر النصوصية الأقل شأنًا، لكننا نجد أنفسنا وقد ارتددنا طوعًا أو كرهًا إلى سجل أقل مما يرضينا، يكشف عنه جاروف التنقيب. وعند هذه النقطة لم تظهر إلى الوجود أى نصوص جديدة. بل ولم يظهر حتى اسمىْ "داود" و"سليمان" فى أى نقوش سواء أكانت مصرية أو سامية غربية.

إلاّ أن السجل الأثرى، مع ذلك، لا يخذلنا، تمامًا مثلما يقودنا خذلانه لنا فى الكشف عن أى أدلة من النقوش المكتوبة، إلى الاعتقاد. فهناك لمرة واحدة تماسك فى الاتجاه العام للمعلومات المتوافرة. فالمدن التى ينسب إلى "سليمان" بناؤها، وعلى وجه الخصوص "حازور"(="حاصور" فى إحدى ترجمات "التوراة". المترجم) و"مجدو" و"جزر" تكشف عن ملامح معمارية متميزة مثل الأسوار ذات المكامن (وقاعات للمدافعين ضد العدو الخارجى. المترجم) والبوابات الثلاثية التوصيل ومقار الحكام، تحمل طابعًا دامغًا

على نوايا واحدة أو عقل واحد وراء البناء[١١١]. وعلاوة على ذلك يكشف القرن العاشر حقًا عن أدلة على توسع الاستيطان وعلى نوع من تخطيط المدن، مما يستطيع المرء أن ينسبه لمملكة مركزية قوية،[١١٢] كما لا يمكننا إنكار وجود سلطة قوية معاصرة فى "يهودا" و"النقب"، قادرة على بسط سيطرتها على دروب التجارة وبناء الحصون[١١٣].

وإذا كان لنا أن نتبنى موقفًا مسبقًا، فبصفتنا علماء مصريات لا نستطيع أن نروغ من كثير مما تقوله "التوراة" عن مصر خلال حكم كل من "داود" و"سليمان". فالسجل إلى هذا الحد أو ذاك يدعو للقبول ظاهريًا. فليس داخلاً فى باب المستحيل أن يكون بعض المصريين الجوالين قد دخلوا فى نطاق مجموعات يهودية خلال الربع الأول من القرن العاشر (قارن "صامويل" الأول ٣٠: ١١، و"صامويل" الثانى ٢٣: ٢١) ولعله من المقبول عقلاً أن تكون مصر قد رحبت بنشوء دولة "إسرائيل"، نظرًا لروح العداء التى كشفت عنها منذ البداية ضد الاحتلال الفلاسطينى للسهل الساحلى. وحتى يكون من المقبول أن نفترض أن تكون مصر قد شنت عدة هجمات، فى مطلع القرن العاشر ق.م. على الجيوب الفلاسطينية والكنعانية فى "شيفيلاه" Shephelah، وقد لحق الدمار بأحد هذه الجيوب: "جزر" فى حريق هائل[١١٤]. ويكشف بعض فراعنة الأسرة الحادية والعشرين عن أدلة قوية على نوايا عدائية ضد آسيا فى ألقابهم وأيقوناتهم[١١٥]. ولكنه أيضًا من المقبول عقلاً أن يكون البلاط المصرى قد منح العون وأسباب الراحة المادية للمنشقين والمتمردين على "سليمان"[١١٦]. والكاتب الحالى (دونالد ريدفورد.) يجد شخصيًا من الصعب عليه أن يرى فى زواج "سليمان" من ابنة فرعون مصر حقيقة تاريخية[١١٧]. ولكن يتعين علينا أن نعترف بأن القرن العاشر، شهد، إلى حد كاف بصورة ملحوظة، صعود أعضاء عديدين من الجانب الأموى لعائلات نبيلة وأخرى ملكية فى مصر، ممن أصبحوا يرون بعض الأهمية فى عقد الزيجات لأسباب اقتصادية أو سياسية[١١٨].

ولكن إلى أين نتجه انطلاقًا من هذه النقطة؟ لعل وصف قول ما بأنه "مقبول ظاهريًا" لا يشكل أكثر من الحد الأدنى من الفائدة من وجهة نظر المؤرخ. فالمرء يسعى لفحص "الاحتمال" probability، وليس ما إذا كانت حادثة مزعومة يمكن أن تكون قد وقعت.(فالإجابة فى هذه الحالة الأخيرة سوف تكون باستمرار على وجه التقريب: نعم

يمكن أن...) وفى ظل الحالة الملتبسة الراهنة لمعارفنا، يبدو من باب النزق فى أقصى طرف (وفى أقل القليل من باب الادعاء الصرف) أن نمضى فى تدبيج مجلدات تتسم بالتعالم حول موضوعات مثل: "السياسات الخارجية لـ "داود" و"سليمان" أو اقتصادات الدفاع، أو دستور الدولة، أو الشرعية الملكية أو أجهزة الإدارة الحكومية. فعلى أكثر تقدير لن يكسب المرء من وراء ذلك سوى نظرة محدودة إلى ما رأى فيه كاتب سفر "تثنية الاشتراع" طبيعة المملكة المتحدة(١١٩).

فلنعلم أنفسنا أن نتعايش مع الغموض والالتباس. ويومًا ما قد يظهر دليل على متاجرة "سليمان" فى الخيول أو زواجه من ابنة فرعون مصر. وإلى أن يحدث ذلك يجب أن تظل كل هذه الموضوعات فى نطاق الـ "مدراش"Midrash (المصطلح مشتق من الفعل العبرى "درش" = بحث وفحص. والمصطلح يشير إلى نهج متكلف فى تفسير التقاليد الشفوية للنص المقدس وخصوصًا الأسفار الخمسة. المترجم) أو الروايات الخيالية.

الهوامش

(١) Brooks, Climate through the Ages (New York,1970),336.

(٢) حول إغلاق المناجم انظر:

W.B.Emery, Egypt in Nubia (London,1965),206-7;R.Giveon, The Impact of Egypt on Canaan (Göttingen,1978),51ff.;B.Rothenberg,Timna (Aylebury,U.K.,1972),163; on the economics of the period, see J.Cerny,JWH 1 (1954),903-21;J.J.Janssen,SAK 3 (1975),127-86;idem,Commodity Prices from the Ramessid Period(Leiden,1075).

(٣) See T.E. Peet,The Great Tomb-Robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty (London,1930).

(٤) G.Maspero,La trouvaille de Deir el-Bahari (Cairo,1883);idem,Les momies royales de Deir el-Bahari (Cairo,1887);J.E.Harris and K.R.Weeks,X-Raying the Pharaohs (New York,1973),chap,3.

(٥) Diodorus,1:63.1

(٦) A.H.Gardiner,JMEOS 2 (1912), 61;E.F.Wente,Late Ramesside Letters (Chicago, 1966),79.

(٧) D.B.Redford,Ld? 2 (1977),1129-33.

(٨) Cf.Wenamun 2:35 (AH.Gardiner,Late Egyptian Stories {Brussels,1931}70).

مصطلح "ضابط":(snn(ty)) كان يعنى فى الأصل "المحارب - قائد العجلة الحربية" انظر:

(A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica {Oxford,1947}, 1:28*; A.R.Schulman. JARCE 2 {1963},87-88;D.Meeks,Année Lexicographique {Paris,1981},2:332-33; {Paris,1982),3:258),

إلا أن المصطلح هنا يعنى ما يقترب من "المسئول المكلف." ويبدو من عبارة "وينامون" أن تعيينه جاء خلال هاتف إلهى.

(٩) كانت "تانت-أمون" ابنة مرافق (S^3b) بسيط لأحد الفرسان يدعى "نيب - سينى" انظر:

H.Gautier, Livre des rois (Cairo,1914),3:258(L);P.Montet, Le drame d'Avaris (Paris, 1941),189,n.4.

ولكن هناك محاولات نحو النظر إليها كالملكة السابقة للفرعون "رعمسيس" الحادى عشر. انظر:
A.Niwinski,JARCE 16 (1979),50-51.

وربما تكون أم "نسبيانيب – جد": Nesubanebdjed هى نودجمى:Nodgme، زوجة "حريحور"، ولكن حتى هذا الاحتمال بعيد للغاية عن أن يكون صحيحًا. انظر:.E.Wente,JNES 26 (1967),174

(١٠) يصعب تحديد تاريخ معين لإنشاء "تانيس". على أن الاسم بصرف النظر عن احتمال ظهوره فى التركيبة اللغوية:"Sht-D" انظر:

R.A.Caminos,Literary Fragments in the Hieratic Script {Oxford,1956}

إلاّ أنه ظهر، لأول مرة فى "ويناموّن".انظر:(1:3=Gardiner, Stories,61)

التى ترجع إلى الأسرة العشرين وفى:

Onomasticon Amenemope (A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica {Oxford, 1947} ,2:199*ff.

التى ترجع إلى مطلع الأسرة الحادية والعشرين. وكانت "بى–رعمسيس" لا تزال مقر الحكم تحت ظل الفرعون "رعمسيس" الثالث. قارن:

A.H.Gardiner,JEA 5 {1920},192,no.23,and 192-93,no.25;V.230),

واستمرت فى الوجود حتىٰ نهاية الأسرة..(On,Am.10=Gardiner,Onomastica 2:171*ff

ومعنى القول أنها أى "بى–رعمسيس" قد تعاصرت مع "تانيس" لمدة قصيرة. وعلى نحو ما أصبح واضحًا الآن بصورة جلية فإن "تانيس" كانت قد تأسست خلال الأسرة العشرين الغاربة.

(١١) J.Van Seters, The Hyksos, A New Investigation (New Haven,Conn.,1966), 128ff.; M.Bietak,Tell el-Dab'a (Vienna,1975),2:179ff.;idem,Proceedings of the British Academy 55 (1979),278-79..

(١٢) المقبرة الملكية الأخيرة فى "طيبة" هى غرفة الدفن الناقصة والواقعة تحت سطح الأرض، التى تركها الفرعون "رعمسيس" الحادى عشر فى وادى الملوك (٤: ., P-m 12,501) ولقد اختفى مصطلح "المقبرة الملكية" من نصوص "طيبة" الإدارية بحلول منتصف الأسرة الحادية والعشرين، كما اختفت إدارة الجبانة الملكية بعد ذلك التاريخ بجيل واحد. انظر:

(J. Černy, A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period (Cairo,1973),26,52.

(١٣) P.Barquet,Le Temple d'Amon-rê à Karnak (Cairo,1962),pl.32b,and p.36-37.

(١٤) See lists in the the Great Harris Papyrus:W.Erichson,Papyrus Harris I (Brussels,1933);J.H.Breasted, Ancient Records of Egypt(Chicago,1906),4:124ff.

(١٥) قارن كيف تتبادل كلمة "طيبة" مع عبارة "بيت أمون" و"مصر العليا" فى الألقاب التى ترجع إلى الفترة المتأخرة.

(١٦) See E.Graefe, Untersuchungen zur Verwaltung and Geschichte der Institution der Gotesgemahlin des Amun (Wiesbaden,1981).

(١٧) هو اليوم كوم "تل الهبة". انظر:
R.J.Wenke, Archaeological Investigations at El-Hibeh 1980(Malibu,Calif.1984).

(١٨) A.H.Gardiner.JEA 48 (1962),57ff.

(١٩) Cf.P.Montet, Les constructions et le tombeau de Psousennès 1 à Tanis (Paris,1951).

(٢٠) Ibid.,108,fig.44,pl.72 (no.413);136,fig.51,51,pl.107(no.482).

(٢١) Ibid.,149,fig.54;150,fig.55.

(٢٢) P.Harris 76:8-9.

(٢٣) حول الإشارات المتأخرة لفلول شعوب البحر، انظر:
A.H.Gardiner, Ramesside Administrative Documents (Oxford,1948),7:12-13 (mid-20th Dynasty);J.?erny,Late Ramesside Letters (Brussels,1939),19:21 (21st Dynasty);G.Daressy,ASAE 15 (1915),141 (mid-22nd Dynasty).

(٢٤) حول كلمة "حصن"(nhtw:WB II,317:11-12=) : هناك فقرتان ترجعان إلى حكم الفرعون "رعمسيس" الثانى تكشفان طبيعة هذه المؤسسة: ("ريتينو" المستوطنات، حصون الملك، البلاد التى توطنت وزودت بالسكان) (KRI II,330:15) و(فى سبيل شغل الحصون التى بناها أى "جلالته" بالرجال من أولئك الذين أسرهم بسيفه"(KRI II,206:16)

(٢٥) 228:15-16; (تجارة الفرعون "رعمسيس" مع لبنان") KRI II,27:4
(الفرعون "رعمسيس" الخامس يفاخر بإطلاق صيحته نحو لبنان). انظر:
Rothenburg,Timna,163;KRI VI,10:9-10;228:1-2,15-16
"ريتينو" ملك يمينه خلال الأسر وقد حط عليها جزيتها"، و(هوجزار "خارو"...)

(٢٦) خرطوش الفرعون "رعمسيس" الرابع الذى يرجع إلى "تل ديلحامية" Tell Delhamia فى وادى الأردن:
(J.Leclant, Orientalia 51 {1982},485,fig,83);scarab of Ramesses IV from Tel Fara South (A.Rowe, A Catalogue of Egyptian Scarabs,Scaraboids,Seals and Amulets in the Palestine Archaeological Museum {Cairo,1936},no.8);a bronze of Ramesses VI from Megiddo (KRI VI,278);scarbs of Ramesses VI from Gezer (P-M VII,375), Gaza (R.Giveon,Tel Aviv 4 {1977},66-67,fig1,no.2),and Beth Shemesh (Rowe,no.834)
وإننى لأشك كثيراً فيما إذا كانت هناك أى جعارين ترجع إلى الفرعون "رعمسيس" السادس من تل "الفارعة"
(as T.L.Mclellan, Journal of Field Archaelogy 6 {1979},67;cf.now A.Mazar,IEJ 35 {1985},98,n.9).

(٢٧) KRI VI,269P1-4.

(٢٨) KRI VI,394;cf,
أيضاً العبارات التى تفتقر إلى الابتكار التى تمتع بها الفرعون "رعمسيس" التاسع (KRI VI):

"صيحة الحرب التى يطلقها فى البلاد الأجنبية هى: ساحق الجبال... الرعب منه يخلع قلوب الشماليين". (ibid,466) الذى يفوز فى حومة الوغى، والخبير فى سحق الأجانب، القائد الذى يشتت فلول العدو، من يدمغ البلدان الأجنبية بانتصاراته الباهرة". ومع ذلك ينبغى علينا أن نحذر من تضبيب تلك العبارات لحسنا التاريخى: قرار استخدام عبارات من هذا القبيل ربما يكون قد حدث فى ضوء حادث معين. وحقيقة الأمر أن الفرعون "رعمسيس" التاسع هذا هو الذى يشير إليه ملك "بيبلوس" المعاصر لـ "حريحور" (Wenamun 2,51-53) عندما قال إن "فرعون" بعث إلى أبائه مندوبين. قارن أيضًا الزخرف المطعم لـ"رعمسيس" التاسع الذى يرجع إلى "جزر"(P-M VII,374.)

(٢٩) للاطلاع على تفسير حصيف لمعظم مستويات التدمير فى مواقع المشرق التى تفصل L H IIIB وIIIC انظر:.V.Fritz,UF 5 (1973),123ff.;also see J.D.Muhly,AJA 86 (1982),135

والحجة التى تقول بأن المستويين من التدمير اللذين وجدناهما فى بعض المواقع إنما يعكسان وصول موجتين من الغزاة حجة مرفوضة بشكل كامل:

W.F.Albright, CAH3 II,pt.2 (1975),507ff.;A.Malamat, World History of the Jewish People, 1 seres (Tel Aviv,1971),3:29;R.W.Hutchinson, Prehistoric Crete (Harmondsworth,1962),314.

نجد فى هذه المواقع إما تدمير مزدوج وقع فى فترة وجيزة أو فجوة بين التدمير الذى حدث لمدن العصر البرونزى المتأخر وبين ظهور الفخار الفلاسطينى (Philistine) الذى نقابل فيه أوانى مرحلة:LH IIIC Ib (قارن. "أشدود"{T.Dothan,in Biblical Archaeology Today(Jerusalem,1985),167},Tel Sera{E.Oren,IEJ 24(1974),270).Tel Ma'arabim {ibid},Tel Mikne {S.Gitten and T.Dothan,IEJ 33 (1982),128;36 (1986),106,37(1987),64,67},Tel Batash {IEJ 27 (1977),168;32(1982),153}).

وواضح أننا نعرض الآن لمرحلتين متميزتين فى التأسيس الأولى لـ "شعوب البحر": التدمير المصاحب للغزو الذى قاموا به فى سنة ٨ من حكم الفرعون "رعمسيس" الثالث ومرحلة ثانية تتمثل فى التوسع الذى ارتبط بالعنف وقاموا به خلال وقت وجيز فى الجيل التالى عقب رحيل الفرعون. قارن:

A.Mazar,IEJ 35(1985),95ff.(esp.97,where a terminus of Ramesses VI's reign is strongly suggested for the breakout.

حيث يقترح كثيرون أن انتهاء حكم الفرعون "رعمسيس" السادس كان إيذانًا ببدء الهبة.)

(٣٠) W.J.Pythian-Adams,PEFQS (1923),13,27ff.;62,77-78;T.Dothan,The Philstines and Their Material Culture (Jerusalem,1982),36-37.

(٣١) M.Kochavi,IEJ 24 (1974),261;26(1977),54;B.Mazar,BASOR 124 (1951), 25;IEJ 32 (1982),63;but cf.Mazar,IEJ 35 (1985),99(where an earlier date is suggested)

(حيث يقترح البعض تاريخًا أسبق زمنًا)

(٣٢) E.G.Tel Qasile: A.Mazar,IEJ 25 (1975),77ff.

(٣٣) Cf.Deir el-Balah:T.Dothan.in E.Lipinski,ed.,The Land of Israel:Crossroads of Civilization (Louvain,1985).63-67;Tel Jemmeh(G.van Beek IEJ 24 {1974} 139), where there are two strata (Phlistine)separated by a burnt level:

(حيث نقابل طبقتين (فلاسطين) يفصل بينهما مستوى محروق.انظر:
Dothan,The Philistines,34.

(٢٤) IEJ 28 (1978),194-95.

(٢٥) D.Ussishkin,IEJ 25 (1975),166;after Ramesses III:J.Leclant, Orientalia 51 (1982),486.

(٢٦) See n.29;also Dothan,in The Land of Israel,70-72.

(٢٧) E.Oren,IEJ 24,139,270.

(٢٨) W.M.F.Petrie, Beth-Pelet (London,1929),1:17ff.;Dothan, The Philistnes,29-30; Mazar, IEJ 35 (1985),98.

طرح البعض التأثير المزعوم القادم من بحر "إيجة"
(J.C. Waldbaum, AJA 70 {1966},331-40, see Dothan, in Biblical Archaeology Today,(171)

للتساؤل:.(W.H.Stiebing,Jr.,AJA 74 (1970),139-44.

(٢٩) سكن التكرانيون "دور": Dor تحت حكم الفرعون "رعمسيس" الحادى عشر. قارن:.Wenamun 1,8-9

ويبدو معقولاً أن تستنتج أن الاختلافات الطفيفة بين الشمال ووادى الأردن، وبين السهل الفلاسطيني: Philistine إنما ترجع هذا التشعب العرقى إلى شُعبتين.

(٤٠) E.Oren, The Northern Cemetry at Beth Shean (Leiden,1973);Philistine pottery (الفخار الفلسطيني، مع ذلك فنادر) is,however,rare ;F.W.James, The Iron Age at Beth Shean (Philadelphia,966)150.

(٤١) Jgarfinkel, IEJ 37 (1987),224.

(٤٢) A.Ben-tor,IEJ 25 (1975),169;J.B.Pritchard, in W.A.Ward,ed.,The Role of the Phoenicians in the interaction of Mediterranean Civilization (Beirut,1968),99-112;H.J.Franken, Excavations at Tell Deir 'Alla,vol. 1 (Leiden,1969); R.H.Dornemann, A.Hadidi,ed.,in Studies in the History and Archaeology of Jordan (Amman,1982), 1:135-40.

(٤٣) Gardiner, Onomastica,1:190*ff.(nos.257-60.

(٤٤) حول هوية هذا المكان، انظر:
A.Alt,Schweizerische Theologische Umschau 20 (1950),65.

(٤٥) كانت "دور" بكل تأكيد مستوطنة "تيكرانية" قامت نحو سنة ١٠٧٥ق.م.(انظر رقم ٣٩).

(يرى بعض الباحثين أن اسم "ضكرين": Dhikerin (Dikera) التى تقع بين "بيت جبرين" و"أشدود". انظر:
(R.A.S.MacAlister, The Philistines:Their History and Civilization {London,1911}, 75 and Ziklag (G.A.Wainwright,JEA 47 {1961},77)

مشتق من "تيكر": Tjekker (Teukr(rians}، وهو الأمر الذى يشى بوجود جيوب "تيكرانية" قبل ذلك الوقت.

(٤٦) S.Yeivin, The Israelite Conquest of Canaan, (Istanbul,1971), 113,n.213; B. Mazark The Philistines and the Rise of Israel and Tyre (Jerusalem,1971,10.

المدن الثلاث رهن الحديث لا تتصل من قريب أو بعيد بتلك المدن المذكورة فى سفر "يشوع" ١٥: ٤٦-٤٧ ("عقرون" و"أشدود" و"غزة")، الذى يحذف، مثلما يفعل "أخبار الأيام" الثانى ٢٦: ٦ "أشقلون"، لسبب بسيط هو أنها تعود إلى ما قبل تاريخ ٦٠٥ ق.م. عندما دمرها "نبوخذ نصر" الثانى وهجرها سكانها بصفة مؤقتة.

(٤٧) Wenamun 2,64-66.

(٤٨) حول قوائم السيادة البحرية. انظر:

(٤٩) R.Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land (New York,1970),266-69, Dothan, The Philistnes.

(٥٠) انظر صفحة رقم ٢٥٢ من النص الأصلى.

(٥١) Strabo,16.2.2;Neh.13:24;A.T.Olmstead, A History of the Persian Empire (Chicago, 1948), 51;cf.Zech.9:5.

(٥٢) قارن بين أخرين "عجلون"، قارن "عجلى". انظر:

P.Montet, Kêmi 17 {1964},63,63,fig.1) Yabin (cf.Yabin-ilu,EA 328:4 Abimelech (cf. EA 146-55);Ben Anath (W.Heck,Die Beziehungen Ägyptens zur Vorderasien2 {Wiesbaden, 1971},356);Eli (Ibid.,364).

(٥٣) انظر. ص ٢٧٧، وحول التنظيم والإطار اللاهوتى للمادة انظر الآن:

J.Van Seters. In Search of History (New Haven,Conn.,1983),337-46.

(٥٤) "يشوع" يعيش فى "أفرايم"("يشوع" ١٩: ٥٠) تجتمع القبائل فى "شيلوه" ("يشوع" ٢٢: ١٢) و"شكيم"(= سيخيم) ("يشوع" ٢٤: ١)، "إيهود" (=إهود) يأتى من "بنيامين"("قضاة" ٣: ١٢-٣٠)، و"دبورة" تأتى من أفرايم"("قضاة"٤: ٥)، و"جدعون" و"أبى -مالك"(=أبيمالك)، كلاهما من "منسى" وحكما من حاضرة ملكهم فى "شكيم" ("قضاة" ٦-٩). انظر:

(Ahlsrröm, Who Were the Israelites?,69)

وقصة "يافث" البطولية تصور "أفرايم" بصورة بارزة.("قضاة" ١٠: ٦-١٢: ٧) و"تولع"، رغم ولادته فى "يساكر"، إلاّ أنه يقضى (= يحكم) من "أفرايم"("قضاة" ١٠: ١-٢) و"إبصان" قدم من "بيت لحم"("قضاة" ١٢: ٨-١٠) و"عبدون" من "فرعتون" وقضى لإسرائيل من "أفرايم"("قضاة" ١٢: ١٣-١٥) و"شمشون" وهو من أبناء "دان" دفن فى "أفرايم"("قضاة" ١٦: ٣١) و"إيلى" و"صموئيل"، كلاهما، مقيمان فى "أفرايم" وقصة "اللاوى" والمحظية وقعت أحداثها فى "بيت لحم" و"أفرايم" ("قضاة" ١٩: ١) والحرب اللاحقة بين القبائل تقع فى "بنيامين"("قضاة" ٢٠: ١ وما بعدها).

(٥٥) للاطلاع على نقد لـ انظر:

Van Seters, In Search of History,231-32 and n.81;idem,Abraham in History and Tradition (New Haven,Conn.,1975),143-48;N.P.Lemche, Studia Theologica 38 (1984).

(٥٦) Ahlsröm, Who Were the Israelites ? 66-67.

(٥٧) K. D.Schunk, Benjamin (Berlin,1963);W.C.Hayes and J.M. Miller,eds., Israelite and Judaean History (Philadelphia,1977),92-98.

(٥٨) Ahlström, Who Were the Israelites?,63-64,92,95,I.Finkelstein, The Archaeology of the Israelite Settlement (Jerusalem,1988),94-110;Z.Gal,TA 9 (1982),79-86.

(٥٩) M.Noth, The History of Israel (London,1959),56-58;E.Lipinski,VT 23 (1973),380-81;R.de Vaux, The Early History of Israel (Philadelphia,1978,547.

(٦٠) I.Finkelstein,JNES 47(1988),250-51.

(٦١) M.Kochavi,BAR 6 (1980),27;Finkelstein JNES 47 (1988),243.

(٦٢) Y.Yadin, Australian Journal of (انظر ص ٢٥٢ من النص الأصلي) See p.252. Archaeology 1 (1968),9ff. On the Danite migration:انظر (حول هجرة بني "دان") A.Malamat, Biblica 51 (1970),1-16.

(٦٣) Wenamun 2:5 -13 (Gardiner, Stories,67-68).

حديثه ليس سوى نسيج منسوج من الأكاذيب.

(٦٤) W.F.Albright,JAOS 71 (1951),260-61;idem,in Studies Presented to David Moore Robinson (St.Louis,1951),1:223ff.;CAH2

II pt. 2 (1975), 507ff.J.Leclant, in W.Ward,ed., The Role of the Phoenicians in the Interaction of Mediterranean Civilizations (Beirut,1968),9ff.

وحول واردات مصر في مواقع فلاسطينية انظر:

A. Mazar,BA 40 (1977),85;T.Dothan, in Biblical Archaeology Today,174;deim,IEJ 36 (1986),107.

(٦٥) للاطلاع على الاجتياحات التي قام بها "تيلجات - بيليسير" الأول للساحل الفينيقي، خلال حكم الفرعون "رعمسيس" التاسع على وجه الاحتمال، انظر:($ANET^2$)275a وحول الهدايا التي قدمها فرعون مصر ("نس- با-ان-إب -جد" أو"با-إسبا- خا ع -ان- نيوت" الأول) انظر:

E.F.Weidner,AfO 6 (1930-1931),88;M.Elat,IEJ 25 (1975),32;idem,JAOS 98 (1978);

حول عقد الخرز المنثور للسيدة "تابالتي"، الذي يجوز أن يقف دليلاً على زواج دبلوماسي مع الفرعون، انظر:

E.Dhorme, in Montet, Psousennès, 139ff.;R.Borger, Einleitung in die assyschen Könogsinschriften(Leiden,1964),20-21.

(٦٦) Cf.the "Chief generalissimo of His Majesty,chief steward of Amunrasonther,chief charioteer of His Majesty ... Onkhefenmut,"Montet, Psousennès, 59,fig.21, pl.39;"general and commander(H3wty) of Pharaoh's battalions... Wenbanebdjed,"ibid.,84,fig.31;see further D.B.Redford,JAOS 93 (1973),4-5.

(٦٧) Cf.Akh-amun-nekhy and Akh-ptah-nekhy,

قارن "أخ-أمون-نيخي" و"أخ - بتاح - نيخي" الذين يشار إليهم على وجه الخصوص بصفتهم "خدم سوريين" في لوح/صادود الوقف لـ "شيشنق" بن ناملوت" من أبيدوس".انظر:

A.Mariette,Catalogue général d'Abydos no.1225,10-11;A.M.Blackman, JEA 27 (1941), 92; cf.also Shepet,commander of Shield bearers, in El-Hibeh letters (mid-eleventh century B.C.:W.Spiegelberg,ZÄS 53 (1921),no.33,verso 2.

(٦٨) Cf. R.A.Caminos, A Tale of Woe (Oxford,1977),67(If indeed Nhrn is to be read).

(إذا كان لكلمة "ن هـ ر ن" أن ـ تُقرأ)

(٦٩) G.Buccellati, Cities and Nations of Ancient Syria (Rome,1967),92ff.

(٧٠) حول الممالك الحيثية – الحديثة، انظر:

J.D.Hawkins,CAH2,III,pt.1 (1982),372-44;O.R.Gurney, The Hittites2 (Harmondsworth, 1962), 39-46;J.G.Macqueen, The Hittites (London,1986),154-56;

حول الاستخدام اللاحق لمصطلح "الحثيين"، انظر:

J.Van Seters, VT 22 (1972),64-81, on the Aramaeans, see B.Mazar, BA 25 (1962),98-120;A.Malamat, in D.J.Wiseman,ed.,Peoples of Old Testament Times (Oxford,1973).134-55;W.T.Pitard, Ancient Damascus (Winona Lake,Ind.,1987).

(٧١) حول دور الفلاسطينيين كتهديد أسهم في توحيد القبائل العبرية، انظر:

A.D.H.Mayes,VT 23 (1973),151,ff.;cf.also K,Koch.VT 19(1969),78ff.

(٧٢) حول المدن الفينيقية في العصر الحديدي، انظر:

M.Noth,WO 1,no,1 (1947),21ff.;D.Baramki, Phoenicia and Phoenicias (Beirut,1961);D.Harden, The Phoenicians (Hardmondsworth,1971);J.D.Muhly, in Biblical Archaeology Today,177-91;E.Gubel et al.,eds.,Studia Phoenicia,1 vol.1(Louvain, 1983).

(٧٣) حول الليبيين، انظر: الأعمال التي جرى الاستشهاد بها في الفصل الثاني عشر رقم ١٩من النص الأصلي.

(٧٤) Cf.A.Malamat, in T.Ishida,ed.,Studies in the Period of David and Solomon (Tokyo,1982),189-90.

(٧٥) كانت "تانيس"، إذا ما قارنْاها بغيرها من المدن، مدينة جديدة لا تنطوي على تقاليد عريقة تعود بها إلى العصور الإمبراطورية لمصر. وعلاوة على ذلك كانت الأسرة الثانية والعشرون ليبية الأصل، وقد لا تكون قد شاطرت أو قدرت كل التقدير المملكة الحديثة التي ولعت بنشر سجلات النصر.

(٧٦) Cf.H.J.Katzenstein, The History of Tyre (Jerusalem,1973),78ff.;Van Seters, In Search of History,195ff.

(٧٧) J.A.Soggin,in Hayes and Miller, Israelite and Judaean History,335-37.

(٧٨) Ibid,346.

(٧٩) Ibid,361.

(٨٠) Ibid,362.

(٨١) Ibid.,351-53,338,364.

(٨٢) Cf.the apt comments (التعليقات الموفقة) of M.Liverani, Oriens Antiquus 16 (1977),105.

(٨٣) الصورة آخذة بالتغير: من الأعمال العديدة فى هذا الخصوص، يستطيع المرء أن يقرأ بغية إنعاش الذاكرة وجنى الفائدة تلك الأعمال العميقة مثل:

Van Seters, In Search of History,W.C.Hayes and J.M.Miller, A History of Ancient Israel and Juda (Philadelphia,1986);B.Halpem, The First Historians (An Francisco,1988).

(٨٤) E.Lipinski, in J.A.Emerton ed.,Cogress Volume, Jerusalem 1986(Leiden,1988),160-61;cf.A.Ah,Kleine Schriften zur Geschichte des Vlkes Israel (Munich,1959), 2:15; T.N.D.Mettinger,King and Messiah (Lund,1976),31.

(٨٥) G. von Rad, The Problem of the Hexateuch and Other Essays (Edinburgh, 1966, 176; cf.H.Gunkel, in Religion in Geschichte und Gegenwart[3]

(Tübingen,1957-),2:1112ff.;M.Burrows, in R.C.Denton,ed.,The Idea of History in the Ancient Near East (New Haven,Conn.,1955),110;

هذا الرأى منتشر على نطاق واسع، وللاطلاع على حجة مقنعة بأن "وثيقة الاستخلاف" بدأت مع "صموئيل" الثانى الإصحاح الثانى (ما لم يكن قبل ذلك) انظر:

Van Seters, In Search of History,281-82.

(٨٦) Alt,Kleine Schriften,2:94-96;but cf.M.V.Fox,VT 36(1986),302-10.

(٨٧) Gunkel,in Religion in Geschichte und Gegenwart3,2:1112ff.;G.Von Rad, Gesammelte Studien zum alten Testament (Munich,1961),225-37;idem,The Problem,203;M.Noth, in Religion in Geschichte und Gegenwart3,2:1498-1504; R.B.Y..Scott,VT Suppl.3 (1955),262-79;O.Eissfeldt, Introduction to the Old Testament (New York,1965),247;Lipinski, in Emerson,Congress Volume,157-64, Burrows, in Denton,Idea of History, 112; J.Blenkinsopp,VT Suppl.15 (1966),44-57; T.Ishida, Royal Dynasties of Ancient Israel (Berlin,1977),136,148;G.Rendsburg, The Reduction of Genesis (Winona Lake,Ind.,1986).

(٨٨) N.Na'aman, Borders and Districts in Biblical Historiography (Jerusalem, 1986); E.W.Heaton, Solomon's New Men (London,1974);Z.Kalli, Historical Geography of the Bible: The Tribal Territories of Israel (JerusaLem, 1986);A.F.Rainey, Abr-Nahrain 27 (1989),178;D.Edelman,JNES 50 (1990).69-73.

(٨٩) Hayes and Miller, A History,152-60;
تتوفر "موتيفات" فولكلورية الطابع حول الزوجة العاقر ("صموئيل" الثانى الإصحاح الأول آية رقم ١١)، القصة الفاحشة حول دحر الغازى ("صموئيل" الأول الإصحاح الخامس)، واختيار الابن الأصغر (داود: "صموئيل" الأول ١٦: ١-١٣، "سليمان" نفسه!)، ("موتيف" داود-جولياث) ("صموئيل" الأول ١٧)، "موتيف" فقء العين:
F.M.Cross, in E.Tov,ed.,The Hebrew and Greek Texts of Samuel(Jerusalem, 1980),105-109);

المئة غلفة كمهر-للعروس ("صموئيل" الأول ١٨: ٢٥،"صموئيل" الثانى٣: ١٤). الأرقام هنا تنتمى لمملكة الخيال، ومع ذلك فهى جزء لا يتجزأ من الحبكة القصصية: مثال: "صموئيل" الأول ٤: ٢، ١٠(أربعة آلاف وثلاثين ألفًا لقوا مصرعهم) "صموئيل" الأول ١١، قارن ١٥: ٤("يهودا" تحشد عشرة آلاف رجل، و"إسرائيل" ثلاثمائة رجل)، "صموئيل" ١٣: ٢ (ثلاثين ألف عجلة حربية وستة آلاف فارس.)، "صموئيل" الأول ٦: ١(قوات مختارة يصل قوامها إلى ثلاثين ألف رجل بالعدد)، "صموئيل" الثانى ٨، ١٠، ١٨: ٧ (اثنان وعشرون ألفًا ، وثمانية عشر ألف رجل لقوا حتفهم ذبحًا فى معارك "داود"، صموئيل" الثانى ١٢: ١٣(والوزن الخرافى لتاج ملك بنى عمون).

(٩٠) حول ما يلى ذلك، انظر:
D.B.Redford, Pharaonic King-lists, Annals and Day-books (Toronto,1986),133-34.

(٩١) لأولئك الذين يميلون إلى الاعتقاد بأنه بالنظر إلى أننا أصبحنا نعرف (الآن) أن أبناء "إسرائيل" كانوا يتمتعون بنسبة أعلى ممن يقرأون ويكتبون عما كان مفترضًا فيما مضى، وبالتالى كان ممكنا تماما للإسرائيليين القدماء أن يسلموا أعمالهم التاريخية والنبوية وخواطرهم حول غث الأشياء للكتابة منذ البدء، ينبغى علينا أن نذكرهم ببعض الحقائق الرزينة:

أولاً: معرفة القراءة والكتابة صفة نسبية ويتعين علينا أن نعرف ممن يسوقها فى الحديث أن يطلعنا على المقياس الذى تقاس به هذه المعرفة فى لحظة تاريخية معينة. وإذا كان الأمر قد أسفر عن تناقض مع التقديرات السابقة للعلماء، جاز لنا نحن أيضًا أن نهمل الموضوع بأكمله. ولقد تشكك العلماء منذ وقت طويل فى أن يكون عصر الملكية (اليهودية-الإسرائيلية) قد عرف كتبة ينسخون مستندات إدارية أكثر بكثير مما أوحت به الأدلة، والنصوص المدونة التى توفرت من الاستكشافات حتى تاريخه تؤيد هذا التشكك (قارن:
I.T.Kaufman,BA 45(1982),29-39;F.Vattioni,AION 28 (1978),227-28;A.R.Millard, in Biblical Archaeology Today,301-12).

ومع ذلك فالشقف التافهة التى لا تزيد كثيرا عن عدة مئات وحفنة الأختام وكذلك الأختام المصنوعة من الرصاص التى ظهرت إلى النور، لم توفر، تحت أى ظرف من الظروف، أسسًا قوية للاعتقاد فى وجود مجتمع يعرف القراءة والكتابة (literate) فى إسرائيل القديمة. ولقد جاءتنا محررات أكثر كثيرًا، بما لا يقاس، من مصر البطلمية، ولكن القول بأن المجتمع المصرى فى القرن الثانى ق.م. كان يعرف القراءة والكتابة قول يعطى انطباعًا مضللاً.

ثانيا: الحقيقة المجردة بأن بعض الإسرائيليين كان فى وسعهم أن يكتبوا موضوعات إنشائية أدبية الطابع، لا يعنى أنهم كتبوا مثل تلك الموضوعات فعلا. فلقد كان فى طوع المصريين أن يكتبوا قصصًا حول "خوفو" و"بيبى" الأول و"عبيب"(=أبوفيس) و"خام-ويزى" خلال حياتهم أو بعد وفاتهم بوقت قصير

حيث كانوا يمتلكون الأداة: القلم! ومع ذلك لم يقدموا على ذلك، والقصص التى انحدرت إلينا منهم حول تلك الشخصيات الذائعة الصيت ألفت بعد انتهاء حياتهم بعدة قرون.

ثالثًا: يجب علينا أن نتذكر جيدًا أن التدوين فى العصور القديمة وحتى العصر الهيلينى كان فى كافة الثقافات (بما ذلك العبرية واليونانية، حاشا!) مفكرة لمساعدة الذاكرة aide-memoire، ولم تكن الأمية وصمة عار تلحق بمن لا يجيد القراءة والكتابة. وعندما كانت التصورات الكبرى تتهيأ للتشكل، كان أصحابها يجمعون نتف أفكارهم، وسواء أكانوا يجيدون الكتابة أم لا، تمهيدا لإلقائها شفهيا، وإذا كنا اليوم نملك نسخًا مما ارتجلوه، فإننا ندين بذلك لعملية ثانوية وخارجة عن جوهر الموضوع من طرق النقل.

(٩٢) قارن سببية الظواهر الطوبوجرافية: الأحجار ("صموئيل" الأول ٦: ١٨، ٢٣: ٢٨) بئر ("صموئيل" الثانى ٢: ١٦) نصب ("صموئيل" الثانى التذكارى ١٨:١٨) عن الحقائق السياسية ("صموئيل" الأول ١٣: ١٤، ٣١: ٧ "صموئيل" الثانى ٤: ٣، ٦: ٢٣) عن السوالف ("صموئيل" الأول ٣٠: ٢٥)

(٩٣) "صموئيل" الثانى ٥: ٨(بالاستناد، بكل تأكيد على وجود إشعار من المعبد يقيد الوصول إلى الضريح: قارن إس. سونيرون.(S.Sauneron,BIFAO 60 (1960),111-12.)

(٩٤) "صموئيل" الأول ٢: ١-١٠ (مزمور ملكى) .Ch.8;10:17-19;12:6-25

(٩٥) "صموئيل" ١٤: ٤٧، ٢٢: ٣

(٩٦) حكاية الوباء ("صموئيل" الأول ٤: ٨) تغليظ قلب الفرعون ("صموئيل" الأول ٦:٦) وإهلاك العماليق "= عامو- ليك"("صموئيل" الأول ١٥: ٢) وموت "أبى- مالك" ("صموئيل" الثانى ١١: ٢١) الحملة المناهضة لـ "بعل" التى عرفتها أواخر العصر الملكى ("صموئيل" الأول ٧: ٣-٤) شريعة موسى ("الملوك" ٢: ٣)

(٩٧) يظهر أن استخدام الأكوام وكباش الحرب فى الجنوب الغربى، وخصوصًا من جانب الدول الصغرى خطوة سابقة لأوانها.

(٩٨) انظر:

E.A.Speiser, The Anchor Bible:Gens;s (New York,1964),289-90.

(٩٩) الكوشيون (المدجاى) معروفون فى فلسطين خلال العصور الأتونية (العمارنة).انظر:

(H.Klengel, in Ägypten und Kusch (Berlin,1977),227-33),

ونقل تجمعات كوشية وإعادة توطينهم فى الشمال عمل معروف منذ الأسرة التاسعة عشرة (KRI II,206);) ولكن هذه كانت إجراءات إمبراطورية توقفت مع انهيارها. ولمدة ثلاثة قرون اعتبارًا من سنة ١٠٥٠ق.م.على وجه التقريب استمرت العلاقات مقطوعة بين النوبة ومصر، وأصبحت النوبة السفلى مخلخلة السكان، والكوشيون غائبون غيابا شبه كامل من مصر.انظر:

B.G.Trigger, History and Settlement of Lower Nubia (New Haven, Conn., 1959), 112-14; T.Säve Söderberg,Temples and Tombs of Ancient Nubia (New York,1987),38-39.

ومع ذلك، فمع نهوض مملكة "كوش" فى النصف الثانى من القرن الثامن ق.م.، أخذ الكوشيون يتغلغلون فى شمال وادى النيل. والإصحاح العشرون من سفر "إشعيا" يحمل أقدم إشارة على وجه الاحتمال إلى

"كوش" فى العهد القديم، باعتبار أن كافة الإشارات الواردة فى فقرات أخرى متأخرة دون جدال
(Redford,King-Lists,323 and n.165;similarly in Phoenician,Z. Harris, A Grammar of the Phoenician Language(New Haven,Conn.,1936),113)

وخلال نفس الفترة قفز اسم العلم "كوشى" كى يكتسب شعبية واسعة فى ذخيرة أسماء الأعلام المصرية مع عودة النوبة إلى البروز إلى مراكز الصدارة فى مصر خلال الأسرة الخامسة والعشرين.انظر:
(711-663B.C.):J.Leclant, Enquête sur les sacerdoces et les sanctuaires égyptiens à l'époque dite "éthiopienne" (Cairo,1954),70-71.

تحت ظل حكم الفرعون "طاهركا" برع الكوشيون فى العدو.انظر:
(690-664B.C.):A.M.Moussa,MDAIK 37 (1981),331-38,pl.47.

(١٠٠) الاعتماد على "وثيقة الاستخلاف" كوثيقة تاريخية عند قيمتها الاسمية يجعل من أى تقص للأمر - مهما كان صاحبه ضليعا واسع الاطلاع - مجرد تمرين ذهنى، فارغ المحتوى. قارن:
A.Malamat,JNES 22 (1963),1ff.idem, in Ishida,Studies in the Period of David and Solomon,189ff.;Ishida,Royal Dynasties,175ff.;F.Langlamet,RB 89 (1982),5ff.,(وعدد كبير آخر)and a host of others

(١٠١) Cf. J.Van Seters,JSOT 1 (1976),22-29,F.Langlamet,RB 83 (1976)321ff.

(١٠٢) Cf.Van Setters, In Search of History,283,
الذى يقارن بين "داود" فى روايات "شاؤول"، الذى يقود جنوده باستمرار فى أتون المعارك وبين "داود" الآخر المذكور فى "وثيقة الاستخلاف" الذى لم يخرج قط على رأس جنوده فى أى معركة!

(١٠٣) L.Delekat, BZAW 105 (1967),26-36.

(١٠٤) R.N.Whybray, The Succession Narrative (London,1968) 50ff.; cf.N.P.Lemche, JSOT 10 (1978),9-25;idem,Biblische Notizen 24(1984),106-7.

(١٠٥) Van Seters, In Search of History,290-91.

(١٠٦) P.Rylands IX:F.L.Griffith, Catalogue of the Demotic Papyri in the John Rylands Library, Manchester (Manchester,1909).

(١٠٧) هذه الخصائص مشتركة مع نوع أدبى آخر، أعنى السيرة التاريخية المطولة لشخصيات فردية معينة، مما نجده خلال الفترة الصاوية-الكوشية. وهنا أيضًا، نجد، بالتعارض مع سير أقدم، اهتماما أصيلا بمشاركة شتى الأفراد فى الأحداث التاريخية الضخمة.

(١٠٨) يصعب على المرء أن يتخيل كيف يستطيع أى شخص أن يصف سفر "الملوك" الأول ٣-١١ بأنه "مؤلف بعناية وحذق" (so B.Porten,HUCA 38 (1967),124) اللهم إلا خلال التفسير "الأيزجيزى": eisegesis (الذى يقوم على قراءة المفسر لما هو غير موجود بالنص المقدس حتى يستقيم السياق!. المترجم)

(١٠٩) حول سفر "أعمال سليمان" وصيته العالى ككتاب فى الحكمة. انظر:
M.Noth, VT Suppl.3 (1960),266;R.B.Y.Scott,VT Suppl.3 (1960),262,279;J.Liver, Biblica 48 (1967),75-101,Porten, HUCA 38 (1967),93-128.

(١١٠) D.B.Redford, in Biblical Archaeology Today,199-200.

ليس هناك أسهل من أن يضل المرء طريقه في خضم الدراسات التي تدور حول "سيزوستريس" كي يتوصل إلى النتيجة الخاطئة التي تقول إن الشخصية التاريخية التي تقف وراء الأسطورة هي "سين – وسرت" الثالث من الأسرة الثانية عشر. انظر ما ظهر في الآونة الأخيرة عن هذا الموضوع:

C.Obsomer, Les Campagnes de Sesostris (Brussels,1988);

والحقيقة الواقعة أن المعضلة ترجع إلى الفهم المغلوط للملخص الذي تركه لنا "مانيتون" في هذا الشأن.

(١١١) Cf.Y.Yadin,IEJ 8 (1958),80-86;idem,Hazor (London,1972),135-64;K. Kenyon,Royal Cities of the Old Testament (New York,1971)53-70;D.Ussishkin,IEJ 16 (1966),174-86; idem,BA 36(1973),78-105;Y.Aharoni,IEJ 24 (1974),13ff.; W.G.Dever,IEj 35(1985),217-30.

(١١٢) Cf.Y.Shiloh,IEJ 28(1978),36-51.

(١١٣) Finkelstein,JNES 47 (1988),241-52.

إلا أن هذا لا يعفي، مع ذلك، أولئك الذين يميلون إلى الاعتماد على أي مادة أو كل المواد الواردة في سفري "القضاة" و"صموئيل" كمجموعة من "نصوص البراهين" التي يستمدون منها، كلما شاءوا، هذا التفسير أو ذاك لمكتشفاتهم: cf.IEJ 28 (1978),268

حيث يقترح المؤلفون، بلا مبالاة، أن هجران "عزبة سارتة" نجم عن معركة "إبنزر (Ebenezer!) أو IEJ 35(1985),187

(حيث يستسلم المؤلفون للإغراء الذي يتمثل في أن يروا (معسكر "دان") (Jud.18: 12) في مستوى المناجم! وفي أقل القليل نستطيع أن نشكر مثل هؤلاء المؤلفين لأنهم يوفرون لنا فاصلاً فكاهيا.

(١١٤) الأدلة، على نحو ما هي عليه، يحملها سفر "الملوك" الأول ٩:١٦، وهناك مسح بارع لحالة السؤال نجده في:

A.R.Green,JBL 97 (1978),353ff.;cf.also Malamat,in Ishida, Studies in the Period of David and Solomon,198-99.

للأسف انخرط كم كبير من التكهنات التافهة التي تفتقر إلى أي موجب، في البحث عن الدافع الكامن وراء سلوك الفرعون المجهول الاسم.قارن:

A.R.Schulman,JNES 38 (1979),188.

يتمثل أحد الانطباعات التي تبعث على القلق التي تتركها السطور الشعرية المقتبسة بهدف الاستشهاد، في أنها مقحمة في قصة برنامج التشييد السليماني (نسبة إلى "سليمان بن داود) لمجرد تفسير كيف حدث وأصبحت "جزر" (وقت ذاك) ضمن أملاك العبرانيين.

(١١٥) Psusennes I (c.1050-1000 B.C.) is the best example (Montet, Psousennès, 74, 136, and passim (وما بعدها).

يعد "بسوسينيس" الأول أفضل نموذج هنا، (نحو١٠٥٠– ١٠٠٠ق.م.(انظر. "مونتيه" "بسوسيينيس")

(١١٦) K.A.Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt (Warminster,1073),274-75;B.Halpern, JBL 93 (1974),J.R.Barlett, ZAW 88(1976), 205ff.H.Donner,in Hayes and Miller, Israelite and Judaean History,386;R.North, in Homanaje a Juan Prado (Madrid,1975),200ff.

(١١٧) Redford, in Biblical Archaeology Today,203,n.42.

(١١٨) حول الزواج المتبادل لعائلة "شيشنق"، انظر: ص ٢٩٩ (من النص الأصلى). وحول "هنت -تووى" حفيدة الكاهن الأعلى "مين-خبر-رع" و"ما-كا-رع"، كريمة "بسوسينيس" الثانى انظر:

A.H.Gardiner,JEA 48 (1962),57ff.;

وحول زواج الأميرات من عامة الشعب، انظر:

Kitchen, Third Intermediate Period,276,282.

(١١٩) قارن أعمالاً مثل تلك التى وضعها:

Z.Kallai,EIJ 27(1977),103-9;S.Talmon, in G.Rendsgurg et al.,eds.,The Bible World (New York,1980),239-48.

الفصل الثانى عشر

مصر وإسرائيل فى عالم "آشور"

تقوم أدلة كافية على أن مصر بذلت محاولة جادة لإحياء إمبراطوريتها بالقوة خلال فترة وجيزة ترجع إلى الجيلين اللذين يمتدان من الربع الأخير من القرن العاشر حتى الربع الأول من القرن التاسع ق.م. ولقد حشدنا دليلاً إلى جانب آخر فى هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ فى سبيل البرهنة على النمط المتكرر لنمو قوة سياسية فى فلسطين، وهو الأمر الذى كان ليثير قلق مصر، ويلحقه باتخاذها عملاً عسكرياً (أو التهديد باتخاذه) كى يفرض الخضوع على هذه القوة أو ينزل بها التخريب. ولم تخفق السلطة الفرعونية بالمرة فى إبداء اهتمام كبير تجاه أى هيكل سياسى فى فلسطين، يتجاوز مجتمعًا ممزقًا (أى وحدات عشائرية متنافرة) وكان أى تهديد لحرية المرور على امتداد الدرب الساحلى أو فى أعماق البلاد، أو أى احتمال لاستخدام أى جزء من فلسطين كقاعدة للأعمال العدوانية، يثير على ضفاف النيل نفس رد الفعل: لعنة الآلهة (المصرية القومية) وحشد القوات. وكان لمشيخة "شاؤول" ومملكة "داود" أن ينظر إليهما المصريون ككيانين يعززان مصالح مصر، نظراً لأن هذين القائدين وجها عداءهما نحو الفلسطينيين، أعداء مصر القدامى. إلاّ أن خسرانهم المعركة لصالح إسرائيل، وما تبع ذلك من سلام وارتفاع لمعدلات الرخاء تحت ظل مملكة "سليمان" ما كان له إلاّ أن يثير، هو الآخر، قلق المصريين.

هجوم شيشنق:

قاد "شيشنق" الأول مؤسس الأسرة الثانية والعشرين، فى تاريخ ليس معروفًا على وجه التحديد حتى الآن، ولكن ربما يكون فى مطلع حكمه (أى فى ثلاثينيات القرن

التاسع)[1] حملة عسكرية كبرى عبر حدود سيناء على فلسطين. وقد ترك لنا قائمة بما يصل إلى ١٥٤ مدينة أنزلت بها القوات المصرية الدمار، وبينما لا تذكر هذه القائمة سواء "يهودا" أو "إسرائيل" بالاسم، إلاّ أن النطاق الجغرافى لأسماء - الأماكن يشير إلى أن المخططين العسكريين التابعين للفرعون "شيشنق" استهدفوا هذين القطاعين من البلاد. وعند نقطة معينة زحف الفرعون إلى "أورشليم" و(نهب كنوز بيت "يهوه" وكنوز بيت الملك وأخذ كل شىء معه. كما أخذ أيضًا كل التروس المصنوعة من الذهب التى كان "سليمان" قد طرقها)("الملوك" الأول ١٤: ٢٦) وأخيرًا أعطتنا "التوراة" بهذا، صلة محددة بين تاريخى مصر وإسرائيل، وهى أقدم صلة، بين الصلات القليلة النفيسة التى وصلت إلى أيدينا فى هذا الصدد.

ركز دارسو التجريدة الكبرى التى قام بها "شيشنق" الأول على "يهودا" و"إسرائيل"، إلى حد كبير، على قائمة أسماء الأماكن بصفتها انعكاسًا للطريق الذى سلكه المصريون[2] والدليل الذى نستطيع الركون إليه فيما يتصل بالتأريخ الذى ورد فى "التوراة"[3]. والسؤال الذى يطل علينا برأسه هنا يدور حول ما إذا كان لا يزال من الجائز الآن أن نستخدم هذه القائمة التى تعد فى واقع الأمر دليلاً رحلاتيًا (نعت اصطناعى من رحلة. المترجم)، فى الربط بينها وبين مستويات التدمير التى كشفت عنها عمليات التنقيب، مثلما حدث فى بعض الأحيان. ولقد احتج كاتب هذه السطور على مثل هذا الاستخدام لقائمة تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة، وبالتحديد إلى عهد الفرعون "تحوت - موسى" الثالث فى ضوء عجز جيوش التحامسة عن القيام بعمليات حصار ناجحة[4]. ومع ذلك فبحلول عصور الرعامسة كانت القوات المصرية قد أتقنت تكنيكات الهجوم، وبينما كانت كيمان (=أكوام) الحصار و"كباش الحرب" (آلات حربية تشبه المنجنيق) لا تزال فى طريق التبلور فى فترة العصر الحديدى الثانى، إلاّ أن جنود حفر الخنادق: sappers والسلالم "النقالى" المدرّجة والحواجز الساترة كانت معروفة بالفعل حيث تقوم عليها شواهد غير منكورة[5]. وعلاوة على ذلك يوصف الفرعون "بسوسينيس" Psusennes الأول، أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين فى أحد الأشياء الصغيرة التى ترجع إلى مقبرته بأنه "غانم المدن" seizer of cities، وهو تنبؤ غريب بـ "بوليوركيتيس" (= ملك مقدونى حكم من ٣٠٦ حتى ٢٨٨ق.م)[6]. ولابد أن

تكنيكات الحصار الفائقة التقدم التى ظهرت بصورة فجائية تحت الضوء الساطع للتاريخ فى صادود/لوح "بى - عانخى" الذى يرجع للقرن الثامن قد سبقتها فترة ملحوظة من التطور، وليس من المستبعد أبداً أن يكون الملوك الليبيون الذى يرجعون إلى قرنين سابقين كانوا بالفعل قد برعوا فى ذلك الوقت فى هذا الفن(٧). وبناء عليه فأرجح الاحتمالات أن يكون ذلك الدليل "الرحلاتى" الذى وضعه "شيشنق" يمكن أيضاً أن يكون حصاد التدمير الذى أنزله والمدن التى استولى عليها، بعد قهرها سواء خلال الحصار أو الاستسلام الطوعى.

كان ليعد أمراً أكثر من مرضٍ لو وصلت إلى أيدينا رواية مصرية لوقائع الغزوالذى قام به "شيشنق". ولكننا لا نملك فى الوقت الحاضر سوى لوح/صادود مهشم فى الكرنك ومنظر واحد للنصر مرسوم على الحائط الجنوبى لقاعة الأعمدة المسقوفة(٨). على أن هذا الصادود/اللوح لا يمدنا إلاّ بعبارات قليلة متناثرة، تشير إلى مبادرة آسيوية لشن الحرب، ولكن هذه الإشارة تثير، مع ذلك سؤالاً حول ما إذا كانت تشير أصلاً إلى الحملة التى وقعت فى السنة الخامسة من حكم "رحبعام". وعلى نفس المنوال يشير منظر النصر إلى الآسيويين "الذين شرعوا يهاجمون حدود جلالته"(٩) ، ولكن هؤلاء يشار إليهم بالعبارات القديمة المقولبة مثل أتباع "مونتو" (=إله حرب مصرى) الآسيوى، وذات مرة بصفتهم (كتائب جيش "ميتانى")(١٠). ولما كان من الصعب على المرء أن يعزو إلى "شيشنق" أن يكون قد شق طريقه موغلاً باتجاه الشمال حتى سهول ميزبوتاميا(= بلاد الرافدين)، فإن الاسم:"ميتانى"، لابد وأن يكون قد استله كاتبه بنوع ما من عدم الاكتراث، من الجداريات الحربية التى نحتها الفرعون "تحوت - موسى" الثالث فى نفس المعبد.

تكشف، بصورة جلية، استعراضات "شيشنق" لحملاته الآسيوية عن محاولة واعية لإحياء الأشكال التى سادت خلال حكم الرعامسة: الصادود/اللوح الذى يعلن ملابسات الحرب casus belli والصادود/اللوح الذى ينصب فى البلدان المقهورة،(١١) ومنظر ضرب الرءوس، وقائمة أسماء الأماكن(١٢) أضف إلى ذلك أن "شيشنق" اتخذ مقره فى نفس رقعة الأرض الواقعة على الفرع الشرقى للنيل فى الدلتا حيث كانت تقوم يوماً ما "بى- رعمسيس" وأنه احتفظ بجزء من هذا الاسم القديم فى اسم مدينته الجديدة(١٣)، وأن إحدى كتائبه كانت تسمى بأحد ألقاب "رعمسيس" الثانى وهو

"وسر- ماعت - رع".(١٤) وفى الكرنك وقفت جدارية النصر الذى حازه جنباً إلى جنب مع سجل الحروب التى قادها الفرعون "رعمسيس" فى الشمال. وتحت ظل خليفتيه تظهر بين الحين والآخر عبارات عابرة يفوح منها عبق الانتصارات الكبرى فى هذا النص أو ذاك، ولكن الانطباع الذى يخرج به المرء لا يتجاوز "لعب الدور بمعنى تمثيله" ليس إلا(١٥).

أما السؤال الذى يدور حول الكيفية التى توافقت بها الغارة التى شنها "شيشنق" مع الأحداث السياسية لحكم "رحبعام"، كما وردت فى سفر "الملوك" الأول، الإصحاح: ١٢ فليس فى حوزتنا أى معلومات للإجابة عليه. فنهب "أورشليم" يرجع إلى السنة الخامسة من حكم "رحبعام"، وفى ضوء السياق الداخلى للفصل/الإصحاح الثانى عشر، يقع هذا التاريخ بعد الانقسام الذى حدث للمملكة. ومع ذلك فالآيات من رقم ١ حتى ١٦ من هذا الفصل نفسه يضمها المؤلف معاً لاستثمار التأثير الدرامى لـ "موتيف" شائع فى السرد الروائى: الملك الحكيم العجوز الذى يعقبه ملك صغير السن أحمق والسياسى المحنك يخلى محله للطاغية(١٦). ثم تستخدم المطالب الفاحشة كتفسيرات تاريخية للأسباب التى تقف وراء نزول الكارثة الناجمة عن كل ذلك. وفى ضوء الحالة المثيرة للأسى لمصادر الملوك التى تتعلق بمطلع المملكة المقسمة، يخطئ المرء خطأ جسيماً إذا قبل ذلك عند قيمته الاسمية(١٧). فالغزو الذى قام به "شيشنق" يمكن أن يكون قد وقع بكل سهولة ضد الدولة التى لم تكن قد قسمت بعد، فى أواخر حكم "سليمان" وأوائل حكم "يربعام" (الذى كان يعيش فى المنفى فى مصر فى وقت سابق) وربما يكون قد بدأ حياته السياسية كربيب يحظى بحماية مصر(١٨).

الأسر الليبية ومشاكلها:

استرجاعاً لأحداث الماضى يبدو لنا أن حكم "شيشنق" كان "زوبعة فى فنجان". وقد يكون الرجل مفعماً بالنشاط واسع الحيلة، إلاّ أن الدولة التى وقف على رأسها كانت تفتقر إلى وحدة الهدف. فقبائل الـ "ميشويش" الذين استقروا الآن كجاليات منفصلة على امتداد الأجزاء المتوسطة والشمالية من مصر الوسطى كانوا بمثابة كيان مستقل ميالٍ للصخب والعراك، وليس حريصاً على الاندماج. ولقد احتفظوا بإصرار وعناد بألقابهم فى لغتهم الليبية، وبأسمائهم الشخصية (الأولى) النابعة من معجم

أسماء الأعلام الليبية القومية، كما ظلوا حتى نهاية اعتلائهم للسلطة فى مصر يحافظون على وضع الريشة البربرية كعلامة تميزهم على الغطاء الذى يرتدونه على رءوسهم[١٩].

تقف الطبيعة الجامحة للمزاج الليبى وراء تمردين عنيفين قام بهما المصريون القوميون: أهل البلاد الأصليين فى زمام "طيبة" فى الربع الثالث من القرن التاسع ق.م.، حقًا لم ينجح أى منهما، إلاّ أن المجهود الهرقلى (=الجبار) الذى احتاجه استتباب النظام حطم فى نهاية المطاف وحدة مصر[٢٠]. فلقد شرع الرؤساء المحليون لقبائل الـ "ميشويش" و"اللابو" فى الدلتا يرون دورهم بين الأهالى من المصريين كسادة فعليين والزمامات التى يقيمون فيها كما لو كانت إقطاعيات fiefs مستقلة استقلالاً ذاتيًا. وبينما استمروا يمنحون فرعون الأسرة الثانية والعشرين، نسل "شيشنق" الذى كان يقيم وقت ذاك فى "تانيس"، ولاء شفويًا، إلاّ أنهم كانوا يسخرون منه بين الحين والآخر بكتابة أسمائه فى أى خراطيش متروكة خالية من أسماء أصحابها الأصليين. وقد أقام هؤلاء الرؤساء مبانٍ تخليدًا لأسمائهم، وصوروا أنفسهم فى أزياء كانت مقصورة فى العادة، فى أوقات سابقة على الملوك وحدهم، بل وبلغ بهم الأمر حد تبنى أساطير ملكية، فأخذوا يتحدثون عن "نهج حوريس" فى الإشارة إلى رسم الآلهة لأقدارهم. وبينما تولوا سلطات مدنية وعسكرية على حد سواء داخل نطاق مقاطعاتهم كى لا نقول إماراتهم، إلاّ أنهم كانوا يستشعرون فخرًا لا تخطئه عين بوظائفهم العسكرية. كما تبنوا لقب "الأول" أو "القائد"، وهو اللقب الذى يوازى: القائد (العسكرى): dux عند الإشارة إلى الحقبة الرومانية المتأخرة ، كما أنعموا على أبنائهم برتبة "الجنرال" (=اللواء). ومن المرجح أن الجنود الليبيين كانوا مرتبطين، داخل كل مقاطعة أو إمارة، مع رئيسهم برباط شبه إقطاعى وكان يمنحهم قطعًا من الأراضى، يحوزونها فى مقابل أداء الخدمة العسكرية المنوطة بهم[٢١].

أما بالنسبة للمصريين أهل البلاد الأصليين، وبعد إقصائهم من موقعهم القديم كسادة فى وطنهم maîtres chez eux، فلقد أخذوا ينسحبون شيئًا فشيئًا إلى داخل مجتمع محلى يسيطر عليه الكهنوت، أصبح فيه الحراك الاجتماعى أكثر صعوبة عما كان عليه فيما مضى. وكان الكهنوت فى تلك الحقبة يضم عددًا قليلاً من العائلات

الأرستقراطية على قمته، ترأس قاعدة أوسع من الكهنة الذين يحتلون مراتب متوسطة. لكن أعضاء الكهنوت جميعًا حرصوا على وظائفهم ورواتبهم الخاصة، وسعوا لضمان توريثها للأجيال الأصغر فى عائلاتهم. وعندما كانت الملكية لا تزال محورية فى المجتمع المصرى، تفاخر الناس بصلاتهم مع العائلة المالكة فى نقوشهم الخاصة. إذ كان ذلك يعطيهم منزلة معينة ودرجة من الأمان فى مجتمع يستند إلى سُلَّم الرتب. ومع ذلك، فبانسحاب الملكية إلى شرق الدلتا، وبدء تضعضعها التدريجى، اكتشف أعضاء الكهنوت أن الإطار الاجتماعى الذى تمتعوا خلاله بهوية خاصة لم يعد له وجود. وهنا لم يجدوا أمامهم سوى الانكفاء على أمجاد شجر النسب العريق، كمصدر لدعم وضعهم فى المجتمع، وصاروا يضمنون فى النقوش التى سينقشونها على تماثيلهم أشجارًا عائلية طويلة(٢٢).

ولم يكن هناك مفر من أن يكون طابع هذا "العالم الشجاع الجديد" Brave New World طابعًا محليًا ضيقًا، وأصبحت حركة الأفراد ، سواء على المستوى المادى أو الاجتماعى مقصورة بصورة متزايدة على زمام الجدود، أى مسقط الرأس(٢٣). وما كان من الضرورى، أحيانًا، أن يبدأ به المرء، سرعان ما صار، مع ذلك، فضيلة خالدة: أن يمكث المرء فى بيته قرار صحيح ومفيد، أما التجول فى الخارج فينطوى على الخطر والمجازفة. ولما أدت حالة الالتباس على المستوى السياسى التى سادت خلال تلك الحقبة بالمجتمع الإقليمى إلى الانطواء على نفسه طلبًا للحماية والاستقرار، فلقد شرعت الجماعة والعائلة تبدوان أكبر مما هما عليه: تعكس نصوص الحكمة التى ترجع إلى الحقبة التى أعقبت المملكة الحديثة روح المدن الصغرى والشكوك الريفية الفلاحية تجاه الغرباء. "لا تنزل فى ناحية لا أقارب لك فيها .. لا تدع ابنك يتخذ زوجة لنفسه من قرية أخرى"(٢٤) ، "خذ حذرك دائمًا من المرأة الغريبة .. لا تبح بكل ما فى قلبك للغريب"(٢٥) "إله المدينة هو الذى تعتمد عليه حياة وممات أهلها". من لا يعبد إلهًا "مصريًا" يسلم نفسه لأيدى العدو (؟) إذا سافر إلى الخارج"(٢٦). وأدت سيادة الروح المحلية الضيقة فى الحياة المصرية إلى امتدادات وتشعبات بارزة على المستوى الاقتصادى – الاجتماعى. ونتج عن فقدان الالتزام خارج نطاق الجماعة المحيطة المباشرة إحساس جديد بأهمية الممتلكات الخاصة وحق المالك فى التصرف فيما يملك. وبخصوص حق المالك

فى توريث ابنته عن طريق وصية، وجد أحد الكهنة الفرصة المناسبة كى يلمح إلى حكم الإله الأكبر (أى "آمون" فى أى تصريح تنظيمى): فليتصرف كل شخص فى ممتلكاته الخاصة كيفما شاء"[٢٧] وفى لمحة نادرة من الاستنارة أفصحت عنها المصلحة الخاصة، تبنت الطبقتان العليا والمتوسطة فى هذا العصر "التانيسى" (نسبة إلى "تانيس" العاصمة) عادة وهب قطع من أراضيها للمعبد المحلى. وبموجب العقد كان يتعيّن على المعبد الذى يستغل قطعة الأرض أن يدفع حصة من ناتجها لمالكها السابق، كما يوافق على التكفل بالترتيبات الخاصة بمقبرة هذا المالك إلى الأبد (كالقرابين). ولما كان هذا يعنى استمرار دخل ثابت لذرية المالك، فلقد أدت هذه العادة إلى ضمان أمن اقتصادى لكل من القطاعين الكهنوتى والخاص على حد سواء[٢٨].

تلك، إذن، كانت مصر، التى - وإن كان الضعف قد دب فى أوصالها - إلاّ أن قوتها ظلت تحمل مع ذلك، صيتًا مهابًا فى نطاق سياسات كانت لا تزال تفتقر إلى خريطة واضحة المعالم لعصر جديد. وقد بدت بعض أطراف الإمبراطورية السابقة وكأنها قد ظلت على ما كانت عليه دون تغيُّر - فالنوبة ظلت بركة راكدة أما الساحل الفينيقى فظل تابعًا يبهره الإعجاب - ولكن رياحًا باردة جديدة كانت، فى واقع الأمر، قد بدأت فى الهبوب.

أيًا كان حجم القوة التى كشف عنها جنوب المشرق فى الآونة الأخيرة فى شكل دولة "سليمان" فذلك كان جزءًا من الماضى. إذ حل التمزق اللغوى والثقافى الآن محل أى نوع من "الإمبراطورية" كان "سليمان" قد أقامها معتمدًا على خليط من تجمعات جديدة تتحدث لهجات سامية غربية، وتستند بصفة جزئية على أصولها القبلية. وانقسمت المملكة العبرانية إلى دولتين وريثتين: "إسرائيل" التى يسودها الرخاء فى أواسط المرتفعات، و"الجليل" و"الضفة الغربية" (السليلة الحقة للخليط القبلى الذى تشكل خلال القرن الثالث عشر ق.م.) ومملكة "يهودا" الجنوبية الضعيفة التى تتركز حول "أورشليم"[٢٩] وفيما وراء البحر الميت ووادى "عربة" كانت ثلاث ممالك صحراوية آخذة فى التبلور حول الأطراف الجنوبية للطريق التجارى المهم المعروف باسم الطريق الملكى "عمون" Ammon وهى عبارة عن تجمع جبلى يقع إلى الجنوب مباشرة من وادى البقاع، ومؤاب (= موآب) التى تضم المزارع الغنية الواقعة بين "وادى

الولاء" Wady Wala وبين الطرف الشمالى للبحر الميت، و"إيدوم" (= سعير القديمة)، وهى عبارة عن جيب من جيوب "الشاسو" فى إقليم جبلى يقع بين "زرد" :Zered و"العقبة"[٣٠].

لم يشكل أى من هذه التجمعات أى مشكلة لمصر.، وفى واقع الأمر كان الاتصال المباشر بينها وبين وادى النيل مقطوعًا إلى حدٍ ما. وعندما هددت قوة كبرى قادمة من الشمال هذا الإقليم. تطلعت هذه التجمعات إلى حد كبير أو صغير نحو مصر كبطلها المنقذ. وهو ما حاول الفرعون أن يكونه (بأى درجة من النجاح؟ هذا ما سنعرفه حالاً)، وذلك لأن الحفاظ على هذه الإمارات التوابع كان يعنى ضمان منطقة عازلة ضد أى غزو يأتى من آسيا.

وكذلك الأمر بالنسبة لـ "فلاسطين" إذ لم تعد تشكل تهديداً لأمن مصر، بل منطقة "إنذار مبكر" على سبيل الاحتمال ضد أى غزو من الشمال. ومع أن الإقليم الساحلى كان قد خضع وقت ذاك لحكم أحفاد النازحين إلى المنطقة عبر البحر المتوسط، إلاّ أنه استمر يتنفس نفس الحياة بفضل الدور الذى كان قد تكفل به خلال الأيام الخوالى للإمبراطورية المصرية. وظلت "غزة" إحدى المدن التى اتخذها المصريون مقراً للإدارة خلال المملكة الحديثة تحتفظ بدورها الرئيسى كـ "مملكة حدودية" وكمركز عصبى لكل من شمال سيناء وغرب "النقب" فى نفس الوقت، وإلى جانب ذلك كإمارة تابعة أدت فى أكثر من مناسبة دور "نائب" عن مصر.

عود على بدء... المصادر:

يستمر غياب المصادر التى ترجع إلى الأسرة الحادية والعشرين، وهو الأمر الذى نتحسر له، سواء بالنسبة لمصر أو غرب آسيا، حيث يربك المحاولات الرامية نحو كتابة تاريخٍ ما للعلاقات بين هاتين المنطقتين فى الثلث الأول للألف الأول. وربما يعانى التاريخ المصرى أكثر ما يعانى، من هذه الفجوة فى المصادر[٣١]. فلم تظهر إلى النور نقوش تحملها نصب تذكارية وصواديد/ألواح نصر مثل تلك التى شكّلت العمود الفقرى لمصادرنا خلال المملكة الحديثة، ولعل من المشكوك فيه أن يكون الفراعنة الليبيون قد

أذاعوا أيًا من تلك النقوش. والمواد المنقوشة التى تجود علينا بها المدينتان الملكيتان، "تانيس" و"بوباسطة" تنتمى بصفة رئيسية إلى مجال نقوش العبادات المصطلح عليها. أما البيانات التى تدور حول السير الذاتية وكانت تحفر، فى الغالب، على التماثيل المنذورة التى توضع فى المعابد فتسهب فى الحديث عن الأنساب وإيراد نتف "الحكمة" التى تتسم بالتقوى والورع، ولكنها توجز، إلى أقصى حد، فى الإشارات التاريخية. وهناك نوع أدبى، تقوم عليه نماذج غزيرة فى تلك الفترة، وهو صادود/لوح الوهبة، وهو عبارة عن نوع من وسائل نقل الملكية المشروعة الخالية من أى إيماءات تاريخية. وإلى جانب ذلك نجد نصوصًا أقل قيمة لا تلقى سوى شعاع نحيل من الضوء كالخطابات والبطاقات الحاملة لتعليمات خاصة وسجلات مناسيب النيل والـ "فيلاكتريات" phylacteries (= نوع خاص من الأحجبة التى تحمل آيات قصيرة، يرتديها المؤمنون تحت آباطهم. المترجم) والعقود ـ تلك هى التصانيف المتناثرة والخارجة فى الغالب عن الموضوع مما يضطر المرء إلى غربلتها، على أمل لا يتحقق فى الغالب.

وكملجأ أخير يتعيَّن على المؤرخ أن يخرج من مصر بحثًا عن مصادره. ولكن السجلات الآشورية، وهى تتميز بالغنى والتفصيل لمعظم الفترة الزمنية التى نتناولها فى هذا الفصل، لا تقدم لنا، فى هذا الصدد، أقل معلومة من المعلومات، وخصوصًا تلك التى يرجع تاريخها إلى القرنين الثامن والسابع ق.م.[٣٢] أما اليونان وهضبة الأناضول وشمال سوريا فلا تمنحنا شيئًا، وخصوصًا اليونان وهضبة الأناضول اللتان تختفيان تحت أشباح عصر من الظلمات. ولا توفر المدن الفينيقية سوى نصوص قليلة للغاية، وأكثرها ليس سوى قرائن فى مجال الفن والعمارة. ولكن المرء ينتظر نصوصًا أكثر من "يهودا" و"إسرائيل" بالذات فى ظل ثروتهما النسبية من الكتابة التاريخية.

استلهم مؤلف سفرىْ "الملوك" الأول والثانى أركان عمله من نقطة التميز التى يحوزها عصر متأخر كثيرًا عن عصر الأحداث التى يحكيان عنها. فهو يعرف الكثير عن حكم "يوشيّا"[٣٣] ("الملوك" الأول ١٣: ٢) وعن "النفى" (وكلاهما يخصان المملكة الشمالية "إسرائيل"، وكذلك عن البابليين "الملوك" الأول ١٤: ١٥ ، "الملوك" الثانى ٢١: ١٠-١٥) ووجهة نظره واضحة لا لبس فيها، يقيس كل ملك من الملوك وفقًا لمعيارىْ

الوحدانية الصارمة التى تقوم على نبذ عبادة الأوثان من جانب والتعلق المتزمت بأهداب طقوس العبادة من جانب آخر، وهما المعياران اللذان يعد حكم "يوشيا" أفضل مثال نموذجى لهما ("الملوك" الثانى ٢٣: ٢٥) وهو (أى المؤلف) لا يضن سواء فى إبداء إعجابه أو الإفصاح عن استيائه. وكان فى وسع أقل "هبابة" فى مصادره عن أى عمل يستطيع أن يحكم عليه من منظوره الأخلاقى، أو يفسره كتحقق لنبوءة تحرك نوازعه الكامنة للتعبير عن رأيه خلال التحرير. وإذا لم يكن فى حوزته أى أحداث أخرى للتعليق عليها أكثر مما هو متوفر حاليًا فيما خلَّفه وراءه لنا، فليس معنى ذلك أنه كان انتقائيًا فى اختياره لمواده، ولكن عوضًا عن ذلك لم تكن مواده لتحتوى على أكثر من ذلك. فلقد نقل إلينا كل ما أعطته له مصادره.

ومع ذلك فهذا "المؤرخ" الذى تحمل آراءه تشابهًا كبيرًا مع تلك الواردة فى سفر "تثنية الاشتراع"، المنشور فى القرن السابع عشر ق.م.[٣٤] لم يستنفد كل القماش الذى كان تحت يده فى "تفصيل" رسالته، التى تبعث على الملل، بالتمام والكمال. إذ يظهر مصدران متميزان خلال عملية التحرير التى تقوم به يده الثقيلة، أولهما يتمثل فى مجموعة القصص التى تدور حول الأنبياء والثانى فى نوع من التأريخ الذى ينطوى على ملاحظات تاريخية. وقصص الأنبياء (جدول رقم ٢)[٣٥] تعالج بصفة أساسية، وإن لم تكن بصفة شاملة، العلاقات مع الملوك وتعطى أهمية كبرى للنبوءات وتحققاتها. وتركز أكبر مجموعة، وتلك التى انضفرت بشكل كامل كروايات، حول أعمال "إيليا" وأليشع"، وتصنع منهما بطلين رئيسيين فى الصراع بين "بعل" و"يهوه"، ومتنبئين بالمصير، وعنصرى تحريض agents provocateurs فى السياسات الإسرائيلية والدمشقية. ولكن يصعب علينا أن نقول شيئًا حول حجم التاريخ الذى نستطيع افتراض وجوده فى كل هذا: حقًا الشخصيات فريدة وأصيلة دون شك، ولكن القصص قد تعكس المشهد من القرن السادس، بل وربما بعد ذلك. أما عن الباقى فنبوءات "إيليا" و"شيمائيل"، والأنبياء المجهولى الأسماء الذين ورد ذكرهم فى سفر "الملوك" الأول ١٢: ٢٥، ١٣: ٣٢ و"الملوك" الثانى ٢١: ١٠-١٥ فيبدو كل منهم عالمًا غيبيًا بشكل مصطنع، والملاحظات التى تتعلق بـ "إشعيا" تأخذنا، بالأولى، إلى الضوء الكامل للسفر الذى يحمل رسالته.

الجدول الثانى- قصص الأنبياء

النبى	الفقرة أوالفقرات	المحتوى
١ - شميعا .	"الملوك" الأول ١٢:١- ٢٤	ذكر السبب الذى حال دون "رحبعام" ومهاجمة إسرائيل .
٢ - أخيا	"الملـــــوك" الأول ١١:١- ١٨:١٤،٤٠	نبوءات ضد "يربعام"
٣ - ...	"الملوك" الأول ١:١٦- ٧،٤	نبوءة ضد "يربعام" لإقحامه شعائر وثنية
٤ - ياهو	"الملوك" الأول ١:١٦- ٤،٧	نبوءة ضد "بتشايع"
٥ - إيليا	"الملوك" الأول ١٧-٢١	إدانة "آخاب"
٦ - ميخا	"الملوك" الأول ١:٣٢- ٣٨	نبـوءة ضـد "ملك إسـرائيل" بشـأن الهـجـوم على "يافث"(رقم ٩)
٧ - "إيليا"	"الملوك" الثانى ٢	نبوءة بموت "أخازيا" من جراء تساؤله بشأن "بعل"
٨ - "إيليا"	"الملوك" الثانى ٢	موت "إيليا"، "أليشع" يبرهن على هالة السحر التى تحف الإله.
٩ - "أليشع"	"الملوك" الثانى	نبـوءة الدمـار الذى سيلحق بالحملة ضد "مؤاب" (=مؤاب)
١٠ - " أليشع"	"الملوك" الثانى ١:٤-٨ : ١٥	قصص الخوارق لـ"أليشع" (إصحاح ٦ ضد "ملك إسرائيل"، ٨: ٧-١٥ بخصوص "حزاعل"
١١ - " أليشع"	"الملوك" الثـانى ١:٩-٢٧،٣٠: ١٠-٣١	تحريض "ياهو" على التمرد وما نجم عن ذلك من مذبحة
١٢ - " أليشع"	"الملوك" الثانى ١٣:٤-٢١	موت "أليشع"
١٣- "يونان"	"الموك" الثانى ١٤:٢٥-٢٧	نبوءة باستعادة "يربعام" الثانى لامبراطورية إسرائيل
١٤ - "إشعيا"	"الملوك الثـانى ١٨:١٣-١٩: ١٩-١-٢٧،٢٠	"إشعيا" والغزو الآشورى
١٥ - -	"الملوك" الثانى ٢١:١٠-١٥	نبوءة ضد "منسى" والتنبؤ بدمار "أورشليم"

تقف الفقرات التاريخية[٣٦] بارزة، بشكل واضح كإطار يبدو كفواصل زمنية من سفر "الملوك" الأول ١٤: ٢١ حتى نهاية "الملوك" الثانى. وإذا نظرنا إلى الصيغ المقولبة التى يتكون منها هذا الإطار بمعزل عن سياقاتها فإنها تنطبق بصفة أساسية على الأسرة التى بدأها "داود" فى "أورشليم" كما حددت اسم والد الملك وعمر جلالته عند التنصيب ومدة ولايته واسم والدته ونسبه ومسقط رأسه وملابسات وفاته ومكان دفنه.

الجدول الثالث – فقرات التأريخ التى تحمل ملاحظات تاريخية

الاسم	ذكر الأب	العمر	الحكم	اسم الأم	اسم الحمو	المكان	الوفاة	مكان الدفن
رحبعام	نعم	٤١	١٧	نعمة	–	عمون	طبيعية	مدنية داود
أبيا	•	–	٣	معكة	أبشالوم	–	•	•
أسا	•	–	٤١	معكة	•	–	مرض بالقدم	•
يهوشفاط	•	٣٥	٢٥		شيلخى	–	طبيعية	•
يهورام	•	٣٢	٨		–	–	•	•
أخزيا	•	٢٢	١	عثليا	–	–	قتلاً	•
يهوآش	•	٧	٤٠	ظبية	–	بير سبع	اغتيالاً	•
أمصيا	•	٢٥	٢٩	يهوعدان	–	أورشليم	اغتيالاً فى لاخيش	• •
عزريا	•	١٦	٥٢	يكليا	–	•	الجزام	•
يوثام	•	٢٥	١٦	يروشا	صادوق	–	طبيعية	•
آحاز	•	٢٠	١٦	–	–	–	•	•
حزقيا	•	٢٥	٢٩	أبى	زكريا	–	مجهولة	–
منسى	•	١٢	٥٥	حفصيبة	–	–	طبيعية	مقبرة فى جنينة "عزى"
عمون	•	٢٢	٢	–	حاروص	يطبة	اغتيالاً	•
يوشيا	•	٨	٣١	يديدة	عداية	بصقة	قتلاً	مقبرته الخاصة
يهوآحاز	•	٢٣	٣ شهور	حموطل	إرميا	لبنة	طبيعية	•
إلياقيم	•	٢٥	١١	زبيدة	فداية	رومة	•	•
يهوياكين	•	١٨	٣ شهور	نحوشتا	إيل-ناثان	أورشليم	–	•
جدليا	•	١٢	١١	حموطل	إرميا	لبنة	–	•

ولكن المؤلف لا يمنح كل هذه المعلومات عن كل ملك، إذ يبدأ ذلك، وحسب، مع نهاية حكم "منسى". أما بالنسبة للقرون الأقدم فهناك فجوات واضحة ومعلومات لا يمكن، كما يتضح للعيان، الركون إليها. ولا يشرع الكاتب في ذكر العمر عند التنصيب إلا مع "يهوشاباط" Jehoshaphat على سبيل المثال،[٣٧] ومع "يوآش" Joash وحسب، يبدأ في إضافة اسم المدينة التي جاءت منها الملكة الأم. و"أبيا" Abiya و"آسا" (وهما أب وابنه) يذكر الكاتب لهما نفس الأم، وأربعة وحسب من أحد عشر ملكًا قبل "حزقيا" Hezekiah يعطيهم الكاتب جدودهم من جانب أمهاتهم. وإلى "منسى" (باستثناء "أحازيا" Ahazia) يكتفي الكاتب بـ "مدينة داود" على ما يكتنفها من غموض عند الإشارة إلى موضع دفنهم .

وعلى النقيض من ذلك نجد "تاريخ" ملوك إسرائيل مفعم بالتحدى إلى حد يدعو للأسى في إيراده للمعلومة إثر المعلومة، الأمر الذى يقود المرء إلى الشك فيما إذا كان لذلك "التاريخ" وجود. ففى العادة لا نقابل سوى مدة الحكم وأبوى الملك، وليس هناك أى بيانات على وجه الإطلاق عن الملكات الأمهات،[٣٨] وموضع الدفن يشار إليه على هذا النحو وحسب: "فى السامرة" أو "فى تيرزا" ولا يحتاج المرء إلى أن يفترض وجود أى "تاريخ" مستقل لإسرائيل كى يفسر هذا "التاريخ" الهزيل!

مع ذلك يسجل تاريخ "يهودا"، بإخلاص، السنة التى نصب فيها أحد الملوك فى ضوء سنة الحكم الموازية فى المملكة المجاورة. وليس هناك سبب يدعو إلى الافتراض بأن ذلك جاء نتيجة لبحث "مدرسى" قام به مؤرخ سفر "تثنية الاشتراع" بصفة شخصية، وعوضًا عن ذلك يتعيَّن أن يعكس العادة الجارية التى كان يقوم بها مسئول "الأرشيفات" فى "يهودا" اعتبارًا من مدة مبكرة. وفى هذا الصدد يتعين علينا أن نتذكر أنه خلال القرنين التاسع والثامن فى مصر فرضت الشراكة فى الحكم (كأن يتولى العرش ملك صبى شرعى ووصى عليه لمدة أو أخرى فى نفس الوقت) وانقسام المملكة إلى عدد من المقاطعات المستقلة بحكم الأمر الواقع بين الحين والآخر، إعطاء تواريخ محددة فى ضوء نسقين من سنوات الحكم[٣٩]. وليس هناك سوى الاعتبارات العملية

وحدها التى تقف وراء هذه العادة. ولقد عبرت الحياة التجارية للمجتمع، بكل مظاهرها المختلفة سائر الانقسامات السياسية البائسة التى كانت تظهر بشكل مؤقت، وأخذت الصفات التجارية تعبر الحدود التى كانت قائمة فيما مضى بسهولة. واضطرت، بالتالى الوثائق التجارية إلى أن تحمل، بحكم الضرورة، تواريخ تتفق مع الاختصاص القضائى للكيان السياسى لهذا الطرف أو ذاك من الأطراف المبرمة للعقود. ولا شك هناك فى أن تداخلاً مماثلاً فى الحياتين السياسية والتجارية لـ"إسرائيل" و"يهودا" هو الذى يكمن عند جذور الظاهرة فى ذلك التاريخ الذى عرفناه عن "يهودا" .

هناك نقطة أخرى يجدر التوقف عندها، وتتمثل فى وجود تواريخ متعارضة للملوك الإسرائيليين فى تأريخ "يهودا"، مع أن كل المعلومات التى يمكن الاستناد إليها فى تعيين البنوة ومدة الولاية مأخوذة بالفعل فى الحسبان. وبناء عليه فليس هناك أى داع لافتراض وجود "تاريخ منفصل لملوك بنى إسرائيل".

بصرف النظر عن إطار التأريخ، و"قصص الأنبياء" والأقسام الافتتاحية الموسعة التى يقدمها مؤرخ سفر "التثنية" فى الجدول الرابع". نجد أن عدداً من الملاحظات التاريخية مبثوثة فى ثنايا سفرى "الملوك" الأولى والثانى ومتصلة بالأسرة الداودية (نسبة إلى "داود") على أن هذه الملاحظات ليست متباينة الواحدة عن الأخرى تبايناً واسعًا، بل تتجمع بصفة أساسية، تحت ثلاثة تصانيف: ملاحظات تتعلق بعمليات بناء أو إهداءات فى معبد "أورشليم" وأخرى تدور حول أنشطة تشييدية خارج "أورشليم" ثم ثالثة تنصب على أنشطة عسكرية. ويبدأ سجل عمليات البناء بالخطط التى وضعها "يوشيا" وجمع المنح المالية، وكلاهما يعود إلى السنة الثالثة والعشرين من حكمه، ويستمر أى السجل ببناء "يوثام" لبوابة المعبد والتجديدات التى أضافها "أحاز" "مجرى العيون" (= قناة صناعية تجرى على قناطر) الذى بناه "حزقيا" والمذابح التى بناها "منسى" والتجديدات الشاملة التى أدخلها "يوشيا". وتتصل كل هذه الملاحظات بإضافات ملموسة إلى مبنى (وفى حالة "يوشيا" سلسلة من الإزالات) التى كانت تجد بكل تأكيد بدء سجلها على هيئة نقش بنائى تدشينى يمكن أن يكون راجعًا إلى

(ربما السنة الثالثة والعشرين). وليس فى وسعنا أن نعرف ما إذا كان مؤرخ سفر "التثنية" كان يستطيع التوصل إلى قائمة كاملة: ما كان، بالنسبة لـ"حزقيال" ٤٣:٧-٨، ليعطى الانطباع بوجود ركام ناتج عن عمليات تشييد ملكية داخل نطاق المعبد. وعلاوة على نقوش المبنى، هناك عدد من الفقرات تشير إلى إهداءات منذورة فى المعبد: استبدال التروس المصنوعة من الذهب بأخرى مصنوعة من البرونز تحت ظل حكم "رحبعام"(وهو الأمر الذى يصادف الإشارة إلى الفرعون "شيشنق") والنذور التى قدمها كل من "آسا" و"يوشيا" و"آمصيا" و"آحاز" و"حزقيا" و"منسى". وتستدعى هذه الإشارات، منفردة ومجتمعة، إلى عين الذهن أحد أكثر أنواع بطاقات التعليمات شيوعًا فى النقوش القديمة، نص التدشين سواء المدون أو المحفور على أحد الأوانى. وكانت مثل هذه الأوانى (أو مستلزمات العبادة المصنوعة من مواد نفيسة) تحفظ، عادة، بعناية فائقة من جيل لآخر، وكان بالإمكان أن تستمر معروضة بعد عقود وربما بعد قرون من صنعها. وحتى لو لم تكن هذه الأشياء ذاتها معروضة، فإن "قائمة الجرد" الخاصة بمفردات العبادة التى يمنحها ملك معين (وحتى قائمة الجرد بالمفردات المستبعدة!) تقوم عليها شواهد فى السجل الأثرى (الأركيولوجى) فى نصوص مشابهة[٤٠] وبناء عليه فإننا لا نشطح بعيداً إذا انتهينا إلى أن نقوش المبانى والإهداءات المنذورة، وكلاهما ظاهرة على معبد الجبل، يمكن أن تكون قد وفرت المصدر الأساسى لكل الملاحظات التى تخص معبد "أورشليم"[٤١].

الجدول الرابع

الملك	الفقرات	المضمون	المصدر
١- رحبعام	"الملوك" الأول ١٤ : ٢٥-٢٨	غزو"شيشنق"، دفع الجزية	المعبد
٢- أبيا	"الملوك" الأول ١٥ : ٦-٧	تقرير عام حول الحروب	محرر "التثنية"
٣- أسا	"الملوك" الأول ١٥:١٢	محور شعائر الرجال-الموامس	محرر"التثنية"
	"الملوك" الأول ١٥:١٣	هدم "الأم" لصنمها	
	"الملوك" الأول ١٥:١٥	نذر النذور	
			ملحوظة معبد(أو نقش نذورى
	"الملوك" الأول ١٥ : ١٦-٢٢		قائمة جد أو سجل كهنوتى آخر
		الحرب وبناء "رامة" واستئجار "ابن حدد"	نقش يرجع لبناء ما (؟)
٤- يهوشافاط	"الملوك" الأول ٢٢:٤٥	(الحروب والسلام مع "إسرائيل")	قصص الأنبياء(فصل ٢٠،٢٢)
	"الملوك" الأول ٢٢:٤٦	القضاء على الموامس - الرجال	
	"الملوك الأول ٢٢:٤٧-٤٩	تحطم أسطول "ترشيش"	صفر "الملوك"الأول١٥:١٢
			صادود (لوح)"أمتصيا"
٥- يورام	"الملوك" الثانى ١٨:٢٠	هبة "أدوم"و "لبنة"(!)	صادود (لوح)"أمتصيا"
٦- يوآش	"الملوك" الثانى ١١	تتويج ومقتل "عثليا"	ملحوظة معبد
	"الملوك" الثانى ١٢: ١٤-١٦	تجميع الأموال لترميم المعبد	صادود(لوح) نصر
	الملوك" ١٢ : ١٧-١٨	تجريد المعبد النذور لدفع ما فرضه "حزاعيل"	ملحوظة معبد
٧- أمصيا	"الملوك" الثانى ١٤ : ٥-٧	أخذ الثأر من قتلة الأب وإنزال الهزيمة ب "أدوم"	(إطار،تاريخى)
			نقش من بناء أوصادود نصر
	"الملوك" الثانى ١٤ : ٨-١٤	الحرب مع "إسرائيل" وتدمير الحائط ونهب المعبد	
٨- أمصيا	"الملوك" الثانى ١٤:٢١	تنصيب الشعب له	(إطار تاريخى)
	"الملوك" الثانى ١٤:٢٢	بنى "إيلات"	نقش من بناء + ملحوظة نصر

٩- يوثام	"الملوك الثاني ١٥:٥ "الملوك" الثاني ١٥:٣٥	حكم نيابة عن أبيه المريض بنى البوابة العليا للمعبد	(إطار تاريخي) نقش من بناء + ملحوظة نصر
١٠- أحاز	"الملوك" الثاني ١٦:٥ "الملوك" الثاني ١٦:٦	حاصر "أورشليم" "أدوم" تعيد الاستيلاء على "إيلات"	قصص الأنبياء و"إشعيا"٧ (ذاكرة شعبية = فولكلور؟)
(١٠ أحاز)	"الملوك" الثاني ١٦ : ٧-٩ "الملوك" الثاني ١٦: ١٠-١٨،٢٢:١٢	يرسل النذور وكنوز المعبد إلى "آشور" كي "يشتري" سكون "تيلجات- بيليسر" تشييد، وتجديدات ومستلزمات عبادة جدية في المعبد	ملحوظة من معبد
١١- حزقيا	"الملوك" الثاني ١٨ : ٧-٨ "الملوك" الثاني ١٨:٤ "الملوك" الثاني ١٨ : ١٥-١٦ "الملوك" الثاني ٢٠:٢٠	تمرض ضد "آشور" وإنزال الهزيمة بالفلسطينيين أزال حية "موسى" النحاسية جرد المعبد من كنوزه كي يعطيها للآشوريين تشييد مجرى مائي	محرر التثنية (من قصص الأنبياء والتقاليد الشفوية) ملحوظة معبد ملحوظة معبد نقش من بناء ما
١٢- منسى	"الملوك" الثاني ٢٢: ١-٢٢:٢٢	أقام مذابح وتماثيل ومستلزمات عبادة في المعبد	ملحوظة مبعد مع تأثيرات من محرر "التثنية"
١٣- يوشيا	"الملوك" الثاني ٢٢: ١-٢٣:٢٢	العثور على "سفر القانون" وتطهير وتجديد العبارات ووضع قصة الفصح لقى مصرعه في معركة	ملحوظة معبد (أوصابود= لوح) أعاد صوغها محرر "التثنية" (إطار تاريخي)
١٤-إلياقيم	"الملوك" الثاني ٢٣: ٢٩-٣٠ "الملوك" الثاني ٢٣:٣٤ "الملوك" الثاني ٢٣:٣٥	الفرعون "نيخو" ينصبه ملكا يفرض ضرائب كي يدفع الجزية لـ "نيخو"	(إطار تاريخي) محرر سفر "التثنية"

إلاّ أن المجموعة الثانية من الملاحظات - التى تتناول أنشطة البناء خارج "أورشليم" - فتتميز بأنها محدودة أكثر كثيراً ومقتضبة إلى أقصى حد. ولا يرتبط سوى ملك "يهودى" (نسبة إلى مملكة "يهودا") واحد فرد ببناء البلاد وهو "عزريا" فى بنائه لـ "إيلات"[٤٢]. أما الباقون فكلهم ملوك "إسرائيليون" (نسبة إلى مملكة "إسرائيل"): "يربعام" الذى بنى سيخيم (شكيم) و"بنويل" و"بثيل" (فى فقرة يتضح عليها تأثير مؤرخ سفر "التثنية") و"بعشا" الذى بنى "رامة" و"أومرى" و"آخاب" اللذان بنيا "السامرة". وما من معلومة من المعلومات ممحصة recherché بل ويمكن أن يكون مؤرخ سفر "التثنية" قد استقاها من المعلومات العامة أو قصص الأنبياء. وتشير الإشارات المقتضبة ذاتها إلى عدم الاحتياج إلى استحضار أى مصادر إضافية.

أما الملاحظات الخاصة بالأنشطة العسكرية فتشكل بقجة مختلطة المحتويات. فبعضها غامض إلى حد أنها لا تعتمد على أى شىء آخر أكثر من افتراض عام من جانب مؤرخ السفر حول الوضع الذى يحتمل أن الأمر كان عليه (قارن على سبيل المثال سفر "الملوك" الأول ١٥: ٦، " والآن كانت هناك حرب بين "رحبعام" وبين "يربعام" طوال أيام حياته"، "الملوك" الأول ٢٢: ٤٤-٤٥،[٤٣] إلخ) كما تعتمد قصة الحرب بين "أمصيا" و"يهوآش" ("الملوك" الثانى ١٤: ٨-١٤) التى تذكرنا بالنقش النذرى وقائمة جرد النذور، على التاريخ الطوبوجرافى (=التضاريسى) لـ "أورشليم" بعد أن هندمه الفولكلور، وجمّله، وهكذا فإننا نكون قد دُفع بنا إلى الوراء فى صميم التقاليد المحلية لـ "أورشليم" وذاكرة الفولكلور معاً.

ويأخذنا، من جانب آخر، عدد لا يخلومن مغزى من الإشارات إلى "إيلات" و"عصيون جابر" و"إيدوم" (="أدوم") إلى قلب مصدر آخر تماماً. ويمكننا أن نعدد هذه الإشارات على النحو التالى:

١- أسطول البحر الأحمر الذى بناه "سليمان" فى "عصيون جابر"("الملوك" الأول ٩: ٢٦-٢٨) - نجاح

٢- أسطول "يهوشافاط" الذى لحقه الدمار فى "عصيون-جابر"("الملوك" الأول ٢٢: ٤٧-٤٩) - فشل

٣- تمرد "أدوم" و"لبنة"[٤٤] ("الملوك" الثانى ٨: ٢٠-٢٢) ـ فشل

٤- هزيمة "أمصيا" لـ ""أدوم" (مثل رقم ٥)

٥- إعادة بناء "إيلات" على أيدى "عزريا" ("الملوك" الثانى ١٤: ٧، ٢٢) ـ نجاح

تشير هذه الملاحظات، بتركيزها على بناء المدن والهيمنة السياسية، وبعباراتها المقتضبة إلى مصدر واحد وحسب (وقد يستطيع المرء أن يضيف، ودون تنميق أو تأويل من جانب المحرر الذى اقتطف النص)، وهو لوح/صادود النصر والسيرة الذاتية. وهذه كانت شائعة فى العصر الحديدى وكانت تميل دائمًا إلى معارضة أنشطة أسلاف المتكلم (أو الموقف الذى كان سائدًا قبل عصره) بأيام السعادة والصفاء، والإنجازات الباهرة فى ظل حكمه هو[٤٥]. وقد يكون فى طوع المرء أن يعيد بناء منطوق لوح/صادود "عزريا" على النحو التالى: أنا "عزريا" بن "أمصيا"، بن "يهوآش" ملك "يهودا". كان الأدوميون، فيما مضى، خاضعين لـ "داود"، والد والدى، وعلى عهد "سليمان"، بن "داود" اعتادت الغلايين أن تمخر العباب باتجاه الجنوب انطلاقًا من "عصيون – جابر"... ولكن اعتبارًا من عهد "يهوشاباط" توقفت حركة تلك الغلايين، وخلال عصر "يورام" ثار ابنه "أدوم" و"لبنة" ضد "يهودا". ولكن "أمصيا"، والدى أنزل الهزيمة بـ "أدوم" وأعادها إلى حظيرة "يهودا" واستولى على "صلع" وأعاد تسميتها ... كما أعاد "إيلات" إلى سلطان "يهودا" وأعاد بناءها... وبنيت شخصيًا فيها."

وإذا كان للبحث عن المصدر النهائى للملاحظات التى تدور حول النشاط فى المجال العسكرى ومجال التشييد، كما وردا فى سفرى "الملوك" الأول والثانى أن يأخذنا إلى الوراء إلى الألواح/ الصواديد القائمة فى زمام معبد "يهوه" والقصر الملكى فى "أورشليم"، فإن مصدرًا آخر، وهو عبارة عن نقش على نصب تذكارى هو أيضًا، سرعان ما يقفز إلى الذهن، بصفته كان جزءًا لا يتجزأ من ذلك المجمَّع الشهير، وأعنى بذلك جدارية الزخرفة على أحد أوجه قاعدة أحد الأعمدة. وهذه العادة (التى نجدها خلال العصر البرونزى فى كل من مصر و"خاتى")[٤٦] تنطوى على حفر شخصيات، أحيانًا تكون مصحوبة بنصوص تعريفية، تسير فى مواكب على امتداد واجهة معبد ما أو قصر ما

نحو المدخل. وفى "المشرق" قد يتنوع التكوين الاحتفالى كى يشمل قطاعًا من العوام وكتبة وموظفين رسميين وجنوداً يظهرون إلى جانب الملك ووريث عرشه[٤٧]. وحتى على اللوح/ الصادود، كان الحاكم يتكرم بالسماح لسكرتيره بالظهور فى الصورة الزخرفية المنمنمة جنبًا إلى جنب معه[٤٨]. وتهدف كل هذه الإشارات إلى مواجهة الزائر، عند دخوله إلى زمام معبد "أورشليم" والمبانى الملكية الملحقة بكمية ملحوظة من النقوش الاحتفالية والزخارف الجدارية. ولقد ألمحت فقرات "التوراة" التى تصوِّر روايات شهود العيان خول معبد الجبل إلى كافة جداريات الحوائط والبوابات المنقوشة والتماثيل (مع نصوص؟)[٤٩]. ولقد توصلنا الآن فى هذا الصدد، خلال التنقيب الأثرى (الأركيولوجى) عن ألواح/صواديد تتصل بما يدور حوله الحديث[٥٠]. وفى أرجح الاحتمالات أن هذا التزيين الذى يلجأ إلى استخدام الكتابة، اشتمل أيضًا على زخرفة أوجه قواعد المعبد بجداريات مناظر القنص Orthostat منقوشة، على نحو ما هو معروف من زخارف "كركميش"، التى ترجع إلى بداية بناء المعبد، وتحتفى بذكرى "سليمان" ابنه مع مسئوليه، ولا يجب علينا أن نتصور المصدر النهائى لمثل تلك التفاصيل التشخيصية prosopographic فى هذا الشكل من هذا النوع من السجل الكتابى الملموس، والظاهر للجميع، فى سفر "الملوك" الأول ٤: ٢-٦ والفقرات المشابهة عوضًا عن وثيقة مشكوك فى صحتها التاريخية منسوبة لعصر "سليمان".

ندخل اعتباراً من حكم "يوثام" تحت ظل جسمور(= مجموعة) من النصوص التى نستطيع إرجاعها إلى القرن الثامن ق.م. حول سيرة "إشعيا" النبى، تلك السيرة التى نملك عنها وثائق معاصرة، وترجع إلى تاريخ يبدأ من السنة التى شهدت موت "عزريا" ("إشعيا" ١: ٦) على أن الحدث الضخم الذى وقع فى سنة ٧٣٥-٧٣٤ ق.م.، ويتمثل فى التحالف الذى جمع بين "إسرائيل" وبين "دمشق" ضد "يهودا" بهدف تحويلها إلى "دمية" تحت ظل حكم "ابن طبائيل" (= طبئيل)[٥١] فلقد ترك سجلاً شبه معاصر فى الإصحاحين السابع والثامن من سفر "إشعيا"، وهذا هو كل ما نحتاجه كى نستدعيه كمصدر للملاحظات الواردة من تحت ظل حكم كل من "يوثام" وآحاز"("الملوك" الثانى ١٥: ٣٧، ١٦: ٥)، وهذه الملاحظات ليست سوى حشو افتتاحى، بكل بساطة، أقدم عليه مؤرخ سفر "التثنية". وبنفس الروح لا تعد الآيتان ٧ و٨ من الإصحاح الثامن عشر

سوى مقدمة يسوقها نفس المؤلف لرواية التمرد (١٨: ١٢ وما بعدها) بل ولقد اشتقها منها فى حقيقة الأمر.

وقد يعترض معترض عند هذه النقطة أن مصدراً سمته "التوراة" تعرّض بذلك التجاهل. إذ يحيل المؤلف القارئ نحو خمس عشرة مرة فى سفرى "الملوك" الأول والثانى، إذا تاق لمزيد من التفاصيل، عن حكم ملك ما، إلى (كتاب "ديورنال" حول أعمال ملوك "يهودا")(٥٢). والآن تلك المؤلفات المسماة بـ "دفاتر اليومية" كانت معروفة معرفة وثيقة فى مصر (حيث انبثق هذا الشكل لأول مرة، إلى الوجود) وكانت محفوظة عند مؤسسات من نوع المعابد والمجالس البلدية والمحاكم وحتى قصر الفرعون نفسه(٥٣). ولقد نجا من صروف الظروف عدد ليس بالقليل بحال من الأحوال، كى يصل إلى أيدينا، ولكن إذا أمّل المرء أن يجد يوميات تتناول أحداثًا تاريخية، فإنه لن يجنى سوى خيبة أمله. فالدافع الأول وربما الوحيد وراء تدوين مثل هذا السجل كان عمليًا بصفة خالصة: الاحتفاظ بحساب جارٍ للأعمال والتعاملات التى تنطوى على أهمية خاصة للمؤسسة، وخصوصاً ما يتعلق منها بالشئون المالية، جارية على قدم وساق. وفى حالة القصر الملكى، يدون دفتر اليومية وصول وانصراف المبعوثين والشخصيات الزائرة وتحركات الملك وتقدم الجيش (عندما يكون الملك على رأس حملة ما)، ولكن أولاً وقبل كل شىء، استلام البضائع من كافة الأنواع، وتوزيع الرواتب والحصص المقررة. وتكشف لنا قصة "ونامون"(٥٤) أن شكل دفتر اليومية كان قد انتقل بصفته وسيلة للتسجيل إلى الإدارات البلدية فى مدن المشرق مع خواتيم المملكة الحديثة - وعود على بدء تبرهن الفقرة رهن الحديث على أن المضامين كانت قيوداً حسابية. ولا يخامرنا كثير شك فى أن المدن البعيدة عن الساحل مثل "أورشليم" قد استعارت هذا الشكل من الساحل. ولكن دفتر اليومية ليس مجرد يوميات أو دورية كما نفهم المصطلح فى عصرنا الحديث، كما أنه أقل من مجموعة من الحوليات،(٥٥) وحتى إذا دخل عليه اختصار، فإنه ما كان ليصلح على وجه التقريب، كمصدر تاريخى. وأقرب مقابل له عندنا الآن هو "دفتر الأستاذ" الذى يحتفظ به رئيس الخدم لمشترواته.

وحتى الفحص العابر للفقرات التى تستشهد بـ (كتاب "ديورنال" حول أعمال ملوك "يهودا") سوف تكشف بما لا يسمح بأى ظل من الشك، أننا لا نستطيع، بصرف

النظر عما يكونه ذلك الكتاب، أن نصنفه تحت أى ظرف من الظروف كـ "دورية". حقًا يشير أكثر ما يشير إلى أحداث، ولكنه عندئذٍ يشير إليها بطريقة مقولبة وشكلانية، إلى الحد الذى يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان مؤرخ سفر "التثنية" قد رأى فى مصدره هذا نوعًا من الحوليات، بل وفى حقيقة الأمر، ما إذا كان قد رأى "مصدره" هذا على وجه الإطلاق. فإحدى عشرة فقرة من الفقرات الخمس عشرة (مع تغييرات طفيفة) تعطينا الصيغ التافهة (A) أما باقى الأعمال (N) و(B) فهى كل ما قام به من أعمال، فهل هى لم تدون..." وفى ثلاث من الأربع الباقية نجد عنصرًا ثالثًا،(C) "قوته" تضاف. وهكذا فإننا لا نجد أى معطيات محددة إضافية يشار إليها فى أى من هذه الحالات، بل مجرد إعطاء الانطباع بأن مثل ذلك الشىء موجود. ففى الفقرة التى تتصل بحكم "يهوشافاط" نجد عبارة "كيف قاتل" أضيفت كعنصر جديد، ولكن هذه العبارة، إذا كانت أصلية، ساقطة فى الترجمة السبعينية (= أقدم ترجمة لـ "العهد القديم" من العبرية إلى اليونانية التى كانت بمثابة اللغة المشتركة فى المنطقة فى القرن الثالث والثانى ق.م. وقد شارك فيها فى الحقيقة اثنان وسبعون مترجمًا بواقع ستة من كل قبيلة من القبائل العبرانية الـ ١٢ . المترجم) - فإنها تحمل إشارة إلى معركة "يافث" التى ورد ذكرها بالتفصيل فى ٢٢: ٢٩-٣٣ من "قصص الأنبياء". أما الفقرة التى ترتبط باسم "آسا" فتحيلنا إلى "أعمال ديورنال" بشأن المدن التى بناها (وهذه مفقودة عود على بدء فى الأسفار الستة Hexapla)، وفى القسم التالى نجد أن بناء مدينة هو الموضوع: جبا "بنيامين" Geba of Benjamin! وهناك عنصر مضاف لهذه الصيغة فى حالة "حزقيا" حيث يستشهد بـ "أعمال ديورنال" فيما يتعلق بتشييد "مجرى عيون" (= قناة صناعية تبنى على قناطر) من "جيهون" إلى "شيلوام" Siloam، التى تعد مأثرة خلِّدت لكل من يملك عينين كى يراها فى نقش "شيلوام" الذائع الصيت.

ولعل أكثر المواضع كشفًا تلك التى وردت فيها تلك الصيغة أو العبارة هو سفر "الملوك" الثانى ٢١: ١٧(منسَّى)، وهو الورود الذى يضيف إلى النموذج البسيط A+B " والخطيئة التى ارتكبها". وليس هناك "دفتر يومية" آخر تضمن فى أى يوم من الأيام، مثل هذه العبارات التى تحمل إدانة صريحة ذات طابع أخلاقى من هذا النوع. وفى الحقيقة تشير هذه العبارة، بوضوح، إلى الاستهجان الذى تحمله الآيات من ١٠ حتى ١٥، التى تأتى مرة أخرى من "قصص الأنبياء".

تكفى نظرة واحدة إلى الإحالات الواردة إلى "كتاب ديورنال" حول أعمال ملوك إسرائيل" كى نتأكد شكوكنا. إذ ترد الصيغة الأساسية A+B عدة مرات (بالخطأ فى "الملوك" الثانى ١٥: ١١) ومع إضافة صيغة رقم C فى أربع حالات أخرى. مرتان مع "زمرى" Zimri و"شللوم" Shallum، إحداهما تحال إلى "أعمال ديورنال" بشأن المؤامرة التى كان كلاهما متهمًا فيها، وهى المؤامرة التى كان قد تم تدوينها للتو فى الآيات السابقة! ومن الاستشهادات الأربعة الباقية، تلك التى تتعلق بحكم "يربعام" - "كيف حكم وكيف قاتل" - فتشير إلى ما ورد من قبل، فى قصة النبيين "أخيا" و"شيمائيل". أما الإشارة إلى "آخاب" - "البيت العاجى الذى بناه، وكل المدن التى بناها" - فلا تحتاج إلى مصدر آخر سوى ما سبق لنا أن قابلناه بالفعل فى عمل من أعمال التنبؤ، تمكن مؤرخ سفر "التثنية" من الوصول إليه، أقصد سفر "عاموس" (قارن ٣: ١٥). وتقودنا الإضافة التى لحقت بالصيغة التى تخص "يهوآش" إلى الوراء إلى نفس المصدر المزعوم لـ ("كيف قاتل مع "أمصيا" ملك "يهودا")، ولكن هذا الموضوع كان قد سبق له أن عولج فى الآيات من ٨ إلى ١٤ فى الحدوتة الفولكلورية التى نمت حول حادثة جرت فى التاريخ الطوبوجرافى (التضاريسى) لـ "أورشليم". وأخيرًا "كيف قاتل "يربعام" الثانى واستعاد "دمشق" و"حمات" فلا تتجاوز كونها تقريرًا لتحقق نبوءة "يونان" النبى (= يونس عند العرب) فى ١٤: ٢٥، وهذا عود على بدء تلميح إلى حدوتة تنبؤية (مفقودة الآن).

لعله من الملاحظ كم هى شحيحة، لو وردت أصلاً، فى الإشارات إلى (أعمال "ديورنال") حول أى من المملكتين، تلك الإشارة التى تنطوى على أى مغزى على وجه الإطلاق، بينما نجد أن تلك الإشارات الشحيحة التى تحتوى على ما هو أكثر من الصيغ الأساسية ترتبط بالمعلومات التى يُستشهد بها أو تُقتبس بتوسع زائد فى "قصص الأنبياء". ولا يجد المرء مناصًا من الاستنتاج هنا أن مصدرًا رسميًا، مثل ذاك الذى حمل هذا الاسم/العنوان rubric (أعمال "ديورنال") لم يوجد قط، وأن الاسم أطلق كاسم مستعار على قصص النبوءات التى كان مؤرخ سفر "التثنية" قد مال عليها واستخدمها فعلاً.

قائمة ملوك مزخرفة:

بينما لا نجد في القيمة الاسمية لهذه القائمة أي رابط استقرائي يربط بين إطارها التأريخي وبين الملاحظات التاريخية، إلاّ أن القياس ينتصر بقوة لصالح اندماجهما في وثيقة واحدة مفردة توصل إليها مؤرخ سفر "التثنية".

شهد كل من المشرق وشمال شرق أفريقيا، خلال الربعين الثاني والثالث من الألف الأول ارتفاع شعبية جنس أدبي من الكتابة التاريخية-التأريخية chronicle history، مختلف في نشأته عن تلك الأشكال التأريخية المشتقة من الحوليات. وكان هذا الشكل المشرقي بصفة أساسية عبارة عن قائمة بأسماء الملوك، محشوة بملاحظات موجزة أو توصيفات شخصية و(في مرحلة لاحقة) كانت تزخرف بحكايات مستمدة من الفولكلور. وأفضل مثال على هذا الشكل المشرقي نجده في كتاب "مانيتون" الـ "إيجيبتياكا" Aegyptiaca، ولكن هذا العمل الذي صنّفه كاهن مصري في القرن الثالث ق.م. لا يمثل سوى مرحلة نجت من صروف الظروف في عملية طويلة المدى(٥٦). ويمدنا الشكل الرعمسيسي من قائمة الملوك، كما انعكس في "قائمة تورينو"(٥٧) بالشكل الأولي لهذا الجنس الأدبي، وهو الشكل الذي يهدف إلى تسجيل الطول الدقيق لولاية كل فرعون، وكان يتضمّن أحيانًا (وإن كان نادرًا) طول عمر الفرعون وفي أحيان نادرة للغاية، تقريرًا تاريخيًا. ولكن يبدو أن الفترة الكوشية -الصاوية (٧١١-٥٢٥ق.م.) هي التي حفزت، بالضرورة، بولعها الشديد بالماضي والعودة إلى كل ما هو قديم، النمو المتسارع لهذا الشكل التأريخي بل وطرحت المثال الذي سار في أعقابه "مانيتون" بعدها بقرنين من الزمان. ويبدو من المؤكد أن مصر مارست درجة محددة من التأثير على الشكل التأريخي الفينيقي، كما تمثل في (حوليات "صور") و(تاريخ "فيلو" Philo) بالإضافة إلى الأعمال المفقودة لكل من "موخوس" Mochus و"ديوس" Dius وغيرهما، مع أن الكتاب الفينيقيين لم يجلسوا كي ينقلوا الجنس الأدبي الأجنبي نقلاً حرفيًا(٥٨). فهنا أيضًا نجد أنفسنا نعرض لقائمة ملوك حُشر فيها طول العمر وملاحظات بين الحين والآخر عن حقائق تاريخية، وهذا توليف لأمور متباينة كان الكتاب يأتونه عن وعي كامل. فنجد "يوسيبيوس" Eusebius، خلال روايته عن "فيلو"

أو فى الحقيقة عن التاريخ الفينيقى الأقدم الذى نقله "فيلو" إلى اللغة اليونانية، يتحدث عن ثلاثة خيوط مضفورة فى الشكل النهائى للعمل(٥٩)، "سلسلة قوائم ملوك فينيقيا" و"سجلات المدينة" و"أراشيف المعبد". والتوازى هنا مع سفرى "الملوك" واضح: تأريخ ممزوج بملاحظات تاريخية وأخرى تنبؤية وقصص تدور حول العبادات. وعلاوة على ذلك فالفترة الزمنية التى حفز فيها الوعى الذاتى بالتاريخ القديم فى "فينيقيا"، عملية جمع المواد ووضع هذا التأريخ الأقدم تناظر نفس الفترة لما حدث فى مصر، أى من القرن السابع حتى السادس ق.م. والكاتب "سانشونياتون" Sanchuniaton الذى يزعم "فيلو" أنه اعتمد عليه وترجمه إلى اللغة اليونانية لا يمكننا وضعه فى قرن آخر أفضل من القرن السادس ق.م.(٦٠) أما مصدره الذائع الصيت "هيرومبالوس" Hierombalos فأفضل عصر نستطيع وضعه فيه هو العصر الذى يمتد من القرن التاسع حتى السابع ق.م.(٦١).

ولعله من الملاحظ أن طبيعة وتاريخ مصدرنا المزعوم "التأريخ اليهودى" (إذا كان لنا أن نصك مثل هذا المصطلح)(٦٢) اللذين أوحيا بسفرى "الملوك" الأول والثانى يناظران بصورة وثيقة "التاريخ الفينيقى" وتقاليد قائمة الملوك المانيتونية (نسبة إلى "مانيتون"). (وقد لا يكون ذلك ملحوظًا بما فيه الكفاية نظرًا لأن "يهودا" تقع داخل نطاق النفوذ الثقافى لمصر وشرق البحر المتوسط، وما كان فى وسعها إلا أن تشارك فى تبنى كل من الشكل والموضوع (=التيمة) والمعالجة للتقاليد الأدبية العامة للكل، ويبدو واضحًا من واقع الأدلة التوراتية الداخلية التى توصلنا إليها فى وقت سابق، أن التأريخ، الذى يشبه تلك التآريخ التى عثرنا عليها فى "فينيقيا"، كان قد بدأ فى القرن السابع ق.م. وعلى وجه الترجيح فى وقت ما بين بداية حكم "منسى" وبداية حكم "يوشيا"، وقد يعكس استمرار النشاط الأدبى الذى تقدم "التوراة" شواهد عليه تحت حكم "حزقيا"(٦٣). ففى المركز نجد قائمة ملوك كهيكل عظمى (= دون لحم أى دون تفاصيل. المترجم) يحتل فيها انحدار خط القرابة عن طريق الأم (=الحق الأموى) والتأريخ المتقاطع مع إسرائيل مكانة بارزة، ثم أضيف اللحم إلى هذا الهيكل العظمى على هيئة ملاحظات تاريخية وقصص تعليمية. على أن الملاحظات التاريخية مستقاة بشكل كامل مما كان معروضًا على الملأ ومعروفًا على نطاق واسع فى "أورشليم"،

ولا يتصل من قريب أو بعيد بحوليات البلاط أو دفاتر اليومية(٦٤). ولو كانت هذه الحوليات متاحة لكاتب "التأريخ"، لكنا قد وقعنا على رواية أكثر غنى بلا حدود، وإن كانت مختلفة بصفة جوهرية عما فى حوزتنا الآن. وعلاوة على ذلك، لو كان أى نوع من أنواع الحوليات قد نجا من صروف الظروف من عصر "سليمان"، لما كنا قد وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه أمام تلك الكتلة من الهراء الذى لا يليق إلا بعقول الصبية، مما نقابله فى سفر "الملوك" الأول من الإصحاح الثالث حتى الثانى عشر. ولا تختلف تجربتنا مع "مانيتون" فى هذا الصدد: كنا ننتظر تاريخًا يستند إلى حقائق صلبة من واقع الكتابات التى حملتها النصب التى لم تعد موجودة الآن، ولكن "مانيتون" رآها رأى العين - ألم يكن قادراً على قراءة الهيروغليفية ؟ - إلاّ أنه يلقى بنا باستمرار إلى الوراء فى روايات الفولكلور الغريبة، تلك التى يستلها من مكتبة معبده. ففى الحالتين نبالغ نحن المحدثين فى تقييم كل من توافر. سجلات البلاط لـ"مؤرخ" مبكر بالنسبة للأول وبالنسبة للآخر احتفاله (= اهتمامه) بهذا النوع من التسجيل. فالتجميع المدرسى (= المنهجى) للأدلة كان أمراً غريبًا كل الغرابة بالنسبة له. ولم يكن للماضى من دور اللهم سوى التركيز على مقولة أخلاقية بسيطة، والخرافات التى تحض على التقوى أهم بكثير من سجلات البلاط، تلك التى كانت غير متاحة وغير ذات صلة بالأمر فى نفس الوقت.

مصر فى ظل عاصمتها تانيس، شريك تجارى محتمل:

إذا كانت تآريخ "فينيقيا" قد خذلتنا فى البحث عن سجل خاص للاتصالات مع مصر، فإن نتائج البحث الأثرى تساعدنا إلى حد محدود فى ملء الصورة الثقافية.

لم تحُل تقاليد العزلة (المصرية) المجيدة، التى لم يحد عنها الملوك الليبيون دون مرور التجار من وإلى دلتا وادى النيل والساحل الفينيقى. ولقد حافظ الملوك الليبيون هؤلاء على العلاقات الودودة مع "بيبلوس"، مع أن المبادرة فى هذا الشأن ربما تكون قد جاءت من الجانب الفينيقى. إذ كشفت عمليات التنقيب التى جرت فى ساحل "فينيقيا" عن تماثيل منذورة أو كسر تتعلق بذلك الأمر، مهداة من "شيشنق" الأول

و"أوسوركون الأول" و"أوسوركون" الثانى، وقد صحبت الهدايا التى أرسلها الملكان الأولان نصوص فينيقية تتحدث عن قدومها فى الأصل من مصر ثم عن إهداء ملك "بيبلوس" لها إلى "بعل" بالأصالة عن نفسه[٦٥]. ومع "صيدا" (="صيدون") تمتعت أيضًا الأسرة الثانية والعشرون بعلاقات طيبة، كما تشهد على ذلك الهدية المصنوعة من المرمر التى أهداها "أوسوركون" الثانى[٦٦] وقد تشير هدايا من نفس المرمر وقد نقشت عليها أسماء "أوسوركون" الثانى، و"شيشنق" الثانى و"تاكيلوت" Takelot الثانى إلى جهود مماثلة قامت بها "صور" فى سبيل تعميق العلاقة مع مصر[٦٧]. ومن المؤكد أن المصريين استمروا طوال العصر الحديدى يشترون الأخشاب من "صور"[٦٨] أما الفينيقيون فكانوا قد استوعبوا لعدة قرون نطاقًا عريضًا من المفردات الثقافية والدينية من مصر، دون أن يخدش ذلك روحهم الخلاقة الأصيلة، وعندما تفجر ازدهار جديد وانتقائى للفن الفينيقى فى القرن الثامن ق.م.، لم يكن مستغربًا أن يستعير المجددون الفينيقيون، على نطاق واسع، من مصر سواء من ناحية الـ "موتيفات" أو الأشكال المعمارية[٦٩]. وفى الوقت نفسه الذى ظهر فيه هذا الفن الجديد - كانت التقاليد اليونانية لتتزامن فى وقت لاحق معه كمعاصرة لحكم "تاكيلوت" الثالث حوالى ٧٦٠ ق.م. - كانت حقبة التجارة الفينيقية والاستعمار الفينيقى قد بدأت فى غرب البحر المتوسط.، وكان فى قيعان سفن الفينيقيين أن شقت المفردات الفنية المصرية والمتمصرة طريقها إلى الجزر البعيدة وشبه الجزيرتين الإيطالية والأيبيرية[٧٠].

إلاّ أن توثيق التأثير المصرى على المملكتين العبرانيتين اللتين قامتا فى العصر الحديدى ينطوى على صعوبة أكبر، وربما أكثر مراوغة (انظر مناقشة أكثر استفاضة فى الفصل الثالث عشر) فلقد كان الاتصال أقل مباشرة نظرًا لأن الأراضى الواقعة بعيدًا عن الساحل، وجدت أن الوصول إلى طريق البحر مستعصٍ عليها، والدرب البرى يصعب عليها اجتيازه، والسبب فى ذلك ليس راجعًا إلى الظروف الصحراوية وحسب، بل أيضًا إلى وقوعه تحت سيطرة أناس آخرين (= غير عبرانيين). ومع ذلك فهناك أدلة كافية على أن كلاً من "يهودا" و"إسرائيل" أقامتا اتصالات منتظمة مع مصر (قارن هوشع ٧: ١١، ١٢: ١ إلخ.) وبينما ظلت مصر بمثابة القوة الكبرى الوحيدة فى المنطقة التى تستطيع المدن المشرقية الاعتماد عليها، إلا أن عينىْ المراقب

الحصيف ما كانت لتخطئ ضعفها وانقسامها الكامنين. وليست ملاحظة ركبها الشطط وضرباً من مبالغات الكتاب، تلك التى أملت على "إشعيا" أن يصف مصر فى الفصل (=الإصحاح) التاسع عشر من سفره كبلد يعمه الفوضى ويمزقه الانقسام. وأى شخص يسير فى أواسط القرن الثامن ق.م. من "يهودا" حتى الدلتا ويصعد جنوباً مع نهر النيل كان ليقابل ما لا يقل عن سبع إقطاعيات Fiefs لكبار رؤساء قبائل الـ "ميشويش" Meshwesh، بالإضافة إلى مملكتين فى الوجه البحرى ومملكتين أخريين فى مصر الوسطى ثم ممتلكات معبد "آمون" الشاسعة فى زمام "طيبة". أما الملك "الشرعى"، ملك الأسرة الحادية والعشرين، فلا يسيطر بشكل مباشر إلاّ على "تانيس" العاصمة وما حولها بالإضافة إلى "أتريب" و"منف": كان كافة الأعيان الآخرين دنيويين (علمانيين غير دينيين) وكانوا يعربون له عن ولاء شفوى ، إلاّ أنهم كانوا يديرون إقطاعياتهم بصورة مستقلة.

ولعله من الشيق أن نفحص معرفة العبرانيين بالمدى المصرى، كما ينعكس فى أسماء الأماكن التى قامت عليها أدلة قوية فى الوثائق التوراتية التى تمتد من القرن الثامن حتى السادس ق.م.(باستثناء أسماء الأماكن فى رواية سفر "الخروج"، وهو الأمر الذى أدعو القارئ الكريم إلى متابعته خلال مناقشتى اللاحقة) والأماكن التى يرد ذكرها بصورة متكررة أكثر من غيرها هى "زعران" (تانيس) و"منف" و"دافناى" Daphnae، حيث وردت كل منها سبع مرات،(٧١) تتبعها "طيبة" (= "نو" وتعنى بالمصرى القديم: "المدينة" وكفى) التى ذكرت خمس مرات ثم "مجدول" أربع مرات(٧٢). وبعد ذلك تأتى "صايس" و"بوباسطة" و"بليزيوم" و"هيراكيوبوليس" و"أسوان" حيث وردت كل منها مرة واحدة(٧٣). ومما له مغزى غياب كل من "بى - سبدو" Pi-sapdu ("سفط الحنة" حاليًا) و"بى - جرر" Pi-gerer و"سامبحدت" Sambehdet و"بير - خبى" Per-kheby و"بوزيريس" Busiris أو "أتريب"، وفى عبارة أخرى كان أى إسرائيلى أو أحد أبناء "يهودا" يعتزم القيام برحلة سواء على مستوى الواقع أو الخيال ليفكر فى دخول مصر عن طريق الفرع البوباسطى للنيل، وليس عن طريق "وادى طوميلات"، أو عن طريق الفرع الرئيسى للنيل ("النهر العظيم")(٧٤) وبناء عليه فإن أبناء "إسرائيل" و"يهودا" كانوا أكثر معرفة بموطن فراعنة الأسرة الثانية والعشرين

ويتـدهورهـم إلى دولة "رديف" هـى "رع – نوف" Ra'-noufe (أى الطرف الأدنى للفـرع البـوباسطى بين "بوباسطة" و"صـايل")، وهى الدولة التى حكمتـهـا الأسـرة الثـالثـة والعشرون(٧٥). وفى ظل هذه المعرفة السابقة لإسرائيل بإقليم "رع – نوف" فى شمال شرق الدلتا يتعين علينا أن نرى الانتشار الكاسح للجعران المجنح فى فنون النحت على الأحـجـار الكريمـة التى نقلهـا الإسـرائيليـون(٧٦). إذ إن مـوطن عـبادة وأسطورة هذا الجعران المجنح كانت متركزة فى ذلك الربع الشمالى الشرقى من مصر السفلى(٧٧). وتقول تقاليد متـأخرة إن "خبرى" الجعران انبثق من جبين "أوزيريس" كى يطير من "أون":هيليوبوليس Heliopolis حتى "صايل"، حيث استقر كأحـد تجليات "حوريس" - "سيد مـسين" Lord of Mesen تحت اسم (الجـعران المجنح، المبـجل، حامى الأرضـين الإله الأعظم الذى يقيم فى "صايل")(٧٨).

ألم الضعف السياسى بمصر، إلاّ أنها ظلت، مع ذلك، مستودعًا ومصدرًا للثروة، وفى نفس الوقت ممر عبور إلى أصقاع عديدة فى أواسط أفريقيا. ولا يحتاج المرء إلى أكثر من مطالعة القائمة التى تشتمل على التركات التى أوصى بها "أوسوركون" الأول للآلهة(٧٩) أو التعديل الذى أدخله الأمير "أوسوركون" الابن على إيرادات "آمون" (٨٠) كى يقف علـى الحقيقة التـى تقول إن غياب الأعمال المعمارية على النطاق الإمبراطورى لا يتصل من قريب أو من بعيد بالثروة التى تحوزها البلاد. ومع أن شمال النوبة ظل، إلى حد كبير غير مأهول بالسكان(٨١) والإمبراطورية الأفريقية بلغت نهايتها، إلاّ أن السلع القادمة من الجنوب استمرت تتقاطر، وإن كان على نطاق أضيق عبر النيل وخلال الواحات(٨٢). وفى الشمال يبدو مرجحًا أن يكون الملوك الليبيون قد رأوا فى "الطريق البـحـرى" Via Maris باعـثًا على نفس القدر من القلق الذى رآه فيـه أسـلافـهم من فراعنة المملكة الحديثة. ولكى يحافظوا على أمن التجارة التى كانت تمر عبر هذا الطريق القديم، كان المصريون يرسلون هدايا دبلوماسية من المنتجات الأفريقية العجيبة إلى ملك "آشور"،(٨٣) كما أوفدت مصر فى سبيل ذلك أيضًا السفراء والكتاب إلى كل من "آشـور" و"السـامرة" والمدن الفلسطينيـة(٨٤). وقـد رحب سكان غرب آسـيـا، من جانبهم، بالتجارة فى المنتجات العجيبة الواردة من مصر - الذهب والخيول والكتان والقرود والأفيال والتماسيح(٨٥) - وفى المقابل أخذوا يرسلون إلى مصر السلع التى

نعرف من تجربة مصر الإمبراطورية أنها كانت تسعى وراءها: الزيت (هوشع ١٢: ١) والمرهم ("تكوين"٣٧: ٢٥) والنبيذ والشبة والتوابل[٨٦]. وليس أدل على مدى أهمية هذه العلاقات التجارية من استعارة الدولتين العبريتين، على وجه السرعة خلال العصر الحديدى لنظم الموازين والمكاييل والأرقام التى كانت مستخدمة فى مصر[٨٧].

خطر آشور:

وصفنا فى وقت سابق العداء القومى الطويل المدى، الذى ظل قائمًا بين المقاطعة "الآشورية" Assyria، التى تمركزت حول مدينة "آشور" Ashur فى أعالى وادى "دجلة" وبين الإمبراطورية الحيثية التى رأت مجال التوسع بالنسبة لها فى اتجاه الشرق داخل سهول "ميزوبوتاميا" (= بلاد الرافدين) (انظر الفصل السادس). وبانتهاء خطر شعوب البحر إلى غير رجعة والزوال المفاجئ للهيمنة الحيثية فى آسيا الصغرى، غدت هذه العوائق فى ذمة الماضى، ولكن الوضع المضعضع فى ذلك الوقت لـ "آشور" لم يسمح للآشوريين باستغلال الفراغ فى القوة الذى نجم عن ذلك. واستمر ذلك كذلك حتى تولى الحكم "تيلجات - بيليسير" Tilgath-pileser (١١١٥-١٠٧٧ق.م.على وجه التقريب)، المعاصر لفرعون مصر "رعمسيس" السادس، وهنا انبثقت حكومة قوية إلى حد كافٍ فى "آشور" كى تدرس مرة أخرى احتمالات الاندفاع فى اتجاه الغرب[٨٨].

ولكن مجموعة عرقية أخرى وقت ذاك، تعارض أيضًا "آشور" بحكم وضعها الجيو - سياسى، كانت قد تبنت الهدف السابق للحيثيين، وأخذت تتحرك شرقًا باتجاه "ميزوبوتاميا" (= بلاد الرافدين) ـ تلك كانت الآراميين. وهذه كانت قوة يأبه لها، شابة ومفعمة بالحيوية، وتحمل كل القدرات التى نعرفها عن أى دولة قبلية. ويخبرنا "تيلجات - بليسير" أنه اضطر إلى قيادة ثمانى عشرة حملة تأديبية ضد انتهاكات الآراميين، حتى فاض به الكيل فى نهاية المطاف فاندفع غازيًا سوريا. فما كان من المدن الفينيقية التى ضربها الذهول "صيدا" و"بيبلوس" و"أرفاد" إلا أن لجأت إلى عادة قديمة قدم الزمان، "رشوة" القادم الجديد بالهدايا وتسهيل عمليات قطعه للأشجار فى الجبال، بل واصطحابه فى رحلة لصيد الأسماك فى البحر المتوسط[٨٩]. ولكن مآثر "تيلجات -

بيليسـيـر" أثبتت أنها سـريعـة الزوال. فلقد عـجـز خلفـاؤه تمامًا، لمدة تصل إلى مـائة وخمسين سنة، عن مقاومة الضغط الآرامي. وبحلول الربع الثالث من القرن العاشر ق.م. وفى نفس الوقت الذى كان "شيشنق" ينصب نفسه على عرش مصر، كان الغزاة الآراميون قد وصلوا "دجلة"(٩٠).

إلاّ أن الآراميـين أنفسـهم وجدوا من الصـعب عليـهم أن يحافظوا على قوتهم الدافعة (= زخم) وما إن حشد رأس دولة كفء القوة العسكرية المنظمة لـ "آشور"، حتى شرعوا فى التقهقر. ولثلاثة قرون بالتمام والكمال عقب وصـول "أداد- نيرارى" الثانى إلى الحكم كـانت قصـة "آشور" هى قصـة التوسع شبه المستـمر الذى لا يكاد يعرف انقطاعًا فى الوقت الذى تحولت فيه "آشور" إلى "كرباج" العالم القديم (٩١١-٦١٢ق.م.) وقد امتدت إمبراطوريتها فى أقصى مدى لها من شمال شرق أفريقيا إلى جبال القوقاز ومن البحر المتوسط حتى جبال إيران.

وفيما يتعلق بمصر وعملائها التجاريين وجيرانها فى المشرق، فلقد جاءت لحظة الصدق خلال عهد "شالمانسير" Shalmaneser الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م.) فلقد توغّل "شالمانسير" إلى داخل شمـال سـوريا، مـواصلاً بذلك الميزة التى فاز بها سلفه على الآرامـيـين فـى "ميزبـوتـاميـا" (= بلاد الرافـدين) ودعم مـركـزه فى مقـاطعـة "بيت - أدينى" Bit-Adini، ولكنه عندمـا اتجـه جنوبًا كى يتـقـدم فى أعـالى "العـاصى"، قـوبل بمقاومة صلبة. وفى نهاية المطاف انتفض شمال سوريا بأسره إلى التحرك، وتوحدت اثنتى عشرة دولة مستقلة تحت قيادة "حداد - إيزير" حاكم "دمشق"، وكان من بينها كل من "حمـات" Hamath، و"سيليسيا" و"أرفـاد" و"إسرائيل" (يرد ذكر "آخاب" Ahab) و"موصرى" و"عمون" وحتى قبيلة عربية. والتقى هذا الائتلاف الذى ضم نحو سبعين ألف رجل بالآشـوريين عند "قـرقـر" Qarqar على نهـر"العـاصـى" فى ٨٥٣ ق.م. وتقـاتل الجمعان حتى بلغت الأمور بينهما إلى حالة من الجمود. كما فشلت عمليات الهجوم المتكرر التى شنها "شالمانسير" خلال السنوات اللاحقة فى كسر وحدة الجبهة الآرامية التى اصطفت ضده، ولم يستطع الآشوريون أن يشقوا لهم طريقًا فى سوريا، إلا بعد أن أطاحت مؤامـرة داخليـة بـ "حـداد - إيزير" من على عـرش "دمشق" وأحلت مـحله "حـزاعيـل" Haza'el الـذى اغتصـب بـذلك الحكـم. إلا أن المدن الكبرى مثل "حمات"

و"دمشق" و"السامرة" استمرت تقاوم الهجوم الآشورى بدرجة معقولة من النجاح. واضطر "شالمانسير" إلى أن يرضى بالهدايا الدبلوماسية المعتادة من مدن الساحل الفينيقى التى يشوب سلوكها الحذر(٩١).

لعل العامل المثير للاهتمام فى تحطيم هذا الائتلاف هو "موصرى"، التى تعنى بصورة شبه مؤكدة "مصر"(٩٢) فالفرعون المصرى الذى ينتمى للأسرة الثانية والعشرين وهو معاصر، وإن كان أقدم معاصرة، لـ "شالمانسير" الثالث هو "أوسوركون" الثانى (٨٧٣-٨٤٤ ق.م.على وجه التقريب) ونصوص عديدة ترجع إلى حكمه أو حياته تكشف عن اهتمام بالغ بشئون آسيا. ويتساءل المرء عما إذا كان هذا اللقب: "قاهر الآسيويين" الذى حمله "أوسوركون" عند جلوسه على العرش يشى بخطط موضوعة سلفًا،(٩٣) وإذا كان هو المقصود بـ "أوسوركون – مى ـ آمون" فى القرار الذى حمله الوحى ويحتفظ به المتحف البريطانى، لصالح أمير مولود، فإن نبوءة "آمون" هذه تكتسب معنى جديداً: (أنا "آمون" سوف أجعل الفرعون "مى ـ آمون" نجلى الطيب القلب يرسله (أى يرسل الأمير) على رأس جيش جرار ولسوف يعود (أى الأمير) حاملاً الأخبار... سيدة السحر (الحية المقدسة Uraeus) سيدة "بوتو" سوف يجرى تثبيتها على جبينه ولسوف يقول له كل رئيس من رؤساء كل البلدان الأجنبية: "سوف... سوف!)(٩٤) ولقد كشفت عمليات التنقيب التى جرت فى "السامرة" عن هدايا من المرمر بعث بها "أوسوركون" الثانى (إلى "آخاب" Ahab على وجه التقريب)، وأحد السفراء (المصريين) ربما يكون قد تكرم بالسماح بحفر اسمه على أحد الأختام بالخط العبرى(٩٥). وقد يكون "أوسوركون" قد زها بنفسه لإسهامه فى الائتلاف الذى حارب فى "قرقر"، ولكن قواته الضئيلة التى لا تتجاوز ألف رجل لا تشير إلاّ إلى رمزية المشاركة، وربما إلى مراهنة على جانبى الصراع خشية تجرع كأس الخسران مع هذا الجانب أو ذاك. فعندما اتضح خلال السنوات التى أعقبت تلك المعركة الكبرى أن "آشور" لم تخسر كما لم تكسب، ارتأى "أوسوركون" أو خليفته أنه من باب الحصافة أن ينضم إلى الفينيقيين ويرسل الهدايا الدبلوماسية إلى العاصمة الآشورية، ولم يكد يمر جيلان ووجدنا مبعوثى مصر يقيمون فى "آشور"(٩٦).

ودام نفس هذا النمط غير الحاسم من المواجهة بين القوة الآشورية التى اتخذت فى وادى "دجلة" قاعدتها وبين أراضى ساحل البحر المتوسط لما يزيد على مائة سنة بعد معركة "قرقر". وكان "حزاعيل" الذى قوّض خلال الربع الأخير من القرن التاسع ق.م.، ورغم أنف الآشوريين، معظم الدول الواقعة بين "دمشق" حتى "غزة" لصالح حكمه،(٩٧) قد رحل عن دنيانا فى سنة ٨٠٠ ق.م. على وجه التقريب، بعد أن أورث ابنه "بر-حداد" Bar-Hadad الثالث (؟) دولة رفيعة الشأن فى المشرق. ومع أن "بر-حداد" عانى قبل وفاته حوالى ٧٧٥ ق.م.، من تضعضع المناطق الخاضعة لسلطته نتيجة للتمرد الذى حرّض عليه "يهوآش" ملك إسرائيل(٩٨). إلاّ أنه حافظ على قلب مقاطعته سليمة تحت إمرته. وقادت محاولة جديدة لتشكيل ائتلاف آخر من جانب "بر-حداد" إلى فرض الحصار على ملك "حمات" الذى راوده العزوف عن اتخاذ أى خطوة فى عاصمته، وهو الحصار الذى لم ينقذه منه، (فيما هو واضح) سوى تدخل جاء فى حينه، قام به لصالحه "أداد -نيرارى" ملك "آشور" فى سنة ٧٩٦ ق.م. بل وشن "أداد- نيرارى" هجومًا على دمشق نفسها، إلاّ أنه لم يستطع الاستيلاء عليها، وقنع باستلام الهدايا المعهودة من كل من "صور" و"صيدا" و"إسرائيل" و"إيدوم"(="أدوم") بالإضافة إلى المدن الفلسطينية(٩٩). ومع ذلك لم تهدأ الهجمات الآشورية. والمصادر الآشورية تدرج فى قوائمها ما لا يقل عن أربع غارات فى بحر ثمانى عشرة سنة انتهت فى سنة ٧٥٥ق.م. ضد دمشق(١٠٠). وكانت مصر التى كانت تعانى من الضعف الناجم عن الصراعات الداخلية غائبة من كل هذه السجلات.

شهدت سنة ٧٤٥ ق.م. إحدى أهم نقط التحول فى تاريخ المنطقة، وهى الأهمية التى غالبًا ما تفوت على الشخص العادى والمتخصص على حد سواء. رحل "يربعام" الثانى قرب ذلك الوقت، وكان "تاكيلوت" الثالث قد جلس للتو على العرش فى "بوباسطة" فى مصر كشريك فى الحكم، ولكن ما من حدث من هذين الحدثين التافهين هو الذى أعطى هذه السنة أهميتها بأى حال من الأحوال. فما كان يجرى فى "آشور" فى سنة ٧٤٥ق.م.بعث أهمية جديدة فى تلك السنة أو الاثنى عشر شهرًا التى نستطيع أن نقارنها بتلك الأهمية التى انطوت عليها سنة ٥٨٦ ق.م.(التى شهدت سقوط "أورشليم") أوسنة ٣٣٣ق.م. التى عبر فيها الإسكندر الأكبر مضيق "هيلسبونت"

Helespont (هـو المضيـق الذى عرف فى وقت لاحق باسم "الدردنيل" وهو يربط بين بحر "إيجة" اليونانى وبحر "مرمرة" التركى) أو سنة ٣١ ق.م. (التى انتصر فيها "أوكتافيان" فى معركة "أكتيوم"). ففى تلك السنة أى سنة ٧٤٥ أطاحت حرب أهلية نشبت فى "آشور" بالعائلة المالكة ورفعت جنرالاً يدعى "بول":Pul، عرفه التاريخ باسم "تجلات - بيليسير" Tiglath-pileser الثالث إلى عرش الإمبراطورية. ولكن هذا المغتصب للعرش أثبت أنه عبقرية تنظيمية وأستاذ من أساتذة الإستراتيجية، يجدر بنا أن نقارنه مع "هانى - بعل" أوسيبيو" Scipio (يعرف التاريخ أكثر من "سيبيو" واحد أولهم الجنرال الرومانى بوبليوس كورنيليوس سيبيو" الذى رحل فى سنة ٢١١، وهو الجنرال الذى ذاع صيته بالانتصارات التى حققها ضد الجيش القرطاجنى فى إسبانيا خلال الحرب البونية الثانية من ٢١٨-٢٠١، وهى الانتصارات التى عرقلت بشكل مؤقت محاولات قرطاجنة لغزو إيطاليا. وثانيهم "سيبيو" أفريكانوس الأصغر و"سيبيو" أفريكانوس الأكبر. ويبدو أن المقصود هو الأول بينهم. المترجم) فلقد استطاع، خلال الحملات التى لا تهدأ واللجوء، كيفما اتفق، إلى عمليات الترحيل الجماعى، أن يجهز على "دمشق" و"إسرائيل" وبحلول سنة ٧٣٢ق.م. بلغ به الأمر حد تهديد مصر[١٠١].

واجه "تيجلات - بيليسير" فى البداية مناوئين عنيدين.إذ كانت دولة "أورارتو" Urartu ("أرارات" فى "التوراة") المحدثة النعمة قد توسعت فى شمال سوريا و"زاجروس" الشمالية، وبالتالى طوقت أعماق الأراضى الأشورية. وكانت "أرباد"Arpad فى شمال سوريا حليفًا لـ "أورارتو"، ولكن ما من دولة فى أى مكان آخر فى سوريا شعرت بالاضطرار إلى تقديم أى هدايا. وكانت حركة "تيجلات - بيليسير" سريعة. ففى غضون سنتين لا غير من الحملات البارعة أنزل هزيمة ساحقة بـ "أورارتو" وتوجه إلى سوريا فى سنة ٧٤٣ كى يتلقى جزيتها[١٠٢]. وفى السنة التالية وسع، بالقوة المسلحة، نطاق غزواته فى شمال سوريا، ورحّل حاكم الأعداء وفرض الحصار على "أرباد"، التى سقطت بعد ثلاث سنوات من الحصار[١٠٣]. وشهدت سنتا ٧٤٠ و٧٣٨ نهب وسلب "أولوبو" Ullubu و"كولانو" Kullanu فى الشمال، وصار واضحًا، أن "تيجلات - بيليسير" الثالث لم يهدف إلى ما هو أقل من استئصال جميع الدول فى المشرق شرقى حدود مصر.

يستطيع المرء أن يتخيل الذعر الذى لابد وأن يكون قد استبد بـ "دمشق" و"السامرة" عندما نظروا فرأوا تقدم القوة الآشورية التى لا تقاوم باتجاه الجنوب، خصوصًا وأن الدولتين كانتا قد تضعضعتا إلى حد كبير على أيدى مغتصبى الحكم، وهما "رزين" Rezin فى "دمشق" و"مناجم" فى "السامرة" جزار بيت "يربعام" ("الملوك الثانى ١٥: ١٤-١٦)، وكانت أول خطوة مفاجئة يقدمان عليها هى عرضهما تقديم جزية إلى "تيجلات - بيليسير" على سبيل الاستعطاف، وهو العرض الذى دخل حيز التنفيذ فى سنة ٧٣٨ ق.م. على وجه الترجيح.(١٠٤) أكان من جراء ذلك أن تفجرت هبة ضد الآشوريين(؟) خطفت بالقوة ابن "مناحم"، الذى لم يعمر فى الحكم طويلاً كى تحل محله "فقح" Pekah، "كتلة الجمر المتوهجة"، كما وصفه "إشعياء" ("إشعياء" ٧: ٤)؟(١٠٥) وعلى أى حال، حاول كل من "رزين" و"فقح" فى سنة ٧٣٦ ق.م. على وجه التقريب أن يبعثا الحياة مرة أخرى فى تحالف قديم يجمعهما ضد الآشوريين. وفى نفس الوقت كان "هانو" Hanno حاكم "غزة" و"ميتينى" Mitini حاكم "عشقلون" و"حيرام" Hiram حاكم "صور" قد عقدوا العزم على تشكيل جبهة ضد "تيجلات - بيليسير". ولم يشذ عن هذه المجموعة سوى "آحاز" Ahaz حاكم "يهودا"، وعندما أبدى عزوفه عن التعاون معهم، حاصرت القوات الدمشقية والإسرائيلية أورشليم" بهدف الإطاحة بـ "آحاز" وإحلال "دمية" محله(١٠٦) .

ومرة أخرى رد "تيجلات - بيليسير" بسرعة وتصميم أذهلا أعداءه. وانطلاقًا من إستراتيجية مهاجمة الأضعف، أى الحلفاء الساحليين، وزرع إسفين بين "إسرائيل" و"دمشق"، هبط على "فينيقيا" فى ربيع سنة ٧٣٤ ق.م. كى يستولى على "سومور" و"أركا" Arka و"بيبلوس"، ويجبر "صور" على دفع الجزية وتجرع المعاناة ترحيلاً جزئيًا لبعض سكانها(١٠٧). كما هاجم "أكشو" Accho وحولها إلى كومة من الرماد، وضم أراضى "نفتالى" Naphtali، واستطاع الآشوريون أن يزحفوا دون أدنى مقاومة عبر فلاسطين Philistia(١٠٨). وعانى "ميتينى"، فى أعقاب ذلك، من هجوم فتاك، أما "هانو" فهرب إلى مصر، وهو الأمر الذى مكن "تيجلات - بيليسير" من دخول "غزة" دون عائق. وأخذ ملك الآشوريين غنائم بما فيها مبلغ (وهو هزيل فى حد ذاته) يقدر بما يصل إلى ثمانمائة "تالنت" talent (وحدة وزن ترجع إلى أصل بابلى شاعت فى الشرق

الأوسط القديم وهى تساوى ٥٦ رطلاً على وجه التقريب. المترجم) من الفضة وفرض جزية بصفة سنوية، ونصب صادود/لوح نصر فى معبد "غزة"[١٠٩]. وبعد ذلك بسنتين، وفى أعقاب صراع ميئوس منه، لم يظهر إلى النور عنه بعد أى سجل أثرى، سقطت "دمشق"، ورُحِّل سكانها وقُتل "رزين" وضم الآشوريون بلاده كمقاطعة تابعة. أما إسرائيل فأفلتت بصورة مؤقتة من مصير مماثل نتيجة لاغتيال "فقح" فى وقت مناسب واستسلام "هوشع" بشكل فورى، الذى اضطر، مع ذلك، إلى أن يشهد مكتوف اليدين ضم أراضى "إسرائيل" إلى "الجليل" و"الضفة الغربية"، وتقليص دولته إلى رقعة أكبر قليلاً من زمام "السامرة"[١١٠].

لم تقتصر دلالة هذا التوسع الهائل الذى كسبته القوة الآشورية على المشرق، بل امتدت أيضًا إلى مصر. ففى سنة ٧٣٢ ق.م.، وعلى سبيل متابعة التدمير النهائى لـ "دمشق" وقهر "إسرائيل"، قام "تيجلات - بيليسير" الثالث بتعيين شيخ إحدى القبائل العربية جنوبى "غزة" فى منصب "لغرض خاص"ad hoc وهو "خفير بوابة مصر" كنوع من حراس الزحوف العسكرية[١١١]، وذلك لأن الآشوريين كانوا يتوقعون، على ما يبدو، انهيارًا وشيكًا لمصر. وبينما كان الآشوريون مشغولون فى الفترة من ٧٣٢ حتى ٧٢٥ ق.م. بأماكن أخرى، إلاّ أن ذلك لم يكن سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة. وقد يكون الأمر قد بدا للمراقبين على ضفاف النيل أن "آشور" رأت التوسع فى أفريقيا "قدرها البديهى".

كوش وآشور: نزاع حول مصر:

أصبحت مصر تشكل بحلول سنة ٧٣٥ ق.م. فراغًا سياسيًا. وفى تلك السنة احتفل "شيشنق" الرابع فى "تانيس" بالعيد الثلاثينى (= الحب - سد) التقليدى[١١٢] غير واعٍ، على ما يبدو، أو غير مكترث بالأحداث الخطيرة التى كانت على وشك الوقوع على بعد ٤٥٠ كيلو مترًا وحسب إلى شمال شرق مصر. أما بخصوص جاره "تاكيلوت" الثالث فى "بوباسطة" فلا نعلم عنه شيئًا فى هذا الشأن، سوى أنه استمر يحاول قتل الوقت طوال ولايته المجدبة. وكانت شقيقة "تاكيلوت" الشابة العذراء "شيبين-

ويت" Shepenwepet فى تلك السنة تحتل وظيفة "المحبوبة المقدسة" -Divine Adora tress والزوجة الإلهية لـ "آمون" فى "طيبة"، وبالتالى تشغل منصب الحاكم الصورى للوجه القبلى، وفى أماكن أخرى كانت فسيفساء المشيخات و"الممالك" التى تتكون منها الدلتا ومصر الوسطى قائمة، كما سبق لى أن وصفت قبل ذلك. والحقيقة أن حكام مصر فى ذلك الوقت قدموا، بكل تأكيد، إلى العالم الخارجى جبهة ممزقة غاية التمزق ومضعضعة وتضن بالولاء للحكومة المركزية وتفتقر إلى قوة الإرادة(١١٣).

هناك قوة أخرى فى وادى النيل، كانت بحلول سنة ٧٣٥ ق.م. قد كشفت عن قوة ووحدة وحمية أى ما كانت تفتقر إليه مصر. وكان العصر المظلم الذى غرقت فيه "كوش" عند نهاية المملكة الحديثة قد دام حوالى قرنين، وكان، على نحو ما سبق لنا أن أشرنا، قد أدى إلى قطيعة فعلية للإقليم الواقع جنوبى الشلال الثانى من مصر ذاتها(١١٤). وفى سنة ٨٦٠ ق.م. تركز الاهتمام على زمام "دنقلة" Dongola بعاصمتها الإقليمية القديمة "نباتا" Napata حيث أخذت عبادة "آمون" فى الازدهار منذ مطلع الأسرة الثامنة عشرة، وذلك لأن فى هذه الرقعة كان يقوم مركز أخذ فى التشكل حول عائلة تضم زعماء كوشيين ذوى نفوذ. وبينما يلف الغموض أصولهم، إلاّ أنهم كانوا يرجعون إلى أرومة سودانية وقد يكونون قد تمتعوا بعرق زنجى فى سلالتهم(١١٥). وتشير عمليات الدفن مع رفع كومة بسيطة فوق المقبرة فى القطاع الأقدم من الجبانة القبلية فى "كوررو" Kurru إلى ثقافة محلية ضيقة، تختلف عن الثقافة التى هيمنت على المنطقة اعتباراً من الألف الثالث. ولكن بعد سنة ٨٠٠ ق.م. تكشف الأدلة الأثرية الغنية عن أن هؤلاء الرؤساء كانوا قد شرعوا فى توسيع نطاق إقليمهم، وأن يقعوا بصورة متزايدة تحت تأثير (= إشعاع) الحضارة المصرية. إذ بدأت تظهر المقابر - المصاطب المربعة والمصنوعة من الحجر فى "كوررو"، كما أخذوا يقلِّدون الشكل المصرى للملكية، وتبنى الرئيس "آلارا" Alara لقب "ملك"، بالإضافة إلى نسق كتابى هيروغليفى تام الريش (= مكتمل النمو)(١١٦) ويرجع إلى تأثير الأطلال الرعمسيسية القديمة فى النوبة، وعلى وجه الخصوص معبد "آمون" وعباداته، فضل الإلهام الذى جعل "آلارا" وخليفته يتبنيان هذه الثقافة القادمة من الشمال،(١١٧) إلاّ أنها كانت فصيلة من الثقافة المصرية التى تعد عتيقة الطراز نوعًا ما ومفعمة بروح التقوى التى

تتسم بالمحافظة والوقار. وكان الالتزام بمثل تلك الأصولية الجادة المظهر، التي تبدو أقوى عند "المهتدين الجدد" هو الذى عزز عند الكوشيين النفور من معاصريهم من الليبيين، حكام مصر الذين هبطت - ويا له من هول الأهوال! - أخلاقياتهم، ولم يحفلوا باحترام القوانين القديمة التى تفرض الامتناع عن مأكولات معينة، وكانوا يسلكون باستمرار بصورة تتسم بالغدر والخداع.

وخلقت الحمية الدينية التى كشف عنها الملوك الكوشيون الجدد رابطة من المصلحة الذاتية المتبادلة مع "طيبة" والمصريين الجنوبيين بصفة عامة. ولقد نذر "ألارا" شقيقاته لـ "آمون" آملاً أن يقف الإله المعظم مع بيته، وقد قوبل شقيقه "كاشطا" Kashta الذى خلفه حوالى ٧٥٠ ق.م. بالترحاب من جانب سكان زمام "طيبة" وسمحوا له أن ينصب صواديد/ألواح. أما ابنه "بى - عنخى" Pi-anhky الذى تولى الحكم بدوره بعد رحيل عمه "كاشطا" فى سنة ٧٣٥ ق.م. فلقد أرسل أخته الصغرى "آمون – يريديس" إلى "طيبة"، ولكن ليس لكى تعمل عمل الأميرات الأخريات المنذورة كمغنية أو كاهنة. إذ كان شقيقها قد عيَّنها شريكة فى الحكم Coregent مع "شيبين – ويت" التى كانت تشغل وظيفة "المحبوبة المقدسة"[١١٨]. ولم تكن "شيبين – ويت" قد أقصيت من منصبها الملكى كما لم تكن قد عانت من تقلص سلطانها، ولكنها اضطرت إلى تبنى هذه الصبية الكوشية كـ "ابنتها" بكامل سمات الأبهة والرموز الملكية[١١٩]. ولم تهدف هذه الخطوة إلى مجرد وضع سابقة يجب أن يحذو حذوها كل الحكام اللاحقين الذين يرغبون فى بسط سيطرتهم على "طيبة" طوال القرنين التاليين، لكنها ضمنت أيضًا تأييد زمام "طيبة" بأسره لـ "بى- عنخى"، وعندما نقل حامية إلى داخل المدينة،[١٢٠] كانت حدود الأراضى التى يسيطر عليها "بى – عنخى" قد امتدت، حتمًا، حتى "أسيوط".

وبناء عليه فالتقدم الذى يسترعى الانتباه للآشوريين نحو الدلتا فى الفترة من سنة ٧٤٥ حتى ٧٣٢ ق.م. يجد له موازيًا غريبًا فى الاندفاع الذى قامت به قوة لا تقاوم بنفس الدرجة فى الاتجاه المضاد فى أعالى النيل خلال نفس السنوات. وبينما يجب أن تظل نقطة مطروحة للنقاش، تلك التى تدور حول ما إذا كان "تيجلات - بيليسير" الثالث قد أضمر أى مخطط بعيد النظر بشأن مصر السفلى والوسطى، فإننا لا نستطيع

إنكار أن الكوشيين فعلوا ذلك. إذ بصفتهم عباداً أتقياء لـ "آمون" ومشمولين برعايته، استشعر الحكام السودانيون أن رسالتهم تقضى عليهم بأن يصلوا شواطئ البحر المتوسط كى يبسطوا الإصلاح فى مصر. والسؤال الذى يطل علينا الآن هو من من هاتين القوتين الجديدتين الكبريين هى التى ستفوز فى هذا السباق الدائر حول مصر السفلى وهل ستظل مصر السفلى هذه تشكل فراغاً فى القوة ؟

لم تكن مصر السفلى على استعداد للاستمرار فى ارتداء مظهرها المعتاد كبيدق ساكن فى خضم هذه اللعبة السياسية بين هاتين القوتين العظميين. فهذا الدور السلبى على المستوى السياسى والتجارى استبدله المصريون فى الثلث الأخير من القرن الثامن بدور البطل الأول الذى يتميز بالنزعة الهجومية، إن لم نقل القتالية. وتشير المصادر الآشورية إلى أن العمليات التجارية بين مصر وفلاسطين وبين لبنان فى سبيل جلب الأخشاب سببت قلقاً بدرجة كافية لـ "تيجلات - بيليسير" الثالث كى يفرض حظراً سافراً من جانب السلطات الآشورية[١٢١]. ومن الشائق أن قوائم البحرية thalassocracy تسجل للسنة الثامنة من حكم حاكم يدعى "بساموس" Psammous من الأسرة الثالثة والعشرين صورة لنهضة مصرية فى مجال التجارة البحرية،[١٢٢] وبينما تعد هذه القوائم متذبذبة فى قيمتها التاريخية، إلاّ أنها تحتفظ فى غالب الأحيان بنواة فريدة من الحقيقة[١٢٣]. ومن الراجح أن الازدهار التجارى الذى تجمعت خيوطه على الساحل الفلاسطينى الجنوبى من وادى النيل وجنوب بلاد العرب هو الذى دفع "تيجلات - بيليسير" الثالث إلى تحويل "غزة" إلى "بيت - كارى" bît kâri، وفى وقت لاحق دفعت "سرجون" الثانى إلى أن يشجع بصورة نشطة نشوء تجارة مباشرة بين مصر و"آشور" على الحدود المصرية[١٢٤].

يخطئ المرء إن لم يرصد وراء هذا الابتعاث لاهتمام مصر بالشمال، تلك الحيوية التى صاحبت التوسع الذى قامت به مملكة غرب الدلتا تحت قيادة مدينة "صايس"[١٢٥] فقرب نهاية حكم "شيشنق" الثالث، فى الربع الثانى من القرن الثامن، وقعت "صايس" داخل زمام مشيخة "اللابو"، وهى واحد من الجيوب الأجنبية التى نستطيع أن نتتبع وجودها إلى الوراء فى مصر حتى الألف الثانى الذى كان قد دخل مرحلة الغروب. وقبيل رحيل "شيشنق" الرابع، بعد أن استمر فى الحكم أربعة عقود (=أربعين سنة)،

كان أحد رؤساء "اللابو" ويدعى "تفناختى" Tefnakhte، تقوم شواهد على وجوده فى "صايس" ويمتد سلطانه إلى "صايس" و"خويتى" Xoite بالإضافة إلى مديريات غرب الدلتا[١٢٦]. وبمطلع الفترة التى يغطيها صادود/لوح "بى - عنخى"،[١٢٧] كان قد نجح فى تقويض أركان الدلتا بأسرها، وضمان خضوع الوادى موغلاً فى الجنوب حتى "هيرموبوليس" (=الأشمونين حاليًا)، ولكن الأمر لم يخلُ من معارضة عنيدة من بعض القطاعات. ومع أن "بى - عنخى" يزعم أنه هزم "تفناختى" هزيمة مريرة، إلاّ أنه لما ينطوى على مغزى أنه لم يتحرك بجيشه أبعد من "منف" كما رضى بالخضوع الرمزى الذى أبدته الدلتا. وكانت "صايس" أقوى كثيرًا بكل وضوح مما يريد لنا "بى - عنخى" أن نعتقد وظل "تفناختى" مستقلاً إلى حد يكفى لنقل منصبه إلى ابنه "بوكشوريس" Bocchoris ويقف كلاهما الآن على رأس قائمة "مانيتون" الخاصة بالأسرة السادسة والعشرين[١٢٨].

تضع السيادة، التى بلغتها "صايس" فى تاريخ مصر من نهاية الأسرة الثانية والعشرين حتى بدايات الأسرة الخامسة والعشرين فى سنة ٧١١ ق.م. عندما وقع "بوكشوريس" فى الأسر وضرب عنقه[١٢٩]، ظلاً مختلفًا على السياسة الدولية للمشرق. فبدلاً من الشخصية التافهة التى احتلت عرش "تانيس"، صعد إلى سدة الحكم الآن ملك مفعم بالنشاط وعازم على التصدى لقوات أكثر تفوقًا من قواته وقادر على محاربتها حتى يصل بالحرب معها إلى حالة من الجمود. ولو لم يمد "هوشع" الذى تاق إلى كسب التأييد لمسعاه فى الاستقلال، يده إلى "تف - ناختى" الجالس فى عرش "صايس"، فلسوف يكون من المحير أن نتصور إلى من كان ليتجه[١٣٠]. وفى رأيى أن هذا الاعتبار يوفر، احتمالاً قويًا، وفقًا لما تحت أيدينا من أدلة ظاهرة، للاقتراح الذى طرحه "جودكه" Goedicke قبل عشرين سنة بأنه يتعيَّن علينا أن نفسر "سو" (العبرية) فى سفر "الملوك" الثانى ١٧: ٤ بأنها ترجمة لـ "صايس"[١٣١] أو اسم "نسبة" مشتق من اسم المكان: "صايس"[١٣٢] وعلى نفس المنوال فى سنة ٧٢٠ ق.م. عندما حصل "هانو" Hanno حاكم "غزة" المتمرد على دعم مصر فى تحديه لـ "سرجون" الثانى،[١٣٣] لم يكن من المتصور أن أى شخص آخر سوى ملك "صايس" كان فى طوعه أن يعطى أملاً واقعيًا بتقديم دعم مؤثر. حقًا كان "أوسوركون" الرابع حاكم كلٍ من "بوباسطة" و"رع -

نوف" أقرب من الناحية الجغرافية إلى الحدود الفلسطينية، ولكن صادود/لوح "بى - عنخى" يصوره كشخص سهل الانقياد خائر العزيمة يقف إلى جانب أى قوات محاربة يلوح لها النصر فى الأفق. ولا يخلو من مغزى ألاّ يكون ظهوره فى المصادر الآشورية إلاّ حاملاً طيعًا للجزية(١٣٤). وخلال هذا قد تكون أكتاف مبعوثيه قد سارت كتفًا إلى كتف مع مبعوثى "يهودا" و"فلاسطين" و"الضفة الغربية"(١٣٥).

هناك شطفتان من قرينة، فى حوزتنا تؤيدان فى حقيقة الأمر أن "تفناختى" هو الذى شغل نفسه، ردًا على تلك المناشدات التى صدرت عن كل من "إسرائيل" و"غزة"، بالتدخل المسلح فى الشئون الآسيوية. تتمثل الشطفة الأولى فى رواية متأخرة يوردها كل من "ديودور الصقلى" و"بلوتارخ"(١٣٦) : "نفدت مؤن تفناشتون"، والد "بوكشوريس" Bocchoris الحكيم خلال حملته فى بلاد العرب نظرًا لطبيعة البلاد الصحراوية الوعرة... واضطر إلى أن يمضى دون طعام ليوم كامل، ثم عاش على زاد بسيط فى منزل أحد أبناء القبائل العادية." وتمضى الرواية بنغمة "هيلينية" نوعًا ما، كى تصف البهجة التى صادفها "تفناشتون" فى تلك الحياة البدوية الخشنة، التى تتناقض مع الحياة الحضرية المتقدمة التى اعتاد عليها، وختم بتفجير مقولة أخلاقية ضد حياة الرفاهية، وهذه قصة ربما تكون قد اشتقت من ذاكرة حية للحملة التى قادها "تفناختى" عبر شبه جزيرة سيناء - صحراء وعرة - كى يقدم العون لـ "هانو" حاكم "غزة".

وتتمثل الشطفة الثانية من القرينة فى نتيجة مستقاة من الجداريات التى تحملها الحجرة الخامسة فى "خورسوباد" Khorsobad(١٣٧). فالأزياء والعتاد الحربى وقسمات وجه بعض المحاربين، المرسومة هنا فى المعارك وعمليات الحصار التى ترتبط بـ "إكرون" Ekron و"جيبيتون" Gibbethon تشير، فيما يبدو، إلى وادى النيل. وإذا كان الصواب قد حالف "ريد" Reade فى تحديد تاريخ هذه الجداريات بحملة فلسطين فى سنة ٧٢٠ ق.م.،(١٣٨) صار لزامًا علينا، بالتالى أن نستنتج أن المصريين كانوا قد استجابوا بالفعل قبل معركة "رفح" Raphia للمناشدة التى رفعتها إليهم فلاسطين، وأرسلت قوات معاونة إلى مدن الساحل الفلاسطينى. إلا أن الملامح الزنجية لبعض الوجوه المرسومة فى هذه الجداريات(١٣٩) تواجهنا بمشكلة، ذلك لأن العناصر السودانية فى قوات وادى النيل لا ينبغى أن ننتظر منها وجودًا قبل سنة ٧١١ ق.م.

وإذا كنا قد تعرفنا، بصورة صحيحة على النوع العرقي، فلقد تعين علينا إما أن نعيد تتريخ (= تأريخ) الجداريات فى الحجرة الخامسة إلى وقت متأخر فى الحكم، أو نفترض أن الفنان/النحات أدخل تفاصيل مبنية على مفارقة تاريخية فى تصويره لحادثة وقعت فى وقت أقدم كثيراً(١٤٠).

حالف النصر الأولى "كوش". ولابد أن القلق أخذ يستبد بصفة متزايدة بـ "بى - عنخى" فى السنوات التى أعقبت سنة ٧٢٠ ق.م. أى عندما بدأت الدلتا والوادى تصطف وراء "تفناختى"، (مع أن الدعايات الرسمية كانت تضفى عليه لامبالاة ساحرة خلال هذه الفترة) وفى نهاية المطاف وبعد أن ضرب أتباع "تفناختى" الحصار على "هيراكليوبوليس" قام "بى - عنخى" بإرسال قوة عسكرية. وفى الوقت الذى فر فيه "تفناختى" إلى أمان نسبى فى زمام "صايس"، كان التحالف الذى شكله قد انهار، وأحبطت محاولته فى سبيل توحيد مصر.(حوالى ٧١٧-٧١٦ق.م.)(١٤١) إلاّ أن "بى - عنخى" لم يبذل جهداً جدياً فى سبيل تقويض النظام الحاكم فى الدلتا، ولم يفعل سوى أن استبدل الإدارات المحلية بحكام تابعين له، أما الحكام بالوراثة فى كلٍ من "بوباسطة" و"صايس"("أوسوركون" الرابع و"بوكشوريس"، بن "تفناختى" بالتوالى) فترك لهما الحبل على الغارب كى ينشغلا بالمكائد الآسيوية أو يرسلا جزيتهما إلى "آشور". وعندما هبطت فى ربيع سنة ٧١٢ ق.م. قوات التأديب الآشورية على "أشدود" فى الساحل الفلاسطينى، بدا الأمر وكأن مصر هى الأخرى (التى كانت "أشدود" قد تآمرت معها) مرشحة للغزو. ولقد دفع رحيل "بى - عنخى" قرب ذلك الوقت وصعود شقيقه الأصغر "شاباكا" Shabaka بروح جديدة من الحماس إلى النظام، وفى أواخر سنة ٧١٢ (أو فى يناير/طوبة ٧١١ ق.م.) غزت "كوش" مصر. وسرعان ما سقطت "منف" بسهولة ووقع "بوكشوريس" فى الأسر وضرب عنقه. وبسط السودانيون حكمهم على مصر بأسرها العليا والسفلى(١٤٢).

مصر والعرب:

منذ التحركات التى قام بها كل من "تيجلات - بيليسير" الثالث و"سرجون" الثانى فى جنوب غربى بلادهما، أخذ يتضح أن "فلسطين" و"سيناء" مقدرٌ لهما أن تشهدا

المواجهة بين مصر و"آشور". ولقد وقع على كاهل عنصر عرقى معين أن يلعب دورًا مهمًا كوسيط هنا وهو جيب العرب[١٤٣]. وكانت مصر قد ظلت تحافظ على استمرار علاقة تفى بالغرض مع القبائل الأقدم من سكان "عربة" 'Arabah حتى نهاية الألف الثانى، ليس بهدف تشغيل مناجم المواد الخام فى مناطقهم وحسب ولكن أيضًا كى تسيطر على تجارة البخور[١٤٤]. وفى أعقاب تدهور وانسحاب الإمبراطورية المصرية، تقوم بعض الأدلة التى ترجع إلى العصر الحديدى الأول على رخاء مطرد بين قبائل "النقب"، فى ظل مسعاها لاستغلال دروب التجارة المحلية. كما تقوم أدلة أيضًا على عملية استقرار مطردة تتركز حول موقع "تل ماسوس" Tel Masos الواسع والغنى بموارده، وهى العملية التى قد تعكس المشيخة التى غدت تعرف فى التاريخ تحت هذا الاسم "عامو- ليك"(هذا الاسم يرسم - بالخطأ - عند المؤرخين العرب و"كتبة التوراة": "عماليق". المترجم)[١٤٥].

إلاّ أن المنطقة بأسرها وقعت بعد ذلك تحت سيطرة المقاطعات الآسيوية التوابع، الأمر الذى أسفر عن فصم الرابطة المصرية - العربية[١٤٦]. والسؤال الذى يدور حول التاريخ المحدد الذى بدأ فيه عدد ملحوظ من رجال القبائل العربية تسللها فى اتجاه الغرب عبر "النقب" إلى داخل "سيناء" سؤال مفتوح للنقاش. ولعلنا نرتكب خطأ فادحًا إذا أخذنا الأقوال التى وردت فى مثل تلك المصادر المتأخرة التى لا يجوز الركون إليها كتأريخ عند قيمته الاسمية[١٤٧]. ومع ذلك ففى النصف الأول من القرن الثامن، يبدو أن الوحدة risorgimento الخاصة بـ "يهودا" تحت ظل "عزيا" Uzziah أدت إلى إعادة تأكيد "يهودا" لسيطرتها على "عربة" و"إيدوم"(="أدوم") وعصيون - جابر" Ezion-geber،[١٤٨] بينما سقطت فى نفس ذلك الوقت مساحات شاسعة من غرب "النقب" فى أيدى الفلاسطينيين[١٤٩]. وعشية صعود "تيجلات - بيليسير" الثالث إلى سدة الحكم، كان الفلسطينيون والمعينيون، الذين يشكلون قبيلة عربية ترتاد شمال سيناء، هم الذين يسيطرون إلى حد كبير على البرية الجنوبية المترامية الأطراف[١٥٠]. ولما له مغزى أن "تيجلات - بيليسير" عندما وجه ضرباته فى الجنوب، لم يصادف فى زحفه أى دولة فى داخل البلاد (= بعيدًا عن الساحل) ولم يحمل إلا على "فينيقيا"، والسهل الساحلى و"غزة" والدرب الذى يمر بسيناء إلى أعماق مصر[١٥١]. ويشير

نصب صادود/لوح فى "غزة" وعند مستنقعات مصر وهزيمة المعينيين وتكبيدهم خسائر فى الأرواح تصل لتسعة آلاف وأربعمائة شخص ما بين قتيل وجريح،[١٥٢] إلى الأهمية التى علقها ملك "آشور" على السهل الساحلى والدروب التى تمر خلاله.

قام كل من "تيجلات - بيلسير" الثالث و"سرجون" الثانى بتعيين شيوخ محليين كـ "أمراء زحف" مع تعليمات بمراقبة شاملة للمداخل السينائية إلى الدلتا[١٥٣]. وفى ضوء معاملة المصريين التقليدية لبدو هذه المنطقة كـ "فصيلة دنيا تجهل كل قانون معروف"، كانت هذه السياسة مستنيرة على أقل تقدير، وربما إلى هذه الفترة يرجع تاريخ نزوع العرب نحو تأييد دول غرب آسيا فى مواجهتها مع مصر. حقًا شرّد "السيميونيون" Simeonites (= الكيمزيون) بصفة جزئية "المعينيين" Me'ites تحت ظل حاكمهم "حزقيا" Hezekiah من زمام "غزة" الكبرى،[١٥٤] ولكن بحلول عهد الغزو الذى قام به "إزارهادون" Esarhaddon كان أبناء القبائل العربية التى ترتاد شمال سيناء كامنين مستكينين بشكل تام وبأعداد غفيرة إلى الحد الذى كان فيه دعمهم للآشوريين حاسمًا فى إحراز النصر.

شحيحة هى الأدلة التى وصلت إلى أيدينا من مصر بشأن العلاقات بين هؤلاء العرب القدماء وبين الإدارة الفرعونية. ولا يزال مطروحًا للنقاش ذلك السؤال الذى يدور حول ما إذا كنا نستطيع فهم اسم "أهل الرمل": "حريو- شاع" الذى عثرنا عليه على جعران لـ "شاباكا" على أنه يشير إلى بدو سيناء، مع أن ذلك يبدو مقبولاً من الناحية الظاهرية[١٥٥]. على أن تعبير "منتيوآسيا" الذى وجدناه فى نصوص "طاهركا" التى ترجع إلى "كاوا" Kawa يعد كذلك تعبيرًا قديمًا بالمثل يمكن أن يسير على الفلاسطينيين و"اليهود" (= أبناء مملكة "يهودا" القديمة) بل والآشوريين أنفسهم[١٥٦]. وعلى وجه الإجمال لم تكشف مصر خلال هذه الفترة رهن الحديث إلاّ عن قدرة محدودة للسيطرة على سيناء، كما لم تكشف أيضًا عن أى رغبة واسعة فى التسامح مع تسلل مجموعات البدو الرحل إلى داخل الدلتا. وخلال النصف الأول من الألف الأول كانت هناك مجموعات آسيوية مقيمة بمصر أقل بكثير عما كان عليه الحال فى المملكة الحديثة[١٥٧]. وتضافر عزوف المصريين عن فرض سيطرتهم على المداخل التى تؤدى إلى شرق الدلتا، على نحو ما كان عليه الحال قديمًا، مع الضغط الذى

لا يكل ولا يمل للعرب فى اتجاه الغرب إلى وجود دائم لمجموعات ديدانية Dedanite فى "وادى طوميلات" اعتباراً من حوالى ٥٠٠ ق.م. فصاعداً(١٥٨).

وخلال هذا القرن والربع قرن الذى انقضى ما بين غزو "شاباكا" لمصر فى يناير/طوبة ٧١١ (لوحة رقم ٣٢) وسقوط "أورشليم" فى سنة ٥٨٦، يستطيع المرء أن يستشعر تجديداً للاهتمام القديم قدم الزمان بالسيطرة على الطريق البحرى Via Maris وبضمان أن تكون الحكومات فى الساحل المشرقى على علاقة ودودة مع مصر، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تجاهل إلى حد كبير لاحتياجات الدول الواقعة فى قلب البلاد (=البعيدة عن الساحل). ولا نستطيع أن نؤكد أن التجارة كانت تشكل أولوية بالنسبة للفراعنة السودانيين. إلاّ أن الثابت أن"غزة" و"عشقلون" كانتا فى ذلك الوقت قد أصبحتا مستفيدتين من تجارة ناشئة تمر من جنوب جزيرة العرب عبر "النقب" و"عربة" Arabah (١٥٩). ولكن كثيراً من العطور والمنتجات المدارية التى كانت تعبر هذا الدرب كانت متوافرة للأسرة الخامسة والعشرين (=السودانية) فى موطنها فى أقصى الجنوب على ضفاف النيل.

آشور على ضفاف النيل:

اندفعت الأسرة الخامسة والعشرون إلى المسرح الفلسطينى، وكانت فى ذلك تواصل سياسة"صايس" وإن كانت هذه المرة بفاعلية أكبر وعدوانية لابد وأن تكون قد أذهلت معاصريها، خصوصاً وأن الموقف الأولى الذى أفصح عنه الكوشيون غداة غزوهم لمصر أشار إلى أن الأفق بات يشى ببشائر تقارب بينهم وبين "آشور" فى المستقبل القريب(١٦٠). ولقد بدأ "شاباكا"، "ملك مصر وكوش"، الذى زين تاجه بحية مزدوجة كرمز لهذه الحقيقة إنفاذ برنامج إعادة تشييد أسوار أحواش لكافة المعابد فى مصر العليا والسفلى على حد سواء(١٦١). وعندما أخذ "حزقيا" حاكم "يهودا" المبادرة فى سنة ٧٠٤-٣ على وجه الترجيح (بتحريض من بابل؟) فى تنظيم المدن الفينيقية والفلاسطينية ضد "آشور"، فإننا نرجح أنه وجد عند مصر استعداداً لتأييده(١٦٢). وعندما ظهر "سيناكريب" Sennacherib على رأس الزحف، فى طريقه إلى

"إيكرون" "الفلاسطينية"، صعدت الدعوة إلى "ملوك مصر والقواسين والعجلات الحربية وفرسان "كوش" - جيش تفوق أعداده الحصر"[١٦٣]. وتنتصر السهولة والسرعة اللتان قاد خلالهما "شاباكا" قوة عسكرية ضخمة إلى سهول "إلتيكيه" Eltekeh كي تشتبك مع الآشوريين فى سنة ٧٠١ ق.م. لصالح احتمال وجود جيش ضخم عامل يقف مستعداً فى الدلتا لمثل هذا الهدف على وجه التحديد، بالإضافة إلى وجود قواعد معينة فى شمال سيناء وسهل فلسطين. وحتى مع أن مصادرنا عن معركة "إلتيكيه" لا تزال مقصورة على السجلات الآشورية - أما المعطيات المصرية من جداريات ونصوص مكتوبة فتلجأ إلى صور مقولبة يتعذر أن تنطبق بشكل محدد على أشياء أو أماكن أو أشخاص معينين -[١٦٤]، فلا شك هناك فى أن هذه المعركة كانت نكسة خطيرة وغير منتظرة للقوات الآشورية، فضلاً عن أنها أسهمت بصورة ملحوظة فى انسحاب "سيناكريب" بشكل دائم من المشرق[١٦٥].

رحل "شاباكا" فى مطلع سنة ٦٩٧ ق.م.، وخلفه على العرش ابن أخيه "شيبتكو" Shebitku بن "بى - عنخى". وفى خريف سنة ٦٩٧ ق.م. تلقى التتويج فى "طيبة"، وهو أول ملك كوشى نعرف أنه فعل ذلك،[١٦٦] واستلهم من الألقاب التى حملها الفاتح الأكبر فرعون مصر "تحوت – موسى" الثالث، جزءاً من ألقابه بصورة تنم عن التقوى والورع[١٦٧]. ولقد تعرض "شيبتكو" لعملية سحْر (بفتح السين وتسكين الحاء) عجيبة فى التقاليد اللاحقة، إذ بينما نسيته أو كادت قائمة ملوك وادى النيل، كان له أن يحيا فى الذاكرة العبرية، ولكن بعد أن توهم العبرانيون أن اسمه هو اسم قبيلة كوشية[١٦٨]. وترسم ألقابه المستعارة الإطار العريض لسياسته تجاه الشمال: "باحترام كبير يحظى فى كافة البلدان، قوى الذراع الذى قهر الأقواس التسعة، وضمن النصر"[١٦٩] ويظهر "شيبتكو" على واجهة المعبد الصغير المنذور لـ "أوزير" سيد الأبدية، الذى أعاد تجديده وقام بتوسيعه فى الكرنك، وهو يتلقى السيف من "آمون"، ويشرح هذا المنظر الوعود المرتقبة وعبارات الفخر بالنصر فى كافة الأرجاء الأجنبية[١٧٠].

وبدأ الحاكم التالى "طاهركا" بداية مبشرة فى وقت ما فى سنة ٦٩٠ ق.م. فلقد تلقى التتويج فى "منف" فى سنته الأولى، ثم أعقب ذلك تجلٍ رسمى فى معبد "آمون" فى "طيبة" فى السنة الثالثة (٦٨٨ ق.م.) وفى السنة السادسة أى فى ٦٨٥ ق.م. جاء النيل

بفيضان عالٍ بشكل خاص[١٧١]. ومنذ ذلك الحين شرع "طاهركا" يأخذ زمام المبادرة في تعاملاته مع دول فلسطين[١٧٢]. وفي قوائم الجرد التي ترجع إلى معبد "كاوا" في النوبة، تشير السجلات إلى العطايا التي قدمها "طاهركا" إلى هذا المعبد المحلي بصفة منتظمة اعتبارًا من سنته الثانية حتى العاشرة دون استثناء سنة واحدة[١٧٣]. وظلت العطايا تشتمل حتى سنته الثامنة على أوانٍ من الذهب والفضة والبرونز، بالإضافة إلى الأقمشة والمواد العطرية وأدوات العبادات، ولكن هذه العطايا لم تضم شيئًا مما يمكن أن نعتبره جزية أو غنيمة من غنائم الحروب الأجنبية. ثم في السنة الثامنة بالذات تضم القائمة "تمثالاً من البرونز للملك وهو يقمع البلدان الأجنبية (III,15) "و"كل نوع من أنواع الأخشاب بما في ذلك السنط والأرز و«البرسي» persea (III 21) و"أبناء رؤساء "التيحينو" (=الليبيين) (III 22) وفي الجزء السردي الملحق بالسنة العاشرة يذكر "شجر الأرز والعرعر والسنط (VI 14)... أرز حقيقي ... والبرونز الآسيوي (VI,18) والبستانيين الحاذقين من بلاد "منتيو" بآسيا (VI,20-21) وفي صادود/لوح (VII,3-4) يقول سجل ورد منقوشًا عليه: "أمر جلالته بإرسال الأرز الحقيقي القادم من لبنان إلى الجنوب" ويتحدث حاكم "طيبة" من قبل "طاهركا" وهو يدعى "مونتو- إم- حات" بالمثل عن الأرز الحقيقي القادم من أفضل مدرجات سفوح الجبال (جبال لبنان) التي دأب العرف على أن يشيد منها المركب المقدس، ومن "البرونز الآسيوي" الذي يستخدم في صناعة مستلزمات العبادة[١٧٤]. وفي ضوء هذه الفقرات يكون من الأرجح أن فورة من النشاط العسكري قد سيطرت على "طاهركا" في أعقاب سنة ٦٨٤ ق.م. مباشرة. وقد نفترض أن توجيه حملة ذات طابع تأديبي ضد قبيلة ليبية ما، كانت قد اعتادت بث الفوضى في الحدود الغربية للدلتا في تلك السنة، أعقبه إرسال تجريدة أكثر طموحًا في آسيا خلال سنتيْ ٦٨٣-٦٨٢ ق.م. وربما يكون هذا التوغل الأخير في المجال الآسيوي هو المناسبة التي تقف وراء إقامة تمثال للفرعون، نحتت عليه قائمة بأسماء الإمارات الأجنبية التي غزاها[١٧٥]. وكان هذا النوع الأدبي (genre) من النصوص قد أصبح شائعًا خلال المملكة الحديثة، ولكن حتى النماذج الأكثر تفصيلاً كانت تضحّي في الغالب بالدقة في سبيل تمجيد شخص الفرعون. إذ تعد قوائم "طاهركا"، ببساطة، إعادة إنتاج، على نحو يفتقر إلى الخيال، لأفضل الأماكن المعروفة التي قد نصادفها في

أى قائمة من المملكة الحديثة. ومع ذلك فالحقيقة التى تقول إنه استخدم هذا النوع الأدبى - وهو أول من يقدم على ذلك منذ "شيشنق" الأول قبل ذلك بما يصل إلى مائتين وخمسين سنة - تكشف أن "طاهركا"، مثل سابقين آخرين، كان يتطلع إلى الوراء إلى عصر الإمبراطورية.

وخلاصة القول: هناك قرائن ذات وزن معقول على وجود متزايد للقوات المصرية فى المشرق خلال العقدين اللذين يبدآن من سنة ٧١٠ حتى ٦٩٠ ق.م. وبعدئذ من سنة ٦٨٤-٦٨٣ و٦٨٢-٦٨١ تشير كل المؤشرات إلى أن الحملات الرسمية التى شنها المصريون توغلت حتى وصلت إلى الساحل الفينيقى شمالاً. وفى ضوء هذه الأدلة المصرية تكتسب العلاقات الودية بين "طاهركا" وبين كلٍ من "بعلو" Ba'lu حاكم "صور" و"عبدى - ملكوت" حاكم "صيدا" معنى جديداً[١٧٦]. ولقد اقترح البعض اقتراحاً مقبولاً ظاهرياً بأن "طاهركا" حوَّل جانباً من التجارة الجنوبية التى تخضع لسيطرته إلى "صور".[١٧٧] ويتساءل المرء عما إذا كان الملوك الاثنان والعشرون الذين جلسوا فى عرش "خاتى" الذين عدهم "إزارهادون" Esarhaddon فى وقت لاحق بصفتهم خاضعين تماماً لشخصه، كانوا يشكلون فى الأصل تحالفاً هشاً تنظمه وتقوده "صور" بتحريض من "طاهركا"[١٧٨] ويبدو من الأرجح أن "عشقلون" على الأقل من بين المدن الفلاسطينية انحازت بشكل سافر إلى جانب مصر، إذا جاز لنا أن نستند فى حكمنا هنا إلى التلميحات التى وردت فى المصادر الآشورية عن غزو سنة ٦٧١ ق.م.[١٧٩].

بينما قاد اهتمام مصر، مثلما كان عليه الحال منذ القدم، إلى تركيز معظم جهودها على السهل الساحلى، إلاّ أن هناك أدلة كافية على أن القرنين الثامن والسابع تميَّزا بتوطيد العلاقات التجارية والسياسية بين مصر و"يهودا".[١٨٠] ومع أننا لا نملك دليلاً مباشراً على أن "حزقيا" فاتَح مصر فيما يتعلق بالاستعدادات للمقاومة الموجهة ضد الآشوريين، إلاّ أن أهداف البلدين توافقت فى حقيقة الأمر، ولعل الظهور المفاجئ لـ "ساباكو" Sabaco فى "إلتيكيه" Eltekeh كان بمثابة أحد الأسباب لاستئصال التهديد المباشر لـ "أورشليم"[١٨١]. ويلمّح "إشعيا" إلى أن "يهودا" كانت قد بدأت تجنى الفوائد من التجارة المصرية عبر "النقب".[١٨٢] وبعض المواد فى قوائم

الجزية التى دفعها "حزقيا" إلى "سيناكريب" تشير إلى قدومها فى الأصل من أفريقيا[١٨٣]. ولقد أثلج مستقبل التحالفات السياسية مع مصر الصدور فى "يهودا" كما ملأت القلوب فى البلدان الفلاسطينية بالسرور، كما تكشّف الموقف المؤيد بشكل عام تجاه مثل هذه التحالفات بشكل صريح فى وابل الذم الذى ورد ضدها فى سفر "إشعيا" (على سبيل المثال: ويل للبنين المتمردين... الذين ينزلون إلى مصر طلبًا للمعونة...إلخ)[١٨٤]. ولما كنا نقف على خاتمة القصة، فإنه من المناسب أن ننسى الانطباع الذى تركته مصر على عهد "طاهركا" أول الأمر فى الشرق الأدنى. ويعبر صادود/لوح جديد يرجع إلى زمام "دهشور" عن الزهو المتوهج الذى كان "طاهركا" يتأمل خلاله الانضباط واللياقة البدنية اللذين تتمتع بهما قواته الجيدة التدريب، كما يبرز الصادود/اللوح الروح المعنوية التى تفعم قلوب هذه القوات[١٨٥]. ويكون مغفورًا لأسيوى يستعرض هذه الـ "مصر الجديدة" من على بعد، إذا أخطأ وظنها نوعًا من "موجة المستقبل"، وإذا كان "منسًّى" حاكم "يهودا" قد أُرغم على إرسال قوات معاونة للاشتراك فى حملة "آشور- بنى - بعل" Ashurbanipal ضد مصر، فإن ذلك لا يحتاج إلى تفسير فى حد ذاته كتغير مفاجئ فى سياسة "يهودا".

ولكن عقارب الساعة لا يمكن أن تعود إلى الوراء. لقد كان فى طوع الفرعون "تحوت - موسى" الثالث أن يستولى على جميع الإمارات principalities فى غرب أسيا بالقوة، وهو ما فعله فى الواقع. إلا أن "طاهركا" وجد من العملى، وربما أقل تكلفة أن يتخذ من معظم تلك الإمارات حلفاء، وذلك لأن الموقف الذى كانت مسيرة الأحداث تفرضه على مصر كان موقف الدفاع. وليس فى وسعنا أن نفسر سعى "طاهركا" إلى كسب ود المدن الفينيقية إلا كدعم لجناح عسكرى تحسبًا لضربة توجهها "آشور" ضد مصر. وإذا توغلنا أكثر جنوبًا فإننا نجد المدن الفلاسطينية فى وضع مقلق، نظرًا لأنها كانت أكثر عرضة للهجوم من "صور" و"صيدا" فى الشمال. وبينما كانوا تواقين إلى علاقات وطيدة مع مصر، إلاّ أنهم لم يكونوا قادرين على التوقف عن إرسال الجزية إلى "آشور"[١٨٦]. وكانت الدول البعيدة عن الساحل مثل "يهودا" فى نفس الموقف الذى يتهدده الخطر. كما كانت "يهودا" فى ذلك الوقت واقعة تحت حكم شخص متردد هو "منسًّى" الذى روَّعته القوة الآشورية، وكان عاجزًا، على وجه الترجيح عن النهوض بالنشاط المؤثر ضد الآشوريين الذى انخرط فيه والده[١٨٧].

خلال ثمانينيات القرن السابع ق.م. نجم عن الضعف الذى ألم بـ "سيناكريب" انخراط "طاهركا" فى شئون "المشرق"، بصورة أكثر عداء للآشوريين عن أى وقت مضى، إذ بدت تلك الحرب الأهلية التى اندلعت فى "آشور" لمدة ثلاثة شهور فور اغتياله[١٨٨] وكأنها، فى الحقيقة، نهاية تلك الدولة. وإذا كان "طاهركا" قد فسر تلك الأحداث على هذا النحو، فإنه يكون قد أخطأ للأسف، ذلك لأن مارس/برمهات سنة ٦٨١ ق.م. لم يكد يحل إلاّ وكانت الحرب الأهلية قد انتهت بشكل مفاجئ، وتربع بشكل مكين "إزارهادون" Esarhaddon بن "سيناكريب"، فى العرش الآشورى. ولم يمر وقت طويل قبل أن يصبح نقمة على "طاهركا" وكارثة على مصر.

تبنى منذ البداية "إزارهادون"، الذى لم يستطع إلاّ أن يرى فى التحالفات التى عقدها "طاهركا" مع كل من "صور" و"صيدا" إلاّ مدعاة للحرب casus belli، إستراتيجية الحرب الشاملة ضد مصر. ولم يكن المركز التجارى الذى أسسه قبل ما يزيد على أربعين سنة "سرجون" جنوبى "غزة" سوى الخطوة الأولى نحو تأسيس عدد من القواعد فى الجنوب ضد مصر. وكان عهد "إزارهادون" قد شهد استيلاء القوات العسكرية الآشورية على جنوب "النقب"، وتنصيب حاكم فى "تل بيماه" Tel Jemmeh وإقامة عدد من الحاميات فى مواقع تمتد من "رفح" حتى "بير سبع" Beer Sheva[١٨٩]. وفى غضون اثنتى عشرة سنة من ارتقاء "إزارهادون" العرش، كانت القوات الآشورية تتحرك بحرية فى شمال سيناء، حيث أبعدت، شيخ قبيلة محلية عن موقعه مقيداً بالأغلال - هل كان يتآمر علناً مع "طاهركا"؟ - وأرسلته إلى "آشور"[١٩٠]. وبعد ذلك بسنتين تحوّل "إزارهادون" ضد حلفاء مصر الفينيقيين. وأسفر الهجوم النموذجى، المفاجئ والمستند إلى تخطيط جيد عن تدمير "صيدا"، وإعدام ملكها بعد محاولة فاشلة للهرب. واستسلم "بعلو" حاكم "صور" وأجبر على إبرام معاهادة مع "إزارهدون"، وهى المعاهدة التى ربطته بشكل كامل، على المستوى الاقتصادى والسياسى بـ "آشور"[١٩١]. وكان "طاهركا" عاجزاً عن إنقاذ حلفائه، الأمر الذى حاصره بالغم وربما ألحق أكبر الضرر بصورته فى المشرق.

وكما لو كان يذيع على الملأ سيطرته التى لا منازع لها على فلسطين والساحل، استدعى "إزارهادون": (كل الملوك الذين ينتمون إلى "بلاد - هاتى" أى سوريا

وفلسطين ومن ساحل البحر وفرضت عليهم أن يبنوا لى مدينة فى موقع جديد ويطلقوا عليها اسم "كار-إزارهادون")[١٩٢]. وكان فى هذا برهان السيادة: كان "إزارهادون" هو الذى تأتمر كل فلسطين بأمره.

ولما لحق الخزى بـ "طاهركا" (كما بدا عليه الأمر)، وقهر "إزارهادون" كل "فينيقيا"، ووضع "النقب" فى قبضة قوية، بدا أن الوقت قد حان للمواجهة الأخيرة مع مصر. وتكشف أحداث العقد التالى بوضوح أن الهدف الرئيسى لـ "آشور" لم يكن عملاً تأديبيًا أو وقائيًا، بل كان ضم مصر بكل بساطة إلى إمبراطوريتها. وكان المتوقع، بلا أدنى شك، أن القراءة المتأنية لهذه السياسة سوف تنتهى إلى سقوط الدولة التالية فى "سلسلة الدومينو" التى كانت قد بدأت فى الانهيار منذ خمس وستين سنة فى إطار الانتصارات التى حققها "تجلات - بيليسير" الثالث، وهذا هو الأمر الذى جرأ الآشوريين بثقة غير مبررة. وذلك لأن مصر لم تكن دويلة مثل دمشق أو "صيدا". إلاّ أن أحداث سنة ٧٠١ ق.م. ربما تكون قد أوحت لـ "إزارهادون" بأن الكوشيين، حكام مصر، ليسوا خصومًا هينين، وأن فى وسعهم أيضًا أن يستبسلوا فى ميدان القتال حتى يحققوا إنجازًا باهرًا، على الأقل عندما يتحررون من العمى الذى ينتج عن الزغللة التى تصيبهم بها دعايتهم هم أنفسهم.

أيا كان السبب، أخفقت المحاولة الأولى لغزو مصر. ففى مطلع ربيع سنة ٦٧٤ ق.م. زحف الجيش الآشورى عبر شمال سيناء ولكن المصريين ردوه على أعقابه عند الحدود الشرقية للدلتا على وجه الاحتمال[١٩٣]. وبطبيعة الحال لا تذكر المصادر الآشورية شيئًا فى هذا الصدد، ولم نقرأ شيئًا بهذا الخصوص إلاّ فى مدخل مقتضب لتأريخ لاحق: " فى شهر أدارو" Addarru فى اليوم الخامس انهزم الجيش الآشورى فى معركة دموية أمام أعتاب مصر".

ربما يكون أحد أسباب الهزيمة الآشورية كامنًا حقًا فى الطريق الذى اختاره الآشوريون لاقتحام مصر السفلى. فالأرجح أن "إزارهادون" اختار، مثلما كان يفعل معظم أسلافه، الطريق الذى يسير بامتداد الساحل عبر "رفح" و"العريش" وبحيرة "سيربونيس" Sirbonis وينتهى عند "صايل" Sile التى تعد محطة حدودية جيدة

التحصين. فهذا هو درب القوافل، بصفة رئيسية، خلال العصور الوسيطة من سوريا حتى "الصالحية" Salhieh في الدلتا، ويطلق عليه في "التوراة" اسم "طريق بلاد الفلسطينيين"[١٩٤] ولكن هناك دربًا يقع جنوبًا أكثر، يضرب في اتجاه جنوبي من "العريش"، ويمكن سلوكه في دخول مصر عن طريق "وادي طوميلات" و"البحيرات المرة". وكان البدو من "النقب" وسيناء قد طرقوا هذا الدرب منذ أقدم العصور، ولكن ندر، إن لم نقل لم يحدث، أن سلكه جيش ضخم جيد التجهيز.

ولابد أن الهزيمة التي حاقت بـ "إزارهادون" في سنة ٦٧٤ ق.م. أنعشت آمال "طاهركا". وصار الوقت ملائمًا الآن كي يأخذ زمام المبادرة ويعود كي يوجه ضرباته في آسيا. ففي الشهور القليلة التي أعقبت هزيمة الآشوريين، توغلت قوات "طاهركا" في الساحل الفلاسطيني وحولت "عشقلون" إلى قاعدة إمدادات، وربما يكون قد حاول تنظيم تحالف من الحكام المحليين[١٩٥]. إلاّ أن النتيجة التي كانت لتسفر عنها مباراة الشطرنج، تلك التي تدور بين القوتين العظميين كانت لا تزال عصية على التنبؤ، أما من جانب "إزارهادون" فلقد استشعر القلق. فأخذت الصلوات تصعد إلى "شمش" إله الشمس في "آشور": "هل يخطط "إزارهادون" ويبذل قصارى جهده في سبيل الانطلاق مع قواته وعجلاته الحربية ودروعه كي يزحف عبر نهر الفرات إلى "عشقلون"؟... هل يخطط (المصريون) ويبذلون قصارى جهودهم في سبيل شن الحرب ضد "إزارهادون"، ملك "آشور" في زمام "عشقلون"؟"[١٩٦] كانت الفالات (= جمع فال. المترجم) مطلوبة في مثل هذه الظروف. ومع الزحف في مطلع صيف سنة ٦٧١ ق.م. زار "إزارهادون" معبدًا في "حرَّان" في أواسط بلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا) وخلال هذه الزيارة وُضع تاجان على رأسه، في إشارة لا لبس فيها إلى أن هذا التاج المزدوج الذي تحرسه اثنتان من حيات الكوبرا ويرمز إلى مصر سوف تعلوان جبهته عما قريب[١٩٧]. وإذا كان هذا فالاً حسنًا، فإن كسوف الشمس الذي حدث في شهر يوليو/أبيب من تلك السنة بدا فالاً سيئًا، وصار لزامًا أن يسكن روع القوات الآشورية[١٩٨].

إلاّ أن "إزارهادون" كان لا يزال متوترًا. والدرب الذي يعتزم سلوكه على وجه اليقين لا يزال محل شك نوعًا ما: نستطيع أن نتتبعه حتى نصل إلى "رفح"، ولكن بعد

ذلك ينبرى الملك الآشورى طلقًا فى وصف الأراضى الرهيبة التى عبرها هو وجنوده والثعابين ذات الرأسين والكائنات الخضراء الطائرة التى تعيّن عليه أن يتغلب عليها.(شكل ٩) وكأننا نعود مرة أخرى إلى ضوء الحقيقة عندما يخبرنا أنه تلقى العون مأكلاً ومشربًا من جمال القبائل العربية المحلية، ويذكر نقطة "الرسو" (= رؤية اليابسة بالنسبة للبحارة، وتنطوى العبارة هنا على تشبيه واضح للصحراء بالبحر.المترجم) فى مصر وبالتحديد "مجدول" على الحافة الشرقية للدلتا. شمال شرقى مدينة "القنطرة" الحديثة[١٩٩]. وأيًا كان الدرب الذى اختار "إزارهادون" أن يسلكه عبر سيناء، إلاّ أنه ظهر فى الدلتا على غير توقع من أحد وفى نقطة هى أبعد النقط التى كان على بال "طاهركا" أن يظهر فيها. ولم يستطع الكوشيون أن يحشدوا قواتهم ويبدأوا أعمال المقاومة عند "بيت "فاس خبرى" Was Khupri قرب مدينة "فاقوس" الحديثة،[٢٠٠] قبل أن ينعقد الفوز للآشوريين.

لعب عنصر المفاجأة هنا دور أعجوبة من العجائب. حقًا خاض "طاهركا" قتالاً مستميتًا مع علمه أن موقفه بات ميئوسًا منه، وجرح خمس مرات (هذا ما يخبرنا به "إزارهادون")، إلاّ أنه اضطر إلى التقهقر إلى "منف"، التى لم يكن عند "طاهركا" الوقت الكافى لتحصينها. وفى مطلع يوليو/أبيب سقطت المدينة خلال قتال دام نصف يوم، وهرب "طاهركا" على عجل فى اتجاه الجنوب، تاركًا مملكته وأسرته كى يقعوا أسرى فى أيدى الأعداء[٢٠١].

وصف المعاصرون السنوات الثمانية التالية من تاريخ مصر من ٦٧١ إلى ٦٦٣ ق.م. بأنها "فترة حمى البلاد الأجنبية" أو "ذلك الزمن الشؤم" (اللوحتان رقم ٣٤،٣٣)[٢٠٢] فلقد كانت فترة عمت فيها الفوضى، وبينما أثبتت الأسلحة الآشورية أنها عصية على كسر شوكتها، إلا أن الإدارة الآشورية برهنت على عجزها عن ضبط البلاد، ولعب حكام الدلتا الذين وجدوا أنفسهم بين بحر "كوش" وعدو"آشور": دور "قسيس قرية براى" Vicar of Bray (= قسيس صالح لكل العصور ومتوافق مع كل الحكام. المترجم) قدر استطاعتهم. وحاول "إزارهادون" استمالة الحكام المحليين، وعيّن الآشوريون "نيخو" Necho، بن "بوكشوريس" Bocchoris حاكم "صايس" سيئ الحظ[٢٠٣] كحاكم محلى لهم. إلاّ أنه أثبت، مع ذلك، أن المصالح الآشورية العليا لا تفعم

قلبه: عندما قدم "طاهركا" من الجنوب فى السنة التالية لهجوم "إزارهادون" وأعاد الاستيلاء على "منف"، انضمت الدلتا بأسرها إليه. وعندما عادت القوات الآشورية إلى الظهور فى مصر تحت قيادة "آشور- بنى - بعل"، بن "إزارهادون" فى سنة ٦٦٦ ق.م. وعاود "طاهركا" الهرب، أقنع "نيخو" ببراعة فائقة العدوبانه كان عاجزاً فى وجه القوة الكوشية، ونجح فى أن يضمن لنفسه التعيين من جديد كنائب للآشوريين. ولكن "الجلوس على السور" على هذا النحو بين قوتين أقوى كثيراً من "صايس" الضئيلة لم يستمر طويلاً فى خداع المعسكرين المتعارضين، وعندما فى سنة ٦٦٤ ق.م. رحل "طاهركا" عن دنيانا وخلفه "تانوتامان" Tanwetaman، كان "نيخو" لا يزال شخصاً مرموقاً. إلاّ أن تقدم "تانوتامان" دون منازع نحو"منف" ترك "نيخو" معزولاً، وضرب الكوشيون في الأرجح عنقه(٢٠٤).

وكان الفصل الأخير فى هذه الدراما، من وجهة النظر المصرية، هو الأسوأ، ولكن من جانب التاريخ فجر يوم جديد. لم يستطع "آشور- بنى- بعل" أن يتجاهل اغتيال نائبه فى مصر: "نيخو" أو تقدم الكوشيين. وفى سنة ٦٦٣ أرسل تجريدة تأديبية طاردت "تانوتامان" حتى النوبة، وهذه المرة استمرت تتعقبه حتى "طيبة". ولأول مرة منذ ألف سنة نُهبت "طيبة" التى كانت لا تزال موالية للأسرة الخامسة والعشرين، بصورة وحشية وحُملت كنوزها إلى "آشور"، بما فى ذلك الفضة والذهب والأحجار الكريمة والأمتعة الشخصية وحتى المسلات(٢٠٥). وكسبت الجيوش الآشورية الغلبة فى سائر أرجاء أفريقيا ـ ولكن ابن "نيخو" كان لا يزال على قيد الحياة!

الهوامش

(١) الحجة التى تذهب إلى أن تجريدة "شيشنق" جرت فى أواخر حكمه:

(W.F. Albright, BASOR 130{1953},;D.B.Redford,JAOS 93 {197. 3},10,n.62)

ليست حجة مقنعة. إذ يشير نص "جبل السلسلة" الذى يرجع إلى السنة الحادية والعشرين من الحكم، انظر:

(R.A. Caminos,JEA 38 {1950} pl.13)

إلى بناء ""قصر واسع"(أياً كان)، وهو المبنى الذى تركه "شيشنق" غير مكتمل بوفاته.قارن:

Spencer, The Egyptian Temple, A Lexicographical Study (London,1984),69-70).

يبدو أننا لا نجانب الصواب كثيراً إذا ارتأينا أن كتل الكورنيش (لم تنشر بعد) التى ترقد الآن فى المتحف الخارجى للكرنك، بخرطوش "أوسركون" الأول على وجهها، قد جاءت أصلاً من هذا المبنى. أما جدارية النصر، من ناحية أخرى، فتقع على الوجه الخارجى لـ "بوابة بوباسطة"، ولسنا على يقين من أن هذه البوابة كانت تشكل جزءًا من ذلك القصر.

(٢) See K.A. Kitchen, The Third Intermediate Period (Warminster,1973), 295 ff.; M. Noth,ZDPV 61 (1938),277ff.;S. Herrmann,ZDPV 80 (1964) ,55 ff.;M.Mazar,VT Suppl. 4(1956),57ff.;N.Na'aman, Tel Aviv 12 (1985),91-93.

(٣) Albright,BASOR 130 (1953),4 ff.;idem,BASOR 141 (1956),23 ff.; D.N.F reedman, The Bible and the Ancient Near East (New York,1961),295 ff.;A.R.Green,JBL 97 (1978),359,n.30;J.M.Miller,JBL 86 (1967),276ff.;

هناك ببليوجرافيا إضافية فى:

J.H. Hayes and J.M.Miller, Israelite and Judaean History (Philadelphia,1977),678-79.

(٤) D.B.Redford,in A.Hadidi,ed.,Studies in the History and Archaeology of Jordan (Amman,1982),1:115 ff.; Idem, JSSEA 12 (1982),55 ff.

(٥) A.R. Schulman, Natural History 73 (1964),13 ff.;

حول تكنيك – الحصار الأشورى، وهوالتكنيك الذى ساد خلال العصر البرونزى انظر:

I. Epha'al,Tel Aviv 11 (1984),60-70.

(٦) P. Montet,Les constructions et le tombeau de Psousennès (Paris,1951),74,fig. 27(714).

(٧) انظر على وجه الخصوص:

A.J. Spalinger,JSSEA 11 (1981),37 ff. And the literature there cited.

(والأدب الذى استشهد به الكاتب.)

(٨) Stela:G. Legrain,ASAE 5 (1904),38 ff.;Gordseloff,RHJE 1 (1947),95 ff.;Kitchen, Third Intermediate Period,294;triumphal scene:G.R.Hughes,ed.,Reliefs and Inscriptions at Kamak,vol.3:The Bubastite Portal (Chicago,1954).

(٩) Hughes, Bubastite Portal,pl.3,col.7.

لعلها إمكانية خلابة أن يكون نشاط "شيشنق" العسكرى، الذى يحدد الصادود/اللوح انطلاقه من "كوم-وير" على الجانب الشرقى للدلتا: km-wr كان من وحى عمليات التوسع التى قام بها "سليمان" فى وقت أسبق فى "النقب". وحول تجارة "سليمان" مع الجنوب، انظر:

A. Malamat, in Studies in the Period of David and Solomon,201ff.;S.Yeivin,JQR 50 (1960),1933 ff.;Idem,JEA 48(1962),75 ff.

حول تدمير المواقع فى "النقب"، التى كان من الجائز نسبتها إلى "شيشنق"، انظر:

C.Meyers,BA 39 (1976),148 ff.and 151,n.4;R.Cohen,IEJ 36 (1986),114-15.

(١٠) Hughes, Bubastite Portal,cols.18-19,23; on Mitanni,see D.B.Redford,Ldä 4 (1982),149 ff.

(١١) Kitchen, Third Intermediate Period,299,n.303.

(١٢) حول منظر ضرب الرأس حتى الموت، بصفته نوعًا فنيا، انظر:

H. Schafer,Junker Festscrift (Vienna,1957),168 ff.;

حول قوائم أسماء الأماكن، انظر الآن:.H. Beinlich,Ld? 3 (1980),1061-62

هناك أيضًا منظر آخر يمثل ضرب الرأس وهو طوبوجرافى فى نفس الوقت أى يشير إلى موقع جغرافى لـ "شيشنق" الأول عند "الهبة":.El-Hibeh قارن:;P-M IV,124

أيضًا هناك:.E. Feucht,SAK 6 (1978),69 ff

ولكن المنظر، للأسف، فى حالة مهشمة للغاية.

(١٣) CF. Caminos,JEA 38 (1950),pl.13,cols.39-40

"المقر" يدعى "بيت إيزيس" لـ "الكا" الكبرى لـ "رع-حور-أختى"، قارن أيضا:

D.B.Redford,King-lists,Annals and Day-books (Toronto,1984),chap.9.

(١٤) Cf.P .Tresson, Mélanges Maspero (Cairo,1934),1: 817ff.(line 13):'3 n thrw n sr-m3't-r'.

حول الـ Thrw انظر:

W.F. Albright,The Vocalization of Egyptian Syllabic Orthography (New Haven,Conn.,1934),52,

(الذى يرى بحق أن الكلمة مشتقة من الكلمة العبرية التى تعنى أن يندفع (للحصان). ويبدو أن محاولات الذين قالوا بانحدار الكلمة من أصول أخرى قد باءت بالفشل لاستحالتها من الناحية الفيلولوجية أى التاريخية اللغوية. قارن:

W.Helck, Die Beziehungen Ägyptens zur Vorderasiens 2 (Wiesbaden,1972),Die Beziehungen Ägyptens und Vorderasiens zur Ägäis (Darmstadt,1979),135 ff. (Cf.D.B.Redford,JAOS 103 (1983),482)).

أن تكون الكلمة هى الحيثيى ((ANET[2],239,n.3 فهذا ما أشك فيه كثيراً، فلقد كان الحيثيون موجودون بالفعل على الساحل الفينيقى تحت ظل الفرعون "تحوت-موسى" الثالث. انظر:

Urk IV,686:5.A.R.Schulmann renders "foreign troops" (JARCE 5(1965),35n.g. with references),but it is surely not their alien origin that distinguishes them:

يطرح "شولمان" (القوات الأجنبية)... ولكن المؤكد أن أصولهم الأجنبية ليست أهم ما يميزهم: أحد قادة الـ " thrw " فى "هيراكليوبوليس" تحت حكم الرعامسة يحمل اسماً مصريا أصيلا، انظر:

See D. Kessler,SAK 2 (1975),103 ff.,pl.2).

على أن الصلة الواضحة مع الجذر: DHR يجعل ذهن المرء يتجه إلى القول بأنها "قوات الهجوم"

(١٥) Redford,JAOS 93 (1973),13.

(١٦) قارن الأزواج التالية زوجا فزوجا:

Snefru-khufu M.Lichtein, Ancient Egyptian Literature (Berkeley,Calif., 1976),1:216-2),

Rhampsinitus-Cheops (Herodotus,2.124.1),PsammetichosII-Apries

(Herodotus,2.161.2),Cyrus-Cambyses (Herodotus,3.16,29,etc.)

(١٧) قارن فى هذا الصدد الاختلاف الواسع بين النص "المازوريتى" والنص السبعينى (أى الترجمة السبعينية المشهورة للتوراة إلى اللغة اليونانية). انظر:

W. Gooding,VT 17 (1967),173-89;Hayes and Miller, Israelite and Juaean Hitory,232-33; on the form of criticism of 12:1-19,see I.Plein,ZAW 78 (1966),8-24.

(١٨) حول سيرة "يربعام"، انظر:

H. Seebass,VT 17 (1967),325-33;R.W.Klein,JBL 89(1970),217-18.

ليس هناك أى ضرورة تحتم حمل الإشارة التى وردت فى سفر "الملوك" الأول (١١: ٤٠) إلى "شيشنق" محمل الجد. فلقد كان "شيشنق" الاسم الفرعونى الوحيد الذى عرفه مؤرخو سفر "تثنية الاشتراع" فى تلك الفترة وبالتالى فلقد افترضوا أنه الفرعون المعنى فى هذا المقام.

(١٩) حول الليبيين انظر:

G. Möller,ZDMG 3 (1924),36ff.;W.Hölscher,Libyer und Ägypter (Glückstadt,1937); J. Yoyette,Mélange Maspero (Cairo,1961)4,no.1:121ff.;F.Gomaa, Die Libyschen Fürstentümer des Deltas (Tübingen,1974);J.Osing, LdÄ 3 (1980),101ff.; R.A.F. Azzani,Egypt Dynasties XXII-XXV,Iconography of Religions,XVI,10 (Leiden 1988).

كان "الميشويش"، مثلهم فى هذا مثل، قبائل "أولاد على" المحدثين، انظر:

M. Awad, Bull Soc Geog Egypt 32 (1959),11

ينقسمون إلى شعبتين، إحداهما تقيم فى مصر، والأخرى ظلت تعيش على الساحل الليبى إلى الغرب، حيث كانوا لا يزالون يعيشون على أيام "هيرودوت". انظر:

(4.191,1;W.W.How and J.Wells, A Commentary on Herodotus (Oxford,1928),1:358).

ولقد استمر الليبيون طوال فترة سيادتهم فى مصر، معنيين بالناحية الغربية بنفس القدر الذى كانوا فيه معنيون عنده بالمجال الأسيوى الذى لم يكن مألوفا بالنسبة لهم. وفى مصر سرعان ما اكتسب الليبيون صيتا منفرا لسلوكهم غير المتحضر.انظر:

J. Cerney CAH3 II,pt.2 (1975),616 ff.;G.Maspero, Memoires sur quelques papyrus du Louvre (Paris,1875),110 ff.

(٢٠) ترد قصة التمردات فى ثنايا سيرة ابن الفرعون "أوسركون"، انظر:

R.A.Caminos, The Chronicle of Prince Osorkon (Rome,1958).

وتستخدم بعض النصوص المعاصرة فى بعض الأحيان، مصطلح "سورة الغضب"، الذى قد يعنى أيضاً "الحرب الأهلية"، ولكن ذلك قد لا يشير إلا إلى أمزجة الملوك الليبيين، كل على حدة، أو سجاياهم، قارن:

"لقد عملت فى خدمتهم (أى الملوك/الفراعنة) ولم يمسنى أى أذى من جراء سورة غضبهم" (CGC42208f,15) وكنت أنا الذى أهدئ قلب (جلالته) عندما تستبد به سورة الغضب"CGC) 42210) وأنا من يخفف غضب جلالته كلما سيطرت عليه سورة الغضب" (CGC 42211)

(٢١) للاطلاع على أبحاث مستفيضة حول الأسر الليبية فى التاريخ المصرى، انظر الأعمال فى رقمى ٢، ١٩(وخصوصاً أعمال كل من:(Yoyotte,Kitchen,and Gomaa)

(٢٢) D.B.Redford, A Study of Biblical Joseph Story (Leiden,1970),6.

(٢٣) E.Otto,Die Biographischen Inschischen der ?gyptischen Sp?tzeit (Leiden, 1954), 87-88.

(٢٤) Onkhsheshonqy 21/24-25;cf.15/15.

(٢٥) ANET2,420.

(٢٦) P. Insinger,28/11-29/.

(٢٧) CGC 42208,c,14.

(٢٨) حول صادود/لوح "الهبة"، انظر:

(D.Meeks, in E.Lipinski,ed.,State and Temple Economy in the Ancient Near East (Leiden,1979),605-88;and the addditions in D.Berg,The Genre of Non-Juridical Oracles in Ancient Egypt"(Ph.D.diss.,University of Toronto,1988,154 ff.

(٢٩) نجد التناول الأحدث ويمعنى ما الأكثر مواكبة للتطور لهذه الفترة عند:

J.M. Miller and J.H. Hayes, A History of Ancient Israel and Judah (Philadelphia,1986) ,218-376.

(٣٠) حول ممالك الضفة الغربية، انظر بين آخرين:

K.H. Bernhardt and J.M.Miller,in Hadidi,Studies in the History and Archaeology of Jordan 1:163-74;J.R.Bartlett,PEQ 104 (1972),26ff,;J.F.A.Sawyer and D.J.A.Clines, eds.,Midian,Moab and Edom (Sheffield,1983);1983);.J.A.Sauer, BASOR 263 (1986),1-26.

(٣١) لا نعرف دراسة أحاطت بالمصادر المصرية حول هذه الفترة بشكل شامل، ولكن معظم الدراسات التاريخية تواجه القارئ، بشكل واف، بالمشاكل التى تدور حول تدوين التاريخ، انظر فى هذا الصدد:

Redford,King-lists,305-31.

(٣٢) بصرف النظر عن تلك المصادر التى استشهد بها، قد يستطيع المرء أن يرجع إلى الترجمات التى تتصل بالموضوع فى:

(ANET2;A.K.Grayson, Assyrian and Babylonian Chronicles (Locust Valley,N.Y.1975); Idem, Assyrian Royal Inscriptions (Wiesbaden,1972-76).

(٣٣) يناظر كل من "حزقيا" و"يوشيا" الملك المثالى عند مؤرخ سفر "تثنية الاشتراع"، انظر:

(G.E.Gebrandt, Kingship according to the Deuteronomic History (Atlanta,1986),1-43;Cf.I.W.Provan, Hezekiah and the book of Kings (Berlin,N.Y.,1988).

(٣٤) حول مؤرخ سفر "تثنية الاشتراع"، انظر ضمن آخرين:

E.W. Nickolson, Deuteronomy and Tradition (Oxford,1967);M.Weinfield, Deuteronomy and Deuteronomic School(Oxford,1972);M.Noth, The Deuteronomistic History (Sheffief,1981);J.Van Seters,In Search of History (New Haven,Conn., 1983),322-53; F.H.Cryer,BN 29(1985).58 ff.

حول التاريخ التالى بفترة وجيزة لسنة ٥٨٧، انظر:

W.Wurthwein, Die Bücher der Könige (Göttingen,1984),485 ff.

(٣٥) M.Noth,Uberlieferungsgeschichtliche Studien (Tübingen,1957);A. Rofé,JBL 89 (1970),427-40; Idem,VT Suppl. 26 (1974),143-64,idem, The Prophetical Stories: Narratives about the the Prophets in Hebrew Bible, Their Literary Types and History(Jerusalem,1988);Van Seters, In Search of History,303-6.

(٣٦) See S.R. Bin-Nun, VT 18 (1968),414-32;Van Seters, In search of History,292-303;T.Ishida, The Royal Dynasties of Ancient Israel (Berlin,1977),156-57.

حول قائمة الملكات-الأمهات، انظر:

R.D. Nelson, The Double Redaction of the Deuteronomist History (Sheffield,1981),29-42.

(٣٧) ينطوى سن "ريعام" عند صعوده إلى العرش كما ورد فى (سفر"الملوك" الأول ١٤: ٢١) على مغالطة واضحة.

(٣٨) Ishida, Royal Dynasties,157.

(٣٩) انظر بصفة عامة:

Kitchen, Third Intermediate Period;W.J. Munane, Ancient Egyptian Coregencies (Chigago,1977).

الشراكات فى الحكم لا تتصل بشكل مباشر فى كل هذا، طالما لم ينطوِ الأمر، بالضرورة، على نسقين تاريخيين، انظر: A.Schaefer,ZAW 113 (1986).44-55.

(٤٠) مثل هذه القوائم شائعة. ويصرف النظر عن قوائم الجرد الواردة من "قطنة"، انظر (ص ١٤٥)، وقارن، بين قوائم أخرى، قائمة النذور التى قدمها الفرعون "تحوت-موسى" الثالث للثالوث الطيبى،"من السنة الأولى حتى السنة السادسة والأربعين وللايين السنين"((P-M II2,95{275})، والهبات والإحسانات التى قدمها الفرعون "رعمسيس" الثالث للآلهة خلال السنة الواحدة والثلاثين هذه من الحكم تعد عبئًا على قائمة التفحص المتضخمة التى تشكل بردية "هاريس" ١، انظر:

(J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago,1906),4:87-206);

قارن قائمة القرابين التى قربها الفرعون "أوسركون" الأول إلى الآلهة خلال فترة لا تتجاوز السنوات الثلاث والربع سنة، انظر:;E. Naville,Bubastis (London,1891),pl.51

ونستطيع أن نمد هذه القوائم بسهولة كبيرة حتى حدود الإملال.

(٤١) بطبيعة الحال يجوز فصل كل من مصدرى المواد العلمية، فصلاً تاما عن النص الحالى للملوك بوثيقة وسيطة من التقاليد "المدراشية": .midrashic ولعلى أشك فيما إذا كانت "إنذارات الغزو" التى ترجع إلى الحوليات الملكية قد ظهرت فى المصادر، انظر:

T. Vuk,Wirderaufte Freiheit.Der Feldzug Saheribs gegen Juda nach dem Invasionsbericht 2 Kon 18:13-16 (Jerusalem,1984).

(٤٢) الفقرة الواردة فى "أخبار الأيام" التى تتعلق بنشاطه فى مجال التشييد ("أخبار الأيام" الأول ٢٦: ٩-١٠،١٤-١٥) تبدو، مثلها فى هذا مثل المصادر غير الملكية، موضع شك غير منكور: لم تكن هذه الآلة الحربية المعروفة باسم "المنجنيق" قد ابتكرت بعد وظلت مجهولة لمدة أربعة قرون تالية على وجه التقريب! قارن:

A.Ferril, The Origins of War (London,1988),170-74.

(٤٣) مستقاة على وجه الاحتمال من قصص الأنبياء: قارن فصل رقم ٢٠

(٤٤) تنقيحًا لـ "لبنى" والمدينة الإدومية هى المقصودة دون شك ("العدد" ٣٣: ٢٠-٢١،"تثنية الاشتراع"١:١) قارن:

R. Giveon, Les Bedouins Shosou (Leiden,1971),76.

(٤٥) قارن مثلا:نص "كيلاموا": Kilamuwa (القرن التاسع ق.م.)، انظر:

H. Donner and W.Rölling, Kanaanäische und aramäische Inschriften (Wiesbaden,1962-1964),1:no.24;M.Miller,PEQ 104 (1974),9-18;F.M.Falies,WO 10 (1979), 6-22;Van Seters, In Search of History,194.

(٤٦) تكشف النماذج التى تعود إلى مصر فى عصر الرعامسة عن أن أبناء وبنات الفرعون، كانوا يتتابعون فى المناظر المرسومة وفقا لميلادهم، مع عبارات توضح بنوة كل منهم ولقبه واسمه، انظر:

K.A. Kitchen,Pharaoh Triumphant (Warminster,1983),101-13.

(٤٧) M. Vieyra, Hittite Art (London,1955),pls.35-38;H.G.Güterbock,JNES 13 (1954), 102-14.

(٤٨) H. Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient (Harmondsworth, 1954), pl.162.

(٤٩) قارن سفر "الملوك" الثانى ٢١: ٧، ٢٣: ١١و"حزقيال" ٨: ١٠،٤٣: ٧-٨

(٥٠) J. Naveh,IEJ 32 (1982),195-98.

(٥١) W.F. Albright,BASOR 140 (1955),34.

(٥٢) Noth,Uberlieferungsgeschictliche Studien,72-78;J.Liver, Biblica 48 (1967), 77-78.

(٥٣) Redford, King-lists,97-126;idem,LdÄ 6 (1986),151-53.

(٥٤) Wenamun 2,8.

(٥٥) CF.H.Grossmann, Die älteste Geschictsschreibung und Prophetie Israels 2 (Göttingen,1910),Vi, who postulates daybooks or summaries made from them.

التى يفترض أن دفاتر اليومية والملخصات إنما تعتمد عليها.انظر:

J.A. Montgomery,JBL 53 (1934),46-52;Idem,The Book of Kings (Edinburgh,1951), 31-37,and G.Fohrer, Introduction to the Old Testament (Nashville,Tenn.,1968),97,

يلمحان كلاهما إلى وجود حوليات مترخة (= مؤرخة) كمصدر.

(٥٦) Redford,King-lists,206-30.

(٥٧) Ibid.,1-18.

(٥٨) للاطلاع على أدلة لا تعرف الالتباس على اعتماد الآداب الفينيقية على مصر، قارن: تصريح "زكر-بعل"(القرن الحادى عشر ق.م.) الذى يعترف فيه بأن "بيبلوس" مدينة لمصر فى مجالىْ البحث والحرف، وكذلك الأهمية البارزة لإله الحكمة المصرى "تحوت" فى التواريخ الأسطورية التى دبجها الكتاب الفينيقيون، انظر: nn.60-61

(٥٩) Eusebius, Praepartatio Evangelica 1.9.21.

(٦٠) Cf.W.F. Albright, The Bible and the Ancient Near East (New York,1965), 470; idem,Yahweh and the Gods of Canaan (New York,1968),225;Cf.also R.du Mesnil de Buisson,Nouvelles études sur les dieux et les mythes de Canaan (Leiden,1973),70; (قارن أيضا (لا نكران لحقيقة أن الامر هنا يدور حول قرائن دون أدلة ولكن بعض العبارات سلبية لدرجة كبيرة)،انظر:

H.W. Artridge and R.A.Oden, Philo of Byblos, The Phoenician History (Wishington ,D.C., 1981),3-9.

(٦١) " هيرومبالوس": Hierombalos - والسؤال الذى يدور حول ما إذا كان هذا الاسم الشخصى أصيلاً أولا سؤال غير أساسى: (Artridge and Oden,Philo,24,n.22) إلا أنه معاصر لـ شخصية تدعى "أبى- بعل"، ملك "بيروت"، ورغم أن ذلك الشخص لم نتعرف عليه بعد، إلا أن الاسم كاسم لشخص موجود فى "فينيقيا" و"إسرائيل" منذ أوائل القرن التاسع حتى أواسط القرن السابع ق.م.انظر:

P-M2 VII,388;ANET2,291,296,321.

(٦١) وضع الكتابة التاريخية في إسرائيل مجهول بالنسبة لنا، نظرًا لأن الإشارات إلى ملوك إسرائيل ومآثرهم، الواردة فى سفرىْ "الملوك" الأول والثانى لا تشكل مصدرا مستقلا، بل ولا تزيد عن "تفكير استهوائى" مرهق، دبجه البحاث فى محاولة لجعله يبدو كتابة تاريخية.

(٦٣) قارن: سفر "الأمثال" ٢٥: ١

(٦٤) كان بلاطا كل من "إسرائيل" و"يهودا" يحتفظان بدفاتر يومية على وجه الاحتمال، ولكننا لا نعرف شيئا عما إذا كانا يتبعان نهج الاحتفاظ أيضا بحوليات رسمية. وبينما طرحت "آشور" على وجه الاحتمال، "نموذجا"، إلا أنه يبدو أن الحوليات فى مصر قد ضربتها تغيرات عديدة حتى لم تعد ينطبق عليها وصف "السجل المنظم للأحداث التى تقع خلال "حول" أوعام"، مما نما إلى علمنا وجوده فى المملكة الحديثة.انظر:

D.B.Redford, in F. Junge,ed.,Studien Zu Sprache und Religion Ägyptens (Göttingten, 1984,327-41.

(٦٥) P. Montet, Byblos et L'Egypte (Paris,1929),49-57,figs.17-18,pls.36-38; Idem, Fouilles de Byblos (Paris,1937),1:116,no.1741,pl.43;Donner and Rölling Kanaanäische und armäische Inschriften,2:nos.5-6.

(٦٦) W.Von Bissing,ZA n.s.12(1940),155ff.;W.Cilian,Levant 2 (1970),28 ff.(found at Ashur whither they were carried as booty)

(وجدت في "أشور" حيث حملت إليها على سبيل الغنائم)

(٦٧) نقلت إلى إسبانيا في وقت لاحق، وهناك كشفت عنها عمليات التنقيب.انظر:

I.Gamer-Wallert,Ägyptische und ägyptisierende Funde von der iberischen Halbinsel (Wiesbaden,1978).

(٦٨) H.F.Saggs,Iraq 17(1955),127-28.

(٦٩) See I.J.Winter, Iraq 38 (1976),16;J.D.Muhly,in Biblical Archaeology Today (Jerusalem,1985),184;P.Wagner,Der ägyptische Einfluss auf die phönizische Architektur (Bonn,1980);G.E.Marfoe, BASOR 279 (1990),13-26.

(٧٠) Muhly,in Biblical Archaeology Today,178-80;Gamer-Wallert,Ägyptische Funde.

(٧١) Zoan:Num.13:22;Isa.19:11,13,30:4;Psalm 78:12,43, Memphis:Hos. 9:6;Isa. 19:13;

Jer.2:16,44:1,46:14,19,Ezek.30:13.Daphnae:Jer.2:16,43:7,8,9;44:146:14;Ezek.3 0:18.

(٧٢) Thebes:Nah.3:8;Jer.46:25;Ezek.30:14,15,16,Migdol:Jer.44:1,46:14,Ezek. 29:10,30:6.

(٧٣) Sais:2Kings 19:9(see subsequent discussion);Bubastis: (انظر النقاش اللاحق) Ezek.30:17;Pelusium: Ezek.30:15;Herakleopolis:Isa.30:4;Aswan:Ezek.30:16.

(٧٤) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica (Oxford,1947),2:153*ff.

(٧٥) Piankhy Stela, lines 19,114(see N.-C.Grimal, La stèle triomphale de Pi (ankh)y(Cairo,1981);

في زمام "تانيس" على وجه الاحتمال، انظر:

(Yoyotte,in Mélanges Maspero,4,no.1:129,n.2;J.Vandier,RdE 17(1965),17 ff.)

استخدم كاسم لملكة "أوسركون" الرابع الواقعة بين "صايل" و"بوباستيس"(= بوباسطة).انظر:

W.Helck,Die altägyptische Gaue (Wiesbaden,1974),190;H.Gauthier, Diction-) naire des des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques (Cairo,1926),1: 190;3:130;P.Montet,Géographie de L'Egypte ancienne (Paris, 1959), 1:201)

وترتبط ارتباطا وثيقا بالعبادات السائدة قرب الحدود الشرقية، انظر:

(E. Chassinat, Le Temple d'Edfu(Cairo,1892-1934),1:130;Montet,Kêmi 8 (1946), 64pl.15; G.Daressy,BIFAO 11(1914)35-36).

(يبدو أن المصطلح أعيد تفسيره فى وقت لاحق كى يعنى "هيرو-نفر"(= يوم سعيد)، انظر:

P. Dem.31169 recto ii,4.

أصبح رائجا فى الآونة الأخيرة إنكار أن يكون كل من "أوسركون" و"تاكيلوت" اللذين نقابل اسميهما منقوشين ،فى الواقع، على العديد من النصب القائمة فى الكرنك أعضاء فى الأسرة الثالثة والعشرين على نحو ما أوردها "مانيتو" فى تاريخه ولسوف يرد المؤلف الحالى (ريدفورد) على هذا الإنكار، الذى يستند إلى مقدمات زائفة وأدلة مضللة فى ثنايا هذا الكتاب فى الوقت المناسب.

(٧٦) حول الجعران المجنح المرسوم على الأختام الإسرائيلية، انظر المناقشات والآداب التى استشهد المؤلفان بها فى كل من:

(A.D.Tushingham,BASOR 200(1970),71ff.;A.F.Rainey,BASOR 245 (1982),57 ff.

(٧٧) See J.Vandier,RdE 17 (1965),172 ff.;

وحول التطابق بين "خبرى" والشمس، انظر:

K. Mysliswiec,Studien zum Gott Atum (Hidesheim,1978),1:75ff.;E.Brunner-Traut, Gelebte Mythen (Darmstadt,1981),7 ff.

(٧٨) A. Kamal, Stèles ptolémaiques (Cairo,1905),187;G.Darssy,BIFAO 11(1914), 29 ff.;

والأسطورة موجودة فى النصوص المصاحبة لمنظر تقريب قرابين فى "إدفو"، انظر:

Chassinat,Edfu,6:316 (pl.151).

(٧٩) E. Naville,Bubastis (London,1891),pl.51.

ينسب البعض هذه الثروة، بشكل ساذج، إلى عملية النهب التى أنزلها "شيشنق" بـ "أورشليم" قبل ذلك التاريخ بجيل واحد، انظر: A.R. Millard and K.A.Kitchen, BAR,15,no.3 (1989),20-34.

وقد يجول فى خاطر المرء أن يحث مثل هؤلاء المؤلفين على أن يواصلوا استكشافاتهم قليلا على نفس هذا الطريق، كى يجيبونا على هذا السؤال: هل يرجع التدهور الإقتصادى الذى لحق بالأسرة العشرين إلى "نهب" بنى إسرائيل للمصريين (سفر"الخروج" ١٢: ٣٥-٣٦)، أو ما إذا كانت السطور التى تعبر عن قلق الفرعون "أمين-إم-حات" الثالث المنقوشة على مجموعة تماثيله إنما تعكس المرض الذى أصاب الفرعون من جراء زواجه من "سارة"!("تكوين" ١٢: ١٧)

(٨٠) Caminos, The Chronocle of Prince Osorkon.

(٨١) G.A. Reisner, Archaeological Survey of Nubia (1908-1909)(Cairo,1911), 29; B.G.Trigger, History and Settlement of lower Nubia (New Haven,Conn.,1959), 1959), 112 ff.;T.S?ve-S?derberg,Kush 12 (1964),37;cf.W.B.Emery,Egypt in Nubia (London,1965), 206 ff.

(٨٢) Caminos,Chronocle of Prince Osorkon,125-26;D.B.Redford,JSSEA 7 (1977),7-8.

(٨٣) M.Elat,IEJ 25 (1975),32;idem,JAOS 98(1978),22 ff.;H.Tadmor,IEJ 11(1961), 143 ff.

(٨٤) See H.Tadmor, in H.Goedicke and J.J.M.Roberts,eds.,Unity and Diversity (Baltimore,1975),42

حول المصريين في بلاط "أداد- نيراري" الثالث قارن أيضا:

(يخص "بيبيسي"خاتم من السامرة") A. Reifenburg, Ancient Israelite Seals (London,1950),31,no.9

(قارن أيضا: مرمر "أوسركون" الثاني من "السامرة"، انظر:

G.A. Reisner et al.Harvard Excavations at Samaria (Harvard,1924), 1:247), fig. 205; 2:pl. 56g.

(٨٥) Elat,JAOS 98 (1978),120 ff.

(٨٦) E. Chassinat, Le Temple de Dendera (Cairo,1936-),4:66,5:71;S.Sauneron, Le rituel d'embaumement (Cairo,1952),3:1-2;D.J.Wiseman, Iraq 28)1966),155.

(٨٧) الذراع الملكي، انظر:: Y. Aharoni,BA 31(1968),24; the Deben:

"الديبين" (= حوالي ٩١ جراما، وقد قيس عليه "الشيكل" الإسرائيلي):

Idem,BASOR 184 (1966),18;R.B.Y.Scott,BASOR 200 (1970),64.

وحول تأثير نسق العلامات الهراتيكية على الكتابة العبرية خلال القرن الثامن حتى القرن السابع، انظر:

Aharoni,BASOR 184 (1966),13ff.;idem,BA 31 (1968),15;idem,BASOR 201 (1971),35-36;A.F.Rainey, BASOR 202 (1971),23ff.;S.Yeivin,IEJ 16 (1966),152 ff.; idem,JEA 55 (1969),98 ff.;I.T.Kaufman,BASOR 188(1967),39 ff.

(٨٨) G.Roux, Ancient Iraq (Harmondsworth,1966),252-53.

(٨٩) حول "الجزية" انظر:. Tadmor, Goedicke and Roberts, in Unity and Diversity,37.

(٩٠) Roux, Ancient Iraq,254.

(٩١) حول معركة "قرقر"، انظر:

ANET2,278-79;Elat,IEJ 25-35;Tadmor,in Goedicke and Roberts, Unity and Diversity,38-40;J.A.Brinkman,JCŞ 30 (1978),173-75;W.T.Pitard,Ancient Damascus (Winona Lake, Ind, 1987),126-28.

(٩٢) حول تطابق موصري: Musri مع Egypt (= مصر)، انظر:

A.T. Olmstead, History of Assyria (New York,1923),134;idem, History of Palestine and Syria (New York,1931),384;E.Meyer,Geschichte des Alterums (Stuttgart and Berlin,1928),2:2,333;Tadmor,in Goedicke and Roberts, Unity and Diversity,39.

(٩٣) H. Gauthier, Le Livre des rois d'?gypte (Cairo,1914),3:337-38;H.K. Jacquet-Gordon,JEA 46(1960),14,n.1.

(٩٤) I.E.S.Edwards, Hieratic Papyri in the British Museum,4th ser.(London, 1960), 2:pls.16:34-17:37.

(٩٥) انظر هامش رقم ٨٤

(٩٦) ANET 2 281:J.V.Kinnier-Wilson, The Nimrud Wine Lists (London,1972), 102, 127, 139 and passim;Tadmor, in Goedicke and Roberts,Unity and Diversity,42.

(٩٧) Pitard, Ancient Damascus,151-58.

(٩٨) J.M. Miller, ZAW 80 (1968),337-42.

(٩٩) حول سجلات أداد- نيراري:Adad-nirari، انظر:

ANET[2],281-82;H.Tadmor,Iraq 35 1973 ,141 - 50;W.H.Shea,JCS 30 (1978), 101ff.; on the date :حول التاريخ انظر Pitard, Ancient Damascus,163-66;on the Zakkir stela:حول لوح/صادود "زاكر"انظر:

Donner and Rölling,Kanaanäische und aramäsche Inschriften,2:no.202;ANET[2] , 501-2;E.Lipinski,AION 31(1971),393-99.

(١٠٠) Pitard, Ancient Damascus,175-77.

(١٠١) بصفة عامة انظر:

H.W. Saggs, The Greatness That Was Babylon (New York,1962),116-19;

حول الحالة المؤسفة لحوليات "تيلجات-بيليسير" الثالث وتحليلها وترميمها البارعين، انظر:

H. Tadmor, Proceedings of the Israel Academy of Science and Humanities 2 (1968),168-87;

وحول لجوئه إلى عمليات الترحيل الجماعي، انظر:

B. Oded, Mass Deportations and Deportatees in the Neo-Assyran Empire (Wiesbaden,1979),19.

(١٠٢) H.W.F. Saggs,Iraq 17 (1955),146.

(١٠٣) ANET2,282;Saggs,Iraq 17 (1955),133(Letter15).

(١٠٤) H.Tadmor, Scripta Hierosolymitana 8 (1961),252-58;B.Oded, in Hayes and Miller,(1978)49;see 2Kings15:19-20(1,000 talents).

(١٠٥) So W.H.Hallo, BA 23 (1960),48.

(١٠٦) Pitard, Ancient Damascus,184-86;Oded in Hayes and Miller, Israelite and Judaean History,425-26(cf.2Kings 16:5);D.J.Wiseman,Iraq 18(1956),125 reverse 5-8 (Cf.chron.28:16-18:

حول هوية "ابن طبئيل" في سفر "إشعياء": ٧: ٦، انظر:

W.F. Albright,BASOR 140(1955),34ff.;B.Mazar,IEJ 7 (1957),236-37;Pitard, Ancient Damascus,184,n.104.

(١٠٧) Wiseman, Iraq 108 (1956),117-29;ANET2,283b;

Hallo,BA 23 (1960),48;H.Tadmor,BA 29(1966),88:حول الإستراتيجية الشاملة، انظر

(الذي يفترض اهتماما ثانويا بتأمين التجارة الساحلية)، وحول علاقة "صور" بـ "إشور"، انظر:

G.Kestemont,in E.Gubelet al.,eds.,Studia Phoenicia (Louvain,1983),1:53-78.

(١٠٨) M.Dothan,IEJ 25(1975),164;D.J.Wiseman,Iraq 13(1951),21ff.;A.Alt, Kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel (Munich,1953),2:150ff.

(١٠٩) ANET2,283;Wiseman,Iraq 13(1951),21ff.;Tadmor,BA 29(1966),88ff.; Oded,in Hayes and Miller, Israelite and Judaean History,425;N.Na'aman, TA 6(1979),68-69.

(١١٠) CF.2Kings 17:1;Hallo,BA 23(1960),50;Pitard, Ancient Damascus,186-87;Oded,Mass Deportations,64;

حول إنشاء مقاطعات "مجدو" و"جالعازو" بالاقتطاع من الأراضى الإسرائيلية، انظر:

Oded,in Hayes and Miller, Israelite and Judaean History,427;

وحول الحكم الآشورى فى الضفة الغربية، انظر: B.Oded,JNES 29(1970),177ff.

(١١١) ANET2,282;Tadmor,BA 29(1966),89;Na'aman,TA 6 (1979),69.

(١١٢) P.Montet,Le Lac sacré de Tanis (Paris,1966).

(١١٣) مما لا يخلو من مغزى أنه خلال عقد (السنوات العشر) الحرب السوريو- إفرايمية:Syro-Ephraimitic وتدبير المكائد الذى نزعت إليه الدول الساحلية فى إطار جهودها فى الإعداد لتنظيم الدفاع ضد الآشوريين، لم تحدث إشارة إلى فكرة التوجه إلى مصر طلبًا للعون.حقا هرب "هانو": Hanno من غزة إلى مصر طلبا للجوء، لكن ذلك لم يكن سوى تعقيب على الأفق الطبيعي لمدينة واقعة على الحدود مع مصر، انظر:

(Na'aman,Tel Aviv 6 (1979) 74ff.)

خلاصة القول أن مصر لم تكن وقت ذاك، وحتى ما بعد سنة ٧٢٠ ق.م.قوة سياسية يستطيع أى من كان أن يسعى إليها، من الناحية الواقعية البحتة، طلبا للعون.

(١١٤) انظر ص ٣٣٧ (من النص الأصلى). تقوم شواهد على وجود تجارة محدودة للغاية، انظر:

Caminos, Chronocle of Prince Osorkon,125-26ff.;

ولكن هذا الحجم من التجارة لا يستحق الذكر إذا ما قورن بالكميات التى سُجلت خلال المملكة الحديثة.

(١١٥) G.Reisner HTR 13 (1920),30;J.Leclant, Recherches sur les monuments thébains de XXVeDynastie (Cairo,1965),331-32.

(١١٦) A.J.Arkell,A History of the Sudan to 1821 (London, 1959),116;D. O'Connor,in Ancient Egypt, A Social History (Cambridge (Cambridge,1983),269-70;J.Leclant and J.Yoyotte,BIFAO (1951),7;S.Wenig,Africa in Art: The Arts of Ancient Nubia and the Sudan (Brooklyn,1978,2: 56,63.

(١١٧) E.Russmann, The Representation of the King in the 25th Dynasty (Brooklyn, 1974),25-26.

(١١٨) L.F.MacAdam, The Temple of Kawa (Oxford,1949),1:16Leclant and Yoyotte, BIFAO 51(1951),15;P-m2V,227;Gauthier,Livre des rois,4:5(2,1),n.2;J.Leclant, ZÄS 90(1963),74ff.

(١١٩) H.Kees, Das Priesterum im ägyptischen Staat (Leiden,1953),266; Kitchen, Third Intermediate Period in Egypt,151;Redford,King-lsts,314.

(١٢٠) Breasted, Ancient Records of Egypt,4:sec.821.

(١٢١) ND 2715:Saggs,Iraq 17(1955),127ff.;N.Postgate,Taxation and Conscription in the Assyrian Empire(Rome,1974),390ff.;cf.Tadmor,BA 29(1966),88.

حول استغلال الآشوريين للأخشاب اللبنانية انظر: J.Elayi,JESHO 31(1988),14-40.

(١٢٢) Eusebius, Hiernymus Chronikon (ed.Helm),85:Aegypti post Foenices mare optinuerunt.

"شالمانسير الخامس ربما يكون قد نظم، خلال حملته الإسرائيلية، عمليات عسكرية ضد "صور" فى سبيل وقف النشاط البحرى للمصريين على الساحل الفينيقى، انظر: A.Malamat,IEJ 1(1950),152.

(١٢٣) حول قوائم السيادة البحرية، انظر:

R.Helm,Hermes 60 (1926),241ff.;Burn,Minoans,Philistines and Greeks (Oxford, 1931), 63.

(١٢٤) C.J.Gadd,Iraq 16 (1954),179,H.Tadmor,JCS 12(1958),77ff.;idem,BA 29(1966), 92; Elat, JAOS 98(1978),27ff.

(١٢٥) قد يكون من الأفضل أن نطلق على الـ "Archaismus" التى توصف فى غالب الأحيان بأنها راجعة إلى أصل "كوشى"، "المأثرة الصاوية" فهى تعتبر ظاهرة تتصل بعض الاتصال مع بعث النماذج القديمة فى الفن والكتابة والديانة والمجتمع. وليس للكوشيين صلة بها: لم تفعل الأسرة الخامسة والعشرون سوى تقليد بدعة مؤقتة، صادفت شيوعها بالفعل فى مصر، انظر:

H.Brunner LdÄ 1(1975),386ff.;idem,Saeculum 21 (1970),151ff.;R.A.Fazzini, Miscellanea Wilbouriana (Brooklyn, 1972), 64-65f; H.Kees,Das Priestertum im ägyptischen Staat(Leiden,1953),198;J.Yoyotte, Histoire de l'art (Paris,1961),1: 238.

(١٢٦) Yoyotte,Mélanges Maspero,1.no.4:152ff.;idem,BSFE 24(1957),53,fig. 1:D.B. Redford, BES 5 (1983),85-86.

(١٢٧) See Grimal, La stèle triomphe de Pi(ankh)y.

(١٢٨) انظر النقاش الكامل عند "ريفورد" فى: King-Lists الفصل التاسع.

(١٢٩) يتضح من الربط بين التاريخ الآشورى المعاصر وبين المواد المتوافرة من نصوص "السرابيوم": Serapeum، أن وصول "ساباكو": Sabaco إلى مصر يمكن أن يرجع إلى تاريخ لا يتأخر عن يناير/طوبة سنة ٧١١ ق.م. ويبدو من المحتمل أن إعدام "بوكخوريس" جاء بعد ذلك بوقت قصير نسبيا. انظر مناقشتى لتاريخ الفترة فى: JARCE 22 (1985),5-15.

(١٣٠) لم يكن للمناشدة التى وجهها "هوشيا" إلى مصر أن تأتى إلا فى سنة ٧٢٦ أو ٧٢٥ ق.م.، حول هذا التاريخ انظر: J.Reade, Syro-Mesopotamia Studies,4 (1981),1-9.

ويبدو مؤكدا أن التمرد الذى قام به "هوشيا" كان جزءا من انتفاضة أوسع ضد "آشور". انظر:

Miller and Hayes, A History of Ancient Israel and Judah,334-36.

(١٣١) H.Goedicke, BASOR 171(1963),61ff.

(١٣٢) D.R.Redford,JSSEA 11 (1981),75ff.

كافة الاقتراحات الأخرى تبدو أقل احتمالا بكل تأكيد. فليس هناك برهان من أى نوع على أن اسم "أوسركون" يمكن اختصاره كى يشبه الكلمة رهن الحديث، انظر:

(Kitchen, Third Intermediate Period,373-74),

بل ولا يمكن أن تكون ترجمة لكلمة "نسو"(= ملك) بالمصرية القديمة، انظر:

(Oded,in Hayes and Miller, Israelite and Judaean History,433),

وهى الكلمة التى يظهر فيها عند رسمها بحروف غير مصرية، بصفة دائمة، حرف "نون": n غير خاضعة للتماثل: S^3nsw

>Elovσlξlmn-m-nsw> Αμενεμη; nsw-bity>in-si-ya, see further Redford, King-lists, 327 and n.187.

(١٣٣) عن حملة "غزة"، انظر:

ANET2,285;H.Tadmor,BA (1966),91;N.Na'aman,Tel Aviv 6 (1979),68ff.

(١٣٤) Tadmor,JCS 12(1958),78;Albright,BASOR 141 (1956),24.

كون "أوسركون" (Silkanni) أخر سلالة الأسرة الثالثة والعشرين موضوع نوقش فى موضع آخر، انظر:

Redford, King-lists,chap.9.

يبدو من الراجح أنه يظهر على هذا الشكل:"برعو": Pir? u، دافع كمية غير محددة من الجزية، تشمل مرة أخرى خيولا، فى أعقاب الانتصار الذى حققه "سرجون" فى "غزة"، انظر:

A.G.Lie,The Inscriptions of Sargon II King of Assyria vol.1:The Annals (Paris,1927), 22:123-25.

(١٣٥) قد تنعكس الجزية التى دفعها "أوسركون" فى خطاب من "نمرود" يبلغ فيه الملك أن مبعوثين من مصر وغزة و"يهودا" و"مواب" و"عمون" قد وصلوا بالجزية، انظر:

Saggs,Iraq 17 (1955),134,Tadmor BA 29(1966),92ff.;

للاطلاع على رسالة غير كاملة تشير إلى خمسة أحصنة كجزء من الجزية المفروضة عليها، انظر:

R.F.Harper, Assyrian and Babylonian Letters (Chicago,1892-1914),no.1427.

(١٣٦) Diodorus,1.45,1-2:A.Burton, Diodorus Siculus,Book 1.A Commentary (Leiden, 1972), 144-45;Plutarch,Die Iside et Osiride 8.

قيل إن النقش موجود فى "طيبة"، ولكن هذا يقوم دليلا، وحسب على اجتذاب هذه المدينة الكبرى للأطلال فى الفولكلور الذى يرجع إلى الفترة المتأخرة.

(١٣٧) M.El-Amin,Sumer 9 (1953),35ff.,figs.2-6.

(١٣٨) J.Reade, JNES 35 (1976),100ff.

(١٣٩) Ibid.,100 and n.2.

(١٤٠) Cf.Tadmor,BA 29 (1966),94.

تجدر الإشارة، مع ذلك، إلى أن الطريقة البروجنا توسية "prognathous" الجنوبية فى تصوير الوجه الإنسانى الجانبى (البروفيل)، التى تنسبها إلى الفن السودانى خلال الأسرة الخامسة والعشرين كانت معروفة بالفعل فى مصر قبل سنة ٧٢٠ ق.م.، انظر:

Neferut net Kemit:Egyptian Art from the Brooklyn Museum (Tokyo,1984),no.57,

والملاحظات الواردة هناك بقلم: R.A.Fazzini

(١٤١) See Spalinger,JSSEA 11 (1981)

(١٤٢) D.B.Redford,JARCE 22 (1985),5-15.

(١٤٣) E.A.Knauf,BN 20 (1983),34-33;21(1983),37-38;22(1983),25ff.;idem,Ismael, Untersuchungen zur Geschichte Palästinas und Nordarabiens im 1.Jahrhundert (forthcoming);see also M.A.K.Muhammed,ASAE 64 (1981),A.A.Saleh,"Arabia and the Arabs in Ancient Egyptian Records".(in press) (رهن الطبع "وقت ذاك")

(١٤٤) A.A.Saleh, Orientalia 42 (1973),370ff.;P.Parr,in Hadidi,Studies in the History and Archaeology of Jordan 1:129-30.

حول الفخار "المديني": Midianite الراجع إلى شمال غرب شبه جزيرة العرب، الذى عثر عليه فى "تل الفارعة" و"تل اليهودية" ،انظر:

T.Dothan, The Philistines and Their Material Culture (Jerusalem,1982),28 and literature there cited (والأدب الذى رجع إليه المؤلف فى كتابه)

(١٤٥) M.Kochavi,BAR 6 (1980),27;1.Finkelstein,JNES 47 (1988),241-52.

(١٤٦) حول التوسع الذى قام به "سليمان" فى وسط "النقب"، انظر:.C.Meyers,BA 39(1976),149

(١٤٧) قارن على سبيل المثال:.Elat,JAOS 98 (1978),28,49

(١٤٨) انظر ص ٣٢٨ (من النص الأصلى) و:

J.Bright, A History of Israel (Philadelphia,1959),239-40;

وحول التجارة مع شبه جزيرة العرب، انظر:.N.Gleuk,BA 28 (1965),86

(١٤٩) لا زلنا نفتقر حتى الآن إلى أدلة كافية عن تاريخ فلسطين (Philistinia) خلال القرنين الأوليين من الألف الأول. والمدينة الوحيدة للفلسطينيين التى يرد ذكرها فى الفقرات التى تعيد سرد سيرة "داود" هى مدينة "جات"، البعيدة عن الساحل ("صموئيل" الأول١٧: ٥ وما بعدها، ٢٧ وما بعدها، "صموئيل" الثانى ٢١: ١٥-٢٢، ٨: ١، ٥: ١٧-٢٥) ولكن القائمة فى "صموئيل" الأول ٦: ١٧ تشير إلى السياق التالى للأهمية السياسية (على الأقل بالنسبة للمؤلف القديم): "أشدود"، "غزة"، "عشقلون". ويذكر سفر "صموئيل" الثانى، "أسواق الشوارع" فى "عشقلون"، الأمر الذى يبشر بالأهمية التجارية للمدينة. ومع "عاموس" نجد أنفسنا قد بلغنا أرضًا أكثر صلابة: بينما اختفت "جات" فى تدمير "يوزيا":Uzziah، انظر:

(H.J.Katzenstein,The History of Tyre (Jerusalem,1973),197 andn.24),

و"غزة" تفتخر بالقصور و"عشقلون" تعرف ملكا يحمل فى يده صولجانًا ("ماسك القضيب" فى إحدى ترجمات الكتاب المقدس) ("عاموس" ١: ٨) وكانت هذه المدينة، فى تبدل غير مسجل فى حظوظها، قد مدت سيطرتها على الإقليم المجاور إلى جهة الجنوب – الشرقى للمدينة، قارن:

A.Alt,Kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel,3:420,n.1;N.Na'aman Tel Aviv 6 (1979),70),

ولعلنى أظن أن "غزة"(رغم افتقارى إلى دليل فى هذا الصدد) قد استولت على أراض فى شمال "سيناء".
ويستطيع المرء أن يستشعر الإحساس بالقوة الذى تمتع به كل من "هانو"، ملك "غزة" و"ميتينى" الأول ملك "عشقلون"، وهو الأمر الذى دفعهما فيما بين ٧٣٥-٧٣٤ أن يطرحا جبهة موحدة سرعان ما انهارت، ضد "تيلجات-بيليسير" الثالث، ويقومان بالتوسع، بجسارة ملحوظة، فى "شيفيلاه"، انظر:

A.F.Rainey,BASOR 251(1983),14-15.

(١٥٠) Tadmor,BA 29)1966),89,idem, in B.Uffenheimer,ed.,Bible and Jewish History (Tel Aviv,1972),

(١٥١) انظر ص ٣٤٢ (من النص الأصلى).

(١٥٢) Oded, in Miller and Hayes, Israelite and Judaean History,425; Na'aman,Tel Aviv 6 (1979) 68-69.

(١٥٣) Tadmor,JCS 12 (1958),77-78;idem,BA 29 (1966),89;Na'aman,Tel Aviv 6 (1979),69.

(١٥٤) انظر سفر "أخبار الأيام" الأول ٤: ٤١.

(١٥٥) Toronto ostracon: bibliography in J.Leclant, LdÄ 5 (1983),512,nn.93-94.

(١٥٦) M.F.Laming MacAdam, The Temples of Kawa (Oxford,1949),1:nos.6,20-2 .

(١٥٧) D.B.Redford,JAOS 93 (1973),17.

(١٥٨) F.V.Winner, Ancient Records from North Arabia (Toronto, 1970),115-17;W.J.Dumbrell, BASOR 203 (1971),33ff.;A.Lemaire, RB 81 (1974),63ff.

(١٥٩) نلاحظ كيف، أحصى "سرجون"، عقب النصر الذى أحرزه عند "غزة"، جزية كل من "بيرعو" ملك "موصرى":Musri (مصر= Egypt) و"سامسو" وملكة شبه جزيرة العرب و"إيتاعمار" ملك "سبأ"، انظر:

A.G.Lie, The Inscriptions of Sargon II, King of Assyria,vol.1:The Annals,22:123-25.

(١٦٠) حول الأدلة على وجود مراسلات دبلوماسية بين "شاباكا" ومعاصريه الآشوريين، قارن طبعات خاتمه التى عثر عليها فى قصر "سيناكريب" فى "نينوى"، انظر:

A.H.Layard,Discoveries in Nineveh and Babylon (London,1853),156-59.

وحول إعادته للهاربين السياسيين، انظر:.D.B.Redford,JARCE 22 (1985),6-7

(١٦١) Cf.Cairo JdE 44665:J.Leclant, Enquêtes sur les sacerdoces et les sanctuaires égyptiens à L'époque dite "éthiopienne"(Cairo,1954),35.

(١٦٢) قارن سفر "إشعياء" ١٨: ١ وما بعده، حيث يستنكر النبى العبرانى، بقوة، الخطوة التى أقدم عليها "حزقيا".

(١٦٣) ANET^2 ,287.

("ملوك مصر" هنا هم رؤساء مناطق الدلتا، أى الحكام الليبيون الذين يصر الآشوريون على وصفهم - بالخطأ - بـ "الملوك"، انظر:.(pace N. Na'aman, VT 29(1979),65)

والإشارة الوحيدة التي وردت في سفر "الملوك" الثاني إلى "طاهركا" بصفته ملكا لمصر وقت الأحداث أدت إلى كمية هائلة من كتابات تاريخية "منقحة". ولما كان "شاباكا" قد صعد إلى العرش في سنة ٧١٢ق.م. وتمتع بأكثر من ١٥ سنة في منصبه، فيتأسس على ذلك أنه كان جالسا في كرسي العرش في سنة ٧٠١،انظر:
(Redford,JARCE 22(1985),13)

وليس خليفته الثاني، حتى ولو كان ابن أخيه "شيبيتكو" الذي خلفه مباشرة، على العرش، قد شاركه في تولي مقاليد الحكم لمدة ثلاث سنوات، فإن إسباغ هذا الشرف كان لا يزال في سنة ٧٠١ في طي المستقبل؛ انظر:
Murnane, Ancient Egyptian Coregencies,180-90

حيث نجد أن حالة المشاركة في الحكم الواردة إنما تعتمد، وحسب، على استدلال من سفر "الملوك" الثاني ١٩: ٩ نفسه) على أن وصول "طاهركا"(="ترهاقة" في إحدى ترجمات "العهد القديم") إلى مصر من مسقط رأسه في "النوبة" موصوف بعبارات صريحة لا تحمل أي لبس، في نص "كاوا" المشهور١: ٢٨) "والآن ها قد حضرت من النوبة بين إخوة الملك (شيبيتكو" الذين استدعاهم من هناك، وكنت معه لأنه أحبني أكثر مما أحب كافة إخوته وجميع أبنائه.. وكانت أمي لا تزال في أرض النوبة، فلقد تركتها وأنا شاب في العشرين من عمري، عندما انحدرت مع جلالته إلى مصر السفلي". وهكذا لم يقرر أن استدعاء الأمراء كان متصلاً بأي حال من الأحوال بأي استعدادات للحرب (إذا صح قول"K.A.Kitchen,RdE 34(1982),65): كان "شيبتيكو" يشكل، بكل بساطة، بلاطه في "منف" عقب رحيل سلفه: "شاباكا". وبناء عليه يكون "طاهركا" لا يزال صبيًا يعيش في النوبة في سنة ٧٠١ق.م.، وكانت رحلته التي ستأخذه لأول مرة إلى مصر نفسها لا تزال بعيدة أمامه في رحم المستقبل. وحملنا الإشارة التي وردت في سفر "الملوك" الثاني إلى "طاهركا" ١٩: ٩ على محمل الجد (قارن:Na'aman VT 29 (1979),65;Kitchin,RdE 34(982-1983) أمر يفتقر إلى كل مسوغ، فضلا عن قيادته لنا إلى نتائج مضللة. (بطبيعة الحال كانت قوات التجاريد المصرية تنقسم أحيانًا إلى فرق مختلفة، ولكن الحملات لم تكن تعرف باسم القائد الأدنى مستوى (أي قائد هذه الفرقة أو تلك)، في هذه الحالة"الأمير...مع الفرقة الثانية") والأمر بكل بساطة، كان "طاهركا" هو الاسم الفرعوني الوحيد الذي يعرفه مؤلف سفر "الملوك" الثاني للفترة التي كان يكتب تاريخها، ولذلك افترض، عن طريق الخطأ، أن "طاهركا" كان جالسا بالفعل في العرش. وللاطلاع على تقاليد "طاهركا" كغاز، انظر:
Strabo,1.3.21;15.1.6;G.Goosens,CdE 22(1947),239ff.

(١٦٤) قارن المنظر النموذجي لضرب الرأس حتى الموت، انظر:
J.Leclant,Recherches sur les monuments thébains de la XXVe dynastie dite éthiopienne (Cairo,1965),2:pl.82b;1:339,n.4);

تتضمن الوثائق المعاصرة التي تتعلق بالتجارة التي ترجع إلى سنوات ٧١٠، ٧٠٢ و٧٠٠ أحيانا عبارة (فلينعم بالصحة وليوهب النصر من قبل "آمون"!)، انظر:
(J.Malinine, Choix de Textes juridiques(Paris,1953),P.Louvre 322b,d,and e);The Toronto scarab(see n.154)

التي تقول: "لقد ذبح أعداءه في مصر العليا ومصر السفلي، وفي كافة البلدان الأجنبية، وسكان الرمال الذين ثاروا ضده سقطوا صرعى على يديه.. ولقد جاءوا طوعا كأسرى أحياء، كل منهم يمسك بزميله."حول جداريات"جبل بركل"، انظر: رقم ١٨٥

(١٦٥) لا يقل الحبر الذى أهرق ونثر وانصب على حملة "سيناكريب" على "فلاسطين" و"يهودا" فى سنة ٧٠١ ق.م. عن فيضان عميم. ومن بين المساهمات الأكثر معتمدية والاكثر أهمية، يستطيع المرء أن يستشهد بما يلى:

Tadmor,BA 29 (1966),86-102;B.S.Childs, Isaiah and the Assyrian Crisis (London,1967); Oded, in Hayes and Miller,Israelite and Judaean History,446-51;D.Ussiskin,IEJ 29(1979),137-42;idem,The Coquest of Lakish by Sennacherib (Tel Aviv,1982);M,Hutter, BN 19(1982),24ff.;F.Gonclave,L'expédition de Sennacherib en Palestine dans la literature hébraique ancienne (Paris,1986),352-63;P.Dion, Bulletin of the Canadian Society of Biblical Studies 48(1988),3-25.

حول المنظور المصرى لحملة "سيناكريب"، انظر:

F.J.Yorco,Serapis 6 (1980),221-39;K.A.Kitchen,in M.Görg,ed.,Fontes ataque Pontes (Wiesbaden,1983),243-53.

أدى الاهتمام المفرط وغير النقدى بالإشارة التى وردت إلى "تاررقا"، مع تقييم خاص يرى أن سفر "الملوك" الثانى (١٨: ١٧-١٩:٢٥) يضم سجلا لحادثين منفصلين، ببعض العلماء إلى افتراض أن "سيناكريب" قام بحملتين، الأولى فى سنة ٧٠١ والأخرى فى ٦٨٨، قارن:

Bright,History,285-88;W.H.Shea,JBL.104{1985},401-18;cf.H.Horn, Andrews University Seminary Studies 4{1966},1-28).

أصبح هذا العمل، مع ذلك، تمرينا على الحذق، ومسخا ساخرا للمنهج العلمى من ذلك النوع الذى فقد قدرته حتى على التسلية أو الإمتاع.

(١٦٦) Cf.J.Von Beckerath, JARCE 5 (1966),53,n.33.

الفعل "أن يظهر" مستخدم فى هذا النقش اليدوى (=الجرافيتو) فى الدلالة، على الأرجح، على "التتويج".

(١٦٧) Leclant, Recherches,237,n.1.

(١٦٨) M.Astour,JBL 84(1965),422-25.

(١٦٩) Leclant, Recherches,340,n.3.

(١٧٠) Redford,JARCE 22(1985),14,fig.3.

(١٧١) Redford King-lists,300,n.19;Leclant,Recherches,347;idem,LdÄ 6 (1986), 156-67;Yoyotte,BIFAO 51(1952),16;J.Leclant and J.Yoyotte,RdE 10(1949), 37ff.; W. Helck, ZÄS 93 (1966),74-79.

(١٧٢) حول السياسة الخارجية التى تبناها "طاهركا" تجاه الشمال، انظر:

A.J.Spalinger,Orientalia 43(1974),295-326;idem.CdE 53(1978),22-47.

(١٧٣) MacAdam, Kawa,1:5ff.,33ff.

(١٧٤) J.Leclant,Montouemhät, qutrieme prophète d'Amon et prince de la ville (Cairo,1961),197,line 2;2:213,line 11.

(١٧٥) Cairo 770.Taharqa's involvement is reflected in Lybia in an unpublished Karnak stela.

ينعكس تورط "طاهركا" فى ليبيا فى النص غير المنشور والمنقوش على صادود/لوح الكرنك.

(١٧٦) ANET2,290.

(١٧٧) S.Yeivin,JQR 50 (1959-1960).226.

(١٧٨) Katzenstein,History of Tyre,263.

(١٧٩) R.Borger,Die Inschriften Asahaddons Königs von Assyrien (Graz, 1956),102.

في إطار الهيمنة التي بسطها "طاهركا" على سهل فلسطين :Philistine، يجب على المرء أن يذكر قطعة الشخليلة (=الصلاصل) التي عثر عليها خلال عملية التنقيب التي جرت في "مقنة"، انظر:

(S.Gitin,BAR 16,no.2(March-April1990),41)

ويشير تقديم النذور إلى "أمون-رع"، سيد عروش الأرضين، الذي نجده ساندا في "الجبل المقدس"(أي "جبل بركل" في "قرون الأرض:Horns of the Earth، إلى الشكل الناباتي (نسبة إلى "ناباتا"، عاصمة "كوش")، للإله والأولى إلى مستودع خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين، وليس الأسرة السادسة والعشرين (كما يعتقد، على ما يبدو واضحا، المستكشف الذي قام بعملية التنقيب)

(١٨٠) مع انتهاء المنطقة العازلة بين "دمشق" و"إسرائيل"، اضطرت دول جنوب المشرق، أكثر من أي وقت مضى، إلى التوجه إلى مصر طلبًا للعون. ويستطيع المرء أن يرتأي أن التأثير اللغوي والمؤسسي والثقافي، أيا كان، الذي تركته مصر على "يهودا"(انظرص ص ٣٥٠-٣٩٤من النص الأصلي) حدث خلال هذه الفترة، قارن، على سبيل المثال، التأثير المصري الصارخ الذي يتبدى جليا في أدوات العبادة التي ترجع إلى "بير-سبع"، انظر:.Y.Aharoni,BA 35(1972),124),fig.17

(١٨١) انظر ص ٢٥٣

(١٨٢) سفر "إشعيا" ٣٠: ٦-٧

(١٨٣) ANET2,288a.

(١٨٤) سفر "إشعيا" ٣٠: ١-٥، ٣١: ١-٣

(١٨٥) A.M.Moussa, MDAIK 37(1981),331-37.

يدل برنامج التشييد الضخم في مصرالذي تقوم عليه أدلة قوية خلال هذا الحكم (J.Leclant,LdÄ6 (1986)) على تنظيم فعال لقوة العمل. ومناظر النصر الذي حازه "طاهركا" مقولبة ومبنية على مفردات المملكة القديمة،، انظر:

Leclant,Recherches,297-98;R.A.Parker et al.,The Edifice of Taharqa by the Sacred Lake at Karnak (Providence,R.I.,1982),57,pl.27.

حول التقاليد التي تروى عن "طاهركا" كغاز انظر:

Strabo,1.3.21,15.1.6;Goosens,CdE 22(1947),239-44;J.Janssen,Biblica 34(1953),34.

في هذا الصدد قد يستطيع المرء أن يتوقف أمام الجداريات الملغزة التي كانت قائمة ذات يوم في جبل البركل" التي جذب "سبالنجر": Spalinger انتباهنا إليها، انظر:

JSSEA 11 (1981),46-49and fig.4.

فهذه الجداريات تصور جنودا يرتدون خوذا أشورية، يتجرعون كأس الهزيمة على أيدي قوة مصرية-نوبية تركب العجلات الحربي. ويحاول "سبالنجر" أن يضع نقطة نهاية Terminus ante quem لحكم "سيناكريب" استنادا إلى الخوذة المخروطية الشكل ووجود المنظر في قسم من المعبد بناه "بي-عنخي"، انظر:

(ibid.,49;cf.D.Dunham, The Barkal Temples (Boston,1970),plan B502).

ومع ذلك فهذا النوع من الخوذ استمر خلال عهد "سيناكريب" وجزء كبير من القرن السابع ق.م.، انظر:
D.Ussishkun, The Conquest of Lakish by Sennacherib (Tel Aviv1982),pls.66,69-)
72 and passim;H.Hall,Babylonian and Assyrian Sculpture in the British Museum(Paris,1928);

قارن النموذج الرائع الذى نجده قرب "الرامسيوم"، انظر:

Leclant,Recherches,181(E,1))

والقاعة رهن الحديث كانت، على نحو شبه مؤكد، لا تزال تحت الزخرفة فى أواخر سنوات الحكم، انظر:
P-m VII,219-20.

ينطوى هذا المنظر على ما يحدونا إلى أن نرى فيه سجلا تركته لنا الأسرة الخامسة والعشرون لإحدى الحملات الأولى التى قام بها "طاهركا" أو "إلتيكيه".

(١٨٦) See R.Zadok,WO 9 (1977),35ff.;ANET2,294.

(١٨٧) حول حكم "منسى"، انظر:

Oded, in Miller and Hayes,Israelite and Judaean History,452-58

لعله من الراجح أن "منسى"، كان مضطرا،اتساقا مع غيره من توابع "إيزارهادون"، أن يوقع معاهدة تبعية، تلزمه بتقديم الدعم للأهداف الآشورية وأن يمتنع عن التفكير فى التمرد، انظر:

Miller and Hayes, A History of Ancient Israel and Judah,370-72;

تمثلت المطالب الآشورية اللاحقة فى ضرورة إقامة مواقع للحاميات، انظر:

(Oded,in Milller and Hayes,Israelite and Judaean History,455),

وربما يكون نفوذ "آشور" قد امتد إلى شعائر العبادة، انظر:

(M.Weinfield,JNES 23(1964),202-12)

وعلاقته (أى "منسى") الوطيدة فى وقت سابق مع "صور"قارن: (Katzenstein,History of Tyre,263-64 لا تعنى أنه انخرط، بصورة نشطة، فى الهبة، ويبدو أن الجزية المفروضة على "يهودا" فى ذلك الوقت لم تكن ثقيلة، انظر:

R.F.Harper,Assyrian and Babylonian letters Belonging to the Kouyunjik Collection(s) of the British Museum (Chicago,1892-1914),no.632.

(١٨٨) Roux, Ancient Iraq,293-94.

(١٨٩) حول مقر إقامة الحاكم الآشورى فى "تل يميه": Tel Jemmeh والعثور هناك على مفردات تخص قصرا آشوريا، انظر:

G.Van Beek,IEJ 24 (1974),139,274;27(1977),172;Na'aman,Tel Aviv 6 (1979),72-73,81.

(١٩٠) ANET2,290,302;R.Campell Thompson, The Prisms of Esarhaddon and Ashurbanipal (London,1931),18.lines 39ff.;Borger, Inschriften,50.

(١٩١) Borger, Inschriften,107-9;ANET2 (Suppl.),533-34;Katzenstein,Tyre,267ff.

(١٩٢) ANET2,291;Borger, Inschriften,48.

(١٩٣) On URU Sa.LU of Esarhaddon chroncle,see S.Smith,Babylonian Historical Texts (London,1924),10-11;ANET[2],303;H.von Zeissl,Äthiopen und Assyrer in Ägypten (Glückstadt, 1924),36.

يصعب علينا الفصل بين هذه البلدة وتلك الموجودة فى بلاد "بابل"، ويبدو أكثر من مرجع أن الحقيقة، وعلى نحو ما يعتقد كل من "لاندزبيرجر": Landsberger و"باور": Bauer(ZA 37(1937),87) تكمن فى حشر حمله أشورية صغيرة ومحلية فى هذا التأريخ حتى يتم تفادى الحرج الناجم عن الاضطرار إلى ذكر هزيمة كانت قد ألمت بالآشوريين.إلا أن محاولة "فيخت": Fecht (MDAIK 16(1958),116ff.) إلى أن يرى فى الاسم إشارة إلى حصن "صايل" الحدودى، تنطوى على سذاجة بالغة، بل وتنهار أمام الرسم غير المرجع للكلمة بعلامات وحروف أجنبية، انظر: Spalinger,Orientalia 43(1974),300-30.

(١٩٤) حول هذه الطرق، انظر:

J.Clédat,ASAE 15 (1915),16;C.S.Jarvis, Three Deserts (London,1936),11ff.; J.Baines and J.Malek,Atlas of Ancient Egypt (New York,1980),19-20, 188;Y.Aharoni, The Land of the Bible:A Historical Geography (London,1979),197-200.

(١٩٥) ANET2,293;Borger, Inschriften,102;M.Etan,JAOS 98(1978),33.

(١٩٦) J.A.Knustzon, Assyrische Gebete an den Sonnengott (Berlin,1893), 2:nos . 69, 70; Tadmor,BA 29 (1966),100.

(١٩٧) S.Parpola, Letters from Assyrian Scholars to the Kings Esarhaddon and Ashurbanipal (Neukirchen-Vluyn,1970),no.117.

(١٩٨) L.Waterman, Royal Correspondence of the Assyrian Empire (Ann Arbor,Mich.,1930-1936),no.276.

(١٩٩) حول رواية "إيزارهادون" الخيالية، انظر:

ANET2,292.

تحولت المشكلة التى تدور حول أى طريق سلكه "إيزارهادون" فى دخوله مصر إلى التعرف على موقع "مجدول" بصفة جزئية. وفى العادة كان الباحثون يستقرون على أنها "مجدول" التوراتية، انظر:

(J.Simons, Geographical and Topological Texts of the Old Testament {Leiden,1959} , sec. 424,

وقد تم التعرف فى الآونة الأخيرة عليها فى الموقع تى ٢١ : (Site T 21) على بعد عشرين كيلو مترا شمال شرقى مدينة "القنطرة" الحديثة، انظر:(E.Oren,BASOR 256(1984),7-44

وإذا صح هذا، فإن "إيزارهادون" يكون قد دخل مصر، دون شك، عبر الطريق الساحلى قادما من "غزة". ولكن المشكلة التى تفرض نفسها علينا فى هذا الصدد، تتمثل فى أن بردية: P.Dem.31169، وهى بردية جغرافية على جانب عظيم من الأهمية، ولو أنها فى حاجة ماسة إلى طبعة جديدة، تذكر وجود أربع مدن على الأقل تحمل كل منها اسم "مجدول" وتقع على الحدود الشرقية لمصر، انظر:

(D.B.Redford, in A.F.Rainey,ed.,Egypt,Israel and Sinai {Tel Aviv,1987},143,n.14)

ولعله من المعقول أن واحدة أو أكثر منها كانت واقعة جنوبي مدينة "القنطرة"، كى تحرس المدخل الذى يقود إلى "وادى طوميلات".

(٢٠٠) الـ "إشكوبرى" الأشورى، كان دون شك، قاعدة تحمل اسم التتويج الخاص بالفرعون "سيتى" الثانى (حوالى ١٢٢٥-١٢٢٠ق.م.)، انظر: Gauthier, Le livre des rois d'Egypte 3:130-39;

يجدر أن نماثل بينها وبين الاسم المشابه الوارد فى بردية P.Dem 31169 التى يضعـها "دارسى" فى زمام "الصالحية"، انظر: G.Daressy (ASAE 17(1917),128)

انظر أيضا: Fecht,MDAIK 16(1958),118-19.

(٢٠١) ANET2,293.

(٢٠٢) Leclant, Montouemhât,83,line 6;P.Rylands IX,vi.16-18.

(٢٠٣) عن "نيخو" (١)، انظر: D.B.Redford,LdÄ 4 (1984), 368-69;idem,King-lists,326-27.

(٢٠٤) عن "تانوتامان": Tanwetaman وإعادة الاستيلاء على مصر، انظر:

Spalinger,JAOS 94 (1974),316-28;A.Leahy,GM 83 (1984),43-46; S.M.Burstein, JSSEA 14 (1984),31-34.

(٢٠٥) ANET^{2}

ظهر جانب من الغنائم فى الحفائر التى قام بها المنقبون فى "آشور"، انظر:

W.K.Simpson, Sumer 10 (1954),193-94;V.Vikentiev, Sumer 11(1955),111-16;idem,Sumer 12(1956),76ff.;B.Parker,Iraq 17 (1955),119,Leclant,Orientalia 27 (1958),96;30 (1961), 394;P.Barguet, Le temple d'Amon-rê à Karnak (Cairo,1961),135.

الفصل الثالث عشر

مسألة التأثير المصرى على إسرائيل المملكة: وهم أم حقيقة ؟

يكون أمرًا غريبًا حقًا إذا كانت "إسرائيل" و"يهودا" خلال العصر الحديدى قد عاشتا عمرهما القصير نسبيًا كدولتين مستقلتين معزولتين عن المؤثرات الصادرة عن أقرب أعظم أمة – دولة كبرى فى المنطقة أى مصر.(تقع العاصمتان "أورشليم" و"السامرة" على بعد لا يزيد عن ٤٤٠ و٤٧٠ كيلو مترًا من "منف" عاصمة مصر، على التوالى) ومع ذلك إذا ما تحلى المرء بالصراحة التامة، فلسوف يجد نفسه مضطرًا إلى الإقرار بأن علامات التأثير المصرى فى "التوراة" أو الاقتباسات المحددة التى قنصتها الثقافة الإسرائيلية من مصر قليلة بشكل ملحوظ ولا تطفو على السطح بشكل مباشر بكل تأكيد، على الأقل عند القراءة العابرة لـ "التوراة". أين إذن نستطيع أن نجد تلك التأثيرات؟ أم أننا مخطئون فى الافتراض الذى انطلقنا منه؟ لا شك فى أن ثقافة العبرانيين القدماء، بجذورها التى تضرب فى ماضيهم البدوى فى قبائل "الشاسو" اقترضت بشكل شديد الكثافة من "الكنعانيين" وأشباههم الذين عاشوا فى سوريا وعلى الساحل. ولم تكن "إسرائيل" أكثر من جماعة بشرية تتحدث اللغة الكنعانية التى تنتمى إلى العائلة الفرعية: السامية الغربية، أما أسلوبهم أى الإسرائيليين فى الحياة وثقافتهم المادية فهما نابعان ومتوطنان فى المشرق. ولم يتصلوا مطلقًا اتصالاً مباشرًا فى فترة التكوين من تاريخهم بمصر، ولقد بدا الفرعون لهم باستمرار من خلال رؤية مستعارة من أهل الحضر من الكنعانيين، كسيد وطاغية أو يكاد أن يكون كذلك.

ومع ذلك فعلى امتداد خمسة قرون كان تأثير الإمبراطورية المصرية ملموسًا على امتداد القرن الغربى للهلال الخصيب، ومع أن هذا التأثير تقلص بتفكك هذه

الإمبراطورية، إلاّ أنه لم يتوقف كلية بأى حال من الأحوال. وبالتالى فإننا محقون تماماً فى بحثنا عن آثار ذلك التأثير المصرى فى "التوراة"، طالما جرى هذا البحث بأسلوب متوازن ومنطقى وطالما وضعنا محاذير معينة فى ذهننا.

أولاً: لا نخدم أى غرض علمى إذا أطلقنا العنان للحماس أو قذفنا بالحذر للرياح وتخيلنا وجود كلمة أو عبارة مصرية وراء كل "هابكس" hapax (= تعبير) عبرى أو وجود عادة مصرية خلف كل عرف عبرى غير مشروح بطريقة أخرى. وقبل وقت ليس بالبعيد عنا بدأ رد فعل طيب ضد اتجاه مماثل يتخيل أن نصوص "العهد القديم" كتبت بتأثير "بابلى - كلى" Pan-Babylonian منتشر فى كافة ثناياها. وأرجو ألاّ تحل محل هذا الاتجاه الآن "نزعة مصرية - كلية"! ولقد تلقى كاتب هذه السطور، عندما كان لا يزال طالبًا على أبواب الدراسات العليا تأنيبًا مفيدًا من أستاذ التاريخ اليونانى عندما مال فى مقال دراسى له نحو "التأثير الأجنبى فى فن الحقبة اليونانية العتيقة". فلقد تطلع نحوى بذلك التوجس الذى لا يستطيع سوى أستاذ للكلاسيكيات أن يكنه لطالب ينخرط فى دراسات الشرق الأدنى، وهمس: "حسنًا ! تستطيع أن تفعلها. لكننى لا أظن أنك سوف تخلص إلى أن كل شىء جاء من مصر!" وبصرف النظر عن دوافع الأستاذ، إلاّ أن سخطه بدا إيماءة تحذير: الالتزام العلمى بمنطقة معينة أو نسق معين لا ينبغى أن يتحول إلى نوع من التذرع المُغرض.

ثانيًا: حتى إذا استطعنا عزل كلمة ما أو "موتيف" أو عرف أو عادية من العاديات المصنوعة بيد الإنسان، مما لها على وجه الاحتمال أصل مصرى، فإن المرء لا يستطيع أن يفترض بصفة تلقائية أن عبرانيى المملكة الإسرائيلية استعاروها مباشرة من مصر المعاصرة لهم. فتراث الإمبراطورية المصرية التى ترجع إلى العصر البرونزى كان عظيم الشأن، وليس معقولاً ألاّ يستمر حيًا أو ألاّ يستلهمه العبرانيون. ونظراً للانخفاض الحاد فى عدد المصادر المدونة من الأسرة الحادية والعشرين حتى الأسرة الرابعة والعشرين، فلقد أصبح أكثر صعوبة بشكل جوهرى مما كان عليه الحال فى المملكة الحديثة أن نصف الثقافة المصرية بتفصيل محدد خلال العصر التانيسى (= نسبة إلى "تانيس") أو عصر الهيمنة الليبية.

ثالثًا: لعلها حقيقة ثابتة تلك التى تقول إن "يهودا" وعلى نحو خاص "إسرائيل" تمتعتا خلال العصر الحديدى الثانى باتصال أشد قربًا مع الساحل الفينيقى مما كانا

يتمتعان به مع وادى النيل. وتكشف الأساليب الفنية والمعمارية بشكل واضح أن إسرائيل استعارت "الموتيفات" المصرية عبر الفينيقيين، وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا لم تستعر أيضًا المواد المعجمية والأفكار؟ باختصار: أيًا كانت شاردة تلك المؤثرات المصرية التى قد نجدها هنا وهناك إلاّ أنها قد تعزز ببساطة اعتقادنا فى وجود "الصلة الفينيقية".

أيديولوجية الملكية:

نبدأ بمجال الملكية. فهنا يبدو أن بونًا شاسعًا يقوم بين الملكية المقدسة للفراعنة التى يعبر المصريون عنها بصورة عقائدية خلال أدوات أسطورية وأساسية لمفهوم الدولة المصرية من جانب وبين الصورة الباهتة والسريعة الزوال للمملكة الإسرائيلية. وكانت الهوية الأسطورية للفرعون وكذلك دوره قد ضربا بجذورهما فى التربة المصرية خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م. وقامت العبادة الملكية بتثبيتها بصورة غير قابلة للتغيير لكل الأزمنة[1]. فكان فرعون مصر تجليًا لراعى الأسر المالكة على الأرض: حورس، ابن الإله – الشمس، متمتعًا عند الموت بالتأليه كالإله "أوزيريس". ولقد سما الفرعون فوق الخلق مثل رب جوهرى معين هبط من عليائه إلى الأرض وبصفته هذه كان ضامنًا للخصوبة وحافظًا لنظام الكون ومتقبلاً مقدسًا للعبادة. ولو أن تغير الأزمنة، أفضى بطبيعة الحال، إلى إدخال تعديلات هنا وهناك. ففى الألف الثانى برزت إلى مقدمة الصورة وظيفة الفرعون الأرضية (=الدنيوية)[2] إذ أصبح مختاراً من قبل الآلهة، وبدا شبيهًا بوالده "رع". وانصب تركيز كبير على قوته البدنية وبراعته الحربية، وقدرته على الابتكار وفطنته البشرية. وبحلول بداية الألف الأول جلس الأجانب على عرش مصر، وانعكس ذلك فى حدوث ضعف أشد للرابطة بين الدور الأسطورى وبين الحقيقة الدنيوية. وهبط لقب "الفرعون" أو "الملك" الذى كان مشحونًا يومًا بالهيبة والإجلال إلى مرادف لا يزيد إلاّ قليلاً عن "رأس دولة". وانتشر حكام المدن الذين أخذوا يطلقون على أنفسهم لقب "ملك" فى نفس اللحظة الواحدة من الزمن، ولسنا واثقين مما إذا كان قلب الجد إلى هزل، الناجم عن كل ذلك، الذى لحق بأسطورة "حورس" كان قد ولد فى غضون ذلك فى العقل المصرى[3]. وأصبحت الرابطة بين

الحاكم كربيب وبين إله معين يختاره ويشمله برعايته أقوى وأمتن خلال النصف الأول من الألف الأول[٤].

من جانب آخر نجد الملكة monarchy العبرانية تنتمى للنوع المشرقى من الملكية kingship وتختلف بصورة ملحوظة عن الملكية التى عرفتها مصر[٥]. فهنا نجد الملك "قادم متأخر" ينتفع بهالة السحر (الكاريزما) المضفاة عليه، ولكنه يرتبط باتفاق تعاقدى مع شعبه، وكذلك مع الإله القومى. وكـ "مخلص" (soter لقب كان يطلق على "زيوس" رب الأرباب فى الأساطير اليونانية القديمة. المترجم) وكان يقود الجنود فى المعارك ويقيم ميزان العدل، إلاّ أنه كان مديناً للإله القومى، الذى يعد هو نائباً ووكيلاً له. وبصفته قائداً لأمة كانت قد تحررت قبل وقت وجيز من تقاليد البداوة، كان يزهو بكونه ملكًا وبشجرة طويلة من الأنساب، ومع ذلك كان الرب هو الذى يختاره وهو الذى يحفظ عليه استمراره فى موقعه. وعلى هذا النحو كان الملك العبرانى فى كثير من الصيغ نوعًا من "الوسيط" بين الإله والشعب، وهو فى هذا يشبه إلى حد كبير الـ "خزنو" hazanu الذى عرفته "كنعان" فى العصر البرونزى المتأخر، فـ "الخزنو" كان وسيطًا بين شعبه والفرعون. وكان خاضعًا لقسم بالولاء، مثلما كان الملك خاضعاً لـ "عهد": كلاهما يقفان موقف التابع.

وبناء عليه فليس فى مقدورنا أن نقارن البتة بين الملكية المصرية وتلك العبرانية سواء على مستوى الأصول أو الصيغ أو الأيديولوجية، ولكن الهياكل الاجتماعية - السياسية التى تملك وعيًا ذاتيًا وتكون قد حققت درجة من الرقى قد تقلّد النماذج الموازية التى تقف منها موقف الإعجاب. فهل هذه هى حال الملكية فى إسرائيل؟

حتى هنا يصعب علينا أن نرصد أى "طلاء مصرى" على أعراف ومفاهيم الملكية الإسرائيلية. ففى طقوس التدشين، على سبيل المثال، يزعم كثيرون أن "الميثاق" ("المزامير"٢: ٧) و"العهد" ("الملوك" الثانى ١١: ١٢) اللذين كانا جزءًا لا يتجزأً من طقس التتويج فى "يهودا" إنما يرسمان "لقبًا خماسى الأبعاد" من ذلك النوع الذى عرفته مصر[٦]، ولكن الكلمات العبرية رهن الحديث لا تتصل من قريب أو من بعيد برسم أى ألقاب ملكية[٧]. ولقد شبه البعض تسمية الملك المسيحانى (= بالعبرية "مشياح" وتعنى الممسوح بالزيت، وهو الملك المنتظر فى العقيدة اليهودية أن يظهر كى يخلص بنى إسرائيل من عبوديتهم للأجانب ويعيد أمجاد عصرهم الذهبى، وهو ملك

منحدر من نسل "داود". المترجم) فى سفر "إشعيا" ٩: ٦ بالألقاب الخمسة أو "الاسم العظيم" الذى دأب الفراعنة على حمله، إلاّ أن الاسم العبرى يتكون من أربعة ألقاب وحسب، وليس بينها ما يشبه ولو من بعيد أى اسم مصرى[٨]. ورأى آخرون أن القصة المتوهجة التى تدور حول الطفل المنحوس الذى نتج عن الجماع (غير الشرعى) بين "داود" وبين "بتشابع" إنما تذكرنا بمفهوم الـ "كا" (=القرين) الملكى فى مصر القديمة، إلاّ أن هذا الرأى مقحم ومغرض ويفتقر إلى الحساسية بسمو المستوى التى كتبت عنده القصة العبرية[٩].

كان مسح الملك بالزيت فى "إسرائيل" و"يهودا" جزءًا لا يتجزأ من عملية تنصيب الملك[١٠]، وعلى النقيض من ذلك، كان المسح بالزيت كرمز فى مصر، مستبعدًا، فيما يبدو، من طقوس التتويج[١١]، إلا أن الأدلة التى وصلت إلى أيدينا تشير إلى أنه كان مع ذلك ساريًا عند تعيين المسئولين والأتباع[١٢]. والسؤال الذى يدور حول ما إذا كان ذلك السريان قد وفر للطقس العبرى موازيًا ذا معنى، خصوصًا وأن الملك أصبح الآن هو رسول "يهوه" وتابع من أتباعه، سؤال خلاب ولو أنه ينطوى على فكرة بارعة الصنعة. ومن جانب آخر هناك أدلة قوية على عرف مشترك من المسح بالزيت عند التتويج فى المجتمعات التى عرفت الملكية فى سائر أرجاء غرب آسيا، أو على الأقل خلال العصر البرونزى المتأخر[١٣]، وبالتالى فإن هذه الظاهرة فى إسرائيل قد تكون محلية النشأة عوضًا عن أن تكون مستعارة من مصر. أما بخصوص المستلزمات، فلقد زعم البعض أن الكلمة العبرية التى تعنى "تاج" وهى "نيزير" nezer مشتقة من الكلمة المصرية القديمة "ن ص ر" التى تعنى "لهب"، وهى الكلمة التى كان المصريون يستخدمونها للحية - الكوبرا التى كانت تقف على غطاء رأس الفرعون وعن طريق الميتونيمية metonymy (=استخدام اسم معين للدلالة على اسم آخر يرتبط به ارتباطًا ما كالصولجان للدلالة على الحكم. المترجم) للدلالة على التاج نفسه[١٤]. وبينما نجد من الصحيح أن التاج المصرى المزدوج والتاج المعروف باسم "الآتف" انتقلا من مصر كى يدخلا فى الأيقونات المشرقية خلال العصر الحديدى[١٥]، إن لم يكن قبل ذلك، إلاّ أنه ليس من المؤكد أبدًا أن حكام الدول الفلسطينية استخدموهما كرداء للرأس. زد على ذلك أن معادلة "نيزير" العبرية بـ "ن ص ر" المصرية تبدو موضع شك من الوجهة

اللغوية: الكلمة المصرية كانت لتظهر فى عبرية الألف الأول كـ "نيصير" nes(er) وليس "نيزير"[١٦]. ولكن مسند ذراع عرش "سليمان"، وهو على هيئة أسد، ("الملوك" الأول ١٠: ١٨-٢٠) يذكرنا، بكل تأكيد، بالنموذج الأصلى المصرى الذى كان شائعًا منذ أيام "أخيتاتون" (=العمارنة) وحتى الأسرة العشرين، إلاّ أنه يبدو أنه دخل المجال الإسرائيلى عبر وسيط هو الحرفية الفينيقية[١٧]. وتواجهنا المزامير الملكية بين الحين والآخر بمفهوم للملك كابن أو صورة الإله (قارن خصوصًا المزامير ٢، ٨، ٧٢ و١١٠) ولكن يتعين علينا أن نقر بأن الأدب الذى وصل إلى أيدينا لا يركز بشكل خاص على هذه الفكرة. حقًا يجوز أن يكون هذا قد استعير بصورة غامضة من مصر[١٨]، إلاّ أنه لم يلعب أى دور على الإطلاق فى التصوير التاريخى لملوك "يهودا" و"إسرائيل" كما يتضح من سفرىْ "الملوك". وفى الختام يمكن أن يقال أيًا كان مدى بروز تأثير بلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا) فى طبيعة الملكية العبرية، إلاّ أن إسهام مصر فيها لم يتجاوز حده الأدنى. فالشكل المشرقى للملكية انبثق وتطور من عناصر محلية إلى حد كبير.

الموظفون الحكوميون والآليات:

اعتاد الباحثون طوال نصف قرن أن يبحثوا عن نظائر للمسئولين فى المملكتين العبريتين (وخصوصًا أولئك الذين وردت أسماؤهم فى سفر "صامويل" الثانى ٨: ١٦-١٨، ٢٠: ٢٣-٢٦ وسفر الملوك الأول ٤: ٢-٦) فى المناصب الحكومية فى مصر المجاورة.([١٩]) ويسوق بعضهم حججًا على أن "داود" وسليمان" كانا ليحتاجان خلال إقامتهما لبيروقراطية دولة حيثما لم تكن هناك سابقة من قبل، إلى نموذج، وهل هناك نموذج أفضل مما تستطيع أن توفره لهما الخدمة المدنية (=السلك الحكومى) الضاربة لعشرات القرون فى أعماق الماضى والمتميزة بكفاءة عالية كالتى عرفتها مصر؟ ولقد ارتأت "إسرائيل" فى "المدن- الدول" الكنعانية ضيقًا شديدًا ومحلية عميقة فى آفاقها، الأمر الذى صرفها أى "إسرائيل" عن تقليدها: كانت "الإمبراطورية" تمثل فى سائر الأحوال قفزة هائلة على "المدينة - الدولة". زد على ذلك أن الوعى بالإدارة المصرية لا يمكن أن يكون الإسرائيليون قد اكتسبوه خلال ارتشاح ثقافى بطىء، وذلك لأن

الأمـر كـان عـاجـلاً وملحًـا. لا، لابد وأن يكون الكتـبـة المصـريون قـد وفـدوا إلى بلاط "أورشليم" بصفتهم مستشارين.

ينبغي أن نعبِّر هنا عن عديد من المحاذير قبل أن "نبلع" هذه الحجة برمتها. ففي المقام الأول نجد أن القضية بأسرها مسلمة من المسلمات a priori فلا أعرف نصًا توراتيًا يذكر اسم كاتب مصرى وفد إلى بلاط "داود" أو"سليمان" على حد سواء، بل وليس هناك لقب واحد في الخدمة المدنية العبرية يمكن أن يكون منقولاً بحروفه أو مترجمًا بمعناه عن أصل فى اللغة المصرية القديمة(٢٠). ثانيًا: بينما كانت الأغلبية الساحقة من مدن العصر البرونزى المتأخر فى "كنعان" شئونًا ضئيلة ـ حتى إن وصفها بـ"مدن – دول" يرفع معظمها إلى مرتبة أعلى كثيرًا مما كانت عليه فى الواقع ـ إلاّ أن المدن الساحلية كانت أكثر رقيًا بل وتماثل فى حجم السكان المجتمع اليهودى الذى وقفت "أورشليم" عاصمة له. وكانت الدروب الطبيعية للاتصال بين الجبال والساحل لتضع العبرانيين موضع احتكاك بهذه النماذج أول ما تضع. وأخيرًا: تنبع الإدارة اليومية لدولة ما بدرجتها النسبية فى التركيب وبطبيعتها المحددة من الظروف المحلية للمجتمع والاقتصاد والأوضاع السكانية، فضلاً عن أن تضع مشاكل عملية بصفة أساسية. وقد يجوز استزراع آليات عمل دولة نشأت وتطورت فى مكان آخر، ولكن فى حالة واحدة: إذا سادت ظروف مماثلة، وإذا أثبتت أنها آليات قابلة للتطبيق بصورة عملية. وكذلك الألقاب سوف تأخذ، بصورة تلقائية، شكلها مع أخذ مدى الإدراك المحلى ووظيفة المسئول رهن الحديث فى الاعتبار، ولسوف تستعار أى تلك الألقاب عندئذٍ دون تعديل ولأغراض تعزيز المكانة الذاتية ليس إلا.

تعد "بيبلوس" بمثابة الدولة المشرقية التى نعرف عن إدارتها من المصادر المعاصرة أكثر مما نعرف عن أى دولة أخرى فى المنطقة. ففى الربع الثانى من القرن الحادى عشر ق.م. تعطينا قصة "ونامون" صورة حية عن بلاط "بيبلوس"، ولو أنها تأتينا من خلال عينىْ بحار مصرى لم يكن يتقن اللهجة المحلية، وبالتالى كان عرضة لافتراض عرف مصرى أو مصطلح مصرى عندما يجد نفسه حائرًا فى تصور الشكل الكنعانى. فالـ "الشيخ"، "ذكر– بعل" ماذا يكون سوى "ملك" بكل تأكيد فى نظر "ونامون"، وطبقًا للأعراف المعمول بها فى مصر يعطيه لقب "كبير" chief، أما كاتبه

الخـاص أو sopèr فى اللغـة الفـينيـقـيـة يصـبح "كـاتب - خطابات" فى نظر "وينامون"(٦٤،٢). وحقيقة الأمر أن هذا الكاتب حرر خطاباً ذات مرة، ولكنه ثنى بعدئذ كى يعمل كرسول.(٢٤،٢، ٣٧)، كما شغل وظيفة متعهد أغذية (٦٨،٢). وتمشياً مع موقعها، عرفت "بيبلوس" "رئيس مرفأ" (٤٢،١) وقوة عمل، تقوم تحت إمرة مشرفين، بقطع الأخشاب (٤٢،٢-٤٣). وكان بوسع الملك أن يستدعى "مجلسه" طلباً للتشاور والنصح والدعم المادى (٧١،٢)،[٢١] وكـان بلاطه يتكون من كـادر من "الوصـفـاء" البالغين، ضمن مجموعات أخرى نستطيع تخمينها(٣٨،١-٣٩)[٢٢] وكان "ذكر - بعل" فى الحقيقة يحتفظ بمصريين ضمن مستخدميه، ولكن يبدو أن وجودهم هناك هدف إلى الزهو من جانب مدينة طالما تباهت بعلاقاتها الطويلة الأمد مع وادى النيل: "با-ان-آمون" Penamun السـاقى الأول (٢، ٤٦)، والمغنى "تانو":Tanno (٢،٦٩)[٢٣] ومع ذلك كان "ذكر ـ بعل" يجيد اللغة المصرية، فيما هو واضح، وكان فى وسعه أن يكتب نقش صادود/ لوح بالهيروغليفية بصورة مقروءة (٥٩،٢-٦٠).

وتقف "بيبلوس" على وجه الترجيح كنموذج لذلك النوع من المدن الساحلية الذى ينتمى إليه كل من "عشقلون" و"غزة" وحتى "تل الفارعة"، وهو النوع الذى عرفت فيه الإدارة، وهى كنعانية بشكل أساسى، "طلاءً" بعدد من الوظائف "التى تنتسب للرفاهية أكثر من أى شىء آخر"، استلهمتها من أصول مصرية. ولعل السؤال الذى يدور حول ما إذا كانت مثل هذه المظاهر من التباهى والتفاخر إنما أوحى بها وجود عدد من المصريين المنفيين من بلادهم لشغل هذه الأدوار أو الوظائف سيستمر مفتوحاً للنقاش.

قد يكون انتماء "أورشليم" إلى هذا التصنيف "البيبلى"(= نسبة إلى "بيبلوس") من عدمه هو موضوع الجدل، ولكن الأدلة يصعب الركون إليها فى إثبات هذا الارتباط بدرجة أكبر بكثير من المعلومات الواردة فى قصة "وينامون". وإذا ما نحينا جانباً الطبيعة المشكوك فى أمرها للقوائم الثلاث للملوك الإسرائيليين[٢٤]، فإن طبيعة دوائر اختصاص المسئولين تحت حكم "داود" و"سليمان" تتحدد فى الشطر الأعظم منها من واقع مضمون التقاليد "الداودية" (= نسبة إلى "داود") و"السليمانية" (= نسبة إلى "سليمان") فهناك قائد للجنود وقائد آخر للحرس الملكى ـ وهذان المنصبان لا يتصلان من قريب أو من بعيد بما كان معروفاً فى مصر ـ ورهط كهان: "كوهينيم" وهذه وظيفة

محلية النشأة لا نعرف لها أى ظلال تشبهها فى مصر من أى نوع. ويعيد المسئول المكلف بأعمال "السخرة" إلى الأذهان الإشراف الذى تنطوى عليه آلية مشاريع الأعمال الكبرى المعروفة من أيام "أخيتاتون" (=العمارنة)[٢٥]، إلاّ أن المسئول المصرى المكلف بأداء نفس النوع من العمل كان يحمل لقبًا تام الاختلاف - "الكاتب الملكى والمشرف العام على المجندين" - كما أن مجال نشاطه كان أوسع[٢٦]. أما منصب "ذاك - الذى - يقف - على - البيت" (أى القصر)، لو كان مشتقًا من تصوير أدبى لأصل مصرى، فإنه يطرح لغزًا، وذلك لأن "حرى - بير" كان مسئولاً أقل شأنًا بكثير، و"الوزير" الذى يقارن معه اللقب فى غالب الأحيان، كان يتمتع بدائرة اختصاص أوسع بدرجة كبيرة للغاية بصفته رئيسًا للخدمة المدنية بأسرها. وإذا كان الملك العبرانى يحتفظ بكاتب أو كاتبين soferim فهكذا فعل "با-ان-أمون" الخاص بـ "شمال" Samal أو "زاكر" Zakir حاكم "لوآش" Lu'ash أو" أزيتاوادا" Azitawadda حاكم بيت "مبيش"mps وليس هناك أى سبب من أى نوع يستدعى أن نفترض استلهام العبرانيين لأى وظيفة مصرية. وكان تسجيل الحسابات احتياجًا أساسيًا بما لا يقاس، إلاّ أننا لا نملك دليلاً على أن "إلى- هوريب" Elihoreph أو "أخييا" Akhiya ، وهما عبريان، قد كتبا بالقلم الهيراطيقى .

ولعل اللقب الذى قاد العلماء، أكثر مما فعل أى لقب آخر، إلى تخيل وجود نموذج vorlage مصرى هو "مازكر" mazkir أى "المذكّر" (فى الترجمة السبعينية للعهد القديم من العبرية لليونانية)، وهو اللقب الذى عودل بـ "وحمو" من الجذر المصرى "و ح م" الذى يعنى "كرر، عمل مرة أخرى، تصرف مرة ثانية"، ولكن معنى الجذر ليس مختلفًا بصفة أساسية وحسب، بل إن الوظيفة المشتقة مختلفة أيضًا. وذلك لأن الـ "وحمو" هو الشخص "الذى يقف بدلاً من ..." "ممثلاً لـ" و"رجل الصف الأول" وفى وظيفته يأتى قريبًا مما يمكن أن نطلق عليه فى مصطلحات الرئاسة الأمريكية "سكرتير عام البيت الأبيض" (= رئيس هيئة العاملين فى البيت الأبيض)[٢٧] وليس لصاحب هذا المنصب أى صلة من أى نوع بـ "الاستدعاء للذاكرة".

وقد يحق لنا أن نأمل، فى العثور فى آليات الحكومة على بعض النظائر للممارسة المصرية، والحقيقة، أن أملنا هنا لا يخيب. فكما سبق لنا أن نوهنا فى وقت سابق إلى

أن فرض السخرة (أو العمل الإجباري) على عهد "سليمان" قد يرجع في كثير تبينه إلى ما كان شائعًا خلال العصر البرونزي داخل حدود الإمبراطورية المصرية في "كنعان". ولقد أشار كاتب هذه السطور في موضع آخر إلى الأقاليم الاثنى عشرة التي وقع على كاهلها أن تمد واحد منها كل شهر، البلاط الملكي بالطعام، والأعراف المصرية التي تقضي بتقسيم قاعدة الضرائب إلى اثني عشر جزءًا كي تلبي احتياجات الميزانية السارية دون انقطاع على أساس جدول شهري بصفة سنوية(٢٨). وقارن آخرون بين لجوء المصريين، بين الحين والآخر، إلى نظام الشراكة في الحكم coregency كوسيلة لعبور ناعم من عهد لآخر وبين الحكومة الثنائية، المماثلة، في "إسرائيل" اعتبارًا من عهد "داود" وصاعدًا، مع عدم وجود أدلة من مصر على ذلك النظام خلال القرن العاشر(٢٩).

هناك مقوم مفترض في التشكيل السياسي لإسرائيل القديمة، يضعه كثيرون موضع التعارض مع الحكم المطلق في مصر، وهو الميل نحو الديمقراطية الذي انتهى، فيما يقول الزاعمون، إلى نوع من الجمعية التي تتكون من مجلسين تحت ظل الملكية(٣٠). والآن تعد "الديمقراطية" أحد أكثر المصطلحات التي يساء استخدامها في عصرنا الحالي، إذ إنها تُعامل كمرادف في نفس الوقت للحكومة المنتخبة لتمثيل الجماعة المعنية والعدالة الاجتماعية والمساواة أمام القانون وحرية التعبير والاجتماع، بل وحتى النهج الإنسانوي تجاه الحياة بشكل عام. وأسفر هذا التوسع في نطاق تطبيق الكلمة، علاوة على ذلك، عن تفكير مشوش، ولكنه يبدو وكأنه محاولة بارعة وإن كانت تفتقر إلى أي مبرر لاشتقاق كل "الخيرات" الأساسية من نسق محدد للحكومة، وهذا في الحقيقة إطار متطور يتعارض مع الحقيقة التاريخية(٣١). ذلك لأن النظام والحرية والعدالة والنزعة الإنسانوية تميز مجتمعًا ما لأسباب تشمل عرقيته المحددة وتاريخه الخاص وأعرافه الاجتماعية المعينة ولا تنبع من ميل ذلك المجتمع نحو شكل معين من الحكومة، سواء أكانت ديمقراطية أو كانت غير ذلك. ومن الأفضل، بالتالي، في القضية الراهنة أن نرجع إلى الفهم الحرفي للمصطلح كـ "حكم الشعب" demos أو جماعة من المواطنين حصلت على حقوقها المدنية".

استناداً إلى هذا التعريف لا يستطيع المرء أن يعثر على مثل هذه المؤسسة فى أى مكان فى الشرق الأدنى القديم خلال العصور التاريخية. وحتى مفهوم "مواطن" - فرد حر يدين بالولاء لـ "مدينته" أو his polis بما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات - يعد غريباً بشكل كامل على الأذهان فى الشرق الأدنى القديم، بما فى ذلك الجيوب المشرقية القروية، تلك التى شكَّل العبرانيون جزءاً منها لا يتجزأ. ففى المشرق، لم يكن الفرد شيئًا، إلاّ "شخص حى" (فى لغتنا "جسم ذاتى") أو "رأس" أو " نفر من أنفار"[٣٢]، أو أحد الخدم أو "أحد الرعايا" دون أدنى حق من الحقوق الأساسية كحق الانتقال من مكان لآخر[٣٣]. ولا أرى أى فائدة ترجى من وراء الإشارة إلى الظاهرة العَرضية التى تتمثل فى "الجمعية" أو "المجلس" فى محاولة لإثبات قضية "الديمقراطية البدائية"، وذلك لأن مثل هذه المجامع التى كانت تضم أعضاء مختارين من الجماعة المعنية كانت منتشرة فى كل مكان فى سائر أرجاء المنطقة، بما فى ذلك تلك الدول التى تعرف نظماً غير ديمقراطية مثل النظام الفرعونى. ولقد سمعنا من قبل عن الـ "عد": "d' "d أى "الاجتماع السرى" أو "ب خ ر"(= م ب خ ر"=الجمعية")[٣٤] ولقد وفرت لنا "فينيقيا" فى العصر الحديدى الـ "معد" أى "المجلس المجدْول"[٣٥] والـ "م ب خ ر ت" أى "الجمعية". ولم تتأخر مصر هى الأخرى فى طرح "المجلس" أو بالتحديد "مجلس الحكام" خلال معظم فترات تاريخها[٣٦]. ولكن ما من هيئة من هذه الهيئات كانت منتخبة بالمعنى الذى نفهمه فى العصر الحديث، مع أنها كانت مقبولة، دون شك، فى تلك الأزمنة، كممثل للسكان بصفة عامة بصورة سيئة التعريف[٣٧]. حقًا يخفى علينا فى الوقت الحاضر أسلوب اختيار أعضاء هذه المجالس والجمعيات، مع أن العمر والمحتد كان لهما، على وجه الاحتمال، وزن وأى وزن. وكانت كافة هذه الهيئات إما إدارية أو استشارية، وأحيانًا كانت تتمتع بسلطات قضائية إضافية، ولكن لم يكن بينها ما يعد هيئة تشريعية. وكانت إسرائيل جزءاً لا يتجزأ من العالم الثقافى الذى أنتج هذا الجهاز الحكومى، ولم تكن لتختلف بأى حال من الأحوال عن جيرانها. أما القصة التى يرويها لنا سفر "الملوك" الأول الإصحاح (=الفصل) الثانى عشر، فلا تدخل فى مجال الكتابة التاريخية بل مجال الفولكلور، حيث يمثل فيها "الرجال الكبار سنًا" حكمة الشيوخ، بينما يمثل "الشبان صغار السن" طيش الشباب. وعندما نقرأ فى القصة عن جمعية تشريعية ذات مجلسين، فهذا لا يعد حكمًا بائسًا وحسب - هل يمكن لأى شخص أن يفتقر إلى الحساسية إلى هذا الحد تجاه الـ "موتيفات" الأدبية ؟ -

ولكنها تتضح أيضًا بضلال التفكير الاستهوائى. ويخصوص إسرائيل فى العصور القديمة يحالفنا الصواب إذا افترضنا وجود ما هو أكثر قليلاً من "مووت" moot (مجلس عند الأنجلوساكسون القدماء) قبلى أو طائفى لا يكاد يختلف فى شىء سواء فى طبيعته أوهدفه عن نفس المؤسسة الجرمانية القديمة(٣٨).

الرواية الملكية:

منذ أكثر من نصف قرن مضى انبهر عالم المصريات الألمانى "ألفريد هرمان" بالـ "نزعة" Tendenz والأشكال الأدبية لمجموعة من النصوص المصرية التى تركز حول أعمال معينة للفرعون إلى الحد الذى جعله يسك مصطلحًا جديداً هو Königs-novella أى "رواية الملوك" أو "قصة الفراعنة" فى سبيل تحديد ملامحها. ومع أن كلاً منها كان مبنيًا، بوضوح، على حادثة تاريخية، إلاّ أن الحقائق كانت تتعرض لتجميل "شعرى" يتفق مع المفاهيم السياسية المصرية، بينما الفرعون الفرد كان يختفى وراء قناع الفرعون – النموذج الأصلى. ويدور التركيز حول "تيمات" من قبيل الذكاء الخارق الذى يتمتع به الفرعون، وتقواه أمام الآلهة وحدبهم عليه (وهو الأمر الذى غالبًا ما يتبدى فى الأحلام) والتحبب التلقائى من جانب البشر (الذين يمثلهم رجال البلاط) والنجاح الذى يتوج أعماله الجبارة.

ولعله من المهم أن نتذكر أن "رواية الملوك" ليست شكلاً أدبيًا بصورة جوهرية - ولو أن دارسى "التوراة" ينظرون إليها على هذا النحو- بل ولا تتناظر هذه العبارة نفسها مع أى مصطلح فنى مصرى قديم. فليس فى اللغة المصرية القديمة أى كلمة أو عبارة يمكن أن نترجمها إلى "رواية الملوك" أو "رواية الفراعنة". وتضم النماذج التى ساقها "هرمان" مجموعة غير متجانسة لا تكشف عن أى شىء مشترك فيما بينها سوى التركيز على عمل ما من أعمال الفرعون مع معالجة أدبية ثقيلة الظل. وإذا ما رتبنا على سبيل الاستعراض عينة نموذجية من النصوص التى تناولها "هرمان" (جدول رقم ٥) ، فلسوف يكون فى وسعنا أن ندرك، بصورة أفضل، الطبيعة المتباينة للمادة رهن الحديث.

الجدول الخامس – نماذج على رواية الملوك:

	النـــوع	الموضوع
١– مونتو– حوتب الأول؟	–	–
٢– سنوسـرت الأول . لفـة برلين الجلدية	سجل مقابلات ملكية	تملق رجال البلاط
٣ – سنوسرت الأول، صوابيد كل من "تود" و"إليفانتين" و"طيبة"	سـرد منمق، دفـتـر يومـيـة وسجل مقابلات ملكية	–
٤– صادود "نفر– رع – ان – بيت"	سـرد منمق، سـجل مقـابلات ملكية؟	نصـيـحــة أحـد رجــال البلاط.الفرعون فى المكتبة
٥– صادود "كا – موسى"	صادود نصر.إبدا ع ملكى؟	الفرعون يرفض النصح
٦ – حـوليــات "تحــوت – موسى "الثالث و"تحـوت – مـوسى" الثـالث "جبل بركل"	سـرد منمق، دفـتـر يومـيـة. سجل مقابلات ملكية	الـفــــرعــــون يرفـض النصح.تملق رجال البلاط.
٧ – "تحــوت – مــوسى" الثالث، الصرح السابع	سجل مقابلات ملكية	تملق رجال البلاط.
٨ – صـــادود أبوالهـــول لـ"أمين–حوتب" الثانى	"طائفة من الأعمال الجبارة"	–
٩ – صادود حلم "تحوت – موسى" الرابع	مـسـتـقى من "طائفـة من الأعمال الجبارة"	حلم
١٠ – خطاب الافـتـتــاح لـ"أخناتون"	سجل بمقابلات ملكية	تملق رجال البلاط.
١١ – صـادود"ريديسـيـا": Redesiyeh	سجل بمقابلات ملكية	تملق رجال البلاط.

١٢ – صادود كبان: Kubban	سجل بمقابلات ملكية	تملق رجال البلاط.
١٣– نقش منذور	سجل بمقابلات ملكية	تملق رجال البلاط.
١٤– نص مبنى الأقصر	سرد. سجل بمقابلات ملكية	نصيحة من رجال البلاط. الفرعون فى المكتبة
١٥– منشية الصدر	دفتر يومية وسجل بمقابلات ملكية	–
١٦ – بى – عنخى وتانوتامان	معالجة أدبية أصيلة استنادًا إلى شهود عيان.	الفرعون يرفض النصح. وحلم
١٧– تحوت – موسى الثانى (صادود أسوان) وسيتى الأول (صادود الكرنك وسيتى الأول (صادود "بيت شان")	"جاء أحدهم كى يخبر جلالته..." دفتر يومية مع سرد ثقيل	انزعاج الفرعون
١٨– ميرى – ان – بتاح (صادود الكرنك)	–	حلم
١٩– رعمسيس الرابع (صادود "أبيدوس")	إبداع ملكى؟	الفرعون فى المكتبة
٢٠ – سيمينديس (نص السلسلة)	–	
٢١– شيشنق (صادود إهناسيا)	دفتر يومية مع سرد منمق	

فى سائر الأحوال تأتى الحادثة التاريخية التى يقع عليها الاختيار للنشر على هيئة صادود/لوح، بعد تنميق سردها من جدول يمكن أن نطلق عليه اسم "الأعمال الجبارة للفرعون". فتشييد أو ترميم المعابد، ونحت التماثيل، واختيار الآلهة - كلها تصور قداسة الفرعون وقوته الجسدية وعبقريته الذهنية. ولكننا لا نستطيع أن نضع الإبداعات

الناتجة عن كل ذلك تحت عنوان واحد فريد فى ضوء ما يتعلق بما ذكرناه حتى الآن كمصدر وكشكل، و"رواية ملكية" مصطلح غير مناسب بشكل خاص من زاوية نظرة القدماء نحو الموضوع ومحاولة المحدثين فى سبيل فهمه على حد سواء.

والمصادر (مرتبة حسب مرات تكرارها) التى تقف وراء القطع الواردة فى جدول رقم ٥ أربعة: سجل "مقابلات ملكية" (حمست – نسو)، ودفتر يومية بيت الفرعون، ومعالجة تستند إلى تفويض خاص، و"طائفة من الأعمال الجبارة". وكانت "المقابلة الملكية" التى كانت تدعى "جلسة الفرعون" عبارة عن انعقاد البلاط رسمياً، وكان ذلك شائعاً خلال المملكتين الوسيطة والقديمة، وخلال هذا الاجتماع كان الفرعون يلقى خطاباً هو خطاب نوايا فى الغالب، وأحياناً يكون تقريراً. وقد يتمثل نظيره المعاصر فى خطاب العرش أو الحديث الدورى الذى يدلى به الرئيس الأمريكى أمام الكونجرس، ففى كليهما تؤخذ بعين الاعتبار فى غالب الأحيان خطوط السياسة المستقبلية للبلاد وتقرير النجاح فى الآونة الأخيرة. ويعد دفتر يومية بيت الفرعون بمثابة يوميات يحتفظ بها سكرتير ملكى يدون فيها حسابات الدخل يوماً بيوم والإنفاق وسجل بالأحداث ذات الأهمية الخاصة فى حياة الحكومة. ولا تزيد بعض الصواديد/ الألوح التى استشهدنا بها قبل قليل عن حسابات سواء فوض بها الفرعون أو وضعها بنفسه، حيث تحمل كثيراً من مفردات وعبارات ملكية، لكنها لا تُستقى سواء من أى حديث رسمى أو أى بند من بنود اليوميات. وأخيراً نأتى إلى طائفة الأعمال الجبارة"(أعمال الفرعون) فهذه عبارة عن اسم كان (القدماء) يطلقونه على نوع أدبى من جدال يدور بين رجال البلاط سواء أكان شعراً أو نثراً، يهدفون من ورائه أن يذاع بين الأهالى، وفى ثناياه كان يسرى الاحتفاء بإنجازات الفرعون فى مجال قنص الحيوانات البرية أو محاربة الأعداء.

فى معظم هذه الحالات كان الكاتب يزود المصدر بسجل موجز ومقتضب، وهو السجل الخام الذى يوفر أساساً للنص كما وصل إلى أيدينا. وكان الكاتب يقوم بتنميق السجل عن طريق استخدام الصور البلاغية والعبارات الخاصة التى تشكل جزءاً من المخزون المتداول بين الذين يؤلفون خلال تقاليد شفاهية، وكان هناك عدد مخزون آخر من تلك الموضوعات قد أصبحت معيارية يقاس عليها (= تنتمى للغة

الفصحى). وهذه تشمل "التصفيق" التلقائى الذى يصدر عن رجال البلاط عند ختام خطاب جلالته والنصيحة التى يسديها مجلس البلاط لجلالة الفرعون (وتكون فى العادة محافظة وتلقى الرفض من جانبه باستمرار) ولجوء الفرعون إلى المكتبة كى يستشير أحد المراجع، ومشيئة الإله التى تنقل خلال الأحلام ووصول رسول ملكى حاملاً أنباء سيئة.

فى كل هذه الأنواع الأدبية التى تختلف الواحد عن الآخر اختلافًا شاسعًا، لا نستطيع بالمرة أن نرصد أى شىء يمكن أن نقارنه ولو من بعيد بأى قطعة باقية على قيد الوجود من الأدب العبرى. وكما رأينا، كان وضع الفرعون وما يستتبعه من تملق لا يجد ما يوازيه فى إسرائيل، وموضوع الحلم يبلغ من الشيوع فى الفولكلور حداً يجعل من غير المجدى أن نرى فى "الرؤى التواراتية" نظائر للروايات الملكية Königsnovella وغنى عن الذكر أن الموضوعات التى تتميز بها القطع الأدبية الأخرى فى مصر بارزة الغياب فى الأدب العبرى.

أخناتون وموسى: مصدر تمويه كلاسيكى

هناك "اكتشاف" لم يكف لحظة عن ملء قلوب الطلبة والعوام على حد سواء باعتزاز متواضع وعيونهم بنور المعرفة. يتمثّل هذا الاكتشاف فى التشابه المزعوم بين الديانة التى قال بها "أخناتون" والوحدانية التى دعا بها "موسى". حتى "فرويد" نفسه جرفه الحماس لما تصوّر أنه أكبر من مجرد تشابه سطحى،[٣٩] وجعل كتاب لاحقون، لم يتصلوا بصورة وثيقة بالمصادر الأولية، من "أخناتون" معلمًا لـ "موسى" وسباقًا بشّر بـ "المسيح"[٤٠]. ألم يمكث الإسرائيليون فى مصر مدة تصل إلى ٤٣٠ سنة شملت فترة "أخيتاتون" (=العمارنة)؟ وإذا كان تاريخ "الخروج" ليتحدد على عهد الفرعون "رعمسيس" الثانى، أفلا يمكن لـ "موسى" الذى كان قد بلغ (عندئذ) الثمانين من عمره أن يكون قد عاش شطراً من حياته تحت ظل "أخناتون"؟[٤١] وألم يرجع مؤرخون مستقلون متأخرون، بينهم "مانيتو"، تاريخ "موسى" والعبودية إلى فترة "أخيتاتون"؟[٤٢] بكل تأكيد تلك بديهية لا تحتاج إلى برهان، فنحن نستطيع أن نقتفى

أثر الوحدانية التى نادى بها "موسى" عند "جبل سيناء" إلى الوراء حتى نصل فى نهاية المطاف إلى تعاليم "أخناتون"، الفرعون المارق. وحتى أولئك الذين ينكرون وجود اتصال مباشر بين الاثنين، يسمحون لأنفسهم بعقد مقارنة بين النسقين ويستبد بهم العجب أمام نقط التشابه بينهما.

ومع ذلك ينبغى إصدار دعوة تحذير للمحقق الذى يجرفه الحماس بضرورة الغوص أكثر قليلاً فى أعماق الموضوع. وذلك لأنه إذا فعل ذلك، فلسوف يدرك أن "الخروج" يتعذر أن يكون قد حدث وقت ذاك وتحت تلك الظروف، وأن يكون قد شمل الشخصيات التى تقول "الأسفار الخمسة" إنه شملها[٤٣]. والحقيقة أنه من المرجح ألاّ يكون أى قسم من الإسرائيليين حتى موجوداً فى مصر خلال المملكة الحديثة إلى الحد الذى يؤدى إلى نشوء روايات "النزول" (=الإقامة) و"العبودية" فى مصر فى أوقات لاحقة. وبعد إزاحة هذا الاحتمال، حسب الأدلة المتوافرة، على هذا النحو، فإن الطالب اليقظ الضمير سوف يجد من الصعب عليه أن يمضى قدماً مع المقارنة بين هذا وذاك.

ومع ذلك فلافتة "الوحدانية" توفر فى الغالب الحافز لمواصلة تجاهل الحقائق التاريخية.، وعلى أى حال، لا ينبغى لأحد أن يحول، بادئ ذى بدء، دون عقد أى مقارنة (مع أنها، إذا أعدنا النظر إلى الماضى قد تعد تضييعاً للوقت). ولكن عند المقارنة يتعيَّن على المرء أن يتجنب الانزلاق إلى افتراض مغزى أكبر لنقطة اتصال مزعومة مما هو عليه الحال فى حقيقة الأمر. فمن السهل الإشارة إلى مظاهر النشاط الانسانى والعالمية والبنوة الإلهية والعدالة والمسيحانية فى كل من العقيدة الإسرائيلية وتلك التى دعا بها "أخناتون" فى "أخيتاتون"(=العمارنة)، ولكن كل ذلك شائع بدرجة كبيرة فى كافة الديانات القديمة (بما فى ذلك الديانة القياسية فى مصر) إلى الحد الذى يكون فيه من باب التضليل حقًا افتراض وجود اتصال محدد بين هذه وتلك.

هناك سؤال ينهض منذ البدء يتصل بالضرورة بما نقوم حاليًا بمقارنته. فمن جانب نجد أن الديانة الأتونية تبدو واضحة، فى ضوء المصادر النصوصية والحدود التأريخية والمضمون. أما "الوحدانية الموسوية" من جانب آخر فـ "ويل المشاعل (Will-o-the-wisp إشارة إلى أضواء باهرة وغامضة تظهر ليلاً للسائرين كى

تضللهم وتأخذهم بعيداً عن وجهتهم إلى مستنقعات لا يؤمن أذاها، وفقًا للفولكلور الإنجليزى). وقد يرفض معظم الباحثين أن العبرانيين كانوا قد اقتربوا مجرد اقتراب (= هوبوا) فى أفكارهم الدينية خلال القرن الثالث عشر ق.م.، وهو العصر المختار تقليديًا لـ "موسى"، من أى نقطة تشارف المقام السامى لـ "الوحدانية"، ويفضلون فى هذا الصدد أن يروا الحركة النبوية للعصر الحديدى التى بلغت ذروتها مع أسفار "إرميا" و"التثنية"-"إشعيا" كالنقطة التى تبلور عندها مفهوم متطورٌ لما وراء الطبيعة مما يجوز أن نطلق عليه اسم "الوحدانية". فهل سنعزل إذن الديانة الإسرائيلية التى عرفها القرن الثالث عشر ونقارنها مع تلك المعتقدات التى قال بها "أخناتون"؟ أم أننا سنسمح لأنفسنا باعتصار مفاهيم الملكية الإسرائيلية التى عرفها القرن التاسع كى توفر لنا مادة المقارنة؟ وهل نستطيع عن طريق تمطيط نقطة ما أن ندمج المفاهيم المتقدمة التى وردت بسفرىْ "التثنية - إشعيا" التى انبثقت خلال القرنين السادس والخامس فى مفهومنا؟ ترى ما النتائج التى ستنتج عن هذا التلفيق المؤسف الذى لا يزيد ولا ينقص عن "تخليط هائل" grand mélange للنقط المحشودة من فترة زمنية تصل فى طولها إلى تسعة قرون من التطور، وهو ما يمكن لنا أن نقارنه مع حركة معينة هرطقية تضع نصب عينيها التوجه بشكل محدد إلى جيل واحد فرد(٤٤). لعل من الواضح أن عقد مثل تلك المقارنة عمل لا معنى له.

هناك سؤال ثانٍ يمكن للبعض أن يطرحوه، وهو يتصل بالتسمية: هل يكون لفظ "ديانة" مصطلح مناسب لكل من الظاهرتين؟ تمجيد ما وراء الطبيعة من جانب مجتمع ما بطريقةٍ معينة، وهو الأمر الذى ينطوى على شعائر خاصة، وشريعة محددة للسلوك وعلاقة بين المقدس والبشرى يعد توصيفًا نزيهًا للديانة العبرية القديمة، لكنه ليس كذلك بالنسبة لبرنامج "أخناتون". والديانة العبرية، على الأقل فى مرحلة التكوُّن التى نطل عليها من العصر البرونزى المتأخر، إيمانية بما يشمل ذلك الإقرار بالإيمان بـ"يهوه" (=التشهد باسم "يهوه")(٤٥) ولكن ما طرحه "أخناتون" لا ينطوى بحال من الأحوال على إيمان، فهو عبارة عن بيان ملكى حول علاقة الفرعون بوالده أكثر من كونه ديانة للناس. وهذا البيان يقحم بصفته هذه دوراً تعليميًا على الملك يرى لزامًا عليه فى ضوئه، نظراً لأنه الفرد الوحيد الذى يخصه الإله بالكشف له عن إرادته، أن يوضح

للناس طبيعة الإله وموقع الملك فى عملية الخلق. وليس هناك ما يمكن أن نقارنه فى الديانة العبرية المبكرة مع "تعاليم" "أخناتون"(٤٦) : ليس هناك من يقوم بدور تعليمى رئيسى، وعندما ظهر الأنبياء فى أوقات لاحقة، أثبتوا أنهم خارج دائرة هذا النسق. فالديانة العبرية محلية بصفة أساسية انبثقت بين مجموعة عرقية خاصة، ومرت بتطور طبيعى على امتداد قرون فيما قبل-التاريخ، ولكن برنامج "أخناتون" عبارة عن تعديل واعٍ وعيًا ذاتيًا لنسق قائم فى الواقع، نهض عند نقطة معينة فى الزمن، وتأسس فى الدوائر العليا للمملكة وصادف عائقًا غير منتظر يضم حاشية من كبار المسئولين(٤٧).

إذا كنا الآن قد بدأنا مقارنتنا بمحاولة عزل طبائع الإلوهيات فى برنامج "أخناتون" ودفع الديانة العبرية المبكرة إلى مقدمة الصورة، فإننا نقابل تنافرًا بل تناقضًا صارخًا. وذلك لأن إله "أخناتون" إله سماوى وشمسى نتعرف عليه بصفته "الضوء" وقرص الشمس"، وهو خالق النور وبالتالى فالنور جوهره(٤٨). حقًا الاسم الذى يعرف به لم يكن مستجدًا، ولكنه فى صياغته الجديدة يلخص طبيعة الإله على وجه الدقة: ("رع-حور-أختى" هو الذى يبتهج فى الأفق فى اسمه "النور الكامن والآتى من قرص-الشمس".) وعلى النقيض من ذلك يبدى الإله العبرى "يهوه" سمات تتعلق بالطقس وبـ "جهنم" (جى - هنم أى وادى قبيلة "هنم" والاسم عبرى.المترجم) نظرًا لارتباطه بصورة وطيدة بالرياح والزلازل والنيران والرعود. ومثل هذا الإله لا يمكن للنور أن يشكل جوهره بحال من الأحوال، مع أن الرطان المجازى المتأخر قد يربط بينه وبين النور، بنفس الطريقة التى رأت فيه معظم الثقافات القديمة رمزًا للطهر والحق. وهو، فى التقاليد الشعبية (=الفولكلورية) المعتمدة ، إله مستجد، لم يكن معروفًا للآباء باسمه هذا: "يهوه". أما "قرص - الشمس" على مستوى التشخيص، فرمز باهت لا يبعث فى العابد سوى رجفة خافتة. ولكننا نجد "يهوه" على الجانب الآخر إلهًا مفعمًا بثورة الغضب وروح الانتقام ونزّاعًا لأعمال العنف بين الحين والآخر، ولكنه فى نفس الوقت قادرًا على بسط آيات الرحمة والغفران، تمشيًا إلى حد كبير مع طبقة الأرباب الكنعانيين.

وذلك لأن "يهوه" فى حقيقته قوة من قوى البيئة الطبيعية، وهو يستطيع الكشف عن ذاته بصورة مباشرة خلال الظواهر الكونية وبالتالى لا يستشعر حاجة ماسة إلى

وسيط. وعندما دخل مجتمع إسرائيل نور التاريخ وأصبح يملك وعيًا ذاتيًا تحول "يهوه" كى يصبح "إله التاريخ" وأخذت "أعماله الجبارة" تشيع فى الخارج كما لو كان ملكًا عظيمًا(٤٩).

من جانب آخر نجد "قرص-الشمس"(="آتون") ربًا ملكيًا لا زمنيًا دون أى مآثر res gestae وبينما نجد "يهوه" إلهًا- بطلاً ينبغى نفخ انتصاراته حتى حدود الإملال ad nauseum نجد "قرص- الشمس" (="آتون") رمزًا رفيع المستوى، إذ يعد إسقاطًا للملكية باتجاه السماء على نطاق عالمى. واسمه ينقش داخل خرطوش مثلما تنقش أسماء الملوك، أما سلطانه فيمتد كى يشمل العالم أجمع. وعلى غرار ما هو ملك يجلس فى عرشه فى السماء كذلك يعكس ابنه "أخناتون" ملكية والده على الأرض(٥٠). ولقد شاركت كل من السماء والأرض فى نوع من الحكم الثنائى للملكية العالمية، وهذا مفهوم مشتق من اتجاهات كانت موجودة بالفعل فى التفكير الدينى الذى عرفته أوائل الأسرة الثامنة عشرة، لكنه كان خاصًا ببرنامج "أخناتون" - ومحوريًا - لبرنامج "أخناتون"(٥١) وفى هذا الضوء يتضح لنا مغزى التركيز طوال حكمه على مثل تلك الاحتفالات بالسلطان الملكى مثل اليوبيل (="الحب - سد") الذى لم يحتفل به فرعون سابق على مثل ذلك النطاق الضخم مثلما جرى الاحتفال به فى السنة الثالثة من حكم "المارق" (="أخناتون")(٥٢) و"الدوربار" durbar (بلاط الحاكم المحلى فى الهند القديمة. المترجم) الضخم الذى يقام لاستقبال الجزية من البلدان الأجنبية،(٥٣) ومنح الإنعامات والمكافآت لـ "النبلاء".

كل هذا غريب كل الغرابة بالنسبة لـ "يهوه". فعندما ارتقت اسرائيل إلى مستوى المملكة كان من الطبيعى أن يشارك الإله القبلى (=العرقى) إلى حد محدود فى رطان وعتاد مثل هذا الشكل الأرقى من الحكم. إلاّ أن هذه المظاهر الملكية لإلوهية "يهوه" ليست سوى أمور هامشية تمامًا تبدو كجزء من المجاز البلاغى فى تمجيد المزامير (= ترانيم دينية منسوبة لـ "داود" الملك-النبى)،(٥٤) بينما لا نقابل العالمية (توجه الديانة إلى كافة الناس عوضًا عن قبيلة أو شعب معين دون سواه. المترجم) إلا فى اللاهوت المتأخر الذى كان قد حقق تقدمًا كاملاً نعرفه الآن من سفرىْ "التثنية" و"إشعيا" (اللذين يدينان بنزعتهما العالمية هذه للاهوتيات العالمية التى عرفها القرن السادس والخامس ق.م. أكثر مما يدينان لـ "أخناتون" البعيد زمنيًا).

تتحدى طرق تمثيل الألوهية هى الأخرى عقد المقارنة بينهما. فرغم أن "أخناتون" أبدى طوال حكمه نفوراً مطرداً لأى تصوير يشبّه فيه الإله، بالحيوان أو الإنسان سواء فى الفن أو الأدب، إلاّ أنه سمح لنفسه بتصوير "القرص" (="آتون") بشكل ينطوى على رمز، فـ"القرص" يمد خلال هذا الرمز العديد من الأذرع - وهذا تجريد، نعم، ولكنه مع ذلك "أيقونة"(٥٥). وعلاوة على ذلك لا يشكّل الرمز المقدس الجديد سوى جزء من قواعد جديدة للفن صُممت، كما هو واضح، كى تنقل للمتلقى جانباً من "معنى" تعاليم "أخناتون"(٥٦). أما فى إسرائيل، فرغم الاتجاه العام المعادى للأيقونات فى ديانة "الدولة" خلال العصر الحديدى(٥٧) - ترى هل نعرف شيئاً عن مرحلة التكوين الأقدم؟ - فيبدو ألاّ وجود هناك لأى إحجام عن وصف الإله فى الأدب باستخدام ألفاظ جريئة تشبِّه هذا الإله بالإنسان. دع عنك أن الديانة الإسرائيلية لم ترتبط فى أى مرحلة من مراحل تاريخها بشكل فنى مميز.

لا يعرف الوضع المركزى والرئيسى الذى احتله "أخناتون" فى النظام الجديد أى نظير له بين الإسرائيليين الأوائل. فـ "أخناتون" يشغل "قلب المسرح" فى كل منظر فنى رسمه أو نحته الفنانون، فهو وحده الذى يعرف "والده"، "قرص الشمس" (="آتون")(٥٨)، وهو أى "أخناتون" يتلقى فروض الطاعة والخضوع بل وآيات العبادة على نفس المستوى الذى يتلقاها عنده "القرص" أى الإله نفسه. فلقد عُلقت أهمية كبرى، ربما إلى الحد الذى صارت عنده أهم ملمح فرد فى النسق الذى جاء به "أخناتون" بأسره، برابطة البنوة التى تقوم مع والده "قرص-الشمس" (="آتون")، ووُظِّف أوسع نطاق متنوع من الاستعارات فى النصوص لوصف هذه العلاقة الخاصة(٥٩). ومع الشعب المصرى لا يتمتع "قرص-الشمس" (="آتون") بأى علاقة خاصة أو مباشرة أكثر مما يتمتع به فى عملية الخلق أو من خلال وسيط هو ابنه. وكما يصبح أكثر وضوحاً بشكل مطرد، تبلور "قرص-الشمس" فى تفكير "أخناتون" من تأليه والد "أخناتون" وليس سواه، الفرعون "أمين - حوتب" الثالث الذى حمل كنية تنطوى على مغزى، هى: ("قرص-الشمس" الباهر). فمثل هذا الإله لا يمكن أن يكون إلهاً شخصياً إلاّ بالنسبة لابنه وحده، وهذا

هو السبب فى أنه لم يكن مشرباً بتلك الصفة المرغوبة شعبياً ألا وهى الرحمة(٦٠). كما لم يطلب الامتثال لأى شريعة للسلوك الأخلاقى، مختلفة عما كان سائداً فى المجتمع المصرى منذ أزمنة سحيقة.

على النقيض من ذلك، يعد "يهوه" إلى حد كبير، إله شعبه ويضم منذ البدء كافة المكونات التى تجعل منه إلهًا شخصيًا. إذ نجد تركيزاً قوياً على شريعة أخلاقية صارمة، وأصبحت هذه الشريعة جزءاً لا يتجزأ من الديانة العبرية، على نحوما هو معروف فى سائر ديانات الشرق الأدنى القديم. بل وما هو أكثر من ذلك، هناك رباط بينه وبين شعبه، وهو الرباط الذى لا يعرف له وجود بين أى إله مصرى وبين شعبه، وذلك الرباط هوالميثاق أو العهد. فلقد اختار "يهوه" شعب إسرائيل ودخل فى علاقة تعاقدية معه.

نأتى الآن إلى ملمح محدد للإلهين أوحى أكثر من أى ملمح آخر بنوع من العلاقة المباشرة: الموقف من تعددية الآلهة. ظهرت كتابات كافية وطرحت أسانيد كافية كى تبرهن بما لا يدع أى ظل من الشك، على أن الديانة التى دعا بها "أخناتون" (= الآتونية) كانت وحدانية دون فصال تنكر كل إله آخر. إذ لا تتردد مثل هذه الألفاظ والعبارات فى كل موضع وكل موقع: "الواحد" و"الفرد" (="واع" باللغة المصرية القديمة) و"لا نظير له من نوعه"، وما يشبه ذلك فى هذا الاتجاه. ولكن قشط كل صيغ الجمع للآلهة والإشارة الصريحة إلى أن الآلهة قد "كفت" عن الوجود، وهو الأمر الذى يحسم النقاش دون أى جدال(٦١). وإلى جانب النفى الحاسم للآلهة جاء رفض الأسطورة، وهى الوسيلة التى كانوا يعملون خلالها بصورة فعالة. فلم نعرف أى أساطير عن "قرص-الشمس" (="آتون") ذاك ولم توصف بالتفصيل عملية خلقه للعالم والبشر.

ولكن بالنسبة للمراحل الأولى فى تطور الديانة العبرية، لم يكن هناك أى تصور لـ "يهوه" إلا بصفته إلهًا بين غيره من الآلهة.

أما بالنسبة للأساطير، فرغم أن الكتب المقدسة كما تنزلت خلال مرشح كتاب سفر "تثنية الاشتراع" والكهنة الذين جاءوا عقب "النفى البابلى"، وعانت من "التطهير"

من معظم الإيماءات التى ترجع إلى نسج الخيال، إلاّ أن ما تبقى يكفى لإدراج "يهوه" باطمئنان، فى طبقة الآلهة الكنعانية من الأبطال - الخالقين. فالقصاصات التى تشير إلى "قهره" لـ "رحاب" و"لوياثان" أو "المياة" تعيد إلى الأذهان معركته الافتتاحية مع الوحش "بحر"[٦٢]. وخلقه للرجل من الطين والمرأة من أحد الضلوع("تكوين" ٢) فليس سوى نوع من الجهل المتوافر فى معظم الحكايات الأجنبية المعاصرة، وقصة الفيضان، رغم تحريرها على أيدى كهنة - كتاب فتظل داخل نطاق نوع معروف من الأساطير.

تكف الاختلافات التى عددناها هنا عن إثارة الاندهاش متى أمعن المرء النظر فى الوسطين الاجتماعيين المختلفين جملة وتفصيلاً اللذين صاغ فيهما كل من "أخناتون" والعبرانيون الأوائل "ديانتيهما" على التوالى. فديانة "يهوه" كانت أبوية، بصورة حادة تفضل الذكور وتهبط بمنزلة الإناث،[٦٣] وتشدد على الطهارة الشعائرية وتجنب النجاسات. فكانت مناسك عبادته فى الأصل خلوية (= من الخلاء) فى الأصل إلى أقصى درجة، وجرى الحفاظ عليها بصورة شبه وثنية فى العصور اللاحقة، عندما تحول ما فرضته الضرورة ذات يوم كى يصبح الآن فضيلة (كالصوم مثلاً). وكانت المذابح تبنى من الطين أو الحجر الغفل غير المنحوت،[٦٤] وأقام الإله وراء ستائر تنسدل على مقصورة (= ضريح) يمكن حملها على الأكتاف، ولم يكن هناك أدنى شك فى أن "يهوه" الإله يقطن داخل هذا البيت، أما حضوره فماثل فى صوفية "الشكيناه" Shekinah.

أما دائرة "أخناتون" فكانت دائرة أرقى بلاط فى العالم، وهو البلاط الذى طبع برنامجه، على نحو لا يمحى. ولقد ظل هذا البلاط طوال أجيال وأجيال واقعًا تحت تأثير قوى، إن لم نقل، خاضعًا لتأثير سيدات من العائلة المالكة، كما كانت أعراف هذا البلاط ونمط الحياة فيه وفنونه مفعمة بنوع ما من الطاقة الأنثوية. وكانت النظافة والطهارة أمرًا مفروغًا منه. فتقلصت شعائر العبادة إلى حدود دنيا، لكنها، أيًا كانت، لم تكن خلوية خشنة. فالمذابح المتقنة الصنع المنحوتة فى الحجر المقطوع فى المحاجر ومستلزمات الشعائر المصنوعة من الذهب الخالص والإلكتروم (= سبيكة من الفضة والذهب. المترجم) تغص بها المراكز التى تؤدى فيها العبادات. وفى حين فرض المفهوم الخشن لشعب قادم من البرارى أن يقيم "يهوه" الإله، فعليًا، فى خيمته، طرح المفهوم المصرى الأكثر رقيًا فكرة ألاّ يكون للإله بيت أرضى: (السماء بيتك:"معبدك") هكذا كان

يترنم المترنم المصرى[٦٥]. وكانت الأضرحة الأرضية التى تضم أحواشاً مفتوحة على السماء تحفها موائد القرابين فى حقيقة الأمر أماكن للرؤية ومراكز للناس كى يؤدوا العبادات، وليس مقر إقامة لـ "قرص - الشمس".

العبادة:

وعندما نأتى إلى العبادة، فعلى نفس المنوال نجد من الصعب أن نعثر إلا على ملامح سطحية متناثرة هنا وهناك تذكرنا بالأعراف المتبعة فى مصر. فشعيرة تقريب القرابين عند الإسرائيليين ظهرت منذ وقت طويل فسياقها الصحيح داخل التقاليد الكنعانية التى عرفها العصر البرونزى المتأخر، ولقد فطنا إلى ذلك بفضل الأدلة التى قدمتها لنا "أوجاريت". أما أعيادها فترتبط بالتقويم الزراعى المعروف فى المشرق، والإقتراح الذى يقول بوجود نماذج جنينية وراءها يبدو شطحة من شطحات الخيال[٦٦]. ومن جانب آخر نلاحظ أن العبرانيين لم يستلهموا دورات الأعياد الكبرى فى التقويم المصرى على وجه الإطلاق[٦٧].

وبخصوص نقط الاتصال على المستوى المعجمى، أو ما يشبه من نهج يقتضى ألا يهمله المرء خلال عرضه هذا فإنها هزيلة إلى أقصى حد. فمحو نص سحرى مكتوب بالحبر على إحدى البرديات وشرب الماء الناتج عن عملية الغسل هذه: "الماء المر" (سفر "العدد" ٥: ٢٣-٢٤) تتماثل مع العادة المصرية الأصيلة التى تقوم على بلع محلول الحبر المذاب فى الماء لنص مكتوب لأغراض سحرية أو علاجية. و"عمل" السحر الضمنى ضد الأشرار فى المزمور رقم ٦٨: ٢ الذى يجرى خلاله صب اللعنات على الأعداء "أثناء ذوبان الشمع قدام النار" يعيد إلى الأذهان السنة التى استنها المصريون بصنع تماثيل لـ "ست" و"أبوفيس" (="عبيب") وأعداء الفرعون من الشمع و"تلقيمها" للهب النيران[٦٨]. وتجد عادة مصاحبة أنغام "الهارب"[٦٩] لشعيرة دينية ما، موازياً عجيباً لها فى مصر الليبية المتأخرة،[٧٠] كما نجد أن أسماء بعض الأدوات المستخدمة فى أداء العبادات مشتقة، بكل وضوح، من الأسماء المصرية الموازية، مع أن هذا الأمر يشير إلى استعارة الكلمات خلال اتصال علمانى ثقافى، عوضاً عن أن يكون بالضرورة عبر

العبادات[٧١]. ورمز العبادة الذى يضم حية برونزية ("العدد" ٢١ :٨، ٩) التى تدعى "نيس" nes بالعبرى قد تخفى فى طياتها الكلمة المصرية (ن - س - ر- ت) التى تعنى "الحية المتوهجة"، وهى الكلمة التى أصبحت "نيس" NHC فى العصر المتأخر[٧٢] بإدخال الصائت:H على الكلمة. (التى تعرضت لعملية تحات لغوى طال الساكنين الأخيرين منها) ويذكرنا قربان "الصببان" الأساسى لرب العهد، ذلك القربان الذى يقربه إليه رؤساء المجموعات القبلية الاثنتى عشرة ("العدد" ٧: ١٢-٨٨) قربان "الصببان" إلى الإله كى يحفظ السلام الذى عقده رؤساء الإمارات الاثنتى عشرة فى مصر عشية تأسيس الأسرة السادسة والعشرين[٧٣]. غير أن بعض الاشتقاقات تستغل حسن الظن. فهل كلمة "شؤول" العبرية بمعنى "العالم السفلى" ترجع حقًا إلى الكلمة المصرية التى تعنى "بحيرة البوص"؟[٧٤] أو هل "توهو" و"بوهو" اللتين وردتا فى سفر "الخروج" الإصحاح الأول أية رقم ٢ مشتقتان من جذرين مصريين يعنيان "يتوه" و"يهرب" على التوالى؟[٧٥] كما أن المقارنة التى يعقدها البعض بين نصب "أبشالوم" (سفر "صامويل" الثانى ١٨ : ١٨) مع السنة التى استنها المصريون بإقامة ألواح/صواديد تذكارية[٧٦] ليست مقنعة.

ومع ذلك فمن المؤكد أن بعض المصطلحات الفنية التى تطلق على الزى الكهنوتى مصرية فى أصلها فكلمة "الوشاح" أو "الحزام" (بالعبرى:"أبنت") سفر "الخروج" (٢٨: ٤، ٢٩: ٩، ٣٩: ٢٩، سفر اللاويين ٨: ٧، ١٣، إلخ) مستعارة من جذر مصرى يعنى "لف"، بينما كلمة "إيفود" ("الخروج" ٢٨: ٤،٦، سفر "صامويل" الأول ٢: ١٨، ٦: ١٤، ٢٢: ١٨، إلخ) التى تتخذ فى الغالب من الكتان فلقد انحدرت من كلمة مصرية شائعة لنوع من الكتان يتميز بنوعية نسجه[٧٧].

وليس هناك أدلة كافية سواء على متى أو تحت أى ظرف من الظروف استوعبت الثقافة الإسرائيلية هذه السمات المغايرة. فبعضها، مثل أزياء الكهنة يرجع ، بوضوح، إلى الاستعارات الكنعانية من المملكة الحديثة عندما كان النفوذ الإمبراطورى لمصر فى عنفوانه[٧٨] وبعضها الآخر، مثل "الموتيف" الفولكلورى لرؤساء القبائل الاثنتى عشرة، يعود إلى فترة متأخرة تمامًا. كما لا يتوفر يقين عندنا بشأن الدرب الذى سلكه التأثير كى يصل إلى وجهته. إلاّ أن كلاً من الكنعانيين والفينيقيين يمكن أن يكونا قد لعبا دور الوسطاء هنا، مثلما فعلا فى مناحٍ أخرى من مناحى الثقافة[٧٩].

المفردات والتعبيرات:

نستطيع رصد قدر من التأثير المصرى فى المفردات العبرية بل وفى الصور البلاغية ذاتها، مع أن هذا القدر قد لا يصل فى حجمه إلى تأثير اللغات السامية الغربية الأخرى على شقيقتها العبرية[٨٠]. وعود على بدء ترفع المشكلة القديمة رأسها: هل نستطيع أن نطمئن باستمرار إلى أن إسرائيل على عهد الملكية دون سواه هى التي قامت بالاستعارة، أم أننا سنعود إلى مواجهة ارتحالات تنتمى إلى طبقة أقدم كثيراً من طبقات التاريخ الكنعانى فى المنطقة؟

من بين أربعين كلمة متفرقة نستطيع أن نرجعها بصورة مقنعة إلى اشتقاق مصرى، نجد نحو ثلاث عشرة كلمة عبارة عن أسماء لمصنوعات (بما فى ذلك الأثاث والأوزان والمكاييل) فى حين أن خمساً منها عبارة عن أسماء لأقمشة وملبوسات. وكما سبق لنا أن رأينا تقف العبادة وراء استعارة عدد أكبر كثيراً من هذه القائمة، فى حين أن أدوات كتابية معينة ("ختم" و"حبر" و"تختبوش"="لوحة الكاتب") تكشف عن اعتماد إسرائيل على فن الكتابة الذى نشأ وترعرع على ضفاف النيل. وقد عرفت إسرائيل حق المعرفة مثل هذه المصطلحات السياسية: "الفرعون" و"زوجة الفرعون" و"الساحر"، كما ألفت أيضاً المراكب المصرية[٨١]. أما السلع التجارية القادمة من الجنوب ولابد أنها شقت طريقها إلى داخل "إسرائيل" و"يهودا" وهى حاملة لأسمائها المصرية: أعواد البوص وزهور اللوتس وخشب السنط والأبنوس والقرود والنطرون والذهب والمرمر وسائر أحجار البناء، والأشكال المعمارية وخصوصاً تلك التى تتصل بمعبد "سليمان" فاحتمالات ظهورها فى اللغة العبرية أكبر قليلاً[٨٢]. ومن بين أسماء الظواهر الطبيعية لم يرسخ فى البقاء، على ما يبدو، سوى "يؤور" (أى النيل) فاللغة العبرية تملك ثروة من الكلمات لمثل هذه الأشياء. ولقد شق عدد محدود من المصطلحات الفنية (=التكنيكية) التى ترجع إلى المجتمع والبيروقراطية المصريين طريقه أيضاً إلى اللغة العبرية: إبيون (فقير) (من الاسم المصرى العام "بن" بمعنى شر أوردىء) و"عُجات" بمعنى "خبز" (من اسم الجمع المصرى:عقو ="حصص" والأولى "جرايات"،[٨٣] و"جر" بمعنى "زائر"، "غريب" من الاسم المصرى "كارى" أى "جار"[٨٤]. وأخيراً كانت الكلمة المصرية التى تعنى "سلطة" وكانت تستخدم فى الغالب للدلالة

على الفرعون من الشيوع بحيث نقلت بحروفها إلى اللغة العبرية خلال سفر "إشعياء"(٣٠: ٣٠)[٨٥].

ويبدو أن التعبيرات المصرية أيضًا أثرت بين الحين والآخر على اللغة العبرية. فتعبيرات مثل "بيت الأبدية" و"سور البرونز" و"كسير الذراع"(بمعنى "ضعيف" أو"غير فعال") تعيد إلى الأذهان تعبيرات مصرية شائعة،[٨٦] في حين أن مفاهيم مثل "طريق الحياة" و"شجرة الحياة"[٨٧] تبدو مغروسة في تربة الحكمة والأساطير المصريتين. أما صورة الإله في مظهره الخالق كـ "فخراني"[٨٨] وفي قدرته الرعوية كـ راع[٨٩] فتملك أيضًا أوراق اعتماد مصرية رائعة، وربما تكون قد أثرت تأثيرًا عميقًا على الفكر الإسرائيلي. وبين الحين والآخر تغرق المزامير العبرية في ذلك التقييم المتشائم للظروف الراهنة كما يتضح في المزمور رقم ١٢: ١-٢[٩٠] : "خلص يا رب لأنه قد انقرض التقي لأنه قد انقطع الأمناء من بني البشر، بالكذب يتكلمون كل واحد مع صاحبه"وهنا قد يكون في وسع المرء أن يقارن بين هذه الروح وبين عبارات "كره البشر" التي ترجع إلى الأدب المصري خلال المملكة الوسيطة مثل: القلوب مفعمة بالجشع وليس هناك من يستطيع المرء أن يوليه ثقته... لم يعد هناك أناس يتحلون بروح الإنصاف وهجرت البلاد كي يمرح فيها الظالمون"[٩١] وعود على بدء: ذلك الشخص الذي أصبح معه تقلب الحظوظ في المجتمع مصدرًا لإثارة العجب (قارن سفر "صاموئيل" الأول ٢: ٤-٥)[٩٢] يرجع إلى "موتيف" كثير الشيوع في أدب التشاؤم في مصر خلال الألف الثاني: "حقًا الأغنياء يندبون حظهم بينما يمرح الفقراء... الأمراء يتضورون جوعًا بينما تُمد الموائد للخدم"[٩٣].

تشي هذه الإشارات إلى التأثير المصري على اللغة والعبارات الذي عرضنا له للتو بنفوذ عميق لضفاف النيل أكثر من مجرد استعارة واعية من جانب إسرائيل في مجالات التجارة والعبادة وذلك النطاق غير المتبلور الذي يُعرف في اللغة المصرية باسم "التعاليم" وباسم "الحكمة" في اللغة العبرية. ولقد وقعت إسرائيل، بحكم قربها الشديد من ساحل البحر المتوسط وفي نفس الوقت من البلاد التي تقود إلى شمال أفريقيا، داخل نطاق الإشعاع الثقافي المصري، ولم تستطع أن تنأى بنفسها عن أن تستقبل، بصورة لا واعية، تلك المؤثرات المصرية على المستوى اللغوي والمعجمي.

ترانيم وقصائد شعر:

كان ليبدو غريبًا حقًّا لو لم تسفر العلاقات الطويلة المدى التى ربطت بين مصر و"كنعان" خلال العصر الإمبراطورى عن نقل صور وأشكال فنية مصرية معينة داخل نطاق الترانيم وقصائد الشعر(٩٤). وصحيح أن الأعمال الأدبية المنظومة فى أوزان شعرية شكلت تقاليد شفوية انتشرت فى سائر أرجاء الشرق الأدنى القديم - إلاّ أن مراكز معينة (مثل مصر) هى التى عرفت مصدرًا محليًا بلغ من القوة حدًا دفع المناطق المجاورة إلى محاكاته. وتكفى نظرة سريعة إلى الأشكال المهذبة للتخاطب التى نعرفها من جسمور "أخيتاتون"(=العمارنة) كى نتأكد من أن هذه كانت الحالة. ولقد كان العمد الكنعانيون، نتيجة لإقامتهم الجبرية فى مصر خلال صباهم أكثر ألفة من سائر بنى قومهم بهذه الأشكال المهذبة التى كانت تجرى فى بلاط الفرعون، وهذه الأشكال تغص بها الرسائل الخاصة التى بعثوا بها إلى الفرعون. ولقد كان "اللاهوت" الشمسى، دون سائر الجوانب الأخرى الأكثر استغلاقًا من اللغة المجازية المصرية، هو الذى أسر الكنعانيين وخلب لبهم. فالفرعون كان بالنسبة لهم هو: "إلهى" و"شمسى" و"شمس السماء" و"ابن الشمس" وهو " عفى كالشمس فى أجواز السماء" و"شمس كافة البلدان" - وهذه كلها عبارة عن ترجمات مباشرة لعبارات مصرية محلية. وحقيقة الأمر تعد تحية مطولة وردت فى رسالة أرسل بها "أبى – ملكى" ملك "صور"(EA 147: 5-13) فى الواقع ترنيمة مصرية للشمس نقلت رأسًا وحرفيًا إلى اللغة الأكدية.: "سيدى هو الشمس التى تشرق على البلدان الأجنبية كل يوم، على نحو ما قرر والده الشمس الرءوف (لفظ الشمس فى اللغة المصرية القديمة مذكر خلافًا لكلمة "الشمس" فى اللغة العربية. المترجم)، وهو الذى يمنح الحياة خلال أنفاسه الزكية ومتى غاب دب الوهن فى البدن، وهو الذى يهدئ كافة البلاد بقوة ذراعه، ويطلق زئيره فى كبد السماء مثل الإله "بعل" فإذا بالأرض ترتجف لزئيره"(٩٥).

وقد استمرت المجازات اللغوية الشمسية راسخة بصورة عميقة فى الذخيرة الشعرية لـ "كنعان"، وخصوصًا فى المدن الساحلية لمدد طويلة بعد انتهاء عصر الإمبراطورية المصرية. وتستمد المدائح الرائعة لطبيعة وأعمال الإله فى المزمور رقم ١٠٤، المكتوب خلال الربع الثانى من الألف الأول ق.م. إلهامها من مصدرين هما

ملحمة كنعانية قديمة والترانيم الشمسية المصرية. والآيات من ٣ إلى ١٨ تصف "يهوه" بصفات "بعل" الذى حقق الظفر على الأمير "يم" الذى "يصعد إلى الجبال" و"يؤسس الأرض على قواعدها" فى حين أن الآيات ٢ ومن ١٩ حتى ٣٠ تعتمد بشكل خاص على العبارات والصور الشعرية التى تفعم بها ترنيمته لقرص-الشمس(٩٦). (جدول رقم ٦)

مزامير الندم:

يقع ثلث المواد بالتقريب الواردة فى سفر "المزامير" تحت تصنيف "الشكوى الذاتية" أو "مزمور الندم"(٩٧). وهذه عبارة عن تضرعات شخصية للإله يطلقها أحد ضحايا المرض أو الاكتئاب أو النزعة التبريرية ، الذى يعزى بلاءه إما إلى الآثار المؤذية لأعمال السحر أو إلى سلوكه الآثم هو ذاته. وتراه يقرر إيمانه بالرب ، ويندد بأعدائه أو يعترف بذنوبه ويتعهد بأن يعود إلى طريق الرشاد ويؤدى الشهادة متى شفاه أو أنقذه من محنته. ويركز نوع أدبى آخر يتصل بهذا النوع، على محنة الضحية السابقة من نقطة الشفاء اللاحق على من أنقذه وصار لزامًا عليه الآن أن يسوق شكره. وتبرهن نماذج عديدة من نفس هذا النوع الأدبى من العالم المسمارى (= مجموعة البلدان التى كتبت لغاتها بالخط المسمارى فى آسيا الغربية. المترجم) على أن هذا النوع فى اللغة العبرية ليس سوى جزءٍ من الظاهرة الأكبر كثيراً لـ "ندم" الضحايا فى العالم القديم(٩٨).

جدول رقم ٦

مقارنة بين ترنيمة "أخناتون" لـ "قرص الشمس"("آتون" المترجم) والمزمور رقم ١٠٤

ترنيمة "أخناتون":

أنت يا أيها القرص الحى العظيم... سيد السماء والأرض، تشرق فى جمالك على أفق السماء... ساطعًا فى الأفق الشرقى باسطًا جمالك فى كل أرجاء البلاد.

رفعت السماء عالياً كى يشرق ضياؤك عليها.

بدلت الفصول كى تزود بالقوت كل ما خلقت يداك.

وعندما تغرب فى الأفق الغربى، ترتمى الأرض فى الظلام فى كنف الموت.

عندئذٍ يخرج الأسد من عرينه وتشرع الثعابين فى العض.

ولا يبزغ الفجر إلاّ عندما تشرق فى الأفق.

وهنا ينهض الكافة كلٍ إلى عمله.

يقفز السمك فى النهر أمامك،

وأشعتك تتخلل الماء.

وتبحر الغلايين باتجاه كلٍ من الشمال والجنوب.

وضعت كل كائن فى مكانه الصحيح،

ووفرت لهم احتياجاتهم، وزوّدت كلاً منهم بما يقتات عليه.

كم هى عديدة أعمالك.

المزمور رقم ١٠٤

يا إلهى يا "يهوه" أنت عظيم...اللابس النور.(١-٢)

الباسط السماوات كخيمة (="شقة": فى ترجمة الكتاب المقدس).(٢)

صنعت القمر للمواقيت.(١٩)

"الشمس تعرف مغربها"(١٩)

تجعل ظلمة فيصير ليل.(٢٠)

"فيه يدب كل حيوان الوعر، والأشبال تزمجر لتخطف."(٢٠)

عندما تشرق الشمس...(٢٢)

"الإنسان يخرج إلى عمله."(٢٣)

"هذا البحر الكبير واسع الأطراف، هناك دابات بلا عدد، صغار حيوان مع كبار."(٢٥)

"هناك تجرى السفن."(٢٦)

"كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى الفصل الموقوت (= فى حينه)"(٢٧)

يا إلهى "يهوه" ملآنة الأرض من غناك.(٢٤)

تقوم أدلة قوية على وجود مزمور الندم ذاك فى مصر كذلك[٩٩]. ويأتى ما يزيد على تسعين بالمائة من النماذج التى تصل إلى ٣٥ وزيادة من قرية العمال فى "دير المدينة" على الضفة الغربية لـ "طيبة" وترجع إلى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، ولكن أقدم هذه النماذج تعود إلى حكم الفرعون "توت - عنخ - أمون"، على أن النماذج المتفرقة التى ترجع إلى فترة الانتقال الثانية تثبت أن الحفظ العشوائى لها شوه وجهة نظرنا تجاه الموضوع. إذ حفظت مزامير الندم المصرية على صواديد/ألواح إلى جانب تصوير المتكلم فى وضع ينم عن التقوى ويرفعه إلى مصاف العُبَّاد، وكانت مخصصة للعرض العمومى فى معبد ما أو أحد الأضرحة. ويشى النص بكافة العلامات التى تميز التأليف الشفوى - الصياغة[١٠٠]. وكان فى العادة يتضمن ضراعة للإله ووصفًا للمرض (العمى أو أحد أمراض الصدر) واعترافًا بالذنب وتعهدًا يقطعه المتكلم بأن يشهد على قدرة الإله على نجدة الإنسان. وامتداداً للموقف كان الضحية الذى تعافى الآن وعاد مرة أخرى إلى حسن رعاية الإله يشرع فى البر بوعده بتقديم "شهادته" والتمتع بحمد الرب من جانب الكل جماعات وأفراداً.

رغم وجود عدد من التوازيات، إلاّ أنه لا شك فى اعتماد إسرائيل على مصر فى صوغ "مزمور الندم". ولو أن "الموقف الحياتى" الذى ينبع منه "المزمور" يصل فى الشيوع حد نفى وجود أى اعتماد من جهة على أخرى، ولم يكن من باب الصدف أنه لم يظهر فى مصر إلاّ بعد الاتصال المكثف بآسيا، وهو الأمر الذى سنحت فرصته خلال العصر الإمبراطورى.

وفى الشعر، نستطيع أن نرصد وجود تشابه إلى درجة ما على مستوى النوع والمعالجة بين ما وصل إلى أيدينا من شعر الحب (=الغزل) وبين "أغنية الأغانى"(="نشيد الإنشاد" و"نشيد الأناشيد"). ورغم أن "أغنية الأغانى"(="نشيد الإنشاد") ترجع إلى تاريخ "النفى" أو ما- بعد - النفى، فإن هذا الشكل يرجع إلى شعر الحب المصرى الذى يعود تاريخه إلى ما قبل ذلك بألف سنة،[101] وبينما تعرضت هذه القطعة الشعرية التى انتقلت إلى "التوراة" لـ "إضفاء مسحة روحانية" spiritualized من جانب مفسرين كليلى البصر جامدى الإحساس، فإن الأصل يظل عملاً شعرياً مثيراً للرغبة وإن كان قد غلب عليه الحياء، نظمه صاحبه داخل نطاق بلاط يتسم بالرقى.

الحكمة :

فى مصر، تطرح مصادرنا، اعتباراً بكل تأكيد من عصور قديمة تصل إلى القرن الأخير من الألف الثالث ق.م. تصنيفًا غير متبلور من المؤلفات ترتبط بصورة وثيقة بتدريب الكتبة[102]. وعلى امتداد التاريخ المصرى خلقت الحاجة لشغل الوظائف التى تتطلب معرفة القراءة والكتابة ونقل المهارات أو مباشرة الخبرات الفنية الخاصة، بصفة مستمرة توتراً بين دافعين لا صلة بينها: الرغبة الطبيعية للأب الذى ينبغى على ابنه أن يخلفه فى مهنته والضرورة الملحة بنفس الدرجة فى اختيار الشخص الأنسب لشغل الوظيفة. وفى كل الفترات (وإن كان ذلك على وجه الخصوص فى مطلع المملكة القديمة) كان أبناء الكاتب الكبير ينتهون، فى معظم الأحيان، إلى امتهان مهنة الكتابة أيضًا، ولكن الأمر احتاج بمرور الوقت على التعقيد البيروقراطى إلى إنشاء مدارس رسمية، تابعة للبلاط الملكى. وتصف لنا صورة قلمية ساحرة ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة[103] سلوك التلميذ المثالى والنهج المرغوب إلى التعليم: "يلزمه أن يكون يقظًا ومهندم الملبس وأن يكون مجهزًا بكتبه، والحساب والقراءة ضرورتان له ، ويلزمه أن يجرى حساباته فى صمت تام، دون أن يرفع بها صوته، ويجب عليه أن يكون مثابراً ويحاكى معلميه."

وفى سبيل تيسير التعليم جمَّع الكتاب كمًا من النصوص، المعدة إن لم تكن، المؤلفة، بغرض خدمة العملية التعليمية. وكثير من، إن لم نقل معظم هذه النصوص مكتوبة نثرًا، وتتصل بنوع الروتين الإدارى الذى كان للكاتب أن يواجهه خلال أداء عمله فى مجاله: حسابات، مذكرات، رسائل، برقيات، تقارير. إلاّ أن قدرًا معينًا من تلك النصوص اشتمل على مؤلفات سواء أكانت شعرًا أو نثرًا، لكنها كانت تهدف إلى أن تعلم وأن تمتع فى نفس الوقت. وعن طريق نسخ هذه النصوص تحت إشراف المدرس كان للتلميذ أن يصل بخطه إلى مستوى طيب، ويتقن الأسلوب المقبول للتأليف، ويستوعب مبادئ الحكمة التى تمتع بها الأسلاف. وتكشف المكتبات، سواء تلك التى نجت من عوادى الظروف، أو التى أعيد بناء ما حوته من واقع قوائم الكتب وقوائم الجرد عن نطاق المواد التى كان من المفترض أن يكون الكاتب الذى يستكمل مرانه ملمًا بها:(١٠٤) القصص وقوائم الملوك (=الفراعنة) والحوليات واليوميات وبحوث الأساطير وقوائم العلامات والتضاريس الجغرافية وكتب الشعائر ونصوص (=أعمال) السحر والأدلة (= جمع دليل كدليل الرحلات) وعمليات الجرد والرسائل والحسابات. وحتى المجاميع الخاصة التى كانت بحوزة الكتاب لم تكن تعدم وجود القصص وأشعار الحب والترانيم والسحر والطب والتنبؤ بالمستقبل عبر الأحلام (= تفسير الأحلام الذى شاع فى العالم القديم. ويعد كتاب "تفسير الأحلام" الذى كتبه المتنبئ اليونانى الشهير: "أرتيميدورس" Artemidorus فى القرن الثانى الميلادى أقدم مجلد مستقل فى هذا المجال. المترجم)(١٠٥).

نستطيع أن نفصل قدرًا من هذه المواد - القدماء أنفسهم صنعوا نفس الأمر - ونجمعها تحت هذا العنوان العريض: "الترشيد". و ما إذا كان هذا المصطلح ينبغى أن يُفسَّر على أنه "نوع أدبى"، غدا مثار جدل بين الدارسين، والكلمة تشير، والحق يقال، إلى ما هو أكبر من مجرد شكل سواء على مستوى المضامين أو الأغراض. على أن هذا "الترشيد" يمكن أن يتكون من تدريب عملى يتلقاه صبى من معلم محترف، ومن كاتب متمرس على كيفية الكتابة، أو تربية على السلوك القويم من فرعون إلى وصفاء (أو رجال بلاط) أو حتى من إله إلى أحد أتباعه. ويمكننا أن نطبق هذا المفهوم على نوع "الترشيد" الذى يأتى من القراءة المتأنية أو "رسالة ساخرة" أو من معجم. ولكن

"الترشيد" فى مصر كان إلى هذا الحد أو ذاك يعنى نوعًا من التأليف (=الإنشاء) يقوم خلاله حكيم (أب أو ملك أو أى شخص أرفع مقامًا) يوجه فيه حديثًا يشتمل على حكمة دنيوية[١٠٦] إلى تابع (ابن أو أحد الرعايا أو متدرب أو ما أشبه) وبناء عليه فإن "الترشيد" هنا سيتحول إلى "مونولوج" تعليمى ومقوم للسلوك. وأى انحراف عن هذا التشكيل الأساسى يمكن أن يؤخذ على أنه توسيع أو حتى إساءة استخدام للمصطلح[١٠٧].

وقد يختلف كثيرًا مضمون "الترشيد" ومرماه: فالدعاية، تقوم أدلة على وجودها، جنبًا إلى جنب مع إسداء النصح حول "أسلوب حياة الرجال" والمواد المرجعية موجودة مع السخرية والسير. ولكن كل ذلك مقصود منه، بشكل عام، أن يعلم بصورة أو بأخرى[١٠٨].

ولقد لاحظ العلماء منذ وقت طويل تشابهًا ملحوظًا بين "الترشيد" المصرى ونصوص "الحكمة" التوراتية مثل تلك التى وردت بصفة رئيسية فى سفر "الأمثال"، على مستوى المفردات والمضمون[١٠٩]. فالمعادلة المصرية التى تبدأ بـ "إذا كنت ..." وأحسن ... من" واستخدام صيغة المخاطب التى تظهر فى اللغة العبرية بصورة صارخة، فى النصوص المتشابهة،[١١٠] وبينما تذكر أن الدردشة الحالية بين الأب وابنه تعكس ببساطة الموقف الراهن - أبى علمنى أيضًا ! - أمر تشترك فيه كلتا التقاليد المصرية والعبرية[١١١]. وعود على بدء مثل هذه "الموتيفات" كالعبيط النمطى والرجل المثالى (صموت وصبور ومطيع) والجلد كوسيلة تعليمية والأذن كمتلقى التوجيهات والإرشادات[١١٢].

رغم أننا ربما نتفقَ على أن هذه التشابهات إنما تنبع من خلفية مشتركة من "الحكمة" تشترك فى وراثتها كل من مصر و"كنعان" من العصور الساحقة، فقد يكون من الصعب أن ننكر أن اعتمادًا مباشرًا بصورة أكبر يبدو كامنًا وراء بعض الفقرات الخاصة وأن المسألة هى مسألة اعتماد إسرائيل على مصر. والمثال الأكثر شهرة وفى حقيقة الأمر المثال الأولى فى هذا المجال نص ("حكمة "أمينوبى") الذى كتب على وجه الاحتمال خلال الأسرة العشرين (حوالى القرن الثانى عشر ق.م.) وإن استمر شائعًا بين الناس حتى الأسرة السادسة والعشرين (حوالى القرن السابع ق.م.)[١١٣].

فسفر "الأمثال" ٢٢: ٢٣ إلى ٣٢: ١١، بـ "أقواله "الثلاثين" إنما يعكس بصورة تلفت النظر، "الفصول الثلاثين" لنص "أمينوبى" فى المضمون الأمر الذى لا يسمح للمرء أن يهرب من الاستنتاج بأن الأول (= سفر "الأمثال") ليس سوى "نسخة" أخرى من الآخر(= حكمة "أمينوبى")[١١٤]. ولكن سفر "الأمثال" مفعم بتوازيات فردية فى مواضع أخرى،[١١٥] والعديد من هذه التوازيات نجدها فى "المزامير". ومن بين التوازيات الأخيرة الأكثر سحراً وروعة هناك تشبيه "الرجل المثالى"("التقى") و"الرجل الغضوب" ("الملعون") فى "المزمور" رقم ١ بشجرتين مختلفتين: فأصل هذا "الموتيف" كامن بكل وضوح فى الفصل الرابع من ("حكمة "أمينوبى")[١١٦]. أما "المزمور" رقم ٣٤: ١١-١٤ الذى يبدأ على هذا النحو: هلمو أيها الأبناء! استمعوا إلىّ كى أعلمكم مخافة الرب" (="يهوه") يحمل أكثر من مجرد تشابه عابر (قياساً مع الفارق) بدعوات مصرية مماثلة ترجع إلى أزمان تضرب فى البعد حتى عصر "أخيتاتون"(=العمارنة)[١١٧].

ما فحصناه حتى هذه النقطة فى شكل الأدلة التى تنهض على التأثير المصرى على مستوى "الأدب" على إسرائيل يوحى بوجود طريق غير مباشر أخذه هذا التأثير عبر طرف ثالث أو وسيط. فمصر، خلال الإمبراطورية وما بعدها غرست روابط مباشرة مع مدن الساحل المشرقى، ولم تحظ المناطق الجبلية فى أعماق البلاد إلاّ باهتمام أقل من جانب المصريين، كما سبق لنا أن رأينا. وإذا كانت الأنواع الأدبية والأساليب اللغوية والمؤلفات المحددة قد استمرت تعيش بشكلٍ أو آخر فى البقجة الثقافية للآسيويين الذين يقيمون بالقرب من الحدود المصرية فى الألف الأول ق.م. فإن الأرجح للغاية أن يكون ذلك قد حدث فى المدن البحرية من "غزة" فى الجنوب حتى "بيبلوس" ("بنت جبيل" حاليًا) شمالاً، وإذا كان الغزو والاستيطان اللذان قام بهما "الفلاسطينيون" و"التكريانيون" قد أحدث فجوة بمعنى الكلمة فى حياة المدن الواقعة فى سهل الساحل الجنوبى، فإننا نستطيع عندئذ أن نضيِّق نطاق بحثنا كى نقصره على ذلك الشريط الساحلى الواقع بين "أكشو" Accho و"أرفاد" Arvad وهنا يتعيَّن علينا أن نفترض - شخصيات مثل "هيرومبالوس" Hierombalos و"سانكونياتون" San-chuniaton تدعم القضية - وجود "صفوة" من الكتبة، كانت لا تزال على اتصال مع/ أو مشربة بروح مصر التى تعرفها الفترة الممتدة من الأسرة الحادية والعشرين حتى

الأسرة السادسة والعشرين، وهى "الصفوة" التى خلَّدت أعمال الخلق ذائعة الصيت التى أنتجتها المملكة المصرية الحديثة، وأبقت على قيد الحياة كلاً من الأسلوب والشكل، وإن كان ذلك قد حدث بصورة هجينة. وتماماً مثلما وقفت إسرائيل مدينة لـ "فينيقيا" فيما يتعلق بمعظم التأثيرات المصرية فى الفن والمعمار والكتابة التاريخية،(١١٨)، حدث معها أيضًا نفس الأمر فى مجال الأدب المصرى والأسلوب اللذين مرا خلال منخل الساحل المشرقى قبل أن يصلا إلى "أورشليم"(١١٩).

وقد تكون كلمة "منخل" مصطلح غير مناسب، وذلك لأن أحد أبرز الخصائص التى تميز الفقرات العبرية المشتقة من اللغة المصرية تستدعى التعليق: ليس بين هذه الفقرات المختارة periscopes (= مختارات من الأسفار يقرؤها الكاهن على مدار السنة الإكليركية. المترجم) ما يعد ترجمة حرفية. وملاحظة هذه الحقيقة أسفرت عن بزوغ تنويعة من التفسيرات: استقى الكتاب العبرانيون من وحى الذاكرة، وكانت عملية النقل "طويلة المدى" وإسرائيل ليست مدينة لمصر إلاّ بـ "دين عام" فى مجال الحكمة. وحقيقة الأمر كل هذه المقترحات تطرح رؤية متبصرة، وإن كانت محدودة، للمشكلة، ولكن ما من أحد يتمسك بهذين العاملين اللذين يعملان هنا - طرح المفردات والـ "تيمة" فى لغة أجنبية والتأليف الشفوى والنقل(١٢٠). وما من عبرانى يعيش فى "أورشليم" كان من الممكن أن يحشو"الحكمة التوراتية" بكل هذا العبارات والصور الكثيرة المستوحاة من مصر، ما لم تكن قد وصلته فى لغته هو أى العبرية. وما كان لتلك الفجوة بين الصياغة والاقتباس فى اللغة العبرية من ناحية والأصول المصرية لها من ناحية أخرى لتنشأ لو كان الحكيم العبرانى يملك تحت يديه ترجمة وافية وكان راضيًا عنها. وعود على بدء، بالنسبة لتلك المرحلة الانتقالية التى تبدو ضرورية الآن فى عملية النقل، يجد المرء نفسه وقد انجذب إلى مدن الساحل الفينيقى، حيث تميزت طبقة المثقفين (=الإنتليجنسيا) بألفة طويلة المدى مع الثقافة المصرية وفى بعض الأنحاء كانوا يتحدثون اللغة المصرية بطلاقة ملحوظة. فهنا يقوم المجتمع الذى ترجمت فيه الأصول المصرية إلى لغة سامية، دون أن تكون هذه الترجمات، بالضرورة، ترجمات مكتوبة، ولكن خلال ترجمات شفوية لاقت الاستحسان وصادفت المحاكاة وإن لم تكن رسمية.

الهوامش

(١) الدراسات حول الملكية المصرية يعجز عنها الحصر، انظر على وجه الخصوص:

H.Frankfort, Kingship and the Gods (Chicago,1949);H.W.Fairman, in S.H. Hooke, ed.,Myth,Ritual and Kingship (Oxford,1958),74-104;G.Posener,De La divinité du pharaon (Paris,1960);W.Barta, Untersuchungen zur Göttlichkeit des regierenden Königs (Munich,1975);D.Lorton,JAOS 99(1979),460ff.

(٢) See D.B.Redford,"Kingship in the 18th Dynasty,"in Symposium on Egyptian Kingship(Denver (على وشك الصدور)

(٣) للاطلاع على أحوال مصر في القرن الثامن ق.م.انظر ص ٢٣٥-٦ في النص الأصلي .

(٤) M.A.Bonhême,Les noms royaux dans L'Égypte de la 3ème période intermediare (Cairo,1987),266ff.;Tanis, Bubastis, Herakleopolis, and Hermopolis,where "Kingships" are attested for the eightth century B.C.,all were dominated by gods with "royal" connections.

كانت "تانيس" و"بوباستيس" و"هيراكوليوبوليس" و"هيرموبوليس"، حيث نستوثق أن "الملكيات" قامت هناك خلال القرن الثامن ق.م.، كانت خاضعة جميعا لسيطرة الآلهة التي تحتفظ بروابط "ملكية".

(٥) أفرغ مفهوم العبرانيين للملكية نطاقا واسعا من الأدب، انظر، بين آخرين:

G.Buccellati, Cities and Nations of Ancient Syria (Rome,1967);I.Engnell, Studies in the Divine Kingship in the Ancient Near East (Oxford,1967);B.Halpern,The Constitution of the Monarchy in Israel (Chicago,1981);T.Ishida,The Royal Dynasties in Ancient Israel (Berlin,1977);A.R.Johnson,Sacred Kingship in Ancient Israel (Cardiff,1967); T.N.D.Mettinger, King and Messiah (Lund,1987); K.W.Whitlaw, The Just King (Sheffield,1979).

(٦) G. von Rad, Gesammelte Studien zum Alten Testament (Munich, 1961), 205ff.

(٧) K.A.Kitchen, Ancient Orient and Old Testament (London,1966),106ff.

(٨) للاطلاع على استخدام الألقاب الخماسية في الأدب المصري، بصرف النظر، عن الاسم الخماسي للفرعون، انظر: H.Ranke,ZÄS 79(1954),72.

حول الفقرة التي وردت في سفر "إشعيا"، انظر:

A.Alt,in Festschrift Alfred Bertholet (Tübingen,1950);cf.also S.Morenz,ZÄS 79 (1954),73-74.

(٩) N.Wyatt,UF 19 (1987),399-404.

(١٠) Cf.Mettinger,King and Messiah,185ff.and n.1(references).

(١١) Barta,Untersuchungen zur Göttlichkeit des Regierenden Königs,45-50.

(١٢) E.Kutsch,Salbung als Rechtsakt im Alte Testament und im alten Orient (Berlin,1963),34ff;E.Martin-Pardey,Ld? 5 (1984),367-69.

(١٣) Cf.Kbo 1,14 rev.rev.6-10: see now A.Harrack,Assyria and Hanigalbat (Hildesheim,1987),74.

(١٤) M.G?rg BN 3 (1977),26;4 (1977),7-8 in the wake of Sethe,Ember, and Calice;R.Gundlach,in M. Görg,ed.,Feschrift Elmar Edel (Bamberg,1979) ,210.

(١٥) W.F.Albright, Archaeology of Palestine (Harmondsworth,1949),pl. 12 (Balu'ah stela);H.Frankfort, Art and architecture of the Ancient Orient (Harmondsworth,1954),pl.168 (Phoenician ivories);

للاطلاع على تأثيرات أيقونية أخرى، انظر:.A.J.'Amr,PEQ 120 (1980),55-63

(١٦) Cf.Coptic NHC from nsr, 'flame': J.Osing,Die Nominalbildung des Ägyptischen (Mainz,1976),178.

(١٧) See F.Canciane and G.Pettinato,ZDMG 81(1965),103-8.

(١٨) Cf.J.de Savignac,VT 7 (1957),82-90,Mettinger,King and Messiah,265-74;cf.Görg BN 3 (1977),7-13;V.A.Toben, in S.Groll,ed.ed.,Pharaonic Egypt,the Bible and Christianity (Jerusalem,1985),237-48.

تذكرنا الصورة الخلابة التى وردت فى المزمور رقم ١١٠: ١ عن الملك الجالس بجانب الإله وأعداؤه تحت قدميه، بذلك النوع الشائع من التماثيل المصرية التى تصور الفرعون والإله جالسين الواحد بجوار الآخر، و"الأقواس التسعة" تحت قدميهما أو مرسومين على جانبى المنصة، انظر:

O.Keel,Die Welt des Altorient in Bildsymbolik (Zurich,1972),233,246.

(١٩) المؤيدون الرئيسيون هم:

R.de Vaux,RB 48 (1939),394-405;idem,Les institutions de l'ancien Testament (Paris,1961),183-203;J.Begrich,ZAW 58 (1940),1-29;E.W.Heaton, Solomon's New Men (London,974);T.N.D.Mettinger,Solomonic State Officials (Lund,1974); Ishida,Royal Dynasties,68;cf.also U.Rutersworden, Die Beamten des israelitischen Königzeit (Stuttgart,1985).

(٢٠) القول بأن "شيشا"(="شوشا" فى إحدى ترجمات الكتاب المقدس) الذى يذكر سفر "أخبار الأيام" الأول أنه مسجل ككاتب لـ"داود" يحمل اسما متأثرا فى صيغته بالمصطلح المصرى لكاتب الرسائل،

(ss s't cf.A.Cody,RB 72(1965),391-93)

هو قول مشكوك فيه إلى حد كبير،، قارن:.Rutersworden,Beamten,88,n.126

(٢١) Hebrew mw'd = (بالعبرى) mö'ed;J.Wilson,JNES 4 (1945),245.

(٢٢) منذ وقت طويل، وعن حق:.GolénischefK، انظر:.G.Posener,RdE 21 (1969),147

(٢٣) لمعرفة المزيد من المغنيين المصريين فى البلاط الكنعانى أو البلاطات الكنعانية، انظر:

H.Hickman, Le métier de musicien au temps des pharaons (Paris,1954),286-87.

(٢٤) يبدوأن ترتيب هذه القوائم، جزئيا، تفكير بائس فى وضع ونظام دخول "الشخصيات الدرامية" Dramatis personae وبناء عليه ففى القائمتين الأولى والثانية (Temp.David) يحتل "يوآب" المركز الأول، بينما فى الثالثة يكتسب ابن الكاهن دورا بارزا فى تنصيب "سليمان" على العرش ويشغل مركز الصدارة. وفى مواضع أخرى يثير السياق السلالى عدة مشاكل. فبينما نجد من المعقول أن يكون "يهوشافاط" الذى عاش عمرا مديدا قد عمل فى خدمة كل من "داود" و"سليمان" فى منصب "مزكير"، فهل من الممكن أن يكون كل من "صادوق" و" Abiathar" اللذين ينتميان إلى جيل "شاؤول"، لا يزالان يشغلان منصبيهما تحت ظل حكم "سليمان"؟ زد على ذلك تقفز القائمة من العسكرى إلى المدنى إلى المقدس، ثم تعود مرة أخرى إلى المدنى ثم تنتقل إلى العسكرى وأخيرا ترجع إلى المقدس مرة أخرى بصورة أقل إقناعا مما تفعل القائمة الثانية، أو حتى الثالثة.

(٢٥) I. Mendelsohn, BASOR 167 (1962), 31-35; A.F.Rainey, IEJ 20 (1970), 191-202; Rutersworden, Beamten,72-73.

(٢٦) D.B.Redford,Akhenaten, the Heretic King (Princeton,N.J.,1984),47.

(٢٧) المؤلف (ريدفورد) يعد رسالة موجزة عن الـ "وحمو"

(٢٨) D.B.Redford, in J.W.Wevers and D.B.Redford, Studies in the Palestinian World (toronto,1972),141-56;

هذه الآلية قديمة للغاية ومعروفة على نطاق واسع فى مصر، حتى ولو اعترفنا باتجاه مضاد للتأثير، انظر:

A.R.Green,BASOR 2333(1979),59ff.;

حول التقسيمات الإدارية الخاضعة للضرائب على عهد "سليمان"، انظر:

Y.Aharoni,TA 3 (1976),5-16.

(٢٩) E.Ball,VT 27(1977).268-79;W.H.Shea,ZDPV 101 (1985),15.

ومع ذلك فالمشاركة فى الحكم كآلية، تنبع بوضوح زائد، من ضرورة عملية، بحيث يتعذر علينا أن نتصور استعارتها من الخارج. ولنلاحظ كيف أصبح نواب الرئيس رؤساء للولايات المتحدة فى أغلب الحالات خلال السنوات الخمسين الأخيرة (ترومان وجونسون ونيكسون وبوش). ولم يكن هذا الأمر بكل تأكيد، مبرمجا منذ البداية فى النسق الأمريكى، فضلا عن ضآلة احتمال نقله عن نسق آخر، ولكن قيمته العملية أخذت تشرق على أفق الناخبين الأمريكيين.

(٣٠) Cf.A.Malamat,JNES 22 (1963),247-53

(حيث نجد مثل هذه المصطلحات "المحملة" مثل "هيئات استشارية" و"الجمعية السياسية" و"المواطنين" والهيئات التمثيلية" وقد دار حولها جدل متحرر،، انظر:

D.G.Evans,JNES 25(1966),273-79;Mettinger,King and Messiah,111-30.

(٣١) تستند أسس حريتى إلى "حصانتى الشخصية": Habias corpus بالإضافة إلى مبادئ أساسية معينة ترجع إلى المجتمع الألمانى والقانون الرومانى. الأولى أى الحصانة الشخصية عبارة عن قرار ملكى،

وخلال سنوات عمرى قامت حكومات منتخبة انتخابا ديمقراطيا بتعليقها أو إلغائها، وكان ذلك دائما لصالح الأمن العام. وقد يحول توسيع نطاق حق الانتخاب دون انفراد شخص ما بسلطة غير دستورية، ولكنه لا يحول دون أن يصبح "خادم أسود" أو شخص "سادى" أو شخص أبله ممثلا لنا. وفى ظل أغلبية من طبقة العمال القرويين الجنوبيين (جنوب الولايات المتحدة) بين الناخبين، لا تستطيع الدولة الديمقراطية الحديثة النجاة من البربرية.

(العبارة اللاتينية تعنى نصيا: أنت تملك الجسم، ولغويا "جسمى ملكك!" والعبارة تحمل معنى مسكوت عنه نستطيع أن نترجمه مثلا إلى: "جسمى ملكى" أو إلى "متى كان جسمى ملكا لشخص آخر سواىَ؟" إلخ، والعبارة عنوان للحق القانونى الذى يملكه المواطن الذى تقيد حريته سواء بالحبس أو الاعتقال أو سواهما فى تقديم التماس إلى المحكمة للنظر فى مشروعية هذا التقييد. وعندئذ يكون لزاما على المحكمة أن تنظر فى هذا الالتماس. وكان البرلمان الإنجليزى قد قرر هذا الحق، تحت ضغوط الرأى العام، فى سنة ١٦٧٩، وقد أدرج هذا الحق فى الدستور الأمريكى الصادر فى سنة ١٧٧٨، غير أن السلطات استمرت فى تقليص نطاقه وتصعيب إجراءاته. ولعل هذا ما يشير إليه "ريدفورد" هنا. ولكن حكومة الرئيس "جورج بوش" الابن – المنتخبة ديمقراطيا إلى هذا الحد أوذاك - هى التى ألغته عمليا أو علقته فى ١٩ يونيو/يونية ٢٠٠٢، وذلك عندما قضت السلطات التى حصلت عليها هذه الحكومة بحكم الأمر الواقع، فى خضم ردود أفعال الأمريكيين على أحداث ١١سبتمبر ٢٠٠١ ، بأن من حقها "حبس أى أمريكى لأجل غير مسمى، دون السماح له بالاتصال بمحاميه بناء على طلب الرئيس الأمريكى" تحت ستار أن هذا الأمريكى- المحبوس مقاتل من الأعداء enemy combatant حول الإلغاء، انظر صحيفة "واشنطون بوست" يوم ٢٠يونيو/يونية ٢٠٠٢ . المترجم)

(٣٢) Hebrew nephesh (نـفـس) "breathing (human)thing" ;Egyptian "tp" (رأس)or hsb(حسب)"counted one"بمعنى "معدود"

(٣٣) Buccelati,Cities and Nations,58-61.

(٣٤) C.H.Gordon, Ugaritic Textbook Glossary (Rome,1965),nos.1816,2037.

(٣٥) انظر ص ٣٧٠ (من النص الأصلى)، وانظر:

R.S.Tomback,A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Languages (Ann Arbor,Mich.,1978),191.

مع اختفاء الملكية فى المدن الفينيقية، أصبحت هذه الجمعيات أو المجالس، بصفتها أقليات حاكمة على أساس مؤسسى، تشكل العمود الفقرى للإدارة، انظر:

D.Harden,The Phoenicians (Harmondsworth,1971),71-72.

(٣٦) S.Gabra, Les conseils de fonctionnaires dans L'Égypte pharaonique (Cairo,1929);A.Theodorides,RIDA 16 (1969),109ff.;idem,AIPHOS 22 (1978), 83ff.; D.Meeks, Année Lexicographie (Paris,1980),1:388-89.

(٣٧) ليس من المستساغ على سبيل المثال أن نقرأ فى الإشارات فى مصر القديمة إلى "شعب مدينة كذا" شيئا يشبه "الجمعية الشعبية"(Ishida,Royal Dynasties,20)، أو أن نقابل استعمالا لمصطلحات طنانة مثل "صوت الشعب"(RA 58(1964),159-66)، و"مؤسسات تمثيلية حضرية"، أو ماشابها (H.Reviv,JESHO 12 (1969)283-97). فمثل هذه الآراء تعطى الانطباع بميول "ديمقراطية"، فى

حين أن كل ما لدينا من أدلة لا يزيد عن حكم الكبار أو الحكماء gerontocracy أو حكم خاصة من ملاك الأراضى الزراعية. ولو أن الكتاب كانوا، فى بعض الأحيان، يستطيعون الإشارة إلى الدول فى الوثائق القانونية بذكر شعوبها وحسب دون أى إيماءة لملوكها، انظر:

Buccelati,Cities and Nations,58;64,n.173.

(٣٨) Tacitus, Germania 11-12;OCD2 ,464.

(٣٩) S.Freud, Moses and Monotheism (New York,1959).

(٤٠) Redford,Akhenaten,226,232.

(٤١) حول شطحات الخيال التى تنتج عن محاولة تضفير intermesh النص الحرفى للتوراة مع التاريخ المصرى، انظر، على وجه الخصوص:

H.H.Rowley, From Joseph to Joshua (London,1950),70-71 and passim.

(٤٢) انظر ص ٢٦٠ (من النص الأصلى)

(٤٣) انظر ص ٤٠٨ (من النص الأصلى) وما بعدها.

(٤٤) هذا يفسد، فى رأيى، ما كان يمكن، لولاه، أن تكون مقارنة مفيدة للغاية، تلك التى قام بها:

V.A.Tobink see Pharaonic Egypt,The Bible and Christianity(Jerusalem,1983), 231ff.

(٤٥) حول العقيدة، انظر:

G.von Rad,The Problem of the Hexateuch and other Essays (New York,1966),1-78.

(٤٦) Tobin, in Pharaonic Egypt,249-50.

(٤٧) Redford, Akhenaten.

(٤٨) D.B.Redford,JARCE 13 (1976),53..

(٤٩) Tobin,in Pharaonic Egypt,261,265.

(٥٠) Redford,JARCE 132 (1976),49ff.

(٥١) حول مفهوم الملكية فى الأسرة الثامنة عشرة، انظر: Redford,"Kingship."

(٥٢) D.B.Redford,JARCE 17 (1980)21-23.

(٥٣) C.Aldred,Akhenaten, King of Egypt(London,1988),178-81.

(٥٤) Tobin, in Pharaonic Egypt,261,265.

(٥٥) Redford JARCE 13 (1976),55-56;idem,Akhenaten and Nefertity (New York,1973).

(٥٦) حول أسلوب أخيتاتون (=العمارنة) الفنى، انظر بصفة رئيسية:

C.Aldred,Akhenaten and Nefertity(New York,1973).

(٥٧) J.S.Holladay, in P.D.Miller et al.,eds.,Ancient Israelite Religion (Philadelphia,1987),249ff.

(٥٨) J.Assmann,SAK 8 (1980),15.

(٥٩) Redford,JARCE 17(1980)25-26.

(٦٠) Ibid.,26.

(٦١) D.B.Redford,BES 3 (1981),87-102.

(٦٢) C.Kloos,Yahuweh's Combat with the Sea (Leiden,1986).

(٦٣) Cf.Lev.12:5,Num.5:11-30,12:14,Deut.22:18-21:11-12.

(٦٤) Exod.20:24-26.

سفر "الخروج" الإصحاح العشرون الآيات من ٢٤ إلى ٢٦.

(٦٥) M.Sandman, Texts from the Time of Akhenaten (Brussels,1938),71:8.

(٦٦) عيد "الفصح" أو"بسح" من الكلمة المصرية "باـسح" p^3 sh التى تعنى "ضحية وقربان" (ولو أن المعنى ليس شائعا للكلمة)

(٦٧) قد يستطيع المرء أن يستشهد هنا بشعائر اليوبيل الملكى (عيد الـ "حب – سد") والأعياد الأوزيرية، تلك التى ترتبط بالعبادة الجنائزية، والأعياد التى ترتبط برأس السنة والفصول، وشعائر الخصوبة التى يجرى الاحتفال بها بالارتباط بالفيضان، والاله "مين" المنتصب العضو وغيره من الآلهة من نفس النوع. إلا أن إسرائيل ليست مدينة هنا بخردلة فيما يتعلق بالأصل أو الشكل أو المعتقد، لمصر.

(٦٨) Wb 11,83:7;5 Schosske,LdÄ 5 (1984),1014;R.Fuchts,LdÄ 5 (1984),10990.

(٦٩) 2 Kings 3:15;S.M.Olyan, Asherah and the Cult of Yehweh in Israel (Atlanta,1988),30-31.

(٧٠) J.Yoyotte, Les principautés du Delta (Cairo,1961),pl.1;P.Bucher, Kêmi 5 (1935),pls.1,11.

(٧١) Cf.Kalahat,"cauldron," (1 Sam.2:14,Mic,3:3) from Egyptian krht: M.Ellenbogen, Foreign Words in the Old Testament (London,1962),149; ah "brazier",(منقد مجمرة)(Jer.36:22-23), from an Egyptian word of the same meaning: Ellenbogen,21;pah,"plate"(Exod.39:3,Num.17:31) from Egyptian ph3 :ibid,13.

(٧٢) See n.16.M.Görg (BN 14 (1981),11ff.)

تشير إلى اشتقاق من الكلمة المصرية "نسو" التى تعنى: "الملك" وتستدعى إلى الأذهان البيارق التى تحمل خرطوش الفرعون (=الملك). ومع ذلك هناك صعوبات لغوية وأيقونية يتعين على مثل هذا الرأى أن يتخطاها كى يحظى بالقبول النهائى.

(٧٣) Herodotus,2.151.Cf.A.B.Lloyd, Herodotus Book II. A Commentary (Leiden,1988),3:130.

(٧٤) M.Görg,BN 17 (1982),26-34;Cf.W.Wilfall,ZAW 92(1980),325-32.

(٧٥) Wilfall,ZAW 92(1980),431-34;BN (1981) 18-19.Bohu:

يبدو اسما ساميا غربيا لـ "الفوضى المائية"، قارن:

M.Astour, Helenossemitica (Leiden,1965),115,n.6,and 116,n.1;H.W.Atridge and R.A.Oden,Jr.,eds.Philo of Byblos.The Phoenician History (Washington,D.C. , 1981),80.n.43.

(٧٦) B.Ockinga,BN 31 (1986),31ff.

(٧٧) I.Friedrisch,Wiener Beiträge zur Theologie 20 (1968),32,47,52; Ellenbogen, Foreign Words,2;M.Görg, Biblische Zeitschrift 20,no2 (1976), 242ff.

المصطلحات الأخرى التى تطلق على بنود الزى الكهنوتى، مع ذلك، لا صلة لها، إلا قليلا، بمصر. والكلمة التى تعنى "زهّر" أو ربما "وردى الشكل"(sic)(=هكذا) سامية غربية والكلمة نفسها انحدرت إلى مصر ككلمة مستعارة خلال الملكة الحديثة (WB V,636) حيث تستخدم كحلية تربط إلى غطاء العجلة الحربية، انظر:

P.Anastasi IV,16,9;R.A.Caminos,:Late Egyptian Miscillanies (Oxford,1954),213.

ويرغب "جورج" Görg فى إيجاد صلة بين الكلمة العبرية "ميئيل" التى تعنى "قفطان" أوعباءة (Koehler-Baumgartner,2:579) وبين الكلمة المصرية: m ،r المعروفة بصفة جامعة، وإن لم تكن مانعة، من العصر البطلمى، انظر:

ويبدو أن الكلمة كانت تنطق، على وجه الاحتمال، هكذا ma ،ar، وبالتالى تكون أى صلة لها باللغة العبرية معدومة.

(٧٨) قارن "إيفود": Ephod التى كانت معروفة بالفعل فى النصوص الأوجاريتية والأكادية من "راس شمرا"، انظر:Koehler-Baumgartner,1:75(references)

(٧٩) انظر ص ٣٦٦ (من النص الأصلى)

(٨٠) انظر على وجه الخصوص:

T.O.Lambdin,JAOS 73 (1953),145ff.;Ellenbogen, Foreign Words;R.J.Williams, in J.R.Harris,ed.,The Legacy of Israel (London,1971),262-69.

(٨١) Ellenbogen,Foreign Words,145,154.

(٨٢) "أولام" أو "القاعة – الأمامية"(=الرواق) أو ما أشبه ("الملوك" الأول ٦: ٣) يبدو، فى حقيقة الأمر، مشتقة من اللغة المصرية، انظر: (M.Görg,BN 13 (1980),22ff.);

و"الرمان" (بالمعنى الاصطلاحى) فى سفر "الملوك" الأول ٧: ١٨ قورن، بصورة بارعة حقا، بالجذر المصرى الذى يعنى "دعم"، انظر:.(Görg,20-21)

إلا أن التفسيرات التى قالت بأن المصطلحات الأخرى مشتقة من أصول مصرية فيبدو أنها متكلفة وبعيدة الاحتمال،، قارن:

Cf.M.Görg,BN 1(1976),29-30;5 (1978),12;13(1980),19;ZAW 98(1977),115-18;GM 20 (1976),22-23;Y.M.Grintz, Leshaonenu 89(1974-1975),163-68).

(٨٣) M.Görg,BN 19 (1982),22-23.

(٨٤) M. Görg,BN 25 (1984),10-13.

هذا أمر يبدو، مع ذلك، موضع شك، على نحو ما تكشف لنا اللغة القبطية، فى حالة krr (=أجانب) فحرف الـ "r" الثانى يخفى وراءه حرف "l"، وفى حالة K³ry تحول حرف الـ "راء" كى يكتسب صفة لهوية بحلول الملكة الحديثة.

(٨٥) Ellenbogen,Foreign Words,112.

(٨٦) Williams,Legacy,264-66;cf.J.K.Hoffmeir,Biblica 67(1986), 378087; cf.also A.Jirku, ZDMG 103(1953),372.

(٨٧) Williams, Legacy,267;WB III,342:2-4;C.Kayatz,Studien zu Proverbien 1-9(Neu-kirchen-Vluyn,1966ff.

(٨٨) S.Morenz,ZÄS 84 (1959),79-80.

(٨٩) D.Muller,ZÄS 86 (1961)),13.

(٩٠) (قارن المزمور رقم ٥٣ آية ٣ ورقم ١٤٢ آية ٤)Cf.Psalm 53:3,142:4,etc.

(٩١) R.O.Faulkner JEA 42 (1956),26),29.

(٩٢) "عظام الرجال الأشداء تهشمت، ولكن الضعيف اكتسب القوة، وأولئك الذين طعموا خير الغذاء، أجروا أنفسهم نظير لقمة عيشهم، إلا أن الجوعى كف جوعهم عنهم"

(٩٣) Ipuwer:M.Lichttheim,Ancient Egyptian Literature (Berkeley,Calif.,1976), 1:149-63.

(٩٤) A.Barucq,L'exression de la louange divine et la prière dans la Bible(قارن =)CF. et dans L'Égypte(Cairo,1962).

(٩٥) See W.F.Albright,JEA 23(1937),191ff.;also D.B.Redford, The Nature of Kingship during the 18th Dynasty"(على وشك الصدور)

(٩٦) النص موجود في:

Sandman, Akhenaten,93ff.,and V.A.Tobin, The Intellectual Organization of the Amarna Period"Ph.D.diss.,Hebrew University,1986),29ff. A translation appears in Tobin,29ff.;see also P.Auffret,Hymnes d'Egypte et d'Israel (Göttingen, 1981).

كما أنني مدين لدراسة ثاقبة الرؤية للمزمور ١٠٤ تضمنتها ورقة عمل قدمها البروفيسور"بول ديون" Paul Dion إلى النادي الشرقي في مدينة "تورونتو" الكندية، كانت وقت كتابتي لهذا الكتاب لا تزال غير منشورة.

(٩٧) S. Mowinckel, The Psalms in Israel's Worship (Nashville,Tenn.,1962) ,1:225-46;2: 1-25;J.W.Wevers,VT 6 (1956);G.W.Anderson,BJRL 48 (1965),16-29;E.Gerstenberger,in J.H.Hayes,Old Testament Form Criticism (San Antonio, Tex.,1974),198-205.

(٩٨) G.Widengren,The Accadian and Hebrew Psalms of Lamentation (Stock-holm,1936);W.H.Hallo, 88 (1968),71-89.

(٩٩) Cf.A,Erman, Deksteine aus der theanischen Gräherstadt (Berlin,1911); see also S.Allam, MDAIK 24 (1969),J.J.Clère,RdE 27 (1975),70ff.; M.G?rg,in Fontes atque Pontes,ed.,M.Görg (Wiesbaden,1983), 162ff.

(١٠٠) Cf.R.C.Cully,VT 13 (1963),113-25;idem,Oral Formulaic Language in the Bibli-cal Psalms (Toronto,1968).

(١٠١) للاطلاع على أكثر الدراسات غزارة بالمعلومات، بصورة تثير الإعجاب حول الموضوع وما تتصل به من مشاكل، انظر:

M.V.Fox,The Song of Songs and the Ancient Egyptian Songs (Madison, Wis., 1985).

(١٠٢) حول تدريب الكتبة فى مصر القديمة، انظر:

R.J.Williams,JAOS 92 (1972),214-21;H.Brunner, Altögyptische Erziehung (Wiesbaden,1972).

(١٠٣) P.Anastasi V,22/6-23/7;Caminos, Late Egyptian Miscellanies,262-63.

(١٠٤) D.B.Redford,Pharaonic King-lists,Annals and Day-books (Toronto,1986), 215-223.

(١٠٥) A.H.Gardiner, The Library of A.Chester Beaty (London,1931).

(١٠٦) يطرح البعض فى الأونة الأخيرة الرأى الذى يذهب إلى أن الحكمة المصرية انجذبت من المنظور العلمانى- الدنيوى إلى الأكثر قداسة ودينية على امتداد القرون بصفته زعما واهيا يسهل تفنيده، انظر:

(H.H.Schmid,Wesen und Geschichte der Weisheit {Berlin,1966),8ff.;Williams, VT Suppl.28,{1975},245,

وقول "بريستيد" ، تبسيطى، ولو أنه صحيح. ولكن ما من أحد يستطيع أن ينكر التناقض الصارخ بين النصح البراجماتى، إن لم نقل نهاز الفرص الذى صدر عن شخص يدعى "بتاح - حوتب"، فهو قلما ما يذكر الإله فى الألف الثالث، والورع المسرف فى التبتل والتباكى واستدرار العطف، على نحو مقزز، مما نجده عند "أمينوبى" الذى يدعى الصلاح باستمرار فى أواخر الألف الثانى. على أن الربط بين الورع وبين الأخلاق لم يكتمل حتى العصور البطلمية، قارن:

M.Lichtheim,Late Egyptian Wisdom Literature in the International Context (Göttingen,1983),186-87.

(١٠٧) ليس هذا هو المكان الذى نستطيع أن نجرى فيه بحثا مسهبا حول المسألة الشائكة التى تتعلق بالأنواع الأدبية genres فى الأدب المصرى القديم، انظر:

H.Brunner,ZÄS 93 {1966},29;J.Assmann et al.,Fragen an die altägyptischen Lebenslehren {Göttingen,1979},235-83;S.Purdy,ZÄS 104{1977},112ff.; M.V. Fox ZÄS 107{1980} 128;R.J.Williams,JAOS 101 {1981},7)

ويكفى أن نقول الآن،استباقا لموقف يتنباه المؤلف الحالى (ريدفورد) فى دراسة قادمة تتناول التقاليد الشفاهية فى مصر القديمة، إنه يتعين علينا أن نسمح للقدماء أن ينقلوا إلينا تصنيفاتهم هم. ففى غالب الأحيان نفرض تصنيفاتنا نحن (التى تنبع فى غالب الأحيان عرضا وبصورة تفتقر إلى الاتساق، من الاستغراق فى مثل هذه الأمور البالغة التباين من قبيل الغرض والشكل والأسلوب) واستخلاصها، بصورة لا واعية من لغة المترجمين.

(١٠٨) حول التعليم بصفة عامة، انظر:

W.Mckane, Proverbs:A New Approach (London,1970),51-150,

وفى سبيل الاطلاع على أمثلة محددة متعلقة بالأمر، انظر:

R.B.Yscott, Proverbs, Ecclesiastes (New York.1965),xlii-xlii;Whybray,Wisdom in Proverbs (London,1965),53-54;H.Brunner, Handbuch der Orientalistik[2],vol. 1.pt.2 (Leiden,1970),113-39;idem,LdÄ 3 (1980),964-68;M.V.Fox,ZÄS 107 (1980),128.

(١٠٩) كلمة "الحكمة" (العبرية) ليست ترجمة شافية، مع ذلك، لكلمة sb^3yt التى يحسن ترجمتها عوضا عن ذلك إلى musar، انظر:;Whybray, Wisdom 62

بينما نجد تشابهًا بين روح التظاهر الذى نجده فى الحكمة فى سفر "الأمثال" وبيت تشخيص "ماعت" فى مصر، انظر: (وما بعدها) (Kayatz,Studien zu Proverbien,93-98 and passim)

ولست أجد مقابلا حقيقيا لمفهوم "ماعت" المصرى فى اللغة العبرية على نحو ما فعل البعض، فيما يبدو واضحا،، انظر:

H.Gese, Lehre und Wirklichkeit in des alten Weisheit (Tübingen,1958),33-38;U.Skladny, Die Altesten Spruchsammlungen in Israel (Göttingen,1962),89-92.

(١١٠) P.Humbert, Recherches sur les sources égyptiennes de la litterature sapientale d'Israel (Neuchêtel,1927),57;Kayatz, Studien zu Proverbien,26ff.; J.M. Thompson, The Form and Function of Proverbs in Ancient Israel(The Hague, 1974),40,62.

(١١١) Whybray, Wisdom,35-36,45.

(١١٢) Ibid.,59-61-67,65-67;N.Shupak,RB 94 (1987),98-119.

(١١٣) Translation:Lichtheim, Literature,2:146-63;A.Alt,in M.Noth and D.W. Thomas,eds.,Wisdom in Israel and the Ancient Near East (Leiden,1955), 16-25;see also S.Morenz,ZÄS 84(1959),79-80;R.J.Williams,JEA 47 (1961),100-106; W.Helck,AFO 22 (1968-1969),21-27;G.E.Bryce, A Legacy of Wisdom:The Egyptian Contribution to the Wisdom of Israel (London,1979);

حول التاريخ، انظر:R.J.Williams,JAOS

يبدو أن افتراض وجود مصدر مصرى عام خلف المثلين ٢٣،٢٢ فى سفر "الأمثال" و"أمينوبى"، يقف دون ضرورة فضلا عن تعسفه، انظر:

I.Grumach,Untersuchungen zur Lebens-lehre des Amenope(Munich,1972).

(١١٤) Scott, Proverbs, Ecclesiastes, 135ff.; McKane, Proverbs, 369-74; M.V.Fox, ZÄS 107 (1980),130-31.

(١١٥) CF.the list in R.J.Williams,VT Suppl.28(1975),245 and n.85.

(١١٦) Lichtheim, Literature,2:150-51.

(١١٧) Cf.Davies, The Rock Tombs of Amarna (London,1909).6:pl.32;Urk IV,1998

إيه يا كل الأحياء الذين يسعون على سطح الأرض، ويا كل الذى سيغدون شبانا يافعين فى يوم قادم! لسوف أحدثكم عن الطريق الأفضل كى تحيوا حياة طيبة" قارن أيضا:

B.Couroyer,RB 57(1950),174-79.

(١١٨) انظر ص ٣٦٦ (من النص الأصلى)

(١١٩) C.I.K.Story,JBL 64 (1945),319-37;Scott,VT Suppl.3 (1955),262-79; Williams,VT Suppl.28(1975),250-51.

(١٢٠) أحيل القارئ مرة أخرى إلى الدراسة القادمة التى سيعالج فيها المؤلف التقاليد الشفاهية فى مصر القديمة.

الفصل الرابع عشر

أربعة تقاليد رئيسية عن الأصول

تكفى لحظة واحدة من التفكير لإثبات الرأى الذى يقول بأن التاريخ الإنسانى لم يعرف ، إلاّ فيما ندر بصورة نسبية ، حركة قام بها شعب من الشعوب كى تستأصل بصفة نهائية أو تقتلع بصفة كاملة شعبًا أقدم من أرضه أو السكان الأصليين لبقعة ما . والجانب الأكبر من الطبيعة المتفاوتة ما بين الإخفاق والنجاح لتاريخ العالم القديم إنما تتصل بصورة أقوى كثيرًا بحركة الجزر والمد فى الهيمنة السياسية والثقافية أكثر من الانتقالات السكانية على نطاق واسع أو حتى الاستعمار . فالتوسع المتتابع للسيطرة الآشورية والبابلية - الجديدة والفارسية والهيلينية والرومانية لم يؤد إلى تغييرات حادة فى السكان بصفة أساسية ، وحتى عمليات الترحيل للمتمردين أو هجرة المجموعات التى تشكل الصفوة ربما لم تحدث إلاّ لأسباب عامة تتعلق بدرجة الأمان . وإذا ما حدثت ارتحالات من النوع الذى يؤدى إلى الاستئصال (= الإبادة) فليس من المستغرب أن يكون هناك شيطان فى غضون ذلك كى يدفع الثمن . فليس فى وسع الضحايا ، على وجه الاحتمال أن يقبلوا بنفوس راضية المزاعم التى ترفعها الجماعة الوافدة أو الغازية بأنها تفعل ما تفعله فى ظل قبول أو استحسان إلهى ، أو أن بلاد الضحايا قد أعطاها الإله للقادمين الجدد : فالحق المطلق الذى يملكه الإنسان فى أن يعيش فى أرض جدوده . هو حق لا نزاع فيه ، وهو علاوة على ذلك مغروس فى أعماق الروح الإنسانية ، وهو حق يجد حتى أى إله من شبه المستحيل عليه أن ينقضه .

تتمثل إحدى عمليات الانتقال المدمرة للشعوب التى يغطيها النطاق التأريخى لهذا الكتاب فى غزو شعوب البحر . فهنا نقف على الأقل على أرض آمنة إذا افترضنا

انقلابًا واسع النطاق للدول المعنية وتحركات ملحوظة للمجموعات العرقية . وقد لا يكون من المستغرب نتيجة لذلك أن نجد فى مأثورات الفولكلور الشعبية للقبائل القادمة استغراقًا فى البحث عن هذه الأصول ، و توقا نحو تبرير الاستيلاء على أرضٍ لم تكن يومًا أرضهم . ولطالما تتذكر مدن الساحل الجنوبى (فى المشرق) أن أسلاف بعض سكانها على الأقل إنما نزحوا من جزر بحر « إيجة » وغرب آسيا الصغرى ، وسفر « عاموس » ٩ : ٧ يعكس تقاليد مشابهة عن الأصول بين آراميى العصر الحديدى .

وعلى نفس المنوال استشعرت إسرائيل تحت ظل مملكتها هى الأخرى اهتمامًا واعيًا بأصولها ، وهذه الأصول هى التى اتخذت فى نهاية المطاف ، شكل « التوراة » (= الأسفار الخمسة والأدق الستة الأولى من الكتاب المقدس) التى نعرفها [١] وهذه « التوراة » التى جمعها كتبة - كهنة[٢] (فى أرجح الاحتمالات وحرَّروها ونسخوها على الأقل جزئيًا « تنزَّلت » روحيًا من لدن الصفوة الروحية فى « أورشليم ») تضم أربعة تقاليد كبرى تحتل مصر فيها مكانة بارزة ، سواء كمؤثر ثاقب أو كمكّون مباشر . وتتمثل هذه التقاليد فى قصص الخلق وجدول الأمم ، والإقامة فى مصر و « الخروج » . ومن بين هذه التقاليد الأربعة نجد أن التقليدين الأول والثانى، من إنتاج الكهنة ، إلى حد كبير وإن لم يكن بشكل كامل ، أما الثالث والرابع ، من جانب آخر فلقد تمتعا بوجود ونسْخ أقدم .

قصص الخلق :

سطَّر العلماء صفحات لا تحصى ولا تعد تعليقًا على قصتّى الخلق اللتين وردتا فى سفر « التكوين ١ : ١ -٢ : ٤ - ٢٤ ، وكاتب هذه السطور ليس على استعداد سواء لتناولها بالنقد أو حتى لتلخيصها . ولطالما شاع الزعم بأنهما ، أى هاتين القصتين ، تكشفان عن اعتماد واضح على قصص الخلق فى بلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا)[٣] بينما تعكس القصص الملحقة حول أصل بعض مظاهر الحياة المتحضرة تشابهات بارزة مع حواديت فينيقية[٤] .

وكان ذلك ليبدو ، وكأنه يضع نهاية للبحث عن مصادر التأثر عن كاهل الكتب أو الكتبة العبرانيين ، لو لم تكن أداة الخلق الرئيسية فى الخلق فى سفر « التكوين » الإصحاح الأول أقصد « الأمر الإلهى » : قال الرب : « ليكن ... » وهذا لا يذكرنا بأى أسطورة آسيوية بل بأسطورة مصرية .

يستمد النموذج الأسطورى الأكثر شيوعًا فى مصر القديمة حول أصل وطبيعة العالم(٥) تفاصيله المتباينة من المدى الرحب لوادى النيل : الفيضان السنوى الذى يحيل الوادى إلى نوع ما من « بحر بدائى والأرض الجافة التى تظهر عندما ينحسر الماء ، والغرين الأسمر المفعم بالحياة . وفى معظم إن لم نقل كل قصص الخلق البدائية فى مصر ، نجد أن المادة الأزلية – الأبدية التى كانت موجودة عند البدء ، دون أن يجد أصلها أى تفسير ، هو الماء ، المحيط الأولى ، أى « نون».(٦) ومن الماء خرجت ربوة(٧) جلس عليها الإله الخالق فى شكل حيوان زاحف أو كائن حشرى أو طيرى ، ومن نقطة العلو هذه انخرط فى عملية الخلق التى أخذت هيئتها الأكثر سموًا فى عملية بصق وتخصيب ذاتى و « جلد عميرة » (= جلد أباظة)(٨) أو ما أشبه . ولما كان هذا الـ « موتيف » قد تحقق فى شكله الكلاسيكى فى عباد الشمس التى عرفتها « أون (= هليوبوليس) وكان الإله الخالق يجرى تصوره كصقر والربوة الأولية كبيضة فقست ومن نصفيها بالتالى ارتفعت السماء وانطرحت الأرض.(٩) ولقد سحر التفكير الأسطورى الخلاق تلك الربوة إلى صور أخرى كى تعطى نطاقًا أوسع للتداعيات : زهرة لوتس (= بشنونة) و قصبة (= بوصة) عائمة(١٠) بل وحتى رأسا بشرية(١١) وفى كل الأحوال لم يأت خلق البشر التالى فى لحظة واحدة ، بالنسبة للراوى ، ولكن صار لزامًا عليه أن يجمع أجزاءه من مصادر متباينة . فهناك « موتيف » شعبى وواسع الانتشار يحمد لإله الشمس بكاءه وانتحابه عندما نظر فرأى الأرض مجدبة لا حياة تدب فيها فى صباح يوم الخلق قبل انبثاق الإنسان : سقطت دموع (باللغة المصرية « ريمى » rimi) إله الشمس على التراب ومنها خرج البشر (باللغة المصرية « رومى » : romi ونلاحظ هنا شبه الجناس بين الكلمتين)(١٢) وتذهب رواية أخرى إلى أن « خنوم » الإله الفخرانى الذى تركزت عبادته فى جزيرة « إليفانتين » كان يشكل الإنسان والحيوان على عجلته من طمى النيل وينفخ فيهما من نفسه (= روحه)(١٣) ولقد

تمتعت هذه الفكرة بدرجة مساوية من الانتشار وامتداد نسبى فى أعماق الزمن القديم . ويقول « أمين - حوتب » فى القرن الثانى عشر ق . م : « ما الإنسان إلاّ طين وقش وخالقه هو الإله » . وتركز بعض النصوص الأخرى على تشكيل جسم الإنسان كما لو كان عملاً من أعمال صانع السلال ، وتتحدث عن « عقد الرؤس وتثبيت الأعناق وضفر عظام الظهر . »[١٤] .

وينصب اهتمام « موتيف » آخر ، وإن كان أقل انتشاراً على وجه التقريب ، من نموذج « المحيط الأولى - والربوة » على الاتحاد الجنسى كالعنصر الأولى فى عملية الخلق . فالسماء (وهى أنثى) والأرض (ذكر) كانا متحدين ومتحاضنين فى عناق (سرمدى) فى قلب « نون » ، وتفتق فعل الخلق من فصل الزوجين عن طريق إدخال عنصر الهواء (أو الضوء أى « شو ») يعنى أن الولادة القادمة لابنها سوف تكون سماوية ، وأن الأجرام السماوية المنيرة وجميع رهط النجوم سوف تظهر فى حينها دون تأخير وتجد مدارها فى بطن السماء ، كى تبلعها مع حلول الليل.[١٥]

وتقوم أدلة فى حقيقة الأمر ، على أن مصر القديمة عرفت ذلك التصنيف من قصص الخلق الذى يُدفع فيه إله - بطل إلى التحرش بتنين أو وحش كاسر هو رمز الفوضى ، ولكن الحبكة كانت فى العادة تنفصل عن الخلق كى تخدم كـ « حدوتة » تنصيب أو عمل من أعمال الإتيولوجيا (= علم التسبيب والأولى التسويغ) الكسوف الشمسى على سبيل المثال.[١٦] وبصفتها قصة من قصص الخلق نجد إشارة إليها فى « تعاليم للفرعون ميرى - كا - رع » التى ترجع إلى القرن الواحد والعشرين ق.م. وربما أقدم من ذلك كثيراً[١٧] يقول والد « ميرى - كا - رع »: البشر هم سرب الإله . ومن أجلهم برأ السماء والأرض عندما قهر وحش الماء ، وهو الذى خلق النفس لأنوفهم حتى يحيوا . فهم صور منه ،[١٨] خرجت من بدنه » وفى « الأشمونين » لنشأة الكون ، ولو أن الدراسين المحدثين لا يعرفونه حق المعرفة ، مع انطوائه على درجة معينة من التوفيقية بين عدد من العناصر المستعارة من هنا وهنالك ، على المحيط الأولّى الذى يتميزّ بأربع صفات سلبية : اللاقاعية (نونو) والظلمة (كاكو) واللامحدودية (حاحو) واللاقابلية للإدراك .[١٩] وقد شخَّصت سائر هذه المفاهيم الأربعة ، التى استعصت على الوصف عن طريق النهج المتدرج الذى تقوم عليه نظرية

« أناكسيماندر « Anaximander » غير المحدود » لأغراض العبادة خلال أربعة أزواج من الآلهة ، وهؤلاء اصطلح على تسميتهم « الثمانية » (باللغة اليونانية « ogdoad « الثامون ») وهم يعدون بمثابة الآلهة العظمى الأولية ، أى الآلهة التى تحظى بالإجلال وقد خرجت من صلبه ... وبعدهم ظهر إلى الوجود كافة ما خلق»[٢٠] وبينما تظهر الربوة التى انبثقت من الماء ورفع السماء هما أيضًا فى القصة الأشمونينية ، فإننا نستطيع أن نضيف أيضًا تلك المعركة التى دارت مع الوحش (فى هذه الحالة يكون الوحش هو ثعبان نيهيب - كاو) قارن PT229 ، « يا قادوم « أتوم » الكامن فى فقرات ظهر « نيهيب - كاو » الذى ينهى الصراع فى « الأشمونين » ... ![٢١]

لا يحتاج المرء إلى أن يزيد شيئًا حول الطبيعة الخشنة غير المصقولة لهذه المفاهيم الأساسية . فمثلما هو الأمر فى معظم الثقافات تنشأ معظم المعتقدات الروحية الرئيسية فى أعماق الماضى السحيق ، إن لم نقل فيما قبل التاريخ ، وتجد الصفوة المثقفة (الإنتلجينسيا) للمجتع فى طور لاحق وهو أكثر صقلاً ، نفسها وقد حملت على عاتقها عبء تركة بدائية بصورة محرجة . ولقد أعاد الحكيم المصرى تفسير وتشكيل مجمل تقاليده فى كل مصقول وفى نفس الوقت يستعصى التنبؤ بعواقبه .

تكشف عناصر عديدة فى حواديت الخلق هذه بالفعل عن حساسية وبصيرة عاليتين . فالتركيز على « الوجود » و« الانبثاق إلى الوجود » ومفهوم الخلق الذاتى يفاجئنا بأنه مفهوم متقدم بشكل استثنائى . فالزمن السابق للخلق يوصف بألفاظ توحى بالسعى الدءوب وراء فكرة « اللاوجود » [٢٢] زد على ذلك أن الخلق ذاته يسمى فى الغالب الأعم «الفعل الأول (= الحدث) » وعند خلق الإنسان ، يبدو أن هناك افتتانًا مسيطرًا بالنفَس الذى ينفث فى الخلق كالعنصر الرئيسى الذى ينعش اللحم الخامل.[٢٣]

وصل البحث وراء « المبدأ الأول » : (فى مصر القديمة إلى ذروته العليا بتأليف ما أصبح يُعرف بـ « اللاهوت المنفى « Memphite Theology [٢٤] وهذا اللاهوت عبارة عن نص درامى - طقوسى مزوّد بتعليق فى خاتمته ، وقد عثر عليه منقوشًا على كتلة من الحجر محفوظة الآن فى المتحف البريطانى ، وهو يرجع إلى حكم « شاباكا »

(٧١٢ - ٦٩٧ ق . م) الذى يقول إنه عثر على النص الأصلى مكتوبًا على بردية « صنعها الجدود ، وأكلها الدود حتى استعصت على القراءة من أولها لآخرها » . وبينما اجتذب صدق هذا التصريح Vorlage التحدى ، وانطرح تاريخ أقدم للنص[٢٥] ، إلاّ أنه ما من أحد يستطيع إنكار أن مضامين النص لم تصبح (مرة أخرى؟) معروفة إلاّ فى مطلع الحقبة الكوشية حوالى ٧١٠ ق.م. وقد حظى النص بالذيوع خلال القرنين التاليين . على أن التعليق إلى جانب أفكار أخرى جديدة تعزز الفرضية التى تقول بأن جوهر الإله الخالق « بتاح » كامن فى « القلب » و« اللسان » ، وبعبارة أخرى « العقل » و« النطق الخالق » . فالعقل يتصور الوجود والكلمة الخالقة تجسّد ما سبق للعقل أن رسم صورته . وبالتالى فإن الخلق نفسه يصبح بمعنى من المعانى انبثاقًا من الخالق ، أو على الأقل ذلك الجزء منه الذى يحمل القوة الحيوية : « وبناء عليه فالذى حدث أن القلب واللسان كسبا السيطرة على كل عضو آخر من أعضاء الجسم خلال التعاليم التى تقول بأن « جلالته (« بتاح ») موجود فى كل بدن وكل لسان ، وكل الآلهة وكل البشر وكل المواشى وكل ما يزحف على وجه الأرض وكل ما يطير فى الهواء ، وذلك عن طريق إعمال التفكير وإصدار الأوامر بكل ما يرغب فيه « ونستطيع أن نمد كلية الوجود التى يملكها « بتاح » كأساس لسائر الخلق » : « لا وجود لأى كيان دونه ، فالوجود هو وجوده الذى يستمر فى الوجود كما سبق له أن قرر »[٢٦] .

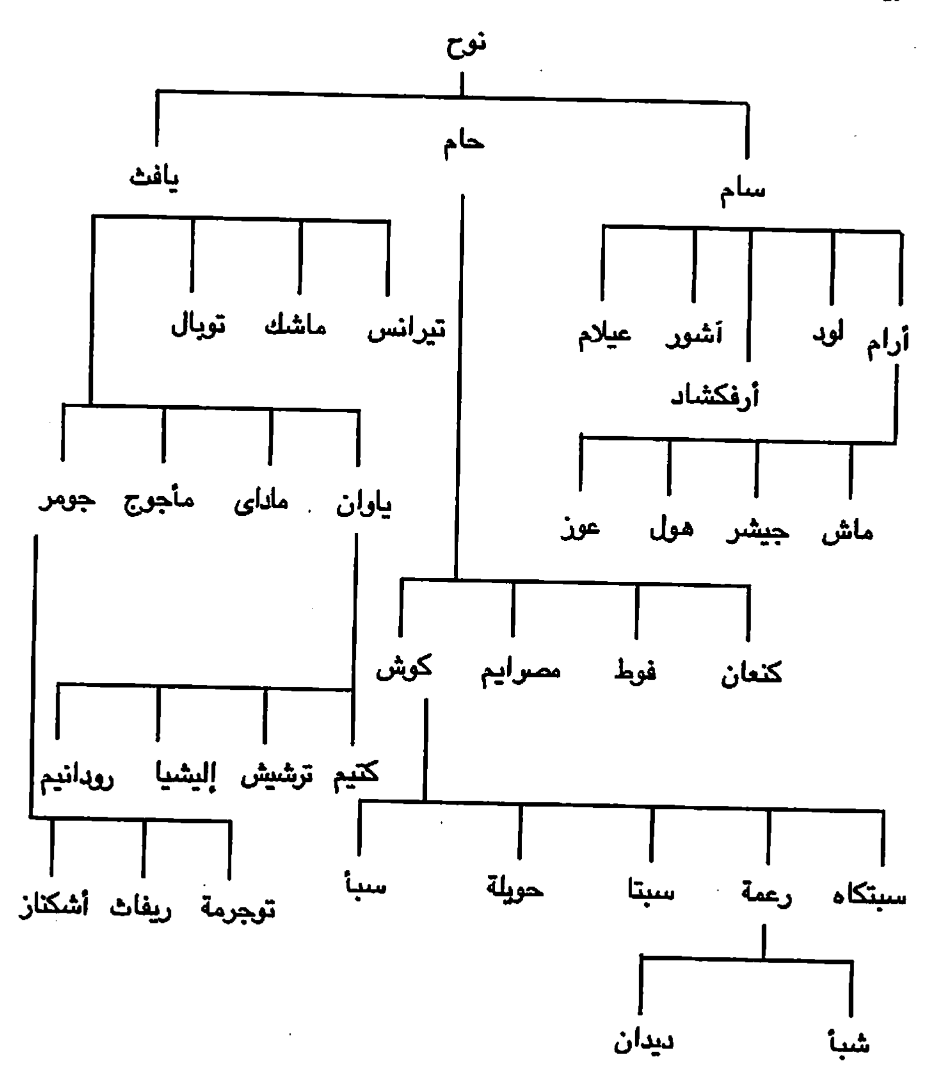
عرف نصف القرن الماضى علماء أيدوا بكل ما أوتوا من قوة ، الرأى الذى يقول إن عديدًا من هذه النماذج والتفاصيل التى مرت علينا فى إطار عرضنا الحالى إنما تشكل الخلفية التى مارست تأثيرًا ملحوظًا على مؤلفى سفر « التكوين » ١ - ٢ ، ولقد أخذت أعداد هؤلاء العلماء فى التزايد فى الآونة الأخيرة.[٢٧] وبينما لا يستطيع المرء حتى الآن أن يتحدث عن حركة « تمصير شاملة » Pan- Egyptianizing ، فمن المستحسن أن نستعرض هذه التيارات حسب قواعد المنظور . مع أن أساطير الخلق تملك فى داخل نطاق مصر ذاتها تاريخًا طويلاً ، إلا أن مباحث علمية راقية مثل «اللاهوت المنفى » لم يكن لها أى تأثير على العالم الخارجى حتى فترة التجديد الثقافى خلال فترة الحكم التى امتدت من الأسرة الرابعة والعشرين إلى السادسة والعشرين ،

وهى الفترة التى عرفت بإحياء كل ما هو قديم . ففى تلك الفترة التى يصل طولها إلى قرنين ، ولنقل من سنة ٧٢٥ إلى ٥٢٥ ق. م. وجدت كل من مصر وسائر شرق البحر المتوسط بما فى ذلك جزر بحر « إيجة » نفسها وقد قذفت الأحداث بها جميعًا فى خضم وحدة من المصالح الثقافية والاقتصادية والأكثر أهمية من كل ذلك الروحية . ولكن هذه الفترة لم تخضع مطلقًا لاستكشاف مناسب من جانب العلماء . وحتى يأتى مثل ذلك الوقت الذى تُستكشف فيه بشكل كامل تشابكات التخصيب الثقافى المتبادل خلال العصر الكوشى - الصاوى من « أيونيا » Ionia (= منطقة فى العالم القديم كانت تضم القطاع الأوسط من الساحل الغربى لهضبة الأناضول . للمترجم) حتى إيران ومن السودان حتى أورارتو « Urartu (= أحد بلدان العالم القديم . وكان يقع فى جنوب غرب آسيا حول المنطقة الجبلية الواقعة جنوب شرق البحر الأسود وجنوب غربى بحر قزوين) فلسوف يكون من السابق لأوانه أن يلزم المرء نفسه بحكم أيًا كان على احتمالات التأثير المصرى على قصة الخلق التى وردت فى سفر « التكوين » . وقد يثبت أن الأمر أمر حالة بسيطة من حالات الاستعارة المباشرة ، وإن صحبتها نيِّة مغرضة تتمثل فى « نزع الطابع الأسطورى » (فى سبيل تأسيس الديانة العبرانية . المترجم) ، أو كما قد يتضح أنه لا يزيد ولا يقل عن حدث ثانوى الأهمية فى نموذج أكثر إتساعًا وأكثر تعقيدًا بما لا يقاس ، من التبادل الثقافى .

قائمة الأمم :

إذا كان سفر « التكوين » يطرح علينا فى الإصحاحين الأول والثانى ، احتمالات مغرية للتأثير المصرى على الفكر العبرانى خلال القرنين السابع والسادس ق .م. ، فإن الإصحاح العاشر من السفر نفسه قدم الحجة الحاسمة على ذلك التأثير.[٢٨] وذلك لأن هذا الإصحاح يمدنا بمحاولة بدائية لرسم شجرة أنساب البشرية جمعاء باستخدام المعلومات الهزيلة التى كانت متاحة منذ نهاية تلك الفترة الزمنية ، بعد أن شوهتها النظرة ، القصيرة البصيرة النابعة من « أورشليم » .

تضم « قائمة الأمم » شجرة أنساب ذات شكل أولى ، يمطه الكاتب عند بعض النقط حتى تأخذ الأنساب معه شكل الروايات . ونجد هذا الجدول فى آيات ٢ - ٧ ، ٦ ، ٤ ، ٢٢ و ٢٣ . وبعد تعداد نسل كل ابن من الأبناء ، يضيف الكاتب عبارتين ، إحداهما تعطينا مرجعًا جغرافيًا للشعب الذى سبقت الإشارة إليه ، والثانية موجزًا سريعًا . ومن هذه الآيات تخرج شجرة العائلة المقدمة فى جدول رقم ٧ على هذا النحو :



أشكناز :

أحفاد « يافث » و« سامر » يستمر بهم المؤلف حتى الجيل الثالث من « نوح » ، أما أحفاد « حام » فيصل بهم حتى الجيل الرابع . والسؤال حول ما إذا كان لهذا صلة من أى نوع بوصول « حام » متأخراً فى « الثالوث » ، حيث إن أعضاءه الأصليين هم « يافث » و« سام » و« كنعان » فسؤال لا يزال محل أخذ ورد . ومن بين هؤلاء الأحفاد الذين حددهم المؤلف بتفصيل ملحوظ ، لا نجد سوى « السيثيان » Scythians (ذرية « جومر » Gomer أى « الكميزيين » Cimmerians) واليونانيين الشرقيين والقبائل العربية الشمالية ،[٢٩] كما أن الأراميين » يظهرون أيضاً فى شجرة الأنساب . وبالتالى فإن هذه القائمة تنطوى على ثغرات خطيرة ، ولم يسدها سوى الأنساب الروائية ، تلك التى أقمحت فى أوقات لاحقة ، ولو أن هذا « السددان » لم يكن إلاّ بصفة جزئية .

وتستخدم الأنساب الروائية بصورة شبه متواترة فعل « قال » ... ولا نجد صيغة المبنى للمجهول للفعل « قال » ، إلاّ فى الآيتين ٢١ ، ٢٥ وحسب . وتحتوى الآية : ٢١ على حشو زائد ، دون أى ضرورة ، ولما لم تكن هناك أى عبارة موازية ، فى حالة «يافث» أو « حام » ، فإننا نستطيع أن نصنفها باطمئنان ، كهامش شارح .[٣٠] وتحمل إلينا الآية رقم ٢٥ خبر الفرعين اللذين انحدرا من « عابر » Eber الذى ورد ذكره أيضاً فى الآية رقم ٢١ .

وتحمل الأقسام الروائية العائلات المنحدرة من اثنين من أعراق « حام » ، وهما « مصرايم » « وكنعان » ، وعرق يدعى « أرفكشاد » Arphacsad من الأعراق السامية الخمسة ، أما « يافث » فيكون حظه هو التجاهل . وإذا كنا نواجه هنا ، كما يريد لنا كثيرون أن نعتقد ، « جدول الأمم » اليهودى فلسوف يتعيّن علينا أن نقر بأنه جدول ناقص بصورة غير مفهومة . هل حذف الكاتب - الكاهن ، الذى يفترض أن يكون قد قدم إطار هذا الإصحاح ،[٣١] قدراً ملحوظاً من مصدره « اليهودى » ، أم أن يكون مستوى ذلك القدر الآخر متدن بشكل ملحوظ ؟ لعل من الواضح أن هذا الجزء الروائى من الأنساب يحتاج إلى فحص أكثر عمقاً .

كما برهن « سيمونز » ، بما لا مزيد عليه[٣٢] ، فإن الآيات من ٨ حتى ١٢ ، تلك التى تقص خبر « نمرود » مقحمة على السياق الراهن ، فـ « نمرود » لم يرد له ذكر ، وحسب فى الآية رقم ٧ ، حيث كان للمرء أن يتوقع هذا الذكر ، ولكن هذا القسم يستخدم صيغة wayyehi (عبارة باللغة العبرية تعنى « جاءت كى تمر » It came to pass , Google) ويخوض فى التاريخ أكثر مما يخوض فى الأنساب . ونقطة الانطلاق فى الآيتين ٨ ، ٩ كانت شرح أحد الأمثال ، أما فى الآيات من ١٠ إلى ١٢ فنقطة الانطلاق تتمثل فى إسهاب القول فى الإشارة المجردة التى وردت إلى « آشور » فى الآية رقم ٢٢ . ولكن طالما كان أصل « آشور » راجع إلى مملكة « نمرود » ، وطالما كان « نمرود » بن « كوش » خلال تعيين خاطئ لهويته ، فإن الآيات من ١٠ -١٢ ترتبط بالآيتين ٨ ، ٩ وليس فى وسعهما أن يرحلا إلى الآية رقم ٢٢ أو فيما حولها .

على أن الآيتين ١٣ ، ١٤ تقفان متفردتين فى الجدول بإصرارهما على استخدام كلمة « الأغيار » فى صيغة الشخص الثالث (= الغائب) فى حالة الجمع بدلاً من « الأسماء الإطلاقية » eponyms (= الأسماء التى ينسب إليها ، أى تطلق على أسماء مغايرة وإن كانت ترتبط بها بصورة أو بأخرى ، مثل اسم البطل الأسطورى : « روملوس » الذى أطلق على مدينة « روما » . المترجم) والكاتب أى كاتب هذه الآيات ، لا يستطيع أن يمر على هذه الأسماء الثمانية باعتبارها « أبطالاً يحملون أسماء إطلاقية » ، ويبدو أن كل ما يستطيع قوله فى هذا الصدد لا يتجاوز أن أصل هؤلاء الأشخاص إنما يرجع إلى مصر . ولكن خلال استخدامه لصيغ الجمع كان قد قطع كلاً من سلاسة الأنساب وصدقيتها . ولقد أنزلت الآيات من ١٦حتى ١٨ نفس الضرر بالطابع العام للإصحاح وذلك لأنها تحدد تسعة أفراد من « الأغيار (=.غير اليهود . والكلمة نفس الإيحاءات التى تحوزها كلمة « العجم » عند العرب . المترجم) كذرية فرعية إضافية لـ « كنعان » ، الذى كان ولداه قد ورد ذكرهما من قبل (الآية رقم ١٥) ويبدو من شبه المؤكد أن هذا القسم مكتوب بصورة متسرعة وعلى نحو مقحم إلى حد يدعو للأسف ، وقد وضعه مؤلف يستشعر الحاجة إلى ضرورة أن يحظى الكنعانيون بتناول أكثر احتفالاً [٣٣] .

والآيتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون ، اللتان تتناولان نسب « أرفكشاد » Arphacsad مشتقتان من نفس التقاليد كما يتضح لنا فى سفر « التكوين » ١١ : ١٢ – ١٧ . ولكن بينما يستمر الإصحاح الأخير مع نسل « فالج » : Peleg ، فإن الإصحاح ١٠ : آية ٢٦ وما بعدها ، يركز على وجه الحصر على أبناء «يقطان » Joktan شقيق « فالج » .

لعله من الواضح ، بالتالى أن الأنساب التى يغلب عليها الطابع الروائى فى « جدول الأمم » لا تشكل وحدة بحد ذاتها ، بل تجميعًا غير متجانس لمواد من هنا وهناك . ولكن بعض هذه المواد غير مناسب لأنساب « جدول الأمم » وبعض المواد الأخرى عبارة عن عملية تسويغ مدسوس (على سبيل المثال : الاستطراد الذى يدور حول « نمرود ») وليس فى محله الصحيح داخل نطاق شجرة نسب رسمية ، وبعض المواد الأخرى لا تخرج عن كونها تنبؤًا لما سيأتى ذكره فى الإصحاح التالى . وبناء عليه فبصرف النظر عن الحكم الذى نصدره على مدى صدق المضمون الوارد فى هذه الأنساب الروائية ، فإن المرء لا يجد مفرًا من الإقرار بأنها ثانوية الأهمية وذيلية الطابع بالنسبة للجدول الأصلى . ولقد بدأ مؤلف سفر « التكوين » بقائمة بأبناء « سام » و « حام » و « يافث » ، وهى القائمة التى حشر فيها ، هو أو مؤلف آخر لاحق ، عددًا متنوعًا من الشروح والملاحق . وكما يجوز للمرء أن يتوقع ، كانت المواد التى يستقى مؤلفنا منها مثل هذه الإضافات ، أسهل منالاً عندما يتعلق الأمر بالحاميين أو الساميين ، الذين كانوا مألوفين أكثر لبنى إسرائيل من أبناء « يافث » البعيدين عنهم .

إلاّ أن « جدول الأمم » يغفل ، بما يدعو إلى الاستغراب حقًا ، كل ذكر لنسل إسرائيل . وحتى عندما يتناول المؤلف ذرية « سام » فإنه يتحاشى بصورة لا تكل ولا تمل ، فرع « فالج » ، ولربما قنع مؤلفنا بإيماءة لا يكاد يلحظها المرء إلى سلسال العبرانيين خلال الإشارة مرتين إلى « عابر » (الآيتان ٢١ و ٢٥) أما « يقطان » شقيقه ، من جانب آخر ، فلقد منحه المؤلف ما لا يقل عن ثلاثة عشر ابنًا ، لا يخدم تعدادهم فردًا فردًا سوى التأكيد على تجاوز « فالج » وإهماله . وفى ضوء المركز الرئيسى الذى يحتله « فالج » فى سلسلة نسل « إبراهيم » ، فالمرء لا يستطيع أن

يدخل عدم التوازن فى الإصحاح العاشر من سفر « التكوين » فى باب الصدفة . فالإصحاح بأكمله كان ليبدو ملحقًا تكميليًا لنسل « إبراهيم » فى الإصحاح الحادى عشر من سفر « التكوين » . وهذا الإصحاح الأخير جادت به يدا مؤلف لسفر « التكوين » بعد فترة « النفى » (البابلى) . وكان هذا المؤلف قد هدف إلى تتبع جدود العبرانيين ، وبالتالى إلى تحديد أصل العرق الذى ينتمى إليه هو نفسه.[٣٤] وخلال هذه العملية شعر أنه مضطر إلى وضع إسرائيل داخل نطاق سياق أعرض لشعوب أجنبية كانت مألوفة لديه ، وجاء « جدول الأمم » كنتاج لجهوده .

قادنا النقاش الذى جرى حتى الآن إلى التشكك فى وضع تاريخ تأليف الإصحاح العاشر من سفر « التكوين » بعد فترة « النفى » . فهل إمعان النظر فى « الأسماء الإطلاقية » eponyms ذاتها يؤكد هذا التشكك ؟ فلنبدأ بفحص أنساب « جدول الأمم ».

يضع هذا الجدول « اليافثيين (= أبناء « يافث ») فى قوس ضخم مرسوم ، يمتد شرقًا حتى « إيران » (الميديين Medes) وغربًا حتى اليونانيين - الأيونيين على الساحل الغربى لهضبة الأناضول.[٣٥] وهذا النطاق يشمل « زاجروس » و «أرمينيا » وسائر أرجاء آسيا - أى الإقليم الجبلى الذى يهدد ويطوق « الهلال الخصيب » فى الشمال والشمال الشرقى .وهو أى ذلك القوس متمدد زمنيًا مع الإمبراطورية الناشئة لـ « الميدين » والإيرانيين فى أواسط القرن السادس ق .م ولكن قائمة أبناء « يوان » Yawan التى تضم « قبرص » و « رودس » تأخذنا إلى داخل نفس النطاق الزمنى أو نطاق زمنى متأخر بصورة طفيفة .[٣٦] إلاّ أن التوزيع العرقى (= الجنسى racial) الذى جرى تصوره هنا لم يكن ليظهر للنور لولا الاستعمار اليونانى لشرق البحر المتوسط ، وهو الاستعمار الذى بدأ مع نهاية القرن الثامن ق.م.[٣٧] ولقد أخذ العبرانيون يعرفون اليونانيين خلال « النفى » (« حزقيال » ٢٧ : ١٣ ، ١٩) ، ولكنهم لم يشرعوا يألفونهم إلاّ بعد « النفى (إشعياء ٦٦ : ١٩ ، « يوئيل » ٤ : ٦ ، « زكريا » ٩ :١٣ ، « دانيال » ٨ : ٢١ ، ١٠ : ٢٠ ، ١١ ، ٢) وأكبر أبناء « يافث » هو « جومر » Gomer ، وهو جد الكيمزيين Cimmerians الذين تسمَّوا على اسمه[٣٨]

ويظهر هذا الشعب ، حسب المصادر الآشورية فى « أورارتو » فى أواخر القرن الثامن ويجرى تصنيفه مع « الميديين » Medes (سكان بلاد « ميديا » جنوبى بحر « قزوين ») و «المانای » Manai فى النصوص التى ترجع إلى عهد الملك الآشورى « إزارهادون »[٣٩] وفى سنة ٦٤٤ ق. م. اجتاح « الكيمزيون » أولئك « ليديا » : Lydia كى يستولوا على « سرديس » : Sardis ويذبحوا « جيجيز » Gyges ملك « ليديا » ولكن انهيارهم بعد ذلك كان سريعًا بصورة نسبية ، ومنذ حوالى سنة ٦٣٠ ق. م. فصاعداً حل محلهم « السيثيان » Scythians . (سكان « سيثيا » وهو الاسم القديم لإقليم يقع فى جنوب أوروبا وجزء من آسيا ، ويمتد فى شمال شرقى البحر الأسود وشرقى بحر الأورال)[٤٠] والآن نجد أن المؤلف ينسب « الأشكناز » (= السيثيان) بالبنوة لـ « جومر » ، وفى عبارة أخرى فإن تعاقب « السيثيان » على موطن أسلافهم من الكيمزين معروف للمؤلف ، ونقطة البدء هنا يتعيَّن أن تكون ، بالتالى الربع الأخير من القرن السابع ق. م.

يصل عدد أبناء « حام » إلى أربعة : « كوش » و « مصرايم » و « ليبيا (بوط) Put[٤١] و « كنعان » . وهذا الترتيب ليس جغرافيًا ، بل سياسيًا [٤٢] فتسبيق المؤلف لاسم « كوش » ، على « مصرايم » يعد انعكاساً لا لبس فيه للسيادة التى تمتعت بها مملكة (= نباتا) منذ غزوها مصر فى سنة ٧١١ ق.م. حتى الهزيمة التى أنزلها بها « بسماتيك » Psammetichos الثانى (حوالى ٥٩٣ ق.م.)[٤٣] وحتى بعد ذلك التاريخ استمرت « كوش » تحتل المرتبة الأولى فى التقاليد ، كما نستدل على ذلك من كتابات كل من « هيرودوت » و « ديودور »[٤٤]. وتأتى « ليبيا » فى المرتبة الثالثة ، إذ كانت السيادة الليبية ، خلال الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين (حوالى ٩٥٠ - ٧٢٠ ق. م.) قد طواها الماضى البعيد . وفى الآخر تأتى « كنعان » كذكرى باهتة للمدى الذى كان نفوذ وادى النيل قد بلغه ذات يوم[٤٥]. ولكن « كنعان » لا تعدو كونها اسمًا ، أما أمجادها فلقد أصبحت جزءاً من ماض سحيق ، ولا يعرف أى من الإصحاح العاشر من سفر « التكوين » أو قصص الآباء شيئًا ذا بال ، سواء عنها أو عن سكانها الخرافيين . وأحد أبناء « كوش » يدعى « سبْتكا » Sabtecah الذى لم يكن ، على الوجه الظاهر ، سوى الملك الكوشى « شابتاكا » Shabtaka

(٦٩٧– ٦٩٠ ق. م.)[٤٦] ولكن المؤلف هنا يتذكره على هيئة من الأسلاف الذين يحملون « أسماء إطلاقية » . موجز القول : كانت الأدلة لتشير إلى أواخر القرن السابع أو أوائل السادس كنقطة البدء terminus a quo للوضع الذى يقف وراء قائمة الحاميين .

قد يحملنا وجود « عيلام » على رأس الساميين إلى الوراء إلى منتصف القرن السابع ، قبل القضاء على تلك الدولة على أيدى « آشور – بنى – بعل » . إلاّ أن الاسم الثانى : « أشور » يوحى بنقطة ختام terminus ad quem عند ٦١٢ ق . م ، عندما زالت الدولة الآشورية من الوجود . ولكننا إذا ما أخذنا هذه النقط سواء فى البدء أو الختام مأخذ الجد ، فإننا نكون قد تجاهلنا على وجه الاحتمال وعلى وجه أخرق فى الوقت نفسه استمرار أسماء كبيرة على قيد البقاء ، حتى بعد اندثار الأماكن التى تسمّت بها ذات يوم . فالتقاليد تتشبث دائمًا بالبقاء وتملك أسماء الأماكن فى الغالب الأعم قدرة على العيش على الألسنة آمادًا طويلة . أما « أرفكشاد » فيفسره المفسرون عادة بأنه الاسم الذى أطلقه المؤلف على « بابل » ، وكان غيابه من جدول الأمم (لولا وروده فى الآية رقم ١٠) ليعد أمرًا عصيًا على الفهم .[٤٧] وقد يكون « لود » هو اسم « ليديا » ، مع أن العلة التى دفعت المؤلف إلى إدراجه فى عائلة « حام » تظل لغزًا [٤٨]

إلاّ أننا نجد الأدلة تتفق بالإجماع أو تكاد فيما يتعلق بالأنساب التى وردت فى « جدول الأمم » : النصف الأخير من القرن السابع ق .م. هو نقطة البدأ للتوزيع السياسى والعرقى الذى يكمن وراء « جدول الأمم » . والصورة التى تتكشف ، على نحو ما فعلت ، ليست سوى النظرة الأخيرة لأبناء « يهودا » كأبناء دولة مستقلة ، للعالم قبل أن يطويهم « النفى » ، وكانت هى الصورة أيضًا ، مع بعض التعديلات ، التى كوّنوها عندما عادوا من إقامتهم الجبرية فى الخارج .

أيًا كانت الأدلة التى نستطيع لملمتها من تلك الأنساب الروائية فهى عاجزة عن هز هذه الفرضية : الأبناء السبعة لمصر يشكلون الفرع الأول للحاميين الذى نقابلهم فى تلك الأنساب الروائية . ولكن العضو المؤكد الوحيد هو « فتروسيم » Pathrusim ، وهو اسم جمع فى حالة المذكر ، ولقد صيغ استنادًا إلى الاسم المصرى : « با – تا – رسى »

« أى » الأرض الجنوبية » وهو اسم الوجه القبلى ، وقد انبثق خلال عصر المملكة الحديثة ، ولكنه لم يصبح اسمًا عامًا بالصيغة المذكورة للتو (أى بإضافة أداة التعريف فى اللغة المصرية القديمة للمفرد المذكر : « با » . المترجم) إلاّ فى المرحلة الديموطيقية[٤٩] ويجمع العلماء على أن « كافتور » Kaphtor هو « كيفتيو » Keftiu ، وهو اسم أحد الأقاليم الإيجية (ربما « كريت ») ، و « ليهابيم » هو « اللابو » وهؤلاء عبارة عن قبيلة ليبية ،[٥٠] وفى رأيى الخاص ، ليس هناك داع يدعونا لرفض القول بأن الـ « لوديم » هم « الليديون » سكان آسيا الصغرى .[٥١] ويشير المؤلف فى مكان آخر فى « التوراة » إلى « اللوديم » بصفتهم مقاتلين شرسين (قارن " إشعيا " ٦٦ : ١٩ ، " إرميا " ٤٦ : ٩ ، " حزقيال " : ٢٧ : ١٠) ، ولم تكن سوى شراسة الليديين هى التى دفعت « هيرودوت » إلى وصفهم بأنهم أفضل المقاتلين فى سائر أرجاء آسيا ،[٥٢] وفى سنة ٦٥٥ ق م دخل بيسماتيك » الأول ، ملك مصر فى تحالف مع « جيجيز » ملك « ليديا »[٥٣] ويبدو من المرجح أن الليدين بدأوا يدخلون مصر كمرتزقة بموجب المعاهدة التى عقدها الطرفان معًا . ويوحى سياق حرفىّ « العين » و « النون » الساكنين Consonants فى كلمة « عناميم » بالاسم « عين » الذى يطلق كثيرًا على ينابيع المياه فى الدلتا المصرية .[٥٤] ، إلاّ أن تعيين « أولبرايت » لهويتهم باعتبارهم شعب « عانامى » ، وهو شعب كان يقطن ساحل شمال أفريقيا على عهد « سرجون » ملك آشور (٧٢١ – ٧٠٥ ق.م) هو أفضل اقتراح فى هذا الصدد حتى تاريخه.[٥٥] وبحكم موقعها فى القائمة قد يظهر أن « نفتوحيم » naphtuhim أحد أسماء الدلتا ، مادام كان الاسم التالى مباشرة هو « فتروسيم » وهو اسم الوادى أو الوجه القبلى .[٥٦] وعلى هذا النحو قرأها كل من « إيرمان » (عالم مصريات ألمانى ١٨٥٤ – ١٩٣٧) و « شبيجلبيرج » (= عالم مصريات ألمانى . أحد أبرز أعماله : نحو ديموتيكى Demotische Grammatik هايلدلبيرج ١٩٢٧)[٥٧] إلاّ أن « فتموحيم » ينطوى فى نظر « إيرمان » على تنقيح جزافى ، وعند « شبيجلبيرج » نجد اسم « ناثو » Natho لا ينطوى وحسب على تنقيح بل على سوء فهم أيضًا [٥٨] على أن سياق هذه الحروف الثلاثة الساكنة « الباء والتاء والحاء » يشير إلى وجود اسم الإله المصرى « بتاح » وكان « هيرش » Hirsch قد أعاد بناء اسم « نيوت – بتاح » ؟ Niwt-pth بمعنى « مدينة بتاح » (= منف)

كالنموذج Vorlage المصرى[٥٩] ورغم الاعتراض الذى ساقه « شبيجلبيرج » بأن النصوص المصرية القديمة لم تكشف لنا عن وجود مثل هذا المكان،[٦٠] إلاّ أن الفكرة مغرية وتجد تأييداً لها فى اسم « نيوت آمون » (بالعبرى : « نو - آمون ») أى (مدينة « آمون ») وهو لقب متأخر زمناً لـ « طيبة » .[٦١] وأخيراً نأتى لـ « كسلوحيم » Kasluhim وهو اسم غامض تمام الغموض . وينطوى التنقيح الذى أدخله « Müller فى الاسم كى يصبح « ناسمونيم » Nasmonim والتعرف عليه بالتالى فى اسم قبيلة تعيش فى شمال أفريقيا ، ذكرها « هيرودوت » ، على تعديل محفوف بمخاطر شديدة لا تقبله اللغة العبرية.[٦٢] ولكن يود المرء أن يرى فى اسم « الكسلوحيم » شكلاً « مشلفطاً » لاسم « الكالاسيريين » Kalasiries ، أى طبقة المحاربين الذين ورد ذكرهم فى نصوص ديموطيقية وفى كتابات المؤلفين الكلاسيكيين،[٦٣] ولكن هذا يحتاج أيضاً إلى افتراضٍ مسبق مهما كان واهياً .

ولكن يبدو أن هناك أمراً واحداً مؤكداً : كاتب الآيتين ١٣ و ١٤ عرف هذه الأسماء كألقاب لشعوب بأسرها ، ولم يستشعر أى حاجة أو أى مسوّغ كى يستنبط لهم أسلافاً نحونهم أسماءهم . وحقّاً كان المؤلف محقّاً فى بعض الحالات مثل (« لوديم » و « لهابيم » وربما أيضاً « عناميم » ، ولكنه فى حالات أخرى مثل (« فتروسيم » و « كفتوريم " وربما أيضاً " نفتوحيم " كان يبنى أسماء أعراق من أسماء أماكن . إلاّ أن القول بأن " مصر " أنجب شعوباً عوضاً عن أبناء معينين ، ثم يورد أسماءهم فى قائمة ، لعمل ينطوى على إضعاف الصورة التى تتشكل استناداً إليها صيغة الأنساب . ومضمون الآيتين ١٣ ، ١٤ يقدم موضع مصر إزاء عدد من الشعوب والدول ، لم ير المؤلف ، من قبل ، أى ضرورة لوجود أى تعبير عنها فى إطار الصورة التقليدية للأنساب . وعندما نعكف على رسم خريطة للمدى الجغرافى الذى تبلغه " عائلة " مصر ، فإننا نجدها وقد وصلت إلى / وتوغلت فى " ليبيا " وتمتد بامتداد ساحل شمال أفريقيا حتى جزر بحر " إيجة " وآسيا الصغرى ، دون " كوش " أو ساحل فلسطين وسوريا . وهذا هو على وجه التحديد نطاق نفوذ ومصالح مصر خلال الشطر الأكبر من العصر الصاوى (الأسرة السادسة والعشرين) .

على أن الإشارة الموجزة إلى ذرية " كنعان " فى الآية رقم ١٥ تحملنا إلى داخل نفس الفترة . و " حيث " لا تنطوى على إيماءة إلى " الحيثيين " فى الألف الثانى وموطنهم ، بل إلى الدول التى عرفتها سوريا وأطلق عليها الآشوريون والبابليون ، فيما بينها أى تلك الدول ، وبشكل جماعى اسم " خاتى " (أو « هاتى ») اعتباراً من القرن التاسع [٦٤] حتى القرن السادس ق.م.[٦٥] وأن يضع المؤلف " صيدا " كأول أبناء " كنعان " ، بدلاً من " صور " ، التى لم يشر إليها بالمرة ، أمر يشير إلى أن حظ " صور " كان يعانى جزراً فى ذلك الوقت " ، بينما كانت " صيدا " تحتل مركز المدينة التى تقود " فينيقيا " . ومثل هذا الوضع ساد فيما بين تدمير " بنوخذرصر " لـ " صور " فى أوائل القرن السادس ق.م.[٦٦] وهبة " تينيس " Tennes فى القرن الرابع .[٦٧]

لا مناص أمامنا من الوصول إلى النتيجة التى تقول بأن الأنساب الروائية ، مثلها مثل الأنساب الواردة فى " جدول الأمم " إنما تعكس وضعية الشعوب والدول فى القرنين السادس والخامس .[٦٨] فتلك كانت ، بصفة رئيسية ، صورة العالم ، التى حملها اليهود معهم إلى منفاهم ، وقد أدخل عليها أحفادهم الذين عادوا من النفى إلى بلادهم الأصلية بعد مرور ثلاثة أو أربعة أجيال ، تعديلات طفيفة . وإذا صادفنا أى عناصر راجعة إلى عصور قديمة ، فريدة فى هذه الصورة ، فذلك مرجعه إلى الوضع السياسى والعرقى لعالم إسرائيل فى العصر الصاوى ، دون أى تقاليد عبرانية مستقلة ، قديمة العهد . وتلك الـ " مصر " التى تلوح فى " جدول الأمم " ليست سوى مصر الفرعون " بيسماتيك " الأول وسلالته ، أى الأسرة السادسة والعشرين . والزعم الذى يقول بأن العبرانيين كانوا ، بالضرورة ، يألفون مصر منذ أبعد العصور القديمة يسخر من بديهية ناصعة . ولكن المحرر الذى جلس كى يخط ما خطه بعد « النفى » كان يذيع أقواله لمعاصريه ، ومصر التى استشعر الضرورة إلى شرحها لهم لم تكن سوى تلك الدولة التى قامت على ضفاف النيل فى عصره هو .

فترة الإقامة وقصة « الخروج » :

لا نعرف على وجه الاحتمال أى تقليد مقدس آخر ، ينطوى على أهمية مركزية بالنسبة لإعادة بناء تاريخ إسرائيل على نحو ما يقدمه لنا سفر « التثنية » بالعهد القديم ، من « خروج » العبرانيين من مصر . فلقد أصبح هذا « الخروج » بمثابة نموذج أصلى للخلاص ، ورمزاً للحرية والجوهر الأصلى لديانة عالمية عظيمة . ومع ذلك بالنسبة للمؤرخ يظل أكثر الأحداث البارزة بأسرها مراوغة فى التاريخ الإسرائيلى . فمن المفترض أن الحادث وقع فى مصر ، ومع ذلك لا تعرف المصادر المصرية عنه شيئًا ، أى شيء وغداة « الخروج » كان تعداد بنى إسرائيل يبلغ على وجه التقريب ، مليونين ونصف (كما نستنبط من سفر « العدد ٤٦ : ١) ، إلاّ أن تعداد المصريين بأسرهم لم يكن ليتجاوز ، فى ذلك الوقت ، ما يتراوح بين ثلاثة أو أربعة ملايين ونصف ![٦٩] ولابد أن لعواقب كانت وخيمة على مصر - فقدان قوة عمل العبيد ، سلب ونهب الذهب والفضة من مصر (« الخروج » ٣ : ٢١ - ٢٢ ، ٣١ - ٣٦) الإجهاز على جيش ، ومع ذلك فلا توجد عند أى لحظة فى تاريخ البلاد خلال المملكة الحديثة بأسرها أضعف إيماءة ممكنة للتأثير الصاعق الذى كان لمثل هذا الحدث أن يحدثه سواء على الاقتصاد أو المجتمع . وكما سبق لنا أن رأينا كان المصريون يكلفون الآسيويين الذى نزلوا فى مصر خلال المملكة الحديثة وقطاعًا من المصريين أنفسهم بأعمال التشييد ، ولكن « مدن التشوين » التى تحكى عنها قصة « الخروج » (١ : ١١) ظاهرة إسرائيلية بصورة خالصة (= لا يعمل فى بنائها سوى إسرائيليين وحسب) . فضلاً عن أن الاستيعاب المطرد للمقيمين الآسيويين خلال المملكة القديمة لايرد له ذكر بالمرة فى سفر « الخروج » .

الواضح أن هناك خطًا ما . فهل نتناول الموضوع من زاوية صحيحة ؟ هل كنا نقرأ المصدر الأول فى « الخروج » على نحو بالغ السذاجة ؟ هل هناك أدلة غابت عن ذكائنا ؟

قادتنا المصاعب التى تستعصى على الحل أو تكاد عند تفسير حكاية « الخروج » ظبصفتها تاريخًا إلى وصفها بأنها أسطورة أكثر من كونها تقريرًا مفصلاً لحقائق تاريخية » وبالتالى يستحيل تمامًا أن نعيِّن لها موضعًا جغرافيًا.(٧٠) وهذا ملاذ غريب حقًا ، ذلك لأن النص لا يشبه نصوص الأساطير (على الأقل فى ظل التعريف الذى يقول بأن النص الأسطورى يصوِّر حادثة لازمنية تدور فى عالم الآلهة .) ولكن الكاتب « التوراتى » يعتقد ، بكل تأكيد ، أنه يصور تاريخًا : history محدد التاريخ ، ويوفِّر لنا مادة من الأنساب ، نستطيع عن طريقها أن نحسب التاريخ dates . كما كان يعتقد أيضًا أنه من الممكن أن نعيِّن موقع هذه الحادثة على سطح الأرض ، كما حشا حكايته بتفاصيل مستقاة من الطوبوجرافيا (أسماء الأماكن) . أما القول بأن التشابه فى نمط العقدة أو « الموتيف » (وخصوصًا فى « أغنية البحر ») لـ « الإله - البطل » ضد « الوحش أو التنين - البحر » إنما يشير إلى أساس أسطورى للقصة ، التى لم تكتسب تاريخيتها إلاّ فى وقت لاحق ، فقول ينطوى على براعة فى الصنعة أكثر مما يلقى ضوءًا يبدد الغموض . ففى النهاية ، فجرت المآثر التى جادت بها يدا الفرعون « رمسيس » الثانى فى ميدان المعركة إعمالاً غزيرًا للخيال باستخدام المجاز الشعرى المستمد من « موتيف » البطل - الإله ضد « الفوضى » ، إلاّ أن « قادش » كانت معركة بالمعنى الحرفى للكلمة ، مع ذلك !

وهنا ينبغى أن نعطى أهمية كبيرة لتاريخ المصادر فى « الخروج » ١ - ١٤ الذى يتعين أن نحكم عليه استقرائيًا بالاستناد إلى التفاصيل التى تقبل تحديد تاريخها . وهذه التفاصيل ، ينبغى علينا أن نعترف ، بأنها قليلة وفى معظمها ذات طبيعة تختص بأسماء أماكن .(٧١) ومع ذلك فالبحث الذى انصب على أسماء الأماكن هذه مضى إلى أبعد كثيرًا عن مسرح المقال الكلاسيكى الذى نشره « كازيل » Cazelle قبل خمس وثلاثين سنة.(٧٢) ونستطيع أن نتحدث اليوم بحق عن إجماع الأدلة .(٧٣) فأيًا كان ذلك الذى قدم المعلومات الجغرافية التى أصبحت الآن تزخرف قصة « الخروج » فهو لا يملك أى معلومة واحدة أقدم من العصر الصاوى (القرن السابع حتى السادس ق.م.) . وشرق الدلتا وسيناء اللتان يصفهما ، ليستا سوى شرق الدلتا وسيناء اللتين كانتا معروفتين على عهد ملوك الأسرة السادسة والعشرين وأوائل حكم السادة الفرس : تعكس أسماء الأماكن الاهتمام بالحدود الشرقية ، وهو الأمر الذى

يتبدى فى تلك الفترة فى بناء الحصون وشق القنوات . وهو يعرف « جوشن » التى كان العرب من بنى قيدار Quedarite يترددون عليها وبلاد « رمسيس » الخرافية . ولكنه لا يستطيع أن يحدد موقع البلاط المصرى بأى صورة من الصور إلاّ فى أكبر مدينة وأشهر مدينة فى عصره فى شمال شرقى الدلتا ، وهى « تانيس » ، المقر الملكى اعتباراً من حوالى ١٠٧٠ إلى ٧٢٥ ق. م (قارن المزمور ٧٨ : ١٢ ، ٤٣) وهى المدينة التى ظلت على قيد البقاء كمدينة وحاضرة كبرى فى العصور الرومانية ،[(٧٤)] وهو يُسلك فى الخدمة ، على سبيل الخطأ ، الرقعة المجاورة التى تغص بالمستنقعات « بحيرة البوص »« بحر البوص»[(٧٥)] ، وهو مشهد العبور الخوارقى (= الإعجازى) لـ « إسرائيل » إلى بر الأمان . والدرب الذى يألفه هو الدرب الذى يعبر نفس الرقعة كقناة « نيخو » Necho (٦١٠ - ٥٩٤ ق . م.) من « بوباسطة » إلى « البحيرات المرة » ، ثم ينتقل شمالاً بعين ذهنه عبر الحصن الشهير فى « مجدول » إلى بحيرة « سيربونيس » (= بعل سافون) Ba'al Saphon حيث سبق لـ « حورس » أن طرد « ست » إلى خارج مصر ، وباختصار ، بخصوص جغرافية « الخروج » ،لم يكن المصنِّف (= الكاتب) - الذى جاء عقب « النفى البابلى » - لنسخة « التوراة » المتوافرة بين أيدينا حالياً ليعرف شيئاً حقيقياً من تفاصيل العصور القديمة . ولقد وجد نفسه مضطراً إلى أن يستوفيها من مصر التى يعرفها فى عصره ، ومما ينطوى ربما على مغزى بارز أنه ذكر أماكن عديدة ، مما كان الآسيويون ، وخصوصا المرتزقة من اليهود يقيمون فيها خلال القرنين السادس والخامس ق .م.[(٧٦)] .

وعندما نتحرك بعيداً عن أسماء الأماكن ، نجد أن الأصل المصرى لتفاصيل محددة وحتى الموضع المصرى للحكاية قد دخل نطاق الإبهام والغموض فى حقيقة الأمر . حقًا يذكر المؤلف النيل والحياة النباتية على ضفافه ، بالإضافة إلى استخدام الطوب المصنوع من الطين فى البناء (خصوصاً وأن ذلك كان شائعًا فى الدلتا) كما يبدو أن آفات معينة (كالضفادع والناموس (= البعوض) والذباب) مناسبة للبيئة النيلية ، وتقوم شواهد كذلك ، على معرفة المؤلف بالسنة الزراعية فى وادى النيل كما يتضح من الإصحاح التاسع ، الآيتان : ٩ : ٣١ - ٣٢) . لكننا إذا صرفنا النظر عن هذه الملامح ، وهى قليلة كما هو واضح ، من الحبكة ، فإن القصة يمكن أن تحدث فى أى مكان آخر .

يشحذ إمعان النظر فى حكايتى « العبودية » و« الخروج » الخيال فى سبيل استنباط خلفية مصرية ، ولكن التفاصيل التالية يمكن التغاضى عنها فى العرض . فاللقب « فرعون » كلى الحضور (= موجود فى كافة ثنايا الحكاية على وجه التقريب) ويستخدم بمعناه الذى كان يستخدم به فى الألف الأول ق. م كمرادف لكلمة « ملك » ، أو حتى يسىء المؤلف فهمه كى يستخدمه كاسم لشخص (= اسم علم) (قارن « الخروج « ٦ : ٢٩)[٧٧] وولادة « موسى » وتهريبه فى سلة من السمار شبهها كثيرون بالمصير الذى لاقاه « حورس » فى الروايات المتأخرة للأسطورة ،[٧٨] ولكن « ولادة البطل » تتمتع برواج أوسع كثيراً فى العصور القديمة ، وليست مصرية فى أصلها .[٧٩] أما العصا التى تتحول إلى حيَّة تسعى (« الخروج » ٤ : ٢ - ٤ ، ٧ : ١٠ -١٢) تعيد إلى الأذهان « الموديل » (= النموذج) المصنوع من الشمع الذى يتحول إلى تمساح حى بمجرد الإمساك به ، [٨٠] والسحرة الذين يستطيعون محاكاة هذه الحيلة يشتقون تسميتهم من كلمة مستعارة من اللغة المصرية.[٨١] وإذا صرفنا النظر عن الغموض الذى يكتنف تعيين بعض اللعنات ، فإن هذه « اللعنات العشر » لاتختص بها البيئة المصرية.[٨٢] دون سواها . ومع أن الطاعون والطوفان كانا معروفين تماماً فى مصر القديمة ، إلا أن « موتيف » تحويل ماء النهر إلى دم (٧ : ٢٠ -٢٤) معروف من « ميزوبوتاميا » (= بلاد الرافدين) ، وكذلك الذباب على وجه الاحتمال .[٨٣] أما « الظلام » (١٠ : ٢١ - ٢٣) فكان المصريون يخشونه بكل تأكيد ، وكان عدم شروق الشمس يعنى الدخول فى حالة من القنوط [٨٤] ولكن الأمر معه لا يصل إلى حد تأويله إلى لعنة من اللعنات . وذبح الابن البكر قد يجد ، فى الحقيقة، ما يوازيه أحياناً فى أساطير مصر القديمة (وإن لم يكن على نطاق واسع) ، ولقد لفت البعض النظر ، فيما يتعلق بطبع الكفوف الملطخة بالدم على سجف الأبواب (١٢:٢٢) [٨٥] إلى الاستخدام السحرى للون الأحمر فى طرد الأرواح الشريرة apotropaic بين المصريين . وتعيد إمكانية جرح مشاعر المصريين عن طريق تقريب أضاحى من حيوانات يعتبرونها إلى هذا الحد أو ذلك محرمة (= تابو) ، إلى الأذهان ، تلك التقوى التى ارتبطت بتقديس شامل للحيوانات فى الفترة المتأخرة والاشمئزاز الذى نجم عن ذلك التقديس ، تجاه قتلها حتى بالخطأ [٨٦] ويعيد « عامود النار » إلى الذهن ، على

نحو لافت للنظر ، صورة مجازية كانت شائعة فى الرطانة البلاغية التى تصف فرعون مصر خلال قيادته لقواته فى خضم المعارك كـ « قرص شمس (أو أى شعلة متوهجة أخرى) على رأس جيشه »[٨٧] وأخيراً نأتى إلى طى مياه البحر كى نصل إلى القاع الجاف وإطلاق الفيضان كى يغرق الأعداء ، فهذه « الموتيفات » معروفة فى الفولكلور المصرى .[٨٨]

ليس فى كل ذلك ما يوحى بمعرفة وثيقة بمصر . ولكننا نستطيع تفسيره بأنه نزوع نحو « نزع الطابع الأسطورى » ، أو حتى نوع من « التأويل العبرانى » Interpretatio Hebraica لأساطير وسمات ثقافية معينة ، وهو النزوع الذى انغمس فيه الإسرائيليون الدخلاء الذين كانوا يعيشون بين المصريين ، أو على مقربة منهم بما لا يسمح لهم إلا بمعرفة محدودة ومشوشة بتقاليد مضيفيهم وعاداتهم .

مع تأخر القصة فى سفر « الخروج » زمنيًا وفقدانها لأى درجة من الوثوق بها وخذلانها لكل محاولة للاعتماد عليها ، فإن ما من أحد يستطيع نكران أن التقاليد التى تقول بخروج إسرائيل من مصر كانت قائمة لمدة طويلة . فنقابل هذه التقاليد فى الشعر المبكر (الإصحاح الخامس عشر من سفر « الخروج » على سبيل المثال) ويشير إليها بصفة مستمرة الأنبياء.[٨٩] ولا يستطيع المرء إلا أن يخلص إلى وجود ذكريات قديمة ومتواصلة حول نزول طوعى إلى مصر قام به الرعاة ، وقد لعب أحدهم ويسمى « يعقوب » ، وهو الشخصية التى اكتسبت فى وقت لاحق صيتًا عريضًا كأحد الآباء ، (= الأسلاف) دوراً قيادياً . وتمضى التقاليد كى تبلور الأمر فتقول إن أولئك الذين قاموا بذلك النزول إلى مصر لم يغتنوا ويتكاثروا ، وحسب ، بل وحازوا أيضًا نفوذاً واسعًا طوال أربعة أجيال فى مصر . وبالتالى نشأت كراهية عميقة من جانب أهل البلاد الأصليين تجاه هؤلاء الآسيويين الدخلاء الطفيليين ، الذين أجبروا على الانسحاب إلى الساحل المشرقى الذى جاءوا منه .

هناك سلسلة واحدة من الأحداث التاريخية التى تستطيع أن تتلاءم مع هذه التقاليد المتأخرة ، وهى نزول « الهكسوس » فى مصر واحتلالهم لها (انظر الفصل

الخامس) . فذكريات هذا الحدث الضخم فى تاريخ المشرق لم تستمر على قيد البقاء فى المصادر المصرية وحسب . وكان ليكون غريبًا فى حقيقة الأمر لو أن سكان فلسطين الناطقين باللغة السامية ، حيث خرج « الهكسوس » ، كما نستدل من حفائر حقبه MB IIB ، ألاّ يحتفظوا هم أيضًا فى ذكرياتهم الفولكلورية بتلك اللحظة من لحظات المجد (وهو مجدهم) . وحقيقة الأمر أننا فى قصة « الخروج » نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام الرواية « الكنعانية » لهذا الحدث الضخم ، حيث تصوَّر أحد الآباء : القائد الكبير « يعقوب » ومدة النزول التى دامت أربعة أجيال وذكرى السيادة السياسية واحتلال المشارف الشرقية للدلتا وهكذا . فلقد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من القصص التى تدور حول أصول كل الجيوب السامية فى المنطقة ، ومن هناك امتدت شمالاً وغربًا حتى شاعت بين غير الساميين أنفسهم .

لما كنا لا نملك شيئًا على وجه التقريب من شواهد نصوصية على فولكلور الكنعايين فى المشرق ، فإنه يصعب علينا أن نعثر على آثار لتقاليد « خروج » بعيدًا عن الرواية العبرانية . ولكن مثل هذه الآثار موجودة فى حقيقة الأمر . فـ « سترابو » (مؤرخ وجغرافى يونانى لم يصل إلينا من كتبه سوى « جغرافيا » ولد ٢٣/ ٤ ق.م. ورحل ٢٣ بعد الميلاد على وجه التقريب . المترجم) يحتفظ لنا بذكرى جيش غرق فى البحر على الشاطىء الفلسطينى شمالى « إكر » Acre (مدينة ساحلية تقع عند الطرف الشمالى لخليج « حيفا » وتكتب أيضا Akko) وكان على علم بظواهر مماثلة عند جبل كاسيوس Mount Casius « قرب مصر »[٩٠] وتذهب أساطير آسيا إلى أن جاليات معينة تعيش فى آسيا وعلى وجه الخصوص فى « ميزوبوتاميا » يرجع أصلها إلى مصر،[٩١] وفى العصور الرومانية الأولى كان من المعتقد أن سكان فلسطين قد انبثقوا من قبائل « مصرية وعربية فينيقية »[٩٢] .

ولكن أفضل ذكريات محفوظة خارج نطاق « التوراة » بشأن النزول و « الخروج » تتمثل فى تلك التى حفظتها لنا أسطورة « فينيقية » ، لا تزال موجودة حتى اليوم فى المصادر الكلاسيكية.[٩٣] فمنذ القرن الخامس ق.م. على الأقل وربما أقدم من ذلك – كانت التفاصيل شائعة بالفعل فى كتابات « هيرودوت » – تتذكر التجمعات المشرقية

نزول فتـاة تدعى « يو » Io وزواجـها من الملك الحـاكم وتسجل قـوائم أحفـادها ابنـها « إبافوس » Epafos (أى « أبو فيس ») . ولقد حكم نسل « يو » مصر لمدة أربعة أجيال ، وبعد ذلك انسحب حفيدها البعيد « أجينور » Agenor إلى « فينيقيا » حيث أصبح ملكًا عظيمًا ، ورحل أخوه « بيلوس » (= بعل) إلى « ميزوبوتاميا (= بلاد الرافدين) وقد فر « داناوس » بن « بيلوس » إلى « أرجوس » عقب مشاحنة مع أخيه « إيجبيتوس »[٩٤] ومع ذلك ترتبط كل من المستـوطنة الأصليـة والأخيـرة فى إطار العناصـر الرئيـسيـة للحـركة بـ « فينـيقيا » : يقال إن شقـيق « إبافـوس » هـو « فونيكـس » Phoenix و « إبافـوس » نفسه نجده فى مرحلة من مراحل سيرته الحياتية مقيمًا فى « بيبلوس »، بينمـا « كادمـوس » Kadmòs بن « أجـينور » يقـود ، بالاتفـاق مع « داناوس » الأجـانب المطرودين من مصر.[٩٥]

موجز القول ، بالتالى ، قد نقرر أن ذكرى طرد « الهكسوس » تعيش فى حقيقة الأمـر فى فولكلور السكان الكنعانيين فى جنوب المشـرق . إلاّ أن التـفاصـيل الدقـيقـة تعرضت للتشوش والتعديل بمرور الوقت فى سبيل « حفظ ماء الوجه » . ولم يعد الأمر أمـر غـزو بل نزول سلمـى لمجـموعة يحمل أعضاؤها خلفيات رعوية ، إلاّ أنهم سرعان ما وصلوا إلى مركز السيطرة السياسية.[٩٦] ولم يأت رحيلهم عن مصر نتيجة لهزيمة مخزية تجرعوها حتى آخرها ، ولكن إما طوعًا أو هربًا من عداء مستحكم أو عودًا على بدء كخلاص من أسر العبودية . ألسنا محقين إذا ارتأينا عقبة مستعصية فى التنافر بين تقـاليد العـبودية التى يقـول بهـا سـفـر « الخـروج » ١ : ١١ - ١٤ وبين الحـقـيـقـة التاريخية التى تتمثل فى طرد « الهكسوس » : الكاتب التوراتى دمج هنا خرافة أخرى من نسج الخيال ، ينبغى له فى الحقيقة أن يشكر مصر عليها .

خلال الفترتين الصاوية والفارسيـة أخذ نوعان من القصص الشعبى شكليهما وكلاهما تفوح منه رائحة النعرة الوطنية المفرطة . أول هذين النوعين وجد حبكته فى غزو مصـر من جهة الشمال وما استتبع ذلك من التدمير الذى أنزله الاحتلال الأجنبى بمصـر وطرد القـوات المصرية القـادمة من جنوب البـلاد للغـزاة الأجـانب . أمـا النوع

الثانى من هذا القصص الشعبى فركز على « الغزو » الذى قامت به الشعوب الموبوءة أو المجزومة (= المصابة بمرض الجزام) (عادة ما يكونون أجانب) والخطوات التى اتخذت فى سبيل تخليص مصر من رزاياهم . ويحتاج الأمر إلى كثير من الفطنة كى نتحقق أن النوع الأول انطوى على « موتيف » متكرر فى التاريخ المصرى - « طيبة » الجنوبية حاولت ثلاث مرات أن تقوم مقام رأس حربة فى حروب تحرير ضد الشمال (الخاضع للحكم الأجنبى) - ولكن فى إطار الصياغة الحالية ، تعزو القصة الأمر بصورة أكبر للحمية القومية التى اتقدت نتيجة للغزوات المدمرة (أو محاولات الغزو) التى قامت بها الدول الآشورية والبابلية الجديدة والفارسية ، اعتباراً من ٦٧١ إلى ٥٢٥ ق . م. غير أن النوع الثانى من القصص ، من جانب آخر ، يضرب جذوراً أعمق ، مع أنه أخذ شكله هو الآخر ، وصار مناسباً لمقتضى الحال خلال انتشار الجيوب الأجنبية فى كل مكان فى مصر من العصور الصاوية فصاعداً . وعلى نحو ما تعرفها خلال العصر الهيلينى - لم تنج من عوادى الدهر نماذج أقدم زمنًا - فهى نماذج تكشف أن النوعين من العقدة كليهما يستطيعان أن يندمجا فى حكاية واحدة ، مع أن كليهما ظلا قادرين فى نفس الوقت على أن يردا منفصلين .[٩٧] وبكل تأكيد تحمل أقدم القصص التى وصلت بكل تفاصيلها إلى أيدينا - (« هيكاتايوس » الأبديرى) Hecataeus of Abdera تقدم دليلاً أقدم ولو أنه غير كامل - أى السرد الوارد عند « مانيتون » فى تاريخه المعنون « إيجيبتياكا » Aegyptiaca (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.)[٩٨] ولقد جاء « الهيكل العظمى » للسرد الذى يورده « مانيتون» على هذا النحو :

(أ) ١ - الفرعون (أمين - حوتب / حور) يرغب فى رؤية الآلهة .

٢ - ابن الفرعون (أمين - حوتب) « بابيس » الرائى يعلن أن الفرعون يستطيع أن يحقق رغبته إذا طهر البلاد من مرضى الجذام .

٣ - الفرعون يرسل كل المجزومين إلى المحاجر شرقى النيل .

٤ - « أمين - حوتب » الرائى يتنبأ بوقوع غزو لمدة ١٣ سنة .

٥ - « أمين - حوتب » ينتحر .

٦ – المجزومون يطلبون السماح لهم بالإقامة فى « أباريس » (= أواريس)

٧ – فى « أباريس » يختار المجزومون » أو سارسيف » **Osarsiph** كاهن « أون » (= هيليوبوليس) قائداً لهم .

٨ – « أوسارسيف » يسن قوانين تستند للوحدانية وأخرى تقوم على التمييز العنصرى .

٩ – « أوسارسيف » يدعو الرعاة كى يعودوا إلى « أباريس » .

١٠ – الرعاة يعودون .

١١ – الفرعون يخبئ الصور والتماثيل ويرسل ابنه الذى لم يكن قد تجاوز خمس سنوات إلى مكان آمن .

١٢ – الفرعون يرفض محاربة الرعاة وينسحب إلى إثيوبيا .

١٣ – الرعاة يسلمون مصر إلى الخراب .

١٤ – تكرار اسم « أوسارسيف » **PN Osarsiph** وتعيين شخصيته بصفته موسى .

١٥ – « أمين – حوتب » وابنه « رابساسيس » يطردون الرعاة .

لعله من الواضح أن الأرقام من ١٠ –١٣ مع إضافة ١٥ ليست سوى تنويع على « تيمة » (الغزو – من – الشمال) . والحقيقة أن تفاصيل رقمى ١٢ و ١٣ إنما تشير بشكل مباشر إلى استلهام المنظور الشعبى للأحداث فى القرنين السابع والسادس . والمعروف أن كلاً من « طاهركا » و« تانوتامان » لجأ إلى انسحاب متسرع من « منف » إلى النوبة ، إحجامًا منهما عن الاشتباك مع الآشوريين فى ميدان القتال . أما فى ذبح الحيوانات المقدسة فكان الرعاة هنا يحاكون الأعمال التى ذاعت عن الفرس [٩٩]

ولكن البنود من ١ – ٨ [١٠٠] بالإضافة إلى بند ١٥ ، متى حملناه محملاً آخر ، تشكل حكايتنا عن المدنّسين ، وهنا نستطيع أن نستنبط الحقيقة التاريخية الكامنة

بسهولة . فـ « أمون – حوتب » الفرعون (أو « حور » وهذه عبارة عن كنية ليس إلاّ)
فهو « أمين – حوتب » الثالث ورغبته فى رؤية الآلهة ليست سوى تفسير شعبى
(= فولكلورى) لبعض الفقرات الواردة فى نقوشه .[١٠١] أما « أمين – حوتب » الثالث
فى الأسرة الثامنة عشرة فلقد كسب شهرة واسعة لحكمته خلال حياته وظل يبجَّل لمدة
تزيد على خمسة عشر قرنًا بصفته « نصف إله » يشفى من الأمراض .[١٠٢] وإرسال
المدنّسين إلى المحاجر شرقى نهر النيل تفسير تسويغى لحَمى التحجير والتشييد التى
اجتاحت عهدى « أمين – حوتب » الثالث و« أمون – حوتب » الرابع (= أخناتون) ،
التى لا تزال سجلاتها النصوصية قائمة بارزة للعيان لكل من يملك عينين . ولقد نُقشت
صوادير / ألواح لتخليد ذكرى أعمال التحجير فى « طرة » قبال « منف » على
الضفة الشرقية لنهر النيل فى مصر الوسطى تحت ظل حكم الفرعون « أمين –
حوتب » الثالث،[١٠٣] كما يعد صادور / لوح الذى أُقيم عند « جبل السلسلة » أبرز
نُصب فى الموقع بأسره .[١٠٤] ويشير نص الصادور / اللوح الأخير إلى ضخامة
العملية بما لا يجعلها تختلف كثيراً عن عملية تطويق المجزومين التى يحكى عنها « أمين
– حوتب » بن « بابيس » : المناسبة الأولى التى أصدر فيها جلالته أمرًا .. ببدء كافة
الأعمال من جزيرة « إليفانتين » جنوبًا حتى « سام – بحدت » شمالاً ،[١٠٥] وإلى قادة
الجيش بتجنيد عمال سخرة عديدين لقطع أحجار الحجر الرملى لبناء « بنبين »
(أبرز رمز من رموز العقيدة الشمسية ويأخذ دائمًا شكلاً هرميًا . المترجم) ضخم
للإله « رع – حور – أختى » ... والتزم الإمراء ورجال البلاط والمشرفون والمديرون
بنقل الأحجار » ولقد ارتبط استخدام المصطلح اليونانى « المجزوم و« المدنَّس »
بما يوحى بالازدراء فى الأصل المصرى القديم (وتحديداً الديموطيقى) وفى العادة
بالعناصر غير المرغوب فيها وغير المقبولة اجتماعيًا سواء أكانت مصرية
أو أجنبية . وفى حالتنا الراهنة يبدو واضحًا أن أتباع « أخناتون » هم الحقيقة
التاريخية الكامنة وراء « المجزومين » ، ومما يؤكد ذلك الطبيعة المناهضة للصور
والتماثيل لتشريع المجزومين ، ورقم ١٣ للاحتلال ، وهو الرقم الذى يوازى فترة
إقامة « أخناتون » فى « أخيتاتون » (= العمارنة).[١٠٦] زد على ذلك أن سرد « مانيتون »
يذكر لـ « أوسارسيف » أنه كان كاهن « أون » (= هيليوبوليس) حيث كانت عبادة

الشمس متوطنة ، أما الاسم : « أوسارسيف » فلربما يمكننا تفسيره باعتباره اسم الازدراء الذى أطلقته التقاليد اللاحقة على « أخناتون ».[١٠٧]

من كل ما أوردناه حتى هذه النقطة يتضح أن النصف الأول من التقاليد التى ذكرها « مانيتون » حول « أوسارسيف » (النموذج – أ) ينحدر من حكاية تسويفية تتصل بصلة قوية بفترة « أخيتاتون » (= العمارنة) فى تاريخ مصر . والقصة الأصلية تختتم ، على وجه الاحتمال ، بفرعونى الأسرة التاسعة عشرة « سيتى » الأول وابنه « رمسيس » الثانى ، اللذين وضعا فى نهاية المطاف نهاية لفترة « أخيتاتون » (= العمارنة) التى قامت كفترة فاصلة ، وبالتالى تتفق مع قائمة الملوك المنقحة للعصور المتأخرة للرعامسة ، وهى القائمة التى تُحذف فيها أربع فترات حكم (هى فترات حكم كل من « أخناتون » و « سمنخ – كا – رع » و « توت – عنخ – آمون » و « آى » . المترجم) كى تُضاف سنواتها إلى الفرعون « حور – إم – حب » ، بحيث تلى الأسرة التاسعة عشرة حكم الفرعون « أمين – حوتب » الثالث مباشرة . وبذلك فإن النموذج – أ يكون قد انبثق ، على وجه الاحتمال ، قرب نهاية المملكة الحديثة ، كما تحكى أساطير عديدة عن ملوك أجلاء ينتمون للأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة،[١٠٨] ، ولكن يبدو أن هذا النموذج لابد أن يكون قد وصل إلى أيدى «مانيتون » فى رواية ديموطيقية من العصر الصاوى أو العصر الفارسى .

إلاّ أن مصير الضحايا فى أسطورة « أوسارسيف » يختلف عن المصير الذى انتهى إليه الهكسوس . فهؤلاء طردوا فى خضم حرب تحرير ، بينما دخل المجزومون فى أسر العبودية . ومن أسطورة « أوسارسيف » هذه أو من نموذجها الأوّلى انبثقت تقاليد « العبودية » التى رواها سفر « الخروج » . وفى سبيل حجة معقولة بأن وجهة الاعتماد ربما تكون قد عكست رأساً على عقب نستطيع أن نسوق هذا الدفع القانونى المفحم : إسناد العمل فى المحاجر والبناء بالأحجار الثقيلة للأسرى تقوم عليه أدلة أحسن من العمل فى ضرب الطوب الأخضر (= غير المحروق) فى مصر ،[١٠٩] وبالتالى يكون مناسبًا أكثر فى حكاية تدور أحداثها فى مصر . فاستخدام الطوب الأخضر ، بطبيعة الحال ، منتشر فى كل مكان فى مصر ، وعلى وجه الخصوص ، فى

الدلتا ، ولكن « مدن – التشوين » ظاهرة آسيوية ، وضرب الطوب كعمل مناسب لجالية مأسورة ترسف فى قيود العبودية معروف على نطاق واسع فى الإمبراطورية الآشورية الجديدة .(١١٠)

وإذا كان المرء عاجزًا عن مقاومة الدافع إلى قراءة النصوص المقدسة ، دون أى نقد ، بصفتها تاريخًا ، فإن كتل المواد التى تصف حياتىّ وسيرتىّ « موسى » و« يوسف » تغص بالفخ إثر الفخ . وذلك لأن « الكتاب المقدس » بأسره لا يعرف شخصيات أكثر إلغازًا أو أدعى للحيرة . فـ« موسى » ، فى الشكل النهائى الذى أعطاه المحرر – الكاهن للأسفار الخمسة ، مرتبط بالتقاليد الأربعة الكبرى : « الخروج » نفسه والتشريع على جبل سيناء(١١١) والتيه فى البرية والمراحل الأولى من الغزو (= غزو « كنعان »)(١١٢) والسؤال الذى يقول : إلى أى تقليد من هذه التقاليد انتمى « موسى » ، إذا كان قد انتمى إلى أى منها أصلاً ،(١١٣) هو سؤال ظل يحاصر البحث العلمى طوال عقود طويلة . ولعله من المغرى أن يحتج المرء بأن التشريع وعرف « الفصح » وما يرتبط بذلك من أعياد زراعية لا تتصل من قريب أو من بعيد بـ« الخروج » ، وينبغى حذفها من القائمة السابقة .(١١٤) ونفى الأنبياء الكامل لأن تكون إسرائيل قد امتلكت فى البرية قوانين دينية محكمة ، وهو ما ينسب الآن للوساطة التى قام بها « موسى » فى كل من « الخروج » و« اللاويين » لا يمكن أن يكتسب معنى إلاّ إذا كان ذلك رأيًا مقبولاً من الجميع وقت ذاك .(١١٥) ومعنى القول أن « موسى » ، إذن ، لم يصبح « مشرعًا » كبيرًا إلاّ بعد « النفى » . من جانب آخر ، ارتباط « موسى » نوعًا ما بصياغة عهد « يهوه » ، بصفته « نبيًا » ، قد يؤدى إلى تمتعه بجذور أعمق فى التقاليد الإسرائيلية .(١١٦) وهذا لا يعنى أننا نقول إن ذلك هو الأصل التاريخى لـ« موسى » ، ولكنه كان يؤدى دورًا شبه كهنوتى كإحدى وظائفه فى تلك التقاليد .

يستولى ارتباط التقاليد الموسوية بمصر على صدارة عالية فى أذهان العوام والعلماء على حد سواء.(١١٧) إلاّ أن مثل هذا الاعتقاد لا يستطيع أن يتطلع إلى منشأ الرواية طلبًا للتأييد ، ذلك لأن « موتيف » الطفل الذى تكتنفه المخاطر لا يتصل ، البتة ،

على نحو أصيل بمصر . ولا يستطيع المرء أن يؤسس هذا الارتباط على مواجهة « موسى » مع « الفرعون » ، طالما أن ذلك سوف يبدو وكأنه فُرض فى وقت لاحق على تقاليد أسبق زمنًا كان الزعماء الإسرائيليون يتفاوضون فيها بشكل مباشر مع فرعون مصر.(١١٨) ومع ذلك ، لطالما قيل إن اسم « موسى » PN Moses (بالعبرى : موشيه) يتمتع بأوراق اعتماد رائعة كاسم مصرى ، والحقيقة أن هذا صحيح . فاللاحقة التى تدخل على الفعل – موسى وتظهر فى أسماء معروفة على نطاق واسع مثل « تحوت – موسى » و « أمين – موسى » و « بتاح – موسى » كانت تنطق خلال المملكة الحديثة – ماسى ، وفى الألف الأول – موسى . وعلاوة على ذلك ، بينما لا يتحجر النطق ، بل يواكب الزمن ، فإن حرف الصفير الذى يُرسم به الاسم فى اللغة العبرية يعنى أن الاسم لابد وأن يكون قد دخل هذه اللغة قبل القرن الثامن ق . م . وربما حتى فى أواخر المملكة الحديثة نفسها .(١١٩)

وكون « موسى » كان فى الأصل شخصية « كهنوتية » ذات اتصالات مدْيانية Midianite ويرتبط بمركز عبادة قديم للقبائل الإسرائيلية المبكرة فى « كادش » أمر أصبح فى الآونة الأخيرة شائعًا وألا يقدم الوجود فى بلاد « سعير » المجاورة التى تقطنها قبيلة من قبائل الـ « شاسو » تحمل الحروف الأربعة المقدسة Tetragrammaton (حروف « اليود » و « الهى » و « الواو » و « الهى » فى اللغة العبرى أى « يهوه » وأقدم نص ظهرت مجتمعة هكذا فيه هو لفائف البحر الميت التى يصل عمرها إلى ألفىْ سنة) كاسم لها ، تأييداً لمثل هذاالاقتراح؟ .(١٢٠)

يصعب فى ظل الوضع الراهن من معارفنا أن ننتهى إلى قرار فى هذا الشأن . ولكن المرء لا يستطيع أن يتحرر من الجزع الذى ينتابه عندما يتحقق من أن قصتنا المطولة والمفصلة عن « موسى » ، بكافة الأدوار التى قام بها ، متأخرة سواء أكانت قد صُنّفت فى زمن « النفى » أو بعده ، وأنه ، رغم أن شخصية مثل هذا الزعيم الطاغى السحر قد يكون محور أسطورة تعود إلى عهود أقدم كثيراً ، إلا أن هذه المرحلة الأسبق زمنًا من صياغة التقاليد ، عبارة عن رسالة لم تصل إلى وجهتها ، بالنسبة لنا . وعلاوة على ذلك لا يستطيع المرء إلا أن يشعر فى مجمل التقاليد الموسوية ، كما

هى بين أيدينا الآن ، بأنها عنصر شائع ، وحيوى ولا ينتج عنه سوى انطباع عام . فمنذ البداية يقدم رفض « موسى » من جانب شعبه توترًا يتخلل مجمل السرد ، أما بطء فهمه وعقدة لسانه فيجعلانه عديم القيمة من الناحية الفعلية لإلهه . وبالإضافة إلى ذلك ممتلئ شكًا فى قدرته وأحيانًا فى إلهه هو الآخر . إلاّ أن كل ذلك إنما يشكّل ستارة خلفية قد تنعكس عليها قدرة « يهوه » بأبعاد أكبر . وكل ذلك قد يكون ممتعًا بدرجة عالية ، لكنه ينتمى إلى الحيل الفنية وليس تاريخًا . كما يلعب المؤلف فى المقام الثانى على تقاليد موسوية أولية لا يسمح لنا بمرآها . فالغالبية الساحقة من « الحقائق » التى يعطيها لنا الآن عن « موسى » متأخرة بصورة واضحة لا لبس فيها ، وعديمة القيمة ، بالتالى ، فيما يتعلق بمهمة الكشف عن الأساس التاريخى لـ « البطل » القديم .

ويتمثل سبب آخر للجزع فى الشك فى أنه حتى التحرير الكهنوتى الحالى لقصة « موسى » ليس مصدرًا أوليًا ، ولكنه يخفى ويحذف تفاصيل معينة كانت معروفة على نطاق واسع فى ذلك الوقت . فالدفن فى جبل « نيبو » Mount Nebo (سفر « تثنية الإشتراع » ٣٤ : ١ - ٦) والتلميح إلى أصل لـ « موسى » فى كهنوت قبيلة « دان » ليستا سوى إشارتين عابرتين إلى قصتين مفقودتين الآن . فإلى أى حد كانت هاتان القصتان لتنقلا ، لو لم تضيعا ، مركز بحثنا عن « موسى » التاريخى إلى الضفة الغربية ووادى نهر الأردن ؟ يعتقد البعض أنه من بين جميع القبائل الإسرائيلية ، لا تكشف سوى قبيلة « لاوى » (= ليفى) عن أسماء مصرية فى سلسلة أسماء الأعلام (= الأشخاص والأماكن غير العمومية . المترجم) الخاصة بهذه القبيلة ، ولكن هذا الأمر مضلل نوعًا ما . فبصرف النظر عن « موسى » ، فإن الاسمين الوحيدين اللذين يرجعان ، بصفة يقينية ، إلى أصل مصرى هما « حفنى » (= نسبة إلى « حفن ») وفنحاس (= « بانحسى » أى « الجنوبى » بالمصرى . المترجم) ، وعود على بدء ، نجد أنفسنا فى بيئة معينة فى « شيلوه » ،[١٢١] مع كهنوت يقول بصريح العبارة إنها تعود إلى زواج « موسى » فى سفر « صاموئيل » الأول ٣ : ٢٧ - ٢٨) . مرة أخرى : تعد الإشارة الموجزة إلى زواج « موسى » فى سفر « العدد » ١٢ : ١ (ويأتى عقب ذلك مباشرة تأكيد المؤلف أن هذا الزواج قد انعقد فعلاً) زلة غير مقصودة ، تدلنا على

وجود حادثة فى وقت ما ولكنها غدت مفقودة الآن . ويفترض كثيرون فى العادة أن هذا السفر يعد المصدر النهائى لكثير من الأبحاث المدراشية tangential midrash حول السيرة المبكرة لـ « موسى » التى يجدها المرء فى « اليودايكا » Judaica (= الموسوعة اليهودية) التى ترجع إلى الفترة الواقعة بين العهدين القديم والجديد[١٢٢] ومع ذلك ألا يجوز أن يكون هذا إشارة إلى حكاية سابقة الوجود تربط بين « موسى » وبين « كوش » ؟ وعلى وجه الخصوص ، ظن كثيرون أن « أرتابان » Artapan احتفظ بتقاليد أصيلة خارج نطاق « التوراة » ، مع أن الصحيح تماماً أن معظم أعماله تأخذ شكل تفنيد ضمنى لكتابات المؤرخ المصرى " مانيتون "[١٢٣] وعلى وجه الخصوص القصة التى يرويها حول غزو الكوشيين والحصار الصارم الذى فرضوه على الأشمونين « (= هيرموبوليس) ، وشارك فيه " موسى " ،[١٢٤] فهى عبارة عن استرجاع واضح لذكرى الغزو الذى قام به " بى - عنخى " حوالى سنة ٧١٧ ق.م.[١٢٥] وهناك أيضاً توازيات بين " موسى " و " تف - ناختى " الصاوى (نسبة إلى " صايس ") (نحو ٧٢٤-٧١٧ ق.م.) : فكلاهما نظما الشعب فى الدلتا ضد الاضطهاد ، وكلاهما قادا الجيوش ضد شبه جزيرة العرب حيث أثبت سكانها أنهم أصلب عوداً .[١٢٦]

ما الذى حدث حقيقة فى « الخروج » ؟

لعله من السخف أن نحاول الإجابة على هذا السؤال ، ولكن يبدو أن من الضرورى طرحه . فإلى هذه النقطة أسست المناقشة لهذا السيناريو : تذكر المصريون احتلال الهكسوس وطردهم من البلاد بصورة دقيقة إلى حد كبير فى تقاليد قائمة الملوك ، مع أن الذاكرة الشعبية خلال الفولكلور مالت إلى الخلط بين أحداث سقوط " أباريس " (= " أواريس ") وبين حصار " مجدو " .[١٢٧] وفى " كنعان " استمرت الذاكرة الشعبية أيضاً تتذكر هذه الأحداث ، ولكن هنا لم توجد رواية محددة أو قائمة ملوك كى تلجم الخيال . فالذاكرة تركز على قرن من الاحتلال ، وهى الفترة التى ترجمت إلى مدة أربعة أجيال ، بأسماء القادة (الآسيويين) الأجلاء : " شيشى " و " يعقوب " و " يو " و " أبوفيس " ، والبغض المتبادل بين المصريين والآسيويين ، وانسحاب الهكسوس إلى فلسطين ، والنكبة التى صاحبت هذا الانسحاب .

قد يستطيع المرء أن يتوقف قليلاً أمام هذه النقطة الأخيرة . إذ تخبرنا المصادر المعاصرة لطرد الهكسوس بوقوع اضطرابات جوية لافتة للنظر وغريبية على وادى النيل ، مع أنها ليست مجهولة بشكل كامل هناك . وتسجل قصاصة اليوميات المحفوظة الآن على ظهر (بردية " رند " الرياضية)[١٢٨] الأحداث الأخيرة التى قادت إلى سقوط " أباريس " (= أواريس) على هذا النحو :

" فى السنة الحادية عشرة الشهر العاشر - واحد [١٢٩] دخل " أون " (= هيليوبوليس) ، الشهر الأول ، اليوم الثالث والعشرون - فحل الجنوب ؟ شق طريقة شمالاً حتى بلغ " تارو " [١٣٠] ، اليوم العشرون (+x) - وتردد أن " تارو " اقتحمت > ؛ السنة الحادية عشرة ، الشهر الأول (ميلاد " ست ") [١٣١] - أمطرت السماء "

قد نستطيع أن نماثل بين هذه العاصفة المطيرة وبين السيل الذى انهمر كى ينزل دماراً شديداً ويجرى تسجيله على صادود / لوح الفرعون " أحموسى " إلى جانب الإجراءات التى اتخذها الفرعون كى يخفف البلاء الناتج الذى لحق بالأهالى :

قذفت السماء بوابل من المطر ، وغطى الظلام الآفاق الغربية بينما كانت العاصفة على هبوبها دون توقف ... وتفجر المطر عن رعود (؟) على قمم الجبال أعلى من ضجيج " الكهف " الكائن فى : أبيدوس " ، ثم اكتسح السيل كل بيت وكل جرن كان الأهالى قد لجأوا إليه ، وغمرهم الماء كما يغمر زورقًا من البوص ... ولمدة × أيام لم يسطع شعاع ضوء على الأرضين " [١٣٢]

يبدو لنا أن التشابه الصارخ بين هذه العاصفة - الكارثة وبعض " اللعنات " التقليدية أكبر قليلاً من صدفة . [١٣٣] والتأويل اللاحق من جانب الكنعانيين لمثل هذا الحدث بصفته عقاباً إلهيًا نزل على المصريين فى هذه اللحظة من لحظات انتصارهم لم يكن سوى تأويل طبيعى يحمله الكنعانيون عليه أى على الحدث . ولم تكن هناك إلا خطوة واحدة تلك التى تفصل بين تأويل الكارثة كعقاب نزل بالمصريين لـ (*طردهم للهكسوس*) وبين تفسيره كضغط (إلهى) مورس لـ *إطلاق سراح* " (عبيد ، هم بنو إسرائيل)

هناك أسطورة أخرى أسـهمت فى تشكيل تلك التقـاليد ، وهذه الأسطورة كانت مصرية محلية تتمثل فى إعادة صوغ حادث " أخيتاتون " (= العمارنة) . فهنا نجد أن " القائد المارق " والاستعباد السابق لمجموعة مناهضة للمجتمع يطرحان " تيمتين " دخلتا التقاليد الكنعانية وعدلتاها بصفة جزئية .

منذ الحرب العالمية الثانية " فقست " تلك المحاولة التى تسعى كى " تفسر " خلال ضربة واحدة بعض أو كل الظواهر التى صاحبت " الخروج "عدة نظريات . وهكذا فإن فيضانًا عاليًا بشكل غير عادى نجم عن انهمار أمطار غزيرة فى الحبشة (= إثيوبيا) يُطرح بصفته عاملاً حفازًا هيأ لوقوع سلسلة من الكوارث الطبيعية ، التى انحدرت إلينا فى السرد القصصى كـ " اللعنات العشر " . [(١٣٤)] أو مذنبًا (= جرم سماوى بذيل) اقترب كثيرًا من الكرة الأرضية خلال مروره فى أجواز السماء فلم تنجم عنه تلك " اللعنات " وحسب بل وموجة من موجات الجزر والمد فى البحر الأحمر وثورات بركانية ، وهى التى تقف وراء عامود النار والدخان ، وجبل الإله وتساقط المن فى البرية وربما كل شىء آخر من هذا القبيل تود أن تضيفه مما يكون ذلك المؤلف اللوذعى قد غفل عنه . [(١٣٥)] أو ، عود على بدء ، ثورة بركان جزيرة " ثيرا " (جزيرة يونانية تقع فى بحر " إيجة ") ، وهو الأمر الذى أدى إلى موجة من موجات الجزر والمد اجتاحت وأغرقت جيشًا مصريًا خلال مطاردته لمجموعة من العبيد العبرانيين الهاربين ، ولكنهم أنقذوا من المصير الذى لاقاه الجيش المصرى لأنهم صعدوا ربوة مرتفعة . [(١٣٦)]

ينطوى هذا النهج على العديد من الأخطاء . الأول : فيما يتعلق بأمر الدوافع – وإننى لأعرف جيدًا أن روح الإنصاف تفرض علينا ألاّ نستذنب (= نلصق ذنبًا) الدوافع – يتمثل الهم الأول لأولئك الذين طرحوا مثل هذه النظريات فى تفسير معجزة يسلمون بحدوثها ، دون إخضاع تاريخيتها للفحص الدقيق . وبذلك ينتسبون لملكة الانكباب الغريب الذى عرفه القرن التاسع عشر على توفير تفاسير عقلانية وعلمية لمعجزات السيد المسيح كما وردت فى نصوص الأناجيل التى وصلت إلى أيدينا ، دون إبداء أى شك فى صحة هذه النصوص على نحو ما تسلمناها . الثانى : تروق نظرية

سائدة تركز على وجود عامل رئيسى واحد بصفته مسئولاً عن مجمل الحادث ، لأولئك الذين يبلغ بهم الكسل حد تجاهل أدلة وجيهة تلوح فى أنساق أخرى لا يملكون عليها أى قدر من السيطرة . وهذا أمر يقود إلى اتخاذ موقف منحاز إلى حد خطير : الأدلة التى لا أستطيع السيطرة عليها ليست مهمة ، ولسوف أرفضها ببساطة ، أما المعلومات التى لا تتمشى : مع مسلماتى وفرضياتى المسبقة فإننى أستطيع أن أحرفها وأن أعيد تأويلها مرة أخرى . (١٢٧) وفى الحقيقة الفعلية لم يحدث إلا نادراً تماماً أن منطقة ملغزة فى التاريخ ، انكب عليها العلماء لعدة أجيال وجدت حلاً كاملاً شاملاً بصوة مفاجئة عن طريق حادث فرد ، لم يلاحظه ولم يسجله أحد فى السجلات المعاصرة . فهذا النوع من « افتح يا سمسم » ينضح بالوهم البحت . الثالث : التفسيرات الثلاثة لقصة « الخروج » التى ألمحنا إليها للتو ، تقبل دون أى تشكك ، كنقطة بدء أحدث شكل كتبه الكهنة لرواية « الخروج » . ولم يحدث أن قام أحد بتقييم هذه المصادر قبل الانطلاق منها . ومع ذلك يعتمد « جويدكه » Goedicke فى إعادة بنائه لـ « الخروج » اعتماداً كبيراً على جغرافية « الخروج » ١ – ١٥ ، وهى المعلومات ذاتها غير الجديرة ، بكل وضوح ، بالاعتماد عليها .

ولعل من المفارقات ألاّ تستمر حية « تيمتا » « النزول » و « الخروج » ، وهما «تيمتان » محليتان فى أصلهما البعيد ضمن صميم الذاكرة الشعبية للجيوب الكنعانية فى جنوب المشرق ، ليس فى هذه التقاليد ، ولكن بين مجموعتين بشريتين لم تنخرطا فى الأحداث التاريخية على وجه الإطلاق : اليونانيين والعبرانيين . وفى حالة العبرانيين ، كان « الخروج » جزءاً لايتجزّأ من سلسلة من قصص « الأصول » التى أصبحوا وارثيها غداة استيطانهم للبلاد ، وأخذوا فى انتحالها ، نظراً لفقدانهم لتقاليد خاصة بهم من ثقافة أقدم كانوا يستنسخونها . ولقد تركزت حفنة من هذه الحكايات حول « جد » (= سلف) يدعى « أبرام » استمرت ذكراه تعيش فى منطقة « بير سبع » و « النقب » ، ونشأت حفنة أخرى فى « سيخيم » (= شكيم) فى المرتفعات وتدور حول شخصية زعيم كنعانى يدعى « يعقوب » . ولقد أخذت القصص التى تروى عنهما شكلها فى وقت متأخر كثيراً وخدمت احتياجات تسويغية etiological استشعرها

الإسرائيليون خلال الألف الأول ق .م. ولكنهما نفسيهما كانا ، دون شك ، شخصيتين تاريخيتين حسنى الطوية bona fida من شخصيات العصر البرونزى الوسيط .

مفارقة أخرى أخيرة تكمن فى الاستخدام الغريب الذى تلعبه قصة « الخروج » فى الديانة الحديثة ، كقصة رمزية للتحرر من الطغيان . فأى قراءة نزيهة لسفرى « الخروج » و« العدد » لا تستطيع إلاّ أن تكشف أن الطغيان الذى تحرر منه الإسرائيليون وبالتحديد ، طغيان الفرعون ، كان أرحم فى حقيقة الأمر ، بالمقارنة مع طغيان « يهوه » الذى كانوا على وشك إخضاع أنفسهم له . و« الخروج » كقصة للتحرر تعد كريهة الطعم إلى أقصى درجة ممكنة – ولعلنى أفضل قصة « ليونيداس » Leonidas وأتباعه الثلاثمائة فى ممر « تيرموبيلاى » Thermopylae (قصة ملك « إسبرطة الشجاع الذى تصدى فى أواخر القرن الخامس ق . م . ومعه قلة قليلة للجيش الفارسى الغازى عند هذا الممر فى أواسط بلاد اليونان . المترجم) – وفى عصر يبدى فيه أناس عقلاء استعدادهم لتشكيل آرائهم المنحازة استناداً إلى سابقة مضى عليها ثلاثة آلاف سنة ، تكون غاية فى الخطورة .

يوسف :

لا نعرف قطعة أخرى من النثر فى أى موضع آخر فى « التوراة » تستطيع أن تضارع المستوى الأدبى التى بلغته قصة « يوسف » كما وردت فى سفر « التكوين » ٣٧ – ٥٠ ، أما خارج نطاق « التوراة » فليس هناك سوى قلة قليلة بين الأعمال الأدبية التى ترجع إلى الشرق الأدنى القديم وتستطيع أن تباريها فى روعة الأسلوب والتكوين . فالقصة مركبة حول عقدة بارعة الانعطافات والتناسقات ، وتكشف عن وحدة واندماج تنم عن أن مؤلفها كان نفس الشخص أى لم يشترك فى تأليفها أكثر من مؤلف . وأسلوب المؤلف هنا يقوم على الاقتصاد والبعد عن الزخارف ، وفى ضوء التأثير الدرامى ، يحقق ذروة كان ليفقدها لولا ذلك . وكل آلية وكل آداة تقف رهن إشارته ، يستطيع أن يؤخر وأن يسرع خطا العقدة كى يصعِّد التوتر ، ويستطيع أن يطور

الشخصية بصورة أكثر براعة ومع ذلك أرشق مما نقابله فى أى موضع آخر فى الكتاب المقدس ، فيما عدا ، على وجه الاحتمال ، « وثيقة الاستخلاف ، فالمؤلف لقصة « يوسف » يستخدم مفارقة لطيفة ورائعة على امتداد عمله كى يوفر له الوحدة الداخلية . وقد يكون التكرار فى الأعمال الأدبية قاتلاً ، ولكنه يفيد ، فى قصة «يوسف» ، التاكيد ، وربما يؤدى التفصيل إلى الملل ،ومع ذلك فمؤلفنا يجيد استخدامه ويحقق من ورائه أحسن النتائج ، ولو أنه لم يلجأ إليه إلاّ لمامًا . باختصار ، تكشف الإصحاحات / الفصول التسعة أو نحو ذلك التى تستغرقها قصة « يوسف » عن كافة علامات التأليف دون التسجيل.(١٣٨)

ذلك لأن قصة « يوسف » ، وكما تحقق كثيرون منذ مدة طويلة ، رواية قصيرة novella أو قصة قصيرة . وهى تشترك مع قصص تنتمى إلى مصر وأخرى إلى الشرق الأدنى من نفس النوع الأدبى فى عدد من الخصائص الخاصة . وكما فى قصص الفولكلور والحكمة هناك تفضيل لاسم « الإله » - النوع فى مقابل اسم الإله المعين كـ « أمون » و« رع » و« ست » إلخ (١٣٩) وبالمثل نجد تفاديًا لأسماء الأعلام ، سواء أكانت أسماء أشخاص أو أماكن ، كما نقابل تفضيلاً لألقاب القرابة « أب » و« أخ أكبر » و« أخ أصغر » وسائر الألقاب ، عوضًا عن أسماء الأشخاص وأسماء الأماكن ، وبينما نجد قلة قليلة منها أى من هذه الأسماء ، حاضرة إلاّ أنها مكبوتة بصفة عامة . وكل هذه الملامح تسهم فى خلق جو من اللازمنية واللامكانية فى وضعية القصة : كما تروى الآن . والحق يقال ، فى مصر ، ولكن الشكل الأساسى للعقدة لا يتطلب وضعية نيلية .

ويساعد التعرف على النوع الأدبى لقصة « يوسف » كـ « رواية قصيرة » فى تفسير السبب الذى يحول دون اتساق كامل للقصة كحلقة فى سلسلة قصص « الآباء » فى سفر « التكوين » . فليس هناك تغيُّر وحسب فى الأسلوب عندما يمر المرء من الأجزاء القصيرة المفككة التى تتناول « أبرام » و« إسحاق » و« يعقوب » إلى الإصحاح / الفصل السابع والثلاثين من سفر « التكوين » (حيث تبدأ قصة « يوسف ») ، بل هناك أيضًا تغيُّر فى اهتمام المؤلف وغرضه . فعلى العكس من السرد الأقدم ،

لا تكشف قصة « يوسف » ذاتها عن أى اهتمام من أى نوع ، بعبادة طوبوجرافية (= تقديس أماكن معينة واتخاذها قبلة مثلاً عند أداء الفروض. المترجم) أو البحث عن الأصول ، والإله وملائكته فى ثناياها لم ينزلوا إلى الأرض ولا يقفون على سلالم ولا يقطعون وعوداً ولا يفجرون مدنًا أو ينخرطون فى مباريات مصارعة مع أحد . ولقد ركز سفر « التكوين » ١٢ - ٣٦ بصورة متكررة على العهد الذى قطعه الرب مع الآباء ، وكرر الوعود المرة تلو المرة ، وسعى إلى إقامة سوابق للاحتلال الإسرائيلى وارتباطات العبادة . ولكن فى قصة « يوسف » تلزم هذه الأصوات الصمت ، وتكف هذه الهموم عن العمل كمنابع إلهام للرواية . ويمتد عجز القصة عن الوقوف كحلقة فى سلسلة قصص الآباء إلى التفاصيل الوقائعية ذاتها . ويقول سفر « التكوين » ٤٥ : ١١ إن نزول « يعقوب » وعائلته كان إجراء لغرض خاص ad hoc يتمثل فى مساعدتهم على النجاة بحياتهم فى السنوات الأخيرة من المجاعة ، ولكن يتضح فى مكان آخر أن غرضهم كان الاستقرار فى مصر. وعود على بدء تأتى قصة « يوسف » بكل أبناء « يعقوب » إلى مصر ، حيث كان لهم أن يعيشوا طوال عمرهم ، وحتى الرضيع « بنيامين » (= بنى يَمَن) بقى فى مصر حتى رزق فعلاً بعشرة من البنين ! وهذا ما يتناقض بصورة قاطعة ، مع تقاليد القبائل الأفراد ، كل قبيلة على حدة فى العصور اللاحقة حيث كان الجدود أصحاب الأسماء الإطلاقية ،يعيشون ويتزوجون ويكونون عائلات ويلفظون أنفاسهم الأخيرة فى « كنعان »(١٤٠) وأخيراً ، بالتناقض مع استخدام اسم « يوسف » فى كل موضع من القصة كاسم إطلاقى لـ « بيت يوسف » (أفرايم . مسى . ماكير) فى أواسط المرتفعات ، فإن اسم « يوسف » بطل « الرواية القصيرة » (= النوفيلا) غائب تماماً أو يكاد من بقية أسفار « التوراة» حتى نصل إلى الفترة الواقعة بين العهدين القديم والجديد . باختصار يمكننا حذف قصة « يوسف » من حكايات الآباء دون إلحاق أى خدش بالمسيرة الرئيسية للتاريخ الخاص بإسرائيل المبكرة .

رغم أن الحقيقة التى تقول إن العقدة الأساسية ، كما سبق لنا أن أشرنا ، لا ترتبط بأى صورة خاصة بوضعية نيلية ، إلا عدداً من التفاصيل التى تلوِّن الرواية الحالية لـ « موتيف » العقدة هذه تشير ، فى الحقيقة ، إلى مصر . وأبرز ما فى ذلك

أسماء الأعلام (= أسماء الأشخاص) المصرية ،[١٤١] إذ بينها أربعة ترد فى فقرات تتماس بصورة أكبر مع الخط الرئيسى للقصة (« تكوين » ٣٩ : ١ ، ٤١ : ٤٥) : « صفنات – فعنيح » و« أسنات » و« فوطيفار » و« فوطى فارع » . ولما كان الاسمان الأخيران صيغتين لاسم واحد ، فيكون عندنا ثلاثة أسماء مصرية فى القصة . وهناك إجماع على أن اسم « صفنات – فعنيح » ليس سوى رسم لاسم مصرى نمطى يعنى : (الإله « نون » يتكلم ويعيش) . وقد بدأ هذا الاسم فى الأسرة الحادية والعشرين ، وأصبح شائعًا فى القرن التاسع وحتى السابع ق . م وبعد ذلك أخذ يضمحل حتى تلاشى ، مع أن نماذج متفرقة منه استمرت على قيد البقاء خلال العصور اليونانية – الرومانية . واسم « أسنات » كان يشتق فى العادة من اسم يعنى : الإلهة « نيت » التى تقوم شواهد على وجوده ، بصفة خاصة من العصور اليونانية – الرومانية ، ولكنه ينتمى إلى طائفة من الأسماء التى بدأت فى الظهور فى المملكة الحديثة كى تصبح شائعة للغاية فى الألف الأول ق. م. غير أن تفسير اجتماع حرفىْ النون + التاء الساكنين consonants بأنه يعنى الإلهة « نيت » (= إلهة الصيد التى ترجع عبادتها فى « صايس » فى غرب الدلتا إلى ما قبل التاريخ . المترجم) فقابل للتساؤل ، إذ يجوز أن يعنى أيضًا « نوت » (= إلهة السماء التى تلد « رع » (= الشمس) كل صباح من بين فخذيها . المترجم) إذا شكَّلنا الكلمة المصرية التى تعنى « إله » أى أضفنا الصوائت إلى حروفها السواكن ، و« يخصّ الإلهة » اسم تقوم على وجوده أدلة كاسم شخص فى الفترة المتأخرة .[١٤٢] واسم « فوطيفار » وبديله (= فوطى – فارع) مركبان على نمط شائع كثيرًا من الأسماء ، وبالتحديد « با – دى » + اسم إله ، أى « هو – الذى – أعطته – ن » (= عطية « نيت » أو « نوت ») وهذه الأسماء بدأت عند نهاية المملكة الحديثة ، وزادت فى الانتشار خلال الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين وأصبحت شائعة للغاية اعتبارًا من الأسرة الكوشية ، الخامسة والعشرين حتى العصور اليونانية – الرومانية . وبالتالى نستطيع القول بأن الفترة التى حققت خلالها الأنماط الثلاثة لهذه الأسماء أعلى درجة من الذيوع نظير الأنماط الأخرى ، كانت القرنين السابع والسادس ق .م . أو الفترة الكوشية – الصاوية .

نقابل هنا وهناك ألقاباً وكنى مما ظن كثيرون أنها ترجع إلى أصول مصرية ، ولكن بعضها لا يملك سوى مرجعية بالغة العمومية بما يجعل من المحتمل أن تظهر فى أى نظام إدارى . ومثالاً على ذلك نذكر « رئيس الخبازين » ، (« تكوين » ٤٠ : ٢ - ٣) الذى يبدو أن الأدلة تقطع الآن بظهوره فى بلاط « أورشليم » فى القرن السابع ق.م.،[١٤٣] أما « والد الفرعون » وسيد كل آل بيته « (٤٥ : ٨) فليسا مركبين على أى نموذج مصرى خاص : اللقب المصرى الدقيق « والد الإله » يرتبط بدلالة غاية فى الاختلاف ، وعلى أى حال يحتفظ لقب « والد » الملك فى اللغة العبرية بأوراق اعتماد أصيلة [١٤٤] وكذلك « الحرس » (= الشرطة) التى يحمل « فوطيفار » فيها لقب « كابتن » (= رئيس الشرط) مؤسسة معروفة فى « يهودا » عند نهاية العصر الملكى ، وليس هناك حاجة إلى اقتراح وجود اشتقاق مصرى وراءه [١٤٥]

من جانب آخر ، نجد بعض المصطلحات تملك نماذج مباشرة لها فى مصر ، فمصطلح « نظار » فى سفر « التكوين » ، وهم المسئولون الذين نصح « يوسف » الفرعون أن يعيِّنهم ، هو لقب آرامى شاع فى الإدارة المصرية خلال العصر الفارسى (٥٢٥ - ٤١٠ ق م.)[١٤٦] وكلمة « ساريس » saris التى نجدها فى سفر « التكوين» ٣٧ - ٣٦ ويترجمها المؤلف إلى « ضابط » أو « خصى » ، طالما تعرف عليها كثيرون بصفتها « شا - ريشى » ، وهو اللقب الأكدى الشائع للإدارة الآشورية [١٤٧] والسؤال حول ما إذا كانت تعنى هنا فى حقيقة الأمر « خصى » سؤال خارج نطاق البحث الحالى . إلاّ أنه يبدو أن اللقب لم يُعرف إلاّ فى ظل الإدارة الفارسية لمصر ، وكان يشير إلى الحكام الرفيعى المستوى .[١٤٨]

حقًا لا تبدى قصة « يوسف » اهتماماً بالتسويغ الدينى لإسرائيل ، إلاّ أنها تبدى اهتماماً واسع العينين بالكيفية التي وصل خلالها اقتصاد إنتاج الحبوب وتخزينها وملكية الفرعون للأرض والمنقولات إلى الحالة التى كانت مألوفة للمؤلف ، باختصار كان « يوسف » هو الذى قام بهذه الإصلاحات الاقتصادية والزراعية .

وعلى نحو مفصَّل ، ماذا كان يعرف المؤلف (أو يظن أنه يعرف) عن هذه الأمور ؟ بالنسبة لهذا المؤلف كان الفرعون هو الذى يملك كافة أراضى مصر ،

فيما عدا أراضى المعبد ، كما كان الفرعون يملك جميع المواشى ، وكان سكان مصر عبيدًا له ، فى الوقت الذى كان الكهنة فيه موظفين مدفوعى الأجر عنده . وفى موسم البذار كانت البذرة (= التقاوى) توزع على الفلاحين ، وعند الحصاد كان خمس المحصول يذهب إلى الفرعون . والآن هذا تصوير نزيه إلى حد كبير ، وإن كان عامًا لواقع الأمور فى وادى النيل خلال فترات عديدة موزعة بشكل متناثر على آماد طويلة ، بدءًا من المملكة القديمة وصاعدًا (رغم أننا لم نكن لنسمع على وجه الاحتمال عن « أراضى الكهنة»[١٤٩] ولم نكن لنسمع عن أن « يوسف » كان مسئولاً عنها فى القرن التاسع عشر أو السابع عشر أو الخامس عشر ق.م. أو فى أى قرن آخر يرغب المرء أن يضعه . ولكن هناك بعض التفاصيل التى نستطيع أن نعرض لها بالشرح . كان توزيع التقاوى وبالتالى التقدير الضمنى للمحصول التى سينتج عند الحصاد معروفًا على نطاق واسع فى كافة فترات التاريخ المصرى ، مع اختلاف تفاصيل الآلية التى كانت تحكمه من وقت لآخر.[١٥٠] ولقد تمتع الكهنة فى المملكة الحديثة بمواقع متميزة ، بصفة عامة ، مع أن الالتزامات المعقدة الواردة فى مصادر المملكة الحديثة تكشف عن أنهم كانوا خاضعين لفرض الرسوم والضرائب على الأراضى الملكية التى تقع تحت أيديهم ، بل وأداء خدمات معينة من هذا النوع أو ذاك . ولو أن ذلك بطبيعة الحال قد يبدو بالنسبة للدخلاء ، بعيد الشبه عن فرض ضرائب أو رسوم . ولكننا نملك وثيقة واضحة ترجع إلى القرن السادس ، بأنه فيما عدا « زمن المتاعب » ذاك (إشارة فيما يبدو إلى الاحتلال الآشورى ٦٧١ – ٦٦٣ ق . م) كانت المعابد الكبرى تعفى عادة من الضرائب .[١٥١] وبخصوص الخمس الذى كان يذهب إلى الفرعون ، يمكننا أن نستخلص هذه النسبة من أى موضع آخر فى الهيكل الضريبى لمصر فى الفترة المتأخرة .[١٥٢] ولكن بردية « ريلاندز ٩ Rylands IX تقدم دليلاً ساطعًا لا لبس فيه . وفى هذا الصدد تقرر البردية أن دخل المعبد (من الحبوب الصالحة للأكل) كانت توزَّع كرواتب على « العشائر » الأربعة التى ينقسم إليها الكهنة بواقع عشرين بالمائة لكل واحدة (بى . ريلاندز ٩ – ١٣ ، ٨) أما العشرون بالمائة المتبقية فكانت تسمى « حصة الفرعون » (بى . ريلاندز ٩ – ١٧ ، ٣ – ١٥ ، ١٨ – ٤) ويمكن التصرف فيها حسب طلب الفرعون .[١٥٣] وأخيرًا نأتى إلى النص الوارد فى سفر « التكوين »

« ٤٧ :٢١ ، الذى يقررر باللغة العبرية أن « يوسف » نقل الأهالى إلى مدن ، وهو الأمر الذى يلوح بشكل مريب شبيهًا بنقل « سيزوستريس » للأهالى عندما بنى مدنًا جديدة على روابى عالية حتى يحميهم من الفيضان السنوى.[١٠٤] .

وتقابل بعض التفاصيل العابرة المتنوعة درجة معينة من التوازى مع نصوص مصرية . وتجد التجارة التى تمتع بها البدو - الجمّالون (= أصحاب الجمال) الذين يعيشون فى الضفة الغربية مع مصر فى العصور (« تكوين » ٣٧ : ٢٥) أفضل نظائر لها فى القرن السابع حتى القرن الثالث ق .م وتجد كل من معرفة دائرة البروج (« تكوين » ٣٧ : ٩) والبقرة التى ترمز لـ « السنة » والأهمية المسنودة للاحتفال بعيد ميلاد الفرعون (= الملك) انعكاسًا فى مصر فى النصف الثانى من الألف الأول ق.م. ويبدو أن سفر « التكوين » ٤٢ : ٣٥ يرسم صورة لمعنى « النقود المسكوكة » فى « كسف » (بالعبرى) : « الفضة »[١٠٥] وهى محفوظة فى جراب صغير بحيث يمكن حشره فى فم زكيبة من الخيش.[١٠٦] ونستطيع عقد مقارنة بين حفل تنصيب «يوسف» وبين إجراءات مشابهة فى العصور الفرعونية ، وخصوصًا تلك التى عرفها القرنان السابع والسادس ق.م. والاتهام الذى يصبه « يوسف » على إخوته بأنهم « جواسيس» لم يقدموا إلاّ : « لتروا عورة الأرض (= البلاد) جئتم » (« تكوين » ٤٢ : ٩) نفخ فيه ، مع أنه ربما يستخدم كلمة تستعمل لجواسيس المخابرات الذين يرسلون قبيل القيام بغزو ، طالما كان هؤلاء الإخوة قد ذكروا بالفعل أنهم قدموا من « كنعان » (٤٢:٧) ، ومثل هذا الاتهام يفقد معناه ما لم يكن من المعروف أن هناك قوة معادية تتملك فى « كنعان » وتريد الانقضاض على مصر ، وهذا توصيف سياسى غير معروف فى المملكة الحديثة وإن كان مألوفًا فى العصر الصاوى .

كثيرًا ما عزت الدراسات العلمية لخلفية قصة « يوسف » تفاصيل معينة تتمتع بنظائر تصادف أن تأتى من المملكة الحديثة ، فى حين أن الاحتجاج بأن المعلومات (= المواد) التى ترجع إلى فترة الانتقال الثالثة لا يجب عليها أن تضطرنا إلى تخفيض تاريخنا فلربما - من يعرف ؟ - يكون الحفظ العشوائى وحده هو الذى سلبنا معلومات مشابهة ترجع إلى المملكة الحديثة . وهذا ليس موقفًا منصفًا فى حقيقة الأمر ،

حيث إنه يبدى فى لحظة ما ثقة تتولد من النهج التجريبى ، وفى لحظة أخرى يزعم وجود شك بالإشارة إلى هامش نحيف لما يمكن أن يكون ممكنًا . ولكن المرء لايستطيع أن يكون تجريبيًا فى لحظة ثم لا أدريًا (= شكاكًا) فى اللحظة التالية .

والحقيقة أننا نستطيع أن نسوق دفاعًا قانونيًا مفحمًا فى سبيل تأريخ القصة بالقرن السابع أو السادس ، بصرف النظر عن القضية مثار الخلاف حول خلفية التفاصيل . فالعديد من « الموتيفات » ، وليس بينها ما هو هامشى أو ثانوى ، تشى بعقدة قصة « يوسف » . ونستطيع إدراج هذه « الموتيفات » فى القائمة التالية : شاب حديث السن يتغلب على كثير من المصاعب ، ويتحمَّل كثيراً من المحن وفى نهاية المطاف يخرج على رأس (« موتيف » من الدمور إلى الجوخ أو من « السجن إلى العرش ») ، الحكيم الذى ينبثق من ركن غير منتظر (أحيانًا من الجب) كى ينقذ الملك والأمة ، والمصلح الكبير والمشرِّع وأخيراً المسئول عن النظام الأمثل الذى نحوزه الآن . والمشترك بين هؤلاء الثلاثة جميعهم هو شخصية « الحكيم » وهى شخصية مفضلة عند الحكائين على امتداد التاريخ المصرى . إلاّ أن هناك اختلافًا ملحوظًا بين الطريقة التى يستخدم خلالها المؤلف « حكيمه » فى هذه القصة والوظيفة التى يقوم بها الحكماء فى القصص التى يرجع تاريخها إلى الألف الثانى ق. م .

الحكيم المصرى الكلاسيكى هو الـ « خرى – حب » (حرى – تب) أى (الذى على القمة أو الرأس) بمعنى « الرئيس » وهو « الكاهن – المقرئ »،[١٥٧] وحرفيًا « الرئيس » ذاك – الذى – يحمل – كتاب – الشعائر » ، ونظراً لأنه « مقرئ » (أى يقرأ الشعائر الدينية) كان لابد أن يكون غير أمى ، وبالتالى فى إطار التفكير المصرى علاّمة واسع الإطلاع . ولما كان السحر يمثل مكوِّنًا ضخمًا فى سائر الأدب الدينى فى مصر القديمة ، فبإن بوسعنا أن نترجم مصطلح « المقرئ » بسهولة ، إلى « الساحر » . ولعل ذلك الجانب من « المقرئ » ، أى قدرته على عمل السحر ، هو الذى يشكِّل جوهر دوره فى القصص التى ترجع إلى المملكتين الوسيطة والحديثة . فالساحر هو الذى يعرف كيف يصنع تمساحًا من الشمع ، يتحوَّل إلى تمساح حقيقى كى يلقى القبض على شخص زان ، كما يعرف كيف يطوى موجات الماء كى يصل إلى القاع ويستعيد دبوس زينة

(= بروش) سقط سهواً فى بحيرة ، ويستطيع أن يعيد تثبيت رءوس مقطوعة فى مواضعها مرة أخرى بين أكتاف أصحابها ، كما يستطيع استئناس الحيوانات المفترسة وهلم جرا.(١٥٨) والساحر أيضاً « كاتب حكيم » يستطيع أن يطلق التنبؤات ، وتحيا « تعاليمه » خلال الكتابة (١٥٩) ولكن هذا يعكس وظيفة يؤديها فى وطنه مصر فى مجال أدب الحكمة .

وعلى النقيض من دافع التسلية التافه الذى يكمن وراء مثل تلك القصص التى كتبت باللغة المصرية الوسيطة : Middle Egyptian ، فإن قصص الفترة المتأخرة تسند إلى الحكيم دوراً أكثر جدية بمراحل . فعندما تقع أميرة فريسة للمرض ويرسل أحد الحكماء كى يقيلها من بلائها (وهو الأمر الذى يقوم به عن طريق تشخيص مرضها والتوصية باسم الإله الذى سيحمل إليها الشفاء) (١٦٠) وعندما يحتضر الفرعون نفسه ولا يبقى أمامه سوى عدة أيام قبل مغادرة عالم الأحياء ، فإن مقرئاً شاباً طالما حرمته ، عن عمد ، غيرة قرنائه من الحكماء من الاتصال بالفرعون يظهر كى ينقذ الموقف(١٦١) وينقطع فيضان النيل ، وتنجم عن ذلك مجاعة فيستدعى أحد الحكماء كى يتحرى الأمر.(١٦٢) وتتعرض البلاد والفرعون للخطر على أيدى ساحر نوبى (= «أسود») فيستدعى أحد الحكماء كى ينقذهما(١٦٣) ويتحول معبد ما إلى أطلال ، وتظهر « إيزيس » للفرعون فى الحلم ، وفورئذ يُستدعى أحد الحكماء كى يحل المشكلة. (١٦٤) وهذه هى بالتحديد نفس الوظيفة التى يؤديها « دانيال » مرتين مع « نبوخذرصر » (سفر « دانيال » : ٢) ثم مع « بيلشاصر » (سفر « دانيال » : ٥) فى قصص ترجع إلى تاريخ هيلينى . وفى هذه القصص التى ترجع إلى « دانيال » يدخل أيضاً « موتيف » الإيداع فى السجن ظلماً ثم إعادة الاعتبار فى نهاية المطاف ، وهذا عبارة عن نمط من العقدة تشترك فيه حكايات مثل « مردخاى » و« طوبيت » Tobit و« أهيكار » : Ahikar فى إسرائيل و« عنخ – شيشنقى » و « حى – حور » فى مصر ، وكلها ترجع إلى النصف الثانى من الألف الأول ق.م.

وينبغى أن يكون واضحاً حتى عند أى تصفح عاجل لسفر « التكوين » ، أن شخصية « يوسف » ووظيفته فى القصة الواردة فيه تنطبقان على دور المخلص وشخصية المرء غير المرغوب فيه فى البداية ، فيما نعرف من القصص اللاحقة . فـ « يوسف » أودع السجن ظلماً ، وحرم من الدخول إلى حضرة الفرعون ، وفى وقت

لاحق أعيد اعتباره واستدعى أيضًا عندما أقضت الأحلام مضجع الفرعون ، ومضى كى ينقذ الأمة من مصير شنيع ، وذيوع هذا النوع من القصص الذى يرجع إلى الفترة الليبية حتى العصور الهلينية ليس من باب الصدفة .

وهنا نخلص ، استنادًا لتقييم حصيف للأدلة ، إلى أن قصة « يوسف » التوراتية ليست سوى « رواية قصيرة » أبدعها مؤلفها فى وقت ما خلال القرن السابع أو السادس ق.م. (أى عند نهاية المملكة اليهودية أو فترة « النفى » (البابلى) . وهى توفر بوضعها الحالى توسعًا حرًا لـ « تيمة » نزول بنى إسرائيل فى مصر ، مع أنها غير ضرورية تماما للسرد الجارى للآباء : وصل يعقوب وعائلته إلى ضفاف النيل دون عون من « يوسف » فى التقاليد الأقدم . ولما كانت قصة « النزول » و« الخروج » ليست سوى اقتباس إسرائيلى لتقاليد كنعانية أقدم زمنًا ، فإن قصة « يوسف » ليست سوى النموذج العبرى لخط قصصى واسع الانتشار ، كان رهن الاستعمال كثيرًا فى مصر والمشرق فى الوقت الذى كان المحررون فيه قد جلسوا كى يودعوا « الأسفار الخمسة » (= التوراة ») أوراق التدوين . وليس هناك سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنها تملك أى أساس فى الحقيقة الواقعة – غياب القصة من التقاليد الأقدم زمنًا للأنبياء ينطق بلسان فصيح ضد مثل هذا الاعتقاد – وقراءتها كتاريخ ينطوى على خطأ فادح .

الهوامش

(١) T.L. Thompson, The Origin Tradition of Ancient Israel (Sheffield, 1987)

(٢) حول مصادر « الأسفار الخمسة » ، انظر :
A,Hurvitz, RB 81 (1974) , 24-36,S.E.McEvenue, The Narrative Style of the Priestly Writer (Rome, 1971)' G.Vink, The Date and Origin of the Priestly Vode in the Old Testament (Leiden, 1969)' P.Weimar, BN 24 (1984), 12ff. , 138ff.' Z.Zevit, ZAW49, (1982) , 481 - 511.

(٣) E.A.Speiser, Genesis (New York 1956), 8 ff, ' W.G. Lambert , JJS 16 (1965) (,287- 300

(٤) Eusebius, Praeparatio Evangelica 1.10.8-13' H.W.Attridge and R.A.Oden, Jr. Philo of Byblos, The Phoenician History (Washington, 1981).

(٥) حول قصص الخلق المصرية ، انظر :
S.Sauneron and] . Yoyotte, La naissance du monde (Paris, 1959)' J.Assmann, LdÄ 5 (1984), 677 - 90

(٦) Cognate with West Semitic word nun, "fish" F. Cornelius,m Geistegeschichte der Frühzeit (Leiden, , 1960)2:1,75-78.

(٧) A. - A. Saleh MDAIK 25 (1969) , 11 off.

(٨) P.DDerchain, in Religion en Ègypte hellénistique et romaine (Paris,1969)31ff.

(٩) S. Morenz, Aegytische Religion (Stuttgart , 1960) 187ff.

(١٠) E.A.E Reymond, CDE 40 (1956),61ff.' ff.idem , JEA 48 (1962)

(١١) Lucian, De dea Syria 7. 454-55.

(١٢) Assmann, LdÄ 5(1984) , 681.

(١٣) S.Sauneron, BIFAO 62 (1964), 33-37' idem, Le Temple d'Esna (Cairo, 1963), 2 : 35ff.

(١٤) Cf.H.II,37-38f (Spell 80) : Middle Kingdom

(١٥) CT H. Te Velde, Studia Aegyptiaca 3 (Budapest , 1977), 163ff.' E. Hornung , Das Amduat (Wiesbaden, 1963) , 2 : 188,

حول ابتلاع الأطفال ، انظر :

H. Frankfort, The Cenotaph of Sety I at Abydos (London,1933),82ff.

(١٦) See D.B.Redfrod, S.Groll, ed., Studies in Egyptology Presented to Miriam Lich-theim (Jerusalem, 1990),834.

(١٧) W.Helck, Die Lehre für könig Merikare (Wiesbaden, 1977),83.

(١٨) Snn, the same word can mean "statue " : J.J.Clère, in Hommages Sauneron Cairo, (1979), 357, n . 1

ومما يلفت النظر أن التبجيل الذى شمل أنواعا كاملة من الحيوانات فى العصور المتأخرة (وهو الأمر الذى أسفر عن قيام جبانات ضخمة إلى الحد الذى امتعض عنده الإغريق والرومان) إنما ينبع من الاعتقاد بأن كافة أعضاء نوع معين ما هى إلا « صور » للإله الذى ترتبط به ، انظر :

A. Hunt and C.C. Edgar , Select Papyri (London, 1927) .2.no. 329.

(١٩) K.Sethe , Amun und die acht Urgötter von Hermopolis (Berlin, 1929), J.Wilson, in H.Frankfort, Before Philosophy

(Baltimore, 1946), 61' Assmann, LdÄ 5) 1984), 879-90.

(٢٠) E.Chassiant, Le Temple d'Eduf (Cairo 1892- 1934), 1:288

(٢١) A.w.Shorter, JEA 21 (1835), 43' B.Altenmüller, Synkretismus in den Sargtexten (Wiesbaden, 1975) , 96-98.

(٢٢) H.Grapow , ZÄS67 (1931) 34ff,;

(عندما لم يكن أى مخلوق قد رأى النور ، وعندما كانت الأرض غارقة فى ظلام كامل ،)

انظر: H. Junker, das Götterdekret über das Abaton (Vienna, 1913):

ومع ذلك فالعقل المصرى لم يتصور مطلقا ، أن الخلق نشأ من عدم ، انظر :

W.Altenmüller, Wo 10 (1979) , 116

(٢٣) R.J. Williams in G.E.Kadish, ed., Studia in Honor of John A. Wilson (Chicago, 1969), 93-94.

(٢٤) J.H.Breasted ZÄS 39 (1901) , 39-54' C.Desroches - Nobleourt, MDAIK16 1958), 83ff. W.Erichesn and S.Schott, Fragmente memphitischer Theologie in demosticche Schrift (Wiesbaden, 1954)' J.G.Grffiths, The Origin of Osiris and His Cult (Leiden, 1980) ' H.Juker, Die Götterlehere von Memhis (Berlin, 1940) ' K.Sethe, Dramatischte Texte zu Altägyptischen Mysterienspielen (Berlin, 1928).

(٢٥) F.Junge, MDAIK 29 (1973) , 195-204) .

(٢٦) O.Koefoed-Petersen, Les stèles égyptiennes (Copenhagen, 1948), no. 37.

(٢٧) قارن ، بين آخرين :

A.H.Sayce in S.R.K. Glanville, ed. , Griffths Studies (Oxford, 1923), 419ff.

(Hermopolitan Cosmogony)' R. Kilian, VT 16 (1956), 420- 38 (the Ogdoad); S.Herrmann, TLZ86 (1961) , 413 - 42. الثامون =

(Onomastica)' J.k.Hoffmeier JANES 15 (1983) , 39- 49 (Hermopolitan cosmogony)'K.Koch, ZThJ 62 (1965), 251- 93 (Nemplhite theology)' H. Goedicke,m in Biblical and Related Studies Presented to Samuel Iwry (Winona Lake, Ind ., 1982) 1982), 37-76(creation of Eve)' J. Duchesne - Guilleman, CARAIBL (1982), 512-23 (spirit of god).

(٢٨) حول « تكوين » ١٠ انظر :

G.Hölscher, Drei Drdkartem (Hedelberg, 1948)' J.Simons OTS 10(1954), 15-48' W.Brandenstein, in Sprachgeschichte und Wortbedeutung (Bern, 1954), 57 - 83' R. North, A. History of Biblical Map Making (Wiesbaden, 1979) , 31-34' J.Van Seters, In Search of History (New Haven, Conn. , 1983), 27-28; Thompson, The Origin Tradition, 77-80.

(٢٩) باستثناء « سبتكاه » وربما أيضًا « سبتا » ، فإن شبه جزيرة العرب هى موطن كافة أبناء « كوش » .

انظر: M.Astour, JBl 48 (1956) 422- 23.

(٣٠) Cf. Simons, ORS 10 (1954), 170

(٣١) S.R.Driver, An Introduction to the Literature of the Old Testament New York, 1956), 14-15' cf .thompson, The Origin Tradition, 77-80, 191 - 49.

(٣٢) Simons, OTS 10 (8 1954) , 143ff.

(٣٣) Ibid., 167- 68.

(٣٤) D.B.Redford, A Study of the Biblical Joseph Story (Leiden, 1970) , 34-35.

فيما يتعلق بالطبعة اليهوية (نسبة لـ « يهوه ») بعد – النفى لسفر « التكوين » ، انظر :

N.E. Wagner, CJT 13 (1967)' also, F.V.Winner, JBL 84 (1965) ,1-19,Van Seters, In Search of History,idem, Abralham in History and Traditon (New Haven, Conn.,1975 9 , 125-30 and passim.

(٣٥) E.Dhorme, Syria 13 (1932) , 35 - 36 .

(٣٦) Kitten and Ridanim;the former is KTY in contemporary Semitic inscriptions (see G.A.Cook, A Textbook of North-Semitic Inscriptions {Oxford, 1903} 56,66,78,352; Y.Aharoni,Arad Inscriptions {Jerusalem,1981},12-13; Koehler-Baugartner,2:480);the latter is usually taken to be Rhodes

« يرى كثيرون أن الأخيرة هى جزيرة "رودس" » أيضا:

H.Gunkel, Genesis {Göttingen,1901},153;Dhorme,Syria13 {1932} 48; J. Simons, Geographical and Topological Texts of the Old Testament (Leiden,1959},80),

مع أن "شميدتكه" Schmidtke اقترح، وهو اقتراح أقل احتمالا بدرجة كبيرة، الاسم المصرى: "رتينو"، وهو مصطلح غامض أطلقه المصريون على "سوريا"، خلال الألف الأول، انظر كتابه:
Die Japhethiten der biblischen Völkkertafel (Breslau,1926),84.

أما الاسمان الآخران الواردان فى هذه الآية، فالاسم الأول وهو "ترشيش" تعرف الباحثون عليه فى "ترتيسوس" Tartessos فى غرب البحر المتوسط، انظر:
Dhorme,Syria 13 {1932}, 45-46; W.F. Albright, BASOR 83 {1941}, 21-22; U.T?ckholm, opuscula Romana 10 {1974-1975},41-57; M.Elat, OLP 13 {1982}, 55-69),

إلا أن هذا لم يفض إلى قبول عام،، قارن:
J.D.Muhly, *in* Biblical Archaeology Today {Jerusalem, 1985}, 185).

تعد "إليشيا" بمثابة مشكلة. فغالبا ما كانت تترادف، فى الماضى، مع "أليشيا"(قبرص) و هو اسم شاع خلال الألف الثانى، انظر:
(Dhorme,Syria 13 {1932}, 44, Speiser, Genesis, 66; Koehler-Baumgartner, 1:55);
و لكن هل كان لا يزال رهن الاستعمال فى أواسط الألف الأول؟ و لقد اقترح "سيمونز"Simons,OTS 178,(1954) 10فى هذا الشأن الاسم الذى أورده "سترابو"، و هو "إليوسا"Elaioussa، وهو اسم جزيرة تقع قبال ساحل أسيا الصغرى، و لقد قارن "سكينر": Skinnerالاسم مع "إليسا"Elissa، المؤسسة الأسطورية لـ "قرطاج"، انظر: (Genesis {Edinburgh,1910},198),
و لكن لم يحظ أى من الاقتراحين بالقبول،

(٣٧) M.I.Finley, Early Greece: The Bronze and Archaic Ages (London,1981), 90ff.;J.Boardman, The Greeks Overseas (London,1980);R.H.Pfeiffer,JBL.56 (1937),92-93;idem,Introduction to the Old Testament (New York,1948),206.

القول الذى يذهب إلى أن هذه الآية إنما تعكس الوضع الذى كان سائدا فى الفترة من ٧١٠ إلى ٦١٠ ق.م. هو قول شديد الغموض، و عوضا عن ذلك فهى تعكس الوضع الذى قام فى بادئ الأمر خلال تلك الفترة، ولكن نظرا لأن اليونانيين مكثوا فى جزيرة قبرص لعدة قرون، فهذه الآية لا تقيم سوى نقطة بدء وحسب.

(٣٨) Skinner, 196; Simons, Geographical and Topographical Texts, 38-39.

(٣٩) Dhorme, Syria 13 (1932), 29ff.;L.F. Hartman,JNES 21 (1962), 25-37; A.J. Spalinger, JAOS 98(1978), 400-409.

(٤٠) Helck,LdÄ 5 (1984),990-91.

(٤١) Egyptian Pywd, Coptic Phaiat, Persian Putaua; R.G.Kent, 2(1943), 306; the name of the tribe that came to prominence in the ninth century

"اسم قبيلة اكتسبت أهمية بارزة فى القرن التاسع ق.م.، انظر:
(H.K.Jacquet-Gordon,JEA 46(1960}20)

و فى وقت لاحق أصبح هذا الاسم اسمًا إطلاقيا يدل على ليبيا،، انظر:

G.Posener, La première domination perse en Égypte (Cairo,1936),186-87;Simons,Geographical and TopographicalTexts,secs. 149, 198,1313; Koehler - Baugartner,3 : 866-67.

(٤٢) Pace Hölscher (Dreid Erkarten,52-53)

الذى أدى تصوره المسبق الذى افتقر للتروى بأن نهر القائمة يجرى من الشرق للغرب إلى هذه النتيجة التى لا يقبلها عقل بأن "كنعان" هى "قرطاج البونية"!

(٤٣) E.Drioton and J.Vandier,L'Égypte4 (Paris,1962),594-95;see also W.Spiegelberg, Ägyptolgische Randglossen zum alten Testament (Strasbourg,1904),9-10;D. B.Redford, JARCE 22 (1985), 5 - 15.

(٤٤) يقول "هيرودوت" (١٩٠٣ وما بعدها) إن "قمبيز" فشل فى غزو "كوش" وأثبت أنه أقل مستوى من ملكها. و حول التقاليد الشعبية التى تقول إن الحضارة دخلت مصر من "كوش"، انظر:

Diodorus 3.3;A.B.Lloyd, Herodotus Book II.A Commentary (Leiden,1988), 3:94, 168.

(٤٥) Simons, Geographical and Topographical Texts ,19.

(٤٦) E.G.Kraeling,Rand McNally Bible Atlas,49;Astour,JBL 84 (1965),421ff.

(٤٧) Hölscher, Drei Erdkaten,46-47;Simons,OTS10 (1954),174 ; idem,Geographical and Topographical Texts,9.

(٤٨) Hölscher's strange localization of Lud on the Palestinian coast

تعيين "هولشر" بصورة غريبة لموقع "لود" على الساحل الفلسطينى. انظر:

(Drei Erdcarten,51-52)

هو أمر غير ذى موضوع.

(٤٩) I.e. from about 600 B.C. on:cf.H.Gauthier, Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hierographiques (Cairo,1931), الوجه القبلى 6:27.D.B.Redford, in Anchor Bible Dictionary, S. V. " Pathros " (forthcoming)

الوقائع التوراتية الأخرى الوارادة عن الـ" باثروس"(="فتروس" فى "التوراة) (قارن سفر "إشعيا" ١١: ١١ و كذلك سفر "إرميا" ٤٤: ١، ١٥ تفترض حدوث الشتات (=الدياسبورا)

(٥٠) Gauthier, Dictionnaire,3:117;Simons:

على أسس غير كافية، كما يبدو لى، تأتى معارضته، قارن:

Geographical and Topographical Texts,56.

(٥١) Skinner, Geographical and TopographicalTexts, 57;idem, Genesis, 212; Speis-er, Genesis,68.

(٥٢) Herodotus,1:80-81.

(٥٣) F.K.Keinitz, Die politische Geschichte Aegyptens vom 7. bis zum 4. Jahrhundert vor der Zeitwende (Berlin, 1953), 12; Spalinger, JAOS 98(1978), 400ff.

(٥٤) Gauthier,Dictionnaire 1:145- 46 ; P.Montet,Géographie de l'Égypte ancienne (Paris,1957),1:66.

(٥٥) JPOS 1 (1921),191-92.

(٥٦) ZAW 10 (1890),118-19.

(٥٧) OLZ 9 (1906),276ff.;Spiegelberg,Ägyptologische Randglossen,6.

(٥٨) اسم المكان "ناثو" Natho ليس N3-idhw أى "أحراش الدلتا"، بل N^3y-t^3hwt حرفيا "أولئك الذين ينتسبون إلى دوار رعمسيس الثالث"، انظر:

A.F.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica (Oxford, 1947) ,2 : 146*ff.W.Helck, Die altägyptische Gaue (Wiesbaden,1974),178.

(٥٩) (Hirsch, Vierteljahrschrift für Biblelkunde,2:413ff.W.Vycichl (ZÄS 76 {1940}, 88-89)

(فيرنر فيسيكل يرى أنها مشتقة من "بتوحيم" العبرية).

(٦٠) OLZ (1906),278.

(٦١) Gardiner,Onomastica,2:248f.

(٦٢) OLZ 5 (1902),474.

(٦٣) Spiegelberg,ZÄS 43 (1906),87ff.

(٦٤) Simons,OTS 10 (1954),167.

(٦٥) D.J.Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings (London, 1956)25,68ff.

(٦٦) D.Baramki,Phoenicia and the Phoenicians (Beirut, 1961),30-31.

(٦٧) D.Barag,BASOR 183 (1966),6ff.

(٦٨) بكل تأكيد ليست نهاية الألف الثانى، حسب إس.هيرمان، انظر:

S.Hermann ,A History of Israel in Old Times (London, 1975) , 42.

(٦٩) Cf.K.Baer,JARCE 1 (1962),44.

(٧٠) (G. W. Ahlström, Who were the Israelites? (Winona Lake, Ind.,1986), 46-49; CF.S.Mowinckel, in Die Religion in Geschichte und Gegenwart4 (Tübingen, 1960),1274-78; C. Klos, Yhwh's Combat with the Sea (Leiden, 1986), 139 ff.

(٧١) التفصيل الطوبوجرافى يُعزى، فى العادة، إلى الصياغة التوراتية لقصة "الخروج"، فالتركيز الأسبق للسرد كان يحدد مكان الحدث الرئيسى فى البحر و حسب، انظر:

P.Weimar, Die Meerwundererzählung (Wiesbaden,1985).

و لعل تقسيم المصادر التقليدى لـ "الخروج" ١-١٤، مع ذلك، يجعل المشكلة تبدو أكثر تعقيدا مما هى عليه فى حقيقة الأمر. المرجع السابق و ما بعده،. انظر:

M.North, Exodus (London,1962).

(٧٢) H.Cazelle, RB 62 (1955)),321-64.

(٧٣) لمزيد من التفاصيل، انظر:

D.B.Redford, in A,F.Rainey,ed.,Egypt, Israel, Sinai (Tel Aviv, 1987),137-61.

(٧٤) حول "تانيس" انظر أحدث البحوث:.M.Romer,LdÄ 6 (1986),194-209

في هذا الصدد أثبتت الجهود الرامية إلى تقديم تواريخ الفقرات الواردة في روايتي "يوسف" و "موسى" حتى تقع على مقربة من مقر الإقامة الملكي في "جوشن" كدليل على الصدق التاريخي للرواية "التوراتية" (انظر على سبيل المثال:

N.Sarna, Exploring Exodus (New York.1986),10)

إنها لا تخرج عن التشبث بالخطأ. فحتى لو لم تكن المصادر التي اعتمدت عليها تلك الجهود فولكلورية الطابع في الأصل، فعلى امتداد الأسرة الثامنة عشرة كان مقر الإقامة الملكي بصفة رئيسية في "منف"(= منفيس) أو في زمامها، مع فاصل زمني قصير لا يتجاوز نحو خمس و عشرين سنة عندما انتقل البلاط الملكي خلالها إلى "طيبة" و "أخيتاتون"(=العمارنة). ولعله من الخطر أن نغفل عن الأصل- فلقد جاءت الأسرة الثامنة عشرة في أصلها من "طيبة" كموطنها و مسقط رأس فراعنتها الأوائل.

(٧٥) الكلمة العبرية (sup) مشتقة غالبا من الكلمة المصرية " (twfy) بحيرة البوص" في شمال شرق الدلتا. و لقد أريق كثير من الحبر في الكتابة عن هذا الجسم من الماء، أحيانا، في محاولة للتشكيك في صحة تعيينه كالموقع المراد، انظر:

J.R.Towers,JNES 18(1959),150-53;N.H.Snaith,VT 20 (1965), 395-98; N.Lohfink. JBL 85 (1966), 137-58; B.S.Childs,VT 20 (1970), 406-18; B.F.Batto, JBL 102 (1983), 27ff.;

انظر : التعليقات اللاذعة التي أفصح عنها "كلوس": Kloos,Yhwh's Combat وكذلك:

Weimar,Die Meerwundererzählung 258-61.

(٧٦) Cf.Migdol (Jer.44:1);cf.J.Fitzmyer,JNES 21 (1962),19.

(ينبغي أيضا أن نلاحظ غياب تقاليد "الخروج" في نصوص التوراة القديمة، انظر:

S.Norin, Es Spaltete das Meer (Lund,1977),195-96.

(٧٧) J.Osing,LdÄ 4 (1982),1021.

(٧٨) W.Helck,VT 15 (1965),48.

(٧٩) D.B.Redford, Numen 14 (1967),209-28;J.S.Ackerman, in K.R.r.Gros Louis,Literary Interpretations of Biblical Narrative (Nashville,Tenn.,1974).

(٨٠) A.Erman, The Ancient Egyptians:A Source Book of Their Writings (New York, 1966),38.

(٨١) See p.385 | انظر ص ٢٨٥من النص الأصلي)

(٨٢) حول التوازيات المنتشرة للآفات الفردية، انظر:

F.Dumermuth, ZAW 76 (1964),323-25;

وحول الانتقال الأدبى و التنسيق الحالى لرواية الآفات فى سفر "الخروج"، انظر:

G.Fohrer,Uberlieferung und Geschichte des Exodus (Berlin,1964),62-70; D. J. J. McCarthy, CBQ 27 (1965), 336 - 45; idem, JBL 85 (1966),137 - 58; M.Greenberg, in Fourth World Congress of Jewish Studies (Jerusalem,1967),1:51-54; W.H.Schmidt, Exsodus, Sinai und Mose (Darmstadt, 1983),49-54.

(٨٣) S.N.Kramer, Ar Or 17 (1949),399-405;idem,The Sumerians (Chicago. 1963), 162 - 64; W. G. Lambert and A.R.Millard, Atra-hasis:The Babylonian Story of the Flood (London,1969),III,46-iv,4

(٨٤) CF.W.Helck, Die Prophezeiung des Nfr-tj (Wiesbaden,1970),43-45.

(٨٥) M.Gilula,Tel Aviv 4 (1977),94ff.;Y.Koenig,Journal Asiatique 273(1985),8-10.

(٨٦) Herodotus,2.65-76;A.B.Lloyd Herodotus Book II.A Commentary (Leiden, 1975), 1:141ff.;2:291ff.

(٨٧) D.B.Redford,JARCE 13 (1976),49-50.

(٨٨) يبرع السحرة باستمرار فى شق الماء، قارن:

Westcar 6,8-14(Lichtheim,Ancient Egyptian Literature {Berkeley, Calif. 1976} , 1:217): I Khamois 3, 30-31 M. (lichtheim, Ancient Agyptian Literature {Berkeley, Calif.,1980}. 3:130.

حول المياه التى يُحّول مجراها لإغراق الأعداء، انظر:Herodotus,2.100

(انتقام "نيتوكريس" من قتلة أخيها)

(٨٩) أمثلة على أنبياء القرن الثامن: "هوشيا" ١١: ١، ١٢: ٩، ١٢ و "عاموس" ٣: ١، ٩: ٧، إلخ و حول تاريخ "الخروج" ١٥ انظر الآن: Ahlström,Who were the Israelites?,50-51

(٩٠) Strabo 16.2.26.

(٩١) Diodorus 1.28.1;Herodotus,2.104;A.Burton, Diodorus Siculus Book 1.A Commentary (Leiden,1972),118.

(٩٢) Strabo,16.2.34.

(٩٣) انظر على وجه الخصوص:

M.Astour, Hellenosemitica (Leiden,1965),83-92, and passim

وفى مواضع متفرقة من النص المذكور)

وإننى أستخدم اسم « فينيقى » ، بنفس المعنى الذى استخدمه الكتاب الكلاسيكيون أى للدلالة على ساحل البحر المتوسط من « أورثوسيا « Orthosia إلى « بيلوزيوم » (سترابو . ١٦ - ٢ - ٢١)

(٩٤) Apollodorus, 2 , 13 - ;cf. J.Bearard, Syria 29 (1952), 1- 43 idem, RHR 151 (1957) , 221 - 30 .

(٩٥) Jacoby, FGr,Hist.IA.3,frag,31,86; IIIA, 264 frag. 6; R.B. Edwards, Kadmos the Phoenician (Amsterdam,1979),23-29.

يحمل فرار "إبافوس" إلى "بيلوس" ظلالا أوزيرية، انظر :
J.G.Griffiths, Die Iside et Osiride (Cardiff,1970),443.

ويتساءل المرء عما إذا كانت هناك علاقة من نوع ما بين ذبح ولدى "إيجبتوس" و بين ذبح المولود الأول.

(٩٦) يتزوج "يو": ١٥ من داخل العائلة المالكة، و كان "يوسف" الحاكم الفعلى، و إن لم يكن الرسمى للبلاد، وفى حقيقة الأمر، أطلق عليه فى الأدب اللاحق "الأبوكريفى" و "الترجوم" على حد سواء لقب "ملك"، انظر:
G.T.Zervos, in J.H.Charlesworth,The Old Testament Pseudoepigrapha (New York.1985),2:469.

(٩٧) نجد معظم هذه القصص مترجمة فى:
M.Stern, Greek and Latin Authors on Jews and Judaism,vol.1 (Jerusalem, 1974); see also S.K.Eddy,The King Is Dead (Lincoln,1961);D.B.Redford, Pharaonic King-lists, Annals and Day-books (Toronto,1986),281-96.

(٩٨) Redford, King-lists,282-83.

(٩٩) A.T.Olmstead,History of the Persian Empire (Chicago,1948),89-90.

(١٠٠) باستثناء ٤-٥ التى تتنبأ، بصفتها التى تحملها الآن، بـ ١٠-١٢

(١٠١) Redford, King-Lists,248-51.

(١٠٢) D.Wildung, Imhotep und Amenhotep (Berlin,1977).

(١٠٣) Urk IV,1677,1681.

(١٠٤) Urk IV, 1962,Redford, King-lists,293,n.113.

(١٠٥) I.e.,from the First Cataract to the Mediterranean.
(أى: من الشلال الأول إلى البحر المتوسط)

(١٠٦) أى السنوات الإحدى عشر كاملة تحت ظل حكم "أخناتون" و سنتان تحت ظل حكم "توت- عنخ - أمون".

(١٠٧) See D.B.Redford, in N.Swelin,ed.,Alexandrian Studies Presented to Daoud Abu Daoud (forthcoming) (على وشك الصدور)

(١٠٨) قارن قصة "أبوفيس" و "سقن - ن - رع".

(١٠٩) See p.221ff.;also Redford in Rainey Egypt, Israel, Sinai,145-47.
لعله من الصحيح أن ضرابى الطوب فى المنظر المشهور الذى يرجع إلى مقبرة "رخمى - رع" يشار إليهم بصفتهم "المأسورين الذين أحضرهم جلالته كى يعملوا فى معبد آمون"، انظر:
(N.de G.Davis,The Tomb of Rakhmere at Thebes (New York, 1943),pl.59);
إلا أن هؤلاء العبيد لا يبدون أى اختلاف عن المصريين، كما أن النص لا يشير إلى المكان الذى شهد أسرهم.

(١١٠) B.Oded, Mass Deportations and Deportee in the Neo-Assyrian Empire (Wiesbaden,1979),54-58,90,111.

وبطبيعة الحال لا يستطيع أحد إنكار أن ضرابى الطوب كانوا يشكلون جزءا ضخما من القوى العاملة، وتحت أيدينا النصوص و الجداريات التى تثبت ذلك، قارن:

(Cf.K.A.Kitchen, Tyndale House Bulletin 27 (1976-47);

ولكن أن يكلف المصريون الأسيويين ، بصفة رئيسية ، بأداء هذا النوع من العمل ، فهذا ما لم يكن عليه الحال.

(١١١) E. Nielson, VT 32 (1982), 87-98; H.Gese ZAW 79 (1967), 143-44; G. W. Coats, Noses; Heroic Man, Man of God (Sheffield,1988),177.

(١١٢) M.Noth, A History of Pentateuchal Traditionss (Englewood Cliffs, N.J..,1972), 156-75.

(١١٣) ظهر، فى حقيقة الأمر، تيار حديث ينجذب، فيما يبدو، إلى الوراء إلى هذا الموقف، انظر:

E.F.Campell, Interpretation 29 (1975),144;W.H.Schmidt, Exodus, Sinai und Mose (Darmstadt,1986),103.

(١١٤) Cf.W.Johnstone, ZAW 99(1987),32-34;Ńorin, Es Spaltete das Meer,182ff.

(١١٥) Cf.Amos 5:21-25;Jer.7:22;cf.Hos.8:12-13;Mic.6:6-8.

(١١٦) J.Muilenberg, VT 9 (1959) ,347-65 , idem, in J.P.Hyatt, ed., The Bible and Modern Scholarship (Nashville, Tenn. ,1965), 87; B.S.Childs, The Book of Exodus (Philadelphia, 1974), 353; cf. Hos. 12:13.

(١١٧) Cf.S.Herrmann, Israels Aufenhalt Ägypten (Stuttgart, 1970), 70 A.H.J.Gunneweg, Geschichte Israels (Stuttgart, 1984),26-27;M.Metzger, Grundriss der Geschichte Israels (Neukirchen-Vluyn, 1983), 34;H.Donner, Geschichte des Volkes Israel (Göttingen,1984),109;G.Fohrer, Geschichte Israels (Heidelberg, 1982), 64;M.I.Chaney, in D.N.Friedman and D.F.Graf,eds. ,Palestine in Transition (Sheffield,1983),65.

(١١٨) Noth, History of Pentateuchal Traditions,71.

(١١٩) See J.G. Griffiths, JNES 12 (1953), 225-31 ; cf. J. Cerny, ASAE 41 (1941), 349-54;

و لكن ينبغى عليك الآن أن تنظر فى الملاحظات التى أبداها:

J.Vergote, Bulletin de la Société d'égyptologie de Gèneve 4 (1981),89-95;

أيضا انظر:

Astour, Hellenosemitica, 229ff.;idem,Ugaritica 6 (1969),15 and n.39

(الذى يشتق الاسم من mt، وهو إله أرضى من آلهة الطبيعة (نقيض السماوى) سادت عبادته فى "أوجاريت" و يقارنه بـ "موس": Mus الإله -الثعبان.

(١٢٠) M.Weinfield,Tarbiz 56 (1987),449-60;H.Schmid,Die Gestalt des Mose (Darmstadt,1986),41-42(lit.);Coats,Moses,25-29(lit.).

(١٢١) حول "حفني":Hofni، انظر:

H.Ranke Die Altägyptische Personennamen vol.1 (Gückstadt, 1935), 239:12-13 (="tadpole"(= شرغوف) ; for Phinehas,see ibid, 113:13 (=the Southerner" .(= الجنوبي)

المرشحون الآخرون المفترضون، مثل "هارون" و "مراري" لا يتصلون من قريب أو بعيد باللغة المصرية.

(١٢٢) Cf.J.G.Cager, Moses in Greco - Roman Paganism (Nashville, Tenn. 1972); T.Rajak, JJS 29 (1978);11-22; G.Vermes, in Moise, L'homme et L'alliance (Paris,1955),66-74.

ينبغي أن نلاحظ أن "إيجيبتوس": Aegyptus في أسطورة أحفاد "يو" :)Io انظر ص ٤١٢ من الكتاب الأصلي) الذي ذهب إلى بلاد العرب تزوج من إثيوبية، انظر:.Apollodorus,2.1.5

(١٢٣) J.J.Collins, in Charlesworth,ed.,The Old Testament Pseudepigrapha (New York,1985),2:892;A.M.Denis,Museon 100 (1987),40-65.

(١٢٤) Collins,in Charlesworth,Pseudoepigrapha,2:898-900.

(١٢٥) N.C.Grimal, La Stèle triomphale de Pi(ankh)y au musée de Caire (Cairo,1981).

(١٢٦) Cf.the Tefnakhte story in Diodorus,1.45;Plutarch, De Isida et Osirida 8.

(١٢٧) See p 128;D.B.Redford,Orientalia 39 (1970),1-51;idem, King-lists,245.

(١٢٨) A.B.Chace,H.P.Manning, and L.Bull, The Rhind Mathematical Papyrus: B.M.10057 and 10058 (Oberlin,Ohio,1927-1928),pl.108, (par.30, no. 87);Redford,King-lists,110.

(١٢٩) Pesumably Ahmose ((لعله "أحموسي على سبيل الافتراض)

(١٣٠) حصن حدودي على الجانب الشرقي للدلتا، يقع شمال شرقي "أباريس"(=أواريس)

(١٣١) أيام النسيء، تدرج قبل الشهر الأول من سنة التقويم، و تتوافق في أواسط القرن السادس ق.م. على وجه العموم مع الأسبوع الثالث في شهر أغسطس/مسري.

(١٣٢) C.Vandersleyen,RdE 19 (1968),pls.8,9,;W,Helck, Historisch-biographische Texte der 2 Zwischenzeitzeit (Wiesbaden, 1975) ,106-7.

(١٣٣) عن الأوبئة، كما تظهر الآن في قصة "الخروج"، انظر:

Noth, Exodus, 62-84; Z.Zevit, JQR 66 (1975-76),189-92; J.L.Ska, Biblica 60 (1979),23-35;191-215;Schidt, Exodus, Sinai und Mose, 40-54;N.H.Sarna, Exploring Exodus (New York,1986),63-80.

(١٣٤) G.Hart, ZAW 69 (1957),84-103;70 (1958),48-59.

(١٣٥) E.Velikowsky,Ages in Chaos (New York,(1946);Worlds in Collision (New York,1950).

(١٣٦) See : (رسائل شفوية متنوعة) H. Goedicke, various oral communications

انظر:

H.Shanks,BAR 7,no.5 (September-October 1981);idem,BAR 7,no.3 (May-June 1982);E.Oren,BAR 7 ,no.6 (November-December 1981) ; I.Wilson,The Exodus Enigma (London,1985).

(١٣٧) هذه المثالب لا تظهر على صورة أنقى مما تظهر به فى أعمال "فيلوكوفسكى". انظر:(N.135)

ومع أننى لا أستطيع أن أعرض بخير أو شر للأجزاء الفلكية فى أعماله، إلا أننى على ثقة كاملة أنه يرتكب، كلما عالج الأدلة المستقاة من المصادر المصرية، أشد الأخطاء جسامة و أكثرها مدعاة للضحك. و مع أننى أرى أن تعدادها هنا سوف يكون أدخل فى باب إضاعة المساحة المتاحة، إلا أننى سأكون سعيدا بتزويد أى قارئ بتفاصيل أكثر فى هذا الصدد.

(١٣٨) See the Redford, Joseph Story; C. Westermann, Genesis 12-50 (Darmstadt, 1975), 56-68; idem,Genesis (Neukirchen,1981),1-19; Thonpson, The Origin Tradition,116-31;

حول البيليوجرافيا (قائمة الكتب) و النقاشات على امتداد العقدين الماضيين، انظر:

L.Ruppert,BZ 29 (1985),31-48;J.Scharbert BN 37 (1987),104-28.

(١٣٩) M. V. Fox. ZÄS 107 (1980),123-26;R. J. Williams, JAOS 101 (1981).11-12,

حيث يجد القارئ أدبا و نقاشا.

(١٤٠) فى سفر "التكوين" إصحاح ٣٨ يتزوج "يهوذا" و يستقر فى "كنعان" وينشئ لنفسه عائلة هناك، ويتزوج "سيميون" من كنعانية ("تكوين" ٤٦: ٢١) و يموت "أفرايم" فى فلسطين ("أخبار الأيام" الأول ٦: ٢٠-٢٤، و "منسى" يتزوج من أرامية ("أخبار الأيام" الأول ٧: ١٤، وابنه "ماكير" كان موجودا فى البيت فى جلعاد ("العدد" ٣٢: ٤٠)، قارن "أخبار الأيام" الأول ٢: ٢١-٢٢)

(١٤١) See A.R.Schulman, SAK 2 (1975),235-43.

(١٤٢) Ranke, Personnenamen,vol.1,177:24;

ومع ذلك فلقد وفرت القوة النسوية الفرصة لظهور حرف "راء" بعد "التاء".

(١٤٣) E.Mazar,IEJ 37 (1987),62.

(١٤٤) Redford, Joseph story,191,n.7.

(١٤٥) Koehler-Baumgartner,2:353.

(١٤٦) Redford,Joseph Story,207-8;G.R.Driver,Aramaic Documents of the fifth Century B.C.(Oxford,1965),15-16.

(١٤٧) Koehler-Baumgatner,3:727;

حول الخصيان، انظر:

G.H.Kadesh, in Kadesh, Studies in Honour of John A. Wilson,55-62,

انظر أيضا:.M.Görg,BN 53 (1990),14-20

(١٤٨) Redford, Joseph Story, 200-201;also P.Rylands IX passim,

حيث نجد أن srs هو اللقب الذى يطلق على الحكام الفرس المحليين .

(١٤٩) Cf.B.Menu, Recherches sur L'histoire juridique, économique et sociale de l'ancienne Égyptienne (Paris,1982),1-42.

(١٥٠) B.Menu, CRIPEL 3 (1975),143-49.

(١٥١) P.Rylands IX,6,16.

(١٥٢) Redford,Joseph Story,237,n.3.

(١٥٣) فى الحقيقة استمرت عائلة الكاهن "بيديسى" تحصل على هذا المرتب حتى نزعته منها السلطات تحت P.Rylands IX,9,13,19,11,4.

(١٥٤) Diodorus,1,57.1.

(١٥٥) كان استعمال كلمة "فضة" فى الدلالة على "النقود" قد استقر تماما فى ظل الملكة الحديثة فى مصر، رغم ان الأسعار كانت تقيّم، عادة، بوحدات وزنية من النحاس و المصطلحات المستعملة تشير إلى وحدات قيمة، بدلا عن نقود معدنية.، انظر:

(J.J.Janssen,Commodity, Prices from the Ramessid Period {Leiden,1975}, 101-105).

ولقد استمر التبادل خلال هذه الفترة يقوم على المقايضة أو المقايضة -النقود.(المرجع السابق ص ٥٤٥ وما بعدها.

(١٥٦) "ونامون" (١، ١١) يشير إلى وجود فضة فى حقيبة، ولكن هذه لم تكن أكثر من قطع صغيرة، و بأحجام تسمح بإدخالها فى كيس و لا تحوز أهمية كافية للتوقف أمامها.

(١٥٧) نجد أحدث نقاش حول هذا الموضوع عند:

J.Quaegebeur,in S.Groll,ed.,Pharaonic Egypt, the Bible and Christianity (Jerusalem,1985),162-72.

(١٥٨) قارن بردية "ويست كار" حيث نستطيع أن نقف على دور الحكيم فى أدب الملكة الوسيطة فى أنقى صوره.

(١٥٩) Chester Beatty IV, verso 2 :5ff

بردية "تشيستر بيتى" رقم ٤ ظهر البردية، ٢: ٥ و ما بعدها.

(١٦٠) Thotemheb in the Bentresh stela:ANET2,29-31(22nd to 26th Dynasty date)

(١٦١) Meryre, in P.Vandier:G.Posener,Le Papyrus Vandier (Cairo,1985) (dated between c.650 and 350 B.C.

(١٦٢) Imhotpe in Siheil famine inscription:P.Barguet, La stèle à Séhel (Cairo, 1953);ANET2,31-32 (Ptolemaic date).

(١٦٣) Si-Osir in Khamois II: Lichtheim, Literature, 3: 138-51) Ptolemaic date)

(١٦٤) Phritiphantes in Chaeremon (Redford, King - lists , 278 - 88 and n. 99 { Ptolem aic date}) following Codex Laurentianus, rather than the Latin which

Phritibautes:H.st.J.Thackeray,Josephus against Apion (London,1976),1:280, n.1(Contra Apionem 1.289).

النص اللاتينى هو أقــل النصــوص جـدارة بالقبول نظرا لاحتوائه على بلبلة الحروف الشفوية والنسخ الخاطئ لحرف (upsilon) اليونانى، وهو الحرف الذى ينبغى أن نتوقع وجوده فى العصر البيزنطى.

(١٦٥) Redford, Joseph Story, 97; J.J.Collins, JBL 94 (1975), 224-27; J.M. Lindenberger, in Charlesworth, Pseudepigrapha, 2: 479-507.

الفصل الخامس عشر

مصر وسقوط "يهودا"

فى الوقت الذى اختفى فيه جيش "آشور - بنى - بعل" وراء الأفق فى صيف سنة ٦٦٣ ق.م. كى يعود إلى "آشور"، لم يتنبأ إلاّ قليلون بأى شىء آخر لبلاد النيل سوى وضع الخضوع بشكل مؤقت، بعد أن انتهت إلى منزلة التابع بشكل دائم للملك العظيم الجالس فى "نينوى". ففى الدلتا استمرت العائلات المالكة للأراضى الزراعية من السادة الليبيين، فى حراسة تركاتهم بشكل يحرك مكامن الحسد، ولما كانت تضمر باستمرار الشك كل فى الأخرى، فلقد كانت بالتالى عاجزة تمام العجز، عن الاتحاد فيما بينها. وفى أعالى نهر النيل شكّلت المدن الكبرى مثل "هيراكليوبوليس" (= "الكاب" حاليًا قرب الكوم الأحمر ١٣ ك شمالى مدينة "إدفو"-أسوان. المترجم) و"هيرموبوليس" (= "الأشمونين" حاليًا) و"أسيوط" زمامات مستقلة، وكان زمام "طيبة" قد أصبح وقت ذاك معزولاً من الناحية الفعلية عن الشمال تحت إمرة عمدة - كاهن يدعى "مونتو-إم-حات"(="مونتو فى المقدمة" بالمصرى). وإذا ما أوغل المرء فى أعماق الجنوب، وخصوصًا فى ذلك الشريط من الوادى الذى تحكمه مدينة "طيبة"، فإنه يكتشف وجود روابط أقوى بالمملكة السودانية، ولم يكن هناك من يستطيع أن يتأكد من أن "تانتوتامان" Tantwetaman لن يزحف مرة أخرى هابطًا مع تيار النيل، مع أن "آشور- بنى- بعل" كان قد ألحق به الهزيمة من قبل. ولم يكن ذلك لأن أحدًا سوف يرحب به فى الشمال: عائلات الدلتا كانت تبغضه بغضها للآشوريين. وحتى وجود ابن "نيخو" الأول المدعو "نابوشيزيبانى" Nabushezibani (إذا ما دعوناه باسمه الآشورى) كى يقوم بدور أشبه بدور المندوب السامى (= نائب الملك) لـ "آشور" على مصر، لم يبد قادرًا على

أن يضمن أى ولاء أو حتى موقفًا متناسقًا من جانب هذه العائلات(١). ولقد تمركزت فى القلعة فى "منف" حامية أشورية قليلة العدد وإن كانت قوية، تستغل كافة المزايا العائدة من تفكك مصر(٢).

ولكن المستحيل أصبح حقيقة واقعة فى غضون عقد واحد لا غير: جرَّد المصريون عائلات الدلتا (الليبية الأصل) من سلطانها، وطردوا الحامية الآشورية وعادت مصر تتنفس أجواء الوحدة من جديد تحت قيادة "صايس". كيف حدث كل ذلك؟

الإصلاح الصاوى لمصر:

بادئ ذى بدء، يتعيَّن علينا أن نعزو الإنجاز بأسره إلى قوة بصيرة رجل واحد، حنكته الدبلوماسية هو "نابوشيزيبانى" بن "نيخو"، الذى سنطلق عليه من الآن فصاعدًا اسم الميلاد الذى حمله وهو "بيسماتيك"،(٣) ولو أن استيلاءه على السلطة وتأسيسه لأسرة جديدة هى الأسرة السادسة والعشرون لا يرد لهما ذكر فى الوثائق المعاصرة، وهى على أى حال شحيحة للغاية، ونجد أنفسنا مضطرين إلى الركون إلى ذاكرة الأجيال اللاحقة، وخصوصًا تلك الحكايات التى سمعها المؤرخ والرحالة اليونانى "هيرودوت" عندما زار مصر. فـ "هيرودوت" الذى قدم إلى مصر بعد وقت قصير من سنة ٤٥٠ق.م. عاش داخل نطاق غسق الغروب للأسرة السادسة والعشرين، آخر النظم المستقلة العظيمة التى استمرت على قيد البقاء فى ذاكرة تواقة لمصر التى كانت يومًا ما عظمى ولكنها أصبحت الآن تدين بالخضوع للفرس. ولقد تضافرت كل من حداثة العهد والحمية القومية (المصرية) كى تشحذ هذه الذاكرة وتجعلها أحد من أى ذاكرة عرفتها أى فترة سابقة فى تاريخ مصر(٤). وتهدف إحدى الحكايات التى سمعها "هيرودوت" إلى وصف صعود "بيسماتيك" إلى سدة الحكم(٥). تقول الحكاية إنه كان واحدًا من الاثنى عشر حاكمًا الذين يتقاتلون فيما بينهم فى الدلتا، ولكنهم اتفقوا، على مضض، على إبرام هدنة فيما بينهم، وهى الهدنة التى جرى التصديق عليها شعائريًا فى معبد "هيفايستوس" Hephaistos فى "منف". وصار عليهم أن يحضروا إلى المعبد

بصفة سنوية كى يجددوا التزامهم بالاتفاق حول الهدنة بصبان النبيذ (طقس عرفه العالم القديم، ومصر بينه، ويقوم على سكب النبيذ على الأرض قربانًا للآلهة - المترجم) وأعلنت إحدى النبوءات أن الملك القادم للبلاد هو الذى سيصب نبيذ القربان من وعاء مصنوع من البرونز، ونتيجة للحسد الذى تولد عن ذلك عند الحكام الاثنى عشر، حظروا دخول الأوعية المصنوعة من البرونز إلى المعبد. وذات مرة، عندما اصطف الحكام من أجل صبان النبيذ، كان "بيسماتيك" فى آخر الصف. وجاء الكاهن المحتفل ووزَّع عليهم كئوس الصبيان، إلاّ أنه لم يجد الكأس الثانى عشر، كى يعطيه لـ "بيسماتيك"، فما كان منه إلاّ أن رفع خوذته، بسلامة نية، وصب منها قربانه. وعندئذ أدرك الحكام الاثنا عشر دفعة واحدة أن النبوءة قد تحققت، وقاموا بطرده من المعبد، فاضطر أن ينجو بجلده إلى أحراش الدلتا. وتنبَّأ هاتف إلهى آخر بأن "بيسماتيك" سوف يتلقى عونًا من الرجال البرونز الذين سيخرجون إليه من البحر، وذات يوم وبينما كان يسير على ساحل البحر المتوسط فى منفاه، عثر على قارب جانح، محمَّلاً بعدد من المحاربين الأيونيين المدججين بالسلاح، كانت الأمواج قد قذفت بهم على الشاطئ. وبمساعدة هؤلاء حقق "بسماتيك" الظفر على غرمائه.

حقًا تطل هذه الحكاية المطولة على الأحداث من بعد بعيد، إلاّ أنها تحتوى على قدر ما من الحقيقة. فالحكاية تتذكر، بشكل صحيح، فترة الجمود والفوضى التى أعقبت انسحاب الآشوريين. ويبدو صحيحًا أيضًا على الأرجح ذكرها هروب "بيسماتيك" من وجه العداء الذى جاهرته به عائلات الدلتا إلى المستنقعات البعيدة فى الشمال طلبًا للسلامة. ومن المؤكد صحة موضوع المساعدة العسكرية التى تلقاها، كما سنرى، من القراصنة اليونانيين.

قليلة فى الحقيقة هى السجلات الرصينة التى ترجع إلى الفترة الأولى من حكم هذا الفرعون، ولكننا لن نكون قد شططنا بعيدًا كثيرًا عن الهدف المنشود إذا أعدنا بناء سيرة "بيسماتيك" وفقًا للخطوط التالية: فى الوقت الذى كان "آشور - بنى - بعل" ينسحب فيه من "بيسماتيك" النيل، كان "بيسماتيك" قد نُصِّب فى منصب "أورپايس" Orpayes (= ولى عهد) وكربيب لـ "آشور" فى "أتريب"، على بعد خمسة وستين كيلو مترًا شمالى القاهرة

الحديثة، ولكن تعاونه مع الغازى، لابد وأن يكون قد جعل منه شخصًا ملعونًا بالنسبة لحكام المدن المجاورة، واضطر، كما يجوز لنا أن نتخيل، إلى مغادرة "أتريب" فور انسحاب الآشوريين أو بعده بقليل، والهروب إلى تركته القديمة فى "صايس". ومن المرجح تمامًا أن "بيسماتيك" حاول فى البداية أن يستخدم كل الاستخدام الدعم الذى قدمته له الحامية الآشورية فى العودة إلى "منف" وفى ردع الفصائل المحلية عن التعرض له، ويبدو أيضًا أن عون الحامية الآشورية هو الذى مكنه أولاً من إحباط المحاولة الثانية التى بذلها "تانتوتامان" نحوالاستيلاء على الشمال، ثم من إنزال الهزيمة بالنوبيين الغزاة شمالى "منف" مباشرة[٦].

وقت ذاك كان الساحل مفتوحًا وتحولت الرياح لصالح "بيسماتيك". وبحلول سنة ٦٦٠ ق.م. كان قد بدأ فى إعادة تنظيم الاقتصاد والنظام الضرائبى لمراكز مصر الوسطى، ولم تكد تمر أربع سنوات واستشعر من القوة ما جعله يشرع فى الدخول فى مفاتحات جادة مع "منتو – أم – حات" فى "طيبة". وكان ذلك الرجل النبيل، المعيَّن من جانب النوبيين ورئيس إدارة محلية لا تزال تدين بالولاء لـ "تانتوتامان"، يحوز من الواقعية قدرًا يجعله يدرك التغير الذى دخل على شكل السلطة السياسية التى قامت فى مصر[٧]. وقت ذاك كان "بيسماتيك" إما قد طرد أو على وشك أن يطرد الحامية الآشورية من "منف"، كما كانت الغارات التى شنها "الكيمزيون" فى ربيع سنة ٦٥٧ق.م.،[٨] والحرب العيلامية ـ الآشورية[٩] قد حالتا دون "آشور – بن – بعل" واتخاذ أى عمل من أعمال القصاص. وعند ذاك أذعن "مونتو– إم– حات" للاقتراح الذى أشار عليه به "بيسماتيك" بتعيين ابنته الصغيرة "نيتوكريس" Nitocris فى وظيفة كهنوتية رفيعة فى "طيبة"، وفى شتاء سنة ٦٥٦ ق.م. حمل أسطول صغير من السفن الملكية الفتاة الصغيرة إلى "طيبة"[١٠]. وفى "ضربة معلم" masterstroke دبلوماسية الطابع، أحجم "بيسماتيك" عن إقصاء "شيبون – ويريت" Shepwenweret الثانية عابدة "آمون" المقدسة و"الرئيس الاسمى" (مع حذف "تاء" التأنيث) لزمام "طيبة"، وكانت سليلة أسرة كوشية ملكية. ولكنه ألزم، عوضًا عن ذلك، هذه "الكاهنة العظمى" بتبنى "نيتوكريس" كربيبتها وشريكتها الصغرى. ولذلك اضطر عدد كبير من المدن والوجهاء أن يتنازلوا

عن بعض ممتلكاتهم وبضائعهم للأميرة الصغيرة كجزء من "مهرها"، وعاد زمام "طيبة" بصورة قانونية وبصفة دائمة إلى التاج المصرى. ولم تكد تمر سنتان أى فى سنة ٦٥٤ ق.م. اتخذ "بيسماتيك" إجراء تأديبيًا ضد عدد من الجيوب الليبية على مشارف أسافل الوادى، وهو الأمر الذى بسط سيادة "بيسماتيك" على ذلك العنصر العرقى[١١]. وفى نفس الوقت على وجه التقريب فاتح "جيجيز"، ملك "ليديا"، فى إطار بحثه عن أى عون يستطيع الحصول عليه ضد التهديد القادم من الشمال الذى شكَّله الكيمزيون لبلاده، "بيسماتيك" لإقامة تحالف فيما بينهما، وبناء على ذلك عبرت قوة عسكرية من الجنود اليونانيين يرجعون فى أصلهم إلى ذلك الجزء من "أيونيا" الواقع تحت سيطرة الليديين، البحر المتوسط، كى تدخل الخدمة العسكرية فى مصر[١٢]. وكان هؤلاء الجنود هم بشائر السيل بمعنى الكلمة من المرتزقة اليونانيين الذى ظل يتدفق طوال القرون الثلاثة والنصف اللاحقة جنوبًا كى يعمل فى خدمة الفراعنة بأعداد أخذت فى التزايد بشكل دائم. وبهم أصبحت القوة العسكرية المصرية، التى لابد أن يكون "بيسماتيك" قد ارتأى أنها أعجز من أن تصل إلى المستويات المعاصرة، مستعدة لتحدى العالم، وعندئذ استطاعت مصر مرة أخرى أن تقدم نفسها للعالم الخارجى كدولة موحدة تتمتع بالقوة.

على هذا النحو دشنت الأسرة السادسة والعشرون، أو الأسرة الصاوية آخر فترة من تجديد إمبراطورى وثقافى يستند إلى إلهام قومى كان لمصر القديمة أن تعرفه. ومع أن العائلة التى ينتمى إليها حكام "صايس" ترجع إلى أصول ليبية - تولوا فى الحقيقة منصب (رئيس قبيلة "اللابو") جيلاً إثر جيل[١٣] - إلاّ أن أحدًا من المصريين لم يشعر بأن بيسماتيك" أو حاشيته التى تضم عددًا من المستشارين النابهين أجانب أو دخلاء. وكانت النهضة مصرية خالصة، رُسمت وفقًا لخطوط مصرية وقيست على مثل تلك النماذج القديمة حتى إن البعض سعى، لأسباب وجيهة فيما نظن، إلى الحديث عنها بصفتها ولعًا ثقافيًا بكل ما هو قديم[١٤]. وخلال المائة وأربعين سنة التى قضاها "بيسماتيك" وأحفاده الأكفاء فى حكم مصر، وصلت الحدود، كما كان الحال فى العصر الكلاسيكى تحت ظل المملكة القديمة، من البحر المتوسط حتى الشلال الأول.

وعلى المستوى الداخلى عرفت البلاد إعادة تنظيم صارم، منح البلاد قوة بما لا يقاس. ففى العاصمة التى نُقلت وقت ذاك إلى "صايس" أخذ بلاط ضخم شكله، الأمر الذى أعاد إلى الأذهان الأمجاد التى طواها الزمن للإمبراطورية المصرية، وتحول المعبد المحلى للإلهة "نيت" Neith إلى خزانة الدولة من الناحية الفعلية[١٥]. ووضع "بيسماتيك" نظامًا إقطاعيًا قويًا تحت إمرة "وزير" وأعاد تنظيم الهيكل القضائى، وهو الأمر الذى وضع نهاية لقرون من النزعة الإقليمية الطابع التى تتسم بالضعف وضيق الأفق والجمود. وفى المديريات نجح "بيسماتيك" فى حرمان عائلات ملاك الأراضى الزراعية من السلطة السياسية بإقامة حكومات محلية قوية مسئولة أمام العاصمة "صايس": كل مركز خضع لحاكم وسكرتير عام (= وزير محلى) وكان هذان مسئولان عن الإنتاج الزراعى وتوزيع الأراضى الزراعية على فلاحيها، وبسط العدالة ووضع أحكام القانون موضع التنفيذ.

لم تتردد ثروة مصر الكامنة والدخل الذى تستطيع استدراره من التجارة الخارجية فى السيطرة على سياسات الفراعنة الصاويين. فجزء كبير من مسئوليات حاكم المركز أصبحت تتصل بجمع الضرائب، التى امتدت حتى شملت المعابد ذاتها، وهناك بعض الأدلة، قبل نهاية سيادتهم فى ربوع مصر، على العمل بموجب ضريبة، وإن كانت بدائية، على الدخول[١٦]. وفى ضوء الأهمية المعاصرة التى علقت على الحركة التجارية، لا ينبغى لنا أن نندهش من أن نجد أن "ناظر ميناء" (مكلف بتحصيل مكوس المرور) و"ناظر شحن" كانا من أهم الألقاب التى يحصل عليها الموظفون فى النظام الحاكم.

عمل اهتمام الصاويين بالتجارة الخارجية عمل إكسير الإنعاش فى مصر (شكل رقم ١٠) ففى أرجح الاحتمالات شهدت الهيمنة الليبية الطويلة الأمد تقلصًا فى الاهتمام القومى (= اهتمام المصريين) فى إرسال سفنهم بعيدًا عن أرض الوطن سعيًا وراء البضائع التى يريدون الاتجار فيها. وعلى أى حال كان الاندفاع وراء المبادرات فى المسائل التجارية أمرًا لا يتلاءم تمامًا مع روح المصريين، الذين كانوا قد اعتادوا، كما كان يسير الحال معهم من قبل، على مباشرة رقابة إمبراطورية على الأجانب الذين كانوا ملزمين بجلب منتجاتهم بأنفسهم إلى مصر. ولقد شهدت القرون

الثلاثة الأولى من الألف الأول التداول المستمر للبضائع المصرية فى سائر أرجاء المشرق، ولم يكن ذلك راجعًا إلاّ لدور الوسيط الذى قام به التجار الفينيقيون(١٧). والآن ومع كل ذلك، تولت زمام الأمور فى مصر عائلة جديدة، وهى عائلة تملك ميلاً قويًا نحو التجارة، وليس هناك لحظة أكثر مواتاة يستطيع المرء أن يتخيلها فى التاريخ: كان النشاط التجارى للفينيقيين قد بلغ ذروته، والسفن اليونانية تجوب أرجاء البحر المتوسط كى تستعمر الشواطئ النائية، والدروب تمتد مفتوحة إلى جنوب شبه جزيرة العرب وبلاد القوقاز وإيران والبنجاب.

نستطيع أن نعيد بناء خطوط التجارة الخارجية لمصر استنادًا لمثل تلك المصادر الأدبية مثل الكتاب الكلاسيكيين و"التوراة"، والتلميحات المتناثرة فى النصوص الأكدية، وخصوصًا من جداريات المعابد التى ترجع للفترة البطلمية فى مصر، وينبغى البحث عن مصادر الإلهام التى نبعت منها فى النماذج الأولى للعصر الصاوى. حقًا جرى إنشاء مركز جمارك عند الشلال الأول، إلاّ أن مصر تمتعت بتجارة أقل مما كانت تتمتع به فيما مضى مع عدوها اللدود: المملكة السودانية فى الجنوب. ومع ذلك أحكمت مصر سيطرتها على الدرب الذى يمر بالواحات الغربية خلال "الداخلة" و"الخارجة" و"الدش" Dush ، وهو الدرب الذى كان بمثابة درب بديل باتجاه الجنوب إلى أعالى نهر النيل،(١٨) وبحلول نهاية القرن السابع ق.م. كانت مصر قد بدأت تفصح بوضوح عن اهتمام متجدد بالسواحل التقليدية لبلاد "بونت" عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر. وفى هذا الصدد يستطيع المرء أن يندهش للإقدام وعمق البصيرة اللذين تمتع بهما "نيخو" الثانى الذى حفر قناة تربط بين نهر النيل والبحر الأحمر عبر "وادى طوميلات" وبنى الأحواض على الساحل، فى زمام مدينة "السويس" الحديثة على وجه الترجيح. ولا يساور المرء شك كبير فى أن كل ذلك إنما جاء فى إطار التحضير لنشاط بحرى، يحمل طابعًا تجاريًا على الأقل فى جانب منه، مع الجنوب، (مع أن هذا الفرعون كان محاصرًا، هو الآخر بالهموم العسكرية)(١٩) وفى خضم كل هذه العمليات البحرية اختفى أحد أطقم البحارة الفينيقيين الذين يعملون فى خدمة الفرعون "نيخو" فى البحر الأحمر، كى يعود إلى الظهور مرة أخرى بعد مرور ثلاث سنوات عبر مضايق "جبل

طارق". ويصب "هيرودوت"، مخبرنا الذى ننقل عنه هنا، ازدراءه على هذه الحكاية: فوفقًا لمعارفه الجغرافية الخاصة كان من المستحيل أن يدور هذا الطاقم البحرى هذه الدورة من البحر الأحمر حتى البحرالمتوسط[٢٠].

ولقد استمرت مصر، رغم الاضطرابات السياسية التى كانت آخذة بخناق آسيا الغربية فى ذلك الوقت، تتمتع بحق الوصول الحر بصورة نسبية إلى المنتجات التى تتوق إليها: النبيذ وحجر الشبة من "فينيقيا" والأعشاب الطبية من فلسطين والمواد العطرية والبيتومين (= قار معدنى) من الضفة الغربية، كما تدفق سيل من المنتجات المجلوبة من جنوب شبه جزيرة العرب عبر "سيناء" كى يتجمع فى "غزة"[٢١].

ولكن "صايس" غدت بموقعها الجغرافى هذا بشيرًا يبشر بـ "الإسكندرية"، ويتطلع باتجاه الشمال والغرب معًا، ولا ينبغى أن يكون مثار دهشة لأحد أن يرفع حكامها عاليًا شأن التجارة التى تمتعوا بها مع بلاد اليونان. وفى أعقاب المرتزقة الذين جلبهم "بيسماتيك" من بلاد "جيجيز"، جاء التجار والمغامرون اليونانيون، وهم عازمون على إقامة المستعمرات، ولكن بينما لم يجد المستعمرون اليونانيون صعوبة كبيرة فى التمكين لأنفسهم فى أى مكان آخر على طول الساحل المشرقى، اختلف الأمر معهم فى مصر التى تتمتع بكثافة سكانية عالية إذ نشأت أمامهم الصعاب. ولقد كان المركز التجارى المبكر الذى أقيم عند مصب الفرع الكانوبى (= أحد الفروع السبعة للنيل فى مصر القديمة - المترجم) للنيل بؤرة نزاع بين الأجانب وأهالى البلاد الأصليين من المصريين، ولكى يتجنب "بيسماتيك" أى مشكلة قد تنجم عن صراع الثقافات، أسس قرب نهاية حكمه مدينة تجارية مخصوصة بعيدًا عن الساحل فى أعماق البلاد داخل نطاق الزمام الأوسع لمدينة "صايس" العاصمة. ولقد منح "بيسماتيك" هذه المدينة، وهى "نكراتيس" (= نقراش الحالية)، كسوق مركزى لمجموعة من المدن اليونانية، وخلالها تدفقت الصفقات التجارية فى القمح والبردى والزيوت والنبيذ والفخار بين وادى النيل وأعماق بلاد اليونان[٢٢].

الأسرة السادسة والعشرون ويهودا:

عندما حلت السنة الخامسة عشرة للفرعون "بيسماتيك" في الحكم (٦٥٠ ق.م.) كانت الأمور تسير حقًا على خير ما يرام في الجنوب أي الوجه القبلي. وكان "بيديسي" Pedeise بن "يرتيرو" Yerteru قد انضم إلى محكمة العدل العليا، وزاد مقدار الفضة والقمح (الذي جمعه على سبيل الضرائب التي فرضها على الأهالي) بما يصل إلى مائة في المائة"[٢٣]. ولم تجد سنة ٦٥٠ ق.م. بلاد الجنوب (الوجه القبلي) (خريطة ص ٤٣٦ في النص الأصلي) وحدها، بل وبلاد المشرق بأسرها وقد دخلت في نطاق ضوء الشفق المصري كي تنعم بوهج مصر التي عادت مرة أخرى إلى الانتعاش. وفي ذلك الوقت كان "منسّى" العجوز بمثابة "قس قرية "براي" Vicar of Bray، (= قس صالح لكل العصور ومتوافق مع جميع الحكام- المترجم) لو كان للدنيا أن تعرف واحداً مثله، قد دخل عقده الرابع على عرش "يهودا" في سنة ٦٥٠ ق.م. أما معاصروه الأصغر سنًا "سيل - بيل" Sil-bel حاكم "غزة" و"ميتيني" Mitini الثاني حاكم "عشقلون" و"إكوشي" Ikaushi حاكم "إكرون": Ekron و"أميناداب" Aminadab حاكم "عمون" و"موصري" Musuri حاكم "مؤاب" (=موأب) و"كشجابري" Kaushgabri حاكم "إيدوم" (="أدوم" في "العهد القديم" طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط- المترجم) فكانوا قد بلغوا ذروة حياتهم السياسية[٢٤].

لم يحظ "منسّى"، كي نقول أقل القليل عنه، إلاّ بإعلام سيئ. فاليوم يمكننا أن نصفه بأنه سياسي واقعي، وفيما يتعلق بالشئون الدينية كان متسامحًا ومنحازًا للتعددية. ولكن السعار الذي صاحب عمليات تحطيم الصور والتماثيل في عصر لاحق، وتشويه التاريخ عن طريق ادعاء الحكمة المتأخرة (= بأثر رجعي) وصماه بأنه عابد من أسوأ عبدة الأصنام، جلب غضب الإله على شعبه[٢٥]. ومع ذلك كانت عبادة "السيد" (= بعل) وقرينته (عشيرة) المعروفة في المدينة المحلية وما حولها "إله مدينة" dei civitatis في حقيقة الأمر، متفشية في ديانة المشرق منذ وقت مبكر يرجع على أقل تقدير إلى العصر البرونزي المتأخر، وربما إلى وقت أقدم من ذلك كثيراً. ومع أن عبادة الثنائي "السيد" و"السيدة" كانت أكثر شيوعًا في الساحل المشرقي، إلاّ أنها أي تلك العبادة كانت أيضًا معروفة في المدن الأشد خشونة والبعيدة عن الساحل في أعماق البلاد، مثل

"حمات" Hamath ودمشق و"أورشليم". ولكن هذه المدن وجدت عند هذه النقطة لزامًا عليها أن تتباهى بعبادات ذات نزعة أشد تطهرية، وحدث ذلك فى الأصل فى موطنها الأول وسط التجمعات الأكثر تقشفًا فى سهوب الصحراء، حيث انبثقت هذه الدول الداخلية بمعنى البعيدة عن ساحل المشرق. مثل ذلك الإله لم يكن سوى "يهوه" الذى لم يكن ليمانع، فى حقيقة الأمر، فى اتخاذ قرينة مثل "عشيرة"[٢٦]. ولكن "جريمة" "منسًى" الذى لم يكن بارتكابها نشازًا بين الغالبية الساحقة من الملوك (الإسرائيليين) قبله، تكمن فى التعامل مع المعبد فى "أورشليم" تمامًا مثلما اعتزم "سليمان": "مصلى ملكيًا" حيث يجوز، مع ما يملكه "يهوه" من سيادة على المطرح، استضافة عبادات الآلهة الأخرى. ولم يكن هناك أى شىء غريب على وجه الإطلاق فى ذلك بالمقاييس المعاصرة، إلاّ أن ذلك لم يكن ليناسب الإطار العقلى للمجددين المتطهرين الذين ظهروا بعد ذلك بجيلين وحسب.

ومع ذلك أثبت حكم "منسًى" أنه عصر خيَّم فيه السلام على ربوع بلاده، ولم يكن ذلك راجعًا، بكل تأكيد، إلاّ إلى تسليمه، على نحو شامل، بالإطار الأكبر لإعادة صوغ هيكل القوة الدولية فى عصره. وفى ستينيات القرن السادس ق.م. وجد لزامًا عليه أن يلتزم التزامًا دقيقًا بالخط الذى انتهجه الآشوريون تجاه زملائه فى فلسطين والضفة الغربية. فلقد استمر الآشوريون يحتفظون بحاميات لهم فى مدن إقليم "شيفلاه" مثل "جزر" و"لاخيش" حتى سنة ٦٤٩ ق.م.[٢٧] وحتى خلال السنوات التى أعقبت هذا التاريخ الأخير مباشرة، كان "آشور - بنى - بعل" لا يزال قادرًا على توجيه ضربات ناجحة للقبائل العربية المتاخمة لفلسطين[٢٨]. ولكن نجم "بيسماتيك" كان يواصل الصعود، وربما يكون أى حاكم أصغر شأنًا قد وجد نفسه فى ورطة بكل معنى الكلمة، إلاّ أن "منسًى" كان قد خضع باستكانة ومذلة لـ "آشور"، وأصبح وقت ذاك مستعدًا بنفس الدرجة للخضوع لمصر. وأسفر ذلك عن غياب كامل للأعمال الحربية فى مملكته لخمسة عقود (= خمسين سنة). ولقد أوضحت عمليات التنقيب التى جرت فى "أورشليم" سواء فى الجبل الغربى أو السفح الشرقى لمدينة "داود" الأصلية[٢٩]، على نحو جلى، كيف أن الرخاء الذى ساد عصره انعكس فى اتساع الرقعة التى تحتلها منازل رعاياه

ودور عبادتهم خارج نطاق خط أسوار "حزقيا" الدفاعية. فعلى منحدر "وادى قيدرون" فوق ينبوع "جيهون" Gihon اكتشف المنقبون أطلال الأضرحة المبنية من الحجر، فى ارتباطها بالكهوف والجبانات التى تتجه نحو مشرق الشمس(٣٠). ولم يكن السياق المادى والخرفى إلاّ ليتناسب بأعجوبة مع حكم "منسًى" عندما أصبحت عبادة الشمس شائعة بين الإسرائيليين بصورة بارزة.

الغزو السيثيانى :

لو لم تتدخل قوة أخرى فى المعادلة السياسية، ربما كان فى وسع مصر و"آشور"، خلال السنوات التى أعقبت سنة ٦٥٠ ق.م. أن تتفقا، بصورة ضمنية، على الحفاظ على منطقتىْ نفوذ منفصلتين لهما، ولكان فى طوعهما أن تقتسما العالم القديم فيما بينهما. ولكن عنصراً جديداً خرج من صقع لم يكن لأحد أن يتوقع منه هذا الخروج، كان على وشك أن يصطدم بالدولتين المجهدتين العجوزين اللتين بنيتا حضارتين عظميين فى واديهما اللذين يرويهما نهران عظيمان: كانت هناك دوامة هائلة تتجمع فى الشمال.

فى القرون الأولى من الألف الأول ق.م. كانت تقيم فى سهول الإستبس فى جنوب روسيا أمة شبه بدوية كانت تربى الخيول ومعروفة باسم "الكيمزيين" Cimmerians، وكان أبناؤها مجبولين على حب الحرابة ودائمى الحركة، وكانت هذه الأمة تنتمى من الناحية اللغوية إلى العائلة الهندو-أوربية، ولقد ذكرها "هومير" (فى القرن العاشر إلى التاسْع ق.م.) كأمة بعيدة تكاد أن تكون مجهولة لا يعرفها أحد. وحوالى سنة ٧٥٠ ق.م. عانى قطاع من هؤلاء الكيمزيين من التشريد على أيدى شعب أسيوى يرتبط بهم بصلة قرابة قوية يدعى "السيثيان" واضطر هذا القطاع إلى الرحيل فى اتجاه الجنوب عبر جبال القوقاز. وسرعان ما اكتسبوا جميعًا ملامح حركة شعبية، هبطت على "أورارتو" خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن ق.م. ثم تحركت قليلاً باتجاه الجنوب كى تكتسح مملكة "فريجيا". وفى سنة ٦٧٩ ق.م. ردهم "إزارهادون" بصعوبة بالغة على أعقابهم، فوجدوا أنفسهم منجذبين نحو جزر بحر "إيجة" عبر هضبة الأناضول وبعد

عـدة عـقـود مــن السلب والنـهـب بصــورة دوريـة نجـحــوا فى الاسـتـيــلاء على "ساردیس" Sardis وقتلوا "جيجيز" ملك "ليديا"، الذى ظل حليفًا لـ "بيسماتيك" حتى ذلك الوقت[٣١].

وغداة الاضطراب الذى أحدثه الكيمزيون جاء الآن "السيثيان" عبر نفس الطريق. وكان هؤلاء السلابون - النهابون ليمارسوا تأثيرًا ضارًا على القرون الثلاثة من تاريخ الشـرق الأدنى، لولا الفـضل الذى يعـود إلى حـملة الإجـهـاض التى قـادها ضـدهم "داريوش" الأول، وإلاّ لكانوا قـد ضـمنوا فـقـرة طويلة حـقًـا فى التـاريخ الذى كـتبـه "هيرودوت". ففى مطلع سبـعينيات القرن السـادس ق.م. دفع الظهور المفاجئ للتهديد الذى شكله جيش "السيثيان" على حدود "إزارهادون" ملك "آشور" إلى أن يقدم ابنته كزوجة إلى "بارتاتوا" Partatua رئيس "السيثيان"[٣٢]. بعدئذٍ، وربما من باب التعاطف مع "آشور" استداروا على "ميديا"، التى كانت بمثابة قوة ناشئة ومعادية لـ "آشور" فى غرب إيران[٣٣]. وعند هذه النقطة تجرى رواية "هيرودوت" على هذا النحو:[٣٤]

وقعت معركة انهزم فيها "الميديون" وفقدوا سلطانهم فى آسيا، التى استولى عليها بأسرها من بعدهم "السيثيان" ... وخلال السنوات الثماني والعشرين التى عاشتها السيادة السيثيانية فى آسيا، أدت أعمال العنف والتقصير فى مراعاة القانون إلى فوضى مطلقة. وإلى جانب الجزية التى فرضت بصورة جزافية على الأهالى وانتزعت منهم بصورة قهرية، سلكوا سلوك اللصوص لا غير، يجوبون البلاد أعاليها وأسافلها على متن الخيول كى يصادروا ممتلكات كل من يصادفونه. وفى نهاية الأمر دعا "السياكساريس" Cyaxares و"الميديين" أعدادًا غفيرة منهم إلى مأدبة عامرة حيث أكلوا حتى بشموا وشربوا حتى سكروا كى يلاقوا فى النهاية مصير الاغتيال، واستولوا (أى الميديون) على "نينوى" وأخضعوا الآشوريين لإمرتهم.

بالنسبة لـ "هيرودوت" كان هجوم "السيثيان" على الساحل المشرقى، الذى حدث قبل سقوط "نينوى" بثمانى وعشرين سنة، قد انطوى على دور لـ "بيسماتيك" الأول، الذى

حاول فى رهان مستقتل أن يشترى رضى الغزاة خلال المفاوضات(٣٥). وفى نهاية المطاف نجح هو و"السيثيان" الذين كانوا قد توغلوا حتى وصلوا إلى حدود مصر ذاتها، وانسحبوا طوعًا عن طريق "عشقلون" بعد أن أسلموها للسلب والنهب. لكن القصة التى تشير إلى هزيمتهم باستمرار بعد إصابتهم بـ "مرض المرأة" تنضح بمحاولات التسويغ etiology وبنفس الظلال البذيئة التى تلف الحكاية التى يحكيها سفر "صاموييل" (= صموئيل) الأول حول الكيفية التى نزل بها بلاء البواسير بالفلسطينيين فى نفس الزمام الذى مر خلاله "السيثيان"، من جراء تدنيسهم لفلك "نوح".

ولقد قوبلت الرواية التى يوردها "هيرودوت" حول غارة خاطفة هبط خلالها "السيثيان" على ساحل المشرق، بقدر متنوع من درجات القبول من جانب العلماء. فلقد رفضها البعض باعتبارها رواية خيالية، قيست بشكل زائف، على نمط غارات "الكيمزيين" Cimmerians على آسيا الصغرى. بينما رأى فيها آخرون تشويهًا للمهمة التاريخية التى قامت بها قوات المرتزقة من "السيثيان"، التى كانت تعمل فى خدمة الآشوريين فى المراكز الآشورية فى فلسطين، وما نجم عن تلك المهمة من مناوشات مع مصر. وفى الوقت الذى كان الدارسون القدامى لـ "التوراة" يفسرون فيه النبوءات السابقة لـ "إرميا" النبى بأن مؤلفها استوحى فيها غارات "السيثيان"، ترجع التيارات الحديثة بين الدارسين هذه الإصحاحات إلى تاريخ متأخر للغاية، كما تميل إلى رفض تاريخية الغارات ذاتها(٣٦).

والحقيقة أن غارة يقوم بها فرسان جوالون من نوع "السيثيان" الذين يُعرفون بأنهم كانوا كذلك، بعيداً فى الجنوب تقبل الدخول فى نطاق مملكة الإمكان. وإذا كان فى طوعهم، انطلاقًا من قاعدتهم فى كردستان الإيرانية(٣٧)، أن يباشروا عملياتهم كما يحلو لهم فى سائر أرجاء المملكتين الجبليتين القويتين: "فريجيا" و"ليديا"، فإن هناك أسبابًا أكثر من وجيهة للاعتقاد بأنهم كانوا يستطيعون حتى بدرجة أكبر من السهولة أن يسيطروا على الدروب المطروقة جيداً لساحل البحرالمتوسط. وكان هناك الكثير مما يستطيع جذبهم فى المدن الساحلية مثل "عشقلون" و"غزة"، ودع عنك، احتمالات النهب والسلب على امتداد نهر النيل.

أما بخصوص تاريخ الإغارة، فحقيقة السنوات الثماني والعشرين التى استمرتها سيطرتهم تقف ساطعة. ولو أن هذه الفترة لا تتوازى، كما هو واضح، مع أى ولاية حقيقية لحكم ما، ولكننا نستطيع أن نحسبها عن طريق جمع عدد السنوات الواقعة بين أول ظهور لهم فى الغرب (أى الغارة) وانحدارهم المفاجئ، المعاصر لـ "هيرودوت" - عن طريق الاستدلال - بسقوط "نينوى". والمصدر الأخير للحادثة الأخيرة، الذى نجا من عوادى الظروف كى يصل إلينا فى العديد من التواريخ اللاحقة، هو "التأريخ البابلى"[٣٨]. ونحن قد نحدس بأن مصدر الغارة نفسها كان هو بالمثل نفس التأريخ[٣٩]. وثمانية وعشرون سنة قبل سقوط "نينوى" فى ٦١٢ ق.م. سوف تضعنا عند سنة ٦٤١-٦٤٠ ق.م.، أى السنة الرابعة لـ "بيسماتيك" الأول فى الحكم، ولعله من المثير حقًا للاهتمام أن "يوسيبيوس" يضيف إلى تأريخه لهذه السنة هذه الجملة الموجزة والجافة فى آن واحد Scythii usque ad Palestinam penettraverunt (= عندئذ اخترق "السيثيان" فلسطين)[٤٠] وفى بحر عدة شهور اغتيل "عمون" ملك "يهودا" الشاب وابن "منسّى" فى مؤامرة من مؤامرات القصر، وصعد ابن "عمون"، وكان فتى يافعًا على أكتاف هبة شعبية، إلى العرش[٤١]. ولا يملك المرء إلا أن يشتبه فى وجود صلة ما بين هذا العمل الذى يتسم بالاندفاع من جانب العوام الذين أطبق عليهم الذعر وعمليات التخريب التى نجمت عن غارة حديثة العهد قام بها وقت ذاك برابرة همج لم تقع عليهم الأنظار من قبل وربما كانوا لا يزالون يجوبون الأرياف[٤٢].

الإمبراطورية الصاوية فى المشرق:

بدأ "يوشيًا" Josiah الملك الصبى حكمه فى عالم كانت مصر فيه قد شرعت فى إعادة تأكيد هيمنتها، عن بصر ووعى كاملين فى المناطق التقليدية لمصالحها على امتداد ساحل المشرق. وكان فى طوع مصر أن تأخذ زمام المبادرة فى المشرق، ليس بصفتها وكيلاً عن "آشور" التى كانت قد بدأت انسحابها (وكانت مصر قد وقعت تحت سيادتها لمدة وجيزة)، ولكن باعتبارها بديلاً يعمل من وحى مصالحه. وفسر "آشور-

بنى – بعل" فى حقيقة الأمر استقلال "بيسماتيك" فى العمل على أنه عصيان، إلاّ أنه لم يكن فى وسعه أن يعمل شيئًا ذا بال فى سبيل الانتقام. فلقد أعقب الحرب المعلقة مع "عيلام" اندلاع حرب أهلية كئيبة مع شقيق "آشور – بنى – بعل"، الوصى على عرش "بابل" (٦٥٢–٦٤٨ ق.م.) وجاءت على أثر ذلك غارة تأديبية خاطفة ضد العرب فى الضفة الغربية شرقى "البحر الميت"، ولكن هذه الغارة كانت بمثابة أخر ظهور للجيش الآشورى فى جهة الغرب. وسرعان ما استؤنفت الحرب الفادحة العواقب مع "عيلام" واستطالت حتى غطت معظم العقد(= عشر سنوات). ونستطيع أن نصف النصر النهائى الذى أحرزه "آشور – بنى – بعل" بأنه "نصر فادح الثمن" لأنه أوصل "آشور" إلى مرحلة الإجهاد حتى صارت غير مستعدة للتصدى لعاصفة التذمر التى كانت لتهب عما قريب.

على امتداد الفترة الصاوية كان بوسع المرء أن يرى القادة العسكريين وشبه العسكريين بوتيرة متزايدة فى مواقع عسكرية فى شرق الدلتا. وأخذت التحصينات وصوامع التخزين تنتشر فى خط يمتد من "البحيرات المرة" حتى "بحيرة ساربونيس" Sarbonis وفى أحد هذه التحصينات: "دافنى" Daphnae (= دوَّار الملك" باللغة المصرية) كانت قد تمركزت قوة عسكرية من الجنود الأيونيين hoplites قبل نهاية حكم "بيسماتيك" الأول(٤٣). كما كان المصريون يتحركون أيضًا، فيما وراء حدودهم الشرقية باتجاه الشمال. وربما يكون "بيسماتيك" قد تابع نجاحاته الدبلوماسية فى أعقاب انسحاب "السيثيان" مباشرة بالاستيلاء على مدينة "أشدود" الفلسطينية، إذا كان لنا أن نصدق "هيرودوت"(٤٤). ولا يمكن أن يساورنا شك فى أن "بيسماتيك" مد سيطرته المباشرة، قرب نهاية حكمه، على امتداد الساحل حتى بلغ شمالاً "فينيقيا"، حيث فاخر بأن ضباطه يشرفون على إنتاج الأخشاب المنشورة وتصديرها(٤٥). واستعادت مصر مرة أخرى عن طريق إنزال "فينيقيا" إلى مرتبة التابع ، مشق العصور القديمة، وقدمت نموذجًا أصليًا للدعاية السياسية: الجداريات والنقوش على المعابد البطلمية، بعد ذلك بخمسة قرون حيث تعكس الظفر الذى حققه الصاويون مع هذه اللازمة التى تتكرر باستمرار: "وأبناء "فنخو" (= فينيقيا) يحملون إليك (=إلى الفرعون) جزيتهم"(٤٦) ولكننا لا نملك فى الوقت الحاضر معلومات كافية حول الكيفية

التى دخلت بها الدول الفلسطينية، فيما عدا "أشدود"، إلى الحظيرة الفرعونية. إلاّ أنه من الجائز جداً أن تكون "غزة" و"عشقلون" قد دخلتا هذه الحظيرة طوعًا، وجاء ذلك متزامنًا مع الضعف الذى كان قد أخذ يدب فى أوصال "آشور" والغارة التى شنها "السيثيان" والمبادرة المصرية المجددة. وتعكس "العلاقات الطيبة"، التى يذكرها "خطاب – أدون" (انظر النقاش اللاحق للأمر) دون شك العلاقات القائمة على معاهدة رسمية دخلتها وقت ذاك كثير من المدن الفلسطينية الجنوبية تحت إمرة مصر(٤٧). إلاّ أننا لا نعرف سوى أقل القليل عن مصير الساحل الفينيقى الجنوبى بعد الدمار الذى أنزله به جيش "آشور– بنى– بعل" (حوالى ٦٤٥ ق.م.)، ولكن قبل نهاية حكم "بيسماتيك" الأول بكل تأكيد كانت السيطرة المصرية قد امتدت حتى "صور" وربما حتى "أرفاد" كذلك(٤٨). بل وحتى هناك أدلة على تعيين بنية تحتية من المسئولين "المحليين" للولايات التوابع الجديدة فى المشرق. فهناك رسول معروف، ربما ينتمى للعصر الصاوى، يشمل زمامه "بكان – أعان" Pekan-a'an الفلسطينية" أى "غزة"، وهناك نص يرجع إلى سنة ٦١٣ ق.م. يحتفى بذكرى دفن العجل "أبيس" (إله الخصوبة فى الديانة المصرية القديمة. وقد سادت عبادته فى "منف". وكان فى الأصل أحد تجليات إله النيل "حابى".المترجم) ويخبرنا بأن رؤساء لبنان "كانوا رعايا للقصر تحت إمرة أحد رجال البلاط الملكى الذى يعيِّن خصيصًا لرئاستهم، وكان بيت "المقيم" (المصرى) يقوم بتحديد الضرائب المستحقة عليهم، بنفس المعايير التى تطبق مع أراضى مصر"(٤٩).

شملت النتائج غير المنتظرة لاتساع الآفاق أمام مصر وتوسيع هيمنتها، تبادل قوة العمل مع الدول الخاضعة لمنطقة نفوذها لأغراض شبه عسكرية. وكان الزهو المعكوس من جانب المتعلمين والمثقفين المصريين خلال عصر الإمبراطورية قد أسهم لمدة طويلة فى نمو روح تسفه وتزدرى العسكروت (=النزعة العسكرية) فى مصر، حتى أصبح يروج بين دوائر الكتاب قرب نهاية المملكة الحديثة صب الاحتقار على لقب "ضابط الجيش". وصار بارزًا للغاية فى الأدب ذلك الدور المسنود وقت ذاك للنموذج الأصلى للجندى سيئ الحظ الذى يكلف بالخدمة فى البلاد الأجنبية، إذ تحاصره كافة أنواع المصاعب التى لم تنجم عما قدمت يداه، حتى إن معظم المصريين، لم يروا، غداة سقوط "بيت

رعمسيس" في السلك العسكرى حتى مجرد سلك يمكن أن يقبلوا به كمهنة يمتهنونها فى حياتهم، وارتضوا أن يتركوا امتهانه فى أيدى الدخلاء الأجانب الذين يقيمون فى مصر فى أدنى المراتب الاجتماعية، ولم يكن هؤلاء ليمانعوا بالمرة فى إنجاز الواجبات الخشنة لذلك السلك. ولقد تضافرت هذه الأعراف التى لا ترحب بالانخراط فى فنون الحرابة فى مصر، مع ندرة الحديد والأسلحة الحديثة فى إنتاج جيش نيلى أدنى كفاءة، بكل تأكيد، من القوات المسلحة فى غرب آسيا. ومما لا شك فيه أن "بيسماتيك" أدرك ذلك، ومن هنا نبع استعداده لاستئجار أفضل المحاربين المتوفرين وقت ذاك. ولقد رأينا قبوله للجنود الأيونيين، الورثة الثقافيين والعسكريين لشعوب البحر الجيِّدى التسليح، أولئك الذين كانوا قد تركوا مثل ذلك الانطباع الإيجابى فى الذاكرة المصرية قبل ذلك بستة قرون(٥٠). لكنه تمنى أيضًا جلب قوات عسكرية من فلسطين وسوريا، فهى أكثر دراية من المصريين بتكتيكات الآشوريين البارعة وتسليحهم الأكثر تفوقًا.

فى غضون ذلك أصبحت مصر الصاوية رب عمل مرغوبًا بدرجة عالية من جانب الآسيويين وكذلك من جانب اليونانيين. وجاء السوريون حيث وجدناهم يعيشون فى تجمعات خاصة فى "مجدول" و"أتريب" و"منف" و"طيبة" و"أسوان" وفى معسكرات مخصوصة فى الدلتا. ومع أن كثيرًا من الأدلة المفصلة التى نحوزها بخصوص حياة ووظائف هذه التجمعات مستقاة من الرسائل الخاصة التى ترجع إلى أحفادهم بعد ذلك بقرنين خلال العصر الفارسى، إلاّ أننا نستطيع رغم ذلك أن نستقرئها فى سبيل إلقاء بعض الضوء على فترة الأصل. ولعله من الواضح، إذن، أن الوظيفة الأولى لكل هذه الجيوب كانت شبه عسكرية، رغم عدم وجود أى موانع أمامهم إذا أرادوا الانخراط فى الأعمال التجارية(٥١). لكنهم كانوا منظمين على هيئة "حاميات"(٥٢) وكانوا يتلقون رواتبهم من الخزانة الملكية (=العامة). ومع أنهم لم يتخلوا عن تنظيمهم الداخلى الخاص ونظامهم القيادى، إلاّ أن المصريين أصروا على تعيين ضباطهم هم كى يكونوا همزة الوصل (= ضباط اتصال) بين الجانبين فى كل حامية(٥٣). ولما كان الأجانب يتمتعون بدرجة معينة من الاستقلال الذاتى، وعلاوة على ذلك أثبتوا مرارًا وتكرارًا أنهم عاجزون عن الامتثال للنظام، فلقد كانت مهمة ضابط الاتصال المصرى صعبة تمامًا.

وتلقى نتفة مفعمة بأنين مكتوم من ذكريات قائد مصرى كُلف بهذه المهمة بين قوة عسكرية أجنبية على الحدود الجنوبية بعض الضوء على هذه النقطة: صاغ القائد المصرى شكواه الشجية فى خطاب إلى إلهه على هذا النحو: "عندما انتشلتنى من الموقف الصعب الذى تسببت لى فيه قوات الآسيويين واليونانيين والسوريين وغيرهم" الذين كانوا قد بيّتوا النية على الهرب إلى السودان، ولكن رئيسهم أقنعهم بالعدول، فى آخر لحظة، عن الخطة(٥٤).

كان لبيدو غريبًا لو أفلتت "يهودا" دون سواها من نفس الجاذبية المغناطيسية التى مدتها مصر الصاوية إلى سائر مناطق شرق البحر المتوسط. وحقيقة الأمر أن الأدلة واضحة لا لبس فيها البتة. فإحدى البرديات التى ترجع إلى القرن الخامس ق.م. وكشفت عنها عمليات التنقيب التى جرت فى الحى اليهودى بجزيرة "إليفانتين" بجنوب مصر، تقرر أن الضريح المحلى الذى بنته الحامية كان لا يزال قائمًا فى الوجود عندما أنزل "قمبيز" الهزيمة بمصر فى سنة ٥٢٥ ق.م.(٥٥) ولوح/صادود الاعتماد للسنة التاسعة للفرعون "بيسماتيك" الأول (٦٥٦ ق.م.) يورد بالفعل أشياء لا بأس بها عن مستوطنات "شاسو الجنوب" فى الدلتا(٥٦). ولعل العرف الذى تأتى هذه التلميحات انعكاسًا له، مدان على وجه خاص، إن لم نقل على وجه جاف فى سفر "تثنية الاشتراع" ١٧: ١٦ "لا يستكثر (أى الملك) من الخيل، ولا يرجع الشعب إلى مصر كى يستكثر من الخيل." ولما كان من غير المشكوك فيه أن "سفر التشريع" الذى قد عثر عليه فى معبد "أورشليم" فى السنة الثامنة عشرة من حكم "يوشيًا":Josiah (حوالى ٦٢٣ ق.م.) كان رواية مبكرة من "تثنية الاشتراع"، فلابد أن إرسال أبناء "يهودا" إلى مصر كان سياسة ملكية فى الفترة رهن الحديث - خلال العقدين الأولين لحكم "يوشيًا" - وربما كان ذلك ساريًا بالفعل تحت حكم "منسّى" و"عمون". وعلى أى حال هذه الفترة كانت معاصرة من بدء سياسة "التوسع فى اتجاه الشمال" Drang nach Norden، تلك التى انتهجتها الأسرة السادسة والعشرون.

فى سياق إعادة "بيسماتيك" تأكيد السيطرة المصرية على الساحل المشرقى، استخدم أيضًا قوات المرتزقة التى جلبها فى تزويد المعاقل التى أقامها بالرجال. وكان

أحد هذه المعاقل قد ظهر للنور خلال عمليات التنقيب التى جرت فى "مسد هاشفياهو" Mesad Hashavyahu على بعد غير بعيد من "أشدود" على الساحل. وهنا نجد الفخار اليونانى الذى يرجع إلى الفترة الواقعة ما بين ٦٢٥ حتى ٦٠٠ ق.م. يدل على وجود مقيمين هيلينيين،(٥٧) مع أن الوثائق التى كشف عنها هذا الموقع تشير إلى مجتمع محلى تربطه عادات نعرفها من "التوراة". وإلى الجنوب الشرقى ظهرت إلى النور قطع مماثلة من الفخار فى "تل الملاح" Tel Melah فى "النقب". وفى نفس المنطقة فى قلعة "أرد" عند حدود "يهودا" تذكر الأرشيفات التى خرجت من باطن الأرض خلال عمليات التنقيب التى قام بها "أهارونى" Aharoni قوات عسكرية من الـ "كيتيم" Kittiyim ، وهو الاسم الذى تطلقه "التوراة" على اليونانيين، الذين كانت سلطات "يهودا" توزع عليهم حصص تموين(٥٨). ويبدو من الأصوب، عوضًا عن القول بأن "يهودا" التى كانت واقعة فى أعماق البلاد وبعيدة عن الساحل قد وضعت فى خدمتها جنودًا يونانيين، أن نفسر وجودهم فى هذه المنطقة كنتيجة للتغلغل الإمبراطورى لمصر. هل كانت "يهودا" التى كانت تحت حكم "يوشيًا"، قد وقعت معاهدة مع "بيسماتيك"، وبموجبها عانت من الهبوط إلى منزلة التابع، هذه نقطة لا تزال محل نقاش: "التوراة" لا تذكر مثل هذه المعاهدة، ولكن اتفاقًا من نوع ما قد يكون أقدر على تفسير أداء أبناء "يهودا" خدمتهم العسكرية فى مصر نظير إرسالها (=أى مصر) الخيول وتزويدها الحاميات هناك بقوات يونانية.

شهدت سنة ٦٢٧ ق.م. انخراط "يوشيًا" الذى كان قد بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة فى تطهير العبادة فى مملكته، التى كان قد نجح فى إيقافها على قدميها قبل عدة شهور وحسب. وفى مصر كانت "ميريت - نيت" (= حبيبة الإلهة "نيت" بالمصرى)، ابنة "بيسماتيك" الأول تعانى من رمد فى عينيها فى هذه السنة، وتتضرع إلى "أمين - حوتب" بن "هابو" الطبيب المقدس كى ينقذها من بلائها. وفى "بابل" شهدت تلك السنة:٧٢٧ ق.م. وفاة "كاندالانو" Kandalanu نائب الملك (= المندوب السامى) الذى كان الآشوريون قد عيَّنوه فى هذا المنصب قبل عقدين. وأكثر بعدًا عن أرض الوطن، شهدت هذه السنة استمرار هيمنة "السيثيان" فى الشمال، والصعود المطرد لنجم "الميديين" فى

"زاجروس"، واستيلاء "بيرياندر" Periander الكورنثي على السلطة هناك، والقضاء المبرم على الانقلاب الذى دبره "سيلون" Cylon فى "أثينا". بل والأشد أهمية بالنسبة لسائر أرجاء العالم القديم: كانت تلك السنة هى التى شهدت رحيل "آشور - بنى - بعل"(٥٩).

مع أننا نستطيع، خلال الاستفادة من حكمتنا المتأخرة فى عصرنا الحديث، أن نقول بانتفاء الخطأ فى تقييم مغزى هذا الحادث، إلاّ أنه ليس من المرجح أن يكون معاصروه قد اقتنصوا على الفور ما الذى يعنيه بالنسبة لتوازن القوى فى ذلك الوقت. فلقد أخذت القلاقل تتفجر بشكل متفاقم كلما أخذ الملك المريض يقترب من نهايته، وعقب رحيله ألقى عصيان خطير بظلال الارتباك على صعود ابنه للعرش. فلقد اندلع وقت ذاك تمرد "بابل"، الذى لاحت نذره قبل رحيل "كانكالانو" Kanklanu بقوة غير مسبوقة. وفى نوفمبر/هاتور سنة ٦٢٦ ق.م. استولى شخص "كلدانى" Chaldaean هو "نابوبولاسر" Nabopolassor على عرش "بابل"، وعلى امتداد سنتين صد الهجوم المضاد إثر الهجوم المضاد للجيش الآشورى. وبحلول سنة ٦٢٣ ق.م. صار واضحًا أن الثورة قد ضمنت النجاح: تحررت "بابل" وأصبحت قوة متعاظمة، بينما نزلت هزيمة فادحة بـ "آشور" وأخذت تمر بأزمة على مستوى القيادة(٦٠).

سرعان ما أعقب ذلك رد فعل العناصر القومية داخل مجال النفوذ الخاص بـ "آشور"، إذ ظل البعض على ولائه القديم، بينما انحاز آخرون إلى المتمردين البابليين. وفى الغرب انتهز "يوشيًا" الموقف فى سنة ٦٢٣ ق.م. كى يضم مقاطعة "ساميرينا" Samerina الآشورية،(٦١) ويحمل إصلاحاته فى مجال العبادة إلى حدٍ أقصى، وهو الأمر الذى كان فى العصور الماضية ليستوجب تدخل السلطات الآشورية بفرض الحظر(٦٢). وكان رد "يهودا"، فى أرجح الأحوال، على الموقف الدولى نموذجًا لما جرى فى كل مكان آخر فى فلسطين وسوريا، عندما زالت حاميات "آشور" وحكامها ومحيت كافة رموز الهيمنة الآشورية.

أما رد فعل مصر، من جانب آخر، فكان غير منتظر، وفى نفس الوقت ثاقب البصيرة. فلقد كانت الرؤية العالمية مختلفة بصورة ملحوظة على ضفاف النيل

عما كانت عليه عند نفس نقطة الاستشراف قبل جيلين عندما ارتكب الآشوريون فظائعهم ضد مدن مصر. الآن وصلت "آشور" مشارف الزوال. وجاء أولئك الذين سيحلون محل "آشور" من بين صفوف البرابرة الذين لم يصقلهم تعليم من أي نوع، من "الكلدانيين" و"الميديين" و"السيثيان" الذين كانوا قد برهنوا منذ وقت طويل على المدى الذي قد يصل إليه سلوكهم الفظ تجاه الثقافات القديمة الراقية، تلك الثقافات المتمدينة في الشرق الأدنى. وأصبح توازن القوى في غرب آسيا، الذي ظل ساكنًا لما يصل إلى ثلاثة قرون مهددًا الآن بالانقلاب رأسًا على عقب مع جلب عواقب، لا يستطيع أن يتكهن بها أحد، في المنطقة التي تنطوي على أهمية قصوى لـ "أمير - تاجر"، وعلى التجارة والمبادلات التجارية. ويبدو في أرجح الاحتمالات، بالتالي، أنها الرغبة في الحفاظ على استمرار الوضع الدولي، على ما هو عليه status quo، أكثر من أي حب لـ "آشور" هي التي دفعت "بيسماتيك" العجوز إلى الإقدام على مثل تلك الخطوات العسكرية المذهلة التي تميَّز بها العقد الأخير من حياته. فلقد كان البابليون، مثلما كان عليه الحال في السنوات التي أعقبت سنة ٦٢٣ ق.م.، يواصلون رد الآشوريين على أعقابهم على ضفاف "دجلة"، كي يحتلوا مواقع تمكنهم من تشكيل تهديد خطير لقلب أراضي الإمبراطورية السابقة، وهو الأمر الذي قرر معه "بيسماتيك" ألاّ يقف على الحياد وأن ينهض دون توانٍ كي يساعد قاهريه السابقين. وفي أواخر صيف سنة ٦١٦ ق.م.، وبينما كان "نابوبولاسر" Nabopolasser وقواته يجتاحون بلاد أواسط "الفرات"، ظهرت تجريدة مصرية كي تأخذ، بالتعاون مع القوات الآشورية، في مطاردة البابليين الذين لجأوا إلى الانسحاب في منتصف الطريق أسفل "الفرات". حقًا لم يحدث اشتباك وكلا الجانبين انسحب بنظام تام، ولكن مصر كانت قد كشفت عن زندها.

أثبتت السنوات الأربع التالية أنها حاسمة بالنسبة لنتائج الأعمال الحربية(٦٣). ففي سنة ٦١٤ ق.م.اكتسح "سياكساريس" Cyaxares وقواته الميدية Median مدينة "آشور" بصورة مفاجئة، ثم وقع معاهدة تحالف مع "نابوبولاسر". وفي مايو/بشنس سنة ٦١٢ق.م. فرضت القوات البابلية والميدية وقوات "السيثيان" المشتركة الحصار على "سين - شار - إشكون" Sin-shar-Ishkun، ملك "آشور" في عاصمته في "نينوى". وفي

أغسطس/مسرى من نفس السنة سقطت العاصمة الآشورية وضحى الملك "سين - شار - إشكون" بحياته داخل قصره، وأسلم الغالبون المدينة للسلب والنهب والتدمير بلا رحمة أو شفقة. ومع أن فلول العائلة المالكة تحت ظل ولى العهد "آشور - أوباليت" الثانى فرت غرباً كى تقيم حكومة فى المنفى فى "حران" Harran، إلاّ أن "آشور" لم يعد لها وجود كـ "أمة - دولة"، ولم يذرف عليها أحد، على وجه التقريب، دمعة أسف واحدة. "ويل للمدينة الوحشية التى طالما تلطخت أيديها بالدماء، كل شىء فيها مفعم بالأكاذيب والغنائم!...ليس هناك ما يخفف آلام جرحك، فجرحك غائر. كل من يسمع أخبارك يصفق بيديه شماتة فيك، فمن ذا الذى لم تنزل به شرورك التى لم تنقطع يوماً؟"(٦٤)

يصعب علينا فهم حالة السكون التى لزمتها مصر خلال هذه الفترة حيث لم يرد ذكر لأى قوات مصرية فى "التأريخ البابلى" للبنود المدرجة من سنة ٦١٥ حتى ٦١٦ ق.م. ولعله من المؤكد أن الآشوريين كانوا ليستفيدوا من العون المصرى، حتى ولو أن مصيرهم النهائى، ربما، ما كان إلاّ أن يتأخر قليلاً. إذ ينبغى علينا، أن نضع حقيقتين اثنتين، على وجه الاحتمال، فى الحسبان:

الأولى: بالنسبة لتجريدة عسكرية مصرية كى تؤدى مهمتها فى أعالى نهر "الفرات"، مثلما كان عليه الحال فى سنة ٦١٦ ق.م. فهذا أمر قابل للتنفيذ بل ويحمل فرصة للنجاح: كان الساحل المشرقى الخاضع للسيطرة المصرية قريب المنال، بينما شكّل نهر "الفرات" خطًا يمكن الدفاع عنه، ويستطيع المرء الانسحاب خلفه إذا اضطر إلى الانسحاب. من جانب آخر، كان النهوض إلى مساعدة "آشور" و"نينوى" على "دجلة" فى أعماق الشرق لا يعنى سوى دعوة للنكبة، خصوصاً فى ضوء السيطرة التى يتمتع بها "الميديون" و"السيثيان" على سهول "ميزوبوتاميا" (= بلاد الرافدين).

الثانية: فى سنة ٦١٥ ق.م. كان الفرعون "بيسماتيك" الأول يقترب فى أرجح الاحتمالات من السنة السبعين من عمره، وربما يكون قد وقع فريسة المرض(٦٥). ولا يستطيع المرء إلاّ أن يتخيل كم أثرت تجريدة سنة ٦١٦ ق.م.التى لم تحرز نجاحاً، على حاكم طاعن فى السن، فلقد ظل كل قرار سياسى يتخذه يتميّز طوال خمسين سنة قضاها فى عرش مصر، بالحذر والتحوط. وربما يكون "بيسماتيك" قد تنبأ بالانهيار الوشيك

لحليفه الذى ظل كذلك أى حليفًا حتى وقت ذاك، وأحجم عن دفع قواته للدفاع عن قضية خاسرة.

مع "رحيل الفرعون "بيسماتيك" فى سنة ٦١٠ ق.م. استؤنفت سياسة التدخل. وحتى قبيل وفاته ربما يكون "بيسماتيك" الأول قد فوَّض قوات الحاميات على امتداد الساحل (الفينيقى؟) كى تتحرك إلى "حران" لتساعد "آشور - أوباليت" Ashur-uballit[٦٦]. ولقد قضى الفرعون العجوز أيامه الأخيرة متنقلاً بين حامياته فى شرق الدلتا[٦٧]. وهذه حقيقة لا نستطيع تفسيرها إلاّ على أنها تشير إلى أن جلالته كان لا يزال مهمومًا بإرسال التجاريد العسكرية إلى خارج البلاد. وعلى أى حال، كان ابنه وخليفته "نيخو" الثانى يحبذ إلى حد بعيد تجديد التدخل العسكرى.

حظى الفرعون "نيخو" الثانى، من بين سائر فراعنة الأسرة السادسة والعشرين بإعلام سيئ والأدق بأسوأ إعلام[٦٨]. ولما كان "نيخو" منذ البدء رجل أفعال لا أقوال، وموهوبًا بخيال خصب ربما أخصب مما كان يملكه معاصروه، فلقد صادفه سوء حظ مكَّن للانطباع بأنه فاشل: بحكمة متأخرة نستطيع أن نقول إن نزعته للفعل صُوِّرت على أنها تهور، وخياله الخصب بأنه لا يعدو كونه أحلامًا غير واقعية. وإذا كنا نستطيع أن نرصد قدرا ما من الميل نحو التسلط (بالتضافر مع طبع مجبول على الانفعال؟) فى السجلات الشحيحة التى تركها وراءه، فإن ذلك يجب أن يتوازن عن طريق لمحة قصيرة لصورته فى الأدب الفولكلورى، تلك الصورة التى تكشف عن قاضٍ كريم النفس يقضى بالعدل[٦٩].

لم تكن الشهور الأولى من الحكم الجديد لتبشر بالخير. فلقد ثبت، فيما يبدو، أن القوة العسكرية التى أرسلها إلى "حران" لمساعدة "آشور - أوباليت" الثانى كانت صغيرة للغاية فى مواجهة الواقع، وفى أكتوبر/بابة سنة ٦١٠ ق.م.عندما تقدمت قوات البابليين و"السيثيان" جنبًا إلى جنب، هرب ملك "آشور" وحلفاؤه عبر نهر "الفرات"، تاركين المدينة كى تسقط فى أيدى "نابوبولاسر"[٧٠]. وكان ذلك ثقيلاً على فؤاد "نيخو"، الذى قضى فصل الشتاء فى حشد تجريدة عسكرية أكبر من كل ما أرسل حتى ذلك الوقت إلى آسيا[٧١] وصارت فى ربيع سنة ٦٠٩ ق.م. جاهزة للانطلاق. وكان الدرب

على امتداد الساحل يسير فى نفس المسار منذ ٨٥٠ سنة أى منذ الفاتح الأكبر الفرعون "تحوت - موسى" الثالث، ويمر عبر سيناء إلى "غزة" خلال فلاسطين Philistine وسهل "شارون" إلى سلسلة جبال "الكرمل"، وعبر الممر الذى يخترقها إلى وادى الأردن. وعلى غرار ما حدث مع الفاتح الجليل الذى سبقه على هذا الدرب، تكبد هو الآخر كمينًا على غير انتظار.

سالت كميات كبيرة من الحبر فى سبيل محاولة التوصل إلى الدافع الذى فرض الهجوم الذى شنه "يوشيًا" على القوات المصرية عند "مجدو" Megiddo(٧٢) ولكننا إذا نظرنا إلى الأمر من نقطة الاستشراف (= وجهة النظر) لربيع سنة ٦٠٩ ق.م. فإن هذا الهجوم يكتسب معنى بارزًا للعيان. ففى بحر خمس سنوات لم يتعرض تحالف البابليين والميديين و"السيثيان" لأى هزيمة، بل وكان قد شن هجومًا لا يقاوم على الآشوريين، ولم يستطع هؤلاء الآشوريون أن يفعلوا شيئًا سوى الانسحاب: كانت "آشور" و"نينوى" قد اكتُسحتا معًا، وجرى الآن التخلى عن "حران". ولقد أثبت المصريون أنهم غير قادرين على تحويل مجرى الأمور: ففى المرة الأولى كان تدخلهم غير فعال، وهذه المرة وهى الثانية، فى غضون شهور من القرار الخطير الذى اتخذه "يوشيًا"، كانوا قد انسحبوا بصورة مزرية من أمام العدو. وبدا أن تقدم البابليين كان موجة قادمة من آفاق المستقبل. ولمدة قرن، زد على ذلك، منذ المفاتحات التى بدأها "مردوك - بالادين" Marduk-baladin الثانى تجاه "حزقيا"(٧٣). ظلت "يهودا" ترى فى نفسها شريكًا فى وحدة المصالح مع "بابل" فى إطار السياسات الدولية. ولقد رأى "يوشيًا" فى نفسه حليفًا لقوات الحق فى سبيل تدميرها النهائى لـ "آشور".

حاق الفشل بالتدخل الذى قاده "يوشيًا" عند ممر "مجدو"، ولو أنه كان عملاً جسورًا، ولكنه فشل وحصد معه روح ملك لا يتجاوز من العمر تسعة وثلاثين سنة. ولابد أن هذا الفشل أصاب "يهودا" بالصدمة والفزع: كثير من الملوك يخسرون المعارك ولكن قليلين منهم يخسرون حياتهم أيضًا فى سياق ذلك. وعندما دخل جثمان "يوشيًا" "أورشليم"، تفجرت ثورة هائلة استولى العامة فيها على السلطة كى يضعوا: "يهوأحاز"، Jehoahaz، أحد أبناء "يوشيًا" الصغار على العرش(٧٤). وكان هذا العمل متعمدًا حيث

يهدف إلى إزاحة ولى العهد وأكبر أبناء "يوشيًا": "إلياقيم" Eliakim،(٧٥) الذى يرجع أصل جده إلى منطقة "الجليل"،(٧٦) وهو "بيديا" Pediah الذى حمل اسمًا يشبه أسماء المصريين، واتضح فيما بعد، أن الرجل كان يمثل جناحًا يضمر ميولاً مناصرة لمصر داخل بلاط "يهودا".

لم تصل أنباء هذه الأحداث من فورها إلى "نيخو". ولولا ذلك لكان زحفه فى اتجاه الشمال قد مضى دون عائق، وبحلول أواخر يونيو/بؤونة كان قد انضم إلى قوات "آشور – أوباليت" Ashur-uballit حيث عبرا سويًا نهر "الفرات" وفرضا الحصار على "حران"(٧٧). ولكن حصار المدينة لمدة أربعة شهور انتهى إلى الفشل فى الاستيلاء عليها، إلاَّ أن "نيخو" كان قد أقام قبل نهاية الحصار مقرًا له فى "ربلة" Riblah فى قلب سوريا وشرع فى إعادة تنظيم المنطقة حتى "كركميش" Carchemish فى أعماق الشمال كولاية تابعة لمصر. وإلى "ربلة" استدعى فى أواخر الصيف الحكام المحليين فى فلسطين وسوريا، وربطهم بالتاج المصرى بأداء يمين الولاء، وبالمعاهدات والالتزامات الضريبية. وإذا حكمنا استنادًا إلى نموذج "يهودا"، فلقد وجدت الأحزاب الموالية لمصر التشجيع. ولما لم يكن الفرعون "نيخو" ينظر بعين العطف إلى "يهوآحاز"، فلقد أدى ذلك إلى خلعه عن العرش وإرساله مكبلاً بالقيود إلى مصر، وتنصيب أخيه الأكبر "إلياقيم" Eliakim فى محله(٧٨). ودخل الحاكم الجديد إلى "أورشليم"، بعد أن غيَّر "نيخو" له اسمه إلى: "يهوياقيم" Jehoiakim، ونشط من فوره فى جمع الضرائب المقررة. ولم يكن فى وسعه أن يقوم بذلك دون عون، فى وجه العداء الذى يمور فى جوانب الشعب، وقد يحق لنا هنا أن نرجح أنه انتفع بخدمات قوات مصرية.

أيقظت الأحداث البالغة الأهمية التى شهدتها سنة ٦٠٩ق.م. فى دولة "يهودا" صراعًا فئويًا ظل خامدًا لمدة ثلاثين سنة. كان السكان المحليون العاديون المعادون للآشوريين، وبالتالى فى هذه الحالة معادون للمصريين أيضًا، وفى ظل التوصيف الراهن لسياسات الشرق الأدنى، مؤيدون للبابليين، قد فقدوا زعيمهم الظاهر "يهوآحاز" الشاب: كان أخوه الأصغر "متنياح" Mattaniah، الذى اتضح، كما سنرى من سير الأحداث، أنه كان فى الأصل مؤيدًا للبابليين، لم يكن ليتجاوز عشر سنوات

من عمره، ولم تكن السياسة قد حنكته بعد. ومع ذلك فلقد أكد أبناء المستويات العليا فى البلاط الملكى، بقيادة الابن الأكبر لـ "يوشيًا" الملك "يهوياكيم Jehoiakim باعتزاز ميولهم الموالية لمصر، الآن، بعد أن اتجه نجمها نحو الصعود. ولكن الوضع كان لا يزال ملتبساً سريع التقلب والموقف السياسى الذى اتخذته "يهودا" ينضح بالرياء: (ما أبعد ضلالك بتغييرك طريقك، إنك ستخزين من مصر كما خزيتِ من "آشور"!)(٧٩).

واضع هذه الكلمات، الذى ربما يكون قد صنّف نفسه بين عامة الناس، يتعيّن علينا رفعه إلى مرتبة أعظم الشعراء التراجيديين (=كتاب المراثى) الأكثر موهبة الذى أنجبهم العبرانيون القدماء طوال تاريخهم، وهو مؤسس مفهوم لاهوتى لم يتجاوز سموه مثيل فى تاريخ اليهودية بأسره. انحدر "إرميا"، وهذا هو اسمه، من عائلة ريفية من الكهنة تقيم فى "عناثوث" Anathoth الواقعة شمالى "أورشليم"،(٨٠) ولم ينتقل بسهولة بين السكان الراقيين للعاصمة حيث استمر يعيش كشخص ريفى لا يستطيع الاقتراب من حياة البلاط. ولما كان "إرميا" قد ولد فى سنة ٦٢٧ ق.م.أى فى السنة الثالثة عشرة لـ"يوشيًا" على العرش(٨١). فلقد نشأ "إرميا" النبى وترعرع فى ذلك الجو الجامح الذى تميَّز بتحطيم الصور والتماثيل (=الأصنام)، أى فى جو"الإصلاح"، ومع أن عائلته نفسه لا بد وأن تكون قد حرمت من حقوقها الرعوية إلى حد ما، فى ظل عملية تركيز العبادة فى معبد "أورشليم"، إلاّ أنه، مع ذلك تربى على تأييد ذلك "الإصلاح" لمضمونه الأخلاقى. ومع ذلك فإن عبادة المعبد الراقية بطقوسها وأضاحيها، قد أودعت فى سفر "الأحبار" فى وقت لاحق بأوصاف دقيقة، ولكن "إرميا" النبى قال بانتفاء الحاجة إليها ومضى إلى حد القول بافتقارها إلى أى أساس فى تقاليد الأمة. ولقد صوَّر "إرميا" النبى، "يهوه" وهو يقول للشعب: "استمروا فى تقريب قرابينكم المحروقة وأضاحيكم وأكلوا اللحم! ولكننى لم أتحدث مع جدودكم ولم أصدر أى وصية فى اليوم الذى أخرجتكم فيه من مصر، بشأن حرق القرابين أو الأضاحى!"(٨٢) هل شرع "إرميا" النبى يفصح عن مثل هذه الأقوال العلنية قبل رحيل "يوشيًا"، تظل نقطة محل نقاش،(٨٣) ولكنه من المؤكد أن أحداث سنة ٦٠٩ ق.م. استدعت سيلاً منهمراً من مثل تلك الأقوال.

تعرف معظم الجماعات العرقية فى العالم القديم، بما فى ذلك المصريون، تلك الظاهرة الاجتماعية التى تنطوى على رجل مقدس يلعب دور الناطق باسم الإله، خلال

الشطر الأعظم من فترات التاريخ. وسواء أكان ذلك الرجل المقدس هو "الساحر- المقرئ" في مصر، أو "الرائي" أو "النبي" في دول غرب آسيا، أو "النبي- الكاهن" في بلاد الرافدين،[٨٤] فإن هذا الناطق المقدس بلسان الإله يؤدى نفس الوظيفة: يمتلك قدرات غير طبيعية يستطيع الجميع، بسهولة، أن يتعرفوا عليها، كما يمتلك موهبة طلاقة اللسان، وفي غالب الأحيان يصطدم بالسلطات خلال دفاعه عن قضية المضطهدين. فالنبي هو "صمام الأمان" للمجتمع.

استدعت السرعة التي كانت تتغير بها التحالفات السياسية للأمم المختلفة اعتباراً من سنة ٦٢٣ق.م. زيادة كبيرة في عدد مثل هؤلاء الأنبياء. وبعضهم مثل"صفنيا" Zephaniah صبوا لعناتهم، وقد استحثهم تدمير "نينوى"،[٨٥] على أولئك الذين يرتكبون المظالم الاجتماعية، وابتهجوا لاحتمال وقوع غزوٍ كلداني عما قريب، كما لو كان هذا الغزو هو الأداة التي اختارها الإله لمعاقبة "يهودا"[٨٦]. وبعضهم الآخر، ولو أنهم كانوا قليلين، وجهوا، في ضوء حرصهم على تشجيع الإحباط العام الناجم عن وصول "يهوياقيم" Jehoiakim إلى الحكم، نقدهم العلني اللاذع نحو موضوع أكثر حساسية بكثير: استمرار "أورشليم"، بمعبدها، على قيد البقاء. فـ "أوريا" النبي Uriah في "كريات يريم" Kirjat Jearim[٨٧] و"إرميا" النبي في "أورشليم"[٨٨] فتحا معًا فرجة في ساحة منبر عمومي كي تنفذ منها التكهنات بالمصير المحتوم. إلاّ أن التحالف الموالي لمصرالذي شكّله "يهوياقيم" Jehoiakim، من سنة ٦٠٩ حتى ٦٠٥ق.م. كان يركب قمة موجة عالية، فضلاً عن أنه لقِي التشجيع خلال الأعمال النشيطة التي أقدم عليها الفرعون الجديد، ولم يكن باديًا عليه أي على تحالف "يهوياقيم" أنه قد يتسامح مع مثل تلك المعارضة الصادرة من صفوف العوام. فلقد أصدر "يهوياقيم" ملك "أورشليم" أوامره بإلقاء القبض على "أوريا"، وعندما فر هذا النبي إلى مصر، التمس ملك "أورشليم" من المصريين الإذن بترحيله. واقتيد "أوريا" المسكين عائداً إلى بلاده كي ينزل في حقه حكم الإعدام[٨٩]. ولولا تدخل "أهيكام" Ahikam الضابط الملكي وهو تدخل جاء في حينه، لكان "إرميا" النبي قد لقي بالتأكيد نفس المصير[٩٠].

كانت الرياح، في حقيقة الأمر، قد تحولت لصالح "نيخو". فمع أن حصاره لـ "حران" انتهى إلى الفشل، إلاّ أن حجم الجيش الذى استطاع أن يحشده، بهر بالضرورة "نابوبولاسر"، فحتى سبتمبر/توت ظل البابليون يحجمون عن المضى قدمًا في سبيل تحقيق أهدافهم فى غرب بلاد الرافدين (= ميزوبوتاميا). ولم يذكر "التأريخ البابلى" وجود أى تجريدة (=حملة عسكرية موفدة خارج الوطن. المترجم) مصرية حتى سنة ٦٠٦ ق.م.، وبالتالى فالاحتمال الأرجح أن تكون حملة "نيخو" فى سنة ٦٠٩ ق.م. والحامية التى تركها وراءه كافيتين لتدعيم صمود سوريا فى وجه التهديد الجديد الذى شكلته "بابل".

انتهز "الفرعون "نيخو" هاتين السنتين والنصف (خريف ٦٠٥حتى ربيع ٦٠٦ ق.م.) فى بدء العمل فى عدد من المشاريع الجديدة. وكان وقت ذاك أن طرأت على ذهنه فكرة رى "وادى طوميلات" عن طريق شق مجرى مائى، "قناة الشرق" من منتصف بحيرة "خاروم" Kharom، على وجه الاحتمال وبطولها حتى الطرف الشمالى لـ "خليج السويس"(٩١). وعلى ضفتها الشمالية على بعد حوالى أربعة وعشرين كيلو مترًا من "الخليج"، أقام "نيخو" حصنًا حدوديًا ومستودعًا يسمًى "بيت أتوم"، وهو إله يرتبط بصورة حميمة بهذه الرقعة الشرقية من البلاد، ولما كان الاسم باللغة المصرية هو "بير- أتوم" فلقد ظهر على وجه السرعة فى أسماء الأماكن باللغة العبرية كـ "فيثوم"، وذكرته "التوراة" فى وقت لاحق كاسم لاحدى المدينتين اللتين بناهما الإسرائيليون خلال عبوديتهم فى مصر(٩٢). وتلخص الغرض من هذه العملية الطموحة التى قام بها الفرعون فى تمكينه من العمل طلق اليدين على ضفاف النيل وسواحل البحر الأحمر، وربما لفتح مسالك جديدة لشن الهجوم على "بلاد الرافدين" (= ميزوبوتاميا). وفى سبيل هذه الغاية نصب "الترير مات" (= سفن قديمة تحمل مجاديف على ثلاثة جوانب. المترجم) التى صنعها نجارو السفن اليونانيون(٩٣) فى الأحواض التى أُنشئت على ساحل البحر الأحمر(٩٤). ولقد كُلِّفت على وجه الاحتمال بأداء عمليات خاصة فى خليج "العقبة" وجنوبيًا حتى مضيق "باب المندب". وكانت إستراتيجية "نيخو" سديدة، إن لم نقل بارعة، فى وجه التوسع البابلى، ولكنها أسفرت عن نتائج تجارية غير منتظرة. فكما سبق لنا أن ذكرنا، ظهر، طاقم البحارة الفينيقيين الذى كان يعمل فى خدمة "نيخو" وأُرسل لأداء

مهمة ما جنوبًا فى البحر الأحمر، بعد ذلك بثلاث سنوات فى البحر المتوسط، بالدوران حول أفريقيا[٩٥]. وهذا الإنجاز لا يستطيع أن يدهش سوانا نحن المحدثين. إلاّ أن فتح "بونت" Pwenet القديمة فى شرق أفريقيا والتجارة التى نجمت عن ذلك فى البضائع الإستوائية بالنسبة للقدماء كان، بالضرورة، على جانب عظيم من الأهمية.

إلى جانب التجهيز للحرب، استغل "نيخو" سنواته الأولى بالطريقة القديمة قدم الزمان، التى تركها وراءهم الفراعنة المصريون الأتقياء: أن يجعل عمليات التشييد تقف مرة أخرى على قدم وساق. ففى السنة التى أعقبت تنصيبه (أى سنة ٦٠٩ق.م. وبعد عودته مباشرة من سوريا) افتتح حارةً جديدةً فى محاجر "طرة" كى يستخرج منها أحجار البناء[٩٦].

وفى سنة ٦٠٧ ق.م. عاد "نابوبولاسر" ملك "بابل" إلى شن الهجوم فى غرب بلاد الرافدين"(= ميزوبوتاميا)[٩٧]. فلم يستطع البابليون أن يطيقوا وجود حامية مصرية قوية فى "كركميش"، طالما ستبقى "بلاد الرافدين" فى قبضتهم خالية من التدخل الخارجى. إلاّ أن محاولة اقتلاع شوكة المصريين، مع ذلك، عن طريق هجوم جبهوى على "كركميش" قد لا يصادفها النجاح، وبالتالى اكتفى "نابوبولاسر" بالسعى بادئ ذى بدء نحو عزل الحامية عن طريق دفع رأس رمح عبر شمال سوريا موغلاً باتجاه الجنوب. وفى سبيل هذه الغاية قاد قواته فى مطلع خريف سنة ٦٠٧ق.م. عبر نهر "الفرات" على بعد حوالى خمسة وأربعين كيلومتراً جنوبى "كركميش" واستولى على مدينة "كوموخ" Kumukh. وبعد أن استقرت المدينة فى أيدى البابليين نصبوا حامية لهم هناك، وعندئذٍ استشعر "نابوبولاسر" راحة البال، فعاد إلى "بابل" فى فبراير/أمشير سنة ٦٠٦ ق.م. غير أن "نيخو" لم يكن على استعداد لأن يترك طعنة العدو دون رد. فاستدعى الجيش فى ربيع سنة ٦٠٦ق.م. وأرسله من فوره إلى شمال سوريا. وسرعان ما ألقى الجيش المصرى حصاره حول "كوموخ" واستولى عليها فى أواخر الصيف، بعد أن دام الحصار أربعة شهور. وفى عمل ينم عن الوحشية وفى نفس الوقت يشير أيضاً إلى تصميمه، أسلم "نيخو" الحامية البابلية لحد السيف[٩٨].

اكتسبت الحرب الآن قوة دفع ذاتية: لم يكن أى طرف من الطرفين راغبًا في التراجع. وفى غضون بضعة أسابيع وحسب من سقوط "كوموخ" شن "نابوبولاسر" هجومًا مضادًا. وبحلول مطلع أكتوبر/بابة عسكرت قواته فى قروماتى" Qurumati على نهر "الفرات" جنوبى "كوموخ" وأخذ البابليون يغيرون عبر النهر. لكن هذه الغارات لم تضعف مركز المصريين. وحقيقة الأمر عندما ترك "نابوبولاسر" جيشه فى "قروماتى" فى أواخر يناير/طوبة كى يعود إلى "بابل" عبرت الحامية المصرية التى تتمركز فى كركميش" على وجه السرعة وزحفت على "قروماتى"، كى تجبر القوات البابلية على الفرار فى اتجاه الجنوب الشرقى.

اعتبارًا من هذه النقطة يبدو أن "الوثوب الحيوى" للبابليين قد عاد مرة أخرى إلى الانتعاش. فلقد كان ذلك هو المرة الأخيرة التى يظهر فيها "نابوبولاسر" فى ساحة القتال، وقد يشى انسحابه المفاجئ إلى "بابل" فى شتاء ٦٠٥ق.م. بأن مرضًا ما ألم به. وعلى أى حال، احتل موقعه ابنه الأكبر ولى العهد "نبوخدرصًر" Nebuchadrezzer الثانى الذى كان فى عون والده طوال السنتين السابقتين خلال عملياته. إلاّ أن "نبوخدرصًر" اكتسب، نتيجة لذكره بصورة ملتبسة فى "التوراة"، صيتًا ماسخًا كطاغية، ولكن ليس هناك فى السجل التاريخى، إلاّ أقل القليل، مما يوحى بأنه كان أسوأ أو أحسن فى سلوكه الأخلاقى، من أى ملك آخر فى ذلك العصر. ولكن حظه العاثر شاء أن يكون الملك الذى دمر ـ لسبب يمت بصلة لأعراف تلك الأيام ـ "أورشليم" وأنهى وجود "يهودا"، وألًف سفر "الأسر البابلى" (على سبيل المجاز وحده فليس هناك، كما هو معروف سفر بها الاسم. المترجم) ولعل هذا هو السبب الذى يقف وراء تلقيه "إعلامًا سيئًا" بصورة فاحشة.

يشى أول عمل يقوم به "نبوخدرصًر" فى مستهل حياته فى ربيع سنة ٦٠٥ق.م. بروح شاب متحمس فى مقتبل العمر، وبعبقرية فى ميدان القتال، وربما تكون الفظائع التى وقعت فى "كوموخ" قد حركت عنده فى تلك اللحظة رغبة فى الانتقام. ولقد شهد شهر أبريل/برمودة سنة ٦٠٥ ق.م. حشد الجيش المصرى وزحفه باتجاه الشمال وكان جيشًا كبير العدد وبالإضافة إلى ذلك كان يضم القوات المساعدة التى كان بوسع مصر الصاوية أن تفخر بها: النوبيين والليبيين واليونانيين – الأيونيين[٩٩]. والسؤال الذى

يدور حول ما إذا كان "نيخو" الثانى على رأس القيادة وحاضراً بشخصه خلال المعركة التى دارت رحاها فى وقت لاحق أمر ليس معروفًا فى الوقت الحاضر، و"التأريخ البابلى" مهشم (= لنتذكر أن التدوين البابلى كان على ألواح الطين المحروق. المترجم) عند النقطة التى كان الكاتب ليذكر اسمه فيها[١٠٠]. غير أن "يوسيفوس" اليهودى يقرر أن "نيخو" كان حاضراً هناك[١٠١]. فى حين أن إشارة "إرميا" النبى مبهمة تفيد معنى وعكسه[١٠٢]. ولكن فى ضوء النتيجة التى أسفرت عنها الأعمال الحربية فى تلك السنة، يبدو من الصعب أن نتصور كيف كان لـ "نيخو" أن ينجو من مصير الهلاك الذى حل بقواته دون أى إشارة فى أى موضع إلى الفرار المشين. أما الاشتباك نفسه فيرد وصفه فى "التأريخ البابلى" على هذا النحو:[١٠٣]

"فى السنة الحادية والعشرين مكث فى بلاده ملك "أكاد"(أى: "نابوبولاسر") وحشد ابنه الأكبر وولى عهده "نبوخدرصر" جيش ("أكاد") وتولى قيادة قواته. وانطلق نحو "كركميش" التى تقع على ضفاف نهر "الفرات"، وعبر النهر قبال جيش(؟) مصر الذى كان مستكنًا فى "كركميش"... واشتبك الجيشان فى المعركة وفر جيش مصر من وجهه. وأنزل به (الهزيمة) وأباده تمامًا. أما فلول جيش مصر (التى ...) هزيمة أسرعت، قبل حتى أن تشترك فى المعركة، وفى "حمات" التقى بهم جيش "أكاد" وهزمهم هزيمة قاسية حتى إنه لم يعد منهم أحد إلى بلاده."

هذه رواية واضحة كل الوضوح، ولكن كيف تأتى للبابليين أن ينزلوا بالمصريين تلك الهزيمة الفادحة؟ ألم يبلُ المصريون بلاء أكثر من حسن فى المواجهات السابقة، وهل يكفى أن تمر أربع سنوات كيلا يشرِّفوا صيتهم مرة أخرى أمام نفس الأعداء؟

نستطيع أن نورد ثلاثة عوامل لتفسير مقترح لهذا النصر المثير وغير المنتظر الذى أحرزه البابليون. أولاً: كان لتغيير القيادة أثره المبهج، بكل وضوح، على القوات البابلية. ونستقى من كافة الروايات أن "نبوخدرصَّر" كان تكتيكيًا بارعًا، وإذا لم يكن "نيخو" على رأس قواته، فإن البابليين يكونون قد تفوقوا على المصريين فيما يتعلق بالقيادة الميدانية. ثانيًا: قد نفترض أن تقدم "نبوخدرصَّر" كان أسرع كثيراً مما توقع المصريون. ثالثًا: لابد أن الهجوم المباشر الذى استهدف مقر الجيش المصرى فى

"كركميش" انطوى على مفاجأة كاملة، نظراً لأن "نابوبولاسر" كان قد تجنب خلال المواجهات السابقة أن يدخل في مثل هذه المقامرة.

يسمح سير المعركة، كما ورد وصفه في "التأريخ البابلي" باحتمالين في إعادة بناء ما دار. إما أن الهجوم البابلي كان من السرعة بحيث لم يستطع الشطر الأعظم من الجيش المصري، الذي كان معسكراً بالفعل في "كركميش" أن يلقي بنفسه في صفوف المعركة بسرعة كافية، بل وأصابه الذعر وفر في إتجاه الجنوب. أو أن القوات الرئيسية للتجريدة المصرية، التي انطلقت باتجاه الشمال من الدلتا، لم تصل في الوقت المناسب، بل اعتُرضت بعد معركة "كركميش" قرب "حمات" وقُضي عليها.

في الحالتين كانت النتيجة واحدة: إنتهت بصورة دائمة السيطرة المصرية على أعماق سوريا، البعيدة عن الساحل. وتتمثل إشارة على الخسائر المخيفة التي تكبدها "نيخو" في القدرة التي حازها "نبوخدرصَّر" على أن يزحف على رأس قواته على سبيل التنزه حول سوريا من خريف سنة ٦٠٥ق.م.(بعد وفاة والده) حتى يناير/طوبة سنة ٦٠٤ ق.م. وأن يقوم بنفس العمل موغلاً في أعماق الجنوب اعتباراً من يونيو/بؤونة ٦٠٤ق.م. ولم يكن في حوزة مصر ما تستطيع أن تعوق به زحفه ذاك. ولقد ابتهج "إرميا" النبي وتهلل للهزيمة التي حلت بـ "نيخو"، ووجه إلى مصر توبيخاً ساخراً على هذا النحو: "اصعدي إلى "جلعاد" وخذي بلساناً، أيتها العذراء بنت مصر! إنك باطلاً تكثرين من الأدوية إذ لا شفاء لك، قد سمعت الأمم بهوانك، وملأ صياحك الأرض، لأن الجبار عثر بالجبار فسقطا كلاهما معاً!"(١٠٤). ولما جرف حجم النصر البابلي "إرميا" النبي، أعلن أن "نبوخدرصَّر" هو يد (=أداة) الإله، وتنبأ، بثقة كاملة، بدمار كل الدول في العالم(١٠٥). وبدت هذه الهزيمة كانكسار كامل للمتعاطفين مع مصر الذين كانوا يشكلون حاشية "يهوياقيم"، ملك "أورشليم".

راقبت دول فلسطين تقدم البابليين خلال سوريا الذي بدأ في يونيو/بؤونة ٦٠٤ق.م. بقلق متزايد(١٠٦). أما بالنسبة لـ "نبوخدرصَّر" وقواته فكانوا يتقدمون، بوضوح، جنوباً، متجاوزين "فينيقيا" وفلسطين الداخلية (=البعيدة عن الساحل) كي يهاجموا الولايات المصرية في جنوب السهل الساحلي. ولابد أن الالتماسات التي

تلقاها "نيخو" من المدن الساحلية كي يعمل شيئًا من أجلها كانت بلا حصر. ولحسن الحظ ظهر أحد هذه الإلتماسات فى شكل رسالة باللغة الأرامية على ورقة بردى، كان "أدون" Adon ملك "إكرون" Ekron الذى وقعت مدينته على طريق الزحف البابلى قد بعث بها إلى "نيحو"(١٠٧). وكان "أدون" يستنجد بالمعاهدة التى وقعها مع مصر، ويطالب بإرسال قوات مصرية لعجزه عن التصدى للعدو الذى كان قد وصل بالفعل إلى أبيك" Aphek (سهل شارون) ومما لا شك فيه أن رؤساء دول آخرين فى المنطقة مثل "أجا" Aga رئيس "عشقلون" و"يهوياقيم" نفسه سارعوا بإرسال رسائل مشابهة، راجين العون،(١٠٨) ولكن "نيخو" لم يعد قادراً على تلبية تلك الرجاءات. وعندما دخل الجيش البابلى سهل فلسطين أعلن "يهوياقيم" الصيام فى "أورشليم". الآن لم يعد مما يشفى الغليل أن يلقى مؤيدو "بابل" خطبًا فى ذات الوقت الذى كانت فيه حكومة "يهودا" قد دخلت مرحلة الاحتضار in extremis. ومع ذلك اختار "إرميا" النبى هذه المناسبة، أى فى نوفمبر/هاتور سنة ٦٠٤ ق.م. كى يعهد إلى تلميذه "باروخ" مهمة قراءة كتاب "الأقوال" الذى كان قد أعده قبل فترة وجيزة، على الملأ، فى معبد "أورشليم"(١٠٩). وسرعان ما صودر الكتاب وأُتلف بعد قراءته أمام الملك. واختفى كل من "إرميا" و"باروخ" عن الأنظار ورصدت السلطات مكافأة لمن يأتى برأسيهما.

فى نفس الوقت، وفى نفس الشهر، فرض "نبوخذرصَّر" الحصار على "عشقلون". وقبل نهاية ديسمبر/ كياك استولى عليها وأسلمها للتدمير التام(١١٠). وكان "أنتيمينيداس" Antimenidas، وهو جندى يونانى مرتزق وشقيق الشاعر "ألكايوس" Alcaeus يعمل فى خدمة الجيش البابلى خلال تلك المناسبة، وتصف نتفة من كتابات "ألكايوس" تمجيداً لعودة شقيقه إلى أرض الوطن، المصير الرهيب الذى آلت إليه المدينة، فكثير من سكانها أُرسلوا إلى "بيت هاديس" (=الآخرة اليونانية. المترجم)(١١١). أما الباقى بمن فيهم الملك "أجا" فلقد جرى ترحيلهم إلى "بابل"، حيث استمرت جالية مغتربة تعيش هناك وتسمى نفسها (أبناء) "عشقلون" فى القرن التالى(١١٢). والأطلال غير المأهولة التى قامت كمأوى للحيوانات البرية لما يزيد على مئة سنة كانت لتقف كشاهد صامت على الاجتياح العنيف الذى أقدم عليه البابليون.

فى يناير/طوبة ٦٠٢ق.م. غادر "نبوخذرصَّر" مدينة "عشقلون" وشق طريقه عائدًا إلى "بابل"، ولكنه عاد بعد ثلاثة شهور ونصف بمعدات الحصار[١١٣]. وإذا كانت السطور غير الكاملة من "التأريخ البابلى"، كما يبدو فى أرجح الاحتمالات، سوف تشير هنا، فى حالة ترميمها، إلى "غزة"[١١٤] فإن استراتيجية "نبوخذرصَّر" تكون واضحة بما يقشعر له البدن: كان عاقدًا العزم على تحييد وإخضاع السهل الفلسطينى والطريق الساحلى المؤدى إلى مصر، بصورة كاملة وذلك خلال المحق الكامل وترحيل قطاعات واسعة من السكان المحليين. ولقد سقطت "غزة" فيما يبدو مؤكدًا، وعقب ذلك بوقت وجيز ظهرت جالية منفية من أبنائها فى "بابل"[١١٥]. وارتمت "فلاسطين" Philistia جرداء، وسقط ملكها بل وسكانها فريسة النفى: أصبح الطريق مفتوحًا إلى مصر.

نستطيع أن نتخيَّل، بسهولة، الأثر الناجم عن هذه الانتصارات الساحقة و"الاجتياح البابلى" على "يهودا". إلاّ أن "نبوخذرصر" لم يكن قد صرف النظر بعد عن أعماق البلاد (=البعيدة عن الساحل) ـ ولو أن إستراتيجيته الشاملة استلزمت منه إخضاع الطريق البحرى Via Maris لشن هجوم مباشر على مصر ـ ولكن "يهوياقيم" لم يشك بالمرة فى أن البابليين سوف يسحبون معدات الحصار ، إن عاجلاً أوآجلاً، فى اتجاه الشرق ويصعدون بها الجبال نحو"أورشليم" ويبدو فى أرجح الاحتمالات أن سنة ٦٠١ق.م. هى التى شهدت استسلام "يهوياقيم"، فور ظهور الجيش البابلى فى الغرب، وإرساله الجزية المنتظرة منه إلى "نبوخذرصَّر" فى مقره[١١٦]. وكانت هذه هى اللحظة بالتحديد التى اختارها "نبوخذرصَّر" للمجابهة مع مصر. و"التأريخ البابلى" The Baby-lonian Chronocle لا يخبرنا بالشهر الذى انطلق فيه البابليون، ولكنه من المحتمل أن يكون ذلك متأخرًا عما كان معتادًا، وربما حدث ذلك نحو نهاية فصل الصيف. وقد تكون تسوية الأمور مع "يهودا"، التى ربما تكون قد انطوت على زحف قام به "نبوخذرصَّر" نحو"أورشليم"، بصورة رسمية كى يقبل من "يهوياقيم" فروض الطاعة والولاء، قد شغلته حتى دخلت شهور الخريف، ولم تحتشد قواته حتى أواخر نوفمبر/هاتور عند نقطة الانطلاق فى مكان ما على السهل الساحلى كى تندفع نحو مصر. ودخل "إرميا" النبى فى نوبة من نوبات السرور. فالملك، عدوه المعتمد فقد اعتباره والحزب الموالى لمصر فقد

جدارته بالتصديق أو مصدوقيته، وصارت نبوءاته على وشك التحقق بحذافيرها، لأن "نبوخدرصَّر" أعد العدة لتدمير مصر. يقول "إرميا" النبى بسخرية وشماتة: "حضروا حقائبكم للنفى يا أهل مصر! لأن "منف" سوف يحل بها الخراب وتغدو أطلالاً لا يقطنها أحد!" ثم فى تقليد (=معارضة) لأسطورة "يو":Io (=ابنة "إناخوس" إله النهر فى "أرجوس"، التى هام "زيوس" بها حبًا وحولها إلى بقيرة بيضاء خوفًا عليها من غضب زوجته "هيرا" ولكن الزوجة الغيورة سلطت عليها فى نهاية المطاف حشرة الشعران فهامت على وجهها فى سائر أرجاء العالم وفقًا للأساطير اليونانية. المترجم)[١١٧] يقول: "بقيرة جميلة تلك هى مصر، ولكن شعرانة هبطت عليها من الشمال. جنودها المجلوبون (=المرتزقة) يرتعون فى قلبها مثل عجول معلوفة، نعم! لقد استداروا وولوا الفرار معًا، ولم يصمدوا ...لسوف يلف الخزى ابنة مصر، ولسوف تقع أسيرة فى أيدى أناس من الشمال.!"[١١٨]

كانت أكثر من ستين سنة قد مرت منذ وطأت قوة غازية الطريق الممتد جنوبى "غزة" إلى شرق الدلتا.، ولكن خلال حكم الأسرة الصاوية أدى الاهتمام بالحدود الشمالية الشرقية إلى بناء حدود أكثر أمنًا بكثير من الحدود التى كان على "آشور-بنى-بعل" أن يعبرها. وكان "آشور- بنى- بعل" ووالده "إزارهادون" قد دخلا الدلتا دون أن يعترضهما أحد على وجه التقريب، ولم يخوضا أولى اشتباكاتهما، إلاَّ داخل الأراضى المصرية. والآن كانت المستوطنات والمعاقل الصاوية مصفوفة على الحدود الشرقية والطريق الموصل إلى "غزة". وإلى الجنوب مباشرة من هذا الطريق، عند أو قرب "رفح"، كانت تقوم مدينة بانحسى"[١١٩]. وعلى الشريط الممتد بين بحيرة "البردويل" والبحر المتوسط كان يقوم وقت ذاك ضريح ومستوطنة مدينة "بعل صافون" Ba'al Sapon[١٢٠] وعلى بعد خمسة وثلاثين كيلو مترًا إلى الغرب كانت تقوم مدينة "بيلوزيوم"Pelusium عند مصب فرع النيل الواقع فى أقصى الشرق[١٢١]. وعندما يحود الطريق فى الاتجاه الجنوبى الغربى، أسفل الضفة اليمنى لفرع "بيلوزيوم"، يقابل المرء، على بعد لا يتجاوز ثمانية كيلو مترات من "بيلوزيوم"، "البرج"، وما أدراك ما البرج، حصن "مجدول" الجيد التحصين، الذى كان يشكِّل، وقت ذاك، ومنذ صعود الأسرة السادسة والعشرين إلى

سدة الحكم، الحصن الحصين للحدود الشمالية الشرقية والمدخل الذى يقود إلى مصر ذاتها(١٢٢). وكان الحصن الذى يرجع إلى المملكة الحديثة، وأدى هذه الوظيفة: "صايل" Sile لا يزال يقف على بعد اثنين وثلاثين كيلومتراً فى عمق الجنوب الغربى. وكان لقب الكاهن الأعلى للمدينة - "المقاتل، مالك الأسباب" - يستدعى إلى الذهن الأغراض العسكرية للموقع الذى وقع عليه الاختيار للمستوطنة،(١٢٣) وهو حصن "خنرت"(١٢٤) كان قد ظل يقف هناك لحماية "مستودع"،(١٢٥) وعند هذه النقطة تبدأ الرقعة المليئة بالمستنقعات من الدلتا، كى تمتد غربًا وفيما وراء النهر. واثنان وثلاثون كيلو متراً أخرى إلى الغرب مباشرة تأتى بالمسافر داخل رؤية مدينة "دفناى" Daphnae الجيدة التحصين بحاميتها من القوات اليونانية، وأربعون كيلو متراً أخرى إلى الجنوب الغربى تحمل المرء إلى مدينة "وس – خبرى" التى كانت قد شهدت قبل سبعين سنة دخول "إزارهادون" إلى مصر(١٢٦). وإذا كان المسافر، أو التجريدة يتحلى أو تتحلى بالجسارة الكافية عندما يكون لا يزال فى فلسطين كى يشق طريقه فى أعماق البلاد، خلال "قادش – برنيع"، ثم غربًا عبر ممر "متلا"، فإنه أو إنها تكون قد اقتربت من مصر خلال "برية السور" wasteland of the Wall - أى الصحراء الواقعة إلى الشرق مباشرة من "الإسماعيلية" (حاليًا) حيث كانت تبدأ التحصينات المصرية(١٢٧). وهنا يكون عليهم أن يمروا بـ "بحيرة العقرب"(١٢٨) (جزء ما من البحيرات المرة الحديثة) ويسيروا بمحاذاة "جبل مريم" حيث كانت تقوم على وجه الاحتمال مراكز للمراقبة منذ وقت طويل،(١٢٩) ويأتوا وجهًا لوجه أمام مدينة "فيثوم" الحصينة التى كانت قد بُنيت فى الآونة الأخيرة. وإذا لم تجد رحلتهم تحديًا عند هذه النقطة، فإن طابية "بى– سوبدو" على بعد أربعين كيلو متراً إلى الغرب كانت لتختم على دخولهم النهائى إلى الدلتا ذاتها.

فى حالة ما إذا كان "نبوخدرصَّر" قد تجنب الطريق الذى يمر عبر أعماق البلاد وفضل أن يقود قواته بثقة كبيرة على امتداد الساحل. فى هذه الحالة، مع ذلك، لم يكن ليكسب عنصر المفاجأة الذى ساعده فى معركة "كركميش". وأعطت المراكز المتقدمة "نيخو" إنذاراً كافيًا. وعندما أصبح البابليون فى مدى البصر من "مجدول"،(١٣٠) وجدوا المصريين مصطفين لقتالهم.

يشكل "التأريخ البابلى" و"هيرودوت" كل ما نملك من مصادر عن المعركة. ولكنهما موجزان مقتضبان. يقول "التأريخ":(١٣١) فى شهر "كيسلف" Kislev (نوفمبر/هاتور-ديسمبر/كياك سنة ٦٠١ق.م.) قاد جيشه وزحف على مصر. وسمع ملك مصر بالأمر فحشد جيشه. وفى معركة مكشوفة تطاعن كل من المصريين والبابليين وأنزل كل منهم هلاكًا فادحًا بالآخر، وعاد "نبوخدرصَّر" هو وقواته إلى "بابل". ويسجل "هيرودوت" أن "نيخو": "هاجم "السوريين (هكذا!) عن طريق البر وأنزل بهم الهزيمة عند "ماجدولوس" Magdolus.

تعد هذه المعركة هزيمة منكرة لجيوش البابليين، وكان أن استبد الذهول بـ "إرميا" النبى وسائر الذى تنبأوا بسوء العاقبة (للمصريين). فلم يقاتل المصريون "نبوخدرصَّر" حتى أوصلوه إلى درجة الشلل التام وحسب، بل وانتهز الفرعون "نيخو" الفرصة التى سنح بها تقهقر البابليين (فى تحدٍ لرأى "إرميا" النبى فيه)(١٣٢) كى يواصل تفوقه ويستولى على "غزة"، التى فقدت تحصيناتها خلال الحصار الذى كانت قد وقعت تحته فى الآونة الأخيرة(١٣٣). وهنا يتساءل المرء إلى أى حد يرجع الفضل فى هذا النصر المزدوج إلى وجود القوات اليونانية المعاونة (المرتزقة)، خصوصًا وأن "نيخو" أهدى الدرع الذى استخدمه فى القتال إلى معبد "أبوللو" فى "برانشيداى" Branchidae(١٣٤).

غدت "مجدول" فى ذاكرة البابليين تعنى فقدان الرجال والعتاد، ولم يعد من الممكن تصور أن تتجدد الأعمال الحربية مرة أخرى فى المستقبل المنظور. وفى الحقيقة لزم "نبوخدرصَّر" بيته فى "بابل" اعتبارًا من يناير/طوبة سنة ٦٠٠ ق.م. حتى أواخر نوفمبر/كياك سنة ٥٩٩ ق.م. من أجل "جمع عجلاته الحربية وخيوله بأعدادٍ كبيرة"(١٣٥). وبناء على ذلك أوقف "يهوياقيم" جزيته وبدأ مرة أخرى يبدى آيات الود تجاه مصر(١٣٦). وبدا أن اتجاه الرياح تحوَّل بكل تأكيد، ضد "بابل". وعندما عاد "نبوخدرصَّر" مرة أخرى فى ديسمبر/كياك سنة ٥٩٩ ق.م. إلى الظهور فى الغرب، كان استعراضًا هزيلاً للقوة. ففى هذه المناسبة لم يستطع البابليون الذى تجمعوا عند "قادش" أن يقوموا إلاّ ببضع غارات تأديبية فى قلب الصحراء كى يخمدوا القلاقل التى

يحدثها العرب[١٣٧]. ولما كان "إرميا" النبى على استعداد دائم لانتهاز أى حدث لإنذار الجميع بالفناء النهائى، فلقد تنبأ بدمار "قيدار"[١٣٨]. ولكن "نبوخذرصَّر" اضطر للعودة إلى "بابل" فى شهر مارس/برمهات سنة ٥٩٨ ق.م. تاركًا وراءه قوة عسكرية صغيرة للتوغل أكثر جنوبًا لشن غارات محدودة على حدود "يهودا"[١٣٩]. وطوال فصلىْ الصيف والخريف لم يطأ أرض فلسطين قدم جيش أجنبى.

ولكن الأمر كان أمر وقت ليس إلاّ، وذلك لأن نبوخذرصَّر" صمم على معاقبة "يهودا" على مروقها. وفى أواخر نوفمبر/ هاتور سنة ٥٩٨ ق.م. حُشدت الجيوش فى سهول "أكاد"، وبدأ الزحف الطويل فى اتجاه الغرب. ولم تكد تمر بضعة أيام، وعلى وجه الاحتمال قبل أن تصل أنباء الزحف البابلى إلى "يهودا"، رحل "يهوياقيم" يوم ٦ ديسمبر/كياك عن عمر لا يتجاوز ستًّا وثلاثين سنة[١٤٠]. وكان ولى العهد صبيًا لايتجاوز من العمر ثمانى سنوات[١٤١]، "يهوياقين" الذى صعد إلى العرش فى حينه، غير مدرك للكارثة التى كانت على وشك أن تقع. فالحصار المفاجئ وغير المنتظر الذى فرضه البابليون على المدينة شكل بالضرورة صدمة عنيفة لكل من البلاط وسكان المدينة الذين لم يكونوا، على استعداد للصمود تحت الحصار لمدة طويلة. و"التأريخ البابلى" جيِّد الحفظ عند هذه النقطة ويوفر لنا إشارة نادرة ونفيسة فى آن واحد، إلى حادث تصوّره "التوراة" على هذا النحو: "فى السنة السابعة (أى فى سنة ٥٩٨-٥٩٧ ق.م.) فى شهر "كيسليف" (نوفمبر/هاتور- ديسمبر/كياك) حشد ملك "أكاد" قواته وزحف إلى "بلاد-خاتى" (أى فلسطين وسوريا) وفرض الحصار على مدينة "يهودا". وفى اليوم الثانى من شهر "آدار"(١٦مارس/برمهات سنة٥٩٧ ق.م.) استولى على المدينة وألقى القبض على الملك"[١٤٢] فلقد فتح الملك الصغير السن "يهوياقين" Jehoiachin أبواب المدينة، واستسلم لمحاصريه بعد أن دام حصارهم للمدينة شهرين اثنين لا أكثر، وبعد أن أقنعه بذلك، بكل تأكيد، كل من والدته ورجال بلاطه دفعًا لتفشى المجاعة فى المدينة من ناحية ولكى يضمن معاملة كريمة لرعاياه من ناحية أخرى[١٤٣]. وصح ما ارتآه الناصحون: حظى "يهوياقين" وبلاطه بمعاملة طيبة إلى حد معقول. ولكن "نبوخذرصَّر" (نهب الخزانة والمعبد، ثم استلم جزية ثقيلة من المدينة وأرسل كل ذلك إلى "بابل")[١٤٤]

وإذا كان لنا أن نحكم استناداً إلى السجلات الأشد حصافة التى تركها وراءه "إرميا" النبى (٥٢: ٢٨-, ٣٠..) حول الطبقة العليا فى "أورشليم"، بما فيها، دون شك عدد لا بأس به من العائلات التى تنتمى للحزب الموالى لمصر، فلقد انتزعهم البابليون من مواطنهم وحملوهم كأسرى إلى "بابل".

وعلى نحو ما انتهى إليه الأمر، نجا "يهوياقين" نجاة المحظوظين من الكارثة التى جاءت فى طياتها نهاية "يهودا". إلاّ أنه ظل رهن الاعتقال، هو وإخوته فى "بابل"، وتكفلت الدولة بنفقاتهم، كما نستقى من قوائم الحصص التى وصلت إلى أيدينا بالقلم المسمارى، تلك التى تذكر أن ("الملك "يهوياقين"، ملك "ياهودا") حصل على عشرة "سيلا" sila (وحدة من المكاييل البابلية. المترجم) من الزيت(١٤٥). ولما كان باقى أعضاء العائلة المالكة قد لقوا حتفهم خلال التدمير النهائى لـ "أورشليم" فى سنة ٥٨٦ق.م.، فلقد وجد "يهوياقين" نفسه وقد تركزت فيه آمال "يهودا"، بصفته الوريث الشرعى الوحيد للمُلك(١٤٦). وفى النهاية، وعندما بلغ من العمر خمسة وأربعين سنة، أطلق خليفة "نبوخذرصَّر" سراحه من السجن، وعاش أيامه الأخيرة فى حالة معيشية ميسورة نسبياً فى بلاط "بابل"(١٤٧).

كانت الضربة الخاطفة التى وجهها "نبوخذرصَّر" إلى "أورشليم" عبارة عن مقامرة. فبعد هزيمة سنة ٦٠٠ ق.م. (على أيدى المصريين. المترجم) لم يعد ملك "بابل" يتمتع بالقوة فى الغرب، ولابد أنه فطن إلى ضعفه. وتتوفر هنا كل الأسباب التى تدعو إلى الاعتقاد بأن "نيخو" قد يواصل نجاحاته ويزحف بهمة ونشاط إلى داخل سوريا، ومن المؤكد أن ظهور "نبوخذرصَّر" متوغلاً فى أعماق جنوب المشرق إلى هذا الحد، كان ليستدعى، على وجه السرعة مقدّم القوات المصرية.

إلاّ أن "نبوخذرصَّر" قيَّم، بصورة صحيحة، قدرة خصمه: انشغل الفرعون "نيخو" بأمور أخرى فى أماكن أخرى، ولم يزحف لنجدة "أورشليم"(١٤٨).

بدت أحداث السنوات التالية وكأنها تؤكد الظنون التى ترى أن "بابل" قد بالغت فى التوسع إلى حد لا تحتمله قدراتها، وأن الهزيمة التى منيت بها أمام أعتاب مصر

أصابتها بوهن شديد. وفى يناير/طوبة سنة ٥٩٦ ق.م. لم يستطع "نبوخذرصَّر" أن يقوم بأكثر من جولة تفتيشية لمدة شهر واحد، لم تأخذه جنوبًا إلى أبعد من "كركميش"، وفى ديسمبر/كياك من نفس السنة غزت القوات العيلامية بلاد "بابل"[١٤٩]. ومع أن الهجوم العيلامى باء بالفشل، إلاّ أن "نبوخذرصَّر" فقد بصفة جزئية اعتباره، وانتشر التذمر بين صفوف الجيش. وفى ديسمبر/كياك سنة ٥٩٥ ق.م. تفجر العصيان فى داخل "بابل"، وهو العصيان الذى أخمده الحاكم بعد مرور شهرين، ولو أن ذلك جرى عبر سفك دماء غزيرة. حقًا قام "نبوخذرصَّر" بجولة فى سوريا عند انحناءة السنة كى يجمع الجزية، إلاّ أن الأمر لابد وأن يكون قد بدا من وجهة نظر الساحل المشرقى، أن نجم "نبوخذرصَّر" قد غرب.

شهدت "أورشليم" فورة من النشاط الدبلوماسى، فى ظل التنافس الذى دب بين مؤيدى "بابل" ومعارضيها على جذب أسماع الشعب إليهم، ولما نظر "إرميا" النبى ورأى المشهد الدولى ماثلاً تحت أنفه باستمرار، ولو أن الحمية كانت دافعه أكثر من سابق العلم، فلقد تنبأ بمصير الهلاك المحتوم الذى ينتظر "عيلام" Elam فى سنة ٥٩٦ ق.م.

"هكذا قال رب الجنود! هأنذا أحطم قوس "عيلام" رأس قدرتهم، وأجلب على "عيلام" الرياح الأربع من أقطار السماء الأربعة وأذريهم... وأحل بـ "عيلام" الذعر أمام أعدائهم... وأجلب عليهم الشر... وأطلق فى إثرهم السيف إلى أن أفنيهم، وأجعل عرشى فى "عيلام" وأهلك من هناك الملك والرؤساء، يقول الرب"[١٥٠] ولكن الدمار الموعود فشل فى التحقق، وجهرت الطائفة التى تعارض "بابل" بموقفها عاليًا. وبدأ "الأنبياء والعرافون والحالمون البصَّارون يعظون شعبهم على هذا النحو: لن تدخلوا فى خدمة ملك "بابل"[١٥١]. وفى مناظرة أمام الشعب، حطم عدو "إرميا" النبى وهو "حانانيا" النبى من "جعبون" النير (=الناف) الذى يحمله "إرميا" النبى كدرس عملى مثير للشفقة، وتنبأ على هذا النحو: "هكذا تكلم رب الجنود إله إسرائيل قائلاً: قد كسرت نير (= ناف) ملك "بابل". فى سنتين من الزمان أرد إلى هذا الموضع كل آنية بيت الرب التى أخذها "نبوخذرصر" ملك "بابل" من هذا الموضع وذهب بها إلى "بابل"... وأرد إلى هذا الموقع "يهوياقين" بن "يهوياقيم" ملك "يهودا" وكل سبى "يهودا" الذين ذهبوا إلى "بابل"[١٥٢].

لقد كانت الرياح تملأ أشرعة الوطنيين: لم تكن المسألة إلاّ مسألة وقت قبل سحق "بابل". ففى خريف سنة ٥٩٤ ق.م. على وجه الاحتمال، وفى ظل الآمال التى أنعشتها الهبة التى كانت قد تفجَّرت فى "بابل" قبل عدة شهور، عقد "صدقيًا" اجتماعًا ضم مبعوثى الدول المجاورة: "إيدوم" (="أدوم") و"مواب" و"عمون" و"صور" و"صيدا" (="صيدون" فى إحدى ترجمات دار "الكتاب المقدس" بالشرق الأوسط، إلى العربية. المترجم)[١٥٣]. وكان الهدف، بكل وضوح، هو العصيان، وبنفس الدرجة من الوضوح كان "صدقيًا" مستعدًا للرهان على الحاكم المصرى الجديد.

كان الفرعون "نيخو" الثانى قد رحل فى خريف سنة ٥٩٥ ق.م.[١٥٤] تاركًا وراءه ثلاث بنات وولد واحد، وهو "بيسماتيك" الثانى الذى خلف أباه[١٥٥]. وكانت الأنشطة المصرية قد تركزت، منذ النصر المشجِّع الذى أحرزه المصريون فى سنة ٦٠٠ ق.م.، على مجال آخر للمصالح، فى الجنوب، ربما فى ضوء الإجماع العام بأن الحدود الشمالية أصبحت الآن آمنة. وكانت الأسرة الخامسة والعشرون قد استمرت فى الحفاظ على نفسها كالسلطة الحاكمة على مناطق شاسعة فى السودان من عاصمتها التقليدية فى "نباتا"[١٥٦]، ولم يكن هناك شىء البتة يستطيع أن يصرف حكام "نباتا" عن النظر إلى عودتهم النهائية إلى أحضان مصر كأمر حتمى لا فرار منه. وبناء عليه كان "بيسماتيك" الأول قد وجد لزامًا عليه أن يحصِّن الحدود الجنوبية عند جزيرة "إليفانتين"[١٥٧]. وأن ينصب حامية قوية هناك، وهى الحامية التى ضمت، كما سبق لنا أن رأينا، عنصرًا يهوديًا.

وكان من حسن حظ الفراعنة الصاويين، أن الخلفاء المباشرين لـ "تانوتامان" ظلوا مستكنين فى معقلهم الجنوبى. ولكن تحت ظل حكم "أنلامانى" Anlamani (٦٢٣–٥٩٣ ق.م. على وجه التقريب) بدأ الكوشيون، فى التحرك شمالاً، وقد تكون النكسات التى منى بها المصريون فى آسيا قد شجعتهم فى هذا السبيل، كى يؤدبوا، كما بدا فى الظاهر، رجال القبائل الذين يشنون غاراتهم انطلاقًا من الصحراء الشرقية[١٥٨]. وليس فى وسعنا أن نتأكد، ولكن يبدو أن التجريدة النهرية التى وجهها الفرعون "نيخو" الثانى، فى أواخر حكمه فى اتجاه الجنوب من جزيرة "إليفانتين" ضد "القواسين النوبيين" كانت ردًا على هذا الخطر. وتحيطنا علمًا كتلة من الحجر اكتشفها الألمان فى

"إليفانتين" بـ "الخيول والعجلات الحربية (؟)" وكذلك بـ "الأسطول الذى شق طريقه باتجاه الجنوب، حاملاً إياهم، على صفحة النيل. وتقود هذا الأسطول الصغير الذى يضم نحو ثمانى عشرة سفينة على الأكثر، سفينة أمير البحارالملكية (؟) التى تسمى باسم: ("نيخو" شبه الروح)، كما كان يشمل أيضًا منقولات كبيرة وصغيرة(١٥٩).

تلقى فى صدورنا الطبيعة الشظوية (=من شظايا) للنقش بالشك فى النتيجة التى أسفرت عنها هذه التجريدة، ولكن الأخطار التى كانت محدقة بمصر ظلت على ما هى عليه، طالما استمرت القوات الكوشية تحتل مواقع متقدمة ضد مصر. ومن الواضح أن ضربة وقائية توجهها قوة ساحقة باتت مطلوبة. وسنحت فرصة فى سنة ٥٩٣ ق.م. عندما رحل "أنلامانى" وتفجرت مشكلة داخلية حول خلافته. وصار لزامًا استشارة نبوءة (= وحى) "آمون- رع" لتحديد من الأمراء يستحق الجلوس فى العرش، ووقع الاختيار الإلهى على "أسبيلتا" Aspelta، الشقيق الأصغر لـ "أنلامانى"، الذى اصطدم، لأسباب مجهولة، مع كهنة "آمون"(١٦٠).

لم تكد تمر عدة شهور ووقعت الضربة. ففى سنة ٥٩٣ ق.م. أى فى السنة الثالثة من حكم "بسماتيك" الشاب، احتشدت تجريدة ضخمة من مجندين مصريين تحت قيادة الجنرال "أمازيس" Amasis ("خنوم- إيب- رع" بالمصرى. المترجم) المفوض الملكى(١٦١). وقوات المرتزقة من الأيونيين والدوريين من أبناء اليونان والفينيقيين تحت إمرة الجنرال "بوتاسيمتو" Potasimto(١٦٢). وقد صحب "بيسماتيك" الجيش بشخصه حتى جزيرة "إليفانتين" حيث مكث منتظرًا عودته. ولقد صوَّرت صواديد/ألواح النصر التى أقيمت عند "طيبة" والشلال الأول، الفرعون الشاب عند نهاية شهر أكتوبر/بابة "يرطب كعبيه" عند جزيرة "إليفانتين" ويقوم بالتنزه، كيفما اتفق، حتى زفت إليه الأنباء(١٦٣). " ثم أخذ جلالته يتجول خلال مواطن الطيور وحيوانات الصيد فى بحيرة "نفر- إيب- رع" وطاف بخلجانها وأسرع فى سيره على جزرها وضفافها، وعاين غابات "أرض الإله" وأشجارها... وعندئذٍ جاء من أخبر جلالته أن "الجيش الذى أرسلته إلى النوبة وصل إلى مرتفعات "بنوبز" Pnubs وهى أراضٍ لا تصلح كميدان قتال، فهو مكان لا يعرف الخيول. وقد تغلب النوبيون الذى تدفقوا من كل صوب وحدب عليه. وقد امتلأت قلوبهم

بالغطرسة!" ويمضى النص بعد هذه النقطة، بصورة مضطربة، كى يعزو النصر الذى حققه المصريون إلى وجود جلالته فى أرض المعركة، ولكن صادوداً/لوحاً مهشماً يرجع إلى "أسوان" يعزو المجزرة التى تكبدها الأعداء إلى "جيش جلالته"(١٦٤) ومضى المصريون قدماً كى يحتلوا "دنقلة" ويسلموا "نباتا" للحريق، بل وواصلوا تقدمهم أكثر فأكثر نحو "ميروى". وعاد الجيش بعد أن أقام الآن الحاميات بصفة دائمة جنوبى الشلال الأول(١٦٥). منحدراً مع تيار النهر بخطى متمهلة، وقد نقش بعض الجنود أسماءهم بالإضافة إلى نُبذٍ عن شخصياتهم عند "أبوسمبل"، بينما كانوا يتسكعون على طريقة السياح عند الصرح العظيم الذى بناه الفرعون "رعمسيس" الثانى. حقًا خسرت الأسرة الخامسة والعشرون أربعة آلاف ومائتى جندى وقعوا فى الأسر وعدد آخر غير محدد سقطوا قتلى، ولكن "كوش" ما كانت لتشكل تهديداً خطيراً بعد ذلك لمصر.

لابد أن أنباء هذا النصر، الذى استمر ذكره على الألسنة لمدة طويلة عبر أجيال وأجيال، تركت أثراً عميقًا هز المشاعر فى الشرق الأدنى، وخصوصاً فى "يهودا". فلابد أن يكون "نبوخذرصَّر" قد أخذ علمًا بالمداولات التى كان "صدقيًا" يجريها مع الدول المحيطة فى جنوب المشرق، فلقد استدعى ملك "بابل" ملك "يهودا" وعدداً من وزرائه إلى عاصمته كى يعنِّفهم(١٦٦). ولكن "نبوخذرصَّر" لم يضعهم رهن الاعتقال وعادوا إلى "أورشليم" دون تأخير كى يستمعوا إلى أنباء النصر الذى حققه المصريون. زد على ذلك أن "بسماتيك" الثانى، مع كل وهنه، كان عاقداً العزم على متابعة انتهاج سياسة نشطة تجاه غرب آسيا. وفور عودته من "النوبة" قام بوضع الخطط لتجريدة مماثلة فى الشمال.

"الآن فى السنة الرابعة من حكم الفرعون "بيسماتيك" الثانى، "نفر- إيب- رع" أرسلت الرسائل إلى المعابد الكبرى فى مصر العليا ومصر السفلى على هذا النحو "الفرعون له العمر والرخاء والعافية! سوف يتوجه إلى أرض فلسطين (خارو) فدعوا الكهنة يأتون مع باقة من آلهة مصر لأخذها إلى بلاد فلسطين مع الفرعون!"(١٦٧) وما تلا ذلك كان تقدماً حفه النصر قام به الملك والبلاط والكهنة والجيش إلى مدن فلاسطين و"يهودا"،(١٦٨) وعلى ما انتهى إليه الأمر لم يصادف أى تحدٍ من جانب "بابل". وكان "بيسماتيك" قد سلك، بكل تأكيد، نفس الدرب الذى سار فيه أسلافه العديدون، وتابع

مسيرته صاعداً مع الساحل حتى مدن "فينيقيا" مثل "صور" و"بيبلوس". ولابد أنه هدف من وراء ذلك أن يرفع الروح المعنوية للمقاومة المستعرة ضد البابليين من جهة وأن يدعم التحالفات أكثر من جمع الجزية من ناحية أخرى، وفى هذا الصدد لابد وأن يكون قد حقق نجاحاً باهراً. وكان لزاماً على المدن-الممالك الفينيقية أن توفر، كدأبها منذ زمن سحيق، الأخشاب المنشورة اللازمة لبناء السفن. وكانت "يهودا" لتشكّل مركز المعارضة لـ "نبوخذرصّر" ملك "بابل"، وكان فى طوعها أن تأمل، دون جامح خيال، فى الفوز، خصوصاً وأن مصر التى كانت قد حققت للتو نصراً مبيناً تقف وراءها. وحتى فى "بابل" نفسها كان المنفيون من أبناء "يهودا" يسألون "حزقيا" النبى عن متى سيعودون إلى ديارهم[١٦٩]. وكانت التكهنات المتفائلة قد راجت وسط الجالية التى تعيش فى المنفى بأن نجم "بابل" على وشك الانحدار، وأن المنفيين سوف يطلق أسروهم سراحهم عما قريب[١٧٠]. وحتى مع أن "إرميا" النبى استمر يستهجن، بأسلوبه الجامح، أى مشاعر جماعية تتعلق بالأمل، إلاّ أن تجربته مع البربرية البابلية دفعته هو الآخر، إلى دمغ هذه الأداة الغامضة بمصير الهلاك المحتوم فى نهاية المطاف، تلك الأداة التى سبق له أن تصوّر أن "السيد الإله" سلّطها على شعبه المختار[١٧١].

ولكن الأحداث أخذت مرة أخرى منعطفاً غريباً. رحل الفرعون "نيخو" فى لحظة غير مواتية، إذ حرم رحيله جنوب المشرق من حليف موثوق منه فى نفس الوقت الذى بدا فيه أن الضعف يحاصر "نبوخذرصّر". والآن، فى سنة ٥٩١ ق.م. سقط "بسماتيك" مريضاً عقب عودته من تجريدته الفلسطينية[١٧٢]. (وكانت الوفاة لتحضره فى غضون سنتين) وربما يكون قد قضى وقته خاملاً منذ هذه اللحظة كى يدخل فى حالة تسوء بشكل مطرد. وفى نهاية الأمر لفظ أنفاسه الأخيرة فى مطلع فبراير/أمشير ٥٨٩ ق.م. وصعد ابنه "واح- إيب- رع" (أى "واسع هو قلب رع" و"أبرييز" باليونانى، و"حفراء" بالعبرى. المترجم)

تعوزنا الآن آراء المعاصرين وتوقعاتهم، ولكننا نظن أننا لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إذا قلنا إن صعود "أبرييز" إلى الحكم كان نعمة من وجهة نظر المصريين واليهود على حد سواء[١٧٣]. ولما كان شاباً يافعاً فى مطلع العشرينيات من عمره عندما جلس فى

عرش مصر، فلقد شرع في مواصلة انتهاج السياسات العامة التي تصوّرها والده وتقوم على المبادرة في غرب آسيا. ويسجِّل "هيرودوت" أن "أبرييز" قاد تجريدة إلى "صيدا"، وتمشياً مع ما نعرفه عن روح الإقدام التي تمتع بها الفرعون الشاب، ينبغي أن يكون قد أنجز هذه المهمة في السنة الأولى من حكمه، وبتحديد أكثر، في أواخر ربيع سنة ٥٨٩ ق.م. وصيفها على وجه الاحتمال(١٧٤). وإذا كان "صدقيًا" قد عُذِّر (=عوقب بهدف الإصلاح. المترجم) عن طريق استجوابه في "بابل" من جانب والمرض القاتل الذي ألم بـ "بسماتيك" الثاني من جانب آخر، فلابد أن احتمال الانتصارات التي تعد بها همة الفرعون الشاب الذي جلس للتو في عرش مصر، قد أسرعت بنبضه وشجعته على اتخاذ قراره الأخير والمشئوم في وقت واحد. إذ قبيل نهاية صيف سنة ٥٨٩ق.م. كان "صدقيًا" قد تنصل بصفة رسمية، من أي ولاء لـ"بابل"، ربما يكون قد جدده خلال الاجتماع مع "نبوخدرصَّر"(١٧٥). كان السهم قد نفذ.

أثبت "نبوخدرصَّر" مرة أخرى، وعلى امتداد الشهور التالية، أنه يتفوق على معاصريه في الفهم الإستراتيجي بل والتكتيكات الجسورة كذلك. وقد تكون "بابل" قد عوضت إلى حد كبير خسائرها الناجمة عن عصيان سنة ٥٩٥ ق.م. - لا نستطيع الجزم بشيء محدد في هذا الصدد، نظرًا لأن تأريخنا الذي يُغطي السنوات التي تبدأ من سنة ٥٩٤ ق.م. لا يزال رهن البحث - ولكن همة الفرعون "أبرييز" وطاقته بدتا أرجح من أي ميزة ربما يكون "نبوخدرصَّر" قد ظفر بها من قبل.

لعله من المحتمل أن "نبوخدرصَّر" أقدم على خطوته في أواخر خريف سنة ٥٨٩ ق.م. فلقد زحفت القوات البابلية إلى داخل قلب سوريا، وأقام "نبوخدرصَّر" مقر قيادته في "ربلة"(١٧٦) حيث قصد أن يدير عملياته. وجرى تقسيم الجيش، فتوجه طابور إلى جبال لبنان كي يتصدى لتحركات "أبرييز" على امتداد الساحل، وأرسل الطابور الآخر كي يحاصر "أورشليم" بهدف القضاء، مرة وإلى الأبد، على كل منطقة عازلة كانت تحتفظ بها مصر على حدوده)(١٧٧). إلاّ أن الجهود التي بذلها "نبوخدرصَّر" على طول الساحل اللبناني لم تكن حاسمة. مع أنه زعم أنه خلَّص البلاد من "العدو" (=المصريين)، وأنه جلب الخشب المنشور لأعمال البناء التي كانت جارية في "بابل"، وأنه فرض

الحصار على "صور"، وهو عمل "جمَّد" جزءًا من قواته المقاتلة فى حصار ممدود وغير مجدٍ[١٧٨]. زد على ذلك أن أسطول "أبرييز" استطاع أن يروح ويغدو كما يحلو له على طول الساحل، وأن يجلب المساعدات للمدينة المحاصرة.

على أن التجريدة التى أرسلت إلى "يهودا" عانت فى البداية من التقدم العسير. كان "صدقيًا" قد استطاع إرسال رسالة موجزة إلى مصر قبل إطباق القوات البابلية عليه وتطويقها للمدينة فى يناير/طوبة ٥٨٨ ق.م.[١٧٩] ولقد أسفرت عمليات التنقيب التى جرت فى "لاخيش" بين الحربين العالميتين الأولى والثانية عن كشف مهم يتمثل فى خبيئة من إحدى وعشرين شقفة منقوشة باللغة العبرية، تحمل الرسائل المستعجلة من أحد المواقع المتقدمة إلى قائد "لاخيش"[١٨٠]. ولما كانت هذه الشقف ترجع إلى تاريخ هذا الحصار الأخير لـ "أورشليم"، فإنها تقدم صورة حية، وفى حقيقة الأمر مبهرة للأنفاس من حالة الارتباك واليأس التى صاحبت الحادث. وتتضمن إحدى أوائل هذه الرسائل، وبالتحديد رقم ٣ تقريرًا يقول إن "قائد الجنود، وهو "كونياه" = بن "إيل-ناثان" (="أليناثان") قد هبط كى يتوجه إلى مصر"[١٨١]. ولابد أن النجاح حالف "كونياه" فى مهمته فى مصر، وذلك لأنه سرعان ما غادر الفرعون "أبرييز" وجيشه مصر فى خريف سنة ٥٨٨ ق.م. على وجه الاحتمال، وشقوا طريقهم خلال الساحل نحو "أورشليم". ولقد تعرفنا جيدًا على بعض ضباط الفرعون عن طريق مجموعة التماثيل التى تركوها وراءهم، ولا يجد المرء أمامه إلاّ أن يتساءل كم عدد الذين صاحبوا سيدهم الفرعون فى حملته المشئومة. فهناك ("نفر- إيب- رع- ناخت" قائد المشاة، رسول جلالته الذى يقاتل نيابة عنه فى كافة البلدان الأجنبية... ومراقب باب البلدان الشمالية")[١٨٢] و"آمون - تف - ناخت" قائد الحرس الخاص لجلالته وقائد القوات - الصفوة[١٨٣]. وقد يكون هناك أيضًا "بوتاسيمتو" Potasimto الذى كان قد عاد من الحملة النوبية: هو أيضًا "قاتل نيابة عن سيده فى كافة البلدان الأجنبية"[١٨٤] على نحو ما فعل العديد من القادة الآخرين الذين يرجعون إلى ذلك التاريخ أو تاريخ مقارب[١٨٥].

ولكن انخراط هؤلاء الأقطاب فى إغاثة المدينة المحاصرة كان قصير العمر. فلقد انسحبت القوات البابلية على وجه السرعة من حول "أورشليم" وأسرعت فى اتجاه

الغرب داخل السهل الساحلى(١٨٦). وكان زحفها من السرعة وجبهتها من الرهبة حتى إن "أبرييز" لم ير بقواته محدودة العدد التى جاء بها(١٨٧)، أى فرصة سواء للزحف صاعداً نحو "أورشليم" أو أى إمكانية واقعية للفوز على العدو فى معركة مكشوفة. وكان أن انسحب المصريون وقد جللهم الخزى. وأخذت المدن تستسلم، مدينة بعد أخرى فى "شيفيلاه" ولم يستمر صامداً منها سوى "لاخيش" و"عزيقة" Azekah.(١٨٨) واستأنف البابليون حصارهم للعاصمة اليهودية. كان أجلها المحتوم قد تقرر.

وأصبحت صيحات الأنبياء صرخة مدوية. اختفى من بينهم المتفائلون. وأطلق "إرميا" النبى نبوءاته بشأن المصير المنتظر حتى بصورة أشد احتداداً عن ذى قبل، وقام المسئولون المدنيون والعسكريون بإيداعه السجن دون إبطاء،(١٨٩) ولو أن الملك الرعديد والمتردد استمر يسأله، فى السر، النصح(١٩٠). وحتى فى "بابل" جاء توبيخ "حزقيال" النبى، الذى كان يعيش هناك فى المنفى، لـ "أبرييز" سيئ الحظ: "الفرعون الذى حمل ضمن ألقابه كنية "قوى الذراع" كسر السيد الإله ذراعه"(١٩١).

ومع أن العسكريين رأوا لزامًا عليهم أن يواصلوا الحرب وأن يعاملوا المنشقين باعتبارهم خونة(١٩٢)، كان كل أمل حقيقى قد تبدد الآن، ما لم تجازف مصر بتكرار المحاولة. فلقد كانت دول الضفة من الصغر بحيث لا تستطيع تقديم أى مساعدة فعالة، مع أنها دأبت على توفير ملاذٍ للهاربين من "يهودا"(١٩٣) وفى الفصل الأخير من فصول الدراما التى تترى أمام أعيننا، وقفوا موقف المتفرج(١٩٤). واستبد اليأس بـ "صدقيًا" فأعتق جميع العبيد، ربما لكى يوفِّر عناصر جديدة للتجنيد فى سلك الجيش(١٩٥)، وطلب النصح من "إرميا" النبى فى المجال السياسى(١٩٦). ولكن كل ذلك راح سدى. واستمرت أعداد كبيرة من السكان يهربون إلى "بابل"، وبمرور الوقت أنشبت المجاعة والوباء مخالبهما فى "أورشليم".

حلت النهاية فى غضون ثمانية شهور أو نحو ذلك بالحصار الذى فرضه البابليون مرة أخرى. ولطالما عرَّفنا الجسمور (= مجموعة كتابات فى موضوع معين. من "جسم". المترجم) التاريخى من النصوص الميزوبوتاميانية (=البابلية–الآشورية) بمعدات الحصار المتقدمة التى كان بوسع البابليين والآشوريين أن يأتوا بها كى يطلقوها ضد مدينة ما،

وكانت تلك التقنيات التى تستخدم الأبراج وكيمان الحصار و"أكباش الحرب" (=آلات حربية قديمة تشبه المنجنيق. المترجم) قد انتقلت غربًا منذ وقت طويل، على نحو ما نستدل من صادود/لوح "بى-عنخى". وفى طوعنا أن نتخيَّل جيداً أنه مع مقدم ربيع سنة ٥٨٦ ق.م. بدأت كيمان الحصار ترتفع قبالة أسوار "أورشليم"، ربما على الجانب الشمالى أو الغربى (ولربما على كليهما)، فهنا لم يكن وضع الأرض فيما وراء التحصينات شديد الانحدار، الأمر الذى يسهِّل الهجوم باستخدام معدات الحصار. (لوحة رقم ٣٥) ولقد شن البابليون هجومًا منسقًا، وساعدتهم فيه المجاعة التى أنهكت المدافعين عن المدينة، فى شهور الصيف، ربما بالقرب من مستودعات الماء التى أصبحت تعرف فيما بعد باسم بركة "بيتيسدا" Bethesda شمالى المعبد والقصر[١٩٧]. وفى وضح النهار يوم ١٨يوليو/ أبيب نقب البابليون السور ودخل المهاجمون المدينة (لوحة رقم ٣٦)، وسرعان ما احتلت القيادة البابلية "البوابة الوسطى"[١٩٨] وانهارت الدفاعات وتمزقت أوصال الحكومة. وفى نفس ليلة ذلك اليوم هرب الملك وعائلته وفلول جيشه عبر البوابة الجنوبية للمدينة الأصلية أى مدينة "داود" إلى وادى "قيدرون" ومنه إلى صحراء "يهودا". لكنهم لم يشقوا طريقهم إلى مصر: كل طرق الوصول إلى "سيناء" كانت مقطوعة. وعوضاً عن مصر اتجهوا إلى وادى الأردن وتلال "عمون" فيما ورائها، حيث كان بوسع بعليس" Ba'alis، ملك "عمون" أن يمنحهم بكل تأكيد ملاذاً. ولكن ذلك لم يحدث. فلقد طارد البابليون ملك "أورشليم" وأتباعه وألقوا القبض عليهم قرب "أريحا" ونقلوهم إلى مقر "نبوخذرصَّر" فى سوريا. وهناك سمل البابليون عينى "صدقيًا" وأسلموا عائلته لحد السيف. وبعد ذلك بشهر واحد التهمت ألسنة النيران "أورشليم" وأخذ البابليون سكانها أسرى وثرواتها غنائم.

ختام

كانت أحداث سنة ٥٨٦ ق.م. التى لم تفسر فى عصرها إلاّ كمرحلة فى عملية القضاء على دول جنوب المشرق لتبرهن على أنها تشكل حدًا فاصلاً يتسم بالعمق فى تاريخ العبرانيين. وقامت فلول الجالية التى عادت إلى "أورشليم" من منفاها فى "بابل" عند نهاية القرن كبداية جديدة ومختلفة بصورة ملحوظة عما سارت عليه الأمور من قبل على المستوى السياسى والثقافى والدينى. وبالنسبة لنا نحن المحدثين تعد يهودية "عزرا" أو "نحميا" قريبة منا ومفعمة بالحياة، أما ديانة "عاموس" أو "إرميا" النبى فغريبة وتكاد أن تكون قبل-تاريخية.

أصبحت لحظة الصدق بالنسبة لمصر على وشك الهبوط، فى سنة ٥٢٥ ق.م.، عندما اجتاحت إمبراطورية "قمبيز" الميديانية Median التى كانت تواصل توسعها، قوات "بيسماتيك" الثالث، ولكن بالنسبة للمجتمع الذى ازدهر على ضفاف وادى النيل كانت الصدمة الثقافية أقل تأثيراً. حقًا كانت الدولة قد فقدت استقلالها وكانت قد هبطت إلى مستوى مقاطعة نائية فى إمبراطورية عالمية شاسعة، ولكن الإدارة والديانة والتعبير الثقافى لم يتغيَّر منها شىء إلاّ بدرجة محدودة إلى حد بعيد. ولا يستطيع سوى الخبراء وحدهم أن يميِّزوا بين التماثيل ونصوص الآداب التى ترجع إلى القرن الخامس وتلك التى تعود إلى القرن السابع أو السادس، وبينما كان القرن الرابع ليقذف لنا بمتمردين مصريين يستولون على التاج ويعلنون أنفسهم فراعنة، إلاّ أن نظمهم التى لم تعمَّر طويلاً، كانت امتدادات وحسب للتجربة التى قام بها الفراعنة الصاويون الأسبق زمنًا.

كان مقدراً لهزيمتىْ سنة ٥٨٦ و ٥٢٥ ق.م. السياسيتين أن تتركا في نهاية المطاف تأثيراً ضاراً على الحياة الثقافية فى كل من مصر والمشرق على حدٍ سواء. وكان الصيت الذى بلغته مصر فى البحث "الميتافزيقى" فيما لا يمكن التكهن بكنهه على وجه التحديد، ذلك الصيت الذى جاء بالعديد من اليونانيين عند أقدام الكاهن المصرى، قد تلاشى فى القرنين الخامس والرابع بينما أفسح الانبهار اليونانى المجال للاحتقار. وعلى نفس المنوال قزّمت الذرى التى وصل إليها الأنبياء العبرانيون على المستوى الأخلاقى واللاهوتى قبل "النفى" المدارك التى حققها فى نفس المجالات، مجتمع المعبد الثانى، ذلك المجتمع الذى نحا نحو التقييد وانغمس وعيه فى الطقوس. وأدت سيطرة الأجانب على شئون مصر و"يهودا" إلى دفع شريحة الإنتلجينسيا (=المثقفين) إلى موقف الدفاع. ففى مصر وبالتأكيد اعتباراً من الغزو اليونانى بدأ مسئولو المعبد الذين انكفأوا على أنفسهم، وفى ظل الفقدان المتزايد لرعاية السلطات ومخصصاتها لهم، أخذوا ينظرون إلى أنفسهم بصفتهم ممثلين لآخر مستودع ومعقل للأنماط القديمة التى عرفتها العصور الفرعونية. وفى "يهودا" فى جهد يتسم بالرجعية فى البقاء "محلك سر"، قام الحكماء الكهنوتيون للمجتمع بالربط بين الأرثوذكسية (= أصولية ما قبل الأصولية. المترجم) وبين القومية كى ينتجوا تصلُّب المكابيين (= أسرة يهودية متزمتة قادت وحكمت "أورشليم" اعتباراً من سنة ١٦٤ ق.ع.م. أى قبل العصر المألوف. وقد بنى أبناؤها المعبد وشغلوا منصبىْ الكاهن الأعلى والحاكم المطلق معًا لعدة أجيال. المترجم) ووحشية المتحمسين. وقد نلاحظ تيارات تسفيه الآخر، على أكمل وجه، فى كل من مصر و"يهودا" فى الأدب الذى أنتجه كل منهما: المعبد المصرى، الحكمة الملغزة للنقوش المشفَّرة، والمجتمع اليهودى، "المشناة" Mishnah ولكن أيًا منهما لم يجد له دوراً فى عالم الهيلينية الجديد.

قد يكون فى طوع المرء أن يقول أو يكاد أن يقول إن: "الإله مات". ربطت أرباب "طيبة" و"منف" وكذلك "أورشليم" و"صور"، التى ظلت حتى تلك اللحظة محلية ضيقة الأفق نفسها بالمقاومة القومية، وبهذا الربط كانت قد اختطت مصيرها بيدها. وأصبحت زماماتها البلدية التى دامت على هذا النحو خلال القرنين اللذين شهدا منعطف الحقبة

الحالية مواطن للمشاعر المتعصبة قوميًا، مثل "طيبة" و"أورشليم" التى استبدت بهما النشوة فى أداء دور القلاع المحاصرة التى تدافع عن النظام القديم الذى كان قد وقع وقت ذاك تحت وطأة الهجوم.

إلاّ أن "آمون" و"يهوه" كانا قد انتهيا إلى الفشل. وأثبتت كل من مصر وغرب آسيا أنهما عاجزتان عن الوقوف فى وجه الهجوم الذى شنه اليونانيون والرومان فى ميدان القتال، وكان أن تراجعتا أيضًا فى ميدان الأفكار. وكانت المقاومة دون جدوى: بحلول نهاية القرن الأول وقف معبد "آمون" مهجورًا، وبيت "يهوه" فى أطلاله التى آل إليها بعد التدمير. ولم تثبت "الهجمات المضادة" التى قام بها الأدب أنها أى شىء آخر أكثر من محاولات تدعو للشفقة لاستنزال اللعنات على المدنسين "خا - ستيو" (الأجانب) أو الحقراء "كتيم" Kittim (اليونانيين والرومان). وكان أفضل ما يستطيع مثل هذا الأدب الشعبى أن يعطيه هو الوعد بغدٍ قادم أكثر إشراقًا، أى بأملٍ خافت ميئوس منه. ويستطيع المرء أن يرصد خلال كل ذلك الاحتجاج والتشكى اللذين أفصح عنهما الكتاب الرؤيون الكالحو الوجوه، ذلك الإحباط الذى تعانى منه الثقافات التى جُردت مما كان لها من حقوق، وتفوق عليها نمط حياة جديد وخصب الخيال قادم من وراء البحار.

ومع ذلك ففى ظل هذا الغسق الطويل والمأسوف عليه لغروب هذه المجتمعات القديمة فى شرق البحر المتوسط، ربما يكون السكان المحليون قد وجدوا ما يعزيهم ويرضى أفئدتهم فى إنجاز باهر. فحيثما فشلت الآلهة القومية، بدأت الآلهة الشعبية Numina populi فى ممارسة إغراء لا يُقاوم على الغزاة الأوروبيين، وفى نهاية المطاف تخلت عن أى ولاء ربما تكون قد أظهرته تجاه مجامعها الإلهية (القومية. المترجم). ولم يستطع "زيوس" أن يتبارى مع "سيرابيس"، ولا "أثينا" مع "سيبيل" Cybele فالأمم-الدول التى تتبعنا معًا تاريخها الطويل والمتعرج كانت قد ماتت فى ذلك الوقت، ولم تعد توفر الأمان أو التحقق-الذاتى للمجتمعات التى كانت قد تعايشت معها ذات يوم. ووجد الفرد نفسه مضطرًا الآن إلى البحث عن الخلاص فى مكان آخر، خارج نطاق الجماعة، وخارج نطاق الأمة. وأصبح وقد وجد نفسه وحده فى عالم شجاع جديد، لا يهتم له أو به أحد. وكان أن انتزعت الحاجة الشخصية التى اتضحت على هذا النحو جوابًا، فى ضوء

ما يهم جماهير العالم المُتهلّين (=الذى صبغته الهيلينية)، ومن مصدر واحد: دائرة الآلهة المتجسدة، "المتأنسنة" التى ملأت الفراغ الروحى فى كل نفس من النفوس. وعلى غرار ما عانى البشر، عانوا أى الآلهة هم أيضًا، وعلى غرار ما يموت الفانون، واجهوا هم أيضًا الموت والحساب وتطلب هذا التوازى اتحاداً روحيًا، واستدعى التقوى والتوبة. ولا يستطيع ذلك الاتحاد بين المقدس والخلاص أن يتم إلاّ فى "الأسرار"، وحدها دون سواها.

لا تزال النتائج مستمرة معنا. فنعمة الإنقاذ التى تسبغها "إيزيس" أو "مسيح" أو "ميثرا" Mithra غلبت ما عداها فى سائر أرجاء عالم البحر المتوسط للإمبراطورية الرومانية العالمية، بل وانحدرت، فى صورة محورة إلى القرن العشرين. ولكن كل ذلك قصة أخرى.

الهوامش

(١) تنعكس صورة مصر السياسية بأحسن ما تنعكس به عند مطلع الأسرة السادسة و العشرين في السجلات التي دونها "آشور-بني-بعل"(=آشوربانيبال)، انظر على وجه الخصوص النقاش الذي أداره:
A.J.Spalinger,JAOS 94 (1974),316-28;K.A.Kitchen The Third Intermediate Period in Egypt (Warminster,1973),394-403.

(٢) حول الحكم الأشوري في مصر، انظر:
H.Lewy,JNES 11 (1952), 280,n.83;B.Oded,Mass Deportations and Depotees in the Neo-Assyrians Empire (Wiesbaden,1979),45and n.30;M.Elat,JAOS 98 (1978),26.

(٣) حول "بيسماتيك" الأول و إنجازاته، انظر:
Kitchen, Third Intermediate Period,399-404;A.J.Spalinger,JARCE 13 (1976),133-47;idem,Orientalia 47 (1978),12-20;idem,LdÄ 4 (1982),1164-69.

(٤) H.D.Meulenaere, Herodotos over de 26ste Dynastie (Louvain,1951).

(٥) Herodotus,2.151-52 see A.B.Lloyd , Herodotus Book II A Commentary (Leiden,1988),3:130-32.See also my discussion,p.383.
انظر أيضا مناقشتي ص ٣٨٣ (من النص الأصلي)

(٦) لا يزال الدور التاريخي الذي لعبه "تانوتامان" طي الغموض، و مع ذلك يجدر بالقارئ أن ينظر:
D.B.Redford LdÄ 4 (1982),368-69;S.M.Burstein, JSSEA 14 (1984),31-34,Lloyd, Herodotus 3:130.

(٧) حول "مونتو-إم-حات" انظر:
J.Leclant, Montuemhat 4ème prophète d'Amon, prince de la ville (Cairo,1961); M.L.Biebrier,Ld? 4 (1982),204.

(٨) A.J.Spalinger,JAOS 98 (1978),400-409.

(٩) G.Roux, Ancient Iraq (Harmondsworth,1966),300-301.

(١٠) R.A.Camonos,JEA 50 (1964),71-101.

(١١) H.Goedicke MDAIK 18 (1962),pl.1.

(١٢) Spalinger,JAOS 98 (1978),402-3;J.Boardman, The Greeks Overseas (London,1980),112-13.

(١٣) J.Yoyotte, Mélanges Maspero (Cairo,1961),4:142-51.

(١٤) Cf.Spalinger,Orientalia 47 (1978),12-13;D.B.Redford, Pharaonic King-lists, Annals and Day-books (Toronto,1986),328-31.

(١٥) حول "صايس"(صالحجر حاليا) انظر:

I. Habachi, ASAE 42 (1943), 369ff.; R.El-Sayed, Documents relatifs à Sais et ses divinités (Cairo,1982); J. Baines and J.Malek,. Atlas of Ancient Egypt (Oxford, 1980),170.

و مع ذلك فيبدو أن "منف" ظلت على وجه الاحتمال، مركز الإدارة، انظر:

A.B.Lloyd, in Ancient Egypt, A Social History (Cambridge,1983,332.

(١٦) حول واجبات الحاكم (nomarch) انظر:

Herodotus, 2.177; Aristotle, Oeconomica 1351a16-1352; Diodorus,1.73.1; Stabo, 17.1.13, 54.

(١٧) انظر: ص ٣٢٤ و ما بعدها (من النص الأصلى)

(١٨) أحمد فخرى "واحات مصر". القاهرة . ١٩٧٣) ١: ١٥٠ و ما بعدها، (القاهرة١٩٧٤.) ٢: ٦٤-٦٥، ٧٩-٨٠،

D.B.Redford,JSSEA 7 (1977),7-9.

(١٩) انظر ص.٤٤٧ و مابعدها (من النص الأصلى)

(٢٠) Herodotus,2.158-59;A.B.Lloyd,JEA 63 (1977),142ff.;idem, Herodotus, 3:149-51.

(٢١) حول تجارة "صايس" انظر:

E.Drioton and J.Vandier, L'Égypte4 (Paris, 1962), 583-84.

(٢٢) حول "نقراطيس"(=نقراش حاليا) و بشيرها "معسكر المليزيانيين"انظر:

Strabo 17.1.18;F.K.Kientz,Die Politischen Geschichte Ägyptens vom 7. Bis zum 4.Jahrhundert (Berlin,1953),38;A.Bernard. Le Delta égyptien d'apres textes grecs (Cairo,1970),799ff.;Boardman, Greeks Overseas,118-35; Herodotus, 2.178; Lloyd, Herodotus,3:222-4.

(٢٣) P.Rylands IX,vii.14-15.

(٢٤) ANET2,294.

(٢٥) حول حكم "منسى"، انظر:

E.Nielson, in Fourth World Congress of Jewish Studies (Jerusalem, 1967), 1.103-6;B.Oded,in J.H.Hayes and J.M.Miller,eds.,Israelite and Judaean History (Philadephia,1977),452-58;J.H.Hayes and J.M.Miller, A History of Ancient Israel and Juda (Philadelphia,1986),365-76.

(٢٦) انظر: S.M.Olyan, Asherah and the Cult of Yahweh in Israel (Atlanta,1988)

فى سبيل الاطلاع على مراجع فى الموضوع.

(٢٧) R.A.S.MacAlister, The Excavations of Gezer (London,1911),1:23ff,

في سنة ٦٤٦ق.م. كان لا يزال هناك حاكم أشوري في "السامرة"، انظر:

R.A.Heshaw,JAOS 88 (1968),478.

ظلت "آشور" قادرة على إنفاذ حملات انتقامية إلى وقت متأخر يقع حول سنة ٦٤٤، انظر:

A.Malamat,JANES 5 (1973),270,n.12.

(٢٨) Roux, Ancient Iraq,302;J.M.Myers, in H.Goedicke,ed.,Near Eastern Studies in Honor of William Foxwell (Baltimore,1971),379.

(٢٩) M.Broshi,IEJ 24 (1974),21-26.

(٣٠) K.Kenyon,PEQ (1967),65ff.;(1968),97ff,in M.Avi-Yonah,ed., Encyclopedia of Archaeological Excavations in the the Holy Land (Jerusalem,1975),2:595-97.

(٣١) حول "الكيمريين" الذين تشير إليهم "التوراة" باسم "جومر"، انظر:

I.Waterman,Royal Correspondence of the Assyrian Empire (Ann Arbor, Mich.,1930-1936),nos.146,197;I.G.Hartman, JNES 21 (1962),25ff.;M.Van Loon, JNES 29 (1970),67;H.Cazelles, in L.G.Purdue and B.W.Kovacs,eds.,A Prophet to the Nations (Winona Lake,Ind.,1979),136,141-43, and passim; OCD2,240.

التاريخ الذى تقول به التقاليد هنا و هو ٦٥٢ ق.م. تعرض في الآونة الأخيرة للجدل الحاد، وفي سبيل الاطلاع على موجز سريع لهذه المشكلة التاريخية، انظر: Spalinger, JAOS 98 (1978), 400ff.

(٣٢) Roux, Ancient Iraq,295.

(٣٣) H.R.Hall, The Ancient History of the Near East (London,1950),495-96.

(٣٤) Transaltion of A. de Selincourt, Herodotus.The Histories (Harmondsworth, 1954),84-85 (1.104-6).

(٣٥) Herodotus,1.105-6;Lloyd, Herodotus Book II.A Commentary (Leiden 1975),1:78.

(٣٦) قارن أوراق كل من:

H.H.Rowley and H.Cazelles in Purdue and Kovacs, Prophet;see also Hayes and Miller, A History,382-85;A.Malamat, in The Age of the Monarchies. Political History (Jerusalem,1979),4:349,n.4;A.R.Millard, in J.Ruffle,ed.,Glimpses of Ancient Egypt (Westminster,1979),119-22.

(٣٧) M.Van Loon, Urartian Art:Its Distinctive Traits in the Light of Recent Excavations (Istanbul,1966),21-22.

(٣٨) D.J.Wiseman, Chronicles of Chaldean Kings (London,1956).

(٣٩) لم تظهر إلى النور بعد، تلك الألواح التي تغطي السنوات رهن الحديث.

(٤٠) Hieronymus Chronikon (ed.Helms),p.96;R.Labat, Journal Asiatique (1961), 1-12.

(٤١) سفر "الملوك" الثانى ٢١: ٢٣-٢٤، و حول "شعب الأرض" انظر المراجع المذكورة عند كل من:
E.Lipiniski, in The Land of Israel: Crossroads of Civilization (Louvain,1985),104 and n.34,T.Ishida,VT Suppl.40 (1986-106.

بينما قد يعكس العمل الذى أقدموا عليه موقفا معاديا لمصر
(Malamat,JANES 5 (1973),271;idem, VT Suppl.218 (1975),126),
إلا أن من سوء الفهم أن نأخذ هذا المصطلح المجرد كمرادف لأى نوع من "حزب" يحمل أهدافا سياسية.

(٤٢) عن تاريخ يدور حول سنة ٤٦٠ ق.م. لتغلغل السيثيان، انظر:
H.Kees, in Pauly-Wissowa-Kroll,RE2 II,2 (Stuttgart,1923),1923),1868ff.

(٤٣) Boardman, Greeks Overseas,132-35;cf.also E.Oren, BASOR 256(1986),7-44.

(٤٤) Herodotus,2:157;Lloyd, Herodotus,3:146-48.H.Tadmur (BA 29(1966), 102)
"تادمور" يقترح أن رقم "٢٩" الذى يشير عند "هيرودوت" إلى طول مدة الحصار بالسنين، يقف كسنة الحكم بالنسبة لـ "بيسماتيك" الأول أى سنة ٦٣٥ق.م. و الحقيقة أن الهيمنة التقليدية لـ "السيثيان" التى بلغت "٢٨" سنة، يمكن أن تفهم، مع هذا التاريخ، كى تشير إلى أن السنوات التى أعقبت المواجهة المصرية - السيثانية هى التى نجح "بيسماتيك" خلالها فى الاستيلاء على المدينة، انظر:
A.Malamat,JNES (191950),25-26,42.

قد نجد انعكاسا للاستيلاء على الموقع فى التدمير الذى حل بالطبقة رقم .VII
; T.Dothan, Atiqot 9-10(1971)21-115.

(٤٥) D.B.Redford,JAOS 90 (1970),477.
و حول سيطرة "بيسماتيك" الأول على الساحل الفلسطينى، انظر:
G.Steindorff,JEA 25 (1939),30-33;Malamat, The Age of the Monarchies, 4:1,205; idem,VT Suppl.28(1975),125.

(٤٦) Cf.E.Chassinat, Le temple d'Edfu (Cairo,1892-1934),1:30,7:165; E. Chassinat and F.Daumas, Le temple de Dendera (Cairo,1934-1978), 2:200,4:66,etc.

(٤٧) W.Moran, JNES 22 (1963),173ff.

(٤٨) P-M VII,393;J.J.Katzenstein, History of Tyre (Jerusalem,1973), 299, n. 24;313,n.100.

(٤٩) See n.45.

(٥٠) حول تقاليد استمرار شعوب البحر على قيد البقاء فى مصر خلال الفترة المتأخرة، انظر:
J.Yoyotte,RdE 12 (1952),92-93;Edfu,4:236;9:pl.90.

(٥١) E.Bresciani, La lettere aramaiche di Hermopoli,366-67;B.Porter and J.Greenfield,ZAW 80 (1968),225.

(٥٢) Dgl:cf.J.A.Fitzmyer,in Albright Festschrift,148.

(٥٣) Kientz, Geschichte,41ff.;J.Leclant,BIFAO 50 (1951),171,n.2;H.De Meulenaere,BIFAO 63(1965),21ff.

(٥٤) H.Schaefer,Klio 4 (1904),157,pl.2;J.Vercoutter,BIFAO 48 (1949),175.

(٥٥) Cf.ANET2,492.

(٥٦) Caminos,JEA 50 (1964),94-95.

(٥٧) J.Naveh,IEH 12 (1962),89ff.;Tadmur,BA 29 (1966),102;Strange,Studia

(٥٨) Y.Aharoni IEJ 16 (1966),4ff.;4ff;idem,Arad Inscriptions (Jerusalem, 1981), 12-13 and passim (و فى مواضع متفرقة من النص المذكور) .

(٥٩) R.Borger,JCS 19 (1965),59ff.;idem,Iraq 27 (1965),135ff.

(٦٠) Roux, Ancient Iraq,33ff.

(٦١) سفر "الملوك" الثانى ٢٣: ١٥-٢٠

(٦٢) قارن، ضمن أفعال أخرى، استئصاله لعبادة النجوم و عبادة الشمس فى معبد "أورشليم": "الملوك" الثانى ٢٣: ٥،١١-١٢

(٦٣) Wiseman, Chronicles,57ff.

(٦٤) Nahum 3:1,19.

(٦٥) هناك بعض الأدلة على وجود هذا المرض فى العائلة (قارن:
H.Wild,MDIAK 16(1958),pl.33;Aelian,10.21),
و لكن ليس معروفا ما إذا كان الملك قد تأثر به أم لا.

(٦٦) ليس هناك سبب وجيه يدعونا إلى الاعتقاد بأن القوة المذكورة فى التاريخ فى سنة ٦١٠ كانت أكثر بحال من الأحوال، من مفرزة تتكون من الجنود الذين أتاحتهم الظروف: سُحبوا و جُمعوا من الحاميات التى كانت متمركزة بالفعل، فى المناطق التى تسيطر عليها مصر من سوريا، و السؤال حول ما إذا كان المصريون قد سلكوا طريق البحر، يفقد بالتالى مغزاه: انظر:
Freedy and Redford, JAOS 90 (1970),482,Malamat,JANES 5 (1973),273,n.23.

(٦٧) تأسيسا على الحقيقة التى تقول إن بيت التحنيط كان قائما فى زمام "دافناى":Daphnae، انظر:
W.Erichsen,Eine neue demotische Erzahlung (Copenhagen,1942),24,pl.3:3.

(٦٨) للاطلاع على موجز لحكم "نيخو" الثانى، انظر:
Lloyd, Herodotus,3:149-64;Spalinger,Orientalia 47 (1978),19-21;D.B.Redford, LdÄ 4 (1982),369-71;
للاطلاع على تصوير جدارى نادر لهذا الملك/الفرعون، انظر:
B.V.Bothmer,Egyptian Sculpture of the Late period (Brooklyn,1960),pl.39.

(٦٩) قارن الملك/ الفرعون ("نيخو" الثانى بصورة ضمنية) الذى يلعب دورا قضائيا فى القصة الممزقة الأوصال التى نشرها: (رواية) Erichsen,Erzalung.

(٧٠) Wiseman, Chronicles,63;Malamat,JANES 5 (1973),274-75.

(٧١) Cf.the locution used in BM 21901 obv.66 umman^{kur} Mi-sir-ma-at-tu.

(٧٢) قارن، ضمن آخرين:

Malamat,JANES 5 (1973),267-78;idem,in W.Claassen,ed.,Text and Context (Sheffield,1988),120-22;Hayes and Miller, A History,402.

(٧٣) سفر "الملوك" الثانى ٢٠: ١٢-١٣.

(٧٤) سفر "الملوك" ٢٣: ٣١.

(٧٥) ولد فى سنة ٦٣٤ق.م. على وجه التقريب.عندما كان والده فى الرابعة عشر.. انظر سفر "الملوك" الثانى ٢٣: ٣٦.

(٧٦) Malamat,VT Suppl.28 (1975),126-27;idem,The Age of Monarchies, 4:206-7.

(٧٧) Wiseman,Chroncles,63.

(٧٨) سفر "الملوك" الثانى ٢٣: ٣٣-٣٤.

(٧٩) سفر "إرميا" ٢: ٣٦.

(٨٠) H.H.Rowley, in Perdue and Kovacs, A Prophet to the Nations (Winona Lake.Ind.,1979),37ff.(للاطلاع على مصدر و نقاشات).

(٨١) هذه تبدو لى نتيجة صائبة استنادا إلى تحليل سفر "إرميا" ١:١-٤ و ارتباط الآية رقم ٢ وبالتحديد، تلك التـى تقول إن "إرميا" دعى من جانب الوحى، لأول مرة، فى السنة الثالثة عشرة من حكم "يوشيا"، وبتعبير "التوراة": (و كانت كلمة الرب إليه، أى إلى "إرميا"، فى السنة ...)، يعد تفسيرا واضحا للآية رقم ٤: قبلما صورتك فى البطن عرفتك و قبلما خرجت من الرحم قدستك. جعلتك نبيا للشعوب". قارن:

J.P.Hyatt,Interpretor's Bible.Jeremiah (New York,1956),779,798.

(٨٢) "إرميا" ٧: ٢١-٢٢.

(٨٣) Rowley, in Perdue and Kovacs, Prophet,35ff.

(٨٤) انظر، ضمن آخرين:

R.J.Williams,JAOS 101 (1981),1-19;H.P.Muller,ThWAT 5,nos.1-2 (1984),140-63; idem,BN 29 (1985),22-27;G.Dossin, Sur Le prophetisme à Mari (Paris,1966); B.Uffenheimer,VT Suppl. 40(1988),257-69.

(٨٥) Cf.Zeph.2:13-15.

(٨٦) "حبقوق" ١: ٦-١٠، ٢: ٦-١٦

(٨٧) "إرميا" ٢٦: ٢٠

(٨٨) "إرميا" ٢٦: ١ و ما بعدها.

(٨٩) "إرميا" ٢٦: ٢١-٢٣

(٩٠) "إرميا" ٢٦: ٢٤

(٩١) قارن صادرد/ لوح "فيثوم":

10 (Urk II,90);Herodotus,2.158, 4.39;Pliny, Natural History 6.165ff.; Diodorus,3.43.5;cf.J.Ball, Egypt in the Classical Geographers (Cairo,1942), 130.

(٩٢) J.Leclant, Supplement au dictionnaire de la Bible 42 (1967),1-6;Redford, LdÄ 4 (1982),1054-58;

أصبح الآن من المؤكد أن أساس مدينة "فيثوم" يرجع إلى السنوات الأولى من حكم "نيخو" الثانى، و ذلك بفضل الاستكشافات الأخيرة التى قام بها:

J.S.Holladay: The Wady Tumilat Project. The Excavations of Tell el-Maskhuta (Malibu, Calif.,1982).

(٩٣) A.B.Lloyd,JHS 95 (1975),45ff.

(٩٤) Herodotus,2.158,4.39.

(٩٥) Herodotus,4.42.2-4;A.B.Lloyd,JEA 63 (1977),148-55.

(٩٦) G.Daressy.ASAE 11 (1911),260.

(٩٧) Wiseman, Chronicles,21,65.

(٩٨) ليس هناك ما يدعو إلى الاستنتاج (Wiseman,ibid.,21) بأن المحاصرين المصريين لم يكونوا يمثلون كامل القوات التى كانت تحت يد "نيخو": ففترة الحصار (الربيع-الصيف) تنطوى ، بالضرورة، على وجود تجريدة عسكرية.

(٩٩) "إرميا" ٤٦: ٩ و حول الترس اليونانى الذى كشفت عنه الحفريات فى "كركميش"، انظر:

L.Woolley, Carchmish (London,1921),2:123ff.

و حول كلمة "Put" الليبية، انظر ص ٤٠٤(من النص الأصلى)

(١٠٠) Wiseman,Chronicles,84.

(١٠١) Antiquities Judaical 10.6.

(١٠٢) "إرميا" ٢:٤٦

(١٠٣) BM 21946 obv.1ff.(Wiseman, Chronicles,66).

(١٠٤) "إرميا" ٤٦: ١١-١٢، بصفة عامة، قارن:.C.F.Whiteley,ZAW 80 (1968),38ff

(١٠٥) "إرميا" ٢٥: ٩، ١٧-٢٦

(١٠٦) Wiseman, Chronicles,28,68.

(١٠٧) J.Fitzmyer, Biblica 46 (1965),41ff.;42,n.1,

للاطلاع على بيليوجرافيا عن هوية الكاتب، انظر:.B.Porten,BA 44 (1981),36-52

(١٠٨) شقفة مهشمة من "أرد" تذكر ملك مصر ربما ترجع إلى هذه الفترة، انظر:

Y.Yadin,IEJ 26 (1976),9ff.;but see A.Malamat, in Classen,ed.,Text and Context,120-22.

(١٠٩) نجده موصوفا بصورة مفعمة بالحياة فى "إرميا" ٣٦، انظر:

A.Malamat,IEJ 6 (1956),252;idem,IEJ 18(1968),141;idem,VT Suppl. 28(1975), 130-31.

(١١٠) Wiseman, Chronicles,68;Hayes and Miller, A History, 406.

(١١١) J.D.Quin, BASOR 164 (1961),19-20.

(١١٢) Tadmur,BA 29 (1966),102,n.R.Zadok ,BASOR 230 (1978),61;Oded, Mass Deprtations 25,n.34.

(١١٣) Wiseman, Chronicles,28-29,70.

(١١٤) Malamat,JANES 5 (1973),n.33;idem,VT Suppl.28(19755),131,n.18.

(١١٥) Sadok, BASOR;230(1978),61;1.Ephal, Orientalia 47 (1978),80.

(١١٦) Cf. Josephus, Antiquitates Jud 10.6.1

قارن "يوسيفوس" فى (Antiquitates Jud) حيث يرجع خضوع "يهودا" للهيمنة البابلية إلى السنة الثامنة من حكم "يهوياقيم"، انظر:

Wiseman, Chroncles,70;H.Tadmor,JNES 15 (1956),229,n.22.

(١١٧) انظر: ص رقم ٤١٢ و ما بعدها .(من النص الأصلى)

(١١٨) "إرميا" ٤٦: ١٣-٢٦.انظر:

J.P.Hyatt,JBL 75 (1956),282-83;J.G.Snaith,JSS 16 (1971).15ff.;Malamat,JNES 5 (1973),267ff.

(١١٩) P.Demot. Cairo 31169 (iii),23;A.H.Gardiner,JEA 6 (1920), 110,113, H.Gauthier Dictionnaire des noms géographiques dans les textes hieroglyphiques (Cairo,1925-1931),3: 22.

(١٢٠) D.B.Redford,in A.F.Rainey,ed.,Egypt, Israel, Sinai (Jerusalem, 1987), 143-44,nn. 15-16.

(١٢١) P.Montet,Géographiquie de L'Égypte ancienne (Paris,1957),1:199.

(١٢٢) يقع "تل الهر" و موقع T.21 إلى الشمال، انظر:

Gautier, Dictionnaire,3:21;G.Daressy,Sphinx 14 (1910),169;P.Demot. Cairo 31169 iii 20

للاطلاع على وصف الموقعين، انظر:

J.Cledat,BIFAO 18 (1920),193-94;Oren BASOR 256 (1984),7-44;cf.for the garrison J.A.Fitzmyer,JNES 21 (1962),19.

(١٢٣) G.Daressy,BIFAO 11 (1914),29ff.,36,Montet, Géographie 1:189ff.

(١٢٤) Gautier, Dictionnaire 2:121;Cairo 29306.

(١٢٥) Gautier,Dictionnaire 1:163;Nitocris stela,25;O.Koefoed Petersen, Les Stèles égyptiennes (Copenhagen,1948)pl.54.

(١٢٦) انظر الفصل الثاني عشر رقم ١٩٤، موقعها فى (P.Demot.Cairo 31169) يضعها فى السياق، انظر:

Wes-khupri (ii,22),"House of the Valley" (ii,23),the Pelusiem branch (ii,24), Fakus(?) (ii,25)...Bubastis (iii,6).

سقوط الـ W (أو v+w) يناظر غياب الـ"W" (أو v+w) فى النقش الأكادى المعاصر، قارن:

Silkanni for W3srkn, Hophra or Uhpara for W^{3}h-ib-r., Evμωvθ for Wn-mntw etc.

(١٢٧) On Shur,see J.Cledat, BIFAO 16 (1916),215;18 (1920),169;N.Na'aman, Tel Aviv 7 (1980),95-110;A.F.Rainey, Tel Aviv 9 (1982),132-33.

(١٢٨) Chassinat,Edfu,4:28.

(١٢٩) J.Cledat,BIFAO 1 (1900),110-11;idem,RT 32 (1910),193-94).

(١٣٠) قارن "هيرودوت" ٢-١٥٩ وهى الفقرة التى يشير فيها إلى الاشتباك الحالى، و ليس إلى ذلك الاشتباك الذى حدث فى سنة ٦٠٩ ق.م.، انظر:

Malamat,JANES 5 (1973),275-76 and n.30;I.Lipinski,AION 22 (1972),235ff.

(١٣١) Wiseman, Chronicles,70.

(١٣٢) لعب "إرميا" (٤٦-١٧) لعبة "الجناس" على اسم "نيخو": جهير- الفم الذى يقع منه الزلل.(على وجه الاحتمال" Ma?ebir/Whm-ib-r الوقت المناسب")

(١٣٣) يشير "هيرودوت" (٢-١٥٩) إلى الاستيلاء على "كاديتس": Kadytis عقب معركة "مجدو" مباشرة. و الاسم، وهو "غزة" مشتق، بوضوح، خلال مصدر مصرى. قارن:

M.A.Meyer,History of the City of Gaza (New York,1907),38;BA 29 (1966), 102; Malamat,JANES 5 (1973),275-76.Lipiniski,AION 22 (1972),236-37;H.J. Katzenstein,VT 33 (1983),249-50;Lloyd, Herodotus,3:162-63.

(١٣٤) Herodotus,2.159.

(١٣٥) Wiseman, Chronicles,31,70.

(١٣٦) سفر "الملوك" الثانى ٢٤: ١، قارن:

D.N.Freedman,BA 19 (1956),54;J.P.Hyatt.JBL 75 (1956),281;Tadmor,JNES 15 (1956), 229.

(١٣٧) Wiseman, Chronicles, 31,70.

(١٣٨) سفر "إرميا"٤٩: ٢٨-٣٢، قارن:

Tadmor,JNES 15 (1956),230;Malamat,IEJ 6 (1956),254-55;Hyatt,JBL 75 (1956), 283; W.J.Dumbrell, BASOR 203 (1971),39.

(١٣٩) "الملوك" الثانى ٢٤: ٢، انظر:.Freedman,BA 19 (1956),55,n.18

(١٤٠) انظر سفر "أخبار الأيام" الثانى ٣٦: ٩، الذى يحدد ثلاثة شهور و عشرة أيام كالفترة التى انقضت بين وفاة "يهوياقيم" و سقوط "أورشليم" يوم ١٦ مارس/أمشير، قارن:

Hyatt,JBL 75 (1956),278-79;Freedman,BA 19 (1956),55,n.22.

(١٤١) فى ضوء الحادث، يتعين تفضيل سفر "أخبار الأيام" الثانى هنا على السجل الذى يضمه سفر "الملوك" الثانى ٢٤: ٨ الذى يقول إن "يهوياقيم" كان فى الثامنة عشرة من عمره عندما جلس فى العرش.

(١٤٢) Wiseman, Chronicles,72.

(١٤٣) قارن سفر "الملوك" الثانى ٢٤: ١٠-١٢، .Hyatt,JBL 75 (1956),279

(١٤٤) Wiseman, Chronicles,72.

(١٤٥) E.Weider, Mélanges Dussaud (Paris,1939),2:923ff.

(١٤٦) حول استمرار ولاء "أورشليم" لـ "يهوياقيم" حتى قبل سنة ٥٨٦ ق.م.، انظر:
H.G.May,JNES 4 (1945),221,n.21.

(١٤٧) سفر "الملوك" الثانى ٢٥: ٢٧-٣٠

(١٤٨) انظر ص ٤٦٢ (من النص الأصلى)

(١٤٩) Wiseman,Chronicles,72.

(١٥٠) "إرميا" ٤٩: ٣٥-٣٨, تحدد تاريخ الوحى بـ "مطلع حكم "صدقيا" ملك "يهودا"(آية رقم ٣٤) وأوجبته، بوضوح، أحداث سنة ٥٩٦، انظر:
Tadmor,JNES 15 (1956),230,n.27;Hyatt,JBL 75 (1956),283.

(١٥١) "إرميا" ٢٧: ٩

(١٥٢) "إرميا" ٢٨: ٢-٤

(١٥٣) تقول الترجمة السبعينية للعهد القديم من العبرية لليونانية عن "إرميا" ٢٧: ١ "فى السنة الرابعة من حكم "صدقيا"، انظر: Hyatt,JBL 75 (1956,281;Freedman,BA 19 (1956),58.
ليس هناك سبب يدعو إلى رفض تاريخية الحادث.

(١٥٤) Kienitz, Geschiche,158
(بين ٤ مايو/ بشنس و ٢٣ نوفمبر/بابة)، و حول التواريخ بعد تصحيحها، انظر:
Lloyd, Ancient Egypt, A Social History, 281.

(١٥٥) R.el-Sayed, BIFAO 74 (1974),35.

(١٥٦) A.J.Arkell, A History of the Sudan to 1821 (London,1961), 138ff.; W.B. Emery,Egypt in Nubia (London,1965),222ff.

(١٥٧) H.Ranke.ZÄS 44 (1901),42-43;De Meulenaere, BIFAO 63 (1965),21ff.; Lloyd Herodotus ,2:126-30.

(١٥٨) M.F.L.MacAdam, The Temple of Kawa (Oxford,1949);1:46ff.

(١٥٩) MDAIK 31 (1975), pl.28(b);K.Jansen-Winkeln,GM 109 (1989),31.
لابد أن هذه الحملة انطلقت فى أواخر حكمه، بعد سنة ٦٠٠ ق.م. فقبل هذا الوقت كانت تحركات "نيخو"، فيما يبدو جليا، غاية فى الوضوح.

(١٦٠) Arkell, Sudan,144.

(١٦١) See Bothmer, Egyptian Sculpture of the Late Period,pls. 48-49.

(١٦٢) S.Raite,BIFAO 61 (1962),43-53;S.Pernigotti,StudClassOriental 17 (1968), 251ff.

(١٦٣) H.S.K.Bakry, Oriens Antiquus 6 (1967),22ff.

(١٦٤) L.Habachi,Oriens Antiquus 13 (1974),pl.20(b).

(١٦٥) Arkell, Sudan,145.

(١٦٦) "إرميا" ٥١: ٥٩ ، انظر: M.Greenberg,JBl 76 (1957),305-6.

(١٦٧) P.Ryalnds IX,14:16-19;K.S.Freedy and D.B.Redford,JAOS 90 (1970), 479ff.

(١٦٨) J.Yoyotte,VT 1 (1951),143, Freedy and Redford,JAOS 90 (1970) 479ff.

(١٦٩) Ezek,20:1ff.;Freedy and Redford, JAOS 90 (1970),480.

(١٧٠) قارن "إرميا" ٢٩: ٢١-٢٣، ٢٦-٣٢

(١٧١) قارن "إرميا" ٥٠: ٥١

(١٧٢) P.Rynalds IX,15:8-9.

(١٧٣) Herodotus (2.161) conveys an early (and favorable) judgment of the reign:Lloyd,Herodotus,3:170

تنقل إلينا الفقرة رقم ١٦١ الواردة فى الكتاب الثانى لـ "هيرودوت" رأيا مبكرا (و محبذا) فى الحكم، انظر: Lloyd,Herodotus,3:170.

(١٧٤) نص "وادى بريسا" الذى يرجع إلى "نبوخذرصر"، و يسجل عملياته الحربية فى لبنان فى الفترة بين ٥٨٨ إلى ٥٨٦ ق.م. على وجه الاحتمال، يسوغ هجومه بالادعاء بأن الجبال اللبنانية تخضع لإرهاب "عدو أجنبى يستغل الإقليم و يجبر السكان المحليين على الفرار" (ANET2,307) و لم يكن ذلك العدو سوى مصر. و للاطلاع على رأى مخالف، انظر: Lloyd, Herodotus,3:171-72.

(١٧٥) Freedy and Redford,JAOS 9o (1970),480 and n.100.

(١٧٦) قارن "إرميا" ٣٩: ٥

(١٧٧) فى سبيل نقاش مع المراجع، انظر:

Freedy and Redford,JAOS 90 (1970),481ff,;B.Oded, in Hyatt and Miller, Israelite and Judaean History,472ff.

(١٧٨) Josephus, Contra Apionem 1.21;ANET2,307.

(١٧٩) May, JNES 4 (1945),218-19.

(١٨٠) H.Torczyner, The Lachish Ostraca (London,1938);W.F.Albright, in ANET2,321-22

(١٨١) ANET2,322.

(١٨٢) Cairo 895.

(١٨٣) Z.Saad,ASAE 38 !1941),386.

(١٨٤) A.Rowe,ASAE 38 (1938),170.

(١٨٥) Cf.Cairo1209;H.Gauthier,ASAE 22 (1922),97.

(١٨٦) "إرميا" ٣٧: ١١

(١٨٧) A.Malamat,IEJ 18 (1968),151.

(١٨٨) "إرميا" ٢٤: ٧، ANET2,322

(١٨٩) "إرميا" ٢٧: ١٥-٢١

(١٩٠) "إرميا" ٢٨: ١٤-٢٨

(١٩١) "حزقيال" ٣٠: ٢٠ و ما بعدها، و انظر:

Malamat,IEJ (1968),152;Freedy and Redford,JAOS 90 (1970),482-83;J.K. Hoffner,JSSEA 11 (1981),166-70;idem, Biblica 67 (1986),378-87.

(١٩٢) قارن "إرميا" ٣٨: ٤، انظر: ANET^2,322.

(١٩٣) "إرميا" ٤٠: ١١و انظر: M.Noth, A History of Israel (London, 1959),292.

(١٩٤) J.R.Barlett,PEQ 114 (1982),13ff.

(١٩٥) "إرميا" ٢٤: ٨-١٠، انظر: M.David,OTS 5 (1948,63ff.;Malamat(IEJ 18{1963} 153

يرجع سيادته تاريخ تحرير العبيد إلى ما قبل الحركة المضادة التى قام بها "أبريز".

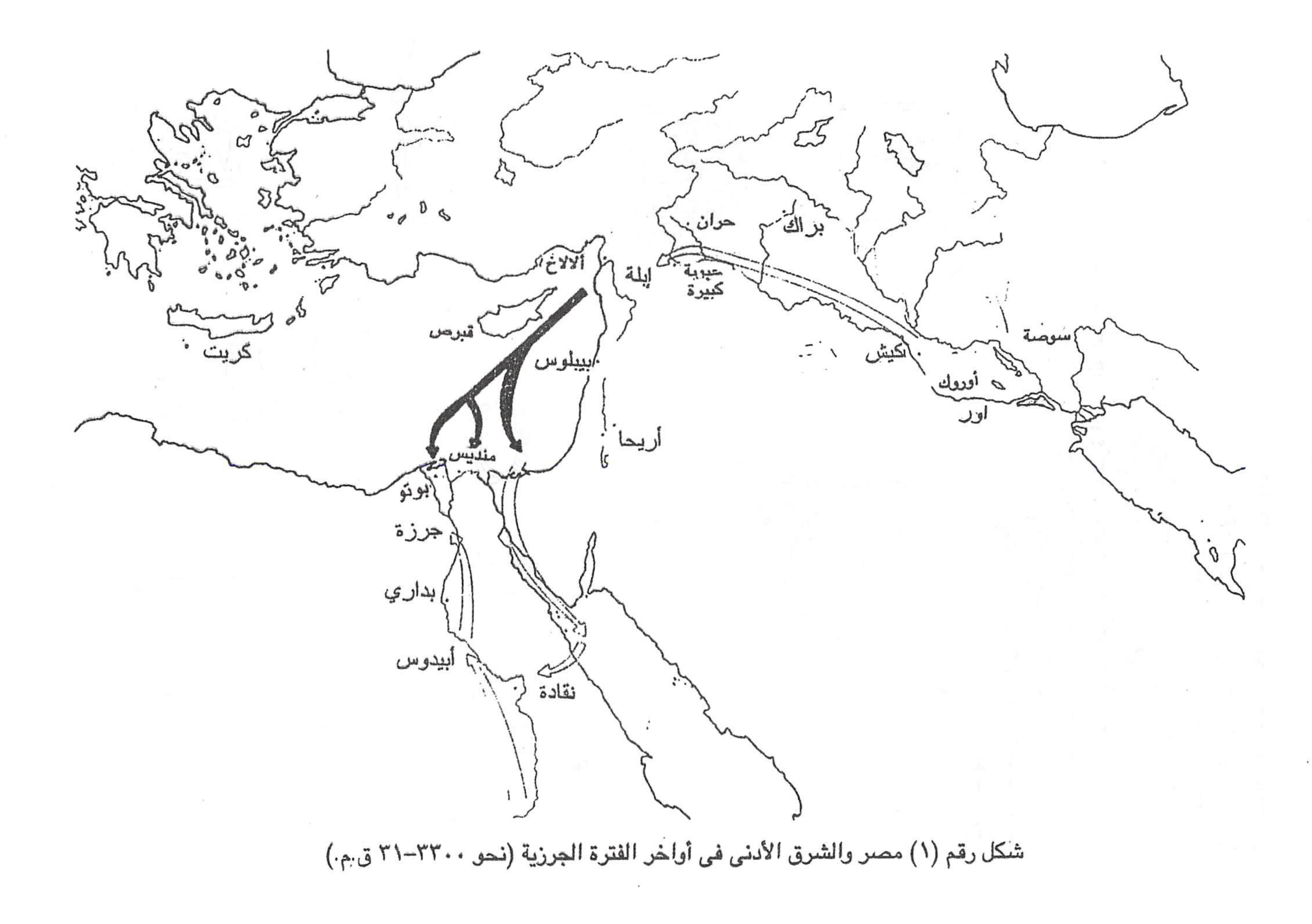
(١٩٦) "إرميا" ٢٨: ١٤ و ما بعدها.

(١٩٧) حول قطع الأحجار بشكل متسرع و نصب الدافعين عن المدينة لدفاعاتهم فى الناحيتين الشمالية والغربية، انظر: A.D.Tushingham,ZDPV 95 (1979),53-54.

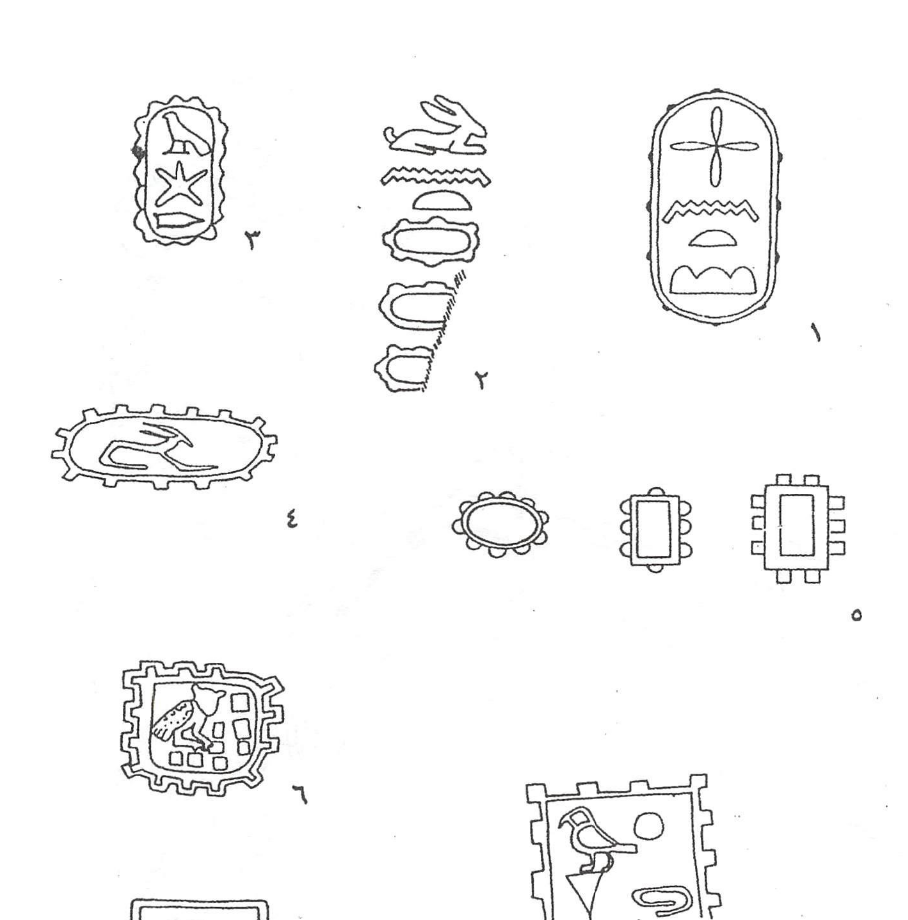
(١٩٨) "إرميا" ٣٩: ٣، قارن:

N.Avigad, in Biblical Archaeology Today (Jerosalem,1985),471-72.

ملحق اللوحات والأشكال



شكل رقم (١) مصر والشرق الأدنى فى أواخر الفترة الجرزية (نحو ٣٣٠٠-٣١ ق.م.)



شكل رقم (٢)

أحواش مسورة ترجع إلى المملكة القديمة

١ – ختم الجرار يرجع إلى المملكة القديمة .

٢ – نقش من مقبرة "وينى" بـ "أبيدوس" خلال حكم "ميرى-ان-رع" .

٣ – جزء من تمثال يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة لمنظم "القبائل" فى معبد هرم "تيتى" .

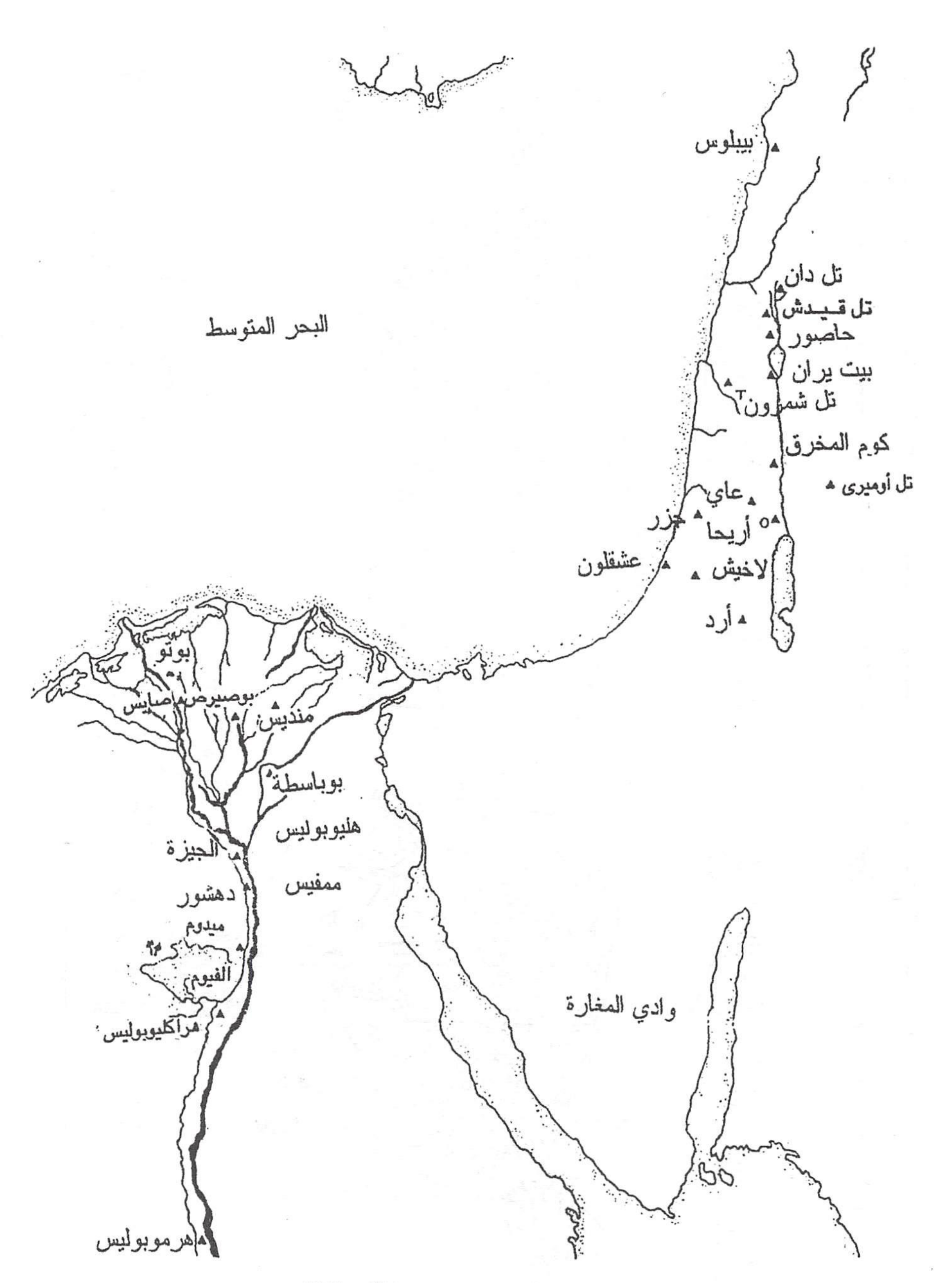
٤ – لوح خشبى يرجع إلى الأسرة الأولى من "أبيدوس" .

٥ – من "نصوص الأهرام" ١٨٣٧ أ-ب (ببيى الثانى فقط) .

٦ – شطفة من لوحة ألوان من الحجر .

٧ – بطاقة من خشب "أوديمو" من "أبيدوس" .

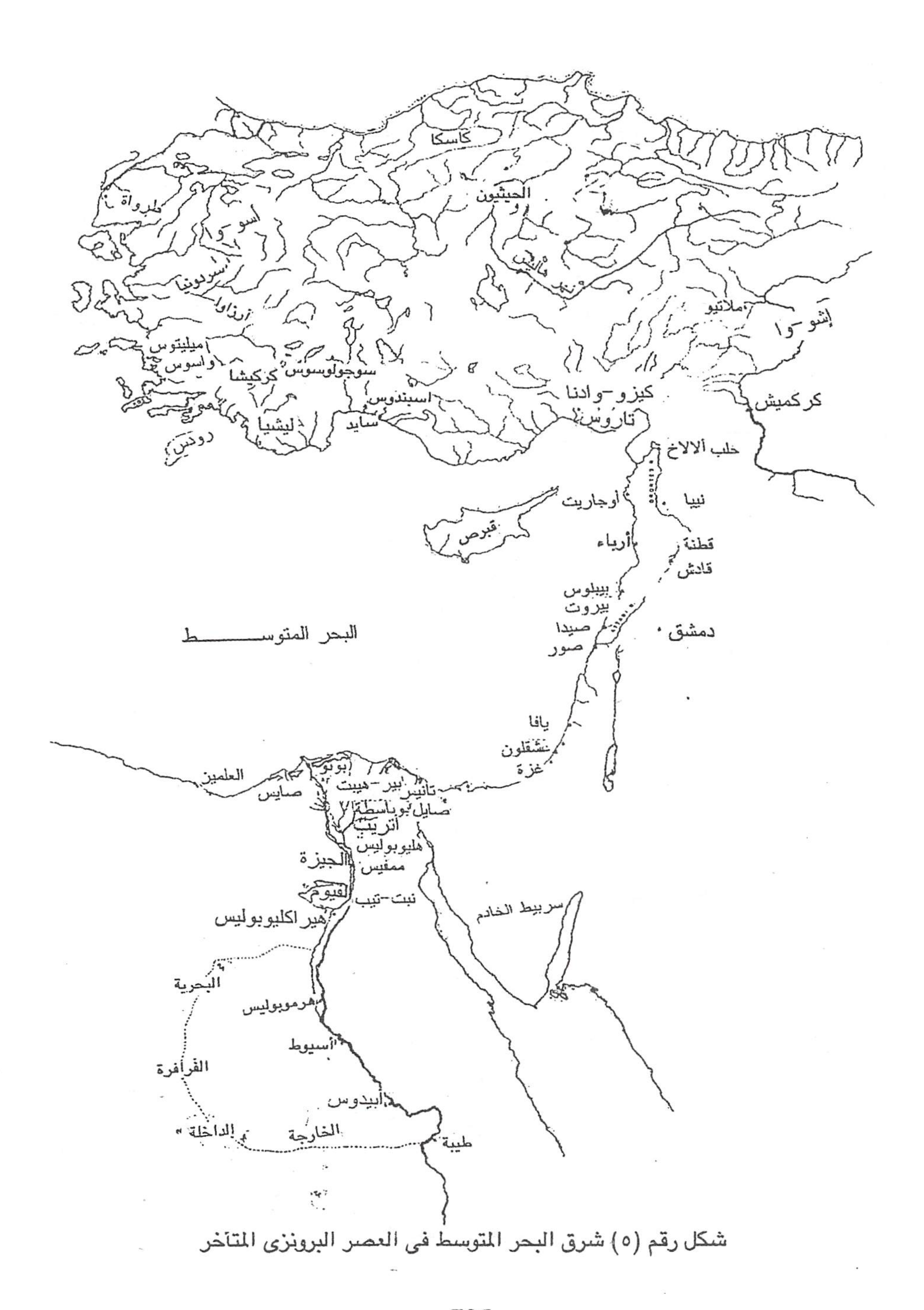
٨ – بطاقة من خشب "حور- أها" من "أبيدوس" .



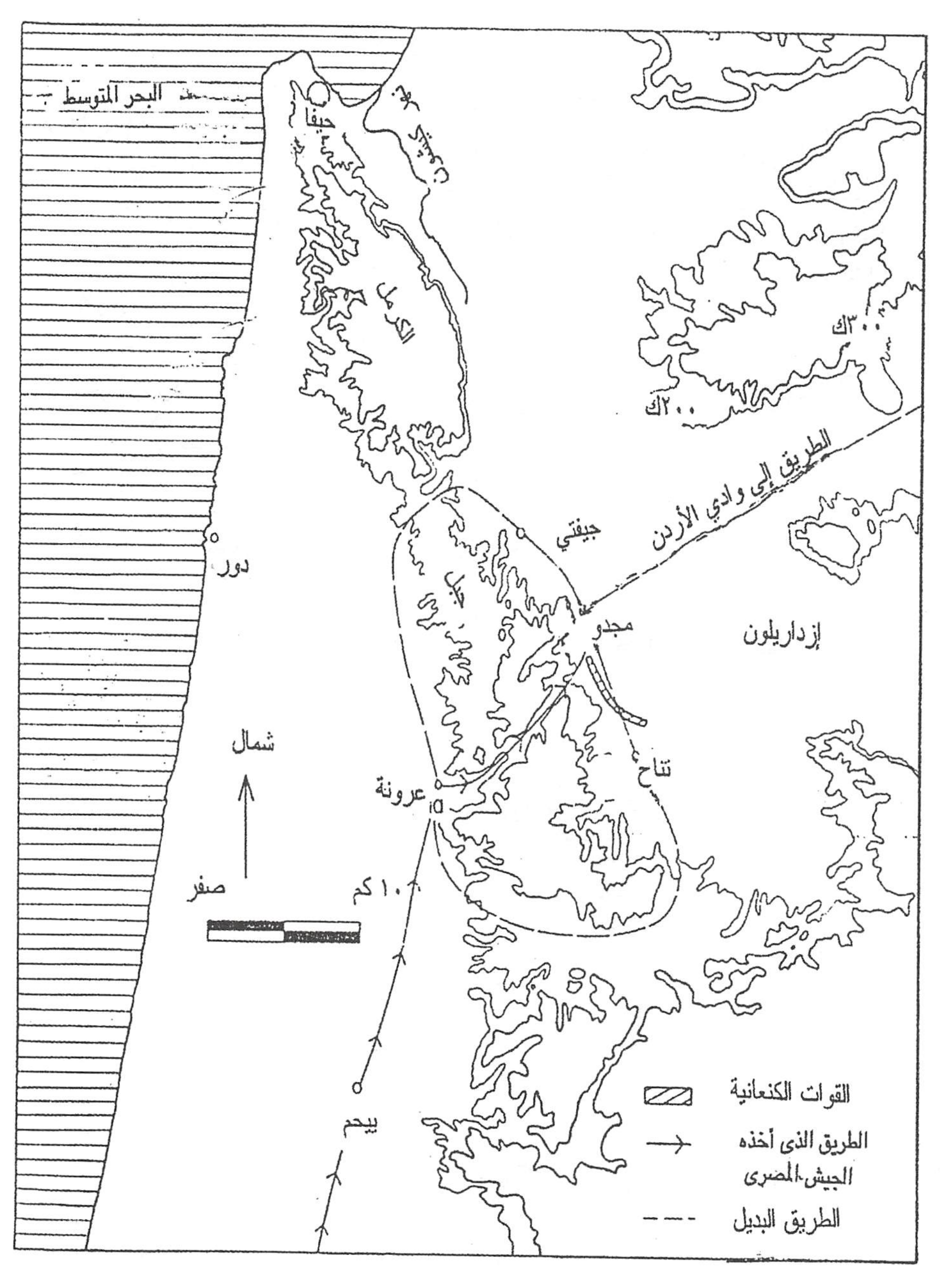
شكل رقم (٣) مصر والمشرق فى الألف الثالث ق.م.



• شكل رقم (٤) منظر من معبد هرم ساحو-رع (القرن الخامس والعشرون ق.م.) حيث نرى مركبا محملا بآسيويين يصلون إلى بر مصر. ويبدو أن الملك/ الفرعون مصور إلى اليسار. ويقول النص المصاحب: التحيات يا "ساحو-رع" يا إله الأحياء! فلنقبس قبسا من جمالك .



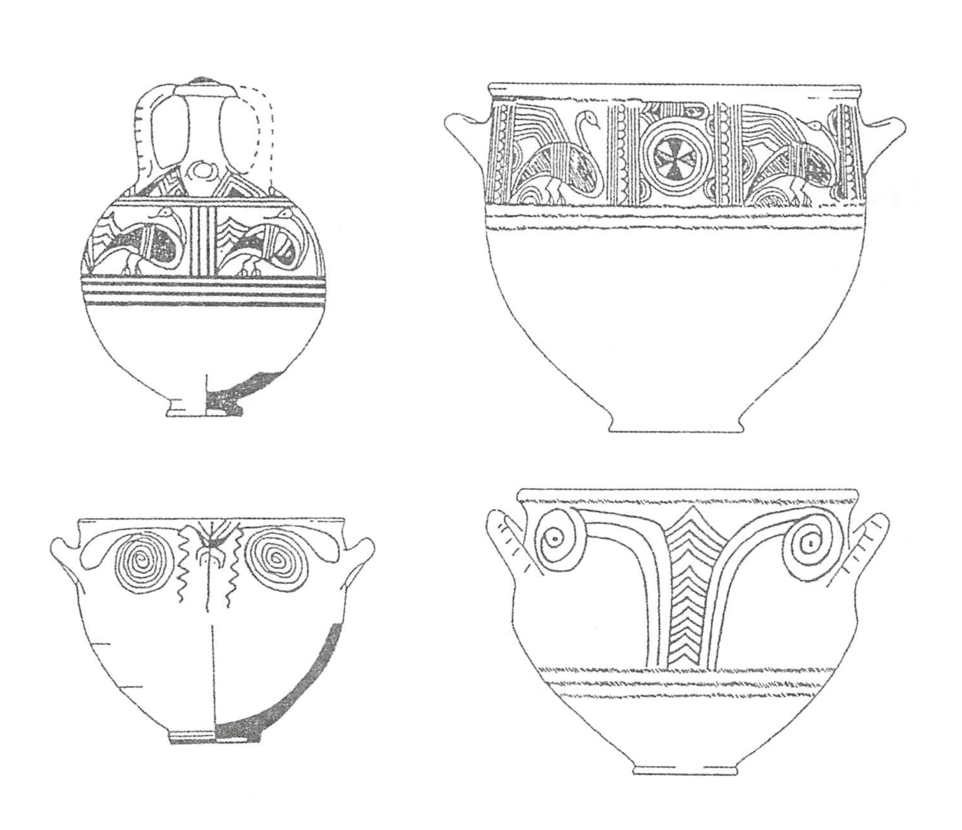
شكل رقم (٥) شرق البحر المتوسط فى العصر البرونزى المتأخر



شكل رقم (٦) معركة "مجدو"

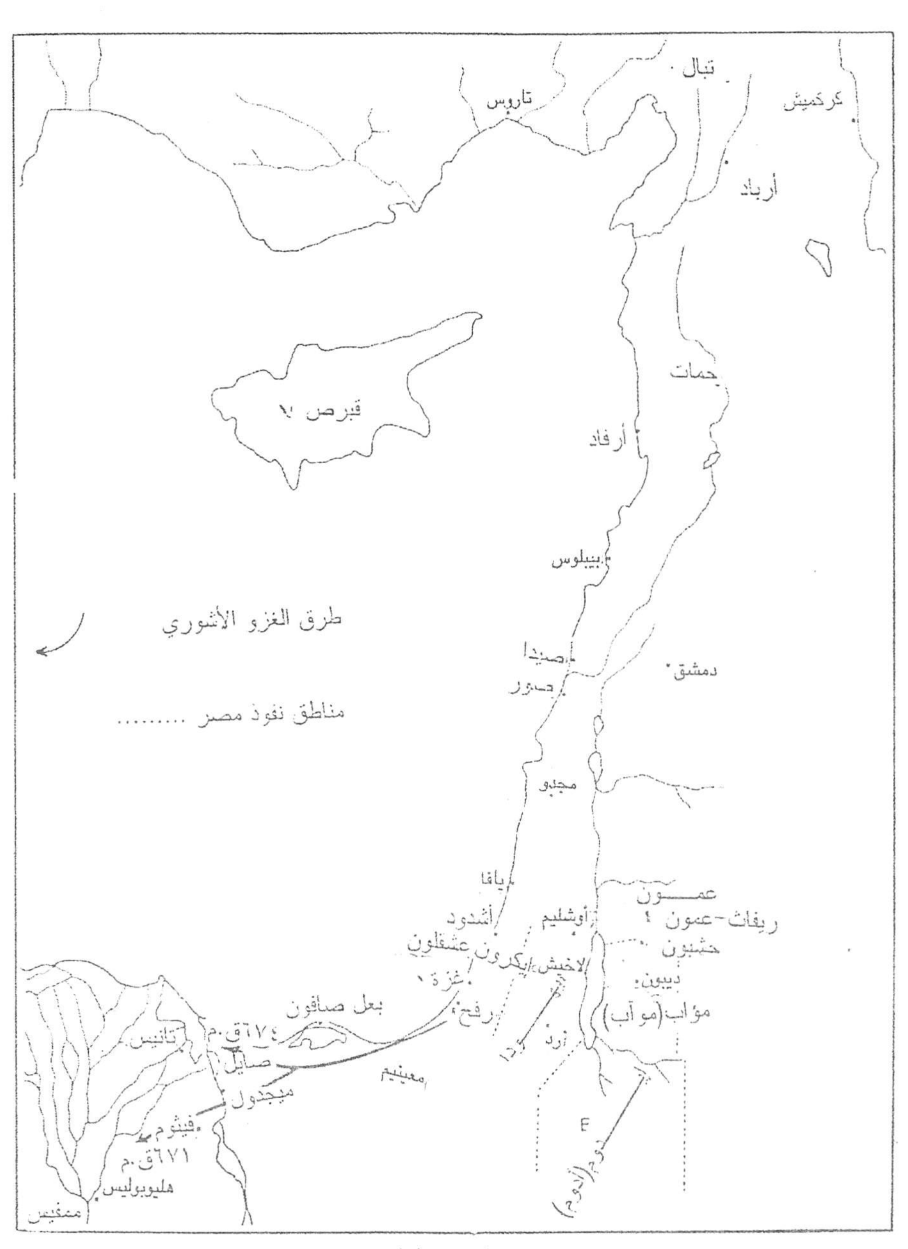


شكل رقم (٧) أزياء متميزة فى شرق البحر المتوسط خلال العصر البرونزى المتأخر
١ - لفاع كنعانى مع عباءة شتوية وطاقية للرأس .
٢ - جلابية شمال سوريا وطاقية رأس .
٣ - جلابية كنعانية ولفاع وعصابة للرأس (مقابر "طيبة") .
٤ - زى كنعانى أصيل (القرن الثانى عشر ق.م.) (مقابر "طيبة") .
٥ - سيدة كنعانية ترتدى فستانا بهداديب (مقابر "طيبة") .
٦ - محارب فلاسطينى يرتدى على رأسه عرف حصان (؟) خوذة ، نقبة ، ودرعا . (مدينة "هابو") .
٧ - محاربون من قبائل "الشاسو" يرتدون العمامة والنقبة.(بيت الوالى.مصر) .



شكل رقم (٨)

فخار فلاسطينى. وأساليب التزيين مستقاة من تقاليد الخزف التى عرفتها الحقبة الهيلادية IIIC فى جزر بحر "إيجة"، مع بعض التأثر بالنماذج القبرصية.



شكل رقم (٩)

المشرق فى القرن السابع ق.م.

١/ المحور التجاري المصري-الفينيقي و التبادل الثقافي.

٢/ طريق البحر الأحمر للتجارة مع الشرق.

٣/ طريق الإبحار حول أفريقيا تحت حكم "نيخو" الثاني (٦٠٩-٥٩٤ق.م.)

٤/ المحور الإسرائيلي-السليسي للتجارة خلال "أرام".

٥/ التجارة المصرية-الإسرائيلية و التبادل الثقافي.

٦/ الطريق المصري-الكوشي للتجارة.

٧ - ١١/ الطرق الفينيقية للتجارة مع مختلف أقاليم البحر الأبيض المتوسط.

١٢/ عمليات الإستكشاف و الاستعمار التي قامت بها "قرطاجنة" (القرن الخامس ق.م.)

١٣/ تجارة "قرطاجنة" في التصدير.

شكل رقم (١٠) التجارة فى النصف الأول من الألف الأول ق.م.



لوحة رقم (١) برج مستدير فى التحصينات التى عرفتها "أريحا" فى العصر القبل - فخارى حوالى ٨٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق.م.

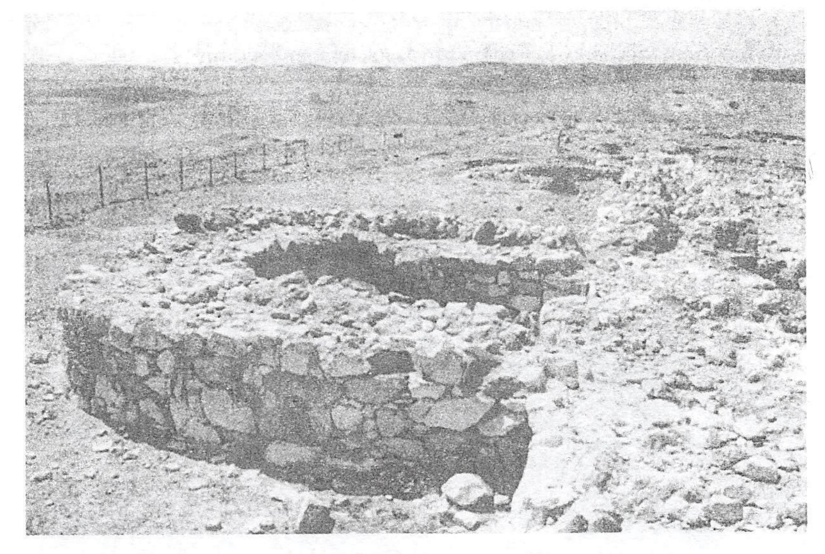


لوحة رقم (٢) نقش صخرى فى وادى "الحمامات". ونستطيع أن نرى بوضوح مجاديف المركب المرسومة إلى اليسار ، بالإضافة إلى قمرة القيادة وتمثال بارز لامرأة وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها، الأمر الذى يجعلنا نرجح استناداً إلى نماذج أخرى، بأنها إلهة.



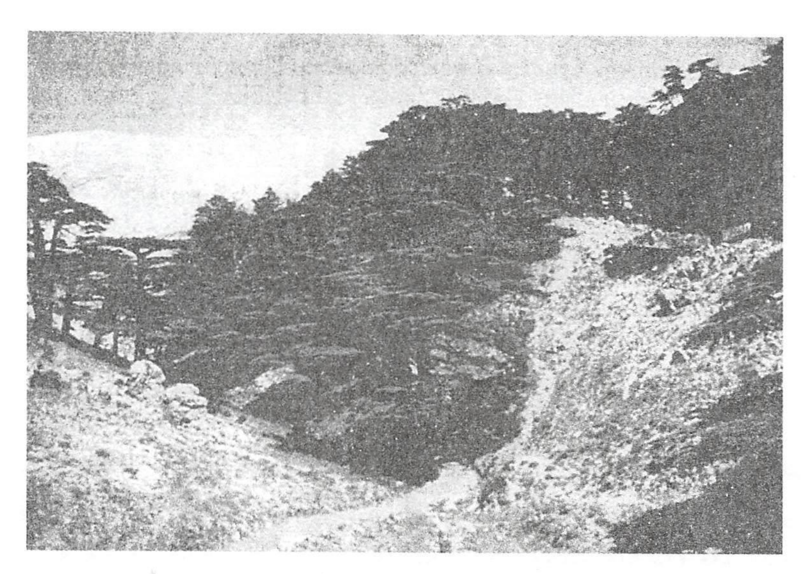
لوحة رقم (٣)

صلاية "المدينة"، إلى اليسار نجد سلسلة من المستوطنات المستطيلة الشكل والمحصنة وقد وقعت تحت هجوم أشخاص محليين يرتبطون بالملكية. وربما تشير أسماء "المدينة"، مع أننا لسنا متأكدين منها ، إلى منطقة "بوتو" بشمال غرب الدلتا. وإلى اليمين نجد مواشى وحميرا وأغناما وبعض الشجيرات ، الأمر الذى يعيد إلى الأذهان موطنا ساحليا ، على نحو ما يشير الرمز الهيروغليفى "تيحينو" (=ليبيا).



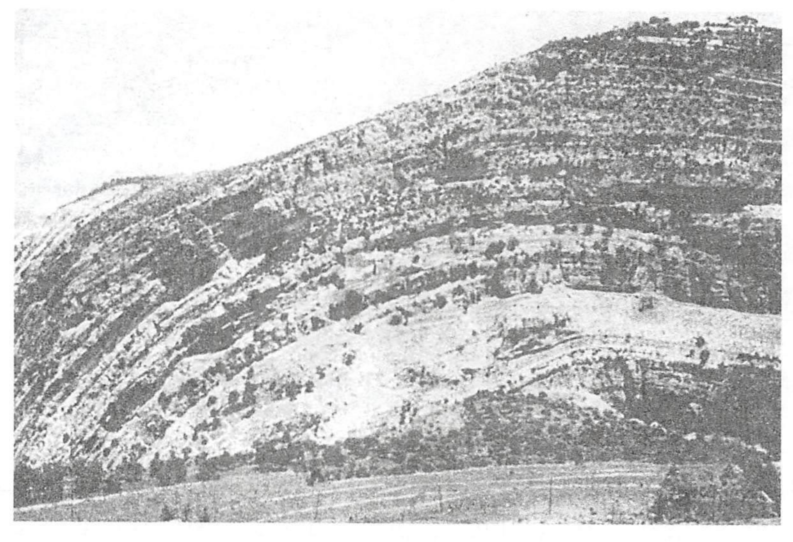
لوحة رقم (٤)

جانب من تحصينات "أرد" عند الحقبة رقم EBII فى "النقب"(من القرن العشرين إلى القرن الثامن والعشرين ق.م.) وتنتمى الأبراج شبه المستديرة إلى نوع طالما صوره المصريون فى رسوماتهم للمدن الآسيوية.



لوحة رقم (٥)

دغل من شجر الصنوبر فى الجبال الواقعة شرقى "بيبلوس". وقد أدى التحطيب الذى لا يكل ولا يمل خلال العصور القديمة والوسيطة الذى قام به أبناء شرق المتوسط طلبا للأخشاب اللازمة لبناء السفن بالمنطقة إلى أن أصبحت جرداء تماماً أو تكاد.

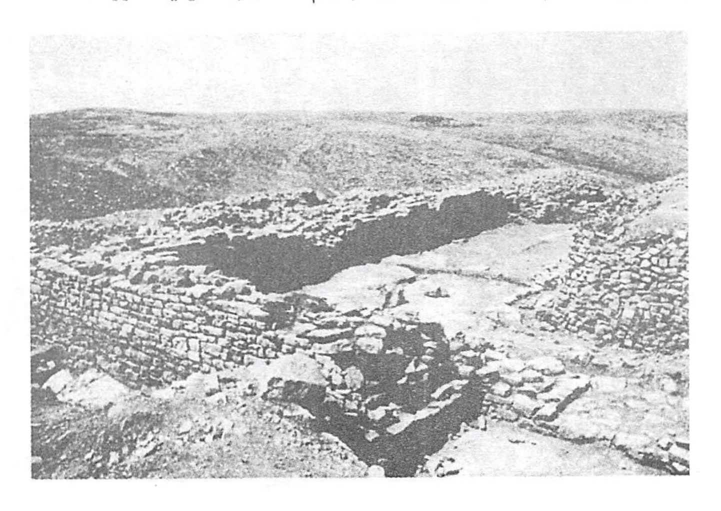


لوحة رقم (٦) جبال لبنان شمال شرقى بيروت.



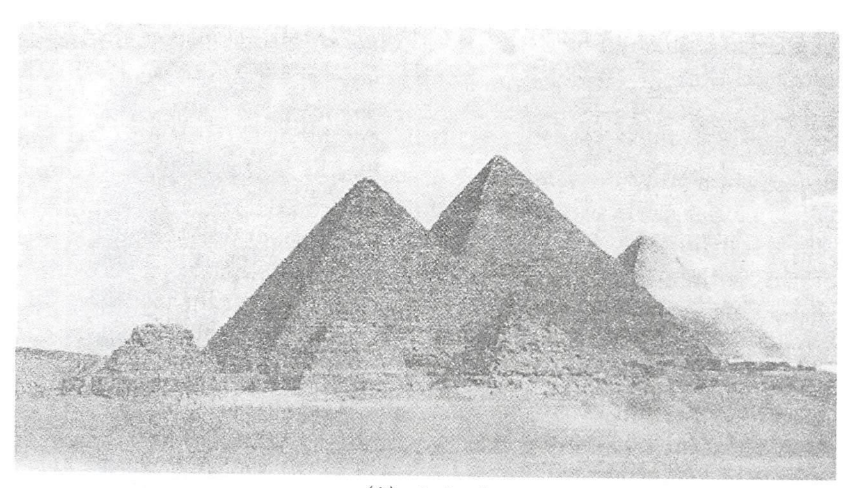
لوحة رقم (٧)

ما يسمى بـ "معبد المسلة" (العصر البرونزى الوسيط) فى "بيبلوس"، مع أن الوظيفة التعبدية (؟) لهذا الشكل لا تزال رهن الشك، إلا أنه يسهل تخمين الإلهام المصرى الذى يقف وراءه.



لوحة رقم (٨)

بناء يرجع إلى مطلع العصر البرونزى، يتكون من أحجار نصف منحوتة فى "التل" (="عاى" فى التوراة) شمالى "أورشليم" وتشير تكنيكات البناء ووجود المرمر إلى قيام اتصال مع مصر.



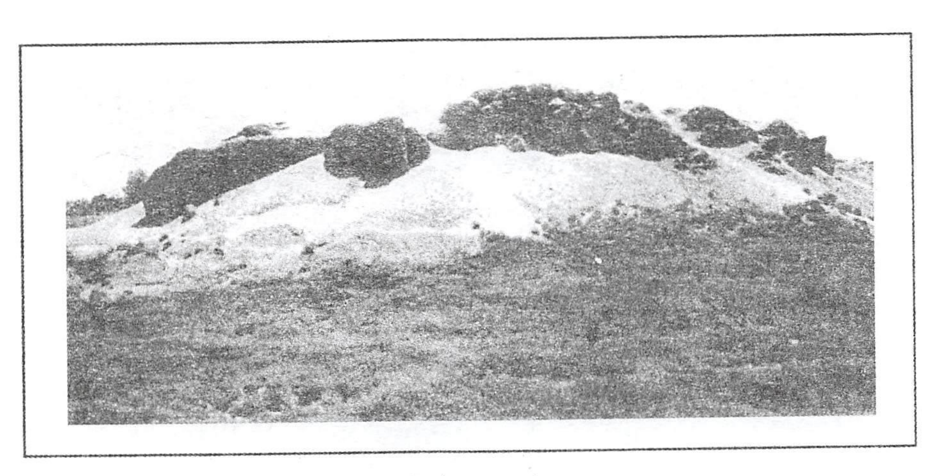
لوحة رقم (٩)

أهرامات الجيزة التى ترجع إلى الأسرة الرابعة كما تلوح إلى الناظر إليها من الجنوب. ومع أن كساء الصخور الخارجى منزوع الآن، إلا أنها ترمز ، دون زيادة أو نقصان، إلى أوج القوة التى حازتها المملكة القديمة خلال القرن السادس والعشرين.ق.م



لوحة رقم (١٠)

البوابة الجنوبية لمدينة "سيخيم" (= شكيم التوراتية) فى العصر البرونزى الوسيط.



لوحة رقم (١١)

سور مستحكم من الرمال المكومة والحجارة، "تل اليهودية" ولقد كانت مستوطنة هكسوسية تقع على بعد نحو ستة عشر كيلو مترا شمالي شمال ـ شرق "أون" (=هيليوبوليس)



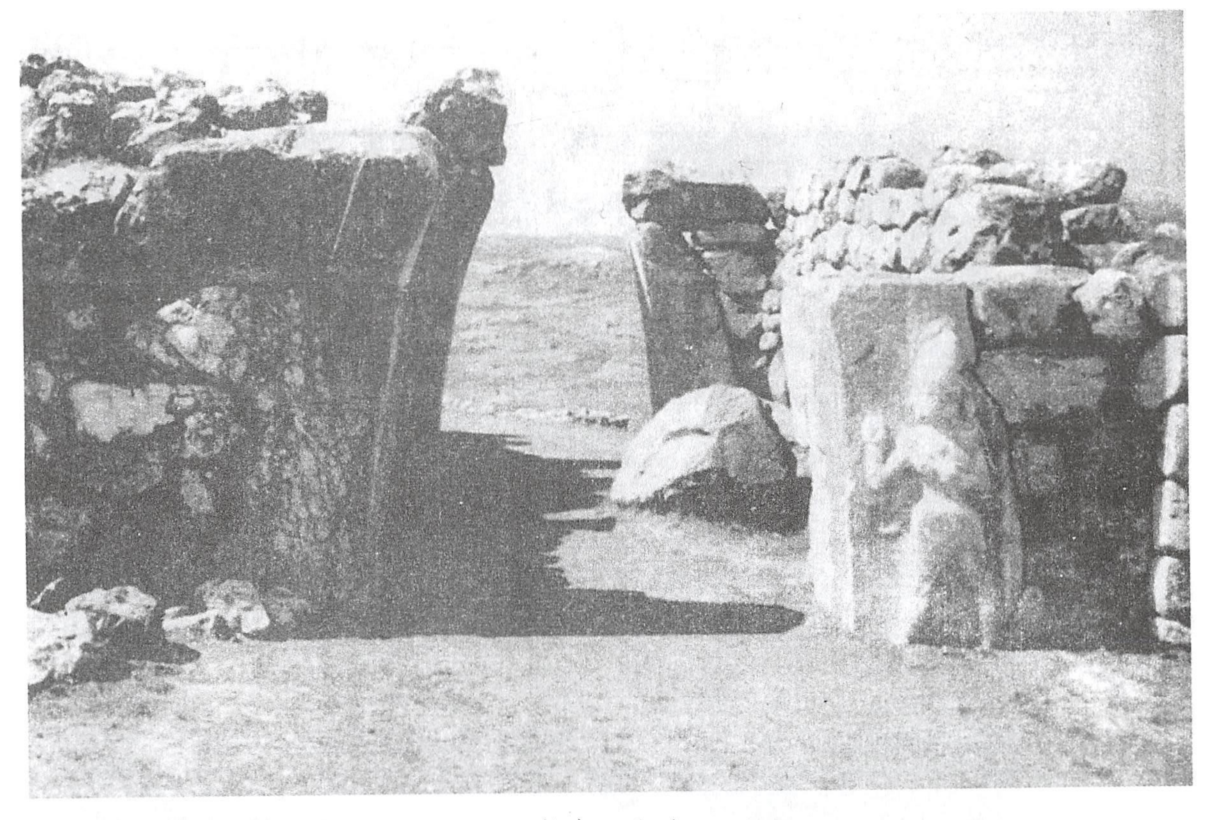
لوحة رقم (١٢)

رأس مومياء "سقن-ن-رع" وها هي تكشف عن الإصابات القاتلة التي أسفرت عن وفاته في خضم المعارك الطاحنة ضد الهكسوس .



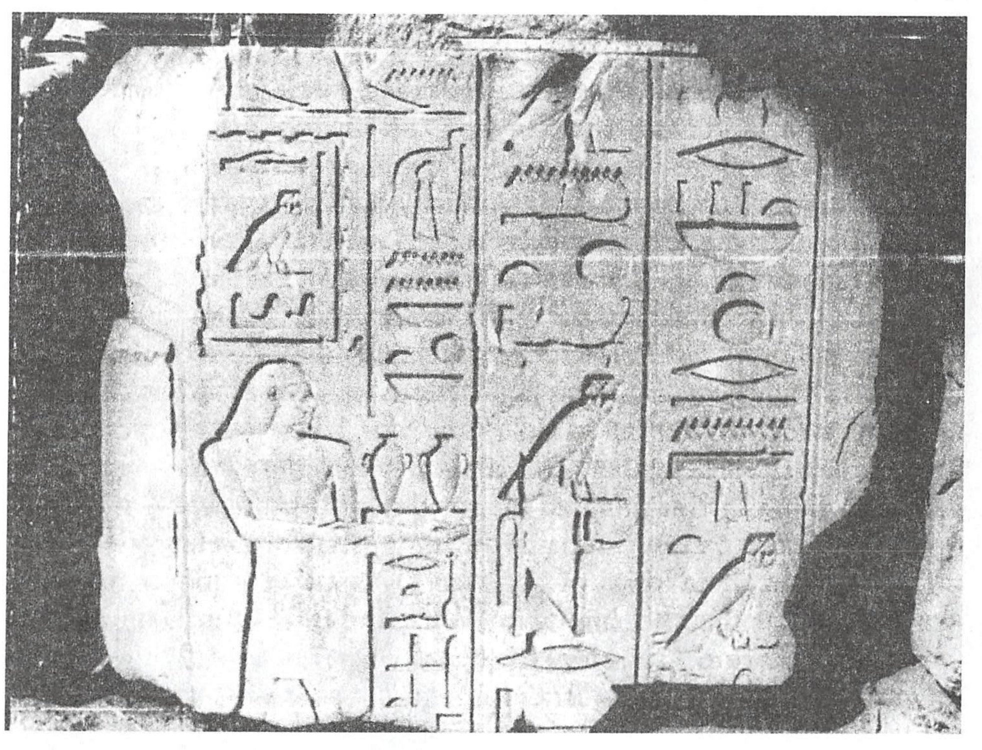
اللوحتان (١٣، ١٤)

الحيثيون وحلفاؤهم من أبناء شمال سوريا. ولنلاحظ الشخص ذا التروس الثمانى وحلق الشعر بحيث يترك قلة الرأس عارية. معبد "أبيدوس" الذى بناه الفرعون "رعمسيس" الثانى فى القرن الثالث عشر ق.م



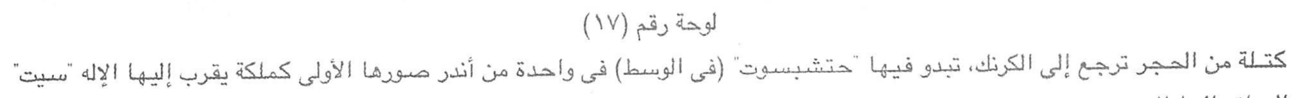
لوحة رقم (١٥)

بوابة "المحارب" فى "هاتوساس" عاصمة الحيثيين ("بوغاز كوى" حاليا) فى آسيا الصغرى .



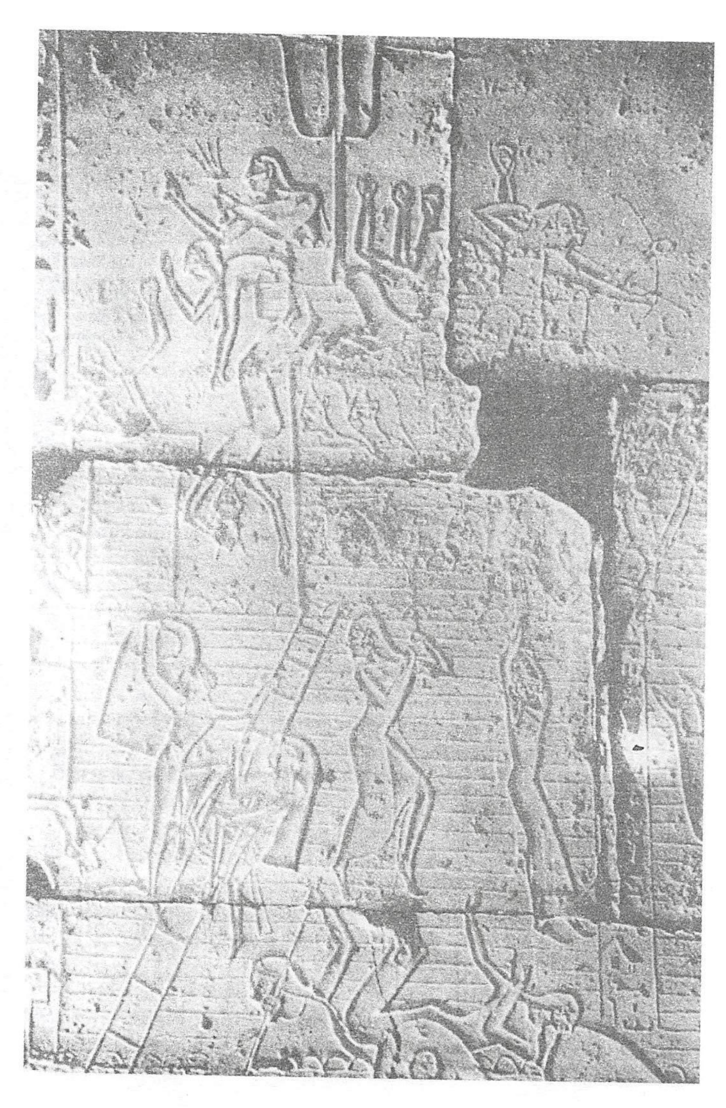
لوحة رقم (١٦)

عضادة باب من الحجر الجيرى ترجع إلى معبد الكرنك (مطلع الأسرة الثامنة عشرة) تصور مطارح مشخصة فى آسيا وقد جاءت وهى تحمل القرابين، وبذلك تسجل حملة مصرية فى آسيا. والشخصية المصورة هى شخصية "فيديم" أى "الشرق".



لوحة رقم (١٧)

كتلة من الحجر ترجع إلى الكرنك، تبدو فيها "حتشبسوت" (فى الوسط) فى واحدة من أندر صورها الأولى كملكة يقرب إليها الإله "سيت" الحياة والسلطان.



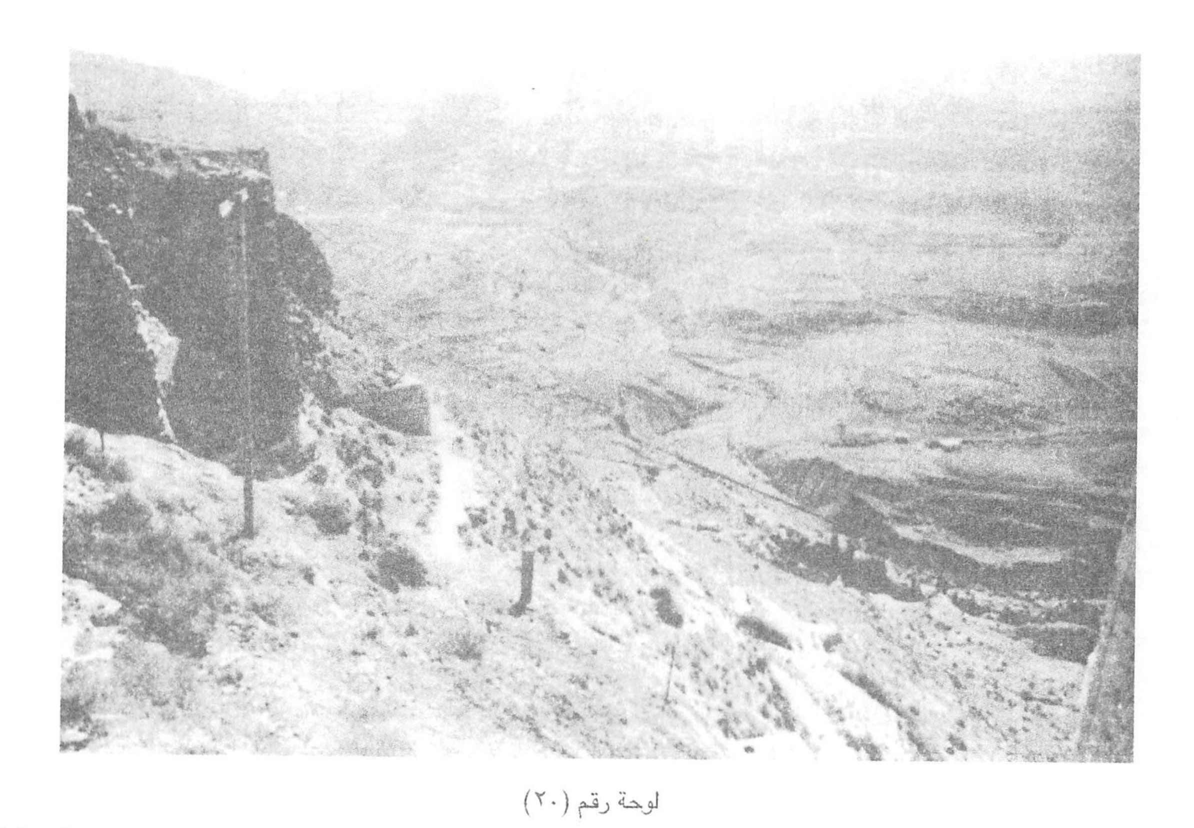
لوحة رقم (١٨)

هجوم يشنه المصريون تحت قيادة الفرعون "رعمسيس الثانى"على المدينة السورية "دابور". ويتراكب الحدث خلال الحصار: رجال يُدفعون إلى داخل المدينة فى فرارهم أمام الجيش المتقدم، قوات الصدمة (=الصاعقة) ينصبون السلالم، المدافعون يقاومون، وفى نهاية الأمر يستسلمون ويحرقون بخور الخضوع والابتهال.



لوحة رقم (١٩)

الهضبة المؤابية (نسبة إلى قبيلة "موآب") ترتفع من الساحل الشرقى للبحر الميت، وعلى امتدادها يجرى "الطريق الملكى السريع .



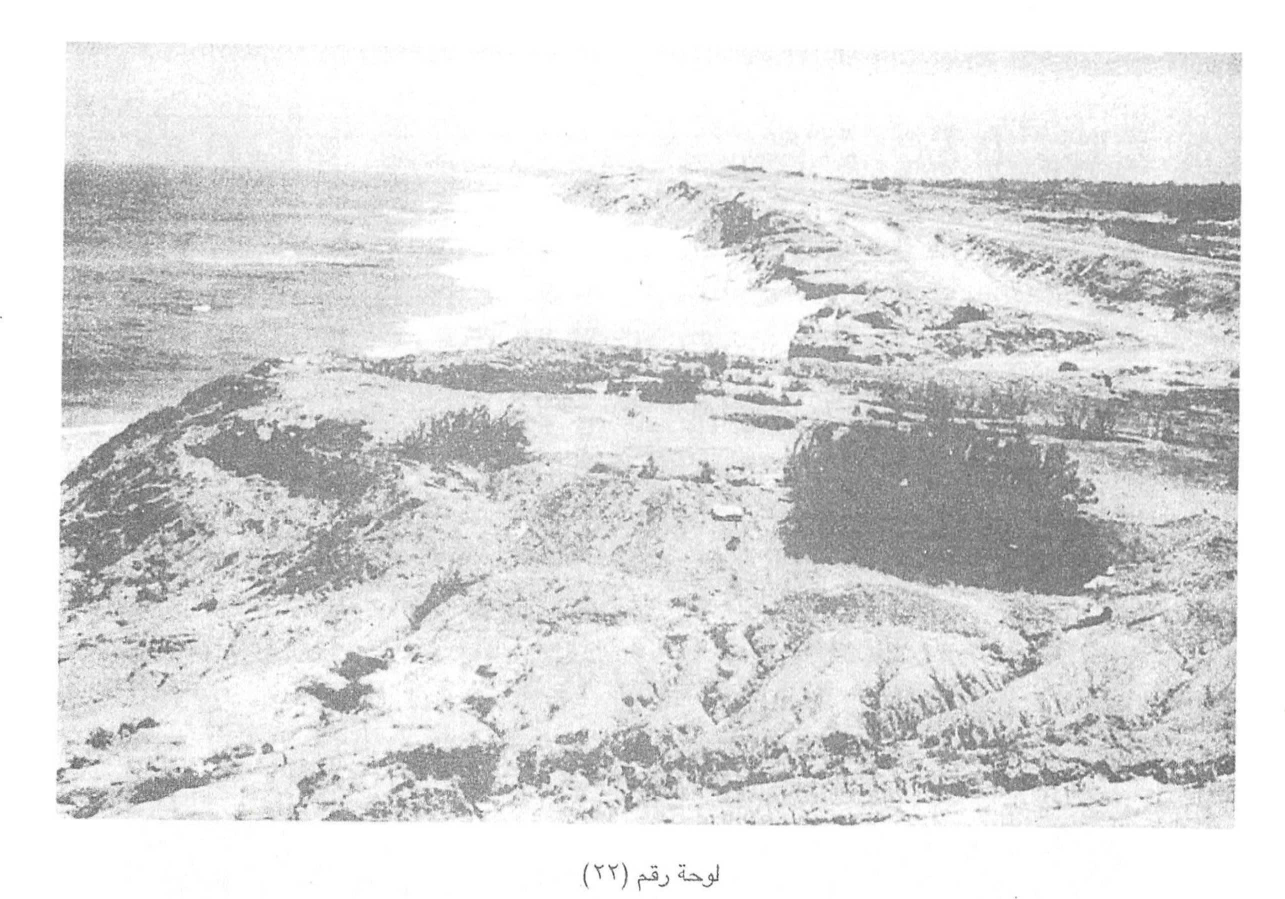
لوحة رقم (٢٠)

وادى الكراك يمضى باتجاه الشرق من "كراك" إلى البحر الميت. وخلال هذا الوادى يسير معبر مرور (= ترانزيت) يربط مرتفعات الضفة الغربية بـ"عربة" و "النقب" .



لوحة رقم (٢١)

رؤساء كنعانيون يبتهلون إلى جلالته فى عيد "آخناتون" فى معبد العيد الذى أقامه "أخناتون" فى "طيبة" (فى مطلع القرن الرابع عشر ق.م.)



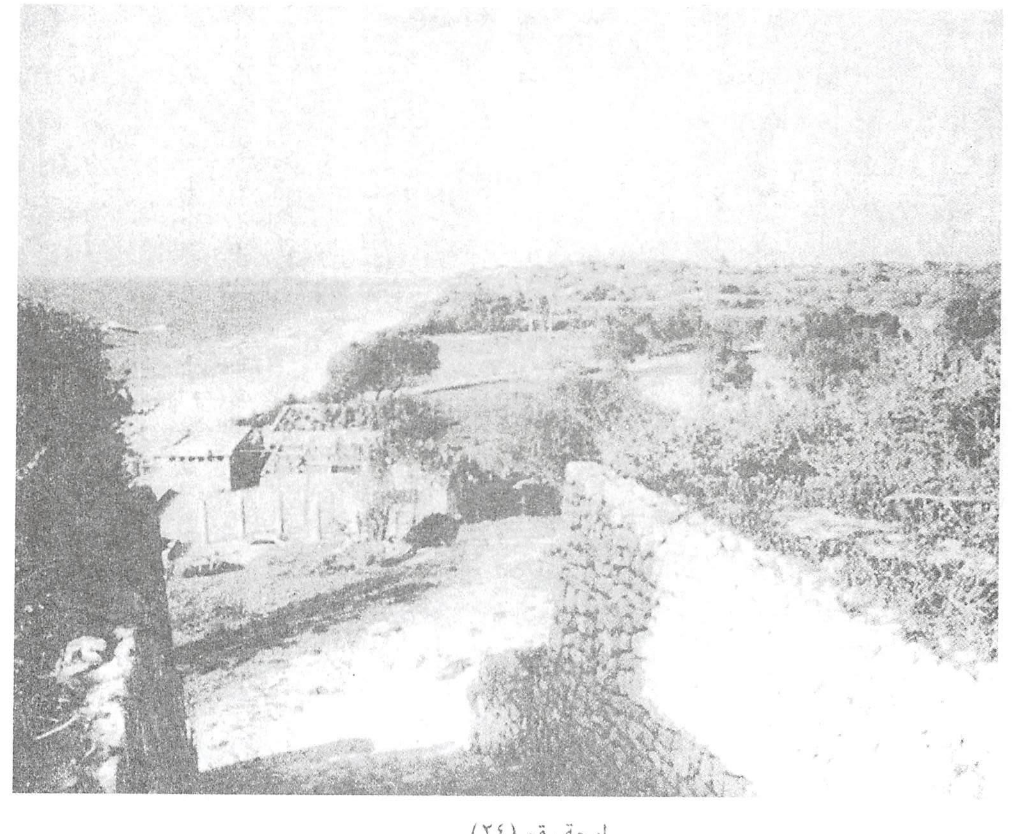
لوحة رقم (٢٢)

ساحل البحر المتوسط بين "غزة" و"رفح"، وهو الساحل الذى مر به الطريق العسكرى الذى دأب فراعنة المملكة الحديثة على استخدامه .



لوحة رقم (٢٣)

السهل الساحلى جنوبى "غزة"، حيث تظهر الكثبان الرملية التى تغطى الأرض القابلة للزراعة . موقع "عشقلون" القديمة



لوحة رقم (٢٤)

موقع "عشقلون" القديمة



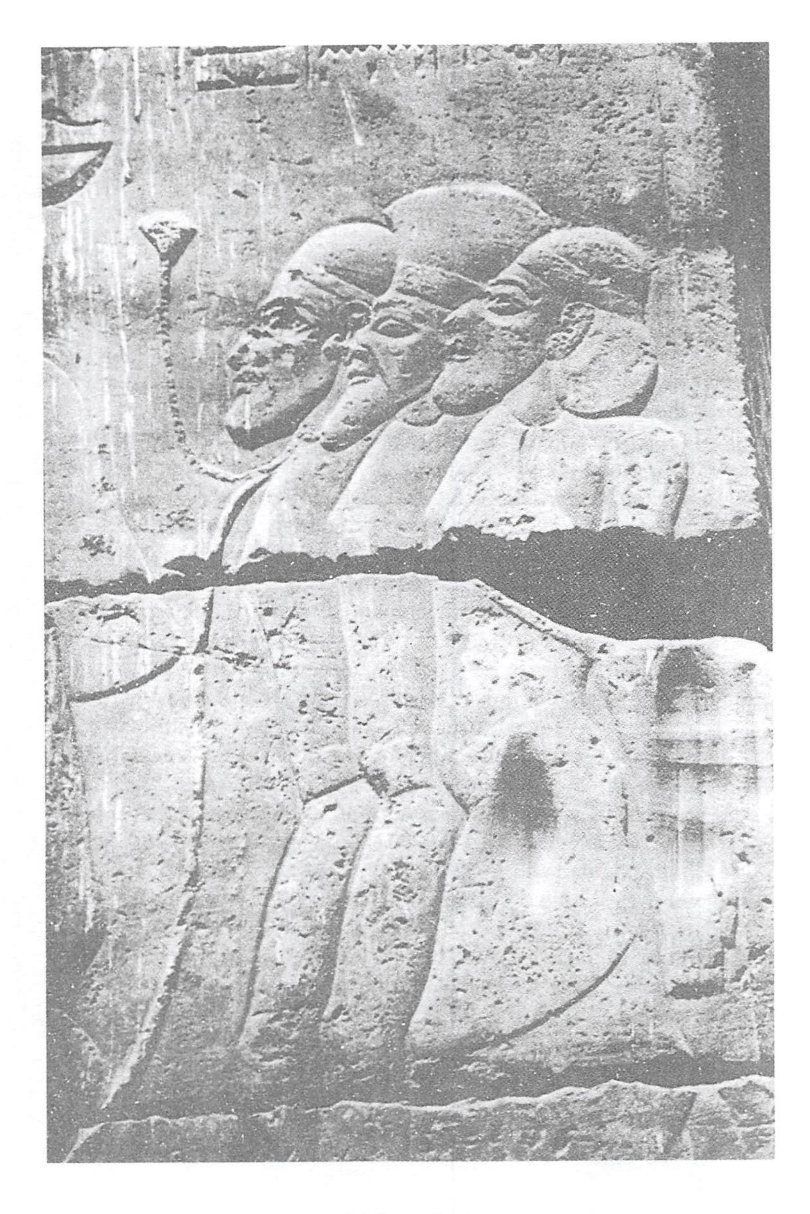
لوحة رقم (٢٥)

سهل "إزداريلون" يطل فى اتجاه شمالى شرقى من ربوة "مجدو"، حيث كان المزارعون يحصدون محصول القمح لبلاط الفرعون وكان المصريون قد اتخذوا معسكر الحصار الذى فرضوه عل حصن "مجدو" خلال الحملة الأولى لـ" تحوت - موسى" الثالث فى مقدمة الموقع.



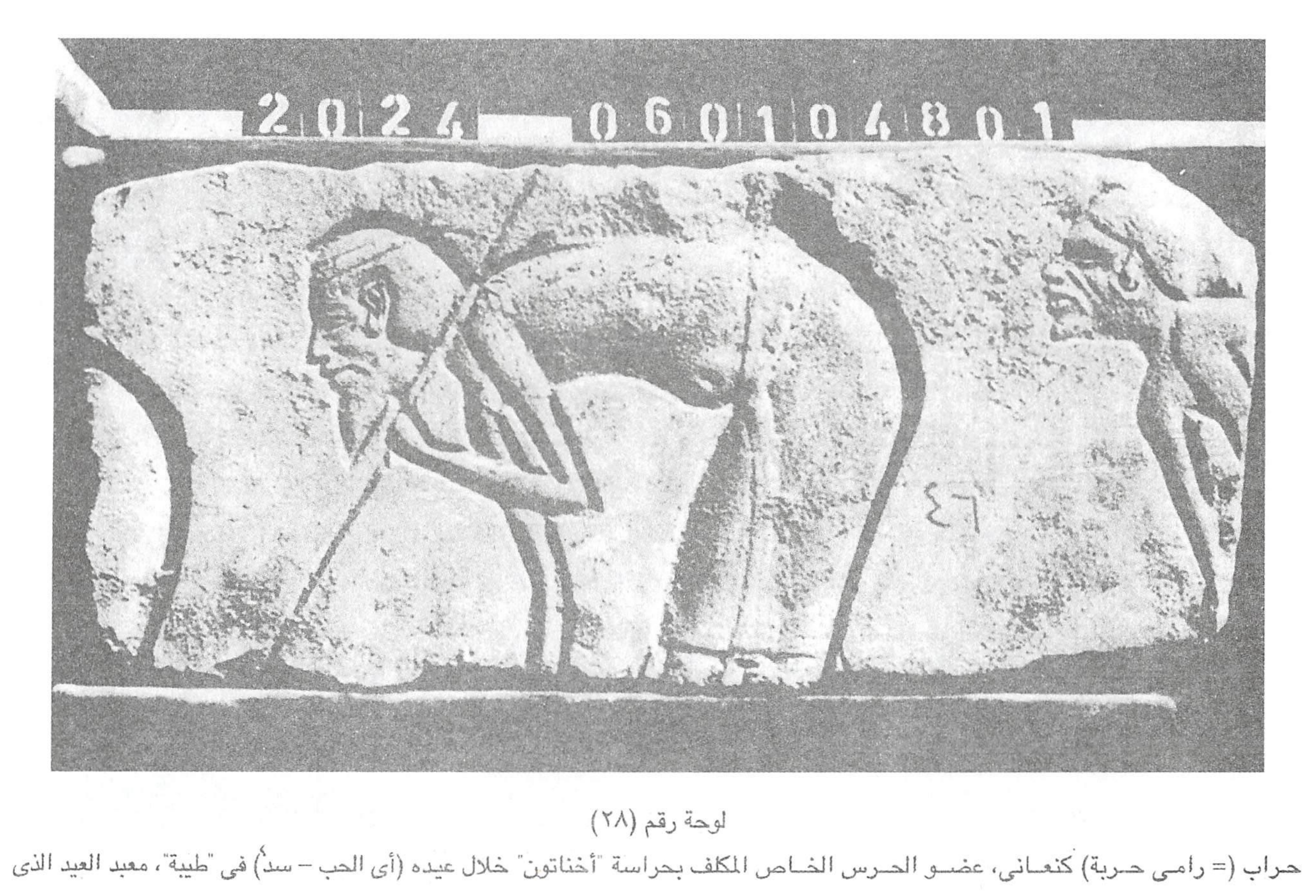
لوحة رقم (٢٦)

جانب من مشاة الجيش المصرى وراكبى العجلات الحربية فى معركة "كادش" (نحو ١٣٠٠ق.م.).
معبد "أبيدوس" الذى بناه الفرعون "رعمسيس الثانى" .



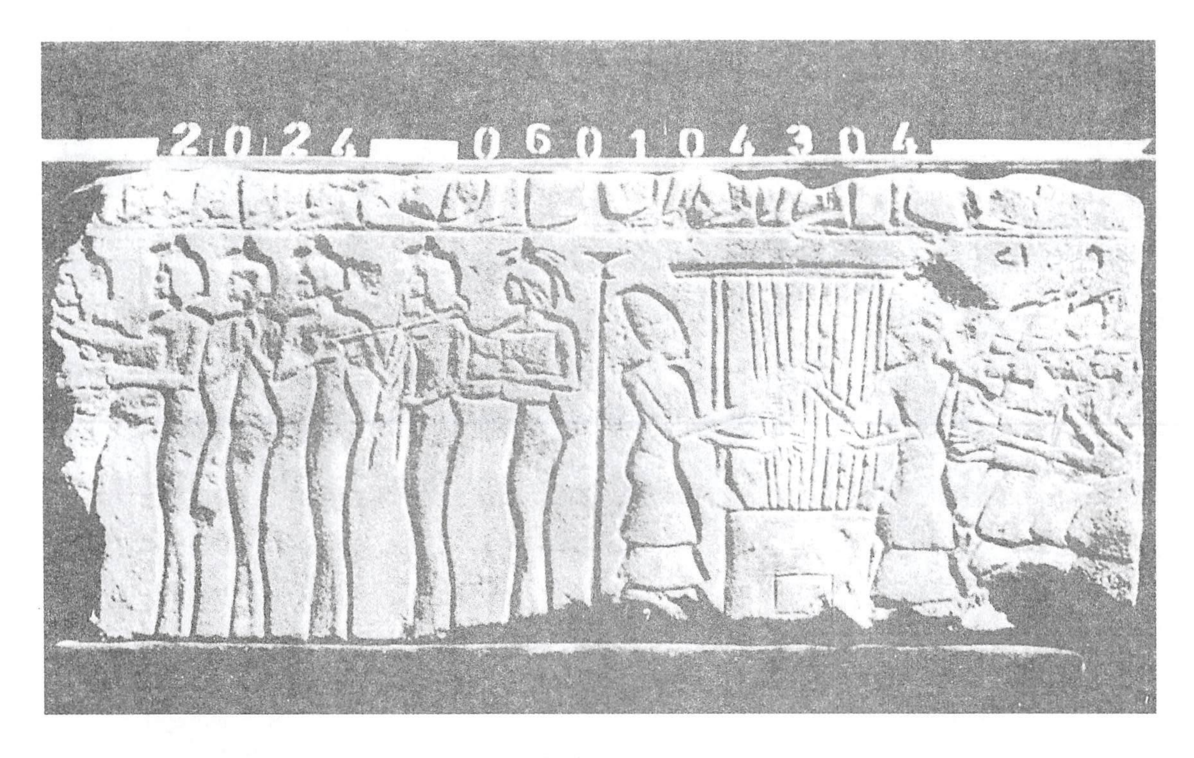
لوحة رقم (٢٧)

سجينان كنعانيان يقفان على جانبى أسير فلسطينى، المعبد الجنائزى الذى يرجع إلى الفرعون "رعمسيس" الثالث. مدينة "هابو".



لوحة رقم (٢٨)

حراب (= رامى حربة) كنعانى، عضو الحرس الخاص المكلف بحراسة "أخناتون" خلال عيده (أى الحب – سدْ) فى "طيبة"، معبد العيد الذى يرجع لـ"أخناتون" فى "طيبة" (مطلع القرن الرابع عشر ق.م.)



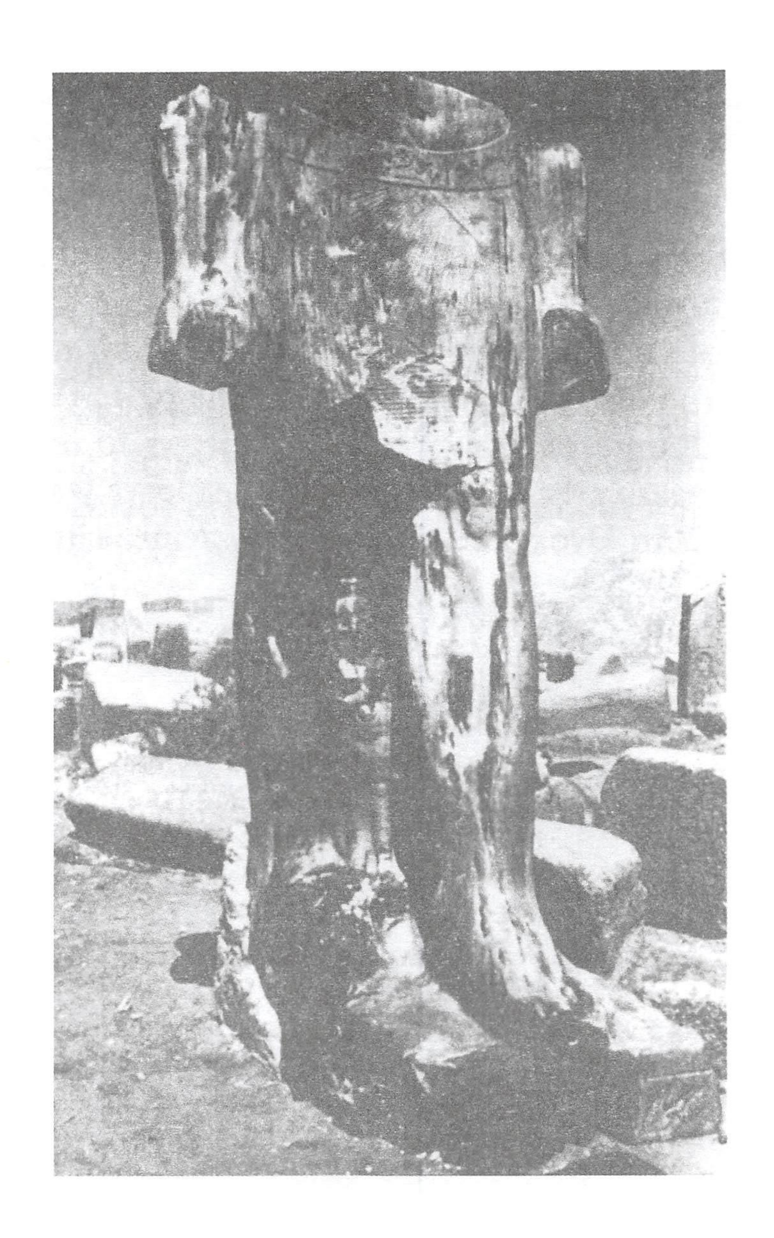
لوحة رقم (٢٩)

موسيقيون فى بلاط "أخناتون". ونجد فتيات مصريات يؤدين أغانى إلى اليسار، بينما يعزف موسيقيون أسيويون (من "ميتانى" أم من "خاتى"؟) على "هارب" ضخم يقف منتصبا وقيثارة إلى اليمين. وقد تشير ذقونهم الحليقة الناعمة وملابس النساء التى يرتدونها إما إلى أنهم خصيان أو مخنثو الملبس.



لوحة رقم (٣٠)

صرح ومجموعة تماثيل فى "تانيس"، وكلها ترجع إلى عصور الرعامسة ومأخوذة من العاصمة "بى- رعمسيس" بعد هجرانها .



لوحة رقم (٣١)

جذع وقدما تمثال ضخم للفرعون "رعمسيس" الثانى يرجع فى الأصل إلى "بى- رعمسيس"، وهى موجودة حاليا فى "تانيس"



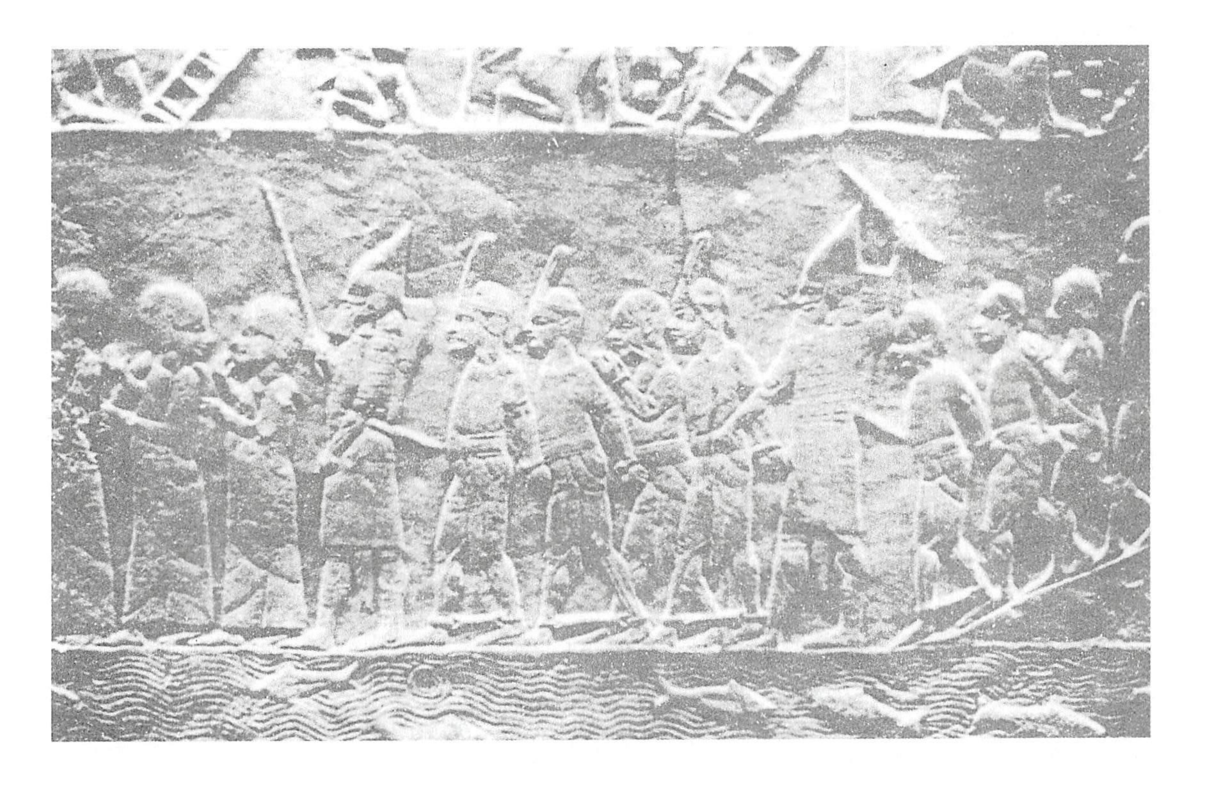
لوحة رقم (٣٢)

رأس من حجر "الشست" الصلب لأحد فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين ، قد يكون "ساباكو" .



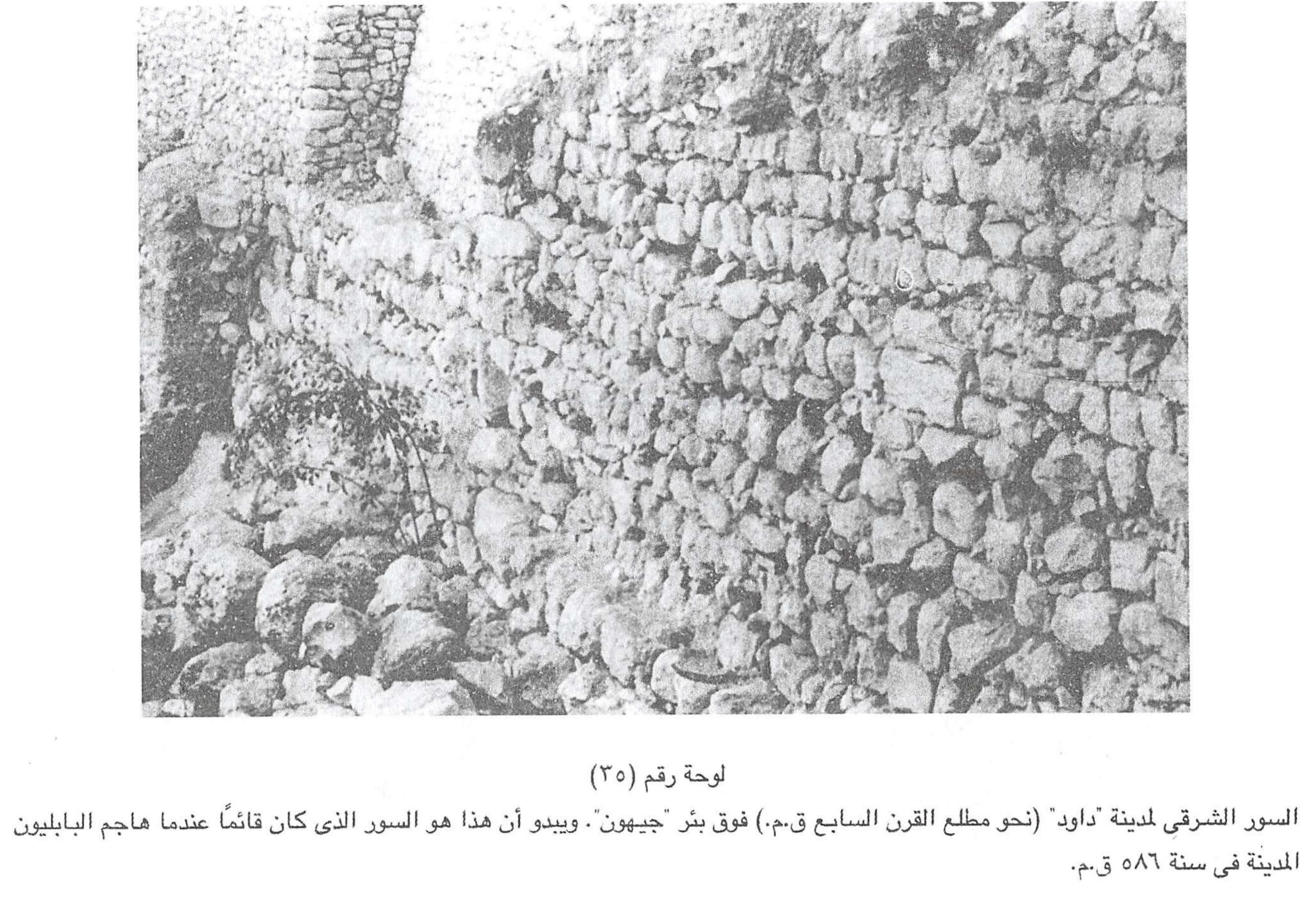
لوحة رقم (٣٣)

هجوم آشورى على مدينة محصنة، قد تكون مصرية. وبينما نجد بعض الجنود يصعدون على سلالم الحصار كي يشتبكوا مع المدافعين عن المدينة، نرى الجنود الحفارون يعملون فى السفح على تقويض الأساسات. ونلاحظ الأسوار المحطمة والفتحة التى تشبه الصرح إلى اليمين.



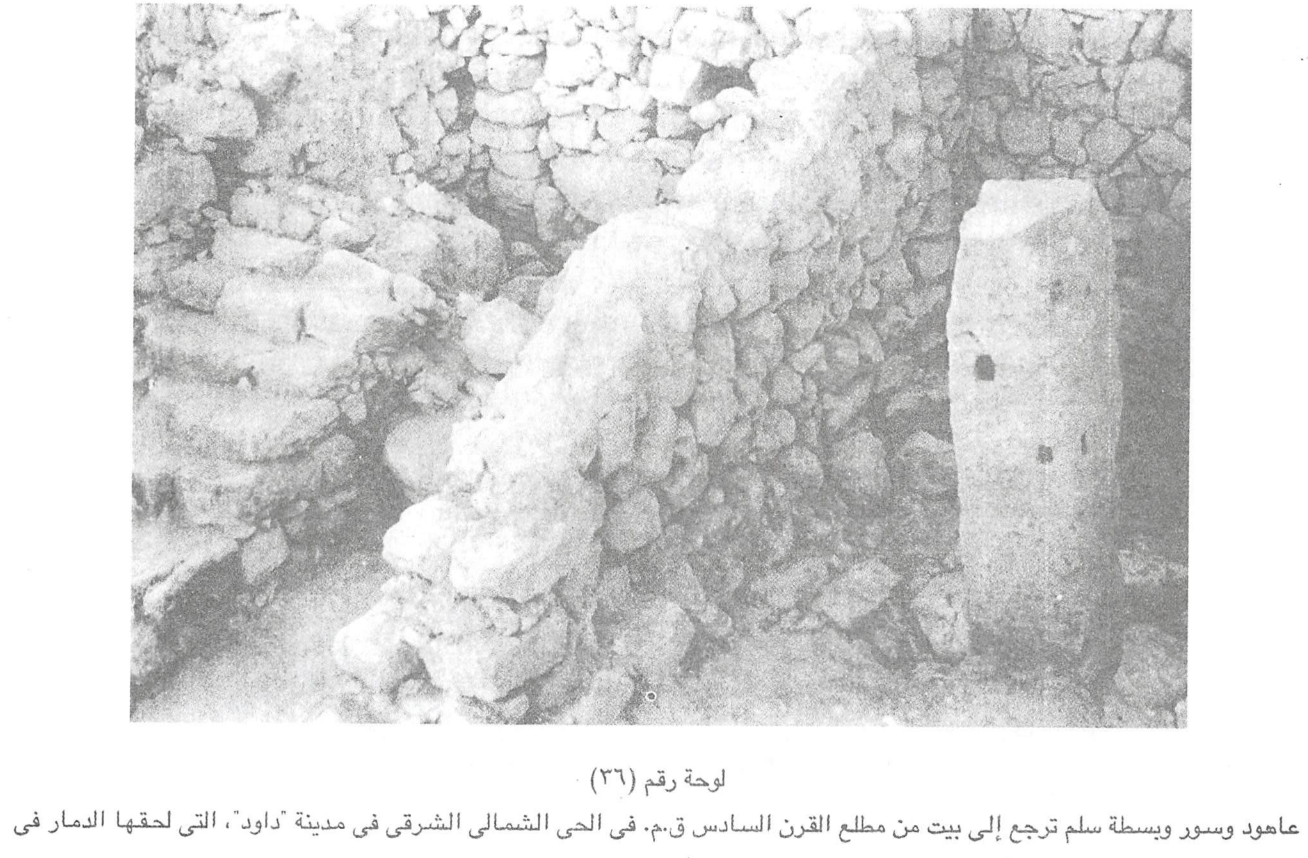
لوحة رقم (٣٤)

جنود آشوريون يقودون أسرى خارجين من المدينة الواقعة تحت الحصار . وتشير الهيئة "السودانية" للأسرى إلى اليمين والنقب (جمع نقبة) علاوة على الريش الذى يعلو عصابة رأس الأسرى ذوى الرتب العالية فى الوسط إلى بيئة الأسرة الخامسة والعشرين .



لوحة رقم (٣٥)

السور الشرقي لمدينة "داود" (نحو مطلع القرن السابع ق.م.) فوق بئر "جيهون". ويبدو أن هذا هو السور الذى كان قائماً عندما هاجم البابليون المدينة فى سنة ٥٨٦ ق.م.



لوحة رقم (٣٦)

عاهود وسور وبسطة سلم ترجع إلى بيت من مطلع القرن السادس ق.م. فى الحى الشمالى الشرقى فى مدينة "داود"، التى لحقها الدمار فى الهجوم البابلى سنة ٥٨٦ ق.م.

المؤلف فى سطور

دونالد ريدفورد

– حصل على الليسانس والماجستير والدكتوراه من قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة "تورنتو" فى كندا.

– المسيرة الأكاديمية:

عمل محاضراً بجامعة "براون" بالولايات المتحدة من سنة ١٩٥٩ إلى ١٩٦١ ، ثم أستاذ مساعداً (٦٢–١٩٦٥) ، ومشاركًا (٦٥–١٩٦٩) ، وأستاذًا (٦٩–١٩٨٦)

كما عمل أستاذًا زائراً بجامعة "بن جوريون" بالنقب ١٩٨٦

وأستاذًا زائراً بجامعة بنسيلفانيا ١٩٩٥–١٩٩٦

وأستاذًا بجامعة بنسيلفانيا الأميرية ١٩٩٨ حتى الآن(*).

– المسيرة الأثرية:

• مشرف موقع ، حفائر المعهد البريطانى للأركيولوجيا ، أورشليم ١٩٦٤ و١٩٦٥ و ١٩٦٧ .

• إبيجرافر، حفائر جمعية استكشاف مصر فى "بوتو" بمصر السفلى.

• مدير حفائر جامعة "تورونتو" و "صنى" برمنجهام فى معبد أوزيريس. الكرنك ١٩٦٨ .

(*) وقت ترجمة هذا الكتاب .

مدير مشروع معبد أخناتون التابع لجامعة "بنسيلفانيا" ١٩٧٢-١٩٧٦

مدير حفائر شرق الكرنك ١٩٧٥-١٩٩١

مدير مسح أسماء الأماكن بالأردن ١٩٨١

مدير حفائر فى "منديس" بمصر السفلى ١٩٩١- حتى الآن(*).

إبيجرافر مسح مقبرة "طيبة" ١٩٩٢ حتى الآن(*).

أهم الأعمال المنشورة:

- History&Chronology of the Egyptian 18th Dynasty,Seven Studies, Toronto.1967.
- A Study of the Biblical Joseph Story, Leiden,1970.
- The Akhnaten Temple Project I,Initial Discoveries, Warminster,1977.
- Pharaohic King-lists,Annals and Day-books, Mississuaga,986.
- Akhnaten, the Heretic King, Princeton,1984.
- The Akhnaten Temple Project II, Rwd-mnw&the Inscriptions, Toronto,1988.
- Egypt,Canaan &Israel in Ancient Times, Princeton 1993.
- Plus over 200 articles and book reviews in over 25 years.

(*) وقت ترجمة هذا الكتاب .

المترجم فى سطور

بيومى قنديل

* ليسانس آداب قسم اللغة الإنجليزية وآدابها. جامعة القاهرة. سنة ١٩٦٤ .
* دراسات حرة للماجستير بمعهد الدراسات القبطية لثلاث سنوات ٨٨/٨٩/١٩٩٠
* عضو نقابة الصحفيين .
* عضو اتحاد الكتاب .
* عضو جمعية الآثار القبطية .
* عضو جمعية القاهرة للغويين .

أهم الأعمال المترجمة :

(١) "محاكمة ريجان " (مجموعة من كبار الحقوقيين الدوليين)

(٢) "المايم والبانتومايم" (الألف كتاب الثانى . هيئة الكتاب)

(٣) "أخناتون ذلك الفرعون المارق". دونالد ريدفورد (دار نشر خاصة)

(٤) قصة خروج بنى إسرائيل من مصر فى الميزان. أوراق ستة علماء فى المصريات والآثار إلى مؤتمر عقدته جامعة "براون" بـ "رود أيلاند" بالولايات المتحدة حول "تاريخية" سفر الخروج فى سنة ١٩٩٢ ونشرت فى ١٩٩٧

أهم الأعمال المؤلفة :

(١) ضم القمح ليلا (مجموعة قصص قصيرة. هيئة الكتاب)

(٢) أمونة تخاوى الجان (مجموعة قصص قصيرة. دار نشر خاصة)

(٣) عصفور الجنة (مسرحية للأطفال. المسرح القومى للأطفال)

(٤) العيد الكبير (مسرحية حول أسطورة إيزيس وأوزيريس)

(٥) كل شيء ن كان (ديوان شعر. نشر خاص)

(٦) حاضر الثقافة فى مصر (دراسة. دار نشر خاصة)

(٧) الترجمة فن (دراسة. نشر خاص)

(٨) عصافير الصدف (رواية)

بالإضافة إلى عشرات الأعمال الأخرى .

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد
الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة